موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القران الكريم

من سورة الروم
حتى
سورة الأحزاب

info@nabulsi.com www.nabulsi.com

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (01-14): تفسير الآيات 1 – 9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-01-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الأول من دروس سورة الروم.

إعجاز الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(الم (1))

(سورة الروم)

هذه الحروف الثلاثة ذهب المفسرون في تفسيرها مذاهب شتَّى، وقد ذكرت لكم في بعض الدروس القديمة بعض هذه المذاهب، وأودُّ أن أبرز في هذا الدرس أحد هذه المذاهب في تفسير هذه الحروف التي هي فواتح السور.

بعضهم قال: إن القرآن الكريم، هذا الكتاب المُعْجِز الذي يعجز البشر على أن يأتوا بمثله، ولا بسورةٍ من مثله، ولا بأقلّ من ذلك، إنما هو من حروفٍ بين أيديكم.

(الم (1))

العلماء حلّلوا جسم الإنسان، فيه كميّة من الماء بالمئة سبعين، فيه دهن، فيه مواد بروتينية، فيه حديد، فيه كالسيوم، قرأت مرّة قائمة بما ينطوي عليه جسم الإنسان، هل يستطيع البشر جميعاً إذا أخذوا هذه المواد أن يصنعوا إنساناً ؟ هناك سر، سر الحياة لا يعلمه إلا الله.

هذا الحليب الذي نشربه وهو من الغذاء الأساسي، العلماء حللوا هذا الحليب وعرفوا مكوّناته، هل في الأرض كلِها جهةٌ تستطيعُ من هذه المكونات الماديّة أن تصنع هذا الشراب السائغ ؟ مستحيل.

هذه البيضة عرف العلماء مكوّناتها، لو جئنا بهذه المكوّنات هل نصنع بيضة ؟ الإنسان، الحيوان، النبات، هذه الفواكه والثمار، يقول لك: سكر بالمئة ثلاثة عشر، مواد كذا، معادن وفيتامينات كذا، آت بالسكر والمعادن والفيتامينات واصنع تفاحة، لا تستطيع، هذا من إعجاز الله عزّ وجل.

بعض اتجاهات المفسِّرين في فهم فواتح السور:

ربنا عزّ وجل يقول لك: هذا القرآن كلام الله، كلامٌ معجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيه تشريع، فيه أخبار، فيه وعد، فيه وعيد، فيه قواعد، فيه ثوابت، فيه قوانين، فيه غيب ؛ غيب المستقبل، غيب الماضي، وهو من حروف بين أيديكم، هل بإمكان الإنس والجن ولو اجتمعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن ؟

فهذا بعض اتجاهات المفسِّرين في فهم فواتح السور، بعضهم يقول: هي أوائل لأسماء الله الحسنى، بعضهم يقول: هي أوائل لأسماء النبي عليه الصلاة والسلام، بعضهم يقول: الله أعلم بمراده، بعضهم يقول: إن القرآن الكريم وما ينطوي عليه من إعجازٍ عظيم هو من هذه الحروف، وهي بين أيديكم وفي متناولكم، فإن ادعيتم أن هذا القرآن من عند محمّد فاصنعوا مثله، فألِفوا كتاباً مثله:

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2))

كلكم يعلم أنه في عهد النبي عليه الصلاة والسلام كان الفُرْسُ وكان الروم، الروم أهل كتاب، والفرس وثنيّون يعبدون النار، ويروي بعض المؤرّخين أنه في عام ستمئة وثلاث عشرةَ وقعت موقعةٌ عظيمةٌ بين الفرس والروم، وانتهت هذه الموقعة بغلبة الفُرس على الروم، وقد استولى الفرس على دمشق وعلى بيت المقدس، كان هذا قبل الهجرة في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، هكذا تروي كتب التفسير.

خلفيّة هذه الآية أو مناسبتها، أنه جرى نقاشٌ بين كفّار مكّة وبين المؤمنين حول الإيمان، وحول الكفر، وحول وجود الله عزّ وجل، وما إلى ذلك، فحينما غلب هؤلاء الفرس الروم، والفرس وثنيُّون ككفّار مكة، والروم يؤمنون بكتابٍ سماوي، فكان هذا حُجّةً لهم على أنّهم لو كانوا على حق لانتصروا.

هنا يجب أن نقف قليلاً، الحق حق والباطل باطل، وليس هناك علاقة بين أن يكون الحق قوياً أو الباطل قوياً، أحياناً ربنا عزّ وجل يقوّي الحق وأحياناً يقوي الباطل، وإن كانت القوة ضروريّة للحق.

تقييم العقيدة الصحيحة لا يكون من خلال قوة الكفار أو ضعفهم:

إذا أردت أن تُقَيّمَ العقيدة الصحيحة من خلال قوة الكفّار أو ضعفهم هذا دليل غير صحيح، لأن سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام حينما التقى بعدي بن حاتم، وكان ملكاً في الجزيرة العربيّة، قال له: يا عدي لعلّه إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ـ المسلمون فقراء، فقراء لا يملكون شيئاً ـ وأيم الله ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتّى لا يوجد من يأخذه، ولعلّه يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوّهم، ولعلّه إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من أن المُلْكَ والسلطان في غيرهم ".

إذاً الحق حق والباطل باطل، فربنا عزّ وجل له حكمةٌ بالغة، فقد يأتي وقتٌ يكون الحق فيه قوياً، وقد يأتي وقتٌ آخر ـ ولله حكمة بالغة ـ يكون فيه الباطل قوياً، فأنت لست مع القوة والضعف، ولا مع الكثرة والقلّة، ولا مع زيدٍ أو عبيد، أنت مع الحق، فإن كان الوقت وقت قوةٍ للحق فأنعم بهذا وأكرم، وإن كان الوقت وقت ضعفٍ للحق كن مع الحق ولا تأخذك في الله لومة لائم، إذاً لا ينبغي أن ترى أن الحق مع القوي ولا أن الباطل مع الضعيف، ولا أن الحق مع الضعيف والباطل مع القوي، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَتِلْكَ الأَيّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النّاس)

(سورة آل عمران: من آية " 140 ")

إذا قوّى المؤمنين فهو يمتحنهم، وإذا قوىّ الكافرين فهو يمتحنهم، والبطولة أن تنجح في الامتحان، فهؤلاء الكفار الذين كانوا يتحاورون مع بعض المؤمنين، وفي أثناء الحوار جاءوا بدليل: لو أن المؤمنين على حق لانتصروا، والدليل أن الروم غُلِبوا، فقال الله عزّ وجل:

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ (3))

معنى في أدنى الأرض، هذه الألف واللام (أل) العهد، أي أرض العرب، إذا إنسان قال البيت: يعني بيته، وإذا قال: الدكان، يعني بهذا دكّانه، في أدنى الأرض وصلت رحى المعركة بين الفرس والروم إلى مشارف الشام، بل إن بعض كُتّاب التاريخ يقولون: إن الفرس ـ كما قلت قبل قليل ـ فتحوا دمشق وبيت المقدس قُبَيْلَ الهجرة، في عام ستمئة وثلاثة عشر.

إعجاز القرآن هو في الوقت نفسه دلائل نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام:

قال تعالى:

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3))

هنا، فهل في الأرض كلِها جهةٌ تستطيع أن تحكم على المستقبل ؟ لا يستبعد أن يكون هذا الكلام ـ وهو كذلك ـ من دلائل نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام، ولا يستبعد أن يكون هذا الكلام من دلائل إعجاز القرآن، إنّ إعجاز القرآن هو في الوقت نفسه دلائل نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام، إذا كان هذا الكتاب معجزاً إذاً الذي نزل عليه هو رسول الله.

إذاً كلكم يعلم أن الغيب أنواعٌ ثلاثة ؛ غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل:

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ)

(سورة آل عمران)

أي أنت يا محمّد من أين جئت بهذه الأخبار الصحيحة ؟ أنت لا تعرفها، ولم تقرأ عنها، لم تقرأ عنها كان النبي عليه الصلاة والسلام أُمِّيّاً:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ(48))

(سورة العنكبوت)

أنت لا تقرأ ولا تكتب، فهذه المعلومات التي تتكلّم عنها المُغْرِقة في البعد التاريخي إنك لا تعرفها قراءةً ولا كتابة، بقي أن تكون معهم ـ أي أنك شاهدتها ـ طبعاً هي قديمة جداً، فربنا عزّ وجل جعل من إعجاز القرآن ومن دلائل نبوّة النبي العدنان، هذه الأخبار المتعلِّقة بغيب الماضي، وتلك الأخبار المتعلِّقة بغيب المستقبل.

الله عزّ وجل نفى عن سيدنا محمد علم الغيب:

إذاً حينما قال الله عزّ وجل:

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3))

أي جهةٍ في الأرض لا تعلم الغيب، والنبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب، وإذا تكلّم عن علامات قيام الساعة ليس من قبيل أنه عَلِمها بذاته ؛ أعلمه الله إيّاها، لأن الله عزّ وجل نفى عنه علم الغيب، قال تعالى:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ)

(سورة الأعراف: من آية " 188 ")

لكن الله عزّ وجل أعْلَمَهُ:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(26)إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

إذاً غيب الماضي لا يعرفه النبي، ومع ذلك جاء بقصص ووقائع تؤكِّد أنه نبي، وأن هذا القرآن كلام الله.

أنواع الغيب:

مثلاً، بمصر حكم الفراعنة حِقَبَاً طويلة، إلا في مرحلةٍ قصيرةٍ جداً حكم فيها المُلوك لا الفراعنة، ومن الغريب أن القرآن الكريم في معرض الحديث عن سيدنا يوسف لم يذكر اسم فرعون ؛ بل ذكر اسم الملك، فقال تعالى:

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي)

(سورة يوسف: من آية "54 ")

هذا كلام الله، هل يستطيع النبي عليه الصلاة والسلام أن يَطّلِع على تاريخ الفراعنة الذي يمتد في الماضي سبعة قرون ؟ وأن يعرف أن الفراعنة حكموا حقباً طويلةً ما عدا فترةٍ قصيرةٍ من الزمن حكم فيها ملوك الهكسوس، ففي القرآن ذكرٌ للفراعنة:

(إِنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ(8))

(سورة القصص)

في آية أخرى:

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي)

(سورة يوسف: من آية "54 ")

غيبُ الماضي يدل على أن هذا القرآن كلام الله، وغيب الحاضر أيضاً، أي الشيء الذي غاب عنك في الوقت ذاته، في الوقت نفسه، ماذا يجري الآن في أطراف الدنيا؟ لا نعلم إلا إذا أُخْبِرْنا، وأما غيب المستقبل فهذه الآية الكريمة من غيب المستقبل:

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ)

جاء بعضهم ـ بعض كفّار مكّة ـ إلى سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، وقالوا: إن صاحبك يزعُمُ أن الروم سيغلبون في بضع سنين، قال: صدق ـ اسمه الصديق ـ هذا التصديق، هذا الشعور أن ما قاله النبي حق، وأن ما جاء في القرآن حق، هذا هو الفرق بيننا وبينه رضي الله عنه.

كلّما ازداد الإيمان بعظمة الله عزّ وجل ازدادت مصداقيّة كلامه عندنا:

تقرأ الآية:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 221 ")

يأتيك خاطب لابنتك ؛ ماله وفير، بيته كبير، شكله وسيم، دينه قليل، تؤثره على الشاب المؤمن، المصداقيّة ضعيفة:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: من آية " 276 ")

تتساهل في ذلك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من آية " 30 ")

تتساهل في ذلك، إذاً إحساسك، وشعورك، ويقينك أن هذا القرآن كلام الله، وأن وراءه ما وراءه، وراءه خيرٌ كبير لمن طبّقه، ووراءه شرٌ مستطير لمن خالفه، هذا الشعور بمصداقيّة كلام الله عزّ وجل ينمو

مع نمو الإيمان، كلّما زاد إيمانك بالله عزّ وجل ازداد إيمانك بكلامه، كلّما ازداد إيمانك بعظمة الله عزّ وجل ازدادت مصداقيّة كلامه عندك.

السفهاء هم الذين ينتقدون انتقال القبلة من بيت الله الحرام إلى بيت المقدس:

إذاً لو أن الروم لم يغلبوا الفُرس في بضع سنين، أين هو هذا القرآن ؟ في آيات أخرى يقول الله عزّ وجل:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)

(سورة البقرة: من آية " 142 ")

ربنا عزّ وجل قال: سَيَقُولُ ـ فالسين للمستقبل ـ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاس. هؤلاء الذين سوف يقولون: مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟ وصفهم الله عزّ وجل بأنهم سفهاء، فلو حَكّم هؤلاء السفهاء عقولهم وسكتوا ماذا يحدث ؟ يكون هذا الكتاب باطلاً، هذا من إعجاز القرآن، فالله عزّ وجل قال:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ)

(سورة البقرة: من آية " 142 ")

هؤلاء الذين ينتقدون انتقال القبلة من بيت الله الحرام إلى بيت المقدس سمّاهم الله سفهاء، ولا بدّ من أن يقولوا ذلك، ولو لم يقولوا ذلك لكان هذا القرآن باطلاً، ومع ذلك، ومع أنهم وصفوا بأنهم سفهاء قالوا:

(مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)

(سورة البقرة: من آية " 142 ")

سيدنا الصديق حينما تحاور مع بعض الكفّار وقالوا له: يزعم صاحبك أن الروم سوف تغلب في بضع سنين، تروي بعض الكتب أنه راهنهم، ومعنى بضع سنين، أي من ثلاثة إلى تسعة، وفي السنة السابعة غلبت الروم الفرس، وهذا من إعجاز القرآن الإخباري ومن دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام:

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3))

الإيمان هو أن ترى أن الأمر كُلّه لله:

لذلك عندما يتحدّث ربنا عزّ وجل عن المستقبل أحياناً يتحدّث عنه بالفعل الماضي:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: من آية " 1 ")

لم يأتِ إذاً، كيف يقول عنه أتى ؟ شيءٌ غريب، لأن الأمر الذي سيأتي من عند الله لا بدّ من أن يأتي، لأن كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وما هو مُقدّر لا بدّ من أن يقع:

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ(4))

الإيمان كلّه أن ترى أن الأمر كلّه لله، من قبل انهزامهم ومن بعد انتصارهم.

كُلّما ابتعدت عن الله رأيت الكثرة وكلّما اقتربت منه رأيت الوحدة:

قال تعالى:

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ (4))

الأمر دائماً بيد الله، وكلّما عَمُقَ إيمانك، وكلّما ارتقى إيمانك لا ترى مع الله أحداً، ترى يد الله فوق أيدي الناس جميعاً، قال تعالى:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح الآية: 10)

كُلّما ابتعدت عن الله رأيت الكثرة، وكلّما اقتربت من الله رأيت الوحدة، كلّما ابتعدت عن الله رأيت شُرَكَاءَ لله، وكلّما اقتربت من الله عزّ وجل رأيت أن الله عزّ وجل لا إله غيره، لذلك جاء في سورة يونس:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنّ أَهْلُهَا (24))

(سورة يونس)

لشدّة قوّتهم:

(أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا (24))

(سورة يونس)

أمرنا لا أمرهم:

(لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(24)وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(25))

(سورة يونس)

لله الأمر دائماً من قبل غلبتهم ومن بعد انتصارهم:

إذاً:

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ (4))

ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، يجب أن تعلم علم اليقين أن الأمر بيدِ الله، هذا هو الإيمان، ولا شيء يزعج الإنسان ويسحقه ويؤلمه كأن يرى أن الأمر بيد زيدٍ أو عُبَيْد وبيدِ فلانٍ وفلان، أما الأمر لله:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ (4))

لكن قبل أن يُغْلَبوا وبعد أن يَغْلِبوا، قبل هذا وبعد هذا، قديماً وحديثاً، يميناً وشمالاً، فوقاً وتحتاً الأمر بيد الله:

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ (4))

هذه قبل وبعد ظرفا زمان بُنيا على الضمّ لانقطاعهما عن الإضافة، أي:

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ (4))

نصرهم:

(وَمِنْ بَعْدُ (4))

نصرهم، من قبل غلبتهم ومن بعد انتصارهم:

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4))

التأويل بمعنييه العام والخاص:

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ملّة الكفر واحدة.))

[ورد في الأثر]

لو دخل مؤمن على مئة منافق فيهم مؤمنٌ واحد لحنّ هذا المؤمن إلى ذاك المؤمن ولو دخل منافقٌ على مئة مؤمن وفيهم منافقٌ واحد لحنّ هذا المنافق إلى ذاك المنافق، فهذه قصّةٌ قديمةٌ جداً، قديمةٌ قِدَمَ سيدنا آدم، هناك الكفر والإيمان، هناك الشرك والتوحيد، هناك الإحسان وهناك الإساءة، هناك العدل وهناك الجور، هناك الخير وهناك الشر، هناك الحق وهناك الباطل، هناك المُحسن وهناك المسيء، هناك المؤمن وهناك الكافر، هناك الموحِّد وهناك المشرك، أبداً ؛ المؤمن مع المؤمن، المشرك مع المشرك، الكافر مع الكافر، الزاني لا ينكح إلا زانيةً، الفاسق مع الفاسق، المرابي مع المرابي، العفيف مع العفيف، أبداً، هذه سنّة الله في خلقه.

أولاً حينما غلب الروم الفرس لماذا فرح المؤمنون ؟ لشيءٍ خطيرٍ جداً، وهو أن هذا الكتاب من عند الله والدليل وقوعه، ربنا عزّ وجل قال:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(سورة يونس: من آية " 29 ")

تحدّثنا سابقاً عن أن تأويل القرآن له معنى خاص وله معنى عام، التأويل بمعناه العام كالتفسير، إذا كانت الآية واضحة أو فيها كلمة غامضة نفسّرها، أما إذا كانت الآيات فيها خلاف ظاهر مع آيات أخرى نؤوّلها، فالتأويل إلى حدٍ ما يشبه التفسير، وللتأويل معنىً خاص وهو أن الله عزّ وجل إذا وعد المرابي بأن يمحق الله ماله، فإن محق مال المرابي تأويل آية الربا، وإذا وعد المؤمن بالحياة الطيّبة، الحياة الطيّبة تأويل هذه الآية، وإذا وعد المُعْرِض عن ذكر الله عزّ وجل بالمعيشة الضنك، فإن المعيشة الضنك تأويل هذه الآية، فالتأويل وقوع الوعد والوعيد.

أسباب فرح المؤمنين بنصر الله:

الآن لماذا فرح المؤمنون بنصر الله ؟ لأن القرآن ذكر هذا قبل أن يقع، فلمّا وقع كان مصداقاً على أن هذا القرآن كلام الله، هذا أحد أسباب فرح المؤمنين بنصر الله.

الشيء الآخر: المؤمنون أقرب إلى أهل الكتاب منهم إلى عُبّادِ النار، فلو أنت مع إنسان له كتاب سماوي وإنسان آخر مُلحد، ترى أنك أقرب إلى هذا الكتابي من هذا المُلحد، هذا المعنى الثاني، إذاً:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3))

سيغلبون من إعجاز القرآن الإخباري، ومن دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، و:

(فِي بِضْعِ سِنِينَ (4))

وقد وقع هذا، وقعت مغلوبيّة الروم في عام ستمئة وثلاثة عشر، وبعد سبع سنوات انتصر الروم على الفرس واستردوا منهم المواقع التي أخذوها، والأمر لله عزّ وجل من قبل ومن بعد.

بعض آيات من القرآن الكريم على أن الأمر بيد الله:

دائماً الأمر بيد الله، اسمعوا بعض الآيات:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح الآية: 10)

وقال:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية: 123)

وقال:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية: 84)

وقال:

(وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

وقال:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

وقال:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل)

(سورة الزمر)

آيات من القرآن تبث الطمأنينة في النفس:

هذه الآيات:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِك فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

هذه الآيات تَبُثُّ الطمأنينة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا)

(سورة العنكبوت: من آية " 4 ")

أيستطيع الكافر مهما كان قوياً أن يفعل شيئاً غير إرادة الله عزّ وجل ؟ هل يستطيع الكافر أن يتفلّت من عقاب الله عزّ وجل ؟ أبداً، هذا معنى قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا)

(سورة العنكبوت: من آية " 4 ")

الأمر كلّه بيد الله ومع ذلك علينا أن نأخذ بالأسباب:

قال:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5))

انظر إلى معنى ينصر من يشاء، يعني أن الله عزّ وجل مطلق الإرادة يفعل ما يشاء، الأمر بيده، النصر بيده، الهزيمة بيده، بثّ الرُعب في الناس بيده ـ النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ))

[البخاري ومسلم عن أبي هريرة]

أن يراك الناس ضعيفاً بيده، أن يروك قوياً بيده، أن يهابوك بيده، أن يستصغروك بيده، أن تقوى على عدوّك بيده، أن يقوى عليك عدوُّك بيده، أن تظهر بيده، أن تختفي بيده، أن تنتصر بيده، أن تنهزم بيده:

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ (4))

لكن سؤال: ما دام الأمر كلّه بيد الله، هل معنى ذلك أن لا نأخذ بالأسباب ؟ هنا المشكلة، أتمنّى على الله عزّ وجل أن يُمَكِّنَنِي من أن أوضّح لكم هذه الحقائق الدقيقة، في حياتنا اليوميّة، في عملنا، في زواجنا، في تجارتنا، في دراستنا، في كل نشاط حياتنا، أنت بين رجلين رجل آمن بالأسباب وعبدها من دون الله واعتقد أنها كل شيء، فأخذ بها واعتمد عليها، وقد يُفاجأ الإنسان أنه أخفق في حياته.

فقد سمعت عن طبيب اعتقد أن الجري اليومي هو كل شيءٍ في صحّة الإنسان، وأن هذا الذي يجري يومياً لن يصاب بمرضٍ في القلب أبداً، اعتقد هذا، وكتب مقالات، وعمل ندوات، وألّف كتباً، وكان يجري كل يوم، مات فجأةً وهو يجري لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل، لماذا ؟ لأنه آمن بالأسباب وحدها، ووضع فيها كل ثقله، وضع فيها كل آماله، من اختصاصه يؤتى، لذلك قالوا: **" يؤتى الحذر من مأمنه"**، لماذا يؤتى الحذر من مأمنه ؟ لأنه عبد الأسباب من دون الله، اعتقد بها وعبدها، هذا الإنسان قد لا ينجح في حياته، لذلك من أسباب النصر الكثرة أليس كذلك ؟!!

الأخذ بالأسباب وإغفال قدرة الله عز وجل شرك بالله:

أصحاب النبي عليهم رضوان الله حينما فتحوا مكّة وجدوا أنفسهم من الكثرة الكثيرة، عشرة آلاف مقاتل مع سيوفٍ متوهِّجة، فقالوا: **" لن نُغْلَبَ اليوم من قلّة "**، فماذا كانت النتيجة ؟

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمّ وَلّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

ألقى في قلوبهم الخوف والرعب، فما علاقتنا نحن بهذه الآية ؟ أنت في عملك إذا قلت: أنا متمكِّن، أشركت، أنا متفوّق، أنا خبير، لا بدّ من أن تُخْفِق تأديباً لك على الشرك بالله عزّ وجل، هذا إنسان، الغربيون يمثلون هذا الصِنْف، أخذوا بالأسباب كلِّها، (تشالنجر) وهي المركبة الفضائيّة، هذا الاسم معناه باللغة العربية المتحدي، الضبط، والمراجعة، والعَد التنازلي، وقطعة قطعة، وصمّام صمّام، وجهاز جهاز، دقّة ما بعدها دقّة، وحسابات دقيقة، رياضيات وفيزياء وكيمياء، وفيها سبع رواد للفضاء، ركبوا مركبتهم، وبعد سبعين ثانية أصبحت كتلةً من اللهب.

إذا عبدت الأسباب من دون الله ونسيت الله عزّ وجل، أغفلت قدرة الله عزّ وجل ونسيت أن الله بيده كل شيء، نسيت أن الله قادرٌ على كل شيء، نسيت أن الله بقدرته أن يقلب كل شيء رأساً على عقب، هذا الوضع هو شرك، فهذا نموذج، هذا النموذج مرفوض أن تأخذ بالأسباب وأن تعتمد عليها.

التواكل على ربنا عز وجل مرفوض تماماً:

النموذج الثاني: تواكل على ربنا عزّ وجل، وكسل، وقعود، وخمول، وعدم العمل، وعدم السعي، وعدم الاهتمام نموذج مرفوض، ولو توكّلت على الله، لو قلت: ليس إلا الله، لا رَبَّ إلا هو، لا إله إلا الله، إليه يرجع الأمر كلّه، بيده الخير، نحن عبيد عنده، هذا التوكّل بلا سعي نموذج مرفوضٌ آخر.

هذا مرفوض وهذا مرفوض، هذا خلاف ما أراده الله عزّ وجل، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما وقف يدعو ربّه قُبَيْلَ معركة بدر وقع من على كتفه الرداء لشدّة قلقه وإلحاحه في الدعاء، بعض كُتّاب السيرة قالوا: لعلّه كان يخشى أن لا يكون قد أخذ بالأسباب التي أمره الله بها.

أنت في دراستك، في تجارتك، في علاقاتك، في مشاريعك، في إنجازك، في مهنتك، في حرفتك، في صِحّتَكَ، في تربية أولادك، يجب أن تأخذ بالأسباب وأن تتوكّل على ربِّ الأرباب، توكل حقيقي، أن تأخذ بالأسباب أخذاً حقيقياً، وأن تتوكّل على الله توكّلاً حقيقياً، فلو أخذت بالأسباب، وتوكّلت عليها، وألّهْتَهَا واعتمدت عليها، ورأيتها كل شيء، وقعت في الشرك ولا بدّ من التأديب، ولو توكلت على الله وحده، وكنت كسولاً خمولاً لم تأخذ بالأسباب لوقعت في خطأ كبير.

من يأخذ بالأسباب يستحق أن تُخْرَقَ له القواعد والعادات:

النبي ماذا قال ؟ قال:

((مَن أكل الطين فكأنما أعان على قتل نفسه))

[الطبراني عن سلمان بسند ضعيف، وانظر الجامع الصغير]

من أكل فاكهةً قبل أن يغسلها فقد أعان على قتل نفسه، أليس هناك من يقول: أخي كُل وسَمِّ بالله ؟ أهذا هو الدين ؟ لا والله، طالب لا يدرس، يقول أنا الحمد لله ما تركت فرض صلاة هذا لا يكفيه، لا بدّ من الدراسة، مثقّف جاهل لا يجدي، طبيب جاهل يؤذي الناس، فالمسلمون لا يتقدّمون ولا يفلحون إلا إذا أخذوا بالأسباب، والذين أخذوا بالأسباب ولم يتوكّلوا على الله لا يفلحون، هذا الذي أتمنّى عليكم أن تكونوا في مستواه.

حقيقة قرآنيّة خطيرة جداً، الله عزّ وجل بيده الأمر:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ (5))

لكن هذه المشيئة رسمت لنا طريقاً، النبي عليه الصلاة والسلام حينما هاجر، ما من إنسان على وجه الأرض يستحق النصر كرسول الله ومع ذلك أخذ بالأسباب كلِّها ؛ عيّن إنساناً ليتلقّف الأخبار، وآخر ليمحو الآثار، وثالث ليأتيه بالزاد، ورابع ليدلّه على الطريق، سار مُساحلاً، دخل غار ثور، صحب سيّدنا الصديق، أخذ الحيطة والحذر، وتوكّل بعدها على الله.

فلمّا جاؤوا إلى الغار، وقال له الصديق: " يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا "، عندئذٍ قال عليه الصلاة والسلام:

((يَا أبا بَكْرٍ مَا ظَنّكَ باثْنَيْنِ الله ثالِثُهُمَا))

[متفق عليه]

قال له: **" لقد رأونا "**، فقال له: " يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:

(وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ(198))

(سورة الأعراف)

حينما تأخذ بالأسباب تستحق أن تُخْرَقَ لك القواعد والعادات، هذه حقيقة.

من الحماقة أن تظن أن معية الله عز وجل بلا ثمن:

الإنسان قد يتمنّى أن يكون الله معه، يتمنّى أن ينصره الله، أن يدافع عنه، أن يحفظه، أن يوفّقه، يتمنى، ولكن هذه المعيّة معيّة الله عزّ وجل من السذاجة والحمق والغباء والجهل أن تظنّها بلا ثمن، لها ثمن باهظ، فقد قال الله تعالى:

(إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصّلاة وَآتَيْتُمْ الزّكَاة وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة المائدة: من آية " 12 ")

هذه هي المعيّة، أن تؤمن بالله، أن تصلي صلاة صحيحة، أن تزكي، أن تُحسن، أن تؤمن بالرسول، أن تنصره، أن تعينه، هكذا، فلذلك لا تطمح أن يكون الله معك من دون أن تكون معه:

كن مع الله ترى الله معك ... واترك الكلَ وحاذر طمعك

وإذا أعطاك مـن يمنعه ؟ ... ثم من يعطي إذا ما منعك؟

***

الشيء الثاني: عليك أن تأخذ بالأسباب وأن تتوكّل على الله عزّ وجل:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحِيمُ (5))

عزيزٌ لا يُنَالُ جانبه، رحيمٌ خلق عباده ليرحمهم.

آيات من القرآن الكريم عن وعد الله:

قال تعالى:

(وَعْدَ اللَّهِ (6))

وقال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: من آية " 55 ")

وقال:

(وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6))

الآية التالية تنفي العلم عن أكثر الناس وتثبته:

هنا المشكلة، ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ)

قد يقول قائل: كيف نفى الله عزّ وجل عنهم العلم ثمّ أثبت عنهم العلم، قال:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ (7))

إذا دخلت إلى دائرة ولك معاملة مهمّة جداً وتحتاج إلى موافقة، فرأيت أشخاصاً وراء مكاتب، وموظّفين كُثُر، ولافتات كُتِبَ عليها أسماؤهم، وغرفاً، وحُجّاباً، وطوابق، لو رأيت كل هذا، ولم تعرف من الذي بيده وحده حق التوقيع على هذه المعاملة، فأنت تعلم ولا تعلم، تعلم أن هذه الدائرة هي الدائرة الفلانيّة، وأن هؤلاء موظّفون، ولكن غاب عنك من يستطيع وحده أن يوقِع لك هذه المعاملة، وأن يمنحك هذه الموافقة، ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (7))

أي أنهم عرفوا الدنيا، عرفوا ما فيها من ثروات، عرفوا ما فيها من مباهج، عرفوا ما فيها من بيوت فخمة، من مركبات فارهة، من طعام لذيذ، من لباس أنيق، من نساء جميلات، هذا كله عرفوه، يعلمون من أين تؤكل الكتف، كيف يقتنصون المُناسبات، كيف ينتهزون الفرص، كيف يكسبون المال، أذكياء جداً، كيف يشترون بأرخص الأسعار ويبيعون بأغلى الأسعار، كيف يوهمون الناس، كيف يَرْبَحون

الأموال الطائلة، هذا كله معروف عندهم، فهم أذكياء في هذا، نابهون ؛ ولكن غاب عنهم لماذا هم في الدنيا ؟ غاب عنهم أن هذه الدنيا مزرعة الآخرة، غاب عنهم أن هذه الدنيا من أجل أن تعرف الله عزّ وجل، غاب عنهم أن هذه الدنيا من أجل أن تتقي ربّك، غاب عنهم أن هذه الدنيا من أجل أن تطيعه، من أجل أن تحسن إلى خلقه.

الذي يعلمُ ظاهر الأشياء كمن لا يعلم:

هذه الحقائق الكبرى ؛ لماذا أنت في الدنيا ؟ أنت في الدنيا في دار عمل والآخرة دار جزاء، أنت في دار تكليف والآخرة دار تشريف، أنت في دار أهم ما فيها العمل الصالح وسوف تأتي إلى دار أهم ما فيها النعيم المقيم، هذه الحقائق الكبرى غابت عنهم، يعرفون أسعار الأراضي، أسعار البيوت، هذا البيت مناسب وهذا غير مناسب، هذا اللون يناسب هذا اللون، خبرات في الدنيا من أعلى مستوى، كسب المال، إنفاق المال، تأثيث البيت، اختيار موقع البيت، اختيار الزوجة، كيف تُخْطَب الفتاة، كيف تُجَهّز، كلّه يعلمونه علماً لا حدود له:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (7))

أما أخطر شيء في حياة الإنسان هو مجيئه للدنيا، في ضوء الدنيا يتقرّر مصيره الأبدي، لماذا خُلِق ؟ أين كان ؟ أين المصير ؟ ما عرف كتاب الله، ما عرف ربّه، ما عرف أسماءه، ما عرف صفاته، ما عرف النبي، ما عرف قيمته، ما عرف أن حديثه الشريف وسنّته المطهّرة هي خلاصٌ لنا من كل مشكلاتنا، ما عرف هذا:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا (7))

لهذا قال العلماء: **" الذي يعلمُ ظاهر الأشياء كمن لا يعلم "**، كأنه جاهل، مثلاً: هل تصدّق أن الطبيب هو إنسان يرتدي ثوباً أبيض، ويضع نظارات، ويقتني سمّاعة ؟ فهذا الطبيب فقط ؟ فمعنى ذلك أنك لا تعرف شيئاً، الطبيب ثلاثة وعشرون سنة دراسة، هذا مظهره، فلو جاء إنسان جاهل لا يقرأ ولا يكتب ارتدى ثوباً أبيض، ووضع نظارات، وحمل سمّاعة، وأخذ ورقة وأقلام وكتب هل صار هذا عندك طبيب ؟ فالذي يعلم الظاهر ولا يعلم الباطن، كأنه جاهل، فهو عند الله جاهل:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (7))

يجب أن نعرف سرّ الوجود لا أن نبقى في الظاهر:

لذلك قال بعضهم: مساكين أهل الدنيا، جاءوا إلى الدنيا وخرجوا منها ولم يأنسوا بالله عزّ وجل، ذاق الطعام والشراب، وذاق المنزل الفخم والنساء، وذاق الحِرَف والمِهَن، وكسب المال، والتجارة، والسفر، والاختصاص، كل هذا ذاقه، والأصدقاء، والندوات، والسهرات، والرحلات، لكن ما ذاق طعم القرب من الله عزّ وجل، ما أَنِسَ قلبه بذكر الله، ما أقبل على الله، ما خشيه، ما خافه، ما رجاه:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (7))

ما فيها من طعام وشراب، وزينة، وبُهْرُج، ومباهج، ولكن غاب عنه سِرُّها، غابت عنه حقيقتها، غابت عنه فائدتها، خطورتها، فلذلك إذا كنت تعلم شيئاً وتغيب عنك أشياء فأنت لا تعلم:

قل لمن يدّعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

***

لذلك يجب أن نعلم الحقيقة الأساسيّة، لا أن نبقى في الظواهر، في القشور، في الصور، في الأشياء الثانويّة التي لا تقدِّم ولا تؤخِّر، يجب أن نعرف سرّ الوجود:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6))

أخذوا بالأسباب وما استفادوا، تركوا الأسباب وتوكّلوا على الله وما استفادوا، لأنك ما عرفت الحقيقة، لا بدّ من أن تأخذ بالأسباب ولا بدّ من أن تعتمد على الله عزّ وجل.

لا نريد إنساناً ساذجاً يؤلِّه الأسباب ويعتقد بها وينسى الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (7))

مثلاً: لو فرضنا راكب سيارة انقطعت به في الطريق، فنزل ورفع يديه إلى السماء وصرخ، ودعا، واستغاث، واستجار، واستعطف، وبكى، ماذا يحدث ؟ تبقى السيارة واقفة، المنطق أن تفتح غطاءها وأن تنظر ماذا فيها، وأن تجد أين الخلل ؟ إذا كان هناك خلل أصلحه، هذا الموقف العملي، المؤمن عقله علمي، لكن بعد أن صحّح الخلل يا ربي وفقتني لمعرفة الخلل، هنا الدعاء شيءٌ جميل، اللهمّ يا هادي، عرفت الخلل توفّق إلى إصلاحه، هنا تدعو، أما أن تبقي الغطاء مغلق، والمحرّك مُعَطّل، وترفع يديك وتدعو وتستجير هذا كلّه كلامٌ فارغ، كلام فيه سذاجة.

تقول: لا بدّ لي من أن أكشف العطل، كذلك أنت بهذا غلطان، يمكن ألا تعرف العطل حتى ولو عملت عشر ساعات، قال لي أحدهم: تركت سيارتي في مكان، وركبت مئة كيلو متر ورجعت من أجل برغي

يحتاج إلى شد، لم يخطر على بالي، فهذه المشكلة، لا نريد إنساناً خيالياً ساذجاً، دعاء دُعاء ويوجد خلل في حياته، المعاصي الكثيرة، المخالفات، الثغرات ؛ ولا نريد إنساناً يؤلِّه الأسباب ويعتقد بها وينسى الله عزّ وجل.

الكثير من الناس عرفوا ظاهر الحياة الدنيا وغفلوا عن معرفة الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7))

سؤال: هل عرفوا الحياة الدنيا ؟ الجواب لا لم يعرفوها، والدليل:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا (7))

ما عرفوا حقيقة الدنيا، ما عرفوا لماذا نحن في الدنيا ؟ ما عرفوا أجمل ما في الدنيا، ما عرفوا أسعد ما في الدنيا، ما عرفوا أنظف ما في الدنيا، المؤمن بحياته النقيّة، الطاهرة، باستقامته، بورعه، يعيش حياةً سعيدةً لا يعرفها الآخرون، هم عرفوا ظاهرها ؛ عرفوا مساحة البيت، عرفوا أناقة البيت، عرفوا أنواع الطعام، أنواع اللباس، أنواع المركبات، كيف الدخل الكبير، عرفوا هذا وغفلوا عن معرفة الله عزّ وجل، ربنا عزّ وجل يقول:

(أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (8))

كل ما في الكون يسير وفق منهج و نظام معين:

أي يا أيها الإنسان أما رأيت أن هذا الكون تحكمه قوانين دقيقة جداً ؟ أما رأيت أن هذا الكون تحكمه سُنَن ؟ أما رأيت إلى هذا الكون مبنياً على الأسباب والمسبّبات ؟ أما رأيت أن هذا الكون له غايات عظيمة ؟ ألم يهدك عقلك الذي بُنِيَ على السببيّة والغائيّة أن لهذا الكون سبباً، وأن لهذا الكون غاية ؟ هل ترى أن الأمور هكذا تجري ؟ أتفكرت في خلق السماوات والأرض ؟ أتفكرت في خلق جسمك وما فيه من آياتٍ باهراتٍ على عظمة الله عزّ وجل ؟ أنظرت إلى طعامك ؟ أنظرت إلى نَسْلِك ؟ كيف تشكّل هذا الغُلام الصغير ؟ ألم تعرف أنه من ماءٍ مهين، من حوينٍ صغير، كل ثلاثمئة مليون حوين لا يُعادلوا سنتيمتر مكعّب ؟ والبويضة تلقّحت من حوينٍ واحد، والمورّثات وما أدراك ما المورّثات، خمسة آلاف مليون معلومة على الحوين ؟ فلان طويل، فلان قصير، فلان أبيض، فلان أسمر، فلان له شعر سبط، شعر غير سبط، عينان زرقاوان، عينان سوداوان، خدٌ أسيل، خدٌ ناتئ، عينٌ كبيرةٌ واسعةٌ، وعينٌ صغيرةٌ، جسمٌ مفتول، جسم طويل، جسم قصير، طِباع، أنواع منوعّة من الطباع:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (8))

كل شيء يسير وفق منهج، وفق خطّة، وفق تصميم، وفق هدف، وفق نظام، وأنت بلا نظام ؟!

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

كل شيء خلقه الله خلقه ليبقى:

بلا نظام:

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ(3)بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ(4))

(سورة القيامة)

قال:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ(115))

(سورة المؤمنون)

انظر للدعوة إلى التفكّر، أي أنك أيها الإنسان لست مسيّباً، لست طليقاً:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38))

(سورة المدثر)

إنك محاسب، هناك نظام يجب أن تعرفه، هناك تشريع يجب أن تأخذ به، هناك أمر يجب أن تأتمر به، هناك نهي يجب أن تنتهي عنه:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (8))

أي أنه خلقهما لهدفٍ كبير، وخلقهما لتبقيا لا لتفنيا، كل شيء خلقه الله خلقه ليبقى، فالحق نقيضه الباطل، والباطل الشيء الزائل، والحق نقيضه اللعب واللعب يعني العبث، عمل لا طائل منه.

للكون تشريع دقيق علينا أن نكشفه ونطبقه:

قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (8) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9))

أي أنك إذا تفكَّرت في خلق السماوات والأرض تعلم أن لهذا الكون إلهاً عظيماً خلقه فأبدعه، وجعله وفق نظم، وقوانين، وسنن دقيقة جداً، وأن الذي خلق الكون بهذا الإعجاز، وبهذه الدقَّة، وبهذا الإحكام، وبهذا النظام لن يدع الإنسان سُدى، فيمكن أن تستنبط من خلق السماوات والأرض أن لهذا الكون إلهاً، وله نظامٌ دقيق، وله تشريعٌ دقيق، وعليك أن تكشف هذا التشريع وأن تطبّقه.

طرق معرفة الله عز وجل:

يوجد عندنا شيءٌ ثانٍ: إذا شئت أن تستنبط العبر من السابقين فانظر، فانظر إلى كل قومٍ كفروا ربَّهم، وتجاوزوا حدّهم، وطغوا وبغوا كيف أن الله أهلكهم:

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)

(سورة الكهف: من آية " 59 ")

وقال:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ(22))

(سورة الحديد)

يوجد عندك طريقين: إما طريق التفكُّر في خلق السماوات والأرض، وإما طريق التفكُّر في أفعال الله عزّ وجل، كيف أن الكريم يكرمه الله عزّ وجل، وأن المستقيم ينصره، وأن المنحرف يخذله، وأن الأمين يغنيه، وأن المختلِسَ يفقره، وأن المرابي يمحق ماله، وأن المتصدِّق يُنَمِّي ماله، إذا أردت أن تعرف الله من خلال الكون فدونك الكون.

إذا أردت أن تعرفه من خلال أفعاله فهذه أفعاله أمامك، هذه أفعاله، وهذا خلقه، وهذا قرآنه، لك أن تعرفه من كلامه، ولك أن تعرفه من خلقه، ولك أن تعرفه من أفعاله.

المحسن يثاب على إحسانه والمسيء يحاسب على إساءته:

قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (9))

تجد شريكين أحدهما ظلم الآخر، الله مع الضعيف دائماً، تجد زوجين أحدهما كان ظالماً للآخر، الله مع المظلوم، أولاد اختلس أحدهم أموال أبيه كلها وجعل إخوته بلا شيء كيف أن هؤلاء الأخوة المظلومين الضعاف يغنيهم الله عزّ وجل، وقد يفتقر هو، دع القرآن، دع الكون، لو تتبعت أفعال الله عزّ وجل في عباده، انظر إلى زوجين أقاما زواجهما على طاعة الله، تجد أن الله عزّ وجل يوفِّق بينهما، انظر إلى

زوجين أقاما زواجهما على معصية الله عزّ وجل، انظر إلى تاجر أقام تجارته على نُصْح المسلمين، وعلى الإخلاص لهم، والصدق في المعاملة، كيف أن الله ينمِّي ماله، انظر إلى تاجر يكذب ويغش كيف أن الله يمحق ماله، انظر إلى أي شيء، انظر إلى أي مخلوق تجد أن المحسن يثاب على إحسانه، والمسيء يحاسب على إساءته، إن شئت أن تعرف الله من خلال الكون:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ(8))

إن شئت أن تعرف الله من خلال أفعاله:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(9))

لمعرفة الله تعالى علينا أن نسلك أحد الطرق الثلاثة التالية:

الذي أتمنّاه على الله عزّ وجل أن يسلك الإنسان أو يسلك أحدكم إلى معرفة الله هذه الطرائق الثلاث ؛ كتاب الله طريق، والكون طريق، وأفعاله طريق، فلان استقام فرفعه الله، فلان غشّ الناس فخذله الله، فلان كان صادقاً فرفع الله شأنه، فلان كذب على الناس فعاقبه الله عزّ وجل، فلان أخلص، فلان خان، فلان أعطى، فلان منع، فلان استقام، فلان انحرف، فلان أطاع، فلان عصى، تتبع ؛ في حقل الزواج، في حقل الشراكة، في حقل التجارة، في حقل العمل، في حقل الدراسة.

تتبّع تجد أن الله يعطي لكل إنسانٍ حقّه، وأن أحداً لن يفلت من عقاب الله، ومن ظنّ أنه يتفلّت من عقاب الله فهو أحمق، وهو غبي، هذا طريق.

الطريق الثاني: انظر إلى الشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والرياح والأمطار، والنبات والحيوان وخلق الإنسان، ترى آيات دالّة على عظمة الله، أهذا الخلق المعجز، أهذا النظام الدقيق، أهذه السنن المحكمة هل يعقل أن يكون الله عزّ وجل خلقك بلا هدف ؟ هكذا سدى ؟ بلا حساب ؟ بلا سؤال ؟ بلا منهج ؟ مستحيل، هذا كتابه، وهذا خلقه، وهذه أفعاله، وأفعاله وكتابه وخلقه متطابقة تطابقاً تاماً.

في الدرس القادم إن شاء الله عزّ وجل نصل إلى قوله تعالى:

(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (02-14): تفسير الآيات 10 - 16
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-02-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الثاني من سورة الروم.

مقوّمات الأمانة التي كلف الله بها الإنسان:

الآيات التي فُسِّرَت في الدرس الماضي يمكن أن يُلقى عليها ضوءٌ جديد، فمثلاً حينما قال الله سبحانه وتعالى في هذه السورة:

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(5))

(سورة الروم)

إلى آخر الآيات، أي أن الله سبحانه وتعالى حينما خلق الكون، وحينما خلق الإنسان، هذا الإنسان هو المخلوق الأوّل، المخلوق المكرّم الذي أعدّه لِيَسْعَدَ في جنّاتٍ عرضها السماوات والأرض، هو في الدنيا أودع فيه الشهوات ليرقى بها إلى الله، أعطاه العقل ليكون قوةً إدراكيّة، مَنَحَهُ حريّة الاختيار لتثمّن أعماله، خلق له الكون وسخّره له ؛ تسخير تعريفٍ وتسخير تكريم، أعطاه فيما يبدو قوّةً، فهذه القوة، وتلك الشهوة، وهذا الاختيار، وذاك العقل، وتلك الفطرة، وتسخير الكون، هذا كلّه من مقوّمات الأمانة التي كلّفه بها، والأمانة أن يعرف الله أولاً، وأن يعبده ثانياً، ليسعد في الدنيا والآخرة ثالثاً.

الخروج عن منهج الله تعالى سبب شقاء الإنسان:

أنا الآن أُلخِّص، أجمع ما تفرّق من معاني في كلماتٍ موجزة، فما منا واحدٌ إلا ويتمنى أن يسلم، ما منا واحدٌ إلا ويتمنّى أن يسعد، متى يشقى الإنسان ؟ إذا خرج عن منهج الله، فربنا سبحانه وتعالى خلق الكون، وخلق الإنسان، وكلّفه بالأمانة، وقبِلَ بها:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: من آية " 72 ")

لمّا قبِلَ بها أعطاه العقل قوّةً إدراكيّة، سخّر له الكون مظهراً لأسماء الله الحُسنى وصفاته الفُضلى، سخّره تعريفاً به وتكريماً له، أعطاه الشهوة كي يرقى بها، أعطاه حريّة الاختيار كي تُثمِّنَ أعماله، أعطاه فيما يبدو قوّةً كي يتحرّك بها.

الآن إذا عطّل عقله، ولم يفكرّ في ملكوت السماوات والأرض، واتبع شهوته، لا بدّ من رسولٍ يذكره بفطرته، لا بدّ من رسولٍ يذكره بالأمانة التي حملها، لا بدّ من رسولٍ يذكره بالمهمّة التي جاء من أجلها قبل أن ينتهي أجله ويشقى إلى أبد الآبدين.

الآن الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته واقتضت رحمته أن يُرسل لهذا الإنسان رسولاً، كيف يصدّق الإنسان أن هذا رسول الله ؟ كيف ؟ إنسان من بني آدم، من طين كالبشر، شكله كشكل البشر، أعضاؤه كأعضائهم، كيف يُصَدِّق هؤلاء الناس الضالون، المنحرفون، الذين انغمسوا في شهواتهم واتبعوا أهواءهم، كيف يصدِّقون أن هذا الإنسان رسول الله ؟

أعطاه معجزة، سيدنا موسى أعطاه العصا، ليس في طاقة البشر كلِهم أن يصنعوا من العصا ثعباناً، أعطى السيّد المسيح قوّة إحياء الموتى، كأن الله يقول لهؤلاء البشر: هذا رسولي، أعطى لسيدنا موسى السحر، أعطاه أن تكون العصا ثعباناً مبيناً، أرسل الله سبحانه وتعالى النبي عليه الصلاة والسلام إلى أمّتنا، أعطاه معجزة هذا الكتاب.

إعجازات القرآن الكريم:

إذاً بادئَ ذي بدء الله سبحانه وتعالى خلقنا وكرّمنا وجعلنا في المرتبة الأولى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: من آية " 72 ")

عندما قبِلَ الإنسان حمل الأمانة سَخَّرَ الله له الكون، معرّفاً بذاته ومكرّماً له، أعطاه العقل ليفكِّر في هذا الكون، منحه فطرةً سليمةً كي تكون مقياساً له على حُسْنِ عمله أو سوء عمله، كل عملٍ سيئ وراءه انقباض، ضيق، شعور بالشقاء، أعطاه القوة، أعطاه الشهوة، أعطاه الاختيار.

هذا الإنسان نسي، وغفل، واتبع شهوته، أودع فيه الشهوات ليرقى بها فجعلها إلهاً، أعطاه العقلَ ليتعرّف إلى الله به، فسخّره في جمع الثروات والإيقاع بين البشر، إذاً لا بدّ لهذا الإنسان الضال المُنحرف الذي عبد شهوته، وعبد من دون الله آلهة لا تنفعه ولا تضرُّه، لا بدّ لهذا الإنسان من رسولٍ مذكِّرٍ، لكن هذا الرسول لن يُصَدَّق، إذاً لا بدّ لهذا الرسول من معجزة.

النبي عليه الصلاة والسلام جاء بهذه المعجزة، هذا القرآن من دلائل إعجازه، هناك إعجاز إخباري، هناك إعجاز بياني، هناك إعجاز عِلمي، هناك إعجاز تشريعي، هناك إعجاز تَرْبَوي، هناك إعجاز لغوي، هناك إعجاز حسابي، هناك إعجاز رياضي من جملة إعجازات القرآن الكريم، ومعنى إعجاز أي أن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثله، من جملة إعجازاته إعجازه الإخباري، قال تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ (4))

الآية التالية من دلائل نبوّة النبي عليه الصلاة والسلام:

قد فصّلت هذا في الدرس الماضي، وقد وقع، لا يملك الغيب إلا الله، ذكرتُ إلى جانب هذا الإعجاز الإخباري قوله تعالى:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ)

(سورة البقرة: من آية " 142 ")

فعلاً قال بعض العرب ـ الذين وصفهم الله عزّ وجل بأنهم سفهاء ـ قالوا هذا القول، ولو أنهم فكّروا لسكتوا، فإذا سكتوا أبطلوا هذا القرآن.

أيها الأخوة هذا القرآن دليل أن النبي عليه الصلاة والسلام هو رسول الله، إعجازه يؤكِّد نبوّته، إذاً هذه الآية من دلائل نبوّته، قد يقول قائل: وماذا يعنينا كُلُّ هذا ؟

الذي ألاحظه أنه ما من مشكلةٍ تصيب الفرد أو المجتمع في الأرض، ما من أزمةٍ، ما من قضيّةٍ، ما من مأساةٍ، ما من دمارٍ، ما من آلامٍ إلا ولها أسباب، أسبابها خروج هذا الإنسان عن منهج الله، ولماذا يخرج هذا الإنسان عن منهج الله ؟ حينما لا يصدِّقه أما نحن حينما نتعامل في الدنيا إذا صدّقنا أن هذا القرار، أو هذا التوجيه، أو هذا المَنْع من قِبَل من بإمكانه أن يفعل بنا ما يفعل نلتزم، إذاً على قدر ما تصدِّق بهذا القرآن تلتزم أمره ونهيه، هنا المشكلة.

في القرآن آيات الإعجاز الإخباري من أجل أن نصدِّق أن هذا القرآن كلام الله:

هذا الذي يخالف آيات القرآن الكريم، يخالف أمر الله عزّ وجل أو يقع فيما نهى عنه، يجب أن يعلم علم اليقين أن مصداقيّة هذا القرآن عنده ليست كافية، لا يمكن لإنسانٍ عاقل أن يعلم علماً يقينيّاً أن هذا القرآن من عند الله عزّ وجل، وأن الله بيده كل شيء ؛ بيده سعادتك وبيده شقاؤك، بيده صحّتك وبيده مرضك، بيده غناك وبيده إفقارك، لا يمكن لإنسانٍ عاقل يصدِّق ويوقِنُ أن هذا القرآن كلام الله ويخالفه.

ربنا عزّ وجل جعل في القرآن بعض الآيات التي يُسَمّيها علماء التفسير الإعجاز الإخباري، من أجل أن نصدِّق أن هذا القرآن كلامه، الآن الآيات الأولى تقول:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ(6))

إذا وعد الله وعداً، أو أَوْعَدَ وعيداً فلا محالة واقعٌ:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6))

هذا كلام الله عزّ وجل، أكثر الناس يرون الأمر بيدِ زيد أو عُبيد.

شعور الإنسان البعيد عن الله عزّ وجل شعور مرضي:

ماذا قال الله عزّ وجل عن آخر الزمان ؟ قال:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

هذا شعور الإنسان البعيد عن الله عزّ وجل، القوي، شعورٌ غريب، شعورٌ مرضي، يظنُّ أن الأمر كله بيده، وأنه قادرٌ على كل شيء، وأنه قادرٌ على أن يفعل كل شيء:

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

أمر الله:

(لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

وقال:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(58))

(سورة الإسراء)

عقاب من يخالف منهج الله تعالى كما ورد في بعض الآيات القرآنية:

يا أيها الأخوة الأكارم الإنسان يجب أن يفكِّر تفكيراً سديداً، القضيّة لا تَحْتَمِلِ المُماطلة، ولا تحتمل أن تأخذ هذا الكلام على أنه كلام طيّب مبارك، فتقول: جزاه الله عنّا كل خير، والله درس لطيف، درس

جميل ممتع، القضيّة أخطر من ذلك، أنت أمام منهج فإما أن تتبعه ؛ وإما أن تدفع الثمن باهظاً.

ترون أيها الأخوة، ترون بأمّ أعينكم، يقول الله عزّ وجل:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)

(سورة النحل)

دقّقوا في هذه الآية، من كل مكان رزقٌ وفير لا يُحصى، حياةٌ في أعلى درجات الرفاهية والنعيم:

(فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

آيةٌ ثانية:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 65 ")

هذا الزمن هو زمن التوبة والعودة إلى الله عز وجل:

أيها الأخوة القضيّة قضيّةٌ تتعلّق بسلامتنا، بسلامة الإنسان، إنسان له خالق وهذا منهجه، فهذا كتاب، كتاب الله عزّ وجل أمرك بشيء ونهاك عن شيء، لا تأخذ هذا الكتاب على مَحْمَل أن تأخذه أخذاً بسيطاً دون أن تهتمّ له، إن لم تهتمّ له فالنتيجة مؤلمةٌ جداً، والله سبحانه وتعالى يُمهل ولا يُهمل.

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(102))

(سورة هود)

وقال:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ(12)إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ(13))

(سورة البروج)

لكن:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ(14))

(سورة البروج)

هذا الزمن أيها الأخوة زمن التوبة، زمن العودة إلى الله عزّ وجل، العودة إلى كتابه، أنت مسلم يجب أن تكون مسلماً حقّاً، ما المُخالفات التي أنت مُقصِّرٌ فيها ؟ ما المعاصي في علاقاتك كلِّها ؛ في بيعك، في شرائك، في كسب مالك، في إنفاق مالك، في شهواتك، ما المباح، ما المحرّم، ما الممنوع، ما الحق، ما الباطل ؟

الحكمة من قصة سيدنا يوسف:

يا أيها الأخوة الأكارم الله سبحانه وتعالى يبيّن لنا من خلال مطلع هذه السورة أن هذا القرآن كلامه، والدليل الإعجاز الإخباري:

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ(6))

ربنا عزّ وجل في قصّة سيدنا يوسف ساق قصّةً طويلة من أطول قصص القرآن الكريم، من أجل ماذا؟ من أجل أن يُرِيَنَا جميعاً أن الأمر كلّه بيده، إخوة يوسف ائتمروا على قتل يوسف، وضعوه في غيابت الجُب، لكن الله جلّ وعلا أراد أن يرفعه، وأن يجعله في أعلى مراتب الدنيا والآخرة، ماذا قال الله عزّ وجل ؟ قال:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(21))

(سورة يوسف)

هذه الآية دعوها في أذهانكم دائماً:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(21))

(سورة يوسف)

في الآية التالية أمران ونهيان وبشارتان:

ذكر الله عزّ وجل قصّة سيدنا موسى، ربنا عزّ وجل أمر أم موسى أن تُلْقِيَهُ في اليَم:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ(7))

(سورة القصص)

أمران، ونهيان، وبشارتان:

(أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)

(سورة القصص)

أرضعيه وألقيه في اليم:

(وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ(7))

(سورة القصص)

طفلٌ صغير في صندوقٍ خشبي، في نهرٍ عظيم، يدُ من سَيَّرته إلى قصر فرعون ؟ وفرعون رأى في الرؤيا أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على مُلْكِهِ، بدل أن يتوب إلى الله عزّ وجل ويعود عمّا

هو فيه قتّلَ أطفال بني إسرائيل كلّهم ما الذي حصل ؟ أن هذا الطفل الوديع الذي رَبّاه في قصره هو الذي قضى على ملكه:

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاس لا يَعْلَمُونَ(21))

(سورة يوسف)

أدلة من القرآن الكريم على وحدانية الله سبحانه فالأمر كله بيده وحده:

فكِّر، الأمر بيدِ الله، إيّاك أن ترى أن مع الله إلهاً آخر، الأمر بيدِ الله وحده:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

(سورة هود الآية: 123)

وقال:

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح الآية: 10)

وقال:

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنّ اللّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال الآية: 17)

وقال:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

وقال:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية: 54)

وقال:

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيل)

(سورة الزمر)

وقال:

(مَا يَفْتَحْ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِك فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

جوهر الحياة الدنيا أن تعرف الله وتستقيم على أمره وتتقرّب إليه:

هذا التوحيد يُرْيِحُ الإنسان، ما عليك إلا أن تعبد الله، ما عليك إلا أن تتوب من ذنوبك، ما عليك إلا أن تستقيم على أمره، وإلا فالعقاب أليم وشديد:

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(102))

(سورة هود)

الآن يقول الله عزّ وجل:

(وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا(7))

معنى هذا أنهم لا يعلمون، إذا عَلِمْتَ كيف تسكن في بيتٍ فخم ؟ وكيف تأكل أطيب الطعام، وكيف تركب أجمل المركبات ؟ فأنت لا تعلم حقيقة الدنيا، أنت جئت إلى الدنيا لمهمّةٍ كبيرةٍ خطيرة، أنت جئت إلى الدنيا لتعرف الله عزّ وجل، جوهر الحياة الدنيا أن تعرف الله وأن تستقيم على أمره وأن تتقرّب إليه، فإذا غفلت عن هذه المهمّة أنت لا تعلم، إذا أُرسِلْتَ إلى بلدٍ أجنبي كي تُحَصِّلَ أعلى شهادةٍ علميّة، وفي هذا البلد نسيت الدراسة وعرفت أين أفخم المطاعم، وأجمل المقاصف، وأجمل الأندية، وانتقلت من مطعمٍ إلى مطعم، ومن نادٍ إلى نادٍ، ومن مقصفٍ إلى مقصف، هذا يعلم أم لا يعلم ؟ نقول: إنه لا يعلم لأنه نسي مهمّته الأساسيّة فهو لا يعلم، نسي الهدف الذي من أجله خُلِقْ:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

للإيمان ثلاثة مظاهر تصديقٌ بالقلب وإقرارٌ باللسان وعملٌ بالأركان:

من الآية رقم واحد إلى الآية السابعة ربنا عزّ وجل أشار إلى إعجاز كتابه الإخباري، في مصدر آخر، الحقيقة هذه الصفحة والنصف فيها ثلاث مصادر للمعرفة.

المصدر الآخر للمعرفة:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ(8))

أيها الأخوة الإيمان له ثلاثة مظاهر، الإيمان محلّه القلب، وهو إقرارٌ باللسان، وعملٌ بالأركان، الحياة قصيرة والمهمّة خطيرة، يجب أن تعرف ما الإيمان، ليس الإيمان أن تُصلي ؛ الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وغَض البصر، والصدق، والأمانة، والإحسان، وترك الغيبة والنميمة هذا كلّه مَظْهَر، مظهر سلوكي للإيمان، والإيمان فضلاً عن ذلك تصديقٌ بالقلب، وإقرارٌ باللسان، وعملٌ بالأركان، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل))

[من الدر المنثور عن الحسن]

الآن كيف يدخل الإيمان إلى القلب ؟ هنا السؤال:

(قَالَتْ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

(سورة الحجرات: من آية " 14 ")

مهمة الفكر:

أن تنصاع إلى أمر الله هذا إسلام، أما أن يستقرّ في قلبك تصديقٌ أن الله سبحانه وتعالى خالقُ الكون، وهو ربُّ العالمين، وهو الإله المسيّر، وهو واحدٌ في خلقه، وواحدٌ في تربيته، وواحدٌ في تصرُّفه، وأن أسماءه حُسنى، أن تصدِّق هذه الحقائق هذا يحتاج إلى جهد، وما لم يُبْذَل هذا الجهد فأنت لن تطيع الله عزّ وجل، لذلك القضيّة كيف يدخل الإيمان في قلبي ؟ التصديق محلُّه القلب، واللسان يقرُّ بهذا التصديق، والعمل يؤكِّد هذا التصديق، التصديق يُعَبِّر عما في القلب، والسلوك يجسِّد هذا التصديق، وما لم يتفكّر الإنسان في خلق السماوات والأرض فلن يدخل الإيمان في قلبه، ماذا يقول الله عزّ وجل ؟

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6))

عرفوا ظواهر الأشياء، عرفوا صوَرَهَا، عرفوا ما يبدو لأعينهم، ولكن الحقائق العميقة ؛ سرُّ وجودك، حكمة وجودك، عظمة ربِّك، هذه كيف تعرفها ؟

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ(8))

أنت إذا رأيت آلة معقّدةً ألا تستطيع أن تحكم على صانعها بكذا وكذا ؟ هذه مهمّة الفكر، مهمّة الفكر أن ينتقل من شيءٍ محسوس إلى شيءٍ مُجَرَّد، من شيءٍ مُشَاهَد إلى شيءٍ مُغَيَّب، من الخلق إلى الخالق، من الكون إلى المكوّن، من النظام إلى المُنَظِّم، من التسيير إلى المُسير، هذه مهمّة الفكر، فكلّما أعملت فكرك في الكون ازداد إيمانك بالله، وازداد تصديقك بالله، وازداد هذا القلب امتلاءً بمعرفة الله، إذا امتلأ قلبك معرفةً بالله عزّ وجل أقرّ لسانك بهذا، فإذا أقرّ اللسان بهذا ظهر هذا في السلوك، هنا مَحَطُّ الشاهد، هنا بيت القصيد، هناك سؤال كبير: لماذا الناس هكذا ؟ يستمعون إلى خطب كثيرة ويقرؤون ومع ذلك لا يلتزمون وما داموا لا يلتزمون فالله سبحانه وتعالى يسوقُ لهم من الشدائد لكن كيف السبيل ؟ ما قيمة سماع درس أو مجلس علمٍ إن لم يُحْمَل صاحبه على تطبيقه ؟!!

معرفة عظمة الله تحتاج إلى بحث ذاتي ومِرَاس و جهدٍ كبير:

يا أيها الأخوة الأكارم هذه آيةٌ دقيقة جداً:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6))

كيف نعلم يا رب ؟

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ (8))

أنتم لا تعلمون سرّ الحياة، أنتم لا تعرفون عظمة الله عزّ وجل، هكذا كأن الله يقول:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6))

لا يعلمون عظمة الله عزّ وجل، أما أن تقول: الله خالق الكون فالقضيّة سهلة جداً، قالها إبليس، قال:

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82))

(سورة ص)

أن تعترف بخالقٍ للكون هذا شيءٌ لا يُقَدِّم ولا يؤخِّر، ولكن أن تعرف عظمة الله عزّ وجل، أن تعرف أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى، أن تعرف أن الأمر كله بيده، أنه في السماء إله وفي الأرض إلهٌ، هذه هي المعرفة، وهذه المعرفة لا تنشأ فجأةً بل تحتاج إلى بحث ذاتي، إلى مِرَاس، إلى جهدٍ كبير، لذلك ربنا سبحانه وتعالى في هذه السورة يبيّن:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ (8))

هل فكّرت في خلق السماوات والأرض ؟ أمر إلهي.

الآيات الكونيّة الدالّة على عظمة الله عزّ وجل كثيرة جداً:

قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة آل عمران)

أبواب معرفة الله واسعةٌ جداً ؛ كأس الماء الذي أمامك، طفلك الذي أمامك، رغيف الخبز الذي تأكله، الشمس التي تُشْرِق، القمر الذي يظهر، الجبل، المطر، الرياح، البُحيرات، البحار، الأنهار، النباتات، الحيوانات، أنت محاطٌ بآلاف آلاف الآيات الكونيّة الدالّة على عظمة الله عزّ وجل:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (8))

هذا الذي يقول: الله خلق الكون هكذا ونحن كلّنا في شقاء، هذا ما عرف أن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض بالحق، معنى بالحق أنه خلق السماوات والأرضَ لهدفٍ كبير، معنى بالحق أنه خلق السماوات والأرض خَلْقاً ثابتاً، حكيماً، وليس زائلاً، وليس لعباً:

(وَأَجَلٍ مُسَمًّى (8))

أي أن هذه الحياة الدنيا أساسها أنه لا بدّ من يومٍ يُحَاسَب الناس فيه، هناك أسئلة كبيرة جداً، هناك قويٌ وهناك ضعيف، هناك ظالمٌ وهناك مظلوم، هناك غنيٌ وهناك فقير، هناك ذكيٌ وهناك أقلُ ذكاءً، يا رب لماذا وزّعت هذه الحظوظ بشكلٍ متفاوت ؟ يأتي الجواب هذه الحظوظ وُزّعَتْ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توَزّع في الآخرة توزيع جزاء، وسيأخذ كلٌ من الناس حقّه.

الكون بما فيه من آياتٍ والقرآن بما فيه من إشاراتٍ بابٌ كبيرٌ جداً لمعرفة الله تعالى:

إذاً الكون بما فيه من آياتٍ عظيمةٍ دالّةٍ على وجود الله وعلى أسمائه الحسنى مصدرٌ كبيرٌ لمعرفة الله، والقرآن بما فيه من إشاراتٍ، وإرشاداتٍ، وأحكامٍ شرعيّةٍ، وإخبارٍ، ووعدٍ، ووعيدٍ أيضاً بابٌ كبيرٌ جداً لمعرفة الله سبحانه وتعالى.

الآن يوجد عندنا شيءٌ ثالث:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9))

إذا شئت فابحث في الحوادث ترى أن الله عزّ وجل وراء كل شيء، ترى أن يد الله تعمل في كل شيء، ترى أن حكمة الله ظاهرةٌ في كل شيء، ترى أن قدرته خارقة، ورحمته ظاهرة، ولطفه عَميم، وعقابه أليم، وعطاءه كبير، وأخذه مُخيف، بعفويةٍ بالغة، بفطرةٍ صافية، دون أن تُكِدّ ذهنك، ما تسمع وما ترى، تجد أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)

(سورة يونس: من آية " 24 ")

ترى بعينك قُدرة الله أحياناً فتخضع لها، ترى بعينك رحمته أحياناً، ترى لطفه، ترى عقابه، ترى عدالته.

القرآن الكريم كلام الله و الكون خلقه و الحوادث أفعاله:

يا أيها الأخوة الأكارم اجعل من الحوادث درساً، ومن الأكوان درساً، ومن القرآن درساً، وفي صفحةٍ ونصف بَيّن الله سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم كلامه، وأن هذا الكون خَلْقُهُ، وأن هذه الحوادث أفعاله، فإن شئت أن تعرفه من أفعاله فافعل تأمّل في أفعاله، تأمّل:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9))

إن شئت التفكّر في خلق السماوات والأرض ؛ تفكّر في الشمس، تفكّر في القمر، تفكّر في السحاب، تفكّر في المطر، من بإمكانه أن يُنْزِلَ المطر بعد اليأس والقنوط، بعد أن أصبح ماء الشُرب مهدّداً ؟ ماء الشُرب لا الزرع، فالزرع انتهى، بعد أن أصبح كأس الماء مُهَدّداً، جاءت الخيرات من السماء، هذا فعل من ؟ أية جهةٍ في الأرض بإمكانها أن تفعل هذا ؟ أن تنزل المطر، أن تتخذ قراراً بإنزال المطر ؟ لا أحد، هذا فعله، وهذا خلقه، وهذا قرآنه، والله سبحانه وتعالى أودع فينا العقل، وأرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حبّاً.

أسوأ عقابٍ يعاقب به الإنسان يوم القيامة أن يدخل النار:

لذلك أيها الأخوة الإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أُمِرْتُ أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً.))

هذا الحديث جزء من حديث طويل يقول فيه عليه الصلاة والسلام:

((أمرني ربي بتسع: خشية الله في السرّ والعلانيّة، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأعفو عن من ظلمني، وأعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً.))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

الإنسان أحياناً يسعد بتأمّل عقلي وحيد، تأمّل إلى أين أنت ذاهب ؟ أي طريقٍ تسلك ؟ ما الهدف الذي يبرق أمامك ؟ لماذا خُلِقْت ؟ تأمّل في حياتك الخاصّة، في بيتك ؛ يا ترى أنت وفق المنهج ؟ وفق ما أمر الله عزّ وجل ؟ إليكَ هذه الحوادث، كل الحوادث تؤكِّد لك أن الله عزّ وجل بيده كل شيء، ووعده واقع، ووعيده واقع، وكل ما تسمع وما ترى إنما هو تحقيقٌ لوعد الله ولوعيده:

(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى (10))

السُّوأى مؤنَّث الأسوأ، كما أن الحسنى مؤنَّث الأحسن، هناك أنواع كثيرة جداً من العقاب في الدنيا ؛ لكن أشدّ عقابٍ يعاقب به الإنسان أن يدخل جهنَّم، قد يعاقب في الدنيا بقلّةٍ في رزقه، بمرضٍ في جسمه، بنقصٍ في ماله، بمرضٍ في أولاده:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ(155))

(سورة البقرة)

لكنّ أشدّ العقاب طُرّاً، أسوأ عقابٍ يعاقبه الإنسان يوم القيامة أن يدخل النار:

(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى (10))

أي العقاب الأسوأ.

الآيات الكونيّة أو الحوادث أو القرآن علامات دالّة على عظمة الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10))

الآيات الكونيّة، أو الحوادث، أو القرآن، كلُّها آيات، أي علامات دالّة على عظمة الله عزّ وجل، فلماذا:

(كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10))

الإنسان إذا بدت له آيةٌ كونيّة، أو سمع آيةً قرآنيّة، أو رأى حادثاً فيه عبرةٌ بالغة ما من واحدٍ منا إلا وحوله أناسٌ أصابتهم بعض المصائب بسبب انحرافهم، أو أكرمهم الله عزّ وجل بسبب استقامتهم، أو نَمّى أموالهم بسبب تصدقهم، أو محق مالهم بسبب أكلهم الربا، أو فرّق بينهم وبين أزواجهم بسبب انحرافهم في أخلاقهم، فما من معصيةٍ إلا ولها عقاب، فالإنسان حينما ينظر يجب أن يرتدع:

(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10))

الصحابة الكرام من علامات توفيقهم أن الآية الواحدة كانت تكفيهم ليعودوا عن أخطائهم:

الآن يقول الله عزّ وجل:

(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (11))

بدأ الله الخلق، خلقنا في هذه الدنيا، لكن الشيء الذي يلفت النظر أن معظم الناس غافلون عن إعادة الخَلق، يعيشون وقتهم، يعيشون لحظتهم، يعيشون زمانهم، يعيش ما دام في متعة، في بحبوحة، ينسى أن هناك يوماً آخر، وحساباً وعقاباً، وجنّةً وناراً، ونعيماً مقيماً، وعذاباً أليماً:

(اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ ثُمّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11))

لذلك الإنسان قبل أن يتحرّك، قبل أن يقف هذا الموقف، قبل أن يعطي، قبل أن يمنع، قبل أن يغضب، قبل أن يرضى، قبل أن يصل، قبل أن يقطع، قبل أن يبتسم، قبل أن يعبس، هل أعددت لله جواباً عن هذا الموقف ؟ هذه الآية تكفي، فالصحابة الكرام من علامات توفيقهم أن الآية الواحدة كانت تكفيهم، آية واحدة تكفي:

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

(سورة النساء)

تكفي:

(إِنّ رَبّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر)

تكفي:

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا)

(سورة فصلت: الآية 30)

تكفي:

(فَمَنْ اتّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

تكفي:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(سورة النحل: من آية " 79 ")

تكفي، هذه الآية:

(اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ ثُمّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11))

العاقل يصلُ إلى الشيء بعقله قبل أن يصلَ إليه بجسده:

السؤال المتبادر: كيف بلغت هذا العمر ؟ والله ما هو إلا ما بين طرفة عينٍ وانتباهتها، قبل أيام كنت صغيراً، الأيام مضت، والسنون مضت، قبل فترة من الزمن كان رمضان في تشرين، يقول لك: حرب تشرين يساوي العاشر من رمضان، رمضان مع تشرين، الآن رمضان مع ماذا ؟ دارت الأيام صار رمضان في الربيع، جاء في الصيف، وهكذا الأمور تدور، إذاً:

(اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ ثُمّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12))

معنى يبلس الإنسان حينما يُفَاجأ ولا يملك جواباً، هذا هو الصَعْقُ، لذلك العاقل يصلُ إلى الشيء بعقله قبل أن يصلَ إليه بجسده، يفكِّر، فالطالب المتفوّق ما سرُّ تفوُّقه ؟ أن لحظة الامتحان لا تغيب عنه أبداً، هذا سرُّ اجتهاده ونجاحه، أما الطالب الكَسول ينسى الامتحان، يعيش وقته، يعيش فترة حياته في أثناء العام الدراسي كما هي، هو مع أصدقائه، في جوٍ مرحٍ، في نزهة، أي أنه يسترخي، لكن الطالب الذي يتفوّق من علاماته أن لحظة الامتحان لا تغيب عنه أبداً، لذلك هذه الآية:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12))

كل الناس يوم القيامة سواسية ولا ينفعهم إلا عملهم:

ماذا ينفع المال ؟ لا ينفع المال، ولا القوة، ولا الدنيا بأكملها، كله شيءٌ زائل، الدنيا ساعة اجعلها طاعة، معنى يبلس أي يُصْعَق، وينعقد لسانه فلا يستطيع أن يتكلّم بكلمةٍ واحدة:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ (13))

لا يوجد إنسان ما له علاقات، له شُرَكاء، له أقرباء، له أصحاب، له زملاء، له جيران، لا توجد قضيّة إلا فلان يعرف فلاناً، فلان وسّط فلاناً، هذا منطق الحياة الدنيا، تظن فلاناً لا أقرباء له فيدعمه عشرات، كلُهم يتصلون بكَ إذا أردت أن تفعل به شيئاً، في علاقات، في ترابط، في مَوَدّة، في مصالح متبادلة، في لقاءات، لكن ربنا عزّ وجل يقول يوم القيامة:

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13))

يتضح لهذا الإنسان حينما يُصْعَق، وحينما يُساق ليحاسب عن كل أعماله، أن كل هؤلاء الذين اعتمد عليهم في الدنيا، وتقوّى بهم، وجعلهم أنداداً لله عزّ وجل لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً، لا يستطيعون أن يقدِّموا ولا أن يؤخِّروا، لا يستطيعون أن يصرفوا عنه عذاباً ولا أن يجلبوا له نفعاً، هذه ساعة الغَفْلَة، فالناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، فالإنسان لا يغتر لا بماله، ولا بعلمه الدنيوي، ولا بجماعته، ولا بأنصاره، ولا بأقربائه، ولا بمن يُناصرونه لأن هؤلاء جميعاً هذا حالهم يوم القيامة:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (13) وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرّقُونَ (14))

يوم القيامة الناس رجلان مؤمنٌ وكافر:

أحياناً تجد جمعاً كبيراً، يتجمّع الناس لمصلحةٍ معيّنة، الجمع ترونه بأمّ أعينكم، لكن يوم القيامة:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرّقُونَ (14))

في الدنيا تحسبهم جميعاً لكن قلوبهم شتّى، أما في الآخرة تراهم بعينك متفرّقين، تراهم بعينك متفرّقين وقلوبهم كانت في الدنيا متفرّقة:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15))

في النهاية ؛ الناس رجلان مؤمنٌ وكافر، كل التقسيمات في الدنيا باطلة، الناس جميعاً على اختلاف ألوانهم، وأجناسهم، ومللهم، ونِحَلِهم، وقوّتهم، وضعفهم، وغناهم، وفقرهم لا يزيدون عن رجلين:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا (15))

في الدنيا عرفوا الله عزّ وجل:

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (15))

استقاموا على أمر الله، وطبّقوا شَرْعَهُ، وتقرّبوا إليه:

(فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15))

كل شيءٍ تسمعه أو تقرؤه من حوادث الكون والحياة إنما هو آيات:

حتَّى عند الموت يكون القبر روضةً من رياض الجنَّة أو حفرةً من حفر النيران:

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16))

أتمنَّى على الله عزّ وجل أن أكون قد بيّنت لكم بعض ما يمكن أن يؤْخَذ من هذه الآيات ؛ أي أن القرآن مصدر، والكون مصدر، والحوادث مصدر، وأنت في دنيا وسيعقبها آخرة، وفي الآخرة ليس إلا رجلان ؛ مؤمنٌ قد عمل الصالحات فهو في روضات الجنّات، وكافرٌ:

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا (16))

آيات القرآن، أو آيات الكون، أو آيات الحوادث، كل شيءٍ يجري إنما هو آيات، كل شيءٍ تسمعه أذنك، كل شيءٍ تقرؤه من حوادث الكون والحياة إنما هو آيات، آياتٌ كونيّة وآياتٌ قرآنيّة وآياتٌ فعليّة:

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16))

لو اطلعت على إنسان مُقَيّد وهو في زنزانة ينتظر تنفيذ حكم الإعدام فيه، ألا ترثي لحاله، والله هذا مصير كل إنسان يكفر بالله عزّ وجل ويفعل السيئات، هم:

(فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (16))

من لوازم الإيمان بالله أن تؤمن باليوم الآخر:

أيها الأخوة حينما قال الله عزّ وجل:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7))

جاءت الآية الكريمة:

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ (16))

الحقيقة من لوازم الإيمان بالله أن تؤمن باليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر يَحُلُّ كل المشكلات، إن رأيت قوياً منقضاً على ضعيف وامتلأ قلبك ألماً من هذا القوي، إيمانك باليوم الآخر يحلُ هذه المشكلة، لذلك من علامات الإيمان بالله أن تؤمن بيومٍ يقف الناس فيه جميعاً ليلقوا جزاء أعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

الشيء الثاني: لو أردت أن ألخِّص هذا الدرس بكلماتٍ قليلة، كل آيةٍ في هذا الدرس تؤكِّد أن الأمر بيد الله، وما من شيءٍ يورثُ الألم والضيق أن ترى أن الأمر بيد فُلان أو فلاناً، هذا شيءٌ لا يحتمل، أما الشيء الذي يُرضي الإنسان ويريحه من آلامٍ لا تحتمل أن ترى أن الأمر بيد الله، هذا واضحٌ من قرآنه، والدليل:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ (3))

بيد الله عزّ وجل، بلّغك سلفاً قبل أن يقع:

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ (4))

التوحيد هو أن ترى بقلبك أن الأمر بيد الله وأنه لا فاعل مع الله:

إذا فكّرت في نفسك:

(مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى (8))

توقن أن الأمر بيد الله، وإذا فكّرت كيف يُعامل الله سبحانه وتعالى عباده الطائعين، والمجرمين، وترى مصير المرابي، ومصير المصدِّق، مصير الزاني، مصير السارق، مصير الكافر، مصير المؤمن، فإن قرأت القرآن رأيت أن الله هو الواحد الديّان، وإن نظرت في ملكوت السماوات والأرض رأيت أن الأمر كله بيد الله، وإن تأمّلت في الحوادث التي تجري حولك تسمعها ليلاً نهاراً، يجب أن ترى أن الله بيده كل شيء، إذاً ليس إلا الله، ولا إله إلا الله:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِي(25))

(سورة الأنبياء)

ليس معنى ذلك أنك إذا آمنت أن الأمر كله بيد الله ودخل إلى بيتك لص تقول: سبحان الله هذا بيد الله، لا، فليس هذا هو المعنى ؛ فالمعنى أن تطرد هذا اللص لأنه دخل بقضاء الله، وأنت عليك أن تردّه أيضاً بقضاء الله، لكن من أجل أن لا ترى مع الله أحداً، من أجل أن لا تتمزّق النفس من الشِرْكِ يجب أن توَحِّد، والتوحيد طريقه طويل، التوحيد ككلمة سهل، أخي لا إله إلا الله، يقولها الناس كلُّهم، ولكن أن ترى بقلبك أن الأمر بيد الله، وأنه لا فاعل مع الله.

طريق الإيمان بالله هو التفكُّر بالآيات:

ربنا عزّ وجل قال:

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25))

إلى آخر الآيات، أرجأت هذه الآيات لدرسٍ قادم، أو لدرسين قادمين كي نعلم أن طريق الإيمان بالله التفَكّر بالآيات، أنت بالكون تعرفه وبالشرع تعبده، من أجل أن تؤمن يجب أن تفكِّر، فسورة الروم في معظمها آياتٌ دالّةٌ على عظمته، كلّما ازددت معرفة بالله ازددت له طاعة، فإذا وجدت أن في طاعتك خللاً معنى ذلك أن في الإيمان خلل، إذاً تعرّف إلى الله عزّ وجل من خلال الكون، أو من خلال الحوادث، أو من خلال القرآن.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (03-14): تفسير الآيات 17 – 19

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-02-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثالث من سورة الروم.

كلمة (سبحان) من التسبيح:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فَسُبْحَانَ اللّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيّ مِنَ الْمَيّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيّتَ مِنَ الْحَيّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(19))

(سورة الروم)

الحقيقة أنه قبل أن نشرح هذه الآية والآيات التي تلي هذه الآية لا بدّ من مقدمة، كلمة (سبحان) من التسبيح، والآية الكريمة التي تعرفونها جميعاً:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا(46))

(سورة الكهف)

أجمع أكثر المفسرين على أن الباقيات الصالحات هُنّ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، الحقيقة التي أتمنى أن أضعها بين أيديكم هو أن تقول: الله خالق الكون، هذا شيءٌ يعرفه كل الخلق.

أي عقيدةٍ تعتقدها إن لم تحملك على طاعة الله لا تكفي:

قال تعالى:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنّ اللّه)

(سورة لقمان: من آية " 25 ")

أن تقول إن الله خالق السماوات والأرض، وأن تكتفي بهذا القدر من المعرفة البسيطة، هذه المعرفة البسيطة لا تَحْمِلُكَ على طاعة الله، هذه المعرفة البسيطة لا تحملك على أن تستسلم لله، هذه المعرفة البسيطة لا تحملك على توحيد الله، ولا على تكبير الله، ولا على حمد الله، فما مشكلة الناس جميعاً ؟ أنهم يعرفون الله معرفةً بسيطة، يرونه في السماء إلهاً ؛ ولا يرونه في الأرض هو الإله، يتعاملون

بقوانين الأرض بمعزلٍ عن قوانين السماء، فالذي أتمناه على كل أخٍ كريم أن لا يكتفي بمعرفةٍ بسيطةٍ تناهت إلى سمعه من خلال درس دينٍ، أو خطبة جمعةٍ، أو توجيه أب، لا بدّ من أن يوسع حجم معرفته بالله عزّ وجل، الذي يجب أن نعلمه جميعاً أن طاعتك لله منوطة بمعرفتك به، فإذا كان في السلوك تقصير، إذا كان هناك معصية، فاعلم علم اليقين أن المعرفة بالله ليست كافية لذلك رافقها معصية، إذا كان هناك خوف شديد من قوى الأرض تَيَقّنَ واعلم علم اليقين أن معرفة الله عزّ وجل ليست كافية لبث الأمن في قلبك.

نحن نريد النتيجة، الثمرة، ما ثمرة الإيمان ؟ أن تشعر بالطمأنينة، أن تسعد بالله، أن تقبل عليه، أن تطيعه، أن تسير على منهجه، ما دام هناك خروج عن منهج الله، ما دام هناك قلق، ما دام هناك رؤية لقوى عديدة في الكون، ما دُمْتَ ترى أن في الكون قوىً كثيرة، وكل قوةٍ تملك ذاتها، وتفعل فعلها، فأنت لا تعرف الله عزّ وجل، فكأن الله عزّ وجل من خلال هذه الآيات لا يرضى منا أن نقول: هو خالق الكون، لا يرضى منا هذه الأفكار البسيطة التي هي القَدْرُ المشترك بين عامة الناس، أي عقيدةٍ تعتقدها إن لم تحملك على طاعة الله لا تكفي معناها، لا أقول لك: ليست صحيحة، أقول لك: لا تكفي.

كلما نما حجم معرفتك بالله نمت خشيتك منه:

لا يكفي أن تقول: الله خالق الكون وأنت مقيم على مخالفات في بيتك، وفي عملك، وفي كسب رزقك، وفي إنفاق مالك، لا يكفي أن تقول: الله خالق الكون ولست مستسلماً له، ولست راضياً بقضائه، ولست خاضعاً لمنهجه، لا يكفي أن تقول: الله خالق الكون وترى أن الأمور في الدنيا ليست صحيحة.

لذلك أيها الأخوة هناك دعوةٌ من الله عزّ وجل إلى مزيدٍ من معرفة الله، كيف تعرفه ؟ في هذه الآيات التي سوف نأتي على ذكرها وشرحها إن شاء الله تعالى دليلٌ قويٌ قطعيٌ على أنه لا طريق إلى معرفة الله تعالى إلا في أن تجول في كون الله، فالكون مظهرٌ لكماله، حقيقةٌ خطيرة هي:

الله موجود، والله واحد، والله كامل، موجود وواحد وكامل، لذلك الإيمان بوجود الله، والإيمان بوحدانيّته ـ لا يوجد معه شريك ـ والإيمان بذاته الكاملة، كلما تأملت في خلق الله في السماوات والأرض عُدّتَ من هذا التأمل بمعرفةٍ جديدة.

الذي أريد أن أقرره في هذا الدرس أنه كلما نما حجم معرفتك بالله نمت خشيتك منه، مثل بسيط: أنت تخشى هذا الأمر الخطي على حجم الموقِع، كلما ارتفعت رتبة موقِع القرار تزداد تأدباً معه، وانصياعاً له، ومبادرةً إلى تطبيقه، إذاً ربنا سبحانه وتعالى لا يرضى منا أن نعترف بوجوده، يريدنا أن نعرف عظمته، يريدنا أن نعرف وحدانيته، يريدنا أن نعرف كماله، من هنا جاءت هذه الآيات الكريمة كي

تُعَرّفُنا بذاته، وكما يقولون: العلم حرف والتكرار ألف، ربنا ذكر بعض الآيات ؛ لكن أنت يجب أن تستنبط أن كل شيءٍ تقع عينك عليه هو آية من آيات الله عزّ وجل، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(فَسُبْحَانَ (17))

هذه سبحان مصدر من سَبّحَ، وسَبّحَ فعل مُضعّفَ الوسط، أساسها سَبَحَ، والإنسان إذا سَبَحَ ابتعد عن شيء وأوغل في شيء، ابتعد عن الشط وأوغل في لُجَجِ البحر، فكلمة سَبّحَ فيها معنيان في وقتٍ واحد، المعنى أن تُنَزّهَ الله سبحانه وتعالى عن أن يشابه مخلوقاته، كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ؛ ليس بصورةٍ، ولا جسمٍ، ولا متبعضٍ، ولا متجزّئٍ، ولا متناهٍ، ولا متلونٍ، وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك.

بل إن الأبلغ من ذلك أن الله سبحانه وتعالى مُنَزّهٌ عن صفات الكمال لدى مخلوقاته، أي أن الله كريم لا ككرم عباده، عفوٌ رحيم لا كعفو عباده ورحمتهم، أرقى من ذلك بكثير.

أصل الدين معرفة الله:

الجانب الأول من (سبحان) التنزيه، أن تنزه الله عن كل ما لا يليق بذاته الكاملة، عن كل نقصٍ، عن كل مشابهةٍ لمخلوقٍ، والشق الثاني الإيجابي، أن تجول، أن توغل في البحر، أن تمخر عُبابَهُ، أن تبتعد عن الشاطئ، أن تغوص في أعماقه، هذا هو التسبيح، لذلك:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ (46))

(سورة الكهف)

ربنا يتكلم كلام خالق، تصور بنون بلا مال شيء لا يطاق، عندك أولادٌ كُثُر ولا تملك مالاً تنفق عليهم، أو عندك مالٌ طائل وليس عندك ولدٌ تنفق عليه، شيءٌ مؤلمٌ جداً، فربنا عزّ وجل يقول:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (46))

(سورة الكهف)

لما قال:

(وَالْبَاقِيَاتُ (46))

(سورة الكهف)

كأنه وصف المال والبنون:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصّالِحَاتُ (46))

(سورة الكهف)

إذا كانت الباقيات الصالحات ؛ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أي أن تُسَبّحَهُ، أي أن تنزهه عن كل نقص، وأن تمجده في كل كمال، وأن تَحْمَدَهُ، وأن توحِّدَهُ، وأن تُكَبّرَهُ، فإذا سبّحته،

وحمدته، ووحدته، وكبرته فقد عرفته، فقد عرفته معرفةً تليق به، أو عرفته معرفة تحملك على طاعته، أو عرفته معرفة تدعوك إلى أن تسلِمَ له، عرفته معرفة أرتك أنه لا إله إلا هو، عرفته معرفةً أرتك حكمته، رحمته، عدالته، عطفه، عرفته معرفة هذا الذي نبحث عنه، أصل الدين معرفة الله.

معرفة الله من خلال خلقه باب كبير من أبواب معرفة الله:

ماذا نستفيد لو عرفنا أمره قبل أن نعرف ذاته ؟ عرفنا أمره ولم نعرف عظمته، ما النتيجة ؟ نحتال على أمره، نتلافى تطبيق أمره، نفعل أشياء مضحكة لأننا عرفنا أمره قبل أن نعرف ذاته.

لذلك ربنا عزّ وجل في هذه الآيات والتي تليها يدعونا إلى معرفته من خلال خلقه، هذا بابٌ كبير من أبواب معرفة الله، يدعونا إلى معرفته من خلال خلق السماوات والأرض، ويمكن أن تعرفه ـ كما قلنا في الدرس الماضي ـ من خلال أفعاله، لو تتبعت مصير الظالم، لو تتبعت مصير المُرابي، لو تتبعت مصير الزاني، لو تتبعت مصير شارب الخمر، لو تتبعت مصير من أقام زواجه على معصية، كيف أن هناك عواقب، وهناك عقوبات، وهناك نتائج مريرة، لو تتبعت المستقيم، المُصلِّي، الحافظ لفرجه، الحافظ لبصره، الذي تحرر دخله من كل شبهةٍ، أنفق ماله فيما أمر الله، لرأيت التوفيق والسعادة والتأييد والنصر والحفظ وما إلى ذلك، إذاً لك أن تعرفه من خلال خلقه، ولك أن تعرفه من خلال كتابه.

أما اليوم الدعوة إلى معرفته من خلال كونه، من خلال الخلق، فكل إنسان أعطاه الله فكراً فاستخدمه في كسب المال فقط، وفي الإيقاع بين الناس، أو في كسب إعجابهم، أو في التفوّق عليهم، ولم يستخدم هذا الفكر في معرفة الله عزّ وجل، فقد احتقر وعَطّلَ أعظم شيءٍ منحه الله له.

نحن كما كنت أقول لكم دائماً: المؤمن يتبع توجيه النبي عليه الصلاة والسلام:

((أمرني ربي وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

إذا رأى ابنه أمامه، هذه آية لا ينبغي أن يمر عليها مر الكرام، أليس هذا ابنك ؟ نعم، ألا تعرف معرفةً يقينية أن أصله من حوين، خلية واحدة لا ترى إلا بالمجهر، وقد أودع في هذا الحوين خمسة آلاف مليون معلومة، هذا رقم دقيق، خمسة آلاف مليون معلومة أودعها الله في هذا الحوين الذي لقح البويضة، وكيف تم خلق الإنسان، حوين وبويضة إذا هُما بشرٌ سوي ؛ إنسان، هيكل عظمي، مفاصل، عضلات، جلد، أوعية، شرايين، دماغ، قلب، دَسّامَات، بطاريات في القلب، رئتين، بنكرياس، معدة، أمعاء، غدة نُخَامية، أليست هذه آية، لماذا نمر عليها ؟!!

ربنا عزّ وجل خلق الكون كي يكون دليلاً عليه:

كأس الماء أليس آية ؟ رغيف الخبز أليس آية ؟ الشمس أليست آيةً ؟ المؤمن لا يستمتع بالكون استمتاعاً بل يتعظ به اتعاظاً، لا يأخذ جانبه الدنيوي يأخذ جانبه الأخروي، لما ربنا عزّ وجل خلق الكون خلقه كي يكون دليلاً عليه:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحد

***

الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ (17))

لكن وقف العلماء عند هذه الآية وقفة متأنِّية:

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ (17))

الساعة العاشرة صباحاً أليس هناك تسبيح لله ؟ فعظمة الله قاصرة على المساء والصباح ؟ أجمع العلماء على أن هذا المصدر من سَبِّحَ يراد به الطلب، أي: سبحوا الله، هو مصدر إخباري يفيدُ الطلب، أي أيها المؤمنون سَبّحوا ربكم، أي فكروا في ملكوته، فكروا في خلقه، نزهّوه، مَجّدوه، جولوا جولاتٍ في آلائه، ألم يرد في الحديث القدسي عن سيدنا داود قال:

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: يا داود أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبني ـ الحب أساس ـ وأحب من أحبني ـ وأن تحب المؤمنين أساس ـ أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي))

[ورد في الأثر]

كنت أقول لكم دائماً: أن الداعية ما مهمته ؟ أن يقرّبَ الناس إلى الله، هؤلاء الشاردون يلتفتون إلى الله، هؤلاء العصاة يتوبون من ذنوبهم، هؤلاء البعيدون يقتربون من ربهم، هذه مهمة الداعية ؛ أن يعرف الناس بالله، أن يدعوهم إليه، أن يدفعهم إلى بابه، أن يحملهم على طاعته، أن يبيّنَ لهم جوانب عظمة الله عزّ وجل.

الدعوة إلى التسبيح حين يأتي المساء:

هل تصدقون أن كل إنسان له مظهر ديني، أو له اتجاه ديني، أو معروف بين أهله وأقربائه أنه جيد ـ تلميذ الجماعة الفُلانية ـ أن أي إنسان يحمل صفةً دينية إن في مظهره، وإن في سلوكه، وإن في انتمائه،

وإن في خلفيّته، وإن في اتجاهه، ويسيء إلى الخلق، يقوم بدور معاكس للدعاة تماماً، الداعي يُقرّب وهو ينفّر، لذلك ورد في الحديث القدسي:

((إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه))

[من الدر المنثور عن جابر بن عبد الله]

هنا سبحان الله هي مصدر سَبَّحَ، تسبيحاً وسُبحاناً، لكن هذا المصدر أريد فعله، وهو سَبِّحوا، فإذا قلنا سبحان الله حين تمسون، كأنك قيدت هذه العظمة في وقتٍ معين، وهذا مستحيل على الله عزّ وجل، هذا المعنى لا يليق بالله عزّ وجل أن تقيد هذا المعنى بوقت إلا أن يفهم التسبيح بأنه دعوةٌ إلى التسبيح أي:

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ (17))

معنى (تمسون) تدخلون في المساء، معنى المساء حدث جغرافي، حينما تغيب الشمس دخلتم في المساء، ولكن هذه الحضارة جعلت النهار ليلاً والليل نهاراً، جعلت الناس يمضون كل الليل في سَهَرٍ وينامون أكثر النهار، كأن هذه الحضارة مخالفة لتصميم الله عزّ وجل، ساعةٌ في أول الليل لا تعدلها ثلاث ساعاتٍ في آخر الليل، فالإنسان حينما يمضي وقته في السهر، ضيع عليه خيراتٍ كثيرة.

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ (17))

أي سبحوا ربكم حين يأتي المساء.

الآية التالية أصلٌ في فرضِيّةِ الصلوات الخمس:

قال تعالى:

(وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17))

سبّحوا ربكم حينما يأتي الصُبح، أجمع أكثر العلماء على أن هذه الآية أصلٌ في فَرضِيّةِ الصلوات الخمس، فحينما (تمسون) صلاة المغرب والعشاء، وحين (تصبحون) صلاة الفجر.

(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (18))

هنا الجملة اعتراضية، أي أن الله سبحانه وتعالى بقدر ما هو عظيم، بقدر ما هو كريم، أنت بحياتك يمكن أن تُعَظِّمَ إنساناً دون أن تحبّهُ، لك أستاذ في الجامعة في اختصاصه متفوق جداً ولكنه قاسٍ، فأنت تُكبر هذا المعلم ولا تحبه، وقد يكون لك قريب في غاية البساطة والطيب والتواضع لكن معلوماته محدودة جداً، فأنت تحبه جداً ولا تكبره، في حياة الناس شخص تحبه ولا تعظمه، وشخص تعظمه ولا تحبه، ولكن أن ترى إنساناً في الوقت نفسه تحبه بقدر ما تُعَظِّمُهُ، هذا شيء نادر جداً، لكن الله سبحانه وتعالى في آياتٍ كثيرة يصف ذاته:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ(78))

(سورة الرحمن)

وقال:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ(27))

(سورة الرحمن)

جلال وإكرام، فهنا (سبحان الله) تعظيماً، وتنزيهاً، وتمجيداً.

من حجبته النعمة عن المنعم هذه النعمة لابدّ من أن تزول:

قال تعالى:

(وَلَهُ الْحَمْدُ (18))

ما الذي ينتج من معنى لو أن الله عزّ وجل قال: والحمد له، عكسناها، كي تعرفوا عظمة القرآن، الحمد له، تقول: هذا القلم لي، هل يمنع أن يكون لك دفتر أيضاً ؟ إذا قلت: هذا القلم لي، هذه العبارة (القلم لي) هل يمنع أن يكون لك شيء آخر ؟ لا يمنع، أما حينما أقدم الجار والمجرور على الاسم صار في عندنا قصر، الحمد له ولغيره، أما له الحمد وحده، لذلك أية نعمةٍ ومنحةٍ، أية مَزِيَّةٍ وملكةٍ تتمتع بها، أي عقلٍ تستخدمه، أية حاسةٍ تبصر بها، أية أذنٍ مرهفةٍ تسمع بها، أية يدٍ تبطش بها، أي لسانٍ تنطق به، أية زوجةٍ تنعم بها، أي بيتٍ تأوي إليه، أي مركبةٍ تركبها، أية مادةٍ تستخدمها، أي طعامٍ تأكله، أي شيءٍ تنعم به منذ أن ولدت وحتى الموت، له، له الحمد.

من السذاجة، من الحمق، من الغباء، أن تتجه بكليتك كي تحمد إنساناً لا علاقة له بهذه النعمة، إنه من ضعف اليقين كما قال عليه الصلاة والسلام، إنه من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، إنه من ضعف اليقين أن تَحْمِدَهُم على رزق الله، إنه من ضعف اليقين أن تذمهم على ما لم يؤتك الله، أن تذمهم على شيءٍ حرمك الله منه، أو أن تحبهم على نعمةٍ منحك الله إيّاها، فالتوحيد التوحيد، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، حتى في النِعَم له الحمد، الحمد له وحده.

كل إنسانٍ اتجه إلى نعمةٍ يَنْعُمُ بها، نعمة المال فرضاً، رأى المال قوةً له، اعتمد عليه، من سنن الله عزّ وجل أنه يفقده هذا المال، كي يرى الذي أعطاه المال، حينما تحجبُك النعمة عن المنعم، هذه النعمة لا بدّ من أن تزول، فهذه الحقيقة خطيرة يا أخوان، حينما تحجبك هذه النعمة عن المنعم، أغلب الظن هذه النعمة سوف تزول كي ترى المنعم، لذلك ماذا قال عليه الصلاة والسلام في دعائه الشريف:

((اللهم أرنا نعمتك بكثرتها لا بزوالها))

[ورد في الأثر]

إذا حجبتك الزوجة عن الذي أهداك إيّاها لا بدّ من أن تسوء العلاقة بينك وبينها، إذا أرضيتها وعصيت الله، حجبتك عن الله، إذا حجبك المال عن الذي أعطاك المال، أغلب الظن أن هذا المال يزول كي ترى المنعم، فكل إنسانٍ تمتَّعَ بشيءٍ في الدنيا إن كان موفقاً أو ذكياً أو عاقلاً يجهد أن يرى المنعم من خلاله، لا أن يكتفي بالنعمة.

من مراتب الشكر أن تعرف أن هذه النعمة من الله:

الأجانب رأوا النعمة فقط، استمتعوا بها واستكبروا بها ؛ لكن المؤمن الصادق إذا أنعم الله عليه بنعمة لا يغيب عنه المنعم أبداً، لا يغيب عنه أن هذا من فضل الله لذلك قالوا: **" من مراتب الشكر ثلاثة، المرتبة الأولى يكفي أن تعرف أن هذه النعمة من الله، فهذا أحد أنواع الشكر، فسيدنا المسيح قال: " يا رب كيف شكرك ابن آدم ؟، قال: علم أنه مني فكان ذلك شكره ".**

يكفي أن تعرف أن هذه الصحة ليست من جهدك، وليست من ذكائك، إنها بتوفيق الله عزّ وجل، وأن هذا الطفل الذي جاء سليماً معافىً ليس لشدة عناية أمه بنفسها في أثناء الحمل، لا، بتوفيق الله عزّ وجل جعله سالماً كاملاً، له سمعٌ وبصرٌ وأيدي ولسان، وله ثقب بتوال، المولود في رحم أمه، لا هواء، الله عزّ وجل جهزه برئتين، وجهزه بعينين، وجهزه بقلبٍ وكل ما يحتاج، كيف يتنفس هذا الطفل وهو في بطن أمه ولا هواء في الرحم ؟ الرئتان معطلتان، ودورة الرئتين معطلة، القلب بين الأذينين فيه فتحة، ينتقل الدم من أذين إلى أذين عبر هذه الفتحة، ودم الأم هو الذي يُنَقِّي دم الجنين، فحينما ينزل هذا المولود إلى الأرض، هذا الثقب الذي بين الأذينين يُغْلَقَ، يد من تغلقه ؟ يد الله عزّ وجل، كل خمسمئة ألف مولود مَولود واحد هذا الثقب يبقى عنده مفتوحاً، لون الطفل أزرق لا يستطيع أن يمشي مترين، لأن الدم بدل أن يذهب إلى الرئتين كي يُنقّى يرى الطريق أقرب من هنا، ينتقل من أذين إلى أذين.
الآن لو أردنا أن نجري عملية في قلب فالقضية تكلف مئات الألوف، قريباً من مليون، فتح القفص الصدري وتجميد القلب تبريداً، ثم وصل الأوردة والشرايين في قلب صناعي، ثم فتح القلب إلى أن يهمد، ثم فتح وإغلاق هذا الثقب، ثم إعطاؤه صعقةً كهربائية قد يعمل وقد لا يعمل، إذا لم يعمل نقول: عظم الله أجركم، فيد من تدخل إلى داخل القلب كي تسد هذا الثقب ؟

قلب المؤمن مليء بالتحميد والتعظيم:

وله الحمد، عندك ولد أعضاؤه سليمة، حواسه سليمة، قلبه يعمل، رئتاه جيدتان، ثقب بوتال مغلق، الغدد الصمّاء تفرز، الكليتان نشيطتان، وله الحمد، الحمد لله على صحّتك، والحمد لله على أهلك،

أعطاك زوجة، زوجة من بني البشر ؛ لها أحاسيس، لها مشاعر، لها فكر، تكلمها تفهم عليك، أو لا تفهم عليك أحياناً، تكلمها تكلمك:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا)

(سورة الروم: من آية " 21 ")

هذه وله الحمد، يجب أن تقف وقفة خشوع لهذه الصيغة، فليس الحمد له ؛ بل وله الحمد، إياك أن تظن أن نعمة تنعُمَ بها هي من فضل غير الله، هي من فضل الله دائماً، فلذلك قلب المؤمن مليء بالتحميد والتعظيم، فالحديث القدسي:

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: يا داود أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقه، قال: يا رب إنك تعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي))

[ورد في الأثر]

إذا سمعت أن نجماً يبعد عن الأرض عشرين ألف مليون سنة ضوئية، ألا يقشعرُ جلدك ؟ عشرون ألف مليون سنة ضوئية، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، وفي الدقيقة ضرب ستين، وفي الساعة ضرب ستين، وفي الأربع والعشرين ساعة ضرب أربع وعشرين، وفي السنة ثلاثمئة وخمسة وستين، أي ثلاثمئة ألف ضرب ستين ضرب ستين ضرب أربعة وعشرين ضرب ثلاثمائة وخمسة ستين هذه بالسنة، ما يقطعه الضوء في سنةٍ واحدة، ضرب عشرين ألف مليون.

الكون وما فيه من آيات الله الدالة على عظمته:

أجريت على آلة حاسبة حساباً بسيطاً، بلغني أن أقرب نجمٍ ملتهبٍ إلى الأرض، أقرب نجم ملتهب الكوكب غير النجم، الكوكب مثل القمر، أما المُلتهب مثل الشمس ـ أقرب نجم ملتهب للأرض بعده عنا أربع سنوات ضوئية، والله أجريت على الآلة الحاسبة حساباً تقديرياً، لو أن هناك طريق بيننا وبين هذا النجم ومعنا سيارة، كم من الوقت نستغرق كي نصل إليه بهذه السيارة ؟ الرقم جاء قريباً من خمسين مليون عام، فقلت:

يا رب نجم القطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة، أول قفزة من أربعة إلى أربعة آلاف، إذا كان خمسين مليون عام لأربع سنوات ضوئية، معناها أن القطب ضرب ألف أربعة آلاف، أي خمسين ألف مليون سنة، قلت:

هذه المرأة المسلسلة، التي تبعد عنا مليون سنة ضوئية، انتقلنا من أربع سنوات إلى أربع آلاف إلى مليون سنة، وهذه المجرة الأخيرة عشرين ألف مليون سنة ضوئية، فهذا الكون ألا يدهشك ؟ هذا الذي خلقه أينسى ؟ أيعبد غيره ؟ أيزهد بوعده ؟ ألا تخشى وعيده ؟

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المـحب لمن يحب يطيع

***

قال تعالى:

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(154))

(سورة الصافات)

وقال:

(فَأَنَّا تُصْرَفُونَ(32))

(سورة يونس)

وقال أيضاً:

(أَفَلا تَعْقِلُونَ(116))

(سورة يونس)

قال تعالى:

(قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ(62))

(سورة النمل)

العبادة مرتبة عالية جداً:

ورد في الحديث القدسي:

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري))

[الجامع الصغير عن أبي الدرداء بسند ضعيف]

الناس يعبدون بعضهم بعضاً، ماذا معنى يعبده ؟ إذا رأيت أن زيداً من الناس بيده مقادير أمرك، إنك تعبده ولا تدري، إذا أرضيت إنساناً وعصيت الخالق هذه عبادة، أن تطيع زوجتك في معصيةٍ فقد عبدتها من دون الله، أن تؤثر هواك على طاعة الله فقد عبدت هواك من دون الله، والدليل:

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 23 ")

العبادة مرتبة عالية جداً:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

(سورة الإسراء: من آية " 1 ")

ربنا عزّ وجل أعلى صفة وصف بها النبي الكريم سيد الخلق وحبيب الحق أنه عبدٌ لله، عبد، هل أنت عبدٌ له ؟ هل أنت مؤتمرٍ بأمره منته عما عنه نهى ؟ هل عرفته ؟ إذا عرفته يكفي أن يصح عندك أن هذا الكلام كلامه وأن هذا الأمر أمره كي تبادر إلى طاعته، إذاً:

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ (17))

أي سبحوا ربكم حين تمسون، جاء المساء، غابت الشمس إلى صلاة المغرب، فأنت تُسَبّح الله، تنزّهَهُ، تجول في كمالاته، تجول في أسمائه الحسنى، في صفاته الفضلى، تقف بين يدي الله عزّ وجل وتقرأ:

(بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(1)الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(2)الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(3)مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(4)إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(5))

(سورة الفاتحة)

هذه الصلاة، النبي الكريم قال:

((الصلاة عماد الدين))

[أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عمر]

وقال أحد الصحابة: **" إذا حضرت الصلاة فكان الرسول لا يعرفنا ولا نعرفه".**

على كل مسلم أن يسبح بالله و يعاهده على الطاعة:

قال تعالى:

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ (17))

أي من يجيبني ؟ أي سبحوا الله، أي قوموا إلى الصلاة، قُم فصلي، قم فسبح، قم فنزّه، قم فمجّد، قم فاحمد الله، قم فعاهده على الطاعة:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(5))

(سورة الفاتحة)

استعن به، اتل أمره، اخضع لأمره في الركوع، اطلب منه المدد في السجود، وهكذا:

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17)

طبعاً هنا تمسون أي تدخلون في المساء، تصبحون تدخلون في الصباح، كلكم يعلم أن أصبح، وأضحى، وأمسى، وبات، وما برح، ومانفَكّ، وما فتئَ، وليس، وصار، هذه أفعال ناقصة لكن أحياناً هذه الأفعال تأتي تامّة، تقول: أصبح القوم، ما معنى أصبح القوم ؟ أي دخلوا في الصباح، أمسى القوم دخلوا في المساء، فقط، لكن إذا قلت: أصبح الطالب رقيق المشاعر، هذه فعل ماض ناقص.

أصل الصلاة هنا أن تسبّح الله:

هنا معنى تصبحون وتمسون أي تدخلون في الصباح والمساء، أي إذا جاء المساء قم فصلِ صلاة المغرب وصلاة العشاء، وأصل الصلاة هنا أن تسبّح الله، لذلك أول شيء في الصلاة تقول: **" سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك "** ثم الحمد لله رب العالمين وهكذا.

إذاً تمسون تعني صلاة المغرب والعشاء، وتصبحون تعني صلاة الصبح:

((وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

[صحيح البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

((مَنْ صَلّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمّةِ اللّهِ عَزّ وَجَلّ))

[سنن ابن ماجة عَنْ سَمُرَةَ ابْنِ جُنْدَبٍ]

معنى في ذمة الله، أضرب مثلاً هل تستطيع أن تضرب منتمياً إلى وزارة الداخلية كشرطي مثلاً ؟ لا تستطيع لأن العقاب مضاعف، فالدولة تحميه، وهذا الذي يصلي الصبح في جماعة فهو في ذمة الله، أنت عندما تعتدي عليه، أو تسيء له، أو تغتابه، تتجاوز حدّك معه، تأكل ماله، تهينه أحياناً، لا يحق لك ذلك فهو في ذمة الله ما دام قد صلى الصبح في جماعة، فسبحان الله، لذلك:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

[صحيح البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

((من أكرم أخاه فإنما يكرم الله))

[ابن النجار عن ابن عمر والديلمي عن جابر]

إذا أنت أكرمت أخاً مؤمناً لا تعرفه إلا أنه مؤمن، فكأنما أكرمت الله عزّ وجل، إذا استقبلت أخاً مؤمناً ورحبت به، عاونته على قضاء حاجته، له مشكلة ساعدته، طلب منك حاجة لبيتها له، أنت أقرضت الله قرضاً حسناً، والحديث معروف عندكم، يقول الله عزّ وجل:

((يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ))

[صحيح مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين:

إذاً:

(وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17))

سبحان الله فالإنسان إذا صلى الصبح في وقته يشعر أنه في ذمة الله، في حفظ الله كل نهاره، لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكفك النهار كله، أنت الآن في حصانة، فعلاً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، أي أنك ممنوع من أن تناله بسوء، كذلك كل إنسان صلى الصبح في جماعة فهو في ذمة الله، في ذمته، وفي حفظه، وفي رعايته.

(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18))

السماء أمطرت له الحمد، حبست ماءها له الحمد، يجب أن تحمده في السرّاء والضَرّاء:

((بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكره...))

[متفق عليه عن عبادة بن الصامت]

أنت كمؤمن طبعاً أن تحمده في الرخاء قضية سهلة جداً ؛ ولكن البطولة أن تحمده في الضراء، الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين.

(وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18))

هذه صلاة الظهر:

(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا (18))

العشي صلاة العصر:

(وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18))

العلماء وقفوا عند ظاهرة: تمسون فعل، تصبحون فعل، تظهرون فعل، أما العصر (عشياً) اسم، لا يوجد هنا فعل، قال: لأن صلاة الصبح في انتقال من الليل إلى النهار، صلاة المغرب والعشاء في انتقال من النهار إلى الليل، في تحول، أنت كنت في البيت نائماً، وقت الصلاة انطلقت بعدها إلى عملك، لكن صلاة العصر ليس فيها تحوّل، الصبح انتقال من الليل إلى النهار، المغرب غياب الشمس، العشاء غياب الشفق الأحمر، الظهر زوال الشمس عن كبد السماء، العصر لا توجد حركة، لا يوجد فعل، في استمرار، فجاء العشي اسماً ولم يأت فعلاً، هذا المعنى.

الحياة والموت لهما معنيان معنىً حقيقي ومعنى مجازي:

قال تعالى:

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19))

وقال:

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ (19))

الحياة والموت لهما معنيان، معنىً حقيقي ومعنى مجازي، المعنى المجازي:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 24 ")

المؤمن حي، والكافر ميّت، الموصول بالله حي، والمقطوع عن الله ميت، المستقيم على أمر الله حي، والمُنحرف ميت، الذي يعرف الله حي، والذي لا يعرفه ميّت، وربنا عزّ وجل قال:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: من آية " 21 ")

وقال أيضاً:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ(22))

(سورة فاطر)

كل إنسان مقبور بشهوة من الشهوات، هذا مقبور في تجارته، هذا مقبور في النساء، هذا مقبور في المال، لهذا سيدنا علي قال لابنه: **" يا بني مات خُزّان المال وهم أحياء ـ أموات وهم أحياء، أي وهم في أوج حياتهم، في أوج حيويتهم، في أوج قوتهم، في صحتهم التامة، في استمتاعهم بكل شيء، هؤلاء أموات ـ مات خزان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة ".**

من عمل بما علم جمع المجد من أطرافه:

مثلاً علماؤنا الأجلاء عبر العصور التوالي، أبو حنيفة النعمان يُذكَر في اليوم والليلة في العالم الإسلامي ملايين المرات، والإمام الشافعي، وسيدنا صلاح الدين، وسيدنا أبو بكر، وسيدنا عمر، وسيدنا عثمان، وعمر بن عبد العزيز، والإمام الجُنَيد، والشيخ محي الدين، العلماء، أما أن تذكر اسم إنسان غني عاش سنة ألف وثمانمئة وخمسة عشر بالشام ؟ اذكر لي اسم واحد لأعطيك ما تريد، لا تذكر، "مات خزان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر"، باب العلم مفتوح لكل واحد، اطلب العلم من المهد إلى اللحد، طلب العلم فريضة، أنت إذا أتيت إلى بيتٍ من بيوت الله، وفهمت كلام الله، تعلمت، درساً فوق درس، وجلسة إثر جلسة، وموضوعاً بعد موضوع، وكتاباً بعد كتاب، تصبح عالماً، فإذا عملت بما علمت جمعت المجد من طرفيه، فلذلك:

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ (19))

أحياناً تجد شاباً في منتهى الأدب والخشوع، ومعرفة الله، والاستقامة، والحب، وأبوه لا يصلي، وقد تجد أب من أرقى الآباء له ابن ضال، في الحالة الأولى أخرج الحي من الميت، والحالة الثانية أخرج الميت من الحي، هذا معنى مجازي.

عظمة الله في خلقه:

المعنى الحقيقي: انظر إلى البذرة، هذه البذرة تبدو لك ميتة، حبة قاسية، القمح بقي بالأهرامات ستة آلاف سنة، فلما زرعوه أنبت، فهذه الشجرة التي تضج حياةً، تأكل من المشمش بذرة خشبية، من الزيتون بذرة كلها خشب، هذه البذرة تبدو لك ميتة، ولكنك إذا وضعتها في التربة وجاءتها الرطوبة وجاءها الماء أنبتت رشيماً، فكأن الله أخرج من هذه الشجرة التي تضج حياةً بذرةً تبدو لك ميتة، فإذا زرعت هذه البذرة الميتة أعطت حياةً:

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (19))

الأشجار في الشتاء حطب، قد لا تصدِّق، لو أخذت غصن أحد الأشجار وكسرته تجده حطباً، خشباً يابساً، فإذا جاء الربيع ارتدت هذه الشجرة حُلّة بيضاء قشيبة، زهر رائع جداً، لطيف، له رائحة فوّاحة، من أين جاء هذا الزهر ؟ أرض جرداء، تذهب إليها في الربيع فترة الحياة، سيدنا عمرو بن العاص وصف لسيدنا عمر بن الخطاب بلاد مصر، فقال له:

" يا أمير المؤمنين مصر طولها شهرٌ ـ أي مسيرة شهر ـ وعرضها عشرٌ ـ عشرة أيام، طولها مسير شهر وعرضها عشرة أيام ـ يخط وسطها نهرٌ ميمون الغدوات مبارك الروحات ـ نهر النيل ـ فإذا هي عنبرةٌ سوداء ـ أي أرض تربة سوداء ـ إذا هي درةٌ بيضاء ـ عندما النيل فاض فمنظرها من فوق بيضاء، كأنها درة ـ ثم هي زبرجدة خضراء ـ بساط أخضر في الربيع ـ ثم هي عنبرةٌ سوداء فتبارك الله الفعال لما يشاء ".

الأشجار أيضاً من آيات الله الدالة على عظمته:

قال تعالى:

(وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (19))

أرض ميتة، بالربيع ترى آلاف أنواع الأزهار على الطريق، غير الحشيش الأخضر، كلها خضراء، أزهار قصيرة وطويلة، وبنفسجية، وصفراء، وبيضاء، وحمراء، لو أردت أن تعد الأنواع تجدها آلافاً مؤلفة، وكل زهرة لها ألوان متناسقة، ولها حجم مناسب، ولها بُنية خاصة، ولها ترتيب خاص، أين كان هذا كله ؟ هذه الشجرة كأنها قطعة حطب مُشَعَّبَة، أزهرت فأورقت فأثمرت، أين كان هذا كله ؟ هذه آياته.

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (04-14): تفسير الآية 20

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-02-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الرابع من سورة الروم.

عملية التغذية:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(19))

(سورة الروم)

هذه الآية الثانية، يضاف إلى المعاني التي قيلت في الدرس الماضي، أن الإنسان قد يتناول بعض المواد، هذه المواد تنقلب في جسمه إلى أنسجة حيّة، هذه الأنسجة تُسْتَهْلَكَ فتنقلب إلى مواد ميّتة، فعملية التغذية ؛ عملية تناول مواد ميّتة، ثم تصبح حيّة، ثمّ تعود ميّتة، لو دقّقنا في عملية تمثيل الغذاء وطرح الغازات السامّة والفضلات، وتناول بعض المواد لوجدت أن هذه المواد في أصلها مواد ليس فيها حياة، تنقلب في جسم الإنسان إلى أنسجةٍ حيّة، تتولّد عنها طاقة، ثم تتحوّل إلى مواد يفرزها الجسم خارجاً، إذاً هذا أيضاً مما يضاف إلى قوله تعالى:

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19))

أساس السعادة العبادة والعبادة أساسها المعرفة التي تتطلب الوقوف عند آياته سبحانه:

أيها الأخوة الأكارم آية اليوم:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

الحقيقة أن الإنسان أحياناً إذا أراد التعرُّف على إنسانٍ آخر ؛ له أن يلتقي به، له أن يرى صورته، أن يحدِّثه، أن يقرأ كتابه، هناك قنواتٌ عدّة كي تعرف إنساناً ما، ولكنّك إذا أردت أن تعرف خالق الكون ليس من سبيلٍ إليه إلا سبيلٌ واحد هو أن تتعرّف إلى آياته، لماذا الآيات لا بد من أن نتأمّل فيها ؟ لأنه لا يمكن أن تطيعه إلا إذا عرفته، ولا يمكن أن تسعد إلا إذا أطعته، مطلبك الأساسي أن تسعد، والسعادة أساسها العبادة، والعبادة أساسها المعرفة، والمعرفة قناتُها الوحيدة أن تقف عند آياته.

طبيعة الإنسان ليس في إمكانه في الدنيا أن يرى الله جهرةً، أنت قد ترى الشيء مباشرةً ؛ ترى لونه، ترى حجمه، ترى أبعاده، ترى جُزْئيّاته، أما فيما يتعلّق بحضرة الله عزّ وجل ليس كمثله شيء، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، إذاً إذا أردت أن تسعد لا بد من أن تعبد، إذا أردت أن تعبد لا بد من أن تعرف، إذا أردت أن تعرف لا بد من أن تتأمّل في آياته، إذاً:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(6))

(سورة الجاثية)

هذا استفهام إنكاري، أي يا عبادي هل من طريقٍ إلي إلاّ الآيات ؟ هل من طريقٍ إلى معرفتي إلا هذه الآيات التي نصبتُها لكم ؟ هل من طريقٍ إلى القرب إلي إلا عملٌ طيّب أساسه معرفةٌ بي ؟ فإذا وقفنا الآن عند بعض الآيات فليس المقصود هذه الآيات ؛ بل المقصود ربُّ الأرض والسماوات، المقصود أن ترى الله من خلال خلقه، المقصود أن تنتقل من شَطٍ إلى شَط، إذا كان الكون شَطّاً فمعرفة الله هي الشَطُ الآخر، لا بد من أن تعبر هذا الجسر.

الفرق بين أهل الدنيا وأهل الآخرة:

الفرق بين أهل الدنيا وأهل الآخرة أن الأجانب وقفوا عند هذه الآيات، درسوها، وتأمّلوها، ودرسوا القوانين، والعلاقات، وتبحّروا، وتعمّقوا، والدليل ما وصلوا إليه، ولكنهم ما أرادوا أن يعرفوا الله من خلال هذه الآيات، فبقوا في الجَهْل، أما المؤمن إذا رأى هذه الآيات لا بد من أن ينتقل منها إلى معرفة الله عزّ وجل، اليوم آية واحدة:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ (20))

أينما التفتت ترى التراب، خُذ حَفْنَةً من تراب، قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ (20))

بشر، إنسان، يوجد في دماغك مئة مليار خليّة استناديّة لم تُعْرَف وظيفتها بعد، توجد على القشرة الدماغيّة أربعة عشر مليار من الخلايا السمراء التي فيها المُحاكمة، فيها التذكّر، فيها السَمع، فيها البصر، فيها التخيُّل، فيها التصوُّر، فيها المركز الحركي، فيها مركز الإحساس، هذه قشرة الدماغ لو أصاب جزءاً طفيفاً منها خللٌ فقد الإنسان حركته، وأصيب بالفالج، شريان في الدماغ تضيّق، أصيب بفقد ذاكرته، أو فقد بصره، هناك عمىً ليس أساسه العين، العين سليمة ولكن أساسه تعطل مركز البصر في الدماغ، فلان أصيب بسكتة دماغيّة، أي أن شرياناً في دماغه انفجر، وعندما انفجر تعطّلت التغذية عن بعض أجزائه، فماتت الخلايا العصبيّة، بموتها يفقد الإنسان سمعه، أو بصره، أو ذاكرته، أو حركته.

حفظ الله عز وجل الدماغ لأنه مناط التكليف:

هذه الحفنة من التراب كيف صارت مئة مليار خليّة، ليس مليون بل مليار، مئة مليار خليّة وفوق خمسة عشرَ أو أربعة عشرَ مليار من الخلايا السمراء التي تتوقّف عليها حياتك العقليّة، ذاكرتك، كل خبرات الطبيب في ذاكرته، يكتب الدواء على الفور لأنه موجود في ذاكرته إن هذه الأعراض يناسبها هذا الدواء، كل خبرات البائع في ذاكرته، الصانع، المزارع، التاجر، أصحاب المِهَن الحرّة، أصحاب المهن الراقية، كل النشاطات والطاقات في الذاكرة، لو فقد الإنسان ذاكرتَه فقد كل شيء.

لكن هذه الحفنة من تراب كيف أصبحت دماغاً ؟ وخلايا الدماغ لا تنمو، وخلايا الدماغ لا يصيبها السرطان حتّى الآن، القشرة الدماغيّة، مكان التفكير، مكان الوعي، مكان الإدراك، مكان التصوّر، مكان التخيُّل، مكان التذكّر، لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل، لأن هذا الدماغ مناط التكليف، وما دام الدماغ مناط التكليف فقد حفظه الله عزّ وجل من أي ورمٍ خبيث، فهذا الدماغ حفنة تراب، فهكذا تقول الآية:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ (20))

هذه العظام، عظم الفخذ لكي يأتي شكل الإنسان رائعاً، هذا العظم له عنق، ولهذا العنق مُشاشة وهذه المشاشة تتمفصل مع الحوض، الإنسان أحياناً يحمل خمسمئة كيلو، صندوق حديد، هناك إخوة يعملون في نقل صناديق الحديد، لكن أين يقع كل هذا الثقل ؟ على عنق الفخذ، فكل عنق فخذٍ في الإنسان يتحمّل ضغط مئتين وخمسين كيلو، الإنسان يتحمّل ضغط قدره خمسمئة كيلو، حفنة تراب هشّة كيف أصبحت بهذه المتانة ؟

من جعل في هذه العظام معامل ؟ في جوف العظام مادة هلامية هي معامل كريات الدم الحمراء، هذا المعمل ينتج في الثانية الواحدة اثنين ونصف مليون كريّة حمراء، في كل ثانية، وهناك مرض خطير اسمه فقر الدم اللا مصنِّع، هذه المعامل في هذا المرض تكفُّ عن صنع كريات الدم الحمراء، والسبب حتى الآن غير معروف، فهذا التراب أيكون معملاً لكريات الدم الحمراء ؟!!

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

بعض آيات الله الدالة على عظمته:

هذا العظم إذا انكسر، العظم ينمو، كيف يقف هذا العظم عن النمو، من رسم له خطاً وهمياً أن قف عند هذا الحد ؟ من أسماء الله الباسط والقابض، عظام الفخذ تنمو، وفي سن العشرين تقف عند حد، هذا السؤال المُحَيّر: من الذي يأمر هذه العظام أن تقف عند هذا الحد ؟ لو لم تقف لكان هناك مرضٌ خطير اسمه مرض العَمْلَقَة، هذه الأسنان تقف عند حدِّها، هذا الفك يقف عند حدِّه، عظام الجمجمة تقف عند

حدِّها، فهذه العظام بعضها مسطّح كلوح الكتف، بعضها أسطواني، والأسطواني له مشاشة، والمشاشة متمفصلة بحفرة، هناك سائل لمنع الاحتكاك، هناك ألياف، هناك روابط، هناك عظام مسطّحة كالجمجمة، لها مفاصل منكسرة تتمفصل بتداخلها، فما هذا التصميم ؟ عظام الجمجمة، من جعل هذه الجمجمة تدور ؟ هكذا إذا سمعت صوتاً من ورائك تدير رأسك فقط، أما لو لم يكن هذا المفصل الدائري لاضطررت أن تدور جميعاً بجسمك كلّه، من جعل هذا المفصل حركته دائريّة ؟

عظام الرسغ أيضاً، فهذه العظام لو كُسِرَتْ، الإنسان يعيش سبعين أو ثمانين سنة، توقّف نمو العظام في سن الثمانية عشر، عمره خمسة وستون كُسرت رجله، قال: إن هذه الخلايا تستيقظ، كانت نائمة ثلاثين سنة فاستيقظت وبدأت تنمو كي يلتئم العظم، وما دور الطبيب إلا أن يضع العظم وضعاً مُحْكَمَاً فقط ويضع له الجبصين، ويقول لك: انتهت العملية، عندئذٍ العظم يتولّى، ولكن من جعل هذا العظم بهذه المتانة ؟

ميناء الأسنان أيها الأخوة يأتي بعد الماس في قساوته، نحن نصف الأشياء إما بالمتانة وإما بالقساوة، قِوى الشد نَصِفُهَا بالمتانة، أمتن شيء في الحياة الحبل الفولاذي، وقالوا: إن القمر مربوط بالأرض بجاذبيّة تساوي كتلاً من الفولاذ قطره خمسين كيلو متر، هذه قِوى التجاذب، فقوى الشد نصفها بالمتانة، وقوى الضغط نصِفُها بالقساوة، وميناء الأسنان يأتي في قساوته بعد الماس، بعد أقسى حجر طبيعي، هذا التراب الذي تراه بعينك، تسير عليه، تحفر الأرض، تنقله من مكانٍ إلى مكان، يصبح هيكلاً عظمياً مدروساً، عظم الحوض ربنا عزّ وجل قال:

(ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(13))

(سورة المؤمنون)

الرحم يقع في المتوسّط الهندسي تماماً في الجسم، لو أخذت خطاً طولياً وخطاً عرضياً يتعامدان عند الرحم، من وضع الرحم في هذا الحوض ؟!!

العضلات وحدها تعتبر من آيات الله الدالة على عظمته:

شيءٌ آخر: هذه العضلات، ما قيمة الهيكل العظمي من دون عضلات ؟ كل عضلةٍ تُحَرّك عَظْمَاً، لكن العضلة كيف تتقلّص ؟ من منكم فكّر في هذه الآية من آيات الله الدالّة على عظمته ؟ تقلّص هذه العضلة، عضلات مخطّطة يأتيها أمر عصبي، ما الذي يحصل ؟ كيف تنكمش هذه العضلة فترتفع يدك، وكيف تنبسط ؟ لو اطلعت على إنسانٍ من دون جلد لرأيت في عضلاته العجب العُجاب، عضلة باسطة، وعضلة قابضة، وعضلة مائلة.

العين فيها عضلة وحشيّة، عضلة إنسيّة، عضلة مائلة، حركات العين، حركات الرأس، ملامح الوجه، عضلات البطن، عضلات الظهر، عضلات اليدين، عضلات الرِجْلين، هذه العضلات من خلقها ؟ عضلات ملساء لا إراديّة، عضلات مخطّطة إراديّة، وعضلة القلب عضلةٌ قائمةٌ بذاتها، لأنها تعمل ثمانين عاماً دون كللٍ أو تعب، منذ أن ينبض القلب في الجنين إلى أن يحين الحين وهذا القلب ينبض، يستريح بين النَوْبَتَين راحة تكفي لزوال حمض اللبن في أجزاء العضلة، هذا القلب يضخُّ في اليوم الواحد ثمانية أمتار مكعّبة ؟! هذه أشياء بديهيّة إخواننا الأطباء يعرفون ذلك.

لكن في بعض البلاد المتقدِّمة عمرانياً هناك ناطحات سحاب، بعض العمارات مئة واثنا عشر طابقاً، لو أخذنا ناطحة من ناطحات السحاب مساحتها ألف متر مربّع، أي قطرها تقريباً ثلاثة وثلاثون متراً، مساحة الناطحة ألف متر مربّع، وارتفاعها ثلاثمئة متر، الإنسان في عمر ستين سنة يملأ هذا البناء دماً بضخّ قلبه، فقلب الإنسان في عمر متوسّط يضخُّ دماً يملأ هذا البناء الشاهق.

هذا القلب، هذه العضلة التي حار العلماء فيها، هذه من تراب، فيها دَسّامات، فيها شريان مغذٍ للعضلة نفسها، فيها أوردة، فيها فتحات، فيها أذينين، فيها بطينين، فيها أشياء محيّرة.

ومن آياته سبحانه جلد الإنسان وشعره وأوعيته:

لهذا أيها الأخوة:

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

لو نظرت إلى إنسان على مستوى العضلات فقط، لولّيت منه فراراً ولمُلئت منه رعباً، أما الإنسان بالجلد ؛ غلاف أنيق، محكم، مرن، فيه خلايا دهنيّة ـ إذا دخل الإنسان إلى الحمام يشعر أنه بحاجة إلى مادّة دهنيّة تغلِف جلده ـ هناك غدد دهنيّة، هناك أشعار، وغدد تَعَرُّق، ونهايات عصبيّة للحرارة، والبرودة، والضغط، واللمس، والخشونة، والنعومة، فالجلد لوحده اختصاص قائم بذاته، وأمراض الجلد لا يعلمها إلا الله، وهذا من تراب.

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

الشعر، في رأس الإنسان توجد ثلاثمئة أو أربعمئة ألف شعرة، لكل شعرة شريان يغذيها، ووريد يأخذ الدم الراجع منها، وعصب حِسّي، عصب محرّك، وعضلة، وغدّة دهنيّة، وغدّة صبغيّة، ثلاثمئة ألف شعرة في رأسه لكل شعرة عصبٌ، ووريدٌ، وشريانٌ، وغدّة دهنيّة، وغدّةٌ صبغيّة:

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

الأوعية، في جسم الإنسان الأوعية طولها خمسين كيلو متر، الأوعية قلوب، الله عزّ وجل جعل الوعاء مرن، فعندما يتلقى من القلب النبضة يتوسّع لمرونته، توسُّع هذا الوعاء بدافع مرونته ينضغط مرّة ثانية، صار الوعاء قلب يتوسّع وينقبض، فالله عزّ وجل جعل للإنسان هذا الضغط الشرياني، أساساً كلّما كان الإنسان شاباً كانت شرايينه مرنةً، ومعنى مرنة أي تريح القلب، فإذا تصلّبت تعب القلب، فمن جعل هذه الشرايين مرنة تتجاوب مع القلب، من جعل لها عضلات تضيقها وتوسُّعها ؟

يقول لك: هناك أدوية موسّعة للشرايين، وهناك أدوية مضيّقة، طبعاً كل إنسان يدخّن توجد في الدخان مادّة تضيّق هذه الأوردة فتجد وجهه دائماً أصفر، وقلبه تعبان من ضيق الأوعية، والوضوء يجعل الوجه وردي اللّوْن، السبب أن الماء البارد ينبّه أعصاب الأوعية فيوسّعها، اسمه وضوء من الوضاءة، هذه الأوردة والشرايين لها علم قائم بذاتها.

كلّما زادت معرفتك بالله زاد خشوعك له:

أنا أقول لكم عناوين يا إخوان، عناوين موضوعات، كل موضوع اختصاص، كل موضوع يحتاج إلى عشرة سنوات دراسة، كل موضوع فيه خمسمئة أو ستمئة مرجع، فلان جرّاح أوعية، فلان مختص بالأمراض العصبيّة ذات المنشأ الهضمي، في أمراض عصبيّة ذات منشأ آخر، فهذا التفكير، هكذا يجب أن تفكّر من أجل تعرف الله عزّ وجل، من أجل أن ترى عظمة الله عزّ وجل، من أجل أن تخشع له، من أجل أن تطيعه، كلّما زادت معرفتك بالله زاد خشوعك له:

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ (20))

هذا البلعوم يعمل ثمانين عاماً بلا كَلَل ولا مَلَل، كلّما أردت أن تبلع شيئاً أغلق فتحة الرئتين إغلاقاً محكماً، فلو دخل إلى الرئتين قطرة ماء لكان هناك مضاعفات خطيرة، فإذا أردت التنفُّس أغلق فتحة المري، وأنت نائم يجتمع اللعاب في فمك، فيتنبّه الدماغ، فيأمر البلعوم فيفتح، وكأنّه شرطيٌّ للسَيْر، هذا يعمل ثمانين عاماً من دون كلٍ أو ملل وأنت لا تدري، فالإنسان عند طبيب الأسنان لأنه لا يستطيع أن يغلق فمه كي ينتقل اللعاب إلى المري، فيضع له ماصة لتمتص هذا اللعاب الزائد، اللعاب آية من آيات الله الدالّة على عظمته.

هذه البروستات التي يتحدّث عنها الناس كثيراً، هذه أيضاً غدّة تقف على مفترق الطرق، طريق ماء الحياة وطريق البول، فإذا كان لزاماً للبول أن يخرج أغلقت ماء الحياة وفتحت طريق مجرى البول، البول مادّة حمضيّة، إذاً هذه الغدّة تفرز مادّة قلويّة تتعادل مع المادّة الحمضيّة لئلا يتخرّش المَجرى، أما إذا أراد أن يخرج ماء الحياة، المجرى كان فيه بول، فتفرز هذه الغدّة مادّة مطهّرة، ثم مادّة معطِّرة، ثمّ

مادّة سكريّة، وأنت لا تدري، هذا المذي والمني، المذي هكذا، مواد معطِّرة ومطهّرة ومغذِّية تفرزها البروستات، وتعمل لإغلاق مجرى البول تارةً، وإغلاق مجرى ماء الحياة تارةً أخرى، ثمانين عاماً من دون كللٍ أو ملل، وهي تراب، حفنة من تراب تصبح جهازاً بالغ التعقيد، هذه آياته الدالّة على عظمته.

المري والكلية من آيات الله الدالة على عظمته أيضاً:

المري من جعله عضلات دائريّة على شكل حلقات ؟ لو علّقت إنساناً من رجليه وناولته كأس ماء لصعد الماء نحو الأعلى طبعاً، بأي وضع أنت إذا أكلت شيئاً ينتقل إلى المعدة ؛ بوضع أفقي، بوضع قائم، بوضع مقلوب، بأي وضعٍ شئت بفضل هذه العضلات الدائريّة المتلاحقة التي تتقلّص تباعاً، ومن آياته، تأكل وأنت مستريح.

أي جسمٍ يدخل إلى الرغامى هناك أشعارٌ تطرده نحو الأعلى، هذا هو السُعال والقَشَع، إذا دخل جسم إلى الرغامى هذه الأشعار تطرده نحو الأعلى:

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

هذه الكُلْية التي يمرُّ بها الدم في اليوم خمس مرّات، خمس مرّات ويقطع فيها طريقاً طوله مئة كيلو متر، والكلية الواحدة فيها طاقة لتصفية الدم تعادل عشرة أمثال حاجة الجسم، فأنت مزوّد بكليتين فيهما طاقة لتصفية البول تعادل عشرين حاجتك، هذا من اسم السلام، وأنت لا تدري، وكل عشرين ثانية نقطة بول تنزل من الكلية إلى مستودع، لو أنه لا يوجد مستودع أي إلى الخارج مباشرة لكان الإنسان يحتاج إلى فوط، فهناك مستودع، وعضلات قابضة، لو لم يكن هناك عضلات قابضة لاحتجنا إلى تنفيس للهواء وإلا فلا ينزل البول، فكِّر، عندما كان يقضي النبي الكريم حاجته كان يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي الأَذَى وَعَافَانِي))

[سنن ابن ماجة: عَنْ " أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ "]

مستودع يكفيك ثماني ساعات، أنت مسافر لاجتماع مهم، تلقي خطاباً، فالله ساترك، لو رأساً يخرج البول لكانت المشكلة كبيرة جداً.

المثانة والحالبان من الآيات الدالة على عظمته سبحانه:

هذه المثانة من آياته، والحالبان من آياته، وهذه العضلة إرادية، لو كانت عضلة غير إراديّة لوقع الإنسان في متاهة كبيرة جداً، وهي من أغرب عضلات الجسم، إراديّة إلى حد، إذا البول ملأ المثانة وعاد إلى الكليتين تفتح لا إرادياً، دقِّق:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ (20))

عضلة إراديّة إلى حدٍ ما، فالإنسان عندما يأكل، يتنفّس، يشرب يجب أن يفكر هذا صنع من ؟!!

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل: من آية " 88 ")

لو لاحظت مجسّماً بمحلات الألبسة الجاهزة تجد أن قاعدته ستين أو سبعين سنتيمتر لكي يقف هذا الإنسان الذي صنع من جبصين أو شمع، الإنسان يقف على قدمين لطيفتين، ما السر في ذلك ؟ جهاز في الأذن اسمه جهاز التوازن، وهو مكوّن من ثلاث قنوات فيها أشعار، فيها سائل، الإنسان عندما يميل يتنبّه فيعيد توازنه، لولا هذا الجهاز في الأذن لما أمكن الإنسان أن يركب دراجة إطلاقاً، لو كان وزن القدمين عشرين كيلو، وعرضها مئة وأربعون سنتيمتر، صار المشي أشغالاً شاقة، أما ربنا عزّ وجل جعل للإنسان قدمين لطيفتين وزنهما خفيف بفضل جهاز التوازن، والدليل هل بإمكانك أن تجعل ميّتاً يقف على قدميه ؟ يموت فيقع لأن هذا الجهاز تعطّل، وأنت أساسك من تراب:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

العين والأذن من إبداع الله عزّ وجل:

هذه العين فيها العجب العُجاب، القرنية، هذه الطبقة الشفّافة شفافية تامّة، كيف تتغذّى ؟ تتغّذى بالحلول، أي أن الشريان يأتي إلى الطرف يعطي الخليّة غذاءها وغذاء جارتها، ينتقل الغذاء من خليّة إلى خليّة من أجل ضمان شفافيّة الرؤية، هذا من إبداع الله عزّ وجل، لو لم تكن هذه الخاصّة موجودة ـ خاصّة الحلول ـ لرأيت نفسك تنظر من وراء شبكة بالضبط، سيكون هناك شبكة من الأوردة والشرايين وترى من خلال شبكة، لكن ربنا عزّ وجل جعل هذه القرنية شفّافة، وجعل وراءها القُزحيّة، ووراءها جسم بلوري، وخلط زجاجي، وجعل في الشبكيّة مئة وثلاثين مليون عصيّة ومخروط، وجعل عصباً مكوناً من تسعمئة ألف عصب ينتقل إلى الدماغ، ولو جئت بلونٍ أخضر ودرّجته ثمانمئة ألف درجة فالعين البشريّة ترى الفرق بين درجتين، تجد الناظر يقول: هذه أغمق، هذه أفتح، لو دَرّجت اللون ثمانمئة ألف درجة فالعين ترى الفرق بين درجتين.

الأذن فيها غشاء الطبل، والاهتزاز، والمطرقة، والسندان، نحن لا يوجد لدينا إلا جهاز تكبير، أما الأذن فيها جهاز بالغ الدقة، الصوت الضخم يخَفّفه والضعيف يكبّره بآنٍ واحد وأنت لا تدري، بشكلٍ لا شعوري الصوت العالي يخفّضه هذا الجهاز، والمنخفض يضخّمه، ولا يزال موضوع السمع شيئاً مُلْغِزاً في علم الطب، الإنسان كيف يسمع النغم ويطرب له، وكيف يسمع الضجيج فينزعج منه ؟ ما الفرق بين الضجيج وبين النغم ؟ هذا من ألغاز العلم حتى الآن:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ (20))

الغدة النخامية والطحال والكبد من الآيات الدالة أيضاً على عظمة الله تعالى:

الغدّة النخاميّة الصغيرة في الدماغ ملكة الجهاز الهرموني، ملكة، كل الغدد تأتمر بأمرها، الإنسان إذا رأى أفعى في بستان يرى الأفعى فتنطبع صورتها على الشبكيّة، تنتقل للدماغ، الدماغ يأمر هذه الغدّة النخاميّة بالتصرُّف، هذه الغدّة تعطي أمراً هرمونياً إلى الكظرين فوق الكليتين، الكظران يعطيان أربعة أوامر ؛ أمر للأوعية بالتضيُّق، فيصفر لون الخائف، أمر للقلب بالتسرُّع، أمر للرئتين بازدياد الخَفَقَان، وأمر للكبد لطرح كميّة من السكر زائدة، وأنت لا تدري، أنت من تراب، فما هذه التعقيدات البالغة ؟
الطحال مقبرة لكريات الدم الحمراء، والطحال معمل دم احتياط، لو قُصِفَت معامل الدم، هناك معامل دم أخرى جاهزة للصناعة، فالطُحال معمل للدم احتياط، والطحال مقبرة، والطحال مستودع، مستودعٌ لكريات الدم الحمراء، ومعملٌ احتياطي، ومقبرةٌ تتحلّل بها هذه الكريات وأنت لا تدري.
الكبد، الكبد يقوم بخمسة آلاف وظيفة، والكبد بإمكانه أن يعيد بناء نفسه في ستة عشر أسبوعاً، لو جاء الجرّاح وقطع بالمشرط أربعة أخماس الكبد وبقي الخُمس، الكبد يعيد بناء ذاته في ستة عشرَ أسبوعاً، أسرع الخلايا في الإنسان في نموها خلايا الكبد، وأنت لا تدري، الكبد يقوم بخمسة آلاف وظيفة، الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا كبد أكثر من ثلاث ساعات، وتَشَمُّع الكبد أخطر مرضٍ في الإنسان أساسه الخمر، شرب الخمر يؤدي إلى تشمُّع الكبد، أي تَعَطُّلِ وظائفه.

البنكرياس والطحال والكبد والصفراء كلها لها وظائف خطيرة في الإنسان:

أيها الأخوة هذه عناوين، أنا أعطيكم عناوين، كل موضوع يحتاج إلى خمس سنوات دراسة، خمس سنوات كتب ومراجع كي تختص بأمراض الكبد، أو أمراض الغدد.
هذه الغدّة الدرقيّة فيها شيء عجيب، فيها الدَرَقِين الذي يعين على الاستقلاب، والاستقلاب تحوُّل الغذاء إلى طاقة، إذا كانت هذه الغدّة نشيطة يصبح الإنسان كله نشيطاً، كل شيء يأكله يُصبح طاقةً، إذا ضعفت هذه الغدّة يصبح خامل الجسم يميل للراحة، إذاً يذهب جزء من غذائه إلى التخزين فيزداد وزنه، الغدد دقيقة جداً، بالمعايير، مفرزات الغدّة النخاميّة تُنَشِّط الغدّة الدرقيّة، مفرزات الدرقيّة تثبّط الغدّة النخاميّة، في توازن دقيق.
البنكرياس، أنت تحرق السُكّر في درجة سبع وثلاثين، أحضر سكّر وضعه على كفّك لا يحترق إلا بدرجة مئة، ما المادّة التي تحرق السكّر في درجة منخفضة ؟ هي الأنسولين المفرز من البنكرياس،

فالذي يضعف بنكرياسه يصاب بمرض السكر، السكر هو سكر متراكم في الدم غير محترق، فلكي يحرقوا هذا السكر يحتاج إلى إبرة من الأنسولين، البنكرياس له وظيفة خطيرة في الإنسان، الطحال له وظيفة، الكبد له وظيفة، الصفراء لها وظيفة.

فإذا أحد الأشخاص استأصل الصفراء، لا يستطيع أن يأكل مواد دهنية، لأن الصفراء هي التي تفرز مادّتها فتذيب الدُهن وتهضمه، لئلا تتراكم في جسمه.

هذه عناوين موضوعات بين أيديكم، وأصلك من تراب:

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

الحنجرة، هذا الدرس إلقاؤه بهذه الحنجرة، هي عبارة عن فتحة لها قُطر مُعَيَّن دقيق جداً، لو اتسعت قليلاً ذهب الصوت، ولو ضاقت لانحبس الصوت، وكل إنسان له نبرة لصوته، كانوا قديماً يظنون أن الإنسان له بصمة واحدة، الآن قزحيّة عينه بصمة، لا يوجد إنسان بالخمسة آلاف مليون إنسان تشبه قُزحية عينه قزحيّة عينٍ أخرى، أبداً، بصمته هويّة، وقزحيّة عينه هويّة، ونبرة صوته هويّة، وبلازما الدم هويّة، والزمرة الدمويّة هويّة، والزمر النَسيجيّة هويّة، الله خلق الإنسان فرد، خلقه على صورته.

للإنسان حياة عقليّة وحياة نفسيّة وحياة اجتماعيّة:

أيها الأخوة الآية الكريمة تقول:

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

هذه فيها معنى آخر، الطبع، فلان انطوائي، وآخر مُنْفَتِح، وثالث اجتماعي، ورابع انعزالي، وخامس حاد، وغيره هادئ، وآخر أنيق، أو أقل أناقة، هذا انفعالي وذاك عصبي المزاج، وغيره متشائم أو متفائل، وهذا سهل وذاك ممتنع، توجد طباع مختلفة، من صمّم هذه الطباع ؟ الطباع علم قائم بذاته يُدَرّس في الجامعات اسمه علم الطباع.

حتى بين الذكر والأنثى، طفلة صغيرة تأتي بوسادة وتجعلها ابنتها، وتربت على ظهرها، وتسكتُها، وتطعمها، أما الطفل يركب قضيباً وكأنه يمتطي حصاناً، فمن صمّم هذا الطفل الصغير على طباع، وعلى أشكال، وعلى أخلاق، وعلى تصرفات تتناسب مع وظيفته ؟

(إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

تجد في سن الثامنة عشر الشاب يَخْشن صوته، تنمو عضلاته، ينمو شعره في أماكن معيّنة، الفتاة لها ترتيب آخر، ينمو صدرها، فما هذا الترتيب ؟ هذا من تصميم الله عزّ وجل.

شيءٌ آخر: أنت في حياة نفسية تعيشها غير هذا الجسد، تحس بالخوف، تحس بالغضب، تحس بالرضى، تحس بالتشاؤم، تحس بالثورة، بالانفعال، أحياناً تهدأ، أحياناً ترجو، يمر على الإنسان مشاعر عديدة جداً، نحن درسنا في الجامعة ثلاثمئة مرض نفسي، أمراض، ومشاعر، وأحوال، أنت لك عالَم قائم بذاته وهو عالَم النفس، والآن يوجد علم نفس الشيوخ، وعلم نفس الصغار، علم نفس المَعوقين، هذه النفس غير الجسد، أحياناً الإنسان يفقد ثقته بنفسه فينعكس هذا بحبسة في اللسان، يتأتىء بسبب ضعف الثقة بنفسه، هناك أمراض عضويّة كثيرة جداً أسبابها نَفْسِيّة، هناك شلل سببه نفسي وهو شعور بالذنب يُجَسّد بشلل، لا يشفى إلا عندما ترجع ثقته بنفسه، فالنفس عالَم قائم بذاته.

هناك حياة عقليّة، يوجد عندنا إدراك، وإحساس، ويقين، وتصوُر، وتذكُر، وتخيُل، ومحاكمة، العقل عالم قائم بذاته، توجد حياة عقليّة للإنسان، وحياة نفسيّة، وحياة اجتماعيّة ؛ الإنسان يألف أخاه، الإنسان يأنس بزوجته أحياناً، بأهله، بأقربائه، أحياناً ينتقل من بلد إلى بلد ويدفع مئة ألف ليرى أمّه، هذه حياة اجتماعيّة، الله عزّ وجل ثبّتها بالإنسان.

تنوّع القدرات والمواهب والمشاعر والطباع من آيات الله الدالة على عظمته:

من ركّب هذا الإنسان بهذه الطريقة ؟ هناك حياة جسميّة، حياة عقليّة، حياة نفسيّة، حياة اجتماعيّة، ربنا قال:

(إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

هذا مهندس، هذا طبيب، هذا محامٍ، هذا مدرّس، هذا بنّاء، هذا طيّان، هذا دهّان، هذا كهربائي، هذا محاسب، هذا فنّان، هذا خطّاط، هذا رسّام، هذا موسيقي، هذا محتال، هذا منحرف، أنواع منوّعة، ملكات وقدرات، هذا عنده قوة إقناع، هذا عنده قوة تأثير، هذا عنده قوة جذب، هذا عنده قدرة في الذاكرة كبيرة جداً، يسمع الاسم فيحفظه من أول مرة، هذا ذاكرته أرقام، هذا ذاكرته وجوه، هذا ذاكرته صور.

(إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

راقب الناس، فلان عنده بيت أنيق جداً كل يعتني به، وآخر بيته لا ينتظم لأنه مهتم بشيء ثان، شخص آخر مهتم بالتُحَف، واهتمام الآخر بالمال، فلان مهتم بالعلاقات الاجتماعيّة، وغيره مهتم بالمناصب، اهتمامات:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(1)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(2)وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(3)إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى(4))

(سورة الليل)

من صممّ هذا التصميم ؟ يوجد في الشام خطاطين ثلاثة أو أربعة أو خمسة، لو كان فيها مليون خطّاط لماتوا كلهم من الجوع، كل مهنة تجد أنها تتناسب مع حاجة البلد، هذه المهن الراقية، هذه المهارات الفنيّة، هذا النبوغ، تجده متوازناً مع حاجة كل منطقة.

الله تعالى أعطى الإنسان عقلاً وألهمه:

قال تعالى:

(ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

أنت فكِّر بالحياة العقليّة للإنسان، وبالحياة الاجتماعيّة، بالحياة النفسيّة، بتنوّع القدرات، بتنوُّع المواهب، بتنوُّع المشاعر، فكِّر بالطباع ؛ من صممّ هذا التصميم ؟!! وكله من تراب، أليست هذه آية دالّة على عظمة الله عزّ وجل، هذه الآية يمكن أن تكون موضوعاً لأفكار شتَّى وكثيرة في كل يوم، فالإنسان لا يمر على الآيات مرور الكرام، فأي شيء فعله يقف عنده.

(وَمِنْ آيَاتِهِ (20))

هذه الـ(من) للتبعيض، أي من بعض آياته:

(أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20))

معنى من تراب، سيدنا آدم من تراب ثمّ نفخ فيه من روحه، خذ إنساناً ميّتاً ماذا يساوي ؟ هو مسمار حديد، وقليل من الكلس، ودهن قليل، الإنسان عبارة عن لوح صابون، وحوالي لترين كلس، وتقريباً مسمار من حديد، وسبعين بالمئة منه ماء، ثمنه كله خمس وعشرون ليرة إذا كان ميتاً، أما وهو حي مصلح عظيم، ونبي عظيم، سيدنا رسول الله قلب وجه الأرض، أساسه تراب، وقد تجد إنساناً ترك أثراً كبيراً جداً في العالَم لما حباه الله من ذكاء وعبقريّة، ومثال ذلك اختراع الطائرة، تطير في الجو وفيها ثلاثمئة وخمسين راكباً، مكيّفة، آكلين، مرتاحين على مقاعد وثيرة، هذا من آثار الدماغ، الله أعطى الإنسان عقلاً وألهمه.

التفكير عبادة وفريضة لأنه القناة الوحيدة لمعرفة الله:

قال تعالى:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

انظر للآلات الحديثة، وأنت جالس تتصل بآخر هاتفياً في اليابان، تسمعه وكأنه يجلس بجانبك، بجهاز التلكس الحديث، تضع أصبعك على الزر (M) فيصل إلى آخر الدنيا في الثانية نفسها، ما هذا ؟ هذه من آثار العقل الذي أكرمنا الله به، فالإنسان لا يمشي هكذا كالأنعام، الأنعام ماذا تفعل ؟ تأكل، وتشرب، وتتنعّم، وليس هناك تفكير يهديها إلى خالقها.

إن شاء الله في درسٍ قادم نتابع هذه الآيات، هذه آيات دقيقة جداً وموضوعات، عناوين لموضوعات كبيرة جداً، والتفكير عبادة وفريضة، وآياتٌ كثيرةٌ تأمركم أن تفكِّروا، ولن تتعرّفوا إلى الله إلا من خلال التفكير، فهو القناة الوحيدة لمعرفة الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (05-14): تفسير الآية 21

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-02-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الخامس من سورة الروم.

نظام الزوجية من آيات الله الكبرى:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ(21))

(سورة الروم)

أيها الأخوة لا بدّ من مقدمةٍ لمثل هذه الآيات، من أجل أن تسعد في الدنيا والآخرة لا بدّ من أن تعبد الله، ومن أجل أن تعبده لا بدّ من أن تعرفه، ومن أجل أن تعرفه لا بدّ من أن تُفَكِّرَ في آياته، لو أردت معرفة إنسان يمكن أن تلتقي به، وتحدّثه، وترى صورته، وتقرأ كتابه ؛ ولكنك إذا أردت أن تعرف خالق الكون، ليس من طريقٍ إلى معرفته إلا الطريق الاستدلالي، لأن الله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار ولكن يُعْرَفُ بالعقل، والله سبحانه وتعالى خلق العقل على مبادئ متوافقةٍ مع مبادئ خلق الكون، فإذا أعمل الإنسان عقله في الكون عرف رب الكون، والذي يؤكد هذا الكلام أن الله عزّ وجل في هذه السورة يذكر آياته العديدة:

(وَمِنْ آيَاتِهِ (21))

الشيء الآخر، أن الله سبحانه وتعالى واجب الوجود، وهناك مستحيل الوجود، أي مستحيلٌ أن يكون الجزء أكبر من الكل، هذا مستحيل عقلاً، والله سبحانه وتعالى واجب الوجود عقلاً، ما سوى المستحيل والواجب هناك الممكن، فالكون كله ممكن، ممكن أن يوجد وأن لا يوجد، أو أن يوجد على هذه الشاكلة أو على شاكلةٍ أخرى، إذاً كان من الممكن أن يَخْلُقَ الله الناس كلهم دفعةً واحدة، دون نظام الزوجية، دون ذكر وأنثى، دون إنجاب أولاد، البشر كلهم يُخْلَقون دفعةً واحدة، ولكن شاءت حكمة الله عزّ وجل أن نوجد في الأرض تِباعاً على نظام الزوجية، يبدو أن نظام الزوجية آيةٌ كبرى من آياته جلّ جلاله.

الطريق الاستدلالي هو الطريق الوحيد لمعرفة الخالق:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ (21))

الحقيقة مقدمة ثالثة وهي: أن الآيات كثيرة، بعضها قريب وبعضها بعيد، أقرب الآيات إليك نفسك التي بين جَنْبَيْكَ، لهذا ربنا عزّ وجل يقول:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

(سورة فصلت: من آية " 53 ")

أول فكرة من مقدمات الدرس: لا بدّ من أجل أن تسعد في الدنيا والآخرة من أن تعبد الله عزّ وجل، والعبادة بنص القرآن الكريم خُلِقْنَا من أجلها.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِي(56))

(سورة الذاريات)

العبادة طاعةٌ طوعية ممزوجة بمحبة قلبية تسبقها معرفةٌ يقينية تفضي إلى سعادةٍ أبدية، هذه السعادة أساسها الطاعة مع المحبة، وهذه الطاعة مع المحبة أساسها المعرفة، معرفة الله عزّ وجل لا بدّ إلا أن تكون عبر قناةٍ واحدة، هي القناة الاستدلالية عن طريق العقل، لكن هذه القناة واسعة جداً، فالطريق إلى الله عزّ وجل، إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحد

***

الآيات على أنواع منها ما هو قريب ومنها ما هو بعيد:

أي شيءٍ نظرت إليه يدلك على الله، إلا أن الآيات على أنواع ؛ منها ما هو قريب ومنها ما هو بعيد، فلو حدثتك عن مجرةٍ بعدها عن الأرض كذا ألف سنة ضوئية، وحجمها كذا، وقوامها كذا، وكثافتها كذا هذه آية، ولكن إذا حدثتك عن نفسك التي بين جنبيك، وعن جسدك، وعن أعضائك، هذه آيةٌ قريبة جداً.

الفكرة الثالثة: كان من الممكن أن نأتي دفعةً واحدة، بلا نظام الزوجية، بلا ذكرٍ وأنثى، لأن الكون كله ممكن، ولكن شاءت حكمة الله عزّ وجل أن نأتي على نظامٍ صَمّمَهُ الله عزّ وجل وهو نظام الزوجية، أن يكون البشر ذكراً وأنثى، وأن يقترنوا، وأن ينجبوا الأطفال، وأن تنمو المجتمعات، وأن يكون الإنسان مفتقراً إلى الطعام لبقاء جسده، ومفتقراً إلى الزوجة لبقاء نوعه، ومفتقراً إلى العمل الصالح لبقاء ذكره، لا بدّ من أن يبقى جسدك إذاً تأكل وتشرب، وأن يبقى نوع البشر إذاً لا بدّ من التزاوج، وأن تبقى سعيداً

في جنةٍ عرضُها السماوات والأرض إذاً لا بدّ من العمل الصالح، فإذا أكلت فلبقاء جسدك، وإذا تزوّجت فلبقاء نوعك، وإذا عرفت الله عزّ وجل وأطعته وعملت الصالحات فلبقاء ذكرك إلى الأبد في جنةٍ عرضها السماوات والأرض.

الآن آية اليوم:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(21))

(من) هذه من أدوات اللغة العربية، حرف جَر، لكن لهذا الحرف معانٍ عِدّة، فمن للتبعيض، ومن للبيان، ومن لابتداء الغاية، هنا (من) بعض آياته، أي أن آياته ليست عشرة وهذه واحدة منها، آياته لا تعد ولا تحصى، آيات كلمة جمع.

(وَمِنْ آيَاتِهِ (21))

الآيات جمع آية، والآية معناها العلامة، الله عزّ وجل لا تدركه الأبصار، ولكن مما يدلُ على وجوده، مما يدل على علمه، مما يدل على قُدرته، مما يدل على حكمته، مما يدل على رحمته، مما يدل على لطفه أن خلق لكم، فمن للتبعيض، والآيات جمع آية، والآية هي العلامة الدالة على الشيء.

للآية التالية عدة معان:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ (21))

المعنى الأول: أن السيدة حواء أم البشر خلقت من ضلع آدم عليه السلام، هذا هو المعنى الأول، فما من شيءٍ أقرب إليك من ابنك لماذا ؟ لأنه منك مثلاً، أقرب كائن إليك هو ابنك لأنه منك، كان جزءاً منك، ما من مخلوقٍ أقرب إلى المرأة من ابنها لأنه جزءٌ من جسمها انفصل عنها بالولادة، جزءٌ منها، فإذا أردنا أن نعبر عن شدة التناسب، وشدة الالتصاق، وشدة الانسجام لا بدّ من أن نستعمل كلمة (من)، من أنفسكم، هذا هو المعنى الأول.

المعنى الثاني: أن ماء الحياة الذي أودعه الله في الإنسان منه يتشَكّلُ الذكر والأنثى، والآية تقول:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(46))

(سورة النجم)

إذاً هذه المرأة هي من الرجل، بالتعبير العلمي من مائه، وماؤه إما أن يتشكل تشكلاً على شكل أنثى أو على شكل ذكر.

أما المعنى الأوسع والأقرب إلى معنى هذه الآية: أن الله عزّ وجل كما خلق لك فكراً خلق لزوجتك فكراً، كما خلق لك قلباً ينبض بالأحاسيس خلق لها قلباً ينبض بالأحاسيس، كما خلق لك عيناً ترى بها جمال الأشياء خلق لها عيناً أيضاً ترى بها جمال الأشياء، فلو جئت بذكرٍ وأنثى لرأيت الأعضاء إلى حدٍ ما والأجهزة ؛ السمع، البصر، الشم، النُطق، اللسان، الفكر، الأيدي، الأرجل، الحركات، من مخلوقٍ واحد في الأساس فبين الذكر والأنثى نقاط تشابه كثيرة جداً هي سبب الانسجام، وفي نقاط تكامل هي سبب الانسجام، إذا التقت النقاط المتشابهة بين الذكر والأنثى كان هذا سبيلاً إلى الانسجام بينهما.

هناك انسجام وتكامل بين بُنية جسم المرأة والرجل:

إذا تكاملت الصفات بينهما ؛ هو مفتول العضلات وهي ذات خطوطٍ أخرى، هو يغلب عقله على عاطفته وهي تغلب عاطفتها على عقلها، هو يدرك الأشياء البعيدة وهي تعيش لوقتها، هناك نقاط لقاء بين الزوجين الذكر والأنثى ونقاط خلاف، لكن نقاط الخلاف هذه متكاملة، أي أن كل طرفٍ منهما مفتقرٌ إلى ما عند الثاني ويكمل نفسه بالطرف الآخر، والطرف الآخر مفتقرٌ إلى ما عند الأول ويكمل نفسه بالطرف الآخر، فصفات المرأة والرجل إما هناك انسجام، خمسة أصابع، عينان، أذنان وغير ذلك، أو هناك تكامل بين بُنية جسم المرأة والرجل، إذاً هذا معنى قوله تعالى:

(مِنْ أَنْفُسِكُمْ (21))

لو أن الإنسان ينجب طفلاً من مخلوقٍ آخر ليس من بني البشر، مثلاً هل هذا ممكن ؟ يقول لك الآن: طفل أنابيب، هي عملية نقل الماء إلى رحم المرأة، يقول لك: عقل إلكتروني هذا حاسب، آلة حاسبة معقدة جداً، أما أن تقول: عقل، فلا توجد محاكمة، إذاً معنى:

(مِنْ أَنْفُسِكُمْ (21))

أي أن المرأة مشابهة للرجل، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ))

[من سنن الترمذي: عن "عائشة"]

الصفات إما متوافقة أو متكاملة بين الزوجين وهذا أدعى إلى الانسجام والسكنى:

الشيء المختلف متكامل، إما أن هناك صفات متوافقة، أو صفات متكاملة، وهذا أدعى إلى الانسجام، وإلى السكنى، وإلى الأنس، وإلى ما سيذكره الله عزّ وجل في هذه الآية:

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا (21))

الحقيقة ربنا عزّ وجل يَخْلِقُ عند الإنسان حاجة ثم تلبى هذه الحاجة في جهةٍ ما، نحن لا نشعر، فالإنسان يأنس بزوجته ولكن من خلق في نفسك نقصاً وافتقاراً إلى الجنس الآخر ؟ الله سبحانه وتعالى، ومن خلق فيها نقصاً وافتقاراً إلى الجنس الآخر ؟ الله سبحانه وتعالى، إذاً معنى السكنى، هناك فرق بين أن تسكن فيه وتسكن إليه، أنا أسكن في هذا البيت، (في) للظرفية، أسكن فيه، أما أسكن إليه، للأشياء المعنوية، فالإنسان إذا كان في بيته ومع أهله وأولاده يشعر بالطمأنينة، يشعر بالراحة، لو سافر إلى مكانٍ بعيد ومعه أهله وأولاده يطمئن، هذا سر، النبي عليه الصلاة والسلام يقول: المرء حيث أهله، والمرء حيث رحله.

الإنسان معلق بشيئين ـ طبعاً الإنسان العادي ـ معلق بأهله وماله، المرء حيث أهله، والمرء حيث رحله، إذاً:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا (21))

أي أن نعم الله كثيرة، نعم الهواء، ونعم الماء، ونعم الصحة والأعضاء، ومن هذه النعم الجليلة أن الله سبحانه وتعالى خلق فيك هذا النَقْصَ الذي لا تتممه إلا المرأة، وخلق فيك هذا الافتقار الذي لا يسكنه إلا المرأة، لو أن الآية: أن الرجل عنده افتقارٌ إلى الجنس الآخر، والجنس الآخر ليس عنده افتقارٌ إلى الرجل، الحياة لا تقوم، الحياة تفسُد، تصبح الحياة شقاءً، لولا أن الله عزّ وجل جعل في كل طرفٍ فراغاً وافتقاراً وحاجة إلى الطرف الآخر لما رأيت زوجين على وجه الأرض، هذه النقطة قلّمَا ينتبه إليها الناس، كل طرفٍ فيه نقصٌ وافتقارٌ وحاجة إلى الطرف الآخر، والطرف الآخر فيه نقصٌ وافتقارٌ وحاجة إلى الطرف الآخر، فإذا التقيا كان الانسجام وكانت السكنى، سكن إليه غير سكن عنده وغير سكن فيه، سكن إليه أي ارتاح إليه، لهذا النبي عليه الصلاة والسلام أمر الخُطّاب أن ينظروا إلى مخطوباتهم قال:

((انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا))

[من سنن الترمذي: عن " المغيرة بن شعبة"]

يجب أن تنظر إليها كي يتم هذا الانسجام وتتحقق هذه الرغبة.

(لتسكنوا إليها) هذه آية لكنها جُزء من مجموعة آيات:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

الحقيقة (لتسكنوا إليها) هذه آية ؛ لكن هذه الآية جُزء من مجموعة آيات، فأن تطبقها وحدها قد لا تنجح فيها، يتممها آية ثانية:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: من آية " 30 ")

لو الإنسان قرأ هذه الآية وحدها لقال لك: التي عندي لا تعجبني، لا أرتاح لها، مثلاً لم أحسن اختيارها، يقول لك: والله أنا لا أسكن إليها، نقول له: القرآن جُمْلَةٌ من الأحكام والأوامر والنواهي، لا يمكن أن تأخذ آية وحدها بمعزلٍ عن بقية الآيات، الله عزّ وجل أمرك أن تغض بصرك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

(سورة النور: من آية " 30 ")

إذا نفذت الآية الثانية ترى أن هذه الآية حقيقة فعلاً، الله عزّ وجل مكافأةً لمن يغض بصره عن محارم الله يلقي في قلبه حب زوجته، يراها أجمل النساء، يرتاح إليها، يسكن إليها، هذه الآية من لوازمها الآية الثانية، وربنا عزّ وجل وصف القرآن الكريم بأنه مثانيَ، أي أن كل آيةٍ تنثني على أختها فتفسرها، فمن أجل أن تكون الزوجة سكناً كما أراد الله عزّ وجل، يجب أن تطبق الآية الثانية:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

(سورة النور: من آية " 30 ")

وأطهر.

طاعة الله تخلق مودة بينك وبين أهلك:

الشيء الثاني أن الله عزّ وجل يقول:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

معنى جعل بمعنى خلق، أوضح هذه الآية بالقصة التالية: أعرف رجلاً مقيماً في بلد عربي، يأتي كل عام شهراً إلى بلده الشام، ويحاول أن يخطب فتاةً يحبها وتعجبه، أول عام ما وفِّقَ إلى فتاةٍ تعجبه، أمضى شهراً وعاد بخفي حُنَين، وعاد في السنة الثانية، والثالثة، الشيء الدقيق أنه في السنة الرابعة أو الخامسة لا أذكر، بقي الأسبوع الأول والثاني والثالث ودخل الرابع وبقي لمغادرة بلده أيامٌ عدة، إذا هو يُدَلُّ على فتاةٍ مناسبةٍ جداً له، وبالطبع خطبها أهله له، رآها أُعْجِبَ بها في اليوم الأول، عقد القران في اليوم الثاني وسافر في اليوم الثالث، الذي يلفت النظر أن هذه الفتاة وهي في المطار تودِّع زوجها الذي لم يمض على عقد قرانهما إلا أربعٌ وعشرون ساعة بكت بكاءً مراً في المطار.

قلت في نفسي: إذا كنت أنت في المطار لحاجةٍ ما، ورأيت إنسان يحمل محفظته ويتَّجه نحو الطائرة، هل بإمكانك أن تبكي، البكاء ليس باليد، أما هذه الفتاة بعد أربع وعشرين ساعة تبكي بكاءً مراً لأن الذي خطبها البارحة اليوم مسافر، هذا من خلق الله.

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

الإنسان حينما يرى مودةً بينه وبين أهله، أو حينما ترى المرأة مودةً بينها وبين زوجها، هذه المودة من خَلْق الله عزّ وجل، لا تجلبها الأموال الطائلة، ولا البيت الواسع، ولا القوام، ولا الشكل، ولا الجمال ؛ ولكن يخلقها الله عزّ وجل، فإذا كنت مطيعاً لله عزّ وجل، الله جلّ وعلا يخلق هذه المودة بينك وبين أهلك، أما لو لم تكن مطيعاً لله، لو وفّرْتَ كل شيء، وفرت الأموال الطائلة، وفرت البيوت الفاخرة، وفرت المركبة الفارهة، سخرت كل علم النفس من أجل أن يميل أهلك إليك، لن تستطيع أن تحدث هذه النتيجة.

الحب حالة نفسية تمثل بالمودّة التي تعبّر عنها:

قال تعالى:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

ما هي المودة ؟ في رأي بعض المفسرين: المودة أثر من آثار الحُب، إن كان هناك حبٌ بين الزوجين تجسّدَ هذا الحب بالمودة، السيدة عائشة رضي الله عنها، كانت تسأل النبي عليه الصلاة والسلام: كيف حبك لي ؟ فيجيبها ويقول: " كعقدة الحبل "، أي حب متين، لا ينفك، لا يفتر.

ملاحظة أخرى من ملاحظات الإيمان، الزوجان المؤمنان ينمو حبهما نماءً مُتَّسِقاً مع الأيام، أما زواج أهل الدنيا قد يبدأ بحبٍ جارف وقد يفتر هذا الحب إلى أن يقع الخلاف، والشقاق، والجفاء، والبُغْض، إلى أن يقع السُباب والشتائم، إلى أن يقع الكيد، إلى أن ينتهي بالطلاق، لذلك الزواج الذي يُبْنَى على طاعة الله عزّ وجل يتولى الله التوفيق بين الزوجين، ويخلق الله بحكمته البالغة هذا الحب بين الزوجين، إذاً:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا (21))

السُكْنَى هنا إذاً وجود افتقار عند كل طرف ونقص وحاجة يملؤهُ الطرف الثاني، ولو أن هذا الأمر بقي عل شكل طرفٍ واحد، لأصبحت الحياة تعيسةً جداً، ولكن كِلا الطرفين مفتقرٌ إلى الآخر، أنا حينما أكون في بعض عقود القِران أدعو بهذا الدعاء: اللهم اجعل كلاً منهما قرة عينٍ للآخر، أي أن يكون الزوج قرة عينٍ لزوجته، وأن تكون الزوجة قرة عينٍ لزوجها، أن يرتاح الإنسان مع أهله، وسر هذا التوفيق هو طاعة الله عزّ وجل، غض البصر يؤدّي إلى هذا الحب، وهذا الحب يُجَسّد بماذا ؟ بالمودة، الكلمة اللطيفة، اللفتة اللطيفة، الإكرام، الإطعام، إدخال السرور، الثناء، الشكر، هذه كلها مودة أساسها

الحب، والكلمة القاسية، واللفتة القاسية، والعبارة القاسية، والاشمئزاز، والبُعْد، هذا جفاء أساسه البُغض، البغض حالة نفسية تمثل بالجفوة الخارجية، والحب حالة نفسية تمثل بالمودّة التي تعبّر عنها.

الله تعالى خلق المودة والرحمة معاً في قلب الإنسان:

إذاً معنى مودة كما جاء في بعض التفاسير: ما يجسد الحب الذي يقع بين الزوجين، وهذا من آيات الله عزّ وجل. سُئْل النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَن أعظم الرجال حقاً على المرأة ؟ قال: زوجها))

[الجامع الصغير عن "عائشة " بسند فيه ضعف]

الفتاة قبل الزواج انتماؤها، وولاؤها، وحبُّها، واعتزازها بأبيها، فإذا جاء الزوج، ولاؤها، وحبها، وانتماؤها، واعتزازها، واهتمامها، لزوجها، بين عشيةٍ أو ضحاها، وهذا من سِرّ الله عزّ وجل في خلقه.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً (21))

فقط مودة، فإذا كبرت سنها انصرف عنها، فإذا مرضت مرضاً يمنعه من أن يسكن إليها انصرف عنها، لا، فربنا عزّ وجل قال:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

لو أنها مرضت، لو أنها كبرت، يخلق الله في قلب الرجل إلى جانب المودة الرحمة، الرحمة أن تبادر إلى مَسْح الجراح، إلى مسح الألم، إلى إنقاذ الإنسان من ورطة، أي أنها مشاعر داخلية لا تحتمل رؤية الشقاء البشري، الطفل الجائع، أو زوجة متألمة جداً، الرجل بحسب الآية يجب أن يبادر إلى معالجتها، إلى إكرامها، وكذلك المرأة، إذاً كلام ربنا دقيق جداً، ليست قضية مودة ورحمة، هذه مترادفات، لا، ليست مترادفات، كلام خالق الكون موزون وزناً دقيقاً جداً.

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

المودة إن كانت في صحةٍ طيبة، وإن كانت في أبهى زينة، وإن كان زوجها قوياً، غنياً، مقتدراً، بينهما المودة، المودة تعبيرٌ عما بينهما من حبٍ أودعه الله في قلبيهما بناءً على طاعتهما لله عزّ وجل ؛ لكن هناك أعراض، هناك أمراض، هناك كِبَر، هناك عاهات، هناك أمراض عُضالة، هناك مُشكلات، لو أن الله عزّ وجل خلق المودة فقط هذه لا تكفي في بعض الحالات، خلق المودة والرحمة معاً.

نصيحة أم لابنتها قبل زواجها:

له منظر لا يحتمل، في قلب الأم رحمة، فتسعى إلى معالجته، وتطبيبه:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(21))

كما أن الشمس والقمر آيتان، كما أن الليل والنهار آيتان، كما أن منامكم بالليل والنهار آيتان، كما أن البَرْقَ والرَعْدَ آياتٌ من آيات الله عزّ وجل، كما أن تقوم السماء والأرض بأمره:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

امرأة نصحت ابنتها، قالت: **" يا بنيتي إن الوصية لو تركت لفضل أدبٍ تركت لذلك منك، ولكنها تذكرةٌ للغافل ومعونةٌ للعاقل، ولو أن المرأة استغنت عن الزوج لغِنَى أبويها، أو لشدة حاجتهما إليها لكنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ ولهن خلق الرجال ".**

تقول لها: **" أي بنيتي إنك فارقت العش التي فيه درجت، وخلّفت البيت الذي فيه نشأت، إلى وكرٍ لا تعرفيه وقرينٍ لا تألفيه، فاصبح بملكه عليكِ قريباً ومليكاً، أي بنيتي كوني له أمة يكن لكِ عبداً وشيكاً، خُذي عني عشر خصال تكن لكِ ذخراً وأجراً ؛ الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتفقُّدُ لموضع أنفه، والتعهُّد لموضع عينه، فلا تقع عينه منكِ على قبيح، ولا يشم منكِ إلا أطيب ريح، والكُحل أحسن الحُسْنِ والماء أطيب الطيب المفقود ".**

ذم الزوج أمام الأهل والجيران منافٍ للإسلام:

النظافة وحدها تقرّب النفوس فيما بينها لأن الإنسان ثبت أن لجلده رائحة عطرة، فلو نظّفْتَ الجلد له رائحةٌ ذاتية تغنيه عن دفع الأموال الطائلة لشراء الروائح الطيبة، والكحل أحسن الحسن والماء أطيب الطيب المفقود. ثم تقول هذه الأم لابنتها:

" وإيّاكِ والترح إن كان فرحاً والفرح إن كان تَرِحاً، فإن الأولى من التقصير والثانية من التكدير، وكوني أشد ما تكونين له إعظاماً يَكُن أشد ما يكون لكِ إكراماً، وكوني أشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما يكون لكِ مرافقةً، واعلمي أنه لن تصلي إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك فيما أحببت أو كرهت، والله يُخَيّرُ لكِ ".

أي أن الإسلام لا ينفصل، نظام متكامل، فبيتك ؛ هذا البيت يجب أن يكون إسلامياً، يجب أن تأتي مواصفاته كما جاء في القرآن الكريم وإلا لست مؤمناً، مستحيل، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (21))

أية امرأةٍ تَذُمُّ زوجها بين أهلها، وبين صديقاتها، وبين جيرانها هذه امرأةٌ ليست مؤمنة بالمعنى الذي جاء في هذه الآية، أين المودة ؟ إنني أكره المرأة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إنني أكره المرأة تخرج من بيتها تشتكي على زوجها))

[ورد في الأثر]

وقال:

((أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ))

[مسند أحمد: عَنْ " ثَوْبَانَ "]

كل شيء خلقه الله له وظيفتان وظيفة نفعية ووظيفة استدلالية:

إذاً هكذا الزواج وهكذا البيت المسلم، مودةٌ أساسها الحب وحبٌ أساسه الطاعة، تطيع الله عزّ وجل فيخلق الله عزّ وجل بينك وبين أهلك الحب، الحب يظهر على شكل مودّة إن كان هناك مشكلة ؛ مرض لا سمح الله، عَجْز، شيء طارئ، شيء يحول بينك وبين أن تكون المودة فهناك الرحمة، إما أن تكون ودوداً، وإما أن تكون رحيماً، لأن الله عزّ وجل قال:

(إِنّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

(سورة النحل: من آية " 90 ")

إن لم يسعك العدل، يسعك الإحسان:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدّةً وَرَحْمَةً إِنّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ (21))

زواجك آية من آيات الله، يجب أن تتأمل فيها، يجب أن تفكر أن الله عزّ وجل كل شيء خلقه له وظيفتان، هذه الفكرة أقولها كثيراً، الزوجة لها وظيفة، لها وظيفة أنك تسكن إليها، وبينك وبينها مودةً ورحمة، تنجب لك الأولاد، وتعينك على أمر دينك وعلى أمر دنياك، انتهت وظيفتها ؟ لا والله، بقيت وظيفتها الأهم، أن هذه الزوجة دليلٌ لك على الله عزّ وجل، لأنها من آياته، إذاً أي شيء الله عزّ وجل خلقه له وظيفة نفعية، وله وظيفة استدلالية، بها تعرف الله، وبها تشكره، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

[سورة النساء: من آية " 147 "]

رد الفعل على نِعَمِ الله نوعان شكرٌ ومعرفة، بما أن الكون ومن ضمن الكون الزوجة، بما أن الكون قد سُخِّرَ لهذا الإنسان تسخير تعريفٍ وتكريم، رد فعل التعريف أن تؤمن، ورد فعل التكريم أن تشكر، فإذا آمنت وشكرت فقد حققت الهدف من وجودك، إذا آمنت وشكرت، أن تؤمن بالله وأن تشكره، إن كنت كذلك:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(147))

(سورة النساء)

الاختلاط يفسد العلاقات الزوجية:

الآن كل ما قيل في شأن الزوجة لو عُكِسَت الآية فالمعنى صحيح، أيّةُ زوجةٍ ومن آيات الله لها أن هذا الزوج مخلوقٌ من طبيعةٍ مشابهةٍ لها، من آيات الله الدالة على عظمته لها أن بينهما مودةً ورحمة، فليست الآية خاصة بالرجال، بالمناسبة كلمة زوج تعني الزوج والزوجة، وزوج جَمْعُها أزواج والأزواج هم النساء، إذاً ما قيل من نعمٍ ساقها الله لهذا الرجل من خلال المرأة، المعاني كلها يمكن أن تقال للمرأة من خلال الرجل.

أيها الأخوة الأكارم الفكرة الأساسية في الدرس، أن الله عزّ وجل يصف الزواج بهذه الصفات ؛ هي سكن، وبينهما مودةٌ ورحمة، والزواج آية، فكل إنسان يتفحّص علاقاته الداخلية، إن كانت كذلك فهذه بشارة، وإن لم تكن كذلك فعليه أن يبحث عن الخَلَل، هل هناك إطلاقٌ للبصر، هل هناك معصيةٌ تستوجب أن تكون البغضاء والشحناء بين الزوجين ؟ هل هناك مخالفةٌ من قبل الزوجة أو الزوج يقتضي أن يصبح البيت جَحيماً ؟ النبي الكريم يقول لامرأةٍ:

((فَانْظُرِي أَيْنَ أَنْتِ مِنْهُ فَإِنَّمَا هُوَ جَنَّتُكِ وَنَارُكِ))

[مسند أحمد: عَن " الْحُصَيْنِ بْنِ مِحْصَنٍ"]

الزوج للزوجة جنتها أو نارها، وكذلك الزوجة للزوج، إما أن تسعده وإما أن تشقيه، الإنسان حينما يواجه مشكلة لا ينبغي أن يواجهها بسذاجة، واجهها في ضوء هذه الآية، لا بدّ من خلل، ابحث عن الخلل، أي معصيةٍ في البيت، أية مخالفة ؛ في العلاقات، في الزيارات، في اللقاءات، إذا في اختلاط قد لا تكون المودة والرحمة بين الزوجين، الاختلاط يفسد العلاقات الزوجية كما يفسد الخل العسل، لأن الإنسان بشكل طبيعي وبديهي يحب الأكمل، فلو التقى مع امرأةٍ أجنبيةٍ يقول: هذه أخت زوجتي مثلاً، لا يوجد أحد غريب نحن أهل، ابنة حماك غير زوجتك، فإذا الإنسان سمح لنفسه أن يختلط مع نساء أجنبيات معه، رُبّما أفسد هذا الاختلاط العلاقة الزوجية، عندئذٍ يقرأ الآية لا يراها منطبقة عليه، يقول لك: أنا لست سعيداً بزواجي، أنا شقي، لا أحب زوجتي، لا أراها كما ينبغي أن تكون، ليست ملء سمعي وبصري، لأنك مخالف.

توجيهات نبوية للأزواج:

الاختلاط يفسد العلاقات الزوجية، إطلاق البصر يفسد العلاقة الزوجية، الخروج عن السُنّة في التعامل بين الزوجين يفسد العلاقة الزوجية، اقرأ السنة، اقرأ أبحاث الزواج، اقرأ آداب الزواج، هذا شرع، هذه

تعليمات الصانع، من أجل أن تنال هذا الوصف الدقيق أن تكون الزوجة سكناً للزوج، وأن تكون المودة والرحمة بينهما سائدةً ابحث عن التوجيهات النبوية، النبي الكريم يقول:

((انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ـ أي يعدل الجهاد في سبيل الله))

[أخرجه ابن عساكر وأخرجه البيهقي فى شعب الإيمان: عن "أسماء بنت يزيد الأنصارية"]

هذا توجيه نبوي لكل امرأةٍ ؛ خدمتها لزوجها، ولأولادها، وحسن إشرافها على أولادها، وحسن إدارتها للبيت، وأن تكون زوجة صالحة هذا يعدل الجهاد في سبيل الله، هذا التوجيه، توجيه الرجال:

((أكرموا النساء فو الله ما أكرمهن إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

[ابن عساكر: عن "علي" بسند فيه مقال كبير]

هذا توجيه الرجال، التوجيه الثاني:

((إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ خُلُقَهُ وَدِينَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[من سنن ابن ماجة: عن " أبي هريرة "]

((من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا))

[الديلمي: عن " أبي سعيد"]

الذي يحجم عن الزواج لأسباب مادية ليس منا، ما عرف الله عزّ وجل، ما عرف أنه من حق المسلم على الله أن يعينه عند الزواج، ما شكا إليه رجلٌ ضيق ذات يده إلا قال له: اذهب فتزوج، إذاً يجب أن نأخذ بأقوال النبي الكريم.

التسامح و المعاشرة بالمعروف أساس الحياة الزوجية السعيدة:

يا ترى ما الذي يفسد العلاقة ؟ إذا دخلت على أهلك فسلِّم عليهن، سلم، تسامح، وعاشروهن بالمعروف، فليس المعروف أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها بل أن تحتمل الأذى منها، وهي كذلك، فإذا طبق الزوج وطبقت الزوجة توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام سعدا سعادةً كبيرة.

((أيما امرأة خرجت من بيت زوجها بغير إذنه لعنها كل شيء طلعت عليه الشمس والقمر إلا أن يرضى عنها زوجها))

[الديلمى: عن "أنس"]

((إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً لِفِرَاشِ زَوْجِهَا لَعَنَتْهَا الْمَلائِكَةُ حَتَّى تَرْجِعَ))

[سنن الدارمي: عَنْ " أَبِي هُرَيْرَةَ "]

((أيما امرأةٍ امتنعت عن زوجها تلعنها الملائكة حتى تصبح))

[ورد في الأثر]

((إذَا دَعَا الرّجُلُ امْرَأَتَهُ إلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا لَعَنَتْهَا الْمَلائِكَةُ حتّى تُصْبِحَ))

[صحيح البخاري: عَنْ " أَبِي هُرَيْرَةَ "]

هذه هي توجيهات النبي الكريم، هناك توجيهات خاصة بالنساء، خاصة بالأزواج، فنحن يجب أن نعلم، هذه تعليمات الصانع، النهاية هذه الآية، إذا طبّقَ الأزواج والزوجات التعليمات النبوية يصبح الأزواج كما وصفهم الله عزّ وجل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدّةً وَرَحْمَةً إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ(21))

الشيء الأخير أن كل شيءٍ خلقه الله لك له وظيفتان ؛ وظيفة نفعية ووظيفة استدلالية، فإذا انتفعت بالشيء يجب أن تشكر الله، وإذا كان هذا الشيء دليلاً لك على الله يجب أن تعرفه، فإذا كنت في طريق المعرفة والشكر أغلب الظن أن الله تعالى لا يعذبك.

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(147))

(سورة النساء)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (06-14): تفسير الآيات 22-24

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-03-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس السادس من سورة الروم.

تعبير الله عز وجل عن الكون في القرآن بكلمة السماوات والأرض:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22))

(سورة الروم)

هذه الآيات التي تَرِدُ تِباعاً، والتي يبيّن الله تعالى فيها بعضاً من آياته، لأن (من) كما تعرفون للتبعيض:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا (21))

وقال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (22))

(سورة الروم)

وقال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ (20))

كلمة السماوات والأرض تعبيرٌ قرآني عن الكون، فنحن اليوم نستخدم مصطلح الكون، في القرآن عَبَّرَ الله عنه بكلمة السماوات والأرض، السؤال الأول هو: أن هذا الكون ما حجمه ؟ شيءٌ لا يعقل، فكلما مرت سنة أو سنتان اكتشفت مجرةٌ تبعد عنا عشرات بل مئات بل ألوف بل ألوف الملايين من السنوات الضوئية.

السماوات والأرض خلقت للإنسان بالدليل القطعي:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ(47))

(سورة الذاريات)

معنى موسعون أي هذا الكون لا نهاية لاتساعه، أو يزداد اتساعاً، إما لا نهاية لاتساعه، كلما تقدم العلم اكتُشفت آفاقٌ جديدةٌ لم تكن معروفةٌ من قبل، أو أن هذا الكون يزداد اتساعاً قال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ(47))

(سورة الذاريات)

ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، مجرة اكتشفت حديثاً، لذلك يا ترى ما حجم الكون ؟ لا نهاية لحدوده، يا ترى ما عدد مجراته ؟ بعضهم يقول: مئتا ألف مجرة التي أُحصيت حتى الآن، وقرأت في كتابٍ آخر مليون مليون مجرة، وفي كل مجرة مليون مليون نَجم، وفي كل نجم أبعادٌ وأقطار لا يعلمها إلا الله، بعض النجوم يزيد حجمه عن حجم الشمس بمئتي مليون مرة، وبعض النجوم يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، هذه النجوم بعضها كواكب، وبعضها نجوم، بعضها ملتهب، وبعضها مُبَرّد، بعضها مُذنّبات، بعضها عناقيد، بعضها كازارات، بعضها كواكب، بعضها جُزُر، بعضها كويكبات، أي أن المعلومات عن الفلك شيءٌ لا يصدق، وكل هذا الكون، أو أن السماوات والأرض خلقت للإنسان بالدليل القطعي، الآية الأولى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)

(سورة البقرة: من آية " 29 ")

الآية الثانية:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 13 ")

الأرض ذُكرت في القرآن للتخصيص لأننا عليها وهي من أرقى الكواكب:

الآن ربنا عزّ وجل يشير:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (22))

طبعاً الأرض ذكرها على التخصيص لأننا عليها، ولأنها من أرقى الكواكب، الحياة، الهواء، النبات، الحيوان، الليل، النهار، الجاذبية، القوام، هذه خُلِقَت خصيصاً للإنسان، لأن الله تعالى يقول:

(وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ(10))

(سورة الرحمن)

حينما قدّمَ الأرض هذا على سبيل التخصيص والقصر:

(وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ(10))

(سورة الرحمن)

الأرض بحجمها، بقوامها، بكثافتها، بجبالها، بأنهارها، ببحارها، بكائناتها، بأطيارها، بأسماكها، بحرارتها، برياحها، بكل شيءٍ فيها، وضعت خصيصاً للإنسان، أو صممت بحيث تُلبّي حاجات الإنسان، أبسط هذه الحاجات أن الإنسان له طاقة على العمل، له طاقة فلا بدّ من أن يرتاح، الليل في الأرض لا يزيد عن عشر ساعات، إلى اثنتي عشرة ساعة، إلى ثماني ساعات، الليل يتناسب مع حاجة الإنسان، أما أي نجم آخر، الليل ثلاثين ليلة، فثلاثين يوم تساوي ليلةً واحدة، فالإنسان نام ثمانية ساعات أو عشر ساعات، استيقظ فوجد أن الدنيا ليل، عمل في الليل، رجع فنام، تحس أن هذا الكوكب لا يتناسب مع طبيعة الإنسان، فحجم الأرض ودورتها حول نفسها وحول الشمس، وطبيعة الحرارة عليها، والرطوبة، والماء، والهواء، والحيوانات، والنباتات، هذا كله مصممٌ للإنسان.

من تكريم الله للإنسان أن جعله فرداً لا يتكرر:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22))

قد يسأل سائل: ما وجه التناسب بين خلق السماوات والأرض وبين اختلاف ألسنة الإنسان وألوانه ؟ الشيء الثابت الآن أن الإنسان فردٌ لا مثيل له، كنا قبل عشر سنوات نعتقد أن للإنسان بصمة لا تتكرر، ثم ظهر حديثاً أن لكل إنسان تركيبٌ خاص في قُزَحِيّة العين لا يتكرر أبداً، فقزحية العين هويةٌ له، وبصمته هوية له، فهاتان هويتان، الآن اكتشف أن هناك زمراً نسيجية غير الزمر الدموية، وأن إنسانان في الخمسة آلاف مليون، أي أن أكثر من إنسانين لا يتشابهان في الخمسة آلاف مليون، هذا أحدث بحث ألقي في بعض المؤتمرات الطبية، أي ألفين وخمسمئة مليون زمرة نسيجية، وقد يقال بعد ذلك: أن كل إنسانٍ له زمرةٌ نسيجية خاصة، فبصمة اليد هويةٌ للإنسان، قُزحية العين هويةٌ للإنسان، بلازما الدم هويةٌ للإنسان، رائحة الجلد هويةٌ للإنسان، كل إنسان له رائحة خاصة، وعلى أساس هذه الرائحة الخاصة تكتشف بعض الكلاب البوليسية المُجْرِم، يُعطى هذا الكلب جزءاً من أدوات المجرم ؛ من سلاحه، من ثيابه، من أماكن بصماته، والكلب يتَتبَّعُ رائحة هذا المجرم إلى أن يصل له، إذاً للإنسان رائحة جلد خاصة، وللإنسان كيمياء دم خاصة، وللإنسان قزحية خاصة، وللإنسان نبرةٌ صوتيةٌ خاصة لا تتكرر، فالله عزّ وجل من باب التكريم لهذا الإنسان أنه خلقه على صورته في بعض تفسيرات هذا الحديث، أي أن الله فرد ومن تكريم الله للإنسان أن جعله فرداً لا يتكرر ؛ لك وجهٌ، ولك ملامح، ولك صوت، ولك رائحة، ولك قُزَحِيّة، ولك بصمة، ولك كيمياء للدم.

اختلاف اللغات والألوان والأصوات من آيات الله الدالة على عظمته:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ (22))

بعض العلماء فسر اختلاف الألسنة على اختلاف اللغات ؛ هذا لغته عربية، وهذا لغته فرنسية، وذاك إنكليزية، وذاك إسبانية، وهذه لغة هندية، وكُرْدِيَّة، وباكستانية، وإفريقية، وصينية، وعدد اللغات بالآلاف، عدد اللغات التي يتكلّمَهُا الإنسان على وجه الأرض بالآلاف لكل لغةٍ مفرداتها، وأفعالها، وأسماؤها، وقواعدها، ونحوها، وصرفها، ولهَجاتها، وحروفها، إذاً اختلاف اللغات هذا من آيات الله الدالة على عظمته.

بعضهم قال: لا، اختلاف نبرات الصوت، اختلاف إيقاعات الصوت، اختلاف الموجات الصوتية، والدليل أنك حينما تستمع إلى مكالمة هاتفية تقول: فلان حدّثني، من دون أن يذكر اسمه، إذاً إنك تملك ذاكرةً صوتية، تعرف من خلال هذه الذاكرة الصوتية نبرات كل شخصٍ يتصل بك، وهذا من آيات الله.

الألوان، آلة التصوير تصور لك مئة شخصٍ بلونٍ واحد تقريباً، أو بفارق بسيط جداً، لكن لو نظرت بعينك الطبيعية إلى ألوان هؤلاء المئة لرأيت كل واحدٍ منهم يتميّز بلونٍ غير لون أخيه، إلى أن نقول: إن كل إنسانٍ له لون، إذا كانت العين البشرية تُفَرّق بين ثمانمئة ألف لون أخضر، لو أن لوناً واحداً دَرّجْنَاهُ ثمانمئة ألف درجة، فالعين البشرية تفرّق بين لونين، لذلك اختلاف الألوان، واختلاف الأصوات، كأن اللون يعطي الإنسان هوية خاصة، وكأن الصوت يعطي الإنسان هوية خاصة، هذا شيء ثابت وواقع.

القرآن يعطي الإنسان عناوين للمواضيع وعلى الإنسان متابعة الموضوع:

لكن ما علاقة خلق السماوات والأرض باختلاف الألسنة والألوان، هناك تفسيرين مثلاً الله عزّ وجل قال:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(1)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(2))

(سورة الليل)

كلام جميل، آيةٌ كونية، آية الليل والنهار، وقال:

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(2))

(سورة الليل)

ما علاقة الليل والنهار بالذكر والأنثى ؟ يجب أن تكتشف أن هناك علاقة بينهما، يبدو أن الليل والنهار متكاملان، وأن الذكر والأنثى متكاملان، كما أنك بحاجةٍ ماسةٍ إلى ليل ترتاح فيه، تسكن فيه، أنت بحاجةٍ ماسةٍ إلى نهار تعمل فيه، كذلك الأنثى تُهَيّئ للرجل السَكَن، والرجل يهيئ للأنثى الرزق، إذاً متكاملان، إذاً من طبيعةٍ واحدة ولكنهما مفترقان ومتكاملان، يبدو أن الله عزّ وجل حينما قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ (22))

إن اختلاف الألوان له علاقةٌ بخلق السماوات والأرض، الذين في المنطقة الحارة لهم لون، في المنطقة المعتدلة لهم لون، في المنطقة الباردة لهم لون، كأن لون الإنسان له علاقةٌ ببيئته، في الصحراء أم في الحضر، في الساحل أم في الداخل، في المرتفعات أم في المنخفضات، في المنطقة الحارة أم في المنطقة المعتدلة أم في المنطقة الباردة، هناك علاقةٌ بين اللون وبين البيئة التي يحياها الإنسان، بل إن لون الإنسان يُعَدُّ وسيلةٌ من وسائل الدفاع عنده، ففي المناطق الحارة اللون الداكن أقرب إلى التكيُّف مع هذه البيئة، وفي البلاد الباردة اللون الفاتح أقدر على تكيُّف أصحابه مع بيئتهم، إذاً موضوع اللون موضوعٌ دقيقٌ جداً هو من آيات الله الدالة على عظمته، القرآن أحياناً يعطينا عناوين للموضوعات، وعلى الإنسان أن يتابع الموضوع.

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22))

السماع هو اليقينٌ الإخباري الحسي:

الحقيقة قبل قليل:

(إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ (21))

بعد ذلك:

(إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24))

بعد ذلك:

(إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23))

يا ترى ما حكمة الله عزّ وجل في هذه النهايات التي انتهت بها الآية الكريمة ؟ في آية انتهت لقوم يعقلون، ولقوم يتفكرون، ولقوم يسمعون، وللعالمين، وغير ذلك.

كلمة (يسمعون) الشيء الذي لا يستطيع عقلك أن يدركه لا يمكن أن تدركه إلا بالسماع، السماع إذاً هو اليقينٌ الإخباري، أنت كإنسان عندك يقينٌ حسي، وعندك يقينٌ عقلي، فكري، استدلالي، وعندك يقينٌ إخباري، اليقين الحسي حينما ترى الشيء بعينك، أو تسمع صوته بأذنك، أو تلمسه بيدك، هذا يقين

حسي، هذه المحسوسات، والإنسان وغير الإنسان بإمكانه أن يدرك المحسوسات، أما اليقين الفكري أو الاستدلالي هذا يقين من نوع آخر، بمعنى أن الإنسان يرى شيئاً ويحكم على صانعه، يرى نظاماً يحكم على مُنَظِمِهِ، يرى تسييراً يحكم على مسيّره، يرى كوناً يحكم على مُكَوِّنه، يرى خلقاً يحكم على خالقه، هذه مهمة العقل، الاستدلال، أن تستدل بشيءٍ مادي على شيءٍ مُغَيّبٍ عنك، هذا معنى قوله تعالى:

(الم(1)ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2)الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)

(سورة البقرة)

مهمة العقل الاستدلال:

ما معنى الإيمان بالغيب ؟ أنك رأيت الشمس قلت: من خلقها ؟ من أودع فيها هذه الحرارة ؟ من جعلها تسير بسرعة مئتي كيلو متر في الثانية ؟ من جعل هذه الطاقة متتابعة وليست خامدة ؟ من جعلها بهذا الحجم ؟ من جعلها بهذه الكثافة ؟ هذا يقين استدلالي، وهذا سر الإيمان فيه، فلا تستطيع أن تعرف الله عزّ وجل إلا باليقين الاستدلالي، باليقين الحسي لا تستطيع لقوله تعالى:

(لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام: من آية " 103 ")

لكن باليقين الاستدلالي، يقولون: (لم يُرَ الله بالعين ولكن بالعقل عرف)، الإنسان بعقله يستطيع أن يتعرّف إلى الله عزّ وجل، ذات الله، وصفاته، أسماؤه.

الماضي السحيق، المستقبل البعيد، هذه أشياء لا يمكن أن يعرفها العقل، العقل يحتاج إلى شيء أمامه مادي، من هذا الشيء يصل إلى الخالق، يحتاج إلى نظام، من هذا النظام إلى مُنَظِّم، أما إذا أردت أن تبحث في ذات الله بعقلك لا تستطيع، تهلك، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

[ورد في الأثر]

في منطقة، في خط أحمر، إذا أردت أن تفكِّرَ بعقلك في ذات الله عزّ وجل لا بدّ من أن تهلك، لأن طبيعة الإنسان، وطبيعة عقله، وطاقة عقله، وقدرة عقله، لا تؤهِّلُهُ أن يتعرف إلى الله مباشرة إلا من خلال الكون، فلو ألقينا بورقة دخينة ـ هذه رقيقة جداً ـ بفرن لصهر الحديد، قلنا ماذا حل بها بعد ساعتين، أية ساعتين هاتين ؟ هي من الوهج تبخّرت.

لا يجوز البحث في ذات الله بعقلك مباشرةً:

قال تعالى:

(وَلَمّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلّمَهُ رَبّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمّا تَجَلّى رَبّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوّلُ الْمُؤْمِنِينَ(143))

(سورة الأعراف)

تجلى الله عزّ وجل على الجبل جعله دكاً، إذاً الإنسان لا يستطيع أن يرى الله عزّ وجل في الدنيا، حواسه عاجزة، لا تحتمل، تحترق، سيدنا جبريل في المعراج قال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم: أنا إذا اخترقت احترقت، كل إنسان له مقامٌ معلوم.

لقد أردت من كلمة: مرة لقومٍ يتفكرون، مرة لقومٍ يعقلون، مرة لقومٍ يسمعون، ومرة للعالمين، سماع الموضوعات المتعلقة بذات الله عزّ وجل، بذاته، بصفاته المتعلقة بالماضي السحيق، بالمستقبل البعيد، بالذي غَيّبَهُ الله عنا، فإنسان ذكي جداً قد يوضع أمامه جهاز يكشف أسراره واستعماله، جهاز مُعَقّد جداً في حلب حدثنا عنه، مهما كان الإنسان ذكياً، مهما كان عبقري لا يستطيع، فلا بدّ من شيءٍ أمام عينيك تفكر فيه وتستنبط منه، لذلك لا يجوز البحث في ذات الله بعقلك مباشرةً، إن فعلت هذا احترقت، أو هلكت، وهذا يؤكِّده قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

[ورد في الأثر]

هلاك مُحَقّق، إذاً هذه المعلومات التي تتحدث عن ذات الله، وعن الماضي، وعن المستقبل، هذه جاءت أخباراً في القرآن الكريم، ربنا أخبرنا عن الملائكة، عن الجن، عن ذاته، عن ما بعد الموت ؛ من برزخ، من نشور، من صراط مستقيم، من حَوْض، من ملائكة عذاب، من ملائكة رحمة، وما شاكل ذلك.

الذي يستخدم عقله في ذات الله عزّ وجل فيهلك فلا يلومن إلا نفسه:

أخبرنا عن الماضي السحيق:

(إِنّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: من آية " 72 ")

إذاً يجب أن تعرف حدودك، رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده، ميزان صنعته أعلى شركة في العالم ؛ لكن كتب عليه خمسين كيلو، ما دمت تستخدمه في حدود خمسين كيلو فهو من أدقّ الموازين، فإذا وزنت به مئة كيلو كسرته، فإذا كسرته لا ينبغي أن تتهم الصانع بأن صنعته ليست متقنة، لا، فأنت أسأت استعماله، فالذي يستخدم عقله في ذات الله عزّ وجل فيهلك فلا يلومن إلا نفسه، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا))

[ورد في الأثر]

هناك خط أحمر، لهذا قال سيدنا الصديق: **" العجز عن الإدراك إدراك "**، وقال العلماء: **" عين العلم بالله عين الجهل به، وعين الجهل به عين العلم به "**، أي أنك إذا قلت: أنا أعرف الله فأنت لا تعرفه، وإذا قلت: أنا لا أعرفه إذاً فأنت تعرفه، إذ شعرت بعجزك أمام قدرته فأنت تعرفه، فإذا قلت: أنا أعرفه، أعرف كل أفعاله هذه كذا وهذه كذا، إذاً أنت لا تعرفه لأنه:

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: من آية" 255")

معرفتك بالله عزّ وجل على قدر تفكيرك بالكون:

قال:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً(85))

(سورة الإسراء)

إذاً عندنا يقين إخباري، وعندنا يقين استدلالي، عندنا يقين حسي، عندنا يقين إشراقي، اليقين الإشراقي هذا ثمنه باهظ، معرفة بالله عزّ وجل من خلال الكون، استقامة على أمره تماماً، أعمالٌ صالحة هذه: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم، هذا اليقين الإشراقي، من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعمل.

أما الاستدلالي أنت والكون، كل شيءٍ في الكون يدل على أن الله عزّ وجل واحد وعلى أنه كامل، على أنه موجود، لذلك يعد الكون كتاباً مفتوحاً بين يديك، ما عليك إلا أن تقرأ فيه، وكلما قرأت منه صفحةً ازداد علمك بالله درجة، فمعرفتك بالله عزّ وجل على قدر تفكيرك بالكون، معرفتك بالله عزّ وجل وأسمائه الحسنى على قدر جولات فكرك في هذا الكون، لهذا آياتٌ كثيرةٌ جداً تَحُضُّنا على التفكير، وما هذه الدروس الأربعة:

ومن آياته، ومن آياته، من آياته، إلا حضٌ لهذا الإنسان على أن يُجيلَ فكره في ملكوت السماوات والأرض:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ(3))

(سورة الملك)

في الآية التالية الفاء تفيد الترتيب على التعقيب إلا في مرحلة واحدة:

اليوم في الخطبة تحدَّثنا عن أن الله عزّ وجل حينما قال:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ(12)ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(13))

(سورة المؤمنون)

انظر إلى ثم:

(ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(14))

(سورة المؤمنون)

من علقة إلى مضغة، من مضغة إلى عظام، من عظام إلى لحم، فاءات، فاء، فاء، والفاء تفيد الترتيب على التعقيب إلا في مرحلة واحدة:

(ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً(14))

(سورة المؤمنون)

أحدث مكتشفات علم الأجنة أن النطفة حينما في الأسبوع الثاني والثالث يتباطأ نموها، يتباطأ لأنها منشغلة في تأمين مصادر رزقها من جدار الرحم، هذا التباطؤ عَبَّرَ الله عنه بكلمة (ثم)، إذاً هذا الكلام كلام خالق الأكوان، كلام الذي يخلق الأجنة في بطون الأمهات، كلامه.

(العالَمين) أي كل الناس مكلّفون وكلهم مدعوّون إلى الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22))

قال: (للعالَمين) هكذا جاءت، وفي قراءةٍ (للعالِمين)، للعالِمين جمع عالِم، وللعالَمين جمع عَالَم، الفرق بين العالِمين والعالَمين العالمين أي أن هذا القرآن لكل الناس، كل الناس مكلّفون، كل الناس مدعوّون إلى الله عزّ وجل، الإنسان يولم وليمة، فيختار بعض أصدقائه، يدعون بعضهم، والباقون غير مدعوّين

لأسبابٍ كثيرة، ولكن الله سبحانه وتعالى خلق الناس ودعاهم جميعاً إلى الهُدى، خلقهم من نفسٍ واحدة، ودعاهم جميعاً إلى الهدى والسعادة، يؤكِّد هذا قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 21 ")

إذا قال الله عزّ وجل:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22))

أي لكل الناس، لكل العوالم، القريب والبعيد، المُثقف وغير المثقف الأمي، العالم والجاهل، الغني والفقير، القوي والضعيف، المتخلف والمتقدم، المتحضر وغير المتحضر.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22))

أنت مطلوبٌ أكثر مما أنت طالب، أنت مطلوب، لأن الله سبحانه وتعالى خلقك ليسعدك، أنت مطلوب، مطلوبٌ لحضرة الله عزّ وجل، مطلوب ليرحمك، مطلوبٌ ليغفر لك.

بعض الأحاديث النبوية الشريفة عن رحمة الله بعباده:

إذا كان ثلث الليل الأخير ينزل ربكم إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائلٍ فأجيبه، هل من داعٍ فألبيه، هل من طالب حاجةٍ فأقضيها له، هل من مستغفرٍ فأغفر له حتى ينفجر الفجر.

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ هَلْ مِنْ تَائِبٍ هَلْ مِنْ سَائِلٍ هَلْ مِنْ دَاعٍ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

[صحيح مسلم: عَنْ " أَبي سَعِيدٍ وَأَبي هُرَيْرَةَ "]

وقال:

((فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلَّ وَعَزَّ فَقَالَ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ ؟ وَقَالَ فِيهِ: حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ))

[مسند أحمد: عَنْ " أَبي هُرَيْرَةَ "]

مطلوب، ولا أدل على ذلك من قلب الأم، ما مطلب الأم الأساسي ؟ أن يكون ابنها في أسعد حالة، أن يأكل أطيب الطعام، إذا ترك طعاماً نفيساً وتناول طعاماً خَشِنَاً تغضب عليه، لأنه فوت عليه هذه الأكلة اللذيذة، هذا قلب الأم، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى امرأةً تقبّل ولدها قال لأصحابه:

((أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ قُلْنَا: لَا وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: اللَّهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ بِوَلَدِهَا.))

[مسند البزار: عن "عمر بن الخطاب"]

والله عزّ وجل حينما قال:

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب))

[ورد في الأثر]

السعادة تكون بمعرفة الله عز وجل والشقاء بالبعد عنه:

أيها الأخوة الأكارم لا يوجد شر بالكون، شر مقصود لذاته لا يوجد، دائماً دع في نفسك هذا المثل: أب طبيب جراح، ينطوي على قلبٍ كله رحمة وعقل، كله علم، فإذا شعر أن ابنه يعاني من التهاب الزائدة، الأب بنفسه أخذ ابنه، ووضعه على المشرحة، وخدّره، وجاء بهذا المبضع، وجرح الجلد، وفتح الجلد، ونفر الدم، واستأصل هذه الزائدة الدودية، هل يقال: هذا العمل شر ؟ إطلاقاً، أما فتح البطن فيما يبدو للناظر الساذج شر، كذلك المصائب التي ترد على الناس تكون سبباً لهدايتهم، سبباً لتوبتهم، لعودتهم، كأن الله يري آياته، إما أن تراها وأنت في الرخاء، وإما أن تراها وأنت في الشدة.

ومن آياته الدالة على عظمته أيضاً منامكم بالليل، كأنك وأنت نائم تنفصل نفسك عن جسدك، قد ترى مناماً مُسْعِداً، كأن ترى أنك في منطقةٍ جميلةٍ، ترى أنك قد نجحت في الامتحانات، ترى أنك قد ارتفعت إلى أعلى المقامات، تشعر أنك سعيدٌ سعادة كبرى وأنت على سريرٍ خشبيٍ متقشفٍ خَشِنٍ، فما سر هذا المنام ؟ كأن المنام دليلٌ على أن سعادة الإنسان في الآخرة حق، تستيقظ وأنت في غاية السعادة، وأنت في نشوةٍ ما بعدها نشوة، لو أن إنساناً رأى النبي عليه الصلاة والسلام، يقول لك: بقيت شهراً وأنا غارقٌ في نشوة هذه الرؤيا، معناه أن النفس لها عالم آخر، لها قوانين، أنت في المنام تنتقل، تسافر إلى أقصى البلاد، تلتقي مع أبعد الناس، تطمح إلى أعلى الدرجات ؛ وقد ترى مناماً كابوساً، ترى أنك في وضعٍ سيئ، ترى أنك في حالةٍ متدهورة، ترى أنك في مرضٍ عُضال، ترى أنك في حادث سيارةٍ مخيف، ترى أن الذين حولك قد فقدتهم، تقوم مُنْزَعِجاً، هذه آيةٌ من آيات الله، كأن الله يؤكِّد لنا أن فيك نفساً، وهذه النفس تسعد وتشقى، وأنت أنت، قد يَسْعَدُ إنسان في منامه وهو في أشقى حالاته، وقد يشقى إنسان في منامه وهو في أسعد حالاته، إذاً لك نفسٌ تسعد بعملها الصالح، وتشقى بعملها السيئ، تسعد بمعرفة الله عزّ وجل وتشقى بالبعد عنه، لذلك:

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ (23))

هذه بعض الآيات.

النوم دليل على أن هناك موتاً أبدياً:

الآية الثانية: أن هذا الجهاز العصبي الذي يعمل طوال عشر ساعات أو أكثر، في تلقِّي الصور، والأصوات، والمشمومات، والمسموعات، وتحليلها، وإدراكها، وإصدار أوامر معاكسة استجابة لهذه الصور، في نشاط دائم، في حالات من النشاط عالية جداً، يأتي ينام فيرتاح، لو أن إنساناً قاد مركبة في الليل يقول لك: تحطمت أعصابي، هذه الأضواء الباهرة، والتجاوزات، والمخاطرات، دائماً في حالة يقظة دائمة، يأتي النوم، يكون النوم نعيماً له، ماذا في النوم ؟ هذه الأعصاب تتباعد، فإذا تباعدت انقطعت السيّالة العصبية، يستيقظ الإنسان بعد يوم عملٍ مُضْنٍ وهو في أشد حالات النشاط، نعمة النوم، من آيات الله الدالة على عظمته، وتَدُلُّ على عظمته حياة الإنسان النفسية التي يعيشها، يسعد بها أو يشقى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ (23))

النوم موتٌ مؤقت، أيضاً النوم علامة أو دليل على أن هناك موتاً أبدياً، فالنبي الكريم كان يدعو فيقول:

((إنْ أمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإنْ أرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا))

[مسند أحمد: عن " أبي هريرة "]

اليوم أحد إخواننا الأكارم توفي رحمه الله، البارحة كان لا يشكو شيئاً، وقد استمع إلى شريطٍ من دروس جامع العثمان، ثم فجأةً وقع ميتاً، الموت قريب جداً، النبيّ الكريم كان يقول:

((إنْ أمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإنْ أرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا حَفِظْتَ بِهِ عِبَادَكَ الصّالِحِينَ))

[مسند أحمد: عن " أبي هريرة "]

النوم موتٌ مؤقت وهو من آيات الله الدالة على عظمته:

النوم موت مؤقت:

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ)

(سورة الأنعام: من آية " 60 ")

معنى يتوفاكم أي أنت في النهار مُخَيّر، في الليل أخذ منك اختيارك، أعطاك الاختيار في النهار، وسلبه في الليل، أما عند الموت أخذه نهائياً، مغادرة بلا عودة عند الموت، أما كل ليلة تموت موتاً مؤقتاً، فالإنسان عليه أن يعلم أن هذا النوم من آيات الله الدالة على عظمته، أولاً هو موت مؤقت، وثانياً النوم يؤكِّد الحياة النفسية التي تسعد وتشقى من دون أن يكون للجسد علاقة بهذه السعادة والشقاء، أليس كذلك؟ تسعد إلى أعلى الدرجات وتشقى إلى أخفض الدرجات وأنت أنت.

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (23))

بعض المفسرين قالوا: بالليل والنهار، النهار نوم القيلولة، النبي الكريم قال:

((قيلوا فإن الشياطين لا تقيل))

[أخرجه الطبراني: عن "أنس بن مالك"]

القيلولة نوم بعد الظهيرة، وبعضهم قال: لا، ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله في النهار.

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا(10)وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا(11))

(سورة النبأ)

في الليل ترتاح، وتسكن، وتعبد الله، وتفكر، وتقرأ القرآن ؛ وفي النهار تعمل وتكسب الرزق.

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ (23))

على الإنسان أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح لأن الله تعالى هو الرزّاق:

أشار العلماء إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(مِنْ فَضْلِهِ (23))

أي إيّاك أن تتوهم أيها الإنسان أن هذا المال الذي بين يديك إنما هو من كسبك، بجهدك، بذكائك، بخبرتك، بتعبك، بكَدِّك، بعرق جبينك، لا أبداً، إنه من فضل الله عزّ وجل، فلو أن الله عزّ وجل أخذ شيئاً من عقلك لأودعك أهلك في مَصَحٍ عقلي، بواسطة، بجهد جهيد، أين رزقك ؟ أين معملك ؟ أين دكانك ؟ أين وظيفتك ؟

رجل كان يعمل بمنصب رفيع جداً، معاون وزير، فقد بصره، خلال شهر كانوا يأتونه بالمعاملات إلى البيت ليوقعها، فقد منصبه، قال كلمة لا أنساها، قال: والله أتمنى أن أجلس على قارعة الطريق وأمد يدي للناس وأن يرد الله لي بصري.

إذا الإنسان الله رزقه لا يقول: هذا جهدي، ذكائي، خبرتي، باعي الطويل في التجارة، تصميمي، جَلَدي، متابعتي، لا، هذا من فضل الله عزّ وجل، بحركةٍ بسيطة يفقد الإنسان ذاكرته، صديق قال لي: خرج صاحبي من معمله إلى بيته، نسي بيته، بقي في الطريق ساعة أو أقل يبحث عن بيته في الشام، إلا أنه يذكر بيت ابنه، فذهب إلى ابنه، قال له: يا بني أين بيتي ؟ فالإنسان عاجز، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ (23))

أي أنك تسعى، على الإنسان أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح، الله سبحانه وتعالى هو الرزّاق، أعطاك القدرات، والإمكانات، والذاكرة، فلو طبيب نسي ذاكرته، خسر شهادته كلها، كل الخبرات

مكانها في الذاكرة، إذا الإنسان فقد ذاكرته، كان في صيدلي له ابن بأمريكا، فدخل عليه قال له: من أنت؟ لا أعرفك، كان فاقداً لذاكرته.

من عاش تقياً عاش قوياً:

قال تعالى:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ(67))

(سورة يس)

رجل كان يحتل منصباً كبيراً جداً ـ القصة من أربعين سنة ـ اتصلت زوجته بمخفر للشرطة: أن زوجي خرج ولم يعد، وجدوه في أحد أحياء دمشق (بالقنوات)، وقد ضل الطريق، لذلك:

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا)

(سورة الحج: من آية " 5 ")

هناك مقولة قالها شيخ وقور: " يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً." فهي منهاج قويم وقول سديد.

عندي كتاب عن ألفاظ القرآن الكريم، ألفه أحد علماء الأزهر، هذا العالِم عاش مئة وثلاثين عاماً متمتعاً بكل ملكاته العقلية والجسمية، من عاش تقياً عاش قوياً، من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، المؤمن له شيخوخة رائعة جداً، تكريماً له لأن له ماضٍ مشرف في طاعة الله عزّ وجل، من كانت له بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة.

تشكل البرق والرعد من آيات الله الدالة على عظمته:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(24))

كلكم يعلم أنك إذا دَلّكْتَ شيئاً بشيء ينتج ما يسمّى بالكهرباء الساكنة، فالسيارة حينما تسير من احتكاكها بالأرض تشحن بكهرباءٍ ساكنة، فإذا وضعت بها مفتاحاً تشعر بشرارة، أي هذه المركبة مشحونةٌ بكهرباءٍ ساكنة، كذلك هذه السُحُبَ في أثناء حركتها تشحن بكهرباءٍ ساكنة، فإذا صدف أن كان أعلى السحابة كهرباء إيجابية موجبة وفي أسفلها كهرباء سالبة وحصل تفريغ ينشأ البرق، البرق كما يقول العلماء: ينشأ من تفريغ شحنات كهربائية ساكنة في السحب، إما في سحابة واحدة وهذا هو البرق الطولي، أو في سحابتين وهو البرق العرضي، أو إذا لامست كتل السحب رؤوس الجبال المؤنَّفَة، هل

تصدقون أن البرق ينشر حرارةً تزيد عن ستة آلاف درجة، هذه الحرارة إذا وصل البرق إلى الأرض كانت صاعقة، الصاعقة تُحْرِقُ كل شيء، لذلك بعض البيوت يوضع لها جهاز أو عمود حديدي ليأخذ هذه الصاعقة ويفرغها في باطن الأرض، كذلك بعض الشاحنات يضعون لها سلسلة حديدية تجري على الأرض من أجل تفريغ الصاعقة، هذا معنى البرق، البرق تفريغ الشحنات الكهربائية في السحب، لكن هذا البرق ينشر حرارةً تزيد عن ستة آلاف درجة، الأمر الذي يجعل الهواء يسخن إلى درجة الانفراغ. ما يفرغ الهواء بفعل هذه الحرارة العالية تأتي كتل الهواء لتملأ هذا الفراغ، من تصادم هذه الكتل ينشأ الرعد، فلا رعد بلا برق، ولا برق بلا رعد، وكل برقٍ معه رعد، ولكن الشيء الذي يلاحظ أنك ترى البرق وبعد حينٍ تسمع الرعد، لأن الصوت ينتقل بسرعة ثلاثمئة وثلاثين متراً بالثانية، بينما البرق ينتقل بسرعة ثلاثمئة ألف كيلو بالثانية، ترى البرق أولاً ثم ترى الرعد ثانياً، فالبرق ظاهرة طبيعية شهيرة، أحياناً ترى أن الأفق كله أضاء والتمع بالبرق.

المؤمن يعبُد الله خوفاً وطمعاً:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا (24))

تخاف البرق كصاعقة، وترجوه كسحابٍ مُمْطِر، تخشى شره وترجو خيره، والله سبحانه وتعالى دائماً يحبك أن تخشاه وأن ترجوه، فإذا خشيته فقط يَئست من فضله، وإذا رجوته بلا خشية تجاوزت حدوده، فالموقف المعتدل بقدر ما تخشاه بقدر ما ترجوه، لذلك المؤمن يعبُد الله خوفاً وطمعاً قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (24))

البرق الخُلّب هو البرق الذي لا يمطر، قال بعض الشعراء:

حـرٌ ومذهب كل حـرٍ مذهبي　　ما كنت بالغاوي ولا المتعصبِ

يأبى فؤادي أن يميل إلى الأذى　　حبُّ الأذية من طباع العقربِ

لي أن أرد مساءةً بمسـاءةٍ　　لـو أنني أرضى ببـرقٍ خُلّبِ

***

البرق الخُلّب البرق الذي لا مطر في سحابه، برق ورعد ولا توجد أمطار، والحقد في اللغة انحباسٌ المطر، سماءٌ كلها غيوم ولا مطر.

(وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (24))

كأن الأرض كائن حي يموت بالعطش ويحي بالريّ، لذلك هذه الأمطار التي أكرمنا الله بها، وهذه الثلوج التي أكرمنا الله بها، جعلت المياه لا تنقطع عن دمشق في هذه الفترة، ولولا ذلك لكان كأس الماء مهدداً بالخطر، هذه من آياته.

بعض الآيات تتفكر بها وبعضها تعقلها وبعضها تسمعها:

إذاً البرق ظاهرة جغرافية يعرفها كل إنسان، أما في أساسها تفريغ شحنات كهربائية، تصل الحرارة إلى ستة آلاف درجة، يحدث انفراغ في الهواء، تأتي كتل الهواء كي تملأ هذا الفراغ فتصطدم، من اصطدامها ينشأ الرعد، وفي سورة بالقرآن اسمها سورة الرعد.

(وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ(12))

(سورة الرعد)

وقال:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24))

إذاً نُلَخِّصُ هذه الآيات ؛ بعض هذه الآيات تتفكر بها، وبعضها تعقلها، وبعضها تسمعها، ولا بدّ من أن تسمع ومن أن تعقل:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ(10)فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ(11))

(سورة الملك)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (07-14): تفسير الآيات 25-29

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-03-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم لا زلنا في آيات الله الدالة على عظمته، فمع الدرس السابع من سورة الروم

القيام تعبيرٌ قرآني عن كمال قدرة الله عزّ وجل:

نتابع الآيات التي وردت والتي تتحدّث عن ملكوت السماوات والأرض، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

(سورة الروم)

الإنسان ينام ويقعد ويقوم، في أي حالاته يكون أقدرَ على تحقيق مراده ؟ في القيام، كلّما عَظُمَ الأمر قعد الإنسان، فإذا كان أشدّ عظمةً قام له، فالقيام تعبيرٌ قرآني عن كمال قدرة الله عزّ وجل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

السماء والأرض كما قلت لكم من قبل تعبيرٌ قرآنيٌ عن الكون، الكون كله ؛ بمجرّاته، بكازاراته، بكواكبه، بمذنّباته، بأبعاده الفلكيّة الشاسعة، هذا الكون التي تُعَدُّ الأرض بالنسبةِ إلى المجموعة الشمسيّة ذرّةً صغيرةً جداً في فلاة، والتي تعدُّ المجموعة الشمسيّة في مجرّة درب التبّان ذرّةً في فلاة، والتي تعدُّ مجرّة درب التبّان في باقي المجرّات ذرّةً في فلاة

كل شيءٍ قائمٌ بالله سبحانه وتعالى ومتحرّكٌ بأمره:

الكون لا حدود له وهو يتسع باستمرار:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ(47))

(سورة الذاريات)

هذا الكون قد حدّثتُكم عنه كثيراً من قبل، عن بعض الأبعاد التي بين المجرّات:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

بعضهم قال: أن تقوم السماء أي أنّ السماء والأرض قائمة بالله ولولا الله لزالتا:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر: من آية "41 ")

الزوال هنا بمعنيين: بمعنى عدم خروجها عن خطِ سيرها، أو بمعنى استمرار بقائها، لولا الله عزّ وجل لزال الكون، انتهى، إذاً قيام الشيء بالله، أي أن وجوده بالله، وجوده على ما هو عليه من حركةٍ أو سكونٍ بالله، فأنت وجودك بالله عزّ وجل، وأنت بعض ما في الأرض، أي أن تكون أو لا تكون أنت قائمٌ بالله، الآن:

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

بعضهم قال: السماء والأرض تقوم بالله، فإذا تحرّكتْ تحرّكت بأمر الله، هذا الإله العظيم كل شيءٍ قائمٌ به، متحرّكٌ بأمره، يؤكِّد هذا قوله تعالى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ(62))

(سورة الزمر)

يؤكِّد هذا قوله تعالى:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأمْرُ)

(سورة الأعراف: من آية "54")

ربنا عزّ وجل يُعَرّفنا بذاته من خلال القرآن الكريم:

الأمر أمره، يؤكِّد هذا قوله تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من آية "123")

إذاً ربنا عزّ وجل من خلال القرآن الكريم يُعَرّفنا بذاته، أن الشمس لولا أنها قائمةٌ بالله لما قامت، القمر لولا أنه قائمٌ بالله لما قام، الأرض لولا أنها قائمةٌ بالله لما قامت، قيامها بالله، وحركتها بالله، وائتمارها بأمر الله، هذا معنى قوله تعالى:

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

أنت كلّما رأيت إنساناً ذا شأنٍ وخطر، كلّما عرفت أن فلاناً بيده القضيّة، إلى قناعته يرجع الأمر، مُخَوّلٌ بتوقيع الموافقة، كلّما عرفت أن الأمر بيد فلان توجّهت إليه، ما القصدُ من قول الله عزّ وجل:

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

أي أن قيام كل شيء وحركة كل شيء بالله عزّ وجل، فكيف تتوجّه لغيره ؟ كيف ترجو غيره ؟ كيف تخاف من غيره ؟ كيف تسعى إلى غيره ؟ كيف تذهب إلى غيره ؟ كيف تعقد الآمال على غيره ؟ كيف تخشى غيره ؟!!

وجود الإنسان بيد الله عز وجل:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

إذاً القيام دليل كمال قدرة الله عزّ وجل، و(بأمره) أحياناً من باب التوضيح نضرب الأمثال، لأن هناك قاعدةٌ ثابتة:

(وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأعْلَى)

(سورة النحل: من آية " 60 ")

كل مثالٍ نضربه للتوضيح فقط، الإنسان أحياناً يعطي أمراً لابنه فلا ينفِّذ، فيضطر أن يتحرّك ليحقِّق حاجته، معنى هذا أن قدرته على ابنه ليست كاملة، في بعض الحالات ينفّذ وفي بعض الحالات لا ينفِّذ، فحينما لا ينفّذ يقوم الأب بنفسه بالتنفيذ، هذا شيء واقع في حياة الأسَر، لكن إذا أصدر إنسان أمراً فنُفِّذ فوراً، ما معنى ذلك ؟ معنى هذا كمال قدرته عليهم، إذاً لم يقل الله عزّ وجل: ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بقدرته بل قال:

(بِأَمْرِهِ (25))

الأقوياء لا يحتاجون إلى استخدام عضلاتهم يحتاجون إلى توقيع فقط، إلى إصدار أمر، فإذا كان أمرهم نافذاً فهذا دليل قوّتهم، ودليل تمكّنهم، ودليل انصياع الناس لهم، إذاً:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

ما أردت أن أوضِّح لكم هذه الآية حبّاً بالتوضيح ؛ بل حبّاً بالقصد النبيل الذي وراء هذه الآية، أي يا أيها الإنسان إلى أين أنت ذاهب ؟ إلى أين أنت تتوجّه ؟ على من تَعْقِدُ الآمال ؟ من ترهب ؟ من تخاف ؟ الأمر كلّه بيده ؟ وجودك في أصله بيد الله عزّ وجل، إن لم يتجّلى الله عليه، لا وجود لك، هذا الكبد إذا تجلّى الله عليه قام بخمسة آلاف وظيفة، فإذا تخلّى الله عنه صار قطعة لحم سوداء اللون، القلب إذا تجلّى الله عليه نبض، وتحرّك، وضخّ الدم، فإذا منع الله عنه تجليه وقف، الدماغ، الإنسان

أتحسـبُ أنك جرمٌ صغير وفيكَ انطوى العالَم الأكبرُ

***

ربنا عزّ وجل أمره كّن فيكون زُلْ فيزول:

لكن لو أن الله عزّ وجل تخلّى عن الإنسان لثانية يموت، ما قيمة الميّت ؟ الإنسان بلا روح لا يزيد ثمنه بكامله عن خمسٍ وعشرين ليرةً سوريّة، لأن سبعين بالمئة منه ماء، وكمية الماء صفيحتان، فيه

فوسفور يكفي لصنع علبة عود ثقاب، فيه كلس يكفي لتبييض بيت للدجاج، فيه حديد يكفي لصنع مسمار، لو أردت أن تأخذه كمواد لا قيمة له إطلاقاً، لكن بهذا التجلِي الإلهي الدماغ يفكِر، ويحاكم، ويخترع، ويكتشف، ويتصوَر، ويتخيَل، وفي ذاكرته سبعين مليار صورة ـ إذا عاش الإنسان سبعين سنة أو ستين سنة تخزّن ذاكرته ما يعادل سبعين مليار صورة ـ ومشمومات، ومسموعات، ومبصرات، وذاكرة أرقام، وذاكرة وجوه، وهذه مخبّأة في مكان بعيد لأنه لا يحتاجها، وهذه الصورة مخبّأة في مكان قريب، وهذه مخبّأة في مكان متوسّط، وهذه تُلقى في المهملات وأنت لا تدري، الذاكرة وحدها لو أردت أن تقف عند دقائقها لأخذك العجب العجاب، هذا بتجلي الله عليك، فلو منع عنك التجلي وسحب منك الروح ما قيمة الدماغ ؟ فكل عضوٍ من أعضائك إذا تجلى الله عليه فعل المُعْجزات، فإذا تخلّى الله عنه صار قطعة من لحمٍ سريعة التفسُّخ، سريعة الفساد، هذا معنى قيام الشيء بالله عزّ وجل، لولا أن الله عزّ وجل يتجلّى على مخلوقاته لما كان هناك مخلوقات، فربنا عزّ وجل كّن فيكون زُلْ فيزول، لا شيء:

(فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا)

(سورة الأعراف: من آية " 143 ")

كان هناك جبلاً، أين الجبل ؟ انتهى، هذا المعنى دقيق، أي قيام الشيء، أقرب مثل: آلة تسجيل تصدح بالصوت المرتفع، لما تسحب المأخذ الكهربائي ـ الوصلة ـ ينقطع الصوت فجأةً، أصبحت قطعة من البلاستيك، إذاً كل هذا الصوت، وكل هذه الدقّة في هذه القوّة المحرّكة، وهذا المكيّف، وهذا البرّاد، وهذه الغسّالة، وهذه الأدوات المعقّدة إذا قطعت عنها الطاقة أصبحت لا شيء، توقفت، إذاً قيام الشيء بالله عزّ وجل ؛ بل إنّ الآية تشير إلى معنى أدق هو: إذا قطعت الوصلة عن هذه المسجّلة ينقطع الصوت وتبقى مسجّلة، أما لو قُطِع الإمداد الإلهيُّ عن الأشياء لزالت، فوجود الأشياء قائمٌ بالله عزّ وجل، وحركتها بأمره، فهذا أقصى درجات كمال القدرة، من كمال قدرة الله عزّ وجل أن وجود الشيء قائمٌ بالله، وحركته بأمر الله

الكون وما فيه بيد الله وحده فأطع أمره واتبع منهجه:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

قيام الأشياء كلِها به، وحركتها بأمره، لماذا أنت منصرفٌ عنه ؟ لماذا ترجو غيره ؟ لماذا تتضعضع لغنيّ ؟ لماذا تُذْهِب ماء وجهك لغيره ؟ لماذا تتذلّل لغيره ؟ لماذا ترجو وتدعو غيره ؟ فلذلك:

ويُعَابُ من يشكو الرحيـ ـمَ إلى الـذي لا يـرحمُ

***

أعداؤك الذين تتوهّم أنهم قادرون عليك قيامهم بيد الله عزّ وجل، قيامهم وحركتهم بيد الله عزّ وجل، كن مع الله ولا تبالي.

كن مع الله ترى الله معك واترك الكلّ وحاذر طمعك

وإذا أعطاك مـن يمنعه؟ ثم من يعطي إذا ما منعك؟!

***

إذاً هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة: من آية " 255 ")

قيام الكون به، وحركة كل ما في الكون به، فأنت لا ترجو غيره، فاعبده وتوكّل عليه، والزم طاعته، وقف على أعتابه، وأطع أمره، وطبّق منهجه، ابتغ رضاه، ولا تبالِ بسواه، إذاً لا تنصرف عنه إلى غيره

الأمر التكويني والأمر التكليفي:

قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

لكنّ السماء والأرض

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا(72))

(سورة الأحزاب)

إذاً السماوات والأرض لم تقبل التكليف، حينما عُرِضَ عليها التكليف أبت هذا التكليف وأشفقت منه، إذاً هي غير مكلّفة، تأتمر بأمر الله، أمر الله التكويني مُنَفّذٌ فيها، أتينا طائعين، ما سوى الإنسان لا يعصي أبداً لأنه غير مكلف، ولا يستنكف عن طاعة الله عزّ وجل، فالذي قَبِلَ التكليف، وأعطي الاختيار، وحُمِّل الأمانة، وكُلِفَ أن يعرف الله، من الذي كُلِفَ أن يطيعه ؟ من الذي كُلِفَ أن يضبط شهواته ابتغاء مرضاته ؟ فالإنس والجن في الكون كلِّه مُكَلّفان بطاعة الله، فالإنسان إما أن يطيع وإما أن يعصي، ولكن هذه الطاعة وهذا العصيان سوف يدفع ثمنُه باهظاً، متى ؟ يوم القيامة، يقول الله عزّ وجل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

أمر الله التكويني منفّذٌ في السماوات والأرض كلِّها، أما الإنسان منفّذٌ فيه أمره التكليفي، الأمر التكويني هو فعل الله عزّ وجل، أما الأمر التكليفي هو أمر الله، الطريق سالكة، أما توجد لوحة كُتِبَ عليها ممنوع

المرور، هذا أمر تكليفي، لكن بإمكانك أن تخالف الأمر، ولكن تدفع الثمن باهظاً، أما الأمر التكويني هو أمرٌ كأن تأتي بمكعّبات من الإسمنت المسلّح تَسُدُّ بها الطريق، فأمر الله التكويني نافذٌ في السماوات والأرض

الأمر التكليفي الإنسان مكلف أن ينصاع لأمر الله عزّ وجل وإلا سوف يدفع الثمن:

نعود إلى الأمر التكويني وإلى الأمر التكليفي:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ (25))

الإنسان مأمور أمراً تكليفياً، يحاسب، ويجازى بالجنة، ويعاقب بالنار:

(ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25))

قال أحدهم لبعض العلماء: **" أنا أرغب أن أعصي الله " ـ هكذا قال له ـ قال: " لا عليك ولكن احرص أن تعصيه في مكانٍ لا يراكَ فيه "، قال: " لا يكون هذا "، قال: "إذاً كيف تعصيه وهو يراك ؟ "**

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من آية " 4 ")

إذاً أنت مكلّف بأمر تكليفي وسوف تدفع الثمن، أمرك بغض البصر، أمرك بأكل المال الحلال، أمرك بإنفاق المال، هذا كلّه أمرٌ تكليفي وعلى الإنسان أن ينصاع لله عزّ وجل وإلا يدفع الثمن، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ (25))

ليحاسبكم، ليجزيكم على أعمالكم، ليثيب محسنكم، ليعاقب مسيئكم، ليدخل المؤمن الجنّة إلى أبد الآبدين، ليدخل الكافر النار إلى أبد الآبدين

ملكيّة الإنسان للأشياء محدودة بينما مُلكيّة الله للكون لا حدود لها:

قال تعالى:

(ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26))

مرّةً ثانية كلمة (له) هذه اللام هي لام المُلك، أنت تقول: هذا القلم لي، لكن أن يملك الإنسان شيء، وأن يكون الكون كلّه ملكاً لله شيءٌ آخر، وله معنىً آخر:

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (26))

خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً، خلقاً قد تقتني شيئاً لم تصنعه أنت، وقد تقتني شيئاً لا تستطيع أن تحافظ عليه إلى ما شاء الله، إذاً ملكيّة الإنسان للأشياء ملكيّةٌ محدودة، بينما مُلكيّة الله للكون بهذا المعنى:

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (26))

خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً، الإنسان قد يملك بيتاً ولا ينتفع به، وقد ينتفع ببيتٍ وهو لا يملكه، وقد يملكه وينتفع به ولكن ليس له مصيره، لكن الله عزّ وجل له من في السماوات والأرض خَلْقاً، الخالق هو المالك والمتصرّف، المربي والمسيّر، هو المالك والمصير إليه، إذاً هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26))

أي خاضعون، الإنسان ضعيف وهو مفتقر إلى الهواء، و الماء، والطعام، مفتقر إلى جو دافئ وإلا يموت، مفتقر إلى جو معتدل وإلا يموت، مفتقر إلى إنسانة يسكن إليها هي زوجته، وأولاد يأنسُ بهم، مفتقر إلى مال يكسبه، مفتقر إلى ذاكرة، وإلى بصر، وإلى سمع، وإلى نُطق، وإلى أجهزة، من مري، وأمعاء، وطُحال، وكبد، وبنكرياس، وأوعية، وشرايين، مفتقر إلى أشياء كثيرة، فالإنسان هو عبدٌ، والله هو الرّبُ، فإذا عرفت من أنت عرفت ربّك، وإذا لم تعرف من أنت ما عرفت الله عزّ وجل، كلّما ازددت معرفةً بذاتك ازددت تواضعاً لربّك، وكلّما ازددت معرفةً بربّك صغرت ذاتك، المتكبّر لا يعرف الله هذه قاعدة، كلّما تضخّمت ذاتك كان ذلك على حساب عبوديّتك لله عزّ وجل، وكلّما نَمَت العبوديّة عندك لله عزّ وجل تضاءلت ذاتك، وعرفت حجمك الحقيقي، وعرفت حدّك فوقفت عنده

الإيمان بالله وباليوم الآخر شيئان مُتلازمان:

قال تعالى:

(وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (26))

أي خاضعون:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (27))

الحقيقة أن الشيء الذي يلفت النظر أن الله سبحانه وتعالى كثيراً ما ذكر الإيمان به وقرنه بالإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالله وباليوم الآخر شيئان مُتلازمان متلاصقان، فإذا آمنت بالله ولم تؤمن باليوم الآخر ورأيت الدنيا هي كل شيء انحرفت عن أمره، أما إذا آمنت بوجود الله خالقاً ومربياً ومسيراً، وآمنت أنه لا بدّ من أن ترجع إليه، وأن تقف بين يديه، وأن يسألك عن كل شيء، عن كل عمل، عندئذٍ يأتي الإيمان بالله مع الإيمان باليوم الآخر متلازماً، ما الشبهة التي ترد على الكفّار حينما لا يؤمنون

باليوم الآخر ؟ يتساءلون في البعث والنشور كيف يعيد الله هذا الخلق ؟ شيء صعب، ردّ الله عليهم بهذه الآية، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (27))

بدأه، خلق السماوات والأرض، خلق الشمس والقمر، خلق النجوم والمجرّات، خلق الإنسان، خلق الجبال، والبحار، خلق الأسماك، والأطيار، لكن كل هذا سوف يُعاد

الحظوظ وزّعَت في الدنيا توزيع ابتلاء ولابدّ من أن توزّع في الآخرة توزيع جزاء:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (27))

السؤال الدقيق: لماذا يعيده ؟ ليتحقّق اسم الحق، ليتحقّق اسم العدل، لأن الله سبحانه وتعالى وزّع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء ؛ فلان ابتلي بالغنى وآخر بالفقر، ذاك بالقوة وذلك بالضعف، وغيره بالذكاء أو بقلّة الذكاء، فلان بالوسامة وصاحبه بالدمامة، هذا الغني ماذا فعل بالمال ؟ والفقير ما رد فعله؟ هذا القوي ماذا فعل بقوّته ؟ والضعيف ما موقفه؟ هذا الذكي في أي شيءٍ سخّر ذكاءه ؟ وهذا الذي أقل ذكاءً ماذا فعل ؟ هذا الدميم هل صبر على دمامته ؟ وهذا الوسيم هل تاهَ بجماله ؟

الله عزّ وجل وزّع الحظوظ على مستوى الدخل، والمال، والزوجة، والأولاد، والمسكن، والمكانة الاجتماعيّة، كل شيءٍ لك منه نصيب هو حظّك من الله عزّ وجل، وزّعت الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء، فإذا وزعت توزيع ابتلاء ولم يكن هناك آخرة فهذا ظلمٌ شديد، ما ذنب الضعيف والفقير ؟ وما ذنب المريض والدميم ؟ وما ذنب العاجز والمعتوه ؟ ما ذنب هؤلاء ؟ لا، الحظوظ وزّعَت في الدنيا توزيع ابتلاء، ولا بدّ من أن توزّع في الآخرة توزيع جزاء لذلك من لوازم أسماء الله الحسنى أن يعيد الخلق مرّةً ثانية، تسوّى الحسابات، تسوّى الأمور، يُقتصُ من الظالم، ينتصر المظلوم، يُقْتَصُ من الغني المُسْرِف، يُكَرَّم الفقير الصابر، لا بدّ من يومٍ آخر تسوى فيه الحسابات لأن الله له أسماءٌ حسنى، أسماؤه حسنى، أن يخلق أناساً أقوياء وأناساً ضعفاء، أناساً معتدين وأناساً معتدى عليهم، أناساً أغنياء أناساً فقراء، هكذا وتنتهي الحياة ولا شيء بعد الموت ؟ هذا لا يتناسب مع كمال الله عزّ وجل

الله تعالى يبدأ الخلق ثم يعيده كي يدفع كل إنسانٍ ثمن اختياره:

إذاً:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (27))

يعيده

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى(15))

(سورة طه)

يعيده كي يجازي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته، يعيده كل يدفع كي إنسانٍ ثمن اختياره، ثمن موقفه، ثمن إيمانه، ثمن كفره، ثمن طاعته، ثمن معصيته، ثمن إقباله، ثمن إدباره وهكذا:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (27))

لكن أيها العباد إذا ظننتم أن إعادة الخلق شيءٌ صعبٌ فهذا عندكم لا عند الله عزّ وجل، أنتم إذا صنعتم جهازاً أو أداةً أو قطعة أثاثٍ، إنّ أصعب شيءٍ في صناعتها المرّة الأولى، المرّة الثانية تكون أخف وأسهل، هذا من طبيعة البشر ؛ لكن الله عزّ وجل فيما أجمع عليه المفسِّرون البدء كالإعادة، لأن الله عزّ وجل لا نهاية لقدرته، لا حدود لقدرته، فالبدء بالخلق كإعادته، ولكن قرّب الله المعنى إلينا وقال: أنتم إذا أعدتم صنع الشيء يبدو عليكم هيناً في المرّة الثانية، فهذا تقريبٌ لأذهان الناس

العزيز هو الشيء الذي يقلّ وجوده وتشتدُّ الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه:

بعضهم قال: كلّما فكّرتم في ملكوت السماوات والأرض، وتعرّفتم إلى عظمة الله عزّ وجل، رأيتم الإعادة أهون عليه، كلّما ازددتم تعظيماً لقدرة الله عزّ وجل ولحكمته ولعلمه رأيتم الإعادة أهون:

(وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27))

المثل الأعلى، أي أن الله عزّ وجل ليس كمثله شيء، كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك:

(وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى (27))

أحياناً تستخدم أمثلة كثيرة لتوضيح بعض الحقائق، لكنها لا تنطبق على حضرة الله عزّ وجل إلا من باب التقريب، دائماً إذا أردت أن تضرب الأمثال قل: لله المثل الأعلى كي تنجو من التجسيم، تنجو من أن تشبّه الله بخلقه:

(وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27))

كلمة العزيز، أن الشيء إذا كان نادراً سُمِّيَ عزيزاً، فإذا اشتدّت الحاجة إليه سمي عزيزاً، فإذا صَعُبَ الوصول إليه سمي عزيزاً، فالعزيز هو الشيء الذي يقلُّ وجوده، وتشتدُّ الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، هذا التعريف اللغوي

لو أردنا أن نطبّق هذا التعريف على اسم العزيز، الله عزّ وجل لا إله إلا هو، هذه الصفة ندرة الوجود، كمالها أن يصبح هذا الشيء واحداً لا مثيل له، إذاً أكمل صفةٍ في المقطع الأول ندرة الوجود الشيء عزيز، فالله واحد لا شريك له، ليس كمثله شيء

الله سبحانه وتعالى يحتاجه كل شيء:

الآن كلّما اشتدّت الحاجة إلى شيءٍ سمي عزيزاً، الهواء عزيز لأننا بأشد الحاجة إليه، لكن الله سبحانه وتعالى يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء، الابن يحتاج والده، عليه أن يمدّه ببعض الدراهم، ببعض التوجيهات، أن يسكنه في بيت، أن يُطْعِمَهُ، لكن أعضاء الابن مستقلّة عن الأب، لكن الله سبحانه وتعالى كما يشرح العلماء يحتاجه كل شيء

كلمة شيء من أوسع الكلمات الدالّة على الجماد، والحيوان، والنبات، من الذرّة حتَّى المجرّة، هذا هو الشيء، يحتاجه كل شيء في كل شيء، ويصعب الوصول إليه، أما بالنسبة إلى الله عزّ وجل يستحيل الوصول إليه، بمعنى يستحيل أن تصل إليه وتحيط به، لا تدركه الأبصار:

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: من آية " 255 ")

وقال:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا(85))

(سورة الإسراء)

تصل إليه عبوديّةً، ولن تصل إليه إحاطةً، إذاً:

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27))

حكيمٌ في خلقه، حكيمٌ في أفعاله، حكيمٌ في صفاته، في خلقه، وفي أفعاله

الشرك الخفي :

الآن إذا آمن بعضهم بالله إيماناً سطحياً، وانعقدت آمالهم على غير الله، وتوجّهوا لغير الله، فقد أشركوا، وهذا هو الشرك الخفي، الجلي أن تعبد غير الله، والخفي أن تعقد الآمال على غير الله، أن ترجو غير الله، أن تحب غير الله، أن تخاف من غير الله، هؤلاء الذين عقدوا آمالهم على غير الله أشركوا، وربنا

عزّ وجل يُفَنِّدُ عقيدة الشرك، يفنِّدها أدقّ تفنيد، لا بأفكار مجرّدة وبتعريفات دقيقة، لا، بل بشكل مبسّط منتزع من حياتنا، قال:

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ (28))

من واقع حياتكم، من تجارتكم، من حياتكم الاجتماعيّة، تاجر عنده محل تجاري ضخم وله قيمة عالية جداً، في أروج سوق في المدينة، ومساحته كبيرة، وعند هذا التاجر موظّف صغير يقوم بخدمات عاديّة كأن يجلب القهوة والشاي مثلاً، قال:

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ (28))

فهذا الموظّف الذي في هذا المحل الكبير والذي له أجرٌ يسير، وعملٌ محدود، هذا الإنسان الصغير هل بإمكانه أن يتصرف بملكية هذا المحل ؟ هل بإمكانه أن يغيّر نوع البضاعة ؟ هل بإمكانه أن يعقد صفقة؟ هل بإمكانه أن يجلس معك على الحساب آخر السنة ؟ ويقول: أين نصيبي ؟ كم ربحت ؟ هل بإمكانه أن يفعل هذا ؟ هو ليس له شيء في هذا المحل لأنه موظّف محدود

لا شريك لله الواحد الأحد:

ربنا عزّ وجل يقول:

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ(28))

طبعاً الشريك يخاف شريكه، ويحسب له حساباً، له حقّ عنده، له نصف الأرباح، يسأله عن الحسابات، يسأله عن قيمة الأرباح، الشريك يحاسِب، الشريك له الحق أن يَطّلع، لكن هل تقبل أنت من عامل في محلِّك التجاري أن يعاملك كشريك ؟ ماذا ربحت اليوم ؟ أين الحسابات ؟ أين أنت ذاهب ؟ لو أن صاحب المحل خرج يقول له: إلى أين أنت ذاهب ؟ كم ستغيب ؟ هل تقبل أن يقف هذا الموقف صانعٌ في محلِّك التجاري ؟!!

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ(28))

هذا الموظّف الصغير لم تخلقه أنت، ومع ذلك لا ترضى أن يسألك، ولا ترضى أن يشاطرك الأرباح، أنت لم تخلقه، فكيف بالله العظيم الذي خلق هذا المخلوق، هو خلقه، هو أوجده، وهذا المخلوق يدّعي أنه شريكٌ لله عزّ وجل، يدّعي أنه يفعل، ويتصرف، وينفع، ويضر، والأمر بيده، إذاً كما أنك كإنسان لا ترضى لموظّفٍ صغيرٍ عندك في محلك الكبير أن يسائلك ويتدخل في أمورك وتجارتك، فكيف ترضى

أن يكون مخلوقٌ لله عزّ وجل يدّعي أنه شريكٌ لله ؛ في تصرفاته، وفي نفعه، وفي ضرّه، وفي فعله، وفي تركه ؟

المؤمن يسير وفق الشرع أما غير المؤمن فيسير وفق الهوى:

إذاً:

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ(29))

أيها الأخوة الأكارم يجب أن تُصَنِّفَ نفسك أحد شخصين ولا ثالث لهما، إما أن تنطلق في تصرُّفاتك، في مواقفك، في علاقاتك، في كل شيءٍ تفعله من هوىً أو من علم، إما أن تنطلق من هوى نفسك، أو من العلم بالله عزّ وجل، فالمؤمن يسير وفق الشرع، يسير وفق ما يمليه عليه منهج الله عزّ وجل، أما غير المؤمن يسير وفق الهوى، وفق نزواته، وفق شهواته، وفق ميوله الرَخيصة، إذاً:

(بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ (29))

ظلموا مطلقة ؛ ظلموا أنفسهم، وظلموا أهلهم، وظلموا مصيرهم ما عرّفوها بربها، وظلموا إخوانهم، وظلموا من حولهم

عدم الاهتداء إلى الله عزّ وجل إلا إذا بحثت عن أمر الله:

قال تعالى:

(بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (29))

الذين ظلموا من صفاتهم أنهم يتّبعون أهواءهم، وعلى الإنسان ـ في كل عملٍ يعمله وقبل كل موقفٍ يقفه ـ أن يسأل نفسه هذا السؤال: أنا بهذا الموقف هل أتبع الهوى أم أتبع العقل ؟ هل أتبع الشرع أم أتبع المَيْل ؟ هل أتبع مصلحتي أم أتبع أمر ربّي ؟ النبي عليه الصلاة والسلام في كل موقفٍ حتّى إذا غضب كان يغضب لله عزّ وجل، فلن تكون مؤمناً ولن تهتدي إلى الله عزّ وجل إلا إذا بحثت عن أمر الله، ووقفت الموقف الذي يرضي الله في كل شؤون حياتك، هؤلاء الذين ظلموا، وحينما أطلق الله الظلم أي جعله شاملاً، ظلم نفسه أي حرمها من معرفة الله، ومن الآخرة، حرمها من سعادةٍ أبديّة، من لذّة القُرْب، حرمها من تجلي الله، حرمها من التوفيق والسعادة، حرمها من السرور والاستقرار، من الأمن والطمأنينة، حرمها من شعورها أنها راضيةٌ لله عزّ وجل، هذه الخيرات الثمينة كلها قد حُرِمَ منها الإنسان، لماذا ؟ لأنه اتبع هواه بغير علم

هل يُفْهَم أنه يوجد هوى بالعلم ؟ ممكن نفهم الآية فهماً دقيقاً، أن الله عزّ وجل أودع في النفس الشهوات، هذه ميول، أهواء، ولكن ما هي القناة التي سَمَحَ بها الشرع لتصريف هذا الهوى ؟ حبُّ النساء له قناةٌ واحدة هي الزواج

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْعَادُونَ(7))

(سورة المؤمنون)

قنوات شرعية سمح الله عز وجل بها لتصريف الهوى:

إذاً هوى النساء له قناةٌ وحيدةٌ نظيفةٌ سمح بها الشرع، وأمر بها، ويرضى عنك بها ولا غضاضة وهي الزواج، المؤمن يتبع هواه بعلمٍ أي أنه وضع ميوله وفق منهج الله عزّ وجل، المال محبّب، الله عزّ وجل أودع في الإنسان حبّ المال، قال تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ)

(سورة آل عمران: من آية " 14 ")

هناك عدّة وسائل لكسب المال، هناك وسائل محدودة سمح بها الشرع، الكسب الحلال، الميراث، الهبة، إما أن توهب هذا المال هبة صحيحة أساسها الرضا من دون تخجيل أو استحياء، الهبة، أو الميراث، أو الكسب المشروع، وهناك عشرات بل مئات الأساليب غير المشروعة:

((من أصاب مالاً من نهاوش أذهبه الله في نهابُر))

[ابن النجار عن أبى سلمة الحمصى]

بالخداع، والكذب، والتدليس، والغِش، والإيهام، والتخويف، واستخدام القوّة تبتز أموال الآخرين، أو افتقار الناس لعلمك أنت مصدّق كطبيب، أنت محامٍ موثوق عند الناس، تقول له: هذه الدعوى ناجحة ولكن أعطني أتعابي مقدّماً، الطبيب يقول لهذا المريض: افعل كذا، ائتني بهذا التحليل، تعال مرّةً ثانية، افعل كذا، أنت مصدّق، هناك آلافُ آلاف الأساليب غير المشروعة لكسب المال، المال محبّب عند كل إنسان، لكن المؤمن أنفذ هذه الرغبة في القناة التي شرعها الله عزّ وجل فقط، حتّى اللسان، الحديث محبّب للإنسان أما هناك غيبة، ونميمة، وبهتان، وإفك، وسخرية، واستعلاء، وكبر، وتجريح ؛ وهناك دعوة إلى الله، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، ونصيحة، هناك مزاح بريء كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام، هناك أيضاً قنوات للسان مسموح بها، السماع:

((مَنْ جَلَسَ إِلَى قَيْنَةٍ يَسْمَعُ مِنْهَا صُبّ فِي أُذُنَيْهِ الْآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ]

هناك أشياء تسمعها فتعصي الله، لكن سماع القرآن، سماع مديح النبي عليه الصلاة والسلام، سماع الشيء الذي سَمَحَ به الشرع ممكن، فهذه الأذن، وهذه العين، وهذا اللسان، وهذه اليد، وهذه الرِّجل، يمكن أن تتحرّك وفق منهج الله، ممكن لهذه الشهوات أن تُفَرّغ في القنوات الشرعيّة التي أرادها الله عزّ وجل، هكذا المؤمن، لذلك المؤمن يَحْرَصُ حرصاً بالغاً على معرفة حكم الله في هذا الأمر، ما حكم هذه القضيّة أهو فرضٌ ؟ أهو واجبٌ ؟ أهو مندوبٌ ؟ أهو مباحٌ ؟ أهو مكروهٌ ؟ أهو حرامٌ ؟ ما حكم هذا الأمر ؟ كيف أتزوج ؟ كيف أطلّق ؟ كيف أخطب ؟ كيف أفعل ؟ كيف أبيع ؟ كيف أشتري ؟ كيف أزور أقاربي ؟ كيف أصل رحمي ؟ من ألتقي بهم ؟ من يجوز أن أختلي بها من محارمي ومن لا يجوز ؟ من لي أن أصافحها ؟ وهكذا

الشهوة إما أن تكون قوّةً محرّكةً وإما أن تكون قوةً مدمِّرةً:

هذا الإنسان الشارد الكافر يعيش على هامش الحياة بلا ضابط، كان أمره فُرُطاً، يعيش وفق نزواته الشخصيّة:

((ألا إنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ثلاثًا ألا إنّ عَمَلَ النّار سَهْلٌ بسَهْوَةٍ))

[مسند أحمد عن ابن عبّاس]

يسترخي، يبحث عن المال من أي طريق، يقضي لذّته بأي وسيلة، يستمتع من دون حرج، ما في عنده حَرَج، ذنب المنافق كالذبابة، وذنب المؤمن كالجبل الجاثم على صدره، فلذلك:

(بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ (29))

تَعَلّم كيف تُفَرّغ هذه الأهواء في قنواتها الصحيحة، فصحيح أنك إنسان من لحم ودم، تعلّم العلم، اعرف أمر الله عزّ وجل كي تفرّغ ما عندك من أهواء في القنوات الصحيحة، مفطورٌ على العلو في الأرض لك أن تعلو عند الله، لك أن تبتغي العِزّةَ عند الله، تشعر بنشوة إذا كنت عند الله أثيراً، إذا كان الله يحبُّك، إذا كان الله يرعاك ويحفظك تشعر أن هذا الميل فُرّغ في العمل الصالح، فكل ميلٍ أودعه الله فيك إما أن يُفرّغ في قناةٍ قذرة، قناةٍ منحرفة ؛ وإما أن يفرّغ في قناةٍ نظيفة، المثل الدقيق أن هذا الوقود السائل ـ البنزين ـ وقود متفجّر، لو وضِعَ في مستودعه المحكم، وسار في المواسير المحكمة إلى الموزّع، ومنه إلى غرف الاحتراق، وأصابته الشرارة في الوقت المناسب، وانفجر فدفع المكبس، وهذه المكابس المتلاحقة تشكل حركة دورانيّة، نقلتك أنت وأهلك إلى مكانٍ جميل بهذه المركبة عن طريق هذا الوقود السائل، أما هذا الوقود السائل نفسه لو صببته على هذه المركبة وجاءتها شرارة لأحرقتها الشهوة إذاً إما أن تكون قوّةً محرّكةً وإما أن تكون قوةً مدمِّرةً، فانتبه، ليس هناك إنسان بلا شهوات، حتّى المؤمن

على الإنسان أن يستقيم على أمر الله أو يستعد للعذاب والبلاء:

النبي الكريم ماذا قال ؟ قال:

((لا يَخْلُوَنّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إلا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشّيْطَانُ))

[سنن الترمذي عن ابن عمر]

أي رجل مع أي امرأة، هذا منهج الله عزّ وجل، فتعيش حياة كلها دعة وأمن، أما إذا خرقت الحدود فأنت من الرحمة مطرود، إذا خرقت الحدود خرجت من مظلّة الله عزّ وجل، إذا خرقت الحدود تعرّضت للبلاء

" يا رسول الله عظني ولا تطل "، قال: " قل آمنت بالله ثمّ استقم "، قال: " أريد أخفّ من ذلك " قال: " إذاً فاستعدّ للبلاء "

((عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ سُفْيَانَ عَنْ أَبِيهِ أنّ رَجُلاً قالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ أَخْبِرْنِي أَمْرًا فِي الإِسْلَامِ لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، قالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللّهِ ثُمّ اسْتَقِمْ قالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ فَأَيّ شَيْءٍ أَتّقِي ؟ قالَ: فَأَشَارَ بِيَدِهِ إلَى لِسَانِهِ))

[مسند أحمد عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سُفْيَانَ عَنْ أَبِيهِ]

ملخّص الملخّص: إما أن تستقيم على أمره وإما أن تستعد للعذاب والبلاء، هذا كلام مُجْدٍ كلام فيه صراحة ليس فيه مجاملة، إما أن تستقيم على أمره وإما أن تستعدّ للبلاء، والله سبحانه وتعالى لن يدعنا من علاجه

(فَإِنْ كَذّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ(147))

(سورة الأنعام)

إذا رأيت أُناساً يَدّعون أنهم مسلمون وتأتيهم المصائب من كل جانب يجب أن تقف متأمّلاً قليلاً

على المؤمن أن يوقع أهواءه المشروعة وفق منهج الله وشريعته:

قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من آية " 147 ")

معنى هذا أن هناك خطأً، هناك خطأ بالإيمان، هناك خطأ بالشّكران، خلل بالاستقامة، هناك سوء فهم، هناك عقيدة فاسدة، انحراف في السلوك، تجاوز، ظلم

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ وَأَحِبّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة: من آية " 18 ")

أي لو أنكم صادقون في أنكم أحباب الله عزّ وجل لما عذّبكم، إذاً الإنسان يفكِّر لئلا يضيع العمر سُدى، لئلا يضيع العمر بين مجيء وذهاب من دون تطبيق، لئلا يقول إنسان بعد حين: ما استفدت شيئاً، نفسي قد مَلّت وسَئِمَت، نقول له: لا، أنت لو طبّقت لذابت نفسك حبّاً لله عزّ وجل واندفاعاً إلى طاعته، هذا ما توحيه كلمة:

(بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ (29))

إذاً تعلّموا من أجل أن توقعوا أهواءكم المشروعة وفق شريعة الله، وفق ما أراد الله، تعلّموا من أجل أن تفرغوا ميولكم التي أودعت فيكم في القنوات الشرعية النظيفة، فالمؤمن يأكل، ويشرب، ويتزوج، ويتعلّم، ويتنزّه لكن ضمن القانون، لا اختلاط، ولا مشروبات محرّمة، ولا انتهاك لحرمات الله، ولا تجاوزات، ولا كذب، ولا غيبة، ولا نميمة، ولا كسب مال حرام، ولا عدوان، ولا ظلم

ليس في الإسلام حرمانٌ أبداً ولكن هناك تنظيم:

إذاً تعلموا العلم لأن:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

[من سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك]

فريضة، كما أن الهواء فريضة لوجودك، طلب العلم فريضة لسعادتك، من أجل أن تقع هذه الأهواء في موقعها الذي أراده الله، من أجل أن تُفرغ هذه الميول التي أودعها الله فيك في القنوات التي شُرعَت لها لذلك أقول هذه الكلمة وأعني ما أقول، وأتمنّى أن تدقِّقوا فيها: ليس في الإسلام حرمان، قد يتوهَّم المتوهِّمون أن الإنسان إذا أسلم قُيّد، هذه حُرِمَهَا، وهذه حرمها، لا، ليس في الإسلام حرمانٌ أبداً، ولكن في الإسلام تنظيم، هذه الميول تُنَظّم، هذه الشهوات تُفَرّغها في قنواتها الصحيحة، موضوع النساء يُحَلّ في الزواج، وما سوى الزوجة غَضٌ للبصر، موضوع المال يُحلّ في الكسب الحلال وفي الإنفاق الحلال، موضوع الأذن هناك شيءٌ يطربك، هناك شيءٌ لو عرفت ما فيه من طرب لعزفت عن كل طرب:

((لَيْسَ مِنّا مَنْ لَمْ يَتَغَنّ بِالْقُرْآنِ))

[سنن أبي داود عن أبي سعيد]

والله قال لي أحدهم ـ وأنا أثق بكلامه ـ أنه كان من هواة سماع الأشياء التي لا ترضي الله عزّ وجل، حينما تعرّف إلى الله أصبح يكرهها، وأصبح يحب كلام الله عزّ وجل.

((الله أكرم من أن يعذب قلبا بشهوة تركت له))

[عبد الله بن محمد الرازي عن أبي سليمان الداراني]

التوبةُ التوبة، الطاعةُ الطاعة، فالذي يسعدك أن تطبّق أوامر الله عزّ وجل، أن تعقد الصلح معه، أن تفتح معه صفحةً جديدة، أن تجعل من بيتك بيتاً مسلماً ؛ من أهلك، من زوجتك، من بناتك، من أولادك، أن تجعل من عملك عملاً صالحاً، أن تجعل مهنتك واقعةً في الطريق المشروع، إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك، اختر مهنةً شريفة تنفع بها المسلمين، اختر سلوكاً صحيحاً تنفع به الناس من أجل أن يرضى عنك ربُّ الناس، لأن هذه الدنيا ساعة اجعلها طاعة

كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، الليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (08-14): تفسير الآيات 30-32
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-03-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الثامن من سورة الروم.

هذه الآية من أبرز آيات هذه السورة فهي من أصول الدين:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فطرت اللّهِ الّتِي فطرَ النّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْق اللّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقيّمُ وَلَكِنّ أَكْثرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ(30))

(سورة الروم)

هذه الآية أيها الأخوة من أبرز آيات هذه السورة ؛ بل هي من أدقها، بل إنّ هذه الآية من أصول الدين، ما علاقتها بالتي قبلها ؟ بعد أن بيّن الله سبحانه وتعالى آياته الدالّة على عظمته:

(فَسُبْحَانَ اللّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْض وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (18) يُخْرِجُ الْحَيّ مِنَ الْمَيّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيّتَ مِنَ الْحَيّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدّةً وَرَحْمَةً إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ (21) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْض وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (22) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللّيْلِ وَالنّهَار وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزّلُ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْض إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25) وَلَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْض كُلّ لَهُ قَانِتُونَ (26) وَهُوَ الّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْض وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27))

إلى آخر الآيات، وبعدها:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

إذا تيقنت أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، وأنه هو الرب، وأنه هو المسيّر، وأن أسماءه كلّها حُسنى، وأنه كاملٌ كمالاً مطلقاً، موجودٌ وواحدٌ وكامل، وأنّ الأمر كلّه بيد الله ؛ أمر حياتك، وأمر من حولك، وأمر ما حولك، إذا رأيت أن الله بيده كل شيء فماذا أنت صانع ؟ ماذا أنت فاعل ؟ إلى أين ينبغي أن

تتجه ؟ ماذا تعمل ؟ ما المطلوب منك ؟ أبعد كل هذه الآيات تتوجّه إلى غيره ؟ أبعد كل هذه الآيات تعقد الأمل على غيره ؟ أترجو غيره ؟ أتهاب غيره ؟ أتخشى غيره ؟ أتطمع في غيره ؟ أتطيع غيره ؟

على الإنسان الاتجاه إلى الله وحده و لا أحد سواه:

مثلاً لو أن لك معاملة أو قضيّة في ملف، إذا وقِعت بالموافقة فسوف يتحدّد مصيرك في الحياة، كأن تكون بعثةٍ دراسيّةٍ سوف تعود وأنت تحمل أعلى الشهادات وتحتل أعلى المناصب، توجّهت إلى هذه الوزارة، فيها آلاف الموظفين، توجّهت إلى الأول فقال لك: لا أستطيع أن أوقِع لك هذه المعاملة، توجّهت إلى الثاني اعتذر، إلى الثالث لا يملك حقّ التوقيع، إلى أن ثبت لك أن من بيده توقيع هذه المعاملة هو فلان، ماذا عليك أن تفعل ؟ أن تدع كل هؤلاء، أن تُعْرِضَ عن كل هؤلاء، أن تهمل كل هؤلاء وتتجه إليه، وحالك مع الناس أن تتركهم، وأن تتجه إلى الله وحده، فهنا الله عزّ وجل بيّن آياته ونفى الشرك:

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (29) فَأَقِمْ وَجْهَكَ(30))

معنى ذلك أنك بعد هذه التحقيقات، وبعد هذا التدقيق، وبعد هذا الفَهْمَ، وبعد هذا البحث، وبعد هذا التأمُّل، وبعد السؤال والجواب، وبعد التوضيح، وبعد التبيين، وبعد كل هذه الأدلّة القائمة على وجوده، وعلى وحدانيّته، وعلى كماله، واحدٌ في ذاته، في أسمائه، في صفاته، في تصرُّفاته، أمرك كلّه بيده، ماذا أنت فاعل ؟

الآية التالية كأنّها جوابٌ لكل هذه الآيات:

قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

كأنّها جوابٌ لكل هذه الآيات، ومن آياته، ومن آياته، ومن آياته، كلها آياتٌ دالّةٌ على وجوده، ووحدانيّته، وكماله، وإن أشركت غيره تكن كهذا الذي بيّنه الله عزّ وجل:

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ(28))

بعد أن بيّن وحدانيّته، وربوبيّته، وألوهيّته، وأن الأمر كله بيده، وأن الشرك ظلمٌ عظيم قال لك:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

على الإنسان أن يبذل ما في وسعه في التوجه إلى الله:

أيها الأخوة هذه الآية كما قلت قبل قليل آيةٌ من أصول الدين، من أبرز آيات هذه السورة، ولو فهمناها حقّ فهمها، ولو وقفنا على دقائقها وأبعادها ما وسعنا إلا أن نتوجّه إلى الله وحده:

(فَأَقِمْ (30))

كلمة فأقم، الإنسان كما يقولون لا يكون قادراً على أن يحقِق كل أفعاله إلا إذا كان قائماً، وهو مضجع له حركة محدودة، وهو قاعد له حركة محدودة، أما إذا كان الأمر يعنيه وكان الأمر ذا بال، الأمر خطير، الأمر مصيري يقف، قال:

(فَأَقِمْ (30))

إذاً معنى القيام هنا معنى كمال القدرة، أي يجب أن تبذل كل ما في وسعك، يجب أن تستنفد قدرتك، يجب أن تعطي كل ما عندك:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ (30))

الانصراف الكلي إلى الدين مثّله الله عزّ وجل بالآية التالية: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا:

كيف عندما يكون مع الإنسان ضغط مرتفع وخطير، وهو يقيس ضغطه تجد أن عينيه مركّزتان على ساعة الضغط، لا يلتفت عن المؤشّر، كيف إذا كان يقود سيارة بسرعة فائقة عيناه على الطريق لا يمكن أن يلتفت، لأن الالتفات يعني الهلاك، كيف إذا كان معه ورم وأخذ خزعة للتحليل، حينما يمسك بالتحليل ويفتح الورقة كيف يركِز عينيه على هذه الورقة ويقرأ إذا كان ورماً طبيعياً أو غير طبيعي، كأن الله سبحانه وتعالى عبّر ـ الفكرة دقيقة ـ كأن الله سبحانه وتعالى عبّر عن التفات الإنسان إلى ربّه، وعن تفكّره في آلائه، وعن طاعته التامّة له، وعن أعماله الصالحة، وعن اهتمامه الشديد بعباداته، عن اهتمامه الشديد بأوامر الله عزّ وجل، هذا الانصراف الكلي، هذا الاستغراق في كمال الله عزّ وجل، هذا الانصياع إلى أمر الله، هذا الإقبال على الله، هذا التركيز، هذا الاهتمام، هذا الصدق، هذا الانصراف، هذه الحالة وما فيها من تفكّر، ومن عبادات، ومن صلوات، ومن أدعية، ومن حضور مجالس علم، ومن اهتمام بأمر الله في مأكله، ومشربه، ومتجره، ومصنعه، هذا الانصراف الكلي إلى الدين مثّله الله عزّ وجل بصورة فقال:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

رأي بعض المفسرين بإقامة الوجه:

قال بعض المفسِّرين: إقامة الوجه أي إقامة الوجْهَةِ، أي اتجاهك إلى الدين، وقال بعضهم: إقامة الوجه أي تصويب العمل وفق ما أمر الله عزّ وجل، والأصحُ أن هذه الكلمة تجمع بين المعنيين، أن تتجه بكليّتك إلى الله عزّ وجل، وأن تجعل من عملك مطابقاً لأمر الله ونهيه تماماً، أي تصحيحٌ في الوجهة وفي السلوك، تصحيحٌ في الوجهة إلى الله عزّ وجل وفي السلوك:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ (30))

والوجه يُعَبِّر به عن ذات الإنسان:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26)وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(27))

(سورة الرحمن)

وقال:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ (30))

الله سبحانه وتعالى يخاطب من ؟ يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام، أي يا محمد أقم وجهك للدين، هناك إنسان يجعل الدين وراء ظهره، لا يبالي أكان مطعمه من حلال أم من حرام، لا يبالي أصلى أم لم يصل، لا يبالي أوقع في معصيةٍ أم لم يقع، لا يبالي أكان الله راضياً عنه أم ساخطاً، لا يبالي، لا يدقِق، ليس معنياً بهذا الموضوع، ليس مهتماً به، لا يعلِق عليه كبير أهميّةٍ، فسيّان إن كان مستقيماً أو منحرفاً، طائعاً أو عاصياً، مخلصاً أو خائناً، مقبلاً أو مدبراً، ليس عنده ذلك الصدق وهذا الاهتمام.

سمي الدينُ ديناً لأن كل الخلق يدينون له ويخضعون له:

ربنا عزّ وجل يقول:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ (30))

كلمة دين ماذا تعني ؟ دان إلى الشيء أي خضع له، ويوم القيامة يسمى يوم الدينونة، يوم الخضوع، والإنسان لما أودع الله فيه من عقلٍ ولما أودع الله فيه من فطرة عالية لا يدين إلا للحقّ والكمال ـ دقِق ـ الإنسان بما أودع الله فيه من عقلٍ وما فطره عليه من فطرة عاليةٍ لا يدين ولا يخضع إلا للحق وإلا للكمال، فأنت لن تحترم إنساناً كاذباً، لن تخضع له نفسياً، لن تبجّله، لن تعظِمه، لن تنساق له، لن تنقاد له ما دام كاذباً، ما دام محتالاً، ما دام خائناً، ما دام متلوّناً، ما دام له وجهان، له موقفان، الإنسان غير الأخلاقي لا يُلْفِتُ نظرك، لا يجذب اهتمامك، لا يصرفك إليه، إذاً:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ (30))

سمي الدينُ ديناً لأن كل الخلق يدينون له، يخضعون له، ما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بشيءٍ وقال العقل: لا، ولا نهى عن شيءٍ وقال العقل: نعم، الدين كله حق قال تعالى:

(إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: من آية " 9 ")

النبي عليه الصلاة والسلام عرفه الصحابة للنجاشي بقولهم: "حتّى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه وعفافه ونسبه... "، لو كان مخطئاً، لو كان منحرفاً ـ لا سمح الله ـ ما دان الناس له، ولا خضعوا لسنّته، ولا عظّموه، ولا أحبّوه بعد مماته بألفٍ وخمسمئة عام.

الإنسان يخضع للحق ويخضع للكمال:

إذاً بالدين يوجد شيئيان الصحة العقلية والكمال النفسي، وأنت أيها الإنسان لا تخضع ولن تخضع إلا لما هو صحيحٌ عقلياً ولما هو كاملٌ نفسياً، فسمي الدينُ ديناً لأنه نظام الله عزّ وجل، لأنه دين الله، لأنه من عند الله، لأنه نزل على أكمل الخلق وحبيب الحق، فسمّاه الله ديناً أي يُدانُ له، يُخْضَع له، أنت لا تخضع لقوله وتقول: اثنان زائد اثنين يساوي خمسة بل تقول: لا، بملء فمك، لكن إذا قيل لك: اثنين زائد اثنين يساوي أربع تقول: نعم هذا صحيح، إذاً أنت لا تخضع إلا للحق لأن الله أودع فيك عقلاً، ولا تخضع إلا للكمال لأن الله فطرك فطرة عاليَة، إذاً عندما سمّى الله هذا النظام الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ديناً فهو اسمٌ على مسمّى، لأن النفوس تخضع له، تخضع لتعاليمه، تخضع لما في القرآن من آياتٍ كونيّة، تخضع لما يتصف به النبي من صفاتٍ أخلاقيّة، فالإنسان يخضع للحق ويخضع للكمال:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

إذاً إقامة الوجه تعني الإقبال على الله عزّ وجل، والانصراف عمن سواه، إقامة الوجه للدين تعني أيضاً أن تجعل عملك مطابقاً لمنهج ربك في كل حركاتك اليوميّة، عندنا منهج افعل ولا تفعل، عندنا أمر وعندنا نهي، يجب أن تجعل من سلوكك اليومي مطابقاً لهذا الأمر والنهي، هذا معنى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ (30))

أي أن تركِّز عينيك في شيء لا تحيدُ عن هذا الشيء مهما حدث من ظروف صعبة، فهذه استعارةٌ تمثيليّة لحالة المؤمن مع ربّه، الدين عنده هو كل شيء، طاعة الله هي كل شيء، إقباله على الله هو كل شيء، رغبته في الدار الآخرة هي كل شيء، توقيع أعماله وفق الشرع هو كل شيء، حبُّه لله هو كل شيء، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ (30))

العبادة هي طاعة طوعيّة ممزوجة بمحبّةٍ قلبيّة:

أما حنيفاً، الأحنف هو الذي يميل في سيره، حنيفاً أي مائلاً، فما الفرق بين طاعة الله عزّ وجل وطاعة إنسانٍ قوي ؟ طاعة الإنسان القوي قد لا يُرافقها مَيْلٌ له، في نفور لكنه قوي، تطيعه وأنت لا تحبُّه، وإذا أحببته ولم تطعه لست عابداً له، فمن تعاريف العبادة أنها طاعة طوعيّة ممزوجة بمحبّةٍ قلبيّة، مما يميّز الدين عمّا سواه أن الإنسان يطيع الله ويحبّه، فمن أحبّه ولم يطعه ما عبده، ومن أطاعه ولم يحبّه ما عبده، لا تكون العبادة عبادةً إلا إذا كانت طاعة ممزوجة بمحبّة، أو العبادة نهاية الطاعة مع نهاية المحبّة، أن تطيعه إلى أقصى درجة، وأن تحبّه إلى أقصى درجة، إذاً:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

قلنا: القيام هو التعبير عن كمال القدرة، أي ابذل كل جهدك، ابذل كل طاقتك، ابذل كل وقتك، ابذل كل مَلَكَاتك في معرفة الله وفي طاعته وفي التقرُّب إليه، الوجه أي يجب أن تتجه إلى الله وأن توقِع أعمالك وفق أمر الله:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ (30))

لمَ يُدان له ؟ لأنه حقٌ وكمال، هذه قاعدة مهمّة جداً: النفوس جميعاً لا تخضع إلا للحق، لا تدين إلا للكمال، ما الذي يجعل الناس يحبونك ؟ أخلاقك، ما الذي يجعل الناس ينصاعون لك ؟ علمك الذي لا شائبة فيه، إذاً:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

مائلاً إليه مُعْرِضاً عمن سواه، هذا معنى حنيفاً بدقّةٍ بالغة، مائلاً إليه معرضاً عمن سواه.

الآية التالية تؤكِّد تطابق الدين تطابقاً تامّاً مع الفطرة:

الشيء الذي يلفت النظر أنه قال:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فطرت اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا (30))

هذه الآية تؤكِّد تطابق الدين تطابقاً تامّاً مع الفطرة، ما يأمُرك به الدين هو ما تحتاجه فطرتك، لو فرضنا أعطينا أمراً بشرب الماء أنت ظمآن، فحينما تعطش، تظمأ تشعر أن كل خلية في جسمك تقول لك: أنا بحاجةٍ إلى الماء، حينما يظمأ الإنسان يشعر أن كيانه كله مهزوز، وأنه في أمسّ الحاجة إلى شربةِ ماء، فإذا جاءت التعليمات من جهةٍ ما: عليك أيها الإنسان أن تشرب وأنت في أمسّ الحاجة إلى الشرب، نقول: هناك تطابقٌ دقيقٌ بين هذه التعليمات وبين حاجة الجسم، هذا مَثَل.

أي أمر إلهي الفطرة في أمسّ الحاجة إليه، وأي نهي إلهي الفطرة في بُنْيَتِها أبعدُ شيءٍ عنه، فالإنسان إذا كان باراً بوالدته أو بوالديه يشعر بطمأنينة، يرتاح، إذا أدّى ما عليه من واجبات، كانا في حالة مرضٍ فعالجهما، ينام مرتاح الضمير، هذه فطرته، الله عزّ وجل حينما أمرك ببرّ الوالدين نفسُك لا ترتاح إلا إذا كنت باراً بوالديك، فإذا كنت عاقاً لهما تشعر بالضَجَر، والتمزُّق، واختلال التوازن، إذاً أمر الله لك ببرّ والديك يقابله حاجة فطرتك إلى برّ الوالدين.

حينما يأمرك الله بالعدل وأنت تعدل في قسمتك، في معاملتك لأولادك، في معاملتك لموظّفيك، في معاملتك لإخوانك، في معاملتك لجيرانك، فطرتك، بنيتك النفسيّة ترتاح لهذا العدل وتأبى الظلم، إذاً إذا فعلت شيئاً أمرك الله به تشعر أن هذا العمل يريحك، يجعلك في سلام مع نفسك، يرتاح ضميرك، يرتاح خاطرك، ترتاح أعصابك، تطمئن نفسك، تشعر بثقة، تشعر بتفوُّق، إذاً ما هذا التطابق الدقيق بين الفطرة وبين أحكام الدين ؟

أمر الله ونهيه متطابقان تطابقاً تاماً مع الفطرة:

كنت ضربت من قبلُ مثلاً أعيده مرّةً ثانية: هناك خارطة لسوريّة نافرة، مجسّمة، لو ضربنا حولها إطاراً وصببنا فوقها جبساً سائلاً، وبعد أن جفّت هذه المادّة أصبح هناك قالب لها، لو وضعنا هذا القالب على هذه الخارطة هناك تطابق مئة بالمئة، هكذا الدين مع الفطرة تطابق تام، أحياناً تشتري قطعة لمركبتك من المعمل الصانع، تضع هذه القطعة في مكانها على مستوى ميليمترات، في أماكن القطع الثانويّة تأتي في مكانها الطبيعي لماذا ؟ نقول لأن هذه القطعة من المعمل الذي صنَّعَ هذه المركبة، تطابق مئة في المئة، لذلك يجب أن تؤمن بهذا التطابق.

أنت إذا نفّذت أوامر الدين فقد حقّقت فطرتك، لبّيت نداء فطرتك، أعيد عليكم المثل الأول: إذا كنت في عطشٍ شديد، أو في ظمأٍ شديد، وشعرت أن كل خليّةٍ من خلاياك تقول لك: أريد أن أشرب، وجاءتك تعليمات: عليك أن تشرب، فهذا الذي تحس به في كل حُجَيْرَةٍ في جسدك إنما هو مطابقٌ لما في هذه التعليمات، إذاً الذي يسلك سبيل الله عزّ وجل في زواجه يسعد ؛ أما الزاني يشقى، يشعر بالكآبة، يختل توازنه، يشعر كأنه ارتكب جريمةً وأن الأرض تضيق من حوله، يشعر أن السماء لا تسعه، وهذه المرأة إذا تزوّجت وفق كتاب الله وسنة رسوله تشعر بالطمأنينة ؛ فإذا زَلّت قدمها تشعر بالانهيار، هذه هي الفطرة.

لنا أن نوسّع الموضوع ؛ الهرّة إذا أطعمتها قطعة لحمٍ تأكلها أمامك، هي مطمئنة أنها لا تفعل شيئاً مخالفاً للفطرة، فإذا خطفتها فإنها تأكلها بعيدةً عنك، إذاً هي تشعر، فالذي يريد أن ترتاح نفسه عليه أن

يحقِق السلام معها، الإنسان أحياناً ضميره يعذِّبه، ينهار من داخله، الإنسان أحياناً يختلُّ توازنه، الإنسان أحياناً يحتقرُ نفسه، الإنسان أحياناً يشعر بشقاءٍ ما بعده شقاء، لماذا ؟ إذا خالف فطرته، أو إذا خالف أمر ربّه، أبداً، هذه حقيقة مسلّمٌ بها، أنت إذا اتبعت أمره وابتعدت عن نهيه تشعر بسلام مع نفسك، لأن أمر الله ونهيه متطابقان تطابقاً تاماً مع فطرتك، هذا الذي قاله الله عزّ وجل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

كلمة (فطرة) هي مركز الثقل في الآية:

إن فعلت هذا فقد حقّقت فطرة الله:

(الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا (30))

إن فعلت هذا فقد لزمت فطرة الله التي فطر الناس عليها، فهذه المركبة صُمِّمَت لتسير على طريقٍ مُعَبّد، فإذا سرت بها على طريقٍ وعرة كأنها تناديك وتقول لك: اجعلني على طريقٍ مُعَبّدة، تصميم هذه المركبة لطريقٍ معبّدة، فإذا خالفت ما صمّمت له وسرت بها في طريقٍ وعرٍ كله حفر وأكمات تشعر أنها لم تُخْلَق لهذا الطريق، فأنت خالفت تعليمات الصانع، هذه الكلمة هي مركز الثقل في الآية:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فطرت اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا (30))

أي يا عبادي أنا خلقتكم وفق بُنْيَةٍ مُعَيّنة، وهذا الدين الذي أنزلته على محمدٍ عليه الصلاة والسلام متطابق تطابقاً تاماً مع بُنْيَتِكم، فإن ائتمرتم بأمر الله وانتهيتم عما نهى عنه الله عزّ وجل فقد لزمتم فطرتكم، وحققتم هذه الفطرة، فسعدتم في الدنيا والآخرة:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فطرت اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا (30))

الفطرة أن تحبّ الكمال أما الصبغة أن تكون كاملاً فالفطرة شيء والصبغة شيء آخر:

بالمناسبة: الفطرة شيء والصبغة شيءٌ آخر، الفطرة أن تُحِبُّ الكمال، أن تحب العدل، أن تحب الرحمة، أن تحب الإحسان، وأما الصبغة أن تكون محسناً، أن تكون عادلاً، أن تكون رحيماً، كل مولودٍ يولد على الفطرة، فالسارقون إذا سرقوا شيئاً ثميناً يحبون أن يقتسموه بالعدل، فقد يقول بعضهم لبعض: " لا يجوز أن تفعل ذلك يا أخي، هذه لي "، شيء جميل والله، فكلُّكم سارقون، هؤلاء الذين يسرقون يقتسمون سرقاتهم بالعدل، هذه فطرة، هم ليسوا عادلين بهذا العمل ولكن تنقصهم الصبغة، الفطرة شيء والصبغة شيءٌ آخر، الفطرة أن تحبّ الكمال، أما الصبغة أن تكون كاملاً:

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً)

(سورة البقرة: من آية " 138 ")

الصبغة أن تكون رحيماً، أن تكون عادلاً، أن تكون مُنْصِفاً، أن تكون رقيقاً، أن تكون عطوفاً، هذه الصبغة، أما الفطرة أن تحبّ العدل والرحمة والإنصاف وإلى ما هنالك:

(فطرت اللّهِ الّتِي فطرَ النّاسَ عَلَيْهَا (30))

هكذا خُلِقت النفوس:

((يا داود ذكّر عبادي بإحساني إليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها.))

[حديث قدسي رواه البيهقي عن عمير بن وهب]

الآية التالية صيغت صياغة خبريّة يُراد بها الأمر والنهي:

قال تعالى:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ (30))

الآية دقيقة جداً، أي أيها الناس لا تبدّلوا خلق الله، هذه آيةٌ صيغت صياغة خبريّة يُراد بها الأمر والنهي، الصياغة الإنشائيّة، أي لا تبدِّلوا خلق الله، لا تخترعوا أوامر ونواهي تتناقض مع الفطرة، لا تحدثوا في حياتكم نظاماً يتناقض مع الفطرة، لا تبدّلوا الدين تبديل يتناقض مع الفطرة، فهذه فطرة الله في دينه وفي خلقكم فإيّاكم أن تحيدوا عن هذه الفطرة:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ (30))

المعنى الأول: أن هذه الفطرة ثابتة في كل إنسان، وفي كل زمان، وفي كل مكان، قديماً وحديثاً، الآن وغداً وبعد غد وإلى يوم القيامة، المحسن محبوب والمسيء مبغوض، المنصف محبوب والظالم مبغوض، من الآن إلى يوم القيامة، الذي يعطي للناس ما لهم ويأخذ ما له محبوب، والذي يأخذ ما ليس له مبغوض، هذه الفطرة:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ (30))

عندنا ثوابت في الكون، الآن أكبر نظريّة فاسدة: أن الأخلاق تتبدّل بتبدُّل الظروف، هناك ثوابت في الحياة الإنسانية، هناك ثوابت فوق المكان والزمان وفوق كل شيء، نبدّل نظام حياتنا، نبدل أثاث بيوتنا، نبدل ثيابنا، مثلاً أنماط طعامنا وشرابنا، أنماط السكن هذه متبدّلة بحسب الظروف، بحسب الأماكن، بحسب البرودة والحرارة، بحسب الغنى والفقر، بحسب المواد الأوليّة في كل منطقة، نوع الأثاث، نوع البيت، نوع الثياب، نوع الطعام، أنظمة التعليم تتبدّل، أنظمة التجارة تتبدّل، أنظمة الزراعة تتبدّل، أما في قيَم ثابتة، أن يسيء الإنسان إلى أمّه هذه قيمة ثابتة، هذه طبعاً قيمة مدانة في كل العصور، وفي كل

الظروف، وفي كل الأحوال، أن يكون الإنسان صادقاً هذه قيمة ثابتة، أن يكون الإنسان رحيماً هذه قيمة ثابتة، أن يكون الإنسان مُنصفاً هذه قيمة ثابتة.

السنن ثابتة في الدين وفي الخلق:

قال:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (30))

قواعد الفطرة، مبادئ الفطرة، هذه أشياء ثابتة فوق المكان والزمان، فوق التبدُّلات، فوق الظروف، فوق المُعْطَيات، فوق المُنْعَطَفات، فوق التحوُّلات:

(فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (30))

هذا المعنى الأول، أما المعنى الثاني: أي أن كل الناس وفق هذه الفطرة، لو جئت بإنسان مشرك ملحد، أحسن إليه تجد أنه يحبُّك، هكذا الفطرة، لو سألت امرأة غير مستقيمة إن كانت صادقة لقالت: إنني أحتقر نفسي لأنني أعرض مفاتني على الجمهور، لو سألتها بلسان الفطرة وكانت صادقةً مع نفسها لاحتقرت نفسها، وأنّ هذه المرأة الساقطة تشتهي أن تكون مثل المرأة الكاملة لأن هذه فطرة، فلو دقّقت في أوامر الدين، كل أوامر الدين مُتَفِقَة مع الفطرة، فأنت إذا أطعت الله عزّ وجل لا تزيد عن أن تحقِق فطرتك، وتشتري راحة نفسك، فالصادق محترم، والزاهد والعفيف في غنى، عنده حالة غنى:

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود]

إذاً:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (30))

أولاً هذه السُنَن ثابتة إن في الدين وإن في الخَلق، وشيءٌ آخر، ليس هناك فرق بين أمة وأمة، شعب وشعب، بلد وبلد، زمن وزمن، هذه الفطرة ثابتة منذ آدم وحتى يوم القيامة، البشر جميعاً هكذا فطرتهم، والدليل أنك تقرأ قصّةً وقعت حوادثها في أقصى الدنيا تشعر أن الإنسان واحد، الإنسان هو الإنسان في كل مكانٍ وفي كل زمان ؛ مشاعره، قِيَمَهُ، تمزُّقه، صراعاته، نداء شهوته، نداء عقله، الإنسان واحد، البُنية واحدة، التصميم واحد، القواعد واحدة، القيم واحدة، الخصائص واحدة.

كل إنسان يتطابق مع أي إنسان آخر تطابقاً كاملاً من حيث القواعد النفسيّة:

قال تعالى:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30))

أي أنهم يضعون لأنفسهم قواعد يحرّمون فيها الحلال أو يحلِّلون فيها الحرام، إنهم يشقون بهذه القواعد، فإذا وجد الاختلاط وجد الشقاء، ووجد النفور الزوجي، وكانت البيوت كالجحيم ؛ ومع الانضباط السعادة الزوجيّة، هذه قاعدة، ومع التعامل الصادق العزّة، ومع الكذب في ظُلم، أبداً هذه قواعد عامّة ثابتة مطلقة:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30))

أي أنهم غفلوا عن هذه الحقيقة أنهم إذا أطاعوا ربَّهم حقّقوا فطرتهم، حققوا بنيتهم النفسيّة.

علم النفس يقوم على قوانين، وما سرُّ هذه القوانين ؟ سرُّها أن الإنسان له بُنية واحدة في كل مكان، قضية الخَجَل، والغضب، والرضا، والصراع الداخلي، ومعنى علم نفس أي في قواعد ثابتة، هذا مبني على أن الإنسان له بُنية ثابتة، فكلمة:

(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (30))

أي أن الناس جميعاً، كل إنسان يتطابق مع أي إنسان آخر تطابقاً كاملاً من حيث القواعد النفسيّة، فالنفوس جُبِلَت على حبِّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، فإذا كنت مُربياً، إذا كنت زوجاً، إذا كنت أباً يجب أن ترعى هذه القواعد وإلا فأنت لا تدري شيئاً من العلم، فالسنن ثابتة.

الأكثريّة دائماً بعيدة عن الحق والأقليّة هي التي على الحق والصراط المستقيم:

الشيء الآخر:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30))

الإنسان إذا كان مع الحق لا يشعر بوحْشة، بدأ الدين غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء:

((إِنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ))

[سنن ابن ماجة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

ربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30))

مرّة خليفة سأل عالِماً: ما قولك في هذه القضية ؟ أنا أقول كذا وفلان يقول كذا، قال له: " يا سيدي أكثر الناس مع قولك "، ففرح الخليفة وظنّ أن هذا مَدْحٌ له، لكن الله تعالى قال:

(وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30))

أي أن الأكثريّة دائماً بعيدة عن الحق، والأقليّة هي التي على الحق والصراط المستقيم:

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ (31))

المؤمنين بإقامة وجههم للدين القيّم أنابوا إلى ربّهم:

هنا يوجد سؤال، كيف قال ربنا عزّ وجل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّين حَنِيفًا (30))

الخطاب موجّه للنبي عليه الصلاة والسلام ؟ ثم يقول الله عزّ وجل:

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ (31))

إذاً هذا الخطاب موجّهٌ للنبي وبالتالي لكل المؤمنين:

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ (31))

أي أن المؤمنين بإقامة وجههم للدين القيّم أنابوا إلى ربّهم:

(وَاتّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31))

ربنا عزّ وجل اختار من الطاعات الصلاة ؛ ومن المعاصي الشرك، لأن الصلاة هي أمُّ العبادات، هي أصل العبادات، هي سيدة العبادات:

((لا خَيْرَ فِي دِينِ لا رُكُوعَ فيه))

[مسند أحمد عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أبي العَاص]

الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين، جوهر الدين اتصالٌ بالخالق:

(وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31))

ربنا عزّ وجل أمرنا بأول الطاعات ونهانا عن أخطر الذنوب:

قال تعالى:

(يَا بُنَيّ لا تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنّ الشّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(13))

(سورة لقمان)

ربنا عزّ وجل أمرنا بأول الطاعات، ونهانا عن أخطر الذنوب:

(إِنّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ)

(سورة النساء: من آية " 48 ")

من هؤلاء المشركون ؟

(مِنَ الّذِينَ فَرّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32))

أخطر ما في الحياة أن نتفرّق، أن نصبح شيعاً وأحزاباً، أن نصبح جماعات ؛ متناوشة، متعادية، متباغضة، هذا من عمل الشيطان، الدين يجمع ولا يُفَرّق لأن الإله واحد والنبي واحد والقرآن واحد، إذاً لا بدّ من أن نجتمع، فإذا تفرّقنا جَماعات جماعات، وتخاصمنا، وتبادلنا التُهَم، وأصبحنا كقوله تعالى:

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32))

من الخطر أن يكون انتماؤك لجماعتك على حساب انتمائك لمجموع الأمّة:

حينما يكون انتماؤك لجماعتك على حساب انتمائك لمجموع الأمّة فهذا خطرٌ كبير لذلك إن رأيت مؤمناً من غير جماعتك ولم تحبّه فأنت لست بمؤمن، يجب أن يكون الانتماء لكل المؤمنين، لكل المسلمين، أما أن تُضيّق الأمر مثل الشخص الذي جاء النبي عليه الصلاة والسلام، ووقع في تصرُف شاذ، فالصحابة قاموا له، فالنبي أبعدهم عنه فقال: " يا ربي ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً "، هذا مثال حال بعض الجماعات، ارحمنا ولا ترحم معنا أحداً، المؤمن يحب كل المؤمنين، يحب كل المسلمين، يجب أن يكون انتماؤك لمجموع المؤمنين، لمجموع المسلمين، لا انتماءً خاصّاً ضَيّقاً يجعلك تتعصّب، وتبتعد، وتحقد على الآخرين، وتتهمهم بشتّى التُهَم:

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الّذِينَ فَرّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ(32))

أما (منيبين إليه) لا بدّ من أن نعود إليه، نعود إليه بقلوبنا وبأعمالنا:

(وَاتّقُوهُ (31))

التقوى هنا تعني الطاعة، أي في النهاية:

(وَمَنْ يُطِعْ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

لا بدّ من أن تطيع الله.

الصلاة تحتاج إلى إقامة وإقامتها طاعتك لله عزّ وجل:

قال تعالى:

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصّلَاةَ (31))

فكيف:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (30))

الصلاة تحتاج إلى إقامة، وإقامتها طاعتك لله عزّ وجل، إنّ طاعتك تُؤَهِّلك كي تصلي:

(وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ (32))

كإنسان جعل الدين شريعة فقط وأغفل القلب، إنسان بالغ في الاعتناء بالقلب على حساب الشريعة، إنسان رأى الدين ثقافة ليس غير، إنسان رأى الدين نشاطاً اجتماعياً ليس غير، لا، إنّ الدين عقيدة، والدين شريعة، والدين طُهْر، والدين إقبال، والدين مكارم أخلاق، والدين خدمة، الدين هو كل هذه الأشياء، أي إنسان يظنُّ أن الدين جانب واحد وينمي هذا الجانب على حساب جوانب أخرى ويهمل بقيّة الجوانب بل ويحتقرها هذا فرّق الدين وجعله شيعاً، فالدين مجموعة أجزاء.

لا يفلح إلا من أحاط الدين من كل جوانبه:

الدين انفتاح على المجتمع، هو عمل صالح، ومعلومات دقيقة، وحقائق علميّة، يجب أن تجمع كل هذه الأشياء، أما إذا نما عندك جانبٌ على حساب جوانب أخرى فهذا هو العَرَجَ، أو هذا هو التفريق الديني، فليس الدين معلومات وثقافة، يقول لك: فكر إسلامي، ولكن أين السلوك ؟ أين الاستقامة ؟ أين الطهر ؟ أين العفاف ؟ الدين ليس قلباً طاهراً فقط ؛ ولكن معلومات دقيقة ؟ أين العلم ؟

((ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه))

[من كشف الخفاء]

عند بعض الناس تنمو المعارف النظريّة على حساب الطهر النفسي والكمالات الأخلاقيّة، وعند غيرهم تنمو العناية بالقلب على حساب المعلومات الدقيقة والعقيدة الصحيحة، لا بدّ من أن تنمو كل هذه الأجزاء جنباً إلى جَنب، لا يفلح إلا من أحاط الدين من كل جوانبه، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ (32))

فرّقوه، الدين عند أناس أناشيد وطرب، وفرق أناشيد فقط، وعند غيرهم الدين نشاط اجتماعي فقط، وعند فئة ثالثة الدين زخرفة فقط، الدين خُلُق، الدين عبادات، الدين علم، الدين عقيدة، الدين صدق، الدين أمانة، الدين إخلاص، فلا بدّ من أن نحوط الدين من كل جوانبه.

((إنّ هذا الدين قد ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صاحبتموه))

[من الدر المنثور عن جابر بن عبد الله]

قال تعالى:

(مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32))

علامة الإيمان الصحيح أن تنتمي إلى مجموع الأمّة لا أن تكون متعصّباً وضيق الأفق:

تمزُّق الأمّة أساسه أنكم أنتم على حق ونحن على باطل، أنتم على باطل ونحن على حق، هذه المُشاحنات، الدين له جذع واحد موحِّد، فإذا عدنا إلى منابعه حُلّت كل مشكلاتنا وانتهت هذه البغضاء والشحناء والخصومات، فلذلك علامة الإيمان الصحيح أن تنتمي إلى مجموع الأمّة لا أن تكون متعصّباً، لا أن تكون ضَيّق الأفق، لا أن تكون بعيداً عن الروح العامّة:

(مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32))

البطولة أن تكون فَرِحاً بعد الموت، لأن الفرح في الدنيا لا قيمة له، فرحون في الدنيا، هناك تجمُّع ولكن ليس على أساس من الحق، أي تجمُّع له فوائد كثيرة، أما لا بدّ من تَجَمُّعٍ أساسه الحق، أساسه هذا المنهج الصحيح الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (09-14): تفسير الآيات 33-38

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-03-22

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم مع الدرس التاسع من سورة الروم.

حالات مرَضية يتلبس بها الإنسان المُعرض عن الله:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(33))

(سورة الروم)

الآن نحن أمام حالات يَتَلَبَّسُ بها الإنسان المعرض، ربنا عزّ وجل يصف لنا هذه الحالات لئلا نقع بها، أو لئلا نتلبّس بها، هي حالات مرضية، مظهر من مظاهر البُعد عن الله عزّ وجل، مظهر من مظاهر ضَعف الإيمان، مظهر من مظاهر ضعف اليقين، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ (33))

أي عامة الناس، الإنسان العادي، أما كلمة (مَسّ) أحياناً تريد أن تعرف ما إذا كانت هذه المكواة حامية أم لا، تمسها بإصبعك مساً خفيفاً لا ضغط فيه ولا بُطْءَ فيه.

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ (33))

يُفهم من هذا أن الإنسان لا يحتمِل، يقول لك: كريزة رمل فلم أنم الليل، وهي كل عشر دقائق، لو كان عشر ساعات، لو كان على أشد !

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ (33))

ما الذي يحدث ؟ الإنسان بفطرته حينما تأتيه مصيبة، حينما يقع في مشكلة، يشعر شعوراً ثابتاً لا يحتاج إلى بُرهان، ولا إلى دليل، أن الله سبحانه وتعالى بيده إنقاذه من هذه الوَرْطَة، هناك حالات، أُنَاسٌ عقيدتهم إلحادية، ركبوا في الطائرة، فلما مَرّت فوق جيوبٍ هوائية، وشعروا أنهم موشكون على خطرٍ كبير، قالوا: يا الله، عقيدتهم إلحادية، إذاً الإنسان بفطرته حينما يقع في ضائقة، في مشكلة، أكثر الناس الذين ينكرون وجود الخالق، حينما تأتيهم أمراضٌ عضالة يعودون إلى الله، هذه فطرة الإنسان، أي أن كل الأسباب الأرضية تبدو أمامهم مُقَطَّعَة.

البطولة أن تعرف الله في الرخاء والشدة:

البطولة أن تعرف الله في الشدة، البطولة أن تعرفه معرفةً صحيحة، حينما يأتي البلاء الشديد تقول: يا الله، جميع البشر من كل الأجناس، والألوان، والمعتقدات إذا داهمتهم المصيبة قالوا: يا الله، هذا شيء ثابت ؛ في البحر، في الجو، في البر، في الزلازل، في الأعاصير، في الفيضانات، في الحروب الأهلية، إذا داهمتهُم المصيبة قالوا: يا الله، قال: هذا شأن أي إنسان، لو أنه عاد إلى الله عند المصيبة وحينما كشفها الله عنه بقي على إيمانه وعلى استقامته، الأمر طبيعي جداً ومقبول وهذا إنسان طيّب.

ما كل إنسان يأتي إلى الله طوعاً، هناك أشخاصٌ كثيرون جداً، بل إن معظم المؤمنين جاءوه قسراً، موقفٌ جيد وطيب إن جئته طوعاً أو قسراً، ولكن الموقف العجيب، والموقف الغريب، والموقف غير الأخلاقي، أن تأتيه كرهاً عند الشدة، فإذا تفضل الله عليك وأزاح عنك هذه الشدة تنسى، وتعزو هذه النعمة إلى غيره، إلى أشخاص، إلى أنداد، إلى شركاء، هنا المشكلة، إذاً هذه حالة مرضية تصيب الأشخاص البعيدين عن الله عزّ وجل، حالة مرضية تصيب من تاهوا في درب الحياة:

(وَإِذَا مَسّ (33))

الأمراض تأتي بآلام غير مستمرة، يبدو أن الآلام المستمرة لا يحتملها إنسان، (وإذا مس) تماماً أنت كما تمس المكواة، بأقل ضغط ممكن، وبأقل فترة ممكنة، فإذا أردت أنت أن تعرّف ابنك بأن هذه مدفأة، وأن لها خطراً، ماذا تعمل ؟ تأتي بإصبعه وتمسكها بيدك، وتضعها لأقل من ثانية بسرعةٍ شديدة، كي يشعر أن هذه نار، هذا الموقف اللطيف، الهادف إلى تعريف هذا الابن بأن هذه مدفأة وأنها مؤذية.

الله تعالى يسوق للإنسان مصيبة مخففة لعله يعود إلى منهجه و يستقيم على أمره:

ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض، إذا أراد الله عزّ وجل أن يسوق لإنسان مصيبة يسوقها له مخففة، قليلة الوقت والتأثير لعله يعود، وشأن الطبيب أنه كلما قال له المريض: لم أستفد من هذا الدواء يرفع له المستوى، ويضاعف له الكمية هذا سماه ربنا عزّ وجل: العذاب الصُعُد، عندما لا يتأثر هذا المريض بهذا الدواء، يرتفع مستوى الدواء وترتفع شدته.

(وَإِذَا مَسّ النّاسَ ضُرٌّ (33))

الضُر مطلقة ؛ يا ترى ضر في صحتهم ؟ ممكن، ضر في أموالهم ؟ ممكن، ضر في زوجاتهم ؟ ممكن، ضر في أولادهم ؟ ممكن، ضر في أعمالهم ؟ ممكن، ضر في دخلهم ؟ هذه تنكير شمول، أحياناً نُنَكِّر بقصد أن تنطبق هذه الحالة على كل حالة، أي ضرٍ ماديٍ أو معنويٍ، شديدٍ أم خفيفٍ، قريبٍ أم بعيدٍ، يمس الجسم، أو الصحة، أو المال، أو الأهل، أو المشاعر، أحياناً توجد مصائب مشاعر، توضع

في موقف تهان فيه ولا تستطيع أن تقول كلمة، يقول لك: بقيت شهر لا أنسى هذا الموقف، هذه مصيبة، ربنا عزّ وجل حكيم، في صيدليته أدوية كثيرة، كل إنسان يصيبه بمصيبةٍ يهتزُ لها.

صاحب المال الكثير لا يتأثر بفقد ماله، هذا كرامته غالية جداً، مصيبة صاحب المال إذا حاد عن طريق الحق، وإذا خالف منهج الله عزّ وجل، بأعز شيءٍ عليه وهو كرامته، أما هناك شخصٌ المال عنده كل شيء وهو فقيرٌ جداً، هذا مصيبته في ماله، العبرة أنها مصيبة، أي أنها تصيب الهدف، من أصاب يُصِيبُ فهي مصيبة.

(وَإِذَا مَسّ (33))

أنا تذوقت كلمة (مس)، فرحمة بالإنسان تأتيه مصيبة سريعة وطفيفة، بحيث تدع في نفسه أثراً، أما نحن ـ هذه كلمة أقولها بدقةٍ بالغة ـ من لم تُحدِث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر، هنا المصيبة، فإذا جاءت مصيبة وقال الإنسان: هذا شأن الدهر، الدهر يوم لك ويوم عليك، إذا عزا هذه المصيبة إلى قِلّةِ حظه، إلى بيئته، إلى سوء طالعه، إلى شؤمِهِ، إلى يوم، إلى رقم، إلى صديق، عالج المصائب معالجة خرافية، من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه، هنا المصيبة أكبر.

أقرب اسم من أسماء الله الحسنى للإنسان هو اسم الرب:

قال تعالى:

(وَإِذَا مَسّ النّاسَ ضُرٌّ (33))

ضُر أي شيءٌ يضُرُّهُم، شيءٌ يؤلمهم، شيءٌ يقلقهم، شيءٌ يهمهم، شيءٌ يوترهم.

(وَإِذَا مَسّ النّاسَ ضُرٌّ (33))

بحكم فطرتهم، وبحكم طبيعتهم وجبلّتهم والإيمان الذي غرسه الله فيهم حينما خلقهم:

(دَعَوْا رَبّهُمْ (33))

أقرب اسمٍ من أسماء الله الحسنى لهذا الإنسان اسم الرب:

(الْحَمْدُ لِلّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ(2))

(سورة الفاتحة)

دعوا ربهم، فأقرب كلمة للطفل الصغير كلمة أمي، لكل شيء، لأن أقرب إنسانٍ إليه هي أمه، أقرب اسم من أسماء الله الحسنى لهذا المخلوق هو اسم الرب، من التربية، يُرَبّيكَ في جسدك، يربيك في نفسك، يربيك في عقلك، يربيك في دينك، يربيك في أخلاقك.

أخ كريم حدثني بقصة، وهو يحدثها للآخرين، فإذا حدّثت بها لا مانع: أن جاءه إلى محله أو دكانه شخص ليشتري من عنده حاجة، هو يبيع بالجملة، فلما طُلب منه قطعتين أو ثلاثة، رأى في هذا إهانةً له، فرفض أن يبيعه، قال لي: بقيت واحداً وعشرين يوماً ما دخل محلي إنسان، أدّبَنَي ربّي، ربّاني.

من الشرك أن تعزو الفضل إلى جهة غير الله عز وجل:

إذا الإنسان تأمل كيف ربنا يربي الإنسان، إذا قال أنا أربّيه، إذا عزا نعمة إلى غير صاحبها يربيه الله عزّ وجل، إذا تكلم كلمة غير لائقة يربيه الله عزّ وجل، لذلك بعض العارفين بالله قال: أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي، وأحياناً من مركبته، وأحياناً من علاقاته العامة، فربنا عزّ وجل يربي، هذه:

(وَإِذَا مَسّ النّاسَ ضُرٌ دَعَوْا رَبّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ (33))

يا رب، يا جَبّار الخواطر، يا رب ليس لي غيرك، يا رب ليس إلا أنت، كلمات لطيفة جداً، عند الشدة، عند المرض العضال، عند فقد المال كله، عند مصيبة كبيرة، شيء جميل، موقفٌ رائع، وموقف طيّب، أن تدعو ربك عند الشدة، لكن المشكلة في هذه الآية، أن هذا الإنسان حينما داهمته الشدة، وحينما أحدقت به المصيبة، وحينما نزلت به الكارثة قال: يا رب، بكل قلبه، بكل جارحةٍ من جوارحه، بكل خليةٍ في جسمه، أما الموقف الذي يُعْتَصَرُ القلب له يوم القيامة:

(ثُمّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً (33))

هنا الرحمة بمعنى كشف هذه الشدة، كشف هذا الضُر، التحليل طلع سليم، وَرَمٌ عادي، التهاب السحايا عند ابنه مَرّ بسلام، الخطر الكبير مر بسلام، زال الخطر، العلاقة المتوترة مع رئيسه في الدائرة انتهت، هذه المشكلة ضَعُفَت، البضاعة وصلت، البضاعة خُلِصَت، البضاعة بيعت، هذا الدين حُصِّل، هذه القضية انتهت، هذا الشَبَح للمصيبة زال:

(ثُمّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً (33))

هنا المُشكلة، يقول لك هذا الطبيب ممتاز، بوصفةٍ واحدة شفي ابني، فأين الله ؟ نسي الله عزّ وجل، هذا المحامي بارع، يا أخي القصر العَدلي كله بيده كالخاتم، حينما نجوت من هذه الدعوى، والحكم ربحته بفضل هذا المحامي فقط ونسيت الله عزّ وجل، هكذا كلما أزيح عن كاهله همٌ، أو غمٌ، أو معضلةٌ، أو مشكلةٌ، أو مصيبةٌ، أو نازلةٌ عزاها إلى ما سوى الله، هذا هو الشرك بعينه، بالمناسبة هذا لا يمنع إذا جاءك خير من إنسان أن تشكره، وأن تبالغ في شكره، وأن لا تنسَ له فضله، هذا من شأن المؤمن، ولكن لا يعني هذا أن تنسى فضل الله عليك، أن تنسى الذي سَخّره لك، أن تنسى الذي سمح له أن يقدم

لك هذه الخدمة، هنا المشكلة، فإذا جاءه خير، جاءته نعمة، أزيحت عن كاهله هذه المصيبة عزاها إلى جهةٍ غير الله عزّ وجل.

صلاة الشكر هي الموقف الذي يبيضُ به وجهك أمام الله عز وجل:

قال تعالى:

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً (33))

كلمة (ثم) هذه على التراخي، تأتي المصيبة فالإنسان يظن أن ليس لها حل، هي القاضية، هي التي تنهيه، هذا هو وَهم، وهذا من الشيطان، ثم الله عزّ وجل يدع هذه المصيبة جاثمة على قلب الإنسان ليمتحن إيمانه، ليمتحن ثقته بالله، ليمتحن حسن ظنه به، (ثم) على التراخي، ثم يأتي الفرج، تحل المشكلة، يشفى المريض، يعود المال، تنجوا البضاعة، يخرج من السجن:

(ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً (33))

دقة القرآن رائعة لم يقل: إذا هم، لا، بل قال:

(إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ (33))

هناك أشخاصٌ يبدءون إيمانهم بالله عزّ وجل عن طريق الشدة، فإذا زالت عرفوا لله فَضْلَهُ، وعرفوا لله نعمته، وعرفوا لله لُطفه، وعرفوا لله رحمته، وذابوا شكراً، ولقد علمنا النبي عليه الصلاة والسلام صلاة الشكر، إذا جاءتك نعمة، إذا نجوتَ من مصيبة، إذا نجحتَ في امتحان، إذا أزيح عن كاهلك مُصاب، مباشرةً توضّأ وصلِّ ركعتين شكراً لله عزّ وجل، هذه صلاة الشُكر، إذا صلّيت صلاة الشكر فقد وقفت الموقف المُشَرّف من الله عزّ وجل، الموقف الأخلاقي، الموقف الذي يبيضُ به وجهك، قال:

(ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33))

يعزو لك هذا الخير إلى زيد أو عُبيد، أو إلى ذكائه وخبرته، أو إلى صحوته ويَقَظَتِهِ، أو إلى كياسته، يتفَنّن، أو إلى فلان المحامي، أو الطبيب، أو فلان صديقه الحميم له مركز قوي، اتصل به بالليل فأنجده، نسي الله عزّ وجل.

اللام في كلمة (ليكفروا) لام الأمر وهي أمر تهديد أي اكفروا وأنا سأحاسبكم:

إياكم أيها الأخوة الأكارم أن تقعوا في هذا الخطأ، إذا جاءت مشكلة وأزاحها الله عنك قل: يا رب ليس إلا أنت، لا إله غيرك، أنت الذي أنقذتني، أنت الذي كَرّمْتَنِي، أنت الذي عفوت عني، أنت الذي رحمتني، أنت الذي لطفت بي، أنت جعلت لُطْفَكَ عن طريق زيد أو عُبيد، سخره لك، عليك أن تشكره،

وأن تُبالغ في شكره، وأن تقابله بعملٍ طيب من دون أن تنسى الله عزّ وجل، هو الأصل، هو الأول والآخر.

الآن كلمة (فريقٌ منهم) هذه مُبَشِّرَة، فما كل إنسان تأتيه مصيبة ويتوب ينسى فضل الله عزّ وجل، بعض الناس، لذلك من عرفني في الرخاء عرفته في الشدة، اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدة، قال:

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آَتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34))

من أوجه التفاسير أن هذه اللام لام الأمر، أي اكفروا، هذا اسمه أمر تهديد، كأن يقول الأب لابنه: افعل أنا سأريك، هذا ليس أمر في الحقيقة، سمي هذا الأمر أمر تهديد، أنتم هكذا ؟ إذاً اكفروا وأنا سأحاسبكم.

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آَتَيْنَاهُمْ (34))

من نِعم، من عطايا، من إكرام، من لُطف، من رحمة.

المتعة مؤقتة ومحدودة لمن كفر وجحد:

قال تعالى:

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آَتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا (34))

التمتع محدود، سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان كلما دخل دار الخلافة، يقول:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ(205)ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ(206)مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ(207))

(سورة الشعراء)

المُتعة مؤقتة، كلكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى ذكَرَ في قصة سيدنا إبراهيم أن سيدنا إبراهيم دعا ربه فقال:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ)

(سورة البقرة: من آية " 126 ")

فقط المؤمنين:

(مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ)

(سورة البقرة: من آية " 126 ")

ربنا عزّ وجل رد عليه قائلاً:

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(126))

(سورة البقرة)

البطولة من يضحك أخيراً:

قال تعالى:

(إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِمَا آَتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34))

إذاً البطولة في الذي يضحك أخيراً، لا الذي يضحك في أول الأمر، في الذي يضحك أخيراً:

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ(110)إِنِّي جَزَيْتُهُمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمْ الْفَائِزُونَ(111))

(سورة المؤمنون)

إذاً هنا (ليكفروا) أمر تهديد:

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آَتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34))

لكن يوجد سؤال: (ليكفروا) خطاب للغائب، (فتمتعوا) الكلام للمخاطب، هذه ظاهرة في البلاغة اسمها التفات، هذا الالتفات دليل تحريك النفس، أحياناً يقول إنسان لشخص أمامه، ويخاطب شخصاً آخر يقول له: قل لفلان إنني غاضبٌ منه، لتحريك وجدانه، لتحريك شجونه، لتحريك قلبه، قل لفلان إنني غاضبٌ منه، فجاء مرة بصيغة الغائب ومرة بصيغة المخاطب.

من كفر بالله تعالى سيحاسب حساباً عسيراً يوم القيامة:

قال تعالى:

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آَتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34))

بعضهم قال: هذه لام العاقبة لام المآل، ثم كانت عاقبتهم أنهم كفروا بالله وتمتعوا وسوف يحاسبهم الله حساباً عسيراً.

(أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35))

هذا الكلام ـ حينما عزوا هذا الفضل إلى غير الله ـ هل هذا الكلام جاءهم به ملك ؟ أو نزل به عليهم سلطان ؟

(أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا (35))

أي ملكاً:

(فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35))

أي أن هذا الكلام ما مصدره ؟ ما حُجيّتُهُ ؟ من أين جاؤوا به ؟ من علمهم إياه ؟ أين قرؤوه ؟ الإنسان أحياناً يتكلم كلاماً ليس له معنى، من دون دليل، وفي الإسلام منهج: إن كنت ناقلاً فالصحة، وإن كنت مُدَّعِياً فالدليل، يقول لك: هكذا رأيي، من أنت حتى يُعتدّ برأيك ؟ من أنت ؟

يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتمُ حتى يكون لكم عِنْدُ ؟

***

هنا:

(أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35))

هل جاءهم ملك فأوحى لهم، أم هل عندهم حجة قطعية مع الدليل تنطق بموقفهم الصحيح ؟

(رحمة) جاءت هنا نكرة للتقليل:

الآن الآية الأخيرة:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً (36))

كذلك الذوق غير الطعام، إذا قال لك أحدهم: ذق لي هذا الطعام، فهل تأكل كل ما في القدر ؟ مستحيل، معلقة واحدة، لقمة واحدة، قال:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً (36))

يأخذ شهادة، ينسى أن يصلي، يربح بهذه الصفقة، تأتيه سفرة مهمة، تجده قد نسي الله عزّ وجل:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً (36))

(أذقنا) تشبه (مَسّ)، أي شيء قليل، أذقنا، وبعد ذلك (رحمة) نكرة، نكرة للتقليل، قال تعالى:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف: من آية " 58 ")

وقال:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران: من آية " 159 ")

وقال:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا (36))

اختل توازنه، قال: فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء.

(إن) تفيد احتمال الوقوع أما (إذا) تفيد تحقق الوقوع:

قال تعالى:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا (36))

كان من الذين يرتادون الدروس في المسجد تزوج فانقطع، يقول لك: والله مشغولين يا أستاذ، موسم، الموسم يشغله، والزوجة تشغله، وإذا سافر لمهمة انشغل.

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا (36))

هذه (إذا) نقطة مهمة جداً، (إذا) تفيد تحقق الوقوع، كقوله تعالى:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(1))

(سورة النصر)

أي أن نصر الله لا بد من أن يأتي، أما (إن) تفيد احتمال الوقوع:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا)

(سورة الحجرات: من آية " 6 ")

(إن) تفيد احتمال الوقوع، أما (إذا) تفيد تحقق الوقوع، إذاً:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً (36))

الرحمة هي الأصل، جاء معها إذا، الآن الآية دقيقة جداً وهذا كلام خالق الكون فرحمة الله هي الأصل ولا بدّ نازلة، هذه رحمة الآن تنزل، أسمعني أحد الأخوة شريطاً لخطبة لأحد علماء دمشق، يقول هذا العالم: يا رب نحن في كانون الأول وكأننا في صيف، في شهر كانون الأول كان كأس الماء مهدداً، ماء الشرب، أعلمني أحد الأخوان الكرام أن مستوى مياه نبع الفيجة ارتفع إلى أعلى مستوى، مع أن الأمطار كلها الهاطلة حتى هذا التاريخ لا تكفي رفعه لهذا المستوى، فاستيقنوا أن لهذا النبع حوضاً لا يعرفونه من قبل، وهذه رحمة الله عزّ وجل، في بعض المناطق نزل في أربع ساعات مئة وخمسة مليمترات من المطر، في أربع ساعات، أي نصف ما ينزل في دمشق في المواسم الطيبة، في أربع ساعات.

أي شيءٍ ينتهي عند الموت الفرح به ضعفٌ في التفكير:

قال تعالى:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا (36))

يفرح بنزول المطر، عنده مزرعة، البئر امتلأ، أو عنده مشروع زراعي انتعش، وإذا لم يكن مستقيماً فرحه خُلّبي، كالفرح الذي يقوله الله عزّ وجل:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً (36))

الدنيا من عرفها لم يفرح لرخاء، ربنا عزّ وجل قال:

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: من آية " 58 ")

المؤمن يفرح برضوان الله، يفرح بفضل الله، يفرح بالعمل الصالح، يفرح بحفظ كتاب الله، بفهم كتاب الله، يفرح إذا الله عزّ وجل أجرى على يديه عملاً صالحاً، يفرح إذا الله استخدمه، جعله خادماً لعباده، يفرح إذا الله عزّ وجل جعل حوائج الناس إليه، يفرح إذا كان يحب الله ورسوله، يفرح إذا كان طليق اللسان في ذكر الله عزّ وجل، هذا فرح حقيقي، أما إذا فرح بالمال فالمال زائل، إذا فرح بالزواج الزواج زائل، أي شيءٍ ينتهي عند الموت الفرح به ضعفٌ في التفكير، ربنا قال:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

وقال:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

وقال:

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: من آية " 58 ")

آيات من القرآن الكريم على أن فرح الكفار محدود وزائل:

الفرح بالدنيا، قارون، قال:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: من آية " 78 ")

وقال:

(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79))

(سورة القصص)

أما المؤمنون قالوا:

(وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ)

(سورة القصص: من آية " 80 ")

ربنا عزّ وجل قال:

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ)

(سورة آل عمران)

افرح إذا الله عزّ وجل سمح لك أن تعرفه، سمح لك أن تذكره، سمح لك أن تجلس بمجلس علم، سمح لك أن تعمل أعمالاً صالحة، سمح لك أن يكون دخلك حلالاً، أن يكون عملك طيّباً، أن يكون لسانك طليقاً، هذا فضل الله عزّ وجل.

الله عزّ وجل لم يعزُ الرحمة إلى شيء:

قال:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا (36))

اختل توازنه، صار يقفز، لم يعد يمشي، من فرحه، نسي أن يصلي، نسي الله عزّ وجل، أحياناً الإنسان بالزواج يندهش، يريد الزوجة، عبدها من دون الله، أمرها هو النافذ، رغبتها هي النافذة، أما المؤمن راسخ في إيمانه، " لمن هذا الوادي ؟ قال: هو لك، قال: أتهزأ بي ؟! الوادي كله ملك لرسول الله، قال: هو لك."

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ (36))

ربنا عزّ وجل الرحمة لم يعزها إلى شيء، قال:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا (36))

الرحمة (إذا)، و(إذا) لتحقّق الوقوع.

السيئات التي تصيب الناس محض عدلٍ والرحمة التي تصيب الناس مَحض فضلٍ:

قال تعالى:

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ (36))

معناها السيئة ليست أصلاً في الأرض، الشر ليس أصلاً، الشر طارئ، الشر له هدف علاجي فقط، فالإنسان يفتح مدرسة، يبني بناء ضخماً، يؤسس المدرسة، ينظم أمورها، ينشئ نظاماً داخلياً، يعيّن مدرسين، ينشئ ملاعب، ينشئ مكتبة، شيء جميل، وأحياناً المعلم يضرب الطالب، والمدير أحياناً يفصل الطالب، هل نقول: أنشئت هذه المدرسة لضرب الطلاب، لا، هذا الكلام مستحيل، الضرب حادث

طارئ، ومرحلة، ولهدفٍ معين، فربنا عزّ وجل مع الرحمة جاءت (إذا)، لكن مع المصيبة جاءت (إن)، أي أن الشر احتمالي، إذا حدث انحراف، مرض، كِبْر، إسراف، عُجب، تطاول، تقصير بالحقوق، شرك، إعجاب بالنفس، يأتي التأديب الإلهي، فالأصل الله نصر المؤمنين ببدر، أما لما قالوا: " لم نغلب من قلة "، قال لهم: قفوا لأقول لكم:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا)

(سورة التوبة: من آية " 25 ")

هذا الذي لفت النظر، إذا أذقنا الناس رحمة، لكن تصبهم سيئةٌ:

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (36))

أي لا سيئة بلا سبب.

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (36))

لذلك السيئات التي تصيب الناس ـ دققوا جيداً ـ محض عدلٍ، والرحمة التي تصيب الناس مَحض فضلٍ.

القنوط لا يعرف الله عزّ وجل أبداً:

الآية دقيقة، أول شيء (أذقنا) أعطيناهم شيئاً من الدنيا، شهادة، كم ألف، أو كم مئة ألف، أو كم مئة مِئة ألف، (أذقنا)، زوجة ممتازة، أولاد نُجَبَاء، إذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها:

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (36))

أولاً (إن) تفيد الاحتمال، ثانياً السيئة ليست هي الأصل، السيئة شيء طارئ، وهدفها علاجي، وفوق هذا وذاك:

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (36))

أي من أفعالهم، من اقترافهم، من كسبهم، من انحرافهم، من تقصيرهم، هذه الباء للسببية:

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (36))

وقال:

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36))

أي يقنطون من رحمة الله، أجمل ما في الآية، فالنعمة نسيتني من أجلها، والمشكلة بسيطة قلت: أريد أن أنتحر، لا يوجد أمل، ظلمات بعضها فوق بعض، الحياة لا تطاق، حياة كلها متاعب، الله خلقنا للشقاء، إذا كان خبراً سيّئاً، علاقة سيئة مع الزوجة، تجده يقول لك: النساء لا يطاقون، الزواج شقاء، من أجل مشكلة واحدة أصبح الزواج شقاء هكذا الإنسان البعيد عن الله عزّ وجل، سريعاً ما يفرح،

سريعاً ما يقنط، فالقنوط لا يعرف الله عزّ وجل أبداً، ربنا عزّ وجل يخلق من الضعف قوةً، من الضيق فرجاً، من المرض شفاءً، من الفقر غنىً، من الذُلّ عزاً.

الرحمة وقوعها حَتْمِي أما السيئة وقوعها احتمالي وعلاجي:

قال:

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ (36))

أي ما من عثرةٍ ولا اختلاج عرقٍ ولا خدش عودٍ إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر.

(إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36))

يقول لك: المستقبل مُظلم، صار في تصحر بالشرق الأوسط، فلا توجد أمطار نهائياً، نحن على مشارف مجاعة، والناس ماتوا من الجوع، وتركوا البلد، وشحّت المياه بل أصبحت معدومة، وانتهى كل شيء.

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (36))

والله شيء جميل، الرحمة من الله محض فضلٍ، والسيئة من الله محض عدلٍ، الرحمة هي الأصل، وقوعها حَتْمِي، أما السيئة ليست أصلاً، وقوعها احتمالي وعلاجي، لكن هذه الحالة المرضية ما حلها، ما شفاؤها ؟

الأمر بيد الله عزّ وجل كن فيكون زل فيزول:

الآية الثالثة:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (37))

ما رأوا أن الأمر بيد الله عزّ وجل، كن فيكون، زل فيزول ؟ والله أعرف شخصاً أصابه مرض عُضال، العملية الجراحية لا بد من أن تُجرى في بلد بعيد جداً، كُلْفَةُ العملية قبل عشر سنوات بِقَدَر ثمن بيته تماماً، موظف بسيط عنده بيت سعره ثمانمئة ألف، وعنده أولاد صغار، ومرض عضال، ورم خبيث من الدرجة الخامسة، وأخذت عينات من جسمه إلى إنكلترا، الأطباء قالوا: لا فائدة، والله زرته وبكيت عنده حينما رأيت أولاده الصغار، بعد سبعة أشهر تراجع المرض تلقائياً، والقصة منذ اثني عشر سنة، والرجل حي يرزق، في أتم صحته الآن، شخص أعرفه كما أعرف نفسي، وأعرف أطباءه جميعاً، وأنا عشت المشكلة، أخذوا خزعة إلى بريطانيا، والقضية منتهية، فكانت الفكرة أن يبيع البيت ونجاح العملية بالمئة ثلاثين، أين القنوط ؟ كن فيكون، زل فيزول، وإذا مرضت فهو يشفيني، بالتجارة،

وبالزراعة، وبالصناعة، وبالأمراض، وبالعلاقات الزوجية، وأصلحنا له زوجه، يقول لك: كانت عندي زوجة ظالمة أصبحت الآن مَلَك، الله عزّ وجل أعانك عليها.

(أَوَلَمْ يَرَوْا (37))

هؤلاء الذين فرحوا لهذه الرحمة فاختل توازنهم وعصوا ربهم، وهؤلاء الذين يئسوا وقنطوا لهذه السيئة ورأوا أن المستقبل مظلم:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّهَ يَبْسُطُ الرّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (37))

كل شيء بيده.

الله تعالى يحب الملحين في الدعاء:

هذا الدسام الذي في قلب الإنسان بيد الله عزّ وجل، الشرايين مسدودة، يفتحها الله إذا أراد من دون عملية، شخص قال لي: كدت أضيق بحياتي ذرعاً، قال لي: لا أملك ثمن عملية القلب، كيف حالك ؟ قال لي: والله الآن بخير الحمد لله، تراجع المرض وحده، هذا شيء واقع، هذا يسميه الأطباء: الشفاء الذاتي، الله يتدخل مباشرةً.

لا أقصد من هذا الكلام أن أروي لكم قصصاً نادرة، بل قصدي أن تتيقنوا أن الله بيده كل شيء، وأنك بالدعاء أنت أقوى إنسان، وليس بينك وبين الله حجاب، يا رب، يقول لك: لبّيك يا عبدي، اسأله كل حاجاتك، اسأله شسع نعلك إذا انقطع، اسأله ملح الطعام، هكذا ورد الدعاء.

((من لا يدعوُني أغضب عليه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

((إن الله يحب الملحين في الدعاء))

[رواه الحكيم ابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة]

الله يحب أن تطلب، تترجاه، تعيد وتكرر، تلح كثيراً بالسجود بقيام الليل، أما أمام الناس كن عزيزاً، شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس، البطولة أن تعتز أمام الناس، وأن تمرّغ جبهتك بين يدي الله عزّ وجل، ادخل لغرفتك وابكِ وأغلق الباب واسجد وقل: يا رب ليس لي سواك، هذه افعلها، على قدر ما تستطيع تذلل لله، لأن التذلل إلى الله عز، أما مع الناس كن عزيزاً.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّهَ يَبْسُطُ الرّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37))

العمل الصالح هو زاد المؤمن في الآخرة:

المهمة الأخيرة:

(فَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38))

يبدو أنك جئت إلى الدنيا من أجل العمل الصالح، أول حالة مرضية، وثاني حالة مرضية، والحل أن تُشَمِّر وأن تنطلق للعمل الصالح فهو زادك في الآخرة، وهو الذي يسعدك في الآخرة، انظر إلى الآيات وترابطها العجيب:

(فَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38))

لا تكن من هؤلاء، ولا من هؤلاء، وفكر، وافعل هذا.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (10-14): تفسير الآية 39

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-03-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم مع الدرس العاشر من سورة الروم.

تسعة أعشار المعاصي من كسب الرزق ومن إنفاق الرزق:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ(39))

(سورة الروم)

أيها الأخوة الأكارم هذه الآية تحتاج إلى تفصيلٍ شديد، لأن تسعة أعشار المعاصي من كسب الرزق ومن إنفاق الرزق، وكلكم يعلم قول النبي عليه الصلاة والسلام أنه:

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلاهُ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا وَضَعَهُ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ))

[سنن الدارمي عن معاذ بن جبل]

لكل موضوع سؤال: وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا وَضَعَهُ، موضوع المال موضوعٌ دقيقٌ جداً. أولاً هذه الآية لها معاني كثيرة، سأختار المعنى الأول، فهو لا يتعلق بالربا، يتعلق بأن الإنسان أحياناً، يقدِّم للناس، شيئاً، هدية، خدمة، قرضاً، وفي نيّته أن يأتيه منه خيرٌ كثير، فإذا قدّم قرضاً لإنسانٍ موسر، على أملٍ أن هذا الإنسان يكافئه عليه أضعافاً كثيرة، فحينما تنتفي نية العمل الصالح، حينما تنتفي نية خدمة الآخرين، القصد أن يُعْطِي ليستفيد، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ (39))

هذه الآية، بهذا المعنى البسيط، تُذَكِّرُنَا بآيةٍ ثانية، يقول الله عزّ وجل:

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

(سورة المدثر)

معنى تمنن أي إنك تعطي الناس عطاءً من أجل أن تزداد مكانتك، أو من أجل أن تتلقى خدمات الناس، بشكلٍ أو بآخر حينما تفعل عملاً صالحاً وفي نيتك أن تزداد سمعتُك أو مكانتك، أو تزداد خدماتك، أو تزداد عُزوتك، فهذا المعنى وهذا التوجُّه مرفوضٌ عند المؤمنين، ولا تمنن، ولا تعطي، وتستهدف

بعطائك الاستكثار، تخدم هذا، وتساعد هذا، وتُهدي هذا، وتقرض هذا، من أجل أن تشعر أن الناس جميعاً يحبونك، وأن الناس جميعاً في خدمتك، وأنك عزيزٌ عليهم، هذه نوايا أرضية.

وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ: من معاني الآية:

1 ـ إن كانت النية أرضية فهذا المال الذي تنفقه لا يربو عند الله:

إذاً المعنى الأول:

(وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ (39))

إن كانت النية أرضية، إن كانت النيّةُ أن يزداد خيرك، أن يزداد مالك، أن تزداد مكانتك، أن يزداد جاهُك، إن كانت هذه النية فهذه النية لا تجعل هذا العمل الصالح مقبولاً عند الله، بل إن هذا المال الذي تنفقه لا يربو عند الله، أي لا يزداد.

الآية الثانية التي تلتقي مع هذه الآية:

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6))

(سورة المدثر)

أي لا تُعطي عطاءً وفي نيّتك أن يعود عليكَ أضعافاً كثيرة، هذا المعنى الأول الذي لا علاقة له بالربا، بمعنى أن الإنسان حتّى لو قدّم خدمات للناس، حتّى لو وقف موقفاً مشرّفاً، حتّى لو ردّ لهفتهم، حتى لو جبر كسرهم، حتى لو أعانهم بجهده، بعضلاته، بوقته، بجاهه، من أجل أن يزداد رفعةً، وأن يزداد مكانة، وأن يزداد عزوةً، هذه النوايا وهذا العطاء وهذا الإنفاق لا يربو عند الله ولا يقبله الله سبحانه وتعالى، هذا المعنى الأول لهذه الآية.

2 ـ من أقرض المال من أجل أن يعود عليه بربح جزيل هذا هو الربا:

أما المعنى الثاني: حينما تقرضون المال من أجل أن يعود عليكم بربحٍ جزيل، هذا هو الربا، أنت حينما تعاون الناس تطيع الله عزّ وجل، وحينما ترابي فيهم تستغلُّ حاجتهم لتنتفع في الدنيا، الناس رجلان ؛ رجل يعين إخوانه المؤمنين في ساعات شدّتهم، وساعات ضيقهم من أجل أن يرضى الله عنه، لذلك هذا القرض حسن، لا يبتغي منه شيئاً إلا رضوان الله عزّ وجل، فأنت أمام طريقين لا ثالث لهما، إنسان مقتدر، إنسان غني، التقى مع إنسان فقير، مع إنسان محتاج، مع إنسان مصاب، فإما أن يقف منه موقف

المؤمن الذي يرجو ربّه، وإما أن يقف منه موقف الإنسان الأرضي الشهواني الذي يرجو مصلحته، فإما أن تقرضه، وإما أن تستغل حاجته فتقرضه بالربا.

(وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ (39))

أنت ماذا تريد ؟ تريد الدنيا العاجلة ؛ أم تريد الآخرة الباقية ؟ إن أردت الدنيا العاجلة تقول كما يقول عامّة الناس: يا أخي هذا المال لا يُعقل أن أُقرضه بلا فائدة، إنني أضيع قيمته، أخسر قيمته، إنني لا أستغله عندئذٍ، لا أستفيد منه، فلا ينبغي للمرء أن يفعل شيئاً من هذا.

الشيء الآخر: إذا كنت مؤمناً تقرض القرض الحسن وتبتغي به الله عزّ وجل، أريد أن أقف قليلاً عند مضار الربا، لماذا حرّمه الشرع ؟ أولاً الموضوع يحتاج إلى تأنِّي، كان هناك جهات تُعطي أرباحاً جزيلةً على إقراض الأموال، إنسان يملك مليون ليرة، فأي جهةٍ تعطيه بالمئة ثمانية عشر أو بالمئة عشرين، فهذا المليون يحقِق له دخلاً في السنة مئتي ألف ليرة، فالإنسان الذي يستثمر ماله عن طريق الإقراض الربوي، لماذا يعمل ؟ لماذا الجهد ؟ لماذا تحمُّل المسؤوليّة ؟ لماذا تحمُّل مجيء البضاعة، وبيع البضاعة، وإقراض ثمن البضاعة، وتحصيل ثمن البضاعة، وشَحن البضاعة، وأن تكون عُرضة للمسؤوليّة أمام التموين، وأمام الجمرك، وأمام الماليّة، كل هذه المتاعب مع الجهد الكبير ينتهي إذا وضعت مالك في جهةٍ استثماريّةٍ ربويّةٍ تعطيك عليه عشرين في المئة كل عام.

أخطار الربا على المجتمع الإسلامي:

لو أن الإنسان الذي لا يعرف الله عزّ وجل خيّرته بين أن يضع هذا المال في مشروع زراعي، أو تجاري، أو صناعي، وأن يتحمّل المتاعب، وتأمين المواد الأوليّة، وضبط المواد، وضبط الأسعار، وتحمُّل المسؤوليّة أمام جهات حكوميّة كثيرة جداً، وكل جهة لها عقوباتُها الرادعة، ولها ضوابطها، ولها سجنها، أو أن تضع هذا المبلغ في جهةٍ بعيدةٍ عن أعين الرُقباء، وأن تأخذ مالاً وفيراً كل عام، إذا سُمِحَ بالربا ما الذي يحصل ؟ يُحْرَم المجتمع من كل مشروعٍ إنتاجي، هذا الشيء الطبيعي.

الماء أين يتحرّك ؟ نحو الأسفل دائماً، لو أن الماء واجهه طريق صاعدة وطريق هابطة يمشي للأسهل، هكذا طبيعة الماء، والمال دائماً يبحث عن تنميته من دون جهد، فلو سمحنا بالربا لتعطّلت الحياة، كم من ألوف ألوف الملايين التي تُستَثمَر في بلادٍ أجنبيّة، وبلاد المسلمين في أشدِّ الحاجة إلى هذه الأموال !! ما الذي يجعل هذه الأموال تتجه نحو الاستثمار الربوي ؟ هو السهولة، أما إذا كان الربا محرّماً في مجتمع ما، ليس أمام هذه الأموال من خيارٍ إلا أن تُستَثمَر في بلاد المسلمين، ولكنت عندئذٍ رأيت المشاريع الزراعيّة، والمشاريع الصناعية، والمشاريع التجاريّة، رأيت الخدمات، رأيت الحاجات

مؤمّنة، المواد الأوليّة مؤمّنة، طبعاً، لذلك أول خطر من أخطار الربا أنه يحرم المجتمع الإسلامي من الخيرات التي كان من الممكن أن يوفِّرها له هذا المال الذي في أيدي المسلمين.

الشيء الثاني: لو أن إنساناً أراد أن يستثمر ماله في بلاد المسلمين، إذا كان هناك مجال لتأمين ريع من هذا المال كبير جداً، متى يغامر ويضع ماله في الاستثمار الزراعي، أو الصناعي، أو التجاري ؟ إن لم يأخذ ربحاً أضعافاً مضاعفة عن ربح الفائدة لا يفعل هذا، إذاً الربا يسهم بشكل أو بآخر في رفع الأسعار، أبداً، فهل يرضى إنسان أن يضع ماله في الاستثمار الزراعي، أو الصناعي، أو التجاري بربح أقل من أربعين بالمئة ؟ لماذا ؟ لأنه بإمكانه أن يأخذ العشرين بالمئة من دون تعب، فإذا بذل جهداً كبيراً وتحمّل المخاطرة والمغامرة إذاً معنى ذلك أنه سيأخذ عن هذا الجهد الإضافي ربحاً إضافياً.

أكبر أخطار الربا أنه يسهم في رفع الأسعار:

إذاً ما الذي يُسْهِم في رفع الأسعار في كل بلاد العالَم ؟ وجود مؤسّسات ربويّة، هذه المؤسّسات تسهم في رفع الأسعار، ماذا يعني رفع الأسعار ؟ أن المال يُتداول في أيدٍ قليلة ويُحرم منه الكثرة الكثيرة، واحد يملك مليوناً، ومليون لا يملكون واحداً، إذاً متى يتمزّق المجتمع ؟ إذا أصبحت قلّةٌ قليلة تملك آلافاً كثيرة، وكثرةٌ كثيرة لا تملك شيئاً، عندئذٍ تنشأ الأحقاد، وتنشأ المنازعات، وتنشأ الصراعات، فخالق الكون، خالق النفوس هو الذي حرّم الربا، بالربا يُحرم المجتمع من كل خيرٍ يجلبه له توظيف المال في مشاريع إنتاجيّة، ولوجود الربا ما الذي يحصل أيضاً ؟ يحصل أن المجتمع يصبح فئتين، فئةٍ قادرةٍ على كل شيء في الإنفاق ؛ وفئةٍ محرومةٍ من كل شيء، هذه الهوّة الكبيرة بين الأغنياء والفقراء، وبين القادرين على الإنفاق والعاجزين عنه، ينشأ معه الأحقاد، والمنازعات، والصراعات.

الشيء الثالث: أنت حينما توظِف مالك في مشروع ؛ في تجارة، في زراعة، في صناعة، في خدمات، هل تدري أنك تهيّئ فرصاً للعمل لآلاف المواطنين ؟ تحتاج إلى دفتر فواتير، وهذا يحتاج إلى مطبعة، وإلى حبر، وإلى موظّفين، وإلى عُمّال، وإلى صيانة آلات، هذه المطبعة تُعيل عشرات الأسَر، أنت تحتاج إلى دفتر فواتير، أنت تحتاج لنقل هذه البضاعة، إلى وسائط نقل، وإلى أصحاب السيارات، تحتاج إلى طبع اللاصقات، تحتاج إلى محاسبة، تحتاج إلى محاسب، محل تجاري بسيط، بالعين المجرّدة يعمل فيه أربع أشخاص، أما بالعين غير المجرّدة يعمل فيه ألف شخص، ألف إنسان يعمل في هذا المحل وأنت لا تدري، إذاً حينما نفسح المجال لاستثمار المال عن طريق الربا ماذا نعمل ؟ ننشر البطالة، فأكبر أخطار الربا، أنه يسهم في رفع الأسعار، ورفع الأسعار يسهم في حدوث هوّة كبيرة بين

المواطنين، بين فئةٍ غنيّةٍ جداً وفئةٍ محرومة، وهذا له آثار اجتماعيّة، وآثار نفسيّة، وآثار خُلُقِيّة، وحينما نسمح بالربا معنى ذلك أننا نُشيع البطالة في المجتمع.

عندما حرّم ربنا عزّ وجل الربا هو الخبير، هو العليم، هو الحكيم، هو الذي يعرف طبيعة النفوس، البديل هو القرض الحسن، القرض الحسن معاونة هدفها إرضاء الله عزّ وجل، والربا استغلال حاجة الضعيف ليربو مال الغني.

الفرق بين القرض الحسن والقرض الربوي:

الحقيقة ما الذي يحصل ؟ أنك إذا أقرضت إنساناً ليعمل بهذا القرض، العلماء فرّقوا بين القرض الاستثماري والقرض الاستهلاكي، القرض الاستهلاكي إنسان اقترض لشراء دواء، لإجراء عمليّة جراحيّة، لماذا استقرض ؟ لأنه فقير، وفوق أنه فقير عليه أن يعيد هذا المبلغ مع فائدة، إذاً أرهقته، هو مرهقٌ في ثمن أجر العمليّة الجراحيّة، وفوق العمليّة الجراحيّة أرهقته بالفائدة، إذاً ماذا فعلت أنت ؟ أنت سحقته، وازداد الغني غنىً، هذا القرض الاستهلاكي.

أما القرض الاستثماري لو أقرضت إنساناً ليتاجر، ليفتح محلاً تجارياً، هل تدري أن الربح دائماً مُحَدّد؟ بمعنى أنه هناك منافسة، وهذه المنافسة تحدِّد الربح، أحياناً الربح يساوي الفائدة، فأنت إذا أقرضته قرضاً استثمارياً جُهْدُهُ ضاع في الفائدة لك وبقي فقيراً ولو طالبته برأس المال فقط بقي له ربحه فقط، لكن ربحه صار فائدةً لك، إذاً حتّى في القرض الاستثماري أنت سحقته، سحقت صاحب القرض الاستهلاكي وسحقت صاحب القرض الاستثماري، بالاستثمار إذا كان الربح بالمئة عشرة، تكون أنت قد أخذت فائدة وبقي هو بلا ربح، أخذ قرضاً وفتح محلاً واشترى بضاعة وباعها، هذا الجهد يُترجم بربح بالمئة عشرة، أو عشرين، فأنت فائدتك لهذا القرض استغرقت ربحه إذاً بقي فقيراً، أما لو أنك طالبته برأس المال فقط، وأصبح الربح له، اغتنى، وإذا اغتنى أصبح مصدراً لإنعاش الآخرين.

شيء عجيب جداً كيف أن القرض الحسن يشيع الغنى بين الناس، والقرض الربوي يشيع الفقر فيهم، القرض الربوي يسحق الناس جميعاً، من استقرض قرضاً استهلاكياً، ومن استقرض قرضاً استثماريّاً كلاهما مسحوق، أما القرض الحسن الذي أمر الله به يشيع الغنى بين الناس، إن أقرضته لعملٍ إنساني عليه أن يعيد أصل المال فقط، وإن أقرضته لعملٍ تجاري عليه أن يعيد أصل المال، في كلا الحالين بقيت فيه بقيّة، بقي فيه رَمَق، أما إذا أقرضته قرضاً ربوياً أكلت جهده، وأكلت تعبه، وجعلته فقيراً، وجعلته عالةً على الناس.

ليس في القرآن الكريم كله آية توعّدت العصاة بحربٍ من الله ورسوله كآية الربا:

لماذا حرّم الله الربا ؟ لأن الربا يمزّق المجتمع، يبدو أن كل معصيةٍ عقابها على قدر ضررها، بما أن الربا يُفَتِّت العلاقات في المجتمع كلِّه، ويجعل المجتمع طبقتين ؛ طبقة فقيرة وطبقة غنيّة، طبقة مسحوقة وطبقة ساحقة، طبقة لا تملك شيئاً وطبقة تملك كل شيء بسبب ارتفاع الأسعار وتجمُّع الأموال في أيدٍ قليلة، لأن الربا يشيع ضرره في المجتمع كلِّه لذلك جاء تحريمه شديداً، وما في القرآن الكريم كله آيةٌ توعّدت العصاة بحربٍ من الله ورسوله كآية الربا:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ(279))

(سورة البقرة)

حرب من الله ورسوله، لأن الربا نتائجه تَعُمُّ المجتمع كله، فشرب الخمر، تعود نتائجه الخبيثة على شاربه، أما الزنا على الزاني وعلى المَزْنِيّ بها، أما الربا على المجتمع بأكمله، لذلك ورد في بعض الأحاديث أن درهم الربا أشد عند الله من ستٍ وثلاثين زنوة:

((دِرْهَمٌ رِبًا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَشَدُّ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلاثِينَ زَنْيَةً))

[مسند أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْظَلَةَ]

كلما ازداد الخطر ازداد الإثم، كلما اتسع نطاق الأذى اتسع الجُرم، الذي يقتل إنساناً يحاسب كمن يقتل خمسة ؟!

ربنا عزّ وجل عندما حرم الشيء حَرَّمَ أصله:

يا أيها الأخوة الأكارم عندما قال ربنا عزّ وجل:

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا (39))

أي دفعتم أموالكم لترابوا فيها، النقطة الدقيقة، يوجد أشخاص يحتالون على الله عزّ وجل، كل من يحتال على الله عزّ وجل معنى ذلك أنه يقول: أنا لا أعرف الله، إيمانه صِفْر، يشيع بين الناس جميعاً بيع العِينَة، أي أن الإنسان يبيع شيئاً بثمن مؤجّل، ثم يشتريه بثمن مُعَجّل، يبيع هذا الكتاب بمئة ليرة ديناً، ثم يشتريه بثمانين نَقْداً، هذا الكتاب يبيعه ألف مرة في الأسبوع، ماذا فعل ؟ هو مرابٍ ؛ لكن جعل من البيع والشراء إطاراً للربا، هذا لا يخفى على الله عزّ وجل، فلما ربنا عزّ وجل حرم الشيء حَرَّمَ أصله، أما شكليّاته هذه يحاسب عليها المرء لو أنه أقام الربا بشكل شَرعي، بشكل بيع وشراء.

مثال آخر: مثال مُبَسَّط جداً يوضح المعنى، لو صاحب سيارة، قال لإنسان: خذ هذه السيارة وأعطني كل يوم ألف ليرة، ما الذي يحصل ؟ أن سائق السيارة قد يكون هناك فترة من الوقت لا يوجد فيها عمل،

لا يوجد ازدحام، في عُطَل رسمية، يظلم بهذا العمل، لأنه كلّفه بمبلغ فوق طاقته، وإذا جاء سائق السيارة وأعطى صاحبها مبلغاً زهيداً جداً فقد ظلم صاحبها، لو كان الربح بينهما، لا تَظلمون ولا تُظلمون، ما الفرق بين الشراكة وبين الربا ؟ الشريك في الربح والخسارة، إذا أنت أقرضت إنساناً مبلغاً ولك ربحٌ ثابت فهذا هو الربا، أما إذا أقرضت إنساناً ليعمل بالمال، فأنت شريك بالمال وهو بالجهد، ربح مئة مناصفة، خمسين مناصفة، ألف مناصفة، في رحمة، في عدل، إذاً هذا الذي يختار طريق الربا، طريق استثمار أمواله بالربا، فأُناس كثيرون الآن، مسلمون، يقول لك: شَغِّل لي هذا المبلغ، وأريد ربحاً ثابتاً حلالاً، من هذا الذي قال لك حلالاً ؟ حينما يثبت الربح صار الربا، إن كان ربح أكثر ظلمك، وإن رَبِحَ أقل ظلمته، أما إذا قلت: الربح بيني وبينك مناصفة، انتهى الأمر، أصبح في عدل وأصبح في رحمة، الفرق بالضبط بين قرض ربوي وبين قرض مضاربة.

كل قناة حرمها الله عزّ وجل يقابلها قناة نظيفة طاهرة:

الواقع الآن أن هناك بعض الأشخاص معهم فائض مالي، ما الذي يعملون به ؟ إما أن يستثمره بالربا في بنوك، بمؤسسات ربوية، وإما أن يقرضه ضِراباً، أي مضاربة، أن يستثمره في جهات استثمارية شرعية، لكن إذا أقرضه أخذ ربحاً قليلاً فقد ظُلِم، وإذا فرض على المستثمر ربحاً باهظاً ثابتاً فقد ظَلَمَهُ، فالذي يأخذ بالعَجَب أن أناساً كثيرون جداً ومسلمون، ويصلون في المساجد يستثمرون أموالهم عند تُجار، أو عند معامل، يفرض عليه ربحاً ثابتاً، أريد على هذه المئة ألف، أريد ألفين كل شهر، هل يعجبك هذا ؟ قد يكون التاجر ضعيف النَفْس، أو ضعيف المعلومات، أو ضعيف الإيمان، أو بضائقة شديدة فيقبل ذلك، فالذي قبل وقع في الربا، والذي أجبر أوقع في الربا، حينما يكون الربح ثابتاً فقد دخلت في متاهة الربا.

مثل آخر، قلت له: أريد ألفين بالشهر، ظلمته، لم تعمل، أعطاك ربحاً قليلاً فقد ظلمك، فإذا كان كما سَنّ الشرع لنا المضاربة أو القِراض كلاهما بمعنى واحد، أي استثمار المال من جهة، والجهد من جهة، والربح بينهما، هذه عملية مشروعة أثابها الشرع فكل شيء تراه محرماً له بديل محلل، كل قناة حرمها الله عزّ وجل يقابلها قناة نظيفة طاهرة إذاً:

(وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ رِبًا (39))

آتيتم الناس أموالكم، لتستردّوها بنسبٍ عاليةٍ جداً، لترابوا فيها، قال:

(وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ(39))

نحن في رمضان، فإذا قدمت زكاة مالك أنعشت الفقير، ربنا عزّ وجل قال:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ (103))

(سورة التوبة)

أيها الأخوة الأكارم هذه الآية من أدق الآيات، خُذ يا محمد، الخطاب الآن موجّهٌ لا إلى النبي بوصفه نبي، بل موجهٌ للنبي بوصفه ولي أمر المسلمين، إذاً أي ولي أمر مسلمين عليه أن يأخذ الزكاة، الزكاة تؤخذ ولا تُستجدى، سيدنا الصديق قاتل مانعي الزكاة لأنها حق الفقير، الأغنياء أوصيائي، والفقراء عيالي ومن منع مالي عيالي أذقته عذابي ولا أبالي، خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ما قال: خذ من مالهم، لو قال: خذ من مالهم، ماذا يعني ذلك ؟ أن الزكاة تجب في مالٍ واحد، فخذ من أموالهم، الزروع، الأبقار، الأغنام، العسل، مشروع تفاح، تجارة، قطع غيار، مفروشات، تاجر عمار، جميع أموال المال تجب فيها الزكاة، خذ من أموالهم، و(من) تعود على المسلمين، الزكاة تؤخذ من أغنياء المسلمين، وترد على فقرائهم، خذ منهم صدقة تؤكد صدقهم مع ربهم، تؤكد تصديقهم لدين ربهم، تؤكد التصديق وتؤكد الصدق، وسمّاها الله صدقة:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ (103))

(سورة التوبة)

الفقير ممتلئ حقداً، ممتلئ يأساً، ممتلئ حِنقاً، ممتلئ غضباً، ممتلئ توتُراً، يأتي هذا المال الطيب، المال الطاهر، المال مال الزكاة تدفعه للفقير فينتعش به، وأفضل أنواع الزكاة ما أنعشته دائماً، إذا أمنت له عملاً بهذا المال، أسكنته في بيت، يسّرت له رأس مال صغير، ماكينة يعمل عليها، جعلته مُنتجاً، أشرف أنواع الزكاة ما جعلت الفقير مُنتجاً، هو بعد ذلك يدفع الزكاة، إذا نقلته من فقيرٍ يستجدي إلى غنيٍ يدفع فقد ضيّقت الفقر في المجتمع كثيراً، يجب أن تنقُل الإنسان الفقير المُستجدي إلى إنسانٍ غنيٍ يدفع.

أفضل أنواع الزكاة ما قلبت المستجدي إلى منتج:

إذاً ماذا طهّرت الزكاة ؟ طهرت الفقير من ماذا ؟ من الحِقد، من الغضب، من الحِرمان، من التَوَتُّر، ألم يقل الإمام عليٌ كرم الله وجهه: **" كاد الفقر أن يكون كفراً ".**

كم من طلاقٍ تمّ بسبب الفقر ؟ كم من أذىً وقع بسبب الفقر ؟ كم من جريمةٍ ارتكبت بسبب الفقر ؟ فإذا دفعت مال الزكاة للفقير طهرت الفقير من الحقد ومن غليان الحِقد، من الثورة الداخلية، من الشعور بالحِرمان، من الشعور بأنه دون المجتمع.

إذا أدّى الغني زكاة ماله، يطهر من ماذا ؟ يطهر من الشح، من البُخل، من الأثَرَة، من أن يُحِسَّ أنه فوق المجتمع، لكن وإذا أدى الغني زكاة ماله، المال يطهر من تعلّق حق الغير به، إذاً كلمة: تُطَهِّرُهُمْ، طَهَّرَت المال، وطهرت الفقير، وطهرت الغني.

مرةً ثانية، أفضل أنواع الزكاة ما قلبت المستجدي إلى منتج، وإلى دافع للزكاة، أما تعطيه شيئاً لا يفعل معه شيئاً، بِمَنٍ وغطرسةٍ واستعلاءٍ، ليست هذه هي الزكاة، بلطفٍ وأدبٍ وحياءٍ وسترٍ وتواضعٍ وشعورٍ أنه فضّل عليك حينما قبل زكاة مالك، تفضل عليك، لأنه إذا لم يقبلها ماذا تفعل ؟ كان الرجل في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يسير الأيام والليالي ليبحث عن رجلٍ يقبل زكاة ماله، الأمر الذي حَمَلَ الخليفة الراشد على أن يدفع الزكاة لكل الغارمين، لمن عليهم الدين، هذا يطهرهم، فما معنى: وَتُزَكِّيهِمْ ؟

راقب شعور الغني حينما يدفع زكاة ماله لأسرةٍ فقيرةٍ مؤمنةٍ مستورة، هذه الأسرة تشتري أطيب الطعام، يرتدي أبناؤها أجمل اللباس، تعمُّ الفرحة والبسمة، بماذا يشعر الغني ؟ يشعر بقيمته، والله معنى ذلك أنني فعلت شيئاً، أشخاص يتعهّدون بعض العمليات الجراحية الصعبة، ينفقون أجورها، أسرة عمّتها الفرحة، عمّها السلام، عمها البِشر، عمتها السعادة بفضل هذا المال الذي أنفق على مُعيلها، إذاً تزكي نفس الغني، يشعر أن الله يحبه، وأنه فعل شيئاً ثميناً، وأنه خفف المآسي عن الناس، وأنه أحل البَسْمَةَ محل العبوس، نمت نفس الغني.

هذا الفقير الضعيف المُسْتَضْعَف، الذي يشعر أن الناس قد نسوه، إذا جاءته زكاة المال يشعر بقيمته في المجتمع، بخطورته، هناك من يذكرني، هناك من يعنيه أمري، هناك من يهتم لي، هناك من يساعدني، ومال الغني ينمو أيضاً.

وجوب الزكاة في كل أنواع المال وعلى جميع المسلمين:

تنمو نفس الغني، وتنمو نفس الفقير، وينمو مال الغني، كله ينمو معاً، ويطهر الفقير من الحقد، والغني من الشُحّ، والمال من تعلّق حق الغير به، وتجب الزكاة في كل أنواع المال، وتجب على جميع المسلمين، وتؤخذ ولا تعطى، تؤخذ عنوةً ولا تعطى، لأنها حق المجتمع، وزكاة المال تُرَمِّم الفروق الطبقية، فمعظم الناس لهم بيوت مريحة، فيها الماء، والكهرباء، والتدفئة، والأثاث الجيد، واللباس الجيد، والطعام الجيد، فهذه أعلى درجة في المجتمع، أن يتجانس أفراده، الزكاة ترمم، لذلك في حكمة بالغة جداً من فرض الزكاة على الأموال غير النامية مثل الورق والفضة والذهب، قال: إن حكمة الشارع من

فرض الزكاة على الأموال غير النامية دفعها للاستثمار، فهذا المال إن لم تستثمره في مشروعاتٍ إنتاجيةٍ تعود بالنفع على الناس، تأكله الزكاة، كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

((اتّجِرُوا فِي أَمْوَالِ الْيَتَامَى لا تَأْكُلُهَا الزّكَاةُ))

[موطأ مالك عَنْ مَالِك]

اتجروا في أموالهم، فكأن الزكاة سوطٌ لاذع يُلاحق كل من يخزن ماله، إن خزنته فسوف يستهلك بعد أربعين عاماً، فينتهي، أما إذا استثمرته، فقد حفظت أصله ونفعت الناس به.

استثمار مال اليتيم لصالحه:

جاء في بعض التوجيهات القرآنية:

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا (5))

(سورة النساء)

لم يقل لأوصياء اليتامى ارزقوهم منه، قال:

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا (5))

(سورة النساء)

هذه إشارة إلى أنه لو قال ارزقوهم منه لسمح لك أن تطعم اليتيم من أصل ماله، يجب أن تطعم اليتيم لا من أصل ماله بل من رَيع ماله:

(وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا (5))

(سورة النساء)

هذه إشارة إلى أن مال اليتيم يجب أن يستثمر لصالحه، إذاً هذه الآية الكريمة فيها توجيهٌ إلهيٌ عظيم:

(وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللّهِ (39))

المعنى الأول: إذا فعلت خيراً، قدمت هدايا للناس، قدمت خدمات، من أجل أن يحبك الناس، أن يرفعوك، أن يعظموك، هذه نوايا شيطانية أرضية لا قيمة لها، المعنى الثاني: إذا أقرضت الناس مالك قرضاً ربوياً ليربو عند الناس فلا يربو عند الله.

(وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللّهِ (39))

بها:

(فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39))

دافع الزكاة لا يتلفُ ماله في بَرٍ ولا في بحر:

في النهاية دافع الزكاة لا يتلفُ ماله لا في بَرٍ ولا بحر، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((ما تلف مالٌ في برٍ ولا بحرٍ إلا بحبس الزكاة))

[أخرجه الطبراني عن أبي هريرة]

إذا أردت صون مالك، ونماء مالك، ونماء نفسك، وأن يحبك الفقير فأدِ زكاة مالك.

(وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ (39))

تزكو بها النفس، يزكو بها المال، يزكو بها الفقير، يزكو بها الغني:

(تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ (39))

هذه الإخلاص:

(فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39))

الذين يزداد مالهم ويزداد قربهم من ربهم عزّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (11-14): تفسير الآيات 40-41
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-04-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم مع الدرس الحادي عشر من سورة الروم.

الإيمان بالله عزّ وجل إيمان تحقيقي من خلال الكون ومن خلال الفكر:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(40))

(سورة الروم)

أيها الأخوة الأكارم الإنسان إذا تأمّل في الأكوان، وجال فيها جولاتٍ طويلة، فكّر في خَلْقِهِ، فكر في طعامه وشرابه، فكّر في ظاهرة النبات التي حوله، فكر في الأمطار والبحار، فكر في الأطيار والحيوانات، هذه الجولة الطويلة تنتهي بحقيقةٍ يقينيّة وهي أنه لا بدّ لهذا الكون من خالق، لكن من هو هذا الخالق ؟ ولماذا خَلَقَ ؟ وماذا يريد منا ؟ هذا يجيبنا عنه القرآن الكريم، جاء الجواب:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ (40))

أي يا أيها الإنسان أعطيتك عقلاً أو فكراً، وأعطيتك كوناً سخّرته لك ؛ تسخير تعريف وتسخير تكريم، إذا أعملت عقلك في هذا الكون، فلو عندك قطعة قماش ومعك متر بإمكانك أن تقيس هذه القطعة بهذا المتر، خلق الكون وأعطاك قوةً إدراكيّة، خلق الكون وأعطاك عقلاً، صمّم الكون على أن كل شيءٍ فيه له سبب، وركّب في عقلك مبدأ السببيّة، خلق الكون وصمّمه على أن كل شيءٍ له غاية، وركّب عقلك على مبدأ الغائيّة، خلق الكون ولم يجعل فيه تناقضاً وركّب عقلك على مبدأ الهويّة، فمبادئ عقلك تتوافق توافقاً كاملاً مع مبادئ خلق الله عزّ وجل، عندما تفكِّر تصل إلى الله، أو تصل إلى أنه لا بد لهذا الكون من خالق، إذاً الإيمان بالله عزّ وجل إيمان تحقيقي من خلال الكون ومن خلال الفكر.

عندما ينتهي دور العقل يأتي دور النقل أي القرآن:

قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة آل عمران)

إذاً عقلك يصل إلى حقيقةٍ يقينيّة وهي أنه لا بدّ لهذا الكون من خالق، فأنت أمام مركبة ـ سيارة ـ أمام آلة حاسبة، أمام كمبيوتر، أمام جهاز هاتف، هل يعقل أن تقتنع أن هذا الجهاز صنع من غير صانع ؟ كم مهندس مصمِّم، كم مهندس منفِّذ، المواد الأوليّة، القوالب، الحقن البلاستيكي، الصمّامات، المراجعة الأخيرة، تجميع القِطَع، غير ممكن، فإذا فكرت قليلاً في الكون وصلت إلى أنه لا بدّ لهذا الكون من خالق، لا بدّ له من مربٍ، لا بدّ له من مسير، يأتي القرآن، الآن انتهى دور العقل وجاء دور النقل، يقول لك:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ (40))

إذا تساءلت أيها الإنسان عن خالق الكون إنه الله:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ (40))

العين واللسان وغيرهما من آيات الله الدالة على عظمته:

هذا التصميم، عينان:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8))

(سورة البلد)

قرنيّة، وقُزَحِيّة، وعدسة، وخلط مائي، وخلط زجاجي، وعضلات إنسية، ووحشيّة، وعلويّة، وسفليّة، ومائلة، وشبكيّة مكوّنة من عشر طبقات، مئة وثلاثين مليون عصيّة ومخروط وعصب بصري، تسعمئة ألف عصب في الدماغ، عن طريق الدماغ تتم الرؤية، العين:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا)

(سورة البلد)

هذا اللسان كل حرفٍ تنطق به يُسْهِمُ في صنعه سبعة عشرَ عضلة، فإذا نطقت بكلمة مكوّنة من عشرة حروف، تسهم في هذه الكلمة حوالي ثمانين عضلة، أي ثمانين حركة، فلو جملة من خمس كلمات، مقطع من خمس جمل، خطبة من خمس مقاطع، كم حرف ؟!!

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ(9))

(سورة البلد)

قال:

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(64))

(سورة غافر)

الله عزّ وجل أوجد الإنسان من عدم:

إذا فكّرت في طعامك، في شرابك، في ابنك، في زوجتك، في النبات ؛ النبات الحدودي، ونبات الزينة، ونبات الأخشاب، ونبات الثمار، ونبات العطريات، الله قال:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 99 ")

تصل إلى أنه لا بدّ لهذا الكون من خالق، من هو ؟

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ (40))

الله عزّ وجل أوجدك من عدم، قال:

(ثُمّ رَزَقَكُمْ (40))

الله خلق الكون وفيه عناصر، وصلوا الآن إلى مئة واثني عشر عنصراً أو مئة واثنين، هذه العناصر هي أبسط المواد في الكون، كل هذه العناصر على الحرارة تتمدّد، وعلى البردة تتقلّص، مبدأ ثابت، فكل الأجسام تتمدّد بالحرارة وكلها تنكمش بالبرودة، إلا الماء، إذا رفعت درجته من ثلاثين إلى أربعين يزداد حجمه، برّدته إلى الخمسة والعشرين يتقلّص، وهكذا إلى أن تصل درجة الحرارة إلى زائد أربعة، بقدرة قادر، الآية تنعكس، تحت الأربعة يزداد حجمه، هل تعلم أن هذه الظاهرة لها علاقةٌ بهذه الآية:

(ثُمّ رَزَقَكُمْ (40))

القرآن الكريم فيه عناوين موضوعات:

هل تصدِّق أن الماء لو لم يزدد حجمه حين التبريد تحت الأربع درجات لا يمكن أن يعيش على وجه الأرض شيء ؟ لأن الماء عندما يزداد حجمه تقل كثافته، وعندما تقل كثافته يطفو على سطح الماء، فالمحيطات تتجمّد كلها طبقة عليا، وتحت المحيطات الماء دافئ وفيه حيوانات، في أسماك، لو أن الماء إذا تجّمد قلّ حجمه، فازدادت كثافته، فرسب إلى قاع البحر، بعد سنوات عدّة تصبح البحار كلها بحاراً متجمِّدةً، ينعدم التبخُّر، ينعدم السحاب، تنعدم الأمطار، يموت النبات، يموت الحيوان، يموت الإنسان، هذه الخاصّة، لذلك تسأل في إفريقيا مثلاً، منطقة صحراويّة انقطعت عنها الأمطار، فماتت النباتات، تبعتها الحيوانات، هجرها السكّان، ونحن ـ لا سمح الله ولا قدّر ـ كنا قبل أشهر على هذا الطريق، طريق التصحُّر والجفاف، لولا أن منّ الله علينا وأكرمنا وتفضّل علينا بهذه الأمطار التي أيقظت الآمال في المحاصيل وفي الينابيع، أبداً، فإذاً لو أن الماء يصغر حجمه كلّما برّدته إلى ما لا نهاية، لانعدمت الحياة من على سطح الأرض وانتهى كل شيء إذاً:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَكُمْ ثُمّ رَزَقَكُمْ (40))

ساق السُحُب، أنزل الأمطار، نبت الكلأ، أكل الحيوان، ازداد وزنه، أكلته أنت، نمت المحاصيل ؛ القمح والشعير وغيرها، نمت الأشجار المثمرة، نمت الخضراوات أكلت، وشربت، وتطهّرت بهذا الماء المبارك، إذاً هذا القرآن فيه عناوين موضوعات:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَكُمْ (40))

أنت في أي صورة ما شاء ركّبك، أي أن الله عزّ وجل جعل الإنسان متوازناً، لو أن جهاز التوازن التهب يختل توازنه، يحتاج إلى كرسي يمشي عليه، أما أنت تقف على قدمين لطيفتين صغيرتين مقبولتين، لولا هذا الجهاز ـ جهاز التوازن ـ لاحتجت إلى قاعدة استناد عرضها سبعين سنتيمتر كالتماثيل، هكذا القاعدة أو أقدام كبيرة جداً، انظر إلى تصميم خلقك، انظر إلى جهاز التوازن، انظر إلى السمع والبصر، انظر الكليتين، انظر الرئتين، انظر القلب، الأوردة، الشرايين، العضلات.

الله خلقك وقدّر لك رزقك لذلك فمستقرٌ ومستودع:

قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَكُمْ ثُمّ رَزَقَكُمْ (40))

يوجد سؤال دقيق جداً هو أن الله عزّ وجل ما قال: هو الذي خلقكم ثمّ يرزقكم ؛ بل إنه قال:

(ثُمّ رَزَقَكُمْ (40))

أي أنه جاء بالفعل الماضي، تقريباً لو أن إنساناً أرسل شخصاً إلى دولة أجنبيّة لمهمّة، دراسة مثلاً، نقول له: أودعنا لك في المصرف الفلاني ـ مع التحفُّظ على جواز هذا العمل شرعاً ـ أودعنا لك ما يكفيك طوال ست سنوات من أجل أن تطمئن، لذلك:

((عبدي لي عليك فريضة ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك))

[ورد في الأثر]

لأنه:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَكُمْ ثُمّ رَزَقَكُمْ (40))

بالفعل الماضي، لمجرّد أنه خلقك قدّر لك رزقك، لذلك فمستقرٌ ومستودع، هذه الدابّة لها مستقر ولها مستودع، أنت مستقر في دمشق، ولك مستودع ماء في المكان الفلاني الله يغذيه، ارتفع منسوب المياه إلى أعلى درجة من دون أن تكون الأمطار الهاطلة في المنطقة كافية لرفع هذه النسبة، قالوا: إذاً لا بدّ من حوضٍ إضافي، اتصل بهذا الحوض لا نعلم عنه شيئاً، فأنت لك مستقر في دمشق، ولك مستودع في

الغوطة، بعض الفواكه والثمار، بعض الخضراوات، وأحياناً يكون لك مستودعات في بلاد بعيدة، تأكل الأرز أحياناً، مستودعك في الصين، فمستقر ومستودع.

رزقك يصل إليك بطريق أو بآخر فاصبر على الحرام يأتيك الحلال:

قال تعالى:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(22)فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ(23))

(سورة الذاريات)

ما دام الله عزّ وجل قد خلقني وخلق مع خلقي رزقي وانتهى الأمر، أفيعقل أن أعصيه من أجل الرزق؟ اصبر على الحرام يأتيك الحلال، اللهمّ اكفنا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، فبشكلٍ أو بآخر هذه التفّاحة على الغصن الرابع على الفرع الثالث في الشجرة السابعة في البستان الفلاني هي لك حينما خُلِقت، خُلقت لك، أنت مستقر في دمشق وهي في هذه القرية، هذه التفاحة تصل إليك ؛ إما شراءً، وإما هديّة، وإما تسوُّلاً، وإما سرقةً، وإما صدقةً، هي لك، لذلك اللهمّ اكفنا بحلالك عن حرامك، لا بدّ من أن يصل هذا الرزق إليك، فإن كنت طاهر النفس جاءك من طريقٍ مشروع، من طريقٍ شريف، من طريقٍ عزيز، وإن لم تكن كذلك جاءك من طريقٍ آخر، لك عنده رزق.

((عبدي لي عليك فريضة ولك عليّ رزق فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطنّ عليكَ الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريّة ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموما))

[ورد في الأثر]

شيئان بيد الله سبحانه وليسا بيد البشر وهما عمرك ورزقك:

قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ (40))

لذلك قيل: " كلمة الحقّ لا تقطع رزقاً ولا تقرّب أجلاً "، لا تخف، شيئان خطيران في حياتك ؛ عمرك ورزقك، هذان الشيئان من أجل أن تطمئن ليسا بيد البشر، وأحياناً ترى أن فلاناً سيقطع عنك رزقك، إذاً تعصي الله من أجل أن يرضى، هذا هو ضعف الإيمان، إذاً أنت لا تعرف الله عزّ وجل، فالذي خلقك هو الذي رزقك وليس سيرزقك، رزقك وانتهى الأمر، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ (40))

أحياناً في بعض الجبال في شرق آسيا، وجدوا جبلاً في قمّته تماماً نبع ماء، وهذا من أغرب الغرائب، في قمّة جبل نبع ماء ! هذا يقتضي أن يكون مستودع هذا النبع في جبلٍ آخر بعيدٍ عنه وأعلى منه، لا يمكن أن ينبع الماء من قمّة جبل إلا إذا كان مستودعه في جبلٍ أعلى منه، فلمّا بحثوا وجدوا أن في هذا الجبل تسكن بعض الحيوانات في هذه القمم العالية، فمن أجل أن لا تُرهَق في النزول والصعود سخّر الله لها هذا النبع في هذا المكان، الله عزّ وجل لا ينسى الوعل، لا ينسى نملة سوداء على صخرةٍ صمّاء في ليلةٍ ظلماء، لا ينساها من الرزق، أينساك أنت ؟ أنت الإنسان المكرّم المخلوق الأول سوف ينساك ؟ تعصيه من أجل الرزق ! لذلك ربنا يمتحنك، يضيّق عليك، يسد عليك كل المنافذ لينظر ماذا تفعل، أتعصيه ؟ فإذا صبرت جاءك الرزق من حيث لا تحتسب:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (3))

(سورة الطلاق)

لا يوجد في الأرض كلها جهةٌ تستطيع أن تدعي أنها تخلُق وترزق وتميت وتحيي:

قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمّ رَزَقَكُمْ ثُمّ يُمِيتُكُمْ ثُمّ يُحْيِيكُمْ (40))

هذه الأفعال بيدِ من ؟ أيّةُ جهةٍ في الأرض بإمكانها أن تدّعي هذه الأفعال مهما علا شأن هذه الجهة، مهما ارتقت، مهما قويت، مهما تحكّمت، مهما سيطرت، هل في الأرض كلها جهة تستطيع أن تدعي أنها تخلُق، وترزق، وتميت، وتحيي ؟ الجواب:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمّ رَزَقَكُمْ ثُمّ يُمِيتُكُمْ ثُمّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ(40))

هؤلاء الذين تدعون من دون الله، هؤلاء الأصنام، هؤلاء الأشخاص الذين تعتقدون أنهم أقوياء، هؤلاء الذين تظنّون أن بيدهم مقدّرات الناس:

(هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ (40))

عندما انحبست أمطار السماء ماذا فعلنا ؟ اجتمعوا، وقرروا، ودرسوا الأمر بشكل بيّن، واتخذوا مقترحات، واتخذوا قراراً بإنزال الأمطار، أين الأمطار ؟ ما في إلا الدعاء، يقول لك: غداً منخفض جوي، ما جاء، غداً توقُّع أمطار، ليس هناك أمطار، غداً هناك منخفض باتجاه القطر، ما في مطر، وبعد هذا قالوا: بإذن الله تعالى، معترفين بعجزهم.

العمر بيد الله عزّ وجل لا يزيد ولا ينقص أبداً:

قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَكُمْ ثُمّ رَزَقَكُمْ ثُمّ يُمِيتُكُمْ ثُمّ يُحْيِيكُمْ (40))

تجد إنساناً له آمال كثيرة، وخلال ثوان صار خبراً، صار أثراً بعد حين، المرحوم فلان، فقد كان البارحة ملء السمع والبصر، قوة شخصيّته، معلوماته، ذكاؤه، منصبه، فأين هو الآن ؟ صار تحت الأرض، الله يميت:

إن الطبيب له علمٌ يُدِلُّ بــه   إن كان للناس في الآجال تأخيرُ

حتّى إذا ما انتهت أيّام رحلته   حـار الطبيب وخانته العقاقيـرُ

***

والله أعرف شخصاً كُتِبَت نعوته، وخرجت من بيتي مع صلاة الفجر، واتجهت إلى مكان توضع فيه النعوات لأرى أين العزاء وكيف الجنازة، لأن غرفته سُلِمت في المستشفى وقال الطبيب: بقي له ساعة فقط، ولا أمل بالشفاء، ونزل أهله اشتروا الثياب المناسبة، وكُتِبَت النعوة، لم أجد النعوة في مكانها في الصباح، بلغني أنه تحسّن قليلاً، وبعد هذا انتعش، ثمّ صح، أما الذي كتب النعوة فهو تحت أطباق الثرى، والذي كُتِبَت له لا يزال حيّاً يُرْزَق، يجب أن تؤمن أن العمر بيد الله عزّ وجل لا يزيد ولا ينقص أبداً:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَكُمْ ثُمّ رَزَقَكُمْ ثُمّ يُمِيتُكُمْ ثُمّ يُحْيِيكُمْ (40))

خَلْقُكَ، ورِزْقُكَ، وحياتك، وموتك بيده، إلى أين تذهبً ؟ من ترضي ؟ تطيع من ؟ علامَ تُعَلِّق الآمال على زيد أو عُبيد ؟ علامَ تتوسّل لفلان ؟ رزقك بيد الله، والعمر بيد الله، والحياة بيد الله، والممات بيد الله، السؤال الدقيق في عندنا استفهام إنكاري:

(هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ (40))

على المؤمن أن يستعد للقاء الله بالاستقامة والطاعة والعمل الصالح:

أنا سأروي قصّة لأنني تأثرت بها جداً، ورويتها لكم كثيراً، مرّة كنت في مدرسة لي دروس فيها، وفجأةً نشأ وقت فراغ لمدة ساعة، ذهبت إلى مدير الثانويّة وجلست عنده قليلاً، حدّثني الحديث التالي، قال لي: والله أنا أرغب في الذهاب إلى الجزائر وأعمل إعارة، قلت له: خير إن شاء الله ؟ قال لي: هناك أقيم أربع أو خمس سنوات ـ بتفصيلات رائعة ـ أربع صيفيات لن آتي إلى سورية، سألته: لماذا ؟ قال لي: أريد أن أرى أوروبا هذه الزيارات العابرة لا تجدي، أريد أن أبقى صيفيّة في فرنسا أتعرّف إلى

معالمها، إلى متنزّهاتها، إلى آثارها، إلى متاحفها، إلى معاملها، والصيفيّة الثانية بإنكلترا، والثالثة بإيطاليا، والرابعة بأسبانيا، قال لي: أقيم أربع أو خمس سنوات ثم أعود إلى بلدي، عندئذٍ أتقاعد من وظيفتي، قلت له: والله شيءٌ جميل، قال لي: افتح محلاً فيه هدايا وتحف، وبعد هذا يكبر أولادي فأضعهم في المحل، وأعمل منه ندوة، أقضي فيه وقتاً ظريفاً، والله عمل لي خطّة لعشرين سنة قادمة، والله الذي لا إله إلا هو في اليوم نفسه، في المساء كنت في مركز المدينة وتوجّهت إلى بيتي مشياً على الأقدام، في الطريق رأيت نعوته معلّقة على الجدار، في اليوم نفسه.

(اللّهُ الّذِي خَلَقَكُمْ ثُمّ رَزَقَكُمْ ثُمّ يُمِيتُكُمْ ثُمّ يُحْيِيكُمْ (40))

من منّا يعرف متى الأجل ؟ كل إنسان في باله عشر سنوات، خمسة عشر، عشرين سنة إلى الأمام، فهو يريد أن يغيّر البيت، يريد أن يغير المعمل، يريد أن يغير المركبة، يريد أن يتزوج، يريد أن يطلق زوجته، يريد فك شركته مع شريكه، هل يعرف هذا الإنسان متى ينتهي أجله ؟ إن كنت لا تعرف فاستعد للموت، استعد للقاء الله بالاستقامة، بالطاعة، بالعمل الصالح.

من فعل شيئاً خلاف منهج الله عز وجل أفسد في الأرض:

قال:

(هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ (40))

هؤلاء الذين تدعون من دون الله هل بإمكانهم أن يفعلوا شيئاً من هذا ؟

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمّا يُشْرِكُونَ (40))

فما أجَلّهُ وما أعظمه من أن يكون له شركاء في الخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، هذه أفعال الله عزّ وجل، هذه أسماء الخالق، الرازق، المحيي، المميت، هذه أسماء أفعاله، كما عندنا أسماء ذاته الحي، وأسماء صفاته الرحمن، ثم يقول الله عزّ وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الّذِي عَمِلُوا لَعَلّهُمْ يَرْجِعُونَ(41))

أول حقيقة في هذه الآية أنه لا يمكن أن يبدو الفساد إلا إذا فعلت شيئاً خلاف منهج الله، لو ألغينا الإنس والجن، هؤلاء المكلّفون المختارون، لو ألغينا من الكون الإنس والجن، تجد أن الكون يعمل بانتظامٍ رائع، لماذا ؟ لأن كل ما سوى الإنسان خاضعٌ لله عزّ وجل.

(ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(11))

(سورة فصلت)

الكون رفض حمل الأمانة فهو مسيرٌ من قِبَل الله عزّ وجل:

كل ما في الكون عدا الإنس والجن:

(لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(6))

(سورة التحريم)

الكون كله ما في معصية عنده، لأنه:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا)

(سورة الأحزاب: من آية " 72 ")

الكون رفض حمل الأمانة إذاً هو مسيرٌ من قِبَل الله عزّ وجل، إذاً ليس له ذنب، لذلك مجتمع الحيوان، مجتمع النبات، مجتمع الجبال، البحار، كلّه يعمل بانتظام، أما الإنس والجن لأنهم مُخَيَّرون ولأنهم حملوا الأمانة فإذا خرجوا في أفعالهم عن منهج الله عزّ وجل ظهر الفساد في الأرض.

استهلكنا النفط استهلاكاً غير طبيعي، استهلاك ترف، فارتفعت نسبة غاز الفحم في الهواء، تخلخلت طبقة الأوزون في الجو، صار الآن في سرطانات جلدية كبيرة جداً في دول أوروبا وأمريكا، هذا بحث التلوُّث، قرأت من فترة كتاباً عن التلوُّث، إذا قرأت هذا الكتاب تجده كله تفسيراً لهذه الآية، تلوث بالأصوات، ضجيج دائم، وهذا الضجيج الدائم يضعف السمع، يقول لك: الطائرة مئة وخمسة وعشرين ديسيبل، والمروحة لها مُعَيَّرة، فسكّان المدن دائماً في ضجيج دائم، والدليل يوم الجمعة أو يوم فيه عطلة رسميّة تجد هدوءاً عجيباً، هذا الهدوء يريح الأعصاب، لو ذهبت إلى قريةٍ من قرى الريف تجد الحياة رائعة جداً، سر روعتها الهدوء، إذاً هناك تلوث صوتي ونحن لا ندري، دائماً أصوات محرّكات المكيف، صوت المروحة، صوت السيارة، الضجيج العام، صوت الناس، المِذياع، المُسَجّلات، الإشارات في الهواء.

من يتحرك خلاف منهج الله عز وجل لابدّ من أن تفسد حياته:

إذاً:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (41))

المياه ملوّثة، قبل كذا عام كان الناس يشربون من نهر يزيد، ماءاً صافياً، الآن نهر يزيد لونه أسود، كل المياه الملوثة تصب فيه، وهذه المياه الملوّثة التي نسقي بها المزروعات هناك رأي فقهي: أنه لا يجوز أكل المزروعات التي تشرب من مياه سوداء لأن بعض آثار التلوث تصل إلى هذه الخضراوات، والهواء ملوّث، اذهب إلى جبل قاسيون، وهذه دمشق من أنقى مدن العالَم، دمشق الآن من أنظف مدن

العالَم بمقياس التلوث، ومع ذلك اذهب إلى جبل قاسيون تجد سحابة فوق دمشق، هذه سحابة تلوُّث، الغازات، والسيارات، والمعامل، وكل شيء يحترق يصدر عنه غاز فحم، هذا التلوُّث رفع درجة الحرارة في العالم كله، هذه الدرجة سبّبت انتقال خطوط المطر، وسبّبت بعض التَصَحُّر والجفاف.

أنتم حينما تتحرّكون خلاف منهج الله عزّ وجل لا بدّ من أن تَفْسُدَ حياتكم، الآن كُلُّ فاكهة والله ليس لها طعم إطلاقاً، ما السر ؟ السبب المخصِّبات الكيماويّة، والهرمونات، هرمون نمو، وهرمون عقد ثمار، ومخصبات، أما بالسماد الطبيعي يصبح للفاكهة طعماً لذيذاً، مكافحة الحشرات غير طبيعي كله بمواد كيماويّة، هذه المواد مع الأمطار تختلط مع التربة، التربة أصبحت حامضيّة، طبعاً أنا لا أدخل في هذه الموضوعات تفصيلياً ولكن لو أن الإنسان قرأ يعرف.

يقول لك: بعض أنواع السرطانات بسبب المواد البلاستيكيّة إذا استعملتها مع مواد حامضة أو حارة، إذ تترسّب بعض الأصبغة في الجسم بشكل تراكمي، وبعض أنواع الشراب التي كلها مواد كيمائية، شربها بشكل مستمر يسبّب أوراماً خبيثة.

الفساد بالمعنى المادي هو اختلال البيئة:

الآن الإيدز مثلاً، بسبب انحراف الأخلاق مرض نقص المناعة في الإنسان، أنا أتكلّم أشياء غير منتظمة لكن هناك تلوُّث أخلاقي سبّب أمراضاً وبيلة، هناك تلوث في الجو سبّب أمراضاً في الرئة، هناك تلوث في الطبقات العليا والتخلخل سبّب سرطانات الجلد، فهذا الفساد بالمعنى المادي هو اختلال البيئة، أي أن الجو ملوّث، الأصوات فوق طاقة الأذن البشريّة، المياه ملوّثة، الخضراوات ليس لها طعم إطلاقاً من هذه الأسمدة الكيماويّة المكثّفة، المظهر رائع جداً أما المخبر سيئ جداً، يقول لك الأجداد: كان الخبز له طعم، له رائحة، أما الآن فهو مثل النشاء، منظره جميل جداً ناصع أبيض لكن ما فيه طعم الخبز الذي يعرفه أجدادنا، حتى الحليب، وحتى البيض الذي يأكله الناس من هذه المداجن ليس له الطعم الأصلي، هذا من ثمار أو من نتائج انحراف الإنسان في تعامله مع الطبيعة، هذا المعنى الأول.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (41))

البحر، إما البحر على حقيقته أو مدن البحر وقرى البحر، وأحياناً ممكن أن نفهم الآية فهماً آخر: فساد العلاقات، فساد الأخلاق، فساد الذمّة، فساد العهد، والإنسان في غير مكانه الطبيعي.

((إذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السّاعَةَ))

[صحيح البخاري: عَنْ " أَبي هُرَيْرَةَ "]

الابن تطاول على أبيه، والأم ليست في المكان الصحيح، المرأة ليست في مكانها الصحيح، إنها في مكانٍ آخر، الزوج معذّب، والزوجة منطلقة، ففي خطأ بالحياة، هذا معنى آخر.

عندنا معنى مادي وهو ما تعانيه الطبيعة بأجوائها، وبتربتها، وبحيواناتها، أخ كريم حدّثني قائلاً: اتُخِذْ قرار بكل دول أوروبا وأمريكا بإيقاف المُفاعلات النووية، لماذا ؟ قال: لأن هذه المفاعلات تنشر حولها دوائر موت، لا نبات، ولا حيوان، ومخلوقات إنسانيّة مشوهّة من الإشعاع الذري، إذاً حتى كهربائنا عن طريق المفاعل النووي لها مشكلة هذا الذي تشير له الآية، حينما يمارس الإنسان حياته وفق هواه، ولا يعبأ بشرع الله عزّ وجل، يضرب بالشرع عرض الحائط، عندئذٍ يدفع الثمن.

فساد البيئة سببه عدم تقيُّدنا بأمر الله عزّ وجل:

كذلك الآن ظهور النساء بشكل فاضح في الطرقات، هذا أيضاً تلويث للأخلاق، تجد الشاب هذا وقت بناء مستقبله، وقت دراسته، وقت انتباهه إلى قيمه، إلى فروسيّته، إلى بطولاته، فهو في أوج الشباب، والبنت في أوج الإغراء، فأصبح هناك تلوث في الأخلاق، أصبح هناك انصراف عن الدين، انصراف عن الإنجازات الطيّبة، فهذه الآية دقيقة جداً:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (41))

لكن هذه الباء باء السببيّة:

(بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاس (41))

ما نعاني من فساد في البيئة بسبب عدم تقيُّدنا بأمر الله عزّ وجل، هذا الحيوان إذا ذبحناه يراق دمه فينقص وزنه، إذاً نعمل له صعقة كهربائيّة فنكسب الوزن، الله عزّ وجل حرّم أكل الدم، لأن كل الأمراض موجودة في الدم، الدم محرّم أكله، فما لم تذبح الذبيحة وفق الشريعة الإسلاميّة بشكل صحيح، ما لم تُزَكّى الذبيحة، ما لم يخرج دمها كلياً ولحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل جعل قلب الذبيحة لا يتحرّك من الدماغ، لو تحرّك من الدماغ لكان أول حركة بالسكين توقف القلب، يبقى الدم في الذبيحة، لا إن القلب له مصدر كهربائي ذاتي، مولِّد ذاتي، نذبح الذبيحة والقلب يضخ، ماذا يفعل القلب ؟ ليضخّ الدم إلى خارج الذبيحة فتصبح نقية حمراء اللون، أو زهرية اللون، حدّثني صديق فقال لي: الذبيحة التي دمها فيها زرقاء اللون كأنها جيفة ؛ أما التي ذُبحَت وفق الشريعة الإسلامية ذات لون زهر، زهر رائع جداً.

تأكل لحماً في علبة، ماذا في هذه العلبة ؟ علبة فيها لحم، هل تعرف من أين أتت ؟ أين ذُبح اللحم ؟ كيف ذُبح ؟ لا تعرف، فيظهر الفساد معنا، أحدهم قال لي: لا يا أستاذ المُعَلّبات الأجنبيّة هذا كله وفق الشريعة الإسلاميّة، قلت له: والدليل، كُتِبَ على علبة سردين " ذُبحَت وفق الشريعة الإسلاميّة "، لكي تعرف أن هذا كله كلام صحيح، على علبة سردين كُتِب ذُبح هذا السمك وفق الشريعة الإسلاميّة، مسكوا

سمكة صغيرة وسمّوا بالله وذبحوها ووضعوها لك في العلبة، الإنسان قبل أن يأكل يجب أن يفهم هل هذا اللحم صحيح أكله ؟ يجوز أكله أم لا يجوز أكله ؟

ظهر الفساد ليس فقط في البر والبحر بل وفي الجو أيضاً:

قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (41))

الفساد الأخلاقي في البر وفي البحر، تجد هذه السفن فيها المسابح، وفيها النوادي الليلية، وفيها الرقص، وفيها الخمر، في السفن في عرض البحر، وهذه السفينة الكبرى ـ التيتانيك ـ التي أغرقها الله عزّ وجل، حينما صُنِعَت قيل في نشرة بيانيّةٍ لها: إنّ القدر لا يستطيع إغراق هذه السفينة، في أول رحلة من رحلاتها من بريطانيا إلى أمريكا غرقت في عرض البحر، قال: فيها من حلي النساء ما يفوق مئات الملايين، أفخر ما في العالَم من أثاث، ومن ثريات، ومن أدوات في هذه السفينة، هذه:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (41))

الآن في الجو يقول لك: لكي يتسلّى الراكب نضع له أفلاماً ليتسلى، قد تكون أفلاماً منحطّة جداً، السفر ثلاثة عشر ساعة، فالفساد أصبح في البر، وفي البحر، وفي الجو، وحتى في الجو ينتقوا المضيفات من أجل إغراء الركّاب، مضيفة بأزهى زينة، بسن الشباب، بثياب فاضحة تجول بين الركاب وتقدّم المشروبات المحرّمة، أين صار الفساد أيضاً ؟ كذلك في الجو، فظهر الفساد في البر والبحر والجو.
المعنى الأساسي: أن الفساد فساد البيئة، أي أن الفواكه بلا طعم، يقول لك: هذا الكيس أنتج مئة كيس، مرّة الله عزّ وجل أذاقنا من هذه الخيرات قبل أربع سنوات على ما أذكر، كيس القمح في الحسكة أعطى سبعين كيساً، مزارع واحد قبض على السعر الواحد ثمن قمحه ثمانية وخمسين مليون ليرة، جاء لنا في هذه السنة ثلاثة ملايين ونصف طن، وكل استهلاك القطر مليون طن، الله عزّ وجل إذا أعطى أدهش.

كلمة فساد كلمة مطلقة تشمل كل انحراف وتفسخ:

الفساد فساد التربة، فساد الإنتاج، فساد الطعم، فساد الريح، فساد الهواء، فساد الماء، توسعها أكثر ؛ فساد العلاقات الاجتماعيّة، فساد الأخلاق، فساد الأفكار، هناك عقائد زائغة كثيرة، أفكاره فاسدة، سلوكه فاسد، أخلاقه فاسدة، كلامه فيه فساد، مزاحه فيه فساد كلمة فساد كلمة مطلقة تشمل كل انحراف، كل تفسُّخ، كل شيء سيّء:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا(41))

الآن مرض الإيدز في أمريكا ـ في أخبار غريبة جداً ـ هذا المرض جعل حياة الناس جحيماً، لأن كل إنسان قد يحمل هذا المرض وهو لا يدري، قد يحمله عشرات السنوات وهو لا يدري، فأي لقاء صار مشبوهاً قد ينتج عنه مرض خطير يودي بحياة الإنسان، فأصبح هناك ذعر، حتى مرّة قرأت أن شرطياً لاحق مجرماً، فقال المجرم له: إيدز، فهرب الشرطي منه:

(وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (41))

من انحرافهم الأخلاقي:

(لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا (41))

المجتمع الغربي مظهره شيء وحقيقته شيءٌ آخر:

مثلاً لا نريد قطع يد السارق، لأنه عمل همجي لا يليق مع الجو الحضاري والعلمي، عمل قاسٍ، ستة عشر مليون سرقة في عام واحد إحصاء قرأته من عشر سنوات أو أكثر، إحصاء فيدرالي، قال: في كل ثلاثين ثانية تُرتكب جريمة قتلٍ أو سرقةٍ أو اغتصاب، فقد أخذوا جرائم القتل والاغتصاب والسرقة، جمعوها وقسّموا على ثواني السنة، السنة كم ثانية ؟ الساعة 60 دقيقة، والدقيقة 60 ثانية، والنهار 24 ساعة، كل ثلاثين ثانية ترتكب جريمة سرقةٍ أو جريمة اغتصابٍ أو جريمة قتلٍ، كذلك هذا فساد اجتماعي، واذهب الآن إلى بلد متقدّم جداً يقول لك: احذر أن تمشي وحيداً في الليل، إذا واجهك إنسان بمسدّس أعطه كل ما معك وأنقذ نفسك، إذا دخلت إلى فندق يقول لك: سلِّم كل شيء تملكه لأول واحد يعترضك حفاظاً على حياتك، فما هذه الحياة إذاً ؟! لا تستطيع أن تقف على الموقف بسيارتك وإلا يكون الباب مغلقاً، بعد المغرب لا يوجد تجوُّل أبداً، هذا شيء واقع جداً في بلاد بمقياس العصر راقية جداً، اختلاط أنساب، زنا محارم، زنا بالأقارب، أمراض وبيلة جنسيّة، لواط، سرقة، هذا الفساد، فتجد أن المجتمع الغربي مظهره شيء وحقيقته شيءٌ آخر، لا حياة زوجيّة، ولا استقرار، لا نظافة بالعلاقات، فهي مبنيّة على الجنس، مبنيّة على ابتزاز الأموال، مبنيّة على القهر، مبنيّة على القسوة.

نحن في مدينةٍ بارك الله لنا فيها، نحن في أرقى بلاد العالم، أنا أقول كلاماً وأعني ما أقول، أنا أقرأ كثيراً، نحن في أرقى بلاد العالم رغم كل متاعبنا، عندنا علاقات أُسَرِيّة طيّبة، عندنا فلان وفلانة أزواج فقط ولا توجد خيانات، الخيانات الزوجيّة، وزنا المحارم ؛ الأب مع ابنته، والأخ مع أخته، هكذا الفساد، فعندما يترك الإنسان الدين يصير أشقى الناس، والانتحار بنسب مرتفعة جداً.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(41))

أنت عليك أن تعود إلى منهج الله عزّ وجل، قال لك: غض بصرك، فغض بصرك فقط، غض البصر يسبّب سعادة زوجيّة، أنت تغض وهي تغض، إذاً يخلق الله بينكما المودّة، قال لك: حرّر كسبك ـ رزقك ـ الله عزّ وجل يبارك لك في هذا الرزق، وتنعم به.

للقضاء على الفساد علينا العودة إلى منهج الله عزّ وجل:

النتيجة أو خلاصة الدرس كله: أي خروجٍ عن منهج الله يسبّب الفساد في الأرض، بأوسع معاني هذه الكلمة ؛ فساد في التربة، فساد في الهواء، في الأمطار ؛ الآن أمطار حامضيّة، أمطار سوداء، تُربة مالحة، حتى فساد في الأنعام، حتى الآن يعطوا الدجاجة هرمون لكي تنمو بأربعين يوماً، تُمنع من النوم، إضاءة شديدة جداً، دائماً متوترة الأعصاب، تأكل باستمرار، في اليوم الأربعين يصير وزنها كيلو، أنت تأكلها وتخاصم الناس، لماذا أنت هكذا ؟ لأن التي أكلتها موتّرة كثيراً، لأنها لم تنم أربعين يوماً، غير هذا هرمون تنمية، هذا الهرمون يتراكم في الإنسان ويسبّب سرطانات، تأخذ هرمونات في العلف، هرمون للنمو، الوضع كله غير طبيعي، فصار الفساد بالمعنى المادي هو أي خروج عن منهج الله عزّ وجل، فالفساد بالحياة، بطعامنا، بشرابنا، بأنعامنا، بمزروعاتنا، بمياهنا.

أوسع قليلاً: ظهر الفساد الأخلاقي ؛ المعاصي، والفجور، والزنا، والخمر في البر والبحر والجو.

(بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا (41))

تجد أرضاً مَحْلاً، إنتاجاً قليلاً، المياه ملوثة، علاقات اجتماعيّة كلها متوتِّرة، يغدو الولد غيظاً، والمطر قيظاً، ويفيض اللئام فيضاً، ويغيض الكرام غيضاً، هذه من علامات قيام الساعة، عقوق الوالدين منتشر جداً، أطفال شاردون، شباب ضائع مثلاً، لأننا تركنا منهج الله عزّ وجل، لا حل إلا أن نعود إلى منهج الله عزّ وجل، أن نعود للمنهج في زواجنا، في كسب مالنا، المرأة في البيت مربية أولاد، والرجل يعمل، وإلا مع تداخل هذه العوامل نحن في مشكلة كبيرة جداً.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (12-14): تفسير الآيات 42-45

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-04-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الثاني عشر من سورة الروم.

أي طريقٍ يفضي إلى الله عزّ وجل هو وسيلة إليه:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42))

(سورة الروم)

أيها الأخوة قالوا: " الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق"، أي أن هناك طرقٌ كثيرةٌ إلى الله، وقد عَبَّرَ الله عنها بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

(سورة المائدة: من آية " 35")

أي طريقٍ يفضي إلى الله عزّ وجل هو وسيلةٌ إليه، من هذه الطرق:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42))

لو تتبعت المستقيم، أو تتبعت المُنحرف، لو تتبعت المُرابي، أو تتبعت من انضبط بأمر الله عزّ وجل، لو تتبعت الخائن، ما مصيره ؟ يمكن أن تستنبط حقائق كثيرة جداً من الحوادث لأن الكون وحده، هذا الكون من خلق الله، والحوادث أفعال الله، والقرآن كلام الله، والعقل مقياسٌ أودعه الله في الإنسان، لا بدّ من تطابقٍ تام بين ما يمليه العقل، وبين ما تمليه الفطرة، وبين ما يمليه الواقع، وبين ما تمليه الأحداث، وبين ما يمليه الخلق، وبين ما يمليه القرآن.

ليس في الأرض من فساد إلا إذا تحرّك الإنسان بغير منهج الله عزّ وجل:

الدين يعبر عن وحدة الوجود، ليس هناك تناقض، ليس هناك تنافر، الفساد في جوهره أساسه أن يَتَحَرّكَ الإنسان حركة اختيارية بغير منهج الله عزّ وجل، فحينما صممت هذه المركبة، في أصل التصميم صممت لتنقلك إلى مكانٍ تحبه أنت وأهلك، أما حينما تتدهور، وتصبح عبئاً على صاحبها، ويصاب أصحابها بالعطب والعطل، فلأنهم أساءوا استخدامها، ليس في الأرض من فساد إلا إذا تحرّك الإنسان بغير منهج الله عزّ وجل، هذا معنى قوله تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ (41))

أنت إذا قرأت في القرآن آيةً، هذه الآية أعطت حكماً، قررت حقيقةً، بيّنت اتجاهاً، دلّت على شيء، حرّمت شيئاً، أحلت شيئاً، وعدت، أوعدت، وضحت، حذرت، أنذرت، أية آية ما الذي يؤكدها ؟ الواقع، أي آية قرآنية تُلقي حكماً، تبين بياناً، تحذر تحذيراً، تعد وعداً، توعِد وعيداً، تقرر حقيقةً، تحَذِّر من شيء، تُرَغِّب في شيء، ما الذي يؤكده كله ؟ الواقع:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا)

(سورة الأنعام: من آية " 11 ")

ابحث، تأمّل، الإنسان عليه أن يتأمل الحوادث، وأن يتفكر في الكون، وأن يتدبّر القرآن، إن تدبرت القرآن أوصلك إلى الله، وإن تأملت الحوادث أوصلتك إلى الله، وإن تأملت في الأكوان أوصلتك إلى الله عزّ وجل، الكون وَحْدَة، وحياتك أيها الإنسان الكريم وَحْدَة، لا يوجد شيء لك، شيء لربك، هذه للدنيا، هذه للآخرة، المؤمن له منهج، يجب أن يكون متوازناً، يجب أن يُعطي كل ذي حقٍ حقه، إن لأهله عليه حقاً، إن لأولاده عليه حقاً، إن لعمله عليه حقاً، إن لإخوانه عليه حقاً، إن لربه عليه حقاً، إن لجسده عليه حقاً، فأعط كل ذي حقٍ حقه، وربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42))

تستطيع من خلال ما يجري معك أن تستنبط حقك:

ربنا عزّ وجل عندما قال:

(وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

(سورة سبأ: من آية " 39 ")

هذه آية ومعناها واضح، ولا تحتاج إلى تفسير، ألم يمر معك أنك أنفقت مبلغاً من المال والله عزّ وجل عوضه عليك أضعافاً مضاعفة ؟! هذا الواقع الذي يؤيّد هذه الآية، يؤكدها، يبرهن عليها، فأنت ما عليك إلا أن تسير في الأرض، انظر إلى المُخْلِص كيف أن الله يتولاه، انظر إلى غير المخلص كيف أن الله يخزيه، انظر لمن جمع مالاً من حلال كيف أن الله ينميه له، انظر إلى من جمع مالاً من حرام كيف أن الله يتلفه، انظر لمن تزوج فتاةً يبتغي بها وجه الله كيف أن الله سبحانه وتعالى يلقي الحب والودّ بينهما، انظر إلى من تزوج فتاة على نيةٍ لا ترضي الله عزّ وجل، كيف أن الله يوقع بينهما العداوة والبغضاء. تستطيع من خلال ما يجري معك، من خلال ما يجري مع أقرب الناس إليك، مع جيرانك، مع إخوانك، مع الأقربين، مع الأبعدين أن تستنبط حقك.

الأمور بخواتيمها حينما نلقى الله عز وجل:

ربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ (42))

هذه الآية فيها إعجاز، لأنه يقال: سار على الأرض، أما سار في الأرض، هذا غير مألوف، نحن نمشي على سطح الأرض، ولكن كشف العلماء أن هذا الغلاف الغازي جُزْءٌ لا يتجزّأ من الأرض، لو انفصل عنها لنشأ في الأرض تيارات من الرياح تزيد سرعتها عن ألفٍ وستمئة كيلو متر في الساعة، ومعنى هذا التيار أنه لا يبقى شيءٌ على وجه الأرض، الأعاصير التي تزيد سرعتها عن مئتي كيلو متر تدمِّر، ثمانمئة كيلو متر لا تبقي ولا تذر، يقال: أكثر من مئتي كيلو متر تدمِّر، فلو أن الرياح على سطح الأرض زادت عن ألفٍ وستمئة كيلو متر، لما بقي على سطح الأرض شيء، إذاً هذا الهواء جزءٌ لا يتجزأ من الأرض، لذلك لم يقل الله عزّ وجل: قل سيروا على الأرض:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ (42))

انظر لكلمة عاقبة، هذه كلمة مهمة جداً، الأمور بخواتيمها، الأمور بالنتائج، الأمور بخريف العُمُر، الأمور حينما نلقى الله عزّ وجل، الأمور حينما نقف بين يدي الله عزّ وجل، فالبطولة أن تعد لهذا اليوم العصيب، لهذا الخريف، لهذه الوقفة، لهذه الساعة، لهذا القبر، هنا البطولة، فهناك أشخاصٌ غافلون، تأتيهم الدنيا فيرقصون، ولا يعلمون أنهم سيبكون:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ (42))

الإنسان لا يخضع بعقله إلا للحقيقة ولا بنفسه إلا للكمال:

هؤلاء الذين عارضوا النبي عليه الصلاة والسلام ما مصيرهم ؟ وهؤلاء الذي نصروه ما مصيرهم ؟ هؤلاء الذين وقفوا مع الحق ماذا كانت عاقبتهم ؟ وهؤلاء الذين عارضوا الحق ماذا كانت عاقبتهم ؟

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ (42))

هذه " من قبل " إذا بني الظرف على الضَم قطع عن الإضافة، أو إذا قطع الظرف عن الإضافة بُنِيَ على الضم، أي على تقدير شيءٍ آخر، أي من قبل ذلك:

(كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42))

لذلك إذا استنبطت الحقائق من الحوادث والعِبَر، وإذا استنبطت المَغْزَى، ما عليك إلا أن تتعظ أي عندما يستعمل إنسان هذه القطعة في مركبته فتتدهور مركبته، وأنت عندك مركبة أخرى، أتستخدم هذه

العجلة من هذا النوع ؟ لا، فالموقف الطبيعي العقلاني، الموقف الذي لابدّ منه أن تستنبط الحقائق وأن تبني عليها مواقفك، لذلك ربنا عزّ وجل:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ (43))

سُمِّيَ الدين ديناً لأن العقل المطلق يدين إليه، لأن النفس البريئة ذات الفطرة العالية تخضع له، الإنسان لا يخضع بعقله إلا للحقيقة، ولا بنفسه إلا للكمال، هكذا فطرته، وهذا عقله، عقله مركبٌ من مبادئ، وفطرته مركبة من قيَم، فالبشر جميعاً يحبون الخير، يحبون الإحسان، يحبون الإنصاف، يحبون العدل، فخذ هذه القاعدة: عقلك لا يخضع إلا للحقيقة، وفطرتك لا تخضع إلا للكمال، فإذا جمع الدين بين الحقيقة والكمال لا بد من أن تخضع له إذا كنت حراً، إن لم تكن لك أهواء، إن لم تكن لك مصالح، إن لم تكن لك مطامح، إن لم تكن لك انحرافات، إن لم تكن لك شهوات تقيم عليها، إن كنت حراً في عقلك وحراً في نفسك تخضع للدين، وما سُمِّيَ الدين ديناً إلا لأن النفس الكريمة الحرة تدين إليه وتخضع إليه.

الإنسان إذا اتجه إلى الدين شعر بإنسانيته:

تأمّل أوامر الله عزّ وجل، تأمل توجيه الله تعالى للأبناء تجاه أمهاتهم وآبائهم، أليس هذا التوجيه سديداً حكيماً يجعل الأسرة متماسكة:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا)

(سورة لقمان: من آية " 15 ")

وقال:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء: من آية " 23 ")

راقب توجيه الله للإنسان في تعامله مع أمه وأبيه، في تعامله مع إخوته، في تعامله مع شركائه، في تعامله مع جيرانه، في تعامله مع من هم دونه، مع من هم فوقه، التوجيه عقلاني، والتوجيه كامل، ندعوك لا إلى شيءٍ ينقضي بالموت، لا إلى جهةٍ أرضيةٍ لها مصالح، ندعوك إلى الله عزّ وجل، إلى خالق السماوات والأرض، وهذا منهجه، ما دام الله عزّ وجل ذا أسماءٍ حسنى وصفاتٍ فضلى، إذاً يجب أن يكون كلامه متوافقاً مع أسمائه الحسنى، حقٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حقيقةٌ لا تشوبها شائبة، قطعيٌ في ثبوته، قطعيٌ في مدلولاته، قطعيٌ في خيره، هكذا:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ (43))

الدين، الإنسان إذا اتجه إلى الدين شعر بقدسيته، شعر أنه مخلوقٌ مكرم، مخلوقٌ أول، شعر أنه خُلِقَ لمهمةٍ عظيمة، الإنسان إذا اتجه إلى الدين شعر بإنسانيته، أما إذا اتجه إلى الدنيا شعر بحيوانيته، ما

الدنيا ؟ طعامٌ، وشرابٌ، ولذائذ، واسترخاءٌ، ونزهةٌ، ومرحٌ، ولعبٌ، وتفاخرٌ، وتكاثرٌ، هذه الدنيا، وهذه تقضي عند الموت، أما إذا اتجهت إلى الله عزّ وجل شعرت أنك مخلوقٌ مكرم، مخلوقٌ أول، هذا معنى الدين، الدين ما يُخْضَعُ له بالضرورة، ما يخضع عقلك له، وما تخضع فطرتك له.

لو ألغيت الدين تصبح حياة الإنسان عبثاً لا جدوى منها:

من دون دين ينشأ عندك مليون سؤال: لماذا فلان قوي وفلان ضعيف ؟ لماذا زيد غني وعمرو فقير ؟ لماذا خالد صحيح وغيره مريض ؟ لماذا فلان وسيم وفلان دميم ؟ ولماذا إنسان مُعَمِّر وهذا مات في السابعة من عمره ؟ لولا أن الله عزّ وجل أنزل هذا القرآن وبين فيه كل شيء لظهرت عندك مشكلاتٌ كثيرة، أسئلة كثيرة جداً، الإنسان فيلسوف بفطرته، فما معنى هذه الحياة ؟ أربعون عاماً كي نسكن في بيت، ونعمل عملاً متواضعاً، ونكسب قوت يومنا، ويأتي ملك الموت في الستين، في الأربعين، في الخمسين، أهكذا الحياة بلا هدف ؟ لو ألغيت الدين تصبح حياة الإنسان عبثاً لا جدوى منها، حياة سخيفة، حياة تافهة، حياة مفتقرة إلى المضمون، شكل بلا مضمون، لذلك ربنا قال:

(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)

(سورة التوبة: من آية " 36 ")

هو الذي يجعلك قيماً، إنسان قيم أي ثمين، الإنسان حياته غالية، وهذا الفكر أعظم شيء خلق في الكون:

((ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، بك أعطي وبك آخذ))

[زوائد عبد الله بن الإمام بسند فيه ضعف: عن "الحسن البصري مرفوعاً "]

هذا الفكر، أيليق بالإنسان أن يستخدمه لأغراض تافهة، لجمع المال فقط، للإيقاع بين الناس، لإضحاك الناس، لدغدغة عواطفهم الخسيسة، للعلو في الأرض، أم أن هذا الفكر أعطاك الله إياه كي تعرفه ؟ فالإنسان إذا عرف الله تقدست نفسه، ومعنى تقدست أي أصبحت كاملة.

(فأقم وجهك) هذه الآية فيها تمثيل:

إذا اتجه الإنسان إلى الدنيا أصبح صغيراً عند الله عزّ وجل، قال:

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ)

(سورة الأنعام: من آية " 124")

قال:

(فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(105))

(سورة الكهف)

وقال:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ (43))

معنى (فأقم وجهك) هذه الآية فيها تمثيل، لو أن الأمر خطير جداً، لو أنك تراقب عداداً سيبنى عليه شيء خطير، إطلاق مركبة مثلاً، وأنت عليك أن تراقب رقم الصفر حتى تضغط الزر، كيف أن العينين تُحَدِّقان في هذا العداد، في هذه الساعة، في هذا المؤشِّر، إذا كان شيء خطير جداً وأنت تراقبه أقم وجهك، أي تسديد النظر، إحكام الوجْهَة إلى شيءٍ دون زيغٍ يميناً ولا شمالاً ـ أقم وجهك ـ فالإنسان إذا تابع أوامر الله عزّ وجل، قرأ القرآن بعنايةٍ بالغة، بتدبرٍ شديد، استنبط الأمر والنهي، طَبَّقَ الأمر، انتهى عن النهي، التعلُّم والتطبيق، هذا يعبر عن اهتمام بالغ، (أقم وجهك للدين) يترجم أن تطلب العلم، وأن تتعلم ما ينبغي أن تتعلمه، وأن تفعل ما ينبغي أن تفعله، لديك هدف كبير جداً يدفعك إلى أن تسدد نظرك إلى الدين، فأقم وجهك، ووجه الإنسان ذاته، فلان يبتغي بهذا وجه الله، أي يبتغي ذات الله.

الإنسان العاقل لا يصل فجأةً إلى يومٍ مع الله لا مرد له:

قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ (43))

الحقيقة الإنسان بحياته في مواقف كثيرة، لو أخطأ بإمكانه تلافي خطأه، اشترى هذا المحل التجاري موقعه غير مناسب، من الممكن أن يبيعه ويشتري محلاً آخر، حتى لو تزوج امرأةً وشعر أن الحياة معها مستحيلة، يطلقها، حتى لو أنه أقام في مكانٍ وشعر أن هذا البلد لا يرتاح له، يسافر منه، هناك أشياء كثيرة رغم أنها مصيرية وأساسية في حياة الإنسان لكن يمكن تغييرها، أما إذا وصل إلى الدار الآخرة ولم يكن مؤمناً في الدنيا، ولم يكن عمله صالحاً، هذا اليوم لا مَرَدّ له، معنى مرد هذا مصدر، مصدر ميمي، رد يَرُدُّ رداً ومَرَدّاً، أي أن هذا اليوم لا يُرَد، لا يُدفع، لا يتلافى خطره.

كإنسان ارتكب جريمة، وحوكم، والحكم صدر بإعدامه، والحكم صُدِّق، وسيق للتنفيذ، فالآن لا توجد وسائط، يترجى، يتوسّل، يقدم اعتذار، يقدم مذكرة إلى القاضي، يبيّن، يوضح، انتهى الأمر، هذا اليوم حينما يصعد الرجل ليشنق لا مرد له، فهذا من باب التقريب، والإنسان العاقل لا يصل فجأةً إلى يومٍ مع الله لا مرد له، هذا اليوم الذي لا مرد له هو يوم القيامة، أو ساعة الموت.

العلم لا يعطيك بعضه إلا إذ أعطيته كُلّكَ:

قال تعالى:

(رَبِّ ارْجِعُون(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

ويتابع قائلاً سبحانه:

(كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(100))

(سورة المؤمنون)

يمكن أن يكون هذا اليوم عند الموت، أو عند البعث والنشور، على كلٍ صفة هذا اليوم أنه لا مرد له، لا تستطيع جهة في الأرض أن تدفعه، ولا أن تؤخره، ولا أن تُعَطِّلَهُ، ولا أن تنجّيك منه، فكأن الله عزّ وجل يقول: إن لم تفعلوا فسوف تندمون، فسوف يأتي يومٌ لا ينفع فيه الندم، فسوف يأتي يومٌ لا مَفَرٌ لك منه، للخلاص منه، لا مندوحة عن أن تدفع الثمن الباهظ:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ (43))

أي وجهك، يجب أن تعطي الدين كُلّك، هذا الذي يعطي الدين بعضه ؛ يصلي ركعتين، ويدفع ليرتين، ويظن أن الأمر قد انتهى، نريد اهتمامك، نريد وقتك، نريد طاقتك، نريد عقلك، نريد عضلاتك، نريد مالك، هكذا أقم وجهك للدين، كما قال الإمام الغزالي: **" العلم لا يعطيك بعضه إلا إذ أعطيته كُلّكَ، فإذا أعطيته بعضك لا يعطيك شيئاً "**، أي أن كل طاقته، وذكائه، ووقته، وماله، وعضلاته، وخبراته، ومكانته للدنيا، وله في هذا الأسبوع كُلِّهِ ساعةٌ يحضر بها خطبة الجمعة فقط، يرتدي ثيابه، ويأتي، ويستمع، ويعود، أما هو لا يتغير على مخالفاته ومعاصيه، ماذا أعطيت الدين ؟ لا بد من حضور مجالس العلم، لا بد من معرفة منهج الله عزّ وجل، لا بد من أن تكون وَقّافاً عند كتاب الله، هذا الذي يفعل ما يخطر له هذا إنسان ضائع، سيدنا عمر كان وقّافاً عند كلام الله، هذا الموقف يرضي الله أم لا يرضي الله.

لن تقف في وجه الشهوات إلا قناعات كبرى:

قلت مرةً أن الله عزّ وجل أودع في الإنسان بعض الشهوات، هذه قوى، قوى محركة، لن تستطيع قناعاتٌ طفيفةٌ، بعض خطبٍ حضرتها في حياتك، بعض دروس الدين استمعت إليها من أستاذك في المدرسة، هذه القناعات الخفيفة الباهتة، هذه القناعات، هذه المعلومات الضئيلة، هذه النُتَف اليسيرة لن تستطيع أن تقف في وجه الشهوات، أما لن تقف في وجه الشهوات إلا قناعاتٌ كبرى، فلو أن إنساناً لم يطلب العلم، ولكن من خلال بعض الخُطَب وبعض الدروس عنده فكرة باهتة عن الدين، هذه الفكرة

الباهتة، الفكرة اليسيرة لا تقف أمام شهواته، أمام امرأةٍ تخطر في الطريق أمامه، كيف يغضُّ بصره عنها، يملأ منها عينيه، هذا المال الذي يتراقص أمامه كيف يتركه في سبيل الله ؟ يأكله بفمه ويديه ورجليه، هذه الشهوات التي أودعها الله في الإنسان، لا تستطيع معلوماتٌ طفيفة، ولا دروسٌ قليلة، ولا قناعاتٌ يسيرة أن تقف في وجهها، لو أن لها وزناً كما لو قيل، إذا كان وزن شهواتك كبيراً، قناعات قليلة لا تكفي كي تنضبط، لا بد من درسٍ بعد درسٍ، وخطبةٍ بعد خطبة، ولقاءٍ بعد لقاءٍ، وسؤالٍ بعد سؤال، واستيضاحٍ بعد استيضاحٍ، وتساؤلٍ بعد تساؤلٍ، وبحث بعد بحث، وقراءة بعد قراءة، لا بد من أن تقرأ القرآن كله، وأن تقف عند حلاله وحرامه، لا بد من أن تتأكد لماذا أنت في الدنيا ؟ ماذا بعد الموت ؟ كلما نَمَت قناعاتك عندئذٍ تقول: لا أفعل، أول مرةٍ تقول: لا أفعل خوفاً من الله عزّ وجل، معنى ذلك بدأت قناعاتك تكافئ شهواتك، أما إذا كانت قناعاتك تزيد عن شهواتك بآلاف الأضعاف، تقف موقف سحرة فرعون، قال:

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ(49))

(سورة الشعراء)

والآية معروفة ردوا عليه قال:

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه)

المؤمن يجهد أن لا يبقى على الحرف بل يبقى في الأعماق:

الخلاصة إن كانت شهواتك أقوى من قناعاتك فالإنسان لا بد من أن يعصي الله، وإذا كانت قناعاتك تكافئ شهواتك تقع في الصراع المرير، أما إذا كانت قناعاتك أكبر بكثير مما عندك من شهوات تقف مواقف بطولية بلا صراع، بلا مُكابدة، بلا تَمَزُّق، هذا الحق، ربنا لم يقل عن النبي الكريم: وإنه ذو خلقٍ عظيم، لا، بل قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

أي متملك لناصية نفسه، أي أنه إذا وقف موقفاً حليماً، ليس عن صراعٍ، وعن سؤالٍ وجواب، وعن أخذٍ ورد، لا، النبي عليه الصلاة والسلام متمكن من أخلاقه، لأن قناعاته وقربه من الله وكماله شديد جداً، فأي شيءٍ مهما استفزّه لا يخرجه عن حلمه، ينبغي أن تكون في الأعماق، فلو وقف إنسان على

ساحل على البحر وجاءت موجةٌ عاتية ترديه في البحر، فإذا كان أبعد قليلاً احتمال أن تأتي موجة وتأخذه إلى البحر أقل، كلما اقترب في الأعماق كان في مأمَن، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ)

(سورة الحج: من آية " 11")

المؤمن ليجهد أن لا يبقى على الطرف، على الحرف، على موطن خطر، أن يبقى في الأعماق.

على الإنسان أن يحاسب نفسه عن كل صغيرة وكبيرة:

أضرب مثلاً: تكون المعاصي على شكل كرات، هذه الكرات تكبر كلما كبرت المعصية، وازداد إثم صاحبها، وتكون ذا ضرر أكبر إذا كان حجمها أكبر، طبعاً أن ينظر الإنسان إلى امرأةٍ لا تحل له هذه معصية، الزنا أيضاً معصية، ولكن هذا شيء وهذه شيء، ويمكن أن نشبّه استقامة الإنسان بالمُنْخُل، فكلما صغرت ثقوب هذا المنخل ـ إن صح التعبير ـ كلما حجز أكبر عدد من المعاصي، وكلما كبرت هذه العين سَرِّبَ المعاصي، هناك منخل ينخل الدقيق عن السميد مثلاً ـ ناعم جداً ـ إلى أن يحاسب الإنسان نفسه عن كل صغيرةٍ وكبيرة، فلذلك عودة إلى الآية الكريمة:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ (43))

هذا الطريق المسدود، هذا الموقف الصعب:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8))

(سورة المدثر)

الإنسان أحياناً الله عزّ وجل يتوفاه وعنده خمسة أو ستة أولاد، فأحدهم يذهب إلى المقبرة ليشتري قبراً، والثاني يحضر صانع القهوة، والثالث إلى مكتب دفن الموتى، والرابع إلى المطعم لإحضار الطعام، فهكذا العادة، أما خلاف السنة، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اصْنَعُوا لآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا فَقَدْ أَتَاهُمْ مَا يَشْغَلُهُمْ أَوْ أَمْرٌ يَشْغَلُهُمْ))

[سنن ابن ماجه: عَنْ " عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ "]

السُّنة أن يقدّم الطعام لأهل الميت، لا أن يصنعه أهل الميت وهم في مصابهم، على كلٍ حينما يبدأ حفار القبر بحفر القبر نتذكر أنه كان في بيتٍ فخم، وكان في عزٍ وسلطان، وكان في نعمةٍ فارهةٍ، وكان ذو شأن كبير، وكان يأكل ما لذ وطاب، وينام على أفخر الأسرّة، ويلتقي بأحب الناس إليه، له زوجةٌ تروق له، وله أولاد، وله أموال.

الإنسان إذا دخل في جماعة له ميزات هذه الميزات يفقدها كلها عند الموت:

قال تعالى:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8))

(سورة المدثر)

سينتقل من هذه الجنات والعيون، من هذه النِعَم إلى حفرةٍ صغيرة:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ(8)فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(10))

(سورة المدثر)

البطولة أن نسعى لهذا اليوم فلن يدافع عنا أحد، أما في الدنيا نقول: فلان منا، فلان من جماعتنا، هناك من يدافع عنه، من يدفع له الكفالة، ويخرج بسند كفالة، من يتوسّط له، حياتنا الدنيا قائمة على التجَمُّعات، تجمعات منوّعة، فالإنسان إذا دخل في جماعة له ميزات، فهذه الميزات يفقدها كلها عند الموت:

(يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43))

يتفرقون، ليس هناك أنساب، ولا عشائر، ولا قبائل، ولا جماعات، ولا تكتُّلات، ولا تجمُّعات:

(يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43))

إذا انطلق الإنسان من حبّ ذاته عليه أن يعمل الصالحات:

الآن يقول الله عزّ وجل:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

انظر إلى كلمة (على)، على تعني الفوقية، تصور إنساناً يضع أثقالاً فوقه، هذه الأثقال سوف تضغط عليه، كل أعماله السيئة عليه، كأنها أوزان موضوعةٌ فوق رأسه، لو إنسان سيهبط عليه طبقٌ من حديد، فكلما ملأه بالأثقال سيدفع الثمن هو، لو بقي طبقاً من دون وزن بإمكانه أن يدفعه، بإمكانه أن يوقف نزوله عليه، أما إذا ملأه أثقالاً:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

أي أن أوزار كفره عليه، تبعات كفره عليه، مسؤولية كفره عليه، العذابات عليه، الآثار السيّئَة عليه، لو أن إنساناً أغوى فتاة، وهذه الفتاة انقلبت من فتاةٍ شريفةٍ طاهرةٍ يمكن أن تكون زوجة صالحةً، أماً رؤوماً ؛ إلى فتاةٍ ساقطةٍ، وأنجبت فتياتٍ ساقطات، هذه الفتيات إلى يوم القيامة وزرُها وإثمها على عاتق من أفسد الأولى.

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

أي أن إثم كفره عليه، وزر كفره عليه، أثقال كفره عليه، تبعات كفره عليه، عذابات كفره عليه:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

أي أن من عمل صالحاً فلنفسه، هذه اللام لام التملّك، هو يعمل لنفسه، فالإنسان لو أنه يحب ذاته إذا انطلق من حب ذاته عليه أن يعمل الصالحات، إذا انطلق من حب ذاته، إذا انطلق من حرصه على سلامته، إذا انطلق من حبه لوجوده، إذا انطلق من حبه لسلامة وجوده، إذا انطلق من حبه لاستمرار وجوده، إذا انطلق من حبه لكمال وجوده، هذا شيء بديهي، لا يوجد إنسان إلا ويحب وجوده، ويحب سلامة وجوده.

التصور من خصائص الإنسان:

من يحب أن تتوقف كليتاه عن العمل ؟ لا أحد، لا والله، من يحب أن يصاب قلبه ؟ من يحب أن يصاب جسمه ؟ أن يفقد سمعه ؟ أن يفقد بصره ؟ أن يكون فقيراً ؟ أن يكون ذليلاً ؟ أن يكون مقهوراً ؟ أن يكون شريداً ضائعاً مهاناً، من يحب ؟ ما من واحد منا ومن غيرنا ومن أهل الأرض إلا ويحب السلامة، ويحب البقاء، أن يعمر طويلاً، ويحب كمال وجوده أن يكون غنياً، وأن يكون في بحبوحة، وأن يكون عزيزاً مكرماً معززاً مبجلاً وهكذا.

إذا انطلقت أيها الإنسان من حبك لذاتك، من حبك لسلامتك، من حبك لاستمرارك، من حبك لكمالك، فعليك بطاعة ربك، لأنه:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

المشكلة الفرق بين الحيوان والإنسان أن الحيوان لا يملك التصور، فما هو التصوّر ؟ أن تتصور، أو أن تتخيل شيئاً لم يكن موجوداً، هذا الإنسان يتصور المستقبل، فلماذا الطالب يدرس ؟ لو ربطت حيواناً بشجرة ساعات بل عشرات الساعات لا يمل، لا يحس بالزمن، يعيش لحظته، أما الإنسان يتصور أن هناك امتحان باليوم الخامس من حزيران، وهذا الامتحان سيحدد مصيره، فإذا نجح نال الشهادة العُليا، ربما عُيّن في وظيفة مرموقة، ومكنته هذه الوظيفة من الزواج، من تأثيث بيت، فيدرس، هذا التصوّر يدفعه للدراسة، فالتصور من خصائص الإنسان، فلذلك:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

المؤمن يتصور أن هذه الحياة خطٌّ بيانيٌّ صاعد لذلك لابدّ من طاعة الله عزّ وجل:

هذا الذي يعيش لحظته، يعيش وقته، هذا متخلف عقلياً، هذا عَطّلَ في ذهنه طاقة التصور، عاش شبابه، عاش كهولته، عاش رجولته، عاش حيويّته، عاش نجاحه في التجارة، نجاحه في العمل، عاش مرتبته العالية، عاش سيطرته، لكن لم يعش مستقبله، لم يعش خريف عمره، لم يعش حينما تضعف قواه، لم يعش حينما يُنَحّى عن وظيفته، حينما يفقد ماله، حينما يأتيه ملك الموت، حينما يصاب بالعطب والعطل، ما عاش هذه المعاني، أما المؤمن يتصور أن هذه الحياة خطٌّ بيانيٌّ صاعد، فمن أجل أن أجعله صاعداً صعوداً مستمراً لا بد من طاعة الله عزّ وجل، فإن لم أطع الله عزّ وجل، لا بد لهذا الخط البياني من أن يتحوّل نحو النزول، ثم:

(يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا)

(سورة الحج: من آية " 5 ")

شخص مرموق المكانة، بالعهود السابقة ـ بالعهد العثماني ـ احتل أرفع المناصب، خرج من بيته ولم يعد، اتصلت زوجته برجال الشرطة، عثر عليه في بعض أحياء دمشق، ضل بيته، لم يعرف بيته.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا)

(سورة الحج: من آية " 5 ")

الذي له أقرباء تقدموا بالسن، ولم يكن شبابهم في طاعة الله، لهم حال يرثى له، خرج من بؤرة الاهتمام، أصبح على هامش الحياة، وجوده ثقيل، كلامه ممل، ظلّه ثقيل، يتمنى أقرب الناس إليه موته، ثم يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ.

الذين سخّروا كل طاقتهم في سبيل الله هؤلاء في شبابٍ دائم تكريماً لهم:

تتبع حياة مؤمن، حياة إنسان عرف الله، من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، هذا في شباب دائم، والواقع يؤكد ذلك، هؤلاء الذين عرفوا الله، الذين حفظوا القرآن، الذين دعوا إلى الله عزّ وجل، الذين سخّروا كل طاقتهم في سبيل الله، هؤلاء في شبابٍ دائم تكريماً لهم:

((ولا يعذب الله قلباً وعى القرآن))

[الدارمي وابن أبي شيبة: عن " أبي أمامة "]

إذا أنت في شبابك، في وقت الحيوية والنشاط، وقت الانطلاق، وقت الطاقات، كلها ضبطتها في سبيل الله، أينساك الله في خريف العمر ؟! والله في قصص كثيرة جداً أكثر من أن تحصى عن أناسٍ عرفوا الله عزّ وجل في شبابهم، فمتعهم الله بقواهم العقلية، والجسمية، والاجتماعية، والنفسية إلى أن توَفّاهم الله عزّ وجل، لذلك:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

إذا الإنسان عنده مركبة، والزجاج الأمامي مرتفع الثمن، وجاء بمطرقة وكسره فهو بهذا العمل يكون قد غاظ من ؟ كسر زجاج مركبته، يكون انتقم مِن مَن ؟

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

افعل ما تحب، زجاج، وغالي الثمن، هذا وإن وجد، فهل لإنسان عاقل له مركبته التي يحرص عليها، والتي تقدم له خدمات عظيمة، أن يمسك بالمطرقة ويكسر زجاجها الأمامي باختياره، ثم يقول: أنا شفيت حقدتي، بمن شيت حقدك ؟!!

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

على المؤمن أن يحتكم للحق لا للقضاء:

أخطاء الإنسان، ماله الحرام، تجاوزه، عدوانه، استعلاؤه، تخطيه لحقوق الآخرين، كبره، عليه كفره، الكبر معه إهانة، والإسراف معه فقر، والعز بالباطل معه ذل بالحق، والعدوان تجد عدوان مقابله، تضييع الحقوق، هناك من يضيع حقوقك، هذه الآية دقيقة جداً:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا (44))

كان متواضعاً، كان منصفاً، كان محسناً، أخذ ما له، ترك ما ليس له، اعترف بالحق من دون شهود، احتكم للحق لا للقضاء، إذا كان الحق ثابتاً لا يحتاج إلى قضاء، لا تحتاج إلى قاض، فما دام الحق ثابتاً ادفع الحق من دون دعوى، من دون محامٍ، هذا المؤمن، يراقب الواحد الديان، يطوف واحد في الكعبة، قال له: " يا رب اغفر لي ذنبي ولا أظنُّك تفعل "، أي لن تغفر لي، يسير وراءه رجل قال له: " يا هذا ما أشد يأسك من رحمة الله ؟! " لماذا أنت يائس ؟ قال له: " ذنبي عظيم "، قال له: " ما ذنبك ؟ قال: " دخلت إلى بيت معتدياً، رأيت فيه رجلاً فقتلته، رأيت امرأةً مع ولدين فقلت للمرأة: أعطني كل ما عندكِ، أعطتني دنانير ذهبية، فقتلت ولدها الأول، فلما رأتني جاداً في قتل الثاني أعطتني درعاً مُذْهَبَة، طُلِيَت بماء الذهب، ثمينة جداً، أعجبتني، بدأ يتأمّلها ويتفَحّصُها فإذا عليها بيتان من الشعر:

إذا جار الأمير وحاجباه وقاضي الأرض أسرف في القضاء

فويل ثم ويلٌ ثم ويلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماء

***

لو واحد له عمل بإمكانه أن يؤذي الناس، ومسموح له ذلك، يمكِّنه من إيقاع الأذى بالآخرين، فليعد للمليون قبل أن يوقع الأذى بالآخرين، لأن هؤلاء الآخرين لهم رب، وسوف ينتقم منه، هيئ لله جواباً

دائماً، حتى في علاقتك مع أهلك قبل أن تُطلِّقها ظلماً، هيئ لربك جواباً عن هذا الطلاق، قبل أن توقع الأذى بفلان، هيئ لله جواباً.

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

العقاب والجزاء في الدنيا عقاب عينات:

الآية الأخيرة:

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45))

الحقيقة أن هذه الدنيا دار ابتلاء والآخرة دار جزاء، هذه الدنيا دار عمل والآخرة دار تشريف، هذه الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، فربما ربنا عزّ وجل في الدنيا كافأ بعض المحسنين تشجيعاً لنا، وربما عاقب بعض المسيئين تحذيراً لنا، فالعقاب والجزاء في الدنيا عقاب عينات، القصد منها التعليم، أما الحساب الدقيق، والجزاء الأوفى الكامل، دفع رصيد الحساب، ربما أعطي المؤمن دفعة على الحساب في الدنيا، أما إعطاء الرصيد يوم القيامة، ربما وجدت مؤمناً مستقيماً على أمر الله ومع ذلك دنياه ضيّقة وخَشِنَة، نقول له: الجزاء يوم القيامة، لكن ربنا عزّ وجل شاءت حكمته أحياناً أن يكافئ المحسن في الدنيا على إحسانه تشجيعاً لبقية المحسنين، وأن يعاقب المسيء على إساءته ردعاً لبقية المسيئين، فهذا الإحسان تعليمي، والعقاب تعليمي وتحذيري، أما الحساب الأخير، والكامل، والأوفى، والرصيد، هذا يوم القيامة، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ(45))

الدين يقوم على رُكنين أساسيين:

لاحظوا دائماً (آمنوا وعملوا الصالحات)، هكذا الدين ؟ الدين علم وعمل، إن ألغيت العلم لم يبق دين، أخلاق بلا صلاة بعد عن الدين، إذا ألغيت العمل لم يبق دين، الدين يقوم على رُكنين أساسيين، العقيدة والسلوك، العلم والعمل، الإيمان والعمل الصالح، فإذا وردت كلمة وعملوا الصالحات وحدها مع الإيمان، معنى ذلك الاستقامة والطاعة والأعمال الصالحة، والإيمان إذا وردت مع الأعمال الصالحة معناها العقيدة، أي أنه تَعَرّف إلى الله، وصَحّت عقيدته، واستقام على أمره، وعمل الصالحات، فهذه الكلمة تأتي في القرآن مئات المرّات ـ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ أي أنهم تعرفوا إلى الله عزّ وجل وأطاعوه، جاءت بشكل آخر:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا أَنَا)

(سورة الأنبياء)

هذه العقيدة:

(فَاعْبُدُونِي(25))

(سورة الأنبياء)

الطاعة في الإسلام وفي الأديان كلها علمٌ وعمل، عقيدةٌ وسلوك، إيمانٌ وعملٌ صالح، كأنهما جناحان للطائر، بجناحٍ واحد يقع الطائر، نما عقله على حساب عمله، نما عملُه على حساب عقله، لا بد من عقلٍ مُدْرِك، ولا بد من سلوكٍ مستقيم.

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (45))

الكافر حركته في الحياة تتناقض مع سرّ وجوده:

الآية الكريمة الشهيرة:

(وَالْعَصْرِ(1)إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة العصر)

وقال:

(مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45))

لأن الكافر حركته في الحياة تتناقض مع سر وجوده، فكما أن الأب لا يحب ابنه الكسول، لأن الأب عالم وطموح ويطمح من ابنه أن يكون مثله في علمه مثلاً، أن يكون له مرتبة عالية، فالله عزّ وجل ـ ولله المثل الأعلى ـ لا يحب الكافر.

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

[من صحيح مسلم: عن " أبي ذر "]

لكن لا يحب الكافرين لأنهم فعلوا شيئاً حرمهم من عطاء الله عزّ وجل، مع أن الله خلقهم ليرحمهم.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِي(56))

(سورة الذاريات)

ليتعرفوا إليه، وليطيعوه، وليسعدوا بقربه.

الذي يعصي ربه يأبى رحمته وجنته وإكرامه:

هذا الذي رفض رحمة الله عزّ وجل، رفض عطاء الله عزّ وجل، رفض أن يسعد إلى الأبد في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، الله لا يحبه، لأنه رفض عطاءه، قال:

((عجب ربكم لقومٍ يقادون إلى الجنة بالسلاسل))

[رواه أحمد والبخاري: عن " ابن مسعود "]

وقال:

((مَنْ أطاعَنِي دَخَلَ الْجَنّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقدْ أبَى))

[صحيح البخاري: عَنْ " أبي هُرَيْرَةَ "]

وقال أيضاً:

((كُلُّ أمّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنّةَ إلا مَنْ أبَى قالُوا يَا رَسُولَ اللّهِ وَمَنْ يَأبَى قالَ مَنْ أطاعَنِي دَخَلَ الْجَنّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقدْ أبَى))

[صحيح البخاري: عَنْ " أبي هُرَيْرَةَ "]

هذا الذي يعصي ربه يأبى رحمته، يأبى جنّتَهُ، يأبى إسعاده، يأبى إكرامه، وهكذا:

(لِيَجْزِيَ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إنّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45))

في الدرس القادم إن شاء الله عودة أخرى للآيات الكونية، كما قلت لكم في مطلع الدرس الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، في طريق النظر في الحوادث مرت معنا:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ (42))

طريق التدبر في القرآن كما نفعل الآن، والطريق الثالث التفكُّر في ملكوت السماوات والأرض، تفكرٌ في الكون، وتأملٌ في الحوادث، وتدبرٌ للقرآن، هذه الطرق كلها إلى الله سالكة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (13-14): تفسير الآيات 44-47

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-04-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم مع الدرس الثالث عشر من سورة الروم.

الهدى يرفعك والكفر يسحقُكَ:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

(سورة الروم)

أيها الأخوة الأكارم الأدوات في اللغة ككلمة على، وحتّى، ومتى، والـ لام، وعن، ومِن، هذه كلّها أدوات، أي كلمات لها معانٍ لا تبدو إلا مع غيرها من الكلمات، فربنا عزّ وجل يقول:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

الكفر عَلَيْهِ أي فوقه، سيسحقه، أما الهُدى والإيمان:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: من آية " 5 ")

الهدى يرفعك ؛ والكفر يسحقُكَ، الكفر عليك ؛ والهدى لك، لذلك ربنا عزّ وجل حينما جاء بكلمة عليه:

(فَعَلَيْهِ (44))

أي كمن يضع في صندوقه المواد الضارّة، والمواد المتفجّرة، والمواد المؤذية، والمواد المُمْرِضَة، فكل شيءٍ يفعله الإنسان سيدفع ثمنه باهظاً.

البشر صنفان إما موصول منضبط محسن أو مقطوع متفلّت مُسيء:

قال تعالى:

(مَنْ كَفَرَ (44))

الكفر ـ كما تعلمون ـ فيه جانب فكري، وجانب نفسي، وجانب سلوكي، الجانب الفكري التكذيب بما جاء به الأنبياء والمرسلون، الجانب النفسي الإعراض عن الله عزّ وجل، الجانب السلوكي التفلّت من منهج الله، الانسياق وراء الشهوات، فالكفر من جهة تكذيب، من جهة إعراض، من جهة انحراف، فيمكن أن نقول: إن البشر صنفان موصول منضبط محسن ؛ مقطوع متفلِّت مُسيء، فلا بدّ أن يكون

المرء أحد رجلين مؤمن بخالق الكون، مؤمن بمنهجه، إذاً منضبط بهذا المنهج، يتقرّب إلى الله بالأعمال الصالحة، إذاً يُقْبِلُ على الله، لأن الطريق مع الله سالكة، كذّب بهذا القرآن، أو بما جاء به الأنبياء، أو بالحق، فلمّا كذّب ليس هناك منهج، إذا آمنت بالله يجب أن تؤمن مع الإيمان بالله بمنهجه، بشرعه، بكتابه، فالذي كفر بالله من باب أولى هو كفر بمنهجه، إذاً متفلِت، له حركة واسعة جداً.

مثلاً طالب في أول حياته منضبط، وقته مُنَظّم، دوامه في المدرسة منظّم، دراسته منظّمة، هذا الطالب مع مرور الأيام يزداد رُقِياً في بنائه النفسي، وبنائه العقلي، وبنائه الشعوري إلى أن يصبح ذا مكانةٍ مرموقةٍ في المجتمع ؛ الطالب الآخر الذي كان متفلِتاً من أي هدف، من أي نظام، كان يفعل ما يشاء، ينتقل من مكان إلى مكان، من بُستان إلى بستان، من رفيق إلى رفيق، من نُزهة إلى نزهة، فيما يبدو هذا متفلِت، هذا حر، الأول مُقَيّد بدوام المدرسة، بوظائفه، بواجباته، بتعليمات والده، هذه القيود رفعته إلى أن أصبح في ذروة المجتمع، بينما هذا التفلّت جعله في أسفل سافلين.

الهدى في خدمتك أما الضلال فهو سجن لك:

النقطة الدقيقة جداً: أنه يبدو لك أن الضال لا قيد يقيّدُهُ لأنه يفعل ما يشاء، يأكل ما يشاء، يذهب إلى أي مكان يشاء، يلتقي مع من يشاء، ينتهك حُرُمَات من يشاء يتمتع بالحريّة ؛ ولكن هذه الحرية في ظاهرها حرية وفي حقيقتها قيد:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38))

(سورة المدثر)

المؤمن منضبط، آمن بالله عزّ وجل، ما دام آمن بالله له منهج، هناك شيء يقول لك الله عزّ وجل: افعله، فأنت كمؤمن ليس لك أن لا تفعله، وهناك شيء آخر أمرك أن لا تفعله، فأنت مقيّد ليس لك أن تفعله، فيبدو لك أن الإيمان فيه قيود، طبعاً في صلوات خمس، وغض بصر، وعدم مصافحة النساء مثلاً، وتحرّ الدخل ؛ هذه شبهة، هذه ربا، هذه علاقة ربويّة، هذه كذب، هذه تدليس، هذه غيبة، هذه نميمة، فيبدو لك أن هناك أوامر دقيقة جداً أنت مُقَيّد بها، لكن هذه القيود ترفعك إلى أن تحتلّ مكانك الصحيح، المخلوق الأول والمكرّم، بينما التفلّت الذي يبدو على شكل حريّة عند بعض الناس، هذا التفلّت يجعلك في قيد المعاصي، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(24))

(سورة سبأ)

الهدى معها (على)، الهدى يرفعك، أنت على الهدى، الهدى في خدمتك ؛ أما الضلال هو سجنٌ لك:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38))

(سورة المدثر)

الكفر هو تفلّت من منهج والمنهج لمصلحتك:

قال تعالى:

(بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ)

(سورة البقرة: من آية" 81 ")

هنا تقريباً الآية لها معنى يقترب من ذاك المعنى:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

كفره فوقه يسحقُهُ، لأن الكفر تبعات، الكفر إنكار حقيقة، فإذا كُشِفَت الحقيقة في وقتٍ لا ينفع فيه كشفُها، لا ينفع فيه الندم، فهناك الندم الأبدي، هناك الخسارة الأبديّة، الكفر تفلّت من منهج، والمنهج لمصلحتك، والمنهج تعليمات الصانع، المنهج تعليمات صيانتك، المنهج وسائل لسعادتك، فلمّا كفر الإنسان بوجود الله، وكفر بمنهجه، فلا يوجد عنده منهج يقيّده فتفلّت، فلمّا تفلّت أساء وأخذ ما ليس له، فاستحقّ العقوبات، إذاً حياته سلسلة من التبعات، والمسؤوليات، والمضايقات، والمعالجات، والجحيم، وفي النهاية شقي إلى أبد الآبدين، هذا معنى قوله تعالى:

(مَنْ كَفَرَ (44))

أنت عندك جانب فكري، يؤمن أو يكفر، وجانب نفسي، يُقْبِل أو يعرض، وجانب سلوكي، ينضبط أو يتفلّت، يحسن أو يسيء، لهذا قال النبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم:

((ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي، ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل))

[الجامع الصغير: عن " أنس "]

الإيمان تصديق وإقبال والتزام والكفر تكذيب وإعراض وتفلّت:

انظر إلى الناس الآن أكثرها بالتمني، كلّما ذكر الإيمان يقول: يا رب اجعلنا مؤمنين، الحمد لله، دعوات، تَنَهُّدَات، تمنيّات، تطلُّعات، ولكن بعيداً عن الاستقامة، بعيداً عن التطبيق:

((ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي))

[الجامع الصغير: عن " أنس "]

يوم الجمعة لباس أبيض وزي إسلامي يضفي عليك الوقار والصلاح والتقى ولكن لا انضباط، ولا وقوف عند كتاب الله، ولا كسب حلال، ولا صدق، ونحن نريد الاستقامة

((ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي))

[الجامع الصغير: عن " أنس "]

نعلِّق مصحفاً في المركبة، ونطلق النظر يميناً وشمالاً نتابع الفتيات في الطريق والمصحف معلّق في المركبة، في مدخل المحل كُتِبْ: **" إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً "** وإذا باع واشترى غش، وكذب، وهناك سعرين، ودجل، فلذلك ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وأقرّه اللسان وصدّقه العمل.

هناك جانب عقلي، وجانب نفسي، وجانب سلوكي، فالإيمان تصديق وإقبال والتزام، والكفر تكذيب وإعراض وتفلّت، التفلّت معه إساءة، فربنا عزّ وجل يقول:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

عَلَيْه، أما:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: من آية " 5 ")

المؤمن فوق الهدى، الهدى في خدمته، المؤمن يرفعه الهدى ليس عبئاً عليه، أما الكفر يضغط عليه ساحقاً.

القرآن إعجازه في إيجازه:

قال تعالى:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا (44))

طبعاً هنا توجد عندنا نقطة في اللغة دقيقة جداً، القرآن الكريم فيه إيجاز، والإيجاز يحتاج إلى توقُّد ذهن، طبعاً المعنى من كفر وعمل سوءاً فعليه كفره، ومن آمن:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

ربنا عزّ وجل قال:

(مَنْ كَفَرَ (44))

لم يذكر وعمل سوءاً، أنت تشتقها من: (من عمل صالحاً) بالمقابل، ولمّا ذكر المؤمنين ما قال: ومن آمن ؛ بل قال:

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا (44))

تشتقُّ آمن من كفر، مقابل آمن كفر، ومقابل عمل صالحاً عمل سوءاً، فالبلاغة في الإيجاز.

من يقرأ القرآن يتوقد ذهنه:

هناك آية أوضح من ذلك:

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ)

(سورة آل عمران: من آية " 13 ")

ما المعنى الدقيق ؟ فئةٌ مؤمنةٌ تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرةٌ تقاتل في سبيل الشيطان، هذا المعنى الكامل، فالقرآن إعجازه في إيجازه، الذي يقرأ القرآن يتوقّد ذهنه:

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ)

(سورة آل عمران: من آية " 13 ")

ما قال: مؤمنة بل قال: فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ، يا ترى هذه الفئة هل مؤمنة ؟ تستنبط أنها مؤمنة من قوله:

(وَأُخْرَى كَافِرَةٌ)

(سورة آل عمران: من آية " 13 ")

إذاً الأولى مؤمنة، ولكن يا ترى الكافرة تقاتل في سبيل من ؟ في سبيل الشيطان ولكن لم يذكر هذا الله عزّ وجل.

الاشتباك في البلاغة:

قال:

(فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ)

(سورة آل عمران: من آية " 13 ")

انظر إلى الإيجاز، لو أن الله عزّ وجل قال: فئة مؤمنةٌ تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرةٌ تقاتل في سبيل الشيطان، كم كلمة ؟ أما عندما جعلك تستنبط المؤمنة من كلمة وفئة كافرة، وجعلك تستنبط تقاتل في سبيل الشيطان من تقاتل في سبيل الله، هذا هو الإيجاز كذلك هنا:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

هذا اسمه في البلاغة الاشتباك، معاني مشتبكة كل معنى يدل عليه معنى مقابل:

(مَنْ كَفَرَ (44))

وعمل سوءاً، من لوازم الكفر أبداً، والدليل:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(1))

(سورة محمد)

لو وجدت كافراً أعماله صحيحة هو منضبط، محسن، متواضع، ليس له أغراض شخصيّة دنيويّة، دائماً منضبط بالكمال، إذاً الإيمان لا حاجة له، التغى الإيمان.

جاء الكفر مفرداً والإيمان جمعاً لأن الإيمان يجمع والكفر يفرّق:

لكن:

(الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ أَضَلّ أَعْمَالَهُمْ(1))

(سورة محمد)

تجد هناك حماقات، انحرافات، تجاوزات، انتهاك للحُرُمات، إنسان ينمو على حساب مجموع، إنسان يجمع أموال طائلة على حساب فقر أُناس كثيرين:

(الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ أَضَلّ أَعْمَالَهُمْ(1))

(سورة محمد)

إذاً:

(مَنْ كَفَرَ (44))

والمعنى المشتق: وعمل سوءاً فعليه كفره وإساءته:

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا (44))

أي ومن آمن وعمل صالحاً:

(فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

بعضهم قال: جاء الكفر مفرداً والإيمان جمعاً، لأن الإيمان يجمع والكفر يفرّق.

لا يجمع إلا الإيمان:

ربنا عزّ وجل قال:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتّى)

(سورة الحشر: من آية " 14 ")

لا يجمع إلا الإيمان، والدليل:

(لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 63 ")

أحياناً الكفار ينفقون أموالهم الطائلة ليصدّوا عن سبيل الله، قال:

(فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: من آية " 36 ")

أنت إذا أنفقت المال بعيداً عن منهج الله، بعيداً عن هدف التأليف بين المؤمنين، إذا أنفقت المال على أناسٍ غير مؤمنين بالله عزّ وجل من أجل أن توفِّق بينهم، من أجل أن تقرِّب بينهم، هذه الأموال الطائلة التي تنفقها لا تزيدهم إلا بعداً وحسداً وبغضاً، والدليل قوله تعالى:

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 63 ")

مجتمع المؤمنين الكامل لا مشكلة فيه لأن كل إنسان يعرف حدوده:

من علامات الإيمان أن المؤمن يهفو قلبه إلى مؤمنٍ في طرف الدنيا، يشعر بالمودّة، والمحبّة، والقرب، بل إن من علامات الإيمان أن يكون أخوك المؤمن الذي في آخر الدنيا أقرب إليك من أخيك النَسَبِيّ وأنت لا تدري، من أخيك الذي من أمِّك وأبيك، هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ))

[صحيح البخاري: عن " السيدة عائشة "]

وقال:

((إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض متوادون وإن بعدت ديارهم وأبدانهم، وإن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض))

[كنز العمال: عن " علي بن أبي طالب"]

أن تقول لمؤمن جاء من بلدٍ آخر: أنت أجنبي، والله هذه جريمة، هذا أجنبي ؟ هو أخوك في الله، ليس بينك وبينه فرقٌ إطلاقاً، هو من جلدتك، من جِبِلّتك، من طينَتِك، أقرب الناس إليك ولو كان قد وِلِدَ في طرف الدنيا الآخر، هذا الإيمان، هذه عظمة الإيمان، الإيمان يجمع ولا يفرّق، الكفر يفرّق، لأن الكفار ليس لهم منهجٌ من خالقهم يسيرون عليه، مناهجهم أرضيّة، والمناهج متضاربة، متناقضة، المصالح متناقضة، لا انضباط ومصالح متناقضة إذاً لا بدّ من عدوان، لا بدّ من أن يأخذ الكافر ما ليس له، فإذا أخذ ما ليس له نشأت العداوة والبغضاء، ونشأت الأزمات، والصراعات، والحروب، وأصبحت الأرض كلّها في شقاءٍ عميم، خالق الكون له منهج، له مبادئ، له أوامر، له نواه، له حدود، له تشريع، فأنت تأخذ ما لك وتدع ما ليس لك، تقف عند حدك، رحم الله عبداً عرف حدّه فوقف عنده، مجتمع المؤمنين الكاملين ليس فيه مشكلة لأن كل إنسان يعرف حدوده:

(فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(65))

(سورة النساء)

كلمة حر كلمة راقية جداً لا تليق إلا بالمؤمن:

الحديث الشريف هو الحكم بيننا، النبي الكريم قال كذا وقال كذا، آية أخرى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من آية " 36 ")

ليس لي اختيار، أنا مخيّر في أن أؤمن أو لا أؤمن، أما إذا آمنت فهناك منهج:

((الإِيمَانُ قَيّدَ الْفَتْكَ لا يَفْتِكُ مُؤْمِن))

[من سنن أبي داود: عن " أبي هريرة "]

يقول لك المؤمن: أنا لا أستطيع أن أفعل هذا، أنا مقيّد بالشرع، والله وسام شرف له، هذا وسام شرف، البطولة أن تكون طليق الإرادة والقوة، وأنت مقيّد بالشرع، بالكمال، بالموقف الأخلاقي، فلذلك إذا شعر الإنسان بنفسه أنه قوي كأن يكون مقتدراً مادياً، قوة عضلية، اجتماعية، نفسية، وشعر أن له خصوم لكن الشرع قيّده، هذا القيْد وسام شرف، عليه أن يرفع رأسه عالياً، يا رب لك الحمد الذي عرّفتني وجعلتني أنضبط بمنهجك أأتمر بأمرك وأنتهي عما عنه نهيت.

لذلك كلمة حر أنا أستكثرها على أهل الدنيا وأقول له: غير منضبط، أقرب لهم من كلمة حر، الحرية تعني ؛ حر التفكير، حر الإرادة، حر ليس تبعاً لأحد، ليس عبداً لتقاليده، لشهواته، كلمة حر كلمة راقية جداً لا تليق إلا بالمؤمن، أما أن تقول لإنسان ليس مؤمناً، متفلتاً من منهج الله عزّ وجل، يفعل ما يحلو له، يتحرّك من دون منهج، أن تقول له: حُر، لا والله، هذه كلمةٌ لا يستحقُّها، ربنا عزّ وجل يقول:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا (44))

كلمة (عمل صالحاً) أي أنه عمل عملاً يصلح أن يعرضه على الله عزّ وجل، إذا وقفت يوم القيامة بين يدي الله عزّ وجل وسألك: كنت معلِّماً وهؤلاء الطلاب ماذا فعلت لهم ؟ ماذا علّمتهم ؟ إلى ماذا وجّهتهم؟ ما القيَم التي رسّختها فيهم ؟ هل أقمت بينهم أمر الله عزّ وجل ؟ هل عدلت بينهم ؟ إذا كنت طبيباً هؤلاء المرضى الذين جاءوك، منحوك ثقتهم، هل أخلصت لهم أم ابتززت أموالهم ؟ هل أوهمتهم أن مرضهم خطير، وأن عليهم أن يأتوك كل أسبوع، أم طمأنتهم وكنت حكيماً ؟ أنت كمحام، كطبيب، كمدرّس، كصاحب متجر، كصاحب معمل، كصاحب مستشفى، ماذا فعلت ؟

اللسان جزء من قوة الإنسان:

كل شيءٍ تفعله سوف تُسأل عنه، والبطل أيها الأخوة هو الذي يُعدُّ لله جواباً صحيحاً، لأن الإنسان جزء من قوّته لسانه، فهناك أشخاص منحرفون جداً ولكن عندهم قوة إقناع عالية جداً، تجده دائماً يبدو لك

وكأنه ملاك من السماء، وهو غارق في إيقاع الأذى بالناس، فإذا حدّثك حدّثكَ بالقيم والفضائل والانضباط والتواضع، هذا قوته في لسانه، بإمكانه أن يخدع بعض الناس إلى أمدٍ طويل، وبإمكانه أن يخدع كل الناس إلى أمدٍ قصير، ولكن يوم القيامة ربنا عزّ وجل يقول:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ)

(سورة يس: من آية " 65 ")

سلاحه سحبناه منه:

(وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(65))

(سورة يس: من آية " 65 ")

لا طليق لسان في الآخرة، يزوِّر الحقائق ويكلمك كلاماً مقنعاً:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ)

البطولة أن تراقب الله عزّ وجل بكلماتك وحركاتك وسكناتك:

الموقف مع الله صعب جداً، فلا طلاقة لسان تفيد ولا حجة تنفع، والدليل النبي عليه الصلاة والسلام سيّد الخلق وحبيب الحق، سيد ولد آدم، المخلوق الأول الذي يوحى إليه قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

الذي بلغ سدرة المنتهى، لو استطعت بذكائك، بقدراتك اللفظيّة، بطلاقة لسانك، بحجّتك، أن تنتزع من فمه الشريف حكماً لمصلحتك وأنت لست على حق، هل تنجو من عذاب الله، إنه قال:

((إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار))

[البخاري: عن "أم سلمة"]

الموقف مع من ؟ مع الله عزّ وجل، مشكلتك مع الله، ألم يقل له: "بعني هذه الشاة وخذ ثمنها "، قال له: " ليست لي "، قال له: " قل لصحابها ماتت ".

الآن يقول له: كن ليناً، ولا تكن صعب المداس، أي اكذب، دلِّس، تجاوز الحدود، لا تدقِّق، لا تشدِّد، لا تتزمّت، قال: " بعني هذه الشاة وخذ ثمنها "، قال له: " ليست لي "، قال له: " قل لصاحبها ماتت "، قال له: " ليست لي "، قال له: " قل له أكلها الذئب ـ يا أخي ـ وخذ ثمنها "، قال له: " والله إنني لفي أشدِّ الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدّقني فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟ ".

هذه مشكلتك، هذا المؤمن:

((الإِيمَانُ قَيّدَ الْفَتْكَ))

[من سنن أبي داود: عن " أبي هريرة "]

بموضع ثقة إن كان طبيباً، إن كان محامياً، إن كان مهندساً، إن كان مدرّساً، الناس يثقون بك، فالبطولة أن تراقب الله عزّ وجل بكلماتك، بحركاتك، بسكناتك.

لن تنجو من عذاب الله إلا إذا كنت في مرضاة الله عزّ وجل:

أيها الأخوة الأكارم الموضوع موضوع مصيري، وليست القضية أنه درس علم حضرناه، والله ممتع وفيه أمثلة جميلة، فيه تفسير عميق ؛ بل القضيّة أخطر من ذلك، القضيّة متعلّقة بمصيرك الأبدي وعلاقتك مع الله فقط، ما دام النبي عليه الصلاة والسلام حكم لك بشيء ولم تكن على حق لا تنجو من عذاب الله، القضيّة لم تنتهِ، لا تنجو إلا إذا كنت كما يريد الله عز وجل، لا تنجو إلا إذا كنت في مرضاة الله عزّ وجل، فلذلك:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (44))

وشيءٌ آخر ـ وإن كان الوقت ضيّقاً ـ لو أتيح لك أن تتتبّع معاملة الله للناس في الدنيا لعرفت الحقيقة، المستقيم مُكَرّم، الطائع لله عزّ وجل معزّز، الله يدافع عنه، يحميه، يكرمه، ينصره، والمنحرف يدفع الثمن باهظاً في الدنيا قبل الآخرة، وإن كان الرصيد في الآخرة، هناك دفعات على الحساب للمؤمن تشجيعاً له، وهناك ضربات على الحساب للكافر ردعاً له، دفعات على الحساب وضربات على الحساب، أما رصيد الضربات يوم القيامة، ورصيد الدفعات يوم القيامة، الحساب التام:

(وَإِنّمَا تُوَفّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: من آية " 185 ")

هذا المعنى لو رأيت إنساناً كافراً منحرفاً يزداد قوّة يزداد شأناً:

(لا يَغُرّنّكَ تَقَلّبُ الّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمّ مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197)لَكِنْ الّذِينَ اتّقَوْا رَبّهُمْ لَهُمْ جَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة آل عمران)

أبواب المعرفة ثلاثة:

قال تعالى:

(وَلا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، ومع ذلك الدنيا على أنها قصيرة ومحدودة مليئة بالعظات والعبر، أنا أعطيك ثلاثة أبواب للمعرفة، أتحب أن ترى الله من خلال الكون ؟ الكون يكفي، أتحب أن ترى الله من خلال أفعاله ؟ تتبّع المستقيم، تتبع المنحرف، تتبع الزاني، تتبع العفيف، تتبع الصادق، تتبع الكاذب، تجد أن الكاذب له معاملة من الله، والصادق له معاملة، أي أن الخيارات كثيرة جداً، وإن شئت أن تعرفه وأن ترى الله من خلال كلامه فدونك القرآن، هذا القرآن باب، والكون باب، وأفعال الله عزّ وجل باب.

الحقيقة الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، من كأس ماء تعرف الله، من ابنك الذي في البيت يلعب أمامك تعرف الله، من رغيف الخبز تعرف الله، من الشمس والقمر تعرف الله، من الليل والنهار تعرف الله، من الزلازل تعرف الله، بلد مستقرّة، أبنية شامخة، ثلاثة عشر طابق، خمسة عشر، عشرين، أربعين، الناس في طمأنينة، ترى بعينك كيف أن بعض البلاد يصبح عاليها سافلها، في دقائق، في ثوانٍ، إذاً نعمة الاستقرار من نعم الله الكبرى، فإن لم تعرفها وأنت مستقر ربّما عرفتها في وقت آخر، إذاً:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

لمؤمن من حبّه لذاته يطيع الله ويستقيم على أمره:

من باب ضرب الأمثلة: إذا كان لديك صندوق في البيت فتحته ووضعت فيه ألف ليرة وقفلته، فتحته مرّة ثانية ووضعت خمسة آلاف، كلّما فتحت هذا الصندوق ألقيت فيه مبلغاً كبيراً، والصندوق لك ومفتاحه معك، فأنت ماذا فعلت ؟ فخدمت من ؟ فعلت معروف مع من ؟ فعلت معروف مع نفسك:

(فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44))

الحقيقة المؤمن يحبُّ ذاته، ومن حبّه لذاته آثر الباقية على الفانية، ولطموحه آثر الباقية على الفانية، المؤمن من حبّه لذاته أطاع الله، من حبّه لذاته استقام على أمره، من حبّه لذاته أنفق الغالي والرخيص والنفس والنفيس، لأنه يعرف مع من هو يتعامل، إنه يتعامل مع جهة القرش بألف، بعشرة آلاف، بمئة ألف، تطعم لقمة لزوجتك تراها يوم القيامة كجبل أُحُد.

إنسان ما إذا أنشأ شركة استثماريّة وأعطى بالمئة أربعين، تجد الناس يذهل عقلهم ويقبلون عليه إقبالاً منقطع النظير، يمكن أن يسحب أموال البلد كلها إذا أعطى أربعين بالمئة، أما ستين أو سبعين تتعطّل كل المصالح، لاجتماع المال عنده، وإذا كان الاستثمار بالمئة مليون وثابتة وليس هناك تفليس بعد ذلك، نصاب بأمراض قلب من وراء الاستثمارات الضخمة، الله عزّ وجل عطاءه لا يقدّر بثمن، فالبطولة أن تعرف مع من تتعامل.

التجارة أن تتاجر مع الله لأن الله يحب أن تربح عليه:

الله عزّ وجل يحبُّ أن تربح عليه، الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10))

(سورة الصف)

تجارة الدنيا مختلفة يقول لك: سنة اشتغلنا، واستقبلنا بضاعة، ودفعنا مصاريف باهظة، ودفعنا ضرائب، فكان الربح بالمئة خمسة عشر، بالمئة ثمانية عشر، بالمئة عشرين، بالمئة خمسة وعشرين، هكذا الدنيا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(11))

(سورة الصف)

هذه التجارة، أن تتاجر مع الله لأن الله يحب أن تربح عليه، إذا التاجر أعطاك ربحاً معقولاً يقول لك: والله بضاعته مجبورة، أي أنه طلعت من عينه، أحب لي أن أربح، هكذا كلام التجار، ربنا عزّ وجل يحب أن تربح عليه، يحب أن تنفق من مالك في سبيله، إنفاقاً استهلاكياً، إنفاق الناس كله استهلاكي ؛ على ترتيب البيوت، على التزيين، على العناية، على الرفاهية، على الطعام، على الشراب، على اللباس، ما ترك شيئاً لآخرته، كل دخله إنفاق استهلاكي، ألا تريد إنفاقاً استثمارياً ؟ اجعل جزءاً من دخلك لله لكي يأتيك أضعاف مضاعفة، هكذا قال سيدنا عمر عندما أمسك بتفّاحة، فقال: **" أكلتها ذهبت أطعمتها بقيت "**. والله شيءٌ رائع: **" أكلتها ذهبت أطعمتها بقيت ".**

على الإنسان أن ينفق المال إما استهلاكياً أو استثمارياً:

أنت إما أن تنفق المال إنفاقا استهلاكياً، وإما أن تنفقه إنفاقاً استثمارياً، والاستثمار غالٍ كثيراً، بالمئة مليون، بالمئة عشرة ملايين، بالمئة مليار، وشيء مضمون وثابت:

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(261))

(سورة البقرة)

وقال:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ(45))

نحن عندنا الآخرة وعندنا الإيمان بالله: آمنت بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وقضائه وقدره خيره وشرّه. من بين هذه الخمس أركان للإيمان يوجد ركنان أساسيان جداً: الإيمان بالله وباليوم الآخر، لو ألغيت الإيمان باليوم الآخر لا معنى للعمل الصالح، كأنك إذا لم تؤمن باليوم الآخر أصبحت الحياة بلا معنى، لأن العمر قصير والمطالب كبير جداً، أما إذا آمنت باليوم الآخر أصبح لهذه الحياة معنى، أصبحت أنت في مدرسة، في مزرعة، أصبحت الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، أصبحت الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء، فهكذا تنظم الحياة.

إذا صحّ إيمانك بالآخرة تحاسب نفسك على كل حركةٍ وسكنةٍ:

الآن المسلم يقول لك: أنا آمنت بالآخرة، ولكن عملياً إيمانه بالدنيا فقط، تجد أنه يحسب حساباً لكل شيء في الدنيا ؛ أما هذه الحياة الأبديّة خارج اهتمامه، والدليل تجد أنه على مشارف الخمسين ولا يصلي، بالخمسينات ماله حرام، نساؤه كاسيات عاريات، ليس له منهج، يقول لك: أنا الحمد لله مؤمن بالله وباليوم الآخر، هذا كلام لا معنى له في الأساس، إذا الإنسان آمن باليوم الآخر تجده في كل حركة وكل سكنة يهيئ جواباً لله عزّ وجل، فهذه الزوجة بهذا الشكل أترضي الله عزّ وجل ؟ كيف ستواجه الله عزّ وجل يوم القيامة ؟ وهذا العمل، هذه تجارة مرفوضة، هذه التجارة مشبوهة لأن البضاعة ممنوعة في الإسلام، هذه الطريقة بالتعامل ممنوعة.

الإيمان بالآخرة إذا صح يقلب حياة الإنسان رأساً على عَقِبْ، إذا صحّ إيمانك بالآخرة تحاسب نفسك على كل حركةٍ وسكنةٍ، وعلى كل نَفَس، لأنك آمنت أن هناك يوم آخر وسوف تسأل عن كل أعمالك، وبعضهم يقول: يا رب كل شيء لا تسألنا عن شيء، هذا كلام خلاف القرآن، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحج)

وقال:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ(115))

(سورة المؤمنون)

وقال:

(أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

هكذا ؟!

الله تعالى يحاسب كل الناس غني وفقير لأنه هو حق:

مثلاً جامعة كلفة الأبنية فيها مئات الملايين، الحدائق، المكتبات، المخابر، لكل خمس طلاب دكتور له رواتب ضخمة، وله معاش تقاعدي، وله مكافآت، وتجلس في الجامعة وبدون امتحان، فقط لأنك دخلت إلى الجامعة أثناء العام الدراسي عدة مرّات، وتحمل على يدك ثوباً أبيض، ماشي أمام رفاقك كالطاووس، وبعد ذلك تمنح دكتوراه، هل هذه جامعة ؟ هناك امتحانات ؛ أسبوعيّة، وشهرية، وسنوية، وفصليّة، وهناك أطروحة، ومؤلّفات، ودكاترة، ودكاترة مشرفين، فجامعة بلا امتحان ! غير معقول. نريد أن نعيّن أطبّاء، كل واحد يصلح أن يكون طبيباً، أم أن الدولة تقول: أين شهادتك المصدّقة ؟ من وزارات عدة:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ(115))

(سورة المؤمنون)

هكذا قوي وضعيف ؟ القوي أكل الضعيف، والحياة انتهت ولم يبقَ شيء، يقول لك: هكذا ترتيبه، يجب أن يحاسب كل الناس، غني وفقير، الغني أنفق المال جزافاً على شهواته الثانويّة، والفقير يتحرّق على لقمة طعام، والحياة انتهت، وانتهى كل شيء ولا يوجد حساب، الغني لا يحاسب والفقير لا يحاسب ؟!

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ(115)فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)

لأنه هو حق.

ندم أهل النار شديد لأنهم خسروا أنفسهم إلى الأبد:

ربنا عزّ وجل قال:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ(45))

معنى هذا ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؛ وليعاقب الذين كفروا وفعلوا السيئات، هذه اللام لام المآل، أو لام العاقبة، قال:

((إن أهل النار ليبكون حتى لو أجريت السفن في دموعهم لجرت، وإنهم ليبكون الدم))

[الجامع الصغير: عن " أبي موسى "]

هذا الندم الشديد لأنه ضيّع نفسه، خسروا أنفسهم، خسروا الأبد، خسروا الجنّة وتمتّعوا بالدنيا، قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ)

(سورة التوبة: من آية " 38 ")

دائماً يعتذر، همّته ضعيفة، يرغب الراحة، يرغب الاستقرار، لا يحب أن يعمل أعمالاً صالحة، لا يحب أن يبذل ماء وجهه لأحد، يريد أن يرتاح، مواعيده، وسهراته، ولقاءاته، وسروره، ونزهاته، وزوجته، وأولاده، وعمله هذا كل شيء في حياته، هذا الذي أحبّ الدنيا واطمأن لها، رضوا بالحياة الدنيا:

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ)

(سورة التوبة: من آية " 38 ")

أدلة من السُّنة الشريفة على أن متاع الحياة الدنيا قليل:

قال:

(مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

قليل، هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط ـ إبرة ـ غرس في البحر من مائه))

[الطبراني: عن " المستورد بن شداد"]

الآن اذهب إلى الساحل السوري، واركب قارباً وأخرج دبوساً وأنزله في البحر، وأخرج محرمة وامسح الدبوس، بماذا رجع هذا الدبوس ؟ هذا المخيط أو الإبرة بماذا رجع ؟ قال:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ))

[من نن الترمذي: عن " سهل بن سعد "]

أدلة من القرآن الكريم على أن متاع الحياة الدنيا قليل:

الآية الثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 24 ")

الآية الثالثة:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء: من آية " 77 ")

يا مساكين (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)، فأحياناً من باب تقريب الأمثال: طعام نفيس جداً، كلف مئات الليرات، يأتي الابن من المدرسة ويأكل طعاماً خشناً جداً، فتقول له أمه: يا بني انتظر، أنا هيّأت لك طعاماً طيّباً، طعاماً نفيساً:

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

الآية الرابعة:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ(60)أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

هكذا ؟!!

أعلى مرتبة ينالها الإنسان في الكون أن يرضى الله عنه:

قال تعالى:

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (45))

ألا تحبّ أن يحبُّك الله عزّ وجل ؟ والله إذا أحبّك إنسان عادي له مرتبة، في ليلتها لا تنام الليل، إذا تصورت صورة معه تضعها في حقيبتك، وكلّما التقيت مع إنسان تقول له: كنت وفلان معاً انظر هذه الصورة، أنت تتمنّى شخص فوق العادي بقليل يكون صديقك تسهر معه أو تتصوّر معه، ألا تحبُّ أن يحبّك خالق الكون ؟ ألا تحب أن يرضى عنك خالق الكون ؟ والله كلمة:

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

(سورة المائدة: من آية " 119 ")

لو نعقل معناها، فأعلى مرتبة ينالها الإنسان في الكون أن يرضى الله عنه، المال يزول، والمراتب تزول، والوجاهات تزول، والمناصب تزول، والبيوت الفاخرة تزول، والمركبات الأنيقة تزول، كله يزول، أما إذا كان الله راضياً عنك هذا لا يزول ؛ بل تسعد به إلى الأبد، فإذا قرأت الآية الكريمة:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

(سورة الفتح: من آية " 18 ")

ألا تشعر برعشة ؟ ألا تشعر أن قلبك خفق.

في العبوديّة لذائذ وسعادات لا يعلمها إلا من ذاقها:

عندما قال سيدنا رسول الله لسيدنا معاذ:

((يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ))

[سنن أبي داود: عن " معاذ بن جبل "]

ألا تتمنّى أن يحبّك رسول الله سيد الخلق ؟ عندما قال النبي الكريم لسيدنا سعد:

((ارْمِ سَعْدٌ فِدَاكَ أبِي وَأمّي))

[أخرجه الشيخان: عن " علي بن أبي طالب "]

ألا تتمنّى أن تكون كسيدنا سعد ؟ وعندما دخل على رسول الله فقال:

((هذا خالي فليرني امرؤ خاله))

[الترمذي: عن " جابر بن عبد الله"]

هذه المراتب العليا أن تكون عند خالق الكون محبوباً:

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما ولّيت عنا لغيرنا

***

الإنسان يبحث عن السرور ويتصور أنه إن سهر بهذا الفندق أو مع الجيران، سيشعر بالسرور، أنت تعرف ما عند الله عزّ وجل، أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني، ترغب في الدنيا والدنيا زائلة:

فلو شــاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما ولـيت عنا لغيرنا

ولـو سمعت أذناك حســن خطابنا خـلعت عنك ثياب العجب و جئتنا

***

والله في العبوديّة لذائذ، هناك سعادات لا يعلمها إلا من ذاقها، الذي ذاق الطعام والشراب، واللذائذ المباحة ـ لم أقل المعاصي المباحة ـ والبيوت الفخمة، والمركبات الفارهة، والعز، والسلطان، والأناقة، واللبس، والسهرات، والنزهات، والاحتفالات، وركوب الطائرات، والسكنى في الفنادق، الذي ذاق هذه الأشياء وذاق طعم القرب يقول لك والله لا توجد نسبة بينهما، حتّى أن أحد العارفين بالله قال: "والله لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف ". والله في نفس المؤمن من سعادة لو وُزّعَ على أهل بلدٍ لكفاهم، ما السعادة ؟ أن تشعر أن خالق الكون يحبك، وأنت غالٍ عليه:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من آية " 48 ")

إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن، أطلق بصرك كما تشاء، ليس لك قيمة عند الله، أما القيمة إذا غضضت البصر، إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن يقول:

((انظروا إلى عبدي، ترك شهوته من أجلي))

[أجه ابن السني الديلمي في مسند الفردوس: عن " طلحة "]

الإيمان مرتبة أخلاقية وجماليّة وعلميّة:

سيدنا يوسف عندما دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال، لو قرّب ما كان سيدنا يوسف، ولكان شخصاً من الأشخاص التافهين الذين مروا بالحياة، لأنه قال:

(مَعَاذَ اللّهِ إِنّهُ رَبّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف: من آية " 23 ")

هل عندك في حياتك موقف كهذا ؟ إن كان متعلِقاً بالنساء ؟ أو متعلِقاً بكسب المال الحرام، تقول: معاذ الله هذا المبلغ لا أخذه لأنه ليس لي، عندك الموقف دائماً معاذ الله ؟ عندك موقف صُلب لا يلين ؟ كنت أقول مرّة في أول خطبة في هذا المسجد، خطبتها عام أربعة وسبعين: أن الإيمان مرتبة أخلاقية، ومرتبة جماليّة، ومرتبة علميّة، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه، مرتبة علميّة، المؤمن عنده علم، ومرتبة أخلاقية ؛ لا تقوى سبائك الذهب اللامعة ولا سياط الجلادين اللاذعة على أن تقوّض إيمانه، موقف.

السحرة قالوا لفرعون:

(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه)

سرّ السعادة تطابق الهدف مع الحركة:

قال أبو سفيان لخبيب بن عدي: " أتحبُ أن يكون محمدٌ مكانك ؟ " خبيب بن عدي صحابي جليل، على وشك أن يموت قتلاً، سأله أبو سفيان فقال له: " يا خبيب أتحبُ أن يكون محمدٌ مكانك ـ ما هو قولك ؟ ـ وأنت معافى "، فانتفض خبيب وقال: " والله ما أحبّ أن أكون في أهلي وولدي ـ مع زوجته وأولاده هذه تمام الحياة ـ وعندي عافية الدنيا ونعيمها ـ ليس العافية فقط، الصحة، بل النعيم أي عنده ورود، وعنده مكيف، وعنده سيارة على الباب، وعنده مشاريع للصيف ـ وعندي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب رسول الله بشوكة ـ ليس مكاني بل بشوكة ـ "، قال أبو سفيان: **" والله ما رأيت أحداً يحب أحداً كحبِّ أصحاب محمدٍ محمداً ".**

هذا هو الإيمان، هل عندك مثل هذه المواقف ؟ أي أن الدنيا كلها تحت قدمك، هذا الإيمان، لا أفعل ورب الكعبة ولو قُطعت إرباً إربا، هل عندك موقف كهذا ؟ هذا الإيمان، ليرة، مئة ليرة، ألف، مئة ألف،

مليون، مئة مليون هي عنده كالصفر، فيها شبهة لا تأخذها بل تقول: معاذ الله، هذا هو الإيمان، لا تقوى سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلادين اللاذعة، على أن تقوّض إيمانهم، هذا الإيمان.

الإيمان مرتبة أخلاقيّة، ومرتبة جماليّة، أي أنه يعيش في سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها، ما هي السعادة؟ تطابق الهدف مع الحركة، افترض أحد الطلاب بعد شهر أو بعد أسبوعين عنده فحص لمادّة مهمّة جداً يتوقّف نجاحه عليها، يتوقف تخرُّجه عليها ـ طب مثلاً ـ وإذا أخذ الشهادة يستطيع فتح عيادة، ويتزوج، فجاء أصدقاؤه وأخذوه نزهة، لماذا هو في هذه النزهة مُنْقبِض ؟ مكان جميل، طعام طيب، مناظر جميلة، أصدقاء محبون، لماذا أنت أيها الإنسان في هذا المكان الجميل مع هؤلاء الأصحاب الأفاضل، ومع هذا الطعام اللذيذ أنت منقبض ؟ لأن هذه الحركة تتناقض مع هدفه.

خذ هذا الطالب وضعه في غرفة قميئة مظلمة، تراه قد قرأ هذا الكتاب المقرّر وفهمه، يشعر براحة، ما هذه الراحة ؟ هي تطابق الهدف مع الحركة، إذا سألتموني عن سر السعادة أقول لكم: إذا تطابق الهدف مع الحركة شعرت بالسعادة، ذهبت إلى فرنسا لعقد صفقة، فلم تجد فندقاً جيداً، ولا مطعماً جيداً بعد الظهر كله مغلق، ولكن قابلت مدير المعمل وأخذت صفقة رابحة جداً، إنك تنسى أن الفندق درجة خامسة، والطعام سيئ جداً، كل شيء تنساه لأن هدفك تحقّق، فلو نمت في فندق جيد، ودخلت مطعماً ولكن البضاعة ما بيعت، وعدّت بخفي حنين فأنت تقيس، فسر السعادة أن تشعر أن حريتك جاءت مطابقة لهدفك.

إذا أردت أن يحبُّك الله فكن تقياً ومستقيماً:

إذاً:

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ(45))

ألا تحب أن يحبك الله عزّ وجل ؟ افتح القرآن، إذا واحد أحب أن يقرأ القرآن يقرؤه كل مرّة بهدف، إذا أردت أن تعرف الله من يحب اقرأ الآيات، إن الله يحب الصادقين قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ يُحِبّ التّوّابِينَ وَيُحِبّ الْمُتَطَهّرِينَ(222))

(سورة البقرة)

وقال:

(فَإِنّ اللّهَ يُحِبّ الْمُتّقِينَ(76))

(سورة آل عمران)

إذا أردت أن يحبُّك الله فكن تقياً، وكن مستقيماً، وكن صادقاً، وكن أخلاقياً، وكن متطهّراً، المحبوبات معروفة، التعامل مع الله تعامل واضح جداً، الله لا يوجد عنده إنسان أفضل من إنسان، هذه حقيقة أساسيّة، قال سيدنا عمر لسيدنا سعد:

" يا سعد لا يغرّنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية ليس بينه وبينهم قرابةٌ إلا طاعتهم له ".

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الروم 030 - الدرس (14-14): تفسير الآيات 46-60

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-05-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة الروم.

أفعال الله عزّ وجل واحدة منها ما هو مادي ومنها ما هو توجيهي:

مما يُلفت النظر في الآيتين وهما:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(46))

(سورة الروم)

ما العلاقة بين هذه الآية، وبين قوله تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(47))

أي أن أفعال الله عزّ وجل واحدة، منها ما هو مادي، ومنها ما هو توجيهي، فكما أن الله سبحانه وتعالى يُرسل الرياح مبشرات بالأمطار، والأمطار إذا هطلت ذاق الناس رحمة الله عزّ وجل، كذلك يُرسل الله المرسلين بالهُدى، فإذا كان المطر حياةً للإنسان، فإن الهدى حياةٌ للقلب، فجوهر الفعل واحدٌ، إن أرسل المطر تحيا به الأجسام، وإن أرسل الرسل بالبينات والهدى تحيا بهم القلوب.

انتهاء الفعل المادي بإحياء الأجسام و انتهاء الفعل المعنوي بإحياء القلوب:

الله عزّ وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 24 ")

عامة الناس يعنون بحياة الجسد ؛ بصحته، بنشاطه، بسلامة أعضائه، بسلامة أجهزته، بسلامة حواسِّه، ولكن غاب عنهم أن النفس هي الخالدة، حياة الجسد مؤقتة وتنتهي بالموت، ولكن النفس هي الباقية، فلأن يُعْنى الإنسان بنفسه ؛ بطهارتها، بسلامتها من العيوب، بطهارتها من الذنوب، باصطباغها بصبغة علام الغيوب، لأن يُعنى الإنسان بنفسه من باب أولى، كلٌ منا إذا شعر أن في أعضائه خللاً بسيطاً بادر إلى الطبيب، لماذا لا نبادر إلى من يطبب قلوبنا ونفوسنا إذا شعرنا أن في نفوسنا خللاً ؟!!

ربنا عزّ وجل حينما جمع الآيتين، أراد من هذا الجمع بين الآيتين أن يبين أن فعل الله واحد، الفعل المادي ينتهي بإحياء الأجسام، والفعل المعنوي ينتهي بإحياء القلوب.

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48))

ماذا تفهم لو أن الله عزّ وجل قال: يُرسل الله الرياح، لو أن لفظ الجلالة جاء بعد الفِعل، يرسل الله الرياح ؟ وماذا تفهم كما قال الله عزّ وجل: (الله الذي يرسل الرياح)، لا شك أن الصيغة القرآنية تفيد القَصر، الله وحده.

الله عزّ وجل واجب الوجود وما سوى الله ممكن الوجود وهناك مستحيل الوجود:

هل عرفت أيها الإنسان من هو الذي يحرك الرياح ؟ هل عرفت أيها الإنسان من هو الذي يسوق السحاب ؟ هل عرفت أيها الإنسان من الذي ينزل المطر فتحيا به الأرض بعد موتها ؟ فهذا كله مستفادٌ من قوله تعالى: (الله)، والله كما تعلمون صاحب الأسماء الحسنى، علمٌ على الذّات، علمٌ على الذات الكاملة، الواجب الوجود، الله عزّ وجل واجب الوجود وما سوى الله ممكن الوجود، وهناك مستحيل الوجود، فما يناقض أسماء الله الحسنى مستحيل الوجود، والله سبحانه وتعالى واجب الوجود، الله علمٌ على الذات، أي اسم الذات.

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا (48))

لذلك الإنسان عندما يعزو هذه الأمطار، وتلك الفيضانات، هذه الرياح، وتلك السحب، وهذه النباتات والأرض المُخْضَرّةَ، إذا عزيت لغير الله عزّ وجل هذا هو الشرك.

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم: أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري؟))

[الجامع الصغير: عن أبي الدرداء]

قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ (48))

الحقيقة أيها الأخوة عندما يذكر ربنا عزّ وجل في القرآن الكريم بعض الآيات الكونية لا شك أن هذه موضوعاتٌ نموذجيةٌ للتفكُّر، الموضوعات المتعلِّقة بالتفكر لا تعد ولا تحصى، فكل ظاهرةٍ في الكون هي في الأصل موضوعٌ صالحٌ للتفكر، ولكن عندما يختار ربنا عزّ وجل لنا من بين مَلايين ملايين الآيات، يختار موضوعاً، فالأولى أن نُعْنَى بهذا الاختيار وأن نفكر فيه، فربنا عزّ وجل يسلك بنا طرائق شتَّى، تارةً يعرفنا بالكون كطريقٍ إليه، وتارةً يعرفنا بالقرآن كطريقٍ إليه، وتارةً يعرفنا بالحوادث

كطريقٍ إليه، وتارةً يُثير فينا التفكير العقلاني ليوصلنا إليه، إذاً الله عزّ وجل يسلك مع الإنسان طرائق شتى، من هذه الطرائق الكون.

تحريك الرياح له فوائد كبيرة جداً:

حينما يختار الله عزّ وجل آيةً من الكون فهذا موضوعٌ نموذجي هو في متناول الناس جميعاً، لعل هناك بعض الموضوعات تحتاج إلى ميكروسكوبات، إلى تلسكوبات، إلى إحصائيّات، إلى ثقافة رفيعة جداً، إلى درجات علمية عالية ليست في متناول جميع الناس، لكن ربنا عزّ وجل حينما يختار هو موضوعاً للتفكر، هذا الموضوع موضوعٌ بين أيدي الناس، كبيرهم وصغيرهم، عالمهم وجاهلهم، مثقفهم وغير مثقفهم، من كان في المدينة ومن كان في الريف قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ (48))

تحرُّك الرياح له قوانين معقدة جداً، الحرارة، فبالحرارة يتمدد الهواء، فإذا تمدد تخلخل، وإذا تخلخل قل الضغط فيه، يقول لك: الضغط منخفض، أي هناك حرارة، الحرارة مددت الهواء فصار الضغط منخفضاً، وفي الأماكن الباردة الهواء منكمش، كثافته عالية لذلك يكون الضغط مرتفع، فالهواء من طبيعته أنه ينتقل من الضغط المرتفع إلى الضغط المنخفض، الضغط المنخفض مخلخل يجذب الهواء، تختلف درجات الحرارة بين المناطق الدافئة والمناطق الباردة، بين سواحل البحار وبين أعماق الصحراء، هذا الاختلاف في درجات الحرارة يحرّك الرياح، وهذا تبسيط بالغ للحركات، حركات الرياح علم قائم بذاته تدرس في الجامعات لسنواتٍ طويلة، ولكن من باب التبسيط، كيف الإنسان أحياناً يبسط المطر، يقول لك: إبريق ضع فيه ماءً إلى أن يغلي، وائتِ بكأسٍ بارد ضعه على فوهة هذا الإبريق، ترى أن بعض قطرات الماء قد تساقطت، هذا تبسيط بالغ للمطر، ومع ذلك لا بأس به، فالله عزّ وجل قال:

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ (48))

تحريك الرياح له فوائد كبيرة جداً ؛ منها تجديد الأجواء، الأجواء تلوث أحياناً، تأتي الرياح فتجدد هذه الأجواء، والرياح تسوق السُحُب، إذا ساق الله السحب من مكانٍ إلى مكان، لو أن السحب تمركزت فوق البحار ماذا نستفيد منها ؟ فالبحر كله ماء، لكن من رحمة الله عزّ وجل أن هذه السحب يسوقها الله سبحانه وتعالى إلى مناطق عطشى، إلى مناطق جدباء، إلى مناطق محتاجةٍ إلى ماء السماء، إلى رحمة الله عزّ وجل.

الفرق بين رؤية المؤمن ورؤية الكافر للأمطار:

السحب يراها كل الناس، والأمطار يراها كل الناس، ولكن فرقٌ كبير بين رؤية المؤمن ورؤية الكافر، المؤمن يرى أن يد الله عزّ وجل، اليدُ الرحيمة، اليد الحكيمة، اليد الرازقة، هي التي تحرك الرياح وتسوق السحاب، فالمؤمن إذا رأى الأمطار تنهمر، تنهمر مع الأمطار دموعه شكراً لله عزّ وجل، هذه الرؤية هي التوحيد، وغير المؤمن يقول: هناك منخفضٌ متمركزٌ فوق المكان الفلاني باتجاه القطر مثلاً، فدائماً يجب أن لا ننسى، يجب أن ننتقل من النعمة إلى المُنعم، من الكون إلى المكوّن، من النظام إلى المنظِّم، من الأسباب إلى المُسَبِّب، هذا هو الإيمان، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا (48))

شيء آخر، من صمم أن الهواء يتحمّل بخار الماء، الهواء يحمل بخار الماء، يقول لك مثلاً: دمشق مستوى الرطوبة 35، لو ذهبت إلى الغوطة مستوى الرطوبة 70، على سواحل البحار مستوى الرطوبة 90، عندنا مقياس حرارة ومقياس رطوبة، معنى الرطوبة أي تحمّل الهواء لبخار الماء، الشيء اللطيف أو الدقيق هو: أن الهواء يحمل بخار الماء بنسبٍ تتوازن مع حرارته، فمتر مكعب من الهواء في الدرجة ثلاثين يحمل خمسة غرامات بخار ماء، لو صارت الدرجة عشرين يتخلى عن غرامين، كل حرارة لها كمية ماء يحملها الهواء، في الجو الحار الهواء يحمل كميات من بخار الماء كبيرة جداً، فإذا ساق الله هذه السحب إلى مناطق باردة، أولا الهواء الشفّاف يحمل بخار الماء، هناك درجة بين الهواء الشفاف وبين الأمطار هي السحب، السحب ذرات من بخار الماء مُنْعَقِدَة في الهواء، فإذا واجهت هذه السحب مناطق باردة تخلت عن كميتها الزائدة، طبعاً هذا أيضاً تبسيط للأمطار.

السحاب علم قائم بذاته وهو من آيات الله الدالة على عظمته:

قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا (48))

السحاب علمٌ قائمٌ بذاته، يوجد سحاب رُكامي، يوجد سحاب خُلَّبَي، يوجد سحاب مُتَقَطِّع، يوجد سحاب مُتَّصل، هذه أيضاً أشكال وأنواع وخصائص وحركات واتجاهات.

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ (48))

هناك مناظر طبيعية للسحب شيءٌ يأخذ بالألباب، ألوان متدرجة، سماكات متدرجة، على كلٍ من يرى السحب وهو في الطائرة المنظر لا يصدق، كأنها جبال، جبال ووديان، قمم مؤنّفة وقمم منكسرة، انحدارات حادة وانحدارات بسيطة، تلال وأكَمَات، وكأن الثلج قد غطّاها، هذا منظر السحاب من فوق

السحاب، نحن نرى السحاب من تحت السحاب، نراه سقفاً، ولكن إذا رأى الإنسان السحاب وهو فوق السحاب ـ في الطائرة ـ يراه كما وصفه الله عزّ وجل كأنه جبال، فكلمة من جبالٍ لا يتذوقها إلا من رأى السحاب من فوق السحاب، فهذا السحاب قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي يُرْسِلُ الرّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السّمَاءِ كَيْفَn يَشَاءُ (48))

أشكال، وأنواع، وكُتَل، ومن منا يصدق أن السحابة الواحدة أحياناً سماكتها تبلغ سبعة كيلو متر، السحابة الواحدة فيها آلاف الأطنان من الماء.

لابدّ من ذراتٍ تنعقد عليها حبات المطر وهذا هو الودق:

ربنا عزّ وجل قال:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرّ السّحَابِ)

(سورة النمل: من آية " 88 ")

لها سرعة، وبلا صوت، وفيها الخيرات، إذاً:

(فَيَبْسُطُهُ فِي السّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا (48))

معنى كسفاً أي قِطَعَاً.

(فَتَرَى الْوَدْقَ (48))

لا بد من ذرات تنعقد عليها حبّات المطر، لا بد من ذرّاتٍ وهي إما الغبار، أو بعض المواد، أو بعض الغازات، لا بد من ذراتٍ تنعقد عليها حبات المطر وهذا هو الودق.

(فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ (48))

الإنسان حتى لو لم يكن مزارعاً ارتباطه بالأمطار ارتباط مصيري:

طبعاً حبات المطر لطيفة، ويتجلّى فيها اسم اللطيف، لو أن حبات المطر أكبر من ذلك لكانت مؤذية، وكلكم يسمع أو يقرأ عن حب العزيز إذا كان بحجمٍ كبير فإنه يؤذي النبات كله، ويؤذي الإنسان والحيوان وحتى الجماد.

(فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(48))

تجد المزارع، والآن أصبح غير المزارع، والمدني، تعلّق الناس بالأمطار تعلّق عام، لو أنك ساكن في بيت وفي أعماق المدينة فأنت مرتبط بالأمطار، لأن أسعار الخضراوات والفواكه لها علاقة بالأمطار، لأن انقطاع المياه عن بيتك له علاقة بالأمطار، عندما بعث الله هذه الموجة من السحب الكثيفة والأمطار

الغزيرة توقف انقطاع المياه في البيوت، يوجد علاقة، فالإنسان حتى لو لم يكن مزارعاً ارتباطه بالأمطار ارتباط مصيري، مرة سمعت صاحب معمل أقمشة يقول لصديقه: هذه السنة بعنا كميات كبيرة من الأقمشة للجزيرة، قال له: ما السبب ؟ قال له: الموسم كان طيباً، انتبهت أنا أن معمل الأقمشة يبيع كميات كبيرة جداً إلى مناطق الجزيرة، قال له: ما السبب، قال له: الأمطار كانت غزيرة، فهذا الرزق من السماء يحرك كل شيء، إذا الأمطار غزيرة، المزارع زرع وحصد، فيشتري، معناها تحركت البلد كلها.

الله عز وجل حرك الأمطار ليكون الناس على اتصالٍ بربهم:

قال تعالى:

(فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (48))

في موضوع المطر ربنا عزّ وجل ثبّت أشياء وحَرّك أشياء، ثبت حركة الأفلاك مثلاً شروق الشمس ثابت، لا يوجد عندنا دعاء للشروق: يا رب الشمس لم تشرق اليوم، يا رب نرجوك أن تساعدنا، الشمس تشرق بشكل ثابت ورتيب، هكذا حكمة الله، ثبّت الشمس والقمر والنجوم والمجرات، حركة الأفلاك ثَبَّتَهَا، أما الأمطار حَرّكَهَا، حركها ليكون الناس على اتصالٍ بربهم:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10)يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12))

(سورة نوح)

تلقي نظرة على بعض البساتين في شهر كانون الأول، ولك أن تُلقي هذه النظرة الأخرى على بعض البساتين في هذه الأيام، يا ترى الأرض كلها قد أنبتت ؟ من كل زوج بهيج، اللون الأخطر نضر، الأزهار فوّاحة، الأرض ارتوت وأنبتت من كل زوج بهيج.

(فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48))

المؤمن لعمق إيمانه يفرح بماء السماء، ولكن يفرح إذا اهتدى إلى صاحب النعمة وهو الله سبحانه وتعالى، فدائماً الإنسان إذا فرح بالدنيا فقط، واكتفى بالدنيا، هناك مشكلة، المشكلة أن الدنيا تنتهي، ففي بعض البلاد الأجنبية الأمطار فيها ألف ميليمتر في السنة، والبلاد كلها خضراء، والغابات كثيفة جداً، والأنهار غزيرة، والينابيع فوّارة، يا ترى لو أن الدنيا جاءت كما نريد ولم نكن في المستوى الذي يريده الله عزّ وجل، هل هذه نعمة ؟ المؤمن الحقيقي يفرح بطاعته لله عزّ وجل، وبعمله الصالح لأن هذا الذي يسعد في الأبد.

المؤمن يعلم أن تقنين الله عزّ وجل لم يكن عن عجزٍ بل كان عن تأديبٍ:

قال تعالى:

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49))

معنى مبلسين أي يائسين، الإنسان لجوج، إذا انحبست أمطار السماء، تجد الناس يقولون: انتهى الأمر، الأنهار جَفّت، دخلنا في التصحُّر، الجفاف عَم، المواسم انتهت، الأشجار سنقطعها، تجد يأسه سريعاً، ودائماً ربنا عزّ وجل يُخَيّبُ آمال أو توقُّعات المتشائمين، هناك أماكن في الغوطة مجاري المياه زرعوها، ظنوا أن القضية انتهت، الأنهار جفّت، ولن تجري بعد اليوم، فلما جاء تفجُّر نبع الفيجة قبل أشهر، وصلت مياه بردى إلى العُتَيْبَة، وعاد إلى ما كان عليه قبل سنواتٍ طويلة، زرعوا أرضه في بعض الأماكن، إذاً:

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49))

أي يائسين، الإنسان سريع اليأس سريع التفاؤل، المؤمن لا يقنط من رحمة الله، أدق فكرة في هذا الموضوع: أن المؤمن يعتقد أن تقنين الله عزّ وجل لم يكن عن عجزٍ ؛ بل كان عن تأديبٍ، لأنه كُن فيكون.

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

(سورة الحجر: من آية " 21 ")

سمعت أن قرية في إيطاليا هطل فيها أمطار في الليلة الواحدة مئتين وخمسين ميليمتر، أي أن أمطار السنة كلها نزلت في ليلة واحدة، ونحن هنا في دمشق في بعض أوقات المطر في ليلة واحدة، في أربع ساعات هطل ستة وستين ميليمتر، في أربع ساعات هطل من السماء ما يوازي أمطار العام الماضي بأكمله، أي أن الأمطار التي هطلت في العام الماضي كله في دمشق نزلت في أربع ساعات، وانتهى الأمر، فلذلك الأمر بيد الله.

المطر رحمة وانحباس المطر نِقْمَة:

لا تنسوا هاتين الآيتين:

(وَلَوْ أَنّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: من آية " 96 ")

قال تعالى:

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16)لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

الآن الأمر الإلهي:

(فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ (50))

المطر رحمة، وانحباس المطر نِقْمَة، وآثار رحمة الله المراعي، أحياناً تمطر السماء على البادية بأرقام قد لا تصدقونها، أرقام فلكية، فنوفر استيراد علف بمئات أو بألوف الملايين، كمية أمطار تهطل على البادية فتنبت العشب، نوفر من خلال هذه الأمطار ألوف الملايين علف مستورد.

(فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (50))

أرض ميتة، أشجار يابسة، غُبار، الجو كله غبار، تأتي الأمطار فتنقي الأجواء، تُنبت الكلأ، تَدِبُّ الحياة في هذه الأشجار، تزهر، تورق، تثمر، الإنسان يأكل، والحيوان يأكل، والكل يشكر.

الماء تحيي الأرض والاتصال بالله عزّ وجل يحيي النفوس البعيدة عن الله:

قال تعالى:

(فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(50))

أتمنى على الأخوة الأكارم أن لا يبتعدوا عن المغزى البعيد لهذه الآيات، أيضاً الإنسان يكون مَيِّتَ القلب، قلبه ميت، نفسه مريضة، مُتشائم، يائس، لا يفعل خيراً إطلاقاً، يتمنى أن يأكل وحده، وأن يعيش وحده، وأن يموت الناس جميعاً، فإذا دخل الإيمان في قلبه صار إنساناً آخر، صار غَيْرِيًّا، صار يحب الآخرين، يحب خلق الله كلهم، صار لقلبه حياة، كما أن الماء تحيي الأرض، كذلك الاتصال بالله عزّ وجل يحي النفوس التي ماتت بالبعد عن الله عزّ وجل قال:

(إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (50))

لكن الرياح التي تبشِّر بالأمطار قد تكون رياحاً عاتية تدمر الحرث والنسل، والأمطار التي ترونها تحيي الأرض بعد موتها قد تكون أمطاراً تسبب فيضانات تدمر قرى بأكملها، فكل شيء بحده المعتدل نعمة، وبحده المفرط نقمة، فالنبي الكريم كان يستعيذ بالله من الريح:

((اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً))

[الطبراني والبيهقي عن ابن عباس]

الريح مدمرة تدمر كل شيء.

(فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ(5)وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ(6)سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(7)فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ(8))

(سورة الحاقة)

الكفر هو التكذيب والإعراض وإيقاع الأذى بالآخرين:

الآن هذه الرياح لو جاءت باردة دون الصفر هذا هو الصقيع، بساتين، مزروعات، مشاريع، أشجار مثمرة، خضراوات، فواكه، كلها تسود وتموت، ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا (51))

رأوا النبات قد مات، اصفر.

(لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51))

انظر إلى إنسان ضعيف المعرفة بالله عزّ وجل، سريعاً ما يستخفّه الفوز، وسريعاً ما يستفزه المصاب، فهناك أشخاص يكفرون بالله لمصيبةٍ ألمّت بهم، معنى ذلك أن إيمانه صفر، علامة المؤمن الصبر، مهما أصابه يقول: يا رب لك الحمد، أما هذا الذي يخرج عن طوره، ويتكلّم بكلماتٍ لا تليق بحضرة الله عزّ وجل بسبب أن مصيبة أصابته، لهو إنسانٌ لا يعرف الله عزّ وجل، قال:

(وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51))

معنى الكفر هو التكذيب، ومعنى الكفر هو الإعراض، ومعنى الكفر هو إيقاع الأذى بالآخرين، فالإنسان حينما يرى أن الله عزّ وجل ما أكرمه، أو أنزل به مصيبة يكفر، يكذّب رحمته، يكذب حكمته، يكذب عدالته، ويعرض عنه، وقد يدع الصلاة.

الكافر مَيّتٌ ماتت نفسه فهي لا تعي على خير:

قال تعالى:

(وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى (52))

هذه إشارةٌ دقيقة جداً إلى أن الكافر مَيّتٌ، ماتت نفسه، فهي لا تعي على خير، قال عليه الصلاة والسلام:

((من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً بها طبع الله على قلبه ـ أي يختم على قلبه ـ))

[الترمذي عن أبي الجعد]

صار إنساناً كتلة من اللحم والدم تبحث عن شهواتها، هكذا المُنقطع عن الله عزّ وجل مخلوق يبحث عن ملذّاته، عن شهواته، من دون انضباط أو منهج، من دون قيَم:

(فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى (52))

هذا ميت، المقطوع عن الله ميت، غير المؤمن بالله ميت، الذي يؤذي الناس ميت، الذي يحب ذاته ميت.

(فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ (52))

طبعاً الصُمّ الذي لا يسمع، فإذا دعوت إنساناً أصماً كيف يسمع ؟ لا يسمع، لكن الإنسان من عادته أنه يتوصل إلى نقل المعلومات للأصم بالإشارات، أليس كذلك ؟ لو أنك جلست مع أشخاص مصابين بالصمم لرأيت العجب العجاب، هناك إشارات كثيرة جداً يعبر بمقتضاها عن أفكاره وعن عواطفه، لكن لو أن الأصم أدار لك ظهره كيف تُسمِعُه ؟ أي أن وسائل الإعلام الصوتية والحركية قد انقطعت.

دائماً وأبداً يجب أن نعرف الآمر قبل الأمر:

قال تعالى:

(فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52))

لو كان هذا الأصم مُقْبِلاً وكان أصماً، يمكن أن تؤشِّر له، تعطيه بعض الإشارات يفهم عليك مُرادك، لكن إذا أدار ظهره لك، إذاً انقطعت عنه كل صلةٍ صوتيةٍ أو حركيةٍ.

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53))

هذه الآية دقيقة جداً، إذا الإنسان فكر بالكون أولاً عرف الله عزّ وجل، وإذا قرأ أمر الله عزّ وجل، أو تعرّف إلى كتابه، أو فهم كلامه فهماً دقيقاً جداً عرف الله عز وجل، فدائماً وأبداً يجب أن نعرف الآمر قبل الأمر، لأنك إذا عرفت الآمر قبل الأمر كان الأمر عظيماً عندك، أما إذا قرأت الأمر ولم تعرف الآمر، كان الأمر تَرْكُهُ لا يكلفك شيئاً.

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ (53))

كيف ربنا عزّ وجل أحياناً يقول لك:

(وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(6))

(سورة سبأ)

الله عزّ وجل ينفي عن النبي الهدى مرة ويثبت له الهدى مرة أخرى:

قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(52))

(سورة الشورى)

يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص: من آية " 56 ")

مرة الله عزّ وجل ينفي عنه الهدى ؛ ومرة يثبت له الهدى، إذا نفى عنه الهدى بمعنى: أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يستطيع أن يصل إلى قلب الإنسان فيلزمه وهو مختار، وهو حر في اختياره، أما إذا أثبتنا للنبي عليه الصلاة والسلام الهدى، بمعنى أنه ينطق بالحق، إذا كان الهدى هو أن ينطق بالحق فهو:

(وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(6))

(سورة سبأ)

أما إذا كان الهدى أن يصل هذا الكلام إلى القلب فإنه ليس في إمكانه أن يهدي الناس:

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص: من آية " 56 ")

يكاد يكون المعنى نفسه:

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53))

المتقي آمن بالله أولاً وأراد أن يطيعه ثانياً فجاء الكتاب هادياً له ثالثاً:

قال أصحاب النبي عليهم رضوان الله: **" أوتينا الإيمان قبل القرآن "**، آمنا بالله عزّ وجل، بعد أن آمنا به آمنا بكلامه، فلما ربنا عزّ وجل قال:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2))

(سورة البقرة)

من هو المتقي ؟ أن تتقي شيئاً موجوداً، آمنت بوجود الله عزّ جل واتقيت أن تعصيه، هذا المتقي، فمتى آمنت بالله عزّ وجل ؟ إذا فكرت في ملكوت السماوات والأرض لأن الكتاب هدىً للمتقين، أي أن المتقي آمن بالله أولاً، وأراد أن يطيعه ثانياً، فجاء الكتاب هادياً له ثالثاً، آمن، وأراد، وجاء الكتاب هادياً له.

(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ(53))

ومعنى (تسمع) هنا بمعنى أن يبلغ الكلام مكانه الطبيعي، لأن:

(وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ(21))

(سورة الأنفال)

السماع الذي أراده الله عزّ وجل هو الذي يحملك على التطبيق، هو الذي ينقلك من طور السماع إلى طور التطبيق.

لفتة من الله عزّ وجل إلى آياتٍ في خلق الإنسان:

الآن عودةٌ إلى، طبعاً الله عزّ وجل قال:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

(سورة فصلت: من آية " 53 ")

الآن لفتة من الله عزّ وجل إلى آياتٍ في خلق الإنسان، قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ (54))

لمَ لمْ يقل الله عزّ وجل: الله الذي خلقكم ضعافاً، ضعافاً حال، خلقكم ضعافاً، لكن:

(خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ (54))

أي أنك مركّب من ضعف، لست مخلوقاً قوياً وجاءك الضعف طارئاً، لا، فأنت مجبول من مادةٍ اسمها الضعف، أي ثلاثمئة مليون حوين، حوين من هذه الثلاثمئة مليون يدخل إلى البويضة التي لا تُرى بالعين، ثلاثمئة مليون حوين لا يشكلون سنتيمتر مكعب، ثلاثمئة مليون، من حوين واحد، هذا الحوين له رأس، وله عنق، وله ذيل، وله مقدمة فيها مادة نبيلة، هذا الحوين يدخل للبويضة، إذا دخل البويضة، يوجد ممر بين المبيض وبين الرحم، تتلقح البويضة وتنقسم إلى عشرة آلاف قسم من دون أن يزداد حجمها، فلو أن حجمها ازداد لتوقفت في هذا الأنبوب، وليس في إمكانها أن تسير.

خُلِقَ الإنسان من مادةٍ هي الضعف فالضعف موجود فيه:

إذاً أنت مخلوق من ضعف، من حوين، وبويضة منقسمة، وحجمها لم يزدد، وصلت هذه البويضة الملقحة المنقسمة إلى الرحم، إما أن تعلق وإما أن لا تعلق، فأنت ضعيف، فإن لم تعلق، سقطت، وهناك عُقم سببه أن الرحم لا تحمل هذه البويضة، فأنت من ضعف مخلوق، أي بويضة ملقّحة، صار لها استطالة، شبه رأس، دماغ، أحشاء، أطراف، حواس، ظلت هذه البويضة تنمو ؛ من نطفةٍ، إلى علقةٍ، إلى مضغةٍ مخلقةٍ، وغير مخلقةٍ، إلى أن أصبح الجنين، ويحتاج إلى الدم من أمه، مجهز برئتين لا تعملان، ليس في الرحم هواء، مجهز بقلب يتحرك في وقت معين، مجهز بحواس إلى آخره.

خرج صغيراً، ليس في هذا الطفل الصغير إلا منعكس المص، كتلة من اللحم والدم، طبعاً عضلات، وعظام، وأوعية، وشرايين، وأعصاب، ودماغ، وأعضاء، وحواس، لكن لا يتكلم، ولا يرى، ولا يسمع، أبداً، إلا أن منعكس المص هو الذي زوّده الله به، معنى منعكس أي رد فعل غير إرادي، مثلاً إذا لامست يد الإنسان جمرة يسحبها سريعاً، هذا منعكس، كذلك منعكس المَص، حينما يولد الطفل يضع فمه على ثدي أمه، يحكم إغلاق شفتيه على حُلْمَة الثدي ويسحب الحليب، لولا الحليب لمات جوعاً،

جعل الله له سلاحاً وحيداً وهو البكاء، إذا لم يبك يموت الطفل، يجوع فيموت ؛ لكن يجوع فيبكي فيطعمونه، فكل حاجاته يُعَبِّر عنها عن طريق البكاء، ضعيف، يحتاج إلى أم رؤوم، تطعمه، وتنظفه، وتسقيه، وتدفئه، الإنسان ضعيف، يبقى محتاجاً إلى والديه إلى أمدٍ طويل.

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ (54))

أروع ما في الآية (من ضعفٍ)، أي خلقت من مادةٍ هي الضعف، أي أن الضعف من جِبلّتِكَ، الضعف موجود فيك.

آيات من القرآن الكريم على ضعف الإنسان:

قال تعالى:

(ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً (54))

فالحقيقة الضعف:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19))

(سورة المعارج)

قال:

(وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا(28))

(سورة النساء)

حتى لو كبر، نقطة دم في دماغه تجعله مشلولاً، في مكان تجعله أعمى، في مكان تجعله أصماً، في مكان تفقده ذاكرته، أي أن الإنسان ضعيف، شيء آخر ضعيف ولو كان قوياً، يحتاج إلى كأس ماء.
يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس إذا منع عنك ؟ قال له: بنصف ملكي، قال له: فإذا منع إخراجه؟ قال له: بنصف ملكي الآخر.

الإنسان ضعيف الحوافز والدوافع التي أودعها الله فيه:

أنت مفتقر لكأس ماء، مفتقر لطعام تأكله، مفتقر إلى امرأةٍ تقيم معها، حاجة الله عزّ وجل أودعها بالإنسان، فأنت ضعيف، ضعيف في حاجاتك، ضعيف في ميولك، ضعيف الحوافز والدوافع التي أودعها الله فيك، قال:

(ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً (54))

الإنسان يتوهّم أنه قوي، صار شاباً، فعلاً عضلاته مفتولة، عنده قوة عضلية جيدة، وعنده حركة نشيطة جداً، هذا سن الشباب، اندفاع شديد، عضلات متينة مفتولة، عظام متينة، أعصاب متينة، طُموحات، ثوران، اندفاع.

(ثُمّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوّةٍ ضَعْفًا (54))

انظر إلى إنسان متقدم بالسن وهو يصعد سلماً، يصعده دَرجة درجة، وبعد خمس درجات يرتاح خمس دقائق وعندما كان شاباً كان يصعد كل أربع درجات معاً، كان يمشي ركضاً، الآن يمشي هواماً، صار كلما تقدمت به السن ولا سيما إن لم يكن مؤمناً في شبابه، تضعف ملكاته، تضعف ذاكرته، ينسى، يعيد القصة مئة مرة، يصبح له صفات الطفولة أحياناً.

(ثُمّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً (54))

مكافأة الله للمؤمن أن يمتعه بعقله وسمعه وبصره وقوته إلى آخر حياته:

الحقيقة المؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((من جمع القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

[الجامع الصغير عن أنس]

من مكافأة الله للمؤمن أن يمتعه بعقله وسمعه وبصره وقوته إلى آخر حياته، هذه من مكافأة الله للمؤمن، لكن سُنّة الله في الخلق أن الإنسان بعد سن معينة يتراجع، قال لي أخ متقدم بالسن: أنا سبحان الله كنت قبل خمسين سنة أنشط من الآن، قلت له: طبعاً.

(ثُمّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوّةً ثُمّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ (54))

أي إنسان قوي أو ضعيف، عاجز أو منطلق، مُتّقِد الذهن أو كثير النسيان، مشلول أو نشيط، هو من خلق الله.

(يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54))

لكن بشارة لكل مؤمن، إن حفظت الله يحفظك، والكلمة الشهيرة: **" يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً "**، فالمؤمن كريم على الله عزّ وجل، له على الله كرامة، ومن كرامته عليه أن يحفظه، والحديث الشريف القدسي أن:

((عبدي كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وضعف بصرك، وشاب شعرك فاستح مني فأنا أستحي منك))

[ورد في الأثر]

من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة:

الإنسان إذا دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، بعد الأربعين سن التُقى، الورع، العمل الصالح، تلاوة القرآن، الإعداد للدار الآخرة، هكذا، كما قال الله عزّ وجل في الحديث القدسي:

((أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد))

إنسان في الخامسة والخمسين جالس بالقهوة، يلعب النرد، بلا صلاة، مشكلة، منظر قبيح جداً، إنسان في سن متقدمة يمضي وقته في سخافات الحياة، في القيل والقال، في لعب النرد، في الغيبة، في النميمة، هذا شيء، وإن كانت المعصية معصية، في أي سن، لكن تبدو المعصية أقبح وأقذر في سن متقدمة، فمن دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، والإمام القرطبي يفسر:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: من آية " 37 ")

النذير هو سن الأربعين، والنذير هو الشيب، والنذير هي المصائب، والنذير هو القرآن، والنذير هو النبي العدنان، والنذير هو موت الأقارب، هذا كله نذير.

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا (55))

والله الحياة حلم، قال: الدنيا ساعة اجعلها طاعة، كل واحد منا يسأل نفسه هذا السؤال: أنا كم عمري ؟ ثلاثين، كيف مضت ؟ يقول لك: كلمح البصر، البارحة طفل، البارحة كان بالمدرسة، الآن أصبح مهندساً، وبعد عدد من السنين يتقاعد، بعد فترة يأتي مَلَكُ الموت، مراحل ؛ كنا صغاراً، أصبحنا شباباً، أصبحنا كهولاً، أصبحنا شيوخاً، أصبحنا على حافة القبر، لو سألت شخصاً عاش تسعين عاماً يقول لك: والله مضت كأنها ساعة، جاء رمضان وانتهى رمضان، وأقبل الصيف، وبعد حين ينتهي الصيف ويأتي الشتاء، كنا في الستينات، بالسبعينات، بالثمانينات، الآن التسعينات، وهكذا، إلى أن يأتي ملك الموت، يختم العمل، إما إلى جنةٍ يدوم نعيمها أو إلى نار لا ينفد عذابها.

ساعة اللذة دقيقة ودقيقة الألم ساعة:

الوقت يمضي سريعاً، الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، ما مضى فات والمؤمّلُ غيب، ولك الساعة التي أنت فيها، بين يومٍ مفقود، يومٍ مشهود، يومٍ موعود، يومٍ مورود، ويومٍ ممدود.

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ (55))

لكن دقيقة الألم ساعة، وساعة اللّذة دقيقة، إذا الإنسان كان بنزهة يقول لك: الوقت مضى سريعاً، كما قال الشاعر:

إن يطل بعدك ليلي فلكم   بتُّ أشكو قصر الليل معك

***

ساعة اللذة دقيقة، ودقيقة الألم ساعة، الله عزّ وجل قال:

(النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّا وَعَشِيّا وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشَدّ الْعَذَابِ(46))

(سورة غافر)

فرعون مضى على موته ستة آلاف سنة تقريباً، أو سبعة آلاف سنة ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، ضرب اثنين، (غدواً وعشياً)، وأصحاب النبي عليهم رضوان الله أيضاً في جناتٍ، القبر روضة من رياض الجنة، فالإنسان إذا كان عمله طيب الوقت يمضي سريعاً وبراحة، وإن كان عمله سيئاً يمضي الوقت بثقلٍ شديد.

(وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (55))

أي كانوا ينصرفون إلى شهواتهم وإلى ملاذهم.

الله عزّ وجل جعل الكون دالاً عليه فمن مات كافراً وخُتِمَ عمله ليس له عذر:

قال تعالى:

(وَقَالَ الّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(56))

أي أن المدة المقررة قد أمضيتموها، وعشتم العمر الذي رسمه الله لكم، وقد حذركم ربُكم وأنذركم ولم يدع طريقة من طرائق هدايتكم إلا سلكها، ومع ذلك أصررتم على عنادكم وكفركم.

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57))

أحياناً المُقصِر يعتذر، يقبل عذره، يقدِّم أسباباً موجبة لتقصيره يقبل منه ذلك، لكن الإنسان إذا مات كافراً وخُتِمَ عمله ليس له عذر لأن الله عزّ وجل جعل الكون دالاً عليه، أعطاه العقل، أعطاه الفطرة، الحوادث تؤكِّد ما في القرآن، القرآن وضّح كل شيء، الأنبياء بيَّنوا، والعلماء وضّحوا، فالحوادث، والفطرة، والعقل، والكون، والقرآن والتشريع، والعلماء، والدعاة، والأحوال، والمنامات، كلها في خدمة الإنسان، ومع ذلك لم يهتدِ إلى الله عزّ وجل.

(من كل مثل) لها معنيان ؛ إما كنماذج بشرية أو كأساليب تربوية:

قال تعالى:

(لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ (56))

أي في الأجل الذي كُتِبَ لكم، في العمر الذي رسمه الله لكم، أي جاءتكم الليالي والأيام، والسنون، والفصول، والأشهر، والأسابيع، والحر، والقر، والربيع، والخريف، والغنى، والفقر، والمرض، والصحة، لقد تقلبتم على كل أحوال الدنيا قال تعالى:

(فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ(58))

هنا الآية لها معنيان: إما أن الله عزّ وجل صوّر الكافر، والمنافق، والفاجر، والمؤمن، والمتقي، والمسلم، والناجي، والهالك، أو أنه سلك سبيل التحذير، والإنذار، والوعد، والوعيد، والتصوير، والتبشير، والتخويف، فإما أن يكون (من كل مثل) إما كنماذج بشرية، أو كأساليب تربوية، كلاهما صحيح.

من لا يوقن بالآخرة لا تحزن عليه:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ (58))

لو أنهم طلبوا آيةً معينة وجئتهم بها:

(لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58))

حتى لو جاءت الآيات المعجزة حسيّةٌ لكفروا بها، قال تعالى:

(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (59))

معنى لا يعلم أي لا يطلب العِلم، إذا الإنسان لم يطلب العلم فهو في حكم من لا يعلم، فإن رفض العِلم يطبع على قلبه، قلبه لا يعي إلا الدنيا.

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ (60))

أي أن كل وعدٍ وعد الله به لابدّ أن يأتي.

(وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (60))

هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة لا ينبغي أن يدخلوا على قلبك الحزن والهم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (01-13): تفسير الآيات 1 - 3

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-05-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة لُقمان:

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم (1) تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3))

الكون طريق لمعرفة الله، والقرآن سبيل لعبادته:

أيها الإخوة، أولاً: كما تعلمون أن الكون كلّه في كفّة، وأن كتاب الله في كفّة، والدليل أن الله عزّ وجل يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة فاطر: من الآية 1)

وفي آيةٍ ثانية يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا)

(سورة الكهف1)

الكون طريقٌ لمعرفة الله، والكتاب طريقٌ لعبادته، هذا الإله الذي خلق الكون له أمرٌ، ونهيٌ، وتوضيحٌ، وتعريفٌ، وتبيينٌ، وتفصيلٌ كلُّه في القرآن، لذلك ليس في حياة الإنسان كلها شيءٌ أهم ولا أعظم من أن يفهم كلام الله، لأنه خطاب الله لهذا الإنسان، فالله هو الذي خلق المجرّات، خلق السماوات، خلق الأرض، خلق الموت والحياة، خلق الحيوان والنبات، خلق الشفاء والأمراض، الذي خلق كل شيء، والذي بيده كل شيء، والذي إليه مصير كل شيء هذا كلامه ؛ فيه توضيح وتعريف، وتبيين وتنبيه، وتحذير وتبشير، ووَعد ووعيد، وتطمين وتخويف.

ليس شيء يعلو على كتاب الله:

إذاً: ليس في حياة الإنسان كلها كتابٌ يعلو على هذا الكتاب، أو ليس في حياة الإنسان كلِّها اهتمامٌ يجب أن يزيد على اهتمامه بهذا الكتاب، لأن الإنسان كائن من أعلى الكائنات، مخلوق أول، الله عزّ وجل أودع فيه من عجائب الكون..

أتحسبُ أنّكَ جُرْمٌ صغير وفيك انطوى العَالَم الأكبرُ

***

العقل:

الحديث عن عقل الإنسان لا ينتهي في سنوات، فالعقل البشري أعظم ما في الكون، بل إن العقل البشري على عظمته عاجزٌ عن فهم ذاته، فالجانب العقلي في الإنسان، هل تغيَّر وضعُ الحيوانات كلها منذ أن خُلِقَت وحتّى الآن ؟ هيَ هي.

1 – مجال العقل الاجتهادُ الدنيوي:

أما الإنسان فحينما استخدم العقل لا في معرفة الله ؛ ولكن في حياته الدنيا، في تطوير حياته، أين سَكَن ؟ وماذا ركب ؟ وكيف اتصل ؟ وكيف صعد إلى أعلى السماوات ؟ كيف وطأت قدمه على القمر ؟ وكيف غاص في أعماق البحار ؟ وكيف نقل الصورة ونقل الصوت ؟ وكيف اخترع هذه الأجهزة.

2 – مساهمة العقل في الإنجازات الحضارية:

فمن ركب طائرةً مثلاً ثلاثمائة راكبٍ يركبون، يأكلون ويشربون وهم في أطباق السماء، هذا أحد إنجازات العقل الذي أودعه الله فينا، فالإنسان عنده عقل، فهو طاقة خطيرة جداً إن وجّهَت فعلت المعجزات، وإن وجّهَت نحو الشر فعلت الكوارث، والحديث عن الأسلحة الحديثة، والكيماويّة، والقنبلة العنقودية، والقنبلة الذكيّة، وأشعّة الليزر، ليست عنا ببعيد، هذا كله من إنجاز العقل حينما أراد أن يدمِّر أخاه الإنسان، فأعظم ما في الكون هو هذا العقل الذي أودعه الله في الإنسان، إما أن يرفعه إلى أعلى عليين ؛ وإما أن يهبط به إلى أسفل سافلين.

الحديث عن العقل بمعنى الفكر، عن إمكاناته، عن طاقاته، فمكان الذاكرة لا يزيد على حبّة العدس، هذا المكان يختزن أكثر من سبعين مليار صورة في عمر يزيد على ستين عاما، وتستدعيها متى تشاء، فهي مُبرمجة، مؤرشفة ـ باللغة الحديثة ـ يمكن أن تختزن هذه الصورة في مكان بعيد لا تحتاجها، أو في مكان قريب، تقول: هذا الوجه ألمحه، وهذا الصوت أعرفه، وهذه الرائحة شممتها، وهذه الأكلة أكلتها..

أتحسبُ أنّكَ جرمٌ صغير وفيك انطوى العَالَم الأكبرُ

***

أنت الكائن الأول، أنت المخلوق الأول، المخلوق المكرّم، فالحديث عن عقلك لا ينتهي، وكل ما تراه عينك في هذه الأرض من إنجازات تسمى حضارية، هي ثمرة من ثمار العقل حينما توجّه إلى الدنيا، أما إذا توجّه هذا العقل إلى معرفة الله.

إن عقل الإنسان فيما يبدو أسعد بعض البشريّة، أسعد الأغنياء، أجهز، يقول لك: وأنا في السيارة أبعث رسالة مصوُرة إلى أي مكان في العالَم، بواسطة جهاز نقل الصور في السيارة، وأنا أتصل، فهذا العقل البشري أسعد بعض الناس، أو أسعد الأغنياء، ولكن إذا اتجه هذا العقل إلى معرفة الله سَعِدَ صاحبه إلى أبدِ الآبدين.

((إن الله لما خلق العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أشرف منك، فبك آخذ، وبك أعطي))

[ورد في بعض الآثار، راجع كشف الخفاء]

الحديث عن العقل ذو شجون، المعرفة الإنسانيّة، أنواع العلوم التطبيقيّة والمحضة، هذا الذي تراه عينك في كل موضوع آلاف المراجع، آلاف المصادر، علماء، بحوث، تجارب، هذا العقل، هذه الطاقة الهائلة صُرِفَت إلى الدنيا، فكانت هذه ثمراتها، فلو صُرِفَت إلى الآخرة فما تكون ثمارها ؟ سعادة أبدية.

سعادة النفس وشقاؤها سرٌ من أسرار الخَلْق:

وهذه النفس البشريّة، وما فيها من مشاعر، من أحاسيس، كيف تغضب، كيف ترضى، كيف تسعد، كيف تشقى، كيف تخجل، كيف ينشأ فيها الصراع، عالَم قائم بذاته، عِلم النَفْس لازال في البدايات، لازال يحبو، علم النفس، ولقد ألّف رجل كتاباً وسمّاه.. الإنسان ذلك المجهول.. لا تزال هذه النفس ذات طبيعةٍ مجهولة.

امرأةٌ في بلدٍ أوروبي، وهي في المطبخ ترى ابنها قد دُهِس، وهو في باريس، تصف الحادث وصفاً دقيقاً، رأته بعينها، وبعد أيامٍ جاء نعشه إلى البيت مع تقريرٍ تفصيلي بالحادث كما رأته هي، كيف ؟ لا أحد يدري، سَمُّوا هذه الظاهرة التخاطر النفسي، سيدنا عمر وهو على المنبر رأى سارية خلف الجبل في بلاد فارس، فقطع الخطبة وقال: **<< يا ساريةُ الجبلَ الجَبلَ>>**، سيدنا سارية قال: **<< أسمع صوت أمير المؤمنين يحذّرنا الجبل >>**، فسّروا ذلك **!** لا نعرف، لا يوجد تفسير، الحادثة وقعت، لكن ما تفسيرها ؟ الله أعلم، لا تزال النفس في غموض شديد جداً.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوح !!!

أما الروح فلا نعلم عنها شيئاً، ولكن آثارها واضحةٌ جداً، الإنسان يفكِّر، يحل معادلة، يحل مسألة، يخطِّط، يؤسس بفكره، يهيّئ كلمة، يتذكَّر، يتصوَّر، يتخيَّل، يراجع موضوعاً، يأكل فيه الغدد اللعابيّة، المريء، المعدة، الأمعاء، البنكرياس، الغدد الدرقية، النخاميّة، الكبد، العضلات، القلب، فأعقد آلة في الكون هو الإنسان، لو قُطِعَ عنه إمداد الله عزّ وجل، أو سُحِبَتْ منه الروح، يضع أهله له لوحين من الثلج في نفس اليوم لكي لا تفوح رائحته، الدنيا شديدة الحرارة ستفوح رائحته، لا نستطيع، قبل دقيقتين كان مصدر حيويَّة في البيت، كان في البيت يتكلّم، ويمزح، ويضحك، ويعطي أوامر، ويستقبل ضيوفاً، ويصدر توجيهات، والناس بين يديه خاضعون، ما الذي حدث بعد ذلك ؟ صار يحتاج إلى لوحين من الثلج، هذه هي الروح..

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا)

(85 سورة الإسراء)

لا نعلم شيئاً عن الروح، بالروح الكبد يقوم بخمسة آلاف وظيفة، فإذا انسحبت الروح يصير (كيلو سوداء) ثمنه ثمانون، أو تسعون أو مئتا ليرة.

بالروح ترى العين ثمانمئة ألف لون أخضر مع التفريق بين الدرجات، بين درجتين، بدون روح توضع العين، أو عين الدواب توضع في القمامة، فليس لها استعمال إطلاقاً، بالروح هذا الدماغ يخترع يكتشف، يُحَلل، يركِّب، من دون روح يصبح نخاعاً ثمنه كذا، من دون روح.

جسم الإنسان سرٌ أيضًا:

جسم الإنسان كما قلت لكم سابقاً: فيه حديد يصنِّع مسمار واحد، وفيه كلس يطلي بيت دجاج، وفيه مواد تصنِّع لوح صابون، وبالمئة سبعون من وزنه ماء، فالإنسان كمواد لا يزيد ثمنه على خمس وعشرين ليرة.

أمّا أنْ يأتي إنسان كالأنبياء العظام يقلبون وجه التاريخ، يبثّون الفضيلة، والهدى في الأرض، فهل هناك إنسان وحده في ربع قرن يفعل كما فعل النبي، حيث عمّ الإسلام في الخافقين، فالإنسان عظيم ؛ أما الإنسان الخاسر فهو الذي لا يعرف قيمة نفسه، هو الذي يعيش على هامش الحياة، هو الذي يأتي ويقول: نعيش لنأكل، هذا مستوى منخفض جداً، هناك مستوى أعلى يقول: نأكل لنعيش، وهذا مستوى فيه جهل، أما المؤمن فيقول: نعيش لنعرف الله، ولنعمل عملاً صالحاً يسعدنا إلى الأبد.

هذا الإنسان روحه سِر، نفسه سرّ، جسمه لا يزال الطب في بحوث جبّارة، ولم يتقدّم إلا إلى القليل، لا زال القلب سراً، الأعصاب سر.

طبيعة الموت سِرّ:

لا تزال طبيعة الموت سرّاً، فما هو الموت ؟ توقُّف القلب ؟ لا، الآن يوصلون الأوعية عن طريق قلب صناعي، الدم يجري في الجسم إلى ما شاء الله، والإنسان مَيّت، ليس توقُّف القلب هو الموت، يا ترى توقُّف نشاط الدماغ ؟ ربّما، فكلمة (ما الموت ؟) إلى الآن غير معروفة.

فما هو المنام ؟ الإنسان ينام في غرفة قميئة مظلمة، يرى نفسه في جنان مع أحبابه، يقوم من الفراش وهو من أسعد الناس، فما الذي حدث ؟ قد ينام رجلان في غرفةٍ واحدة، فيرى إنسان نفسه مع الثعابين، ومع الوحوش، ومع أعدائه، وقد وقع من على سطحٍ، وقد دهسته سيارة، وقد نُقِلَ إلى مكانٍ بعيد، وقد مات ابنه فيبكي في الليل، وإنسان آخر يرى نفسه من أسعد الناس، وهو نائم، فما هو النوم ؟ ما هو الحُلُم ؟ ما تفسير هذه الأحلام ؟

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا)

(سورة الإسراء **(8))**

لا بد للإنسان من كتاب ومنهج:

فإذا تحرّك الإنسان من دون علم سيغلط، وسيتحرّك حركة عشوائيّة، وسيأخذ ما ليس له، وسيطغى، وسيعتدي، إذاً لابدّ من منهج، لابدّ من كتاب، لابدّ من توجيه، لابدّ من افعل ولا تفعل، لابدّ من هذا الشيء حلال وهذا حرام، هذا يجوز وهذا لا يجوز، هذا ينبغي وهذا لا ينبغي، هذا يُرضي الله وهذا لا يرضي الله.

إن الإنسان بلا كتاب لا يساوي شيئا، والدليل أن الله سبحانه وتعالى قال:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن1-4)

عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ

يا رب، أيعقل أن تعلِّم الإنسان القرآن قبل أن تخلقه ؟ لا، يخلقه ويعلِّمه، ولكن قدّم القرآن على خلق الإنسان، لأن حياة الإنسان من دون قرآنٍ لا معنى لها، حياة حيوانيّة، حياة عشوائيّة، تخبُّط، تحرُّك

أعمى نشاط فارغ، نشاط غير هادف، إذاً لا شيء في الحياة كلها يعلو على فهم كلام الله، فحينما تأتي إلى مجلس علمٍ لتفهم كلام الله إياك أن تتوهَّم أنك استهلكت الوقت، إنّك تفعل المهمّة التي من أجلها خُلِقْتَ، إياك أن تتوهَّم أنك حينما تترك العمل فتأتي إلى حضور هذا الدرس، لا، هذا هو العمل الأول، هذا هو العمل الذي لا يعلو عليه عمل، أن تفهم منهجك، كلام الخالق، أي كتابٍ على وجه الأرض فيه الحق وفيه الباطل، فيه الخطأ والصواب، فيه الجيد والسيئ، فيه الصحيح وغير الصحيح، فيه الصالح والطالح، كتاب فيه انسجام وكتاب فيه تناقض، فيه بحث وافٍ وبحث غير وافٍ، فيه معالجة عميقة ومعالجة سطحيّة، هذا شأن كتب البشر، لكنك إذا أقبلت على كتاب الله لا ريب فيه، لا خلل، لا نقص لا سطحية، لا بساطة، لا تناقض، لا انحراف، لا مبالغة، لا تصغير، لا تهويل..

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة البقرة 2)

كيف أن الكون كاملٌ في خلقه، كيف أن الله عزّ وجل يقول:

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)

(88 سورة النمل)

إذا رأيت عظمة الخالق في خلقه فهذا كلامه، ففي هذا الكلام من العظمة والدقّة والوضوح والنفع والخير بقدر ما في هذا الكون من إتقان، هذا كلامه، فلذلك الذي دعاني لهذه المقدِّمة أن الله عزّ وجل يقول:

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ

هذا الكتاب حكيم ؛ حكيم في حجمه، لو أن هذا القرآن سبعة آلاف صفحة، لو أن فيه تفصيلات دقيقة جداً لَمَلّت النَفس، لو أن فيه موضوعات مبوّبة، تقول: هذا الموضوع لا تتفاعل نفسي معه، إنه منسّق تنسيقا من عند الخالق ؛ فيه آياتٌ كونيّة، آياتٌ توجيهيّة، آياتٌ فيها بُشرى، آياتٌ فيه إنذار، صورٌ من أهل الجنّة، صور من أهل النار، تشريعٌ حكيم، أخبارٌ صادقة، حديثٌ عن المستقبل، موضوعات يأخذ بعضها برقاب بعض، كلها من أجل أن تتعرّف النفس إلى ربّها، كل هذه الموضوعات من أجل أن تأخذ بيدك إلى الله.

لذلك لا شيء في حياتك كتأسيس عمل، وتأسيس مشروع، وإقدام على زواج، وتحضير لشهادة عُليا، لا شيء في حياتك يعلو على أن تفهم كتاب الله لأنه منهجك، والإنسان بلا منهج لا معنى له، وليته لا معنى له بدون كتاب، ولكنه سوف يخطئ، وسوف يتجاوز، وسوف يقتحم، وسوف يطغى، وسوف يبغي، أما

إذا عرف حدوده، عرف حدّه فوقف عنده، عرف التوحيد، عرف معنى لا إله إلا الله، عرف معنى خَلْقِهِ في هذه الدنيا، عرف سرّ وجوده.

فيا أيها الإخوة الأكارم، كلّما تاقت نفسي إلى موضوع آخر غير القرآن الكريم لا أجد موضوعاً أجدى، ولا أنفع، ولا أقوى، ولا أقوم من كلام الله عزّ وجل، كلام خالق الكون، قال:

(تِلْكَ)

القرآن معجزة إلى قيام الساعة:

وهذا من رحمة الله بنا، أن الأنبياء جميعاً أتوا بمعجزاتٍ حسيّة، فالعصا صارت أفعى، هذه من رآها ؟ رآها نفرٌ قليل، وأصبحت خبراً يروى، سيدنا عيسى أحيا الميّت، ولكن من رآه فعل هذا ؟ نفرٌ محدود، ثم أصبح خبراً يصدّق أو لا يُصدّق، بحسب إيمان الإنسان، لكن النبي عليه الصلاة والسلام جاء بمعجزةٍ هي بين أيدينا، منذ أن جاء وإلى قيام الساعة، هذه المعجزة بين أيدينا، اقرأ وتأمّل، اقرأ ودقِّق، اقرأ وتدبَّر، هل في الأرض كلها كتابٌ يمضي على نزوله من السماء خمسة عشر قرناً، والعلوم تقدّمت في هذه الحقبة تقدُّماً مذهلاً.

موافقة العقل والفطرة للقرآن:

إن بعض العلماء يقول: **" إن التقدُّم العلمي كله للبشريّة منذ أن وجِدَت وإلى قبل خمسين عاماً في كفّة، ومن خمسين عاما وحتى الآن في كفّة ثانية "**، ومع ذلك لم يظهر لا في علم الفلك، ولا في علم الطب، ولا في علم الجيولوجيا، ولا في علم النبات، ولا في علم الحيوان، حقيقة علميّة قطعيّة تتصادم مع آيةٍ قرآنيّة، هذا لأنه كلام خالق الكون.

دائماً وأبداً أقول لكم: هذا الخالق العظيم، الكون خلقه، والقرآن كلامه، والحوادث أفعاله، والعقل مقياسه أودعه فينا، والفطرة أيضاً خَصِيصَةٌ خصّ الإنسان بها، فيجب أن يلتقي الكون مع القرآن مع العقل مع الفطرة مع الحوادث، هذا الانسجام لابدّ منه، ما يفعله الله موجود في القرآن، وما في القرآن يفعله الله، وما يفعله الله وما في القرآن يقرّه العقل، وما يقرُّه العقل ترتاح له الفطرة، فالحوادث والخلق والكتاب والعقل والفطرة من أصلٍ واحد، من عند الله..

(الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

معنى: الحكيم:

1 – موضوعات القرآن تامة عددا:

ومعنى حكيم، مثل قريب.. هذه الثريّا، يمكن أن يكون ارتفاعها بعشرات الأماكن، بدءاً من السقف وحتى الأرض، لو كانت على الأرض فهذا المكان ليس حكيماً، لأن الثريا أخذت مساحة منه، وآذت العيون، لو ارتفعت قليلاً لما أمكن السير تحتها، لو ارتفعت قليلاً لسار من تحتها القصير، ولارتطم بها الطويل، لو كانت في السقف لبَعُدَ نورها، هناك مئة احتمال، وعلى مستوى السنتيمترات ألف احتمال، لكن في هذا المكان تقول: في هذا المكان حكيم، فالممكن متعدِّد، أما هذا المكان فهو الراجِح، ولا راجح بلا مُرَجِّح، معنى هذا أن هناك جهةً حكيمةً قدّرت هذا، فكما أن خلق الله فيه حكمةٍ بالغة، كذلك كلامه فيه حكمةٍ بالغة، أي أن مجموع الموضوعات التي عالجها القرآن الكريم مجموعٌ تام، يغطي كل شؤون حياة الإنسان.

2– موضوعات القرآن كاملة نوعا:

إن طريقة معالجة أي موضوع طريقةٌ كاملة وافية، لا فيها اختصار مخل، ولا فيها إطناب ممل، كتابٌ حكيم، طريقة عرض القصص فيها حكمة بالغة، طريقة إيراد الأوامر والنواهي فيها حكمة بالغة، طريقة تحريم الخمر بالتدريج فيها حكمة بالغة، سكوته عن أشياء فيه حكمةٍ بالغة، تفصيله في أشياء فيه حكمةٍ باللغة، إيجازه في أشياء فيه حكمةٍ بالغة، تجاوزه عن أشياء فيه حكمةٍ بالغة، لو أن هناك وقتاً طويلاً، لو تناولت القصص القرآنيّة، والآيات الكونيّة، ولكن لماذا اختار ربنا عزّ وجل هذه الآيات الكونيّة من بين آلاف ملايين الآيات ؟ لحكمةٍ بالغة، لماذا عرض علينا هذه القصّة بهذه الطريقة ؟ لحكمةٍ بالغة، لماذا جاءت الأوامر هكذا ؟ لحكمةٍ بالغة..

(تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

فكِّر، تدبّر، تشعر أن هذا الكلام كلام خالق الكون، وأن هذا الكلام يحتاج منك كل وقتك، وكل جُهدك، وكل طاقتك، وكل قلبك، وكل اهتمامك، قال هذا الكتاب:

(هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)

1 – معنى الهدى:

ما معنى كلمة هدى ؟ أخي هديته إلى البيت، معنى هديته أي هناك إنسان يدل إنسانا، هناك جهتان، كلمة هدى فيها جهتان.

مثلاً إذا قلنا: تجارة، كلمة تجارة كلمة واحدة ؛ ولكن من مقتضياتها بضاعة، وشراء، ومبيع، وربح، حينما تقول: تجارة، أي اشترينا سلعة، وبعناها بسعرٍ أعلى، وربحنا فارق السعرين، أليس كذلك ؟ الآن إذا قلت: هدىً، كلمة هدى تعني أن جهة دلّت جهة، لا يكفي جهتان، جهة دلّت جهة هذا كلام ناقص، ما إتمامه ؟ على ماذا دلّت ؟ جهة دلّت جهة على شيء، أي أن الدلالة الموصلة إلى المطلوب، فكلمة هدى تعني أن خالق الكون دلّ المخلوق على هدفٍ يُسْعِدُهُ، خالق الكون دلّ مخلوقاته على هدفٍ ثابتٍ يسعدهم في دنياهم وفي أخراهم، هذا هو الهدى.

2 – الخالق هو الذي يدل خلقه على الخير:

ولكن الذي يَدُل، من هي الجهة المؤهّلة أن تدلّ الخلق ؟ فهل يصح لإنسان أن يهدي إنساناً في معزل عن هدى الله عزّ وجل ؟ لا يصح، الإنسان جاهل، وعاجز، وأُفُقُه محدود، وعلمه محدود، له مصالح، فمثلاً لو قلت لإنسان لا دين له: دُلّني على قماشة مناسبة، يدلّك على الكاسدة، لأنه يريد أن يصرّفها، هل يصح لإنسان في معزل عن كتاب الله أن يهدي الناس ؟ فهل هناك هدى أرضي، الجواب: لا، فلا توجد جهة في الأرض بإمكانها أن تهدي لأنها عاجزة، لأنها محدودة، لأن آفاقها محدودة، لأنها ليست خبيرة بطبيعة النفس البشريّة، لأن لها مصالح، لأن لها قضايا، لأنها طرف، إذاً لا يمكن للهدى إلا أن يكون سماوياً.

3 – محدودية المخلوق تدل على محدودية أساليبه وأهدافه:

وحينما كان الهدى أرضياً رأيتم بأعينكم كيف يتصارع الناس، ويتقاتلون، وهذه الأهداف التي بقيت سنوات وسنوات أصبحت أهدافاً غير صحيحة، وتلاشت بعد سبعين عاماً، فإذا اخترع الإنسان لنفسه هدى، إذا اخترع أهدافاً، إذا رسم الإنسان أهدافاً، وسار نحوها فهناك مغالطة كبيرة، قد يكتشف بعد قرون أنه كان واهماً، وأن هذا الكلام مخالفٌ لطبيعة النفس البشريّة، قد يكتشف بعد فوات الأوان، وبعد

أن يدفع الثمن باهظاً، وبعد أن يدفع الغالي والرخيص يكشف أنه كان واهماً، وأنه كان مخطئاً، وأنه كان جاهلاً، وأحداث التاريخ بين أيديكم، هؤلاء الذين ابتعدوا عن الله وقالوا: لا إله، ووضعوا أهدافاً أرضيّة وساروا نحوها، بعد سبعين عاماً رأوا أن هذه الأهداف غير صحيحة، وأنها باطلة، وأنها تشقي، ولا تسعد، أليس كذلك ؟

4 – وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ

إذاً: الهدى لا يمكن إلا أن يكون من الله، لماذا ؟ لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر 14)

لو أن عندك آلة غالية الثمن، أو عقلاً إلكترونياً، جهازاً معقداً جداً صنعته أرقى شركة، أيعقل أن تذهب إلى بائع الخضار في حَيِّك تقول له: تعالَ أخبرني عن طريقة عمله، أو عن طريقة صيانته، لا، مع احترامنا الشديد لأي إنسان، لكن هذا الإنسان ليس مؤهلاً أن يعرف دقائق هذا الجهاز.

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة الفرقان14)

أنت في شؤونك لا يمكن أن ترجع لإنسان ما، وتقول له: دلني ماذا أفعل ؟ هذا الذي تسأله لا يعرف شيئاً، هذا إنسان مثلك، يجب أن تسأل خالق الكون، يجب أن تسأل الصانع، يجب أن تسأل الخبير، يجب أن تسأل المُصَمِّم، فأحياناً إذا كانت السيارة غالية جداً، يقول لك: أخذتها على مركز الصيانة الذي أسسته الشركة الصانعة، لها فرع، لأن فيها خبرة، إذا كان الإنسان مركبته غالية عليه يأخذها إلى الخبير، إلى الجهة الصانعة يسألها، وإذا كان جسمه فيه خلل يسأل عن أحسن طبيب، عن أحسن اختصاص، عن اختصاصه، وعن شهاداته، وعن خبراته، وعن تجاربه، وعن عمر تجاربه، فهذه النفس تسلمها لمخلوق، تسلمها لكتاب تقرأه، تسلمها لجهةٍ في الأرض تخطط لك.

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة الفرقان14)

هذا الكتاب هدىً، معنى هدىً أن هناك جهة تَهْدِي، وجهة تُهْدَى، وهدف، هذا الهدف إذا كان من وضع الخالق فهو هدف ثابت، ليس فيه مفاجآت، وأنا أؤكد لكم أن أي إنسان يضع لنفسه هدفاً، هو يضعه، أو يسمح لإنسان آخر، أو لجماعة، أو لجهة أن تضع له هدفاً، ويسير نحوه، لابدّ من أن يصعق في مرحلةٍ من مراحل حياته حينما يكتشف أن هذا الهدف باطل، وأن هذا الهدف غير مسعد، وأن هذا الهدف لا

يوصل، وأن هذا الهدف كان سخيفاً، وكان قميئاً، وليس يليق بالإنسان أن يسعى إليه، أما إذا طلب الإنسان من الله عزّ وجل أن يضع له الهدف، فالله عزوجل قال لك:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(3))

(سورة لعصر 1-3)

يا عبدي، افعل ما شئت، فأنت في خسارة، لأنك وقت، والوقت يمضي، لأنك بضعة أيام، ولابدّ من أن تمضي، افعل ما شئت، فأي عملٍ لا يتصل بإيمانك بي، وبعملك الصالح، وبالدعوة إلي، وبصبرك على أمري فهذا عملٌ خاسر.

يمكن أن تتملك أكبر شركة في العالم، وأنت في خُسر، يمكن أن تصل إلى أعلى منصب في العالم وأنت في خُسر، يقول لك: حصل اضطراب بنظم القلب، وكان قد سَيَّر الجيوش، حَرّك ثلاثين دولة، ثم أصابه اضطراب بنظم القلب، لآن إنسان ضعيف.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

فهدى..

الملخص: ليس في الأرض كلها جهة تستطيع أن تهدي، لأنها لا تستطيع، لأن مقوماتها لا تمكِّنها من ذلك، أو لأنها لا تريد، لو استطاعت لا تريد، لكن خالقك هو الذي يهديك، فلذلك:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف 28)

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

(سورة لقمان: من الآية 15)

اتبّعوا سبيل الله ولا تتبعوا سبل الناس:

ارجع إلى من أناب إلي، اتبع سبيل من عَرّفَكَ بهذا الكتاب، لا يوجد إنسان في الأرض يحق له أن يقول لك: هذا من عندي، من أنت ؟ أنت مثلي عبدٌ لعبد، لا يحقُّ لإنسان إلا أن يقول لك: قال الله عزّ وجل، أنا عبد، إلا أن يقول لك: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا حديث صحيح، قاله النبي فقط، أما أن يقول لك إنسان: هذه من عندي خذها، فمن أنت ؟ هذه ضعها برقبتي ؟ من أنت، هذه بذمتي، وبرقبتي، وضعها في الخُرْج، ولا تسأل، وأنا أقول لك هكذا، من أنت ؟

قصص من حرص السلف على عدم اتباع أقوال الرجال المخالفة للشرع:

1 – مع الفاروق عمر بن الخطاب:

ألم يقل سيدنا عمر لأحد ولاته عندما جاءته رسالة منه يقول فيها: **<< إن أناساً قد اغتصبوا مالاً ليس لهم، لست أقدر على استخراجه منهم إلا أن أمسهم بالعذاب، فإن أذنت لي فعلت >>**، قال له سيدنا عمر: **<< يا سبحان الله ! أتستأذنني في تعذيب بشر ـ من أنا ؟ ـ وهل أنا لك حصنٌ من عذاب الله ؟ وهل رضائي عنك ينجيك من سخط الله، من أنا حتى تستأذنني في تعذيب بشر ؟ قال له: " أقم عليهم البينة ـ أليس معك دليل، إثبات قطعي، حجة، مستمسك ـ أقم عليهم البينة، فإن قامت فخذهم بالبينة، فإن لم تَقُم البينة عليهم فادعهم للإقرار ـ للاعتراف ـ فإن أقروا فخذهم بإقرارهم، فإن لم يقروا فادعهم لحلف اليمين، فإن حلفوا فأطلق سراحهم >> ـ فليس هناك سوى هذه الثلاث قنوات مسموح بها، إمّا البينة، أو الحلف، أو الإقرار، أو حلف اليمين ـ وايم الله لأن يلقوا الله بخياناتهم أهون من أن ألقى الله بدمائهم>>.**

2 – مع الحسن البصري:

سيدنا الحسن البصري كان عند أحد ولاة بني أمية، كان والياً ليزيد، جاءه توجيه من يزيد فيه انحراف، أو فيه مخالفة لأمر الله عزّ وجل، فالوالي احتار، وعنده الحسن البصري، قال له: **" ماذا أفعل ؟ "**، والله قال له كلمة تكتب بماء الذهب، قال له: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

لا أحدَ يردُّ عنك قضاء الله:

إذا أطعت الله عزّ وجل فإنه يحميك من يزيد، ولكن إذا أطعت يزيد وعصيت الله فإن يزيد لا يستطيع أن يحميك من الله.

فهذه اجعلها في أعماقك، أي إنسان، زوجتك، لو أطعتها في معصية لا تستطيع أن ترد عنك مرضاً عُضالاً، هي تبكي فقط، صديقك، شريكك، أعلم منك، لو أطعته في معصية هؤلاء جميعاً لا يستطيعون أن يردوا عنك شيئاً أراده الله، قال عليه الصلاة والسلام لابن عباس:

((وَاعْلَمْ أَنّ الأُمّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفّتِ الصُّحُفُ))

[سنن الترمذي عَن ابْنِ عَبّاس]

من كمال التوحيد العلاقة مع الله وحده:

روعة الإيمان أن علاقتك مع جهة واحدة، مساكين أهل الدنيا، متمزقون، علاقته مع فلان وفلان، إذا أرضى فلاناً يغضب فلان، يقول: يجب أن أزوره، ولا يراني، إن زار فلانا، وعلم فلان يغضب مني، إن قدم نحو زيد يغضب عُبيد، إن أعطى فلاناً يغضب عِلاّن، هناك تمزق، أما المؤمن فعلاقته مع جهةٍ واحدة..

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ قالَتْ: إِنّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللّهِ بِسَخَطِ النّاسِ كَفَاهُ اللّهُ مُؤْنَةَ النّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النّاسِ بِسَخَطِ اللّهِ وَكَلَهُ اللّهُ إِلَى النّاسِ))

[الترمذي]

هذا هو التوحيد، فأقول لك بصراحة: العلم كله في التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، التوحيد أن ترى الله في كل شيئاً، وأن لا ترى معه شيء، أن تراه في كل شيء ؛ في كل تصرُّف، في هطول الأمطار، في شُح السماء، وفي إقبال الدنيا، وفي إدبارها، في الصحة، في المرض، في القوة، في الضعف، في الالتقاء، في التفرُّق، أن ترى الله في كل شيء، وأن لا ترى معه شيئاً، هذا هو التوحيد.

(هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)

البداية بالهدى والنهاية بالرحمة:

الهدى البداية، فإذا وصلنا إلى نتيجة لا يمكن لجهةٍ في الأرض أن تقدم لك الهدى، الهدى من خصائص الله عزّ وجل، من خصائص الصانع، الخالق، المُصَمِّم..

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اعْبُدُوا رَبّكُمْ)

لماذا ؟

(الّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 21)

لأنه هو الخالق، لا توجد جهة تستحق العبادة.

المناسبة وليس في الكون كله جهة تستحق أن تهبها حياةً، ولا أن تهبها عمرك، ولا أن تهبها قوّتك، ولا أن تهبها شبابك، ولا أن تهبها علمك، إلا الله عزّ وجل، هو أهل التقوى وأهل المغفرة، فهل من المعقول لإنسان يقدم كل حياته لإنسان ؟! هذا الإنسان ماذا يفعل معه ؟ لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً، فالهدى الدلالة، فما هي النهاية ؟ البداية الانتساب للجامعة، النهاية طبيب، البداية فتح محل تجاري، النهاية أصبحت غنياً، نريد النتائج..

(وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)

البداية الهدى والنهاية الرحمة، فإذا سرت على دلالة الله عزّ وجل تجلّى الله عليك بالرحمة، فأسعدك في الدنيا والآخرة، فأنت منتهى آمالك، منتهى مطالبك، تحب وجودك، وسلامة وجودك، واستمرار وجودك، وكمال وجود، هذه رحمة الله عزّ وجل تحتاج إلى هدى.

المراقبة سبيلٌ للهدى:

يجب أن تعلم علم اليقين أن أية حركة تتحركها هي في علم الله تعالى.

مثلاً لو فرضنا إنساناً يتناول الطعام في بيته، وفي قميصه زر مقطوع، لا يهمه ذلك، أو كان جالساً جلسة غير نظامية، أما لو كان في عقد قران، ويُصوّر تراه يعتدل على الفور، لا يفتح فمه في أثناء التصوير، بل يغلقه، لماذا ؟ لأن هذه مسجلة عليه، يعرضونه، لماذا فلان جالس هذه الجلسة، لا، هذه الجلسة ليست جيدة، فإذا حضرت عقد قران تصحح وضعك، يقول لك: يصورونني، يجب أن تعلم أن أي حركة، وأي سكنة، وأي موقف، وأي غضب، وأي رضا، وأي إعطاء، وأي منع، وأي تساهل، وأي تفلّت، وأي انضباط كله مسجل إلى الأبد..

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

(سورة الإسراء14)

جاءوا بجهاز تصوير راداري لمخالفات السير، جاءوا به حديثاً، ووضعوه بطريق المطار، ضبطوا سائقا بمخالفة سرعة زائدة، فأحبوا أن يمتحنوه، أنك أنت كنت في المطار يوم كذا وكنت، مخالفاً السرعة، الله يصلحه ويهديه، حلف بدينه، بربه، لم يكن بالمطار إطلاقاً، تفضل الصورة، أليست هذه السيارة ملكك، هذه التاريخ عليها مع الصورة، فسكت.

هكذا الآخرة، إنها كشريط مسجل بالصورة والصوت، ألم تفعل كذا ؟ ألم تقف هذا الموقف ؟ ألم تنظر إلى فلانة من ثقب الباب ؟ عليك تصوير، ولا تدري بنفسك، أنت تتصور، ألم تفعل كذا ؟ ألم تُضِف

الماء للحليب داخل بيتك ؟ ألم تقل كذا وأنت في هذا ليس صادقاً ؟ فأين أنت ذاهب ؟ كله مسجل، لذلك الإيمان أن ترى أن الله معك، الإيمان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك، هذا الإيمان، تحت المراقبة.

والله إذا عرف الإنسان نفسه أنه مراقب تجده يأخذ احتياطات بالغة جداً، فإذا كان في طريق يقول لك: هذا لا أريد أن أمشي فيه، فأي شيء تجده قد أخذ احتياطا بالغا، إذا راقبك إنسان تجد أنك ضابط للسانك، و ضابط حركاتك، وسكناتك، وكلماتك، وهاتفك ضبطته كله، فكيف لو راقبك الواحد الديان ؟ فأنت تحت المراقبة، في بيتك، مع أولادك، مع زوجتك، وأنت تأكل، أكلت اللحم وحدك، ألا يراك الله ؟ يا ترى أطعمت من حولك بالعدل ؟ كنت موضوعياً ؟.

فكلمة هدى إذا عرفت أن الله يطلع عليك استقمت، فإذا استقمت جاء التجلي، شعرت بسعادة، شعرت بسرور، شعرت برقي أنك إنسان كريم على الله عزّ وجل، مخلوق مكرّم، مخلوق عالي المقام، جالس لمهمة خطيرة جداً، جاء الله بك إلى الدنيا كي تتعرف إليه، كي تهدي خلقه، تجد عملك موظّف لله، مصلحتك، فلا يوجد عندك أخذ ما ليس لك، لا، فهذه مصلحتك بخدمة المسلمين، تربح وتعيش، لكن الهدف الأول أن تخدم المسلمين، وأن تنفق على نفسك أهلك.

الطبيب لخدمة المسلمين، والمهندس، والمدرس، والبائع، والصانع، والعامل، دخلت بيتك، هذا البيت ليس للمتعة، لهداية الزوجة والأولاد والبنات، هؤلاء خلفاؤك من بعدك، هؤلاء عملك الصالح، هؤلاء استمرارٌ لك بعد مماتك، فإذا خلف الرجلُ ابنا متفوقا في العلم الديني مثلاً، إذا كنت قد تركت أثراً كبيراً، فأنت تعيش في زمن دقيق جداً، كل شيء مسجل عليك، فإياك أن تضيّع ساعةً، أو دقيقةً، أو ثانيةً، هدىً، البداية الهدى، والنهاية الرحمة.

إنّ كلمة رحمة فيها كل شيء، تبدأ من الطمأنينة إلى الاستقرار النفسي، والشعور بالسعادة والشعور بالقرب من الله عزّ وجل، والشعور بالتفوق والفلاح..

(هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)

الإحسان:

مجالات الإحسان:

هل أنت محسن ؟ أيضاً كلمة جامعة مانعة، أحسنت في إيمانك، أحسنت في عقيدتك، أحسنت في استقامتك، أحسنت في خدمتك، أحسنت في مهنتك، أحسنت في أبوّتك، أحسنت في أخوّتك، أحسنت في بنوّتك، أحسنت مع جيرانك، أحسنت مع زبائنك، أحسنت مع نفسك، أحسنت مع الحيوان حينما ذبحته، هل جعلت السكين حاداً، قال له: هلا حجبتها عن أختها ؟ أحسنت مع الحشرات حينما قتلتهم، عذبتهم أم قتلتهم قتلاً سريعاً، أحسنت مع الطبيعة، هل لوّثت البيئة، فالمحسن لو قام بنزهة وأكل، يجمع الفضلات في كيس، ويأخذها معه، أما أن يرمي القشور ويمشي فإنه ليس محسنًا **!!** كلها محلات جميلة، كلها بقايا طعام وقشور، هذا العمل ليس إحساناً، كلمة محسن بدءاً من عقيدتك، مروراً بعبادتك، واستقامتك، وعملك الصالح، ومهنتك، وبيتك.

(هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (02-13): تفسير الآيات 4 - 9 ، صفات المحسنين
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-05-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الثاني من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم (1) تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3))

هؤلاء هم المحسنون، والقرآن أحياناً يَسْلُكُ أسلوب الإيجاز، فالمحسن هو مَن أحسن في عقيدته، وأحسن في استقامته، وأحسن في عمله، هؤلاء هم المحسنون..

صفات المحسنين:

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

الصفة الأولى: إقامة الصلاة:

1- معنى إقامة الصلاة:

وكأن الله سبحانه وتعالى جمع الدين كلّه في كلمتين: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، إقامة الصلاة أي: تحسين العلاقة مع الله، فهذه الصلوات الخمس التي نصليها ما هي في الحقيقة إلا اتصال العبد بالله عزّ وجل، ولكن من السذاجة أن نظن أنه بمجرّد أن يقف الإنسان متوضّئاً، ويتّجه نحو الكعبة، ويكبّر تكبيرة الإحرام، ويقرأ دعاء الثناء، والفاتحة وسورة، ويركع، ويسجد، من السذاجة أن يظن أن هذه صلاةٌ وكفى، لن تستطيع أن تقيم الصلاة، لأن الله عزّ وجل يقول:

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)

كيف أنك تقيم البناء، لابدّ من جهودٍ كبيرة تسبق إنشاء البناء، كذلك أن تقف بين يدي الله عزّ وجل مصلياً من دون أن تكون مستقيماً على أمره، إنّ هذه الصلاة جوفاء، أن تقف بين يدي الله عزّ وجل مصلياً من دون أن يكون دخلك حلالاً، فهذه صلاةٌ جوفاء، أن تقف بين يدي الله عزّ وجل مُصلياً من دون أن تضبط جوارحك، فهذه صلاةٌ جوفاء، لذلك ربنا عزّ وجل وصف الناس مع تقدُّم الزمان فقال:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ)

(سورة مريم: من الآية 59)

2– معنى إضاعة الصلاة:

العلماء قالوا: إنّ إضاعة الصلاة ليس تركها، ولكن إضاعتها حينما لا نخشع فيها، ومتى لا نخشع فيها؟ إذا تخلّلتها المعاصي ؛ دخله حرام، كلماته ليست منضبطة، جوارحه ليست منضبطة، لا يسير على منهج الله، فإذا قام ليصلي ماذا يفعل ؟ لذلك المنافقون وصفهم الله عزّ وجل فقال:

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصّلاةِ قَامُوا كُسَالَى)

(سورة النساء: من الآية 142)

لأن الصلاة عند المنافق لا معنى لها، يقف، ويركع، ويسجد، ولا يشعر بشيء، فهي أقرب إلى الحركات الإيمائية، وأقرب إلى الطقوس منها إلى الصلاة، ولكن هذا الذي ضبط جوارحه، هذا الذي أنفق ماله، هذا الذي سار على منهج الله عزّ وجل، هذا الذي تَقَصّىَ أوامر الله فطبّقها، هذا الذي تقصّى نواهيه فاجتنبها، هذا الذي أنفق ماله الحلال على حبّه، أطعم الناس بماله، أنفق ماله في سبيل الله لا يبتغي رياءً ولا سمعةً، هذا الذي إذا وقف ليصلي انهمرت دموعه، وشعر أنه قريبٌ من الله عزّ وجل.

حقيقة الصلاة من خلال الكتاب والسنة:

قال تعالى عن الصلاة:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق19)

من معانيها الاقتراب..

(وَأَقِمْ الصّلاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه14)

(إِنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت: من الآية 45)

((الصلاة ميزان، فمن أوفى استوفى))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

((الصّلاةُ نُورٌ))

[من سنن الترمذي عن زيد بن سلام]

((الصلاة طهور))

كما قال عليه الصلاة والسلام..

((الصلاة معراج المؤمن))

كما قال عليه الصلاة والسلام..

((لو يعلم المصلي من يناجي ما انفتل))

[الجامع الصغير]

الصلاة مناجاة، هذه تعريفات الصلاة في الكتاب والسنّة، ربّما عرّفها الفقهاء تعريفاً آخر، قال الفقهاء: **" هي أقوالٌ وأفعالٌ مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم "**، هذا تعريف ظاهر الصلوات، ولكن حقيقة الصلاة:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق19)

حقيقة الصلاة:

(لا تَقْرَبُوا الصّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء: من الآية 43)

حقيقة الصلاة أن تفهم ما تقرأ، أن تعقل ما تقرأ..

((ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها))

[ورد في الأثر]

لذلك أول ما يُسْأل عنه العبد يوم القيامة صلاته، الصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين.

هؤلاء هم المحسنون، هذا الكتاب الحكيم الذي هو هدىً، أي دلالة، البداية بالدلالة، والنهاية بالرحمة للمحسنين، لماذا أحسنوا ؟ لأنهم استناروا بنور الله، ومتى استناروا ؟ عندما صلوا..

(الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَاةَ)

له اتصالٌ بالله عزّ وجل، له اتصالٌ في أثناء الصلاة، وله اتصالٌ خارج الصلاة، وأما الاتصال خارج الصلاة فقد أشارت الآية الكريمة:

(الّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ)

(سورة المعارج 23)

من معاني الصلاة:

أي أنك إذا خرجت من بيتك وقلت: **" يا رب، إني أعوذ بك من أن أضِلَ أو أُضَل، أو أزِلّ أو أُزَل، أو أجهل أو يُجْهَل علي"**، فأنت في صلاة، إذا دخلت بيتك، ودعوت الدعاء المأثور فأنت في صلاة، إذا

أقدمت على عمل وقلت: **" اللهمّ إني تبرّأت من حولي وقوّتي، والتجأت إلى حولك وقوّتك يا ذا القوّة المتين "**، فأنت في صلاة، إذا أردت أن تدخل السوق فدعوت الدعاء المأثور فأنت في صلاة، فلماذا سَنّ النبي هذه الأدعية في كل حركات الإنسان ؟ في عمله، في بيته، إذا أقدم على عملٍ معيّن، لأن الدعاء مُخُّ العبادة، والدعاء نوعٌ من أنواع الصلاة، فأنت تصلي في أثناء الصلاة، وتصلي خارج الصلاة من خلال الدعاء، من خلال الذكر، من خلال التسبيح، من خلال التحميد، من خلال التكبير، من خلال التهليل، من خلال قراءة القرآن.

إذاً:

(الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَاةَ)

المعصية حجاب في وانقطاع في أثناء العبادة:

الآن سأقف وقفة قليلة جداً، أوضِح هذا بمثل: عندك أجهزة كهربائيّة كثيرة ؛ عندك المكواة، وعندك البرّاد، وعندك المروحة، وعندك المسجّلة، وعندك المكيف مثلاً، وعندك هذه الثريات، وعندك أجهزة كثيرة جداً، كل هذه الأجهزة عبءٌ عليك إن لم تسرِ فيها الكهرباء، أما إذا سَرَت الكهرباء فيها قطفت ثمارها جميعاً، المروحة أدّت وظيفتها، والبَرّاد أدّى وظيفته، والمدفأة أدّت وظيفتها، والمكواة أدّت وظيفتها، كل هذه الأجهزة الكهربائيّة إن لم تسرِ فيها الكهرباء فهي عبءٌ على صاحبها، أما إذا سرت فيها الكهرباء قطف ثمارها.

وهذا الشريط الكهربائي إذا كان متقطِعاً، فالكهرباء واقفة، الكهرباء لا تسري إلا إذا كانت الدارة مغلقة، ما دام فيه قطع فالكهرباء واقفة، معطّلة، وما دامت الكهرباء معطّلة فكل هذه الأجهزة معطّلة.

ولقد أردت من هذا المثل أن أوضِّح أنه: إذا أقام الإنسان على معصية، وأصرّ عليه صغيرةً أو كبيرة انقطع عن الله عزّ وجل، إذاً تصبح العبادات عبئاً عليه، الصلاة ثقيلة، والصيام ثقيل، إن لم تستقم على أمر الله لا تذوق حلاوة الصلاة، إن لم تبذل الغالي والرخيص لا تذوق حلاوة الصلاة، إن لم تضبط جوارحك كلّها على منهج الله لا تذوق حلاوة الصلاة، فإذا أخذت من الدين بعضه، واستمعت إلى بعض مجالس العلم، ولم تكن منضبطاً كما أراد الله عزّ وجال، ربّما وقفت في الصلاة لم تشعر بشيء، ربّما جاء رمضان وذهب رمضان ولم، تشعر بشيء، ربّما ذهبت إلى الحج وعدت من الحج، ولم تشعر بشيء، لا تشعر بالقرب إلا إذا دفعت ثمن القرب..

تعصي الإله و أنت تُظْهِرُ حبّه ذاك لعمري في المقالِ بديع

لو كان حبُّك صـادقاً لأطعته إنّ المحبّ لمن يحبُّ يطيعُ

***

والله أيها الإخوة الأكارم، كل ثمار الدين في طاعة الله، كل ما في الدين من بهجة، من نورانيّة، من شعور بالأمن، من شعور بالقُرب، من شعور بالتفوّق، من شعور بالفوز، من شعور بالفلاح، كل سكينة النفس في طاعة الله عزّ وجل، فهذا الذي يعصي الله لا يعرفه، وحينما عصاه جعل بينه وبين ربّه حجاباً، والمعاصي بريد الكفر، والذنوب تقطع الإنسان عن ربّه.. اللهمّ لا تقطعنا بقواطع الذنوب..

(الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلَاةَ)

إن لم تصحّ صلاة الإنسان يجب أن يقلق قلقاً كبيراً، يجب أن يهتم، لهذا كله كن مهتماً أيها الإنسان، الآن ما الذي يهمّ الإنسان ؟ ما الذي يَقْلَق له ؟ ما الذي يجعله واجم الوجه ؟ ما الذي يجعله مُنقبض الصدر ؟ إن لم يُيَسّر إلى عملٍ جيّد، إن لم يُوفّق إلى زواج، إن لم يشتر بيتاً، ولكن المؤمن الصادق ينقبض، ويقلق، ويتألّم، ويحزن إن كانت صلاته جوفاء لا معنى لها، لذلك:

(وَأَقِمْ الصّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه 14)

الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، وسيدة القُرُبات، وغرّة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، والذي يذوق طعم القُرْبِ في الصلاة يعرف معاني هذه الكلمات، كان عليه الصلاة والسلام كما تقول السيدة عائشة كان يحدِّثنا ونحدِّثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا نعرفه ولا يعرفنا "، أيْ أنه دخل في الصلاة.

عَنْ الْأَسْوَدِ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ، قَالَتْ:

((كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتْ الصّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصّلَاةِ))

[البخاري]

تهيئة الظروف المناسبة للصلاة:

إذا أتقن الإنسان الصلوات الخمس فقط ؛ أي أتقن قيامها وركوعها وسجودها، إذا صلاّها وكان فارغ القلب، لو كان منشغلاً، وصلّى تصبح الصلاة جوفاء، كل وصل، نم وصل، انهَ عن هذا العمل وصل، فمن أجل أن تكون الصلاة كما أراد الله عزّ وجل يجب أن تهيّئَ لها الظروف المناسبة.

فمن الظروف المناسبة أن تصلي، وأنت خالي الذهن، لو جاءتك رسالة فتحدِّثك نفسك: ماذا قال فيها ؟ هل فيها حوالة أم لا ؟ اقرأها، ثم صل يا أخي، لئلا تنشغل بها في الصلاة، فدائماً فرّغ قلبك للصلاة، صلِّ في غرفةٍ هادئة، هذا الذي يصلي وقلبه مشغولٌ بزيدٍ أو عُبيد ما ذاق طعم الصلاة..

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

الصفة الثانية: إيتاء الزكاة:

الزكاة إحسان إلى الخلق:

هذه الآية نزلت في مكّة المكرّمة قبل تشريع الزكاة، إذاً الزكاة هنا بمعنى الإحسان، أي أن الدين اتصالٌ بالخالق وإحسانٌ إلى المخلوق، هناك حركة نحو السماء وهي الصلاة، وحركة نحو الأرض، وهي الإحسان، فإن لم يكن لك بالله صلة، وإن لم يكن لك مع الناس إحسان ما عرفت معنى الدين، الدين في جوهره اتصالٌ بالخالق وإحسانٌ إلى المخلوق، وفي بعض الآيات الكريمة أشار الله عزّ وجل إلى هذا المعنى المُكَثَّف فقال:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

(سورة مريم31)

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

الصفة الثالث: الإيمان باليوم الآخر:

1– الموت دافع إلى الإحسان والعمل الصالح:

لكن ما الذي دفعهم إلى ذلك ؟ أن الحياة تنتهي بالموت، وأن بعد الموت حياةً لا تنقضي الحقيقة لا يمكن أن تستقيم على أمر الله، ولا يمكن أن تندفع إلى باب الله إن لم تؤمن بالآخرة، الدنيا زائلة..

((أتاني جبريل فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس))

[الجامع الصغير]

2– الحياة تنتهي بالموت:

الحياة تنتهي بالموت، بعد الموت حياةٌ أبديّة، لذلك يقول الله عزّ وجل في سورة الفجر متحدّثاً عن هذا الإنسان الضائع:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر24)

أية حياةٍ هذه ؟ الحياة الأبديّة، لأن هذه الحياة التي نعيشها سمّاها الله الحياة الدنيا، دنيا وليست عليا، حياة إعدادٌ للحياة الأبديّة، تهيئةٌ للحياة الأبديّة، قال:

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

أوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

1 – المهتدي فوق الهدى:

وبيّنت في دروسٍ سابقة كيف أن المهتدي فوق الهدى، وأن الهدى في خدمة المُهتدي، وأن الهدى جاء ليرفع المهتدي، وأن الهدى جاء ليكرّم المهتدي، وأن الهدى جاء ليحفظ المهتدي، فأنت كلّما اتبعت الهدى كان هذا لصالحك، كان هذا من أجلك، كان هذا من أجل أن تكون في أعلى مكان..

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى)

2 – الضالّ منغمس في الضلال:

أما الكافر..

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ)

(سورة الروم: من الآية 44)

وأما الضلال فاستخدم الله معه كلمة في..

(وَإِنّا أَوْ إِيّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة سبأ)

المهتدي على الرغم من أنه يبدو أنه مقيّد بالشرع، لكن هذا القيد هو الذي رفعه إلى أعلى عليين، بينما الضال على الرغم من أنه يبدو للناس حراً في تصرُفاته، إنّ هذه الحريّة المزيّفة تقوده إلى الحبس، وإلى القيد، وإلى الدخول في القهر، والذل، والهَوان..

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

الناس كلهم يسعون إلى الفلاح، ويختلفون في حقيقته:

من منا لا يحبُّ أن يكون فالحاً ؟ شهد الله أنه ما من إنسان على وجه الأرض إلا ويتمنى أن يكون من الفالحين، ومن الفائزين، ومن المتفوّقين، ومن الناجحين، النجاح هدف كل إنسان ؛ ولكن المشكلة أن الإنسان إذا عميت بصيرته لا يعرف من أين النجاح، يظنُّه من هذه الجهة، وهو في هذه الجهة المعاكسة.

(أولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

الآن يقول الله عزّ وجل:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

(وَمِنَ النَّاسِ)

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ

1 – فائدة قرآنية: لا للتعميم:

هذه من للتبعيض، أي بعض الناس..

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي)

2 – معنى الشراء:

ما هو الشراء قبل كل شيء ؟ أنت حينما تشتري حاجةً وتعطي الثمن، يجب أن تعلم علم اليقين أنه لو لم تكن هذه الحاجة أغلى عندك من هذا الثمن لما اشتريتها، ففي نَفْس المشتري لا يمكن أن تشتري شيئاً إلا إذا رأيته أغلى من ثمنه عندك، وأما البائع فلا يبيع شيئاً إلا إذا رأى ثمنه أغلى منه، إن رأيت أن ثمنه كبير لا تشتريه، لا تشتري إلا إذا رأيت أن هذا الشيء أغلى من هذه الأوراق التي تدفعها للبائع، والبائع لا يبيع هذه السلعة إلا إذا رأى هذه الأوراق أغلى من هذه السلعة، فعمليّة الشراء في أساسها عملية مُبادلة، تأخذ السلعة، وتدفع النقد أو الثمن.

3 – المغبون مَن اشترى شيئا بثمن باهظ:

مثلاً: إذا دفع الإنسان ثمناً باهظاً، وأخذ سلعة سيئةً يشعر بالخسارة والندم، يشعر بأنه مغبون، يشعر بالضيق، يتألّم جداً، إذا شعر أن هذه السلعة ليست كما يحب، ليست كما يريد، ليست من بلد المنشأ، إنها مزوّرة، إنها صُنِعَت في بلدٍ آخر، إنها غير جَيّدَة، إذاً: هو يرى أن الثمن الذي قدّمه كبير جداً، وأنها لا تستحقُ هذا الثمن، إذاً البيع والشراء عمليّة مبادلة، تأخذ شيئاً، وتعطي شيئاً، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ)

4 – الوقتُ أعظمُ رأس مال الإنسان:

هو قدّم وقته، وأثمن ما تملكه أنت الوقت، لأنك وقت، إذا قدّمت وقتك قدّمت نفسك، من أنت ؟ أنت بضعة أيام، أبداً، فكل إنسان حينما يموت هذا مات عن عمر سبعين عاماً، وهذا مات عن ستين عاماً، هذا مات عن خمسين عاماً، هذا مات عن أربعين عاماً، إذاً: الإنسان في حقيقته وقت، مجموعة سنوات، ومجموعة أشهر، ومجموعة أسابيع، ومجموعة أيام، ومجموعة ساعات، ومجموعة دقائق، ومجموعة ثوانٍ، حتى العظماء أحياناً يقولون لك: مات في الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين، والثانية السابعة والخمسين، وحينما ولد عُرِفَ متى ولد، إذاً: عاش في هذه الدنيا كذا عام، لذلك أثمن شيءٍ تملكه هو الوقت، لأنك وقت، ولأنك في حياة يُبْنى عليها، إما في جنّةٍ يدوم نعيمها أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

فمثلاً للتوضيح: أنت على طاولة الامتحان مدة ثلاث ساعات أو ساعتين كما في الجامعة الآن، هذه الساعات ربّما بني عليها مستقبلك، فإذا كنت متمكِّنا من هذه المادّة، وكتبت كتابة جيدة، الأوراق صُحِحَت، نلت علامة جيدة، أصبحت طبيباً، فتحت عيادةً، جاءك الناس، جاءك الدخل الوفير، فتزوجت، واشتريت بيتاً، وعشت حياةً كريمة، مثلاً، إذاً هذه الساعات الثلاث، أو هاتان الساعتان اللتان كتبت فيهما، بني عليهما أنك أصبحت طبيباً.

5 – الدنيا امتحان لحياةٍ أبديّة:

لكن الدنيا كلُّها امتحان، امتحان لحياةٍ أبديّة، وأخطر ما فيها الامتحان.. لو فرضنا أن طالباً أمضى هذه الساعات في التفكير فيما سيأكل غداً مثلاً، هذا غير معقول، فهذا وقت ثمين جداً، لو أن قلمه تعطّل تجد معه قلماً آخر، أراد أن يُصْلِح هذا القلم، فكّه كله، وطلب كأسا من الماء لكي يغسله، هل معقول أن يصلِح قلمه في أثناء الامتحان ؟ يستهلك نصف ساعة، هذا غير معقول، هل معقول أن يجري حساباته

في أثناء الامتحان ؟ غير معقول، هل معقول أن يفكر متأملاً حوالي نصف ساعة بلا سبب ؟ هذا الوقت محسوب عليه، يجب أن تعلم علم اليقين أنك في امتحان، وأن أخطر ما في الامتحان الوقت.

ما هو لهو الحديث ؟

النشاط الكلامي بأقسامه الثلاثة: المحرم والمباح والواجب:

فهذا الذي يشتري لهو الحديث، اللهو هو أي شيءٍ شغلك عن العظيم فهو اللهو.

إذاً: عندنا معنى يشتري، ومعنى الحديث هو الكلام، الإنسان له نشاط كلامي، أي أنه يتكلّم ؛ حق، باطل، مِزاح، كلام جاد، كلام مفيد، كلام مُمتع، كلام غير ممتع، كلام ضار، يعصي الله بالكلام، أحد أكبر نشاطات الإنسان هو الكلام، قال أحد الصحابة الكرام:

((يَا نَبِيّ اللّهِ، وَإِنّا لَمُوَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلّمُ بِهِ ؟ فَقالَ: ثَكِلَتْكَ أُمّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبّ النّاسَ فِي النّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

[سنن الترمذي عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ]

يجب أن تعلم أن هذا اللسان حينما يتحرّك، ومارس نشاط الكلام، هذا الكلام إما أن ترقى به إلى أعلى عليين ؛ وإما أن تهبط به إلى أسفل سافلين، معاصي الكلام ؛ الغيبة، النميمة، الإفك، الافتراء، الإيقاع بين الناس، الإفساد، إفساد العلاقات، السخرية، الاستهزاء، الفُحش، البذاءة، الاحتقار كأن يحتقر إنساناً بكلمةٍ، أو بنظرةٍ، أو بعبارة، أن يقلِّد إنساناً في حركاته، وسكناته، وأقواله، وأفعاله.

وهناك كلام مباح ؛ ماذا أكلت اليوم ؟ وكيف كان الطعام ؟ ومن أين اشتريت هذه الخضار ؟ وكم دفعت ثمنها ؟ هؤلاء الأناس العاديون أحياناً يستهلكون أوقاتهم في كلامٍ لا معنى له، والنبي عليه الصلاة والسلام كما تعلمون، دخل إلى المسجد فرأى رجلاً تحلّق الناس حوله، فهو سأل سؤال العارف فقال:

((من هذا ؟ " قالوا: " هذا نسّابة "، قال عليه الصلاة والسلام: " وما نسّابة ؟ " فقالوا: " يعرف أنساب العرب "، قال: " ذلك علمٌ لا ينفع من تعلّمه ولا يضر من جهل به))

[ورد في الأثر]

نحن إذا قسّمنا النشاط الكلامي إلى أقسام ثلاثة، نشاط محرّم مثل: غيبة، نميمة، فساد، تفريق، سخرية، محاكاة، استهزاء، احتقار، فُحش، بذاءة، ونشاط يرفعك إلى أعلى عليين مثل: ذكر الله، تعريف الناس بالله، الإرشاد، الدلالة على الله، الأمر بالمعروف النهي عن المنكر، وكلام ليس محرّماً، وليس مندوباً، وليس عملاً صالحاً إنما هو مباح ؛ كالحديث عن الطعام والشراب، وأشياء لا تقدِّم ولا تؤخِّر، فالإنسان

إذا تكلّم في الصِنْفِ الأول وقع في المعاصي، وقع في الحُجُب، وقع في الضلال، وقع في البعد عن الله عزّ وجل، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رُضْوَانِ اللّهِ عَزّ وَجَلّ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَرْفَعُهُ اللّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنّمَ))

[من مسند أحمد عن أبي هريرة]

أحياناً بكلمة يدفع الزوج إلى تطليق زوجته، كلمة يجعل هذا الطفل مشرّداً، أحياناً زوجة الأب توغر صدر الأب على ابنه الذي ليس منها، يطرده في ساعة غضب، هذا الطفل يهيم على وجهه، وقد ينحرف، قد يرتكب السرقة، قد يرتكب الفعل المنافي للحِشْمَة، وقد يغيب عن البيت أياماً عديدة، بسبب كلمة قالتها هذه المرأة لتشفي غليلها من ابن زوجها، فوقف الأب موقفاً أحمق، طرده من البيت، فانحرف، كلمة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إِنّ الرّجُلَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النّارِ))

[الترمذي]

ربّما تكلّم الإنسان بكلمة دفع صاحبها إلى جريمة قتل، فلذلك هناك كلام يهوي بالإنسان إلى أسفل سافلين، وهناك كلام يرفعك إلى أعلى عليين، وهناك كلام مُباح، ولكن علّته أنه يستهلك الوقت، كهذا الذي أراد أن يُصلِّح قلمه أثناء الامتحان، معه قلم ثانٍ، أو أراد أن يعد دراهمه أو يجري حساباته أثناء الامتحان، فيجب أن تترك الكلام المباح الذي لا طائل منه صوناً للوقت..

((إِنّ اللّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثلاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ))

[من سنن الترمذي عن المغيرة بن شعبة]

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

[الجامع الصغير عن أنس]

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

[من سنن الترمذي عن أبي هريرة]

((إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها))

[الجامع الصغير عن الحسن بن علي]

فمن علامات الإيمان أن تنشغل بهمومٍ عُليا، بهمومٍ مقدّسة، قال:

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ)

الشعر والفن غير الهادف من لهو الحديث:

الشعر غير الهادف من لهو الحديث:

جئت لا أعلم من أين ولــكني أتيتُ

ولقد أبصرت قدّامي طريقاً فمشيــت

أين كنت ؟ أين أصبحت ؟ لست أدري

و لماذا لست أدري ؟ لســت أدري

***

فما هذا الكلام ؟، هناك شعر في الهجاء، وشعر في الرثاء..

ولو أن النساء كمن فقدن لفضّلِت النساء على الرجالِ

***

من هذه المرأة التي ما ذكرها التاريخ ؟ كلامٌ فيه مبالغة كبيرة جد، فالشعر إن لم يكن ملتزماً بالدعوة إلى الله عزّ وجل فهو من لهو الحديث.

قصّة ثمانمائة صفحة تمضي بها أسبوعاً أو أسبوعين، مغزاها كلمتان، هذا من لهو الحديث، الأعمال القصصية، الأعمال المسرحيّة أحياناً، إذا ما كان فيها مغزى كبير جداً فهي لهو، طبعاً إذا قرأت قصّة أو قصيدةً، وشعرت أنها حرّكت مشاعرك العُليا وتفكيرك المرتفع فأنت أمام فنٍ رفيع، فإن لم تحرّك إلا التافِهَ من مشاعرك والمبتذل من أحاسيسك فأنت أمام فنٍ رخيص.

مِن أنواع لهو الحديث:

الفن الرخيص أن تقرأ شيئاً يحرّك المشاعر البهيميّة في الإنسان، هذا من لهو الحديث، شعر، قصّة، سهرة ليس فيها شيء إلا حديث وغيبة، ونميمة، ومزاح رخيص، وتعليقات لاذعة، وتقليد، ومحاكاة، أنت أرقى من ذلك، هذا لهو الحديث، سواء كان كلامًا، أو لقاء، أو نزهة، أو كان قراءة كتاب أو مجلّة أو قصّة، كقراءة مجَلاّت متعلّقة بفلانة وفلان، المجتمع المخملي مثلاً، وماذا فعل فلان ؟ ومتى تزوّجت فلانة ؟ ولماذا طُلِّقت فلانة ؟ أين أنت، أعندك وقتٌ لهذا ؟ هذا من لهو الحديث، قال:

(وَمِنَ النّاس مَنْ يَشْتَّري لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ)

تفسير القرطبي للآية: لهو الحديث هو الغناء:

الحقيقة الإمام القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن، أسهب في تفسير هذه الآية، وأردت أن أنقل لكم شيئاً عن تفسير هذه الآية لهذا الإمام الجليل، يقول:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ)

" لهو الحديث: الغناء، في قول ابن مسعودٍ وابن عبّاسٍ وغيرهما "، فلهو الحديث عند القُرطبي هو الغناء في قول ابن مسعودٍ وابن عبّاسٍ وغيرهما، قال: **" وهو ممنوعٌ بالكتاب والسُنّة "**، لأن الغناء يثيرُ الغرائز، ويحرّك الشهوات، ويغري بالمعصية، ويدفع إلى ما حرّم الله عزّ وجل، ويعيش الإنسان في أجواء معيّنة، فالغناء ممنوعٌ بالكتاب والسنّة.

الآيات الدالة على تحريم الغناء:

وهذه الآية هي إحدى الآيات الثلاث التي استدلّ بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه..

الآية الأولى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ)

الآية الثانية:

(وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)

(سورة النجم 61)

اسمدي لنا أي غني لنا.

أحياناً إذا الإنسان استغرق في الغناء أصبحت حياته كلها غناء، وهو يعمل يسمع الأغنيات، فتصدح في المحل التجاري، وهو في المعمل تصدح الأغنيات، وهو في مركبته يستحضر هذه الأشرطة ليسمع الغناء، وهو في بيته، في كل حركاته وسكناته غارقٌ في الغناء.

الغناء والقرآن لا يلتقيان، فإذا كانت حياتك غناءً فأنت بعيدٌ عن كتاب الله بُعْدَاً شديداً، فلذلك الآية الثانية:

(وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)

(سورة النجم61)

الآية الثالثة:

والآية الثالثة التي استدلّ بها العلماء على تحريم الغناء..

(وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ)

(سورة الإسراء: من الآية 64)

أحياناً يموت المُغني فيموت معه أناسٌ كثيرون، هناك من ينتحر لموت بعض المُغَنِّين، هناك من يزور قبره، ومعه المسجِّلة ليسمع إلى أغنياته التي كان يَطْرَبُ لها، وقد يأتي علماء كبار ليعزّوا بوفاة بعض المغنيين أيضاً، وهذه مشكلة كبيرة جداً، على كُلٍ هذه الآيات الثلاث استدلّ بها العلماء على تحريم الغناء ..

(وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ)

قال مُجاهد: **الغناء والمزامير**، حلف ابن مسعود بالله الذي لا إله إلا هو ثلاثَ مرّات على أن لهو الحديث هو الغناء، هذا عندما سئل عن قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ)

أقوال الصحابة والسلف في هذه الآية:

1 – قول ابن مسعود:

فقال: **<< الغناء والذي لا إله هو هو، ردّدها ثلاث مرات >>.**

2 – قول ابن عمر:

عن ابن عمر قال: **<< إنه الغناء >>.**

وبهذا قال عكرمة وميمون بن مهران ومكحول.

وعن ابن مسعودٍ أيضاً قال: **الغناء ينبت النفاق في القلب.**

أنا أنقل لكم ما في التفاسير، هذا تفسير القرطبي، وعنوان هذا التفسير **" الجامع لأحكام القرآن ".**

3 – قول مجاهد:

وقال مجاهد وزاد: **" إن لهو الحديث في الآية الاستماع إلى الغناء، وإلى مثله من الباطل "**، أي أنك جلست إلى كاهن.

طبعاً:

((مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ))

[من سنن ابن ماجة عن أبي هريرة]

هذا إن صدقه، أما إذا لم يصدقه..

((من أتى ساحراً فلم يصَدِّقه لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، ولا دُعاء أربعين ليلة))

[ورد في الأثر]

لأن الاعتقاد بأن إنساناً يعلم الغيب هذا كفر، لأنه رد لقوله تعالى:

(قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ)

(سورة النمل: من الآية 65)

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن 27)

حتى لو سألت: أخي انظر لي في الفنجان، فيقول لك: والله سيأتيك مبلغ من المال، أمامك مشكلة. سيتزوج أحدهم من أقربائك، خير إن شاء الله، هذا لهو الحديث، هذا كلام لا معنى له، دائماً كن جادّاً، لك أن تلهو لهواً بريئاً، إذا جلس الإنسان مع أهله، وكان إذا دخل بيته كما كان النبي عليه الصلاة، كان إذا دخل بيته بسّاماً ضحّاكاً، لك أن تسأل، أن تجيب، أن تمزح مزاحاً بريئاً، لك أن تستمتع بما أباح الله لك، من دون أن تقع في معصية اللهو، واللهو أن تنشغل بشيءٍ تافه عن شيءٍ ثمين، أن تنشغل بالخسيس عن النفيس.

لو أن أحداً غاص في البحر ليأخذ اللؤلؤ، فجاء بالأصداف، وانشغل بها عن اللؤلؤ فهذا لهو، فأي شيءٍ تفعله يتناقض مع هدفك الكبير هو لهو.

قال مجاهد: **" إن لهو الحديث في الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثله من الباطل ".**

أي قصّة باطلة، قصيدة باطلة، عمل فني باطل لا يقدّم شيئاً، يستهلك الوقت من دون أن تستفيد منه، أنت وقت، أتُسْتَهْلَكَ هكذا بلا ثمن ؟

4 – قول مالك بن أنس:

وقال ابن القاسم: سألت الإمام مالك عن قوله تعالى:

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقّ إلا الضّلالُ)

(سورة يونس: من الآية 32)

قال: لهو الحديث..

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقّ إلا الضّلالُ)

الحق واحد، الحق طريق مستقيم، الحق خط مستقيم بين نقطتين، فأي انحرافٍ عن هذا الخط فهو باطل.

5 – قول البخاري:

الإمام البخاري في صحيحه عقد باباً سمّاه: باب كل لهو باطل إذا شغل عن طاعة الله، ومن قال لصاحبه: تعالَ أقامرك، وقوله تعالى:

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتّخِذَهَا هُزُواً)

قال: **" إذا شغل عن طاعة الله "**، فهو مأخوذٌ ليضلّ عن سبيل الله.

سبب نزول الآية: وَمِنَ النّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ

بعض علماء القرآن الكريم، ولا سيما من تتبّعوا أسباب النزول، أَوْرَدَ في سبب نزول هذه الآية القصّة التالية:

اشترى النضر بن الحارث كتب الأعاجم، فكان يجلس بمكّة، فإذا قالت قريش: إن محمداً قال كذا، ضحك منه، وحدّثهم بأحاديث ملوك الفرس، ويقول: حديثي هذا أحسن من حديث محمّد، وقيل: كان يشتري المُغَنِّيَات، فلا يظفر بأحدٍ يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينةٍ فيقول لها: أطعميه، واسقيه، وغني له، ويقول: هذا خيرٌ مما يدعو إليه محمد من صلاةٍ وصيامٍ، وأن تقاتل بين يديه.

هذه القصّة أوردها بعض المفسِّرين في تفسير قوله تعالى:

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ)

يدفع له مغنية، يقول لها: أطعميه واسقيه، وغني له.

إنّ الإنسان إما أنه مع عقله أو مع شهوته، إما يسعى أنه لآخرته أو لدنياه، فالسعيد من سعى لآخرته، ومن كان مع ربّه.

أحاديث نبوية محذِّرة من الغناء:

الحديث الأول:

يقول عليه الصلاة والسلام في حديث أبي أمامة:

((ما من رجلٍ يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين أحدهما عن هذا المنكب، والآخر على المنكب الآخر، فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتّى يكون هو الذي يسكت))

[ورد في الأثر]

لأن الغناء يتناقض مع الهدف الكبير من وجودك في هذه الدنيا.

الحديث الثاني:

ويقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام الترمذي من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((أَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ: فَوَجَدَهُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ: فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ: فَبَكَى: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَتَبْكِي ؟ أَوَلَمْ تَكُنْ نَهَيْتَ عَنْ الْبُكَاءِ ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ نَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ، صَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ، خَمْشِ وُجُوهٍ، وَشَقِّ جُيُوبٍ، وَرَنَّةِ شَيْطَانٍ))

[الترمذي]

أي الغناء والمزامير في الأفراح وفي الأتراح، هذان الصوتان ينهى عنهما النبي عليه الصلاة والسلام.

الحديث الثالث:

وفي حديثٍ آخر رواه الإمام جعفر بن محمد، عن أبيه عن جدِّه، عن عليٍّ رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلّم:

((بعثت بكسر المزامير))

[كنز العمال]

الصوت الحسن والتغني بالقرآن:

لكن سأقف وقفة قليلة، ما من حاجة عند الإنسان إلى أن يستمع إلى شيء يطربه، أنا أقسم لكم، واسألوا أياً من تحبون ممن تثقون بحديثهم، إن المؤمن ليطرب طرباً بالقرآن لا يصل إليه ذوّاقو الغناء في

العالَم، حينما نهاك عن الغناء سمح لك أن تتغنّى بالقرآن، المؤمن إذا استمع إلى القرآن من صوتٍ شجي، يفعل هذا الصوت مع هذا الكلام المقدّس، مع كلام خالق الكون في نفسه فعلاً لا يرقى إليه أي ذواقٍ للغناء، فأحياناً مديح النبي، أحياناً صوت المؤذِّن الشَجّي، أحياناً ابتهالاتٌ يسمعها من أناسٍ وهبهم الله صوتاً رخيماً وشجياً، مدائح نبويّة، فكل كلامٍ يرقى بك إلى الله إذا كان بصوتٍ حسنٍ وعذبٍ هذا شيءٌ مسموحٌ به، فأنت حينما تترك الغناء خوفاً من الله عزّ وجل، هناك شيءٌ آخر يحلُّ محلّه، تطرب بالقرآن، تطرب بمديح النبي العدنان، تطرب بالابتهال إلى الله عزّ وجل، فما من شيءٍ أودعه الله في الإنسان إلا وجعل له قناةً نظيفةً يسري عبرها.

الحديث الرابع:

وفي حديثٍ آخر:

((بُعِثتُ بهدم المزامير والطبل))

الحديث الخامس:

وروى الترمذي من حديث عليّ رضي الله عنه أنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا فَعَلَتْ أُمّتِي خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً حَلّ بِهَا الْبَلاءُ))

[من سنن الترمذي عن أنس بن أبي طالب]

الإنسان بين سكرة الأغاني وسعادة القرآن:

فبعضهم يقول: إنّ كبار المغنين الذين أسكروا الناس بأغنياتهم هم سبب تخلّفنا وسبب تقهقرنا، هكذا قال بعضهم في أعقاب النكسات التي ألمّت بأمّتنا، شعبٌ غارقٌ في الغناء، غارقٌ فيما لا يرضي الله عزّ وجل، هذا كيف يتحرّك إلى طاعة الله ؟ كيف يصدر منه الخير ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا فَعَلَتْ أُمّتِي خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً حَلّ بِهَا الْبَلاءُ.. فذكر منها.. وَاتُّخِذَتِ الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَازِفُ..))

صار الغناء جزءً أساسياً من حياة الإنسان.

لآن إذا دخلت إلى المحلات التجاريّة، إلى المعامل، أينما تحرّكت تجد الأغاني تصدح بأعلى أصواتها، حتّى إذا سافرت لا تنجو من الغناء، بمركبة عامّة لا تنجو منها، لكن لو أن الإنسان تعرّف إلى الله عزّ وجل يقشعرُ جلده إذا تليت عليه آية..

(وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)

هكذا وعد الله، الإنسان المؤمن يطرب أشدّ الطرب، يمر بسعادة نفسية لا يرقى إليها كل ذواقي الغناء في العالَم.

الحديث السادس:

وفي حديثٍ آخر رواه ابن المبارك عن أنس بن مالك قال عليه الصلاة والسلام:

((من جلس إلى قينةٍ يسمع منها صبّ في أذنه الآنك يوم القيامة قيل: وما الآنك ؟ قال: الرصاص المذاب))

[ورد في الأثر]

الحديث السابع:

وفي حديثٍ قدسي أن الله تعالى يقول يوم القيامة:

((أين عبادي الذين كانوا ينزّهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان ؟ أحِلُّوهم رياض المِسك، وأخبروهم أني قد أحللت عليهم رضواني))

[ورد في الأثر]

الحديث الثامن:

وفي روايةٍ أخرى يقول الله عزّ وجل للملائكة:

((اسمعوهم حمدي وشكري وثنائي، وأخبروهم أن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون))

بشرى للمغني التائب: مَن ترك شيئًا لله عوّضه الله خيرا منه:

طبعاً الحياة ابتلاء، ربّما كان الغناء محبّباً للنفس، لكن المؤمن حينما يرجو ما عند الله، ويترك ما يحبّ في سبيل الله، فإن الله عزّ وجل يعوّضه خيرٌ منه، لذلك:

((ما كان الله ليعذّب قلباً بشهوةٍ تركها صاحبها في سبيل الله))

مهما كنت متعلِّقاً، لذلك بعض كبار المغنِّين في العالَم، حينما عرفوا الله عزّ وجل، أنفقوا كل ثرواتهم على شراء اسطواناتهم وإتلافها خوفاً من الله عزّ وجل، هناك مغنون كبار في إيطاليا لهم قصص شهيرة حينما دخل الإيمان في قلوبهم ندموا على فعلتهم، هناك أناسٌ يعملون في حقول الفن، حينما عرفوا الله عزّ وجل ذاقوا من السعادة ما لا يعرفونها من قبل.

قرأت بعض المقالات عن أناس تابوا إلى الله، وكانوا غارقين في المعاصي، يصفون أحوالهم مع ربّهم كما يصف العارفون بالله، لذلك إذا دخل الإنسان في حضرة الله عزّ وجل يذوب شوقاً وحبّاً، ويستنقع في الرحمة استنقاعاً، فكبار المغنين أصبحوا من كبار المؤمنين، والشيء الذي يؤسَفُ له أن تجد بعض المنشدين، أو بعض قرّاء القرآن أصبحوا مغنين، هذه الشيء نكسة خطيرة جداً، أما العكس فشيءٌ طيّب.

الحديث التاسع:

وفي حديث أبي موسى الأشعري أنه قال: قال عليه الصلاة والسلام:

((من استمع إلى صوت غناء لم يؤذن له أن يسمع الروحانيين في الجنة، قيل: ومن الروحانيون يا رسول اللّه ؟ قال: قراء أهل الجنة))

[أجرخه الحكيم عن أبي موسى الأشعري، وقال السيوطي: ضعيف]

أخرج الترمذي، وهذا الحديث في نوادر الأصول، وفي كتاب التذكِرة:

((مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْهَا فِي الآخِرَةِ))

[من سنن ابن ماجة عن ابن عبد الله بن الحسين]

وخمر الآخرة شيءٌ آخر..

((مَنْ لَبِسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ))

[من صحيح البخاري عن ابن الزبير]

((ومن مات وعنده جارية فلا تصلوا عليه))

[ورد في الأثر]

يقصد بالجارية هنا المغنية.

يقول لك: **ترك أربعمئة وخمسين شريط غناء، ماذا نفعل فيهم ؟ أتلفها كلها.. ""**

((ومن مات وعنده جارية فلا تصلوا عليه))

وقال الإمام القرطبي: **" الاشتغال بالغناء على الدوام سفهٌ تُردُّ به الشهادة "**، لا تقبل شهادته، إذاً:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا)

هذه الهاء تعود على آيات الله..

(هُزُواً أولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

وعيد مَن يتخذ آيات الله هزوا:

هناك عذاب أليم، وعذاب عظيم، وعذاب مهين، فالذي يتخذ لهو الحديث ليضلّ الناس عن سبيل الله، معنى هذا الإنسان مخلوق ليسير في سبيل الله، فأي شيءٍ يعيقه عن سبيل الله، أي شيءٍ يصرفه عن سبيل الله هو لهو.

ما هو اللهو ؟ أن تشتغل بالخسيس عن النفيس هذا هو اللهو، فالإنسان له هدفٌ كبير نفيس، فإذا اشتغل بالخسيس، أمضى وقته في الخسيس، استهلك وقته في الخسيس، ضيّع رأس ماله الكبير، وهو حياته في الخسيس، ونسي النفيس فقد انطبقت عليه هذه الآية:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ)

إذاً يجب أن تكون في سبيل الله، معنى السبيل الطريق، أي أنت في الطريق الموصل إلى الله، العقبات التي توضع في الطريق من قِبَلِ الناس يجب أن تتجاوزها، يجب أن تقفز عليها، لا ينبغي أن تكون هذه العقبة أمامك مانعاً..

(لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

الضلال مقرون بالجهل:

لأن الضلال معه جهل دائماً، ليست هذه كما قال: قيد احترازي بل هذا قيد وصفي، أي أن من خصائص الإضلال عن سبيل الله أن الجهل يرافقه دائماً..

(بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

حينما كنّا في الجامعة قرأنا عن شاعر أمضى حياته في الغَزَل، ما مات إلا متسوّلاً على أبواب المساجد..

(أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

حينما جعل من الشعر، هذه الأداة البيانيّة الرائعة، جعل منها طريقاً للفسق والفجور، ولدعوة الناس إلى الانحراف والمعصية فله عذابٌ مهين، فإذا آتى الإنسان الله طلاقة لسان، وقدرةً في الشعر، يمكن أن تُستخْدَم في الحق، وهؤلاء المغنين الكبار الذين ماتوا، قرأت عن حياتهم كانوا في أول حياتهم قُرّاء قرآن، وكانوا مؤذنين، فهذه الطاقة الفنيّة التي يملكونها لو كانوا وظّفوها في القرآن، وفي دعوة الله عزّ وجل لجمعوا بين الدنيا والآخرة، ولكنّهم آثروا الشهرة الزائفة على طاعة الله عزّ وجل..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً)

فائدة مهمة: لا يجتمع في قلب المؤمن غناء وقرآن:

هذا كلام واضح كالشمس، لا يجتمع في جوف المؤمن غناءٌ وقرآن، كلٌ أحدهما يطرد الآخر، فالقرآن يطرد الغناء، أو الغناء يطرد القرآن، فإذا امتلأ جوف الإنسان غناءً لم يبقَ فيه مكان للقرآن، تجده إذا أراد أن يستمع في الإذاعة إلى القرآن يقول لك: اقلب المحطّة، لا يتحمّل، يشعر بانقباض إذا سمع القرآن، لأن جوفه ممتلئ غناءً..

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7) إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَهُمْ جَنّاتُ النّعِيمِ (8) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9))

فمن أراد أن يتوسّع في موضوع الغناء فليعد لتفسير القرطبي في تفسير هذه الآية:

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (03-13): تفسير الآيات 8 - 11
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-05-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7))

العلاقة بين الآيتين السادسة والسابعة:

الآن الآية التي تَلي هذه الآية تتحدّث عن أهل الإيمان، ولكن يجب أن ننظر إلى العلاقة بين الآيتين، يقول الله عزّ وجل بعد قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ)

هذا الذي يُغَنِّي، أو يحبُّ الغناء، أو غارقٌ في الباطل، أو في الشهوات المُنحرفة، أو الذي يبحث عن لذّته، يبحث عن اللذّة، هذا الذي آثر الشهوة على طاعة الله، هذا الذي آثر الدنيا على الآخرة، هذا الذي أراد الشهوة العاجلة على الجنّة الآجلة.

اسمعوا أيها الإخوة قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ)

هذا هو المؤمن الذي له الجنة في الآخرة:

أي أن المؤمن الذي خاف الله في الدنيا، الذي ضبط جوارحه، الذي كَفّ أذنه عن سماع ما لا يرضي الله عزّ وجل، الذي غضّ بصره، إذا دُعي إلى شيءٍ لا يرضي الله قال: إني أخاف الله رب العالمين، هذا المؤمن الذي بدا في الدنيا أنه قد حرم نفسه هذه الملذّات، هذا المؤمن الذي بدا لأهل الدنيا أنه حرم نفسه هذه المباهِج، هذا المؤمن الذي ظنّه أهل الدنيا متقوقعاً على نفسه، بعيدٌ عن المُتَع، بعيدٌ عن مباهج الحياة، بعيدٌ عن ما في الحياة من لذّات، هذا المؤمن..

هنا دقّة الآية بعد قوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

قال تعالى:

(إنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَهُمْ جَنّاتُ النّعِيمِ)

هؤلاء ما ضاع عليهم شيء ؛ بل كسبوا كل شيء، وأهل الدنيا حَصّلوا شيئاً، وضيّعوا بعدها كل شيء، استمتعوا، استمتع بعضهم ببعض، استمتعوا بالملذّات، استمتعوا بالمُحَرّمات، غاصوا في الشهوات، ومع ذلك جاء الموت فأنهى كل هذه اللذات، ووضعهم أمام حسابٍ عسير.

النقطة الدقيقة أن يبحث في أعماقه عن سعادته ؛ ولكنّه يكون ذكياً جداً، اختار سعادةً لا تنقضي، اختار سعادةً أبديّة على لذائذ مؤقتة، أنا أستخدم السعادة واللذّة، اللذّة دائماً مؤقّتة، ودائماً يعقبها نَدَم وتعقبها كآبة، بينما السعادة متنامية وأبديّة، فلذلك دقّة القرآن الكريم أن هناك ترابطاً بين الآيات، عندما قال ربنا عزّ وجل:

(وَمِنَ النّاس مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7))

هؤلاء المؤمنون الذين ضبطوا شهواتهم، وكفّوا جوارحهم عن المعاصي، وظنّهم أهل الدنيا محرومين، ظنّهم أهل الدنيا مُقَيّدين هؤلاء هم الطُلقاء..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39))

(سورة المدّثر39)

المؤمن طليق، حتى إذا دخل قبره يمتدُ قبره مَدّ بصره، بل إن قبره روضةٌ من رياض الجنّة.

إذاً: من هو الذكي ؟ هل هو الذي نال شيئاً موقتاً وضيّع الأبد ؛ أم الذي ضبط نفسه في هذه الحياة الدنيا؟ الحياة الدنيا ليس فيها حرمان للمؤمن، ولكن فيها نظافة، فيها نظام، فيها قنوات نظيفة بإمكانه أن يُمَرّر شهواته عَبْرَهَا، المرأة من خلال الزواج، والمال من خلال الكسب الحلال، والرفعة في الدنيا من خلال العمل الصالح، إنك إن عملت صالحاً ارتقيتَ اسمك في الدنيا، إنك إن كسبت مالاً حلالاً بارك الله لك فيه، إنك إن أردت أن تُحْصِنَ نفسك بزوجةٍ صالحة وفّقك الله إليها، لو دقّقت في حياة المؤمن تجد أن حياة المؤمن ليس فيها شقاء، وليس فيها شعور بالذنب، ليس فيها شعور بالتَمَزُّق، ليس فيها شعور بالانقباض، ومع ذلك من آثر آخرته على دنياه..

والله أيها الإخوة الأكارم، لو عقلنا أبعادَ هذا الحديث لكنّا أناساً آخرين..

((من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً ـ دنيا وآخرة ـ ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً))

[ورد في الأثر]

لذلك قال ربنا عزّ وجل بعد:

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلّ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (6) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (7) إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

هذه إنّ تفيد التوكيد، تقول: العلم نافعٌ، أو العلم نورٌ، مبتدأ وخبر، مسند ومسند إليه، أما إذا قلت: إنّ العلم نافعٌ، أكّدت هذا الإسناد، فربنا عزّ وجل يقول:

كلامه حق ؛ ولا يؤكِّد لأن كلامه ليس بحق، لكنّه يؤكِّد لنا، ويقول لك:

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

وقفةٌ قصيرة عند..

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

الدين إيمان وعملٌ:

الذي يَلفت النظر أن كلمة:

(الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

تدور في كل القرآن، إشارة إلى أن الدين اعتقاد وسلوك، فأي فرقةٍ، أي جماعةٍ، أي مجتمعٍ، أي طائفةٍ فَصلَت الاعتقاد عن العمل، أكّدت على العمل على حساب الاعتقاد، أو أكّدت على الاعتقاد على حساب العمل هي فئةٌ عرجاء.

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

الإيمان بلا عمل كالشجر بلا ثَمَرَ، كما أن الإيمان بلا عمل لا قيمة له، كذلك العمل من دون إيمان لا يكون، وإذا كان فلأهدافٍ دنيويّة، فإن واجهت إنساناً مُحْسِنَاً، وليس مؤمناً بالله عزّ وجل فهو ذكيٌ ذكاءً اجتماعياً، بحيث يحصِّل متعته الاجتماعيّة من خلال ثناء الناس عليه، هذا شأن أهل الغرب، هذا شأن الأذكياء دائماً، دائماً الذكي يلتقي بعمله مع الأخلاقي في النتائج ؛ ولكنهما يختلفان في البواعث، البواعث متباعدة، هذا باعثه على هذا الموقف الأخلاقي، ذكاءه ومصالحه الأرضيّة، وذاك باعثه مواقفه الأخلاقيّة إرضاء الله عزّ وجل، هذا يسعد بأخلاقيّته إلى أبد الآبدين، لأنه أراد بهذا وجه الله الكريم، وهذا يقطف ثمار أخلاقيّته في الدنيا فقط..

(وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

(سورة البقرة200)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ))

[مسلم]

إذاً: إذا أراد الإنسان العمل الصالح من دون إيمان ففي نيّته خلل، هو ينوي انتزاع مديح الآخرين، ينوي السمعة، ينوي المركز الاجتماعي، والله سبحانه وتعالى ربُّ النيات، والذي يقول لك: أنا مؤمن، ويركِّز على ما في الإسلام من أفكار، ولا ترى في عمله ما يوافق أفكاره، كلا الطرفين قد ضَيَّع شطر الدين، لذلك دائماً وأبداً أكثر من ثلاثمائة أو أربعمائة آية تقول:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

الإيمان والعمل شرطان متلازمان غير كافيين:

أي أن إيمان بلا عمل لا قيمة له، وعمل بلا إيمان لا قيمة له، يمكن أن نقول: الإيمان والعمل شرطان لازمان غير كافيين، عندك أسطوانة غاز ولكن ما عندك رأس، عندك رأس وما عندك أسطوانة، لا الرأس وحده يُجْدِي ولا الاسطوانة وحدها تجدي، نقول: الاسطوانة ورأس الغاز شرطان لازمان غير كافيين، كلٌّ منهما شرطٌ لازمٌ غير كافٍ، فالنقطة دقيقة جداً:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

افحص عملك دائماً، وعملوا الصالحات مطلقة، إتقان عملك جزءٌ من الدين، افحص عملك، إخلاصك في بيعك وشرائك جزءٌ من الدين، والدين في المعمل، والدين وراء الطاولة كموظّف، والدين في العيادة، والدين في المكتب الهندسي، والدين في مكتب المحاماة، والدين في المِهَن، وفي التعامل، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

أبواب العمل الصالح كثيرة:

عمل صالحاً ؛ في مهنته، في علاقاته، في أفراحه عمل صالحاً، في أحزانه عمل صالحاً، في لقاءاته، في نُزهاته، في مرحه، في كل نشاطاته الحياتيّة عمل صالحاً، فعمل صالحاً، أي أنه طبّق الأمر، واجتنب الأمر، وتقرّب إلى الله، بشكل مختصر، طبّق الأمر، واجتنب النهي، وقدّم شيئاً من ماله أو من وقته، أو من علمه أو من خبرته في سبيل الله، فالتزام الأمر، واجتناب النهي، وبذل المعروف، بمجموع هذه النشاطات الثلاثة هو العمل الصالح، وأن تعتقد بأن الله خالق الكون، وربُ الكون، وإله الكون، موجودٌ، وواحدٌ، وكامل، أسماؤه حسنى، صفاته فضلى، هذا هو الإيمان، وأن تؤمن به وبرسله وباليوم الآخر والقدر خيره وشرّه، هذا الدين كلمات مجملة، موجزة، مكثّفة. إنّ حرف توكيد..

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا)

آمن بالله خالقاً، آمن به رباً، آمن به مسيّراً، آمن به رحيماً، آمن به حكيماً، آمن به كبيراً، آمن به غنياً، آمن به موجوداً، آمن به واحداً، آمن بأنه كاملٌ..

(وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف 180)

والعمل الصالح أن يتقرّب إليه بما رزقه، الغني بماله، والعالِم بعلمه، والوجيه بمكانته، والخبير بخبرته، والقوي بعضلاته، والفارغ بوقته..

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

لكن هم السعداء، هؤلاء هم الأذكياء، هؤلاء هم الفائزون، هؤلاء هم الرابحون، هؤلاء هم المتفوّقون، هؤلاء متى تُعْرَف مكانتهم ؟ حينما يقول الله عزّ وجل:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُهَا الْمُجْرِمُونَ)

(سورة يس 59)

ابتعدوا عنهم.

الدنيا دار الامتحان والفرز:

في أثناء العام الدراسي تكون الأوراق مختلطة، كل الطلاب يأتون الساعة الثامنة، يرتدون ثيابهم الأنيقة والنظيفة، كلهم طلاب، عند أهلهم، وعند المجتمع، وفي الطريق يرتدي زيّ الطالب، لكن من الذي يعرف المجتهد من الكسول ؟ هذا يُكشَف يوم الامتحان، أو يوم إعلان النتائج، هُناك الفَرْز. الآن نحن في الدنيا، المؤمن موظّف، المؤمن تاجر، المؤمن قد يكون صانعاً، قد يكون حاجباً مؤمناً،

يأكل ويشرب كغيره من الناس، له بيت، وله غرفة ضيوف، وغرفة استقبال، وغرفة نوم، ويأكل، ويشرب، ويعمل، الأوراق مختلطة، لكن متى تظهر بطولة المؤمن ؟ حين يقوم الناس لرب العالمين، هذا عرف الله، هذا قدّم الغالي والرخيص، هذا كان همُّه مقدّساً، همُّه أن يعرفه، همه أن يعبده، همه أن يتقرّب إليه.

ثمن النجاح في الامتحان جنات عدن:

فلذلك هؤلاء المؤمنون، الصادقون، المخلصون الذين كان عملهم صالحاً، هؤلاء ليس لهم جنّة نعيم ؛ بل لهم جناتٌ النعيم، هناك معنى للجمع، أي جنّة القرب، وجنة الفواكه التي تقدّم لهم مما يشتهون، وجنّة الحورِ العين، هكذا قال أحد أصحاب رسول الله، طولب بشيءٍ فوق طاقته، طالبته زوجته بشيءٍ ما فعله أصحابه من قبل، قال: **" يا فلانة، إن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّت إحداهنّ على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهنّ من أجلك ".**

كلمة جنّات، القرب جنة، أنهار من عسل مصفّى، و أنهار من لبن لم يتغيّر طعمه، و أنهار من خمر لذّةٍ للشاربين، لا فيها غولٌ، طعمها مستساغ، ولا تغتال العقول، العسل مصفّى، الخمر لذّة للشاربين، اللبن لم يتغيّر طعمه، الماء غير آسن، السدر مخضود ليس فيه شوك، فهذه جنّة ؛ جنّة الطعام والشراب، جنة حور العين، جنة الأبد، الإنسان في الدنيا دائماً قلق، هل يا ترى الله يطول في عمره ؟ لا يعرف، فعندما يستقرُّ وضعُ الإنسان الاجتماعي، والمالي، وينجح في الحياة ينشأ عنده قلق الموت، يا ترى متى سأموت ؟ بعد كم سنة ؟ هناك شيء اسمه قلق في الدنيا، أما في الآخرة فالمؤمنون خالدون فيها أبدا..

(إنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَهُمْ جَنّاتُ النّعِيمِ)

ربنا عزّ وجل اختار من الجنات النعيم، لأن هذا الذي يشتري لهو الحديث يتوهّم أنه في نعيم، النعيم الحقيقي لهؤلاء المؤمنين الصادقين، المستقيمين، الملتزمين الذين ائتمروا بما أمر الله، وانتهوا بما عما عنه نهى، هكذا..

(إنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَهُمْ جَنّاتُ النّعِيمِ)

جنّات، والنعيم نعيمٌ لا ينقطع، أحد الشعراء وهو لبيد قال:

ألا كل شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ

***

سمع النبي هذا البيت فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ))

[متفق عليه]

هذا كلام شعراء، ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ، هذا صحيح، أما كل نعيمٍ لا محالة زائلُ، فهذا باطل، لأن نعيم أهل الجنّة لا يزول..

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَهُمْ جَنّاتُ النّعِيمِ)

أي أن هذه الدنيا المحدودة، هذه السنوات العشرون، أو العشر، أو الثلاثون، فالإنسان حتى يستطيع أن يقول لك: أنا، بعد أربعين سنة من حياته، حتى يقول: أنا، ويكتب: مجاز في الآداب مثلاً، أو دكتور، أو بورد مثلاً، حتى يكون له بيت مرتّب، حتى يكون له عيادة، حتى يكون له مركبة، هذه تحصل في الأربعينات، والناس يموتون في الخمسينات، كلما مات أحد يسأل: متى مات ؟ في الثالثة والخمسين، أو التاسعة والأربعين، أو الثالثة والستين... فكل العملية عشر سنوات، عشر أو عشرين سنة، أن نضيّع الآخرة من أجل هذه السنوات العشر، وفيها نكد.

لا سعادة للمُعرِض عن الله أبدا:

أقول لكم هذه الكلمة: أنا أتحدّى أن يسعد إنسانٌ في الدنيا، وهو معرضٌ عن الله عزّ وجل، أبداً..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه 124)

لو كان غنياً، ولو كان قوياً، سُئِلَ بعض العلماء: ما بال الملوك والأغنياء مع هذه الآية ؟ قال: ضيق القلب، إن في قلب هؤلاء من الضيق، والقلق، والضعف، والخوف، والتشاؤم، والانقباض ما لو وزّع على أهل بلدٍ لكفاهم.

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلا)

(سورة الكهف 107)

الآية الثانية:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(سورة النحل 97)

القرآن كلام خالق الكون، هو الذي يدعوك للإيمان بالقرآن، أنك إذا طبّقت آياته قطفت ثماره، هل تظن أن هناك أدلّة على إعجاز القرآن، وهذه الأدلّة كافية ؟ لا والله، الأدلّة الكافية أنك إذا غضضت بصرك عن محارم الله أورثك الله لذّةً وسعادةً إلى يوم تلقاه، أنك إذا استقمت على أمره لا تخاف ولا تحزن..

(إنّ الّذِينَ قالُوا رَبّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ ألا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأبْشِرُوا بِالْجَنّةِ الّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

(سورة فصلت 30)

أنك إذا التزمت أمره غمرك بالأمن..

(فَأيّ الْفَرِيقَيْنِ أحَقّ بِالْأَمْنِ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام 82)

دخل رجل إلى بعض الفنادق في بلاد أوروبا، فرأى لوحة على السرير: **" إذا أرقت في هذه الليلة فهذا لا يعود إلى نوع الأثاث، ولا إلى الفراش، بل إلى ذنوبك أنت".**

إذا ارتكب إنسان المعاصي، ارتكب الموبقات، تفلّت من منهج الله عزّ وجل، تحرّك حركة عشوائيّة، قادته نفسه، استهدف هواه، هذا شقيٌّ، ففي بالإيمان سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها، إذاً:

(إنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَهُمْ جَنّاتُ النّعِيمِ)

معنى: خَالِدِينَ:

1 ـ السعادة وعدم الملل:

معنى خالدين، هناك معنى إضافي على الاستمرار، أحياناً الإنسان يقبع في مكان سنوات، عشر سنوات، خمسين عاماً، أما كلمة خالدين، فخلد إلى الشيء أي مال إليه، أي أن هذا الاستمرار مع الميل، مع السعادة، مع السرور، فليس معنى الخلود هو الاستمرار فقط، لا.. للخلود معنى آخر، معناه السعادة المتعاظمة، السعادة المتنامية، الإنسان مهما كان في مكان جميل، فالإنسان إذا جلس في مكان جميل أول يوم يكون فرحاً كثيراً، ثاني يوم وثالث يوم، أقصى مدة أسبوع، ويقول لك: والله مللنا، يكون في أجمل مكان، وسط جبال خضراء، تطل على ساحل جميل، ليس عنده هموم، الأماكن الجميلة في الدنيا متعتها محدودة، واسأل سُكّان بلد جميل تجد أنهم ملّوا، اسأل إنساناً عنده شرفة مطلّة على الشام يقول لك: والله من شهر لم أدخل إليها، اسأل إنساناً عنده حديقة جميلة يقول لك: والله من كذا شهر لم أدخلها، الجمال في الدنيا محدود، والجمال في الدنيا يُمَلّ، عندما قال ربنا:

(خَالِدِينَ فِيهَا)

2 ـ تجدُّد المتعة:

معنى الجمال في الآخرة متجدِّد، لو لم يكن متجدِّداً ومتنامياً لما كان الإنسان فيها خالداً، الخلود هو المَيل المستمر، فأنت قف في شرفة قطار، والقطار واقف، مهما كان المنظر جميلاً تقف خمس دقائق، وبعدها تجلس وتمل، القطار إذا كان ماشياً، وينقلك من واد إلى واد، من جبل إلى جبل، من بحيرة إلى بحيرة، ما دام هناك تجدُّد فلا يوجد ملل أبداً.

إذاً: لا يكون الإنسان في الآخرة خالداً إلا إذا كانت المُتَعُ متجدِّدةً ومتنامية، هذا معنى خالدين فيها، الله عزّ وجل قال:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

دائرة المسموعات والمرئيات والخواطر:

فكل مشاهداتك لا تفيدك في توقُّع ما في الآخرة، وكل مسموعاتك لا تكفي، وكل خواطرك، مع أن هناك ما لا عينٌ رأت، دائرة المشاهدات محدودة جداً، كل واحد منا يعرف خمسة أو ستة بلدان من العالم، يقال: والله فلان يعرف اليابان، ما شاء الله، وأمريكا، وإفريقيا واستراليا، هذا نادر جداً، هذا يعرف أوروبا، هذا اليابان، هذا آسيا، هذا الأردن فقط، هذا ذهب إلى تركيّا، هذا على العمرة فقط، المشاهدات محدودة.

أما المسموعات فأنت تسمع في الأخبار عن مئتي بلد في العالَم، وأسماء عواصم، وأسماء قبائل، وأسماء بُلدان، وأسماء دول، تسمع عن المجرات، فالمسموعات واسعة جداً، فدائرة المشاهدات بالنسبة إلى دائرة المسموعات نسبتها ضعيفةٌ جداً، ودائرة المسموعات إذا قيست بدائرة الخواطر نسبتها ضعيفةٌ جداً، الحديث القدسي يقول:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

هذه هي قيمة الدنيا عند رسول الله:

هذه الآخرة أنضيعها من أجل لُعاعةٍ من الدنيا ؟!

1 – الأنصار وقسمة غنائم هوازن:

((لمّا أعْطى رَسُولُ اللهِ صلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا أعْطى مِنْ تِلْكَ الْعَطايَا في قُرَيْشٍ وَقبائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الأنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأنْصارِ فِي أنْفُسِهِمْ، حَتّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقالَةُ، حَتّى قالَ قائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فقالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ، إنّ هَذَا الْحَيّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الّذِي أصَبْتَ قسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأعْطَيْتَ عَطايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيّ مِنَ الأنْصَارِ شَيْءٌ منها...))

ماذا قال النبي الكريم بعد أن جاءه الصحابي سعد بن عبادة وقال: يا رسول الله إنّ قومي وجدوا عليك في أنفسهم غضبوا منك من أجل هذا الفيء، أي الغنائم، فالنبي الكريم بعد معركة هوازن وزّع الغنائم على المؤلّفة قلوبهم، أما الأنصار فما خصّهم بشيء، ووكَلَهم إلى إسلامهم، هو حكيم، فالأنصار يبدو أنهم وجدوا عليه في أنفسهم، لأن عطاء رسول الله شرفٌ عظيم، وفاتَهُم هذا الشرف، هكذا نفسر نحن، فتململوا، وتضايقوا، ووجدوا، وتألّموا، سيدنا سعد كان صريحاً، لأنه لا مجاملات في الإسلام، ولا مواقف مبطّنة، فقال له: **" يا رسول الله إن قومي وجدوا عليكَ في أنفسهم في هذا الفيء الذي قسمته "** قال النبي:

((فَأيْنَ أنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ، مَا أنَا إلا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ، فَجَمَعَ النّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَرَكَهُمْ، فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ، فَرَدّهُمْ، فَلَمّا اجْتَمَعُوا أتَاهُ سَعْدٌ، فَقالَ: قدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأنْصَارِ، قالَ: فَأتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ صلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فَحَمِدَ اللّهَ، وَأثْنَى عَلَيْهِ بِالّذِي هُوَ لَهُ أهْلٌ...))

اسمعوا الآن إلى كلام النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أنْفُسِكُمْ، ألَمْ آتِكُمْ ضُلاَلا فهَدَاكُمُ اللّهُ ؟ وَعَالَةً فَأغْنَاكُمُ اللّهُ ؟ وَأعْدَاءً فَألّفَ اللّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُم ؟ قالُوا: بَلِ اللّهُ وَرَسُولُهُ أمَنُّ وَأفْضَلُ، قالَ: ألا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ ؟ قالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللّهِ ؟ وَلِلّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ، قالَ: أمَا وَاللّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أتَيْتَنَا مُكَذّبًا فصَدّقْنَاكَ، وَمَخْذُولا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلا فَأغْنَيْنَاكَ، أوَجَدْتُمْ فِي أنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأنْصارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَألّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إلَى إسْلامِكُمْ ؟ أفَلا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ أنْ يَذْهَبَ النّاسُ بِالشّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللّهِ صلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي رِحَالِكُمْ ؟ فَوَ الّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأنْصارِ، وَلَوْ سَلَكَ النّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الأنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأنْصَارِ، اللّهُمّ

ارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا))

[مسند أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

يا معشر الأنصار... من أجل لُعاعةٍ ـ انظر إلى انتقاء الكلمة ـ لعاعةٍ من الدنيا تألّفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم.. أي شيء تافه جداً، الدنيا كلُّها عند النبي تافهة..

فلان ثمن بيته ثلاثة وعشرون، أنت ألا ترضى أن يحبك الله، وأن تكون طائعاً لله، هذا خير من هذا البيت الواسع، فالبيت لن يطول، اقرأ النعوات، كلها: وسيشيّع إلى مثواه الأخير، معنى هذا أن البيت الحالي مثوى مؤقّت، شيء موقت..

((ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم ؟ يا معشر الأنصار أما إنكم لو قلتم..))

اسمعوا الآن السياسة الحكيمة، اسمعوا الوفاء، اسمعوا العفو، اسمعوا مكارم الأخلاق..

((يا معشر الأنصار، أما إنكم لو قلتكم فلصدقتم ولصدِّقتكم..))

إذا قلتم هذا الكلام فأنتم صادقون ومصدّقون، أتيتنا مكذّباً فصدّقناك، وطريداً فآويناك، ومخذولاً فنصرناك، بدأ بفضلهم عليه، أذابهم..

((يا معشر الأنصار، ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ؟))

ألم تكونوا ضالين ؟ كنتم منحرفين ؟ كنتم ضائعين ؟ كنتم شاردين ؟ كنتم شاربي خمر ؟ كنتم متخاصمين ؟ كنتم أعداء متباغضين..

((ألم تكونوا ضُلالاً فهداكم الله ؟ ألم تكونوا عالة فأغناكم الله ؟..))

ما قال لهم: فأغنيتكم.. إنه أديب، قال عليه الصلاة والسلام:

((ألم تكونوا ضُلالاً فهداكم الله ؟))

ما أنا الذي هديتك، لي فضل عليك..

((ألم تكونوا ضُلالاً فهداكم الله ؟ ألم تكونوا أعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ ألم تكونوا عالة فأغناكم الله؟ أوجدتم علي في أنفسكم من أجل لُعاعةٍ تألفتُ بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم ؟))

وأنا معكم

نحن الآن إذا كان مصير أحدنا في الدنيا أن الله يحبه، ألا تكفي هذه ؟ نصيبه أن الله راضٍ عنه، نصيبه أنه مستقيمٌ على أمر الله، نصيبه أنه متعففٌ عن المال الحرام ألا تكفي هذه ؟

2 – قصة بكاء عمر في بيت النبي:

سيدنا عمر دخل على النبي، سيد الخلق، وكان مضطجعاً على حصير أثر على جنبه الشريف، فبكى عمر، قال عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ:

((دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ، قَالَ: فَجَلَسْتُ، فَإِذَا عَلَيْهِ إِزَارٌ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، وَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَقَرَظٍ فِي نَاحِيَةٍ فِي الْغُرْفَةِ، وَإِذَا إِهَابٌ مُعَلَّقٌ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَالِي لَا أَبْكِي، وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَلِكَ كِسْرَى وَقَيْصَرُ فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ ؟ قَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ، وَلَهُمْ الدُّنْيَا، قُلْتُ: بَلَى))

[ابن ماجه]

يجب على الإنسان إذا كان مستقيماً على أمر الله أن يشعر بالغنى، يشعر أنه فائز، متفوق، يشعر أن الله عزّ وجل كَرَّمَهُ بالهدى..

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال23)

لا يوجد من الإخوة الحاضرين مَن إذا استمع إلى الحق إلا وله بشارة عند الله، البشارة أن الله عَلِمَ فيه خيراً، والدليل أنه أسمعه الحق:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأسْمَعَهُمْ)

إذاً:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) خَالِدِينَ فِيهَا)

من لوازم الخلود: الاستمرار والتجدد والتنامي:

الخلود إذاً هو التجدد والتنامي، ليس معنى الخلود الاستمرار، فمثلاً: تقرأ بالقرآن الكريم يقول لك:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر)

(سورة النور36)

الإنسان يتوهم أحياناً أن كلمة (رجل) تعني الذكر، لا، فكلمة رجال هنا في هذه الآية لا تعني أنهم ذُكْرَان، تعني أنهم أبطال، كما قال سيدنا سعد قال: **<< ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس، ما صليت صلاةً فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها ـ هذه الرجولة والبطولة ـ وما سرت**

في جنازةٍ فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، وما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى >>.

فكلمة خالدين لا تعني أنهم مستمرّين فقط، تعني أن سعادتهم متنامية ومتجددةٌ.

(وَعْدَ اللّهِ حَقّاً)

خالق الكون وَعَدَ..

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ)

(سورة التوبة)

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء 87)

تحقّق وعد الله وعيده: وَعْدَ اللّهِ حَقًّا

لذلك ربنا عزّ وجل مثلاً قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل1)

فبربكم من منكم رأى هذه الحادثة ؟ ولا واحد، ولا أنا رأيتها، كيف يقول الله:

(أَلَمْ تَرَ)

لو قال: ألم تسمع معقولة أكثر.

(أَلَمْ تَرَ)

قال بعض المفسرين: إخبار الله عزّ وجل لأنه من الله عزّ وجل في حكم المّرْئِيّ، من أخبرك عن هذه الحادثة ؟ خالق الكون كأنك تراه، تصديقك لما قاله الله عزّ وجل يرقى إلى مستوى الرؤية، هذا معنى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

(سورة الفيل)

لم يقل ألم تسمع.. ووعد الله عزّ وجل يأتي دائماً أو أحياناً كثيرة بصيغة الماضي، لماذا ؟ القضية انتهت..

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل)

لم يأت بَعْدُ، والدليل:

(فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ)

في حكم المأتي.

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117))

(سورة المائدة)

هذا الشيء لم يحصل بعد، هذا الشيء سيحصل يوم القيامة، كيف قال الله:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى)

لأن إخبار الله عن المستقبل في حكم الماضي، إخبار الله عزّ وجل عن شيءٍ لم تره في حكم رؤيته، هذا معنى قوله تعالى:

(وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً)

يجب أن تؤمن، ماذا قال النبي:

((كأنني بأهل النار يتصايحون، وكأنني بأهل الجنة يتنعمون))

[ورد في الأثر]

كأنه رأى، وأنت كمؤمن، إن رأيت إنساناً منحرفاً فلك أن تقول: كأنني أراه سيحاسب، كأنني أراه سيعالجه الله عزّ وجل، وإن وجدت إنساناً مستقيماً وفي ضائقة مادية شديدة، قل وأنا معك: كأنني أراه سيوفّق، كأنني أراه سينصره الله عزّ وجل، لأنه الآن في الامتحان، إن وجدت الإنسان المستقيم فتتفاءل، خالق الكون وعده، من أنت ؟ خالق الكون وعده.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل)

هذه الحياة مؤقتة، هذه امتحان، وقد سئل الإمام الشافعي: **أندعو الله بالتمكين أم بالابتلاء ؟ "**، فقال الإمام الشافعي: **"لن تُمكّن قبل أن تبتلى "**، فأي مؤمن طلب رضاء الله عزّ وجل فأمامه امتحان، هل تريد ما عند الله ؟ من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه..

ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا

***

(وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً)

إنّ زوال السماوات والأرض أهون على الله من أن لا يكون وعده حقاً، فإذا وعد المُنحرف بالدمار قل: كأنه دُمِّر..

((مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ ـ وفقه ـ وَمَنْ أَخَذَ ـ يكون ذكيا جداً، وأخذ احتياطاً بالغ ـ يُرِيدُ إِتْلافَهَا ـ رأينا بأم أعيننا ـ أَتْلَفَهُ اللَّهُ))

[صحيح البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

هذا قول سيدنا سعد: **<< وما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى>>.** فإذا أخبرك النبي عن الله بشيء فهو لا ينطق عن الهوى، إن هو وحيٌ يوحى، فلك أن تقول: كأنني أرى وعد الله قد وقع، وكأنني أرى وعيد الله قد وقع، هكذا قال النبي:

((كأنني بأهل الجنة يتنعمون))

[ورد في الأثر]

هذا أحد الصحابة قال: **<< كيف أصبحت يا فلان ؟، قال: أصبحت كأنني أرى أهل الجنة يتنعمون، وأهل النار يتصايحون، قال: عبدٌ نور الله قلبه، عرفت فالزم >>.**

إذا شاهدت مثلاً شاهدت إنساناً راكباً مركبة، ماشياً في انحدار شديد، وأنت متأكد أنه لا يوجد معه مِكبح، وتراه بعينك ماشياً بسرعة عالية جداً ألا تقول: لابدّ من أن يتدهور، لأنه قانون حتمي، لم يتدهور بعد، انتظره على أول منعطف، شيء قطعي، إن وجدت متفجرة، ولها فتيل طويل، وأشعلنا أول الفتيل، ماذا تقول ؟ بعد قليل سوف تسمع صوت انفجار، لأن الفتيل يمشي، شيء بديهي جداً، فقوانين ربنا عزّ وجل حتمية الوقوع، لأنه الخالق، وهكذا قال الله عزّ وجل.

(خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

علاقة العزيز الحكيم بوعد الله:

فما علاقة العزيز الحكيم بوعد الله حقاً، فإذا وعدك إنسان وعدا، وأتيت على وعده، يقول لك: والله لا تؤاخذني، لم أتمكن، ألم يصغر في نظرك قليلاً ؟ وهو ألا يستحي أمامك قليلاً ؟ من هو العزيز ؟ الذي لا ينال جانبه، لو أن الله عزّ وجل وعد المؤمن، ولم يفِ بوعده لم يعد عزيزا، لأنه عزيز فإذا وعد وفى، إله لا راد لقضائه، لا توجد جهة ثانية تجبره، واحدٌ أحد فردٌ صمد..

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2))

(سورة الإخلاص)

مِن لوازم العزة: عدمُ الافتقار:

أي أن وجوده ليس مفتقراً لشيء آخر، الإنسان يقول لك: والله لم أتمكن، هذا يحتاج إلى توقيع من جهة عالية، لم يوافق، دائماً في عنده أعذار، أما ربنا عزّ وجل خالق كل شيء، كن فيكون.

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ

أعْمَالُكُمْ أحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أوَفِّيكُمْ، إيّاهَا فمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فلْيَحْمَدِ اللّهَ، ومَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلِكَ فلا يَلُومَنّ إلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي ذر]

لا تقل لي: أقدار، وليس لي حظ، الدهر قلب لي ظهر المِجَن، والأقدام سخِرت مني، والدهر يوم لك ويوم عليك، والدهر خوّان، هذه كلها كلمات الجهل، لا يوجد إلا الله..

((يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدّهْرَ، وَأنَا الدّهْرُ، بيَدِي الأمْرُ، أقلِّبُ اللّيْلَ وَالنّهَارَ))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

لا يوجد إلا الله عزّ وجل فلان مسكين لا يوجد عنده حظ، ما هذا الحظ ؟ غير موفق، أي أن المعالجة أمامه، ولا حظ له، ويده حمراء، هذا كلام كله ليس له معنى.

الإنسان وقانون التيسير والتعسير:

البشر صنفان:

(فَأمّا مَنْ أعْطَى وَاتّقَى (5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

(سورة الليل)

هذا القانون، هذا قانون التيسير والتعسير، وإذا وجد التعسير فهو لصالح المؤمن:

(فَإِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

(سورة الشرح)

لا يغلب عسرٌ يُسْرَين.

(فَإِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

الكلمة المعرّفة بـ (أل) إذا تكررت فهي ذاتها، أما النكرة إذا تكررت اختلفت، فصار عندنا عسر واحد ويسران.

(فَإِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

هناك معنى دقيق جداً، أي أن هذه المصيبة في طياتها الفرج، في طياتها التوبة، في طياتها اللجوء إلى باب الله عزّ وجل، في طياتها الإكرام، ظاهرها مصيبة، حتى إن بعض العلماء فسر قوله تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان 20)

قالوا: النعم الباطنة هي المصائب، كل المصائب نعمٌ باطنة، ظاهرها مُزعج، وباطنها مُسعد.

إذاً:

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

الكون والكواكب:

أولاً الكون مؤلف من كُتَل، كواكب ونجوم، هذه الكتل متفاوتة في الحجم، متفاوتة في المسافة، لولا أن هذه الكتل، وهذه الكواكب، وهذه النجوم تدور، لأصبح الكون كله كتلة واحدة بفعل الجاذبية، لكن لأنها تدور، كل كوكب أو كل نجم في أثناء دورانه ينشأ عن دورانه قوى نابذة، كما لو أخذت وعاء من الماء مفتوحاً من جهة وأدرته هكذا، إذا جعلته في الأعلى جهة الفتحة نحو الأسفل، فالماء لا ينزل، وهذا الشيء معروف، لماذا لا ينزل ؟ لأن الماء اندفع بقوة نابذة بفعل الدوران، وهذا مبدأ عصارات الفواكه، مبدأ تنشيف الألبسة، الدوران السريع ينشئ قوى نابذة دائماً، فالكون متوازن، قوى التجاذب تكافئ قوى التنابذ، فربنا عزّ وجل قال:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

لو أتينا بكرتين مغناطيسيَّتين، وضعناهما على سطحٍ ثقيل، لابدّ من أن تتجاذبا، إلا إذا وضعناهما بمكان دقيق جداً مدروس على مستوى الميكرون، هذا الشيء فوق طاقة البشر، ثلاث كرات أصعب، أربع أصعب، أو أربعة بحجوم متفاوتة فهذا أصعب بكثير، أو كرات في الفراغ أصعب وأصعب، أو كرات متحركة في الفراغ متجاذبة فيما بينها بقانون دقيق جداً، والمحصلة حركة من دون تصادم، هذا الشيء يكاد يكون معجزا.

قيل: إن القمر مربوط بالأرض بقوة جذب تكافئ حبلاً من الفولاذ المظفور قطره خمسون كيلو مترا، القمر مربوط، والشمس كذلك، بين كل كوكبين قوى تجاذب، فكأن هذه السماوات مرفوعة بعمد، ولكن لا ترونها، هذه العَمَد هي قوى التجاذب، لذلك:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(ترونها) قَيْدٌ وَصْفِي، لا قيدٌ احترازي..

(بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ

1 ـ علاقة الجبال باستقرار الأرض:

كيف أن العجلة على السرعة العالية تضطرب، يضعون لها الرصاص، يضعها على ميزان، وفي أثناء الدوران يظهر المؤشر بخمسة غرامات، تقف العجلة، يعرف مكان الخمس غرامات، يضع الخمس غرامات، الآن على الدوران السريع تبقى مستقرة، كذلك هذه الجبال جعلها الله في أماكن محددة، فتكون الأرض في أثناء الدوران السريع مستقرة، ولولا أنها مستقرة لما قام بناء، والدليل الزلازل، فالزلازل تعليم لنا، لأن الله عزّوجل يقول:

(أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا)

(سورة النمل 61)

من جعلها مستقرة ؟ من جعل الأشياء تستقر عليها بقوى الجاذبية ؟ من جعلها متحرّكة ساكنة؟ فالسكون الحركي هذا أصعب شيء، الشيء الساكن ساكن، والمتحرك متحرك، أما السكون الحركي، فهل يمكنك الركوب في طائرة دون الشعور باهتزاز؟ مستحيل، مهما تكن الطائرة غالية من حين لآخر تحس باهتزاز ؟ تركب مركبة من دون اهتزاز، قطار بلا اهتزاز ؟ لا يمكن ذلك، لكن الأرض تسير بسرعة ثلاثين كيلو متر في الثانية، ومع ذلك مستقرة، من جعلها مستقرة؟ من جعلها متحركة ساكنة ؟ من جعل الأشياء عليها مستقرة؟

(أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا)

إذاً..

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

2 ـ طبيعة الجبال:

أي لئلا تميد بكم، في شيء آخر.. أن الأرض طبقات، فهذه الجبال لها أوتاد في أعماق الأرض تعادل ضعفي ارتفاعها فوق الأرض، كالسن تماماً، له جذر يساوي ثلثي نتوئه فوق النيرة، فالجبل له ارتفاع فوق سطح الأرض، وله جذر ممتد في أعماق الأرض، هذا الجذر يربط طبقات الأرض بعضها ببعض، فإذا دارت الأرض لاختلاف كثافة طبقاتها تبقى مستقرة، لو أنها دارت وطبقات متفاوتة في الكثافة لاضطربت، والدليل: ائت ببيضة غير مسلوقة ودوّرها تضطرب، لو سلقتها لا تضطرب، بالسلق تصبح متجانسة، من دون سلق تصبح متفاوتة في التجانس، فمن معاني:

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

هذه الجبال جعلها الله كالأوتاد تربط طبقات الأرض بعضها ببعض، المعنى الآخر: الدوران السريع يسبب اضطراب، وضعُ هذه الجبال في أماكن محددة يجعل الأرض تدور باستقرار، تدور من دون اضطراب.

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ)

وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ

الأنعام، من كل دابة، أنت بحاجة إلى غنم، إلى ماعز، إلى بقر، إلى جمال، بحاجة إلى كلاب للحراسة، هذه الدواب بثها الله في الأرض كلها لها فوائد، لها وظائف منها، وشيء ملموس، وشيء غير ملموس، وشيء مباشر شيء وغير مباشر..

(وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

مجموعة آيات ؛ آية قوى التجاذب فيما بين الكواكب والمجرات، آية الجبال، وكيف أنها تحقق التوازن وتربط طبقات الأرض بعضها ببعض، وآية بَثّ فيها من كل دابة، وآية المطر..

(فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ)

ذلكم الله رب العالمين..

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل88)

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

أسلوب التحدي: هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ

أي أن هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله هل فعلوا هذا ؟ هل أنزلوا الماء من السماء؟ هل ألقوا في الأرض الرواسي والجبال ؟ هل أمسكوا السماوات والأرض؟

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا)

(سورة فاطر41)

إنّ بقاء كل كوكبٍ على خط سيره يحتاج إلى قوة جبارة، من يمسك هذه السماوات من أن تزول ؟ الله رب العالمين..

(وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ)

(سورة الحج 65)

آية أخرى.

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

ما هو الضلال المبين ؟

لو فرضنا إنساناً يسير في طريق عريض جداً، وعلى عرض الطريق لوحة مرتفعة ومكتوبة بمادة مشعة، أحياناً بعض الطرقات الكبيرة يقول لك: هنا مكة، كلمة (مكة) عرضها ثمانية أمتار، فلو رأى الشخص هذه اللوحة، وسار في طريق آخر نقول: هذا ضلال مبين، لأن اللوحة واضحة جداً، فلأن الحق واضح جداً كان الابتعاد عن الحق ضلالاً مبيناً، شيء كبير ألم تره ؟ لوحة كبيرة جداً مشعة ألم ترها ؟ الإنسان لمَ يضل عن سبيل الله عزّ وجل، ليس سبيل الله صعب الإدراك، ولا صعب الالتماس، لا، هو شيء واضح، قال له: **" يا إمام متى كان الله ؟ "**، فقال له: **" ومتى لم يكن ؟ "**، كان الله ولم يكن معه شيء، فلذلك الضلال ضلال الضالين ضلالٌ مبين، وهناك ضلال بعيد، البعيد أن الإنسان يمشي في طريق، ويتوغل في مئتي كيلو متر بعيداً عن الطريق الأساسي، هذا ضلال بعيد، في ضلال مبين، إذاً:

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

ما هم الظالمون ؟

مَن هم الظالمون ؟ الذين ظلموا أنفسهم بعدم إيمانهم بالله، وهذا أشد أنواع الظلم، أشد أنواع الظلم أن تظلم نفسك، فإذا قال الإنسان كلمة (ظلم) فإنه ينصرف ذهنه إلى ظلم الآخرين، لكن الحقيقة الكبرى أن أشد أنواع الظُلم أن تظلم نفسك، أن تحرمها من معرفة الله، أن تحرمها من طاعة الله، أن تحرمها من الإقبال على الله، أن تحرمها من الاتصال بالله، هذا الظلم، هذا الظلم الكبير، هذا الظلم الذي لا يغتفر، لذلك:

(بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

نعمة الهداية:

إذا عرف المؤمن الله عزّ وجل، وألقى الله في قلبه نوراً يرى أهل الدنيا ضالين، يراهم تائهين، يراهم شاردين، يراهم في ضلال مبين، يراهم في طريق مسدود، أو طريق ينتهي بحفرةٍ سحيقةٍ ما لها من قرار، فلذلك يجب أن تعلم علم اليقين أن أثمن نعمةٍ أنعم الله بها عليك أنه عَرّفكَ بذاته، وهداك إليه، ودلّك على ذاته، وألهمك رُشْدَكَ، وجعل هذا الشرع بين يديك، هذه نعمة عُظمى..

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا)

(سورة آل عمران 103)

وحبل الله هو القرآن.

(وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا)

(سورة آل عمران)

إذا كان الإنسان في الجاهلية تاركا للصلاة، منحرفاً، يأكل المال بالحرام، ينتهك حُرُمات الله، له انحرافات في شهواته، غارقاً في ملذاته، تائهاً، شارداً، هذا هو الضلال المبين، هذا هو الشقاء، هذا هو الظلم الكبير، لذلك:

(بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

كلمة (من دونه)، أي أن شيءٍ سوى الله دون الله، فإذا كنت مع الله عزّ وجل كان معك، إذاً:

كن مع الله تر الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

***

هذه الآيات سنشرحها في الدرس القادم إن شاء الله:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (04-13): تفسير الآية 12، الشكر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-05-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:
(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)
(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

الحكمة موهبة ربانية وليست مكسبا إنسانيا:

قال بعض العلماء: **" الحكمة من المواهب لا من المكاسب "**.
هناك عملٌ تفعله، وهناك عطاءٌ تأخذه، فالحكمة من المواهب، إذا وهب الله الإنسان الحكمة سعد في الدنيا والآخرة.

الحكمة القرآنية في إخفاء طبيعة لقمان الحكيم:

1 – من حكمة القرآن إغفال الأسماء:

ولكن ما تعريف الحكمة ؟ وقبل أن نعرف الحكمة، من لقمان ؟ العلماء اختلفوا فيما إذا كان هذا الحكيم الذي ذكره الله عزّ وجل نبياً أم عبداً صالحاً، وهنا تبرز قضية في القرآن، القرآن الكريم ذكر أشياء، وأغفل أشياء، إذا ذكر الشيء فهناك حكمةٌ بالغة، وإذا أغفله فهناك حكمة بالغة، فإذا أراد الله عزّ وجل لحكمةٍ بالغة أن يُغْفِلَ ما إذا كان هذا الحكيم نبياً أو غير نبي، فأنت إذا أردت أن تطلع، أو أن تبحث، أو أن تستقصي ما إذا كان هذا الحكيم نبياً أو غير نبي فكأنك تفسد على الله حكمته، هذا ينقلنا إلى موضوع آخر.

2 – العبرة بالنموذج لا بالمشخّص:

الموضوع الآخر هو أن الله سبحانه وتعالى في القصص القرآني يذكر رجلاً، ويغفل اسمه، هذا أبلغ، فإذا أردنا أن نبحث عن اسمه ماذا فعلنا ؟ كأننا أردنا أن نُحَدِّدَ أو أن نخصص ما أغفله الله، لماذا أغفل الله اسم بعض الأشخاص في القصص القرآني، لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يُعَلِّمنا أن الشخص ليس معنياً بالموضوع، المعني هذا النموذج البشري، لو أن الله عزّ وجل حدد هؤلاء الأشخاص بأسمائهم وأماكنهم لأصبح هذا المُشَخَّصُ غير مكرر، لكن الله عزّ وجل أراد حينما أغفل اسم هذا الشخص الذي ذكره في قصته أن يكون مكرراً، فبين أن يكون هذا الشخص ذكره، وأغفل اسمه نموذجاً متكرراً صالحاً لكل مكانٍ وزمان، وبين أن تكون قصة تاريخية وقعت وانتهى الأمر.

ربنا عزّ وجل حيثما خَصّص، وشَخّص فنحن نبحث عن حكمة ذلك، وحيثما لم يشخّص، ولم يحدّد، ولم يذكر فهناك حكمة بالغة لا تقلّ عن حكمته إذا شخص، إذاً القرآن الكريم أحياناً يشخّص، وأحياناً لا يشخّص، يقول: ذي القرنين، من ذو القرنين ؟ بحث العلماء واستفاضوا، وتعمّقوا وسألوا، هذا طريقٌ مسدود، لأن الله سبحانه وتعالى لم يشخص ذا القرنين، لم يذكر اسمه لحكمةٍ بالغةٍ، وهي أنه نموذجٌ متكرر، قد يصل الإنسان إلى أعلى قوة، وهو صالحٌ، خائفٌ، منيبٌ، متواضعٌ، طائعٌ خَيّر.

فأيّ منصبٍ مهما علا يمكن أن يوظف في طاعة الله، ويمكن أن يوظف في خدمة الآخرين، فربنا عزّ وجل لو أنه ذكر اسم ذا القرنين اسمه، ومكانه، وزمانه، وتحديداً وتشخيصاً، لأصبحت هذه القصة تاريخاً، ولتوهّمنا أنه نموذج لا يتكرر، ولكن الله عزّ وجل حينما لم يشخصه وعممه، ولم يحدد اسمه ومكانه وزمانه، جعل من هذه القصة نموذجاً إنسانياً متكرراً.

إذاً: إذا أغفل الله عزّ وجل اسم أحد أشخاص في قصصه فهي حكمة بالغة، ولا معنى، ولا جدوى، ولا ذكاء، ولا نجاح في تقصِّي من هو فلان ؟ لأن المغزى لا يتعلق بالأسماء، يتعلق بالحوادث، يتعلق بالعِبَر، يتعلق بالدروس، إذاً: يمكن أن نستنتج القاعدة التالية:

الله عزّ وجل حكيمٌ حكمة لا حدود لها، إذا شَخَّصَ أبطال القصص، وإذا لم يشخِّصهم، فإذا شخص فالحكمة في التشخيص، وإن لم يشخص فالحكمة في عدم التشخيص، ولا معنى أن نبحث في هذا الموضوع الذي أغفله الله عمداً.

3 – باب الحكمة مفتوح لكل الناس:

فسيدنا لقمان، أليس بالإمكان أن يقول الله عزّ وجل: إنه كان نبياً رسولاً، وانتهى الأمر، كل هذا الخلاف ينتهي حينما يقول الله عزّ وجل: إنه كان نبياً رسولاً، لكن ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

الأضواء هنا مسلطة كلها على الحكمة، لا على ما إذا كان نبياً أو رسولاً، أو حكيماً، أو صالحاً، أو عبداً الأضواء هنا مسلطة على حكمته، وكيف أن كل إنسانٍ إذا استمد من الحكيم يُصبح حكيماً، إذا اتصل بالحكيم يصبح حكيماً، إذا أقبل على الحكيم يصبح حكيماً، فإذا قلنا: إنه نبي، وانتهى الأمر، النبوة كما يُعَرِّفُهَا العلماء ليست كَسْبِيَّة، أما إذا قلنا:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

لم يذكر الله عزّ وجل ما إذا كان لقمان نبياً أو غير نبي، معنى ذلك أنك أيها الإنسان أمامك باب مفتوحٌ لتكون حكيماً، والدليل:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة: من آية " 269 ")

إذاً: الباب مفتوح، أما إذا شَخَّصْنَا، وحددنا، وخَصّصنا تصبح قصة تاريخية لا تتكرر، ربنا عزّ وجل يريد منا أن يكون هؤلاء الأشخاص مُثُلاً عُليا لنا، مناراتٍ لمجموع المؤمنين.

إذاً: لو قرأتم في التفاسير حول لُقمان الحكيم، هل هو نبي ؟ هناك علماء يستنبطون أنه نبي من بعض الأحاديث الحَسَنَة، ليست الصحيحة ولا الضعيفة، وبعضهم يستنبط أنه غير نبي، ونحن نُغْفِلُ ما أغفل الله ذكره، هذا أصح منهج في فهم القرآن، نبحث فيما ذكر الله، ونغفل ما أغفل الله، لأن الله حكيمٌ في إغفاله، وفي ذكره، وتخصيصه.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ)

كلمة:

(آتَيْنَا)

كما قلت قبل قليل: هذه من المواهب، أي أنك إذا أقبلت على الله عزّ وجل يجب أن تتوقع أن الله سيؤتيك شيئاً، شيئاً ثميناً، إذا أقبلت عليه قد تؤتى بصيرةً، إذا أقبلت عليه قد تؤتى حكمةً، وكم من إنسانٍ دَمَّرَ نفسه بحُمقه، دمر نفسه بعمى بصيرته، دمر نفسه بغضبه.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

4 ـ عطاء الله بقدْر الإيمان والإخلاص والاستقامة:

وإذا ذكر الله عطاءً أعطاه لبعض الأنبياء أو لبعض عباده الصالحين فذلك ليكن معلوماً لديكم أن المؤمن بقدر إخلاصه، وبقد استقامته، وبقدر إيمانه له من هذا العطاء نصيب.

5 ـ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ:

إذاً: الحكمة ليست قاصرةً على لُقمان الحكيم ؛ بل الحكمة ضالة المؤمن، كما قال عليه الصلاة والسلام أينما وجدها التقطها:

((الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، حَيْثُمَا وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا))

[سنن ابن ماجه عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

6 ـ الْحِكْمَةُ أثمنُ عطاء:

ما الحكمة ؟ طبعاً ما دام الله عزّ وجل يقول:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(سورة البقرة: من الآية 269)

هذا كلام خالق الكون، هذا كلام الله عزّ وجل:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

أنت أيها الإنسان الخير الذي تبحث عنه هل تراه في الحكمة أم في المال ؟ أم في القوة أم في الصحة ؟ أم في كثرة العدد ؟ أم في الشأن، أم في الوجاهة، أم في الوسامة، أم في الذكاء ؟ ربنا عزّ وجل يبين لنا وهو الخبير..

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر 14)

ويُنْبئُنا بأن أثمن عطاءٍ تناله أن تكون حكيماً، أثمن عطاءٍ على الإطلاق تناله من الله أن تكون حكيماً، ما الحكمة إذاً ؟ الحكمة نوعان: مفردةٌ ومقترنةٌ بالكتاب.

(ويُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ)

آياتٌ ثلاث أو أربع في القرآن الكريم وردت فيها الحكمة مقترنة بالكتاب، إذا جاءت الحكمة مع الكتاب لها معنى، وإن جاءت الحكمة مفردةً لها معنى.

ما هي الحكمة ؟

1 ـ معنى الحكمة إذا جاءت غير مقرونة بالكتاب:

1 – النبوة:

ماذا قال العلماء الأجلاء في تعريف الحكمة إذا جاءت مفردةً ؟ بعض العلماء فسر الحكمة بالنبوة.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

أي أن الأنبياء عندهم من الحكمة، ومن حُسْن التصرف، ومن الحصافة، من إدراك أبعاد الأمور، ومن التصرفات الصحيحة الموزونة ما يدهش العقول، فحتى كلمات الأنبياء موزونة، حتى الحروف..

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

بعض العلماء قالوا: الحكمة هي النبوة.

2 – القرآن:

وبعضهم قال: الحكمة هي القُرآن، أي أنك إذا قرأت القرآن، وإذا فهمت القرآن، وإذا عملت بالقرآن، فهي الحكمة..

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

من أوتي القرآن ورأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد حَقّرَ ما عَظّمَهُ الله، فإذا سمح الله لك أن تفهم كلامه، إذا سمح الله لك أن تقبل على كلامه، إذا سمح الله لك تُطبِّق كلامه فأنت من أسعد الناس، لقد أوتيت الحكمة، وما من حكمةٍ أعظم من أن تفهم كلام الله، لأن كلام الله كله حكمة، الحكمة كلها من الله عزّ وجل، أنت مع كلام خالق الكون، أنت مع كلام المُطْلَق، مطلقٌ في كماله، مطلقٌ في علمه، مطلقٌ في غناه، مطلقٌ في قدرته، إذاً التفسير الآخر للحكمة النبوة.

والتفسير الثاني علم القرآن، وقال ابن عباسٍ رضي الله عنه: **<< الحكمة علمُ القرآن ؛ ناسخه ومنسوخه، محكمه ومتشابهه، مُقدّمِهِ ومؤخّرِهِ، حلاله وحرامه، وأمثاله >>**، أي أنك إذا قرأت القرآن؛ عرفت أن هذا أمر وهذا نهي، هذا وعد وهذا وعيد، هذا مثل، وهذه قصة، وهذا مغزى القصة، وهذه آيةٌ كونية، وهذه آيةٌ بيانية، وهذا نظمٌ معجز، وهذا توجيهٌ سديد، وهذه حقيقة، فإذا جُلْتَ في

القرآن، إذا جال فكرك في آيات الله، واستمتعت به، وذابت نفسك تعظيماً لمُنْزِلِهِ، هذه حكمة بالغة، هذا رأي ابن عباسٍ رضي الله عنه في الحكمة.

3 ـ القرآن وفهمه وتفسيره:

وقال بعض العلماء: الحكمة هي القرآن والفهم فيه، وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه.

4 ـ الإصابة في القول والفعل:

وقال بعضهم: الحكمة هي الإصابة في القول والفعل.

أحياناً يتكلم الإنسان كلمة يبقى أسبوعاً أو أسبوعين متألماً أشد الألم من هذه الكلمة، لأنه لم يكن بها حكيماً، أحياناً يقف موقفاً، أحياناً يتكلم كلمة، أحياناً يقبل إقبالاً، أحياناً يمتنع، أحياناً يصل، يقطع، يغضب، يرضى، ينطلق، ينكَمِش، الموقف الذي لا حكمة فيه يؤلم صاحبه أشد الألم، لذلك لا ترتاح النفس إلا إذا كانت حكيمة، أصحاب الحساسية البالغة، أصحاب الفِطْرَةَ السليمة، أصحاب الحِس المُرْهَف، لو أنهم تكلموا بكلمة ليست حكيمة يتمزّقون، تتفطر قلوبهم ندماً على هذه الكلمة..

((إنّ الرّجُلَ لَيَتَكَلّمُ بِالْكَلِمَةِ لا يَرَى بِهَا بَأسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النّارِ))

[من سنن الترمذي عن أبي هريرة]

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ))

[أبو داود]

وقد سمعت أن بعض المياه المالحة التي تفرزها بعض المدن، تبقى في البحر تسير ما يزيد على خمسةٍ وثمانين كيلو مترا، لشدة كثافتها، ومع ذلك البحر طاهر، أما أن تقول امرأةٌ عن امرأةٍ: إنها قصيرة، أو إنها دميمة، هذا الذي يُقَلِّد الآخرين، هذا الذي يهزأ لشكلهم (ولا دخل للإنسان في شكله)، أنت حاسب الإنسان على أعماله، على أخلاقه، لك أن تحاسبه على أعماله، لك أن تحاسبه على أخلاقه، أما مجرد التهكُّم على خلق الإنسان هو في الحقيقة تهكمٌ على خلق الله عزّ وجل، فالإنسان ليس له دخل في خلقه ؛ كون هذا طويل، وهذا قصير، وهذا وسيم، وهذا دميم، هذا لونه كذا، وهذا لونه كذا، هذا عنده غُنّة، وهذا عنده بَحّة، هذا عنده حبسة في كلامه، هذا ليس إليه هذا إلى الله عزّ وجل، فلذاك قال صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ))

إذاً الحكمة هي الإصابة في القول والفعل.

قلت لكم سابقاً: إن امرأةً لها ابنٌ مِن زوجها، فإذا أرادت أن تسقي أبناءها الحليب، سقت أبناءها الذين من صلبها حليباً سليماً، أما أبناءها من زوجها فتسقيهم حليباً نصفه ماء، ونصفه حليب، وفيما يروي بعضهم أنها عُذِّبَت عذاباً لا حدود له لهذه التفرقة، إذاً: هي ما أصابت في الفعل، فالإنسان عنده مَزْلَقِين؛ أن يخطئ في أقواله، وأن يخطئ في أعماله.

على كلٍ الخطأ غير المقصود مغفرته سهلة، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))

[سنن ابن ماجه]

أما الخطأ المقصود في القول أو في العمل فهذا يهوي بصاحبه إلى أسفل سافلين.

5 – معاني الأشياء وفهمها:

قال بعض العلماء: الحكمة هي معاني الأشياء وفهمها، الأشياء لها ظاهر، ولها باطن، لها شكل، ولها حقيقة، فالحكمة أن تفهم بواطن الأمور، أن تفهم حقائق الأشياء، أن تفهم الخلفية، أن تفهم ما بين السطور، أن تفهم ما يُدَبَّرَ في الخفاء، من الحكمة أن لا تكون ساذجاً، لك الظاهر، هناك أناسٌ أوتوا الحكمة، يفهمون أن وراء هذه الأحداث شيئاً آخر، إذاً: من معاني الحكمة أن تفهم فهماً دقيقاً، أن تفهم فهماً صحيحاً، أن تمتلك رؤية صحيحة، هذا من معاني الحكمة.

6 – الورعُ في الدِّين:

وقال الإمام الحسن رضي الله عنه: **" الحكمة هي الورع في دين الله ".**

ولعله رضي الله عنه أراد أن يذكر الحكمة بنتائجها، أي ملخص الملخص أن تكون ورعاً، و

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعةٍ من مُخَلِّط))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال]

ومن لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله، فالإمام الحسن رضي الله عنه ذكر الحكمة بثمارها، وبنتائجها، الحكمة أن تكون ورعاً.

2 ـ معنى الحكمة إذا جاءت مقرونة بالكتاب:

7-السُنَّة:

أما الحكمة إذا جاءت مع كتاب الله عزّ وجل فهي كما قال الإمام الشافعي: السُنَّة..

(وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة البقرة: من الآية 129)

الكتاب هو المصدر الأول، والسنة كلام النبي عليه الصلاة والسلام ؛ أقواله، وأفعاله، وصفاته، وشمائله، وإقراره إذا رأى شيئاً وسكت فهو من السنة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يسكت على سلوكٍ غير صحيح، لأنه حُمِّلَ الأمانة..

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)

(سورة المائدة: من الآية 67)

الإنسان غير المكلف بهذه الرسالة العظيمة قد يرى خطأً، ويسكت عليه طلباً للسلامة، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام ما سكت عن خطأٍ أبداً لأنه مُكلّف.

هذه المرأة التي قالت لزوجها أو لقريبها الذي جاهد مع رسول الله ومات على فراشه، قالت له:

((رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ))

سمع النبي كلامها، إن سكت فكلامها صحيح، لأنه نبي مشرع، سكوته تشريع، فقال لها:

((وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ ؟ فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ ؟ فَقَالَ: أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي، قَالَتْ: فَوَ اللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[صحيح البخاري عن خَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ]

ومن أدراك أن الله أكرمه قولي: أرجو الله أن يكرمه.. هذا الموقف هو التألِّي على الله، هذا ليس من اختصاصك، هذا من شأن الله عزّ وجل، أنت لك أن تدعو، لك أن تقول: أرجو الله أن يكرمه، أرجو الله أن يغفر له، أرجو الله أن يعفو عنه، أرجو الله أن يكون في الجنة، ليس لك إلا الرجاء، أما إذا تجاوزت الرجاء إلى التقرير، فلان في الجنة، من أنت ؟ فلان ليس مؤمناً، من أنت ؟ ليس هذا من شأنك، هذا كما قال بعض العلماء: هو التألِّي على الله، أن يتجاوز الإنسان قدره، وأن يتطاول، وأن يُقيّم، وأن يجعل من نفسه وصياً على الناس، أو مُقيّماً له، أو قاضياً، وقد قال بعضهم: نحن لسنا قضاةً، ولكننا دعاة، فرقٌ كبير بين أن تكون قاضياً تحكم على الناس من برجك العاجي ؛ وبين أن تكون داعية إلى الله عزّ وجل، تدعو الناس إلى الله عزّ وجل، وإلى طاعته، وإلى السير في طريق الإيمان.

إذاً: إذا جاءت الحكمة مع الكتاب فهي السنة، إن جاءت وحدها، بعضهم قال: هي النبوة، بعضهم قال: هي فهم كلام الله عزّ وجل، بعضهم قال: هي إصابة القول والعمل.

المعنى العام للحكمة:

لكن هناك من يقول: الحكمة أن تفعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، كيف ؟ الشيء له حق، وله حد، وله وقت، من حق هذا النبات أن تسقيه، وإذا سقيته يجب أن تسقيه بقدر لا تزيد ولا تنقص، وفي الوقت المناسب، من حقه أن تسقيه بالقدر المناسب وفي الوقت المناسب، فإن فعلت هذا فأنت حكيم في الزراعة، مع أولادك ؛ يجب أن تغضب بالقدر المناسب، يجب أن تغضب أو لا تغضب، هذا الموقف يجب أن تتغاضب له، فإن لم تغضب فقد انحرفت، لم تكن حكيماً، وفي موقفٍ آخر يجب أن لا تغضب، فإذا غضبت فلست حكيماً، في هذا الموقف يجب أن تُعْطِي، هناك يجب أن لا تعطي، هناك إعانة على المعصية لا تعطي، إن أعطيت في الموطن الذي لا ينبغي أن تعطي فلست حكيماً، وإن لم تعط في الموقف الذي ينبغي فلست حكيماً، إذاً: أن تفعل الحق في الحد المناسب، وفي الوقت المناسب، أن تفعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي، إذاً: فأنت حكيم هذا بعض ما قاله العلماء عن الحكمة.

على كلٍ ماذا قال الله عزّ وجل هنا عن الحكمة ؟ فالكلام له سباق كما يقولون، وله سياق، وله لحاق، السباق ما جاء قبله، والسياق ما جاء معه، واللحاق ما جاء بعده، فربنا عزّ وجل حينما قال:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

ماذا قال قبل هذا الكلام ؟ قال:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(11))

الحديث هنا عن الشرك:

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ)

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

إلخ..

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

الحكمة باعتبار سباق الآية ولحاقها:

1 ـ الحكمة باعتبار سباق الآية هي التوحيد:

الحكمة التوحيد إذاً، الطيش والسفه والحمق أن يكون الإنسان مشركاً، والحكمة أن يكون موحِّداً، سباق هذه الآية يلقي ضوءاً على معنى الحكمة، كل مشركٍ ليس حكيماً، الحكمة كل الحكمة في التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لن تكون حكيماً إلا إذا كنت موحِّداً، ما دام يتجه ذهنك إلى هذه القوة، وإلى هذه الجهة، وإلى هذا المكان، وفلان بإمكانه أن يفعل، وأن لا يفعل، وهذه الفئة لها قوّتُهَا، ولها تحديد مصيرك، إذا نظرت إلى زيدٍ أو عُبيد، أو إلى فُلان أو عِلاّن، أو إلى جهةٍ أو إلى أخرى لم تكن حكيماً، لأنه لم يكن في الكون إلا الله..

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: من الآية 84)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من الآية 123)

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر: من الآية 2)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)

(سورة الشورى31)

(إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة آل عمران: من الآية 160)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف 26)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: من الآية 54)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر 62)

((لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[سنن الترمذي عن جابر بن عبد الله]

هذه الحكمة، الحكمة أن تكون موحِّداً، لسباق الآية، لأن سباقها يقول:

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (11) وَلَقَدْ آَتَيْنَا لُقْمَانَ)

أي كان موحداً، ولم يكن مشركاً، فالحكمة كلُها في التوحيد، والحُمْقُ كله في الشرك، وإن الشرك لظلمٌ عظيم، وأقول لكم: نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى، فإذا كنت موحداً وطائعاً فأنت في الأوج، أنت المتفوق، أنت الفالح، أنت الناجح، أنت الفائز، أنت سعيد، إذا كنت في العقيدة موحداً، وفي السلوك طائعاً، توحيد بلا طاعة لا قيمة له، وطاعة بلا توحيد لا قيمة لها، إذا كنت في العقيدة موحداً، وفي السلوك طائعاً فقد نلت المجد من طرفيه، وعرفت حقيقة الدين، ووضعت يدك على جوهر الدين، وحققت الفوز في الدنيا والآخرة، الحكمة إذاً هي التوحيد في سباق هذه الآية.

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

2 ـ الحكمة باعتبار لحاق الآية هي شكرُ الله على النعم:

أما لحاقها فما دام الله قد وهب لك الحياة، وهب لك الوجود، فأنت أحد نعم الله عزّ وجل، ألست موجوداً؟ ألست حياً تُرزق ؟ أليس لك اسمٌ في السجلات الرسمية ؟ أليس لك حَيّزٌ تشغله ؟ أنت موجود، ما دمت موجوداً فهذه نعمةٌ من الله عزّ وجل، بعد أن أوجدك ألم يُمِدّكَ بأبوين يعطفان عليك، رَبّيَاك حتى أصبحت قوي العود ؟ من أودع في قلب الأم الرحمة والحنان، من أودع في قلب الأب حب الكسب من أجلك، حتى جعلك شاباً سوياً ؟ إذاً أنعم عليك بالوجود، وأنعم عليك بما يحفظ لك الوجود وهما الأبوان، لذلك في أكثر الآيات يأتي الأمر ببر الوالد، مع الأمر بعبادة الله عزّ وجل..

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء: من الآية 23)

هذه الواو حرف العطف يقتضي المجانسة، أمرك أن تعبد الله، وأمرك أن تكون باراً بوالديك.

إذاً: سباق الآية يعني أن الحكمة هي التوحيد، ولحاق الآية يعني أن الحكمة أن تشكر الله على نعمٍ لا تعد ولا تحصى، لو أنك نظرت في نعمةٍ واحدٍ، ينقضي العمر، ولا تنقضي خيرات نعمةٍ واحدة، والدليل:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم: من الآية 34)

أنتم عاجزون عن إحصائها، فلأن تكونوا عاجزين عن شُكرها من باب أولى، إذا كنتم عاجزين عن إحصائها فأنتم عن شكرها أعجز.

مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ

إذاً: هذا الذي يفسر قول تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من الآية 147)

إنه شيء دقيق جداً، فأنت أمام مهمتين، مهمة الإيمان بالله، وما دام الله منعماً، ومهمة شكره، فإذا آمنت وشكرت انتهت المعالجة، حققت المراد الإلهي، حققت الهدف الذي من أجله خلقت..

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

مثلاً:ولله المثل الأعلى، الأب كل طلباته من ابنه أن يكون مجتهداً، دَيِّنَاً، مهذباً، حسن المظهر، نظيفاً، فإذا حقق الابن هذه الغايات انتهى التأديب، انتهى نهائياً، وهذا معنى قوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

تسخير الكون تعريفا وتكريما:

إن هذا الكون سخره الله لنا تسخيرين ؛ تسخير تعريف وتسخير تكريم، لو فرضنا أنك جاءتك هدية، جهاز كهربائي دقيق جداً من أعلى مستوى من أشهر المعامل، وقدم لك خدمات كبرى، وهو هدية، أنت أمام موقفين، موقف الإعجاب بدقة الصنع، وموقف الاهتمام بمن قدّمَهُ لك، لو قدمه لك الصانع نفسه ينشأ عندك شعوران ؛ شعور التعظيم لدقة الصنع، وشعور الامتنان، لأنه قدم لك هدية، فأنت سخر الله لك الكون تسخيرين، تسخير تعريف، وتسخير تكريم.

ردُّ فعلِ الإنسان تجاه تسخير الكون تعريفة وتكريما:

تسخير التعريف يكون رد فعلك الطبيعي الإيمان، وتسخير التكريم يكون رد فعلك الطبيعي الشُكران، فإذا آمنت، وشكرت وصلت إلى المَجد، ووصلت إلى الأهداف الكبيرة التي رُسِمَت لك..

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

إذاً: الشكر شيء أساسي، ربنا عزّ وجل أثنى على بعض الأنبياء بآيةٍ إذا قرأتها وكنت يقظاً صافي النفس تذوب:

(شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ)

(سورة النحل: من آية " 121)

إنها نِعمٌ كثيرة لن تحصي عدّها، ولن تبلغ شكْرَها:

أيّ نبيٍ هذا ؟ سيدنا إبراهيم، شاكراً لأنعمه، يا ترى نحن نشكر نعم الله عزّ وجل ؟

1 – ماذا لو حبس عنك خروج الفضلات ؟!

النبي عليه الصلاة والسلام علمنا إذا أفرغ أحدنا مثانته أن يقول:

((إذا خرج أحدكم من الخلاء فليقل: الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني، وأمسك علي ما ينفعني))

[الجامع الصغير عن طاووس مرسلا]

ولا يعرف آلام حبس البول إلا من ذاقه، كان عليه الصلاة والسلام يقول بعد قضاء الحاجة:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

إنّ الإنسان يمكن أن يأخذ مادة السيروم، ويعيش عليه، لكن:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه))

انظر إلى هذا الفهم العميق للطعام ؛ فيه غذاء، وفيه لذة، وفيه فضلات، الغذاء تقوّيت به، واللذة استمتعت بها، والفضلات ذهبت عني، شاكراً لأنعمه. النبي عليه الصلاة والسلام كما تروي بعض الأحاديث:

((كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت))

[ورد في الأثر]

2 – كيف أنت مع الثوب الجديد ؟

إذا ارتدى الإنسان ثوباً جديدًا: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: لَبِسَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثَوْبًا جَدِيدًا فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي، وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْبِ الَّذِي أَخْلَقَ فَتَصَدَّقَ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ لَبِسَ ثَوْبًا جَدِيدًا فَقَالَ:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي، وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي، ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْبِ الَّذِي أَخْلَقَ فَتَصَدَّقَ بِهِ كَانَ فِي كَنَفِ اللَّهِ، وَفِي حِفْظِ اللَّهِ، وَفِي سَتْرِ اللَّهِ حَيًّا وَمَيِّتًا))

[الترمذي]

3 – هذه نعمة النوم فكيف حالك معها ؟

عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَفَانِي، وَآوَانِي، وَأَطْعَمَنِي، وَسَقَانِي، وَالَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فَأَفْضَلَ، وَالَّذِي أَعْطَانِي فَأَجْزَلَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، اللَّهُمَّ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، وَإِلَهَ كُلِّ شَيْءٍ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ النَّارِ))

[أبو داود]

فهو يرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويفكر بفكره، إذا رأى إنساناً أذهب الله عقله، مع أنه قوي البنان، ولكنه ساقط الشأن بين المجتمع، يقول لك: مجنون، فإذا وهبك عقلاً فاحمد الله.

هناك قصة معرفة عندكم، لما دخل وفد الحجازيين على سيدنا عمر بن عبد العزيز، فتقدمهم غلامٌ صغير لا تزيد سنه على الحادية عشرة، انزعج الخليفة، قال له: **" اجلس أيها الغلام ـ من أنت ؟ ـ وليَقُمْ مَن هو أكبر منك سناً "**، فقال: **"أصلح الله الأمير، المرءُ بأصغريه ؛ عقله ولسانه، فإذا وهب الله العبد لساناً لافظاً، وعقلاً حافظاً فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر كما تقول لكان في الآمة من هو أحق منك بهذا المجلس "**، وانتهى الأمر، إنه كلامٌ موجزٌ بليغ.

إذاَ: شاكراً لأنعمه، بمعنى أن الله عزّ وجل منحك نعمة الوجود، فهل شكرت هذه النعمة ؟ منحك نعمة الإمداد، فهل شكرت هذه النعمة ؟ منحك نعمة الإرشاد، فهل شكرت هذه النعمة ؟ منحك نعمة العقل، منحك فطرةً سليمة، منحك أجهزةً وأعضاء، منحك زوجة وأولاد، منحك مأوى، منحك مهارات تكسب بها رزقك.

كل إنسان أعطاه الله مهارات ؛ هذا في مهنة، وهذا في حرفة، وهذا حرفة فكرية، هذا طبيب، وهذا مهندس، وهذا محامٍ، وهذا نجّار، وهذا صانع، وهذا حدّاد، كل إنسان الله أعطاه مهارات يكسب بها قوته، إذاً يجب أن نشكر.

والشكر كما قلت لكم: في حده الأدنى أن تعرف أن هذه النعمة من الله، وفي حدها الأوسط أن يمتلئ قلبك امتناناً له، وفي حدها الأعلى أن تقابل هذه النعم بالعمل الصالح لقوله تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

(سورة سبأ 13)

ماذا فعلت ؟

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 152)

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(151)فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

4 – ماذا فعلتَ بنعمة الهدى ؟

أنت اهتديت، حاولت أن تهدي الآخرين ؟ الله عزّ وجل أنعم عليك بنعمة الهدى، حاولت أن تشكر هذه النعمة بأن تبث هذا الهدى في الآخرين ؟ حاولت أن تمد يدك إلى إنسانٍ ضال فتنقذه من ضلاله ؟ حاولت أن تمد يدك إلى إنسانٍ شارد ترده إلى صوابه ؟ حاولت أن تأخذ بيد الضعيف، بيد المسكين، بيد الحاجة، شكراً على نعمة الله عزّ وجل ؟

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ)

كل إنسان مسبوغٌ بنعم الله عزوجل:

لكن المشكلة أنك إذا كنت شاكراً فإن هذا الشكر يعود عليك، يعود إليك، لأن الله غنيٌ عن شكر العباد..

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنّ إِلا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

من كلام العوام أنهم يقولون لك: ليس لي حظ، هذا كلام ليس له معنى، يقول لك: الدهر قلب لي ظهر المِجَنّ، كلام ليس له معنى، كلام فارغ، يقول لك: أيّامي سوداء، جاء في الحديث القدسي:

((يَسُبُّ بَنُو آدَمَ الدّهْرَ، وَأَنَا الدّهْرُ، بِيَدِي اللّيْلُ وَالنّهَارُ))

[صحيح البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ]

((يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَقُولُ: يَا خَيْبَةَ الدّهْرِ، فلا يَقُولَنّ أَحَدُكُمْ: يَا خَيْبَةَ الدّهْرِ، فَإِنِّي أَنَا الدّهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا))

[مسلم عن أبي هريرة]

لا يوجد إلا الله عزّ وجل، والنبي يقول:

((فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنّ إِلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم عن أبي ذر]

لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه.

إذاً:

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

لا تنسوا هذه الآية:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

بالحكم تكسب كل شيء وبالحُمق تفقد كل شيء:

أنت بالحكمة تكسب المال، وبالحمق تبدده، أنت بالحكمة تجعل من الزوجة السيئة صالحةً، وبالحمق تجعل الصالحة سيئة، أنت بالحكمة تستطيع أن تستمتع بالحياة بشكلٍ نظيف، وبالحُمق تفقد كل شيء، ورُبَّ أكلةٍ منعت أكلات، ألا يا ربّ شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً ـ شهوة ساعة ـ ألا يا ربّ مكرم لنفسه وهو لها مهين، يا ربّ مهينٍ لنفسه وهو لها مكرم، ألا يرب شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً، لعدم وجود الحكمة، لذلك:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

[سورة محمد 1]

من لوازم الكفر الضلال، العمل فيه خطأ، فيه انحراف، لأنه أعمى..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125) قَالَ كَذَلِكَ)

[سورة طه 124]

أي كنت أعمى في الدنيا..

(أَتَتْكَ آَيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى)

[سورة طه 126]

(وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ)

مَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ

إذا كان مع الإنسان ـ مثلاً ـ صندوق حديد، كلما جمع مبلغا فتح الصندوق، ودفع هذا المبلغ فيه، وقفله، فأنت تعطي من ؟ لا تعطي أحدًا، هذا المال مالك، أنت تجمع هذا المال، بإمكانك أن تقول: أنا دفعت مئة ألف في الصندوق، لا، ليس لك فضل على أحد، أنت بهذا جمعت مالك في صندوقٍ واحد.

(وَمَنْ يَشْكُرْ)

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ)

(سورة الحجرات: من الآية 17)

هو الذي يمنّ عليكم، حتى إذا عرفت الله، وحتى إذا استقمت على أمره، وحتى إذا تقرّبت إليه، وحتى إذا شكرته ما فعلت شيئاً إلا لنفسك !!

(مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)

(وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنّ اللّهَ غَنِيّ حَمِيدٌ)

وَمَن كَفَرَ فَإِنّ اللّهَ غَنِيّ حَمِيدٌ

أي غنيٌ عن إيمان العباد، لكنه لا يرضى لهم الكفر، لأنه رحيمٌ بهم، هو غنيٌ عنهم آمنوا أو كفروا، لكن رحمته تقتضي أن لا يرضى لهم الكفر، وإن يؤمنوا به ويشكروه يرضه لهم، هذا شأن الذات الكاملة، مع أنها غنية عن العباد إلا أنها حريصة على هدايتهم، وعلى سعادتهم في الدنيا والآخرة، لذلك ومن هذا المنطلق تأتي جميع المصائب حرصاً من الذات الكاملة على إسعاد العباد، فالعبد إذا كان شارداً، ضالاً، منحرفاً، تأتيه عناية الله عزّ وجل، هناك التذكير، وهناك المعالجة بالمصائب، وهناك التخويف، كل هذا من أجل أن ينيب الإنسان إلى الله عزّ وجل، فإذا عاد إلى الله حلت كل مشكلاته.

" إذا رجع العبد العاصي إلى الله، نادى منادٍ في السماوات والأرض: أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله ".

والله الذي لا إله إلا هو لا يصح أن تقول لإنسان من أعماق نفسك: هنيئاً لك، إلا إذا اصطلح مع الله، إلا إذا تاب إلى الله، وإذا تاب العبد إلى الله توبة نصوحاً أنسى حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه، والإسلام يجبّ ما قبله، والإسلام يهدم ما كان قبله...

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعًا)

[سورة الزمر: من الآية 53]

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

(فَفِرّوا إِلَى اللّهِ إِنّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الذاريات 50)

هكذا جاء في القرآن الكريم.

لا بد مِن إيمان يصمُد مع الفتن الهائجة:

شيء آخر.. يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق، الحياة فيها فتن، إيمان العجائز، إيمان الاستسلام، الإيمان الصوري الشكلي، ما تلقيته في المدرسة، ما تسمعه من بعض خطباء المساجد من دون جهد، ومن دون شيء، هذا الإيمان لا يكفي في عصر الفِتَن، ربما كان يكفي في زمنٍ قديم عندما كان الناس كلهم صُلَحاء، الإيمان التقليدي مع أنه مرفوض عند علماء التوحيد، غير مقبول، لا تقليد في الإيمان، الإيمان تحقيق لا تقليد، ومع ذلك الناس في مجموعهم صُلَحَاء، فإذا سار الإنسان على منهج الناس، أغلب الظن أنه ينجو، أما الآن الفتن كلها يقظة، فإذا سرت في الطريق لا تستطيع أن تنجو من الفتنة إلا بإيمانٍ قوي، مجرد أن تنظر نظرة من دون انضباط صار الحجاب بينك وبين الله عزّ وجل، لأن الله أمرك بغض البصر، والنساء في الطريق كاسياتٌ عاريات مائلاتٌ مميلات.

لا تستطيع الآن أن تنتقل من بيت إلى بيت من دون إيمان، الطرقات مزينة، الأسواق، المحلات التجارية، النساء يخطرن في الطرقات بأبهى زينة، فإذا كان إيمانك ضعيفاً تنساق، تطلق البصر في النساء، ومن ملأ عينيه من الحرام ملأهما الله من جمر جهنم، ومن غض بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوةً في قلبه إلى يومِ يلقاه.

هل تعلم أيها الأخ الكريم أنك في اليوم الواحد تصلي خمس مرات، ولكن إذا سرت في الطريق كل غض بصرٍ يُعَدُّ صلاةً لك، لماذا تغضض ؟ لا توجد جهة تمنعك، لا يوجد في الأرض كلها قانون يمنع النظر، وهذه حكمة الله عزّ وجل، أحياناً تلتقي القوانين الأرضية مع الشرائع السماوية، فالسرقة محرمة في الدين وفي القانون، فإذا امتنع الإنسان عن السرقة، فالله أعلم ؛ إما خوفاً من الله عزّ وجل، وإما خوفاً من أن يسجن، أو أن تُهْدَرَ كرامته، لكنك إذا غضضت بصرك عن محارم الله، ليس في الأرض كلها تشريع يأمرك أن تغض بصرك، بل ليس في الأرض كلها جهة تحاسبك على ذلك، بل ليس في الأرض كلها جهة تستطيع أن تكتشف هذه المعصية،

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر: الآية 19]

طبيب أمامه امرأة يعالجها مسموح له أن ينظر إليها، لكن الله وحده يعلم ما إذا كان نظره إلى الموضع الضروري أو غير الضروري، هذا من يعلمه ؟ الله عزّ وجل، لذلك غض البصر عبادة الإخلاص، إذا غضضت بصرك عن محارم الله فأنت ـ وربِّ الكعبة ـ مخلص، لأنه لا توجد جهة تتملقها بهذا، وهذا الذي أردت أن أقوله لكم: حينما يستقيم الإنسان على أمر الله، يشعر أن الطريق صار أمامه سالكاً إلى الله عزّ وجل.

(وَمَنْ كَفَرَ فَإِنّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيّ لَا تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنّ الشّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيّ الْمَصِيرُ(14))

إن شاء الله تعالى في دروسٍ قادمة نحاول أن نتابع شرح هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (05-13): تفسير الآيات 13 – 15

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-06-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(13))

نقف عند كلمة:

(وَإِذْ قَالَ)

1 – كيف تستخدم البيان والكلام ؟

أي أن هذا البيان الذي علّمه الله الإنسان، هذه الميزة التي خَصّه الله بها، كيف يستخدمها ؟ كما أن الإنسان بالبيان يرقى إلى الواحد الديّان، كذلك بالبيان، واللغة، والكلام يهوي إلى أسفل سافلين..

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ))

[سنن الترمذي عن أبي هريرة]

هناك كلمة كفر، وكلمة فسق، وكلمة عصيان، وكلمة استهزاء، وكلمة جحود، وكلام تطاول، وكلمة تحدٍّ، هناك معاصٍ يرتكبها اللسان لا تُعَدُّ ولا تحصى، كما أن الإنسان باللسان يرقى إلى أعلى عليين، كذلك الإنسان باللسان يهوي إلى أسفل سافلين.

إذاً: الخصائص النفيسة التي خصّ الله الإنسان بها خصائص حياديّة يمكن أن تستخدم في الحق، ويمكن أن تستخدم في الباطل، وهل نشر الكفر إلا عن طريق اللغة، والبيان، والخطابات، والتأليف، والنشرات وما إلى ذلك ؟ هل نشر الضلال إلا عن طريق اللغة ؟ هل نشر الفتن، هل تحريض الناس على ارتكاب المعاصي إلا عن طريق اللغة ؟ وهل دعوة الأنبياء إلا عن طريق اللغة ؟ الهدى يتمُّ عن طريق اللغة ؛ والإضلال يتمُّ عن طريق اللغة، إذاً: هذا البيان الذي خصّ الله به الإنسان كيف يستخدمه ؟

2 – استخدام لقمان الحكيم اللغة لبيان الحق:

سيدنا لقمان استخدمه في بيان الحق، فأنت حينما تشعر أن الله أعطاك هذا اللسان، أعطاك هذه العين لترى بها عورات المسلمين ؛ أم لترى بها ملكوت السماوات والأرض ؟ أعطاك هذه الأذن لتستمع بها إلى الغناء والباطل والغيبة والنميمة ؛ أم لتستمع بها إلى الحق، أعطاك هذه اليد لتبطش بها ؛ أم لتعين بها الضعيف ؟ أي أن كل شيءٍ أعطاك الله إياه يمكن أن يوظّف للحق كما يمكن أن يوظّف للباطل، هذا هو الاختيار، سيدنا لقمان وظّف اللغة، وظّف البيان، وظّف القول لنشر الحق..

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ)

3 – إِنّ وَلَدَ الرّجُلِ مِنْ كَسْبِهِ:

بالمناسبة الإنسان الذي لا يَمُتُّ إليك بصلة إن هديته، وإن لم تهده فهناك من يهديه، أما ابنك ليس له إلا أنت، فأن تهدي ابنك هذا عملٌ عظيم، لقول النبي عليه الصلاة والتسليم:

((إِنّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنّ وَلَدَ الرّجُلِ مِنْ كَسْبِهِ))

[النسائي عن عائشة]

لأنه جزءٌ منك، ولأنه امتدادٌ لك، ولأنه صدقة جارية، طبعاً..

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثَةٍ: إِلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

المؤمن يسأل الله عزّ وجل ذُرّيَةً صالحة..

(رَبّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرّيّاتِنَا قُرّةَ أَعْيُنٍ)

(سورة الفرقان25)

تقرُّ به العين. إذاً:

(وَإِذْ قَالَ)

هذا البيان الذي خصّ الله به الإنسان، كيف يستخدمه ؟ تعلّمت اللغة، تعلّمت القراءة والكتابة لتقرأ ماذا؟ لتقرأ قصصاً ماجنة ؛ أم لتقرأ كتاب الله ؟ لتقرأ موضوعاً يزيدك علماً وقرباً ؛ أم لتقرأ موضوعاً يزيدك بعداً وانحرافاً ؟ هذه اللغة، فاللغة عاملٌ حيادي، إما أن ترقى بها إلى أعلى عليين ؛ وإما أن تهوي بها إلى أسفل سافلين، فربنا عزّ وجل يبين كيف أن الهداية تتمُّ عن طريق البيان، والحوار، والسؤال، والجواب، والتعليق، والاستيضاح..

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ)

1 – منزلة الموعظة:

كلمة الوعظ لها الآن في هذا العصر وقع غير مَرْضِيِ عنه، يقول لك: أخي كفاك مواعظ، إياك أن تعظ الناس، فكلمة وعظ ليست كلمة محبّبة، ما السبب ؟ الحقيقة وأنا أقول لكم: إن أتفه عملٍ ـ دقِّقوا في كلامي ـ إنّ أتفه عملٍ تفعله في حياتك أن تعظ الناس، أتفه عمل، وقد تستغربون، وإن أعظم عملٍ تفعله في حياتك أن تعظ الناس، أعظم عمل لا يرقى إليه عمل، ولا يسمو فوقه عمل، ولا يطمح إنسانٌ أن يصل إليه أن تكون واعظاً، وأتفه عملٍ هو أن تكون واعظاً، كيف ذلك ؟

هذا الكلام فيه تناقض، والحقيقة إذا كان الوعظ عملية قراءة كتاب، وحفظ بعض المعلومات، وإلقائها على الناس، وجذب وجوه الناس إليك، والله هذا أتفه عمل، لأنه سهل لا يكلِّف شيئاً ؛ بل يجلب نفعاً، وميزاتٍ، ووجاهة، وهكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ تَعَلّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُجَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللّهُ جَهَنّمَ))

[من سنن ابن ماجة عن أبي هريرة]

2 – حقيقة الموعظة بين الواعظ والموعوظ:

إنه سهلٌ جداً أن تعظ الناس، ولا يعرف الشوق إلا من يُكابده، فأن تقول للناس: ادفعوا أموالكم، أنفقوا، والله هذا سهل، أما حينما تنفق أنت، تعرف معنى الإنفاق، الإنفاق يحتاج إلى جهد، هذا المال مُحَبَّب، والله عزّ وجل قال:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذّهَبِ وَالْفِضّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

(سورة آل عمران)

المال محبّب، الله عزّ أودع حبّ المال في قلوب البشر، فإنفاق المال يحتاج إلى مخالفة لطبيعة النفس، هنا التكليف، فالحقيقة أن يقول الإنسان للناس: أنفقوا أموالكم، فالقضيّة سهلة جداً لا تكلّفه إلا حركات في فمه، وإخراج حروف على نحو معيّن، قال الله تعالى، قال عليه الصلاة والسلام، فالموعظة على مستوى أن تقرأ شيئاً، وأن تلقيه على أسماع الناس عمليةٌ في منتهى البساطة والسهولة، بل إنها أتفه عملٍ تفعله، يبدو أن الناس حينما رأوا من يعظهم، وهو ليس في مستوى وعظه، وحينما رأوا أن هناك

من يحترف الدين، أو من يرتزق بالدين، أو من يُنَصِّبُ نفسه واعظاً، وهو ليس في مستوى الوعظ، هذه الممارسات الخاطئة، وهذه الأعمال التي ينفر منها الناس، هي السبب في أن كلمة وعظ ليست محبَّبَةً عند الناس، ولكن الأنبياء وعظوا، أنفقوا من مالهم ثم تكلموا.

قصة وعبرة:

هناك قصّة معروفة عندكم: عبدٌ له سيّد، ولهذا السيّد شَيْخ، وكان هذا الشيخ يأتي دار تلميذه من حينٍ إلى آخر، فيرى هذا العبد احتفال سيده الكبير بشيخه، فخطر في باله أن يسأله أن يأمر سيده أن يعتقه، ففعل، فقال هذا الشيخ: أفعل إن شاء الله، ومضى أسبوع تلو أسبوعٍ تلو أسبوعٍ، ولم يحدث شيء، فزاره مرّةً ثانية، أعاد عليه الطَلَبَ مرة ثانية فقال: أفعل إن شاء الله، ومضى شهرٍ تلو شهرٍ تلو شهرٍ، ولم يحدث شيء، وزاره مرّةً ثالثة، وأعاد عليه الكرّة، وقال له الشيخ: أفعل إن شاء الله، وبعد أسبوعين استدعاه سيده، وأعتقه بناءً على توصية شيخه.

دار سؤالٌ كبير في ذهن هذا العبد: ما دام هذا التوجيه لا يكلِّف الشيخ إلا كلمةً يقولها لسيده، فلِمَ لمْ يقلها منذ أشهر طويلة ؟ التقى به، وسأله هذا السؤال، قال له: يا ولدي، لقد كلّفتني شيئاً كبيراً، لقد اقتصدت من نفقتي مبلغاً أعتقت به عبداً، وبعدئذٍ أمرت سيدك أن يعتقك.

هذه قصّة لها مغزى كبير، أي أنك إذا طبّقت وأخلصت يجعل الله في كلامك سراً، والتطبيق بلا إخلاص غير مقبول، والإخلاص من دون تطبيق لا يكون أساساً، لو طبّقت أمر الله عزّ وجل، وأخلصت في تطبيقه، يجعل الله في كلامك روحانيّة وسرّاً تهفو القلوب إليها، هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أخلص عبدٌ لله إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودّة والرحمة))

[ورد في الأثر]

كلمات تغيّر مفهومها بمرور الزمن:

1 – كلمة (الموعظة)من الكلمات التي تغيّرت نظرة الناس إليها:

إذاً: وعظ ـ وإن كان كلمة قاسية ـ فهو من أتفه الأعمال التي يفعلها الإنسان، إذا كان هو في واد ووعظه في واد، يأمر بما لا يأتمر، ينهى عما عنه لا ينتهي، يدعو الناس إلى شيء وهو بعيدٌ عنه، يأمرهم بشيء ولا يسبقهم إليه، ما سرُّ عظمة الأنبياء ؟ يمكن أن نجمِّع هذا السر في كلمةٍ واحدة: أنهم

قالوا بألسنتهم ما فعلوه في حياتهم، ليس في حياة الأنبياء ازدواجيّة، ليس في حياة الأنبياء اثنينيّة، ليس في حياة الأنبياء ظاهرٌ وباطن، خلوةٌ وجلوة، حياة الأنبياء كلٌ موحّد، والمؤمن كذلك ؛ ما في قلبه على لسانه، ما في لسانه في قلبه، سرُّه كعلانيّته، سريرته كظاهره، وحينما يكون هناك وعّاظ كلامهم في واد وعملهم في واد، يرتزقون بالوعظ، ويطلبون الدنيا منه، عندئذٍ تسقط هذه الكلمة **(الوعظ)**و يراها بعض الناس في الحَضيض، لكن ربنا عزّ وجل قال:

(وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا)

(سورة النساء63)

وكذلك:

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيّ لَا تُشْرِكْ بِاللّهِ)

فالوعظ يستطيعه كل من أوتي لساناً وأثراً من عِلمٍ، كمن أوتي شيئاً من علمٍ، قرأ كتاباً في التفسير، قرأ كتاباً في الحديث، قرأ كتاباً في الفقه، سمع بعض القصص، أي إنسان اطلع على بعض المعلومات، وله لسان طليق بإمكانه أن يعظ الناس، ولكن هذا الإنسان لا يُجْري الله الخير على يديه، لأنه ليس صادقاً، وليس مخلصاً، أما إذا كنت مطبّقاً لما تقول، صادقاً فيما تقول، مخلصاً فيما تقول، عندئذٍ يصبح الوعظ أعلى عملٍ، وأشرف عملٍ، وأغلى عملٍ يفعله الإنسان، عندئذٍ تأخذ كلمة الوعظ بريقاً.

أضرب لكم بعض الأمثلة:

2 – كلمة (جرثومة):

هناك كلمات كان لها بريق، ثمّ خبا بريقها بسبب نوع استعمالها، فمثلاً: كلمة جرثومة هي أصل الشيء، يأتي شاعر إلى خليفةٍ عظيم، فيمدحه بقصيدةٍ ويقول له:

أنت جرثومة الدين والإسلامِ والحسبِ

****

يقول: أنت أصل الدين، وأنت أصل الإسلام، أما حينما اكتشفت كائنات حيّة لا تُرى بالعين، وهي أصل الأمراض، سميت جراثيم، فإذا قلت لإنسان الآن صديقٌ لك في معمل أو في وظيفة: أنت جرثومة هذه الدائرة، إنها ذنب، فانظروا كيف أن هذه الكلمة حينما كانت تستعمل بطريقةٍ معيّنة كان لها بريق، وعندما استعمِلَت بطريقةٍ أخرى خبا بريقها.

3 – كلمة (عصابة):

كلمة وعظ، كلمة عصابة..

((اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ))

[مسلم]

هذا دعاء النبي، والعصابة: الجماعة، أما حينما استخدمنا كلمة العصابة لقطّاع الطرق والمجرمين فقد أصبح لهذه الكلمة معنىً آخر، فالكلمة كالكائن الحي كما يقول علماء اللغة: تولد، وتنمو، وتصبح شابّة، وتشيخ، وتموت، الكلمة كائن حي، هكذا عرّفها علماء اللغة، فكلمة الوعظ الآن مرفوضة، فإذا أردت أن تعلّق تعليقاً ساخراً على كلام تقول: لا تَعِظْنَا، لكن ربنا عزّ وجل يقول:

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ)

إذا وجد صدق، إنسان امتلأ علماً، وامتلأ حباً لله، وامتلأ انضباطاً بأوامره، وامتلأ استقامة على أمره، هذا إذا أراد أن ينشر الحق، أن ينشر الفضيلة، أن يدعو إلى الله عزّ وجل، هذا أشرف عمل، أما إنسان فارغ، لكن أراد أن يتّخذ من الوعظ رزقاً، ودنيا، ومكسباً رخيصاً، هذا الإنسان له شأنٌ آخر، هذا تعليقٌ طفيف على كلمة:

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ

1 – التوحيد من أصول الدين:

كنت قبل أشهر ضربت مثلاً لأوضّح فيه معنى الشرك، الحقيقة الإسلام فيه أصول، وله فروع، من أصول الإسلام التوحيد، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، وما من مشكلةٍ نُعاني منها إلا بسبب نقص في توحيدنا، متاعب الإنسان، مشكلاته النفسيّة كلها بسبب الشِرك..

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء213)

الأمر كله بيد الله..

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود)

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود56)

2 – التوحيد من أصول الدين:

حينما يشرك الإنسان، حينما ينسب لزيدٍ أو لعُبَيْدٍ فعلاً، حينما يظنُّ أن فلاناً بإمكانه أن يفعل كذا وكذا، حينما يُعَلِّق آماله على زيد أو عبيد، على فلان أو علان فقد أشرك، والحقيقة كما قال بعض العلماء: نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى، فأرقى عمل أن تطيع الله عزّ وجل، وأرقى علم أن توَحّد، فليس عجباً أن يكثِّف الله عزّ وجل فحوى دعوة الأنبياء كلِّهم بالتوحيد..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِي)

(سورة الأنبياء25)

3 – الدين كلّه توحيد:

فإذا أردت أن أضغط لك الدين كلّه بكلمتين أقول لك: وحّد واعبد، آمن بأنه لا إله إلا الله، آمن بالله خالقاً، ورباً، ومسيراً، وآمن به، وبوحدانيّته، وبكماله، آمن بوجوده، وبوحدانيّته، وبكماله، آمن بأسمائه الحسنى وصفاته الفُضلى، إذا آمنت ووحدت فقد بلغت قمّة العلم، لأن فحوى دعوة الأنبياء كلِّهم هو التوحيد، والعمل لا يصلح إلا بالعبادة.

4 – ما هي العبادة ؟

العبادة كما تعرفون طاعة طوعيّة، فأنت في أرقى مستوياتك حينما تطيع الله عزّ وجل في كامل أوامره، وتنتهي عن كل ما نهى عنه، العبادة كما تُعرّفُ دائماً: طاعة طوعيّة ممزوجة بمحبّةٍ قلبيّة..

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا)

أي مائلاً..

(فِطْرَةَ اللّهِ الّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم 30)

طاعة طوعيّة، ممزوجة بمحبّةٍ قلبيّةٍ، تسبقها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادةٍ أبديّة.

يقول لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه:

(يَا بُنَيّ لَا تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنّ الشّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

مثالٌ واقعي لبيان الشرك:

ضربت مثلاً مراراً وسأعيده ثانياً: إنسان مهمّته أن يصل إلى حلب، وهناك سيأخذ مبلغاً كبيراً في وقتٍ محدّد، توجّه إلى محطّة القطار، فإذا ركب القطار الذاهب إلى حلب، ولو ارتكب آلاف الأخطاء، أو عشرات، أو مئات، فقد يدفع ثمن بطاقةٍ في الدرجة الأولى، ويجلس في الدرجة الثالثة، ولكنّه يصل، وقد يتضوُّر جوعاً، وفي القطار مركبة تبيع بعض الأطعمة وهو لا يدري، وقد يركب في مقعدٍ معاكسٍ لاتجاه القطار فيصاب بالدوار، يحدث هذا لكنه يصل، وقد، وقد...وقد يقبع في مقطورةٍ فيها شباب يصيحون، ويمزحون، وهو في سن غير هذا السن فينزعج، وقد يركب في مركبة فيها طفل صغير كثير البكاء وينزعج، وقد، وقد... لكن هناك خطأ إذا ارتكبه لا يغتفر، وهو: أن يتجه إلى مقطورةٍ واقفةٍ لا علاقة لها بالقطار المتوجّه إلى حلب، فكل هذه الأغلاط تُصَحّح وتنتهي، والقطار يصل.

إذا آمن الإنسان بالله عزّ وجل، آمن به خالقاً، آمن به رباً، آمن به إلهاً، آمن بوجوده، وآمن بوحدانيّته، وآمن بكماله، فكّر في الكون فعرفه، قرأ القرآن فعرفه، تأمّل في الحوادث فعرفه، المؤمن مذنب توّاب، كل بني آدم خَطّاء، لكن إذا ادعى أن مع الله إلهاً آخر فهذه مشكلة كبيرة، إذا اتجهت إلى جهةٍ لا تملك لك نفعاً ولا ضراً، لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، فلأن لا تملك لك من باب أولى، هنا المشكلة أن تعقد آمالك على زيد..

قصة في التوحيد من حياة السلف:

ثمة قصّة معروفة عندكم، عندما جاء توجيه من أحد خلفاء بني أميّة لوالي البصرة، وكان عنده الحسن البصري رضي الله عنه، يبدو أن هذا التوجيه مخالفٌ لبعض القواعد الدينيّة، وقع هذا الوالي في حيرة، ماذا يفعل ؟ أمرٌ جاء من أعلى، فإن نفّذه وقع في إثم، وإن لم ينفّذه وقع في سخط السلطان، سأل الإمام الحسن البصري وقال: ماذا أفعل ؟ قال الحسن البصري كلمة: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

أي مخلوق إذا أطعته، وأسخطت الله عزّ وجل، هذا المخلوق لا يمنعك من الله، ولكنك إذا أرضيت الله عزّ وجل، ولم تبالِ بسخط هذا المخلوق، الله عزّ وجل يمنعك منه، هذا هو التوحيد.

إذاً:

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيِّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ)

خطورة الشرك:

إيّاك والشرك..

(إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ)

(سورة النساء 48)

1 – خطورة الشرك الخفي:

طبعاً على مستوى العالَم الإسلامي ليس هناك شركٌ جَلِي، ليس هناك صنمٌ يُعْبَد، لا، ولكن هناك شركٌ خفي، وقد ورد في بعض الأحاديث:

((إِنّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوّفُ عَلَى أُمّتِي الإِشْرَاكُ بِاللّهِ، أَمَا إِنّي لَسْتُ أَقُولُ: يَعْبُدُونَ شَمْسًا، وَلا قَمَرًا، وَلا وَثَنًا، وَلَكِنْ أَعْمَالا لِغَيْرِ اللَّهِ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً))

[سنن ابن ماجة عن شداد بن أوس]

((الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة، وأدناه أن تبغض على عدلٍ، وأن تحبّ على جورٍ))

[تخريج أحاديث الإحياء]

أن تحبَّ إنساناً ليس كما يجب أن يكون، تحبه لمصلحةٍ، فهذا أحد أنواع الشراك، وأن تغضب لنصيحةٍ وُجّهَت إليك ثأراً لمكانتك، فهذا أحد أنواع الشرك، وإما أن تجعل من نفسك ومن شهواتك إلهً، وهكذا قال الله عزّ وجل، الآية الكريمة هي:

(أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الفرقان 43)

2 – الأخذ بالأسباب والتوكل على الله:

إما أن تجعل من أهوائك آلهةً تعبدها، وإما أن تجعل من بعض الناس آلهةً ترضيهم بسخط الله، فكيف تدعو فلاناً إله ؟ هذا شيء قد يكون له جواب، حينما تعلّق عليه الآمال، وحينما ترجو رضاه، وتخاف من سخطه، على حساب طاعتك لله عزّ وجل، وعلى حساب دينك، فهذا هو الشرك، وقد يكون هذا الشرك شركاً جلياً، فلذلك الشيخ محي الدين رضي الله عنه، له تعريف دقيق يقول فيه: **" إذا أخذت بالأسباب واعتمدت عليها فهذا شركٌ خفي ".**

مثلاً: أجريت مراجعة لمركبتك، وقال لك المختص: حالتُها جيّدة جداً، فقلت: لن يحدث معي شيءٌ في هذا السفر، هذا شرك، لأنك أخذت بالأسباب، واعتمدت عليها، المؤمن يأخذ بالأسباب ويعتمد على الله،

إن لم يأخذ بالأسباب فقد عصى، وإن أخذ بالأسباب، واعتمد عليها فقد أشرك، وخلطٌ دقيقٌ جداً بين أن تأخذ بالأسباب وتعتمد عليها، وبين أن لا تأخذ بالأسباب، في الأولى أشركت، وفي الثانية عصيت، المؤمن يأخذ بالأسباب، ويتوكّل على ربِّ الأرباب، في اللحظة التي تقول فيها: أنا ؛ مُعْتَدّاً بنفسك، مُعْتَدّاً بعلمك، مُعْتَدّاً بمالك، مُعْتَدّاً بصحّتك، مُعْتَدّاً بقوّتك، فقد أشركت، وإذا أشرك الإنسان سقط من السماء إلى الأرض.

3 – ما هو الجهل ؟

فما هو الجهل ؟ الجهل كل شيءٍ خلاف الواقع، يعرّفون العلم بأنه: علاقةٌ ثابتةٌ مقطوعٌ بصحّتها، يؤيّدها الواقع، عليها دليل، فإن لم تكن هذه العلاقة ثابتةً، فليست علماً، إن لم يكن مقطوعاً بصحّتها، هي إذاً شكٌ، أو وهمٌ، أو ظن، إن لم يكن عليها دليل فهي تقليد، إن لم تكن مطابقةً للواقع فهي جهل، كل شيءٍ يخالف الواقع فهو جهلٌ، إذاً أنت حينما تتجه إلى إنسان معلّقاً عليه الآمال، وهذا الإنسان ضعيف، فلو أن الله عزّ وجل جَمّدَ ذرّةً من دمائه في بعض شرايين دماغه لفقد ذاكرته، في مكان آخر أصبح مشلولاً، في مكان ثالث أصبح أعمىً، في مكان رابع اختلّ توازنه العقلي، إذاً: هذا الذي تعتمد عليه هو بيد الله عزّ وجل، فقوامه، وملكاته وأجهزته وأعضاؤه كلها بيد الله، فإذا اتجهت إلى مخلوق، وتركت الخالق فهذا جهل، لأن الواقع خلاف ذلك.. هناك آية أبلغ:

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا)

(سورة الأعراف 188)

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فلأن لا يملك للآخرين نفعاً ولا ضراً من باب أولى.

بين الهدى البياني والهدى التوفيقي:

لو قال لك إنسان: أريد أن يلتقي بك ابني كي تهديه إلى الله، وكأنه يظن أن كلمة منك تكفي لهدايته، فقلت له: والله أنا ابني ليس كما أريد، ما معنى هذا الكلام ؟ معناه لو كان بالإمكان أن أصنع الهُدى في نفس إنسان لفعلت هذا مع ابني، ولكن الله يهدي من يشاء..

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

(سورة القصص56)

إنك لا تستطيع أن تخلق أثر الهدى في النفس الإنسانية، ولكن:

(وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الشورى52)

مجمل هذا الكلام بمعنى أنك من حيث التبليغ تهدي إلى صراطٍ مستقيم، أما من حيث إحداث الأثر فهذا ليس بيدك، لأن الإنسان مخيّر.

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيِّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

الشرك ظلمٌ عظيم:

ظلمٌ لمن ؟ ظلمٌ لصاحبه، فإذا أشرك الإنسان، وأمضى حياته متجهاً إلى غير الله، وانقضت حياته، وجاءت الحياة الأبديّة كان خاسرًا، لذلك في القول المأثور: **" إن الميت حينما يوضع في قبره يقول الله عزّ وجل له:**

((عبدي، رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق معك إلا أنا، وأنا الحيُّ الذي لا يموت))

إذا أمضى الإنسان كل حياته مع الناس، زيد وعَبيد، وفلان، والجهة الفلانيّة، وحقّق نتائج كبيرة جداً، ارتقى إلى أعلى المراتب، وحَصّل أكبر الأموال، فجاء ملك الموت..

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

كل شيءٍ حصّله يفقده في ثانيةٍ واحدة، فالبطولة ليس أن تعيش في الدنيا مرفوع المَقام، ولا كثير المال ؛ البطولة أن تلقى الله عزّ وجل وهو راضٍ عنك، أن تعرفه في الدنيا كي تسعد بهذه المعرفة في الآخرة، أما إذا أمضيت الحياة الدنيا في الشِرك، فأنّى لك أن تستطيع أن تسعد بالله في الآخرة ؟!

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيِّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

إذا كان العظيم قال عن شيء إنه: عظيم، فما قولك ؟

مثلاً: لو قال لك طفلٌ صغير: أنا معي مبلغٌ كبير، كم تُقَدِّره ؟ طفل في صف أول ابتدائي، قال لك: أنا معي مبلغ كبير، أي خمس ليرات، عشر، خمس عشرة، مئة، أما إذا قال لك إنسان تاجر كبير جداً: أنا معي مبلغ كبير، فكلمة كبير إذا قالها طفل فلها معنىً، وإذا قالها طفل لها معنىً آخر، تقول: له مئتا عمود، أي مئتا مليون، أنت لا تعرف مقدارها، كلمة عظيم من غني تختلف عنها من طفل، فإذا قال ربنا عزّ وجل:

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

إذا قال العظيم عن الشرك: إنه شيءٌ عظيم، فكم هي عظمة الشرك ؟ فالشرك كل سعادتك بهذه المدينة، وكل المشكلات تُحلُّ إذا وصلت لهذه المدينة، واتجهت إلى مقطورةٍ لا علاقة لها بالقطار الذاهب إلى المدينة، هذا هو الشرك، المركبة واقفة، أما هي فإنها فخمة من الداخل، لَفَتَ نظرك فخامتها، لفت

نظرك مقاعدها، لفت نظرك جُدرانها، لفت نظرك أناقتها، لكنها واقفة، وأنت كل مشكلتك بالوصول إلى المدينة، فإذا اتجهت إلى مركبةٍ لها علاقة بالقطار، وصلت، وقد ترتكب في هذه السفرة عشرات الأغلاط كلها مغفورة، أما الغلط الذي لا يغتفر أن تتجه إلى مركبةٍ لا علاقة لها بالقطار، وإذا توجّه الإنسان إلى إنسانٍ آخر، أو إلى جهةٍ، أو إلى جماعةٍ، أو إلى أي شيء، واعتقد به القوّة والغنى، وأنه يعطي ويمنع، ويرفع ويخفض، ويعز ويذل، وهو ليس كذلك، فهذا جهل..

(إنّ الشّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

لذلك ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، اسمع آية التوحيد..

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود 56)

من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام الجامعة المانعة الموجزة البليغة أنه قال:

((وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ))

[صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لا خوف للعبد إلا من الذنب والمعصية:

((لا يخافنّ العبد إلا ذنبه، ولا يرجونّ إلا ربّه))

[كنز العمال موقوفا عن علي]

أية جهةٍ مهما كانت مُخيفة لا ينبغي أن تخاف منها، لماذا ؟ لأنها بيد الله الذي:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف)

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر62)

خَلَقَ مخلوقات قويّة، وخلق مخلوقات لها وضع مخيف، ولكن الله عزّ وجال مالِكُها، فالمؤمن لا يخاف إلا من الله، يا موسى خف ثلاثاً، خفني، وخف نفسك، وخف من لا يخافني، أي لا تأمن له.

((لا يخافنّ العبد إلا ذنبه، ولا يرجونّ إلا ربّه))

الشيء الذي ينبغي أن تخاف منه هو أن تُخْطِئ، أن تنحرف، أن تأكل حقوق الآخرين، أن تطغى عليهم، أن تبغي، أن تتجاوز الحد، من هذا فَخَفْ، لأن الله عزّ وجل بالمرصاد، أما جهة قويّة مخيفة فهي بيد الله..

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود 56)

هذا معنى:

(إِنّ الشّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

(وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيّ الْمَصِيرُ)

وَوَصّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ

1 – المجانسة بين المعطوف والمعطوف عليه:

الآن عندنا ملاحظة: أن الله سبحانه وتعالى حينما يعطف شيئاً على شيء، العطف يقتضي التجانس، أو المقاربة، فأنت مثلاً لا تقول: واللهِ اشتريت أرضاً وملعقةً، لا يتناسبان، تقول: اشتريت أرضاً وحانوتاً، اشتريت بيتاً ومركبة، اشتريت كتاباً ودفتراً، اشتريت ملعقة وشوكة، العطف يقتضي التقارب.

2 – بر الوالدين معطوف على طاعة الله:

فربنا عزّ وجل رفع برّ الوالدين حينما عَطَفَهُ على طاعته..

(وَقَضَى رَبُّكَ ألا تَعْبُدُوا إلا إِيّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء)

وهذه الباء لها تفسير لطيف جداً أنتم تعرفونه، كلمة أحسن في اللغة يرتبط بها إلى، لا الباء، فعل أحسن يتعدّى بـ **(إلى)**، أما ربنا عزّ وجل فعدّاه هنا بالباء، والباء من معانيها الإلصاق، لأن الإحسان إلى الوالدين لا يُقْبَل إلا منك بالذات مباشرةً، فإنسان في بحبوبحة، عنده سائق، يقول للسائق: خذ والدي إلى نزهةٍ، هذا غير مقبول، خذ لوالدي هذه الفاكهة، لا، يجب أن تقدّم الفاكهة بذاتك لوالديك، يجب أن تأخذه إلى النزهة بنفسك، لأن الإحسان إلى الوالدين لا يُقْبَل إلا من الابن بالذّات، هذا معنى قوله تعالى:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

ربنا عزّ وجل رفع برّ الوالدين حينما عطفه على عبادة الله عزّ وجل..

(وَقَضَى رَبُّكَ ألا تَعْبُدُوا إلا إِيّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء)

وهنا:

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيّ لَا تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنّ الشّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ)

3 – طاعة الوالدين بين الطاعة والطبع:

إذا كان الله عزّ وجل هو الخالق، فوالداك السبب في وجودك، السبب الذي جعله الله، لأن الله المسبّب وهما السبب، طبعاً هناك شيءٌ آخر هو: أن الله سبحانه وتعالى أودع في قلب الأمّهات والآباء حبّاً لأولادهم، وهذا سرُ الخَلق، أنت تجد الأم، أيّة أم في قلبها من الرحمة بابنها الشيء الذي لا يوصف، لذلك أي شيءٍ موجود طبع الإنسان لم يكلف به أغفله، أما التكليف جاء ليُطالبك بما ليس في طبعك، كيف ؟ من طبعك أن تقبض المال، التكليف أمرك أن تنفقه، من طبعك أن تنام، التكليف أمرك أن تستيقظ، من طبعك أن تتحدّث عن قصص الناس لأن هذا شيءٌ مسلٍ، التكليف أمرك أن تضبط لسانك، من طبعك أن ترى هذه الأم، وقد كبرت سنُّها أصبحتْ عبئاً عليك، وأن تلتفت إلى زوجتك، التكليف أمرك أن تعتني بأمِّك.. يا رسول الله من أعظم الرجال في حقّ المرأة فقال: **" زوجها "**، فلمّا سُئل: من أعظم النساء في حقّ الرجل قال: **"أمُه..**

(وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ)

الأم مفضّلة على الأب، قال عليه الصلاة والسلام:

((أُمّكَ، ثُمّ أُمُّكَ، ثُمّ أُمُّكَ، ثُمّ أَبُوكَ، ثُمّ أَدْنَاكَ، أَدْنَاكَ))

[صحيح مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ)

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ

ما هو الوهن ؟

الوهن هو الضعف، ما معنى وهن على وهن ؟ هذه تشبه ظلٌ ظليل، أي أن الضعف يتنامى، كلمّا كبر حجم الجنين ازدادت حاجته إلى الغذاء، والجنين إما أن يأتيه الغذاء، وإما أن يأخذ من أمِّه الغذاء، أي أنه يحتاج إلى كلس، فإما أن تشرب أمُّه الحليب بكميّاتٍ جيّدة حتّى تؤمّن له هذا الكلس، إما إذا قصّرت فالجنين يأخذ الكلس من عظامها ومن أسنانها، ف إذا أهمل الإنسان تغذية زوجته الحامل يدفع الثمن

باهظاً، كان بثمن حليب صار بطب الأسنان، لأن الجنين يأخذ من كلس أمّه إن لم يكن في غذائها ما يكفيه، هذا معنى:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ)

كلّما كبر حجم الجنين ازدادت حاجته، وأخذ من جسمها، من قوّتها، من حيويّتها، من أعضائها..

وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ

1 – مدة الرضاع عامان كاملان:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ)

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمّ الرّضَاعَةَ)

(سورة البقرة)

فتمام الرضاعة حولان كاملان، وفي آية أخرى:

(وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا)

(سورة الأحقاف)

1 – أقلّ مدة الحمل ستة أشهر:

استنبط العلماء من هاتين الآيتين أنه: يمكن للحمل أن يكون في ستة أشهر، هذا حدُّه الأدنى، فإذا ولدت زوجة من حملها في ستّة أشهر فهذا ابنه في نظر الشرع، لأنه أدنى حد للحمل ستّة أشهر من موازنة الآيتين ببعضهما..

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي)

أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيّ الْمَصِيرُ

1 – مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللّهَ:

هنا المشكلة..

(وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيّ الْمَصِيرُ)

قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ))

[من سنن الترمذي عن أبي سعيد]

هناك نمط غير مقبول، نمط أَرْعَن، أنه إذا جاء لإنسان خير من إنسان يقول: هذا سخَّره الله لي، هو ليس له فضل، أنا أشكر الله عزّ وجل، هذا الموقف غير إسلامي، وغير شرعي، ومخالف للسُنَّة، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ))

الدليل: إذا جاءك معروف من خلال مخلوق ليس مخيّراً، أي مسيّراً، فأحياناً يحدث شيء في عالَم الطبيعة، يُساق لك خير لا من طرف إنسان مخيّر، بل من طرف حيوان أعجمي، طبعاً الشكر وحده لله عزّ وجل، لكن إذا جاءك خير من طرف إنسان مخيّر، فالله عزّ وجل هو الأصل في هذا المعروف، هو الذي سمح له أن ينفعك، وهو الذي ألهمه أن ينفعك، هو ألهمه وسَمَحَ له، هو الذي جعل هذا المعروف يتَّجه إليكَ.

إذاً: الله عزّ وجل هو أصل هذا المعروف، إذاً الشكر لله أولاً، لكن هذا الإنسان المخلوق، المخيّر، وباختياره أراد أن ينفعك، ألا يستحقُّ أن تشكره ؟ فلذلك المؤمن لا ينسى المعروف، بل إن من أخلاق المؤمن أنه إذا فعل معروفاً مع الآخرين نسيه وكأنه لم يفعله، أما إذا فعل الآخرون معه معروفاً ذكره حتَّى فلا ينساه، هذا شأن المؤمن، والنبي عليه الصلاة والسلام أكّد على هذا المعنى، وربنا عزّ وجل يقول:

(وَلا تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ)

(سورة البقرة)

فبائع مثلاً يقول للمشتري: أخي رزقي على الله، هذا المشتري اشترى من عندك كميّة ضخمة، يحتاج إلى مؤانسة، إلى ملاطفة، هذا الموقف المتعجرف المنسوب إلى توحيد موهوم، هذا موقف غير إسلامي، وهذه الآية تؤكِّد ذلك:

(اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ)

2 – الشكر لله وللوالدين:

لأنني سُقْتُ لك هذا الخير عن طريق والديك، هما قضيا وقتاً طويلاً في رعايتك، في حملك، في تغذيتك، في تربيتك، في تنميتك، إذاً يجب أن يتَّجه شكرك لله أولاً ثمّ لوالديك اللذين كانا سبب وجودك، واللذين كانا ممرّ فضل الله عزّ وجل إليك..

(إِلَيّ الْمَصِيرُ)

لماذا يجب أن تشكر الله عزّ وجل ؟ لأنه إليه المصير، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن.

3 – موقف المسلم من الوالدين غير المسلمَين:

الآن عندنا مشكلة أخرى هي: أن هذا الأب الذي أعطاه الله هذه المكانة، ورفع الإحسان إليه حينما عطف الإحسان إليه على عبادته، هذا الأب قد يكون ضالاً، وقد يكون كافراً، وقد يكون عاصياً، وقد يكون فاسقاً، فما موقف الابن البار من أبٍ منحرف ؟ جاء الجواب:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي)

لا طاعة للوالدين في الشرك والمعصية:

هنا معنى الشرك أي على أن تطيعهما وتعصيني: طلقها يا ابني، طلقها لم أحبها، الزوجة جيدة ممتازة، من أجل أن أرضي نزوة أبي أطلِّق زوجتي، فهنا الشرك بمعنى أن تطيع والديك على حساب طاعتك لله، أمرك أبوك أن تتعامل مع الناس في تجارتك تعاملاً ربويّاً يقول: برضاي عليكَ افعل كذا، فإذا كنت مجاملاً، وأطعت الأب، وعصيت الرب، فقد وقعت في شركٍ عظيم، جعلته إلهاً يُطاع من دون الله، مع أنه لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق.. أم سيدنا سعد قالت له: " إما أن تكفر بمحمّد، وإما أدع الطعام حتّى أموت "، فأجابها سيدنا سعد ببرودة، وقال لها: **" يا أمي، لو أن لكِ مائة نفسٍ فخرجت واحدةً وَاحدةً، ما كفرت بمحمّد، فكلي إن شئتِ أو لا تأكلي "**، وبعد هذا أكلت..

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)

الحدود الشرعية لا مساومة فيها:

في حياة المؤمن قضايا ليست خاضعة للمساومة، الآن في المؤتمرات واللقاءات شروط مسبقة، مثلاً، هذا الموضوع لا يمكن أن يُدْرَجَ في جدول الأعمال، إذا أردتم اللقاء والمناقشة، احذفوا هذا الموضوع، وكذلك المؤمن إذا تناقش مع الآخرين هناك موضوعات ليست خاضعة للمساومة أبداً، فيدعوك شريكك إلى معصية الله فتقول: يا أخي استحيت ولم أقدر، الله بعث لنا رزقا سوياً، هذا كلام فارغ، وليس له معنى أبداً، ضغط عليك والدك، أعطاك بيتاً، ضغط عليك والدك كي تعصي الله يقول لك: لا تفرّق العائلة يا بني، الله يرضي عليك، نحن هكذا تربينا، فهل أنتم شرع ؟! عندنا شرع، فأحياناً يأتي للإنسان ضغوط من والديه لتطبيق شيء، أو لمخالفة الشرع..

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي)

معنى تشرك هنا بمعنى أن تعصيني، وأن تطيعهما، في مصلحة دنيويّة..

(مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

بعض المفسِّرين قالوا:

(مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

أي أراد من نفي العلم نفي الوجود، أحياناً الإنسان يقول: فلان لا شيء، هو شيء، ووزنه خمسة وثمانون كيلوا، كيف لا شيء ؟ ولكن يقصد لا شيء، أي ليس له قيمة، أحياناً نعبّر عن نفي الوجود بنفي العِلم، يقول لك: فلان، فيرد قائلاً: من هو فلان، لا أعرفه، هو يعرفه، ولكن لا يعرف له مكانة..

يقولون هذا عندنا غير جائزٍ فمن أنتمُ حتى يكون لكم عندُ

***

أحياناً ننفي العلم بالشيء كي ننفي الشيء، أو ننفي قيمته، فربنا عزّ وجل، إذا قال له أبوه: هذه تقاليد، والعادات، هكذا نشأنا، هكذا ربينا، هكذا نحن في بلدنا، هذا كلام ليس له معنى إطلاقاً..

(مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

يقول لك: في العرس يجب أن تدخل، وأن تصمد أمام الآخرين، أمام النساء، هكذا العادات، لكي لا يظنوا أن فيكَ عاهة يا بني، هذا خلاف الشرع، فهناك أمثلة كثيرة جداً ؛ من اختلاط، من أكل مال حرام، من احتفالات كلها لا ترضي الله عزّ وجل، وهذه مشكلة يعانيها الشباب، إذا تاب شاب إلى الله توبة نصوحاً يعاني من أهله، يعاني من ضغوط اجتماعيّة، من طرف الأهل، فإذا أراد أن لا يجري اختلاطاً في حياته الاجتماعيّة يُتَّهم بالمجافاة، والعداوة، ويسيءُ الظن بإخوته، فتُفسَّر طاعته الله تفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان، هنا:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)

لكن..

(وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

لكن مع ذلك: وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً

صاحبهما في الدنيا مصاحبة لا ينكرها الشرع، ولا ينكرها الكَرَم، هناك شخص إذا أعطاه أبوه توجيهاً خلاف الشرع يقول له: أنت لا تفهم، أنت كافر، أعوذ بالله، هذا جفاء، يمكن لك أن تعتذر عن تلبية طلب من والديك بأدبٍ جم، يمكن أن ترفض تنفيذ طلب لوالدك بمنتهى اللطف، هنا قوله تعالى:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

كن كريماً معهم، واسِهم، قدّم لهم الخدمات تلو الكلمات، ليّن كلامك معهم، هذا كلّه مطلوب، ولو كانوا على خلاف ما تريد، ليس هذا من شأنك، أدِّ الذي عليك واطلب من الله الذي لك، هذه قاعدة، لكن تقول لي: والله إنّ والدي جعلني أفعل كذا خلاف الشرع، هكذا أحب والدي، معنى هذا أنت صفر، أنت لا شيء، أين استقلاليتك ؟ أين إيمانك ؟ أين عزيمتك ؟ أين ورعك ؟ لكن أرجو الله عزّ وجل أن يكون الآباء في المستوى المطلوب.

مشكلة معاكسة:

هناك مشكلة معاكسة: الأب يأمر بالصلاح والابن لا يستجيب، هذه مشكلة ثانية، لكن توجد حالات معيّنة كأن يأمر الأب بما لا يأمر به الله عزّ وجل، والقاعدة: لا طاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق..

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيّ ثُمّ إِلَيّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

الذي أعقب النهي الأول:

(فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيّ)

لا بدّ من مرجعية وطريق صحيحة: وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيّ

فلابدّ لك من مشربٍ صحيح.

((ابن عمر، دينك، دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

الإنسان الذي رجع إلى الله رجع، رجع إليه بأوامره ونواهيه، رجع إليه بعلمه، وأطاعه، هذا اتبع سبيله..

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيّ ثُمّ إِلَيّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

المرجع والمصير إلى الله:

أنبّئكم بحقيقة أعمالكم، وأنبّئكم بنتائج أعمالكم، أنت على صواب وأنت على خطأ، وهذه النتيجة كانت كذا وكذا..

(فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

وفي درسٍ آخر إن شاء الله نتابع تفسير هذه الآيات بفضل الله وعونه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (06-13): تفسير الآيات 16 - 20

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-06-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس السادس من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا بُنَيّ إِنّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّهُ إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

يَا بُنَيّ

1 ـ الحكمةُ من النداء بلفظ البنوة:

كلمة يا بنيّ ماذا يستنبط منها ؟ هذه اللفظة تفتح القلب، لفظة محبّبة، فكأن الله سبحانه وتعالى من خلال وصيّة سيدنا لقمان، يعلِّمنا أنه عليكَ أن تفتح قلب الإنسان قبل أن تفتح عقله، قل له: يا أخي، قل له: يا صديقي، قل لابنك: يا بني، هذه الكلمات تفتح القلب، فإذا فُتِحَ القلب صار الطريق سالكاً إلى العقل، القسوة لا تُجدي.

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران 59)

2 ـ يجب اختيار أحسن الألفاظ في الدعوة ومخاطبة الناس:

يجب على الأب أن يستخدم ألطف عبارةٍ مع أولاده، لأنه كأب لا يكفي أنه أب حتى يحبّه أولاده، لا بدّ من أن يكون كاملاً، حتى في كلماته، حتى في عبارته، فإذا قرأت قوله تعالى في سورة لقمان، وفي وصيّة هذا الحكيم الذي هُناك خلافٌ في نبّوته، على كلِ الحكيم أدق كلمةٍ تطلق على سيدنا لقمان..

(يَا بُنَيّ)

هذه الكلمة تعلّم منها الكثير، تعلّم منها أن تستخدم ألطف عبارةٍ مع الآخرين، تعلّم منها أن تُنادي الإنسان بأحب الأسماء إليه، تعلّم منها أن تقيم جسوراً من المودّةِ قبل أن تقيم جسوراً من الفكر بينك وبين الآخرين، النبي عليه الصلاة والسلام رسولٌ، نبيٌ رسولٌ معصومٌ يوحى إليه، ومع كل هذه الميزات..

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران)

َ نبيٌّ، رسولٌ، معصومٌ، سيّدُ ولد آدم، يوحى إليه..

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران)

فكيف بداعيةٍ من عامة الدعاة، فكيف بمؤمنٍ من عامةٍ المؤمنين، ليس لك أي ميزة، فإذا كنت قاسياً في دعوتك، هذه القسوة هي سدٌ منيع بينك وبين الآخرين ؟ إذاً:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة المؤمنون 96)

أحسن: اسم تفضيل، انتق أحسن كلمة، وانتق أحسن تصرُّف، وانتق أحسن موقف، كي ينفتح القلب لك، فإذا انفتح القلب لك صار الطريق سالكاً إلى عقلهم، هذا مما يستنبط من قول الله عزّ وجل في وصية سيدنا لقمان لابنه:

(يَا بُنَيَّ)

يجب أنْ يعوّد الإنسان نفسه بأن يخاطب أهله، وأولاده، وجيرانه، وزملاؤه، ومن حوله، بألطف كلمة، وبأحب أسمائهم إليهم.

مر بنا أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما سأل زيد الخَيل:

((من أنت ؟ قال: أنا زيد الخيل، قال: بل زيد الخير لا زيد الخيل))

[السنة للبغوي عن ابن مسعود]

فقد أراد أن يُبَدِّلَ اسمه، زيد الخير لا زيد الخيل، والنبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نخاطب الناس بأحب أسمائهم إليهم، هذا من السنة، هذا من قوله تعالى:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا)

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا

1 – عودُ الضمير في قوله: إنّها:

هذه الهاء على من تعود ؟ قال بعضهم: إن الخَصْلَة الحسنة، أو أن الخصلة السيئة، أو إن الحسنة، أو إن السيئة، أو إن نصيبك من الرزق، كل هذه المعاني تحتملها الهاء، إنها، خصالك الحسنة، خصالك السيئة، حسناتك، سيئاتك، أرزاقك، بالمفرد، خصلتك الحسنة، تصرف حسن، موقف حسن، نظرة

حُسْنَى، موقف حسن، عبارة حسنة، أي أن الحسنة مهما دقت، ومهما صغرت، ومهما تناهت في الصغر..

(إنَّهَا إنْ تَكُ)

إلى أن تصل هذه الحسنة..

(مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ)

إن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ

حبة الخردل لا وزن لها، هي لها وزن، ولكن لا يَرْجَحُ بها ميزان، مهما كان الميزان دقيقاً، لصغر حجمها، وضآلة هيكلها، وصغر جرْمها، إذا وضعتها على ميزانٍ حسّاس لا يتحرّك، فعملك الحسن، مواقفك، أنقذت نملةً، نزعت قشة من المسجد وضعتها في جيبك تنظيفاً له، ابتسمت في وجه صغير، ناولت حاجةً وقعت من إنسان، انتظرت أعطيت دورك لإنسان أشد منك حاجة، أنا أضرب هذه الأمثلة لأن..

(إنَّهَا إنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ)

العمل الصالح مهما تناهى في الصغر، الخصلة في الإنسان مهما دَقت، الحسنة مهما ضؤلت ؛ بالمقابل الموقف السيئ، السيئة، الخصلة السيئة مهما ظننتها صغيرة، إذا أصررت عليها فليست صغيرة، إنها كبيرة..

(إنَّهَا إنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ)

أي جزء من حبة الخردل، وحبة الخردل لا وزن لها، وإذا كان لها وزنٌ لا يرجح بها الميزان، نحن مع المثال القرآن الكريم، المثال طريقةٌ رائعةٌ في التعبير، والله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ضرب الأمثال، لا زلنا مع هذا المثل الرائع الذي ساقه الله عزّ وجل تعبيراً عن علمه، وعن قدرته، قال:

(يَا بُنَيّ إنَّهَا إنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ)

لك رزقٌ في حجم حبةٍ خردل، لا بدّ من أن يصل إليك.

بعض المفسرين قالوا: ما دام الله عزّ وجل ذكر على لسان سيدنا لقمان وصيةً حكيمةً رائعةً، يقول فيها:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ طج)

اتبع سبيل من أناب إليّ.. الزم أهل الحق..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة 119)

قد يقول قائل: أنا مشغول، أنا مشغولٌ في طلب الرزق، من أين أطعم عيالي ؟ من أين آتي برزقهم ؟ ماذا نأكل ؟ أين أسكن ؟ كيف أتزوج لا بيت عندي ؟ ليس في يدي عملٌ له دخلٌ وفير، فإذا جاء الأمر الإلهي من خلال وصية سيدنا لقمان..

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

قد يقول قائل: أنا مشغولٌ بطلب الرزق، جاء الجواب: لو أن رزقك يعدل حبة خردل لجاء الله بها إليك، هذا معنى ثانٍ، لو أن لك رزقاً في حجم حبة الخردل لساقها الله إليك، هذا المعنى ورد في القرطبي، ما دام الله عزّ وجل يقول:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

أي الزم أهل الحق، احضر مجالس العلم، تفهّم كلام الله عزّ وجل، فهم سنة نبيه، تفهم أحكام الفقه، اتلُ القرآن، تفقّه في القرآن، هذا كله يحتاج إلى وقت، وإلى مواصلات، ووقت للجلوس، ووقت للصلاة، لا بدّ من أن تستهلك وقتاً في معرفة الله عزّ وجل ومعرفة أمره، هذا الوقت الذي تستهلكه إيّاك أن تقول: أنا لست فارغاً، أنا مشغول في طلب الرزق، جاء الجواب:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ)

معنى: حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ

إذاً: كلمة:

(حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ)

إما أنها تعني الحسنة مهما صغرت، أو السيئة مهما تضاءلت، أو الرزق مهما دَقّ، هذا المثل إلى أي شيءٍ يصل بنا، قال:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ)

لو أن هذه الحبة الدقيقة التي قد لا ترى بالعين، والتي قد لا يرجحُ بها ميزان، لو أن هذه الحبة الدقيقة كانت في جوف صخرةٍ، فهي في حرزٍ حريز، وفي خفاءٍ عن الأعين، لا يوجد مكان أشد تحصيناً، وأشد احترازاً، وأشد خفاء من أن تكون هذه الحبة من الخردل في جوف صخرةٍ، لا يعلمها أحد.

(فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ)

فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ

1 ـ الشيء بين الرؤية والتناول:

هنا شيئان، قد يكون الشيء في متناول يديك، ولكنك لا تراه، وقد تراه، ولكن ليس في متناول يديك، هما حالتان دقيقتان، قد تقع قطعة معدنٍ صغيرةٍ جداً وسط آلة، ولا تملك وسيلةٍ لالتقاطها، هي في متناول يديك، ولكنك لا تملك أن تلتقطها، وقد ترى شيئاً واضحاً تماماً، ولكنه ليس في متناول يديك، فهذه الحبة من الخردل لو أنها إلى جانبك، ولكن في صخرةٍ، في خفاءٍ عنك، إنك لا تراها، ولكن الله يراها، الله عليم، أو أن هذه الحبة من الخردل على القمر، وقد نُقِلَت لك صورتها، إنك لن تستطيع أن تصل إليه إلا بأجهزة معقدةٍ جداً، إذاً: إما أن تكون قريبة منك، ولكن في خفاءٍ عنك، وإما أن تكون بعيدةً عنك لا تطولها يداك، لكن الله سبحانه وتعالى عليمٌ قدير، هذا للتعليم.

2 ـ لن تستقيم إلا إذا أيقنتَ بعلم الله:

أي أنك أنت لن تستقيم على أمر الله عزّ وجل إلا إذا أيقنت أنه يعلم، ولن تستقيم على أمر الله عزّ وجل إلا إذا أيقنت أنه مع علمه يطولك بقدرته، يطولك بعلمه، وحينما قال الله عزّ وجل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا: أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق12)

أي أنه اختار من بين أسمائه كلها التسعة والتسعين اسمين اثنين، القدير والعليم، فإذا أيقنت أنه يعلم، وإذا أيقنت أنه يقدر، يعلم ويقدر، فكيف تعصيه ؟ إن كان يعلم، ولا يقدر قد تعصيه، فإذا أصدر شخص قراراً وأنت أقوى منه، فإذا خالفت هذا القرار أمامه، هو يعلم أنك تخالفه، ولكن لا يقدر على أن يوقع فيك عقوبة، إذاً تخالفه، إذا كان يعلم، ولا يقدر تخالفه، وإذا أصدر إنسان قراراً وهو يقدر أن يعاقبك ؛ ولكن خالفته في مكانٍ لا يطولك علمه، تعصيه، راقب نفسك متى تخالف ؟ إذا أيقنت أن علم هذا الآمر لا يطولك، أو أن قدرته لا تطولك، أما إذا أيقنت أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك فلا يمكن أن تعصيه.

الطريق مثلاً مراقب بالرادار، فإذا تجاوزت السرعة المقررة التقطت لك صورة، ولست قوياً تستطيع أن تتفادى هذه المخالفة، إنك أضعف ممن سيوقع بك العقوبة، إذا أيقنت أنه يعلم، وأنه يقدر لا يمكن أن تعصيه..

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأنّ اللّهَ قَدْ أحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق 12)

إنّ علّة خلق السماوات والأرض أن تعلموا، لذلك العلم هو الطريقُ الوحيدُ الموصل إلى الله عزّ وجل، ليس هناك من طريقٍ آخر، العلم هو القيمة الوحيدة التي اعتمدها الله في القرآن الكريم، وجعلها قيمةً مرجحةً بين خلقه، قال تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر 9)

إذاً ماذا أراد الله بهذا المثل ؟

(يَا بُنَيّ إِنّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ)

تطولها يدك، لكنك لا تعْلَمها..

(أَوْ فِي السّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّهُ إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

يطولها علمك، ولكن لا تقدر أن تصل إليها، لكن الله يعلم ويقدر. يا بني إنها حسناتك، سيئاتك، أرزاقك.

يَأْتِ بِهَا اللّهُ

(يَا بُنَيّ إِنّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّهُ)

1 – لا يضيع شيء عند الله تعالى:

إن كانت حسنةً يأتي بها ليجزيك عليها، وإن كانت سيئةً يأتي ليجازيك عليها، وإن كان رزقاً يأتي به إليك، لكن سياق الآيات، ما دام الله عزّ وجل أمرنا أن نتبع سبيل من أناب إليه، لا ينبغي أن نحتجَّ بضيق الوقت أو بكسب أرزاقنا، لأن الرزق يصل إليك، بل إن الرزق مما تكفّل الله به.

2 – الأرزاق مضمونة فاشتغلوا باتباع سبيل الله:

هناك نقطة مهمة جداً: شيئان أحدهما تكفل الله لك به، والثاني أمرك به، الأول لا يحتاج إلى هم كبير، ولا إلى جهدٍ كبير، ولا إلى قلق، ولا إلى انشغال بال، الثاني يحتاج إلى سعيٍ منك، الأول: الرزق تكفّل الله لك به، والثاني: والسعي في طلب الآخرة تركه لك، قال تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى)

(سورة النجم39)

ليس لك إلا ما سعيت، أما الأول:

(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ)

(سورة الزخرف32)

(فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنطِقُونَ)

(سورة الذاريات23)

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

(سورة الذاريات22)

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

(سورة الزمر36)

آياتٌ كثيرة بيّنتْ أن الله تكفّل بأرزاقنا، وآياتٌ كثيرة حثتنا على العمل من أجل الآخرة.

3 – لا تشتغلوا بالمضمون لكم وتتركوا ما وجب عليكم:

ما قولكم بإنسانٍ عكس الآية ؟ الذي طُلِبَ منه تركه، والذي ضُمِنَ له سعى إليه، مثل طالب داخلي في مدرسة ثانوية، مكلف أن يدرس، قاعة المطالعة مجهزة بالوسائل المريحة، بالإضاءة، بالمكتبة، بالمقاعد الوثيرة، بالمناضد المستوية، بالماء البارد، والإدارة تكفّلت بتقديم الطعام الجيّد النفيس في أوقات محددة، فهذا الطالب بدل أن يقبع في غرفة المطالعة ليدرس ما طلب منه، توجّه إلى المطبخ، وسأل: ماذا فعلتم بالشيء الفلاني ؟ هل أنجزتم هذا الطعام ؟ هذا الطعام موكولٌ إلى غيرك، وقد تكفّل لك به، وأنت عليك أن تدرس، ترك ما طلب منه، واشتغل بما ضمن له، هذا مرض المسلمين، تركوا ما طلب منهم، واشتغلوا بما ضمن لهم، فالمؤمن ينطلق ساعياً فيما طُلِبَ منه، ويتّكِلُ على ما ضمن له، وبالطبع الاتكال لا يعني أن لا تسعى، ولكن أن لا تنسحق من أجل الرزق، أي أن لا تعصي الله من أجل الرزق، أي أن لا تنسى الآخرة من أجل الرزق، هذه المعاني المستنبطة من قوله تعالى:

(يَا بُنَيِّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ)

إذاً: أي عملٍ تعمله سُجّل لك، أي سيئةٍ تقترفها سُجّلت عليك، لذلك إذا أيقنت أن الله يعلم، وأنه يقدر، لابدّ من أن تستقيم.

4 – عدم الاستقامة دليل على خلل في العقيدة:

السؤال الآن: إن لم تكن مستقيماً فما تفسير ذلك ؟ إن لم تكن مستقيماً فاعلم علم اليقين أن هناك خللاً في عقيدتك، إن لم تكن مستقيماً يجب أن تعلم أن إيمانك بعلم الله ضعيف، وأن إيمانك بقدرته ضعيف، جدد إيمانك، لأن الإيمان الذي لا يعقبه عملٌ لا قيمة له، بل إن حجم الإيمان لا يُعَدُّ كافياً إلا إذا حملك على طاعة الله، حجم إيمانك، إن كان للإيمان حجم، إذا أردنا أن نقيس الإيمان بوحدات، وحدات الإيمان لا تغدو كافية منجّية إلا إذا حملتك على طاعة الله عزّ وجل، هذا المعنى المستفاد من قوله تعالى:

(فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ

أي يعلم من دون أن تشهد، فإذا أراد الإنسان أن يعلم أوقع فيك الخوف، راقبك، الله سبحانه وتعالى لطيف، يعلم من دون أن تشعر، يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، يعلم السر، يعلم ما خفي عنك، يعلم ما أعلنت، يعلم ما أسررت، يعلم دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، يعلم ما في أعماق البحار، يعلم ما في أقطار السماوات والأرض، إذا آمنت بعلم الله عزّ وجل وآمنت بقدرته، حملك إيمانك هذا على طاعته، ماذا تنتظر إذاً ؟

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

إذاً:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ)

الجانب العملي من وصية لقمان لابنه:

1 - يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ

ليس لك إلا الله، هو العليم وهو القدير وإليه المصير، ماذا تنتظر؟ لابدّ من أن تقيم علاقة طيبة معه، لابدّ من حسن علاقةٍ مع هذا الخالق العظيم، لذلك:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ)

الأمر كله بيده، والمصير إليه، وعلمه مطلق، وقدرته مطلقة، وأمرك إليه، بيده ملكوت السماوات والأرض، إذاً:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ)

اتصل معه.

أحياناً حديث عادي بيد من الأمر ؟ إذاً: زُره، لك قضية بهذه الدائرة، من الرجل القوي بهذه الدائرة ؟ من بيده التوقيت ؟ من الذي يقرر ؟ من صاحب القرار ؟ فلان، إذاً: زُر فلانا، الاستنتاج منطقي، ما دام الله يعلم، وقدير، وبيده كل شيء، إذاً:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ)

إياك أن تتجه إلى غيره، إياك أن تنصرف إلى سواه، إياك أن تعلق الآمال على إنسانٍ مثلك.

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ)

لماذا قال الله عزّ وجل:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

2 - وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ

1 – الحكمة من اقتران إقامة الصلاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فلِمَ لمْ يقل: أقم الصلاة، وآتِ الزكاة، وصم رمضان، وحج البيت، لمَ جاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد إقامة الصلاة ؟

لأنك بالصلاة تصلح شأنك، وبالأمر بالمعروف وبالنهي عن المنكر تصلح غيرك، ولن تستطيع أن تصلح غيرك إلا إذا أصلحت شأنك، إذاً أقم الصلاة لإصلاح ذاتك، ثم أمر بالمعروف، وانهَ عن المنكر لإصلاح غيرك، المؤمن كالوعاء، إذا امتلأ الوعاء لابدّ من أن يفيض، فإذا لم يفض معنى ذلك لم يمتلئ بعد، مؤمن عرف الله عزّ وجل، ذاق طعم قربه، ذاق حلاوة الإيمان، ذاق حلاوة التيسير في الحياة الدنيا، شعر بالأنس ويبقى ساكتاً !! يقول: مالي وللناس، لا، هذا مستحيل، ما دمت قد عرفت الله عزّ وجل فلابدّ من أن تذكره كما ذكرك غيرك، لابدّ من أن تُعَرِّفَ به كما عُرِّفْتَ به، لابدّ من أن تهدي الآخرين كما هديت إليه، إذا امتلأ الوعاء لابدّ من أن يفيض، أن يفيض الوعاء هذا دليل امتلائه، فإن لم يفِضْ هذا دليل عدم امتلائه، إذاً:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ)

كلمة: (ليس لي علاقة)، كلمة: (ما لي وله)، (له رب يحاسبه)، (لا أحب أن أدخل في أشياء تتعبني)، (دعِ الناس للناس)، هذا كلام إبليس، يجب أن تحاول أن تهدي الآخرين، أهلك، زوجك، أولادك، جيرانك، أقرباءك، زملاءك في العمل، إنسان توسّمت فيه الخير، لأنك مأمور بذلك:

(يَا بُنَيِّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

2 – ما هو المعروف والمنكر ؟

المعروف هو ما شرعه الله عزّ وجل من طاعات وأوامر، والمنكر ما نهى الله عنه، المعروف والمنكر هو الشرع الحكيم، لكن ما دام الإنسان مخيراً، وما دام بين الحق والباطل معركةٌ أبدية أزلية، قديمةٌ قِدَمِ الإنسان، مستمرة إلى نهاية الدوران، فلابدّ لمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر من أن يعارض، ومن أن توضع العقبات أمامه، لابدّ من أن يحارب، لابدّ من أن يُتّهم، لا بدّ من أن يُكاد له.

إذاً:

(يَا بُنَيِّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)

لأنك إذا واجهت الصِعاب، واجهت المشاق، كَبُرْتَ عند الله عزّ وجل، الشيء الذي يأتيك بسهولة لا قيمة له، الله عزّ وجل لابدّ من أن يمتحنك، لابدّ من أن يمتحن صدقك في طلب الحق، لابدّ من أن يمتحن صدقك في طلب الهداية للناس، لابدّ من أن يمتحن مقدار ما تتحمّل في سبيل الله، إذاً:

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)

3 ـ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ

1 – الناس معادن ومشارب مختلفة:

الناس معادن، هناك معدن لا يتأثر لا بالأحماض، ولا يتأثر بالحرارة، ولا بالبرودة، وهناك معادن سريعة التأثر، هذا معدن خسيس، فالناس معادن، من أجل أن يظهر معدنك النفيس لابدّ من أن تمتحن بمحكٍ دقيق، فالمحك يكشف ما إذا كان المعدن نفيساً أو خسيساً، إذاً:

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)

2 – لنا في الأنبياء والصحابة والصالحين أسوةٌ في الصبر:

ولك في رسول الله أسوةٌ حسنة، لك في أصحابه الكرام أسوةٌ حسنة، لك في العلماء العاملين أسوةٌ حسنة، لأنك إذا تحمّلت المشاق في سبيل الله شعرت أن الله يحبك، وأن الله راضٍ عنك، وأنك بأعين الله عزّ وجل، لا ترقى إلا بتحمُّل المشاق، لكن تأكّد أن الله في النهاية سينصرك، لما دخل النبي مكة المكرمة بعد أن خذله أهل الطائف، وبعد أن شمتوا به، وبعد أن كذّبوه، وبعد أن سخروا منه، وبعد أن آذوه، وبعد أن أغروا به سفهاءهم، وكان قد خرج من مكة يائساً من هداية أهل مكة، عاد إليها، وكأن بعض الناس قد غمزوا ولمزوا، وكان في أدنى درجة من الضعف، إن صَحَّ أن يكون للدعوة النبوية خطٌ بياني، الخط البياني وصل إلى الحضيض عَقِبَ ذهابه إلى الطائف صلى الله عليه وسلم، حينما شمت به بعض الناس، ما زاد عن أن قال: إن الله ناصر نبيه، انظر إلى الثقة بالله عزّ وجل، وأنا أقول لكم: قد يمتحن الله بعض المؤمنين، لكن اصبر، واستبشر، وتيقن أنك إذا كنت على الحق فالله معك..

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)

(سورة النمل79)

لماذا تتوكل ؟ لأنك على الحق، لأن الله مع الحق.

الآن:

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)

4 ـ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ

ما دام الله عزّ وجل قد أمرك أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر، فإذا صَعَّرْتَ خدك، وأمَلْتَ خدك، وهذا كناية عن الكبر والفخر والعجب واحتقار الآخرين، فإن هذا مرضٌ قبيح، شنيع، وهو مرضٌ يصيب بعض الناس، إذْ يفخر بنفسه، ويعجَب بشخصيته، وأفكاره ومواقفه، ويرى كل الناس دونه، ويحتقر الآخرين، جمع الله عزّ وجل كل هذه المعاني الذميمة في كلمة:

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)

لا تَمِل رأسك عجباً وفخراً وكبراً واستعلاء وغطرسة واحتقاراً للآخرين..

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً)

5 ـ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً

1 – إيّاكم والكبرياء والعلوّ فإن الدنيا تزول:

فإذا جاءت الدنيا كما تشتهي إيّاك أن تحملك الدنيا على أن ترقص طرباً..

لكل شيءٍ إذا مـا تم نقصان　　فـلا يغرّ بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دولٌ　　مـن سره زمنٌ ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحدٍ　　ولا يـدوم على حالٍ لها شان

***

قال مَلِكٌ لوزيره: قل لي كلمةً إن كنت فرحاً أحزن بها، وإن كنت حزيناً أفرح بها، قال له: كل حالٍ يزول.

فالدنيا تزول، فلو أن إنساناً مصاب بمرض عضال، يموت، وينتهي هذا المرض، ويزول، زوجة سيئة، لابدّ من أن تتركها أو أن تتركك، فسيأتي وقت يحصل فيه فصل.

عندما أمر ربنا من خلال وصية لقمان الحكيم، أن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر، هذا الآمر بالمعروف وهذا الناهي عن المنكر لابدّ من أن يكون محبباً إلى الناس، متواضعاً، لطيفاً، خافض الجناح لهم، يعيش معهم، يتحسس آلامهم، يعيش مآسيهم، يعيش أفراحهم، يعيش مسرّاتهم، لابدّ من أن تكون مع الناس، لا أن تكون في برج عاجي، أنت في واد والناس في واد.

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً)

لا تستخفك الدنيا، لا تفرح بها، لا تجعلها منتهى آمالك، لا تجعل الدنيا أقصى نوالك، الدنيا مؤقتة، كن كمسافرٍ استظل بظل شجرة، كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل.

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)

2– معنى الآية:

أي كِبْرَاً، وعجباً واختيالاً، واحتقاراً..

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً)

أحياناً تجد شخصاً نجح في التجارة، أو نجح في وظيفته، أو نال مركزاً حسّاساً، تجد من حركاته وسكناته، وابتساماته، وتعليقاته اللاذعة، واستعلائه على الآخرين، تجده في مكانٍ لا تتمنى أن تكون

مكانه، ماذا حصل له ؟ استخفّه هذا المنصب، أو استخفّه هذا الدخل الكبير، أو استخفّته هذه التجارة الواسعة، أو استخفّه هذا المنزل الفخم، فجعل يَعْرِضُ ما عنده على الناس، ويستجدي مدحهم وثناءهم.

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

6 - إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ

1 – خطورة الكِبر:

أحد أصحاب النبي عليهم رضوان الله، عندما قال النبي:

((لا يَدْخُلُ الْجَنّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرّةٍ مِنْ كِبْرٍ))

سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

((إِنّ الرّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً))

فقالَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

((إِنّ اللّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقّ وَغَمْطُ النّاسِ))

[صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

لا، الكبر بطر الحق، وغمط الناس، بطر الحق أن ترد الحق، أن ترفض الحق، أن لا تقبل الحق، تقول له: هذا كلام الله، فيقول لك: دعك من هذا.

هذا أمر الله، هذا توجيه النبي، هذه سنة رسول الله، فإذا رفضت الحق وجدت نفسك أكبر منه، وجدت أن الحق يقيّدك، أحببت أن تكون طليقاً، هذا بطر الحق أي رد الحق، وغمط أو غمص ـ بروايتين ـ و غمص الناس أي احتقارهم، فتعريف الكبر عند النبي عليه الصلاة والسلام بطر الحق و غمص الناس.

(إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

2 – من علامات آخر الزمان قيمة الرجل مِن متاعه:

لذلك من علامات آخر الزمان أن قيمة الرجل متاعُهُ، يستمد الإنسان الآن شخصيته من مساحة بيته، من موقع بيته، من أثاثه، من نوع ثيابه، يقول لك: هذا أجنبي، كنت ساكتا، فهو ينبّهك بقوله: هذه أجنبية، لا يوجد عنده شيء ثانٍ، يستمد مكانته من متاعه، من أثاثه، من أذواقه، من رحلاته، من إنفاقه..

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالا لُبَدًا)

(سورة البلد6)

كلفتني هذه النزهة كذا ألف، كلفني هذا العرس كذا مائة ألف، كلفتني هذه الحفلة، هذه الوليمة، يستمد قيمته من متاعه، ومن إنفاقه.

3 – أثمن شيء عند المؤمن معرفة الله:

أما المؤمن فهو عنده شيء ثمين جداً، عنده معرفة الله عزّ وجل، يحدثك عن الله عزّ وجل حديثاً مُمْتِعَاً، يستغني به عن حديث الدنيا، لذلك:

((مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا فَتَفَرَّقُوا عَنْ غَيْرِ ذِكْرٍ إلا تَفَرَّقُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَجْلِسُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[مسند أحمد عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

ألزم نفسك أن يكون لسانك رطباً بذكر الله، أينما جلست ذَكِّر بآيةٍ كونية، بآيةٍ قرآنية، بموعظة، بحديثٍ شريف، بحكمٍ فقهي، بسيرة صحابيٍ جليل، بسنةٍ نبوية، ذَكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد تنقذ إنساناً بكلمة..

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)

(سورة إبراهيم)

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)

(سورة المائدة32)

فهل ذقت مشاعر إنسان ساهم في هداية مخلوق، هذا المخلوق أسس أسرة، والأسرة مؤمنة، صالحة مستقيمة، أنجبت ذرية صالحة، كل هذا الخير في صحيفتك، هل شعرت بهذه المشاعر ؟ ابذل جهداً من أجل ذلك.

قال تعالى:

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)

7 - وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ

1 – معنى القصد في المشي:

القصد هو الاعتدال، لا تمش في الأرض، ذليلاً، خانعاً، ولا تمش مفتخراً، مختالاً متكبراً، ولكن بين أن تكون خانعاً وبين أن تكون متعجرفاً، واقصد في مشيك، اقصد حد الاعتدال في مشيك، في ركوب

مركبتك، في حركاتك، في سكناتك، لا تكن متعجرفاً، لا تصعر خدك للناس، ولا تكن ذليلاً تسارع إلى تقبيل أرجلهم بلا سبب.

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ)

كن بين هذا وذاك..

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ)

2– معنى الغض من الصوت:

لا ترفع صوتك، لأن الصوت المرتفع من دون سبب، من دون مبرر مذمةٌ بالإنسان، حتى لو دعوت الله عزّ وجل، إنك لا تدعو أصم كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، الدعاء من آدابه أن يكون بصوتٍ معتدل، إن الله لا يحب المعتدين في الدعاء.

إذاً:

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)

3– احذرْ أن تكون ممّن يشبه هذا المُمَثَّلَ به:

فالله عزّ وجل ضرب هذا المثل لئلا ينساق الإنسان وراء صوته الجوهري، وراء حبال صوته المرتفعة، ليصيح بالناس، ليوقع فيهم الخوف، أو الفزع، أو الاستغراب..

(إِنّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصوْتُ الْحَمِيرِ)

وفي مثل آخر قال ربنا عزّ وجل:

(مَثَلُ الّذِينَ حُمِّلُوا التّوْرَاةَ ثُمّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة)

أي لا تكن علاقتك بكتاب الله عزّ وجل علاقة حَمْل من دون فهمٍ، افهم كلام الله، ولا يكن صوتك مرتفعاً، صيّاحاً، صَخّاباً، النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن صيّاحاً، ولا صخّاباً، ولا فاحشاً، كان ليّن العريكة، كان جَمَّ التواضع، كان وافر الأدب، يبدأ الناس بالسلام، ينصرف بكله إلى محدثه صغيراً كان أم كبيراً، يجلس مع العبد والخادم، يقضي حاجة الضعيف والبائس، استوقفته امرأةٌ فوقف معها طويلاً تكلمه في حاجتها، قال عدي: **" والله ما هذا بأمر مَلِك إنه نبيٌ مرسل ".**

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)

4ـ المؤمنَ يُعرَف من خُلُقه الحسن:

هذه آدابٌ عاليةٌ جداً، فالمؤمن في حركاته، وسكناته، في أخلاقه، في مواقفه، في تصرُّفاته، متميّز، إيّاك أن يعرفك الناس من صلاتك فقط، يجب أن يعرفوك لا من صلاتك فقط ؛ بل من تعاملك، من حديثك، من لهوك، لهو بريء، من مزاحك، مزاح لطيف لا يجرح أحداً، من أقوالك، من أفعالك، من إتقان عملك، من حرفتك، من مهنتك، من جيرتك، يجب أن تُعْرَفَ لا من صلاتك أنك مسلم، يجب أن تعرف من معاملتك، إذا عرفت من معاملتك أحبَّ الناس صلاتك، أما إذا رأوك تصلي وتسيء إليهم كره الناس صلاتك، وكرهوا مع صلاتك دينك، ونَفَّرْتَ من الدين، فأنت إما أن تكون داعية ؛ وإما أن تكون منفِّراً، فبأخلاقك العالية تجذب الناس إليك، وبأخلاقك الفَظَّةِ الغليظة تبعد الناس عنك، وإذا بعدوا عنك بعدوا عن دينك وعن صلاتك.

5 – قاصمة من قواصم الظهر: الجمعُ بين المَظهَر الديني والسلوك المنفِّر:

إنّ أخطر إنسان في المجتمع هو الإنسان الذي له مظهر ديني، أو هوية دينية، أو خلفية دينية، أو انتماء ديني، ويسيء إلى الناس، هذا أخطر إنسان، لأنه مِعْوَلٌ يُهدم به الدين، وأهل الدنيا يسلِّطون الأضواء كلها على المؤمن، فإذا تَنَفّسَ، يقولون: مؤمن يتنفس، فإذا أكل، فكيف إذا فعل المنكرات، فإذا مارس حياته الطبيعية يراقبونه ويحسبون عليه أنفاسه، فكيف لو فعل السيّئات ؟ يُشَهّرُون به، ويجعلون من دينه خرافةً، أنت على ثغرةٍ من ثُغَر الإسلام فلا يؤتيَنّ من قِبلك، أنت حارس أنت سفير تمثل هذا الدين، يجب أن يعرفك الناس بالتعامل، بالصدق، بالأمانة، بالتواضع، بالإنصاف، إيّاك أن تقيس الناس بمقياسين.

6– قاصمة من قواصم الظهر: ازدواجية المعايير في التعامل:

ما من شيءٍ أقبح منظراً من أن يمشي الإنسان عارياً كما خلقه الله، الإنسان وهو عارٍ بشعٌ جداً، وليس أقل بشاعةً فيما لو استعمل مقياسين في وقتٍ واحد، كمن عامل زوجة ابنه بمقياس، وعامل ابنته بمقياس، هذه ابنته ذنبها مغفور، أما زوجة ابنه فلا يغفر لها ذنب، أن تقيس موضوعاً واحداً بمقياسين !! ابنك في المحل التجاري إذا حمل شيئاً ثقيلاً تصيح به، تقول: أخاف على ظهرك يا بني، ضع هذا الحمل، وعندك صانعٌ في سن ابنك، تقول له: احمل، أنت شاب، ألا تستحي من الله عزّ وجل أن تعامل ابنك بطريقةٍ وابن الناس بطريقة ؟ أأنت مؤمن ؟ لا ورب الكعبة، إن لم تعامل الناس جميعاً بمقياسٍ

واحد، قال: يتيم عندي يا رسول الله أأضربه ؟ قال له: نعم (ضمن مقياس)، قال له: اضربه مما تضرب منه ولدك، إذا فعل ابنك فعلاً يستحق الضرب، وفعل هذا اليتيم فعلاً مشابهاً، اضرب هذا اليتيم لأنه لو فعل ابنك مثل ما فعل لضربته، هذا المقياس.

أنت بائع، يأتي إنسان كبير ناضج تحسب له حسابًا، تعطيه أجود بضاعة بسعر معتدل، تأتي امرأةٌ ضعيفة فقيرة فتستغل ضعفها وفقرها وجهالتها، وتبيعها أسوأ بضاعة بأعلى سعر، وأنت مؤمن ! فإذا أذن المؤذن توجهت إلى المسجد ! هذا هو الدين ! جاءك طفلٌ صغير فبعته أسوأ بضاعة بأغلى سعر، وجاءك الكبير فحسبت له حساباً، ليس هذا هو الإيمان، يجب أن تعرف بمعاملتك، باستقامتك، بطهرك، بتواضعك، بإنصافك، بإعطاء كل ذي حقٍ حقه، حتى يرضى الله عنك، حتى تكون سفيراً لهذا الدين، حتى تكون داعية صادقة له.

7 – داعيةٌ من نوع خاص: الدعوة بالصمت والسلوك:

أنا أقول لك مرةً ثالثة ورابعة وخامسة: يمكن أن تكون أكبر داعيةٍ في الأرض وأنت ساكت، بدون أي كلمة، بمعاملتك، بمواقفك المُشَرِّفة، بمواقفك الأخلاقية، بمواقفك المُنصفة، هذا هو الدين، إنسان يرفع الدين بنظر الناس إلى لسماء، وإنسان يضعه في الوحل، وكلاهما يصلي، هذا في كذبه واحتياله وغِشّه جعل الدين في الوحل، وهو لا يدري، وهذا باستقامته وصدقه جعل الدين في السماء وهو لا يشعر.

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19) أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُم مّا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

1 – التفكّر في الكون:

أنت المخلوق الأول، أنت المخلوق المُكَرّم، فماذا أقول لك ؟ ألست مصدقاً أن كل هذه السماوات من أجلك، ما موقفك ؟ ما رد فعلك ؟ ما شعورك تجاه هذا الخالق العظيم ؟ مجرة تبعد عنا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية مسخرةٌ لك، والشمس، القمر، الهواء، النبات، الأطيار، الأسماك، أنواع الفواكه والخضراوات، قال لي أحد الإخوة الأكارم زار معرض فراشات في بلد أجنبي قال: والله دُهِشْت، عشرات الألوف بل مئات الألوف من أنواع الفراشات ذات الألوان الزاهية التي تحار لها العقول، كلها خلقت من أجلنا كي نمتع بها أبصارنا.

عند صديقي كتاب في ثمانية عشر مجلداً، كل مجلدٍ يزيد على أربعمئة صفحة، في كل صفحةٍ صورةٌ لزهرةٍ أساسها من الأبصال فقط، أنواع الأبصال التي تنبت الأزهار من أجل ماذا ؟ هل من أجل أن نأكلها ؟ لا والله.

يروى أن إنساناً أعطى دابة وردة لتشمها، فأكلتها الدابة.

كم نوعا من النبات المخلوق من أجل أن تمتع نظرك به فقط ؟ من أجل رائحته ؟

(أَلَمْ تَرَوْا)

أصوات العصافير ألا تكفي، أسماك الزينة، لمن خلقت هذه ؟ أسماك الطعام بحث آخر ؟ أسماك الزينة شيء يحيّر العقول، عند بائعي أحواض الأسماك، سمك أسود فاحم، سمك فسفوري، سمك شفاف، سمك صغير، سمك مُجَنّح، سمك بَيْضَوي، أنواع الأسماك، أنواع الأطيار، أنواع البلابل، هذا كلّه من أجل أن تُمَتِّعَ سمعك وبصرك.

(أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ)

(لَكُمْ)

أي خصيصى لكم..

(مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْض وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَبَاطِنَةً

1 – هذا هو الماء فاعتبروا بما فيه:

هذا الماء، هذا الماء الشفاف، لا لون، لا طعم، لا رائحة، انسيابي، نفوذ، تبخره بدرجات منخفضة، غليانه ثابت، هذا الهواء ليس له حجم، الهواء بيننا، لكن لا يحجبنا عن بعضنا، لكن له من القوة أنه يحمل طائرة وزنها ثلاثمائة و خمسين طن، فمن أين هذا الهواء؟ هذا الهواء الذي بيننا، لا يحجبنا عن بعضنا، يحمل طائرةً تزن ثلاثمئة وخمسين طنًا، إذاً هذا شيء مهمّ، هذا الماء اللطيف، إذا أراد أن يتمدد ـ مجازاً ـ كما قال الله عزّ وجل:

(يُرِيدُ أَنْ يَنقَضّ فَأَقامَهُ)

(سورة الكهف77)

هذا الماء إذا أراد أن يتمدد لا يستطيع معدنٌ من أقسى المعادن في الأرض أن يقف في وجهه، بل إن طريقة شق الصخور الآن يكون بثقب في الصخر وإملائه بالماء، ثم يبرد الماء، فالصخر ينشق

ويتصدّع، هذا الماء إذا أراد أن يتمدد بفعل البرودة الشديدة لا يمكن لمعدنٍ مهما كان قاسياً أن يقف في وجهه، لذلك محرك سيارة أحياناً ينشق، إذا كان الماء ليس فيه مادة مضادة للتجمُّد، وذلك في البرد الشديد.

إذا ذهبت إلى فلندا، الحرارة هناك سبعون تحت الصفر في الشتاء، أعلى درجة قرأت في البرودة سبعون تحت الصفر، فأنت بإمكانك أن تضع ليديك أشياء تقيها البرد، ليديك وأذنيك، ورأسك وكل شيء، إلا العينين ترى بهما الطريق، ليس بإمكانك أن تضع فوقهما شيئاً تحفظهما من البرد، وفي العين ماء، كيف لا يتجمد ماء العين ؟ لأن الله عزّ وجل أودع في ماء العين مادةً مضادةً للتجمد، حتى لا يفقد الإنسان بصره إذا كان في بلد شديد البرودة.

وهذا الماء، جاءوا بمكبس يزن ثمانين طناً، وضعوا مترا مكعبا من الماء، وضغطوا، لم تتمكن ثمانون طنّا أن تضغط هذا المتر مكعب ولا مليمترا واحد، الماء لا ينضغط، أساس الهيدروليك أن السائل لا ينضغط، فتنتقل الحركة من مكان إلى آخر.

إذاً: هذا الماء، هذا الهواء، هذه الأطيار، هذه الأسماك، هذه الأزهار، هذه الأفلاك، البحار، البحر الأزرق، النبات أخضر، السماء زرقاء، الأزهار حمراء وصفراء، ما هذا ؟ قال:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (07-13): تفسير الآيات 7 -13 ، من وصايا سيدنا لقمان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-06-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، لا زلنا في سورة لقمان، وفي الدرس السابع من هذه السورة، والحديث عن سيدنا لقمان الحكيم وهو يعظ ابنه، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا بُنَيّ إِنّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللّهُ إِنّ اللّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

وقفة قصيرة على عتبةِ باب الحكمة:

قبل أن نتابع موعظة سيدنا لقمان لابنه نقف وقفة صغيرةً أو قصيرةً عند الحكمة..

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

1 – من تعريفات الحكمة:

الحقيقة من بعض التعاريف التي تعرّف بها الحكمة: أنها تجارب إنسانيّة مكثّفة في كلمات، فإذا استقى الإنسان الحكمة من تجاربه قد يدفع ثمنها باهظاً، بعد أن تقع الطامّة الكبرى يقول: يا ليتني لم أفعل هذا، نعم هذه الحقيقة كانت غائبةً عني، أما حينما يؤمن الإنسان بالله عزّ وجل، ويؤمن بكتابه، ويأتي كتابه، وهو كلام الله عزّ وجل من عند الخبير، من عند الصانع، يقول له: افعل ولا تفعل، فكأنه أخذ الحكمة المطلقة في الوقت المناسب، وقبل فوات الأوان، ومن دون أن يدفع ثمنها باهظاً، وهناك أناسٌ يتقدّمون في السن، وفي آخر حياتهم يكتشفون حقائق دقيقة جداً، ولكن لم يبقَ في حياتهم وقتٌ للاستفادة من هذه التجارب، والفرق بين المؤمن وغير المؤمن، هو أن المؤمن حينما آمن بالله عزّ وجل، وآمن بالحقّ من عنده، وآمن بهذا القرآن، كان هذا القرآن توجيهات حكيمة، صحيحة، فيها حقٌ صِرْف..

(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت: من الآية 42)

2 – من الحكمة معرفة الحقيقة قبل فوات الأوان:

لذلك طبّقها في وقتٍ مبكِّر، وقطف ثمارها، واستفاد منها، وسَعِدَ في دُنياه وأخراه، أما الذي يبتعد عن كلام الله، ويبتعد عن الحق الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، ثم يبتعد عن مجالس العلم، ويتحرّك في الحياة من دون توجيه خالقه، ومن دون منهج، سوف يكتشف بعض الحقائق، ولكن أغلب الظن أنه يكتشفها بعد فوات الأوان، أو بعد أن يدفع ثمنها باهظاً.

مثلاً: هناك إنسان رأى في الأرض ما يشبه قُنبلة، يا ترى هل هي قنبلة، أم ليست قنبلة، لقد اقترب منها ليفحصها، فإذا انفجرت بين يديه، في أقلّ من ثانيةٍ واحدة عرف أنها قنبلة، ولكن بعد فوات الأوان، وبعد أن أطاحت به، فهذا مثل رهيب جداً، ولكن الحياة الدنيا فيها ما يشبه هذا المثل، أي أنه يتحرّك على هواه، يتحرّك بدافعٍ من شهوته، ومن مصلحته، فبعد فوات الأوان، وبعد أن يدفع سعادته الزوجيّة ثمناً، وبعد أن يدفع ماله كلّه ثمناً لأخطائه في البيع والشراء، يكتشف حقيقة، ولكن بعد فوات الأوان، فالبطولة كُلّها أن تعرف الحق في الوقت المناسب، أن تستفيد من الحق، أن تستثمره، وأن تنتفع به، وأن تقطف ثماره في الدنيا، فالحقيقة التي لا ريب فيها هو أن كل إنسانٍ كائناً من كان إذا جاءه الموت عرف الحقيقة، والدليل:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق22)

وهل من إنسانٍ أكثر من فرعون كفراً ؟! وأكثر منه كبرا ؟ واستعلاءً وادِّعاءً ؟ لقد ادّعى أنه إله، فقال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى)

(سورة النازعات 24)

هكذا قال، ومع ذلك حينما أدركه الغرق قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس 90)

إذاً: ذا نستنبط ؟ أن الحقيقة لابدّ من أن تُعرف في وقتٍ ما، من هو المؤمن ؟ ومن هو السعيد ؟ والذكي؟ والموَفّق ؟ من هو الفالح ؟ والمتفوّق ؟ والفائز ؟ إنه الذي عرف الحقيقة في الوقت المناسب، في مُقتبل العمر، لأنه إذا عرف الحقيقة في مقتبل العمر شكّل حياته وفق الحق، واختار صنعةً تتناسب مع مبدئه، وحرفةً يوظِّفها في سبيل آخرته، وزوجةً تعينه على أمر دينه، اختار كل الخيارات التي هي مُتَاحَةٌ أمامه وفق معرفته بالحق، إذاً شكّل حياتَهُ إن صحّ التعبير، في عمله، وزواجه، وعلاقاته، وإقامته، وتحرُّكاته، وتصرُّفاته وفق الحق سعد وأسعد، سعد بالحق وسعد به من ارتبط به، ومن تعلّق به، ومن عامله، وشاركه، وتعامل معه.

إذاً: أردت من هذه المقدِّمة أن هناك أشخاصاً في خريف عمرهم يكشفون الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان، يقول لك: فلان عاركته الأيّام، فلان أمضى حياته في هذا المجال فاكتشف هذه الحقيقة، لكنّك إذا آمنت بالله عزّ وجل خالق الكون، والخالق هو الصانع، وعنده الحق الصرف، والحقيقة التي لا ريب فيها..

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر 14)

هل من خبيرٍ أكثر خبرةً من الله عزّ وجل ؟ هو الصانع، والخالق، يقول لك: افعل ولا تفعل، غضّ بصرك، واجعل دخلك حلالاً أبارك لك فيه، حَدِّد علاقتك مع الناس وفق الشرع تأمن شرّهم.

إذاً: نحن لا نريد حكمة نستقيها في خريف العمر، وبعد فوات الأوان، وبعد أن ندفع الثمن باهظاً، بعد أن ندفع كل شيء.

قرأت كتاباً مرّة لأحد المفكّرين الغربيين وعنوان الكتاب **" الإنسان ذلك المجهول "**، ومحور هذا الكتاب أن الغرب أن ضيّع الحياة الصحيحة التي ينبغي أن يحياها الإنسان، فالغرب يحيا حياةً ماديّةً عالية المستوى ؛ ولكن على حساب قيمه ومبادئه، بعد أن ضيّع أثمن ما في الحياة عرف الحقيقة.

حينما أثبت الله عزّ وجل لأهل الدنيا أنهم يعلمون، قال:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (7))

(سورة الروم 2-7)

حينما أثبت الله لهم العلم بالدنيا أثبت لهم العلم بظاهرها، صورها، وطلاءها الخارجي، وزيفها لا حقيقتها، لذلك قال بعضهم: **" مساكين أهل الدنيا، جاءوا إليها وخرجوا منها ولم يعرفوا أجمل ما فيها، إنها معرفة الله عزّ وجل، إنها طاعته، إنها الأُنسُ به "**، فلذلك:

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

أتمنّى حكمة تأتيني من كتاب الله، وأتمنى حكمة أعرفها في مقتبل العمر، كي أُشَكِّلَ حياتي وَفْقَهَا، لا أتمنى حكمة تأتيني بعد فوات الأوان، تأتيني وأنا على فراش الموت، تأتيني والنَدَمُ يعتصر قلبي، هذه لا قيمة لها، لأنها جاءت متأخِّرةً، فإذا عرف الطالب هذا البحث قبل أن يدخل الامتحان، وكان هذا البحث سؤال الامتحان شيء، وإذا دخل الامتحان، وما عرف الإجابة، وبعد أن خرج من الامتحان فتح الكتاب، وقرأ البحث وفهمه، ما قيمة هذا الفهم ؟ بعد فوات الأوان، إذ فَهِمَه بعد الرسوب.

إذاً:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

بعض حِكَم لقمان الحكيم:

الحقيقة من قبيل أن الله عزّ وجل حينما وصف لقمان بالحكمة، أو بأنه قد أوتي الحكمة، فلاشكّ أن هذا الإنسان الحكيم له حِكَمٌ كثيرة، تناقلتها بعض الكتب، ولذلك أردت أن أقرأ عليكم بعض الحِكَم التي نُسِبَت إلى سيدنا لقمان الحكيم..

الحكمة الأولى:

قال:

<< يا بني، إنك منذ أن سقطت إلى الدنيا استدبرتها، واستقبلت الآخرة، فدارٌ أنت إليها تسير أقرب إليكَ من دارٍ أنت عنها متباعد >>.

1- المغزى من الحكمة: الإنسان قريب إلى الموت:

هذا الإنسان نزل من بطن أمّه إلى الدنيا، الآن هو يقترب من الآخرة، ويتباعد عن الدنيا، فالدار التي يتجه إليها أقرب إليه من الدار التي يبتعد عنها، إنك إن ركبت مركبةً، وتوجّهت بها إلى حلب، لو قطعت عن دمشق كيلو مترا واحداً، ما دامت هذه المركبة متحرّكة، وما دامت متّجهة إلى حلب، فحلب مع حركة المركبة الثابتة أقرب إليكَ من دمشق، لأنك تتباعد عن دمشق، ومع مُضي الزمن تتباعد، ومع مضي الزمن تقترب، فهذه حكمةٌ بالغة، إذاً: العاقل هو الذي يعمل للآخرة، ولدارٍ هو إليها متّجه، لا يعمل في دارٍ هو عنها مُنصرف، شتّان بين هذا وبين ذاك العاقل.

الحكمة الثانية:

<< يا بني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، ولا تجادلهم فيمنعوك >>.

المغزى الأول: فوائد مجالسة العلماء:

لماذا ؟ هم أشخاصٌ عاديون ولكن الله امتنّ عليهم بمعرفة الحقيقة، فإذا عرفت الحقيقة وأخذتها عنهم بالدليل، ليس بعد النبي عليه الصلاة والسلام إنسان يحقُّ له أن يقول: خذ الحقّ مني، من أنت ؟ بل إنه يقول لك: أنقل لك الحق عن رسول الله، أنقل لك ما في كتاب الله، فقيمة العالِم من أنه أمينٌ على شرع الله، ينقل لك ما في الكتاب والسُنّة بأمانةٍ بالغة، أما أن يعطيك شيئاً من عنده فلا:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا)

(سورة المائدة: من الآية 3)

المغزى الثاني: لا للإضافة على الإسلام ولا للحذف منه:

من أجل أن يبقى الإسلام كما بدأ، لا يجوز أن يضاف إليه شيء ولا أن يُحْذَف منه شيء، ولا أن يؤوّل إلى وفق ما أراد الله عزّ وجل، لا إضافة، ولا حذف، ولا تأويل، يبقى الإسلام كما هو ويستمرُ كما أراد الله عزّ وجل، فإذا أُضيفت عليه أشياء ليست منه، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ))

[مسلم عن السيدة عائشة]

كل ما ليس من هذا الشرع مردودٌ عليه، وهذا الكتاب، وهذه السنّة..

<< يا بني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك، ولا تجادلهم فيمنعوك >>.

المغزى الثالث: لا لمجادلة العلماء:

لا تسألهم سؤال المُتَعَنِّت، لا تسألهم سؤال الفاحص، أحدهم قال: **" يا بني، نحن إلى أدبك أحوج منا إلى علمك "**، الإنسان بالأدب يبلغ ما يريد، وبغير الأدب يُحْرَم ما يريد، هذا من مواعظ سيدنا لقمان..

الحكمة الثالثة:

<< وخذ من الدنيا بلاغاً ولا ترفضها فتكون عالة على الناس >>.

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إن الله تعالى إذا أحب عبدا جعل رزقه كفافا))

[كنز العمال عن علي]

المغزى الأول: الكفاف لا العفاف:

ليس معنى الكفاف أن تكون فقيراً، ولكن معنى الكفاف أن تكون مكتفياً، فالنبي دعا لمن يحبُّه أن يرزقه كفافاً.

قال: **<< يا بني، خذ من الدنيا بلاغاً ـ أي الكفاف ـ ولا ترفضها فتكون عالة على الناس، ولا تدخل فيها دخولاً يضرُّ بآخرتك >>.**

المغزى الثاني: لا لأعمال تضيّع الآخرة:

فهناك أعمال إذا أقدمت عليها ضيّعت آخرتك، وهناك شبهات، وهناك مزالق، وتُرُّهات، وانحرافات، فإذا دخلت في مداخل الدنيا دفعت الثمن باهظاً من آخرتك..

<< يا بني، ولا تدخل فيها دخولاً يضرُّ بآخرتك، وصم صوماً يقطع شهوتك، ولا تصم صياماً يمنعك من الصلاة، فإن الصلاة أحبُّ إلى الله من الصيام، يا بني، إن الدنيا بحرٌ عميق قد هلك فيها عالَمٌ كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان، واجعل شراعها التوكُّل، واجعل زادك فيها تقوى الله، فإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك >>.

هذه من حِكَم سيدنا لقمان كما تناقلتها بعض الكتب، وقد يسأل سائل ما مدى صحّة هذه الحِكَمْ ؟ الجواب: خذ الحكمة ولا يهمّك من أي مكانٍ خرجت، حِكَم تتفق مع كتاب الله عزّ وجل ومع شرع النبي عليه الصلاة والسلام.

الحكمة الرابعة:

<< يا بني إن تأدّبت صغيراً انتفعت به كبيراً >>.

المغزى: تربية في الصغر ثمرات في الكبَر:

الذي يرعى نفسه وهو صغير يقطف ثمار تربيته وهو كبير، ومن لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة..

الحكمة الخامسة:

المغزى: أهمية العلم:

<< يا بني من اهتمّ بالأدب تكلّف علمه، ومن تكلف علمه اشتدّ له طلبه، ومن اشتدّ له طلبه أدرك منفعته، فاتخذه عادة >>.

فمثلاً هؤلاء الذين لا يحبُّهم الله عزّ وجل ماذا أعطاهم ؟

(إنّ قارُونَ كَانَ مِنْ قوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوّةِ إذْ قَالَ لَهُ قوْمُهُ لا تَفْرَحْ إنّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

[سورة القصص 76]

وفرعون آتاه الله المُلك، والأنبياء ماذا آتاهم الله عزّ وجل ؟ آتاهم العلم والحكمة، فإذا جمعت إلى المال العلم والحكمة فقد حصّلت من الدنيا طرفيها، فما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا ؛ وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل، كما يقولون.. فإذا آتى الله عزّ وجل الإنسان مالاً، فلا ينبغي أن يقنع به بل يجب أن يبحث عن العلم، لأن بالعلم حياة القلب، وسعادةً إلى الأبد..

الحكمة السادسة:

<< يا بني خَفِ الله عزّ وجل خوفاً لو أتيت القيامة ببرّ الثقلين خفت أن يعذّبك الله، وارجُ الله رجاء لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوت أن يغفر لك الله>>.

المغزى الأول: أهمية الجمع بين الخوف والرجاء:

هذا كلام دقيق، أي يجب أن يجمع المؤمن بين الرجاء وبين الخوف، فالرجاء إذا تفاقم، وإذا نما نمواً غير طبيعي على حساب الخوف، وقع في المعاصي وهو يطمع برحمة الله، وقد تلتقي مع إنسان تراه مقيماً على معاصٍ كثيرة ومع ذلك يرجو رحمة الله، فهذه سذاجة، وغباء، وتفاؤل أبله..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر 92-93)

قد تلتقي بإنسان يحرص على طاعة الله عزّ وجل وهو شبه يائسٍ من رحمة الله، هذه أيضاً حالة مَرَضِيّة، هناك حالتان مَرَضيتان: أن تخاف خوفاً يحملك على اليأس من رحمة الله، وأن ترجو رجاء ساذجاً يجعلك تقع في المعاصي، ولا تبالي بها، فهذا رجاءٌ مَرَضي، وذاك خوفٌ مَرَضي، أما الرجاء

السَوِيّ والخوف السوي أن تجمع بينهما معاً، أن يأتلف عندك الرجاء والخوف، فالمؤمنون يعبدون الله خوفاً وطمعاً، رَغَبَاً ورَهَبَاً، ولا سيما أن الله عزّ وجل إذا رأى العبد يتساهل في طاعته، ويُعَلِّقُ آمالاً كبيرةً على رحمته، يضيّق عليه، يريه جانب القوّة، ويريه شدّةً، وضيقاً، يلوح له شبح مصيبةٍ، فيعود العبد عن رجائه الساذج، ويرجع إلى طاعته المُثلى، فإذا بالغ في الطاعة، وجاءته الوساوس، وحملته على اليأس، يريه الله بعض إكرامه، إذاً: الله سبحانه وتعالى إذا نما عندك الخوف على حساب الرجاء طمأنك، وإذا نما عندك الرجاء على حساب الخوف خوّفك، من أجل أن تكون حالتك السويّة أن تجمع بين الرجاء والخوف، لابدّ من أن ترجو الله عزّ وجل ـ نرجو رحمتك ونخشى عذابك ـ هذا الدعاء، هذا ما قاله سيدنا عمر: **<< لو أن الله أنزل أنه معذِّبٌ واحداً لخفت أن أكون أنا، ولو أنه أنزل أنه راحمٌ واحداً لرجوت أن أكون أنا >>.**

<< يا بني، خفِ الله عزّ وجل خوفاً لو أتيت يوم القيامة ببرّ الثقلين خفتَ أن يعذِّبك >>.

المغزى الثاني: إيّاكم والغرور:

ذلك فالإنسان إذا عمل الصالحات، واستقام على أمر الله، وأجرى الله على يده الخير، فهناك مزلقٌ خطير ربّما وقع فيه، وهذا المَزْلَق هو أن يَغْتَرّ بطاعته، وأن يستعلي بها، وأن يعلو بها على خلق الله عزّ وجل، عندئذٍ يقع في ذنبٍ أشَدّ من المعصية وهو العُجب، قال عليه الصلاة والسلام:

((لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك: العجب، العجبَ))

[الجامع الصغير عن أنس]

فربّ معصيةٍ أورثت ذلاً وانكساراً، خيرٌ من طاعةٍ أورثت عِزّاً واستكباراً، فإذا غلب عندك الرجاء على حساب الخوف خوّفك الله، وإذا غلب عندك الخوف على حساب الرجاء طمأنك الله، والله هو المُربي، هو ربُّ العالمين، كما أنه يربي جسدك بالطعام والشراب، يربي نفسك بتقليبك بين الخوف والرجاء، فكن حكيماً، لا تطمع على حساب الخوف، ولا تخف على حساب الطمع، كن بين الخوف والرجاء، وبين الرَغَبِ والرَهَبِ.

الحكمة السابعة:

قال ابنه له: **<< يا أبتِ، كيف أطيق هذا ؟ وإنما لي قلبٌ واحد >>**، لي قلبٌ واحد يتّسع لشيءٍ واحد، رجاءٍ أو خوفٍ، فكيف أجمع بين الخوف والرجاء ؟ فقال له:

<< يا بني، لو استُخْرِجَ قلب المؤمن لوُجِدَ فيه نورَان، نور الخوف ونور الرجاء، ولو وُزِنا لما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرّة ـ الآن كلام دقيق جداً ـ فمن يؤمن بالله يصدِّق ما قال الله عزّ وجل، ومن يصدِّق ما قال الله عزّ وجل يفعل ما أمر الله عزّ وجل، ومن لم يفعل ما أمر الله به لم يصدِّق كلامه، ومن لم يصدِّق كلامه لم يؤمن به >>.

المغزى: الإيمان بالله يقتضي الإيمان بكلامه، والمبادرة إلى طاعته:

إنها مقدِّمة تفضي إلى نتيجة إفضاءً حتمياً، آمنت بالله، فمن لوازم إيمانك بالله أن تؤمن بكلامه، وإذا آمنت بكلامه على أنه كلام الحق، فمن لوازم إيمانك بكلامه أن تبادر إلى طاعته، فلمجرّد أن تعصي الله عزّ وجل فهذا يشير على أنّك لم تؤمن بكلامه، وعدم إيمانك بكلامه هو عدم إيمانك به.

<< فمن يؤمن بالله إيماناً صادقاً يعمل لله خالصاً ناصحاً، ومن يعمل لله خالصاً ناصحاً فقد آمن بالله صادقاً، ومن أطاع الله خافه، ومن خافه فقد أحبّه، ومن أحبّه فقد اتبع أمره، ومن اتّبع أمره استوجب جنّته ومرضاته، ومن لم يتّبع رضوان الله فقد هان عليه سخطه، فنعوذ بالله من سخط الله >>.

هذه بعض الحِكَمْ المتناثرة التي نُسِبَت إلى سيدنا لقمان الحكيم.

الحكمة الثامنة:

من الحكم الأخرى التي نُسِبَت إليه:

<< يا بني، لا تركن إلى الدنيا، ولو أتيت فيها مالاً كثيراً وجاهاً عريضاً فإنها زائلة >>.

وكما قال سيدنا علي: **<< يا بني، ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنّة بشر، وكل نعيمٍ دون الجنّة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية >>.**

قال: **<< يا بني، لا تركن إلى الدنيا، ولا تشغل قلبك بها، فما خلق الله خلقاً هو أهون عليه منها >>.**

والدليل:

<< ألا ترى أنه لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين ؟ ولم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين ؟ >>.

المغزى الأول: الدنيا زائلة فلا تشتغلوا بها:

هذا النبي العظيم سيد الخلق وحبيب الحق، ماذا أوتي من الدنيا ؟ لم يؤتَ منها شيئاً، كان إذا صلّى قيام الليل أبعدت السيّدة عائشة رجليها، لأن غرفته من الضيق حيث لا تتسع لصلاته ونوم زوجته، هذا بيت النبي، دخل عليه رجل أصابته رعدة، فقال له:

((هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[سنن بن ماجه عَنْ أبي مَسْعُودٍ]

دخل عليه عمر فرآه مضطجعاً على حصير، وقد أثّر في خدِّه الشريف، فبكى عمر فقال النبي:

((يا عمر لمَ تبكي ؟))قال: رسول الله ينام على الحصير، وكسرى ملِك الفرس ينام على الحرير ؟!

قال:

((يا عمر، إنما هي نبوّةٌ وليست ملكاً))

[ابن ماجه عن عمر]

أنا لست بملك، هذه النبوة هكذا.

إذاً: النبي عليه الصلاة والسلام كان أسوةً حسنة.

قال لقمان الحكيم: **<< فما خلَق الله خلقاً هو أهون عليه منها، ألا ترى أنه لم يجعل نعيمها ثواب المُطيعين، ولم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين ؟ >>.**

قال سيدنا علي: **<< فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمّداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا >>.**

المغزى الثاني: الدنيا ليست مقياسا:

الذي أتمنّى أن يكون واضحاً عند كل إخوتنا هو: أن الدنيا ليست مقياساً أبداً، قد يؤتي الله عبداً الدنيا، وهذا فضلٌ كبير، ونعمةٌ كبيرة، ويجب أن يذوب شكراً، ولكن لا ينبغي أن يتَّخذ الدنيا مقياساً لمحبّة الله عزّ وجل..

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ)

أهل الكفر والعصيان..

(فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام: الآية 44)

المغزى الثالث: إذا جاءتك الدنيا وكنت مطيعا فاشكر الله:

إذا جاءتك فاشكر الله عليها، فقد ترى إنساناً آتاه الله مالاً وفيراً وهو مقيمٌ على المعاصي، فبسذاجةٍ تقول: أخي أعطاه الله، بيته كالجنّة، إنه فوق الريح، رأى ليلة القدر، هذا كله كلام فارغ، فالغنى والفقر كما قال سيدنا علي: **<< الغنى والفقر بعد العرض على الله >>.**

هناك الغنى والفقر، لكن إذا كنت مؤمناً، وآتاك الله الدنيا، وأنفقت من مالها الحلال، واللهِ هناك من يغبطك، سيدنا عبد الرحمن بن عوف سمع أن السيدة عائشة قالت: **<< أخشى أن يؤخِّره ماله عن دخول الجنّة، أو أنه يدخل الجنّة حبواً >>.** أي زحفاً لكثرة ماله، فبَلَغته هذه المقالة فتبسّم، وقال: **<< والله لأدخلنّها خبباً ـ أيْ ركضاً ـ وما ذنبي إذا كنت أنفق مائة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً في المساء؟>>.**

المغزى الرابع: نِعْم المالُ الحلال للعبد الصالح:

حينما جاء عبد الرحمن بن عوف مهاجراً إلى المدينة لم يكن معه دينارٌ واحد، أحد أصحاب رسول الله كان قد آخاه، قال: **<< هذا مالي، خذ نصفه، ودونك بيتي، دونك بستاني، دونك مالي >>**، أجابه إجابة لا أروع ولا أجمل منها، تقطر عفّة، وإباءً، وعزّةً، قال: **<< يا أخي بارك الله لك في مالك، ولكن دلّني على السوق >>.**

هذا الموقف موقف نموذجي، والأنصار وقفوا أرقى موقف، قدّموا كل ما عندهم للمهاجرين، فأعطوهم نصف أملاكهم، والمهاجرون وقفوا أكمل موقف، تعفّفوا عن مالهم، وعملوا بالتجارة، قال: **<< يا أخي بارك الله لك في مالك، دُلّني على السوق >>.**

دعاء عظيمٌ:

بالمناسبة، الدعاء النبوي الشريف: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ:

((اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ))

[الترمذي]

أيْ: يا رب إنِّي أحبُّ المال، فإذا آتيتني المال فاجعله وسيلةً للتقرّب إليك، واجعلني أنفق هذا المال في طاعتك، وأمسح به بكاء البائسين، وأرقى عندك إلى أعلى عليين، واجعله مسخَّراً لخدمة خلقك، وعوناً للضعفاء والمساكين، وشفاءً للمرضى، واجعله مأوىً لمن ليس له مأوى.. وإن زويت عني المال.. فهذا الوقت الذي أبذله في كسبه، وفي حسابه، وفي استثماره، اجعله في طاعتك يا رب، هذا الدعاء رائع جداً:

((اللّهُمّ ارْزُقْنِي حُبّكَ، وَحُبّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللّهُمّ مَا رَزَقْتَنِي مِمّا أحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللّهُمّ وَمَا زَوَيْتَ عَنّي مِمّا أحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ))

[سنن الترمذي عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ يَزِيدَ الخَطْمِيّ الأنْصَارِيّ]

قد يتزوّج الرجل امرأةً، ولم تكن في طموحه، وعُقِدَ العقد، وأنجب منها أولاداً، فزوى الله عنك ما تحب، هذا الفراغ الذي نشأ من أن هذا الشيء زوي عنك، اجعله في طاعتك يا رب، جاءتك امرأةٌ كما تُحِب اجعل هذا الزواج عوناً لي على طاعتك، واجعل هذه الزوجة معواناً لي على طاعتك، يا رب، اجعلها تذكرني إن نسيت، وتنصحني إن غَفَلت، اشتريت مركبةً سخِّرها للحق، وكن خير من يستغلّ هذه المركبة في طاعة الله عزّ وجل، واشتريت بيتاً، واشتريت دُكّاناً، وعملت في مصلحةٍ، واشتغلت في حرفةٍ، وعملت في الطب، أو في الهندسة، أو كنت محامياً، فاجعل مهنتك موظّفة في طاعة ربّك.

والله أيها الإخوة الأكارم، الله عزّ وجل حينما خلقنا في الدنيا خلقنا لنعمل صالحاً، ولذلك أبواب العمل الصالح لا تعدُّ ولا تحصى، وأنت في بيتك ؛ الأبوّة المثاليّة عملٌ صالح، والزواج المِثالي عملٌ صالح، وأنت بين جيرانك فجيرانك مادّةٌ لعملٍ صالح، وأنت في دكّانك زبائنك مادةٌ لعملٍ صالح، وفي عيادتك مرضاك مادةٌ لعملٍ صالح، وفي مكتبك الموكِّلون مادةٌ لعملٍ صالح، كيفما تحرّكت، وأنت في معملك عمالك مادةٌ لعملٍ صالح، فكيفما سرت بإمكانك أن تعمل صالحاً.

هذا العامِل الذي جعله الله تحت يديك، وجعلك تعطيه أجراً بإمكانك أن تسعده، وأن تكرمه، وأن تنصحه، وأن تأمره بالمعروف وأن تنهاه عن المنكر، ما دام الله عزّ وجل قد جعل هذا الإنسان تحت يدك، فاستغلّ هذه الناحية وخذ بيده إلى الله، فأصحاب المعامل وأصحاب المتاجر وأصحاب المزارع والمُعَلِّمون والمدرّسون والأطبّاء والصيادلة، كل حرفةٍ هناك من هم دونك، وقد أناطهم الله بك، بإمكانك أن تحسن إليهم، وأن تنصفهم، وأن تنصحهم، وأن تأخذ بيدهم، وأن تفتح قلوبهم بإحسانك قبل أن تفتح عقولهم بلسانك..

الحكمة التاسعة:

هذا الرجل الحكيم سيدنا لقمان سُئل مرّةً: ما الذي أجمعت عليه في حكمتك ؟ فقال: **<< لا أتكلّف ما قد كُفيُته، ولا أضيّع ما وليّته >>.**

المغزى: لا لتكلّف المضمون ولا لتضييع المأمور به:

إنه كلامٌ في منتهى الدقّة، فأنت مكلّفٌ بشيء ومضمونٌ لك شيء، فالذي كُلِفت به يجب أن تسعى إليه، والذي ضُمِنَ لك يجب أن ترتاح منه، حال الناس اليوم عكس هذه الحقيقة، الذي ضُمِنَ لهم يتناحرون من أجله، ويتقاتلون، ويتنافسون، يبيعون دينهم، ويبيعون وكل شيءٍ من أجله، الذي ضُمِنَ لهم، والذي كُلِفوا به يَدَعونه للأقدار، وللزمان، حتى يشاء الله، ويأذن، فالآن لا يوجد إذن من الله، فالله خلقه، ولم يأذن له بالهدى، ولكن بأي شيء أذِنَ لك ؟ هذا كلام ليس له معنى.

فلذلك: **<< لا أتكلّف ما قد كُفِيتُه، ولا أضيّع ما وليّته >>**، هذه حكمةٌ بالغة من حِكَم لقمان الحكيم.

الحكمة العاشرة:

ومن هذه الحِكَم: **<< يا بني، إن تكُ في شكٍ من الموت فارفع عن نفسك النوم >>.**

المغزى الأول: النوم موتة صغرى:

الله جعل النوم يشبه الموت والدليل أن الله عزّ وجل يقول:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)

(سورة الزمر: من الآية 42)

حينما ينام الإنسان توقف التكليف، وتوقف الاختيار، والوعي، والعقل، وكل شيء، والله عزّ وجل استردّ هذه الأمانة، إذ أعطاك نفسك أمانة في النهار، واستردّها في الليل.

(فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ)

(سورة الزمر: من الآية 42)

المغزى الثاني: النوم لا يُلغى، والموتُ لا يُدفَع:

أنت في النوم كالميّت تماماً، فإذا كنت في شكٍ من الموت فارفع عن نفسك النوم، هل بالإمكان أن تُلغِيَ النوم من حياتك ؟ لا تقدر، ولن تستطيع..

<< وإن كنت في شكٍ من البعث فارفع عن نفسك الانتباه >>.

هل تستطيع إذا نمت ألا تستيقظ ؟ لا تقدر إلا إن تفتح عينك، ثلاثة أيام ولم تنم، تنام عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة، وتفتّح عينك، وتتمطّى، فاستيقظت، إذن تفضّل، فالله بعثك بعد الموت، هذا كلامٌ بليغٌ جداً: قال: **<< يا بني، إن تكن في شكٍ من الموت فارفع عن نفسك النوم، ولن تستطيع، وإن كنت في**

شكٍ من البعث فارفع عن نفسك الانتباه، ولن تستطيع، فإنك إن فكّرت في هذا علمت أن نفسك بيد غيرك، وإنما النوم بمنزلة الموت، وإنما اليقظة بمنزلة البعثِ بعد الموت >>.

الحكمة الحادية عشرة:

<< يا بني لا تنشر بَزّكَ إلا عند باغيه >>.

البَز: الثيابُ، لا تنشرها إلا عند الشاري، أحياناً يحضر شخص، ويسأل سؤالاً للبائع، فالبائع بالحاسّة السادسة يشعر أنه لن يشتري، فلا يتكلّف أن ينزل له بضاعة، ويقول: عندما تريد الشراء فتعال.

يقول هذا الواعظ الحكيم سيدنا لقمان: **<< لا تنشر بزّك إلا عند باغيه >>.**

المغزى الأول: وضعُ الشيء في موضعه:

أنت تحمل الحكمة، فهذه الحكمة إذا أعطيتها غير أهلها فقد ظلمتها، وإن منعتها أهلها فقد ظلمتهم..

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتْ الذِّكْرَى)

(سورة الأعلى 9)

((التكبر على المتكبر صدقة))

[كشف الخفاء]

المغزى الثاني: التكبُّر مرفوض:

التكبُّر مرفوض، لكن إذا وجدت إنساناً مستعلياً، مستكبراً، عنيداً، محارباً للحق، فالتكبُّر على هذا المتكبّر صدقة، أحد أصحاب النبي عليه رضوان الله، وعلى النبي الصلاة والسلام، مشى قبيل المعركة بفرسه مشية خُيَلاء، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إنّ الله يكره هذه المشية إلا في هذا الموطن))

[ورد في الأثر]

المغزى الثالث: إنْ شكوت لمخلوق فاشكُ لمؤمن:

إنّ الإنسان المؤمن إذا ألمّت به مُلِمّة، أو نزلت به نازلة، فلا ينبغي أن يشكو ملمّته ومصيبته لغير الله، وإن شكاها، وإن كان لابدّ من أن يشكو فليشكُ للمؤمن، لأنه من شكا إلى كافر فكأنما اشتكى على الله، ومن شكا إلى مؤمن فكأنّما اشتكى إلى الله، فالمؤمن يدعوك إلى الصبر، ويهوّن عليك هذه المصيبة، ويذكّرك برحمة الله، ويذكّرك بالآخرة، يذّكرك بأن وراء هذه المصيبة تيسيراً كبيراً..

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)

(سورة الشرح 5)

لا يشمت بك، الدعاء الشهير:

((اللهمّ إنّا نعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الخوف إلا منك، ومن الذل إلا لك، ونعوذ بك من عضال الداء، ومن شماتة الأعداء، ومن السلب بعد العطاء))

[ورد في الأثر]

الحكمة الثانية عشرة:

قال: **<< وكما ليس بين الكبش والذئب خُلّة، كذلك ليس بين البارّ والفاجر خُلّة >>.**

المغزى الأول: لا خير للمؤمن في الكافر:

إيّاك أن تظن أن هذا الفاجر الكافر الفاسق فيه خير لك، أو يحبُّك، أو يمكن أن يقدِّم لك شيئاً، يجب أن تقطع أملك من الناس، من الناس عامّة ومن أهل الدنيا والفسق والفجور والعصيان خاصّة، لأن هناك تضاداً قديماً بين أهل الحق وبين أهل الباطل، لا تُعلِّق عليهم الآمال.

المغزى الثاني: الخير كله في الزهد فيما عند الناس:

الإمام الحسن البصري كان من الكبار التابعين، بلغ من المجد ما لم يبلغه أحد، سُئل مرّةً: **" يا إمام بمَ نلت هذا المقام ؟ "**، فقال: **" باستغنائي عن مال الناس، وحاجتهم إلى علمي ".**

أحياناً تجد بعض من ينتمون إلى هذا العلم الشريف، يقبلون على من يزهد في علمهم طمعاً بدنياهم، فهم يطمعون في دنياهم، وهؤلاء الأغنياء والأقوياء يزهدون في علمهم، وقديماً كان العكس، كان هؤلاء الأقوياء والأغنياء يقبلون على علمهم، وهؤلاء العُلماء يزهدون في مالهم، فقال: **" باستغنائي عن مال الناس، وحاجتهم إلى علمي "**، وهذا ما قاله الإمام الحسن البصري.

الحكمة الثالثة عشرة:

<< من يحبُّ المراء يُشتم >>.

المغزى الأول: لا مشاحنة في الإسلام:

أيْ الذي عنده رغبة في المشاحنة.. فالنبي عليه الصلاة والسلام له كلمة بليغة جداً قبل أن يموت، وقف خطيباً وقال:

((يا أيها الناس، إني قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه، ألا ومن كنت قد شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالي فليستقد منه، لا يقولن رجل: إني أخشى الشحناء من قِبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا وإن الشحناء ليست من طبيعتي، ولا من شأني، ألا وإن أحبّكم إلى من أخذ حقا إن كان له، أو حللني فلقيت الله وأنا طيب النفس، ألا وإني لا أرى ذلك مغنيا عني حتى أقوم فيكم مرارا، ثم نزل فصلى الظهر، ثم عاد إلى المنبر، فعاد لمقالته في الشحناء أو غيرها))

[مجمع الزوائد]

ومن صفات الجهلاء، الشحناء، والمِراء، والمماحكة، والجدل، والكلام الطويل.

((إنّ اللّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثلاثًا: قِيلَ وَقالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ))

[من صحيح البخاري عن المغيرة بن شعبة]

<< من يحبُّ المراء يشتم، ومن يدخل مَدخل السوء يُتّهم >>.

المغزى الثاني: إيّاكم ومواطن التهمة:

وسيدنا رسول الله اللهمّ صلّ عليه كان معتكفاً في المسجد، فجاءته زوجته بطعام، فكره أن تعود وحدها إلى البيت فرجع معها، في الطريق فرأى صحابيين، فقال عليه الصلاة والسلام:

((عَلَى رِسْلِكُمَا، قالا: سُبْحَانَ اللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ ! وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا ذَلِكَ، فَقالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ: إنّ الشّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنَ الإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدّمِ، وَإِنّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا))

[صحيح البخاري عَنْ عَلِيِّ بْنِ حُسَيْنٍ]

المغزى الثالث: البيان يطرد الشيطان:

عَوِّد نفسك أن توضِّح كل شيء، فلو كنت طاهراً لا يكفي، ولو كنت نظيفاً، ولو كنت حَسَن النيّة، فالناس لا يعرفونك، فإن عرفت نفسك فهذه معرفةٌ داخليّةٌ لا قيمة لها، اعمل عملاً له تفسيرٌ واحد، ابتعد عن الشبهات، ولا تقف مواقف التهمة، ثم تلوم الناس إذا اتهموك، ففرضاً لو كنت في محلٍ تجاري، وجاءت أختك إلى المحل، ورحّبت بها، يجب أن تعلم إخوانك أن هذه أختي، لأنهم يتساءلون: كيف

يرحِّب بها هذا الترحيب ؟ لم نعهده بهذه الأخلاق ؟ قل: هذه أختي، مثلاً، وهذا مثل لأن التعليم حرف، والتقليد ألف، والنبي علّمنا بهذه الطريقة، قال لهما:

((على رسلكما، هذه زوجتي))

في قبض الثمن، والدفع اكتب وصلاً إيصالاً، ووضِّح أن هذا المبلغ لفلان، وهذا لفلان، أنت واثق من نفسك، وبريء، ونيتك حسنة، ونظيف، فكل ذلك لا يكفي، فيجب أن تعلم الناس بذلك..

((رَحِمَ الله امرأ جبّ المغيبة عن نفسه))

الحكمة الرابعة عشرة:

<< ومن يقارن قرين السوء لا يسلم، ومن لم يملك لسانه يندم، يا بُنَيّ صاحب مئة ولا تعاد واحداً>>.

المغزى الأول: نتائج العداوة وخيمة على صاحبها:

حينما يُعادي الإنسان تهزّ أعصابه، ويستهلك حياته استهلاكه رخيصاً، وهناك أشخاص يتحاكمون في المحاكم، تجد أن الفريقين استهلكا حياتهما النفسيّة وأعصابهما سنواتٍ طويلة، حيث إن النصر لأحدهما لا قيمة له، مهما كان الحكم بعد هذه السنوات الثماني لأنك استهلكت نفسك، وأورثت قلبك الحقد، ودخلت في البُغض، والكيد.

لذلك: **<< يا بني، صاحب مئة، ولا تعادِ واحداً >>.**

أحد الأشخاص عرض على سيدنا أبي بكر قضيّة، فسيدنا أبو بكر أراد أن يأخذ رأي عمر فقال: " اذهبوا إلى عمر وخذوا رأيه " فسيدنا عمر رفض هذا الموضوع، ويبدو أنه واتخذ موقفاً في الرفض، فاغتاظ هؤلاء، وعادوا إلى الصديق، وقالوا: **" يا خليفة رسول الله، الخليفة أنتَ أم هو ؟ "** أرادوا أن يوغروا صدره عليه، قال: **" هو إذا شاء.. مثل بعضها نحن واحد لا تُفرّق بيننا.. "**

وهناك مواقف ذكيّة جداً، أنت عندما تترفّع عن الدنيا فالله عزّ وجل يؤتيك الحكمة، وكم من مصيبة مدمِّرةٍ أساسها كلمة ! وأساسها استفزاز واحد، تجد أسرة قد دُمِرَت من كلمة حمقاء قالتها الزوجة، والزوج في غفلةٍ عن الله عزّ وجل، فأخذته العزّة فطلّقها، وكم من شراكةٍ فُصِمَت لكلمةٍ قالها أحد الشركاء فاستفزّ بها شريكه !

المغزى الثاني: الحِلم سيد الأخلاق:

الحكمة أن تكون حكيماً، والحكمة أن تكون حليماً، وواسع الأفق، وبعيد النظر، ورحب الصدر، كاد الحليم أن يكون نبياً، دائماً الإنسان في كل قضيّة وخاصة إذا كان في القضيّة استفزاز، وتحطيم لأعصابه، يقول هذه الكلمة وأنا ناصحٌ له: **"سوف أتّخذ قراراً بعد أسبوع "**، ففي اليوم الثاني يخف هذا الغضب، وفي الثالث يقول: والله فلان معه حق، وأنا أغضبته سابقاً، وفي اليوم الرابع يقول: والله الحق معه، وتجد نفسك بعد سبعة أيام أخذت موقفاً في منتهى الحكمة والإنصاف، ولذلك ليحذر كل إنسان أن يتّخذ قراراً في ساعة الغضب، لأن الإنسان إذا غضب فليس إنساناً، انتقل إلى صنف آخر من المخلوقات، وإذا أحب إنسان أن يراقب نفسه وهو غضبان ليقف أمام المرآة وهو غضبان، يكره نفسه كراهيّة لا حدود لها، ولذلك كاد الحليم أن يكون نبياً، والحلم سَيّدُ الأخلاق.

الحكمة الخامسة عشرة:

<< يا بني كن عبداً للأخيار، ولا تكن ولداً للأشرار، يا بني أدي الأمانة تسلم، كن أميناً فإن الله لا يحبُ الخائنين>>.

هناك آية قرآنيّة تقول:

(وَأَنّ اللّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف 52)

المغزى الأول: إيّاكم والخيانة:

أي أن أية خيانةٍ على وجه الأرض لا يباركها الله عزّ وجل، ولو خُنْتَ كافراً، ولمجرّد الخيانة فهي عملٌ قبيح، وهناك شخص أعلم منك كن مخلصاً له، أنت مسلم، فهكذا المسلم..

(وَأَنّ اللّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

الإخلاص يرفع قيمة الإنسان، والخيانة تحطُ من قدره.

<< يا بني، لا تُر الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر >>.

ومن حكمه أيضاً ولا ننسى أن الدرس عن الحكمة.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

هذه كلّها من حكم سيدنا لقمان..

<< يا بني، إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم، فلم يبقَ ما جمعوا، ولم يبقَ من جَمَعوا له >>.

ألم يقل الله عزّ وجل في حديث قدسي يوم القيامة لعبدين، قال للأول:

((عبدي آتيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟))

ليس في الآخرة كذب وتدجيل ـ قال:

((يا رب، لم أنفق منه شيئاً على أحدٍ مخافة الفقر على أولادي من بعدي..))

هذا لسان حاله.. قال:

((ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوّة المتين، إنّ الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم..))

وسأل آخر.. قال:

((أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال: يا رب، أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي بأنك خيرٌ حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، قال: يا عبدي، أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

قصص وعبرة:

العبرة: احفظ الله يحفظك:

والله أعرف رجلاً سمعت قصّته، وهي قصّة واقعيّة لا تكاد تصدّق لهولها، هذا إنسان جمع مالاً كثيراً، ومات وترك المال، وكل همّه في الحياة أن يكون أولاده في بحبوحةٍ من بعد وفاته، وهؤلاء الأولاد بقدرة قادر عقدوا صفقةً كبيرةً جداً مع تاجرٍ في اليمن، وكيف أن هذا التاجر استجرّ منهم بضاعةً بمئات الألوف ؛ بل بعشرات الملايين، وكيف أن هذا التاجر لم يدفع لهم شيئاً، وكل شيءٍ وقعه لهم كان حبراً على ورق، وبعد زمنٍ قصير من الزمن بيع المعمل، وبيع المحل التجاري، والبيوت بيعت، وعاد أولاده فقراء.

وكم من إنسانٍ عاش في طاعة الله، واتكل على الله، وخَلّف لأولاده إيماناً وسمعةً طيّبة فأغناهم الله من بعده !.. قال له: **"أنا الحافظ لأولادك من بعدك"..**

إنّ أكبر شيء تقدّمه لأولادك أن تجعلهم مؤمنين، لأنك إذا جعلتهم كذلك استحقوا الإكرام من الله عزّ وجل في حياتك وبعد وفاتك، وإن لم تهدهم إلى سبيل الله عزّ وجل استحقوا العقاب والدمار في حياتك وبعد وفاتك.

من أغرب القصص التي لا تكاد تصدّق، أن آخر سلاطين بني عثمان عمل ابنه حمالاً في بيروت، في هذه المدينة، إذاً: **أنا الحافظ لأولادك من بعدك..**

<< بني، إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم، فلم يبقَ ما جمعوا ولم يبقَ من جُمِعوا له >>..

لذلك أندم الناس يوم القيامة غنيٌ دخل ورثته بماله الجنّة، ودخل هو بماله النار، هو جمعه من حرام فاستحق النار، وهم ورثوه حلالاً، وأنفقوه في طاعة، الله فدخلوا به الجنّة، وأندم الناس عالمٌ يوم القيامة دخل الناس بعلمه الجنّة، ودخل هو بعلمه النار، فهو لم يطبّق ما قاله، والذين استمعوا له طبّقوا ما قاله.

<< وإنما أنت عبدٌ مستأجَر، قد أمرت بعملٍ، ووعدت عليه أجراً، فأوفِ عملك واستوفِ أجرك >>.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (08-13): تفسير الآيتان 17 - 18

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-07-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا بُنَيّ أَقِمِ الصّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدّكَ لِلنّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ(19))

ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب:

أيها الإخوة، هناك قاعدةٌ أصولية، وهي أن: **" ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ".**

إن قلتُ لإنسان: كن طبيباً، وآمرك أن تكون طبيباً، فمن ضِمْن هذا الأمر أن تنال الثانوية بدرجاتٍ عالية، ومن ضمن هذا الأمر أن تنتسب إلى كلية الطب، لأنك لن تكون طبيباً إلا إذا دخلت كلية الطب، ولن تدخل كلية الطب ما لم تحمل الشهادة الثانوية، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وهذه قاعدة أصولية.

1 – لا صلاة إلا بالإيمان والإحسان والاستقامة:

ربنا عزّ وجل حينما أمرنا أن نصلي لا يمكن أن تصلي إلا إذا كنت مستقيماً محسناً، ولا يمكن أن تستقيم، ولا يمكن أن تحسن إلا إذا عرفت الله، وآمنت باليوم الآخر، إذاً معرفة الله عزّ وجل، والإيمان باليوم الآخر، والاستقامة، والعمل الصالح من لوازم الصلاة، فإذا أمرك الله عزّ وجل بالصلاة فمن لوازم الصلاة أن تعرفه، وأن تعرف من تصلي له، وأن تأتمر بأمره وأن تنتهي عما عنه نهى، وأن تقدِّم شيئاً يسمح لك أن تُقْبِلَ عليه وهو العمل الصالح، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

2 – الأمر بالصلاة مقرون بإقامتها دائمًا:

مِن هنا جاء الأمر بالصلاة مقترناً في أكثر الآيات مع إقامة الصلاة، كإقامة البناء، فهناك مراحل كثيرة تسبق الصلاة منها ؛ ما هو من طرف الصلاة العمل الصالح، ومنها أن تأتمر بما أمر، وأن تنتهي عما عنه نهى وزجر، ومنها ما هو بعيدٌ عن الصلاة أن تعرف الله عزّ وجل، لذلك أحب أن أؤكد لكم وهذا

كلامٌ دقيقٌ جداً: أن العلم والعمل وحده هو الطريق الوحيد الموصل إلى الله، إذا عرفت الله عرفت ما عنده من ثواب أو من عقاب، وعرفت أن الأمر كله بيده، وتوجهت إليه، وإذا عرفت أنه هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وإذا رأيت الله في كل شيء، وأنه ما من شيءٍ يقع إلا بأمر الله وبإذن الله، وما من عملٍ يُنَفَّذُ إلا بتوفيق الله، وإذا رأيت هذه الرؤية، فهي وتلك المعرفة وهذا العلم حملك على أن تطيع الله، وأن تفعل الصالحات تقرباً إليه، فالآن يمكنك أن تصلي.

3 – فصل الاستقامة عن الصلاة تضييع للدين:

ولذلك حينما فصل الناس الصلاة عن استقامتهم، وعن أعمالهم الصالحة، وحينما فصلوا العمل عن معرفة الله، ضاع الدين وضاع الناس في متاهات الصلوات الشكلية الجوفاء، ولم تقدم لهم شيئاً ذا بال، وقاموا إلى الصلاة وهم كُسالى، ورأوها عبئاً، وقالوا بلسان حالهم: أرحنا منها، ولم يقولوا كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أرِحْنَا بِهَا))

[أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

منزلة الصلاة في الإسلام:

1 – الصلاة عماد الدين:

الشيء العجيب أن في السنة المطهرة أحاديث كثيرةً جداً عن الصلاة، يكفي أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الصلاة عماد الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[الجامع الصغير عن عمر]

وقد يسأل سائل: هذه الصلاة التي يصليها عامة الناس، هل هي عماد الدين ؟ فهذه من أقامها فقد أقام الدين ؟ وهذه من هدمها فقد هدم الدين ؟!! بالتأكيد لا، لأن هذه الصلاة التي يرافقها الكذب، والغش، والمعاصي، والفواحش، هذه بالتأكيد ليست صلاةً أرادها الله عزّ وجل، لأن الصلاة التي أرادها الله عزّ وجل تنهى عن الفحشاء والمنكر، والتي هي نورٌ في قلب المؤمن يريه الحق حقاً والباطل باطلاً، والصلاة التي أرادها الله عزّ وجل طَهور، فإذا اجتمع في قلب مصلٍ حقدٌ وحسدٌ وكبرٌ واستعلاءٌ، أن يتكلم المصلي كلاماً فاحشاً بذيئاً، وأن يأخذ المُصلي ما ليس له، فهذا شيء مستحيل.

2 – الصحابة أقاموا الصلاة ففتحوا البلاد:

قد يسأل سائل: ما السرُّ بأن أصحاب النبي عليه رضوان الله كانوا قلة قليلة، ومع ذلك فتحوا الآفاق، والبلاد شرقاً وغرباً، ونحن نَعُدُّ ألفاً وزيادة من الملايين، قبل سنوات ألف مليون، والآن سمعت أن المسلمين يبلغون ألفاً ومئتي مليون، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((خَيْرُ الصّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السّرَايَا أَرْبَعُ مِائَةٍ، وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلافٍ، وَلا يُغْلَبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلّةٍ))

[مسند أحمد عَن ابْنِ عَبّاس]

من حيث العدد لن يغلب في حديثٍ صحيح..

((وَلا يُغْلَبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلّةٍ))

لأنهم أضاعوا الصلاة، والله عزّ وجل يقول:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصّلَاةَ وَاتّبَعُوا الشّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

(سورة مريم 59)

3 – ليس كلُّ مُصلٍّ مقيمًا للصلاة:

ومن باب التقريب، إنسان يحمل أعلى شهادة في الطب، بورد مثلاً، هذا ممتلئٌ علماً، وخبرةً، ويتقن اللغة الأجنبية كإتقانه العربية، ويفهم دقائق اختصاصه، وله تجارب غنية جداً، وذكاءٌ كبير، واطلاعٌ واسع، وشكله الخارجي أنه يرتدي ثوباً أبيض اللون، ويضع على عينيه نظّارتين، وعلى أذنه سَمّاعة، فإذا جاء إنسانٌ جاهل، وارتدى ثوباً أبيض اللون، ووضع على عينه نظارة، وفي أذنيه سماعة فهل صار طبيباً، وهل هذا هو الطب ؟ أن ترتدي هذا الثوب الأبيض، وأن تضع السماعة على أذنيك، وأن تضع ورقة بيضاء على الطاولة ؟

هناك فرقٌ كبير بين المصلي حقيقة، وبين الذي فكر في الكون حتى استقرت في نفسه حقيقة وجود الله، وحقيقة أسمائه الحسنى، وحقيقة كماله، وحقيقة وحدانيته، واستقر في نفسه أن الإنسان خُلِقَ ليسعد في الأبد، إذاً استقر في ذهنه أحقية اليوم الآخر، ثم بدأ يبحث عن أمر الله ؛ في مأكله، ومشربه، وزواجه، وعمله، وأخذه، وعطائه، وفي كل شؤون حياته، إلى أن طبق السنة النبوية تماماً وبدأ يجعل من طاقاته، من إمكاناته، من ذكائه، وخبراته، ووقته، وجهده، وماله، فكلها وظفها في طاعة الله، وتَقَرُّبًا إلى الله عزّ وجل، عندئذٍ وقف ليصلي فرأى الطريق إلى الله سالكةً، واستراح في الصلاة، وشعر أنه قريبٌ من الله عزّ وجل، وأن هموماً قد انزاحت عن كاهله، فمن هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، وسيدة القربات، وغرة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات))

[ورد في الأثر]

4 – الصلاة فرض لا يسقط إلا بالموت:

ومن هنا قال العلماء: الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقطُ بحال، من أركان الإسلام أن تشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويكفي أن تشهد هذه الشهادة مرةً واحدة، من أركان الإسلام والحج على المستطيع، فقد تؤديه مرةً واحدة، وقد لا تؤديه أبداً وأنت مسلم، ومن أركان الإسلام الصيام، وقد يصاب الإنسان بمرضٍ يمنعه من الصيام، وقد يسافر فيؤجّلَ الصيام إلى ما بعد السفر، والزكاة على المستطيع، إذاً: الحج قد يسقط، والصيام قد يسقط إلى حين، والزكاة قد تسقط، والشهادة تؤدّى مرةً واحدة، أما الفرض العَيْنِيّ الذي يتكرر ولا يسقط بحالٍ هو الصلاة، لذلك لا يستطيع الإنسان أن لا يصلي ولو كان في ساحة الحرب، ولو هُدِّدَ بالقتل إن لم يصل، عليه أن يصلي صلاة الخائف، وصلاة الخائف تقصر نوعاً لا كَمّاً، لك أن تصلي بأية طريقةٍ تشاء، وأنت مستلقٍ على السرير، وأنت واقف، في أي وضعية، إذا هددت بالقتل إن صليت فهناك صلاة الخائف، ومعنى ذلك أن الدين كله قائمٌ على الصلاة، من ترك الصلاة جحوداً بحقها فقد كفر، فقد كفر، والذي أشعر به أن آيات الصلاة في أكثرها قالت:

(وَأَقِمْ الصّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه 14)

أقم البناء ؛ شراء الأرض، وتخطيطها، وترحيل الأتربة، وهدم الأنقاض، وترحيلها، وحفر الأساسات، وبناءها، وبناء الطابق الأول، والثاني، والكسوة الداخلية والخارجية، تأمين الماء والكهرباء، هذا كله منطوٍ في كلمة إقامة البناء، فإقامة الصلاة تستلزم معرفة الله، لمن تُصلي ؟ تقول: الله أكبر، هل عرفته أكبر ؟ فهذا الذي يتذوّقه المؤمن من قوله تعالى:

(وَأَقِمْ الصّلَاةَ)

ماذا قال الله عزّ وجل عن هؤلاء الذين يصلون ويراءون ؟ ما قال: فويلٌ للذين يقيمون الصلاة، بل قال:

(فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7))

(سورة الماعون 4-7)

إذاً: نرجع إلى القاعدة الأصولية وهي أنه: **" ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب "**، فإذا أمرك الله عزّ وجل بنص القرآن الكريم أمراً قطعي الدلالة، أمرك أن تصلي، أو أمرك أن تقيم الصلاة، فابحث عن موجبات الصلاة، عما لا تتم الصلاة إلا به ؛ معرفة بالله عزّ وجل واستقامة على أمره، وتقربٌ إليه، عندئذٍ ترى الطريق عند الله سالكاً.

كيف تتمّ معرفة الله عزوجل حتى تكون مقيما للصلاة ؟

قد يسأل سائل: كيف تتم معرفة الله ؟ الله عزّ وجل لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، إذاً السبيل الوحيد إلى معرفة الله أن تستعمل العقل الذي هو مناطُ التكليف، والله عزّ وجل الكون كله تجسيدٌ إن صح التعبير، أو مظهرٌ لوجوده، ومظهرٌ لوحدانيته، ولكماله، فأسماء الله كلها لها متعلّقات ؛ قدرته ظاهرةٌ في خلقه، ورحمته ظاهرةٌ في خلقه، ولطفه، ووحدانيته، وكماله كل ذلك ظاهرٌ في خلقه. إذاً: كل أسمائه الحسنى، وكل صفاته الفضلى إنما هي مبثوثةٌ في خلقه وفي الكون، إذاً يكفي أن تنظر إلى الكون، إلى خلقك، إلى طعامك، وشرابك، وما تحتك، وما فوقك، وعن يمينك، وشمالك، يكفي أن تنظر، وأقرب شيءٍ إليك جسدك.

(قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)

(سورة عبس 17)

ما الذي جعله يكفر ؟

(مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19))

(سورة عبس 18-19)

إنها نطفة لا ترى بالعين، ففي اللقاء الواحد يخرج من الرجل ثلاثمائة مليون حوين مَنوي، وواحدٌ من هذه الثلاثمائة مليون هو الذي يُلَقِّحُ البويضة، ومن يُصَدِّق أن على هذا الحوين معلومات مبرمجة بأزمان معينة تزيد على خمسة آلاف مليون معلومة، والرقم دقيق جداً تأكدت منه إلى أقصى درجة، حيث إنّ خمسة آلاف مليون أمر مودعة في هذا الحوين الذي لا يرى بالعين، كيف لقّح هذا الحوين البويضة ؟ وكيف فتح له الباب، ثم أغلق ؟ وكيف مُنِعَ من الدخول آلاف مئات الألوف، بل عشرات الألوف، دخل هذا الحوين القوي إلى البويضة، وكيف تلقحت هذه الخلية الأنثوية الأولى ؟ وكيف انقسمت إلى عشرة آلاف جزيء، وهي في طريقها إلى الرحم ؟ وإذا قرأت علم الأجنة، أو قرأت المبادئ الأولى لعلم الأجنة وجدت العجب العجاب..

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ(23))

(سورة عبس 17-23)

ماذا ينتظر ؟

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول ؟

إلى متى ؟!!

***

تعصي الإله وأنت تظهر حبه   هذا لعمري في المقال بديعُ

لو كان حبك صادقاً لأطعتـه   إن المحب لمن يحب يطيعُ

***

الذي أراه أنك إذا تأمّلت في خَلقِكَ، وفي طعامك، وشرابك، وفي المخلوقات من حولك، وفي الجبال، والبحار، وفي الأطيار، والأسماك، فلابدّ من أن تعود من هذه الجولة وقد خشع قلبك، ورأيت نفسك صغيراً جداً أمام عظمة الله عزّ وجل، وعندئذٍ لا تملك إلا أن تبادر إلى طاعته، وإلى نفع عباده، وخدمة مخلوقاته، فإذا كنت عارفاً به، مستقيماً على أمره، محسناً إلى خلقه، استقبلك الله عزّ وجل في الصلاة، وأقبل عليك، وتجلّى على قلبك، وملأ قلبك نوراً، وملأ حياتك حبوراً، وجعلك من المقربين المنعمين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ألا ترى معي أن أحيانا، وفي ساعات صفائك، وعقب أعمالك الصالحة، والتضحيات، والبذل، والعطاء، ألم تقف مرةً بين يدي الله عزّ وجل فتنهمر دموعك، ويخشع قلبك، وتتمنى أن تدوم الصلاة ساعات طويلة ؟ إذا كنت صَلّيْتَ هذه الصلاة فهذه هي الصلاة، التي أمرنا الله بها، والتي نرقى بها.

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه 14)

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق 19)

(لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء: من الآية 43)

فإذا تلوت القرآن في الصلاة فربما شعرت كأنك تسمع القرآن أول مرة، وكأنه نزل من تَوّهِ على النبي عليه الصلاة والسلام، هذه هي الصلاة، فالصلاة ميزان، من وّفّى استوفى، من وفى الاستقامة حقها استوفى من الصلاة ثمراتها، فخالقٌ عظيم، وربٌ كريم، إنه خالق السماوات والأرض يأمرك أن تقف بين يديه، هل وأنت ساهٍ ولاهٍ، وأن تنحني وتنحني، وأن تقعد وتسلم، وانتهى كل شيء، أهذا أمر الله عزّ وجل ؟ هذه الذات الكاملة، وهذا الرب الكريم، وهذا الإله العظيم هذا أمره ؟ أترضى لمخلوقٍ أن تؤدي أمره أداءً شكلياً ؟ أترضى من ابنك إذا أمرته أن يدرس أن يقعد وراء المنضدة، وأن يفتح كتاباً، ويقلبه

أمامك، وعينه نحوك، ولا يقرأ شيئاً ؟ أترضى منه هذا ؟ ألا تتهمه بالنفاق إذا فعل هذا ؟ فكيف ترضى أن تؤدي هذه العبادة العظيمة أداءً شكلياً، أداءً أجوف ؟ لكن أنّى للمنحرف أن يقف بين يدي الله عزّ وجل، وأنى للمذنب أن يقبل على الله ؟ وللمسيء إلى خلقه أن يتجلى الله على قلبه ؟ هذا القلب بيت الرب، والله عزّ وجل أغنى الأغنياء عن الشرك، إذا كان في القلب شرك فالله عزّ وجل يَدَعك وشأنك، فأن يستحق قلبك أن يتجلّى الله عليه في الصلاة، أن يستحق قلبك أن يمتلئ نوراً من الله عزّ وجل في الصلاة، لابدّ من أن يكون طاهراً، فالقلب بيت الرب، ومنظر الرب، فيا عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طَهَّرْتَ منظري ساعة ؟ لذلك كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة عماد الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[الجامع الصغير عن عمر]

الصلاة عماد الدين:

العماد في اللغة، الخيام كما تعرفونها لها عمودٌ كبير في وسطها، فالخيمة الدائرية لها عمودٌ كبير، ما قيمة هذه الخيمة بلا عمود ؟ إنها قماش ملقى على الأرض، فهل تصلح هذه الخيمة أن تُسْكَن ؟ وهل يُجْلَسُ فيها ؟ وهل تستعمل كخيمة بلا عمود ؟ فهذه الصلاة إذا كان الدين خيمة فالصلاة عماد الدين أو عمودها، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، فأنت لا حظ مُخَيَّماً حينما يُزْمِعُ أصحابه الرحيل يبدءون بسحب الأعمدة، وحينما يسحب عمود الخيمة تتداعى على الأرض، وتصبح قماشاً بعضه فوق بعض وانتهى الأمر، تشبيهٌ نبويٌ رائعٌ جداً:

((الصلاة عماد الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[الجامع الصغير عن عمر]

((الصلاة طهور))

[ورد في الأثر]

إنّ المصلي طاهر النَفْس، لا يغشّ أحداً، لا يكذب، ولا يتلاعب، ولا يحتال، ولا يخدع، ولا يسئ في كلامه، إنه مصلٍ، طاهر، أي إنه إنسان متصل بالله، ومكارم الأخلاق كلها مخزونةٌ عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً من خلال الصلاة منحه خلقاً حسناً، فهذا كلام قطعي، كل أخلاقك، وكل كمالك، وحلمك، ورحمتك، وإنصافك، ولطفك إنما تشتقه من الصلاة، فبقدر اتصالك بالله عزّ وجل تأخذ من كماله. إن كان لك اتصال بهذا المُجَمّع الأساسي للكهرباء، فبقدر ما تأخذ من هذا المُجَمّع تكون قوة التيار عندك، فإذا كان عندك آخذ ضعيف جداً بثمانين فولطاً، مائة وعشرة، مائتين وعشرون، كلما علا قطر الآخذ اشتدت قوة التيار، وهكذا.

فلذلك الوقفة الآن عند:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ)

هل أنت في مستوى وقفتك في الصلاة ؟

قبل أن تقف مع الناس في المسجد، وتستمع إلى الإمام يتلو آيات القرآن الكريم، هل أنت في مثل هذه الوقفة ؟ هل أنت في مستوى هذه الوقفة ؟ لا يمكن أن أقول لك: إن لم تكن كذلك فلا تصلِّ، ولكن أقول لك: صلِّ الصلاة فرضاً، ولكن حاول أن ترفع مستوى صلاتك، ورفع مستوى الصلاة برفع مستوى العلم، وكلما ازددت علماً ازددت قُرباً، وكلما ازددت بذلاً ازددت قرباً.

احرصْ على يومك قبل أن يفوتك:

شيئان احرص عليهما كل يوم كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علما يقربني إلى الله تعالى فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم))

[الجامع الصغير عن عائشة بسند فيه مقال]

((ولا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله قرباً))

علماً وقرباً، العلم معرفة، والقرب بذل، ولذلك إذا مضى هذا اليوم، ولم تزدد علماً، أو لم تزدد قرباً بعمل صالح فَابْكِ على هذا اليوم، بل إن اليوم يقول لك: **" يا ابن آدم، أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة ".**

بل إن أخطر ما تملكه هو الزمن، إنك زمن، أو إن رأس مالك هو الزمن، أو إن أخطر ما تملكه هو الزمن، فإما أن تنفقه إنفاقا استهلاكياً سخيفاً، وإما أن تنفقه إنفاقاً استثمارياً، فإذا حرصت على معرفة الله عزّ وجل، وعلى حضور مجالس العلم، وعلى فهْم كتاب الله، وعلى فهْمَ أمر الله ونهيه، وعلى فهم السُنَّة المطهرة، وعلى أن تقف على سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، إذا حرصت على طلب العلم، فطلب العلم يجعلك من طُلاب العلم، وطلاب العلم أغلب الظن إذا كانوا صادقين يطبقون علمهم، فإذا طلبت العلم، وتعلّمت العلم، وطبقت العلم، صار الطريق إلى الله سالكاً، فإذا اتصلت بالله عزّ وجل لك أن تقول مع من يقول: " يا رب، ماذا فَقَد من وجدك ؟ والله ما فَقَد شيئاً، وماذا وجد من فَقَدك ؟ والله ما وجد شيئاً.

ملخّص الملخص أن ترى الله في كل شيء، وأن تسعى إليه في كل شيء، وهؤلاء التائهون، الشاردون، البعيدون، هؤلاء ما أتعسهم، وما أشد خسارتهم حينما يأتيهم ملك الموت..

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور 45)

لا تأخذ من الدنيا شيئًا إلى قبرك:

هناك أخبار تأتي للإنسان كالصاعقة، فإذا اكتشفت فجأةً أن هذا البيت الوحيد الذي لا تملك غيره، قد بعته بعملةٍ مُزَيَّفَة، وأن هذه العملة المزيفة فضلاً عن أنها لا قيمة لها سوف تحاسب عليها حساباً كبيراً، أليس هذا الخبر صاعقاً، إذا اكتشفت فجأةً أن هذا البيت الذي اشتريته ليس للذي باعك إياه، وأن الذي يملكه شخص آخر، وأن هذا المبلغ الذي دفعته له ذهب هباء، أليس هذا الخبر صاعقاً ؟ فإذا كشف الإنسان في لحظة ما أن كل عمله في الدنيا لا قيمة له، وأن كل سعيه قد ذهب أدراج الرياح، وأن الله عزّ وجل جعل من عمله هباءً منثوراً، وأنه قادمٌ على حياةٍ أبدية لا يملك مالاً للتداول فيها.

إذا ذهبت إلى بلدٍ غربي فإنّ أول شيءٍ تفكر به أن تشتري عملة ذلك البلد، فإذا كنت مُزْمِعاً أن تسافر إلى الدار الآخرة ألا ينبغي أن تفكِّر ما العملة الرائجة هناك ؟ إنها العمل الصالح، لذلك: **<< يا قيس، إن لك قريناً يدفن معك وهو حي، وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو عملك >>.**

يخرج الرجل من البيت، والبيت أملاك غير منقولة، ومحله، وله أهل، وأولاد، وأقرباء، وأصحاب، هؤلاء يمشون معه، ولكنهم جميعاً يقفون عند شفير القبر، أما الوحيد الذي سينزل في هذا القبر فهو الميت، يرفع غطاء النعش، ويؤذن المؤذن، ويحمل، ويوضع في هذه الحفرة، شيءٌ واحد يدخل معك في القبر، إنه عملك، لذلك قالوا:

والقبر صندوق العمل

***

صندوق عملك هو قبرك، لذلك قالوا:

الدنيا ساعة فاجعلها طاعة

والنفس طماعة عودها القناعة

***

هذه المعاني المستنبطة من قوله تعالى:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)

أما:

(وَأمُرْ بِالْمَعْرُوفِ)

منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

1 – السعيدُ يُسعِدِ غيرَه:

فليس القصد أن تكون وحدك سعيداً، أنت إنسان في مجتمع، فإذا سَعِدَ المجتمع سعدت معه، وإذا شقي المجتمع شقيت معه، ولذلك فأنت مأمورٌ أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، وهذه عبادة عَدّهَا بعضهم كالصلاة والصيام..

(وَأمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

2 – إذا أردت أن تسعد فأسعِدِ الآخرين:

إذا وصلت فأوصل غيرك، وإذا عرفت فعَرّف غيرك، إذا سعدت فأسعد غيرك، وإذا اتصلت فأعن غيرك على الاتصال، فإذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين، وحينما تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر تصبح امرؤاً صالحاً في مجتمعٍ صالح، فقد يحدث أن بعض إخواننا، هو وأخوه، وأخوه، وأخوه، كلهم ديّنون، ورعون، مستقيمون، فهؤلاء الإخوة، ما دامت البيوت كلها مطبقٌ فيها الإسلام، هؤلاء يشعرون بسعادة، وليس هناك مُنَغِّصَات، أما إذا وُجِد أخ واحد مستقيم، وأربعة إخوة منحرفون فإنه يعاني الأمرّيْن، فهناك تداخلات، وقرابة، وأولاد، وأولاد عم، وتطلعات، فإذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر عاد الخير عليك، فإذا كان بإمكانك أن تهدي أخاك من أمك وأبيك، وبإمكانك أن تأتي به إلى المسجد، وأن تحمله على طاعة الله عزّ وجل أصبحتما اثنين، فإذا جلبت الأخ الثالث أصبحتم ثلاثة، فإذا أمكنك أن تهدي إخوتك جميعاً أصبحتم كتلةً يُعْتَز بها، رأيت طاعة الله سهلةً، فلم يعد هناك موازانات، وتطلعات، وإفساد، انتهى الإفساد، وأصبحت البيوت كلها عامرةً بذكر الله، فإذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فقد سعدتَ قبل الذين أمرتهم بالمعروف، وسعدت قبل الذين نهيتم عن المنكر، فإذا أكثرت المؤمنين مِن حولك سعدتَ بهم، وسعدوا بك، هذه عبادةٌ، عبادةٌ بكل معنى هذه الكلمة.

(وَأمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

إذا اهتدى مؤمن إلى الله يقول: ما لي وللناس، دعهم في ضلالهم يا أخي، لهم رب يحاسبهم، هذا مؤمنٌ في الدرجة الدُنيا من الإيمان، لأن قلبه لم يمتلئ حباً لهم، ولم يمتلئ غيرةً عليهم، وشفقةً عليهم، بل كان هذا القلب بعيداً عن أن يكون رحيماً، فلذلك المؤمن الصادق يتحرّق على هداية إخوته، وأقربائه، وجيرانه، وشركائه، وزملائه، ومن حوله، ومن دونه، ومن فوقه، لذلك دائماً ينطلق اللسان بذكر الله عزّ وجل، أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً..

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ)

3 – لا تأخذك في الله لومةُ لائم:

يجب أن لا تأخذك في الله لومة لائم، وألا تجامل، وألا تحابي، وألا تطلب السلامة على حساب هذا الأمر الإلهي..

(وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)

فلان حَدّثَكَ عن أنه سيفعل كذا وكذا، وهذا الفعل مُحَرّم، لا تبقَ صامتاً، ذكره قل له: يا أخي هذا العمل حرام لا يجوز، قل له: من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا، وأقرب مما اتقى، أما أن تقول: ما لي وللناس.

4 – تركُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خشية منكر أكبر منه:

إذا نتج عن أمرك بالمعروف، أو نهيك عن المنكر فتنة أشدُّ من فعل هذا المنكر، عندئذٍ قال العلماء: " **في مثل هذه الحالة لا ينبغي أن تفعل ذلك**، لأن سيدنا عمر يقول: **<< ليس بخيركم من عرف الخير، ولا من عرف الشر ؛ ولكن من عرف الشرّيْن، وفرّق بينهما، واختار أهونهما >>.**

إذا أمرت بالمعروف، أو نهيت عن المنكر، ونتج عن هذا الأمر وذاك النهي فتنة أشدُّ من المنكر الذي يقترف، فالأوْلى أن تسكت، ولذلك فالحكمة تقتضي أن تفعل ما ينبغي، في الوقت الذي ينبغي، وبالقدر الذي ينبغي، وفي الوقت الذي ينبغي.

5 – وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمَن له ولاية على غيره:

لكن أغلب الظن أن الأب وأولاده، والزوج وزوجته، وصاحب المعمل وعمّاله، وصاحب المتجر وموظفيه، ومدير المؤسسة وموظفيه أيضاً، الله عزّ وجل جعل أشخاصاً تحت رعايتك، وإشرافك، فأنت قيمٌ عليهم، أمرهم بيدك، هؤلاء الذين أناط الله بك مصالحهم ومقدّراتهم، فهؤلاء ينبغي أن تأمرهم

بالمعروف، وأن تنهاهم عن المنكر، وأقرب مثل عندك محل تجاري عندك موظف، أخلاقه عالية ونشيط ومخلص لكنه لا يصلي، ألا ينبغي لك أن تأمره بصلاة ؟ وأن تشجعه عليها ؟ وتحضّه على معرفة الله ؟ لأن هذا سيحاسبك، يقول لك: خدمتك ثلاثين عاماً ما ذكرتني مرة بالصلاة، لم تأمرني أن أصلي، ولم تدفعني إلى معرفة الله عزّ وجل، واعتصرت مني قوّتي، وألقيتني في جهالةٍ وفي ضلالة، إذاً:

(وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

ولا سيما من كان في حوزتك، وتحت إشرافك، ورعايتك، هؤلاء أولى الناس أن تأمرهم بالمعروف وأن تنهاهم عن المنكر.

(يَا بُنَيّ أَقِمِ الصّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

6 – ضابط المعروف والمنكر شرعي لا مجال للعقل فيه:

ما المعروف ؟ ما أمر الله به، وما المنكر ؟ ما نهى عنه، الحسن ما حَسّنَهُ الشرع، والقبيح ما قبّحَهُ الشرع، وكل شيءٍ حسنه الشرع وأمر به فهو حسن، وهو المعروف، وكل شيءٍ نهى عنه الشرع فهو المنكر وهو القبيح، فلا ينبغي أن تكون لك قيَم أخرى، وأن تفعل أشياء تراها حسنة، وهي تخالف الشرع، والمؤمن الصادق قيمُهُ من قيَم كتابه، ومقاييس الفوز عنده هي مقاييس الفوز عند الله عزّ وجل..

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به))

[البغوي في شرح السنة عن ابن عمرو]

لا يوجد عنده مقاييس خاصة، فمثلاً: إنسان لا يصلي، فهو بعيد عن الدين، ومنكر للدين، تقول عنه: لبق، ولطيف، وأخلاقه عالية، وفهيم، وحذق، فأنت تطعن في الدين، إذا أثنيت عليه كل هذا الثناء وهو لا يصلي، وهو لا يهتم بالدين، فكأنك ألغيت الدين، ولم تعبأ به، إذاً: ينبغي لك تكون القيم التي تتعامل بها نابعةً من كتاب الله، لا أن تكون نابعة من مجتمعك، ولا من تقاليدك، ولا من عاداتك.

7 – من نتائج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معاداة الناس:

لكنك إذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر فالطريق في ذلك ليس محفوفاً بالورود ؛ ولكنه محفوفٌ بالأشواك، لأن الذي يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر يتصدى له أشخاصٌ شهوانيّون يتضررون من

هذه الدعوة، إذاً: لابدّ أن يناصبوها العِداء، وأن يقفوا عقباتٍ في طريق الدعوة إلى الله، لأنهم تضرروا ؛ في شهواتهم، و في مصالحهم، إذاً: لابدّ من أن تؤذى، إذاً: جاء الأمر الإلهي الثالث:

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)

8 – لذلك: وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ

أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، وأن تدعو الناس إلى الله، وأن تحضّهم على طاعة الله، ثم تعيش هكذا بلا مشكلة، ولا معاداة، ولا معارضة، ولا نقد، ولا حسد، هذا مستحيل، ذلك أنّ سيدنا موسى قال في المناجاة: **" يا رب، لا تُبق لي عدواً "**، قال الله عزّ وجل: **" هذه ليست لي "**، أليس هناك أعداء لله عزّ وجل يناصبونه العِداء، ويهاجمون الأديان كُلها، ويقللون من شأن القرآن ؟ هؤلاء هم أعداء الله عزّ وجل، إذاً: لابدّ للحق من أن يعاديه الباطل، ولابدّ لأهل الحق أن يقف أهل الباطل لهم عقباتٍ في طريقهم إلى الله عزّ وجل، لذلك:

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)

وأحيانا يتلقّى الإنسان الضربات من أقرب الناس إليه، أحياناً زوجه تناصبه العداء إذا أراد أن يحملها على طاعة الله، وأحياناً أولاده، أو والده، أو شريكه، أو أقرباؤه وأسرته.

(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الزخرف 22)

يقول لك: نحن تربينا هكذا، لا يوجد عندنا هذا التستر، ستفرق الأسرة !! وأقرب الناس إليك، من يقول لك: إن أخذ الفائدة حرام ؟ هل من المعقول أن يترك المال هكذا من دون فائدة ؟! أدخلك في متاهات الربا، ولذلك لابدّ من معارضة، ومن تجريح، وحَسَد، ووضع العصي بالعجلات.

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ

1 ـ مِن العزمِ عدمُ التردُّدِ:

أحياناً تتردد في أمور، مثلاً: نذهب إلى نزهة أو لا نذهب، نجد أماكن أو لا نجد، يا ترى النفقات كبيرة؟ هل الآن وقتها أو ليس وقتها ؟ قضية النزهة قضية تأخذ وتُعْطِي، لكن لا سمح الله ولا قدّرَ إذا أصاب الإنسان مرض ولابدّ من أن يجري عملية جراحية، وأن حياته متوقفة على إجراء هذه العملية،

فهل هنا موازنات وتردد ؟ إن إجراء هذه العملية من عزم الأمور، من الأمور المقطوع بها التي لابدّ من أن تفعل، فالإنسان أحياناً في قضايا له فيها خيار، لكن في قضايا كثيرة جداً ليس فيها له خيار، أن تقيم الصلاة، وأن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، وأن تصبر على ما أصابك، إن هذا لمن عزم الأمور، بمعنى أنه لابدّ من أن تصلي، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وهذا الأمر ليس أمراً اختيارياً، ولا احتمالياً، فهو لا يحتمل التردد، ولا أن تقول: افعل أو لا تفعل، لا، إن ذلك من الأمور التي يجب أن تعزم عليها، من الأمور المقطوع بصحّتها، وبحتميتها، وبضرورتها، وبأنها طريقٌ إلى الله وحيدة، هذا معنى من عزم الأمور، عزمت عليه أن يفعل، أي شددت عليه أن يفعل.

أحياناً يكون دخلُ الإنسان محدوداً جداً، لكن يصاب ابنه بمرض ـ وقد يقتضي هذا المرض أن ينفق عليه عشرات الألوف، بل مئات الألوف، تراه بإرادته يبيع بيته من أجل معالجة ابنه، لأن معالجة الابن من عزم الأمور، وأحياناً ينهدم حائط بالبيت بفعل الأمطار، فيصبح البيت مكشوفاً، ويضطر صاحبه أن يقترض من أية جهةٍ ليشيد هذا الجدار، ليس هناك أمرٌ مخيرٌ فيه، بل من عزم الأمور.

2 ـ الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من عزم الأمور:

أنا أضرب أمثلة، ما معنى من عزم الأمور ؟ أنت في حياتك أشياء كثيرة تتردد بها، تقدم أو تحجم، توازن أفعل أو لا أفعل، لكن هناك أشياء كثيرة أيضاً حينما تقع ترى نفسك مندفعاً إلى فعلها دون تردد، أو سؤال، أو تريُّث، أو استشارة أبداً، التهبت الزائدة عند ابنه، وصاح من شدة الألم، وقال له الطبيب: لابدّ من أن تجرى العملية اليوم، وانتهى الأمر، يقول لك: والله ليس معي مالٌ، فيستدين، يضع الذهب رهناً، فإجراء العملية لابنه مِن عزم الأمور، فلابدّ من أن يفعلها، فيجب أن تَعُدّ الصلاة ومقدمات الصلاة ؛ من عملٍ صالح، من استقامةٍ على أمر الله، ومن معرفةٍ بالله من عزم الأمور، وأن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر من عزم الأمور، وأن تصبر على ما أصابك من عزم الأمور، فمستحيل أن تمضي حياة المؤمن من دون ابتلاء، قال تعالى:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون 30)

إذاً: لابدّ من أن تبتلى، ومع الابتلاء لابدّ من أن تصبر، ولابدّ من أن تحتسب..

(إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)

وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاس

بعضهم قال: إذا دعوت إلى الله، إذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، فلا ينبغي أن تستعلي على الناس، وأنت في هذه الطاعة، بل ينبغي لك أن تكون واحداً منهم، وأن تخفِض لهم جناحك، وأن تكون لهم ليّنَاً، أرحم بهم من أنفسهم، وأن تكون لهم كواحدٍ منهم..

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً)

1 – معنى تصعير الخد:

تصعير الخد أن تميل خدك كبراً، واستعلاءً، وإعجاباً، واحتقاراً لمن دونك، كل هذه المعاني مستنبطة من:

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)

أن تميل، أمال، يُمِيلُ، أن تميل رأسك كبراً، وتيهاً، وعجباً، واحتقاراً للآخرين، فأحياناً يفتخر الإنسان بنسبه، أو بشهاداته، أو بماله، أو بقوته، أو بوسامته، أو بذكائه، أو أنه وسيم جميل الطلعة، أو أنه ابن فلان فيفتخر بأبيه، أو بقوته، أو بماله، وتفوُّقه في هذه النواحي يحمله على أن يتكبَّر، مع أنّ الناس لا يحبون المتكبر، فإذا تكبرت عليهم انفضوا عنك، ونفروا منك، وانصرفوا إلى غيرك، فإذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، فإياك أن تُصَعِّرَ خدك للناس، وإياك أن تمشي في الأرض مرحاً، وأن تفرح بالدنيا.

2 – إذا جاءتك الدنيا فلا تتكبّر على عباد الله:

أحياناً تأتي الدنيا كما تشتهي، وفي حالات كثيرة تأتيك الدنيا كما تريد، ويزداد مالك، وتزداد قوتك، يزداد شأنك، ويتألّق نجمك، وتلمع في سماء الدنيا، ويقبل الناس عليك معظِّمين مُبَجِّلين، هذا امتحانٌ خطير، وهذا مزلقٌ خطير، فإما أن تنجح وإما أن ترسب، حتى إنهم قالوا: ما من فاتحٍ على وجه الأرض إلا إذا دخل البلد المفتوح، دخله متغطرساً، مختالاً، متكبراً، إلا النبي عليه الصلاة والسلام، حينما دخل مكة كادت ذُؤابة عمامته تلامس عنق بعيره، تواضعاً لله عزّ وجل.

فهل لديك إمكانية وأنت في ساعات تألّقك، وفي ساعة نجاحك، وارتفاع شأنك، أن تكون في أعلى درجات العبودية لله عزّ وجل ؟

3 – عليك تعظيمُ النعمة مهما دقتْ:

سيدنا عمر جاءه رسولٌ في أذربيجان، وأذربيجان الآن تابعة للاتحاد السوفياتي، وقد كانت ولاية تابعةً لسيدنا عمر، والعاصمة كانت المدينة، وليست موسكو، بل المدينة، جاءه رسول من أذربيجان، فكره هذا الرسول أن يطرق بيته ليلاً فتوجه إلى المسجد، فسمع بكاءً ومناجاةً، يقول هذا الرجل الذي يناجي ربه:
<< رب، هل قبلت توبتي فأُهنِّئَ نفسي، أم رددتها فأعزّيها ؟، قال له: من أنت يا رجل ؟، قال له: أنا عمر، فهذا الذي كره الذي يطرق بيته ليلاً هو في المسجد يصلي، قال: يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل؟ قال: إنني إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي، وانطلقا بعد الفجر إلى البيت، قال: يا أم كلثوم، ما عندكِ من طعام ؟، قالت له: والله ما عندنا إلا خبزٌ وملح، خبزٌ وملح فقط في بيت أمير المؤمنين، فقال: هاتِه، أكل خبزاً وملحاً، ودعا الدعاء التالي فقال: الحمد لله الذي أطعمنا، فأشبعنا، وأسقانا فأروانا >>.

وأنت تأكل سلطة، ولبناً، وفاصولياء، وأرزاً، وراءها تفاح، وحليب وجزر، وبعد ذلك والله الأكلات طيبات، قلت: الحمد لله، هذا الكلام فقط ؟! سيدنا عمر أكل خبزاً وملحاً، وقال: الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا، هكذا المؤمن، حتى مر بالأثر، إن شاء الله أذكرها لكم بالتفصيل، أن الإنسان إذا شرب كأس ماء، شربه على ثلاث دفعات، وفي كل دفعةٍ قال: بسم الله الرحمن الرحيم، فلما انتهى من الدفعة الأولى قال: الحمد لله رب العالمين، والمرة الثانية والثالثة هكذا، قال: ما دام هذا الماء في جوفك لن تحدّثه نفسه بمعصية الله عزّ وجل، أديت حق النعمة، هذا كأس الماء.

قيل لملِكٍ عظيم: يا أمير المؤمنين، بكم تشتري هذا الكأس من الماء إذا منع منك ؟ قال: بنصف ملكي ـ قرأت قصة عن باخرةً غرقت في عرض المحيط، أحد قوارب النجاة، أكبر قارب نجاة كان فيه حوالي سبعون إنساناً، وفي هذا القارب مستودع للماء لا يكفي لإنسانين، فوزع الماء بملعقة الشاي، فكل واحد باليوم له ملعقة شاي من الماء، هل تصدقون أن ركاب هذا المركب قتل بعضهم بعضاً، ولم يصل إلى الشاطئ إلا اثنان، من أجل شربة ماء، من أجل أن يشرب ملعقتين من الماء بدلاً من ملعقة ـ قال له: يا أمير المؤمنين، بكم تشتري هذا الكأس إذا منع منك ؟ قال له: بنصف ملكي، قال: فإذا منع إخراجه، قال: بنصف ملكي الآخر، قال له: ملكك يساوي كأس ماء.

إذا شرب الإنسان الماء، وكانت الكليتان سليمتين، والحالب والمثانة، وكله يعمل بانتظام، أليست هذه نعمة كبرى ؟ لذلك:

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدّكَ لِلنّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ كُلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

كن متواضعاً.

آيةٌ واحدة: إذاً إذا دعوت إلى الله، أو أمرت بالمعروف، أو نهيت عن المنكر، أو في أية حالةٍ من حالاتك..

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاس)

إياك أن تستعلي عليهم، وإياك أن تخاطبهم من فوق، وأن تكون متعجرفاً، وأن تشعر أنك فوق الناس.

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ)

وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا

إياك أن تستخفك الدنيا، أن تفرح بها، وبمالها، وزينتها، ومباهجها، فلا تنس أن البيت الذي جهدت في بنائه، وفي كسوته، وفي تزيينه، وفي تأثيثه لن يبقيك أحدٌ فيه ساعة بعد الموت، ولن يسمح لك أن تدفن فيه، يقول لك: في المقبرة، اشتريته، وجهدت في بنائه، وتزيينه، وتأثيثه، وأقرب الناس إليك إكرامهم لك سرعة ترحيلك من هذا البيت، فعلامَ الفرح ؟

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ

يجب أن تفرح لا بالدنيا، ولكن بطاعة الله، يجب أن تفرح إذا أجرى الله الخير على يديك، وإذا سمح الله لك أن ينطلق لسانك في تعريف الناس بالله عزّ وجل، وإذا جعلك الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، وباباً له، بهذا فافرح..

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: من الآية 58)

أما أن تفرح بالدنيا ! فليس لك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت، والباقي ليس لك.

آخر آية:

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ)

القصدُ في المشي تسطيرُ الأهداف:

معنى القصدُ في المشي:

مرة جاء أحد علماء مصر الكبار إلى مجلس الشيخ بدر الدين رحمه الله تعالى، طبعاً الذي جاء شيخ الأزهر، جلس جلسة تَنِمُّ عن اعتزازه بعلمه ومكانته، هكذا سمعت القصة، بدأ الشيخ يتحدّث، كلما حَدَّثَ حديثاً وفَسَّرَهُ، وتعمّق في شرحه، هذا الضيف بدأ يغَيِّر من جلسته، إلى أن انتهى المجلس وهو جالسٌ على ركبتيه وهو لا يدري، إذاً: كلما عرفت هذا الذي يتكلم تتأدب معه، إذا دخلت على إنسان يحتل منصباً رفيعاً، لاحظ نفسك، تجلس جِلسَةً فيها أدب، لا تعبث بما على المنضدة، ولا تقرأ جريدة أمامه، ولا تُمسك المسبحة، إذا كنت أمام شخص مهم، تجلس بأدب، واحترام، تنظر إليه، وتتطامن في جلستك، هذا مع إنسان، فكيف إذا عرفت الواحد الديان ؟ إذاً المتكبر المختال لا يعرف الله عزّ وجل، لو عرف الله لتأدب معه حتى في جلسته، ومشيته، ومَنْطِقِهِ، وكلامه، إذاً:

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ)

المعنى الأول:

اقصد أي كن معتدلاً بين الكبر ومَيل الخد والتذلل، أيضاً هناك مشية لا يحبها الله عزّ وجل، أن تمشي خانعاً ذليلاً خافض الرأس، وأن تتمسح بالناس، وأن تذل نفسك لهم، هذا أيضاً مرفوض، المؤمن عزيز، لا ينبغي له أن يذل نفسه، **<<متى أمَتّ علينا ديننا >>** ؟ قالها سيدنا عمر لأحد الأشخاص، قال له: متى ؟ لله العزة، إذّا بين التذلل المَقيت والكبر المقيت، ودائماً الفضيلة وضعٌ وسطٌ بين نقيصَتَين، الكبر نقيصة، والخنوع نقيصة..

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ)

كن معتدلاً في مشيك.

المعنى الثاني:

ورد في بعض التفاسير: أي واقصد في مشيك رضاء لله عزّ وجل، ففي مشيك إلى دكانك، وإلى عيادتك، وإلى معملك، وإلى أهل بيتك، وإلى زيد، وإلى عُبيد، كل حركةٍ من حركاتك، اقصد بها رضاء الله عزّ وجل، هذا ورد في بعض التفاسير.

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ)

فارتفاع الصوت ليس فضيلةً، فالعربة الفارغة لها ضجيج، فإن كانت مُحَمَّلَةً ليس لها ضجيج، والشيء الفارغ له صَدى، وكل الآلات الموسيقية مجوّفة من الداخل فارغة، وما دامت فارغة لها ضجيج.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (09-13): تفسير الآيتان 20 - 21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-07-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس التاسع من سورة لقمان ، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

ربطُ الآية بما قبلها من الآيات:

نصبُ الآيات الكونية الدالة على الله:

أيها الإخوة ، قبل هذه الآيات وردت قصة لقمان عليه السلام ، وقبل قصة لقمان قال الله عز وجل بعد أن تحدث عن آياته في الكون:

(هَذَا خَلْقُ اللّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(أَلَمْ تَرَوْا)

إذاً: هذه الآية مرتبطة بالآيات التي وردت قبل قصة لقمان ، وهؤلاء الظالمون الذين هم في ضلال مبين ألم يروا ، معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى نصب في الأرض وفي السماوات آيات واضحة صارخة مبينة دالة على وجوده ، وعلى وحدانيته وعلى كماله.

(أَلَمْ تَرَوْا)

الآن بعد أن كان الخطاب خطاب غائب:

(فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(أَلَمْ تَرَوْا)

دعوة قرآنية إلى التدبر والتأمل والرؤية:

أيها الظالمون ، والجاحدون ، والمنكرون ، والمعرضون ، والمنغمسون في شهواتكم ، ألم تروا.
يا ترى هل الكافر يرى الشمس ؟ يراها بعينه.

1 – الرؤية البصرية والرؤية القلبية:

ولكن الرؤيا هنا مقصود بها رؤية القلب ، لأن الرؤية نوعان: رؤية بصرية ، ورؤية قلبية. رؤية البصر تنصب مفعولاً به واحداً ، تقول رأيت الشمس فإن قلت ساطعة حال ، أما رؤية القلب تنصب مفعولين ، تقول: رأيت العلم نافعاً ، نافعاً مفعول به ثانٍ.

2 – الرؤية البصرية وأثرها في التأمل:

المقصود هنا الرؤية القلبية ، طبعاً الكافر والجاحد والمعرض والفاسق والفاجر كلهم يرى الشمس ، ويرى القمر ، و الجبال ، هذه النعم التي أنعم الله بها علينا يتمتع بها الكفار أيضاً ، يرونها بأعينهم ، ويسمعون أصواتها بآذانهم ، ويلمسونها بأيديهم ، يتذوقونها بألسنتهم ، فأهل الدنيا يتمتعون بكل النعم ، ولكنهم لا ينتقلون منها إلى المنعم ، ولا يرون صاحب النعمة ، ولا الذي أنعم عليهم ، جاءت هذه الآية لتحض المعرضين الجاهلين المنكرين على أن يروا بقلوبهم حقيقة هذه النعم ، منشأ هذه النعم ، صاحب هذه النعم.

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ)

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ

1 – معنى التسخير:

معنى سخر ، التسخير في أدق معانيه: أن يقهر الفاعل في أداء الفعل وفق مراد القاهر ، الشمس مقهورة على أن تشرق ، ولا تملك ألا تشرق ، لأنها مسيرة ومسخرة ، أما الإنسان فيؤمر ، ولا يأتمر ، يُنهى فلا ينتهي ، والإنسان مخير ومكلف ، أمره الله بأوامر ونهاه عن أمورٍ ، فإما أن يأتمر أو لا يأتمر، إن ائتمر قبض الثمن ، وإن لم يأتمر دفع الثمن ، فلذلك ما سوى الإنسان والجن الخلق كلهم مقهورون على تنفيذ ما أمروا به ، لذلك:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب72)

الكون كله بمجراته وكازاراته ، وكواكبه ونجومه ، ومذنباته وشموسه وأقماره ، والأرض كلها ، ما فيها ، وما عليها ، وما فوقها ، وما تحتها ، المواد الصلبة والغازية والمائعة ، والنباتات والحيوانات ، والجمادات كلها مسخرة ، وكل عنصر ، وكل حيوان ، وكل مخلوق مقهور على أن يفعل ما أمره به قاهره ، وهو الله عز وجل ، فالله عز وجل جعل هذا الكون مسخراً للإنسان.

2 – أمثلة لأنواع التسخير:

الحديد:

أما معنى التسخير مثلاً: فلو أن الله عز وجل جعل الحديد كتلاً صافية في الأرض ، فالحديد قد يوجد بكميات كبيرة جداً وبمساحات شاسعة جداً ، ولكن كونه موجودا على شكل حديد صافٍ لا يمكن أن يسخر لنا ، أما حينما وجد الحديد على شكل فلزات فهذا الشكل الذي جعله الله فيه هو مسخر لنا ، وبإمكان الإنسان أن يجمعه ، ويضعه في فرن عالٍ ، وأن يصهره ، وأن يقسمه إلى حديد صلب ، وإلى حديد مطاوع ، وإلى حديد فولاذي ، وإلى أنواع أخرى ، إذاً: طريقة خلق الحديد في الأرض طريقة جعلته فيها مسخر للإنسان.

المياه:

والمياه الجوفية جعلها الله على أبعاد تتناسب مع قدرات الإنسان ، هذا موضوع طويل.

البذر:

مثلاً البذر ، طريقة خلق البذرة من رشيم مؤلف من سويق وجذير ، ومحفظة للغذاء ، ومن قشرة إن جاءتها الرطوبة والضوء والحرارة تنبت ، طريقة خلق البذر طريقة تجعل من الإنسان قادراً على أن يستفيد منها.

البـقرة:

والبقرة مثلاً: جعل الله عز وجل ما تستهلكه من طعام أقلّ مما تنتجه ، لذلك سعى الإنسان إلى تربية الأبقار ، وجعلها مذللة ، لو أنها تجنح كالضبع أو كالذئب أو كالحيوان المفترس فكيف يرعاها ؟ وكيف يجعلها في حظيرة ؟ لذلك فالبقرة مسخرة ، والدواب ، والجمل ، والأغنام ، والنباتات.

الفاكهة:

الله عز وجل جعل هذه الثمار بقوام تناسب طبيعة الإنسان ، ولو أن التفاحة لها قوام صخري فكيف نأكلها ! وجعل هذا الغذاء مناسباً لطبيعة الإنسان ، وجعل طعمها محبباً ، ورائحتها محببة ، وشكلها محبباً ، وجعل خصائصها متناسبة مع حاجات الإنسان.

ولو أن البطيخ مثلاً جاء كالطماطم في قشرة رقيقة ليس مسخراً لنا ، لكن هذه القشرة السميكة تجد شاحنة تحمل خمسة أطنان من البطيخ ، والذي في الأسفل لا يتأثر ، والشكل الكروي شكل متين يقاوم الضغط ، والقشرة سميكة داخل البطيخ ، وقوامه هش يتناسب مع طبيعة الصيف ، ومع حاجة الإنسان.

ولو تأملت في كل فاكهة ، وفي كل محصول ، وكل شيء خلقه الله عز وجل تشعر أنه مسخر ، فالأشجار ، والأنهار ، البحار كلها مسخرة ، بل إن الإنسان الذي استخدم كل شيء في الطبيعة استخدامه لما في الطبيعة هو ترجمة لتسخير الكون للإنسان.

الهواء:

والهواء مسخر جعله يركب الطائرات على متن الهواء.

البحــر:

والبحر مسخر ، لولا أن في البحر قانون أرخميدس التي كشفها هذا العالم ، وهو أن الماء متماسك تماسكاً يرفض دخول الأجسام فيه ، فإذا دخلت دفعها نحو الأعلى بقوة تناسب وزن الماء المزاح ، هذا قانون أرخميدس ، ولولا هذا القانون لما سارت باخرة في البحار ، فالبحار مسخرة ، بقانون أرخميدس جعلت البحار همزة وصل ، وليست فاصلاً بين القارات ، بالعكس لو أردت أن تنشأ طرقاً بين القارات لكلفك هذا ألوف الملايين ، أما البحر فكله طريق ، والبحر يحمل حمولات كبيرة جداً ، والآن يقولون لك: ناقلات النفط تحمل مليون طن ، والآن تجد البواخر مدنًا بأكملها تحمل آلاف السيارات والقطارات

والمحاصيل ، إذاً: البحر مسخر ، والهواء مسخر ، وطبيعة الهواء تتناسب مع حاجة الإنسان ، والضغط الذي فوق الإنسان ضغط يتناسب مع حياته ، فلو رفع الضغط لانفجرت كل أوعيته.

المياه الجوفية:

لو فكرت في كل شيء لوجدت أن كل شيء مسخر للإنسان ، هذه المياه الجوفية لولا أنها تخرج على شكل ينابيع كيف نستفيد منها ، إذاً:

(أَلَمْ تَرَوْا)

أيها الجاحدون ، لأن الكلام عاد إلى:

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ)

علة خَلق السماوات والأرض:

1 – تسخير الكون للإنسان:

فهذه اللام في (لكم)لام التعليل ، علة خلق السماوات والأرض أنها مسخرة لكم إكراماً وتعريفاً ، والكون مسخر لهذا الإنسان تسخير تعريف وتسخير إكرام.

2 – المسخّر له دائماً أكرم من المسخّر:

وشيء آخر ، هذا التسخير من معانيه الأخرى أن المسخّر له دائماً أكرم من المسخّر ، إذاً: أنت المخلوق الأول ، وأنت المكرم ، لأن الكون كله مسخر لك ، لكن ألا تسأل هذا السؤال: إذا كان الكون مسخراً لك فأنت لست مطالباً بشيء ؟إذا أعطاك والدك كل ما تحتاج لتكون طبيباً ، منحك الأموال ، وسخر لك المدرسين ، ومنحك الميزات ، كل هذه الميزات تنالها ، ولا تشعر أنك مسؤول ، غير أنه مطلوب منك شيء ، هنا السؤال ، إذا كانت المجرات مسخرة لي ، والأفلاك ، وكل ما في الأرض وكل حيوان ، وكل طائر مسخرٌ لي ، إذا كان كل ما في البحار مسخراً لي ، وأنا لماذا خلقت ؟ هنا يأتي الجواب: عبدي ، خلقت لك ما في الكون من أجلك فلا تتعب ، وخلقتك من أجلي فلا تلعب ، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما فرضته عليك.

الشيء الآخر ، أن الله عز وجل يقول:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ)

3 – ليس ذكاء الإنسان هو الذي سخّر الطبيعة:

هذا تسخير الله عز وجل ، وقد يتوهم أيام أهل الدنيا أن الإنسان بذكائه استطاع أن يسخر الطبيعة أو يستغل الطبيعة أو يقطف ثمارها ، هذا كلام الشرك ، لولا أن الله أعطاك عقلاً أو فكراً هل بإمكانك أن تستفيد من شيء ، انظر إلى مجتمع الحيوانات ، هل تجد القرود استغلت ما في الطبيعة ؟ نمط حياتها هوَ هو منذ أن وجدت وحتى الآن ، وكل مجتمع حيواني هل ارتقى ! أما الإنسان بما أودع الله فيه هذا الفكر الذي يعد أثمن ما في الوجود ، بل أثمن عطاء وهبه الله للإنسان ، هذا الفكر اكتشف الإنسان البترول ، واخترع المركبات ، وأوجد المواصلات ، وبنى البيوت ، ونسخ القماش ، وتفنن في زراعة المزروعات.

إذاً: كل ما ترونه من إنجاز ـ إن صح التعبير ـ حضاري هو من حصيلة هذا الفكر الذي أودعه الله فينا، إذاً: لولا أن الله أعطانا فكراً لما أمكننا أن نسخر الطبيعة لمصالحنا ، هذا التسخير بفضل الله عز وجل وبعلمه وبإذنه.

4 – ماذا تفعل لو أن المواد في الطبيعة لا تستجيب لعملك ؟

وشيء أخر ، لو أعطاك فكراً وطبيعة المواد في الطبيعة لا تستجيب لك ماذا تفعل ؟ الصخر لا يتفتت، واللهُ عزوجل خلق الصخر ، وخلق فيه خاصة التفتت ، بل علّمك أن تضع فيه ماء ، وأن تجمد الماء فيتصدع الصخر ، إذاً: علّمك كل شيء عن طريق الفكر ، وعن طريق خواص المواد ، ولو أن هناك فكراً متفوقاً جداً وطبيعة المواد لا تستجيب لك فالتسخير لا يقع ، ولو أن المواد تستجيب لك لكنك لم توهب هذا الفكر ، فالتسخير لن يقع.

إذاً: ما وقع التسخير إلا بفضل شيئين: بفضل طبيعة المواد ، وأفضلُ مثلٍ الحديد ، لو كان الحديد كتلاً من الحديد الخام الصلب الصافي يستحيل استخراج الحديد ، ولكن الله جعل الحديد فلزات مع التراب تجمعه كما تجمع التراب ، ثم تجعله في فرن تزيح الشوائب ، وتبقي الحديد مصهوراً ، عندئذ تصنعه على درجات.

إذاً: التسخير يقتضي وجود طبيعة خاصة لموادّ تقبل التسخير ، والتسخير يقتضي وجود جهاز في الإنسان يعرف كيف يسخر هذه المواد له.

5 – موقف الإنسان من تسخير التعريف وتسخير التكريم:

إذاً: التسخير هو تسخير تكريم وتسخير تعريف ، هذا الكون خلق على هذه الشاكلة من أجل أن تعرف الله من خلاله ، وأن تشكره من خلاله ، وأن تعرفه ، ولذلك جاء في الآيات الأخرى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سورة النساء 147)

أنت أمام مهمتين كبيرتين جداً: أن تشكره ، وأن تؤمن به ، أو أن تؤمن به ، وأن تشكره ، فإن آمنت به ولم تشكره فهناك مجال للمعالجة ، وإن شكرته ولم تؤمن به فهذا شيء مستحيل ، مستحيل أن تشكره من دون أن تؤمن به ، وإن آمنت به ولم تشكره فما حققت عبوديتك لله عز وجل ، فلذلك يقول الله عز و جل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

أي إن آمنتم ولم تشكروا فسوف يعذب الإنسان ، إن شكر ولم يؤمن فهذا مستحيل عقلاً ، أن تتجه إلى شكر جهةٍ لا تؤمن بوجودها ، وهذا كلام غير منطقي.

إذاً: الكون مسخر تسخير تعريف ، ومسخر تسخير تكريم ، أنت من خلال تسخير التعريف عليك أن تؤمن ، ومن خلال تسخير التكريم عليك أن تشكر.

مثلاً: لو أن صديقاً لك يصنع أجهزة إلكترونية بالغة الدقة ، ولها فوائد جليلة ، فإذا قدم لك أحد هذه الأجهزة هدية ، وليكن هاتفاً مثلاً ، فأنت أمام هذا الهاتف تنتابك مشاعر متنوعة ، أبرزها ما أدقّ صنعه، ما أجلّ فائدته ، حلّ لي هذه المشكلة ، وهذه المشكلة ، الآن أستطيع أن أتصل بشكل آلي كلما ظهر أن الخط مشغول أعاد الاتصال ، أنت مشغول بقضية ثانية ، والله هذه ميزة كبيرة ، إذا اتصلت بهذا اشخص يظهر الرقم على الشاشة ، فإن كنت مخطئاً تعيد الرقم مرة ثانية ، إن جاءتني مكالمة أعرف من الذي اتصل بي ، فإذا رغبت ألا أجيبه لا أجيب ، وإذا أردت أن أتصل في مكالمة خارجية مثلاً يقول لي كم دقيقة ، إذا قدم لك جهازا من هذا النوع فيه ذاكرات كثيرة جداً ، ستون ذاكرة مثلاً ، فهو يجيب عنك في أثناء غيابك ، تلقنه جملة يجيب بها عنك ، يسجل كل مكالماتك في أثناء غيابك ، إذا كنت في بلد آخر ، واتصلت بهذا الجهاز يسمعك كل المكالمات التي جاءتك خلال أيام ، فأنت تتابع قيمة هذا الجهاز ودقته والفوائد الكبيرة التي استمتعت بها ، واستفدت منها ، ألا ينتابك شعور: ما أدقّ صنع هذا الجهاز**!** ما أعظم هذا المهندس الذي اخترعه **!** وما أدقّ تفكيره **!** ما أدقّ جزئياته **!** تسبح بتعظيم مخترعه ، هذا شعور.

ثم إن هذا الجهاز غالٍ جداً ، قدم لك هدية مجانية ، تشعر بامتنان تجاهه ، هذا مثل مبسط ، ولله المثل الأعلى ، مثل مبسط لجهاز بالغ التعقيد ، عظيم الفائدة ، غالي الثمن ، قدم لك هدية ، فهذا الجهاز سخر لك تسخير تعريف بمستوى المهندس الذي اخترعه ، وتسخير تكريم لأجل أن تحبه ، فإن لم تعظم ، وإن لم تحب في وقت واحد فقد بعدت عن الهدف الذي خلقت له ، يجب أن تحب ، ويجب أن تعظم ، دقة الجهاز يجب أن تحملك على أن تعظم صانعه ، وقيمة الجهاز وكونه قد أهدي لك ، ويجب أن تحملك على أن تحبه وأن تشكره ، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

يجب أن تؤمنوا ، وقدم الشكر على الإيمان ، لأن الإيمان بلا شكر لا معنى له ، ولا قيمة له ، إن كان لا بدّ من إيمان وشكر فالشكر هو ثمرة الإيمان ، بل هو النتيجة التي ترجى من الإيمان ، فلذلك:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

ما علاقة الإنسان بالمجرات ؟

فقد يقول قائل: ما لي بهذه المجرة التي تبعد عنّا ستة عشر ألفَ ألف مليون سنة ، وما علاقتي بها ، وكيف أنها مسخرة لي ، هذا كلام يقوله إنسان محدود التفكير ، يعني أنت ما علاقتك بالشمس ؟ علاقتك متينة جداً ، وربما كانت الشمس اتساق حركتها بسبب محلها من النجوم متوازنة معها في الحركة وفي التجاذب ، خالق الكون يقول لك:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

هذه (ما)تفيد استغراق كل شيء ما في السماوات وما في الأرض.

(مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ)

وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً

1 – معنى أَسْبَغَ:

ما معنى أسبغ علي النعمة ؟ يعني أتمها.

أحياناً تدعو إنساناً إلى بيتك ، تضعه أمام طعام لطيف منوع نفيس طيب متقن ، ومع الطعام كؤوس جميلة رائقة ، وصحون نظيفة ، وأدوات طعام جيدة ، ومقعد مريح ، والتهوية جيدة ، وباقة أزهار على المنضدة ، فإسباغ النعمة إتمامها ، وقد نعطره ، وقد تدعوه إلى أن يغسل يديه ، وقد تعطيه العطر

والمنديل لينشف يديه ، وقد تجعل له مع بعض الطعام شراباً يروق له ، وقد توصله إلى بيته بعد ذلك ، وقد تقدم له هدية ، فإسباغ النعمة إتمامها.

2 – صوَرٌ من إسباغ النِّعم:

فالله عز وجل ما خلق القمح فقط ، بل خلق القمح والشعير والمحاصيل كلها ، وخلق الورود ، والروائح العطرة ، والتوابل ، والمنكهات ، والمقبلات ، والعصافير ، وأسماك الزينة ، وأشياء تزيد على حاجاتك الأساسية ، وأشياء كي تسرّ بها ، والحدائق ذات البهجة ، والأصوات الشجية ، والروائح العطرية ، والمناظر الجميلة ، وغابات من أجل أن تمتع عينيك بها.

إذاً: إسباغ النعمة إتمامها ، فإعطاء التفصيلات ، والثانويات ، والمتممات ، والمحسنات الأحجار الكريمة ، كالماس ، فهل الماس يؤكل ؟! بل للمنظر فقط ، واللؤلؤ في البحار لماذا ؟ كي تستميل به قلب زوجتك ، خلق أشياء لا علاقة لها بحياتك اليومية ، لكن لها متعة فقط ، وهذا من باب إسباغ النعمة.

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

معنى: ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً

المعنى الأول:

لكن معنى باطنة ، الحقيقة النعم لما قال الله عز وجل:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم 34)

في الآية دقة ، كيف أقول لك: وإن تعدّ هذه الليرة ، كلمة تعد تعني ليرات ، وإن تعد هذه الليرة معنى ذلك أن النعمة الواحدة لو أمضيت كل حياتك في تعداد خيراتها وبركاتها تنقضي الحياة ، ولا تنقضي خيرات ، أو بركات نعمة واحدة ، كالعين ، والأذن ، واليد ، والمفاصل.

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ)

السرُّ في مجيء لفظ النِّعم جمعًا:

هنا جاءت نعم جمعاً ، المأوى نعمة ، والزوجة نعمة ، والأولاد نعمة ، والطعام نعمة ، وهذا اللباس والصوف والقطن نعمة ، والهواء إذا تحرك نعمة ، والأمطار ، والنباتات ، وكل شيء حولك من نعم الله عز وجل.

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا)

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

بعض النعم الظاهرة والباطنة:

نعمة الديدان في الأرض:

ظاهرة واضحة ، وباطنة أنت لا ترى ما في الأرض ، الأرض فيها ديدان ، فلو أن النوع البشري أبيد عن آخره فسوف تبقى الحياة مستمرة ، لو كان خمسة آلاف مليون إنسان ثم ماتوا فالحياة مستمرة ، أمطار ، ونباتات ، وحيوانات ، ولكن من يصدق أن الديدان في التربة لو أبيدت لتوقفت الحياة على وجه الأرض ، فهل تعرف هذه النعمة ؟ نعمة الديدان في التربة ، قرأت عنها بحثاً لا يكاد يصدق ، فالتراب يتحول إلى سماد عن طريق الديدان ، وتخليل التربة ، وتعديل الحموضة ، عشرون فائدة تقوم بها الديدان وبكميات كبيرة.

إنّ الإنسان في أثناء إصلاح حقل نباتي يجد دودة فيظنها مؤذية ، ولولا هذه الدودة لما نبت النبات ، ولما دخل الهواء إلى التربة ، ولا انقلب التراب إلى سماد ، ولا اعتدلت حموضة التراب ، إنه شيء عجيب جداً ، فالفوائد التي تقوم بها الديدان في التربة الزراعية لا تعد ولا تحصى ، وهذه لا يعلمها كثير من الناس.

البكتيريا:

والبكتيريا لا تراها أنت ، فبعض الجراثيم ضار ، وبعضها نافع ، وهي كائنات حيوية ، وحينما ألقيت قنبلة على هيروشيما توقفت التربة عن إنبات النبات ، لأنها أصبحت معقمة من البكتيريا ، وقد رأيت لوحة تعليمية وهي مكعب من التراب مرسوم في هذا المكعب عدد الكائنات الحية التي تعمل مسخرة

لخدمة الإنسان ، فيها عشرون أو ثلاثون نوعاً من الكائنات ، كلها مسخرة لتهوية التربة ، ولجعلها صالحة لإنبات النبات.

العقل:

إذاً: هناك نعم ظاهرة ونعم باطنة ، فالعقل نعمة باطنة لا يرى بالعين ، ولكن ترى أثاره ، فالعقل وما فيه من محاكمة ، ومن تصور ، وتخيل ، وتدبر ، وحكم ، ونقض للحكم ، ونشاط العقل نشاط رائع جداً، فهذا لا يرى بالعين.

إذاً: النعم الظاهرة ما تبدو لعامة الناس ، والباطنة ما لا تبدو لعامة الناس.

نعمة العين:

العين فيها ماء ، وهذا الماء يجب أن يتجدد ، وإذا تجدد لا بدّ من صنبور يغذي العين بماء جديد ، ويبعد الماء الزائد ، ولو أن هذه الفتحة ضاقت ، أو سدت فيزداد ضغط العين ، وإذا زاد ضغط العين ضاقت الشرايين المروية للعين ، عندئذ تقع مشكلات كبيرة ، فيقال لك: أول شيء افحص ضغط عينك، وأنت تعلم أن هناك جهازاً بالغ التعقيد ، ماء العين يتجدد ، وهناك ماء يصب على هذا الماء ، وفتحة تصرف الزائد منه ، ومن تناسب ما يأتي وما يذهب يكون الضغط طبيعياً ، فإذا جاء الوارد أكبر من التصريف ارتفع الضغط ، وضاقت الشرايين ، ووقعنا في مشكلة العين ، فهذه نعمة لا تعرفها أنت.

نعمة ضغط القلب والشرايين:

ونعمة الضغط ، القلب يضغط على الشرايين ، فمن جعل هذه الشرايين مرنة ، حيث إذا جاءها نبض القلب لمرونتها نبضت ، تجاوبت مع القلب ، فأصبح كل شريان قلباً آخر ، بما أن الشريان مرن جاءته النبضة فتوسع لها ، ولما توسع ومادام مرناً أراد أن يعود إلى سابق حجمه فانضغط ، لما انضغط اندفع الدم ، وكل قطعة في الشريان قلب آخر ، والقلب ينبض نبضة ، والشرايين تتابع هذا النبض ، وأنت لما تضع جهاز النبض على يدك والعقرب يشير إلى 12/8 ، 16/10 ، هل تعلم كم دقة هذه الأجهزة والأوعية التي في الجسم ، الضغط مهم جداً ، إذا ارتفع الضغط كان له أخطار كبيرة ، فمن صمم هذا الضغط ! ومن جعل هذه الشرايين مرنة ! ومن جعل بعض النباتات ، أو بعض الأغذية تساعد على بقاء هذه الأوعية مرنة ، وهو الزيت البلدي ! ومن فوائده أنه يحافظ على مرونة الشرايين والأوردة ، وهذا معنى:

(أ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

عمليات العين المعقدّة:

من يدري أن الإنسان لما يشاهد شيئاً مخيفاً تجري عمليات معقدة جداً في جسمه لا يدريها ، فالعين تبصر ، والشبكية ينطبع عليها شكل الأفعى ، فتنقل هذا إلى الدماغ ، فيدرك أن هناك خطراً ، والدماغ ملك الجهاز العصبي.

الجهاز الهرموني:

أما الجهاز الهرموني فله ملكة أسمها الغدة النخامية ، وهي تأمر غدداً أخرى ، في مقدمتها الكظر ، أن أيها الكظر ، ضيق الأوعية الدموية حتى يتوافر الدم لطاقة جديدة للدفاع أو الهجوم ، فالخائف يصفر لونه ، وأمر آخر للقلب حتى يزيد ضرباته ، فيجري الدم بسرعة ، وأمر ثالث للرئتين ليزداد وجيبها ، وأمر رابع للكبد ليطرح سكراً إضافياً في الدم ، هذه نعمة باطنة لا تدريها أنت ، رأيت شيئاً خفت منه فاصفر لونك ، ودق قلبك ، ولهثت ، فلو فحصنا الدم وجدنا فيه سكر زيادة ، وأنت لا تدري أنه حصل ذلك بأقل من لمح البصر ، فهذه نعمة باطنة.

نعمة التقلّب في أثناء النوم:

وأنت نائم تتقلب ، ما معنى تتقلب ؟ اللحم الذي فوق العظم يضغط على اللحم الذي تحت العظم وأنت نائم ، فلك جهاز عظمي ، ولك عضلات ، وشحوم فوق الجهاز العظمي ، وعضلات تحت الجهاز العظمي ، وهذه حينما تنضغط تَنضغط معها لمعة الأوردة والشرايين.
الله عزوجل أودع في الجسم أماكن ضغط ، وإحساسا بالضغط ، فتضعف التروية فالرِّجل تخدّر ، أي أنّ التروية قلّت ، فأنت نائم مستغرق في النوم تأتي هذه المراكز المضغوطة فتنبه الدماغ إلى أن هناك ضغطاً شديداً أضعف فتحة الشرايين ، فالدماغ يعطي أمراً بالتقلب ، فيتقلب النائم ستاً وثلاثين مرة ، وأنت لا تدري ، فهذه نعمة باطنة لا تعلمها أنت.

نعمة تجمُّع اللعاب في أثناء النوم:

وأنت نائم يتجمع اللعاب في فمك ، ويعلم الدماغ بذلك ، فيعطي أمراً للسان المزمار فيفتح ، ولسان المزمار من أعقد الأجهزة ، إذا أغلق فتحة المريء يفتح فتحة الرئتين ، فإذا أغلق فتحة الرئتين يفتح المريء ، بإحكام بالغ ، وأنت نائم.

طرفة العين:

طرفة العين ، كل دقيقة ست عشرة طرفة عين ، وأنت لا تدري ، الآن في بعض السيارات الحديثة إذا حصل مطر خفيف ففي كل عشرين أو ثلاثين ثانية تطلع المسّاحة مرة وترجع ، فهل معها مؤقت ؟ معها جهاز معقد ، الحركة المستمرة سهلة ، أما كل ثلاثين ثانية تطلع مرة وترجع ، فهذه العين يأتي الجفن فيمسح القرنية ، أحياناً نمسح البلور بمادة مذيبة (سبيترو)، أو الخل ، فهذا الدمع فيه مادة مذيبة دائماً ، فالرؤيا شفافة تماماً بفضل الدمع ، وهذه المسحة ، وأنت لا تدري.

نعمة السمع:

وهناك مليون نعمة في جسمك لا تعلمها أنت ، وأنت تمشي في الطريق ، وراءك سيارة ، زمّرت لك تتجه إلى اليمين هذه نعمة ، إذ في الدماغ جهاز معقد جداً يتلقى الصوت من الأذنين ، والصوت يا ترى إلى أي الأذنين وصل أولاً ، طبعاً فرق 1/ 1650 جزءًا من الثانية ، هذا الجهاز يحسب الفرق ، فإذا وصل الصوت إلى الأذن اليمنى قبل اليسرى بواحد من ألف وستمائة وخمسين جزءا من الثانية فالسيارة تكون نحو اليمين ، فتعطي أمراً للإنسان أن اتجه نحو اليسار ، وأنت لا تدري.

ومرة كنت أقود مركبة في طريق سفر ، وأمامي قطيع من الغنم ، فأطلقت البوق ، فانزاح نحو الجهة المعاكسة ، قلت: الجماعة عندهم نفس الجهاز ، ليس فقط عندنا ، انزاحت كل هذه الأغنام إلى الجهة المعاكسة.

إذا: هذا الفكر ، لو أنك أعملته في خلق الله عز وجل لرأيت العجب العجاب:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

الحوين المنوي:

الحوين المنوي فيه خمسة آلاف مليون معلومة ومبرمجة ، سنة كذا يشتد صوته ، سنة كذا ينبت له شعر ، سنة كذا ينمو الصدر ، كل ذلك بالتسلسل ، وهي صفات دقيقة جداً مبرمجة ، هذا المعنى الأول لـ:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

المعنى الثاني:

المعنى الآخر: الإكرام الظاهر معروف ، لكن الإنسان أحياناً شارد لاهٍ منحرف ، مقصر ، تأتيه مصيبة، ظاهرها مزعج جداً ، إذ يحترق محل تجاري ، فتتلف البضاعة كلها ، ويتألم ألماً شديداً فينعصر قلب التاجر بهذه الخسارة ، وعلى إثر هذه المصيبة يبدأ الصلاة ، ويعود إلى الله عز وجل ، ويقلع عن ذنوبه ، فإحراق هذا المحل الذي كان بقضاء الله وقدره كان نعمة باطنة ، ولو سألت معظم المؤمنين لوجدت العجب العجاب.

أنا أكاد أجزم أن تسعين بالمئة ممن هم مستقيمون على أمر الله استقامتهم وعودتهم كانت بسبب معالجة إلهية حكيمة مصيبة.

ربنا عز وجل يبلو الإنسان في ماله ، أو جسمه ، أو في أولاده ، أو مع مَن هم فوقه ، أو مع مَن هم دونه ، أو يأخذ منه حريته لسبب أو لآخر ، فيخرج من السجن إنسان آخر تائب توبة نصوحاً ، هذه نعم باطنة أيضاً ، وهناك نعم لا تراها ، ونِعم في ظاهرها مؤلمة ، وفي ظاهرها مصائب ، وفقر ، لكن لو كان الإنسان منحرفاً ، وأمده الله بالنعم مع انحرافه إلى أن مات ، واستحق جهنم يوم القيامة يعتب على الله:

(وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة القصص 47)

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى:

(أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر 37)

ما هو النذير ؟ وهل النذير مِن النعم ؟

النذير هو المصائب ، فالمصيبة رسول ، هناك رسول حقيقي ، وقرآن ، وعلماء ، ودعاة ، وكون ، وعقل ، وفطرة ، وحوادث ، وإلهامات ، ومنامات ، ومصائب ، وكلها تهدف إلى إيقاظ الإنسان ، إلى دفعه إلى باب الله عز وجل.

وأنواع المصائب تجتمع على محور واحد من أجل أن يتضرع الإنسان ، هذا المعنى الثاني لـ:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ

1 – معنى العلم في هذه الآية:

العلم هنا في رأي بعض المفسرين الحجج العقلية والمنطق ، لا نص ، ولا كتاب ، ولا حديث ، ولا فطرة ، بل العقل والمنطق ، ولا هدى ، الهدى الإلهام ، والله عز وجل يلهم إنساناً أن يفعل شيئاً ، هذه هداية الله.

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

(سورة طه49-50)

2 – من أعظم المصائب المجادلة بغير علم:

والهدى الإلهام ، فإما أن تملك شيئا مستفاداً من العقل ، وإما أن تملك شيئاً مستفاداً منه من الإلهام ، وإما أن يكون معك كتاب سماوي منزل من عند الله عز وجل ، فالإنسان ربما لا يفهم كلام الله ، ولا يتمتع بإلهام من الله عز وجل ، ولا يملك منطقاً راجحاً ، ومع ذلك يجادل.

قال الإمام الغزالي: **" ما جادلني جاهل إلا غلبني ، ولا ناقشت عالماً إلا غلبته ".**

هناك حجة عقلية ، فأنا أقول: عندك نقل ، وعندك عقل ، وواقع ، وفطرة ، فالواقع يؤكد الدين ، وكذلك الفطرة ، والعقل ، والنقل ، ومن أي شيء أردت ، العقل مؤيد ، وكذلك الفطرة ، والنقل ، والواقع مؤيد، فهذا الذي يجادل بغير علم أي حجة عقلية ، ولا هدى إلهام ، بعض المفسرين قال الهدى ما يقوله النبي عليه الصلاة والسلام ، فالكتاب من الله ، والسنة من رسول الله ، والمنطق من العقل ، فرجل ليس معه

عقل راجح ، ولا حجة يقينية ، ولا كتاب منير ، ولا سنة ثابتة ، وهو يناقش ، أو ليس معه إلهام ولا عقل ولا واقع.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا)

قول متكرر للمقلِّدين: بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا

1 – العادات المخالفة للدين مرفوضة:

فهذه هي العادات والتقاليد ، والعوام يقولون: هكذا تربينا ، وهكذا نشأنا ، وهكذا علّمنا أبي ، فإذا تربيت، ونشأت ، والبيئة والمحيط كان وفق الحق فأنعم وأكرم ، وأما إذا تربينا على الاختلاط ، ونشأنا عليه فهذا خلاف الدين ، وتربينا على الربا ، وعلى كسب مال حرام ، تقول: هكذا أبي علمنا ، وعلى المماطلة في الوعود ، تربينا على كذا وكذا ، هذا كلام مرفوض.

والعادات والتقاليد تأمر أن يقف العريس أمام المدعوات الكاسيات العاريات ، كلما قلت لهم هذا شرع ، وهذا أمر الله ، وهذا نهي الله ، يقال لك هكذا تربينا ، وهكذا العادات والتقاليد ، وهكذا آباؤنا وأجدادنا ، والمجتمع ، والواقع ، والعصر ، فهذه هي التقاليد وهي ليست شريطة، بل يجب أن تداس بالأقدام إذا خالفت أمر الواحد الديان ، وما قيمة التقاليد إذا كانت خلاف الشرع ؟

مرة كنت في قرية فقالوا: إنهم أحياناً يحتاجون إلى مال لشراء علف لأغنامهم ، فيتجهون إلى تجار يشترون صوف الأغنام ، فإن كان الكيلو بسبعين ليرة يأخذونه بعشر ليرات ، فهذا ربا ، ومن أشد أنواع الربا ، بالمئة خمسمئة للموسم ، استغلال حاجة الراعي إلى أقصى الحدود ، فهكذا نشأنا ، وهذه بلادنا ، وهكذا تربينا ، وتعلمنا ، فإن لم يكن هذا موافقاً للشرع فليس مقبولاً ، فعلى الإنسان أن يجري مراجعة حسب أسرته وعاداته وتقاليده ، وكل شيء موافق للشرع أهلاً وسهلاً به ، أما إذا كان مخالفاً فيجب أن ننبذه إذا كنت مؤمناً بالله عز وجل.

طبعاً بيع السلم مشروع بالمناسبة ، وهو أحد أبواب الفقه ، كأن تشتري البضاعة وتدفع الثمن معجلاً وتأخذ البضاعة مؤجلاً ، هذه مشروعة لكن لها شروط ، إذا خالفت شروطها انقلبت إلى بيع محرم ، جئت بهذا كمثل ، وهذه المنطقة هكذا يتعاملون ، ومنطقة ثانية يؤجر بيته بلا أجرة ، يأخذ خمسمئة ألف ليرة مالاً يجمده ، ويتاجر به إلى أن يخرج المستأجر ، فهذه علاقة غير مشروعة ، من أين جئت بها ؟ هذا المال الضخم الذي تستثمره لمصلحتك مقابل إيجار بيت ، أو أحياناً ينتفع بالرهن ، وهذا أيضاً خلاف المشروع.

مع بُعدِ الناس عن الله عز وجل ظهرت علاقات مالية غير صحيحة ، في البيع والشراء ، وعلاقات اجتماعية ، وعادات تقاليد ، فيجب أن نعيد الفحص لكل شيء ألفناه عن آبائنا وأجدادنا.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ

لعل آباؤهم كانوا ضالين ، لعلهم كانوا جاهلين ، ولعل الشيطان تمكن من آبائهم ، ودعاهم عن طريق آبائهم إلى عذاب السعير أيليق بنا ذلك.

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (10-13): تفسير الآيات 21 - 26

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-07-19

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس العاشر من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

نقاط تذكيرية للدرس السابق:

النقطة الأولى: الكون مسخّر للإنسان:

اتضح لكم في الدرس الماضي كيف أن الله سبحانه وتعالى سخر الكون كله لهذا الإنسان، والمسخّر له دائماً أكرم على الله عزوجل من المسخّر، إذاً: الإنسان هو المخلوق الأول.

النقطة الثانية: تسخير التعريف وتسخير التكريم:

أن هذا التسخير هو تسخير تعريف وتسخير تكريم، ورد فعل التعريف هو الإيمان، ورد فعل التكريم هو العرفان والشكران، لذلك قال الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء 147)

إذا عرفت، وشكرت حققت الهدف من وجودك، إذا عرفت، ولم تشكر كمعظم الناس، أو أن تشكر من دون أن تعرف هذا لا يكون.

النقطة الثالثة: كل شيء في الكون يرشد إلى الله:

إذاً: الكون مسخر من أجل هذا الإنسان تسخير تعريف وتسخير تكريم، عن هذا عبّر النبي صلى الله عليه وسلم، فكان إذا:

((رَأَى الْهِلَالَ قَالَ: هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ، هِلَالُ خَيْرٍ، وَرُشْدٍ هِلَالُ خَيْرٍ))

[سنن أبي داود عن قتادة]

ينفعنا في الدنيا، ويرشدنا إلى خالقنا، وهذا يجب أن ينطبق على كل شيء في الكون، فإذا أمسكت بكأس ماء، وشربته فهذا الماء خير لجسمك، ورشد إلى ربك، الطعام الشراب، ابنك، الشمس، القمر، الأسماك، الأطيار، النباتات، الأشجار، الخضراوات، أي شيء تراه عينك خير لك، أي مسخر لك تكريماً وتعريفاً، فينبغي أن تؤمن، وأن تشكر، فإذا آمنت، وشكرت توقفت عنك المعالجة.

عندما يقرر طبيب استئصال كلية لمريض، والدليل أنها متوقفة عن العمل، قبل أن يجري العملية لا بدّ من صورة جديدة، فإذا صورت الكلية مجدداً، واتضح أنها تعمل هل بقي للعملية مسوغ ؟

آية رائعة جداً:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

هذا العذاب، هذا الضيق، هذا الفقر، هذا الإلجاء، هذه المشكلات التي تضغط على الإنسان لماذا ؟ الجواب واضح:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

هناك ضعف في الإيمان، أو ضعف في الشكر، إذاً: هذا معنى قول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

النقطة الرابعة: علاقة الإنسان بالمجرات البعيدة:

قد يسأل سائل: ما علاقتنا بالمجرات البعيدة ؟ وكيف أنها سخرت لنا ؟

الإجابة عن هذا السؤال: إما أن يكون التسخير مباشراً أو غير مباشر.

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

النقطة الخامسة: معنى النعم الظاهرة والنعم الباطنة:

المعنى الأول:

حدثتكم في الدرس الماضي كيف أن هذه النعم الظاهرة التي تعارف الناس على أنها نعم،كنعمة الصحة والفراغ، والمال والوجاهة، والمكانة والزواج الناجح والأولاد الأبرار، والمنزل الواسع، هذه كلها نعم، ألوان الأطعمة والأشربة هذه ظاهرة، أما الباطنة هناك من النعم الباطنة ما لا سبيل إلى حصره، بالمعنى الأول نعم، البكتيريا في الأرض، الخلايا التي في الدماغ، الأجهزة الدقيقة جداً في جسم الإنسان هذه نعم لا تعرفها أنت إنها نعم باطنة.

المعنى الثاني:

أن كل مصيبة يسوقها الله عز وجل للإنسان تكون هذه المصيبة سبباً في هدايته، إنها من النعم الباطنة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ، وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ، وَكَانَ خَيْرًا))

[مسند الإمام أحمد]

النقطة السادسة: معنى: وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ

أما معنى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ)

فإنّ إسباغ النعمة إتمامُها وتوسعتها.

أحياناً بعد أن تأكل يُقدّم لك الفواكه، وبعد الفواكه الحلويات، وبعد الحلويات القهوة أو الشاي، وبعدها تُعطّر، وبعدها تودّع إلى خارج البيت، وقد تعطى هدية، والعوام يقولون: المعروف بالتمام.

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ)

أي أتمها وأعطاكم تفصيلاتها وجزئياتها ظاهرة وباطنة.

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللّهِ)

النقطة السابعة: مع كلّ هذه النعم وكان الإنسان أكثرَ شيء جدلاً:

كل هذه النعم، نعمة الوجود، نعمة الإمداد، نعمة الإرشاد، نعمة الأمن، نعمة الاستقرار، نعمة الأجهزة السليمة، نعمة الحياة الأسرية، نعمة أنك وجدت لتعرف الله عز وجل، نعمة أنك المخلوق الأول المكرم، كل هذه النعم ومع ذلك فأنت ـ أيها الإنسان ـ تجادل.

مرة كنت أودِّع صديقاً لي في المطار، رأيت طفلاً صغيراً يركض في أبهاء المطار، وسطه كرة، وضع له فوط كثيرة، والسبب معروف، قلت: هذا الطفل بهذا المنظر حينما يكبر، ويصبح شخصية مهمة، وينسى أن الله خلقه من لا شيء، أو خلقه من ماء مهين، ينسى أن الله عز وجل أنعم عليه بالإيجاد، أنعم عليه بالإمداد، كل هذه النعم ينساها، ويجادل، ويقول لك: هات دليل مادي على وجود الله!

انظر كيف يكفر الإنسان.

قيل: يا إمام: متى كان الله ؟ فقال: ومتى لم يكن، متى غاب حتى يحتاج إلى دليل.

المؤمن يرى الله في كل شيء،

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

***

حينما يكبر الإنسان ينبغي أن لا ينسى طفولته، كيف كان ضعيفاً، كيف أودع الله في قلب أمه الرحمة، كيف سخر له أباً يعمل بجد، تعب ليقدم له حاجاته الأساسية، كيف عاش بين أسرة تحبه، كيف أسبغ عليه جمالاً ووداعة، ولطفاً وصفاءً وذاتية، الأمر الذي جعل أهله يقدمون له كل ما يحتاج عن طيب خاطر، أليست هذه نعم جليلة !

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاس)

والآية دقيقة جداً، لم يقل: والناس، قال: ومن الناس، بعض المعرضين، بعض الكفار، بعض المنافقين، بعض المقصرين، بعض المشركين.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

النقطة الثامنة: المجادلة في الله بغير علمٍ مِن أعظمِ الذنوب:

لا يملك حجة عقلية دامغة، لأن العقل مقياس أودعه الله فينا، ومستحيل أن يأتيك العقل بحجة على عدم وجود الله، بالعكس الإيمان بالله بالفطرة وبالعقل وبالواقع وبالنقل، فهذا الذي يجادل بغير علم، أيْ لا يملك حجة منطقية صحيحة مقنعة على ما يذهب إليه، دعوته هواء، دعوته بلا أساس، دعوته بلا مقدمات صحيحة، إذا توصل إلى نتائج فالمقدمات غير صحيحة، والمقدمات لا تؤدي إلى هذه النتائج.

ليس من الممكن أن يملك الإنسان عقلاً راجحاً وأن يهديه عقله إلى الضلال... هذا مستحيل، إلا أن يجعل من عقله أداة لشهواته، العقل المطلق لا يمكن إلا أن يوصلك إلى الله، أما العقل الذي يسخره الإنسان لمصالحه فإنه ينطق عن الهوى، والنبي عليه الصلاة والسلام بماذا وصفه الله ؟

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم 4)

أمّا في آخر الزمان فهناك أشخاص كثيرون، وما أكثرهم ينطقون عن الهوى، ويتحدثون بحديث يخدم مصالحهم، ويركز فيهم شهواتهم، إذاً: كلامهم أساسه الهوى، وليس أساسه الحق، لذلك قالوا: هناك منطق تبريري، وهناك منطق تقريري، إذا كنت حيادياً ومنطقياً يكون عقلك هادياً لك إلى الحق، أما إذا أردت أن تكون الشهوات هي الأصل، وأنت مصرّ عليها عندئذ تستخدم العقل الذي أودعه الله فيك تبريراً لشهواتك، ولكن هذه الحجج المزيفة لا تلبث أن تتهافت أمام النقل الصحيح وأمام المنطق القوي.

فإذا أردت أن تجادل يجب أن تجادل عن علم، فلان طبيب متخصص، متبحر، متفوق، فإذا أراد أن

يكشف أن في القرآن خللاً، ولن يستطيع ذلك، ما من آية وردت في كتاب الله إلا والحقائق العلمية القطعية الدامغة تؤيد كلام الله عز وجل، القرآن كلام خالق الكون، والأفعال أفعاله، والكون خلقه، والفطرة طبيعة أودعها الله في الإنسان، إذاً: لا بدّ من أن تلتقي حقائق الكون مع حقائق القرآن مع حقائق الفطرة.

إذاً:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

النقطة التاسعة: ما هو الهدى في هذه الآية ؟

القول الأول:

الهدى كما قال بعض العلماء: السنة، أي ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، ليس متبحراً في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله، ولا يملك الحجة الدامغة.

القول الثاني:

وبعضهم قال: الهدى الإلهام، لا إلهام له، ولا علم له، ولا يستند إلى كتاب من عند الله عز وجل، وكأن الله عز وجل بهذه الكلمات الثلاث أشار: إما إلى علم تجريبي مستنبط من الواقع، وإما إلى إلهام إشراقي، وإما إلى علم بكتاب الله عز وجل يقيني، فإن لم تملك علماً بكتاب الله، ولا إشراقاً نفسياً، ولا علماً منطقياً بحجة دامغة فلماذا تجادل ؟

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)

النقطة العاشرة: اتباع التقاليد حجة الجاهلين والضعفاء:

انظر، الناس دائماً يألفون ما شبوا عليه، فكل إنسان شبّ على شيء شاب عليه، التكليف مُكلف، التكليف يحتاج إلى إرادة، أما إذا ضعفت الإرادة، والإنسان أراد أن ينساق مع بيئته مع مجتمعه، مع معطيات محيطه، أن ينساق مع ما ألِفه، ومع ما نشأ عليه هنا المشكلة، أن يعطل الإنسان عقله، وأن ينساق مع محيطه، لذلك يميل الناس.

الديانات الوضعية الأرضية التي تؤلّه أشخاصاً أو أصناماً لماذا هي منتشرة ؟ هذا سؤال كبير، ديانة السيخ مثلاً في الهند، والهندوس، ديانات كثيرة جداً تؤمن بصنم، تؤمن بإله من بني البشر، إما الشمس، أو القمر، أو البقر، وبالمناسبة أكبر قطيع بقر في العالم موجود في الهند، 360 مليون بقرة، لأنهم يعبدونها من دون الله، ولا يذبحونها، فهي تعيش في بحبوحة، وفي رعاية تامة لجهل أهلها.

إذاً: لماذا يؤثر الناس أن يتبعوا هذه الديانات ؟ لأنها بلا منهج، بلا أمر، بلا نهي، افعل ما تشاء وصدقنا، اعتقد بنا وافعل ما تشاء، فالقضية غير مُكلفة، أما المؤمن حينما يقرأ كلام الله عز وجل فالإله له أمر ونهي، الشهوات يجب أن تنضبط بالشرع، كسب المال يجب أن ينضبط، الحركة منضبطة بمنهج، لذلك الدين الحقيقي مكلف، لأن الجنة لها ثمن باهظ، من طلب الجنة بغير عمل فقد أذنب، طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب.

تجد الدعوات الأرضية انتشارها واسع جداً، السبب: أن هذه الدعوات لا تكلفك شيئاً، تعطيك الحرية أن تفعل ما تشاء، أن تنطلق في الحركة كما تشاء، افعل ما تشاء، وكن موالياً لنا، اعتقد بنا وانتهى الأمر، لكن منهج الله عز وجدل ليس كذلك، منهج الله عز وجل يأمرك وينهاك، فلذلك لا بدّ للأنبياء من أعداء.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنْ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الفرقان 31)

هؤلاء المتضررون من دعوات الأنبياء يعادون الأنبياء.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)

لا تشريع إلا ما شرع الله ورسوله

بأمر الله، ليس هناك زنى، ليس هناك خمر، ليس هناك عدوان على الأموال، ليس هناك ربا، ليس هناك تجاوز، ليس هناك أكل مال بغير حق، ألا إن سلعة الله غالية، الجنة ثمنها باهظ، وهو أن تنضبط، وسمي التكليف تكليفاً، لأنه ذا كلفة، وما من أمر إلهي إلا ويتعارض في ظاهره مع طبع الإنسان، الطبع يميل إلى النوم الأمر قم وصلِ الفجر، الطبع يميل إلى أكل المال التكليف أنفق المال، الطبع يميل إلى إطلاق البصر التكليف غض البصر، الطبع يميل إلى إخراج الغيظ الأمر كظم الغيظ، الطبع يميل إلى الزوجة، ويكره الأم، وقد تقدم بها السن، وأصبحت عبئاً، والتكليف أمر ببرّ الوالدين، الطبع يقول لك: تحدث عن فلان، ماذا فعل، فقصته رائعة جداً، تسلي الحاضرين، تحدث عنها، والتكليف ولا يغتب بعضكم بعضاً، الطبع والله فلان له شكل مضحك، قلّده، أضْحك الآخرين، و التكليف:

(وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ)

(لاَ يَسْخَرْ قَوْمُ مِنْ قَوْمٍ)

إذاً: حينما تطيع الله عز وجل تبذل كلفة، وهذه الكلفة هي ثمن الجنة، تصور أن أمر الله عز وجل يتمشى مع طبعك تماماً، لا تُعدُّ هذه الطاعة طاعة، لا قيمة لها إطلاقاً، تصور إنساناً في درجة عطش شديد، وقلنا له: إن الله يأمرك أن تشرب الماء البارد، يقول: الله يجزيك الخير، ماذا فعل هذا ؟ إنسان عطشان، وأبلغته أن أمر الله أن يشرب ماءً بارداً، فإذا جاء أمر الله عز وجل موافقاً للطبع لم يعد طاعة، ولا قيمة لهذا الأمر، لذلك أمر الله مكلف، قال عليه الصلاة والسلام:

((إن عمل الجنة حزن بربوة، وإن عمل النار سهل بسهوة))

[مسند أحمد عن ابن عباس]

إن الإنسان يتعامل مع شهواته، مع بيئته، مع تقاليده، مع عاداته، مع ما نشأ عليه، مع راحة جسده، مع متطلبات نفسه، فتجد أن عمل النار سهل بسهوة، وليس غريباً أن تجد مشقة في طاعة الله، المشقة في طاعة الله هي ثمن الجنة، فلذلك:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا)

الاختلاط محبب للإنسان، طبعاً إذا كان بمنطق الشهوة، إذا كان الإنسان جالساً في مجلس فيه نساء يبدو منهن ما يجب أن يخفى، وهو يُمَتِّع نظره بهن، هذه الجلسة المختلطة أحب إلى نفسه من عدم الاختلاط، لكن الله عز وجل نظم لك العلاقات الاجتماعية، وجعل شهواتك التي أودعها فيك لها قنوات نظيفة، هذه الشهوة مسموح لك أن تستمتع بها مع زوجك فقط، وما سوى ذلك يجب أن تغض البصر، أما أهل الدنيا فكل ذلك عندهم مباح.

فلذلك حينما يستقيم الإنسان على أمر الله يشعر أنه عمِل عملاً عظيماً، يشعر أن الله يحبه، أن الله راض عنه، حينما يترك شهوات الدنيا يتجلى الله عليه بسعادة عليا، لذلك قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى: **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عيه بالسيوف ".**

كنت أقول لكم من قبل: حياة المؤمن نظيفة، ليس في حياته التواء، وخيانة، وموقف مبطن، وخداع، وعلاقات مشبوهة، وعمل في الظلام، وبيت آخر غير بيته الصحيح، وامرأة أخرى في حياته غير زوجته، حياة المؤمن حياة نظيفة واضحة، فلذلك أكبر غلط يقع فيه الإنسان أن يعدّ ما ألفناه في بيئتنا مشروعاً، يجب أن تزين ما ألفته في بيئتك بميزان الشرع، هكذا المؤمن، والله الناس كلهم هكذا، يقولون: هذا كلام مضحك، هكذا نشأنا، هكذا تربينا، هكذا أهلي، هكذا أبي علمنا، هكذا عشنا في بيت واحد، لا يوجد عندنا حاجب وبواب، نحن لا نحب التفرقة، هذا كله كلام غير مقبول، من أنت حتى تشرع ؟ خالق الكون شرع لك، لذلك لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، يقول لك: هذه مثل أختي، لا، ليست مثل أختك، هذه أجنبية عنك، أختك من أمك وأبيك.

(إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ)

[سورة المجادلة: 2]

لا أن لا يتجاوز الإنسان الحدود، وألا يتعدى، وألا يشرع، وألا يقنن من عنده، وألاّ يتفلسف على الشرع.

(قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ)

(سورة الحجرات 16)

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)

الحقيقة أنّ المؤمن أيها الإخوة الأكارم كما وصفه الله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب 36)

من أولى صفات المؤمن أنه إذا ثبت له أن هذا كلام الله، وأن هذا الكلام هكذا تفسيره عندئذ يُلغى اختياره، تختار أن تشتري هذا البيت أو هذا البيت، أن تخطب هذه الفتاة، أو هذه الفتاة، أن تسافر أو لا تسافر، أن تعمل أو لا تعمل، أما أن تختار أن تطيع أو لا تطيع فليس هذا من شأن المؤمن.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

إذا كنت مؤمناً حقاً فليس لك خيار أمام أمر الله عز وجل لك، إذا كنت مؤمناً حقاً أمام أمر الله، وما صح من حديث رسول الله، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ليس لك رأي، تقول: أنا رأيي كذا، معقول هذا الحكم، أم غير معقول ؟ الوقت صعب، نحن في آخر الزمان، العالم تبدل، العصر عصر علم، لم يعد هناك هذه التعقيدات، هذا كله كلام الجاهلية، إذا كان هذا أمر الله ثابتاً عندك يجب أن يُلغي اختيارك، هذا معنى الآية.

(قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

لا دعوة للشيطان إلا إلى النار:

الشيطان يدعوهم عن طريق التمسك بآبائهم وأجدادهم وتقاليدهم وعاداتهم إلى عذاب السعير، وأقرب مثل إلينا دمشق المسلمة المؤمنة، يقول لك: هذه الشام الشريفة، والدين في الشام، إذا كنتَ ترى العريس إذا لم يدخل بين النساء الكاسيات العاريات، ولم يجلس على كرسي أمام كل هؤلاء النساء شبه العاريات فعمله مستهجن في رأي الناس.

وقد تجد في بعض الحفلات يقولون: نريد أن نصور المدعوات، وهنّ في أبهى زينة، ونقتني الشريط ونعرضه، هذه امرأة فلان، أيُّ دين هذا ؟ أيُّ شرع هذا ؟ هكذا التقاليد الآن، إذا لم يكن في حفلة العرس

تصوير فليس لها بهجة، والتصوير يعني أن كل هؤلاء النسوة يعرضن أمام رجال أجانب، ويراها في أبهى زينتها.

فلذلك أيها الإخوة الأكارم... ما دمنا وصلنا إلى هذه الآية، هذه التقاليد البالية والعادات والأعراف، وأصول الاستقبال، دخل إلى البيت الزوج فقالت: ليس هنا، تفضل، أهلاً وسهلاً، تستقبل الزوجة صديق زوجها قبل أن يأتي، كل هذه الصفات، كل هذه المعطيات الغربية التي جاءتنا من الغرب، هذه لا أصل لها في الدين، فالمسلم الحقيقي الذي يطبق أمر الله ويجعل من بيته بيتاً مسلماً، قال تعالى:

(أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)

دعوةٌ من القلب إلى تطبيق عمليّ لهذه الآية:

أرجو أن يكون هناك تطبيق عملي لهذه الآية، الذي أتمناه على كل أخ حاضر، وهو يعلم أن سماع الدرس سهل، أما البطولة فأن تأخذ هذا الكلام مأخذ الجدية، أن تتعامل مع هذا الكلام تعامل رجلٍ، لا حل وسط في هذا الأمر، إما أن تردّ عليه، وإما أن تتبناه، إن كان معك حجة فردّ عليه، وأنت بين أمرين، إما أن تكون مع شرع الله، أو مع التقاليد والعادات، وكم من شاب انتكس نكسة كبيرة، لأنه استجاب لأهله، وأذعن إلى عاداته وتقاليده.

إنّ أي مجتمع إذا بنِيَ على معصية، فهؤلاء المجتمعون على معصية لصالحهم ألا يسمحون لآخر يطيع الله بينهم، لأنه إذا أطاع الله بينهم كشفهم، وعرّاهم، لذلك ينقَضُّون عليه، والمجتمع الغارق في المعصية ينقض على كل إنسان يريد أن يقيم أمر الله عز وجل، يتهمونه بالتعصب، يتهمونه بالتزمُّت، يتهمونه بالمحدودية، يتهمونه بأنه لا يعيش روح هذا العصر، وليس واقعياً، هذا كلام أهل الدنيا.

فلذلك لا تذوق طعم القرب من الله عز وجل، لن تقطف ثمار الدين إن لم تستقم على أمر الله، إن لم تضع كل العادات والتقاليد، وهذا الذي جاءتنا من الغرب (الإتيكيت)وتعاملات، إن لم تضع كل هذا تحت قدمك فلن تكون مؤمناً، من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس فيه، فإذا أردت التطبيق العملي لهذه الآية فراجع نفسك، هل في بيتك معاصٍ ومخالفات وتساهلات إيثاراً للعادات والتقاليد التي نشأت عليها على شرع الله وأمره ؟

صورٌ من واقع اتباع التقاليد على حساب الشرع:

1 – الاختلاط:

نحن نخجل أن نقول: إن زوجتي أجنبية على فلان، نستحي أن لا نجلس في جلسة مختلطة، كيف بالإمكان أن تصلي صلاة فيها إقبال على الله عز وجل، وقبل قليل كنت في معصية، مع أنه لا يحق لك أن تنظر إلى امرأة أجنبية لا تحل لك، فضلاً عن أن تلقي بعض الكلمات المضحكة، وأن تضحك الحضور نساء ورجالاً، والاختلاط هو أحد أنواع المعصية.

2 – عاداتٌ في البيع والشراء:

في البيع والشراء هناك كثير من عادات، يقول لك: بذمتي، بأمانتي، وكلها أيمان كاذبة، هكذا السوق كله، وإذا ما كذبنا لا نربح، من قال لك ذلك ؟ كل حرفة فيها معاصٍ كثيرة، هذه فيها غش، وهذه فيها كذب، وهذه فيها وعد كاذب، هذه فيها تدليس، هكذا أهل الحرفة يقولون، حتى في بعض المهن هناك فروق، وبعض المخالفات، تجده ماشياً حتى في بيع السّلَم، بيع الوعد.

3 – مقالة إبليسية: هكذا الناس !!!

أنا أتمنى، أن نترك كلمة: (هكذا الناس)، نحن مع المجموع، هكذا نشأنا، هكذا أهل قريتنا، هكذا علّمني أهلي، أين تسير ؟ قف، وراجع كل علاقاتك، راجع كل العادات والتقاليد، راجع كل المعطيات في البيت وفق كلام الله عز وجل، هذا إذا كنت مؤمناً صادقاً، إذا أردت وجه الله عز وجل، إذا أردت أن تقطف ثمار إيمانك، إذا أردت أن يحبك الله ورسوله، فلا تقبل شيئاً إلا بدليل قطعي، ولا ترفض شيئاً إلا بدليل قطعي.

4 – من تقاليد الجنائز غير المشروعة:

النبي عليه الصلاة والسلام ماذا قال ؟ قال:

((اصْنَعُوا لِآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا، فَإِنَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ أَمْرٌ شَغَلَهُمْ))

[أبو داود عن عبد الله بن جعفر]

هذا أمر نبوي ؛ أن يقدم الطعام لأهل الميت، الآن بالعكس، أهل الميت فوق مصيبتهم الكبيرة التي قصمت ظهرهم عليهم أن يهيئوا طعاماً لكل من عزّاهم، هذا الطعام أنا أتمنى ألا تحضروه، لأنه خلاف الشرع، الشرع يقول:

((اصْنَعُوا لِآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا، فَإِنَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ أَمْرٌ شَغَلَهُمْ))الأولى أن يقدم الطعام لأهل الميت، لأنه جاء ما يشغلهم، أما أن يكلف أهل الميت بإطعام الطعام، وتأمين الطعام الطيب والحلويات والفواكه والطاولات والكراسي فهذه مخالفة للسنة، هذه عادة من عاداتنا السائدة في مجتمعنا المخالفة للسنة.

5 – من تقاليد عيادة المرضى:

قد يزور الإنسان مريضاً، والنبي الكريم يقول:

((من عاد مريضاً فأكل عنده شيئاً فهذا حظه من عيادته))

[الجامع الصغير عن أبي أمامة بسند ضعيف]

هكذا التوجيه، لكن الناس يقولون: هل من المعقول ألاّ نضيفه قهوة ؟ هذه غير معقول، هذا جاء يعود هذا المريض، وفي التوجيه النبوي حِكَمٌ نبوية كبيرة جداً، لعل هذا العائد الذي يعود هذا المريض يخشى من العدوى، فإذا قُدِّم له شرابٌ قد يتحرج، فقد يكون معه التهاب كبد، أو مرض مُعْدٍ، أنا لا أريد أن أشرب شيئاً، لا يمكن، أنت ضيفنا ! أهلاً وسهلاً، يا أخي هذا توجيه النبي عليه الصلاة والسلام، فقد يتحرج الزائر من أن يأكل شيئاً خوف العدوى، وقد يقدم فاكهة طيبة أمام المريض، وقد منع منها فيزداد ألمه، وقد يكلف أهل المريض في أن يقدموا الضيافة، وهم في شغل عن تضيف الضيوف، فالنبي الكريم وجهنا أنك إذا عدت مريضاً ينبغي ألا تأكل عنده شيئاً، فإذا أكلت شيئاً فهذا حظك من عيادته، ومن عاد مريضاً فكأنما خاض في الرحمة خوضاً.

6 – من التقاليد الخطيرة في السعي في التزويج:

الآن الكلام الشائع: امش في جنازة ولا تمشي في زوج، ماذا تريد بوجع الرأس، غداً يتعبونك، العريس والعروس أخي أنت كنت السبب تعال وحلّ مشكلتنا، اسمع ماذا قال النبي، قال عليه الصلاة والسلام:

((من مشى بتزويج رجل بامرأة كان له بكل كلمة قالها، وبكل خطوة خطاها، عبادة سنة، قام ليلها وصام نهارها))

[ورد في الأثر]

هكذا توجيه النبي، نحن بحاجة ماسة إلى السنة النبوية، أن نعود إلى السنة، كيف عامل النبي أصحابه، لا تقل: أنا ما عرفوا قدري، من أنت ؟ النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((وأنا عليّ جمع الحطب، فقال أصحابه نكفيك، قال: لا، أعلم ذلك، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

الآن العادات والتقاليد احتلت الدرجة الأولى، هذا أول صف، هذا بطاقة بيضاء، لا الناس سواسية كأسنان المشط، فإذا أردت من هذا الكلام أن نعيد حساباتنا، حتى في احتفالاتنا، حتى في مناسبات الحزن، والفرح، الأعراس كلها، الأعراس فيها حفلات اختلاط، وفي الأعراس تصوير، وبالأعراس دخول العريس أمام المدعوات، هذا كله خلاف السنة، تجد شاباً تقياً، أحيانا الخطيب يُثني عليه في عقد القران، عائلة تقية مستقيمة ورعة، بعدها تجد ستة أو سبعة من المعاصي كبيرة ظهرت من هذه الأسرة.

شروط قبول العمل: الإخلاص والصواب:

نحن نريد أن نراجع حساباتنا في كل علاقاتنا، في كل دخولنا، في كل إنفاقنا، في كل نشاطاتنا وفق السنة، لذلك ربنا عز وجل قال، وَ والله إنها لآية تقصِم الظّهر، قال تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

[سورة الفرقان 23]

هناك أعمال كالجبال تصبح يوم القيامة هباءً منثوراً، سئل الفضيل بن عياض عن معنى هذه الآية فقال:

" كل عمل لا يكون صواباً ولا خالصاً لا يقبل، أما خالصاً فهو ما ابتغي به وجه الله، وأما صواباً فما وافق السنة ".

الصواب أن يوافق السنة، إذاً يجب أن تعرف السنة، يجب أن تعرف سيرة النبي، القصة المشهورة كلكم تعرفونها: ببدر الرواحل قليلة والنبي عليه الصلاة والسلام أمر أن يتعاقب كل ثلاثة على راحلة، وقال أنا وعلي وأبو لبابة على راحلة، فلما جاء دوره في المشي توسلا إليه أن يبقى راكباً، قال: ما أنتما بأقوى مني على السير، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر.

إذاً: هل عندك استعداد أن تسوي نفسك مع الناس في كل شيء، أن تكون واحداً منهم حتى في بيتك هكذا السنة؟

كان صلى الله عليه وسلم إذا دخل بيته لف ثوبه، قال:

((أكرموا النساء، فوالله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، يغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً، من أن أكون لئيماً غالباً))

[ورد في الأثر]

هكذا السنة، السنة:

(وَعَاشِرُوهُنّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة النساء: 19)

والمعروف في هذه الآية لا أن تمتنع عن إيقاع الأذى فيهن، بل أن تحتمل الأذى منهن. : أردتُ من هذه الآية أن نجري حسابات دقيقة، ومراجعات عميقة لكل علاقاتنا، واحتفالاتنا، وأفراحنا، وأحزاننا، وكسب أموالنا وإنفاقها، وكل نشاطاتنا، يجب أن تقع وفق الكتاب والسنة.

الإسراف مثلاً، هل سمعت ما قلته اليوم في الخطبة:

(إِنّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

(سورة الأنعام 141)

إذا أسرفت في كل شيء فالله لا يحبك، هذا مال، هناك من هو في أشد الحاجة إليه، إن أعطيت ما فاض عنك إلى فقير ارتقيت عند الله عز وجل، أنت كل واشرب، لكن من غير إسراف ولا مخيلة، أنفق، ولكن وفق الأصول.

(وَالّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)

(سورة الفرقان67)

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللّهُ قَالُوا بَلْ نَتّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السّعِيرِ (21) وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (22))

وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى

هذه الآية دقيقة جداً.

1 – ما هي العروة الوثقى:

الإنسان أحياناً يتمسك بعروة، هذه العروة ليست وثقى تنخلع بيده، فق يتمسك الإنسان بشيء، فإذا بهذا الشيء ينفلت ويهوي، إذاً: هذه العروة غير وثقى، أحياناً تربط مقطورة بقاطرة، فهذه الحلقة الثخينة جداً في مؤخرة السيارة هي عروة، لكن بلغني أن هناك معامل في أوربا متخصصة في صناعة هذه العُرَى، لأنه يُجرّ بها مقطورة، وزنها عشرون طنًا، فإن لم تكن وثقى تدهورت المقطورة، إذاً: هناك معامل لا تصنع إلا هذه العروة، وهي متخصصة في صناعتها من أصلب المعادن، ومن أشد أنواع الخلائط متانة وقساوة.

فالعروة الوثقى، هي الشيء الذي تتمسك به، فإن لم يكن هذا الشيء متيناً انفلت بيدك وهويت معه، أما ما هو الشيء الذي إذا فعلته كأنك تمسكت بعروة وثقى تنجيك إلى يوم القيامة وإلى الأبد ؟ قال:

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)

من التمسك بالعروة الوثقى: وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ

أحياناً يطيع الإنسان الله عز وجل، لكن وجهته إلى الدنيا، الآية دقيقة جداً، العبرة أن تطيع الله، وأن تتجه إليه، هذا يسمونه أن تكون ربانياً، هناك شخص شهواني، وشخص رباني، معنى رباني أن تحسن العلاقة مع الله إلى أقصى درجة عن طريق الإقبال عليه، والعبادة في بعض تعريفها غاية الخضوع مع غاية الحب، مع غاية الرضا، مع غاية الاستسلام، طاعة وحب، ورضا واستسلام، وتفويض وتسليم، وإقبال وصبر وشكر..

إذاً:

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ)

معنى: وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ

يعني يقبل عليه بكل وجهته، بكل إمكاناته، بكل طاقاته، بكل أوقاته، بكل استعداداته.

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ)

إذا كانت الأم في حديقة، وابنها يلعب، تجد هذه الأم مع ابنها، تحدثها فتقول لك: والله ما انتبهت، تشعر أنها ليست معك، إذا كان لك أخت أو قريبة تشعر أنها ليست معك، هي متجهة إلى ابنها، هذه صورة من الصور الاتجاه، أحياناً تكون عين الإنسان على ساعة، على عداد يملأ البنزين، وهو غالٍ، ومعه مبلغ محدود، فإذا غفل يطالب بأكثر مما معه، فتجد عينه على العداد، لو أنك تكلمت تجده ليس معك، إسلام الوجه الاهتمام الشديد، الإقبال، الانصراف بالكلية، الاهتمام.

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللّهِ)

عرف الله فأقبل عليه، عرف أن الله كل شيء، وليس غيره كل شيء، فلان ليس على شيء، أيْ أنه ما عرف الله عز وجل، لأنك إذا عرفت الله عز وجل عرفت كل شيء، ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء.

إذا عرفت الله عز وجل، إذا عرفت أنه الحقيقة الوحيدة في الكون، الحقيقة الدين أن الله هو الحقيقة الكبرى، وكل شيء يقرب إليه فهو مشروع، وكل شيء يبعد عنه فهو غير مشروع، ملخص دينك: إلهي

أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، فأي شيء يقربني إليك فأنا متمسك به، وأي شيء يبعدني عنك فأنا مبتعد عنه، هذا هو المؤمن.

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ)

لا تسليم للوجه إلا بعد معرفة الله:

ولكنك لن تستطيع أن تسلم وجهك إلى الله عز وجل إلا إذا عرفته، أحياناً تدخل إلى جهة لك مصلحة مع المدير العام، تجد ثلاثة مع بعضهم، يا ترى مَن المدير العام ؟ تنتقي أطول واحد، أوجه واحد، تلتفت إليه باهتمام، تخاطبه، يقول لك: ليس لي علاقة، حدِّثْ فلانا، فتنصرف عنه فوراً وتلقائياً إلى صاحب القرار، فالمشكلة يجب أن تعرف الله، إذا عرفت أن الله بيده كل شيء أسلمت وجهك إلى الله، فإذا ظننت أن زيداً وعبيداً أو فلاناً يملكون أشياء كثيرة كيف تتجه إلى الله عز وجل، إذاً: لن تسلم وجهك إلى الله إلا إذا وحدته، واعلم أن الدين كله توحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، إذا عرفت أن الأمر كله بيد الله ارتحت وأرَحت، قال:

(وَهُوَ مُحْسِنٌ)

ما هو الإحسان ؟

العلماء حملوا هذه الكلمة الطاعة والإحسان، الأولى حالة قلبية نفسية، عرف الله فأقبل عليه، الحالة الثانية سلوكه أساسه الطاعة والإحسان، إذا عرفت فاتجهت وأطعت وأحسنت، هذا الإنسان:

(فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى

أي أمسكت بقارب النجاة، أمسكت بحبل الأمان، وصلت إلى مخرج الأمان، وصلت إلى المبتغى، وصلت إلى الطمأنينة، وصلت إلى السلام، والله يدعو إلى دار السلام، من منّا لا يتوق إلى السلام ؟! أن يعيش حياة معافى في جسمه، موفقاً في زواجه، مستمتعاً بأولاده الأبرار، له مكانته الاجتماعية، يحبه الله ورسوله، يرى إذا توفاه الله له عند شيء هكذا.

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ)

تعرفه فتقبل عليه، وتطيعه وتحسن إلى خلقه، قال:

(فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ

في الدنيا الباطل له جولات، إن الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البرّ والفاجر، والآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك عادل، فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.

الآية الكريمة:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)

(سورة الملك2)

لماذا قدم الله الموت على الحياة ؟ إنه سؤال دقيق، قدم الموت على الحياة لأن الحياة فيها خيارات كثيرة، لو أن إنساناً دخل العام الدراسي يستطيع أن يدرس أو لا يدرس، يداوم أو لا يداوم، أمامه خيارات كثيرة لكن إذا جاء الامتحان أمامه خياران فقط: إما أنه محضر أو غير محضر، إذا كان غير محضّر فهو مفضوح راسب، أو أنه محضّر فهو ناجح، فكلما ضاق الاختيار كان الأمر أخطر، فربنا عز وجل قدم الموت على الحياة لأن الموت فيه حالتان فقط: نجاة، أو خزي إلى الأبد.

في هذه الآية التالية يبين الله عز وجل رحمة النبي عليه الصلاة والسلام قال:

(وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ)

من رحمة الله بخلقه: وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ

كان عليه الصلاة والسلام يتألم أشد الألم حينما يرى الإنسان قد كفر، لأنه صلى الله عليه وسلم أرحم الخلق بالخلق، الله سبحانه وتعالى يسري عنه ويقول له: يا محمد:

(وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ)

هذا اختيارهم، أنا خيرتهم.

(إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

الله سبحانه وتعالى أرحم، لكن هكذا طبيعة الاختيار، هكذا طبيعة التكليف.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب 72)

قال عن هؤلاء الكفار، دققوا في هذه الآية:

(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً)

إنما الدنيا متاع قليل زائل:

قد تجد له بناء فخماً جداً، بستاناً، مركبة فاخرة، رصيداً في المصرف كبيراً جداً، أموالاً تأتيه كالأنهار، إياك أن تقول هنيئاً له، إن قلتها مرة واحدة فأنت لا تعرف الله، كما قالوا:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ(80))

(سورة القصص80)

ربنا عز وجل قال:

(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ)

ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ

إذا كنت متيقنا أن إنساناً أركبوه أفخم مركبة وساقوه إلى الشنق، هل تقول له هنيئاً لك ؟ أو تقول في نفسك: هنيئا ًله على هذه المركبة الفخمة ؟ إذا تيقنت أن هذا الإنسان الذي يركب المركبة الفخمة الوثيرة القوية الأنيقة الحديثة الصنع.. إذا تيقنت أنه يساق بهذه المركبة إلى الإعدام أتقول في نفسك: هنيئاً له على هذه المركبة الفخمة ؟! يا ليتني مكانه ؟! أعوذ بالله، معنى ذلك تعرف شيئاً، قال:

(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً)

أنت ساكن في بيت صغير، وهو في بيت أربعمائة متر، خمسمائة متر، وله سيارتان أو ثلاث، ومزارع، ومقاصف، ومسابح، هل تقول له: هيئاً له، الله أعطاه ؟ لا، مادام بعيداً عن الدين متنكباً للحق فهو كما قال تعالى:

(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ)

فالله عز وجل قال في آيات أخرى:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (198))

(سورة آل عمران 196-198)

إذا كان لك صديق، لك جار، لك رفيق في الدراسة تفوق في الدنيا، وارتفع وجاءه دخل وفير غيّر حياته كلها، وزها على الناس بما عنده، وأنت في وضع أقلّ بكثير، أنت عرفت الله، واستقمت على

أمره، وهو غارق في المعاصي، بمجرد أن تقول: هنيئاً له، لقد أعطاه الله وحرمني فأنت بالتأكيد لا تعرف الله، قال الله عز وجل:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب 71)

(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ (24) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (25))

لماذا يُحمَد الله على كل شيء ؟ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

كيف ذلك ؟ لماذا الحمد لله ؟ لأن هذا الدين الذي اعتنقته أنت وسرت فيه هو دين الإنسانية كلها، دين الفطرة، دين الحق، دين العلم، دين الواقع، دين الله، فحتى المعرضون والمنافقون والملحدون والكفار إذا سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن: الله، إذاً: أنت مع الحق، مع دين الفطرة، أنت مع الدين الذي يقره كل مخلوق، أنت لم تأت بدين خاص غير معترف به، غير معروف، أنت مع الدين الصحيح الذي لو سألت أعداءه: من خلق السماوات والأرض ليقولن: الله، لذلك قال الحمد لله أي احمد ربك يا محمد على أن هذا الدين دين الفطرة، دين الواقع، دين العلم، دين العقل.

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: مُلكا وترُّفًا ومصيرا:

لله، هذه اللام لام الملك، وإذا نسب الشيء ملكاً إلى الله عز وجل فهو يملكه، ويتصرف به، وإليه مصيره، وهذه الصفات الثلاث أعلى صفات الملك، قد تملك، ولا تنتفع من ملكك، إنسان مؤجر بيتاً، ومسجل له بالطابو له، لكن لا ينتفع به، وقد تنتفع بشيء، ولا تملكه، وقد تنتفع به وتملكه، ولكن مصيره ليس إليك، صدر قرار استملاك، ذهب منك، أما الملك التام فأنْ تملك الشيء، وأن تكون يدك مطلقة في التصرف فيه، وأن يكون مصيره إليك.

إذا نسب الشيء إلى الله ملكاً:

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

كل الكون يملكه الله ملكاً، تصرفاً، مصيراً.

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

إنّ اللّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ

لكنه غني عنّا، ومع ذلك نحمده، أحياناً تجد شخصاً غنياً عنك، لكن لأنه غني عنك يحتقرك، لأنه غني عنك يحرمك، لأنه غني عنك يحاسبك حساباً عسيراً، لأنه غني عنك يتغطرس عليك، لأنه غني عنك تجده مستكبراً، لأنه غني عنك يستخف بك، لكن ربنا عز وجل:

(وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف 180)

غني عنك، ومع أن الله غني عنك فإنك تحمده على كمالاته، وهو غني حميد.

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنّ اللّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

وكلمة:

(هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

تعني أنه وحده غني، ووحده حميد، وكل كمال في الأرض مشتق من كمال الله عز وجل.

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نكمل قوله تعالى:

(وَلَوْ أَنّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (11-13): تفسير الآيات 27 - 30
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-07-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنّ اللّهَ هُوَ الْغَنِيّ الْحَمِيدُ)

لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنّ اللّهَ هُوَ الْغَنِيّ الْحَمِيدُ

وبينت لكم في الدرس الماضي أن هذه اللام لام الملك، أي أن السماوات والأرض كلها ملك لله عز وجل، وأن الله عز وجل يملك، ويتصرف، وإليه المصير، وهذا أوسع أنواع الملكية، ومع أنه مالك، ومع أنه قادر، ومع أنه لا يسأل عمّا يفعل، لكنه غني حميد، فهو غني مستغنٍ عن عباده، ومع ذلك يعاملهم معاملة يحمدونه عليها دائماً.

الآن هناك آية تلو هذه الآية، يقول الله عز وجل:

(وَلَوْ أَنّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

عظمة كلام الله تعالى: وَلَوْ أَنّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ يَمُدّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ

كلكم يعلم أن محبرة واحدة تكفي الطالب سنة أو سنوات عديدة، يسود بها عشرات، بل مئات، بل عشرات مئات الصفحات، فربنا عز وجل أراد أن يبين لنا طرفاً من علمه، لو أن كل ما في الأرض من أشجار، والأرض فيها غابات كثيفة جداً، وفيها غابات خضراء، حتى الآن لم يستطع الإنسان أن يصل إليها، وأن هناك أشجاراً من حيث الأنواع، والأعداد ما لا تحصى، لو أن كل ما في الأرض من أشجار أصبحت أقلاماً، فبريت أغصانها أقلاماً، وأن البحر، البحر اسم جنس، ويعني البحار كلها، وتعلمون أن الأرض القارات الخمس لا تزيد على تسعة وعشرين بالمئة من مجموع مساحة الأرض، وتعلمون أن في البحار أعماقاً كبيرة، هناك في المحيط الهادي واد اسمه وادي مريانة يزيد عمقه على اثني عشر ألف متر، أربعة أخماس الكرة الأرضية، وهناك أعماق تتراوح بين خمسة آلاف وما يزيد على عشرة آلاف متر.

لو أن هذا البحر كله المحيطات والمحاطات، المتوسط محاط، بينما المحيط الهادي محيط، لو أن البحار كلها المحيطات والمحاطات مع سبعة أمثالها كانت مداداً أي حبراً، وكل ما في الأرض من شجر أقلام، وهذه الأقلام كتبت، والبحار كلها جفت، وجاء مثلها بحار، والمثل الثاني جف، وجاء المثل الثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، يقول الله عز وجل:

(مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ)

مّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ

هذه حالُ الناس في بحر العلم والمعرفة بأسرار الإنسان والكون:

الكلمات التي تعبّر عن علمه، وأنت ترى أن الإنسان منذ آلاف السنين يدرس، ويبحث، وينقِّب، ويستنبط، ويكتشف، ويسجل، ويقول لك في النهاية: بعد آلاف السنين لم تبتلّ بعد أقدامنا ببحر المعرفة.

من أسرار أجهزة الإنسان:

قد يعقد مؤتمر لأطباء القلب، يقال لك: إن في هذا المؤتمر سبعة آلاف محاضرة، وكل عدد من المحاضرات في جانب من جوانب القلب، وما يزال ما نجهله عن القلب أكثر مما نعلمه عنه وهو القلب، طبيعة عضلاته، طبيعة دساماته، طبيعة كهربائه، طبيعة حركته، عجب عجاب، قل مثل هذا في المعدة، والجهاز الهضمي، قل مثل هذا في جهاز التصفية، قل مثل هذا في جهاز العضلات، الإنسان كائن عظيم، إنه أعظم ما في الكون.

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

الإمام الشافعي يقول: **" كلما ازددتُ علماً ازددتُ علماً بجهلي ".**

من أسرار الخلية:

تشعر أمام أنظمة بالغة الدقة، يقولون لك إن كل ما في الحياة أساسه الخلية، والخلية عبارة عن جدار وسائل ونواة، هذا الجدار ليس كتيماً، وليس مفتوحاً يقبل الرشح من ماء الخلية إلى ماء خلية مجاورة، وأن كل سرّ الخلية في هذه النواة، وأن في النواة نوية، وأن سرّ السرّ في النوية، وأن هناك شريط لا

يمكن لهذا المجهر الذي بين أيدينا أن يكتشفه إلا بمجاهر إلكترونية، هناك شريط عليه معلومات قد تزيد معلومات الشريط على خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة في أوقات محددة تشكل المخلوق إنساناً أو حيواناً أو نباتاً، الخلية أساس وحدة وظيفية للكائن الحي.

وقد يدرسون في أعوام كثيرة الخلية فقط، والآن اكتشف أنه ليس هناك زمر دموية فحسب، بل هناك زمر نسيجية، وتكاد الزمر النسيجية تزيد على ألفين وخمسمئة مليون زمرة، فلا يوجد في الأرض إلا زمرتان متشابهتان فقط.

كلما زادت البحوث والكشوف أطلعونا على شيء لا يصدق، كنا نعد النجوم عدداً.

النجوم:

هناك الآن مراصد ترصد هذه النجوم، هناك مراصد الآن ترصدها لا من أشعتها، بل من صوتها، وقد اكتشفت حديثاً ستة عشر مليون سنة ضوئية بين مجرة والأرض.

ماذا أقول قي الفلك أم في الذرة ؟ في المجرة أم في الذرة ؟ في النبات أم في الحيوان ؟

الطيور:

هذا الطائر الذي يطير بجناحين حتى في هذه اللحظة لا يستطيع علماء الطيور أن يعرفوا سرّ هجرتها، بماذا تهتدي ؟ أتهتدي بالضوء، حجبوا عنها الضوء فسارت وفق المسار الصحيح، أتهتدي بالتضاريس؟ حجبوا عنها التضاريس، أتهتدي بالتعلم ؟ عزلوها عن أهلها، كلما فرضوا فرضية جاءت الوقائع تناقض هذه الفرضية، آخر فرضية لهجرة الطيور أنها تتحرك بإيقاعات خفية من جهة مجهولة، إيقاعات خفية تتحرك من خلالها، هذا الطائر يقطع سبعة عشر ألف كيلو متر، ويصل إلى عشه، أية زاوية يأخذها هو في جنوب أفريقيا، وعشه في دمشق في حيّ الصالحية، في أحد أحيائها القديمة، في بيت عربي قديم، في طرف السقف، كيف ينطلق هذا الطير من جنوب إفريقيا متجهاً نحو الشمال، لو أنه حاد عُشر درجة لجاء في العراق، لو حاد عشرها نحو اليسار لجاء في مصر، لو حاد أقلّ من ذلك لجاء في مدينة تدمر، كيف يصل الطير إلى عشه الدقيق، وقبل أن يبدأ الطيران يجدد جناحيه تجديداً كاملاً، وقبل أن يبدأ الطيران يقبل على الطعام إقبالاً عجيباً، ويطير الطائر ستاً وثمانين ساعة من دون توقف، ولا يزال علم الطيور في بداياته.

قرأت مرة مقالة عن الطائرة، في مقدمة المقالة يقول الكاتب: إن أعظم طائرة صنعها الإنسان لا ترقى إلى مستوى الطائر، زوده الله بعظام مفرغة مراعاة لخفة الوزن، والريشة فيها العجب العجاب، فيها

متانة وخفة وزن عجيبة، وفيها إمكان تبديلها باستمرار، وبين الجناحين توازن يأخذ بالألباب، ولهذا الطائر خواص، الهواء الذي يستنشقه الطائر في أثناء الطيران لا يصل إلى رئتيه فحسب، بل يتغلغل في كل أنحاء جسمه، وحتى أظلاف رجليه، لأن هذه القدرة العجيبة في الحركة تحتاج إلى تبريد، وتبريد المحركات علم قائم بذاته، صنع الله الذي أتقن كل شيء، هذا عن الطائر فماذا عن الأسماك ؟

الأسماك:

الأسماكُ زودها الله بخط في قسمها الأعلى تعرف في أي لحظة أين هي من سطح الماء، لها جهاز ضغط، وهو أنبوب مفرغ من الهواء، وزودها بجهاز توازن تعرف إلى أين جهتها نحو الأعلى أم نحو الأسفل، حفرة صغيرة في رأسها، وبعض حبات الرمل، وأعصاب حساسة، فإذا انتقلت حبات الرمل إلى جهة أخرى إذاً هي مقلوبة، تعرف وضعها من هذا الجهاز.

الشيء الذي يكشفه العلماء عن مخلوقات الله عز وجل فيه العجب العجاب، لذلك التفكر في الكون أقول لكم كلاماً دقيقاً: هو أقصر طريق إلى الله عز وجل، وأوسع باب، إذا أردت أن تدخل من أوسع الأبواب، وأن تسلك أسهل الطرق فتأمل مخلوقات الله عز وجل، ابدأ بجسمك.

العين:

هذه العين يخرج منها عصب فيه تسعمئة ألف ليف عصبي، وكل ليف له غلاف كي تكون الصورة نقية، وفي الشبكية مئة وثلاثون مليون عصية، وفي العين طبقات، وللعين ضغط، وللعين ماء، وللعين عدسة مرنة، لا يتسع المجال للتفصيلات، ولكن العين وحدها يمكن أن تصل من خلالها إلى الله، وأن تعرف علمه، وأن تعرف لطفه، وأن تعرف حكمته، وأن تعرف جماله، وأن تعرف قدرته، وأن تعرف ربوبيته.

فيا أيها الإخوة الأكارم، حينما قال الله عز وجل:

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)

سَعَةَ علم الله تعالى:

أراد الله أن يقرب لنا علمه تقريباً عن طريق بعض الأمثال، إن الكلمات التي تعبر عن علم الله عز وجل تنفد بحار الأرض كلها مع سبعة أمثالها، ولا تنفد كلمات الله المعبرة عن علمه، لذلك هذا هو علم الله، وسوف تأتي بعد قليل الآيات التي توضح لماذا يجب أن نعلم أن الله يعلم ؟

على كل الإنسان أعطاه الله فكراً، وسخر له هذا الكون تسخير تعريف، وتسخير تكريم، فلا ينبغي أن يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

(سورة محمد 12)

الخضار والفواكه:

الأنعام تأكل، ولا تفكر تأكل وكفى، والإنسان الذي يأكل، ولا يفكر سوف يدفع الثمن باهظاً.

مرة حدثني أخ مُزارع قال: ضمنت حقل بطيخ، قطفت منه كل يوم شاحنة على مدار تسعين يوماً، من صمم هذه الفاكهة حتى تنضج بالتدريج ؟ القمح ينضج دفعة واحدة، المحاصيل تنضج في وقت واحد، بينما الفواكه تنضج تباعاً، في الأولى رحمة وحكمة، وفي الثانية رحمة وحكمة.

وربنا عز وجل جعل لكل شيء علامة، العنب إذا اسود فاسوداده علامة نضجه، والتفاح إذا اصفر الاصفرار علامة نضجه، وكل فاكهة، وكل نبات، أو ثمرة جعل الله لها علامة تدل على نضجها، فما العلامة التي تركها الله عز وجل علامة على نضج البطيخ ؟ قال لي هذا المزارع: إن بُعَيد هذا الذَّنَب الذي تتعلق به البطيخة خيطًا على شكل حلزون، فإذا أمسكه صاحب حقل البطيخ، وضغطه فإذا انكسر فالبطيخة قد نضجت، وإذا بقي طرياً فالبطيخة لم تنضج بعد، هذا التصميم من صممه **!** الكون كامل.

النبات:

إن في المناطق الجافة نباتات تختزن المياه، يمكن أن تختزن ما يعادل ثلاثة آلاف لتر من الماء، بمجرد أن تقطع بضع فروعها حتى يسيل هذا الماء الصافي العذب، نبات مهمته اختزان المياه، نبات مهمته أن يكون حداً فاصلاً بينك وبين جارك، اسمها في علم النبات نباتات حدودية، كلها شوك، خضراء اللون، ولها أزهار، ولكنها شائكة، نباتات صممت من أجل الظل، نباتات صممت من أجل الصناعة، أنواع منوعة من الأخشاب، نوع للنوافذ يتحمل الحر والبرد والمطر، وما إلى ذلك، ونوع للأثاث الداخلي، ونوع طري للمعالجة، نوع مرن ومتين يكون قاعدة للآلات.

حدثني بعض الإخوة الذين يعملون في النجارة أن هناك ما يزيد على مئة نوع من الخشب، ولكل نوع صفاته الخاصة وميزاته وخصائصه، هذا علم الله.

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)

الشعر الذي في رأسنا، ثلاثمئة ألف شعرة، لكل شعرة وريد وشريان وصب وعضلة وغدة دهنية وغدد صبغية، وأنت لا تدري، العين، الأذن، اللسان، النطق، لسان المزمار، هذا الذي يعمل ليلاً ونهاراً من دون تعب ولا كلل، وأنت نائم يجتمع اللعاب في فمك يتنبه الدماغ، يعطي أمراً إلى لسان المزمار فيغلق طريق الهواء ويفتح طريق المعدة فيسقط اللعاب في المريء، ومنه إلى المعدة، وأنت نائم لا تدري، هذه الأجفان تتحرك حركة دورية عجيبة.

الذي أردته من هذه الأمثلة غير المنتظمة طبعاً، وهناك أمثلة من خلق الإنسان، من خلق الحيوان، من خلق النبات، من خلق المجرات، من خلق الذرة، كلما درست، وبحثت، ودققت، وحللت تجد العجب العجاب، لذلك يقول الله عز وجل:

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)

حينما كنا من قبل نستخدم الحبر في الكتابة، القلم والمحبرة، من يشتري لترَ حبرٍ أنا أعتقد أنه يكفيه طوال حياته، هو وأولاده، أما هنا:

(وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ)

البحار كلها ضرب سبعة، والأشجار كلها أقلام، وكلها تكتب حتى جفت البحار، جاءت بحار مثلها، جفت ما نفدت كلمات الله، الكلمات الدالة على علمه، والكلمات الدالة على أمره، أوامره يومية، لأن هذا الحوين المنوي والبويضة التي عليها خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة تجد الطفل ينمو، في البداية له أنف غضروفي قاس، بعد قليل يصبح ليناً، في طحاله كمية حديد تكفيه عامين، تفصيلات دقيقة جداً في خلق الإنسان، في سن كذا ينمو صدر الفتاة، في سن كذا ينمو الشعر للفتى، في سن كذا يتغير صوت حباله الصوتية، معلومات مبرمجة كلها، إذاً: كلمات الله الدالة على علمه، كلمات الله الدالة على أمره:

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

إنّ اللهَ عَزيزٌ حَكِيمٌ

1 – معنى العزيز:

في دروس سابقة تحدثنا عن معنى عزيز، الشيء العزيز الذي يندر وجوده، وتشتد الحاجة إليه، ويصعب الوصول إليه، أما إذا وصف الله بأنه عزيز، الشيء الذي يندر وجوده حتى يصبح واحداً، واحد لا شريك له، وتشتد الحاجة إليه، إذا وصف الله بأنه عزيز أيّ يحتاجه كل شيء في كل شيء.

الابن يحتاج والده في أشياء كثيرة، ويحتاج من يعمل عنده في أشياء قليلة، ويحتاج صديقاً بعيداً في أشياء نادرة، ولكن الله عز وجل يحتاجه كل شيء في كل شيء.

وإذا قلنا عن شيء عزيز: يصعب الوصول إليه إذا وصف الله بأنه عزيز فالوصول إليه مستحيل، بمعنى أنك لن تحيط به، تصل إليه، ولا تحيط به، إذاً:

(إنّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

2 – معنى الحكيم:

وحكمته تقتضي أن ما وقع لو وقع على خلاف ما وقع لكان الله ملوماً، أو لكان نقصاً في الحكمة، كل شيء وقع أراده الله وكل ما أراده الله وقع، وإرادته متعلقة بالحكمة، وحكمته متعلقة بالخير المطلق.

(إنّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

واحد لا شريك له، يحتاجه كل شيء في كل شيء، يستحيل أن تحيط به، تصل إليه وصول معرفة، وصول طاعة، وصول إقبال، أما أن تحيط به فهذا مستحيل.

هذا مثلٌ للتقريب، أحياناً نقول: لا نهاية، هذه كلمة، لكن لو فكرت في اللانهاية فهو شيء يصعب العقل أن يتصوره، تصور مليونا، مليون مليونٍ، تصور إنسانًا يقول: مئة سنة، والرقم أكبر، هذا محدود، تصور كيس طحين كل ذرة دقيق مليون سنة، كم مليون سنة هذا الكيس ؟ تصور محصول الدقيق في العالم، كل ذرة دقيق مليون سنة مرفوعة إلى قوة (ن)، هذا الرقم مضروب بنفسه مئة مرة، أو مرات غير متناهية، ومع ذلك ليس بإمكانه العقل أن يدرك اللانهاية، وأنت مخلوق لهذا الأبد الطويل، للانهاية، فإذا اشتغلت في بهذه الدنيا اشتغلت عن الآخرة فقد اشتغلت بالخسيس عن النفيس، وهذا هو اللهو في تعريفه الدقيق، اللهو أن تشتغل بالشيء الخسيس عن الشيء النفيس، أن تعمل لحياة فانية، وأن تدع حياة باقية، أن تعمل للدنيا، وأن تدع الآخرة، فلذلك من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً.

ما دام الله بهذا العلم، وتلك القدرة، وهذه الحكمة، قلنا: ما نفدت كلمات الله، الكلمات الدالة على علمه، والكلمات الدالة على أمره، أوامر الخلق:

(إِنّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة النحل 40)

كلمات العلم وكلمات الأمر، وبعد هذا كله أتعجبون أن يعاد خلقكم مرة ثانية يوم القيامة، وبعد كل هذا أتشكّكون في أن يقف الإنسان بين يدي الله عز وجل ليحاسب عن أعماله كلها، يقول الله عز وجل:

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

مّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ

1 ـ بيان قدرة الله عزوجل في الخَلق والبعث:

هذا يذكرنا بالحديث القدسي الذي تعرفونه جميعا:

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

لأن عطائي كلام وأخذي كلام، كن فيكون.

إذا توجهت إلى طلب شيء قد تبذل الجهد المضني، وقد تصل إليه، لو أردت أن تتوجه إلى حلب، فإنك تركب السيارة المكيفة المريحة، وتمضي بك ساعات تلو ساعات حتى تصل، يقول بعض العلماء: بمجرد أن تتعلق إرادة الله بشيء يوجد فوراً، هذا معنى كن فيكون، زُل فَيَزول، فلذلك:

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

هذا مات في البحر، وهذا مات في الجو احترقت به الطائرة، وهذا مات على فراشه، وهذا دفن، وهذا لم يدفن، وهذا تفسخ... إلخ، كل هؤلاء الخلق إذا نفخ في الصور:

(فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

(سورة الزمر 68)

انتهى الأمر.

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

2 ـ أعدّوا لكل حركة وسكنة جواباً يوم العرض على الله:

لأن الأمر كن فيكون، إذاً: الحركات والسكنات والنظرات كل شيء تفعله في الدنيا سوف يعرض عليك، وسوف يقال لك:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

(سورة الإسراء14)

القضية كلها أن المؤمن يعيش، والكافر يعيش، لكن الفرق الجوهري بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن يعيش ولا يغيب عنه لحظة أنه سوف يُسأل، وسوف يحاسَب، لذلك أنا إذا تكلمت، وأنتم إذا استمعتم، فهذا الكلام الذي ألقيه عليكم، وهذا الإصغاء الذي يبدو منكم، وهذا التوجيه حجة لي أو عليّ، وحجة لكم أو عليكم، أنا لي حساب، وأنتم لكم حساب، كيف يحاسَب من يدعو إلى الله عز وجل ؟ يقول له الله عز وجل: هل كنت في مستوى دعوتك ؟ أمرت الناس بكذا، هل سبقتهم أم توانيت عن ذلك ؟ وأنتم لكم حساب المستمِع، استمعتم إلى الحق فهل طبقتموه ؟

إذاً: لا الكلام وحده له قيمة، ولا الاستماع وحده له قيمة، الذي له قيمة أن أطبق أنا وأنتم، كلام يلقى على مسامعكم يُعد حجة عليّ إن لم أطبقه، ويعد حجة عليكم إن لم تستجيبوا له، ويعد حجة لي إن طبقته، وحجة لكم إن طبقتموه، فهنا المشكلة، فيجب أن تؤمن أنه لا بدّ من وقفة بين يدي الله عز وجل، لِمَاذا فعلت ؟ لماذا تركت ؟ لماذا قطعت ؟ ملاذا وصلت ؟ لماذا عاديت ؟ لماذا سالمت ؟ لماذا كنت ليناً في الموقف الذي ينبغي أن تكون شديداً ؟ ولماذا كنت قاسياً في الموقف الذي ينبغي أن تكون ليناً ؟ لِمَ لم تنصف ؟ لِمَ لم تعدل ؟ لِمَ لم تحسن ؟ لِمَ لم تنصح ؟ لِمَ لم تكن مستقيماً ؟ لِمَ لم تكن مخلصاً ؟ فلذلك:

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

حتى إن السيدة عائشة رضي الله عنها تقول: يا رسول الله: أن يوم الحشر أيعرف أحدنا أحداً ؟ كل إنسان له حساب خاص، أنت تكلمت للناس عن الحق، تعال إلينا: لِمَ قلت كذا، ولم تفعله ؟ لِمَ زهدت الناس في الدنيا، وكنت متعلقاً بها ؟ لم أمرت الناس بكذا، ولم تأتمر به ؟ لماذا نهيت عن هذا، ولم تنته عمّا نهيت ؟ هذا حساب من يدعو إلى الله عز وجل.

من يستمع: ألم يبلغكم الموضوع الفلاني ؟ الحكم الفلاني ؟ الأمر الفلاني ؟ النهي الفلاني ؟ لِمَ لم تطبق؟ فليحذر كل منا أن يكون العلم حجة عليه، وليسْعَ ليكون العلم حجة له.

(إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

التهديد والوعيد في صيغة خبر: إنّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ:

فهو ـ سبحانه ـ سميع بصير، إذا تكلمت سمعك، وإذا تحركت أبصرك، تكلم بفصاحة ما بعدها فصاحة، وطلاقة ما بعدها طلاقة، واذكر الحجج والأدلة والبراهين، وتفلسف، وتمنطق، وشقق الكلام، وتفيْقَهْ على الناس، وأظهر أنك من أولياء الله الصالحين، كل هذا لا قيمة له، إن الله سميع لقولك، عليم لحالك، تحرك حركة ظاهرة، يعلم السرّ وأخفى، هو إذا علمت أن الله يعلم انتهى كل شيء، إذا علمت أن الله يكشفك تماماً.. يكشف كل بواطنك وحركاتك وسكناتك، تزهد من الخلق، وتتعلق بالحق، ومن علامة الإيمان أن تدع الخلق جانباً، وأن تتجه إلى الله واحداً.

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(46))

(سورة طه: 45 - 46)

إذا وصلت إلى مرتبة ترى أن الله معك فقد انتهى كل شيء، استقمت على أمره، أخلصت له، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ))

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

تحرك، تكلم، تفلسف، بيّن، سوف تكشف على حقيقتك، وسوف تقف بين يدي الواحد الديان، لأنه سميع بصير، لذلك:

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل

***

البطل يهيئ جواباً لكل موقف وقفه، إن كنت موظفاً فلك حساب خاص، لماذا عقدت الأمر على فلان ؟ لماذا بالغت في مشكلته ؟ لماذا جعلته ييئس من أن ينال الموافقة ؟ من أجل أن تبتز ماله، وأنا أرى كل شيء، وأعلم كل شيء، دخلك لا يكفي، أهذه حجة كافية أن تبتز أموال الناس ؟ إذا كنت طبيباً فلماذا بالغت في خطورة المرض من أجل أن يأتي إليك دائماً ؟ إذا كنت محامياً وتعلم علم اليقين أن هذه الدعوة خاسرة، فلماذا قبلتها ؟ وفي نيتك أن تخبره بعد سنوات عدة أن الدعوة لم تنجح، وأن القاضي لم ينصف، إن كنت طبيباً أو محامياً أو مدرساً تعلم أن هذا الطالب لا يمكن أن ينجح، فلماذا تبلغ أباه أن

النجاح قريب ؟ من أجل أن تستمر في التدريس، لا ينجو إنسان من حساب الله عز وجل، لماذا أعطيت فلاناً وحرمت فلاناً ؟ لماذا حابيت هذا الولد، وأعطيته فوق ما أعطيت إخوته ؟

كل حركة وسكنة، وكل موقف وراءه سؤال، فلذلك:

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ)

بعثكم كخلقكم، كن فيكون في الخلق والبعث، بعد البعث هناك الحساب:

(إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ

مرة ثانية، يَلفت اللهُ نظرَنا إلى بعض آياته، لتكون هذه الآيات دالة على عظمته، وعلى علمه، وعلى وعده، وعلى وعيده، يقول الله عز وجل:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ)

1 – معنى: يولِج:

معنى يولج أي: يدخِل.

(وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)

إنّ تداخل الظل مع النور لا يكون إلا في شكل الكرة، لو أن الأرض مكعبة الشكل فإن الظلام يظهر فجأة، والضياء يظهر فجأة، أما هذا التداخل اللطيف، التداخل المديد، التداخل الهادئ، قبل أن تغيب الشمس يضعف الضوء، يضعف نور الشمس، تصفر، وبإمكانك أن تنظر إليها من دون أن تنبهر، بعدئذ تغيب في الأفق، فيبقى الجو مضيئاً، بعد نصف ساعة يدب الظلام، بعد ساعة وربع تقريباً وهو موعد أذان العشاء يختفي النور، ويبقى الظلام، فإذا أذن الفجر ظهرت خيوط النور في الأفق الشرقي، تزداد هذه الخيوط إلى أن تضيء الأرض قبل أن تشرق الشمس، هذا معنى:

(أَلَمْ تَرَ)

2 – دعوة إلى النظر والتأمل:

هذا الكون بهذا النظام، بهذا الثبات، بهذا التداخل، شمس وأرض وقمر، كل يجري لأجل مسمى، ألا يكفي أن هذا تقويم، وهذه الحسابات حسبت منذ خمسين عاماً، التقويم الفلاني، عدّ خمسين عاماً يطلع الفجر الساعة الثالثة والدقيقة والواحدة، هذه الأرض الكبيرة بحركتها حول نفسها، وحركتها حول

الشمس لا تقدُّم ولا تأخُّر، ما هذا النظام الدقيق ؟ ثبات في مواعيد الشروق والغروب خلال سنوات طويلة جداً، خلال عشرات، بل مئات السنين، بل آلاف السنين، هذه آية كبيرة، أنت متيقن غدا أنّ الفجر يؤذن الساعة الثالثة ودقيقة، الشمس 4.43، الظهر 11.45، العصر 3.27، المغرب 6.47، هذا لأي سنة ؟ لكل سنة، كل يوم من السادس والعشرين من تموز من كل عام الشمس تغيب في الساعة 6.46، ثبات هذا النظام أليس آية من آيات الله الدالة على عظمته.

من مئة سنة، من مئتي سنة، من ألف سنة، وإلى ألف سنة قادمة، في اليوم السادس والعشرين من تموز تغيب الشمس الساعة 6.46، أتظنون أن كل سنة تُدرى حسابات ؟ لا، مرة واحدة فقط، يطبعوها كل سنة، إنه ثبات عجيب، إذاً:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يُولِجُ اللّيْلَ فِي النّهَارِ)

يولج الليل في النهار بلطف، أحياناً يكون الإنسان نائماً فيتألق المصباح الشديد فجأة، فيحس بآلام في عينيه، بانبهار، وأحياناً يكون الضوء شديدا فتنقطع الكهرباء فجأة، فيقع في حيص بيص، لم يعد يرى بعينيه، لكن ربنا عز وجل بلطفه تغيب الشمس بلطف شديد، وتشرق بلطف شديد.

(أَلَمْ تَرَ)

أليست هذه آية دالة على عظمة الله عز وجل ؟

(وَسَخّرَ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ)

وَسَخّرَ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ

معجزة الشمس:

العلماء طمأنونا، الحمد لله، فقالوا: الشمس تبقى متألقة ومشرقة إلى خمسة آلاف مليون عام، اطمأنوا فالشمس لن تنطفئ، وقالوا: هي متألقة ومتأججة منذ خمسة آلاف مليون عام أيضاً، أي عشرة آلاف مليون عام، هذه الشعلة لم تنطفئ، ولم تَخْبُ، ولم تضعف، هل يوجد إنسان عنده جهاز وقود يشتعل من دون وقود باستمرار ؟ ما هذا الإعجاز في خلق الشمس ؟ ما هذه الدورة المستمرة في نشر الطاقة ؟! والحديث عن الشمس طويل.

أحد ألسنة اللهب في الشمس يزيد على نصف مليون كيلو متر، في سطحها ستة آلف درجة، لكن في وسطها عشرون مليون درجة، لو ألقيت الأرض في الشمس لتبخرت بسرعة كلها تصير بخاراً.

تتسع الشمس إلى مليون وثلاثمئة ألف أرض، وبين الشمس والأرض مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، ومع ذلك يصاب الإنسان بضربة شمس، ويموت على بعد 165 مليون كيلو متر، وإذا جئت بعدسة محرقها يحرق الورق، كثير من الحالات حدث حريق من الشمس فقط، حريق غابات، حريق صهاريج بترول من أشعة الشمس فقط، نحن على بعد 165 مليون كيلو متر، وهي بهذه الحرارة، منذ متى ؟ منذ خمسة آلاف مليون عام، وتستمر حسب قول العلماء إلى خمسة آلاف مليون عام قادمة.

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)

(سورة التكوير1)

مَن أمدّها بالطاقة ؟

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)

لا بدّ من أجل تنتهي به حركة الأفلاك.

(وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

خبير بالعمل، هناك إنسان يرى العمل، وهناك إنسان خبير به، قد تقدم مقالة إلى إنسان فيعجب بها، لكنّ هذا الذي قرأها ليس خبيراً بها، قد يعجب بها، وفيها أخطاء كثيرة، أما إذا عرضتها على خبير فإنه يكشف لك آلاف الأخطاء، إذا عرضت آلة على إنسان غير خبير يقول لك: والله شيء جميل، ما شاء الله، رائع، أما إذا عرضتها على خبير ينظر إليها يقول: هنا في غلط، فالبطولة أن يكون عملك مُرْضياً عند الخبير لا عند الجاهل، فربنا عز وجل يقول:

(وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

يعرف العمل، يعرف حجمه، يعرف دوافعه، يعرف غاياته، يعرف ملابساته، يعرف تضحياته، والدوافع، والأهداف، كل شيء حول العمل يعرفه الله معرفة تامة.

(وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ)

ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ وَأَنّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ

1 – وجود الله حقيقة ثابتة:

هذه الآية دقيقة، في هذا الكون حقيقة واحدة هي الله، كل شيء يوصلك إليها، ويزيدك معرفة بها فهو الحق، وكل شيء يزيدك بعداً عنها هو الباطل، فالحق مقرّب، والباطل مُبعِد، والأصل أن الحقيقة الأولى والأخيرة ولا حقيقة سواها أن الله موجود، وأنه واحد، وأنه كامل، وأنت مخلوق خلقك ليسعدك إلى الأبد، تسعد بمعرفته وبطاعته وبخدمة خَلقه، لذلك هذه حقائق مكثفة جداً.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ)

2 – معنى الحق والباطل:

الحق هو الشيء الثابت، ومعنى الباطل الشيء الزائل، نظرية تنتشر في العالم سبعين عاماً، تتبناها أمم وشعوب، وبعد ذلك تنهار.. وتتهاوى.. وتتساقط، وكأنها بناء هش، لأنها باطل، الباطل مصيره الزهوق.

(إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)

(سورة الإسراء 81)

الحق ثابت، فمهما هبّت على الدين عواصف عاتية، فهو شامخ كالجبل، لأنه حق، وهو الشيء الثابت، كل النظم الوضعية لم تحقق أهدافها، بل ربما أدت بالإنسان إلى عكس الأهداف التي رسمت لها، لأنها باطل، أما نظام الله عز وجل.. كتاب الله عز وجل.. دين الله عز وجل فهو ثابت وشامخ، لأنه حق.

إذاً: معنى الحق: الشيء الثابت، ومعنى الباطل الشيء الزائل، هناك شيء يبنى ليهدم، لكن هناك شيء يبنى ليبقى، فأنت إذا كنت مع الحق كنت مع الله.

(أَلَا إِنّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتّقُونَ(63))

(سورة يونس 62-63)

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ)

3 – الحق باق والباطل زاهق:

الله هو الحق، وكتابه حق، ودينه حق، وشرعه حق، وأمره حق، ونهيه حق، ووعده حق، ووعيده حق، والجنة حق، والنار حق، معنى حق أي ثابت، وسوف يقع، إذا اعتنقت فكرة باطلة مهما بالغت بها.. مهما قويتها.. مهما فلسفتها.. مهما نميتها.. مهما دعمتها.. مهما أغريت الناس بها فهي باطلة، لا بدّ من

أن تسقط، أما إذا اعتنقت الحق، فالحق وحده باقٍ، لذلك كن مع الحق، إذا كنت مع الحق فأنت الموفق.. وأنت الفالح.. وأنت الناجح.. وأنت الفائز.. وأنت السعيد.

القضية خطيرة جداً، لو فرضنا إنساناً بنى بناء حقاً وبناء باطلاً، البناء الحق أساسه ثابت.. مبني وفق أصول صحيحة.. مواده الأولية جيدة.. تسليحه جيد.. أرضه صلبة.. إقامته ناجحة.. خبراء كبار أنشئوه.. مواد أولية بذلت بسخاء، بناء آخر باطل أساسه ضعيف.. مواده الأولية مغشوشة.. الحديد أقل من نسبه الحقيقية، فأنت إذا أقمت في البناء الباطل لا بدّ من أن ينهار، أما إذا أقمت في البناء الحق هو ثابت ثبات الأيام.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ وَأَنّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ)

4 – إذا لم تكن على حقّ فأنت يقينًا على باطل:

أي إذا لم تكن على الحق فاعلم علم اليقين أنك على الباطل، إن لم تطبق أمر الله في هذا الموضوع فأنت في الباطل، ليس هناك حقين بل حق واحد، وما سوى الحق باطل.

القضية خطيرة، إن لم تقف في هذا الموقف وفق ما أمر الله فأنت تقف موقفاً باطلاً، والباطل زائل أي أن ثماره كلها زائلة، تزول الثمار ويبقى الحساب، أما الحق فيبقى وتبقى آثاره بعد الموت، الباطل تزول ثماره إن كان له ثمار، وتبقى تبعاته، أما الحق فتثبت ثماره في الدنيا وفي الآخرة.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ وَأَنّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ)

مِن معاني: أنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ

ومن معاني أن الله هو الحق: أنه لا بدّ من أن يظهر الحق، مهما امتدّ الباطل، ومهما اتسعت رقعته، ومهما اشتط، ومهما علا، ومهما تجبر فلا بدّ من أن يُظهر الله الحق، ولا بدّ من أن يؤيده، وهذه سنة ثابتة من سنن الله عز وجل، هو الحق، ولا بدّ من إظهار الحق، فاجهد أن تكون مع الحق، لأنك إن كنت مع الحق سعدت في الدنيا والآخرة.

(وَأَنّ اللّهَ هُوَ الْعَلِيّ الْكَبِيرُ)

وَأَنّ اللّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

معنى: الله أكبر:

المعنى الأول:

أنت تقول: الله أكبر، معنى الله أكبر، أنه إذا جاءك ضغط من إنسان تراه قوياً فالله أكبر، إذا جاءك إغراء من جهة معينة، قل: الله أكبر، أيْ أنّ ما وعدني الله به في الجنة أكبر من كل هذه اللذائذ، والإنسان بين ضغط وإغراء، وامتحان الله عز وجل، فإما أن يغريك، وإما أن يضغط عليك، فأنت بين جاذب وبين دافع، فإذا جَهدتَ ألا تستجيب لأي إغراء باطل، وألا تستجيب لأي ضغط باطل، وكنت مع الحق، يتجلى الله سبحانه وتعالى على قلبك، ويحميك، ويوفقك.

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ وَأَنّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنّ اللّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

المعنى الثاني:

لكن هناك معنى آخر، إذا قلت: الله أكبر، معنى الله أكبر أنه أكبر مما عرفت، فمهما عرفت عن جلال الله، وعن قدرته، وعن علمه فهو أكبر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (12-13): تفسير الآيات 30 - 32

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-08-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الثاني عشر من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ هُوَ الْحَقّ وَأَنّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنّ اللّهَ هُوَ الْعَلِيّ الْكَبِيرُ)

مقدمات مهمة بين يدي الآيات:

أيها الإخوة الأكارم، كمقدمة سريعة لهذه الآيات التي ربما ختمنا بها سورة لقمان في هذا الدرس أتمنى أن أضع بين أيديكم بعض الحقائق.

المقدِّمة الأولى: العلم دين:

أولاً: حينما يطلب الإنسان العلم يجب أن يعلم علم اليقين أن هذا العلم دين، وأن هذا العلم إذا ألقي على سمعه جعله مسؤولاً، وأن الدين الحق هو ما أوصلك إلى الله عز وجل، فلذلك سماع دروس العلم وحده لا يكفي.

المقدِّمة الثانية: طلبُ العلم عمود الدين:

هذا الدين يقوم على أعمدة كبيرة، أحد هذه الأعمدة طلب العلم، طلب العلم الشرعي، طلب تفسير كتاب الله، طلب حديث رسول الله، طلب سيرة رسول الله، طلب الأحكام الفقهية التي أنت بحاجة إليها، فكل هذا العقيدة والتفسير والسنة والسيرة هي من العلم، ولكنك إذا طلبت العلم، ولم تجعل سلوكك وحياتك وعلاقاتك ومهنتك وزواجك وفق ما أراد الله عز وجل فأنت خاسر، لأن هذا العلم يصبح حجة عليك، لا يكون هذا العلم حجة لك إلا إذا انقلب إلى سلوك.

المقدِّمة الثالثة: لا سعادة إلا بقطف ثمار الدين:

لذلك هذا الدين لا ينُبغُ فيه الإنسان.. لا يسعد فيه.. لا يقطف ثماره إلا من حاطه من كل جوانبه، وأحد جوانبه طلب العلم، فإذا طلبت العلم ينشأ سؤال كبير: أين أنا مما أسمع ؟ هل أنا في مستوى هذا

التفسير؟ هل أنا في مستوى سنة رسول الله ؟ هل كسبي للمال وإنفاقي له، بيتي، علاقاتي هل كل هذا وفق ما أمر الله ؟.

يا أيها الإخوة الأكارم، الأمر خطير، والأمر أخطر بكثير من أن تأتي إلى مسجد، وتَمضي فيه ساعة أو أكثر، الأمر أخطر من ذلك بكثير، إنك في حياة دنيا كلفك الله أن تزكي نفسك فهل زكيتها ؟ كلفك الله أن تتعرف إليه فهل عرفته ؟ كلفك أن تعرف رسوله فهل عرفته ؟ كلفك أن يأتي عملك وفقاً لسنة رسوله فهل فعلت ذلك ؟ كي تقول: ليس في الأرض من هو أسعد مني، كي تشعر إذا التزمت بأوامر الله عز وجل ونواهيه، وأنك من السعداء، ومن الموفقين، ومن المتفوقين، وأنك من الفائزين، وأنك من المفلحين لا بدّ من أجل هذا كله أن تمشي على خطين: خط العلم وخط العمل، وأن تكون متوازناً بينهما.

لأنك إذا عرفت كلام الله عز وجل، واستمتعت بالمعاني الدقيقة والإشارات اللطيفة واللمحات الغريبة، وعرفت مدلول الكلمات ومعاني التراكيب، ولم تكن في حياتك اليومية في هذا المستوى فقد ضيعت الكثير.

المقدِّمة الرابعة: لا بدّ من تعاهُد القلب في إخلاصه:

إنّ حياتك يجب أن تبنى على أعمدة، العمود الأول طلب العلم، طلب العلم بكتاب الله، طلب العلم بسنة رسول الله، العلم بكتاب الله في درس يوم الجمعة، بسنة رسوله القولية والفعلية يوم الأحد، يجب أن تعرف أحوال القلب، لأن الله عز وجل يقول:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء 88-89)

اسأل نفسك، يا ترى هل أنا مِن الإخلاص، والصدق ومن التوكل والخشوع والمحبة لله، ومن العمل الطيب، ومن طلب الأسباب كما يرضى الله.. هذه الأحوال القلبية التي أشار القرآن إليها يجب أن تكون متمثلة في قلب كل مسلم، إذاً: طلب العلم جانب من جوانب الإيمان.

المقدِّمة الخامسة: الخط المقابل للعلم هو خطّ العمل:

الآن أن تعمل بما علمت هو الجانب الآخر، هو الخط الآخر الذي ينبغي أن تسير فيه، يجب أن تسير في طريق العلم وفي طريق العمل، راجع نفسك عشرات المرات، أحد العارفين يقول: " المنافق يلزم حالة واحدة طوال أربعين عاماً، بينما المؤمن يتقلب في اليوم الواحد بين أربعين حالاً "، لشدة خوفه من الله، لشدة رجائه، لشدة طمعه، لشدة طلبه، لصدق يقينه، بين الخوف والرجاء، وبين الثقة وعدم الثقة،

والطمأنينة والقلق، هذه الأحوال المتعددة التي تطرأ على قلب المؤمن دليل صدقه، هي قضية مصيرية، إما سعادة إلى الأبد أو شقاء إلى الأبد.

المقدِّمة السادسة: موضعُ المعالجة الإلهية:

وإذا خلط الإنسان عملاً صالحاً وآخر سيئاً معناها لا بدّ من أن يعالجه الله في الدنيا، أو يعالجه عند سكرات الموت، أو يعالجه في القبر وفي البرزخ، فالبطولة أن يأتي ملك الموت، وأنت كما ولدتك أمك، لذلك الحديث القدسي المعروف عندكم:

((يا رب ارحمه، قال: كيف أرحمه بما أنا به أرحمه، وعزني وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن، وأن أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها، سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شدّت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

لكي لا تقول: يا أخي، أنا ما استفدت، أنا أمضيت في هذا المسجد عشرين عاماً، خمسة عشر عاماً، عشرة أعوام، حتى تشعر أنك ترقى باستمرار، حتى تشعر أن يومك خير من أمسك، حتى تشعر أن رمضانك هذا خير من رمضان السابق، حتى تشعر أنك في ازدياد كامل يجب أن تجمع بين خط طلب العلم وخط العمل به، أما إذا اكتفيت بطلب العلم، طلب العلم من غير عمل يُبقي بينك وبين الله حجاباً، لأن أي معصية، وأي مخالفة، وأي تقصير يجعل بينك وبين الله حجاباً، وإذا وجد الحجاب أظلم القلب، وشعر الإنسان بالوحشة، وشعر بالضيق، وشعر بالضياع، وسئم الحياة حتى يسأم مباحاتها، حتى يسأم مباهجها.

أما إذا استنار القلب بنور الله، إذا أقبلت عليه، إذا أخلصت له، إذا كنت وفق السنة الشريفة، إذا جهدت في خدمة الخلق، إذا جهدت في طلب العلم، إذا أردت أن تكون مناراً للناس، إذا أردت أن تكون قدوة للناس عندئذ أنت أسعد الناس.

المقدِّمة السابعة: لئلا يصبح الدين ثقافة لا بد أن نعيش الإسلام بالعمل:

فالذي أتمناه أن هذه الدروس ليست محاضرات تلقى كما تلقى المحاضرات في الجامعات، أستاذ يلقي المحضرة، وانتهى الأمر، والمستمع استمع بهذه المحاضرة، وانتهى الأمر، القضية قضية مصير، قضية جنة لا ينفد نعيمها، أو جهنم لا ينفد عذابها، قضية أن تعيش في الحياة موفقاً، أو تعيش في عسر

شديد، أن تعيش ولك عمل طيب ترقى به، أو أن تعيش وأنت تدافع التدني، بين أن تتابع الترقي وبين أن تدافع التدني.

إنه من الجميل أن يكون الإنسان مذنباً تواباً، أن يراجع نفسه دائماً كلما زلت قدمه، كلما غفل قلبه، كلما قصر عمله، كلما شعر أن حجاباً بينه وبين الله، المؤمن حكيم نفسه، إذا صليت هل تعجبك صلاتك ؟ إذا أنفقت مالاً هل عاد هذا العمل عليك بالثواب ؟

من أجمل التفاسير التي اطلعت عليها في مفهوم الثواب أنك إذا عملت عملاً خالصاً لله عز وجل لك عليه ثواب، وكلمة الثواب من ثاب، وثاب معناه رجع، يعني رجع عليك إيناس من الله عز وجل، شعرت أن قلبك يمتلئ سعادة إثر هذا العمل الصالح، فعلامة إخلاصك في عملك الصالح أن القلب يهتز طرباً، أن القلب ينتشي سعادة من جراء هذا العمل.

فلئلا يقسو القلب، لئلا تجمد العينان، لئلا يصبح حضور درس العلم عادة من عوائدنا، لئلا ينقلب الدين إلى طقوس، لئلا تصبح مجالس العلم محاضرات تلقى كما تلقى المحاضرات في الجامعات، أنت لست مستمعاً، أنت ممن يسير في طريق الإيمان، لاحِظْ سنة النبي يجب أن تطبقها في البيت، لاحظ أوامر الله عز وجل، دائماً حاسب نفسك هل أنا في مستوى هذه الأوامر ؟ إنك إن فعلت هذا قطفت ثمار الدين وشعرت أن الدين هو الحياة، وأنه من لا دين له لا حياة له، وأن الله عز وجل حينما وصف أهل البعد بأنهم أموات غير أحياء فقد صدق الله العظيم، وحينما قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال 24)

يقول: صدق الله العظيم، وحينما تشعر أن خالق الكون يوقع حياتك على ما يرضيك، وأن هذا الأمر تم بفضل الله، وأن هذا الأمر تم بإكرام الله، وأن هذا الأمر تم بتوفيق الله، وأن هذا الأمر تم بلطف الله عز وجل، إذا كان بينك وبين الله مناجاة.. إذا كان بينك وبين الله دعاء.. إذا كان بينك وبين الله اتصال.. إذا انتشى هذا القلب بذكر الله عندئذ تصبح كوكباً درياً يشعُ النور من حوله.

فلئلا ينقلب مجلس العلم عادة من عوائدنا، لئلا نكتفي بالسماع، لئلا نثني بألسنتنا على الدروس وعلى ملقيها، لئلا يصبح هذا مجاملات، أنا أتمنى أن يكون أحدكم أو كل من يحضر هذا المجلس أن يكون ممن يقطف ثمار هذا المجلس، يعني افتح مع الله صفحة جديدة، تب إليه من كل مخالفة، تفكر في خلق السماوات والأرض، أكثر من ذكر الله، حاول أن تجعل من صلاتك صلة بالله عز وجل، حاول أن يستنير قلبك بنور الله، إذا فعلت هذا قطفت ثمار هذا الدين العظيم وشعرت أنك من السعداء في الدنيا.

ولا تنس أن بعض العلماء فسر قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ))

[الترمذي]

أبو بكر في الجنة أنه يقصد النبي عليه الصلاة والسلام الآن في الجنة، في جنة القرب، فكلما استقمت على أمره، وكلما تتبعت سنة نبيه، وكلما قلدت النبي عليه الصلاة والسلام في بيتك، مع أهلك، في بيعك وشرائك، مع إخوانك جاءتك أنوار النبوة، وجاءك توفيق الله عز وجل، لذلك كم هي سعادة كبرى أن يكون الإنسان في مستوى هذا الكتاب، أن يجعل من بيته بيتاً مسلماً، أن يجعل من زواجه زواجاً إسلامياً، أن يجعل من مهنته دعوة إلى الله عز وجل، ليقول التجّار: انظروا إلى فلان المسلم إنه قدوة، ليجعل من حرفته، إن كان طبيباً، أو صيدلياً، أو محامياً، أو مدرساً، أو موظفاً، أو تاجراً، أو صانعاً، أو صاحب مصنع ليجعل من مهنه مناراً لهذا الدين، انظروا إلى هذا المصنع صاحبه مسلم، انظروا إلى تعامله مع الناس، انظروا إلى جودة بضاعته، انظروا إلى إكرامه لعماله.

ينبغي أن نعيش الإسلام، أخطر ما في الدين أن يبقى الدين في أطراف أدمغتنا معلومات، الإسلام سلوك، الإسلام حياة، الإسلام قلب مستنير، فلذلك إذا اختصرنا الدين إلى درس نحضره، وركعتين نؤديهما، ومبلغ تدفعه إلى الفقير، وأنت لك همومك، وأحزانك، وانشغالاتك، وأنت ممزق بين شهوات الدنيا، أنت ضائع بين الشرك الخفي والجلي، ليس هذا هو الإسلام.

هذا الدين عظيم، كيف أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام في بضعة عشر عاماً رفرفت راياتهم في الشرق والغرب، كيف أنهم أحبوا النبي ؟ إذا حضرتم درس الأحد ترون بأم عينكم كيف كان أصحاب النبي مع النبي صلى الله عليه وسلم، كيف صدقوه، كيف أحبوه، كيف باعوا أنفسهم في سبيل الله، كيف كانوا كالبنيان المرصوص، كيف أحب بعضهم بعضاً حباً يفوق كل تصور، الله هو الله في كل مكان وزمان.

لا تربى وأنت الرب، والله هذه الكلمة لو عقلناها لأفلحنا، يا رب، لا تربى وأنت الرب، أي قلب هذا، خزائن كل شيء بيده، كل المخلوقات بيده، كل الظروف بيده، كل المعطيات بيده، كل القوى بيده، كل من فوقك بيده ومن دونك بيده، ومن حولك بيده، وما حولك بيده كل أعضائك وأجهزتك بيده، إذاً، يا رب، لا تربى وأنت الرب، لا يحزن قارئ القرآن، إذا قرأت القرآن لا تحزن أبداً، أين الحزن ؟ إن جاءت الدنيا على ما تريد فالحمد لله رب العالمين الذي بنعمته تتم الصالحات، وإن جاءت الدنيا على خلاف ما تريد الحمد لله على كل حال، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ، وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ، وَكَانَ خَيْرًا))

[مسند الإمام أحمد 18175]

أنت غالٍ على الله، أنت مطلوب من قبل الله عز وجل، هو الذي يطلبك، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، فإذا وجد الإنسان في بيته مخالفة إخوان فلا ينم الليلة، بل يحاول أن يصلحها، إذا كان بزَيّ زوجته غير إسلامي يحاول أن يقنعها، إذا كان في بيته أجهزة لهو تحجبه عن الله عز وجل يحاول أن يمنعها، إذا كان في بيته حجاب بينه وبين الله يحاول أن يهتكه، إذا كان له صديق يبعده عن مجالس العلم يحاول أن يقطعه، إذا كان له قريب يغريه بالدنيا يحاول أن يقطعه حتى يستقيم على أمر الله، وحتى يقطف ثمار الدين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

(سورة الممتحنة 13)

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[الترمذي]

أخطر ما يواجه المؤمن حينما يلتقي مع غير المؤمن، مع أرباب الدنيا، مع محبي الدنيا، مع الفساق، مع الفجار، هؤلاء يغرونه بالدنيا، ويبعدونه عن طريق الصواب، لذلك أنت حكيم نفسك، الشخص الذي إذا عاملته أو صاحبته... إذا التقيت به... إذا عاملته يرفعك إلى الله عليك بصحبته، والشخص الذي يبعدك عن الله.. يبعدك عن مجالس العلم.. يبعدك عن العمل للآخرة عليك أن تبتعد عنه، إما أن تجره إذا كان بإمكانك أن تجره إلى الدين فأنعِم وأكرِم بهذا العمل، أما إذا كان بإمكانه أن يجرك فلا كانت هذه الصحبة، ولا كانت هذه العلاقة، ولا كانت هذه المودة، لأن الله عز وجل يأمرنا أن نبتعد عن كل رجل من شأنه أن يبعدنا عن طريقه، دقق في قوله تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف28)

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

(سورة لقمان 15)

هذا الذي عاد إلى الله، عاد إليه تائباً، عاد إليه في الأمر والنهي، عاد إليه في كل شيء.

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

المقدِّمة الثامنة: إذا استعصت عليك نفسُك فذكِّرْها بالموت:

من أركان الطريق إلى الله عز وجل أن هذه النفس البشرية إذا استعصت عليك.. إذا أبت أن تطيع الله عز وجل.. إذا استهوتها الدنيا فعليك أن تذكرها بالموت، لأن الله عز وجل كان من الممكن أن يأتي بنا

إلى الدنيا دفعة واحدة، وأن نغادرها دفعة واحدة، عندئذ لا موت، ولا حزن، ولكن شاءت حكمة الله أن نأتي تباعاً، وأن نغادرها تباعاً ليتعظ بعضنا ببعض.

انظر إلى الذي يتوفاه الله عز وجل، كيف أن الذي جمعه في ستين عاماً يتركه في ثانية واحدة لمجرد أن هذا القلب توقف عن النبض، أحياناً يتوقف القلب فجأة، وأحياناً يتباطأ ثمانين ضربة في الدقيقة، إلى سبعين، إلى ستين، إلى خمسين، وقفت أمام ميت تباطأت ضربات قلبه حتى الصفر، حتى قال الطبيب: عظم الله أجركم، فإذا توقف القلب كل الذي حصلته في الدنيا تخسره في ثانية واحدة، وأنت مقدم على حياة أبدية، على حياة لا تنقضي، على جنة لا ينقضي نعيمها، أو على نار لا ينفد عذابها.

إذا استعصت على الإنسان نفسُه... إذا غلبته نفسه.. إذا رأى نفسه مقيمة على معصية فعليه أن يذكرها بالموت، لقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **<< كفى بالموت واعظاً يا عمر>>.**

وفي الأثر:

((إن في معالجة جسد خامد لعبرة))

إنّ تغسيل الميت، وتكفينَه، ودفنَه شيء يهز النفس، ويرجعها إلى ربها بالطاعة، وبالإنابة، وبالتوبة. إذاً: كلما استعصت عليك نفسك، كلما غلبتك نفسك، كلما تاقت نفسك إلى الدنيا علاجها أن تفكر بالموت.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً

هذا من مضمون هذا الدرس.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

شيء آخر:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

(سورة ق37)

إلقاء السمع أحد أركان الإيمان، أن تحضر مجلس علم، أن تتعلم ما لم تعلم، أن تسأل به خبيراً، أن تفهم كتاب الله، إذاً: حضور مجالس العلم أحد دعائم طريق الإيمان، طلب العلم، وهذا الوقت الذي تحضر به درس العلم هو زكاة وقتك، فإذا أنفقت زكاة وقتك بارك الله لك في وقتك.

الله عز وجل من الممكن أن يهدر لك عشرات الساعات، بل مئات الساعات لأسباب سخيفة جداً، قد ينكسر شيء في آلة عندك، ويستهلك من وقتك عشرات الساعات، ارتفاع حرارة ابنك قد يستهلك من وقتك عشرين ساعة بين طبيب ومحلل ومراجعة، وتأمين دواء، إذاً: إذا ضننت على الله عز وجل بساعة تعرف فيها كلامه، إذا ضننت عليه الله عز وجل بوقت تتعلم فيه سنة رسوله، إذا ضننت على الله

بوقت تعرف فيه سيرة رسوله، إذا ضننت على بوقت تعرف فيه أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، إذا ضننت على الله بوقت تعرف فيه أحوال القلب المؤمن فربما أهدر الله لك عشرات، بل مئات الساعات بموضوعات سخيفة جداً لا تقدم ولا تؤخر، فإذا حضرت مجلس علم فإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، اقرأ قوله تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى(4))

(سورة الليل1-4)

هذا الذي يركض ليحضر حفلة لا ترضي الله عز وجل، وهذا يقود مركبته ليوقع أذى بإنسان، وهذا يشتكي ليقيم دعوى على فلان، وهذا ليكسب مالاً حراماً، أما المؤمن فيسارع إلى بيت الله ليتعلم كتابه، ليتعلم أحكام دينه، ليتعلم سيرة رسوله.

إذاً: أحد أعمدة طريق الإيمان طلب العلم.

من أعمدة الإيمان:

ـ التفكر في خلق السماوات والأرض:

أحد الأعمدة الأخرى التفكر في خلق السماوات والأرض، كلما مرت بك آية، كلما مرت بك ظاهرة في صحتك، في جسدك وأعضائك، في طعامك وشرابك، في أهلك وأولادك، في من حولك ومن حولك، قال عليه الصلاة والسلام:

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

[مشكاة المصابيح عن أبي هريرة]

فإذا كان في جانب من جوانب حياتك تفكّر في خلق السماوات والأرض، وفي جانب آخر حضر مجالس العلم، وكلما استعصت عليك نفسك تفكرت في الموت فهناك جانب ثالث:

ـ إقامةُ الصلاة:

الجانب الثالث الصلاة، إذا أديت الصلوات الخمس أداء يرضي الله عز وجل، إذا أتقنت ركوعها وسجودها، إذا أردت أن تكون في الصلاة خاشعاً، وإليها مسرعاً فهذا عماد آخر من أعمدة طريق الإيمان، بقي عليك أن تتحرى أمر الله عز وجل، وأن تستقيم على أمره في كل صغيرة وكبيرة، لا شيء يملأ قلبك سعادة من أن تشعر أنك سائر على منهج الله، وأنك وفق الصراط المستقيم، وأنك وفق الأمر

والنهي.

التفكر في خلق السماوات والأرض، وحضور مجالس العلم والتفكر في الموت إذا استعصت عليك نفسك، والاستقامة على أمر الله لأنها أساس الإقبال على الله، والأعمال الصالحة التي هي زادك في الآخرة، وهي العملة المتداولة.

سؤال خطير: ماذا أعددتَ لنفسك ومجتمعك ؟

سؤال صغير: إذا أردت أن تذهب إلى العمرة، أول شيء يخطر على بالك الريال السعودي، كيف أشتريه ؟ ما سعره اليوم ؟ من أين أشتريه ؟ كم من الريالات يُسمَح أن آخذ معي ؟ هذا أكبر سؤال، وإذا أردت أن تذهب إلى بريطانيا الجنيه، إلى فرنسا الفرنك، إلى روسيا الروبن، إلى أمريكا الدولار، أما إذا أردت أن تذهب إلى الله ما الذي ينبغي أن يشغل فكرك ؟ العملة المتداولة هناك العمل الصالح، ماذا أعددت من عمل صالح ؟ ماذا فعلت ؟ جئت إلى الدنيا، وغادرتها ما الذي فعلته في الدنيا ؟ هل ربيت أولاداً صالحين ؟ هل كنتَ في حرفتك ناصحاً للمسلمين ؟ أم قدمت إلى هذا المجتمع المسلم خدمة ؟ هل كنت عضواً نافعاً ؟ هل كنت عضواً شريراً ؟ هل دعوت إلى الله ؟ هل علمت العلم والقرآن ؟ هل علمت تجويد القرآن ؟ هل علمت أحكامه ؟ هل علمت آياته الكونية ؟ هل طبقته ؟ يا بشر: لا صدقة ولا جهاد فبمَ تلقى الله إذاً ؟هذا أكبر سؤال.

إذا جاء ملك الموت، والموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً، لحكمة أرادها الله يموت المرء شاباً، ويموت كهلاً، ويموت شيخاً فانياً، ويموت بمرض وبلا مرض، يموت إثر مرض عضال وإثر صحة جيدة، كل الأحوال تمر على الإنسان، إذاً: الموت شيء يجب أن نعد له عدته.

أردت من هذه المقدمة ألا تنقلب مجالس العلم إلى سماع وهزّ بالرؤوس، وقول: الحمد لله على الإسلام، والسكنى بالشام، هذه الأقوال التي يقولها عامة الناس، الإسلام التزام وسلوك، الإسلام منظومة قيم يدخل في بيتك، يتعلق بعملك، يتعلق بكلامك، يتعلق بلهوك، الإسلام نظام كامل دقيق يدخل في كل جزئيات حياتك.

إنكم تُحَاسَبون على التطبيق:

فلذلك أيها الإخوة الأكارم، قلت لكم في درس سابق: إنكم تحاسبون لا على سماعكم، بل على التطبيق، وأنا أحاسب لا على إلقاء الدرس، بل على تطبيقه، فقد يسأل الله المستمع: هل استجبت لما قيل لك ؟ وقد يسأل الله المتكلم: هل كنت في مستوى كلامك ؟ فلا كلامي له قيمة عند الله عز وجل إن لم أطبقه، ولا

سماعكم له قيمة عند الله عز وجل إن لم تطبقوا ما تسمعون، وهذه الكلمة أردت منها وجه الله عز وجل، وأن يكون الانتماء لهذا المسجد انتماءً حقيقياً، وأن يكون هذا المجتمع مجتمعاً مسلماً، لا يكون هذا المجلس أفراداً يستمعون إلى محاضرة، بل يكونوا مؤمنين متوادين متناصحين، متآخيين متزاورين، متباذلين متكاتفين متعاونين، إذا رأى الناس مجتمعاً مسلماً هذا أفضل من مليون محاضرة.

عن مثل هؤلاء نبحث:

سمعت قصة والله هزّت كل مشاعري، رجل عنده بيت أراد أن يبيعه، رأى هذا البيت إنسان قال: يا سيدي، بكم تبيعني هذا البيت ؟ قال له: هذا البيت ثمنه ثلاثمئة ألف.. قصة قديمة.. وأنت أحببتك، سأبيعك إياه بمئتين وتسعين ألفًا فهل اشتريت ؟ قال: اشتريت، ولم يكن بينهما إلا هذا الإيجاب والقبول فقط، لحكمة أرادها الله عز وجل جاء إنسان آخر إلى صاحب البيت في اليوم التالي، فحينما رآه أعجبه جداً، وقال: أنا أشتري هذا البيت بثلاثمئة وخمس وعشرين ألف ليرة، فما كان من صاحب البيت إلا أن قال: لقد بعته، وانتهى الأمر، ولن أبيعه مرة ثانية، أصبح الآن ملكاً لفلان، فإذا أعجبك البيت فاذهب واشتره منه، ليس بينهما إلا المباركة، لا بينهما ورقة ولا عقد ولا عربون، ولا ما يسمى في العقود غرامة نُقولٍ أبداً.

الشاري علم أن شخصاً في اليوم التالي دفع 325 ألف، فتألم ألماً شديداً، وظن أن البائع نكص معه، الموعد بعد أسبوع، بعد أسبوع وجد الوضع طبيعياً، جاء إلى البائع، وقال له: البيت جاهز، وهذا المفتاح، وهذا عقد التنازل، وانتهى الأمر، هو شهق، ما هذه الأخلاق، إنسان قبل عشر سنوات يفوت عليه خمسًا وعشرين ألف ليرة لا لشيء إلا لأنه قد قال: لقد بعتك، والبيت مبارك لك.

قال لي هذا الرجل بعد أربع أسابيع: البيت تابع إلى جمعية تعاونية، فرضوا على صاحب البيت الأول المالك سبعًا وعشرين ألف ليرة، فما كان من شاري البيت إلا أن وضع هذا المبلغ في مغلف، وأرسله إلى صاحب البيت الأول، وقال: هذا عليّ، وليس عليك.

هكذا الإسلام، الأول بقي عند كلمته، والثاني عرف للأول كماله ومواقفه الطيبة، فنحن إذا طبقنا الدين شعرنا بسعادة لا توصف، والله الذي لا إله إلا هو الحقيقة إنّ الإنسان لا يسعد بالطعام والشراب، ولا بالبيت الفخم، يسعد بعلاقته الطيبة مع أخيه الإنسان، يسعد بمجتمع مسلم، يسعد بمجتمع فيه المحبة والألفة، والصراحة والنصح، والرحمة والمودة، بهذا يسعد.

هذا هو مجتمع المؤمنين: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

إذا كنا على مستوى مجتمع صغير، على مستوى رواد هذا المسجد لنكن إخوةً، الله عز وجل ماذا قال ؟ قال:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ)

(سورة التوبة 71)

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ)

(سورة التوبة 67)

إنّ دقة القرآن الكريم عجيبة، المؤمنون بعضهم أولياء بعض، المؤمن ولياً لأخيه المؤمن، ينصحه، ويرشده، ويحذره، ويحرص عليه، ويخاف على سمعته، ويرجو له الخير، ويخاف عليه من الشر، كيف أنك أيها الأب عندك ابن غالٍ عليك، كيف تحرص على صحته، وعلى تحصيله العلمي، وعلى دراسته، وعلى مستقبله، وعلى أخلاقه، وعلى دينه، تجد نفسك دائماً في رغبة جامحة للعناية به، والتعبير الشائع في المدارس أرسل وليّ أمرك، من هو ؟ الأب، الأخ الكبير، العم.

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

(التوبة 71)

إذا لم تكن وليّا لكل مؤمن فلست كامل الإيمان.

من بنود الولاية للمؤمنين: المؤاخاة في الله:

أنا أحياناً أبدي هذه الملاحظة العابرة، أخ من إخواننا الكرام يتغيب عن دروس العلم، والله من يومين أخ لاحظت أنه لم يأت من أربعة أسابيع، والله قلقت عليه قلقاً كبيراً، يا ترى هو مريض أم أصابته مشكلة ؟ يا ترى إنسان ألقى عليه شبهة ؟ يا ترى زاغت عليه نفسه ؟ ثم علمت أنه مسافر، فقلت: ليت الذي يسافر يعلمني أنه مسافر لتريح أخاك راحة كبيرة، بدل أن يفكر أنك انقطعت، أو أنك وقعت في شبهة، أو أنك مريض، أو أنك تعاني من مشكلة، كل هذه الاحتمالات والوساوس، وهذه الخطرات تريحنا، لو قلت: إنك مسافر إلى المكان الفلاني انتهى الأمر، بارك الله لك في سفرك، ورافقتك السلامة، وندعو لك.

هذا مجتمع، وأنت تعيش في هذا المجتمع، تعيش مع إخوانك المؤمنين، أنت منتمٍ إلى مسجد وإلى جماعة مؤمنة، فيجب أن نتمثل هذه التوجيهات النبوية، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تآخيا اثنين اثنين))

[ورد في الأثر]

ألا تريد عملاً صالحاً ؟ أقلُّ عمل صالح في هذا المسجد أن تؤاخي أخاً تتفقده من حين لآخر، لعله مريض، لعله مصاب بمشكلة، لعله يعاني من أزمة، لعله يعاني من خلاف مع زوجته، فإذا تفقدت أخاك، وعرفت أحواله، غاب عن الدرس فسألت عنه، اختر أخاً وآخه في الله، وهو عملك الصالح، قد يكون هو أعلى منك، ليس هناك مانع، قد يكون أكبر منك سناً، لكن أنت اختر أخاً بحسب مهنتك، بحسب عملك، بحسب مجيئك إلى المسجد، هذا الأخ إذا تآخيت معه، وتفقدت أمره، وتفقد أمرك، وتفقدت غيابه، وتفقد غيابك، واسيته في مرضه، وواساك في مرضك، أعلمته عن كل أحوالك فساهمت معك في خدمته، هذا مجتمع مؤمن، هذا المجتمع الذي يرضي الله عز وجل.

القضية أعظم من أنه درس ألقي، ومستمع استمع، الأمر أعظم بكثير، أنت منتمٍ إلى جماعة مؤمنين، موقف أخلاقي، أو معاونة إلى أخيك أبلغ عنده مِن ألف محاضرة، ما قيمة الكلام ؟ أنت بحاجة إلى أخ إلى جانبك يرعاك، إذا كان الجار العادي له معاملة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أتدرون ما حق الجار: إذا استعانك أعنته، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فأهدِ إليه منها، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها))

[الترغيب والترهيب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

وإذا كان الجار مسلماً فله حقان عليك، والجار المسلم القريب له ثلاثة حقوق، أما أخ الجامع فله أربعة حقوق، هذا الأخ مسلم، وجارك في المسجد، وقرابة الإيمان أعلى قرابة، وقرابة الأخوّة في الله أعلى قرابة، فلذلك الذي أتمناه عليكم أن تتآخيا اثنين اثنَين، اختر أخاً لك، جارك في البيت، زميلك في العمل مقارباً لك في السن، تفقده وليتفقدك، زره وليزرك، اسأل عنه وليسأل عنك، أبلغني عنه إذا كان بالإمكان أن أقدم خدمة له، هذا المجتمع أساسه متين، المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، أخوك تألم اعتذر منه، قدّم له هدية تجلو بها قلبه.

أحياناً يقع سوء تفاهم بين أخوين في المسجد، قد تصبح هناك حساسية مفرطة أو شيء من الغيرة أحياناً أو الضعف، فأنت عليك أن تجعل منك ومن أخيك بنياناً مرصوصاً يشد بعضه بعضاً.

فهذه المقدمة لعلي أطلت فيها، أردت منها ألا يكون حضورنا لمجالس العلم حضوراً شكلياً، أريد أن يكون انتماؤكم لهذا المسجد انتماءً حقيقياً، انتماء لجماعة المؤمنين، قال تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات 10)

لا تكون مؤمناً إلا إذا كنت أخاً لأخيك المؤمن، إنما تفيد الحصر، لا تكن مؤمناً إلا إذا شعرت بالأخوة الصادقة مع أخيك المؤمن، وأي مؤمن، إياك أن تظن أن المؤمنين هم الذين يحضرون معك مجلس العلم، لا.. يجب أن يكون انتماؤك لأي مؤمن مادام هذا الرجل قد عرف الله، واستقام على أمره، وأحبه، وعمل لآخرته فهو مؤمن يجب أن تنتمي إليه، وأن تحبه، وأن تعينه، وأن تنصره.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ

آيات اليوم، الله سبحانه وتعالى يقول:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

1 – الحق والباطل:

الحق خلاف الباطل، الباطل الشيء الزائل، الحق الشيء الثابت، فأي جهة غير الله عز وجل هي جهة باطلة، والفكر الوضعي باطل يتهاوى بعد عام أو أكثر أو بعد سبعين عاماً، السلوك الباطل ينقُضُه الحق، أي شيء غير الله باطل، ألا كل شيء ما خلا الله باطل، فأنت إما أن تربط مصيرك مع شيء زائل سرعان ما يتهاوى.. سرعان ما يتداعى.. سرعان ما ينتهي.. سرعان ما تكشف حينما يزول.

2 – أنت إما مع الحق وإما مع الباطل:

وإما أن تكون مع الثابت مع الحق، إن كنت مع الحق فالله سبحانه وتعالى لا يحول ولا يزول، إن كنت مع الحق فأنت في صعود، وإن كنت مع الباطل فأنت في نزول، إن كنت مع الحق فأنت في ثبات، وإن كنت مع الباطل فأنت في زلزال، إن كنت مع الحق فأنت في تقدم، وإن كنت مع الباطل فأنت في تأخر.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

فالحق هو الشيء الثابت الأبدي السرمدي، المعنى الآخر الحق يقابل الباطل.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا)

(سورة ص 27)

الباطل هو الزائل.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء 16)

إذاً: الحق دائماً على عكس الباطل الزائل، وعلى عكس اللعب العابث، فأنت إذا كنت مع الله فهو الثابت، وهو العظيم، وهو الكامل.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

3 – لا حق إلا ما حقه الله:

لو أن الله سبحانه وتعالى قال: ذلك بأن الله حق، ما الفرق بين التعبيرين ؟ ذلك بأن الله حق، يعني أنه يمكن أن يكون هناك حق آخر غير الله عز وجل، الله حق وهناك حق آخر، أما ذلك بأن الله هو الحق أي لا حق سواه، إذا جاء الخبر معرفاً بـ (أل)فهو أحد أنواع القصر، فالحق هو الله، ولا حق سواه.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)

الثابت، الأبدي، السرمدي.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27))

(سورة الرحمن 26-27)

أنت مع الدائم، مع الأبدي السرمدي، مع الذي لا يحول، ولا يزول، أما مع الأشخاص فقد تعلّق الآمال على إنسان فيُعزل من منصبه، أو علقت الأمل على فلان فمات، أو علقت الأمل على هذا القرار فألغي القرار، أو علقت الأمل على زيد فمات زيد، أو علقت الأمل على عبيد فتنكر لك عبيد بلا سبب، فكل ما سوى الله باطل، من أشخاص، وأفكار، وأيّ شيء ما سوى الله باطل، فالبطولة أن تكون مع الحق لا مع الباطل.

4 – الباطل قد يكون فكرا وعملا وسلوكا واعتقادا:

هناك فكر باطل، وعقيدة باطلة، ومذهب باطل، واتجاه باطل وتجمع باطل، وسلوك باطل، وعمل باطل، ومهنة باطلة، إياك أن تكون مع الباطل، كن مع الحق.

والحق من معانيه السمو، فإياك أن تسفل.

((إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها))

[الجامع الصغير عن سهل بن سعد]

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ)

فماذا بعد الحق إلا الضلال، وأيّ فكر غير ديني باطل، أي سلوك غير ديني باطل، أي كتاب لا ينتقى من كتاب الله فهو باطل، أي مذهب، أي فكر، أي عقيدة، أي سلوك، أي تصرف، أي تجمع، أي شيء لا يستقي من الحقيقة الأولى وجوده وانتظامه هو باطل.

وَ أنّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبيرُ

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

1 – معنى العليّ الكبير:

العلي الذي تعالى عن النقص، والكبير الذي اتصف بكل صفات الكمال.

2 – من دلالاتِ وإشارات الآية:

في هذه الآية إشارة إلى ثلاثة أشياء أساسية، إلى أن الله واجب الوجود هو الحق، وإلى أن الله عز وجل منزه عن كل نقص، وإلى أن الله له أسماء عليا وصفات فضلى، إذاً: فهو موجود وجوداً واجباً، أي أنه واجب الوجود، ومنزّه عن كل نقض، ومتصف بكل كمال، هذا هو الله عز وجل، موجود، كامل، منزّه عن النقص، هل يمكن أن تتجه إلى غير الله عز وجل ؟ هل هناك جهة في الأرض تستحق أن تلتفت إليها ؟ هل يمكن أن تمضي عمرك الثمين لغير الله عز وجل ؟

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

3 – وجوب إخلاص الوجهة لله تعالى وحده:

واجب الوجود، تعالى عن كل نقص، اتصف بكل كمال، ذلكم الله رب العالمين، لمثل هذا فليعمل العاملون، إلى هذا الإله العظيم فلنتجه، إلى طاعته فلنبادر، معصيته فلنبتعد، عن ما سواه فلنجاف.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ)

أَلَمْ تَرَ أَنّ الفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ

1 – معجزة جريان الفلك في البحر:

الفلك هي هذه السفن العملاقة التي تجري، ثم انظر إلى هذا الإنسان الجاهل إذْ يقول: هذه السفينة صنعتها اليابان تحل مليون طن، هذه السفينة ليس فيها رافعات، فيها ممرات تدخل فيها الشاحنات بعجلاتها، أنت معجب بهذه السفينة، ولست معجباً بهذا البحر الذي يحمل السفينة، من جعل ذرات الماء

متماسكة بحيث تدفع نحو الأعلى، حتى ينغمس كل جسم في الماء، ويدفعه إلى الأعلى بقوة تكافئ الماء المُزاح ينغمس وهذا قانون (أرخميدس)، انظر الآية الكريمة:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللّهِ)

2 – المؤمن يعظِّم صنعة الخالق:

بنعمة الله، فالإنسان من ضعف إيمانه يتجه إلى تعظيم مصنوعات الخلق، بينما المؤمن يتجه إلى تعظيم صنعة الخالق، إذاً:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللّهِ)

إذاً: قوة تماسك الماء، والقوة الدافعة التي أودعها الله في الماء تدفع بها الأجسام المنغمسة فيه. املأ وعاء من الماء، وضعه في حوض، تشعر أن وزنه انخفض إلى الربع، بقوة تدفع نحو الأعلى، هذا قانون قننه الله عز وجل رحمة بنا، لو أن كل شيء انغمس فيه وغاص إلى أعماقه لأصبح البحر حاجزاً منيعاً بين القارات.

3 – البحر طريق وهمزة وصلٍ بين القارات:

إنّ بفضل هذه الخاصة التي جعلها الله في الماء أصبح البحر أداة اتصال بين القارات، طريقاً معبداً، والطرق المعبدة في البر تكلف مئات الألوف وملايين والملايين، بينما البحر كله طريق، والحمولات كبيرة جداً.

الآن هناك مراكب ناقلات نفط، بواخر عملاقة تحمل مليون طن، فهل هناك مركبة تمشي على عجلات، إذا أردنا أن ننقل معملاً على طريق يجب أن نعدل كل الجسور، لأن وزن هذه المحطة ثلاثمئة طن، ولا يوجد جسر من طرطوس إلى دمشق يتحمل ثلاثمائة طن، إذاً: الطرق البرية متعبة جداً، ومكلفة جداً، الله جعل البحر همزة اتصال بين القارات، طريق معبد، لذلك تجد عشرات بل مئات بل ألوف الألوف من المراكب كلها تنقل السلع والمواد والخيرات والمحاصيل والأغذية والآلات بين القارات، هذا من فضل الله عز وجل، هذه آية أمام أعيننا.

(أَلَمْ تَرَ أَنّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ)

لِيُرِيَكُمْ مِن آيَاتِهِ:

الماءُ من آيات الله:

هذه (من)للتبعيض، هذه بعض آياته، الهواء من آياته، والماء من آياته، والملوحة من آياته، والقارات من آياته، وتوزع القارات من آياته، وتحرك الهواء من آياته، والمطر والسحاب والطقس والحرارة والبرودة من آياته، وأن الماء إذا تجمد يزداد حجمه من آياته، ولولا هذه الظاهرة ما عاش مخلوق على وجه الأرض.

الماء في الدرجة(+4) إذا جمدته يزداد حجمه، لولا هذه الظاهرة لانعدم المطر، وانعدم النبات، ومات الحيوان، وتبعه الإنسان، وانتهت الحياة من على سطح الأرض، فإذا تابع الماء انكماشه في التبريد، والماء درجته ثلاثون، وبتبرّده ينكمش إلى الدرجة (+4)، إذا تابعت تبريده يزداد حجمه، فإذا ازداد حجمه، وآلية ازدياده معقدة تعقيداً يصعب فهمه، هذه من آيات الله.

(لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ)

أية آيات الله ننكر ؟!.

(إنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلّ صَبّارٍ شَكُورٍ)

إنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلّ صَبّارٍ شَكُورٍ

1 – معنى صَبّار:

الصبار على وزن فعّال، يعني كثير الصبر، والشكور على وزن فعول كثير الشكر.

2 – مِن لوازم الصبّار:

يجب أن تكون كثير الصبر عن معصية الله، ويجب أن تكون كثير الصبر على طاعة الله، يجب أن تكون كثير الصبر على الأمر التكليفي، افعل ولا تفعل، ويجب أن تكون كثير الصبر على الأمر التكويني، لو أن الله جعل زيداً عقيماً هذا أمر تكويني، أما لو أنه جعله فقيراً، لو جعله مريضاً هذا أمر تكويني، هناك أمر تكليفي، وهناك أمر تكويني، ويجب أن تصبر على الأمرين معاً.

3 – معنى شكور ولوازمه:

وشكور لنعمة الإيجاد، وشكور لنعمة الإمداد، سخر لك الماء والهواء، والطعام والشراب، والزوجة والولد، والمأوى، والصوف والقطن، والمعادن وأشباه المعادن، والغازات والمائعات، لكل صبّار شكور على نعمة الإيجاد، وعلى نعمة الإمداد، وعلى نعمة الهدى والرشاد.

(وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

نموذج بشريّ متكرّر: وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

1 – مِن فطرةِ الإنسان: اللجوء إلى الله في الشِّدّة:

أحياناً يكون الإنسان ملحداً، يقول لك: هذا الدين أفيون الشعوب، هذه كلها أطروحات غيبية لا تُجدينا نفعاً في الواقع، نريد مقتَرَحًا علميًا حتى لا يتنطع أعداء الدين، مثل هذا الإنسان لو أصابه مرض عضال، لو أصابه ورم خبيث، لو تعطل دسام في قلبه، لو ضاق الشريان التاجي، يا الله، أين ما كنت تدعو إليه ؟ أين كفرك ؟ أين إلحادك ؟ أين استهزاؤك بالدين ؟ تقول: يا رب، ليس لي غيرك، هذه فطرة، أنت في فطرتك مؤمن بالله وتعلم أن الأمر بيد الله، وأنه الخالق، وأنه المربي، وأنه المسير.

2 – البطولة معرفةُ الله في الرخاء الشِّدّة:

البطولة أن تعرفه وأنت صحيح، وأن تعرفه وأنت غني، وأن تعرفه وأنت شاب،وأن تعرفه وأنت في بحبوحة، وأن تعرفه وأنت قوي هذه البطولة، أما إذا جاء المرض، إذا جاء الضيق، إذا فقدت حريتك، إذا ألمّ بك ما ألمّ تقول: يا رب، ليس لي غيرك، هذه نموذج بشري متكرر، اسمعوا إلى قوله تعالى:

(وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ)

3 – هذه هي أحوال الناس في الشدة:

قد يكون الإنسان في الطائرة، والله حدثني أخ قال لي: كنت راكباً طائرة أوشكت على السقوط، دخلت في صاعقة في جو باريس، وتهشمت مقدمتها، وتعطلت فيها بعض الأجهزة، وانكسر البلور أمام قائد الطائرة، وأصبح سقوط الطائرة وشيكاً، فقال لي قولاً: الركاب بعضهم يلطم خده، وبعضهم يمزق ثوبه، وبعضهم يقول: يا أولادي، يا زوجتي، أراد الطيار أن يطمئن الركاب، أن يقوي من معنوياتهم فكلف

مضيفاً أن يبلّغهم، فذهب ليبلغهم فلا أحد استمع إليه، كلٌّ غارق في مأساته، إلى أن رأى واحداً توسم فيه خيراً، رآه بارد الأعصاب، وكزه، فإذا هو مغمى عليه، هذه مثل الباخرة، وقد تكون في سيارة أحياناً، في باخرة، في مرض عضال، هذا نموذج متكرر.

(وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

البحر هادئ، والنسيم عليل، سهرة على سطح الباخرة، وحفلة رقص في داخلها، والملهى الفلاني، هذه باخرة (تيتانيك)أول ما أقلعت من إنجلترا هي تعد في وقتها أعظم باخرة في العالم، كتب عن هذه الباخرة: أن القدر لا يستطيع إغراقها، صنعت من طبقتين، فأيما مكان ثقب تغلق الأبواب الداخلية، وتبقى تمخر عباب البحر، لم تصنع فيها قوارب النجاة، ركبها أثرياء أوربا، ثمن الحلي على صدور نسائها يبلغ مئات الملايين، وكل ركابها من الطبقة الثرية، وهم يعتقدون اعتقاداً جازماً أن هذه الباخرة لا يستطيع القدر إغراقها، وفي أول رحلة لها ارتطمت بجبل ثلجي شطرها شطرين، واستغاثت، فكل من حولها ظنوا أن استغاثاتها احتفالات على ظهرها، وقبل ستة أشهر أو أكثر عثروا على حطامها في قاع المحيط، وهم يبحثون الآن عن ثروات بداخلها.

(وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ)

4 – من أسوأ ما في نهاية النجاة: نسيانُ فضل الله:

والله ربان الباخرة كان ماهراً جداً، فقد أنقذنا من الموت، أبشع شيء في الإنسان أنه إذا وقع في مصيبة، أو في مشكلة كبيرة بعد أن يتفضل الله عليه بتخليصه وإنجائه يعزو هذا التخليص إلى غير الله عز وجل، يا أخي الطبيب ما شاء الله، كان هناك التهاب سحايا فلما قدر الله لابنك الشفاء على يد هذا الطبيب نسيت الله عز وجل، هذه الدعوى ما شاء الله المحامي من الدرجة الأولى له صلات مع القضاة، قوي، الله عز وجل قواك على خصمك، فتعزو الأمر إلى غير الله، هذا مرض أهل البُعد، هذه صورة نموذج بشري.

(وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ)

فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِد

أيْ معتدل، يعزو هذا تارة إلى الله عز وجل، وتارة إلى الربان الفلاني.

سمعت أن قائد الطيارة التي قادها إلى برّ الأمان نسي جميع الركاب أن الله لطف بهم، وعزوا هذا إلى أعصاب الطيار المتينة، فلو أن الله عز وجل أضعف مقاومته لانهار مع الركاب، وكانوا كلهم في نعي واحد، ويقول لك: مات جميع ركابها.

(فَلَمّا نَجّاهُمْ إِلَى الْبَرّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآَيَاتِنَا إِلّا كُلّ خَتّارٍ)

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاّ كُلّ خَتّارٍ كَفُورٍ

مَن هو الختَّارُ ؟

الختّار هو الخوان.

(وَمَا يَجْحَدُ بِآَيَاتِنَا إِلّا كُلّ خَتّارٍ كَفُورٍ)

في الدرس القادم إن شاء الله نكمل تفسير قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ فَلَا تَغُرّنّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرّنّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ (33) إِنّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة لقمان 031 - الدرس (13-13): تفسير الآيتان 33 - 34
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-08-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الثالث عشر والأخير من سورة لقمان، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ فَلَا تَغُرّنّكُمُ الْحَيَاةُ الدّنْيَا وَلَا يَغُرّنّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ (33) إِنّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34))

استنباط من الآية الأخيرة من سورة لقمان:

دعوة الناس جميعا إلى معرفة الله وطاعته:

أول استنباط من قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النّاسُ)

أي أن الله عز وجل دعا الناس جميعاً إلى معرفته وإلى طاعته، وأنه ليس بين الناس تفاوت، فكل الناس مطلوبون.

قد يتوهم متوهم أن الله خلق فلاناً مؤمناً، وخلق فلاناً كافراً، وأنه خص المؤمنين بفضله، وحرم الكافرين من عطائه، هذا كلام مرفوض، لأن الخلق كلهم عباده، والخلق كلهم خلقهم ليرحمهم.

(إِلّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود 119)

فلذلك من حين لآخر يخاطب الله الناس كافة، بل إن الأصح أن نقول: إن الله عز وجل يخاطب عامة الناس بأصول الدين، ويخاطب المؤمنين بفروعه.

مثلاً: لا يعقل أن تقول لإنسان لم يؤمن بالله: غض بصرك عن محارم الله، تقول للإنسان غير المؤمن: آمن، انظر إلى السماء، انظر إلى الأرض، انظر إلى ملكوت الله عز وجل، انظر إلى طعامك، إلى شرابك، إلى خلقك، إلى نفسك، إلى ولدك، فعامة الناس يخاطبون بأصول الدين، وخاصتهم المؤمنون يخاطبون بفروعه، فهذه دعوة عامة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

اتَّقُوا رَبَّكُمْ

1 ـ معنى: اتَّقُوا:

اتقوا فعل أمر، ماضيه اتقى، واتقى فعل خماسي مَزيد على وزن افتعل، ومجرده وقى، والوقاية لا تكون إلا من شيء مخيف أو شيء خطير.

إذاً: إذا عاش الإنسان في الدنيا يجب أن يعلم أن هناك شيئاً سوف يقع فيه إن لم يعرف لماذا خلق ؟ إن لم يعرف لماذا جاء الله به إلى الدنيا ؟ فكلمة اتقوا يعني اتقوا عذابه بطاعته، اتقوا الشرك بالتوحيد، اتقوا عذاب النار بطاعته في الدنيا، اتقوا المصائب بالقيام بأمره والانتهاء عما عنه نهى، فلذلك اتقوا ربكم أي تعرفوا إليه، وأطيعوه لئلا تلقوا شرّ أعمالكم.

أحياناً لو قلت لإنسان: كن طبيباً، فهذا الأمر يقتضي أن يحمل شهادة ثانوية، وأن يدخل الجامعة، وأن يُقبل في كلية الطب، فكن طبيباً تعني أن ادرس الثانوية أولاً.

2 ـ كيف تتقي الله:

أحياناً يأتي الأمر، وينطوي فيه أمر، إذا قال الله عز وجل:

(اتَّقُوا اللَّهَ)

كيف تتقي عذابه ؟ بطاعته، كيف تطيعه ؟ إذا عرفته، إذاً: اعرفه وأطعه عندئذ تتوقى عذابه في الدنيا والآخرة.

طبيعة النفس البشرية تحب السلامة، تحب الكمال، تحب الاستمرار، تحب الصحة، تحب الغنى، تحب المكانة الاجتماعية، هذه أشياء محببة للنفس، وما منّ إنسان إلا ويكره المرض، ويكره الفقر، ويكره أن يهان، يكره أن يعذب، يكره أن يحرم، فالإنسان مفطور على حبّ الخير، ومفطور على كره الشر، فإذا كانت هذه فطرتك فلن تتحقق فطرتك إلا إذا أطعت ربك، ولن تطيعه إلا إذا عرفته، إذاً إذا قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

تعرفوا إليه، وأطيعوه، إذا أطعتموه، وطبقتم منهجه، ونفذتم تعليماته، وائتمرت بأمره، وانتهيتم بنهيه، صدقتم بشارته، وصدقتم إنذاره، وفعلتم حلاله، وتركتم حرامه، صدقتم وعده، وصدقتم وعيده، إذا فعلتم ذلك سعدتم في الدنيا والآخرة، إذا:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أصلان اعتقاديان متلازمان: الإيمان بالله واليوم الآخر:

الحقيقة في العقيدة شيئان متلازمان: الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، لو أن إنساناً آمن بالله الإيمان الكامل، ولم يؤمن باليوم الآخر فلن يستقيم على أمره، ما الذي يحملك على طاعة الله ؟ أشياء كثيرة، أولها: الإيمان بالله عز وجل، وإيمانك بأنه يراك، وإيمانك بأنه سيحاسبك، إذا آمنت به، ولم تؤمن بأنه يراك فلن تستقيم على أمره، إذا آمنت به، وآمنت بأنه يراك، لكن لن يحاسبك، فلن تستقيم على أمره، ثلاثة أشياء فاحفظوها: لن تستقيم على أمره إلا إذا آمنت بوجوده، وآمنت بأنه يراك، وآمنت بأنه سيحاسبك.

لذلك مع أن أركان الإيمان خمسة، لكن اثنين منها يركز القرآن عليها كثيراً: الإيمان بالله واليوم الآخر.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

الدنيا ليست مقياسا:

لأن هذه الدنيا دار عمل ودار ابتلاء، فكثيراً ما يستقيم الإنسان، ويعالج من قبل الله عز وجل على الرغم من بعض استقامته، وكثيراً ما يكون بعض الناس خارج المعالجة الإلهية، يمدهم الله بالصحة والمال، وهم غارقون في المعصية، فإذا نظرت إلى الدنيا وعددتها هي المقياس فهذا خطأ، قد تجد إنساناً مستقيماً، وفي حياته خشونة، قد تجد إنساناً مستقيماً، وفي حياته بعض المتاعب، لماذا ؟ لأن الله يحمي صفيّه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام.

إذاً: ليس من باب القياس أن تظن أن هذا الغني الفاسق الفاجر على حق، لأنه معافى في صحته، وماله وفير، وأن هذا المؤمن المستقيم الذي يتولاه الله بالرعاية والعناية المكثفة، أن هذا الإنسان ليس على حق لأنه معذب.. لا، ليست الدنيا مقياساً، لكن الله عز وجل في الدنيا يكافئ المحسن، ويعاقب المسيء، لكن مكافأة المحسن مكافأة تشجيعية له ولغيره، ومعاقبة المسيء معاقبة ردعية له ولغيره، لكن ما كل محسن يثاب في الدنيا، وما كل مسيء يعاقب.

أناس كثيرون في أعلى أنواع القوة والصحة والبحبوحة يموتون، لكن أين الفصل ؟ في يوم الفصل، أين الحساب ؟ يوم الحساب، أين الجزاء ؟ يوم الجزاء، أين دفع الثمن الكامل ؟ يوم القيامة.

فلذلك أنا أعرف أن المستقيم يكافئه الله في الدنيا قبل الآخرة، والمسيء يعاقبه في الدنيا قبل الآخرة، لا أن تكون قاعدة مطردة، قاعدة في الأعم الأغلب لحكمة أرادها الله عز وجل، قد يكون من الحكمة أن يسيء المسيء، ولا يعاقب لخير يعلمه الله فيه، فإذا ساق له بعض الإكرام لعله بالإكرام وحده يعود إلى الله عز وجل، فأنت لا تعلم كل الحقيقة، بل تعلم بعضها، اجعل اليوم الآخر هو المقياس، فإن لم تجد إنساناً قد عوقب في الدنيا فاعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يتفلت من العقاب يوم القيامة.

لكن أقول لكم: الدنيا دار عمل كلياً، ودار جزاء جزئياً، والآخرة دار جزاء كلياً، لهذا قال الله عز وجل:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران 185)

التوفية الكاملة.. الحساب الدقيق.. الحساب الكامل.. الفصل الكامل يوم القيامة، إذًا: يجب أن نؤمن أن الدنيا دار عمل وأن الآخرة دار جزاء، أن الدنيا دار تكليف، وأن الآخرة دار تشريف، أن الدنيا دار ابتلاء، وأن الآخرة دار عطاء، لذلك لن يستقيم إيمانكم إلا إذا جمعتم بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر، إن لم تؤمن أن الله موجود وأنه مطلع عليك، سميع لقولك عليم بحالك، وأنه لا بدّ من أن يحاسبك:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر92-93)

إن لم تؤمن كذلك لن تستقيم على أمر الله، هذا الموضوع ينقلنا إلى موضوع نحن بحاجة إليه.

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق 12)

خلق السماوات والأرض علته أن تعلم:

(أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق 12)

اختار الله من بين أسمائه الحسنى كلها اسمين فقط: علمه وقدرته، علمه يطولك وقدرته تطولك، هو موجود، ويعلم، وسيحاسبك، انتهى الأمر، كن بطلاً، واعص أمره، اعص وانظر، لن تتفلت من عقابه، لا بدّ أن تدفع الثمن باهظاً، فلذلك إذا أحبّ الإنسان نفسه، إذا كان محباً لذاته فقط، إذا طلب السلامة، طلب الكمال، طلب وجوده، طلب سلامة وجوده، طلب كمال وجوده، طلب استمرار وجوده فعليه بطاعة الله عز وجل، لذلك أرجحكم عقلاً أشدكم لله خشية.

الذي أتمنى عليكم أن تجمعوا بين هذين الشرطين:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً)

اتقوا، تعرفوا، وأطع تتق عذابه في الدنيا والآخرة.

(وَاخْشَوْا يَوْماً)

وَاخْشَوْا يَوْمًا

هناك يوم يقف الناس فيه بين يدي رب العالمين.

والله أيها الإخوة الأكارم لو دعي إنسان قبل سبعة أيام ليلقى شخصاً مهماً، تعال يوم السبت، الساعة العاشرة، للسؤال، والدعوة لطيفة، بورقة لطيفة، أنا أقسم، ولا أبالغ أنك لا تنام الليل خلال سبعة أيام، لأن إنساناً قوياً سوف يسألك، لماذا قلت كذا ؟ مع من التقيت ؟ ماذا أردت بهذه الكلمة ؟ إذا قال لك إنسان: تعالَ إليّ لأسألك، فإنك لا تنام الليل سبعة أيام، خالق الكون يعلم السرّ وأخفى.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر92-93)

افعلْ مَا تشاء وهيئ لله جوابا عن كلّ ذلك:

لذلك أيها الإخوة، هذه كلمة من القلب إلى قلب، افعل ما تشاء، ولكن إذا كنت بطلاً هيئ لربك إجابة عن كل فعل تفعله، لماذا فعلت كذا ؟ لماذا أعطيت ؟ لماذا منعت ؟ لماذا حرمت ؟ لماذا سخوت ؟ لماذا ابتسمت ؟ لماذا عبست ؟ لماذا حابيت فلاناً ؟ لماذا نفرت من فلان ؟ لماذا طلقت ؟ لماذا قلت هذا الكلام في البيع ؟

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر92-93)

المؤمن لا ينجو من عذاب الله عز وجل إلا إذا تمثل في كل موقف يقفه في الدنيا أن الله سيسأله، سيحاسبه، ليس هناك كذب.

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة يس65)

كتابك الذي فيه أعمالك كتاب مرقوم، صفحاته مرقمة، ليس بالإمكان أن تنزع منه صفحة، وصفحاته فيها الذنب مع الصورة، الصورة هي الدليل، والآن أرقى المخالفات، يقدم لك المسؤول عن هذه المخالفة صورة مركبتك وهي متلبسة بالمخالفة، هل تقول: لم أكن في هذا المكان ؟ أليست هذه مركبتك ؟ أليس هذا رقمها في مؤخرتها ؟

ذلك مرة ثانية: إذا آمنت بوجوده، وآمنت بأنه يعلم، وآمنت بأنه سوف يحاسبك لا بدّ من أن تستقيم على أمر الله، بل إن الأمر أقلّ من ذلك.

لا تعصي مخلوقا مثلك أقوى منك فكيف تعصي الخالق العظيم ؟!!!

شخص مثلك من بني الشر، إذا أيقنت أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، تخاف منه.

أبسط مثل بين أيديكم: أنت راكب مركبة، والإشارة حمراء، والشرطي واقف، ودورية واقفة، ودراجات الشرطة جاهزة، إذا كنت بطلاً فخالف ؛ وأنت طبعاً إنسان عادي، تفضل خالف ! لا يمكن أن تخالف، لو تجاوزت هذه الإشارة تبعك أصحاب الدراجات النارية، وهناك من يضعك في موقف حرج، لا حظ نفسك مع إنسان عادي، مع شخص من بني البشر، من جلدتك، أقوى منك قليلاً، ويطّلع عليك، وبإمكانه أن يتابعك، لن تخالف، فكيف يعصي الإنسان ربه ؟ كيف يعصيه ؟ أي إنسان أصدر قراراً وهو يعني ما يقول ولم يعف عنك، ولم تتفلت من رقابته، تجد نفسك مطواعاً، تقدم له الطواعية، الطاعة طواعية، هذا شأن النفس البشرية، ربنا عز وجل أكثر الأحيان يقول:

(آمَنُوا باللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

(سورة النساء 39)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ)

لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ

1 ـ لا نسب ولا خلة ولا علاقات يوم القيامة:

السيدة عائشة قالت: **يا رسول الله، أيعرف بعضنا بعضاً، يوم القيامة** ؟ نحن عندنا علاقات، أم، وابن، وأب، وأخ، وابن عم، وشريك، وصهر بنت، وعلاقات نسب، وعلاقات مصاهرة، وعلاقات تجارية، وعلاقات جوار، علاقات كثيرة جداً، يا ترى لو أن إنساناً وقعت عينه على أمه يوم القيامة أيعرفها ؟ أيقول لها: يا أمي ؟ أتعرفه ؟ أتقول له: يا ولدي؟

سألت السيدة عائشة هذا السؤال، قالت: يا رسول: **أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة** ؟ قال:

((نعم يا أم المؤمنين، إلا في ثلاثة مواقف: عند الصراط، وإذا الصحف نشرت، وعند الميزان))

في هذه المواقف لو وقعت عين أحدنا على أمه لا يعرفها، ولو وقعت عين الأم على ولدها لا تعرفه لهول الموقف، ولا في الدنيا كذلك، إذا كانت الأزمة كبيرة جداً، أو إنسان في مشكلة فوق طاقته لا يرى

ابنه.

أنا أذكر أن في بعض الزلازل أقبلت أم على ابنها لتحمله، وتذهب خارج البيت، بعد أن أصبحت في العراء رأت وسادة على يدها، وليس ابنها، من شدة الخوف أقبلت على ابنها لتحمله فحملت الوسادة، لم تفرّق حينما اضطربت بين ابنها والوسادة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج1-2)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

تعرفوا إليه، وتعرفوا إلى أمره، وأطيعوه حتى تسعدوا في الدنيا والآخرة، وحتى ينجو الإنسان من عذاب الدنيا والآخرة.

(وَاخْشَوْا يَوْماً)

2 ـ لا ينفع الابنَ أبوه وأمه: لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ

السيدة عائشة لما سألت النبي عليه الصلاة والسلام: **يا رسول الله، أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة،** قال:

((نعم يا أم المؤمنين إلا في ثلاثة مواطن: عند الصراط، وعند الميزان، وإذا الصحف نشرت، وفي غير هذه المواطن قد تقع عين الأم على ولدها تقول له: يا ولدي جعلت لك بطني وعاءً، وصدري سقاءً، وحجري وطاءً، فهل من حسنة أنتفع بها ؟ يجيبها ابنها: ليتني أستطيع ذلك يا أماه، إنما أشكو مما أنت تشكين))

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ)

والله الذي لا إله إلا هو لو أنك ابن رسول الله، ولم تكن مستقيماً على أمر الله لا تنفعك هذه الأبوة من الله شيئا، والدليل أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا))

[صحيح مسلم]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه، لا يأتيني الناس بأعمالهم، وتأتوني بأنسابكم))

[ورد في الأثر]

لماذا قدر الله عز وجل أن تكون امرأة لوط هي كافرة، وزوجها نبي ؟ ولماذا قدر الله عز وجل أن تكون امرأة فرعون صديقة، وزوجها قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى)

هذه إشارة دقيقة جداً لنا إلى أن الإنسان مخير، وأن المرأة مستقلة في اختيارها عن زوجها، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن كل إنسان محاسب على فعله، فلذلك:

(لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ)

لو أنك منتسب إلى أب عظيم، إلى أب عالم، إلى أب عارف بالله، يقول: أنا جدي فلان، أنعم وأكرم من جدك، أما أنت فما عملك؟.

لا تقلْ أصلي وفصلي أبدا   إنما أصلُ الفتى ما قدْ حصلْ

***

كُن اِبنَ مَن شِئتَ واِكتَسِب أَدَباً   يُغنيكَ مَحمُودُهُ عَنِ النَسَبِ

***

كأن الله عز وجل يريد أن يقول: إذا قصرت في عملك، وكنت ابن فلان، ابن العالم الفلاني، ابن العارف بالله الفلاني ماذا تنفعك هذه الأبوة، وماذا ينفعك هذا النسب، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أنا جد كل تقي))

[كشف الخفاء للإمام العجلوني قال لا يُعرف]

هذا أقرب مثل.

(يُخْرِجُ الْحَيّ مِنْ الْمَيّتِ)

(سورة الأنعام 95)

قد تجد أباً صالحاً له ابن شقي، وقد تجد أباً شقياً له ابن صالح، كل إنسان محاسب على اختياره وعلى فعله.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام 164)

لذلك:

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ)

(لقمان 33)

لا يستطيع والد أن يغني ولده المقصر.

(وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا)

(لقمان 33)

3 – لا يغني الابن عن أبيه وأمه شيئا: وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا

أحياناً أب له اتجاه لا ديني، يخرج من صلبه ابن غارق في محبة الله، إذا كان الأب ينهى ابنه عن هذا الطريق، ومات الأب لا ينفعه ابنه الصالح، على خلاف ما يتوهم البعض، متى يكون ابنك الصالح صدقة جارية لك ؟ إذا وجهته أنت هذه الوجهة، إذا حرصت على هذه الوجهة، إذا نمّيت هذا الاتجاه عنده، إذا سررت بهذا الاتجاه، إذا رضيت عن هذا الاتجاه، أما إذا حاربته عندما كان صالحاً، وإذا حملته على معصية الله، وأنكرت عليه دينه، وإذا ضغطت عليه حتى ينحاز إلى مِلّتك وإلى اتجاهك، هذا العمل لو أن إنساناً فاجراً جاءه ابن ولي، هذا الابن لا ينفع والده يوم القيامة، أعماله ليست في صحيفته، لأن الأب ما أراد هذا، ما أراد له هذا الاتجاه، لأنه حاربه على اتجاهه، لأنه ضيّق عليه.

متى يكون الولد الصالح صدقة جارية ؟ إذا حرص الأب على تربية ابنه التربية الصالحة، وإذا سعى لذلك، وإذا شجعه وأكرمه ودعّمه، فإذا خلّف ولداً صالحاً ينفع الناس من بعده فهذه صدقة جارية تحسب للأب.

إذاً لا يستطيع ولد أن ينفع والده، ولا والد بإمكانه أن ينفع ولده، لكن إذا كان الأب سبباً في شقاء ابنه هكذا ورد في بعض الأحاديث أن الابن يتعلق بأبيه يوم القيامة ويقول يا ربي لا أُدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، لأنه هو السبب.

امرأة تساهلت مع ابنها حينما سرق بيضة، بل شجعته، ورأت في ذلك رجولة، فلما أَلِف السرقة وقع في سرقة كبيرة رافقتها جريمة حُكم عليه بالإعدام، عرف أن أمه الجاهلة كانت هي السبب، فقبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام طلب ممن حوله أن يأتوا بأمه كي يراها، جاءوا له بأمه، فقال: يا أماه مدى لسانك كي أقبّله، فمدت لسانه، وعضها منه فقطعه، وقال: لو لم يكن هذا اللسان مشجعاً لي في الجرائم ما فقدت حياتي.

أحياناً يفرح الأب بابن له دخل كبير، لكن هذا الدخل غير مشروع، يفرح بمكسب من مكاسب ابنه، لكن هذا المكسب لا يرضي الله عز وجل، يفرح أن ابنه أتقن اللغة الأجنبية، لكن على حساب دينه، أرسله إلى بلاد يعد الزنى فيه شيئاً عادياً، عاد من بلاد الغرب، وقد خرج من دينه لكنه أتقن اللغة الأجنبية ؟ فإذا فرح الأب بابنه ربما وقف الابن يوم القيامة وقال: يا رب، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، لأنه كان هو السبب.

الأبوة مسؤولية كبيرة:

فالأبوة مسؤولية كبيرة جداً، قبل أن تسمح لابنك، قبل أن تدفعه إلى هذا العمل، قبل أن تشجعه، قبل أن ترضى عنه انظر إلى طاعته لله عز وجل، لهذا قال الله عز وجل:

(وَأمُرْ أهْلَكَ بالصّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا)

(سورة طه 132)

هذا الذي يدفع بأبنائه إلى أعمال لا ترضي الله، يدفع بابنته إلى عمل بين الرجال من أجل أن تكسب راتباً، هذه الفتاة فيها الحياء والحشمة والوقار، فمع الرجال سلام وكلام ومزاح، وتعليقات وإحراجات، بعد أسبوعين أو ثلاثة أصبحت مسترجلة، أصبحت أخلاقها لا ترضي الله عز وجل، أصبحت لها جرأة لا تستساغ من فتاة مسلمة، إلى أن اندفعت إلى أن تبرز مفاتنها للرجال، وأن تتسلى في وظيفتها، وكان هو السبب من أجل دريهمات يحرص عليها، لذلك:

(وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً)

معنى: وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا

أيها الإخوة الأكارم، الحقيقة الآية فيها معنيان:

المعنى الأول:

أن الابن لا ينفع والده يوم القيامة، وأن الأب لا ينفع ابنه.

المعنى الثاني:

ولكن إذا كان الأب سبباً في إضلال ولده فسوف يحاسب حساباً عسيراً، وإذا كان الابن سبباً في إضلال أبيه، الابن عقله متفتح، عقليته علمانية، مالُ والده أساسه الربا، وقال: لا يا أبت، هذا شيء لا تعرفه أنت، هذه قضية سهلة جداً، فإذا وافق الأب ابنه على هذا المشروع الربوي فقد جرّ هذا الابن أباه إلى الضلال، لن ينفعك ابنك إذا حملك على معصية، ولن تنفع ابنك إذا حملته على معصية.

فإذا كان هناك انحرافات كل إنسان يحاسب على فعله، أما إذا كان أحدهما في فعلته سبباً لمعصية الآخر يحاسب عن فعله، وعن النتائج التي توصل لها ابنه.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقّ)

إِنّ وَعْدَ اللهِ حقّ

معنى حق أنه واقع، أحياناً الامتحان في الخامس من حزيران، خلال خمسين سنة منذ أن أحدث الشهادة الثانوية الامتحان في وقته، ما مرّ معنا سنة ليس فيها امتحان، فالاستمرار يوحي إلى الطلاب أنه لا بدّ من الامتحان، هذا إنسان، فإذا لم يخلف الإنسان وعده يصبح كلامه حقاً، خالق الكون قال:

(إِنّ وَعْدَ اللَّهِ حَقّ)

القرآن يقول: هناك يوم قيامة، هناك يوم نشر، هناك حساب، هناك جنة ونار، هناك صعق، هناك وقوف بين يدي الله عز وجل، هناك صراط مستقيم، هناك حوض يرده المؤمنون على النبي عليه الصلاة والسلام، هذا كله من غير المستقبل، ونحن قارناه في كتاب الله، لكن يجب أن تؤمن أن زوال الكون أهون على الله من أن لا يحقق وعده ووعيده.

(إِنّ وَعْدَ اللَّهِ حَقّ)

لذلك أحد أصحاب رسول الله قال له النبي:

((كيف أصبحت يا زيد ؟))

قال: **أصبحت بعرش ربي بارزاً، وكأني بأهل الجنة يتنعمون، وكأني بأهل النار يتصايحون**، قال:

((عبد نور الله قلبه، عرفت فالزم، إني لك ناصح أمين))

إذا كنت ميكانيكيا من الطراز الأول، وتعرف أن هذه المركبة بلا مكبح، وأن صاحبها انطلق بها في طريق هابطة هبوطا حادا، وأن في نهاية الطريق انعطافًا حادا، ماذا تقول ؟ تقول: وهو في أول الطريق، انتهى، مات، هلك، دُمّر، ولم يحدث شيء بعد، هذا علم القوانين، أنت ميكانيكي، سيارة وزنها طن ونصف، مندفعة بأقصى سرعة في طريق هابطة، وفي النهاية انعطاف خطير، وليس هناك مكبح، فقبل أن يقع تقول: وقع، قبل أن يتدهور تقول: تدهور، وأنت بشكل غير شعوري تستخدم الفعل الماضي، أحياناً يقول لك: ذهبنا إلى خطرٍ.

مثلاً: إذا أشعل الواحد في بيته نارًا، وهناك أسطوانة غاز، يقول لك: انفجرت، وهي لم تنفجر بعد، لكن هذا حكم القوانين، فربنا عز وجل قال:

(إِنّ وَعْدَ اللَّهِ حَقّ)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(البقرة 148)

أنت مخير، لكن:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا)

(البقرة 148)

تذهب إلى أمريكا، تذهب إلى اليابان، إلى إنجلترا، وتسكن في فندق خمس نجوم، تجلس في بيت فخم جداً، عندك سيارة فخمة:

(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا)

(سورة البقرة 148)

(إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

والموت حق، هل أحد ما مات ؟ كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، الليل مهما طال لا بدّ من طلوع الفجر، والعمر مهما طال لا بدّ من نزول القبر.

كُلُ اِبنِ أُنثى وَإِن طالَت سَلامَتُهُ يَوماً عَلى آلَةٍ حَدباءَ مَحمولُ

***

انظر الإنسان، كل يوم ينظر إلى النعوات يقول: رحمة الله عليه، كأنه هو لن يموت، فلان يقول لك: هذا صيدلي، وهذا تاجر، وهذا كان يعمل بالدرك، الله يرحمه، وهذه شابة ماتت بحادث، كل يوم في بالشام عشرون نعيا تقريباً، سألت واحدا بمكتب الدفن فقال: يموت خمسون بالشام يومياً، النعوات تقريباً عشرون، فاعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، كلما قرأت نعيا فاعلم أن ملك الموت قد تخطاك إلى غيرك، وي يوم سيتخطى غيرنا إلينا.

سيقرأ الناس النعي، ستعيش أربعين، خمسين، ستين، سبعين، وتقرأ نعيا في الطريق كل يوم، وسيأتي يوم سيقرأ الناس نعيك، هذا حق.

(إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ)

ماذا أعددنا لهذه الساعة، يا بشر: لا صدقة ولا جهاد، فبمَ تلقى الله إذاً ؟ مجلس علم، على العين والرأس، لكن ماذا عملت بالذي تعلمت ؟ ليس القصد حضور المجلس، الحضور وسيلة، الغاية أن تعمل بما علمت، ومن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

الآن:

(إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ فَلَا تَغُرّنّكُمُ الْحَيَاةُ الدّنْيَا)

فَلاَ تَغُرّنّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنيا

احذروا الدنيا فإنها ساعة غرور:

هناك مثل أرويه دائماً وهو مَثَلٌ مضحك: لي صديق، توفي قبل سنوات، قال لي: كنت صانعاً في سوق الحميدية، وكان لي هواية، هكذا كنت أفعل، يكنس المحل التجاري، ويجمع قمامته في علبة، يضع هذه القمامة في هذه العلبة، ويغلفها بورق فخم، ورق هدايا وشريط حرير، ويضعها على الرصيف، يمر أحد الأشخاص فينكب عليها، وقد امتلأ فرحاً، وأشرق وجهه، يحملها وينطلق، بعد مئة متر يفك الشريط، ثم يفك الورق، يتوقع أن يفاجأ بهدية، بساعة، فإذا بالعلبة قمامة، حينئذ يسب ويلعن، هذا مثل صارخ، والله الدنيا هكذا، الدنيا تغر وتضر وتمر، ما معنى:

(فَلَا تَغُرّنّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرّنّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ)

(سورة لقمان الآية: 33)

يا عبادي، إياكم أن تروا الدنيا بحجم أكبر من حجمها، حجمها صغير:

((لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

أعطى أعداءه المال وهو لا يحبهم.

(إِنّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوّةِ)

(سورة القصص الآية: 76)

وأعطى أعداءه الملك وهو لا يحبهم، ولكن ماذا أعطى أحبابه ؟

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

(سورة القصص 14)

فإذا أتاك الله حكمة وعلماً، ومعرفة ويقيناً، وطاعة واستقامة، فأنت المحبوب، وأنت المتفوق، وأنت الفائز، وأنت الفالح، وأنت الناجح، وأنت الذي تزهو على أقرانك يوم القيامة، إذاً:

(إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ فَلَا تَغُرّنّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

الإنسان في أول حياته يرى هذا الشيء كل ما في الحياة، إنسان يرى المال كل شيء، إنسان يرى المتعة كل شيء، إنسان يرى المكانة الاجتماعية كل شيء، إنسان يرى الدرجات العلمية العالية كل شيء، فإذا مضت أعوام تلو أعوام رأى المال شيئاً، ولكنه ليس بكل شيء، فإذا كان على شفير القبر لم

ير المال شيئاً، كان الإنسان يراه كل شيء، ثم رآه شيئاً، ثم رآه لا شيء، ما هو الشيء ؟ إنه معرفة الله عز وجل.

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)

(سورة الكهف 46)

(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

لا تر الحياة بحجم أكبر من حجمها الحقيقي لها حجم:

((إذا أصبح أحدكم آمناً في سربه، معافىً في حسمه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا))

[الترمذي عن عبد الله بن محصن الخطمي]

2 ما الذي لك فتفنيه، والذي لك أن تبقيه:

ليس لك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت، الصدقة باقية، واللباس مهتر، والطعام فانٍ، وما سوى الطعام واللباس والصدقة ليس لك، أرقام على ورق تحاسب عليها، من أين اكتسبتها ؟ وفيمَ أنفقتها ؟ أرقام حبر على ورق مع المحاسبة.

مثلاً: إذا دخلت الضابطة الجمركية على محل ليس فيه بضاعة أبداً، فتحوا الدرج فوجدوا فاتورة، هذه الفاتورة التي فيها بضاعة اشتراها، وباعها، وغير نظامية، تعامل كأنها بضاعة مصادرة، هي ورقة يدفع عليها مئة ألف، كذلك المال الزائد حبر على ورق، أنت لست مستفيدا منه، ليس لك إلا ما أكلت فأبليت، الذي أكلته رزقك فقط، والذي لبسته رزقك، والذي أنفقته رزقك، أما الباقي فحبر على ورق، ومحاسب عليه، مثل الجمارك، حبر على ورق، ومحاسب عليه، من أين اكتسبته ؟ وفيمَ أنفقته ؟ حديث رائع جداً، قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ ؟))

[سنن الدارمي 835]

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ باللهِ الغَرُورُ

1 – مَن هو الغَرور ؟

الغرور هو الشيطان.

2 – كيف يغرك الغرور ؟

فكيف يغرك بالله عز وجل ؟ إذا قال لك: الله لا يدقق في المحاسبة، فهو يغرك، الله لن يحاسبنا، نحن مسلمون، والحمد لله.

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة البقرة111)

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً)

(سورة البقرة 80)

سبعة أيام فقط، وبعدها نخرج، تلك أمانيهم، فهذا غرور، يقول لك: الله عز وجل لن يضع عقله بعقلك ويحاسبك، النبي الكريم يسجد يوم القيامة، ولا يرفع رأسه حتى يشفع لنا جميعاً، فكل فكرة تلقى في قلب الإنسان من هذا القبيل فهذا تغرير.

مثلاً: إذا جاء طالب إلى صديقه، وقال له: لا تدرس، هذا الأستاذ نجعل له هدية فيعطينا الأسئلة، فلم يدرس، يوم الفحص فوجئ أن الأستاذ نزيه جداً، والأسئلة صعبة، وهو لم يدرس.

لك دعوة عند قاضٍ، بدل أن توكل محامياً لامعاً، وتهتم بالمرافعة، قال لك: هذا القاضي يقبض قبل الدعوة بيوم، اجعل له هدية، ثم وجد أن القاضي نزيه، وصديقه كذاب، هذا معنى:

(وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

يعني أن الشيطان يخوفك.

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران175)

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ)

(سورة البقرة 268)

فالإنسان عليه أن لا يصغي إلى كلام الشيطان.

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)

مفاتيح الغيب:

1 – علمُ الساعةِ و إنزال الغيث:

يوم القيامة عنده وحده، لذلك الإنسان إذا قال: يومُ القيامة يوم كذا فهو جاهل، وهو مكذب بنص هذه الآية.

(وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)

2 – العلمُ بما في الأرحام:

لم يقل: يعلم من في الأرحام، بل قال:

(مَا فِي الأرْحَام)

على الحوين المنوي شريط مورثات عددها خمسة آلاف مليون معلومة، فمن الذي يعلم مصير هذا الإنسان، يا ترى ذكي أم أقل ذكاء، بار لوالديه أم عاق لهما، يصبح مخترعاً عظيماً أو مصلحاً كبيراً، أم يصبح مجرماً أو شقياً ؟

(إنّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزّلُ الْغيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأرْحَامِ وَمَا تَدْري نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْري نَفْسٌ بأيّ أرْضٍ تَمُوتُ)

3 – وَمَا تَدْري نفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَما تَدْري نَفْسٌ بأَيِّ أرضٍ تَمُوتُ:

قصة رمزية: يقال: إن سيدنا سليمان كان عنده ملك الموت، فإذا بملك الموت يحد بصره برجل، أحدّ بصره إلى درجة أن قال هذا الرجل: من هذا ؟ قال له: **هذا ملك الموت**، انخلع قلب هذا الرجل، وقال: أرجوك أن تأخذني إلى أطراف الدنيا ؛ لأن سليمان سخر له الريح، فأركبه بساط الريح، وأوصله إلى الهند، بعد أيام توفي هناك، التقى بملك الموت، فقال له: **لماذا تنظر إليه هكذا ؟ قال: عجبت من حاله معي، أمرت بقبض روحه في الهند فلماذا هو عندك ؟!!**

هذه قصة رمزية، لكن مغزاها أن الإنسان لا يدري أين يموت.

أعرف رجلا موظفا كبيرًا أرسل بمهمة إلى أمريكا، عقد قرانه دون أن يعقد القران الرسمي، وسافر إلى أمريكا، وفي المطار توفي، من يصدق أن يموت هناك ؟

(وَمَا تَدْري نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْري نَفْسٌ بأيّ أرْضٍ تَمُوتُ)

رأى ملك الإمام مالك الموت، فقال له: **يا ملك الموت، كم بقي من عمري ؟** فقال له هكذا، فلما أفاق الإمام مالك ازداد قلقاً، **يا ترى خمس سنوات، خمسة أشهر، خمسة أسابيع، خمسة أيام، خمس ساعات، خمس دقائق**، فذهب إلى الإمام ابن سيرين، فقال له: **يا إمام، هكذا رأيت ملك الموت، وأشار لي هكذا، ما تفسير هذه الرؤيا ؟** قال له ابن سيرين: **يقول لك ملك الموت: هذا السؤال من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله**، هذا هو التفسير، سؤالك يا إمام مالك من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله.

(إنّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ)

أي يوم القيامة. إنسان ادّعى من حساب أرقام كمبيوتر أن يوم القيامة يوم كذا وكذا، كذب وانتحر.

(إنّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة السجدة 032 - الدرس (1-6): تفسير الآيات 1 - 3

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-08-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة السجدة.

فضل سورة السجدة:

كان النبي عليه الصلاة والسلام يقرأ سورة السجدة، وسورة الدهر في فجر الجمعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2))

(سورة السجدة)

أقوال المفسرين في الحروف المقطعة:

مرّ بنا من قبل أن هذه الحروف التي بُدِئتْ بها بعض السور للمفسرين اتجاهاتٌ عديدة في تفسيرها، فمن هذه الاتجاهات:

القول الأول:

الله أعلم بمرادها.

القول الثاني:

ومن هذه الاتجاهات أنها أوائل أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

القول الثالث:

ومن هذه الاتجاهات أنها أوائل أسماء الله عزّ وجل.

القول الرابع:

ومن هذه الاتجاهات أن القرآن الكريم إنما أُنْزِلَ بلغة العرب، وهذه الحروف هي الأساس في هذه اللغة، والحروف بين أيدي هؤلاء العرب، فهناك إعجازٌ في نظم القرآن، من هذه الحروف نُظِمَ القرآن، ومن هذه الحروف أنزل هذا القرآن، والقرآن تحدّى العربَ أن يأتوا بعشر سورٍ من مثله، وتحدّاهم بسورة، وتحدّاهم بأقل من ذلك، معنى ذلك أن المادة الأولية لهذا القرآن بين أيدي الأمّة العربية، والقرآن تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

خَلق الله فيه إعجاز:

نوضح هذا بمثلٍ آخر:

الإنسان مؤلفٌ من ماء، ومن حديد، يصنع مسماراً واحدا، ومن فسفور، ومن كِلس، المواد التي يتألّف منها جسم الإنسان أصبحت محددةً ومقننة، هل بإمكان الإنسان أن يصنع إنساناً من هذه المواد التي بين أيدي البشر ؟ الطعام الذي تأكله بعض الأنعام بين أيدينا هل بإمكاننا أن نصنع الحليب من هذا الطعام الذي تأكله بعض الأنعام ؟ المواد التي تأكُلها بعض الحيوانات الأهلية بين أيدينا، هل بإمكان الإنسان أن يصنع بيضةً واحدة ؟ هل بإمكان الإنسان أن يصنع لتر حليبٍ واحدا ؟ هل بإمكان الإنسان أن يصنع خلية ؟ لا أقول: بشراً سوياً، خلية، شرياناً، قطعة من كبد، إذاً لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل، الموادُ الأولية التي خلق الله منها الإنسان وخلق الحيوان وخلق النبات متوافرةٌ بين أيدي الناس، ومع ذلك كلُّ الخلق لو اجتمعوا لا يستطيعون أن يصنعوا ذبابةً واحدة، ولو اجتمعوا.

من هذا القبيل، وهذا كلام الله، خلقه فيه إعجاز، لا تزال الحياة سراً حتى الآن، فهذا الكبد الذي يقوم بخمسة آلاف وظيفة، إذا خرجت الروح من الإنسان لماذا يصبح قطعةً من اللحم الفاسد ؟ وكذا الشأن عند الحيوان، وهو ما يقال له عند اللحام: سودة، أريد نصف كيلو من السودة، كان قبل أن يذبح الحيوان كبداً، وكان يقوم بأدوار خطيرة جداً، ما هذا السر ؟ فأي شيءٍ فيه حياة لا يزال سراً..

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة الإسراء)

بذرة التين أدقُّ من رأس دبوس، هذه إذا زُرِعَت في ظروفٍ صحيحة تُنتج شجرة تينٍ كبيرة، هذه التفصيلات، هذه الخصائص، هذه الطعوم هل هي كامنة في هذه البذرة ؟ لهذه الشجرة آلاف الخصائص، آلاف الجُزئيات، كلها مبرمجة في هذه البذرة، لا يزال سرُّ الحياة مجهولاً..

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ)

(سورة الإسراء: آية " 85 ")

هذه القوة التي تجعل المواد الأولية كائناً حياً، الآن يدرّسون في الجامعات الخلية في عامٍ بأكمله، الخلية الحيوانية، كل أنواع المخلوقات الحيّة لها طبيعةٌ في الخلق واحدة، وأنها تنطلق من خلية، والخلية عالمٌ قائمٌ بذاته ؛ لها غشاء، ولها سائل، ولها نواة، ولها نويّة، ولها مورثات تزيد على خمسة آلاف معلومة مبرمجة في أوقاتٍ محددة.

أردت أن أنقلكم من ألف لام ميم إلى طبيعة الخلق، المواد التي تأكلها البقرة بين أيدينا، فهل بإمكان البشر جميعاً أن يصنعوا كأس حليب ؟ المواد التي تأكلها الدجاجة بين أيدينا فهل بإمكان البشر جميعاً أن

يصنعوا بيضة واحدة ؟ المواد التي يأكلها الإنسان بين أيدينا، فهل بإمكان أعظم الدول تقدماً أن يصنعوا خليةً واحدةً حية ؟ ليس في الإمكان، سرُ الحياة بيد الله عزّ وجل، هناك إعجاز.

عجز البشر جميعا عن إتيان بآية من مثل القرآن:

والقرآن الكريم نزل بلغة العرب، بلسانٍ عربيٍ مبين، وأصل هذه اللغة من هذه الحروف، فهل بإمكان البشر لو اجتمعوا أن يأتوا بسورةٍ من مثل هذا القرآن ؟ إذاً الوحي الذي جاء به النبي فيه دليلٌ على أنه وحي، حينما تحدى الله عزّ وجل العرب كافةً عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وبعضهم قال: **" إذا تحدّاك إنسان، وأنت بالإمكان أن تَرُدّ عليه التحدي ماذا تفعل ؟ "** أغلب الظن أنك ترد عليه التحدي، فإذا كان الذي تحداك من طبقتك، وقد استعلى عليك، وتحداك، فهل تسكت ؟ إذا كان الذي تحداك من طبقتك، ولم يُعرف قبل هذا التحدي بهذا التفوّق، هذا يدفعك أكثر إلى أن تقبل التحدي، إذا كان الذي تحدّاك من طبقتك، ومن بلدتك، ومن مستواك، ولم يُعرف قبل هذا التحدي بالتفوق، وفي تحديه لك منعك من حظوظ نفسك، وقيّدك بقيودٍ كثيرة، هل ترفض هذا التحدي ؟ لا شك أنك تندفع كثيراً إلى قبول هذا التحدي، والقرآن تحدّى العرب جميعاً على لسان النبي عليه الصلاة والسلام أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أن يأتوا بعشر سورٍ من مثله، أن يأتوا بسورةٍ واحدة، أن يأتوا بآيات، ومع ذلك وقف العرب عاجزين عن أن يُعارضوا هذا القرآن، أو عن يأتوا بمثله، لذلك ربنا عزّ وجل لفت النظر إلى أن:

(الم)

(سورة السجدة)

حروفٌ بين أيديكم تنطقونها صباح مساء، إن كنتم تزعمون أن هذا القرآن ليس كلام الله فأتوا بمثله.

تنزيل الكتاب من رب العالمين:

الحقيقة في هذه السورة قضية دقيقة جداً، هذه القضية متعلقةٌ بالعقيدة وهي، يقول الله عزّ وجل:

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)↓(الم

أصل التركيب تنزيل الكتاب من رب العالمين، التنزيل مصدر بمعنى مُنَزّل، أيْ كتابٌ منزلٌ من رب العالمين، كلام البشر قاطبة في كَفّة، وهذا الكلام في كفةٍ أخرى، هو كلام الخالق، وذاك كلام المخلوق، والفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق كالفرق بين الخالق والمخلوق.

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ)

أي أن الكتابُ المنزّلُ على النبي عليه الصلاة والسلام المُعْجِزُ بنظمه، المتعبّد بتلاوته، الذي نُقِل إلينا عن طريق التواتر هذا الكتاب من رب العالمين، لا من زيدٍ أو عبيد، قد تدخل إلى مكتبةٍ، وترى آلاف الكتب، هذا من مؤلفه ؟ الدكتور فلان، وهذا مؤلفه ؟ الفقيه الفلاني، البشر يصيبون، ويخطئون، يتفوقون في ناحية، ويتخلّفون في ناحية، يُبْدِعون في جهة، ويقصّرون في جهةٍ أخرى، هذا شأن البشر، ولكنك إذا وقعت عينك على القرآن الكريم فهو كتابٌ من نوعٍ آخر، كتابٌ من خالق البشر، لذلك الله عزّ وجل يقول:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة السجدة)

مَن ربُّ العالَمين ؟

ومن ربُّ العالمين ؟ رَبُّ العالمين الخالق، المُسَيِّر، الرب، أي الذي خلقكم، والذي يتعهدكم بحياتكم المادية والمعنوية، والنفسية والعقلية والروحية، هو الرب يُمِدُّ ويربي، فأقرب اسمٍ من أسماء الله تعالى للإنسان كلمة (رب)، اسم الرب، لأنه الذي يُربي، لأنه الذي يرحم، لأنه الذي يداوي، لأنه الذي يعطي، لأنه الذي يمنع في الوقت المناسب، لأنه الذي يرفع لحكمةٍ أرادها، والذي يخفض، والذي يبسط، والذي يقبض، والذي يُمد، والذي يُحيي، والذي يميت، والذي يُلقي الخوف أحياناً، أو يلقي الطمأنينة أحياناً أخرى، هو رب العالمين.

لاَ رَيْبَ فِيهِ

لكن في قوله تعالى:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

بين المبتدأ والخبر، أو بين طرَفَيّ الآية جاءت جملةٌ اعتراضية:

(لَا رَيْبَ فِيهِ)

لا يوجد شك، ولا خللٌ، ولا شططٌ، ولا مبالغةٌ، ولا تقصيرٌ، ولا زيادة، ولا نقصانٌ.

(لَا رَيْبَ فِيهِ)

كلما تقدّم العلم أيّد آيات القرآن:

أي أنك كلما قرأت هذا الكتاب، وهو القرآن ازددت يقيناً وثقة بمعلوماته وأخباره، في حين أنه ليس من كتابٍ على وجه الأرض، ولا يوجد كتاب كُتِب وأُلِف إلا مع مضي الزمن ظهر ما ينقض بعض فقراته، حتى الكتب الدينية التي هي في الأوْج، هناك مؤلف كتاب شهيرٍ جداً من كِبار العلماء، والمعلومات الطبية في وقتها كانت ضعيفة، فذكر في هذا الكتاب الشهير الذي يُشار إليه بالبنان، في هذا الكتاب أن الإنسان إذا أكل فإن بخار الطعام يتوَجّه نحو الدماغ فيُعيق التفكير، وكأن المعدة وعاءٌ مفتوح، وكأن هذا الطعام بخارهُ يتصاعد نحو الأعلى إلى أن يصل إلى الدماغ، طبعاً بعد تقدم الطب والتشريح، وعلم وظائف الأعضاء، الإنسان يضحك من هذه الفكرة، إذاً أي كتابٍ من صنع البشر، أي كتابٍ من تأليف البشر، بمجرّد أن يمضي عليه وقتٌ حتى يظهر الخلل فيه، لكن القرآن الكريم مَضى على نزوله ألفٌ وأربعمائة عام، وكلّما تقدّم العلم أشواطاً طويلة اتجه نحو تأييد آياته.

الظلام في الغلاف الخارجي بين سبق القرآن وإثبات العلم:

إن أحد العلماء العرب المتفوقين في علم الفضاء كان في قاعدة إطلاق الصواريخ في بلد غربي، طبعاً هذه القاعدة على اتصال مع روّاد الفضاء في مركبتهم، أحد روّاد الفضاء بعد أن تجاوزت مركبته الغلاف الجوي الأرضي، صاح بأعلى صوته عبر جهاز اللاسلكي: لقد أصبحنا عُمْياً لا نَرى، ما الذي حصل ؟ كان في جو الأرض، وكان في جو الهواء، والهواء يُحَقق ظاهرة في علم الفيزياء اسمها تناثر الضوء، فأشعة الشمس تنعكس على ذرات الهواء، وعلى ذرات الغبار فيتألّق الجو، ويصبح مضيئاً، فلما خرجت المركبة من غلاف الأرض الجوي إلى أعماق الفضاء فجأةً انتقل رواد الفضاء بمركبتهم إلى ظلامٍ دامس، والصور الملونة التي يلتقطها روّاد الفضاء من مركباتهم تؤكِّد ذلك، لونٌ أسودٌ داكن، وفي هذا اللون الأسود تألّقٌ لبعض النجوم، ومنها الشمس، هذا ما يراه روّاد الفضاء في مركبتهم، ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (15))

(سورة الحجر)

هذه آية قرآنية أُنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم قبل ألف وأربعمائة عام، ولم يكن يخطر في بال أحد أن الإنسان سيستطيع أن يصعد إلى القمر، أو أن يتجاوز الغلاف الجوي.

(لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا)

(سورة الحجر: آية " 15)

أي أنه لا يوجد كتاب يؤلفه إنسان إلا والزمن وحده يكشف بعض أغلاطه، والحقيقة حتى في العلوم البحتة، حتى في النظريّات الجغرافية يقول لك: نواة الأرض سائلٌ مُلتهب، بعدئذٍ يقال: لا، بل مواد جامدة، لكنّها حارّة، كل حينٍ من الدهر يظهر علينا العلماء بنظرياتٍ جديدة تنقض ما قالوه من قبل، إذاً الإنسان ليس عليماً، يتكامل في علمه، يكشف خطأه ويصوّبه، ثم يخطئ، ويكشف الخطأ ويصوب، هذا شأن البشر.

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة الإسراء)

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ)

(سورة البقرة: آية " 255 ")

أما كتاب خالق البشر لو امتد بنا الزمان آلاف السنوات فلا يمكن أن يظهر اكتشافٌ علميٌ حقيقيٌ، أن تظهر حقيقةٌ علمية تناقض كلام الله، لأن الله هو خالق الكون، الكون خلقه والقرآن كلامه، ولا يُعقل أن يتناقض كلامه مع خلقه، إذاً كلمة:

(لَا رَيْبَ فِيهِ)

تعني اليقين الحقيقي.

لابد من أن تعلم أن القرآن كلام الله حتى تستقيم:

والإنسان أيها الإخوة، إذا شعر أن هذا الكلام كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه فإنه يستقيم معه، لكن متى يستقيم على أمر الله ؟ قال بعض علماء التوحيد كلمةً رائعة، قال: **" الإنسان لا يستقيم على أمر الله إلا إذا أيقن بوجوده، وأيقن بأنه يعلم، وأيقن بأنه سيُحاسب "** موجود، ويعلم، وسيحاسب، لو أيقنت بوجوده، لكن يقينك بعلمه ضعيفٌ فلن تستقيم، لو أيقنت بوجوده وأيقنت بعلمه، لكن يقينك باليوم الآخر ضعيف فلن تستقيم، لاحظ لا تستقيم على أمره إلا إذا أيقنت بوجوده، وبعلمه، وبحسابه.

فأريد أن أوضح لكم هذا المثل، لو فرضنا أن إنساناً ثرياً كبيراً من أثرياء العالم، وله وكيل أعمال يُعطيه راتباً يفوق حدّ الخيال، يعيش في بحبوحةٍ كبيرة، هذا الثري العظيم أرسل أمراً إلى وكيله: أن ادفع إلى فلان مليون ليرة، فهذا الوكيل، لو علم أن هذا الكتاب، أو أن هذا التوقيع، ليس توقيع هذا الثري، وأعطى هذا الوكيل هذا المبلغ لزيد، والثري لم يعترف على هذا الكتاب، وقال: لا.. هذا ليس توقيعي، أنت تسرّعت، وتورطت، وعليك أن تدفعه، ادفعه من جيبك، إذاً لو لم يكن هذا التوقيع توقيعه

لكان هذا المبلغ عليه، ولو أن التوقيع توقيعه، ولم ينفِّذ مضمون هذا الأمر لطرده من عمله، إذاً حينما يأتي هذا الوكيل كتابٌ من هذا الثري يأمره أن يدفع هذا المبلغ لزَيْد، أخطر شيءٍ في هذا الكتاب أن يتأكَّد الوكيل من صحة التوقيع، فلو لم يتأكد، ودفع، ولم يكن التوقيع توقيعه لدفع هذا المبلغ من جيبه، ولو كان التوقيع توقيعَه، ولم يستجب له لطرده من عمله، إذاً أخطر شيءٍ عند الوكيل التحقُّق من نسبة هذا الكلام إلى هذا الثري، هذا مثل للتقريب.

فأنت كمسلم أخطر شيء في حياتك أن تتأكَّد أن هذا القرآن كلام الله، إن لم تكن متأكداً فلن تستقيم على أمر الله، لن تعبأ به، إن كان من عند الله، وعصيت أمر الله فقد أهلكت نفسك، وإن لم يكن من عند الله وقيَّدت نفسك في الحياة بقيود لا معنى لها ضيَّعت حياتك، إذاً قبل كل شيء يجب أن تؤمن بأن هذا القرآن كلامه.

أيها الإخوة الأكارم، في العالم الإسلامي لا يُطْرح إطلاقاً أن هذا القرآن ليس كلام الله، ولكن هناك تصديق عفوي، تصديق ساذج، تصديق وراثي، نحن نشأنا في بلاد إسلامية، وبيننا خطباء، ومدرسون يدرسون التربية الإسلامية، وهذا القرآن كلام ربنا، لكن حينما يأتيك إنسان ضال مُضل، حينما يأتيك إنسان يريد أن يُطْفئ نور الله، ويطرح عليك أن هذا القرآن ليس كلام الله، هل عندك حجةٌ قوية على ذلك ؟ أنا أرى أنه لا شيء في الحياة أخطر من أن تؤمن بكل جارحة من جوارحك، وبكل خليةٍ من خلاياك أن هذا القرآن كلامُ الله، وأنَّك سوف تحاسب في ضوء هذا القرآن، وأنه أمرٌ ونهيٌ، وأن في الأمر سعادةً، وفيما نهى الله عنه شقاء، من هنا جاء قوله تعالى:

(الم)

(سورة السجدة)

أي هو كتابٌ يعجَز البشر مجتمعين عن الإتيان بمثله، أو بسورة من مثله:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)

(سورة الإسراء)

فمن معاني:

(الم)

هذه الحروف بين أيديكم، هذا القرآن أُنزل بلسان العرب، وهذه الحروف تؤلِّف لسان العرب، ائتونا بمثل هذا القرآن، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

الرب خالقكم، ومربّيكم، ومسيركم، خلق، وربّى، فأقرب معنى للتربية: أنت لو تعهّدت نبتةً، تعهُّدُ النبتة بأن تسقيها، وأن تعزق الأرض حولها، وأن تنزع الأعشاب الضارة من حولها، وأن تُعطيها السماد الكافي، والمقويات والهرمونات، وأن تقلِمها، وأن تكافح أمراضها، هذه هي التربية، وتربية الطفل الصغير بأن تُعنى بصحته، وبطعامه، ونومه، وحاجاته، ونظافته، ثم أن تعنى بجسمه، ثم أن تعنى بعقله، ثم أن تُعنى بأخلاقه، ثم أن تعنى بدينه، هذه هي التربية، هذا شيءٌ قريبٌ منا.

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

من لوازم ربوبية الله أنه جعل لنا منهجا في الحياة:

أي لأنه رب العالمين أنزل هذا الكتاب، ولأن الله عزّ وجل لا يُعقل أن يخلق الإنسان، ويدَعه بلا منهج، بلا إرشاد، بلا تعليم، بلا تنوير، بلا توضيح، بلا تبيين، هذا بيان إلهي، فالدولة إذا شقّت طريقاً، بعد أن تشق الطريق تضع لك الشاخصات، هنا مُنعطف خطر، انتبه، هنا تقاطع خطر، هنا جِسر، أمامك تحويل، فهل تقبل أنت من وزير المواصلات أن يشق الطريق، وفي الطريق آلاف المفاجآت من دون شاخصات ؟ إنسان يشقّ الطريق، ويضع الشاخصات ؛ خالق الأكوان يخلق الإنسان، وينزل على نبيّه الكتاب، فيه فلسفة الحياة، فيه تفسيرٌ دقيقٌ من خالق الكون لحقيقة الكون، وحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسان، ولِما قبل الحياة، وما بعد الحياة، فيه تربيةٌ لجسمه، ولنفسه، ولأخلاقه، ولدينه، ولعقله، فيه أمرٌ وفيه نهيٌ، فيه حلال، وفيه حرام، فيه وعد، وفيه وعيد، فيه بشارة، وفيه إنذار، فيه آيات كونية دالّة على عظمة الله عزّ وجل، ومع كل ذلك:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)

(سورة السجدة: آية 3)

الآن دعاة الإلحاد، أو المشككون في الدين، من أين يأتون بالشبهات على الدين ؟ يدعون أن هذا القرآن من عند محمد، وأنه كان ذكياً جداً، وكان عبقرياً، وقد جمع العرب حوله بهذا الكتاب، وهذه مرحلة انقضت وانتهت، فالحد الفاصل بين الإيمان والكُفر أن تعتقد أن هذا القرآن من عند الله، لا ريب فيه كلام خالق الكون، منهجٌ دقيق..

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا)

لا أن تعتقد أن هذا الكلام من عند محمد عليه الصلاة والسلام كما يدعي ذوو الشبهات.

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

الإذعان التام لا الفلكلور والشكليات:

فإذا كان لك رأي بموضوع غض البصر، وتقول: يا أخي، إنه صعب، لأننا في زمن صعب، ولك رأي آخر مغاير لكتاب الله في موضوع الربا، لك رأي في الاختلاط، لك رأي في حجاب المرأة، لك آراء مخالفة لكتاب الله، أي أنك ترتاب بهذا الكتاب، فلا تراه حكيماً، ولا تراه صحيحاً، ولا تراه يُغَطِّي حاجات البشر الآن، فالقضية ليس فيها حل وسط، كلام دقيق، وكلام مصيري، وكلام خطير، أي أنّك يجب أن تأخذ موقفاً واضحاً صريحاً، أما الوضع العفوي أنه يا الله، هذا كلام الله، تقبله من أول وجه، ومن ثاني وجه، ومن ثالث وجه، ومن رابع وجه، ومن خامس وجه، وسادس وجه، وبيتك غير إسلامي، وعلاقاتك المالية غير إسلامية، وعلاقاتك الاجتماعية غير إسلامية، وكسب المال غير إسلامي، وإنفاق المال غير إسلامي.. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلَّ مَحَارِمَهُ))

(من سنن الترمذي عن صهيب)

رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه، هذا الموقف الفلكلوري، أنه كلام الله، وتقبّله، وتعلقه في غرفة النوم ببيت من قماشٍ مطرّز، وأنت تعصي كلام الله عزّ وجل، القضية أخطر من ذلك، بل أصبح القرآن عند بعض الناس كتاباً يُتلى على الأموات فقط، فإذا سمعوا القرآن تشاءموا، ظنوا أن هناك ميّتا، هذا القرآن كلام الحياة، كلامٌ يُحيي القلب، كلامٌ فيه منهجٌ للحياة، فلذلك بين الإيمان والكفر، أن تعتقد أن في القرآن ريباً، وفيه شك، وتناقض، وتضارب، هناك موضوعات لم يعالجها، في موضوعات أغفلها، بينما تجد موضوعات سكت عنها، موضوعاتٍ فَصّل فيها كثيراً وليته لم يُفَصِّل، إذا كنت تملك هذا التفكير في كلام خالق الكون فالشوط أمامك طويلٌ جداً.

إذا قال لك رجل: أنا طبيب.. تقول له: أهلاً وسهلاً، فقال لك: الضغط كلما ارتفع كلما كان أحسن.. فأين أنت من الطب ؟! أنت تحتاج لتعلّم كثير معنا، أيّ طبيب هذا ؟ فلان مُمَرِّض، قلها لطالب ابتدائي: كلما ارتفع الضغط كان أحسن ؟ إنه يرفضها، قال لك آخر: أنا مهندس، الإسمنت لا يحتاج لحديد، الإسمنت يتحمل قوى الشد.. فهذا مهنته أدنى من أن يكون عاملاً، لأن أبسط حقيقة بالبناء أن الإسمنت يتحمل قوى الضغط، ولا يتحمل قوى الشد، يحتاج إلى حديد يدعمه، فإذا قال لك: أنا دكتور في الهندسة، وأرى أنّ الإسمنت يكفي، ورأيه كرأي ذلك العاقل، فارفضه، ودعه وشأنه، أو يقال: ليس لنا شأنٌ في آيات القرآن، أو هناك تناقضات، أو الموضوعات التي عالجها القرآن لا تُغَطِّي حاجات البشر الآن، عندئذٍ نقول له بأدب: لا يزال الطريق أمامك طويلاً جداً، هذا دين وهو قضية مصير، هذا كلام خالق الكون، اقرأه، تدَبّره، تفهّمه، احضر مجالس العلم، اعلم أبعاده، اعلم حلاله وحرامه، واعلم وعده ووعيده..

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة السجدة: آية " 3 ")

من معاني الحق:

المعنى الأول: الشيء الثابت:

كلمة حق تهز أعماق الإنسان، الشيء الثابت.

الآن مثلاً: دمشق لها ملامح، فإن الذي عاش فيها قبل عشرين سنة يقول لك: لم يكن فيها كل هذا التوسع، لم تكن مثلاً بهذه الأناقة، بهذه النظافة، فيها حدائق، توسّعت توسُّعاً كبيراً جداً، كل إنسان عاش قبل عشرين سنة كان يرى هناك عربات في المَرْجة، كانت الطرق كلها ترابية، وكان منظف الطرقات يرش الماء بالقربة، وبعد هذا يكنس، كل وقت له ترتيبه، أما جبل قاسيون فإنه لا يتغَيّر، هذا الجبل كما كان على عهد الرومان فهو نفس الجبل لم يتغير، على عهد الأمويين كذلك نفس الجبل، فهناك أشياء ثابتة، وأشياء متغيّرة، فالجبل ثابت، أما أنواع البيوت، نمط البيوت، الشوارع والحدائق تغيّرت طبعاً، فالحق هو: الشيء الثابت، وهناك ثوابت على الدوام، فالقرآن:

(بَلْ هُوَ الْحَقُّ)

أي كلام خالق الكون، مع مرور الزمن لا يمكن أن تأتي حقيقة ثابتة تنقضه، ولا أن تأتي تجربةٌ تظهر نقصاً فيه، ولا أن تأتي فرضية تُضعف مضمونه، مستحيل لأنه هو الحق..

(يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

القرآن حق من رب العالمين:

لم يقل: من الله، بل قال: من ربك الذي يربّيك، المربي أرسل توجيهات، المربي أرسل هذا الخطاب، المربي أنزل هذا القرآن، انتبه يا إنسان، أنظر إلى الأب، قد ترى لسانه يُبْرى من كثرة التنبيهات ؛ يا ابني ادرس، يا ابني كن صادقاً، يا ابني اضبط أمورك، سجّل مصروفك، مثلاً، وفِّر من المال، هذه النفقة لا جدوى منها، تجد أن الأب بشكل عفوي، بدافع محبته إلى ابنه، بدافع حرصه على مستقبله، بدافع تجربته الطويلة، بدافع معلوماته الغزيرة، دائماً يُلْقي على ابنه المواعظ والتوجيهات، والحكم والحقائق، هذه الأبوة، وهذه التربية، فلأن الله رب العالمين، رب هذا الإنسان، لئلا يضيع، لئلا يتيه، لئلا يضل، لئلا يزل، لئلا يشقى، لئلا يهلك نفسه، تنزيلٌ من رب العالمين..

(بَلْ هُوَ الْحَقُّ)

دائماً الحق هو الشيء الثابت، فأحياناً نحن ننشئ جناحاً في المعرض خمسة عشر يوماً، فقد يكون من كرتون، أو من قماش، السقف قماش، الجدران كرتون، هذا مكان مؤقّت، لكن دائرة ضخمة مثلاً، رئاسة الوزراء يكون بناءه من حجر، لأنه أُنشئ ليبقى، تجد أساسات، وجدر سميكة.. الخ، فالحق هو: الشيء الثابت، والباطل هو: الشيء المتغيّر، الأزياء كلها باطلة، لماذا ؟ لأنها في تبدُّل مستمر، أما الحق فثابت.

المعنى الثاني: الشيء السامي العظيم:

وهناك معنى آخر للحق ؛ الشيء الثابت والشيء السامي العظيم، الهادف..

(بَلْ هُوَ الْحَقُّ)

أي مهما تبدّلت العصور، مهما تبدلت الأزمان، مهما تقدّم العلم، مهما تنوّعت الحياة، مهما ارتقى الإنسان، مهما فعل فإن هذا القرآن كلام خالق الكون، الحقائق فيه ثابتة، والأوامر ثابتة، والنواهي ثابتة، والطريق إلى الله ثابت، لا توجد مفاجآت.

إن الإنسان أحياناً يمشي مع الباطل، يقضي حياته في الباطل، يقضي شبابه، يزهق حياته، وبعد ذلك يكتشف بعد سبعين عاماً أن هذا المبدأ باطل، تخلّى عنه أصحابه، هذه مفاجأة كبيرة جداً، هذه مفاجأة ساحقة أن إنسانا نذر نفسه لهذا المبدأ، وضحّى بشبابه، وقدّم كل شيء، بعد هذا العُمر المديد إذا بالفكرة لا أصل لها، وهي من صنع الأهواء والمصالح والأنانيّات، وانتهى الأمر، و..

(قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)

(سورة يوسف)

هذه مفاجأة خطيرة، أما إذا كنت دائماً مع الحق فليس هناك مفاجأة أبداً، مهما تقدمت بك السن، مهما قرأت، مهما اطلعت، لو سافرت، أينما شئت فلتسافر، القُرآن شامخٌ كالطود، بالعكس كلما رأيت انحراف البشر ازددت إيماناً بأحقيّة هذا القرآن..

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)

(سورة الإسراء)

الآن المجتمع الغربي انتهى، ليس في المجتمعات الغربية أسرة بالمعنى الدقيق، هناك تفتت، تشرُّد، تبعثُر، تشرذم، شقاء، لدى الغرب تقدم من جهة وتخلف كبير من جهات أخرى، الإنسان انسحق لأنه ظن أن اللذّة هي كل شيء، غفل عن القيم، غفل عن سر وجوده، غفل عن هذا الانضباط الروحي الرائع، هذا كله غفل عنه الغربيّون، لذلك الدعوة إلى الله في بلاد الغرب، تجد الآن قبولاً مُنقطع النظير،

لشقاء الإنسان، لما يعانيه من قسوة المادة، فالأطفال أحياناً يُسرقون لتباع دماؤهم في السوق السوداء، في أرقى المجتمعات، فهذا الشيء مخيف جداً، أن الإنسان بلغ درجة صار عندها يسرق طفلاً، ويصفي دمه، ويبيعه في السوق السوداء !! هكذا يكون الإنسان إذا ترك الله عزّ وجل، يصبح وحشاً كاسراً، إذاً هذا المرض الشهير الذي قال عنه أحد المسؤولين الكبار في بلد متقدم قال: " إن القنبلة الذرية التي سوف تصيبنا هي مرض الإيدز ".

ما هو الفساد ؟

سنة ألفين وعشرة سيكون ضحايا الإيدز بمئات الملايين، هذا هو الزنا، أقول لكم، وأنا أعني ما أقول: ما من مشكلةٍ تعاني منها البشرية إلا بسبب الخروج عن هذا المنهج، ما هو تعريف الفساد ؟ هو حركة إنسان مخيّر بلا منهج، فلسفة الفساد في الأرض إنسان مخير يتحرّك بغير منهج، لأن كُلّ شيءٍ مضبوطٌ بالحكمة والخير من عند الله، أما الإنسان فمخير، فإذا عرف الله عزّ وجل، وسار على هذا المنهج سعِد وأسعد، وأصبحت الأرض صالحة، وأما الفساد إخراج الشيء عن صلاحه.

متى يَفْسُد الملح ؟ يفسد إذا وضعته في الحلويات، فإنك أخرجته عن صلاحه، أفسدت المِلح وأفسدت الحلويات، إذا وضعت السكّر في الطعام، أفسدته وأفسدت الطعام، الشيء الذي تخرجه عن صلاحه هو الفساد، إذاً حركة الإنسان بلا منهج هي الفساد، فلذلك:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

إذا كنت مع القرآن فاطمئن، لن تفاجأ مهما امتد بك العمر، كلما نمت خبرتك وزاد اطلاعك، وزادت ثقافتك ازددت يقيناً بأن هذا القرآن الكريم حقٌ من عند الله عزّ وجل.

لي صديق أطلعني على كتاب عن العسل، مؤلف هذا الكتاب من بلدٍ عقيدته (لا إله)، ليس: (لا إله إلا الله)، بل لا إله، عشرة فصول، أو أحدَ عشر فصلاً عن فوائد العسل، الأمراض الجلدية، الأمراض الإنتانية، علاقته بجهاز التنفس، بجهاز القلب والدوران، علاقته بالإنتانات، علاقته بالهضم، علاقته..

شيء يحيّر العقول، كأن هذا الكتاب كله ترجمةٌ تفصيليةٌ لقوله تعالى:

(فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)

(سورة النحل: آية 69)

والذي ألّف الكتاب لا يعرف الآية الكريمة إطلاقاً، وإذا عرفها فلن يؤمن بها في الأساس..

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة السجدة: آية 1)

إذاً ليس فيه ريب..

(بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

ما حار فيه البشر بيّنه ربُّ البشر:

1 ـ مِن أين يتشكل الجنين ؟

البشرية اضطربت، وتساءلَتْ: يا ترى الجنين يتشكّل من الحوين المنوي، والرحم عبارة عن أرض للاستنبات ؟ هكذا اعتقد الناس عشرات السنين، أو لخمسين عاماً تقريباً، ثم اعتقدوا العكس أن الجنين ينشأ من البويضة، وما الحوين المنوي إلا مُنَبِّه، لكن الله عزّ وجل قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى)

(سورة الحجرات: آية " 13 ")

(من) للتبعيض، من حوين وبويضة، ثم تاه البشر، يا ترى الجنين من الرجل أم من الأنثى، أيْ كونه ذكراً أو أنثى ؟ القرآن أشار:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46))

(سورة النجم)

الذي يُشَكِّل الذكر والأنثى النطفة لا البويضة، هذا كلام خالق الكون، آية قرآنية تاه فيها البشر:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

(سورة الرحمن)

2 ـ أين هو البرزخ بين البحرين ؟

أين هذا البرزخ ؟ أين هو البرزخ بين البحر العربي والبحر الأحمر ؟ باب المندب فيه الماء متصل، أين هو البرزخ بين المتوسط والأسود في البوسفور ؟ أين هو البرزخ بين المتوسط وبين الأطلسي في جبل طارق ؟ والناس قالوا: لا يوجد شيء، لكن الله قال:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

إلى أن ركب الإنسان المركبة الفضائية، وصوّر البحار من الجو فظهرت في الصور خطوطٌ بين كل بحرين خط، لا تزال طبيعة هذا الحاجز مجهولة، لكن آثاره واضحة، أن كل بحر له مكوناته، وله ملوحته، وله حرارته، وله كثافته، الكثافة، والملوحة، والمكونات، والحرارة.. وأن مياه البحر الأحمر لا يمكن أن تختلط بمياه المحيط الهندي، وأن مياه المتوسط لا يمكن أن تختلط بمياه البحر الأسود، ومياه المتوسط لا يمكن أن تختلط بالمحيط الأطلسي، جاء الكشف من عند الأجانب من خلال مركبات

الفضاء، عندما رأوا أن هناك خطوطاً درسوا المياه، فرأوا هنا ملوحة بنسبة ما، وهنا ملوحة بنسبة أخرى، عند باب المندب، قبل عشرة أمتار من هذا الخط وجدوا الماء له ملوحة، وهنا بعد مسافة معينة له ملوحة مغايرة، وإذا الإنسان شاهد البحر الأحمر، أو وضع قدمه في مياهه يشعر أن هذا الماء خفيف أخف من مياه المتوسط، ولكن يوجد اتصال عند قناة السويس، وعند باب المندب.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20))

بقي هناك حجر محجور بين المياه العذبة والمياه المالحة، أسماك المياه العذبة لا تنتقل إلى المياه المالحة، وأسماك المياه المالحة لا تنتقل إلى المياه العذبة..

(بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً)

(سورة الفرقان)

هذا كلام خالق الكون، ولو كان عند الإنسان وقت، أو نفس علمي طويل لعلم الكثير، أيّةُ إشارةٍ في القرآن تدعمها حقيقة علمية عمرها أعوامٌ طويلة.

3 ـ لماذا يطير الطائر ويهاجر ؟

ربنا عزّ وجل قال عن الطيور:

(أوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)

(سورة الملك)

ربنا عزّ وجل عزا طيران الطائر انطلاقا وتسيراً في جو السماء إلى ذاته، وبحثٌ علميٌّ بقي مستمراً عشرين عاماً لماذا يطير الطير ؟ لماذا يُهاجر ؟

هناك مائة مليار طائر في العالم، لماذا تهاجر، ما السبب ؟ يا ترى خارجي أم داخلي ؟ خارجي.. صار الجو حاراً، فوضعوها في أجواء باردة، تحركت نحو الهجرة.. يا ترى طول النهار ؟ وضعوها في ضوءٍ قليل قصير تحركت نحو الهجرة، إذاً الدافع داخلي، ولكن هاجرت فما الذي يدلّها على الطريق ؟ تنطلق في رحلةٍ طولها سبعة عشر ألف كيلو متر من جنوب أمريكا إلى شمالها، سبعة عشرَ ألف كيلو متر، من جنوب أفريقيا إلى الشرق الأوسط، ولكن تعود إلى أعشاشها في الشتاء، لو أنها انحرفت درجة واحدة، كان عشها في دمشق فإذا هي في مصر، كان عشها في دمشق فإذا هي في العراق، درجة واحدة، من يهديها في ظلمات البر والبحر ؟ القرآن الكريم قال:

(مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ)

(سورة الملك19)

كما أن هناك آية أخرى:

(مَا يُمْسِكُهُنّ إِلّا اللّهُ)

(سورة النحل: آية " 79 ")

عزا طيران الطائر إلى ذاته، البحث العلمي يقول: " هناك إيقاعاتٌ خفيةٌ تُلْقى في قلب الطائر من جهةٍ مجهولة "، وبعد عشرين سنة وضّحوا الآية، هكذا القرآن، أنت مع كلام خالق البشر، فلا أعتقد أن هناك كتاباً آخر يجب أن يستحوذ عليك، أن تهتم به، أن تُعْنَى بدقائقه، أن تُعنى بآياته، أن تُعنى بأمره ونهيه، أن تُعنى بوعده ووعيده، ببشارته وإنذاره إلا القرآن..

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلّهُمْ يَهْتَدُونَ)

(سورة السجدة)

القرآن نذير لِمَن لا نذير له:

هؤلاء العرب الذين ما أتاهم من نذيرٍ من عهد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام إلى محمدٍ عليه الصلاة والسلام..

(مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلّهُمْ يَهْتَدُونَ)

حُكم أهل الفترة:

وهذا ينقلنا إلى موضوع أهل الفَترة، أهل الفترة مطالبون بالإيمان بالله، أما إذا لم يصلهم التكليف فلا يحاسبون عليه، فهناك أناس يخلطون، الكون يدلُ على الله عزّ وجل، والإنسان أعطاه الله عقلاً، هو أداة معرفة الله، فلا عُذر له إن لم يؤمن، لكنّ الإنسان إذا آمن بالله، ولم يَطّلع على الأمر بالزكاة، أو الأمر بغض البصر، أو الأمر بكذا، فهذه الأوامر التفصيلية هذه لا يحاسب عليها إلا من تبلغها، فلذلك أهل الفترة لا نقول: معفون إعفاءً تاماً من كل مسؤولية..

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيّنّاهَا)

(سورة ق: آية " 6 ")

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22))

(سورة الغاشية)

إذاً:

(الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3))

(سورة السجدة)

الذي أتمناه على كل أخٍ كريم أن يكون موقفه واضحاً تماماً من هذا الكتاب الكريم، هل تملك الأدلة القطعية على أن هذا القرآن كلام الله ؟ إن كنت كذلك فكيف تُغَطِّي نفسك أمام ربك إذا سألك: لماذا لم تنفِّذ هذا الأمر ؟ لماذا قصَّرت في هذا الأمر ؟

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

كيف نخالف القرآن مع أنك تعلم أنه قطعي من رب العالمين ؟

لماذا أنت أيها المؤمن تتساهل أحياناً في هذا الأمر ؟ إذا كان بلغ لديك حدَ اليقين أنه كلام الله فكيف تنسجم مع نفسك إذا خالفت أمره ؟ ألا تشعر باختلال التوازن ؟ أما إذا كان هناك شك عندك من أمره فإن هذا موضوع آخر، لذلك فإنّ هذا الموضوع يجب أن يكون محسوماً لدى كل إنسان.

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتابع هذه السورة الكريمة التي كان النبي عليه الصلاة والسلام يقرأها كل فجر جمعة، وأغلب الأئمة في العالم الإسلامي يقلِّدون النبي عليه الصلاة والسلام، ويقرؤونها في فجر الجمعة مع سورة الدهر، فمراكز الثقل في الآية هي كلمة:

(لَا رَيْبَ فِيهِ)

أي هل هناك يقينٌ قطعيٌّ، قطعيٌّ، قطعي أن هذا القرآن كلامه ؟ إذا كان كذلك فكيف تخالفه ؟ وكيف تُغَطي نفسك أمام ربك حينما يسألك ؟ وكيف لا يختل توازنك إذا كنت موقناً أن هذا الكلام كلامه وأنت لا تطبِّقه، ما موقفك ؟ هذه قضية مصيرية، كلمة لا ريب فيه:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

مخالفة القرآن ثمنها باهظ:

مثلاً: لو أن مهندساً رأى بناءً، وأدرك بعلمه أن هذا البناء خطر، ولابدّ من أن يقع، وأنه ألقى هذه الحقيقة على مسامع أصحاب البيت، وأبلغهم، وأخذ توقيعهم على ذلك، وأصحاب البيت لم يعبئوا بهذه النصيحة، وبقوا في البيت إلى أن وقع البيت فوق رؤوسهم، فهذا هو العلم، وذاك هو الجهل. فالإنسان أحياناً يرتكب مخالفات في كتاب الله يدفع الثمن باهظاً، حتى في حياته الزوجية، لأنه لم يعبأ

بكلام الله عزّ وجل، الله عزّ وجل قال مثلاً آيات كثيرة جداً في العلاقات الزوجية، فإذا لم يعبأ بها يدفع الثمن باهظاً من سعادته الزوجية، هناك توجيهات كثيرة في كسب المال، إن لم تعبأ بها دفعت الثمن باهظاً من تجارتك، هناك توجيهات كثيرة في إنفاق المال إن لم تعبأ بها دفعت الثمن باهظاً، فإذا كان الإنسان مُحِباً لذاته، إذا كان مفرطاً في أنانيته، عليه أن يتفهم كلام الله، والمرء يجب أن يلاحظ نفسه.

مثلاً: آلة غالية جداً.. كأن يشتري أحياناً كمبيوترا، أو يشتري مركبة موديل جديد، يقول لك: هذه كلفتني كذا مليون، تجده حريصاً حرصاً بلا حدود على اقتناء الكُتَيّب الذي تصدره الجهة الصانعة، حريصا حرصا بلا حدود على ترجمته لفهمه، حريصا حرصاً بلا حدود على تنفيذ تعليماته، حرصك على سلامة هذه الآلة دفعك إلى كل هذا الحرص، وكل هذا الجهد، ترجمت، وقرأت، وفهمت، وسألت، ونفّذت، فحرصك على آلةٍ صغيرة أو على مركبةٍ أيعقل أن يكون أشد من حرصك على نفسك، وعلى مصيرك، أو على مستقبلك ؟! وعلى حياتك بعد موتك ؟ هكذا الدنيا ؟ الإنسان لو رأى بعينه شيئاً من الخلل في صحته لا ينام الليل، يسأل عن أمهر طبيب، يسأل عن الطبيب الأول، ويقول لنفسه: (هذه عين ليس معها لعب، فهي أداة البصر)، ولكن نفسك التي بين جنبيك ؟ هي التي سوف تعيش بها إلى الأبد..

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

أرجو أن تدركوا معي أنّ هذا الكتاب ليس أمراً بسيطاً، بل هو قرآن من عند الله، بعضهم يتلوه، ويقول: تباركنا والحمد لله، شعرنا براحة، كلام الله، بل إن الموضوع أخطر من ذلك، أخطر بكثير، أخطر من أن تتلوه هكذا، الموضوع أن تقف عند أمره ونهيه، عند حلاله وحرامه، عند آياته الدالة على عظمة ربك، عند الآيات التي تَعِد أو توعد، هذا المطلوب، فالمطلوب أن نتلوه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، أن نتفهّمه، أن نتدبّره، يجب أن تكون في مستوى هذه الآية:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ)

كنت أقول لكم سابقاً: من السهل جداً أن تقول: ألف مليون ليرة، فالعبارة لا تكلفك شيئاً، ألف مليون ليرة، ثلاث كلمات، يمكن إذا كان الجهد يقاس بوحدات، وحدات لا تُذكر، فما هذا النفس الطويل.. ألف مليون ليرة.. شتّان بين أن تلفظها وبين أن تملكها، فرقٌ كبيرٌ جداً بين أن تقول ألف مليون ليرة، وبين أن تملك هذا المبلغ، وكذلك في القرآن شتّان بين أن تقرأ آية قراءةً صحيحة مجوّدة، وبين أن تكون في مستواها، حينما تخالف كلام الله ما معنى ذلك ؟ أنك تشعر من أعماقك أن هذا الكتاب صعب تنفيذه، كأن الله كلّفك ما لا تطيق مع أن الله تعالى يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

أنت حينما تعتقد هذه العقيدة فإنك قد خالفت كلام الله، فاجهد أن تكون عقيدتك مطابقةً لكلام الله، فاجهد أن تستنبط سر الحياة، سر الكون، وسر الحياة، وسر وجودك من كلام الله، اجهد أن يكون عملك مطابقاً لتوجيهات الله، اجهد أن تكون أهدافك مطابقة لما في القرآن، لا أن تكون أرضية، فالمفاجأة كبيرة جداً..

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور)

يُصْعَق.

مثلاً: شخص قلب كل أمواله إلى عملة أجنبية، بيته، معمله، أرضه، سيارته، بيته في المصيف، المبلغ صار مئتي مليون، وذهب إلى بلدٍ أجنبي ليعيش في بحبوحةٍ كبيرة، ليشتري البيوت والقصور، والسيارات، ويعيش بلا عمل، وبدخلٍ من ريع المبلغ في المصارف، ثم يفاجأ أن هذه العملة التي قبضها مزوّرة، فبلحظة واحدة يُصعق..

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا)

(سورة المعارج: آية " 42 ")

أحدهم وضع أمواله في شركة استثمارية في الخليج.. مبلغ ضخم جداً كل ما يملكه.. كان في دمشق يمضي شهراً كعطلة، فلما عاد إلى بلده في الخليج أنبأه شريكه أن هذه الشركة التي وَضَعْت فيها كل أموالك قد فلست، فوقع مغمياً عليه، هذه صعقة كبيرة جداً، نحن نقرأ القرآن، يجب أن يقرأ قراءةً جدية، الأمر، النهي في كل التوجيهات، في زواجك، ولا يمكن أن يشقى زوج إن طبق كلام الله عزّ وجل..

(وَعَاشِرُوهُنّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة النساء: آية " 19 ")

اقرأ التفاسير كُلّها، المعاشرة بالمعروف ليس أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها، هكذا توجيه ربنا عزّ وجل، فيجب أن نقرأ القرآن بتدبر، بعناية، يجب أن توقع عملك وفق القرآن، إذا قال لك: غُض بصرك، غض بصرك وإلا صار البيت جحيماً، كلّ يوم بينك وبين زوجتك مشاجرتان أو ثلاثٌ، إذا قال لك الله عزّ وجل:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

فصدق، لأنك تجمع، ثم تجمع، ثم تجمع، وفي ثانية واحدة يدمِّر مالك كله..

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

إذا قال لك: زكّ، فزكّ، إذا قال لك: افعل، فافعل..

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

(سورة الحجرات: آية " 12 ")

لو اغتبت يتمزّق المجتمع، تجد الأسر كلها ممزقة فما هو السبب ؟ من الغيبة، يستقبل استقبالاً مع ترحاب، يغادر منزلهم فيتكلمون عليه، يكون الواحد حاضراً فينقل الكلام إليه: هكذا تكلموا عليك بعد خروجك، فيرد عليه: هم تكلموا بهذا الكلام علي، أعوذ بالله، هم فعلوا معي هكذا ؟ تجد الحياة كلها ممزقة من الغيبة، فإذا أردت أن تسعد أنت، وأهلك وأولادك، ومجتمعك وجيرانك، وإخوانك فطبق كلام الله، كلمة:

(لَا رَيْبَ فِيهِ)

نعم أعتقد أن كلام الله صحيح، وهو عين الصواب والحق. الدرس كله على كلمة لا ريب فيه، هذا كلام خالق البشر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة السجدة 032 - الدرس (2-6): تفسير الآيتان 4 - 5

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-08-23

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة السجدة، في الدرس الماضي أيها الإخوة تمّ شرح قوله تعالى:

(الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3))

(سورة السجدة)

هذا الكتاب ليس مفترى، بل هو من عند الله، من هو الله ؟

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

(سورة السجدة: آية " 4 ")

شرف الرسالة مِن شرف المرسِل:

شرفُ الرسالة من شرف المُرسل..، لذلك **" لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت ".**

فهذا الكتاب لا ريب فيه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كتابٌ حكيم، كتابٌ حق، نور، هدى، بيان، لكن أخطر من هذا كلِّه، هو مِن عند مَن ؟ من عند خالق السماوات والأرض، كلما عظم المرسِل عظمت الرسالة، كلما شرف المرسِل شَرُفت الرسالة.

خطاب الله خالق السماوات والأرض، أراد الله عزّ وجل أن تأخذ الكتاب بقوة، كي تعظمه، كي تبادر إلى تصديقه، كي تبادر إلى تطبيق أحكامه، كي تسعى إلى نيل ثماره، أن تعرف من الذي أرسله، الله عزّ وجل قال:

(الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3))

(سورة السجدة)

من هو رب العالمين ؟

(بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة السجدة: آية " 3 ")

من هو ربك يا محمد ؟ ومن هو ربُّ العالمين ؟

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة السجدة: آية 4)

الكون المعجز مِن خَلق الله رب العالمين:

حتى هذه اللحظة لا يعرف أحدٌ حدودَ الكون، لا يزال الكون مجهولاً، بعض العلماء قال: **" لم تبتل بعدُ أقدامُنا ببحر المعرفة "**، لا زلنا على شاطئ المعرفة، فإذا كنا على شاطئ معرفة الكون فكيف بخالق الكون ؟

مجرة حديثة اكتشفت بعيدة عنا بعشرين ألف مليون سنة ضوئية.. والضوء يقطع في الثانية الواحدة ما يزيد على ثلاثمائة ألف كيلو متر، كَم في الدقيقة ؟ وفي الساعة ؟ وفي اليوم ؟ وفي السنة ؟ فما عرفنا بعدُ حدود الكون، ولا زلنا أطفالاً نحبو، ولم تبتل بعد أقدامنا ببحر المعرفة "، كما قال الإمام الشافعي: **" كلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي ".**

فهل تعرف أيها الأخ الكريم من الذي أنزل هذا الكتاب ؟ إنه ربُّ العالمين، ومن رب العالمين ؟ إنه خالق السماوات والأرض..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة السجدة: آية " 4 ")

ففي المنطق هل يمكن لجهةٍ أن تعبدَها غير خالق الكون ؟

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 21 ")

المستحق للعبادة وحده هو خالق الكون وحده:

لعِظَم حقِه عليكم، ولأنه الخبير، ولأنه العليم، ولأنه الرحيم، ولأنه القدير، ولأنه اللطيف، ولأن إليه المصير، فالله عزّ وجل يريد أن يبين أن الله وحده يجب أن تعبده، لأنه هو الخالق، وهذا كتابه، خلق الكون، ونَوّره بهذا الكتاب، إنه نورٌ مبين، خلق الكون، وجعل هذا الكتاب حجةً علينا أو لنا، حجة علينا إن قصّرنا قي تطبيقه، وحجةً لنا إن طبّقناه..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

(سورة السجدة: آية " 4 ")

معنى: سِتَّةِ أَيَّامٍ

لا شك أن اليوم المذكور في هذه الآية ليس اليوم الذي نعرفه، لأن اليوم الذي نعرفه هو ناشئٌ من دورة الأرض حول نفسها، دورة الأرض حول نفسها تُشَكِّل يوماً طبعاً مع وجود الشمس، قبل أن تُخلَق السماوات والأرض لم يكن هناك يومٌ بالمعنى الذي نعرفه، إذاً: لا شك أن هذه الأيام الستة ليست كأيامنا التي نحن فيها، لا كما قال اليهود: خلق الله عزّ وجل الكون يوم الأحد والاثنين، والثلاثاء والأربعاء، والخميس والجمعة، واستراح يوم السبت، ليس من شأن خالق الكون أن يصيبه التعب، وأن يستريح، وليس من شأن هذا الخلق أن يكون بأيامٍ لم تُخلَق بعد، إلا أنّ بعض العلماء قالوا: " إنّ هذه السماوات والأرض خُلِقَت في حِقَبٍ ممتدة، حقبٍ طويلة "، فلو درست علم الجيولوجية لقالوا لك: إن الأرض مرت في نشأتها بمرحلةٍ غازيةٍ، مرحلة ملتهبة، مرحلة متجمدة، عصور مطيرة، عصور نوع من أنواع معيّنة، فلعل هذه الأيام الستة هي مراحل طويلة تم خلالها خلق السماوات والأرض، وكأن الله عزّ وجل هيّأ للإنسان هذه الأرض، وجعل تهيئتها من خلال مجموعةٍ من الأيام التي هي في المعنى الدقيق حِقَبٌ طويلة، تم فيها خلق السماوات والأرض، وكل ما تقرؤونه في تاريخ الأرض، وعلوم الأرض، وعلوم الجُيولوجية إنما هو تفسيرٌ وتوضيحٌ وبيانٌ لمضمون هذه الآية الكريمة، وقد قال العلماء عن القرآن: **" إن فيه أصولاً للعلوم الكونية "**، أصولاً وليس فروعاً..

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

مذاهب العلماء في الآيات المتعلقة بذات الله:

كلّكم يعلّم أنّ في القرآن الكريم آياتٌ متعلقةٌ بذات الله، مثلاً:

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

(سورة الفجر: آية " 22 ")

أين كان ؟ وأين وصل ؟ وهل ربنا يمشي ؟ وهل له مكان يحويه ؟ ليس بجسمٍ، ولا صورةٍ، ولا مُتَبَعِّضٍ، ولا متجزّئ، ولا متلونٍ، وكل ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك.. **" علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، لا يُسأل عنه بمتى ؟ لأنه خالق الزمان، ولا بأين هو، لأنه خالق المكان "**، كيف:

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

كيف:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية " 10 ")

كيف:

((إذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربكم إلى السماء الدنيا))

[مسلم وأحمد]

هذه الآيات المتعلِّقة بذات الله عزّ وجل ذهب فيها العلماء أربعة مذاهب، مذهبان من مُعْتَقد أهل السنة والجماعة، ومذهبان باطلان.

المذهب الأول: التفويض:

فالمذهب الأول هو التفويض، الآيات المتعلقة بذات الله نُفَوّض تفسيرها إلى الله، وهذا أسلم مذهب، لأن المحدود لا يمكن أن يحيط باللامحدود، ولأن الحادث لا يمكن أن يحيط بالقديم، ولأن المخلوق لا يمكن أن يحيط بالخالق، وأنت في أعلى درجات العلم، وأنت في تألّقك العلمي قل عن هذه الآيات: لا أدري، وأنت عند الناس عالم، وأنت حينئذٍ عند الناس في أعلى درجات العلم، لا يضرُّك أن تقول: لا أعلم، في آياتٍ متعلقةٍ بذات الله عزّ وجل، لأن الله عزّ وجل لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به العقول، وكلُّ ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك، هذا مذهبٌ أول، مذهب التفويض، نفوض أمر الاستواء إلى الله عزّ وجل.

سُئل الإمام مالك عن الاستواء فقال: **" الاستواء معلوم ـ في هذه الآية ـ والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة "**، وهذا في كل الآيات المتعلقة بذات الله..

(إنّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً)

(سورة النساء)

كيف يسمع ؟ وكيف يبصر ؟ وكيف:

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

وكيف:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

وكيف:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: آية " 48 ")

هذه الآيات المتعلقة بذات الله، المذهب الأول أن نفوض.

المذهب الثاني: التأويل:

والمذهب الثاني أن ونؤّول، التأويل بما يليق بكمال الله، بما يليق بذات الله، بما يليق بمقام الألوهية والربوبية:

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

أي جاء أمر الله عزّ وجل، هذه القرية الفاسقة، الفاجرة، المنحرفة، يأتيها أمر الله، أيْ أن يأتيها عقابه، يأتيها زلزال، يأتيها بركان، تأتيها مشكلات، تأتيها أوبئة، تأتيها أمراض، فإذا قلنا: جاء أمر ربّك، بمعنى جاء أمره، و جاء ربك، بمعنى جاء أمره، وإذا قلنا:

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

اليد رمز القوة، قوة الله فوقهم، وإذا قلنا:

(إنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

(سورة الحج)

سميع: أي يعلم المَقولات كلها، وإذا قلنا: بصير: يعلم المتحرّكات، وإذا قلنا: عليم: يعلم ما في النفوس، وإذا قلنا:

(فَإِنّكَ بِأَعْيُنِنَا)

أي بعنايتنا، المذهب الثاني مذهب التأويل بما يليق بكمال الله عزّ وجل.

المذهب الثالث والرابع: التعطيل والتجسيم:

وأما مذهب التعطيل ومذهب التجسيم فهما مذهبان باطلان، أن تُجَسِّم الذات الإلهية بأنه يأتي، وأن له يداً، وأن له عيناً، وأن له سمعاً، هذا مذهبٌ باطل، لأنه قام على التجسيم، فكل ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك.

مرة أحد الخطباء نزل درجة وقال: إن ربّكم ينزل إلى السماء الدنيا كما أنزل أنا، هذا تجسيم، هذا كفر، إذاً: مذهب التجسيم باطل، ومذهب التعطيل باطل، أن تعطل هذه الآيات، آيات من كتاب الله، فلذلك هناك آياتٌ تُدركها بلا تفسير، فلا تحتاج إلا إلى تفسير الزمخشري، ولا إلى تفسير الطبري، ولا إلى تفسير القرطبي، ولا إلى تفسير ابن كثير، ولا إلى مفسّر حديث، ولا إلى قديم.

مثلاً:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً)

(سورة التحريم: آية " 8 ")

سبل فهم الآيات:

1 ـ فهم الآيات فهما عربيا سهلا:

هذه آيات محكمة واضحة، أساساً تقام عليك الحجة بهذه الآيات، لست محتاجاً إلى أحد، لست مضطراً إلى أن تكون تبعاً إلى أحد في فهم هذه الآيات، إن الله يحب الصادقين.

(إِنّ اللّهَ يُحِبُّ التّوّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهّرِينَ)

(سورة البقرة)

(إِنّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

(سورة الأعراف)

(وَاللّهُ لَا يُحِبُّ الظّالِمِينَ)

(سورة آل عمران)

(فَإِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

(سورة آل عمران)

(إِنّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

(سورة الأعراف)

فالآيات المحكمة واضحة، ومن فضل الله علينا أن كل الآيات التكليفية محكمة، كل الآيات التكليفية التي فيها افعل، ولا تفعل آيات محكمة، هذه آيات نفهمها بالبداهة، كل ذي فكرٍ سليم، كل ذي إدراكٍ صحيح، كل ذي فطرةٍ نقيّة يقرأ هذه الآية فيفهمها، هذه آياتٌ واضحة بينة لا خلاف فيها.

2 ـ تفسير الآيات بالنقل:

هناك آيات من نوع آخر، بالنقل نعرفها، فإذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثٌ صحيحٌ، يفسِّر آية كريمة فهذه الآية وإن بدت لنا غامضة لكن النقل الصحيح يُلقي عليها ضوءاً.. شيء جميل.

3 ـ تفسير الآيات بالعقل:

وهناك آياتٌ نفهمها بالعقل، فإذا قال الله عزّ وجل:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا)

(سورة الإسراء: آية " 23 ")

يا ترى منطوق الآية ألا تقول لهما: أف ؟ إذاً: ما الذي أراده الله من هذه الآية ؟ إذا كان قول أفٍ قد نهيت عنه لأن فيه إيذاءً للأم أو للأب، إذاً أي نوعٍ من أنواع الإيذاء منهيٌ عنه بالعقل، هناك آياتٌ نفهمها بالنقل، و هناك آياتٌ نفهمها بالعقل.

4 ـ طريق تفويض تفسير الآيات:

و هناك آيات كهذه الآية لا نفهمها لا بالنقل و لا بالعقل، ولكن إما أن نفوض أمرها إلى الله عزّ وجل، و هي آياتٌ قليلةٌ جداً، لا تزيد على عدد أصابع اليد، فنفوّض تفسيرها إلى الله عزّ وجل، ونحن في أعلى درجات العلم، هذا حجمك وأنت عبد، ألم تسمع قوله تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة الإسراء)

فإذا تَنَطّعْتَ لفهم كل آيةٍ فكأنك تنقض قوله تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

ولو نظرت إلى السلف الصالح حينما كان أحدهم متواضعاً في نقل العلم، وفي تعليم العلم، لرأيت العجب العجاب..

تورع السلف الصالح عن الإجابة بغير علم:

جاء وفدٌ من المغرب إلى الإمام مالك إمام دار الهجرة، والمقولة التي تعرفونها جميعاً: **" لا يُفْتَى ومالكٌ في المدينة "**، جاء هذا الوفد بثلاثين سؤالاً، طرحت عليه الأسئلة، أجاب عن سبعة عشر سؤالاً، وقال عن الباقي: لا أدري، قالوا: يا إمام، أنت إمام دار الهجرة، قصدناك من أطراف الدنيا، بقينا أربعة أشهر نسير إليك، ثم تقول: لا أدري، فقال بكل بساطة: قولوا لهم: الإمام مالك قال جواباً لها: لا يدري.. نصف العلم لا أدري، هذا التنطّع لمعرفة كل شيء، كل شيء تعرفه، إذاً فأنت جاهل، الذي قال: إنه يعرف كل شيء فهو لا يعرف شيئاً.

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

والقصة التي تعرفونها.. كان شابٌ يدرّس في بعض مساجد بغداد، وقد فتح الله عليه، والتف الناس حوله، طبعاً هذا ملأ قلوب الأصوليين من الدعاة غيرةً وحسداً، فأراد بعض علماء بلده أن يُسَفِّهَهُ، وأن يُصَغِّرَهُ أمام تلاميذه، فحضر درسه، فلما انتهى الدرس قال: يا غُلام، هذا الذي قُلته ما سمعناه، قال: يا

سيدي، أو علمت العلم كله ؟ قال: لا، قال: إذاً هذا من الذي لا تعرفه.. هذا الذي قلته، وهو من الذي لا تعرفه أنت.

كلما رأى الإنسان عظمة الله عزّ وجل، وكلما كَبُرَ الله في نظره كلما صغر في عين نفسه، والكبر من علامات الجُهّال.

أروي هذه القصة مئات المرّات، لأنها تشفي غليلي، دخل النبي عليه الصلاة والسلام إلى بيت أحد أصحابه الذين استشهدوا، رفع عنه الرداء، وقبّله، وبكى، فسمع النبي صوتاً من وراء الحجاب، فإذا امرأةٌ تقول: هنيئاً لك أبا السائب، لقد أكرمك الله، فالنبي عليه الصلاة والسلام غضب، فأجابها، طبعاً هو يجيبها، لماذا ؟ لأنه نبيٌّ مُشَرّع، فلو سكت لكان كلامها صحيحاً، إنه مُشَرِّع، ولا يصح أن يسكت على خطأ، لو أنك كنت في مجلس، وتكلمت امرأةٌ من وراء الستار كلاماً غير صحيح، وسكت، فلا شيء عليك، لست مكلّفاً، أنت لست مشرعاً، لكن النبي وحده لو سكت في هذا الموطن لعُدّ كلامها صحيحاً، قال: ومن أدراكِ أن الله أكرمه ؟! قولي: أرجو الله أن يكرمه.. كلمة (أرجو) فيها أدب مع الله، أما كلمة: (لقد أكرمك الله) فيها تألّ على الله، فيها تطاول على مقام العبودية، قولي: أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبيٌّ مرسل، لا أدري ما يفعل بي.

إذا علمت المستقبل على وجه اليقين، فلست عبداً لله عزّ وجل، خرجت من مقام العبودية إلى مقام الألوهية، إذاً قولي: أرجو الله أن يكرمه، ونحن نقول: أرجو الله أن يكرمنا، أما على وجه اليقين، أنا من أهل الجنة، وفلان من أهل النار، فلان كافر، من أعطاك هذه الصلاحية كي تكون وصياً على الناس ؟ هذا ليس من شأن العبد، هذا من شأن الرّب، أنت كن في حدود الأدب، ورحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده، إذاً:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)

القول الأول في معنى ستة أيام: أيام من أيامنا:

بعضهم قال: ستة أيامٍ من أيامنا.. هذا القول ينقضه طبيعة اليوم، طبيعة اليوم ناشئةٌ عن دورة الأرض حول نفسها مع وجود الشمس، هذا تم بعد خلق السماوات والأرض، بعد المرحلة الغازية، والمرحلة الدخانية، والمرحلة الملتهبة، وانفصال الكواكب عن بعضها، وبرود الكواكب، إذاً أن نفهم أن خلق السماوات والأرض تم في أيامٍ ستة كأيامنا، هذا فهمٌ مرفوض.

القول الثاني في معنى ستة أيام: أيام من أيامنا:

أما أن نفهم أن خلق السماوات والأرض تم في مراحل فهذا مما تُؤكِّده العلوم، علوم الأرض، وعلوم الجيولوجية.. كيف ؟

المرحلة المطيرة، ثم مرحلة النباتات العملاقة، ومرحلة الحيوانات العملاقة، ومرحلة الالتهاب.. إلخ، هذا شيء يعرفه المختصون..

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

إذا أردنا أن نفوّض نقول: الله وحده يعلم تفسير هذه الآية، وإذا أردنا أن نُؤوِّل بما يليق بكمال الله عزّ وجل، وما يليق بمقام الإلهية والربوبية، نقول كما قال بعض المفسرين: خَلَق الكون، ثم بُثّ فيه الحياة، خلق الكون، ودبّر الكون، فهناك مرحلة الخلق ومرحلة التدبير، مرحلة الخلق ومرحلة بث الحياة، مرحلة الخلق ومرحلة التسيير..

ثُمّ استَوَى عَلَى العَرْشِ

ورد في بعض التفاسير، أن الاستواء على العرش بعد أن خلق الله السماوات والأرض، وليس هذا ترتيباً زمنياً، لأنه يستحيل على الله عزّ وجل أن ينتقل وفق الزمن من مرحلة إلى مرحلة..

(إِنّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

مرحلة انتقال من مرحلة إلى أخرى هذا لا يليق بالله عزّ وجل، ولكن يوجد خلق، ويوجد تسيير، قال:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الّذِي أَعْطَى كُلّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَى (50))

(سورة طه)

يؤكِّد هذا المعنى أن أكثر الآيات التي وردت فيها كلمة:

(ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

(سورة السجدة)

جاء بعدها: يُدَبّر الأمر من السماء إلى الأرض، آيات التدبير تأتي بعد آيات الاستواء..

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيّ وَلَا شَفِيعٍ)

(سورة السجدة: آية " 4 ")

مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ

أي إذا توهّمتم أن زيداً أو عبيداً، أن فلاناً أو علاناً وليٌّ لكم من دون الله، وشفيعٌ لكم من دون الله، فهذا وهمٌ باطل، إذا اكتشفتموه بعد فوات الأوان تعضّون أصابعكم ندماً، أي أنك إذا توجّهت عنايتك إلى إنسان، وظننت أن بيده شيئاً يملكه، يعطيك أو يمنعك، يؤذيك أو ينفعك، إذا توهّمت هذا التوهُّم فهذا هو الضلال البعيد..

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ)

(سورة السجدة: آية " 4 ")

النبي عليه الصلاة والسلام قال حديثاً جامعاً مانعاً موجزاً مقتضباً، قال:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ولا يرجوَن إلا ربه))

[مسند الفردوس]

أي أية جهةٍ في الأرض لا تستطيع أن تفعل شيئاً..

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة الأنعام)

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف: آية " 54 ")

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

لو ذهبت تدعو..

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

فأكبر باب من أبواب العذاب النفسي أن تدعو مع الله إلهاً آخر.

إياكم والشرك الخفي:

إيّاك أن تظن أنك لا تقول: فلان إله، كما يقول البوذيون " بوذا إله، لا.. هذا انتهى، هذا الشرك الجَلِي انتهى وقته..

((أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي))

[ابن ماجه]

الخفي شيء، والجلي شيءٌ آخر، إذا ذهبت إلى بلاد شرقي آسيا لرأيت الآلهة المتعددة، ميكادو إله في اليابان، بوذا إله في الصين مثلاً، هذه آلهة، هذا شرك جلي، النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن فُتِحَت مكة، وبعد أن كُسِرت الأصنام، قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الشيطان يَئس أن يعبد في أرضكم))

[الترمذي]

ليس في العالم الإسلامي مَن يقول: فلان إله، هذا انتهى وقته، لن يعود، لن ترجع عقارب الزمن إلى الوراء، ولكن الخطر كامنٌ في الشرك الخفي، إذا توجّهت إلى زيد، وظننت أن زيداً ينفعك أو يضرُك، إذا ظننت أن غضبه كبير فأرضيته، وعصيت الله فهذا أكبر أنواع الشرك.

اعلم يا عبد الله أنه...

لمجرّد أن تعصي خالق الكون، وترضي مخلوقاً فهذا هو الشرك، هذا هو الشرك الذي لا يغفره الله عزّ وجل، التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، لا رافع، ولا خافض، ولا قابض، ولا باسط، ولا معزّ، ولا مذلّ، ولا معطٍ، ولا مانع، ولا رازق إلا الله، وكلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تُقرّب أجلاً..

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

(سورة الأحزاب: آية " 39 ")

من صفات الدعاة: خشية الله وحده:

هؤلاء الدعاة إلى الله لهم آلاف الصفات، أغفلها الله كلها، لماذا ذكر صفةً واحدة ؟ فإذا قلت: السيارة مثلاً، من صفاتها أن لها أبواباً، ومقاعد، ومصابيح إضاءة، وصحوناً لوضع المهملات مثلاً، إن في السيارة ألواناً زاهية، في السيارة ساعات، في السيارة توقيتاً، إن في السيارة محرّكاً، إذا ألغيت المحرك ألغيت كل السيارة.. إذاً أصبح اسمها وقّافة، لم يعد اسمها سيارة.. فربنا عزّ وجل إذا وصف من روائع وصفه أنه لا يصف الشيء بصفات إن توافرت اسمها أو لم تتوافر بقي الشيء، لا.. بل يصف الشيء

بصفةٍ إن فُقِدَت فُقِدَ الموصوف.. حتى إن علماء البلاغة سمّوا هذا الترابط بين الموصوف والصفة ترابطاً وجودياً، أقول لكم: الطائرة تطير، هذه صفة أساسية في الطائرة، إذا قلت: فخمة، واليخت فخم، إن قلت: كبيرة، والأرض كبيرة، إن قلت: غالية، والمدرّعة غالية، أما إذا قلت: هذه الطائرة تطير، إذا أُلغي طيرانها أُلغيت الطائرة كلها، وانتهت.

فهؤلاء الدعاة إلى الله ذكر الله صفةً واحدةً لهم، إن توافرت نجحوا في دعوتهم، وإن لم تتوافر لا قيمة عندئذٍ لدعوتهم لا. لاستقامتهم، ولا لورعهم، ولا لصدقتهم، ولا لزكاتهم، ولا لحجّهم، ولا لأي شيء، يسقطون وتسقط دعوتهم، ما هذه الصفة ؟

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: آية " 39 ")

لأن هذا الداعي لو خشي غير الله لسكت عن الحق خشية الذي يخشاه، ولتكلم بالباطل إرضاءً لمن يخشاه، فإذا تكلم بالباطل، وسكت عن الحق فماذا بقي من دعوته ؟ انتهى هو ودعوته، فلذلك قال الله عزّ وجل:

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ)

أي إذا أرضيت هذه الجهة، وعصيت الله فهذه لا تنفعك، أندم الناس عالمٌ دخل الناس بعلمه الجنة، ودخل هو بعلمه النار، أندم الناس غنيٌّ دخل ورثته بماله الجنة، ودخل هو بماله النار..

(ل لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

إن روح الميت ترفرف فوق النعش تقول: يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحَرُم، فأنفقته في حلِّه، وفي غير حله، فالهناءة لكم، والتبعة علي.. شيءٌ خطير أن تنسى الواحد الديان، أن تعيش هملاً..

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)

(سورة العلق)

أمر إلهي، لو تجاوزنا خصوصية السبب، وأن هذه السورة موجّهة إلى النبي عليه الصلاة والسلام.. إذاً:

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)

(سورة السجدة)

أمْرك بيد الله وحده:

إذا أدركت بذكاء وأنت موظف في وزارة.. أدركت أن في الوزارة رجلاً قوياً غير الوزير، بيده كل شيء، تجد نفسك بشكل غير شعوري تتجه إليه، تسترضيه، تقدِّم له آيات الولاء، تقدم له آيات الوفاء، تعبّر عن حبك له، حفاظاً على سلامتك، أو طمعاً فيما عنده، أي أن تشعر أن فلاناً بيده شيء، هذا في أحوال الدنيا، أما إذا أيقنت أن أمرك كلّه بيد الله، فماذا ينفعك زيد أو عبيد ؟

أنا لا أنسى هذا الموقف يوم جاء أحدَ ولاة يزيد بن معاوية على البصرة، جاءه توجيهٌ من يزيد بن معاوية، هذا التوجيه يبدو أن فيه مخالفة لأمر الله عزّ وجل، وكان عنده الإمام الحسن البصري، فهذا الوالي خاف على دينه وخاف على مستقبله، وجاءه أمرٌ ممن يخافه، فماذا يفعل، أيرضيه أم يعصيه ؟ عنده الحسن البصري فقال: يا إمام، ماذا أفعل ؟ أوصني، انصحني، أنا في حيرةٍ من أمري، إن عصيته حصل كذا وكذا، وإن أرضيته أغضبت الله عزّ وجل ؟ أجاب هذا الإمام بما سيأتي بعد قليل.. والإمام الحسن البصري مرة سُئِلَ: " يا إمام، بمَ نلت هذا المقام ؟ قال: باستغنائي عن أموال الناس، وحاجتهم إلى علمي "، قيمة العالم في زهده بما عند الناس.. أجاب الإمام الحسن البصري: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيداً لا يمنعك من الله ".**

إني والله لأردد هذه العبارة مرات ومرات، ولو قلتها آلاف المرات لما شبعت من ترددها.

إذا عصيت خالق الكون، وأطعت زيداً أو عبيداً، فإن هذا الإنسان لا يمنعك من قضاء الله، نقطة دم لا يزيد حجمها على رأس دبوس، لو تجمدت في بعض أوعية الدماغ يصاب في مكان بشلل، وفي مكان بفقد ذاكرة، وفي مكان بفقد محاكمة.. وفي مكان بغيبوبة، وفي مكان بسُبات، فعلى ماذا تعتمد ؟ دماغك بيد الله عزّ وجل، قلبك بيد الله، الصمّام لو أنه ضعيف أو غير محكم، يقول لك: إنه يحتاج إلى عملية في أمريكا، وصمام جديد، وهكذا يكلفك سبعين أو ثمانين ألف ليرة، والإقامة تحتاج إلى كذا، فيحتاج إلى مليون ليرة لتغيير صمام القلب، قد ينجح، وقد لا ينجح..

أخ كريم من إخواننا الكرام رحمه الله، وآنسه، والله وضع صماماً لقلبه، فزرته فقال لي: والله الحمد لله، لكن طول الليل أسمع طرقاً.. لأن الخردقة لها صوت، صمام قلبك ليس له صوت، معه كاتم للصوت لكي ترتاح في أثناء النوم، فالله عزّ وجل أعطى لك قلباً، أعطى لك صمامات، وأوردةً وشرايين، وضغطاً مناسباً، وأمعاء، ومعدة، وكبداً، وكُليتين، وكظراً، وغدة نخامية، وغدة درقية، آلاف الأجهزة والأعضاء، ولو أن جهازاً صغيراً.. مثلاً غدة لو قصرت في عملها لعكرت عليك العيش، وأرقتك.. كان لي قريب في ريعان الشباب، وكان في الصف الرابع بكلية الطب، وكان مِلء السمع والبصر، أصابه فقر دمٍ عضال، صحته جيدة، وطعامه مُغَذٍّ، كيف يصاب بهذا المرض ؟ بعد التحليل والمراقبة

تبيَن أن الطحال الذي هو مقبرة كريات الدم الحمراء، ووظيفته الأساسية: أن يتلقّى كريات الدم الحمراء الميتة، ويحللها ليعاد تصنيعها من جديد، هذا الطحال صار يعمل بنشاطٍ أكبر من حد الاعتدال، فأصبح يأخذ الكرية الحمراء الحية، فيقتلها ليحللها، فصار هناك فقر دم، ومات بهذا المرض، فأنت حياتك في ساعة ما متوقفة على الطحال، فإذا عمل بنشاط زائد ينهي الحياة، ومتوقفة على الكظر، وموقفة على الغدة النخامية، وهناك مركز توازن السوائل في الإنسان لو اختل لكان مكان الإنسان إلى جانب الصنبور والمرحاض، يشرب في النهار عشرين أو ثلاثين صفيحة ماء، نعم لو اختل مركز توازن السوائل لاختلّت حركته، وتوقف عمله وسعيه.

أتحسب أنك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبرُ

***

أنت بيد الله عزّ وجل، دماغك بيد الله، هذه الخلايا لو أنها صارت تعمل بشكل نمو غير طبيعي لانتهت الحياة كلها، لم يعد لك أملاك، بل صارت لغيرك، إذا صار هناك نمو غير طبيعي بالخلايا، إذا تعطل الصمام، أمراض كثيرة جداً، فهذا الذي يعصي الله أمره عجيب..

الحقيقة أن الشيء الغريب أن تجد الإنسان في الستين أو في الخامسةِ والستين وهو مقيم على معصية، والحديث القدسي معروف عندكم:

((أحبُ ثلاثاً، وحبّي لثلاثٍ أشد، أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد، أحبُ المتواضعين، وحبي للغني المتواضع أشد، أحب الكرماء، وحبي للفقير الكريم أشد ؛ وأبغض ثلاثاً، أبغض العصاة، وبغضي للشيخ العاصي أشد))

في الحديث القدسي:

((عبدي، كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وضعف بصرك، وشاب شعرك، فاستحيي مني، فأنا أستحيي منك))

اعتبرْ بما أصابك:

يقولون لك: فلان معه ضعف في البصر، إذاً فعليه بالنظارات ؟ نظارات وشيب، يقولون لك: صار هناك ضعف عام بالجسم، وصار هناك عسر هضم، أو صار هناك ضعف في الكليتين، هذه كلُها إشارات لطيفة جداً، أن يا عبدي، قَرُبَ الرحيل، فهل أنت مستعد ؟ لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل يسبق الموت الشيخوخة، ما الشيخوخة ؟ وهنٌ عام، شيبٌ في الشعر، ضعفٌ في البصر، ضعفٌ في السمع،

ضعفٌ في الأجهزة العامة، هذه كلها إشارات لطيفة: أن يا عبدي، هل أنت مشتاقٌ إليّ، قرب الرحيل، هل أنت مستعد ؟

إلى متى أنت باللذات مشـغولٌ وأنت عن كل مـا قدمـت مسؤولُ

***

تعصي الإله وأنت تُظْهِرُ حُبّهُ هذا لعمـري فـي الـمقـال بديعُ

لـو كان حبك صادقـاً لأطعته إن المـحـب لـمن يـحـب يطيع

***

أيا غافلاً تبدي الإساءة والجـهلا متى تشكر المولى على كل ما أولى

عليك أياديه الكرام وأنت لا تراها كأن الـعين عـمـياء أو حــولا

لأنت كمزكومٍ حوى المسك جيبه و لكنه المحروم ما شـمـه أصـلا

***

إذاً:

(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ)

لا تعص الله برضا الناس:

انظر إذا تعلّقت بزوجةٍ، وعصيت خالق الكون، أُؤكِّد لكم، وأنا واثق من كلامي أن كل الشر يجب أن يأتي من هذه الزوجة التي أرضيتها، وعصيت الله عزّ وجل من أجلها، إذا أرضيت شريكك، وعصيت الله، لابدّ من أن يتخلى عنك، هذا تأديب الله لك، الجهة التي تُرَجّي منها الخير، وترضيها على حساب طاعتك لله هي التي سوف تزعجك، هي التي سوف تُقْلقك، هي التي سوف تكيد لك.

إذا كان للشخص شريك جره إلى معصية الله، إنْ في الربا، و إنْ في الغش، و إنْ في كذا، وهو يسايره، فإنه يكون قد عصى خالق الكون، وأرضى شريكه، وعصيت الله فيه لا بدّ من أن يكيد لك، لا بدّ من أن يتخلّى عنك، لا بدّ من أن يقلب لك ظهر المِجَنّ، هذا الحديث لا تَنْسَوه:

((من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى))

[ورد في الأثر]

أيّ أمرٍ تُحاول أن تصل إليه بمعصية تأكّد، واعلم علم اليقين أن هناك بوناً شاسعاً بينك وبينه، فلذلك:

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

[الترمذي]

قوانين مستنبطة مِن التعامل اليومي:

فكرة أتمنى على نفسي أن أُحْسِنَ نقلها إليكم، ربنا عزّ وجل جعل في الدنيا قوانين مستنبطة من التعامل اليومي، قد يأتيك أمر الله، وبحسب قوانين البشر سوف يصيبك ضررٌ كبير إذا أطعت الله، هكذا يتراءى لك، وإذا عصيت الله تيسرت أمورك، وتحل مشكلاتك، و.. و..الخ، هنا يمتحن المؤمن، فإذا كنت مؤمناً صادقاً تقول: والله لا أعصي الله، ولو أطبقت السماء على الأرض، فأنا أقول لكم: والله أعتقد أن زوال الكون أهون على الله من أن يُخَيّب مؤمناً، أو من أن يضيّع مؤمناً..

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير]

أخ كريم من إخواننا يريد أن يشتري بيتاً، ومعه مبلغ لا يكفي لثمن هذا البيت، والبيت ثمنه مناسب جداً، فتوجّه ليأخذ مالاً بطريقةٍ غير مشروعة، هو لا يعلم أنها غير مشروعة، لكن لعدم علمه ظنها مشروعة، فأخبره أحد الأشخاص أن هذا العمل غير مشروع، ومخالف لقواعد الدين، يقول هذا الأخ الكريم: والله دَمَعَت عيني، وقلت: يا رب، لا أعصيك، وليس لي بعدُ رغبة في هذا البيت، خرج البيت من نفسه، لأن ثمنه كان معصيةً لله عزّ وجل، قال: فتوجّهت إلى دكاني، فإذا صديقٌ ينتظرني، هذا الصديق قال: أنا عندي مبلغ من المال أتمنّى أن تجعله وديعة لي عندك لسنتين، وأُناشدك الله أن تستعمله في هاتين السنتين، لمجرّد أن نوى هذا المؤمن أن يدع شيئاً لا يُرضي الله، واستغنى عن البيت جاءه من يسعفه، ويقدم له مالاً يستخدمه لحاجاته، فاقرأ قول الرسول صلى الله عليه وسلّم:

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

وأنا أقول لكم، والله وهذا إيماني: إن زوال الكون أهون على الله من أن تدع شيئاً لله وتبقى بلا شيء، وتبقى في مؤخرة الركب، وهل يضيعك الله عزّ وجل، وينساك لأنك أطعته ؟! هل هذه أخلاق الله عزّ وجل ؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

هذا الإيمان، الإيمان أن تُطيع الله عزّ وجل، ولو كان في طاعته فيما يبدو لك خسارةً، هذا هو المؤمن.

والله لا أعصي الله ولو أُلقيت في الطريق، ولو أكلت خبزاً يابساً لا أعصي الله، إذا علم الله منك هذا العزم الأكيد عندئذٍ يؤتيك الدنيا والآخرة.. **" من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا ".**

" عبدي، خلقت لك السماوات والأرض، ولم أعي بخلقهن، أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كلّ حين، لي عليك فريضة، ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي، إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلّطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد ".

فسعادة الإنسان أن يعرف الله، وأن يعرف منهجه.

وجوب قصد الأشياء من طرقها المشروعة:

مثلاً: باب عظيم، بين أن تحاول فتحه عن طريق الهدم، والمطارق، والمتفجرات،، وبين أن يكون معك مفتاح صغير وزنه عشرة غرامات تفتحه، وتدخل، إذا عرفت الله وعرفت منهجه، هكذا الحياة، الرزق معروف طريقه، الأمانة والاستقامة، الزوجة الصالحة.. كن صالحاً يأتك الله بصالحة، السعادة الزوجية لها أسباب، إذا بُني الزواج على طاعة الله تولّى الله التوفيق بين الزوجين، إذا بُني على معصية الله تولّى الشيطان التفريق بينهما.. الرزق له باب، الزواج الناجح له باب، الرفعة في المجتمع لها باب، الصحة لها باب، أول بدعةٍ ابتدعها المسلمون بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام هي الشِبَع..

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

(سورة السجدة)

تدبير الله شؤون الكون:

الله عزّ وجل هو الخالق، وهو المربّي، وهو المسيّر، من معاني الخلق أن الله عزّ وجل يظهر إلى الوجود ما كان غير موجود، من معاني الربوبية أنه يتولّى الجسم فيربيه، والعقل فيربيه، والنفس فيربيها، والتربية إمداد ومعالجة، من معاني التسيير أن كل حركةٍ وسكنةٍ في الكون إنما هي بيد الله عزّ وجل، فالتدبير: الرعاية، العناية، العلم، الإمداد، الإعطاء، المنع، الرفع، الخفض، علماء التوحيد قالوا: "الرافع الخافض، المُعز المُذل، الضار النافع "، وقالوا: إن هذه الأسماء المزدوجة لا يجوز أن تذكر واحداً منها دون الآخر، أي أن تقول: الله ضار، لا،

(ولله الأسماء الحسنى)

قل: ضارٌ نافع، لأنه يضر لينفع، ويذل ليعز، ويأخذ ليعطي، ويمنع ليُعطي، ويقبض ليبسط، كل الأسماء المزدوجة يجب أن تذكرها مثنى مثنى، إشارةً إلى أن الأولى في خدمة الثانية.

لا تغتر بالحياة الدنيا:

لا أنسى هذه الخطبة الموجزة التي خطبها النبي عليه الصلاة والسلام، قال عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه الدنيا دار التواء، لا دار استواء، ومنزل ترح، لا منزل فرح))

[الجامع الصغير]

الدنيا دار تكليف، وأما التشريف فهناك في الآخرة، الدنيا دار عمل، والجزاء هناك في الآخرة.. **" إيّاك عبد الله والتنعُّم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين ".**

إن هذا الذي يقصد النعيم لذاته ما عرف الحياة، وما عرف أنها مرحلة، وما عرف أنها ممر، وما عرف أنها دار عمل بل ظنّها دار جزاء، ظنّها دار استقرار..

(إِنّ الّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

(سورة يونس)

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء))

لأنها مؤقتة..

(قُلْ تَمَتّعُوا فَإِنّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النّارِ)

(سورة إبراهيم)

(لَا يَغُرّنّكَ تَقَلُّبُ الّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمّ مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197))

(سورة آل عمران)

(فَلَمّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(سنن الترمذي: رواه سهل بن سعد)

((إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ـ الرخاء مؤقت ـ ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي))

إذا أحب الله عبده ابتلاه:

إذا أيقنت أن الله يحبك.. **" إذا أحب الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن شكر اقتناه ".**

صحابية جليلة جاءت إلى النبي عليه الصلاة والسلام تريد التفريق بينها وبين زوجها، لأن زوجها ما أصابته مصيبةٌ منذ تزوجها، معنى هذا أن الله عزّ وجل لا يحبه، أي لا يعالجه الله عزّ وجل، وإذا كان الشخص مريضا بمرضٍ خبيث تقول له: ليس فيك شيءٌ، كل ما تشاء، ميؤوس منه، إما إذا وجد إنسان مرضه قابل للشفاء تجد أن هناك تشدداً بالغاً، فإذا عالجك الله عزّ وجل ساق لك من الهموم والشدائد، وعرفت أن هذه الشدة لهذا المرض، وهذه المصيبة لهذا الذنب، وهذه الإهانة لهذا الكبر، وهذا الفقر لهذا الإسراف، وهذا التطاول عليك لهذا التطاول على غيرك، فكشفت أن لكل سيئةٍ عقاباً.

رجل مؤمن له شيخ أنبأه أن لكل سيئةٍ عقاباً، فوقع يوماً في معصية، وزلّت قدمه، ولم يصبه شيء على خلاف العادة، فناجى ربه وقال: " يا رب، لقد عصيتك، ولم تعاقبني، فوقع في قلبه، أن عبدي، قد عاقبتك، ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟

فإذا أحب الله عبده عجّل له بالعقوبة، وإذا تابع الله عزّ وجل نِعَمَهُ عليك، وأنت في معصيته فاعلم أن هذا ليس إكراماً، إنما هو استدراج، إذا رأيت الله يتابع نِعَمَهُ عليك، وأنت تعصيه فاحذره، أما إذا رأيت الله عزّ وجل كلما زلّت قدمك جاء العلاج، وجاء التأديب..

(أولئِكَ الّذِينَ اشْتَرَوُا الضّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النّارِ (175) ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ نَزّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ وَإِنّ الّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176))

(سورة البقرة)

إذا جاءتك على كل زلة قدمٍ مصيبة فاعلم أنك في العناية المشددة، وإذا زلّت قدمك ولم تر شيئاً فاعلم أنك في دائرة الإهمال، فلذلك مما يطمئنك، مما يجبر خاطرك أن الله سبحانه وتعالى لا ينساك من علاجه، معنى هذا أنت في العناية المشددة، أنت في دائرة المعالجة.

اليوم التقيت مع أخ كريم قلت له: ما اسمك ؟ قال: اسمي مُراد، قلت: يا الله ؛ أنت مُرادٌ أكثر مما أنت مُريد، أنت مرادٌ أيها الإنسان من قِبل الخالق أضعاف ما أنت مُريد، فجعلت له من اسمه فألَ خير، وأشعرته بذلك.

(وَاللّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء: آية " 27 ")

(إِلّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية " 119 ")

فرح الله بتوبة العبد:

خلقك ليرحمك..

((لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الواجد))

[ورد في الأثر]

" إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض: أن هَنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله ".

هذا الأعرابي الذي ضل الطريق، وغابت عنه ناقته، وعليها طعامه وشرابه، فأيقن بالهلاك، وجلس يبكي، ثم يبكي حتى أدركه النوم، فأفاق فرأى الناقة، فمن شدة فرحه اختل توازنه.. وقال: يا رب أنا ربك، وأنت عبدي، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته))

[مسلم]

أنت تعرف لو أنك تبت إلى الله فإن الله يفرح بتوبتك، فماذا تنتظر ؟ ما الذي يمنعك ؟

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: آية " 53 ")

هذه أرجى آيةٍ في القرآن الكريم، لم يخاطب الله العُصاة الذين أسرفوا في المعصية، يطمئنهم أن يعودوا إلى الله فيقبلهم..

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

ما دام القلب ينبض فإن باب التوبة مفتوح، كل شيء يصحّح، سيدنا زيد الخير لما رآه النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((يا زيد، ما وصف لي أحدٌ فرأيته إلا رأيته دون ما وصف إلا أنت يا زيد))

أُعْجِبَ به النبي، هذا زيد الخير لقي النبي لساعةٍ واحدة، فأعطاه متكأً قال: والله لا أتكئ في حضرتك يا رسول الله، ما هذا الأدب ؟ أسلم قبل ربع ساعة، النبي عليه الصلاة والسلام أثنى عليه، وقال: يا رسول الله، أعطني ثلاثمائة فارس حتى أنال من بلاد الروم، قال النبي الكريم: لله دَرُّك يا زيد، أي رجلٍ أنت ؟ غادر زيدٌ النبي عليه الصلاة والسلام إلى ديار قومه، وفي الطريق أدركته المنية.

القضية قضية إخلاص، كل هذه النيات كُتِبَت له، فالله رب النيات، فإذا أخلصت لله عزّ وجل، ولو امتد بك العمر مقصراً اجتباك.

اعتبروا أيها الشباب:

هذه القصة أذكرها، ولا أنساها حتى الموت ؛ أحد علماء دمشق حدثني إياها، واطلعت عليها بأصولها، وثبتت لي صحتها، رجل في الخامسة والخمسين من عمره من صعيد مصر، تمنَّى أن يكون عالماً،

وهو لا يقرأ، ولا يكتب، ركب دابّته، وساقها إلى القاهرة، وفي أحد أزقّة القاهرة سأل أحد الباعة: أين الأزعر ؟ قال له: أي أزعرٍ هذا ؟ قل: الأزهر يا رجل، وليس الأزعر، لا يعرف الأزعر من الأزهر، هذا الرجل مشتاق لمعرفة الله، تعلّم القراءة والكتابة في الخامسة والخمسين، وحفظ القرآن في الخامسة والخمسين، وعاش حتى السادسة والتسعين، وما مات إلا وهو شيخ الأزهر، اسمه زكريا الأنصاري، بدأ طلب العلم في الخامسة والخمسين، لا يقرأ، ولا يكتب، إذا كنت طالبا لله فالله موجود..

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة.

الدنيا ليست ذات بالٍ ولا شأن، نأكل ونشرب وننام، حياة تتكرر، حياة بهيمية لا معنى لها، مملة، الشاب لماذا هو يسعد ؟ لأنه متأمّل ببيت، يرسم في خياله مساحة البيت، هنا غرفة ضيوف، هنا كذا، وبعد هذا يحصل على بيت مساحته سبعون متراً، يسكن فيه، ويعلل نفسه بسراب الأماني، يتصور الزوجة، ولها مواصفات معينة فيفاجأ بها، وسطاً، زوجته تحددت، وبيته تحدد، أولاده تحددوا، كل الأحلام تلاشت، أما إذا عرف الله عزّ وجل، فرجاؤه ومبتغاه في مرضاة الله، وفي كلها سعادته.

المؤمن سعيد لأنه دخل في وعد الله له:

أنا كنت أضرب لإخواننا مثلاً دقيقاً، نفترض أن موظفاً معاشه ألف وخمسمئة ليرة، عنده ثمانية أولاد، والديون تركبه، له عم يملك خمسمئة مليون، ومات فجأةً بحادث سيارة، وعمه ليس له أولاد، فكل هذه الأموال آلات إليه، لكن لم يتمكن من أن يقبض أول ليرة إلا بعد سنتين، إجراءات الروتين والمالية والورثة، ولكن عاش في هاتين السنتين أسعد الناس ؟ هو لم يقبض شيئاً، ولم يأكل لقمة زائدة، ولكنه دخل في الوعد، هذا المثل توضيح لمثل أكبر، المؤمن حياته قد تكون خشنة، قد يكون معذّباً في حياته، قد يكون دخله أقل من مصروفه، قد يكون في بيته مشكلات، قد تكون صحته وسطاً، يعاني من آلام، قد يعاني متاعب في عمله، كل هذا ممكن، لكن هذا دخل في وعد الله..

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

سر سعادة المؤمن أن الله وعده بالجنة،

((فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

[البخاري]

إذاً:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

(سورة السجدة)

هذه الآية إن شاء الله نعود إليها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة السجدة 032 - الدرس (3-6): تفسير الآيات 5 - 7
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-08-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الثالث من سورة السجدة، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكّرُونَ (4) يُدَبّرُ الْأَمْرَ)

(سورة السجدة)

معنى تدبير الله لشؤون الخلق:

التدبير بمعنى أن يُهيّئ تصرُّفاً إثر تصرف، عملاً إثر عمل، فعلاً إثر فعل، تدبَّر الشيء أي تتبع الشيء إلى نهايته، وهيّأ له في كل موطنٍ تصرُّفاً، وفي كل مرحلةٍ سلوكاً، وفي كل درجةٍ علاجاً، فالتدبير تقريباً يُشابه التربية، فالله المربي أي المدبر..

(يُدَبّرُ الْأَمْرَ)

(سورة السجدة: آية " 5 ")

الأمر: أمر العباد، أمر المؤمنين، وأمر العباد كافة، وأمر المخلوقات، أمر الأحياء، أمر الجمادات، التدبير بمعناه الواسع التربية، هذا التدبير من السماء إلى الأرض..

(يُدَبّرُ الْأَمْرَ مِنَ السّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ)

(سورة السجدة: آية " 5 ")

لا مدبّر إلا الله:

أي أن الله عزّ وجل في السماء إلهٌ، وفي الأرض إلهٌ، والسماء رمز العلو، والأرض موطن الإنسان، فأمر الإنسان إلى الله عزّ وجل، فهذه الفكرة التي أتحدث عنها كثيراً لماذا أكررُها ؟ لأنها أصل الدين، فما دام الإنسان يرى أن في الأرض مدبراً غير الله، مربياً غير الله، فاعلاً غير الله، رافعاً غير الله، خافضاً غير الله، مُعزاً غير الله، مُذلاً غير الله، مُعطياً غير الله، مانعاً غير الله، إذا رأيت أن في الحياة من سوى الله ينفعك أو يضرُّك فهذا هو الشرك، ولن تكون مؤمناً كما أراد الله عزّ وجل إلا إذا اعتقدت أنه لا إله إلا الله، ولا إله إلا الله كلمة التوحيد، ولا إله إلا الله لا تكون كلمة تقولها في ساعةٍ، وينتهي

الأمر، إن قول لا إله إلا الله بمعناه الدقيق مُحَصِّلَةٌ إيمانك كله، فتفكرك من عشر سنين، وحضورك مجالس العلم من عشر سنين، ومحاكمتك، وتدبُّر آيات القرآن الكريم، وتأمُّلك في خلق السماوات والأرض، ونظرك إلى الحوادث، وما تنطوي تحتها من حكمةٍ بالغة ومن موعظةٍ كبيرة، إن النظر إلى الحوادث والتفكر في خلق السماوات والأرض، وتدبر آيات القرآن الكريم، والتأمل الذاتي والتلقِي عن الآخرين، إن كل هذا النشاط على تنوّعه، وعلى امتداده، إن هذا النشاط في محصلة المحصلة ينقلك إلى الإيمان بأنه لا إله إلا الله، فإذا اعتقدت أنه لا إله إلا الله سِرْتَ في طريقٍ ذات اتجاهٍ واحد، سِرْتَ في ممرٍ إجباري، لأن الإنسان المؤمن لا رأي له مع قضاء الله له.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: آية " 36 ")

أنت متى تختار ؟ إذا كان عندك خيارات كثيرة، أما إذا رأيت أن الأمر كلّه بيد الله، وأن الله وحده هو الحقيقة العُظْمى فدع الأمور إلى الله، الإنسان ماذا يحب ؟ دقق.. بمن يتعلّق قلبك ؟ الإنسان فُطِرَ على حب العظيم، وحب المحسن، وحب الجميل، متى يتحرّك القلب ؟ القلب ينبض بمشاعر الحب متى ؟ إذا لاقى عظيماً، أو لاقى جميلاً، أو لاقى محسناً، لا عظيم إلا الله، ولا محسناً إلا الله، والله سبحانه وتعالى أصل جمال الكون، فإذا عَكَفْتَ على معرفة الله، واقتربت منه زَهِدْتَ فيما سواه، وما تعلق الإنسان بما سوى الله عزّ وجل إلا دليل ضعف إيمانه بالله، لو قوي إيمانك بالله وَحّدت الوجهة إلى الله، إذاً ربنا عزّ وجل يقول لك:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

أي أمر العباد، الإنسان في ساعة الغفلة، يقول لك: زيد وعبيد، والجهة الفلانية، والقوة الفُلانية، والمعسكر الفلاني، وانهيار القوى الفُلانية حاصلٌ، والأمر صار بيد جهة واحدة، هذا الخوض في هذه المتاهة، متاهة الشرك، متاهة البشر هذا يُبْعِدُك عن رب البشر، أما إذا رأيت الله عزّ وجل هو الإله الواحد، يده تعمل في الخفاء، ما من فعلٍ إلا وفيه حكمة بالغة، كل شيءٍ وقع أراده الله، وكلُّ شيءٍ أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة البالغة، وحكمته متعلِّقةٌ بالخير المطلق، فعندئذٍ ترتاح نفسك.

فلسفة العوام:

الحقيقة أيها الإخوة، الإنسان في الأصل فيلسوف، حتى العوام لهم فلسفة، فالتق مع رجل عامي يعطك فلسفته بالحياة، يقول لك: " غُب على قدر ما تقدر "، هذه فلسفة، يأتي إنسان آخر يقول لك: " لا تؤذِ فلن تؤذى "، هذه فلسفة، لن تجد إنساناً إلا وله فلسفة معينة، لا يوجد إنسان ينطلق في حركته اليومية إلا وفق تصور، فمن هو البطل ؟ هو الذي يكون تصوُّره صحيحاً، قلت لكم كثيراً: ما هو الجهل ؟ قد يظن

الإنسان الجهل عدم المعرفة.. لا.. يا ليت ذلك، يا ليت الجهل ألا تعرف، لا إن الجهل أن تملك معلومات كلها مغلوطة، تصورات خاطئة، علاقات غير صحيحة، مقدمات لا تُفْضي للنتائج، فالإنسان الجاهل قد يكون متعلماً، قد يكون يحمل أعلى شهادة، لكنه يكون ممتلئاً علاقات غير صحيحة، مفاهيم مغلوطة، تصورات كلها خاطئة.

الشيء الذي أعيده كثيراً: لاحظ نفسك ؛ بجوارحك وأعضائك تهتم بها اهتماماً بالغاً، لو أصاب العين ـ لا سمح الله ـ غلطا بسيطا، ضعفا في الرؤية، تشوشا في الرؤية، ذبابة طارت أمام عينيك، هذا أحد أمراض العين، لو شعرت بأن خللاً في العين تبادر إلى الطبيب، تدفع أي مبلغ، تنتظر أي زمن في قاعة الانتظار، لماذا ؟ كذلك يجب أن يهُمُّك أمر دينك، هذا كلام خطير لابدّ من الوقوف عنده.

((ابن عمر دينك، دينك))

[الجامع الصغير]

احرص على دينك، الزم دينك، تقصّ أمر دينك،

((دينك، دينك، إنه لحمك ودمك))

دقق، اسأل، لا تمر مر الكرام، ما من مشكلةٍ تقع في المجتمع، ما من طلاقٍ، ما من تفليس ٍ، ما من مأساةٍ إلا وراءها معصية.

الفساد حركة على غير منهج الله:

ما هو الفساد ؟ هو الحركة من غير منهج الله.. انظر إلى الكون، كلّه يعمل وفق نظامٍ دقيق، انظر إلى الكائنات غير المختارة تعمل بانتظام، انظر إلى النحل، إلى النمل، إلى أية مجموعة من المخلوقات، إن لم تكن مختارة تعمل بأمر الله وَفْقَ أكمل صورة، لأن الله عزّ وجل كماله مطلق، والأمر كله بيده، لكن الإنسان حينما يتحرّك بدافع من شهواته من دون هدىً من الله عزّ وجل يقع الفساد، وإفساد الشيء إخراجه عن صلاحه، الماء صالح للشرب، يكون إفساد الماء إذا لوّثته، إذا أخرجته عن صلاحه، إفساد الشاب إذا أخرجته عن دينه، إفساد الفتاة إذا أخرجتها عن عفّتها، إفساد المواد إذا أخرجتها عن مقوّماتها، فالإنسان حينما يتحرّك بدافع من شهوته، بلا منهج لا بدّ من أن يكون فاسداً مفسداً.
فالأمر ليس سماع مجلس علم، سماع تفسير آية، الأمر يتعلق بمصير كلٍ منا، لاحظ ما من مشكلةٍ تعاني منها إلا بسبب خطأ في السلوك الناتج عن خطأ في التصوّر، خطأ في العلم، خطأ في السلوك، مشكلة، لما قال ربنا عزّ وجل:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(5))

(سورة العلق)

فهذه الآية إذا تغاضينا مبدئياً عن خصوصية السبب الذي نزلت من أجله، وهي خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، إذا أخذنا عموم اللفظ الله عزّ وجل يقول لك: اقرأ، والقراءة رمز التعلم، أي تعلم لأنك إنسان، أودع الله في الإنسان قوةً إدراكية، أودع الله في الإنسان فكراً، أودع الله في الإنسان عقلاً، أودع الله في الإنسان معرفة، قال له: اقرأ، فإذا لم تقرأ ما الذي يحصل ؟ لا أريد أن أقرأ، أي إذا الإنسان قال: لا أريد هذا الدين، إذا أدار ظهره للقرآن، إذا نسي المبتدى والمنتهى، إذا قال: هذا الدين باطل، ما في مانع، بادئ ذي بدء أن تقول هذا الكلام.

ماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ؟؟؟

لكن انظر ماذا ينتظرك ؟ ماذا قال عليه الصلاة والسلام ؟ قال:

((بادروا بالأعمال الصالحة، فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

[الترمذي]

تصور إنساناً ما، يا ترى هل سيبقى كل يوم يستيقظ كاليوم السابق، وإلى ما شاء الله ؟ لا يمكن، سنة سنتين، خمساً، عشراً، وفي أحد الأيام يستيقظ على خلل في جسمه، هذا الخلل قد يكون بداية النهاية، إذاً هناك نهاية، هل هناك إنسان امتد به العمر إلى ما شاء الله ؟ قد يُعَمِّر، ولكن لا بدّ من الموت، إذاً قال النبي منبهاً:

((بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

والله الذي لا إله هو، هذا الحديث أرويه كثيراً، لكن لا أشبع منه، لماذا ؟ لأنه خطير جداً، إذا ترك الإنسان الدين، ترك معرفة الله، ترك طاعة الله، ترك السير على منهج الله، أدار ظهره للقرآن، التفت إلى مصالحه الشخصية، إلى تجارته، إلى وظيفته، إلى دراساته، إلى حظوظ نفسه، إلى نزهاته وقال: هذا الأمر لا يعنيني الآن.. ما الذي ينتظره ؟ قال:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا.. هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَو الدّجّالَ ؟ فَشَرٌ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَو السّاعَةَ ؟ فَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(من سنن الترمذي: عن أبي هريرة)

قد تأتي الدنيا، ومن يصدق أن الغنى قد يكون عقاباً ؟ من يصدِّق ؟

" عبدي، خلقت لك السموات والأرض، ولم أعيى بخلقهن، أفيعييني رغيفٌ أسوقه لك كل حين ؟ لي عليك فريضة، ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطنّ عليك الدنيا ".

الدنيا، النجاح في التجارة، كسب الأموال الطائلة، تغيير نمط الحياة، الانغماس في الملذّات، في الترف، في النعيم، هذا الذي يظنه الناس نعمة هو من الله ابتلاء.

((إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، ولا أبالي وكنت عندي مذموماً، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثمّ لا يكون إلا ما أريد))

فالنبي الكريم قال:

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فقْرًا مُنْسِيًا ؟ أوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أو الدّجّالَ ؟ فشَرُّ غائِبٍ يُنْتَظرُ، أو السّاعَة ؟ فالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ))

فإذا كان دخلُ الإنسان محدوداً، وكان مستقيماً، وبعد حين جاءه دخلٌ وفير، فأمر امرأته أن تَسْفُر، وسمح لنفسه أن يدخل أماكن موبوءة، وأن يخالط أشخاصاً سيّئين، وأن يعطي نفسه حظوظها، وأن يدع بعض الفروض، أترى هذا الغنى نعمة أم نقمة ؟ والله إنها نقمة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فقْرًا مُنْسِيًا ؟ أوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أو الدّجّالَ ؟ فشَرُّ غائِبٍ يُنْتَظرُ، أو السّاعَة ؟ فالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ))

(من سنن الترمذي:عن أبي هريرة)

انظر إلى الكون وتحركْ نحو الحقيقة:

الإنسان له فلسفة، أو له تصوّر، فالبطولة أن تبحث عن فلسفةٍ صحيحة تنطبق مع هذا الكتاب، ما حقيقة الكون ؟ الكون مسخّر لك، ما هذا الكلام ؟ نعم، الكون بمجرّاته، بمذنباته، بكازاراته، بكواكبه، بالمجموعة الشمسية، بدرب التبّانة، هذه النجوم العملاقة، فإذا كان أكبر نجم ملتهب يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، فإنك تحتاج لتصل إليه بمركبةٍ أرضيةٍ إلى خمسين مليون عام، هذا كلام الذي عنده آلة حاسبة أن يجرّب، أنا أقول لك: هذا الكلام صحيح: أربع سنوات ضوئية.. أي ما يقطعه الضوء في أربع سنوات تحتاج أنت لتصل إليه بمركبتك الأرضية إلى خمسين مليون عام.. ونجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية، وهناك مجرة مليون عام، كما أن هناك مجرة ستة عشر ألف مليون، هذا الكون كله مسخرٌ لك، ما هذا الكلام ؟ كلام خالق الكون.

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ً)

(سورة الجاثية: آية " 13 ")

لماذا سخّره ؟ لشيئين تعريفاً وتكريماً، ماذا ينبغي أن تعمل ؟ أن تؤمن، وماذا ينبغي أن تعمل ؟ أن تشكر، لذلك ما دُمت في طريق الإيمان والشُكر فأنت في بحبوحة، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء)

ما دمت في طريق الإيمان والشكر فأنت في بحبوحة، فإذا اختل الإيمان أو ضعف الشُكر جاء العلاج، يا الله هذه آية واضحة جداً، لاحظ نفسك حينما يضعف إيمانك تتصرف عن الله عزّ وجل، والإيمان ليس اعترافاً فقط، قد يظن بعضهم أن الإيمان تصديق، الإيمان تصديق وإقبال، لو كان تصديقا فقط، ماذا فعلت أنت ؟ فأنا في رابعة النهار، والشمس ساطعة أقول: أنا فكّرت، تأمّلت، درست، قررت، وقلت: إن الشمس ساطعة، نقول له: خير إن شاء الله، لكن المهم ماذا فعلت ؟ وإذا قلت: إن الشمس ساطعة، ماذا قدمت ؟ ماذا أضفت ؟ الإيمان بالشيء لا قيمة له إلا إذا تحرّكت نحوه.. انظر:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف: آية " 110 ")

هذه المشكلة، المشكلة هناك أناسٌ كثيرون يُقِرّون بوجود الله وباليوم الآخر، وما داموا لا يتحركون باتجاه طريق الحق فهم ليسوا جديرين أن يسمّوا مؤمنين: **" يا عبدي ماذا فعلت من أجلي ؟ هل واليت فيّ ولياً ؟ هل عاديت في عدواً ؟ ".**

فموضوع الإيمان موضوع بعيد جداً لمن عاش في ظل أقوال يرددها، وأماني يعلل نفسه بها. ما قولك بأن أطغى طغاة الأرض.. فرعون قد قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

ولا يوجد إنسان الآن يقول: أنا ربكم الأعلى، كما قال فرعون، لكن فرعون قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

وفرعون قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

لا يوجد إله غيري، هكذا قال فرعون، فرعون الذي ذبّح أبناء بني إسرائيل، واستحيا نساءهم، حينما أدركه الغرق قال:

(قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

متى ينبغي أن تؤمن ؟

فإذا آمنت فهل أنت فرح بذلك ؟ الإيمان حاصل، المشكلة هي مشكلة وقت فقط، المشكلة ألا تؤمن أو أن تؤمن، يا ليت، المشكلة متى يجب أن تؤمن، أجل متى يجب أن تؤمن ؟ الإيمان سيحصل.

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

المشكلة متى ينبغي أن أؤمن ؟ إذا قلت: أنا أؤمن، وفرعون آمن عند الغرق، وما من مخلوقٍ اقترب منه الموت إلا وهو يؤمن، فالأغرب من ذلك أنني اطلعت على كتاب، والذي ألّفه بذل جهداً كبيراً في تأليفه، في جميع أنحاء العالم هناك حالات وفاة مؤقتة، القلب يتوقف سبع دقائق، يوجد حالات سبع دقائق، أربع دقائق، ثم صحا من غيبوبة، هذا الإنسان الذي واجه الموت، ثمّ نال منه، انتابته مشاعر، هذه المشاعر سجّلها، جاء مؤلِف، واستقصى كل هذه المشاعر المكتوبة في المستشفيات، وجَمّعها في كتاب، لو قرأت هذا الكتاب لصدقت أن هذا القرآن حق، أي أن أي إنسان من أية ملةٍ، من أي مذهب، من أي دين، حتى المُلْحِد حينما يواجه الموت يؤمن كما آمن فرعون، ويستعرض كل سنواته السابقة، ويفحص عمله الصالح والطالح، المشكلة أن الإيمان سيحْصل، لكن الذي يعنينا أن نؤمن في الوقت المناسب، أن نؤمن ونحن أصحّاء، نرجو الغنى، ونخشى الفقر، أن نؤمن، ونحن أقوياء، ونحن شباب، ونحن في معية الصبي، ونحن في طور الرجولة، كي نستثمر الإيمان.

مِن لوازم الإيمان:

الذي يقول لك: الإيمان تصديق فقط، يجب أن تقف عنده وقفة متأنية، الإيمان تصديق وعمل، والكفر تكذيب وإعراض، من لوازم الإيمان الإقبال على الله عزّ وجل، والاتجاه نحوه، ومن لوازم الإيمان أن تتحرّك نحو الله.

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

(سورة الذاريات)

من لوازم الإيمان أن يكون لك عمل يؤّكد إيمانك.

لماذا جعل الله عزّ وجل طبيعة الإنسان تختلف عن التكليف ؟

هنا يعترضنا سؤال: لماذا جعل الله عزّ وجل طبيعة الإنسان تختلف عن التكليف ؟ هذا الجسم يحتاج إلى النوم والأمر الإلهي أن تصلي الصبح حاضراً، الأمر بصلاة الفجر يتناقض مع طبيعة الجسم، الجسم يميل إلى الراحة، الأمر بغض البصر يتناقض مع طبيعة النفس، النفس تميل إلى النظر، الأمر بإنفاق المال يتناقض مع طبيعة النفس، النفس تميل إلى الأخذ، إذاً: لماذا كان الأمر والنهي مخالفاً لطبيعة النفس ؟

الجواب: كي ترقى، فالله عزّ وجل جعل في الإنسان نوازع غريزية، وجعل فيه عقلاً، هذا العقل يدله على الخير والحق، وهذه الغريزة تدله على الشهوة، فهو بين نداء العقل، ونداء الغريزة، بين القيم والحاجات، بين ما يبقى وما يفنى، بين أن يرضي الله وأن يرضي نفسه، فهذا الصراع إذا انتصرت على نفسك ارتقيت إلى ربك.

إذاً: الإيمان ليس أن تؤمن بالله فقط، وأن تتحرك وفق شهواتك، يجب أن تؤمن، وأن توقع حركتك اليومية وفق منهج ربك.

الخطأ في التصور يتبعه خطا في السلوك:

فلذلك يا أيها الإخوة، الأمر ـ أنا أقول ـ خطير، وأعني ما أقول، لأن أي خطأ في تصورك يتبعه خطأٌ في سلوكك، وأي خطإٍ في سلوكك يتبعه مشكلةٌ فشقاء، فلما ربنا قال:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(5))

(سورة العلق)

قال:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7))

(سورة العلق)

إذًا: الإنسان إذا لم يقرأ، ولم يعلم، ويتفكر، ويتأمّل، ويطلب العلم، وإن لم يتدبّر، ويفكر في الكون، وإن لم يدبر القرآن، وينظر في الحوادث، فسيبقي جاهلاً، يبقي على هامش الحياة، وماذا سيحصل له من بعد؟ سيطغى.

(أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

أي إذا جاء المال سيطغى بالمال، إذا جاءته القوة سيطغى بها، إذا جاءته الوسامة سيطغى بها، إذا جاءته الحظوظ النفسية سيطغى بها.

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7))

(سورة العلق)

فلذلك نعيد عليكم الآية التي وصلنا إليها.

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

(سورة السجدة: آية " 5 ")

عودة إلى تدبير الله في الكون:

أي أن الله سبحانه وتعالى هو الرب، هو المدبّر، فهناك من يقول: لا تدبّر، فالله المدبر، إذاً فاستقم على منهجه، الله عزّ وجل لا يغيب عنه شيء، لا يغفل عن شيء، ولا ينسى شيئا، بيده الأمر، بيده كلُّ شيء، فربنا عزّ وجل يقول:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ)

(سورة السجدة: آية " 5 ")

تربية الله لعباده كاملة:

أي أمر العباد، أمر المخلوقات، رزقهم، إيمانهم، طِباعهم، أمراضهم، نفوسُهم، تربية كاملة، أنا أقول: تربية جسمية وعقلية ونفسية واجتماعية.

التربية الجسمية:

يربّيك جسمياً ؛ الخلايا تنمو، والشرايين تتسع، والكُتلة تزداد وزناً وحجماً، والغذاء متوافر، والغدد، والأجهزة، والأعضاء، كلُّها تعمل بانتظام بيد الله عزّ وجل، لو اختل النمو لكان المرض الخبيث، ما المرض الخبيث ؟ اختلالٌ في نموّ الخلايا، فالله يدبر لك جسمك، وينمي لك عقلك، يريك من آياته، تقرأ آية من القرآن تتعامل مع الناس، ثم ترى في تعاملك مع الناس ما يؤكِّد هذه الآية، لا إله إلا الله، يقول لك:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

يريك في المجتمع كيف أن المرابي محقه الله عزّ وجل، يقول لك:

(وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

كيف أن المتصدِّق يزداد ماله، هذا التطابق بين كتاب الله وما يجري في الأرض، هذا التطابق هو دليل أن هذا الكلام كلام الله، فيدبر لك عقلك، كما دبر لك جسمك، ونَزّل الأمطار، وأرسل الرياح، والرياح ساقت السحب، التي انقلبت إلى أمطار، انقلبت الأمطار إلى ينابيع، سُقي الزرع، ونما إلى أن صارت محاصيل من خضار، وفواكه، وصارت أزهارا، كلّ هذا الشيء من أجلك، يدبر لك جسمك، البقرة من أجلك، والدجاجة من أجلك، والخروف من أجلك، وهذه الأنعام التي خلقها الله لكم.

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾

(سورة النحل: آية " 5 ")

خلقها خصيصى لكم، هذا تدبير الجسم.

التربية العقلية:

يدبّر العقل ؛ يريك من آياته، ينمو عقلك بآيات بينة، ورغم ذلك تظن أن السبب هو خالق النتيجة، لكن لا يلبث سبحانه أن يخرق لك هذه العادة، ويظهر خرقاً للعادات، من أجل أن تعلم أن الله هو الخالق، وليست الأسباب.

التربية النفسية:

إذاً نما عقلك، وأصاب النفس الكبر، فأرسل لها من يهينها فتابت إلى الله، ربي لك نفسك، فربنا عزّ وجل يربي لك جسمك، يربي عقلك، يربي نفسك، أنت منعزل عن الناس، الناس أحياناً يتكلمون بحقك، لكنك تعود إلى صف المجتمع بعلاقةٍ طيبةٍ طاهرة، بفضل تربية الله سبحانه لك.

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾

رد فعل العباد تجاه نِعم الله:

أمر الأمطار، أمر النبات أمر الأرزاق، أمر تأديب العباد، أمر معالجتهم فرادى ومجتمعين، الأمر مطلق، والمطلق على إطلاقه، من السماء إلى الأرض، الآن الله أرسل مصيبة، أو أرسل أمطارا غزيرة أتت بخير وفير، الآن رد الفعل، هل هناك من شكر ؟ هل هناك من طغى وبغى ؟ هل هناك من كفر ؟ هل هناك من استخدم المال في معصية الله ؟ هل هناك من استخدم المال في طاعة الله ؟ ردود الفعل، الله عزّ وجل دبر الأمر من السماء إلى الأرض، ماذا ردُّ فعل العباد ؟ هل هم شاكرون ؟ هل هم صابرون ؟ هل هم حامدون ؟ هل هم ناقمون ؟ هل هم طائعون ؟ هل هم عصاة ؟

﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾

(سورة السجدة)

ما يفعله الله في يوم لا يفعله العباد في ألف سنة:

فلو فرضنا سكان الصين الذين يعدّون ملياراً ومئتي ألف، لو كانوا جميعاً موظفين، وأنت محاسب، لا يوجد غيرك، فكم تستغرق لإعطائهم رواتبهم ؟ لو أن كل واحد يحتاج خمس دقائق تقول له: الاسم الكريم، وتفتح الدفتر تبحث عن اسمه، تسلمه الراتب، وتقول له: وقِع، يحتاج خمس دقائق، فمليار ومئتا ألف كيف يتم دفع رواتبهم ؟ ولو فرضنا إنساناً على سبيل المثال والتقريب تمكّن أن يقبّض كل هؤلاء المليار والمئتي ألف، فهذا شيء عظيم جداً، فربنا عزّ وجل من باب التقريب قد لا تكون (ألف) بمعناها الكمّ، بل بمعناها التكثيري، ربنا عزّ وجل ما يفعله من تدبير شأن العباد في يومٍ واحد لا يستطيع البشر مجتمعين أن يفعلوه في ألف عام، وهذا تقريب، ولله المثل الأعلى، تقريب لما يفعله الله من تدبير أمر السماوات والأرض.

فإذا كنت مديراً عاماً وجاء لك هاتف، وعليك أن ترد على المكالمة، وعندك مراجع فتقول له: لحظة لكي أتكلم، رفعت السماعة، فبدأ يتكلم فجاء لك هاتف ثان.. لحظة، أنت كبشر لا يوجد عندك إمكان أن تعالج قضيتين في آنٍ واحد، لا تقدر، في الوقت الواحد تنصرف إلى شيء واحد فقط، لكن لو فرضنا عندك ألف موظف، وأنت مدير معمل، هل بإمكانك بوقت واحد أن تتفحص أحوالهم، أوضاعهم المعيشية، أوضاعهم في بيوتهم، ما يعانونه من ضائقة، أن تعالج المريض، وأن توقِف المتجاوز عند حدِّه، وأن تأمر هذا، وأن تنهى هذا ؟ هذا شيء فوق طاقة البشر، إلا بالتسلسل، وإلا بالأمر العام، وبالأمر الكتابي، ويساعدك معاون، ومعاون المعاون، ونائب، ومدير شؤون قانونية، وشؤون ذاتية، وشؤون علاقات عامة، حتى تتمكّن من أن تتحرك حركة إيجابية، وفي الساعة التالية تقول: رأسي صار مثل الطبل.

فربنا عزّ وجل يقرّب لك المعنى، أنه ما يفعله الله في يومٍ واحد لا يستطيع البشر مجتمعين أن يفعلوه في ألف عام، أي أن خمسة آلاف مليون إنسان في ألف عام لا يستطيعون أن يدبروا ما يفعله الله في يومٍ واحد، لذلك هذه الآية تبيّن عظمة الله عزّ وجل وكيف أن أمره كن فيكون، زُل فيزول.

من معاني التدبير: مراقبة الله لجميع البشر في وقت واحد:

إن الإنسان يلاحظ نفسه، فهو أحياناً يخطر في باله خاطر يستوجب المحاسبة عليه، وهذه تحدث مع المؤمنين، فقد يفكِر في شيء غير صحيح، أو لا يليق بالمؤمن، يكون ماشياً في الطريق، وهو لا يدري فصُدم بعامود، لأنه كان منتبهاً لجهةٍ ثانية، تأتي الضربة على جبينه لتوقظه أنّك في خواطر لا ترضي الله، ماذا يفكر الإنسان ؟ أتظن أنك لوحدك في الكون، ولا أحد غيرك ؟ لا، فإنّ الله معك، كل واحد منا

يشعر أن الله يراقبه، مطّلعٌ على خواطره، على نواياه، أحياناً الإنسان ينوي نية طيبة فيجد العمل الطيب مقابلها.

مثلاً: زار أحد الناس مزرعة، فاستغرب إذ رأى نهرا، وعلى كل ضفةٍ منه أرض، وكل أرض لها صاحب، وكِلا الأرضين زُرعتا قمحاً، القمح الأول نامٍ نماءً شديداً جداً، والقمح الثاني ضعيف، رجل له معرفة بالله، سأل صاحب هذه الأرض: ما قِصتك ؟! قال: والله أنا لي أخ فقير نويت أن أعطيه نصف المحصول، فقط خاطر داخلي، فإذا بهذا الزرع ينمو، الأرض الثانية رأى فيها العامل، قال: والله إن صاحب الأرض بخيلٌ جداً، وفي نيتي أن آخذ من الغَلة شيئاً لي من دون أن يدري، فإذا شعر الإنسان أن الله عزّ وجل على يحاسبه الخاطر فعندئذٍ يستقيم، فالله رقيب على كل إنسان، وكل مخلوق، لهذا ورد في بعض الآثار:

" لا تقتل البهائم إلا بغفلة ".

إذاً:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: آية " 4 ")

ربنا يا ترى مع زيد وعبيد وفلان ؟ مع أهل الشام وأهل مصر، وأهل الحجاز وأهل العراق، وأهل إفريقيا، هذه كلها شعوب، الله مع الشعوب، مع الأمم، مع البشر، مع المؤمنين، مع الدعاة، مع روّاد المساجد، مع روّاد المقاهي، مع المنحرفين، مع العصاة، مع الأتقياء، مع الأنقياء، مع كل مخلوق، حتى مع البهائم، مع المخلوقات كلها، طبعاً معهم بعلمه ومراقبته، هذا التدبير، أنت لا تقدر إذا كنت مدير مدرسة، وعندك ستة وثلاثون مدرساً تجد نفسك مضطرباً مشتتا، فتقول: يا أخي، لا أقدر أن أتحمل، صعب أن أدير مدرسة كاملة، وتعلن أنك تحتاج إلى معاونين، وتحتاج إلى موجّهين، وإلى هاتفٍ، وتحتاج إلى أجهزة، وتحتاج إلى من يوصل أمرك إلى الطلاب، وأحياناً تجد الطلاب غير منضبطين.

أما خالق الكون فمع كل مخلوق، مطلع يحاسبه على خواطره، وعلى أعماله، يثيبه على طاعته، يسوق له الشدائد على معاصيه، وهكذا، فمعنى تدبير الأمر: أي أن الله مع كل مخلوق.

أنا أقول لإخواني المؤمنين: حينما تبدأ تشعر أن الله فعل كذا من أجل كذا، وأصابني بما أصابني من أجل كذا، وأكرمني من أجل كذا، حينما تسمع نداء الحق يُلقى في أذنك فهذا العقاب من أجل هذه الكلمة التي قُلتها.

فلو أن أحداً عنده في البراد ما لذّ وطاب، وقال له آخر: أريد منك حاجة مما في هذا البراد، فقال له: لا شيء عندي يا أخي، ثم ترك البيت شهراً، ورجع، فإذا بماس كهربائي فانقطعت الكهرباء، وأصبحت

كل هذه المؤونة فاسدة، فيجب أن تُعلن أن هناك سراً إلهياً، أنت منعت هذا الإنسان شيئاً مما عندك وقلت له: هذا ليس عندي، فَحُرِمْتَ ما في هذه الثلاجة كلها، هذا تدبير إلهي.

امرأة من أحياء دمشق القديمة كان عندها شجرة ليمون تحمل أربعمئة ليمونة في السنة، ما من إنسان يطرق الباب إلا وتعطي له ليمونة من أهل الحي، توفيت هذه المرأة، وبقي في البيت صبية، وهي زوجة ابنها، فأول ما طرق الباب قالت: لا يوجد عندها ليمون، وفي السنة الثانية يبست الشجرة.

التدبير أن تعطي الله فيعطيك، وإن تمنع الله يمنع عنك، فليست القضية معك فقط، بل مع كل مخلوق.

النقطة اليوم: أن هناك شمولا، كل إنسان وحده يفهم أن الله معه ويحاسبه، لكن يجب أن تتصور أن الله مع المخلوقات كلها، مع ألف ومئتي مليون مسلم، مع خمسة آلاف مليون إنسان، فإذا كان الطيور في العالم وعددها فرضاً مئة مليار طائر، إذا كان هناك خمسة آلاف مليون كل إنسان له عشرون طائرا، كم سمكة موجودة ؟ مليون نوع من السمك في البحر، واللهُ مع كل سمكة، والمعتدية يحاسبها، وكذلك كم طائرا ؟ كم حيوانا ؟ كم نملة ؟ وكلها في رقابة الله وعلمه.

(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة النمل)

وجدوا في قمة جبل نبع ماء في الهند، هذا شيء غريب جداً، هذه الظاهرة لا يمكن أن تُفَسَّر إلا بوجود جبل أعلى، ومستودع هذا النبع في الجبل الأعلى، إن هذا الجبل العالي جداً وجد في قمته العالية نبع ماء، إذاً: هناك تمديدات إلى جبلٍ بعيدٍ أعلى، ولكن لمن ؟ قال: لبعض الوعول التي تعيش في قِمَمِ الجبال..

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

يدبر أمر نملة سوداء، تحت صخرةٍ صمّاء، في ليلةٍ ظلماء، ويدبر رزق العباد، رزق الطيور، رزق ما تحت الأرض، تجد دودة تحت الأرض لها رزقها عند الله عزّ وجل، فهذه الآية هي فعل الله كله، وهو رب العالمين يدبر الأمر ؛ أمر العباد، أمر المؤمنين، أمر الكُفّار، أمر الحيوانات رزقاً وغير رزق، الإنسان رزقاً، وعقلاً وجسماً، وروحاً ونفساً، واجتماعاً، أي تدبير عام..

(ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

(سورة السجدة)

موقف العباد من ابتلاءات الله:

إن ربنا يتصرّف، ويتلقّى نتائج تصرُّفه، بعثنا ببلاغ، درسناه دراسة كبيرة على مستوى القطر، الآن تلقينا تقارير عن مستوى تَقَيُّد الموظفين بهذا البلاغ تقريباً، دبرنا أمراً، وتلقينا النتيجة، فالله عزّ وجل

يتصرّف، ويبعث للإنسان مصاباً، فماذا يقول ؟ ماذا قال عبدي ؟ يا رب، حمدك عبدك فلان، اكتبوا له الأجر، ماذا قال عبدي ؟ يقول: يا رب، ماذا فعلت لك حتى تفعل بي هذا ؟ إذاً هذا جاهل، وإنسان آخر يقول: يا رب، لك الحمد، إذاً هذا عالم، فالله عزّ وجل يتصرف، ويتلقى نتائج مواقف العباد..

(ثُمّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمّا تَعُدّونَ (5) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرّحِيمُ (6))

هذا هو الله، فإذا أنت أمضيت حياتك، أفنيت شبابك، أبليت عُمُرك في معرفة الله، ليس هذا كثيراً، بل هو قليل، هو أهل التقوى وأهل المغفرة، لكن يا خسارة إنسان أفنى شبابه من أجل إنسان آخر، أفنى عمره لمخلوقٍ مثله، يأتي يوم القيامة، وقد شعر بالخسارة الكبرى.. ذلك الذي:

(ثُمّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمّا تَعُدّونَ (5) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرّحِيمُ (6) الّذِي أَحْسَنَ كُلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7))

(سورة السجدة)

انظر إلى مخلوقات الله: الّذِي أَحْسَنَ كُلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

هل ترى في خلق الرحمن من تفاوت ؟ كيف التفاوت ؟ في الخلق إحكام ما بعده إحكام، دقق في الجَمل، دقق في الحيتان، في الفيل، في النملة، في البعوضة لها ثلاثة قلوب ؛ قلبٌ مركزي، ولكلّ جناحٍ قلب، أجنحتها تَرِف رَفاً دقيقاً جداً في الثانية، أعداد كبيرة جداً، لها محاجم، لها مخالب، لها جهاز رادار، جهاز تحليل دم، جهاز تمييع دم، جهاز تخدير، وطنين، هذه هي البعوضة..

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(سنن الترمذي عن سهل بن سعد)

(ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرّحِيمُ (6) الّذِي أَحْسَنَ كُلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

(سورة السجدة)

الصوص ينشأ في منقاره رأس مدبب جداً كالمَخْرَز من أجل أن يكسر قشر البيضة عندما يحين موعد خروجه منها.

بالمناسبة الشكل البيضوي هو أقسى، وأمتن شكل هندسي، الشكل المنحني، فإن القوة موزعة على كل السطح بالتساوي، لكن الشكل البيضوي ضعيفٌ جداً من الداخل، متماسكٌ جداً من الخارج، لذلك الشكل البيضوي مهما تلقى ضربات من الخارج فإنه يتحمل، بينما من الداخل لا يتحمل، الصوص من الداخل، يكفي أن يدفع قشر البيضة بهذا الرأس المدبب الصغير الذي نما على منقاره حتى يخرج إلى الهواء ؟

فإذا خرج إلى الهواء تلاشى هذا الرأس المدبب، إن الله أعطاه مفتاحاً لهذه العلبة، مفتاحاً مؤقتاً، يفتح القشرة نحو الأعلى، فتنكسر البيضة، ويخرج منها، بعد أن يخرج منها فإن هذا النتوء يذوب شيئاً فشيئاً ليعود منقاراً عادياً، يد من هذه ؟ هذا القلب لدى الجنين، الجنين لا يقوم بعملية تنفس، ولا استنشاق، ولا رئتان تعملان، ولا دورة صغرى، ربنا فتح لدى الجنين ثقباً بين البطينين، فحينما يولد الطفل.. هكذا قال لنا طبيب.. تأتي جلطة تُغْلِق هذا الثقب، فيتحول الدم من أذين إلى أذين سابقاً، ويتحول من أذين إلى رئة إلى بطين، من قلب الدورة ؟ من سد هذا الثقب في الوقت المناسب ؟

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

يا ترى الله مع الجنين ؟ مع الطفل المولود ؟ مع الأم ؟ مع الأب، أحياناً يكون هناك انحراف مع الأم والأب، يقول لهم طبيب: والله المولود مُشوَه، فيذهبون ويتوبون، ويدفعون صدقات، يصلون ويتوبون، فالله عالج الأب والأم، وبعد هذا جاء المولود سليماً، ربنا له أساليب عجيبة جداً مع كل مخلوق.

الملخّص المفيد: معرفة الله نصف الطريق على الحق:

فملخّص الدرس حينما تصل إلى أن تدرك على الله أنه فعل كذا من أجل كذا، وكذا من أجل كذا، وأنه:

" ما من عثرةٍ ولا اختلاج عرقٍ ولا خدش عودٍ إلا بما قدّمت أيديكم وما يعفو الله منه أكثر ".

إذا وصلت في معرفتك بالله إلى هذا المستوى فقد قطعت نصف الطريق، جميل جداً أن تتأمل حياتك، لماذا أعطاني ؟ شخص عليه زكاة مال قدرها ثلاثة عشر ألف وثمانمائة وخمسون، اختلف مع زوجته، عندنا طقم الأرائك بحاجة إلى إصلاح، ضغطت عليه وصرفته عن دفع الزكاة، مركبته أصابها حادث، فالذي دفعه إجمالاً بالقلم والورقة ثلاثة عشر ألف وثمانمائة وخمسين، فالله يدبر الأمر، إنه تأديب عندما جعل الله الرقمين يتطابقان تماماً، ما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أن منع الزكاة سبب تلف هذا المال، فالنتيجة التي أتمناها عليكم جميعاً وعلى نفسي معكم أنه كلما أصاب الإنسان شيء يتأمل لماذا أصابني هذا الشيء ؟ يتهم نفسه فلعل الله يهديه إلى سر ما أصابه.

تطبيق عملي لهذه الآية:

أيها الإخوة الأكارم... كتطبيقٍ عمليّ لهذه الآية، الحقيقة ليس القصد من هذه الآية أن نمضي ساعةً في آيةٍ واحدة، القصد أن يَبْقى الإنسان يقظاً في تأمله لما يجري معه، ليعلم علم اليقين أن هناك إلهاً حكيماً ؛ هو الذي أعطاه، وهو الذي منعه، الذي يسّره له، والذي عسّره عليه، حينما يصاب بانشراح أو بانقباض، حينما يوفّق في زواج أو لا يوفّق، حينما تنشأ مشكلة في البيت، دقق هناك معصية اقترفها،

هناك مخالفة، ابحث عن مخالفةٍ مع الله، ابحث عن معصية، هناك ارتباك في العمل ابحث عن سبب، كلما وجدت شيئاً لا يروق لك.. الحديث القدسي معروف عندكم:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنّ إِلّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

الإنسان يستسلم إلى الله، لكن لا يكون ساذجاً، لا يمر مر الكرام على الحوادث، بل يتساءل، لماذا أعطاني ؟ لماذا منعني ؟ لماذا عسّر عليّ هذا العمل ؟ لماذا ابتلاني ؟ دائماً اتهم نفسك، ودائماً قل وراء ما يجري سبب وجيه، لأن الله حكيم، والله عزّ وجل عادل وحكيم، ورحيم وعليم، وخبير، فالإنسان المؤمن العاقل لا يقول: ظروف الحياة هكذا، لا تقل: الدهر يومان، يومٌ لك ويومٌ عليك، لا تقل: القدر سَخِر مني، لا تقل: هكذا حظي، لا تقل: حظ، لأنه لا حظ، بل هناك توفيق وتعسير..

(فَأَمّا مَنْ أَعْطَى وَاتّقَى (5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

(سورة الليل)

الإنسان يلاحظ، ربنا عزّ وجل قال:

(الّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79))

ما قال: والذي يمرضني، بل قال:

(وَإِذَا مَرِضْتُ)

المرض في أصله خروجٌ عن منهج الله عزّ وجل، هذا هو أصل المرض، طبعاً هناك حالات أخرى نادرة، لكن في الأصل الإنسان مُجَهّز تجهيزاً كاملاً، فإذا تحرك على خلاف منهج الله أصابه خلل في جسمه.

فيا أيها الإخوة الأكارم... كلمة يدبّر الأمر والله لا أشبع منها، لأنها واسعة كثيراً، يدبر أمرَ من ؟ أمرَ كل شيء، لهذا قالوا في تعريف اسم العزيز: هو الذي يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء.

يدبّر أمر كل شيء في كل شيء، أمر كل شيء، أنت وزوجتك وأولادك، أحياناً يكون لدى الزوج تقصير مع الله، الابن ترتفع حرارته، يأتي الطبيب فيلهمه الله أن يُكَبّر الأمر على الأم والأب، تجد الأم

والأب يغليان غليان الحرقة على ابنهما، إلى أن يتوبا إلى الله عزّ وجل، فلعَلّ مرض الابن كان تأديباً للأب والأم.

أحياناً الإنسان يأتيه الدخل الكبير تكريماً، وأحياناً امتحاناً، وأحياناً استدراجاً، وأحياناً يمنع عنه المال تأديب، وأحياناً امتحاناً، وأحياناً ابتلاءً، هذا الفكر اجعله يعمل، اجعل هذا الفكر يعمل في فهم ما يجري، لأنه **" من لم تُحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر ".**

أنا أقول لكم: الإنسان الذي يسوق الله له من الشدائد من أجل أن يردعه عن بعض المُخالفات، ومن أجل أن يضطّره إلى باب الله عزّ وجل، هذا الإنسان إذا لم يفهم على الله مراده فهو المصيبة، ليست مصيبته في هذه المصيبة، بل هو نفسه المصيبة، فلذلك هذه الآية هي محور درسنا:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)

هو المدبر، هو المربي، هو المسير، هو الخالق يعرف ما في نفسك.. " عَلِمَ ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.. وليس في الإمكان أبدع مما كان، وليس في إمكاني أبدع مما أعطاني"، وسخّر الله لك كل شيء من أجل أن تعرفه، لذلك يدبّر الأمر، ويتلقى ردود فعلك، بعث لك الإكرام، فقلت: أنا يا أخي أمضيت عمري في هذه المصلحة، أصبح عندي خبرة، والآن آخذ قرشين نظيفين منها، هذا شرك، التوفيق من الله، لكنه ترجمه إلى شرك، إنسان آخر حرمه الله المال، لأنه يعلم صلاح أمر دينه بهذا الحرمان، الله عزّ وجل يدبر، ويتلقى ردود الفعل..

(ثُمّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ (5) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرّحِيمُ (6))

الغيب ما غاب عنك، وما شَهِدّته..

(الّذِي أَحْسَنَ كُلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)

(سورة السجدة)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة السجدة 032 - الدرس (4-6): تفسير الآيات 8 - 14

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-09-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الرابع من سورة السجدة، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7))

(سورة السجدة)

الصنعة تدلّ على الصانع:

مِن الثابت أيها الإخوة أن الصنعة تدلُّ على الصانع، وأن النظام يدل على المنظِّم، وأن الكون يدل على المكوّن، وأن الخلق يدل على الخالق، فإذا أردت أن تعرف الله عزّ وجل فدونك الكون، فانظر إلى الكون..

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

(سورة السجدة: آية " 7 ")

أي أن يخلق الكون صدفة فهذا من سابع المستحيلات، وهذا تنفيه كل الأدلّة العقلية، إذاً: هذا الكون له مكوّن، فإذا تأمّل الإنسان تأملاً دقيقاً، وقال: هذا الكون خلقه إلهٌ عظيم، لماذا خلقه ؟ وماذا يريد مني ؟ وماذا بعد الموت ؟ وإذا كان الإنسان يملك فكرةً صحيحة عن حقيقة الكون، وعن حقيقة الحياة، وعن حقيقة الإنسان، إذا عرف إجابات هذه الأسئلة الثلاثة عندئذٍ يكون قد بدأ السير على طريق الإيمان.

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

فالآية الكريمة في سورة الملك:

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك: آية " 3 ")

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

ففي الخلق إحكام دقيق، وأيُّ شيءٍ خلقه الله كاملٌ في الخلق، كاملٌ في الصفات، قال ربنا عزّ وجل:

(أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة السجدة: آية " 7 ")

أي أن مخلوقاته جميعاً ؛ النباتات، الحيوانات، الإنسان، الجمادات، كل شيءٍ أودع الله فيه الخواص التي يؤدِّي بها مهمته أداءً كاملاً، الإنسان أحياناً بحاجة إلى معدن يتمدد عندما يبرُد، وهذه الخاصة في الرصاص على عكس القانون العام، إذاً خلق الله الرصاص، فهذا المعدن يحتاجه الإنسان وهو في أَمَسّ الحاجة إليه، ومن خصائصه التمدد عند التَبَرُّد، والإنسان بحاجة إلى معدن خفيف، إلى معدن متين، إلى معدن قاسٍ، فكل أنواع المعادن أعطاها الله خصائص، لو درس الإنسان خصائص المعادن لشعر أن الله سبحانه وتعالى إنما خلقها على هذه الصفة تكريماً وتسخيراً له.

(أَحْسَنَ كُلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

مِن تفصيلات هذه الآية:

والحقيقة أن تفصيل هذه الآية يحتاج إلى وقتٍ طويل:

1 – العين:

فالعين مثلاً تندرج تحت قوله تعالى:

(أَحْسَنَ كُلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

فالعين لها جسم بلوري، وهذا الجسم البلوري من شأنه أنه مرن، ومعنى أنه مرن أي إذا جاء الخيال بعد الشبكية أو قبل الشبكية، ضغطت عليه عضلاتٌ هُدْبية حتى تجعل الخيال على الشبكية، هذه العملية عملية المطابقة من أعقد العمليات في العين، من يجريها ؟ الله سبحانه وتعالى تصوّر عدسة ضع أمامها شمعة، وأمسك لوحةً من الورق المقوّى، وحرّك هذه اللوحة إلى أن يرتسم عليها ظِلٌ، أو شكل الشمعة، هذه المسافة بين العدسة والورق المقوّى هي المحرق، مسافة المحرق، لو أن هذه الشمعة حركتها قليلاً لتلاشى خيالها على الورق المقوى، إذاً ماذا نفعل حتى نعيد هذا الخيال ؟ لا بدّ من تحريك الورق المقوى أو تحريك الشمعة، وهذا في العين يستحيل أن تحرك الشبكية أماماً أو خلفاً، ما الذي يجب أن يكون ؟ هذا الشيء المعجز أن الجسم البلوري (العدسة) في العين مرنة، يزداد احتدابها أو يقلّ حتى ينطبع على الشبكية خيال الأجسام المرئية، هذه العملية لو كلفنا إنساناً يحمل دكتوراه في الضوء لما استطاع أن يقوم بها لشدة تعقيدها، ولكن كل إنسان قد يتابع كرةً تطير بين أيدي اللاعبين، هذه الكرة تقع دائماً على شبكية العين، هذه العين وحدها ما أُلِف عنها من كتب يفوق حدّ الخيال، بدءاً من قرنيتها الشفافة إلى قُزحيتها ذات الفعل المنعكس، فهذه القزحية تتسع إذا قل الضوء، وتضيق فتحتها إذا كثر الضوء، اتساع الحدقة وضيق الحدقة عملٌ لا إرادي، حتى إن من علامات الحياة إذا شكّ الطبيب في

موت إنسان يسلط على عينه ضوءاً شديداً، فإذا ضاقت الحدقة فهناك حياةٌ في الإنسان، لوجود ردود فعل، وإذا لم تضق الحدقة فهذه علامةٌ من علامات الموت، إذاً القرنية الشفافة التي تتغذى بالحلول، إلى القُزحية ذات الفعل المنعكس، إلى الجسم البلوري المرن الذي يزداد احتدابه، ويقل احتدابه من دون أن تدري، من أجل أن ينطبع الخيال على الشبكية، إلى السائل الزجاجي ذي قرينة الانكسار الخاصة، إلى الشبكية ذات العشر طبقات، وفيها مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط، إلى عصبٍ بصري يخرج منه تسعمئة ألف عصب، لكل عصب غِمْدٌ يُغَلِّفه، هذه العين التي خلقها الله و:

(أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

2 – الأذن واللسان:

فكِّر في الأذن، فكِّر في اللسان، كُلٌ حرفٍ قد تسهم فيه سبع عشرة عضلة، هذه الحروف التي ننطق بها يسهم في تكوينها عضلاتٌ كثيرة، فحينما تلقي كلمة، أو تلقي الخطبة كل حرفٍ يحتاج إلى عددٍ كبير من العضلات انبساطاً وانقباضاً، في تشكيله:

(أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

3 – العظام:

هذه العظام التي خلقت فيها خلايا تنمو، فإذا بلغت النمو المطلوب توقفت عن النمو وهجعت، فإذا كُسِر العظم بعد ثلاثين عاماً مثلاً تستيقظ هذه الخلايا، وتُعيد بناء العظام من جديد:

(أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

أنت أمامك جسمك، فإذا أردت ألا تبتعد، وأردت أن تكون واقعياً، إذا أردت أن ترى آيات الله عزّ وجل بين يديك ماثلةً صارخةً واضحةً ففكِّر في جسمك، فكر في رأسك، هذه الحواس، هذه العضلات، هذه الأعصاب، هذه الأوعية، هذه الشرايين، هذه الأعضاء، هذه الأنسجة، يوجد نسيج لحمي معين، ونسيج عضلي، ونسيج عصبي، كلّه يتلقّى الغذاء من القلب، هذه عناوين موضوعات.

فحركة اليد، ما طبيعة الحركة ؟ كيف تتقلّصا لعضلة ؟ كيف تأتمر ؟ من يأمرها ؟ من ينفِّذ هذا الأمر ؟ كيف يتلقّى الإنسان أو الدماغ المعلومات من المحيط عن طريق الحواس ؟ فكل شيء له نظام خاص به. كيف يتوازن الإنسان على قدمين لطيفتين ؟ لمَ لا يقع ؟ لمَ إذا مات وقع ؟..

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)

(سورة السجدة)

الله عزّ وجل خلق سيدنا آدم من طين..

(ثُمّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)

(سورة السجدة)

أقوال العلماء في معنى: السُلَالَة

ماذا تعني كلمة (سُلالة).

المعنى الأول:

بعضهم قال السلالة تعني الخلاصة.

المعنى الثاني:

وبعضهم قال السلالة: الخواص، أي جعل نسل الإنسان من ماءٍ، هذا الماء الذي يفرزه الإنسان، يتمُّ تصنيعه في ثمانية عشر يوماً، وتُعَطّل فاعليّته إلى أن ينطلق من مكانه، إذا انطلق من مكانه تحرّك عن طريق ذيلٍ وعنقٍ ورأسٍ مدبب، وفي مقدمة الرأس مادةٌ نبيلة شفّافة تخترق جدار البويضة، فهذا الماء المهين الذي يُصنَّع في ثمانية عشر يوماً، والذي لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل تعطل فاعليته إلى حين انطلاقه من عقاله، هذا الحيوان إذا مضى عليه ساعة أو ساعتان يموت، فمن جعله ينطلق من عقاله ؟ ومن أعطاه الفاعلية حينما ينطلق ؟ لو أنه وهو مخزنٌ في الخصيتين أعطي الفاعلية لمات في مستودعاته، إذاً حينما ينطلق تُعطى فاعليته، فإذا عاش ساعتين أو أكثر فقد فاعليته ومات، إذا وصل إلى البويضة حوينٌ قويٌ، ولقّح البويضة تشكّل الإنسان من هذه البويضة الملقحة، إذاً ربنا عزّ وجل يقول:

(ثُمّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)

(سورة السجدة)

خلاصة من ماءٍ مهين..

(إِنّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)

(سورة الإنسان)

نطفة أمشاج، أي أن هذه النطفة عليها معلومات، خمسة آلاف مليون معلومة، وهذه البويضة عليها معلومات خمسة آلاف مليون معلومة، وقد جعل الله البويضة كبيرةً لتكون هدفاً للحوين، ولحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل، جعل البويضات التي يُطلقها مبيض المرأة محدودةً، أي أن هذه البويضات تنتهي في سن اليأس، لو أن البويضات شأنها كشأن الحوينات تنطلق إلى آخر العمر لكان وقع الحمل في سن الثمانين، وفي السبعين، وفي التسعين، وفي الخامسة والتسعين، لكن حكمة الله عزّ وجل جعلت عدد البيوض في

المرأة محدوداً، فإذا انتهى عدد البيوض التي أودعها الله في مبيض المرأة جاء سن اليأس، وتوقّف الحمل، بينما الحوين الذي يُفْرِزه الرجل يستمر في الخروج حتى نهاية الحياة، هذه حكمة بالغة من حكم الله سبحانه وتعالى، إذاً بَدْءُ خلق الإنسان من طين، وأما نسل بني آدم:

(مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)

معنى: مَاءٍ مَهِينٍ:

ومعنى ماءٍ مهين كما قال بعض المفسرين: هو الماء الضعيف، معنى ضعيف، أيْ أنّ أيّ عَرَضٍ يصيبه يجعل هذا الحوين ميتاً، فهو يحتاج إلى وسط معين، يحتاج إلى سيولة معيّنة، إلى غذاء معين، فحينما يخرج هذا الماء من مكانه، وينتقل عبر القنوات يصل إلى نقطة، أو إلى مكان، أو إلى منعطف هو منعطف البروستاتة، هذه الغدة التي تفرز مادة مطهرة، ومادة معطِّرة، ومادة مغذية تسبح فيها الحوينات، هذا صنع من ؟ البروستاتة تُغلق مجرى البول حينما يخرج ماء الحياة، وتغلق مجرى ماء الحياة حينما يخرج البول، إذا خرج البول ليسير في الطريق الذي خُصِص له تفرز البروستاتة مادة قلوية تتعادل مع المادة الحامضية، فإذا خرج ماء الحياة.. الطريق فيه بول.. تفرز البروستاتة مادة مطهرة، وبعدها مادة معطِّرة، وبعدها مادة مغذية، وهذه الغدة تعمل ثمانين عاما أو أكثر من دون كللٍ أو ملل، فإذا كان هناك إفراطٌ أو تفريطٌ تتضخم وتلتهب، هذا صنع من ؟

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)

لو أردت أن تقف عند خصائص الإنسان لوجدت العجب العجاب.

(وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8))

(سورة السجدة)

ماءٌ ضعيف، أو ماءٌ مُمْتَهن فالإنسان يستحيي من هذا الماء إذا ظهر على ثوبه، وكُلُنا من هذا الماء، لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل أن الإنسان يخرج من عورةٍ، ويدخل في عورةٍ، ثم يخرج من عورة، ويشكّل من ماءٍ مهين، فعلامَ الكبر ؟ لذلك جاء في بعض الأحاديث الشريفة:

((ويلٌ لعبدٍ سها، ولها، ونسي المبتدا والمنتهى، ويلٌ لعبدٍ طغى، وبغى، ونسي الخلاّق الأعلى))

الرب الكريم.

(ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ)

(سورة السجدة: آية " 9 ")

تسوية الله للإنسان:

التسوية دقيقة جداً، التسوية أوضحتها بمثل: أن الإنسان لو أراد أن يضع مركبته في مرآب (كراج) بالتعبير الشائع.. يجب أن يكون حجمه مسوّى مع حجم المركبة، أكبر بقليل، أعلى بقليل، أطول بقليل، فلو لم تكن هناك تناسبات بين حجم هذه الغرفة وحجم المركبة لما كان هذا المكان صالحاً لمبيت هذه السيارة، إذاً ليس مسوّى، التسوية هي التناسب، فالإنسان جعل الله له يدين، اليد من حيث طولها، ومن حيث مفاصلها، ومن حيث رسغها، ومن حيث الأصابع، وطول الأصابع، ومن حيث الكف، باطن الكف وظاهر الكف، هذه التجاعيد، وهذه الأطوال المختلفة، وهذه السُلاميات، وهذا المكان الذي لا شعر فيه، وهذه الخطوط على رؤوس الأنامل، هذه كلها تسوية، وهذه المفاصل ذات الاتجاه الداخلي.

والرجل لها تركيبٌ آخر، عظام الفخذ، وعُنق الفخذ، وعلاقتها بالحوض، والركبة، وطبيعة الركبة، ومِشط الرجل، هذه التسوية، أي نظامٌ بديع يتوافق مع أحدث أو مع أدق النظريات الميكانيكية:

(ثُمّ سَوّاهُ)

بعد أن صار هذا الجنين كائناً بشرياً له رأسٌ، وله عينان، وله سمع، وله فم، وله لسان، وجهاز هضم، وجهاز دوران، وجهاز أعصاب، وجهاز إفراز، وجهاز تعرُّق، وعضلات وعظام:

(ثُمّ سَوّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ)

ثُمّ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ

إذا دبّت فيه الحياة، وتحرّك، ونبض قلبه:

(وَجَعَلَ لَكُمُ السّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

(سورة السجدة)

الحكمة مِن خلق الحواس في الإنسان:

طبعاً السمع والأبصار والأفئدة كما قال بعض المفسرين: إنما هي حواس أودعها الله في الإنسان ليتعرّف بها إلى خالق الأكوان، فبالعين ترى الكون، وبالأذن تستمع إلى الحق، وبالفؤاد الذي إذا جاء مع السمع والبصر يعدُّ الفِكر الذي أودعه الله في الإنسان، فهذه العين وهذه الأذن، وهذا الفكر مناط التكليف:

(وَجَعَلَ لَكُمُ السّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

بالعين ترى آيات الله الدّالة على عظمته، وبالأذن تستمع إلى كلام الله عزّ وجل، وإلى سنّة نبيه، بالعين والفكر تعقل، وبالأذن تسمع، وأنت أمام آياتٍ تحتاج إلى تفكّر، وبين نقلٍ يحتاج إلى تدَبُّر، النقل عن طريق الأذن يحتاج إلى تدبر، والكون عن طريق العين يحتاج إلى تفكّر، فمن خلال الكون تتعرف إلى الله عزّ وجل، ومن خلال الأذن تتعرف إلى أمره ونهيه فتعبده، إذاً مجيء السمع والبصر والفؤاد هذه ثلاثة ؛ حاستان وجهازٌ مُعَقّدٌ جداً، وهو الفكر، هذه الحواس مناط التكليف، بالعين والفكر تتأمل في آيات الله التي بثّها في الكون فتعقل، وبالأذن تتدبّر أوامره ونواهيه فتعبده، فلا بدّ من اجتماع الفكر والعين والسمع:

(قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

لكن تأمّلْ: قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ

أي لو نظرت قليلاً، لو استمعت قليلاً، هذا الأعرابي الذي سأل النبي عليه الصلاة والسلام قال: يا رسول الله عِظْني، ولا تطل، فتلا عليه قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

قال: كُفيت، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقُهَ الرجل))

القضية أبسط مما تتصورون، القضية آيةٌ واحدٌ تكفي، حديثٌ واحدٌ يكفي، في القرآن والسنة آياتٌ لا تزيد على أصابع اليد تكفيك طوال الحياة، وأحاديث أيضاً لا تزيد على أصابع اليد تكفيك طوال الحياة.

(قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

أي إذا سمعت قليلاً يكفيك، إذا تأمّلت قليلاً يكفيك، إذا تفكّرت قليلاً يكفيك.

(وَجَعَلَ لَكُمُ السّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

إذاً هذا الكون سخّره الله لك تسخير تعريف، وتسخير تكريم ؛ فماذا ينبغي أن تفعل ؟ ينبغي أن تؤمن، وينبغي أن تشكر، ولن تشكر قبل أن تؤمن، إذا آمنت شكرت، فإذا آمنت، وشكرت فقد حققت المُراد الإلهي، لأن الله عزّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: آية " 147 ")

أي إذا آمنت، وشكرت فقد حققت المُراد، فإن لم تشكر فمعناها لم تؤمن، لا تشكر إلا إذا آمنت، إذا آمنت فعلاً شكرت ومن لوازم الإيمان الشكر، والآن مقولة الكفار:

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ)

(سورة السجدة: آية " 10 ")

مقولة باطلة في إنكار البعث: أإذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ

أي إذا متنا، ودُفِنا تحت الأرض، وأصبحنا تراباً، واختلط جسمنا البالي بتراب الأرض:

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ)

معنى ضللنا أي دُفِنا، غُيِّبنا في باطنها، وكذلك معنى ضللنا، أي اختلط تراب جسمنا بتراب الأرض، وكلا المعنيين صحيح:

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

(سورة السجدة: آية " 10 ")

أيْ أيعقل بعد أن تفنى أجسامنا، وتصبح تراباً مختلطاً بتراب الأرض أنخلق ثانية من جديد لنحاسب ؟

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)

(سورة السجدة)

أيْ أن يخلق الإنسان مرةً ثانية ليحاسب على أعماله كلها ؛ خيرها وشرها، جَيِّدها وسيئها، صالحها وطالحها، هذا شيءٌ يكفرون به، مع أن الله سبحانه وتعالى من أسمائه الحق، ومن الأدلة على اليوم الآخر أن الإنسان في الحياة قد يكونُ قوياً، وقد يطغى في قوته، وقد يكون ضعيفاً فيظلم في ضعفه، وقد يكون غنياً، وقد يكون فقيراً، وقد يكون صحيحاً، وقد يكون مريضاً، ويأتي الموت عند هذه الأوضاع غير المتكافئة، ألا ينبغي أن تكون هناك حياةٌ أخرى تسوّى فيها الحسابات، يؤخذ من القوي للضعيف، ألا ينبغي أن يقيم الله عزّ وجل حياةً أبدية يجازي فيها المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته ؟ لذلك كما يقولون: **" وزعت الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء ".**

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)

الكفر نوعان: جليّ وخفيّ:

لذلك فالكفر أيها الإخوة نوعان، كفر جلي وكفر خفي:

الكفر الخفي:

فإن لم تجد في عمل الإنسان اليومي ما يؤكِّد إيمانه باليوم الآخر فهو كافرٌ باليوم الآخر كُفراً خفياً، أضرب على هذا مثلاً: لو أنَّك زرت طبيباً، وعالجك علاجاً جيداً، وكتب لك وصفة، قد تصافح الطبيب،

وقد تشكره على عنايته بك، ولكن لمجرّد أنك لا تشتري هذا الدواء فلست إذاً واثقاً من علم هذا الطبيب، فعدم شراء الدواء تكذيبٌ لعلمه، ولو أثنيت على علمه، فالتكذيب نوعان تكذيبٌ جلي، وتكذيبٌ خفي مبطن، فإذا قلت: أنا مؤمن بالجنة والنار، أنا مؤمنٌ باليوم الآخر، ولم تعمل لليوم الآخر، ولم نجد في حركتك اليومية ما يدل على خوفك من النار، ولا طمعك في الجنة، فنقول: إنك تكذِّب باليوم الآخر تكذيباً عملياً، لا تكذيباً قولياً، فلذلك:

(بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)

لمجرد أن تعمل للدنيا وحدها، لمجرد أن تأكل مالاً حراماً ليس لك، لمجرّد أن تتحرك بلا ضابط وبلا منهج وبلا قيم، لمجرّد أنك لا تأتمر بما أمر الله، ولا تنتهي عما نهى الله، لمجرد أنك تعصي الله، ولا تنوي أن تتوب من هذه المعصية، لمجرد أنك مقيمٌ على معصية الله فهذا يؤكِّد عدم إيمانك باليوم الآخر، ولو آمنت باليوم الآخر حق الإيمان لاختلفت كل علاقاتك اليومية، لاختلفت كل حياتك، لظهر هذا واضحاً في سلوكك، لذلك الذي يؤمن بالآخرة يقول لك: هذه حرام لا أفعلها، والله إني أخاف الله رب العالمين، هذه معاذ الله أن أفعلها، هذه لا تجوز، إذاً بحياتك ورع، وبحياتك خوف، هذه لا أفعلها، وهذه لا أقبلها، وهذه لا تُرضي الله، وهذه أعاقب عليها يا أخي، أما الذي يفعل ما يشتهي، ويتحرّك كما يحلو له من دون قيدٍ ولا شرطٍ، ولا منهج ولا ضابطٍ، هذا يجب أن يؤكِّدَ لنفسه أنه ليس مؤمناً باليوم الآخر:

(بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)

حتى لا يغش الإنسان نفسه، هناك نوع من الناس يشكلون نموذجاً مشاعاً الآن:

وهذا النموذج إنسان مسلم بالانتماء، يحب أن يسمع كلام الحق، يحب أن يحضر مجالس علم، عنده عواطف إسلامية، إذا سمع نشيداً يتأثر، لكن تجد أفكاره في واد وأعماله في واد، هذا النموذج لا يُجدي، ولا تقوم عليه أمة قوية، لا يقوم المجتمع الإسلامي الصحيح إلا على أفراد متمسكين بمبادئ الإسلام، لذلك:

(بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)

الكفر الجلي:

وإما أن يكون الكفر جلياً، فيقول الإنسان: أنا لست قانعاً باليوم الآخر، وهذا كفرٌ به جلي، وإما أن تعلن بلسانك أنك مؤمنٌ باليوم الآخر، وليس في العمل ما يؤكِّد ذلك، وهذا كفرٌ خفي، فالتكذيب جليٌ وخفي:

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ)

(سورة السجدة)

كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

الليل مهـما طال فلابدّ مـن طـلوع الـفجر

والعمر مـهما طال فلا بدّ من نزول القــبر

****

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلةٍ حدباء محمولُ

فإذا حملت إلى القـبور جنـازةً فاعلم بأنك بعدهـا محمول

****

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ)

(سورة السجدة: آية " 11 ")

ما منا واحدٌ أيها الإخوة إلا وهو يصدِّق بأن الموت حق، لكن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن يستعدُّ لهذا اليوم، بينما غير المؤمن يفاجئه ذلك اليوم، يأتيه على غير موعد، ويأتيه على غير استعداد، لذلك يُصْعَقُ الكافر حينما يأتيه ملك الموت، عندئذٍ يقول:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر)

عندئذٍ يقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنون)

عندئذٍ يندم بعد فوات الأوان:

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)

(سورة السجدة)

ترجعون لتحاسبوا على أعمالكم كُلِّها، خيرها وشرها، جليلها وحقيرها، صالحها وطالحها، هذا معنى قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

العمل مهما بدا لك صغيراً فستحاسب عليه.

مشاهد من يوم القيامة: صورة من ذل المجرمين:

الآن ربنا عزّ وجل ينقلنا إلى مشهدٍ من مشاهد يوم القيامة:

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ)

(سورة السجدة: آية " 12 ")

لو شاهدت يا محمد هؤلاء المكذِّبين، هؤلاء المُعاندين، هؤلاء المستكبرين، هؤلاء المكذبين، لو شاهدتهم يوم القيامة، وهم ناكسو رؤوسهم ؛ خجلاً، وخزياً، وشعوراً بالعار..

إن العار ليلزمُ المرءَ يوم القيامة حتى يقول: **يا ربِ لئن تُرسل بي إلى النار أهون عليّ مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب ".**

فهذا الذي يقول لك: أنا لا أصدق، أيعقل أن يكون الإنسان تراباً، ثم يُخلَق من جديد ؟!! يا أخي من الذي مات ورجع وقال: هناك دار آخرة ؟ هذه كلمات الجُهّال، كلمات العوام، كلمات المُعاندين، كلمات الماديّين، هذه الكلمات التي يتبجحون بها في حياتهم، وفي أوج قوتهم، وصحتهم، وجبروتهم، لو رأيت هؤلاء وهم ناكسو رؤوسهم عند ربهم.

في الدنيا تقريباً هناك بعض العصابات، هذه العصابات، وهي قبل أن يلقى القبض عليها تجد أن لها مظاهر القوة، ورئيس العصابة يهدِّد أتباعه، فإذا ألقي القبض عليهم جميعاً، وأودعوا في السجن، وجاء من يصوِّرهم لتحقيقٍ صحفي تراهم ناكسي رؤوسهم وأبصارهم في الأرض لشعور الخزي والعار، وهذه صورة نراها كل يوم، أحياناً حينما يُصَوَر مجرم في الجريدة ترى رأسه منخفضاً، وبصره ناكساً، لماذا ؟ لأنه تلَبّس بالخزي والعار، فالمعنى هكذا: ولو ترى يا محمد إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم..

(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا)

البطولة أن تعرف الحق قبل فوات الأوان:

عرفنا الحقيقة، قلت لكم سابقاً: قضية الإيمان ليست قضية أن تؤمن أو ألا تؤمن، هذه قضية مرفوضة، قضية متى تؤمن ؟ لأنّك لابدّ من أن تؤمن، لابدّ من أن تؤمن ولكن بعد فوات الأوان، فالبطل هو الذي يؤمن قبل فوات الأوان، قضية الإيمان لا تُطْرَح على الشكل التالي: نؤمن أو لا نؤمن، لا. بل متى نؤمن؟ لأنه لابدّ من أن تؤمن، لأن فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

حينما أدركه الغرقُ آمن، وكلُّ إنسانٍ مكابرٍ، معاندٍ، مكذّبٍ لابدّ من أن يؤمن عندما يلقى الله عزّ وجل..

(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ)

(سورة السجدة)

إذاً يجب أنة نؤمن في الوقت المناسب، ونحن أصحاء، ونحن أشِحّاء، ونحن في قوتنا، ونحن في صحتنا، هذا الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام:

((اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك، وغناك قبل فقرك))

والحديث الذي تعرفونه:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فقرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أو الدّجّالَ، فشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أو السّاعَةَ ؟ فالسّاعَةُ أدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي عن أبي هريرة)

الإيمان عملية واعية:

بالمناسبة، الإيمان ليس شيئاً يأتيك عفوَ الخاطر، أي ينمو هكذا، وأنت لا تدري، لا.. الإيمان عملية واعية، عملية تفكُّر وبحث، عملية استماع وتَبَنٍّ، عملية عقل، فالإنسان إن لم يكن عنده وقتٌ ليؤمن لا يؤمن، أي إن هذا الذي تستغرقه أعماله، هذا الذي ليس عنده وقتٌ ليحضر مجلس علم، ولا ليقرأ القرآن، ولا ليُصغي إلى موعظة، ولا إلى نصيحة، هذا متى يؤمن ؟ لابدّ أن تخصصُ وقتاً من زُبْدَة وقتك كي تؤمن، وحضورك مجالس العلم هو مساهمةٌ في بناءِ إيمانك، استماعك إلى الحق مساهمة في بناء إيمانك، تلاوتك القُرآن، وتدبُّرك له مساهمةٌ في بناء إيمانك..

(رَبّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنّا مُوقِنُونَ)

بعد فوات الأوان:

بعد فوات الأوان !! لذلك الإنسان حينما يأتيه ملك الموت لا يندم إلا على شيءٍ واحد، ما سمعت في حياتي أن إنساناً أدركه الموت فقال: رب أرجعوني كي أُنهي هذه الصفقة، رب أرجعوني كي أنهي هذا البناء، لم ينته البناء، يا رب بقيت له المرحلة الأخيرة، لا، هذا لا يُقال، إن الذي يُقال: رب أرجعوني لكي أعمل صالحاً، إذاً أنت في الدنيا خُلقت من أجل العمل الصالح، بل ما الذي تندم عليه حينما يأتي ملك الموت ؟ هو أهَمُّ ما في الدنيا، الذي تندم عليه حينما يأتيك ملك الموت هو أهم شيءٍ في الدنيا، فاقرأ كل الآيات تنبئك:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنون)

إذاً العمل الصالح المبني على إيمانٍ يقيني هو سرٌ وجودك في الأرض، هذا يؤكِّده قوله تعالى:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر)

الآن هناك آية من أدَقّ الآيات:

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ)

قال الله تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة)

وَلَوْ شِئْنَا لَآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا

مفهوم مغلوط للآية:

طبعاً ظاهر هذه الآية أنّ الإنسان إذا قرأها من دون تبَصُّر، ولم يسأل أهل الذكر عنها فقد يتوهَّم أن الله عزّ وجل كان من الممكن أن يهدي الناس جميعاً، ولكنه لم يشأ ذلك..

(وَلَوْ شِئْنَا لَآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

أي كان من الممكن أن يهدي الله الناس جميعاً، ولكن لم يشأ ذلك..

(وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة)

المعنى الصحيح للآية: اختيار العبد:

لكن لهذه الآية معنىً أدق من ذلك، ومعنىً أبعد من ذلك، هو: أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان مختاراً، وأعطاه حرية الاختيار، أو ما يسمى حرية الكسب، أعطاه حرية الاختيار ليثمّن عمله، أي أن عمله الصالح لا قيمة له إطلاقاً إن لم يكن مختاراً، لو أن الله سبحانه وتعالى أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، حينما يُجْبِر الله عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولما ارتقى الإنسان عند الله عزّ وجل، لا قيمة للعمل الصالح إلا إذا فعلته مختاراً، إذاً حرية الاختيار من أجل تثمين العمل، لو أن الله سبحانه وتعالى أجبرك على الإيمان، أو أودع فيك فقط نداء العقل، ولم يضع فيك نداء الغريزة، أي ليس لديك

إلا الخير، وليس لديك إلا الطريق السالك إليه وحده، لو أن الله أجبر الناس على طاعته لما ارتقوا في الجنة، ولما استحقوا الجنة.

حينما أقدم للطالب ورقة الإجابة، وقد كتبتْ عليها الإجابة من قِبلي، وأقول لهذا الطالب: اكتب اسمك ورقمك، وهذه مئة من مئة، ما قيمة هذا النجاح ؟ ألغي النجاح، وسقطت قيمة النجاح، وليس هذا النجاح مقبولاً، ولا مرغوباً، ولا مطلوباً، لا عند الطلاب، ولا عند الأساتذة، ولا عند الناس جميعاً.

نفي مفهوم الجبرية:

إذاً لمجرد أن يجبر الله الناس على الهدى سقطت قيمة الهدى، وانتهى الهدى، وضاعت ثمرته، فقد يسأل سائل لماذا لم يجبرنا الله على طاعته وانتهى الأمر ؟ هكذا تقول الآية:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى)

(سورة الأنعام: آية " 35 ")

لو كنت مجبركم على شيء لأجبرتكم على الهدى، ولو شئنا أن نجبركم، وأن نلغي اختياركم، وأن نلغي تكليفكم، وأن نلغي حرية كسبكم، لو أردنا ذلك لأجبرناكم على الهدى فقط:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة: آية " 13 ")

ولكن هذه الأعمال التي تفعلونها ليست من إجبار الله، أي أن هذا الذي يقول: أنا شربت الخمر، لأن الله قدّر عليّ ذلك مخطئ في مقالته، سيدنا عمر حينما بلغه خبر أحد الأشخاص الذين ضبطوا متلبّسين بشرب الخمر، وجاءوا به إلى سيدنا عمر، وسأله عمر " لماذا شربت الخمر ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قدّر عليّ ذلك، فقال رضي الله عنه: أقيموا عليه الحدّ مرتين، مرةً لأنه شرب الخمر، ومرةً لأنه افترى على الله، قال له: يا هذا ويحك إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار "، أي أنت مخير، فهذا الذي يعصي الله، ويقول: الله قدّر عليّ ذلك، والله أجبرني على معصيته، كلمات العامة يرددونها.. " طاسات معدودة في أماكن محدودة "، هذه كلماتٌ شيطانية لا أصل لها..

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

هذا كذب، وهذا خَرص، وهذا إفك، وهذا افتراء، أيعقل أن الله سبحانه وتعالى الذي خلقنا للهدى، وخلقنا للرحمة أن يجبرنا على معصيته ؟ لذلك هذا الذي يقول: لو نظرت إلى العُصاة بعين الشريعة لعنّفتهم، ولو نظرت إليهم بعين الحقيقة لعذرتهم، هذا كلام لا يقف على قدمين، كلامٌ باطل..

ولو شئنا أن نأخُذ منكم اختياركم، لو شئنا أن نلغي تكليفكم، لو شئنا أن نجبركم لأجبرناكم على الهُدى، أما أن نجبركم على معصيةٍ فهذا مستحيل، لو أن الله أجبرنا على شيء لأجبرنا على الهُدى فقط، لكن حتى لو أجبرنا على الهدى لا قيمة لهذا الهدى، ولا نرقى بهذا الهدى، ولا نسعد بهذا الهدى، ولن يكون هذا الهدى القسري ثمناً لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، لكن الهدى الاختياري أن تأتيه طائعاً، أن تأتيه مختاراً، أن تُقبل عليه وبإمكانك ألا تقبل، أن تحسن وبإمكانك ألا تحسن، أن تستقيم وبإمكانك ألا تستقيم، أن تجلس في مجلس علم، وبإمكانك أن تجلس في دار لهوٍ، أن تَغُضّ بصرك عن محارم الله، وبإمكانك أن تطلق البصر، أن تخاف من أن تأكل مالاً حراماً، وبإمكانك أن تأكله، هذا الذي يرفعك عند الله، وهذا الذي يقربك منه، أن تأتيه مختاراً، إنكم تدّعون أنني أجبرتكم على هذه المعاصي، لو أنني أجبركم على شيء لأجبرتكم على الهدى..

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

ولكن هذه الأعمال التي تفعلونها هي من كسبكم واختياركم، وسوف تحاسبون عليها..

(وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاس أَجْمَعِينَ)

أيها الإخوة الأكارم، في القرآن آياتٌ محكمات، وهي كثيرةٌ جداً، بل هي أكثر ما في القرآن، وفي القرآن بعض الآيات المتشابهات التي إذا قرأتها من دون علمٍ، ومن دون نورٍ، ومن دون خبرةٍ، أو تدَبُّرٍ، أو سؤالٍ، أو استنارةٍ قد تقع في سوء ظنٍ بالله عزّ وجل، وحسن الظن بالله ثمن الجنة.

آية في سورة آل عمران:

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران: آية " 154 ")

أي قد تظنُ بالله ظناً غير صحيح، حسن الظن بالله ثمن الجنة، أي أن تعتقد أن الله أجبر الكفار على معصيته ولا خيار لهم في ذلك، ولا حيلة لهم أبداً، وأنهم استحقوا جهنم إلى الأبد، وهم مجبرون ؟ هذا سوءُ ظنٍ بالله عزّ وجل، فقيمة عملك أنك مخير، وما دمت مخيراً فلعملك قيمة، لعملك ثمن به ترقى، أي لا ترقى إلا إذا كنت مختاراً، فأيُّها العباد، إذا ظننتم أنني أجبركم على المعاصي فهذا سوء ظنٍ بالله عزّ وجل، هذا ظن الجاهلية، هذا الذي يظن أن الله سبحانه وتعالى أجبر عباده على معصيته، ثم أدخلهم النار إلى الأبد، لأنه أجبرهم على معصيته، هذا هو الظن غير الحق..

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران: آية " 154 ")

هذا الظنُ يُهلكهم، ويُردِيهم..

(قُلْ إِنّ اللّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف)

(سَيَقُولُ الّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا)

(سورة الأنعام)

كلُّ الآيات التي تتحدّث عن اليوم الآخر فيها إشارةٌ إلى ندم العصاة، ندمهم، وخزيهم، وعارهم، لو أنهم أجبروا على المعصية لما ندموا، ندمهم علامة اختيارهم.

مجرّد الأمر والنهي دالّ على أنّ الإنسان مخير:

شيءٌ آخر: قال بعض العلماء: " مجرّد الأمر والنهي معنى ذلك أنّ الإنسان مخير "، أي إذا رسمنا طريقاً لهذا الإنسان، عرضه ستون سنتيمترا، على عرض كتفيه، وقلنا له: خذ اليمين، أيُّ يمينٍ هذا ؟ جدارا الطريق يلامسان كتفيه، وقلنا له: خُذ اليمين، أو خذ اليسار، هذا أمرٌ لا معنى له، ما دام الله يأمر وينهى الإنسانَ إذاً عنده حرية الحركة، ما دام الله قد أمرك فأنت مخيّر، وما دام قد نهاك فأنت مخير، وما دمت تندم يوم القيامة فأنت مخير..

(قالُوا رَبّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا)

(سورة المؤمنون: آية " 106 ")

أي غلبت علينا شهواتنا..

(إِنّا هَدَيْنَاهُ السّبِيلَ إِمّا شَاكِراً وَإِمّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 148 ")

الجهة بيدكم الإنسان فاستبقوا الخيرات.. فلا يخافَنّ العبد إلا ذنبه، ولا يرجوَنّ إلا ربه.

إذاً هذه الآية من الآيات التي إذا قرأتها من دون علمٍ أو تدبرٍ، أو من دون أن تسأل أهل الذكر كما قال الله عزّ وجل:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأنبياء)

ربما وقعت في سوء ظنٍ بالله، قد تقرؤها هكذا على ظاهرها:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقّ الْقَوْلُ مِنّي لَأَمْلَأَنّ جَهَنّمَ مِنَ الْجِنّةِ وَالنّاسِ أَجْمَعِينَ)

هكذا على ظاهرها من دون تدبُّر، من دون تحقق، من دون فهم تقع في سوء ظنٍ في الله، أي نحن بنينا سجناً، ويجب أن نملأه، أقمنا حاجزاً على الطريق، وأخذنا الناس، مطيعهم وعاصيهم لملء السجن.. يا أخي، بنيناه وكلفنا كثيرا، هذا كلامٌ لا يقف على قدمين، لا يستقيم هذا الكلام، فإذا ادعيتم أيها العباد أنني أجبرتكم على معصية فهذا سوء ظنٍ منكم، ولو شئت أن أجبركم لأجبرتكم على الهدى، ولكن حتى لو أجبرتكم على الهدى فإن هذا الهدى القسري لا قيمة له إطلاقاً، ولا يرقى بكم، ولا يسعدكم، ولن تكونوا أهلاً به لدخول الجنة، أما الجنة ثمنها أن تأتي الله طائعاً، أن تطيعه، وبإمكانك أن تعصيه، أن تحسن، وبإمكانك أن تُسيء، أن تستقيم، وبإمكانك أن تنحرف، أن تؤمن، وبإمكانك أن تكفر، أن تعمل الصالحات، وبإمكانك أن تعمل السيّئات، ما دام بإمكانك أن تُسيء، فإن إحسانك له قيمة، ولكن لماذا جعل الله النبي ضعيفاً ؟ في أول الأمر بإمكانك أن تكذِّبه، وأن تنام مطمئن البال، بإمكانك أن تسخر منه، وتنام مطمئن البال، لذلك هذا الذي يؤمن به.. الإيمان به شيءٌ عظيمٌ جداً.. أما القوي فإنك تطيعه، ولا أجر لك، لأنك تخاف بطشه، تطيعه لا عن حبٍ، بل عن خوف، فلذلك ما جعل الله الأنبياء في أول عهدهم بالنبوة إلا ضعافاً ليكون الإيمان بهم ثميناً، أنت تؤمن، ولو لم تؤمن لكان أقرب إلى مصالحك، إذاً جعل الله الإيمان له ثمن، هذه الآية أتمنى أن تُفهم على هذا النحو الذي يليق بحضرة الله عزّ وجل، يليق بأسمائه الحسنى وصفاته الفُضلى..

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

الأعمال السيئة باختيار العبد وهو محاسَب عليها:

ولكن أعمالكم السيّئة لم أجبركم عليها، بل فعلتموها بمحض اختياركم، ومن كسبكم، وسوف تحاسبون عليها..

(وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي)

أنّ من أعطيته اختياراً، وأساء الاختيار سيدفع الثمن باهظاً، كل شيء له ثمن، مجيئكم لهذا المجلس، واجتماعكم له ثمن، تطبيقكم له ثمن..

(وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا)

(سورة السجدة)

هؤلاء الذين قالوا:

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)

(سورة السجدة: آية " 10 ")

مصيبة الناس في نسيان اليوم الآخر:

فلاحظ الناس الآن، عامة الناس يحسبون حساباً لكل شيء، إلا اليوم الآخر، فيخططون لكل شيء، إلا ساعة وقوفهم بين يدي ربهم، يأخذون الأموال بلا تحفُّظ، يُعدُّون أخذ المال الحرام شطارةً، وذكاءً، وحنكةً، وحيوية، يقول لك: هذا شاطر، هؤلاء الذين نسوا لقاء يومهم هذا هم الأغبياء، هم الأشقياء الذين سوف يدفعون ثمن إغفالهم، أو غفلتهم ثمناً باهظاً..

(فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة السجدة)

حقائق ثلاث لا بد منها: الإيمان بالله، والإيمان بعلمه، والإيمان بحتمية الحساب:

لذلك أيها الإخوة الأكارم... أقول لكم: لن يستقيم الإنسان على أمر الله إلا إذا آمن بوجوده، وآمن بأنه يعلم، ولا تَخْفى عليه خافية، وآمن بحتمية الحساب، آمنت بوجود الله، وبأنه يعلم، وبأنه سيحاسب، إذا تحقّقت من هذه الحقائق الثلاث فمن النتائج الطبيعية والحتمية أن تستقيم على أمر الله، إذاً حاول أن تؤمن بوجوده إيماناً حقيقياً لا إيماناً ساذَجاً، أو إيمان تَبَرُّكٍ، بل ليكن إيماناً حقيقياً، إيمانك بوجود الله ظاهرٌ في سلوكك ؟ تقول: هذه لا أفعلها، إني أخاف الله رب العالمين ؟ هل تقف عند حدود الله ؟ هذا المبلغ لا آخُذُه، هذا اللقاء لن يكون، هذا العمل لا أفعله، يجب أن يظهر إيمانك في سلوكك، هذا الذي عناه الله عزّ وجل..

(فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

أي أن أعمالكم التي فعلتموها اختياراً هي سبب شقائكم في النار، هكذا يقول الله عزّ وجل:

(فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا)

لذلك فالعقل السديد أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليك..

سمكات ثلاث: قصة وعبرة:

هذه قصة أرويها كثيراً، وهي رمزية: صيادان مرّا بغدير سمك فيه سمكاتٌ ثلاث، كيسةٌ، وأكيس منها، وعاجزة، الكيسة العاقلة، وأكيس منها، أي أرجح عقلاً، والعاجزة، أي الغبية، فرأى الصيادان ما في الغدير من السمك، فتواعدا أن يرجعا، ومعهما شباكهما ليصيدا ما فيه من السمك، فسمعت السمكات قولهما، أما أكيسهن فإنها ارتابت، وتخوفت، وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، وهذه كلمةٌ دقيقة: المؤمن العاقل يحتاط لليوم الآخر قبل مجيئه، يحتاط للموت قبل نزوله، يحتاط للشيخوخة قبل أن

يصل إليها، يستقيم في شبابه.. " حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر "، " من عاش تقياً عاش قوياً "، " من تعلّم القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت "، المؤمن لا يخرف أبداً، ولا يشيخ، يشيخ جسمه، وتبقى نفسه شابة بمعرفة الله عزّ وجل.. أما أكيسهن فإنها ارتابت، وتخوّفت، وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، ولم تَعْرُج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فنجت، هذا العاقل، العاقل يعيش المستقبل دائماً، والأقل عقلاً يعيش الحاضر، والغبي يعيش الماضي يقول لك: كنت وكنت، الأقلّ ذكاء يعيش حاضره، يفاجأ يوماً بحادث فيأخذ تدابيره، لكن قد ينجح، أو قد لا ينجح، أما العاقل هو الذي يعيش مستقبله، وهو في شبابه يعيش ساعة الموت، كيف سأحاسب ؟ فالمشكلة أن الإنسان حينما يأتيه الموت يفقد كل شيء، ويدفع ثمن كل شيء، ويحاسب عن كل شيء..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

فهذه السمكة العاقلة جداً قبل أن يعود الصيادان أصبحت خارج الغدير، وارتاحت أعصابها، وأما الكيّسة فمكثت في مكانها حتى عاد الصيادان، هذه تعيش وقتها، فوجئت، رجع الصيادان ومعهما الشبكة، فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها، فإذا بالمكان قد سُد، الصيادان سدّوه فقالت: فرّطْتُ، وهذه عاقبة التفريط.. هذا جزاء عملي.. غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، فتظاهرت أنها ميتة، ثم إنها تماوتت، فطفت على وجه الماء، فأخذها أحد الصيادين.. أمسكها بيده.. ووضعها على الأرض بين النهر والغدير، فوثبت في النهر فنجت، لكن هذه غامرت وقامرت، كان من الممكن ألا تنجو، فلو وضعها في مكانٍ بعيد لماتت، وأما العاجزة فلم تزل في إقبالٍ وإدبارٍ حتى صيدت، إذاً العاجز دائماً يعيش ماضيه أولاً، ويستهلك وقته استهلاكاً رخيصاً، فيأتيه الموت فجأةً، وهو ليس مستعداً له.

فلذلك نقلنا ربنا عزّ وجل نقلة، نقلنا إلى مشهد من مشاهد يوم القيمة، قال لك:

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (12) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14))

(سورة السجدة)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة السجدة 032 - الدرس (5-6): تفسير الآيات 15- 21

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-09-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة السجدة، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

(سورة السجدة)

طريق الإيمان بالله هو الإيمان بآياته:

الحقيقة أن طريق الإيمان بالله هو الإيمان بآياته، لأن الله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار، ولكن تعرفه من خلال خلقه، فالإيمان بآياته طريقٌ إلى الإيمان به، وكيف تؤمن بآياته ؟

أنواع السجود: سجود الاضطرار وسجود العبادة:

1 ـ سجود الاضطرار:

إذا ذُكِّر الإنسان بآيات الله خرّ ساجداً، والسجود له معنيان: سجود اضطرار، وسجود عبادة، أي مخلوقٍ على وجه الأرض شاء أم أبى ساجدٌ لله سجودَ اضطرار، أنت مفتقرٌ إلى الهواء، مضطرٌ إليه، مفتقرٌ إلى الماء، مضطرٌ إليه، ولو أن الله سبحانه وتعالى منع عنك الهواء لانتهت حياتك، ولو منع الماء الذي يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء لهلك كل شيء، مادام كل شيء يحتاجه في كل شيء، إذاً الخلق كلُّهم ساجدون لله عزّ وجل سجود اضطرارٍ وافتقارٍ وحاجة، هذا السجود لا تعنيه الآية، أيُّ مخلوقٍ حتى الكفار، حتى الذين أنكروا وجود الله عزّ وجل مفتقرون إليه في قيامهم، في قعودهم، في نومهم، في صحوهم، في عملهم، في حركتهم، في هضمهم، في حركة قلوبهم، في مرونة شرايينهم، في ميوعة دمائهم، لو أن هرموناً قلّت نسبته في الدم، هرمون التميُّع، لأصبح الدم في الأوعية كالوحل، وانتهت حياة الإنسان، لو أن هرمون التجلط قلّت نسبَتُه لخسر الإنسان دمه كله مِن جُرحٍ طفيف، إذاً أنت مفتقرٌ إلى حالةٍ معتدلة بين الميوعة والتجلُّط، أنت مفتقرٌ إلى مرونة الشرايين، أنت مفتقرٌ إلى حركة القلب، أنت مفتقرٌ إلى حركة العضلات، إلى ناقلية الأعصاب، مفتقرٌ إلى كأس ماء، إلى نسمة هواء، إلى طعامٍ، إلى شرابٍ، إلى زوجةٍ، إلى عملٍ، إلى مأوى، إلى ثياب، الحاجات التي أنت في أَمَسّ الحاجة إليها لا

تُعدُّ ولا تُحصى، وكلُّها بيد الله عزّ وجل، بدءاً من خلاياك، إلى أجهزتك، إلى أعضائك، فكل الخلق ساجدون لله سجود افتقار، سجود اضطرار، سجود حاجة.

2 ـ سجود العبادة:

ولكن السجود الراقي السجود الذي تُؤجَرُ عليه، السجود الذي يَرقى بك، السجود الذي يجعلك في الآخرة من المقرّبين، هو سجود العبادة أن تأتيّه طوعاً لا كرهاً، أن تأتيّه مختاراً لا مجبراً، أن تأتيّه بمحض إرادتك، أن تأتيّه مُحباً لا خائفاً، فلذلك المؤمنون الذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم خروا سجدا.

سمعوا عن آيات الله: عن آية الشمس، آيةٌ دالةٌ على عظمته، كيف أن الشمس تتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض، وأن الأرض إذا أُلقيت فيها تبخّرت في ثانيةٍ واحدة، وأن حرارة الشمس على سطحها ستة آلاف درجة، و أما في باطنها فعشرون مليون درجة، وأنّ الشمس منذ خمسة آلاف مليون عام هي متألقة تَنشر الحرارة، والدفء، والضوء، هذا الإمداد المستمر، بيد من ؟ والقمر كذلك، والمجرّات كذلك، فكلّما تُلِيَت عليه آيةٌ من آيات الله خرّ ساجداً لله لا سجود اضطرار، ولكن سجود عبوديةٍ لله، سجود إقرارٍ بفضل الله، سجود تعظيمٍ لخلق الله، هذا السجود هو الذي كُلّفنا به، سجود العبودية، لا سجود الاضطرار، فهؤلاء هم المؤمنون:

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا)

(سورة السجدة: آية " 15 ")

مَن ذُكِّر بآيات الله فآمن فهو المؤمن الحقيقي:

قد تدرسُ دراسةً عالية، قد تنالُ درجةً جامعية، قد تنال درجة الدكتوراه في العلوم الطبيعية، وكلّما قرأت شيئاً من آيات الله الدالّة على عظمته لم تسجد، ولكن رأيت أن هذه الظواهر ظواهر طبيعيةٌ تحكمها قوانين، فأنت مع أنك قرأت هذه الآيات، وتبحّرت فيها، وغُصْت في أعماقها، لكن لم تعبر بها إلى الله عزّ وجل، لم توظِفها في معرفة الله، فهذه المطالعة، وهذه الدراسة لا قيمة لها، فالكون جسرٌ يجب أن تعبر عليه إلى معرفة الله، فإذا بقيت على الجسر ما استفدت من هذا العلم شيئاً، لذلك:

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً)

(سورة السجدة: آية " 15 ")

أي أنّه كلّما ذُكِّر المؤمن بآيةٍ من آيات الله اذكر وتفكر، وآيات الله بثّها الله في كل مكان، قال تعالى:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

في الجسد آيات، في الطعام آيات، في الشراب آيات، في البحار آيات، في السماء آيات، في الأسماك آيات، في الأطيار آيات، وأقرب آيةٍ إليك جسدُك، أقرب آيةٍ إليك نفسك التي بين جنبيك، أقرب آيةٍ إليك أعضاؤك، حواسك، أجهزتك، أنسجتك، طباعك، نظام حياتك، زواجك، إنجابك، هذه كلها تحت سمعك وبصرك، فلذلك علامة المؤمن الصادق أنه إذا اطلع على آيةٍ من آيات الله الدالة على عظمته، إذا قرأ عن آيةٍ من آيات الله، إذا سمع آيةً من آيات الله خرّ لله ساجداً سجود عبادة لا سجود اضطرار، لذلك تُعدُّ آيات الله التي بثّها في الكون أقرب طريقٍ وأوسع باب، ومن خلال هذه الآيات يمكن أن تصل إلى معرفة الله لقول الله عزّ وجل:

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ(191))

(سورة آل عمران)

التطبيق العملي لهذه الآية:

هؤلاء المؤمنون أيها الإخوة، وأنا أتمنى على كل أخٍ كريم، وهذا من التطبيق العملي لهذه الآية، أتمنى على كل أخٍ كريم أن يكون له مع الله جلسة، هذا الذي فعله النبي في غار حراء، هذه جلسات التأمُّل في آيات الكون جلساتٌ لا بدّ منها، يمكن أن تفعلها كل يوم لوقتٍ قصير، يمكن أن تفكِّر في أيّ شيءٍ حولك، لأن الله يأمرك، وهذا أمر إلهي.

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6))

(سورة الطارق)

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: آية " 101 ")

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

(سورة الفاشية)

التأمل في خلق السماوات والأرض عبادة:

هناك دعوةٌ واضحة، جليةٌ متكررةٌ، مركّزٌ عليها في القرآن الكريم إلى التأمل في الكون، فلابدّ من أن يكون التفكّر عبادة، بل إن بعض العلماء يجعلها أول عبادة، بل قبل عبادة الصلاة، لأن تفكر ساعةٍ يعدِل عبادة سبعين عاماً.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر: آية " 67 ")

إذاً:

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا)

فلو قرأت كتاباً في الطب، أو قرأت كتاباً في العلوم الطبيعية، كتاباً في التشريح، كتاباً في الفيزياء، كتاباً في الكيمياء، كتاباً في الفلك، ولم تر يد الله عزّ وجل ولا حكمته، ولم تر علمه، ولم تر قدرته، بل رأيت ظواهر طبيعيةً تحكُمها قوانين هي علاقاتٌ ثابتة بين متحولات، إذا نظرت إلى الأمور هكذا، فهذه نظرةٌ لا تعنيها هذه الآية، يجب أن ترى يد الله، يجب أن ترى من خلال الكون قدرة الله، علم الله، رحمة الله، لطف الله، خبرة الله هذه:

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً)

ألا يمكن أنك إذا علمت سراً من أسرار الخلق أن يخشع قلبك ؟ أي يقْشَعَر جلدك ؟ أن تلين أعضاؤك خشوعاً لله عزّ وجل ؟ هذا الإدراك الجلي لآيات الله الدالة على عظمته يُجَسّدِها خضوع الإنسان لله، واتجاهه نحو السجود.

(وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

(سورة السجدة)

أما معنى:

(وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)

معنى التسبيح بحمد الله:

1 – المعنى السلبي للتسبيح:

التسبيح بحمد الله.. تسبيح من فعل سبَّح، والتسبيح بالتعريف الدقيق هو تنزيه الله عزّ وجل عن كل ما لا يليق به، هذا معنى سلبي.

2 – المعنى الإيجابي للتسبيح:

المعنى الإيجابي: هو تمجيد الله، فالتسبيح تنزيهٌ وتمجيد، أن تنفي عنه كل صفات النقص، وأن تثبت له كل صفات الكمال، أن تقول: سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، وأن تقول: ما أرحم الله عزّ وجل، ما أحكمه، ما أقواه، ما أغناه، أن تجول في أسمائه الحسنى، وصفاته الفُضلى تسبيح، وأن تنزّهه عن كل ما لا يليق به، هؤلاء المؤمنون الصادقون إذا عاينوا آيةً سجدوا لله وسبحوه.

من آيات الله الكونية:

1 ـ خاشية الماء:

فمن منا يصدِّق أن الحياة على الأرض متوقفةٌ على خاصةٍ في الماء ؟ هذه الخاصة لو أنها ألْغيت لألْغيت معها الحياة، الماء شأنه شأن كل العناصر، إذا سخّنته تمدد، فإذا برّدته تقلّص، شأنه شأن كل العناصر، الحرارة من شأنها أن توسِّع الفراغات البينية بين الذرات، إذاً إذا سخّنت جسماً زاد حجمه، هذا معنى قول العلماء: المعادن تتمدد بالحرارة، فإذا رفعت الحرارة لأنَ المعدن، فإذا زدت الحرارة صار المعدن سائلاً، فإذا زدت الحرارة صار المعدن غازاً ـ وهذا إلى حدٍ ما شيء نظري ـ صار المعدن غازاً، فإذا برّدت الغاز صار سائلاً، فإذا بردت السائل صار صلباً، يوجد هواء سائل، ويوجد غاز صُلب، هذا متعلقٌ بالحرارة، لكن هذا الماء شأنه شأن كل المعادن والعناصر إذا سخّنته تمدد، فإذا برّدته تقلّص، إذا برّدته من درجة عشر إلى درجة ثمانٍ، سبع، ست، خمس، أربع تنعكس الآية، بعد درجة (+) أربع يزداد حجمه، وهذا تعرفونه في الثلاجات، إذا ملأت قارورة ماء، وأحكمت إغلاقها، ووضعتها في غرفة التبريد فإنها تنفجر، تتكسر، لأن الماء إذا برد دون (+) أربع يزداد حجمه، لولا هذه الظاهرة لما قامت حياةٌ على وجه الأرض، كلما تجمد الماء في المحيطات حسب القاعدة السابقة قلّ حجمه، وازدادت كثافته، وغاص في أعماق البحار، جاءت طبقةٌ ثانية تجمدت، وغاصت، إلى أن تُصبح البحار كلّها متجمِّدة، فإذا تجمّدت انعدم التبخُّر، وانعدمت الأمطار، وماتت النباتات، ومات الحيوان، وانتهت حياة الإنسان، فهل تصدقون أن حياة الإنسان على وجه الأرض، وحياة كُلّ كائنٍ حي أساسها هذه الظاهرة ؟

2 ـ العين البشرية:

هل تصدقون أن في ماء العين مادةً مضادةً للتجُّمد، إذْ لو أن إنساناً سكن في أقاصي الشمال، وكانت الحرارة دون السبعين تحت الصفر، بإمكانه أن يُغَطِّي كل شيءٍ في جسمه خوف البرد إلا عينيه من أجل أن يرى طريقه، فلو أن هذه الحرارة المنخفضة لامست غشاء العين لتجمد ماء العين فوراً، لذلك أودع الله في ماء العين مادةً مضادةً للتجمد، هذه الآيات، آياتٌ في العين.

3 ـ جسم الإنسان:

آياتٌ في الأذن، آياتٌ في القلب، ثمانية آلاف لترٍ تُضَخ في اليوم الواحد، عضلة تعمل تقلّصاً وانبساطاً ثمانين عامٍا أو مئة عامٍ دون كللٍ أو مللٍ، كيف تستريح هذه العضلة ؟ من دون صوتٍ، من دون ألمٍ، من دون إزعاج، هذا خلق الله.

فجسم الإنسان أيها الإخوة، والله الذي لا إله إلا هو، في جسم الإنسان من الآيات الصارخة الدالة على علم الله، وعلى قدرته، وعلى حكمته، وعلى رحمته، وعلى قدرته الشيء الكثير، لذلك ما لهذا الإنسان غافلٌ عن معرفة الله ؟ غارقٌ في ملذاته ؟ قال تعالى:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الذاريات)

((16) قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20))

(سورة عبس)

4 ـ معجزة تقلّص الرحم:

الولادة شيءٌ مُعْجِز، الرحم يتقلّص تقلصاتٍ لطيفة في أثناء الطلق ليدفع الجنين إلى خارج الرحم، فإذا ما خرج الجنين تقلّص الرحم تقلّصاً فجائياً حاداً بحيث تغلق كل الأوعية التي تمزّقت، وانفتحت، فلو كان التقلّص الآخر رخواً لماتت الأم من النزيف، من أعطى هذا الرحم هذه القدرة على التقلّص المتزامن التدريجي والتقلّص القاسي المفاجئ ؟

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ)

(سورة عبس)

5 ـ توازن الهواء والأوكسجين:

أيها الإخوة الأكارم، هكذا كيفما تحركت، الهواء الذي تستنشقه كيف يتحقق توازنه ؟ آيةٌ عظمى من آيات الله، كيف أن النبات يأخذ غاز الفحم، ويطرح الأكسجين ؟ وكيف أن الإنسان يأخذ الأكسجين، ويطرح غاز الفحم ؟ هذا التوازن في نِسَب الغازات في الهواء توازنٌ معجز، هذا الماء من آيات الله الدالة على عظمته، هذه المعادن، هذه أشباه المعادن، هذه المواد العضوية، هذه الكائنات الحية.

6 ـ السمك والطيور:

مليون نوع من السمك في البحر، مئة مليار طائر في سماء الأرض، والبشر جميعاً خمسة مليارات، وكل طائرٍ له من الأجهزة ما لا ترقى إليه أعظم طائرةٍ موجودةٍ الآن.

7 ـ معمل الورقة الخضراء:

الورقة الخضراء ؛ إن أعظم معملٍ صنعه الإنسان، والله قرأت هذه الكلمة في مجلةٍ علميةٍ ليس هدفها أن تُعَرّف بالله إطلاقاً.. تقول هذه المجلة: إن أعظم معملٍ صنعه الإنسان يبدو تافهاً أمام الورقة، تأخذ المعادن، وتأخذ الماء من باطن التربة، ويصعد الماءُ نحو الأعلى على عكس نظام الجاذبية، الورقة فيها من اليخضور، ومن الحديد، ومن الآزوت، ومن الفوتون ـ الطاقة الشمسية ـ ما يصنع مع المعادن والماء سائلاً هو السائل الذي يعودُ من الورقة ليصنع الجَذر والساق والأوراق، والثمار، والأزهار، شيءٌ معجز، سائلٌ واحد يصنع أشياء كثيرة من طبيعةٍ واحدة.

8 ـ نمو الشجرة:

هذا النُسغ الصاعد، لو أن الشجرة نمت عرضاً لضاقت لمعة هذه الأوعية، لذلك هي مدعّمةٌ بألياف حلزونية، والنُسغ النازل من حينٍ إلى آخر فيه مصافٍ، فيه حلقات تصفية، شيءٌ يأخذ بالألباب..

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: آية " 28 ")

لذلك:

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

(سورة السجدة)

معنى:

(لَا يَسْتَكْبِرُونَ)

معنى: لاَ يَسْتَكْبِرُونَ

أي إذا رأى أمراً إلهياً يقول: أنا قانع بأني غير قانع بوجود يوم آخر، الأمر لا يتناسب مع الزمان، ماذا أفعل بكذا ؟ هذا الموقف المتردد، هذا الموقف المُستعلي، هذا الموقف الفاحص، لا يطبّق الأمر إلا إذا انجلت له حكمته، كأنه يناقش خالقه نِداً لند، هذا هو الاستكبار..

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ

1 - معنى المضاجع:

المضاجع: الأسرة الوثيرة، الفُرُش الأنيقة، المُلاءات النظيفة، الجو الهادئ، التبريد، غرفة النوم تدعو الأجساد إلى الراحة، تدعوها إلى الاسترخاء، إلى الاستلقاء، إلى أن تغوص في فراشٍ وثير، لكن هؤلاء المؤمنين الصادقين..

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

(سورة السجدة: آية " 16 ")

2 - معنى: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِع:

يستيقظون لصلاة الفجر، يستيقظون لذكر الله، يستيقظون لصلاة التهجُّد، يتلون كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار، يمرّغون جباههم في أعتاب الله، يناجون الله عزّ وجل.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ، أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلّ وَعَزّ فَقَالَ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ ؟))

(مسند أحمد)

رب العالمين في جلاله وعليائه يسألك: ألك عندي حاجةٌ يا عبدي ؟ أتريد مني شيئاً ؟ أتحب أن أغفر لك ذنوبك ؟ أتحب أن أتوب عليك ؟ أتحب أن أعطيك سُؤلك..

إلى متى أنت باللذّات مشغولُ وأنت عن كل ما قدمت مسؤولُ

* * *

((إذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ، أَوْ نِصفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلّ وَعَزّ فقالَ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ ؟))

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

يصلون صلاة العشاء، وصلاة الوتر، وقد يُصلُّون قبل النوم ركعتين، وقد يصلون بعد الاستيقاظ قبل الفجر ثماني ركعات قيام الليل، يصلون آناء الليل وأطراف النهار، يتوجهون إلى الله بالدعاء، يناجونه يبتهلون إليه، هذه العلاقة الطيبة مع الله عزّ وجل هي سرُّ الدين، أساس الدين هذه الصلة، أساس الدين هذه المُناجاة، أساس الدين هذا الدعاء، الدعاءُ مخُّ العبادة، هل الإنسان يرضى أن يستمتع بنومٍ عميقٍ لذيذٍ لذيذ، وأن ينسى ساعات السحر ؟

فقم نحونا في الليل لا تخش وحشتنا فالأنس في طيب ذكرنا
وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغلٌ وأخلص لنا تلقى المسرة والهنا
وسلم إلينا الأمر في كلّ ما يكون فما القرب و الإبعاد إلا بأمرنا
فيا خجلي منه إذا هو قال لي أيا عبدنا ما قرأت كتابنا
أما تستحي منا ويكفيك ما جرى أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا
أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً و تنظر ما به جاء وعدنا

***

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

***

في القرآن آية إذا قرأها المؤمن قراءةً صحيحة يجب أن يقشعر جلده:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الحديد: آية " 16 ")

إلى متى يا أخانا أنت شارد ؟ إلى متى أنت في غفلة ؟ إلى متى أنت في جفوة ؟ إلى متى أنت في فتور؟ ألا تشتاق إلى الله عزّ وجل الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد، أنزل على نبيّه هذا الكتاب منهجاً لك، دستوراً لك، خلقك لجنةٍ عرضها السماوات والأرض ؟ هذا معنى:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

للآية معنى خاص ومعنى عام:

أي لا يرتاح للنعيم، فهو نعيم مؤقّت، هذه الآية لها معنى خاص، ولها معنى عام.

1 – المعنى الخاص:

خاصها: المقصود به الفراش، النوم لذيذ، والنوم شهوةٌ تعارض أداء العبادات، لذلك فالمؤمن دائماً يتجافى جنبه عن المضاجع، يدعو الله خوفاً وطمعاً.

2 – المعنى العام:

المعنى الأوسع: أي لا يركن للدنيا، يرى أن الدنيا مؤقتة، دار مرور، وليست دار استقرار.

الدنيا حلوة بطاعة الله:

ما لي وللدنيا إنني فيها كعابر سبيل، كن في الدنيا كأنّك مسافر، خُذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً.. فمن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه، وهو لا يشعر، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارق، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌ به، هذه الحياة الدنيا حلوةٌ جداً إذا أمضيتها في طاعة الله، أمضيتها في طلب العلم، أمضيتها في التقرُّب إلى الله، أمضيتها في الاستقامة على أمر الله، أمضيتها في خدمة الخلق، فهذه الحياة الدنيا من دون ذكر لله تافهةٌ لا قيمة له، حتى إن بعضهم قال: " مساكين أهل الدنيا، جاءوا إلى الدنيا، وخرجوا منها، ولم يذوقوا أطيب ما فيها، إنه ذكر الله وما والاه "، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إِيّاكَ وَالتَّنَعُّمَ، فَإِنّ عِبَادَ اللّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ))

(مسند أحمد عن معاذ بن جبل)

قد يتنعَّم الإنسان، أما أن يجعل النعيم قصده الأساسي، وشغله الشاغل، ومَحَطَّ رحاله، ومنتهى آماله، ولا يفعل شيئاً مما يرضي الله عزّ وجل فهؤلاء وصفهم الله بأنهم غافلون ؛ والغافلون كالأنعام، بل هم أضل.

(إِنّ الّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ)

(سورة يونس)

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ اثّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلّا قَلِيلٌ)

(سورة التوبة)

خالق الكون يقول لك: متاعٌ قليل:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

(سورة القلم)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

لا يستوي الفاسق والمؤمن:

شابٌ نشأ في طاعة الله، يغضُ بصره عن محارم الله، يتحرّى الحلال، يرجو رحمة ربه، يرجو خدمة الخلق، أيُعامل هذا من قبل الله، كما يعامل شابٌ فاسق، فاجر، منحرف ؟!.. هكذا.. أيليق بالله عزّ وجل أن يسوي بين هذا وذاك ؟! أهذا من كمال الله عزّ وجل ؟:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

يا أيها الإخوة الأكارم... هؤلاء المؤمنون الصادقون..

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

(سورة السجدة)

دُعِيَ النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان يافعاً إلى حفلة عُرس فنام في الطريق، ولما بُعث نبيا مرسلاً قال لخديجة:

((يا خديجة لقد انقضى عهد النوم))

ـ انتهى ـ أليس لك رسالة في الحياة ؟ هذا الشاعر الذي هجا رجلاً في عهد عمر، واسمه الحُطيئة قال له:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

****

هذا البيت من الشعر سبَّبَ لمن نظمه دخول السجن، لأنه يعدُ أهجى بيتٍ قالته العرب، ماذا قال له ؟

دع المكـارم لا تـرحل لبغيـتـهـا   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

***

إذا رضي الإنسان بطعامٍ نفيس، وبيتٍ مريح، وزوجةٍ وأولاد، ونُزهات، وانتهى الأمر فهذا عبد الدنيا، أليس لك مطلبٌ آخر ؟ أليس عندك طلبٌ لمعرفة الله ؟ عن طريق معرفة كتابه ؟ وفي طاعته ؟ وفي التقرُّب منه ؟ وفي مناجاته ؟ هكذا..

فيا أيها الإخوة الأكارم، هذه الآية:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

معناها الخاص أن السرير يدعوه إلى الراحة، والله يدعوه إلى مناجاته، السرير يدعوه إلى النوم، وآذان الفجر يدعوه إلى الصلاة، الصلاة خيرٌ من النوم، السرير يدعوه إلى الاسترخاء، والعمل الصالح يدعوه إلى أن يقوم..

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

(سورة السجدة: آية " 16 ")

والمعنى الأوسع: أن المؤمن الذي عَرَفَ مهمته في الحياة، وعرف حقيقة الحياة، وعرف جوهر الحياة، وعرف سرّ الحياة، تعلّق قلبه بالآخرة، تعلّق قلبه بما يرضي ربه، لذلك هو يبحث عن طاعة، يبحث عن عملٍ صالح، يبحث عن خدمة الخلق، يبحث عن دعوةٍ إلى الله، يبحث عن رجلٍ يهديه إلى الله عزّ وجل..

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً)

وهذا هو الموقف الأمثل..

(خَوْفاً وَطَمَعاً)

الخوف والرجاء عند المؤمن كجناحي الطائر:

إذا اشتد الخوف عمّ اليأس، وإذا اشتد الرجاء عمّ التساهل، فربنا حكيم، وهو المربّي، فإذا رآك ازداد أملك ورجاؤك، وفترت عبادتك، وقلّت طاعتك يُخيفك، فإذا اشتد خوفك، وانتقلت من خوفٍ إلى يأسٍ يُطَمْئنك، فالمؤمن العاقل يراوح بين الخوف والرجاء، ليس مع الخوف القاتل، ولا مع الرجاء الساذج..

(يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً)

رغباً ورهباً، الخوف إذا اشتد كالملح في الطعام إذا زاد عن حدِّه انقلب إلى ضده، والرجاء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، الرجاء ينقلك إلى التساهُل، إلى الفتور، إلى ضعف الهمة، إلى أداء صلواتٍ شكلية، إلى الالتفات إلى الدنيا، والخوف يُقَنِّطك من الله عزّ وجل، يجب أن تكون بين الخوف والرجاء،

فإذا شعرت أنك واثقٌ إلى درجة أنّك تساهلت في عباداتك فَخَفّهُ، فإن الله سبحانه وتعالى قد يسوق لك ما يجعلك في خوفٍ شديد..

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(سورة السجدة)

العطاء صفة أساسية في المؤمن:

كما قلت في درسٍ سابق: إستراتيجية المؤمن هي صفةٌ أساسيةٌ، أو سمةٌ أساسية في طبيعته: العطاء ؛ يعطي من علمه، يعطي من خبرته، يعطي من ماله، يعطي من جاهه، يعطي من قوّته، يعطي من ذكائه، يعطي من كلِّ ما يملك، أساس حياته العطاء، إذا أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا، أو من أهل الآخرة فاعلم ما الذي يفرحك ؟ إذا كان يفرحك العطاء فأنت من أهل الآخرة، فإذا كان يفرحك الأخذ فأنت من أهل الدنيا، قال تعالى عن هؤلاء:

(وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (17))

(سورة السجدة)

دائرة المسموعات أوسع من المرئيات: فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ

لم يقل الله عزّ وجل: فلو تعلمُ، بل قال سبحانه:

(فَلاَ تَعْلَمُ)

أي فيها مالا عينٌ رأت، أنت لك دائرة مرئيات محدودة ؛ تعرف بلدك، وكذا المدن الأخرى في قطرك، تعرف لبنان فرضاً، تعرف الأردن، تعرف مصر، هذه دائرة مرئيّاتك، لكن دائرة مسموعاتك واسعة جداً، في الأخبار تسمع البلد الفلاني، والعاصمة الفلانية، والبحر الفلاني، والجبل الفلاني، والقُطب الشمالي والجنوبي، وإفريقيا واستراليا، وآسيا وإفريقيا، أي أن المسموعات أوسع، أما الخواطر أوسع وأوسع، أي شي خطر في بالك فهو خاطر، قد يخطُر في بالك إنسان طوله من هنا وحتى القمر فهذا خاطر.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ:(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)))

[متفق عليه]

هذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض التي لا تعلم نفسٌ ما أخفي لها في هذه الجنة من قرة أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون، هل هذه الجنة يُستغنى عنها ؟ ونلهث وراء سنواتٍ معدودة مشحونةٍ بالهموم والأحزان ؟ لهذا يقول الله عزّ وجل:

(أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

خالق الكون يقول:

(لَا يَسْتَوُونَ)

أين الثرى من الثريّا ؟ أيْ أنّ رجلاً مؤمناً يعرف الله، يعرف أمره ونهيه، يعرف الحلال والحرام، يعرف ما ينبغي، وما لا ينبغي، يعرف ما يجوز، وما لا يجوز، يعرف ما يُرضيه، وما يُغضبه، وهو على المنهج سائر، وعلى الصراط المستقيم، يرجو رحمة ربه، ويخشى عذابه، يأمر بفعل الصالحات، ويخشى فعل السيئات، أيكون هذا المؤمن كالفاسق الشارد التائه، الذي يعبث، يأكل ما يشاء، يلتقي مع من يشاء، يقبض المال الذي يشاء، يكذب ما يشاء، أيكون هذا كهذا ؟

(أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

ليس هناك نسبةٌ تجمع بينهم، فاطمئن إذا كنت مؤمناً صادقاً وفق المقاييس التي أرادها الله عزّ وجل فأنت ملكٌ من ملوك الدنيا، لأن هذه الدنيا دار ابتلاء، دار التواء لا دار استواء، منزل ترحٍ لا منزل فرح..

(أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

كيف لا يستوون ؟

(أَمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة السجدة)

وجهُ عدمِ استواء المؤمن مع الفاسق:

ليست جَنّة، بل جنات تأوي إليها النفس، ليس فيها تقدمٌ في السن، ولا أمراض تصيب القلب، ولا فقر، ولا ولد مشاكس، ولا زوجة لئيمة، ولا مشكلة في الدخل، ولا تجارة كاسدة، كل هذه الهموم الأرضية لا وجود لها في الآخرة..

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

(سورة ق)

الآخرة أساسها أنّك في دار تكريم، وأرقى أنواع التكريم أن تنال كل شيء بمجرّد الطلب، ما إن يخطُر في بالك شيء إلا تراه أمامك، أما الدنيا فلا تأخذ منها شيئاً إلا بأسبابه، الدنيا دار سبب، دار نَصَبٍ، دار تعب، دار هم، دار حُزْن، أغلب الظن أن الإنسان يمضي شبابه في حياةٍ خشنةٍ جداً، فإذا ما وصل إلى الخمسين، واستقرت حياته، وكثر دخله، وامتلك زمام الأمور بدأت مشكلات صحّته، الحياة كلها نَغَص وشاءها الله أن تكون كذلك حتى لا نركن إليها، الله يغار أن تركن إلى الدنيا، لذلك ما إن يراك ركنت إليها إلا وتأتيك المتاعب من أيّ جهةٍ ركنت إليها، قد تظن أن المال يحلُّ كل شيء.. يحل أية مشكلة.. فتفاجأ أحياناً أن من المشكلات ما لا يحله المال أبداً، هذا من أجل أن تعتمد على الله لا على مالك، من اعتمد على ماله ضل، من اعتمد على قوته زل، أما إذا اعتمدت على الله عزّ وجل لا ضَلّلت ولا زللت..

(أمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة السجدة)

(ادْخُلُوا الْجَنّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

العمل الصالح مفتاح الجنة:

لا أقول: العمل الصالح ثمن الجنة، ولكنه مفتاح الجنة، لأن الجنة محضُ فضلٍ، لكن مفتاحها العمل الصالح، وقد قال الإمام جعفر رضي الله عنه: **" ادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم ".**
إنّ الطالب إذا وعده أبوه إذا نجح نجاحاً متفوقاً أن يشتري له درّاجة، فالطالب يكون جاهلاً إذا توجّه من المدرسة، ومعه الجلاء ناجحاً إلى بائع الدراجات وقال له: أعطني هذه الدراجة، وهذا جلائي، فالبائع يطرده، ويقول له: ائتي بثمنها، أما إذا ذهب إلى أبيه، وأطلعه على الجلاء اشترى له أبوه هذه الدرّاجة، فالنجاح ليس ثمن الدراجة، ولكنه مفتاحٌ لشراء الدراجة، مثلاً، فإذا ظننت أن العمل الصالح هو ثمن الجنة، فهذا شيء غير صحيح، لكنه مفتاح الجنة، لأن الجنة بفضل الله عزّ وجل، ومفتاحها العمل الصالح..

(أمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (19) وَأَمّا الّذِينَ فَسَقُوا)

الفسق حرية في التصرف الحرام:

كان حُرّاً في الدنيا يلتقي مع من يشاء، يسهر مع من يشاء، مرة في النادي، مرة في الفُندق، مرة مع أهل الاختلاط، هذا المال حلال، حرام، لا يهمه، بل يقول لك: لا تدقق. فهذا حال الفاسق المنحرف الفاجر..

(وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)

(سورة السجدة)

أيها الإخوة الأكارم، هذه الآية من أدقّ آيات هذه السورة:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ

معنى الأدنى والعذاب الأكبر:

العذاب الأكبر هو عذاب جَهَنَّم، أكبر لأنه إلى الأبد، وأكبر لأنه لا يحتمل فما أصبرهم على النار، وأكبر لأنه لا أمل في نهايته، إذاً ربنا سبحانه وتعالى من رحمته بهذا الإنسان لئلا يصل إلى العذاب الأكبر يُذيقه العذاب الأدنى في الدنيا، فكل مصيبةٍ في الأرض من دون استثناء هي عذابٌ أدنى، ولعل هذا العذاب الأدنى يمنع من العذاب الأكبر، فإذا فهمنا المصائب بهذه الطريقة عرفنا أن أكبر مصيبة أن تأتي المصيبة، ولا نتّعظ بها.. من لم تُحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر، أكبر مصيبة أن تأتي المصيبة، وأن نفهمها فهماً أرضياً ساذجاً، وأن نقول: هذا حظي، هكذا الدهر، هكذا حدث لي، هذا فهمٌ غير إسلامي..

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى)

الإنسان بين الاستدراج والمعالجة:

يجب أن تعلموا علم اليقين باستثناء بعض الأشخاص الذين علم الله أنه لا جدوى من دعوتهم إليه..

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ)

(سورة هود: آية " 36 ")

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: آية " 44 ")

إذا رأيت إنساناً غارقاً في النعيم، قوياً إلى أبعد الحدود، غنياً إلى أقصى الدرجات، يتنعَّمُ بكل شيء، وهو مقيمٌ على معصية الله فاعلم أن هذا استدراج، بل إن أغلب الظن أنه خارج العناية المشددة، خارج المُعالجة، إن صحّ التعبير: مقطوعٌ منه الأمل، أما الذي يُعالج، ويُضيّق عليه ففيه خير.

أوحى ربك إلى الدنيا أن تشددي، وتضيّقي، وتكدّري، وتمرري على أوليائي حتى يحبوا لقائي.

إذا رأيت الله عزّ وجل يُتابعك على كل غلطة، على كل معصية، على كل جُنحة، على كل مخالفة، بل على كل خاطر، على كل نيةٍ سيئة يأتيك العقاب عاجلاً، ويُلقى في قلبك أن هذه المصيبة: يا عبدي من أجل هذا، إذا كنت كذلك فاعلم أن الله يحبُّك، فاعلم أنك ضمن المعالجة الإلهية، فاعلم أنه مطموعٌ فيك، فاعلم أنك مرادٌ من قِبل الله عزّ وجل، وإذا أحب الله عبداً عجّل له بالعقوبة، وإذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه، وإذا أحب الله عبداً عاتبه في منامِه.

فأنت بين شخصين: بين شخصٍ مطموعٍ فيه، مرادٍ من قِبل الله عزّ وجل، يُتابع، يُحاسب، يُؤدّب، تُسَاق له الشدائد، يصاب بضيقٍ نفسي، يفقد بعض ماله، هناك من يتسلط عليه، كلما غفلت عن الله عزّ وجل جاءتك الدوافع إليه، تماماً كطفلٍ ترك يدَ أمه، ففاجأه كلبٌ عقور، فلما أقبل عليه عاد الطفل إلى أمه، وهذه مصائب الدنيا كلّها بالأعمّ الأغلب، لذلك:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ)

آية دقيقة جداً:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

مصائب المؤمن محض فضل من الله:

لو كان عقرب على كتف إنسان، وتلقّى هذا الإنسان ضربة من خلفه، لتمنى أن يمزق الذي ضربه إرباً إرباً، فالتفت سريعاً، فإذا عقربٌ كبيرة أصبحت على الأرض بفضل هذه الضربة، ألا ينقلب حقده وضغينته وألمه شكراً وامتناناً ؟ هكذا يجب أن تعلم أن يدَ الله كريمة، يد الله عليمة، يد الله خبيرة، يدُ الله محسنة، وأن كل شيءٍ ساقه الله إليك محضُ فضلٍ، فاعلم علم اليقين، اعلم علم اليقين، اعلم علم اليقين أن كل شيءٍ وقع أراده الله، وأن كل شيءٍ أراده الله وقع، وأن إرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وأن حكمته متعلقةٌ بالخير المُطلق والدليل:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران: آية " 26 ")

لم يقل: بيدك الخير والشر، بل الخير فقط، فالإعزاز خير، والإذلال خير، والعطاء خير، والمنع خير، والإعلاء خير، والخفض خير، كُلُّه خير، خيرٌ واضح وخيرٌ مبطن..

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان: آية " 20 ")

فانتبهوا أيها الإخوة... كل أنواع العذابات في الدنيا هي عذابٌ أدنى، جاء ليقيَكُم العذاب الأكبر، فالسعيد من اتعظ بالعذاب الأدنى، ونجا من العذاب الأكبر، والشقي تأتيه المصيبة فلا يفهمها، يفهمها حظاً أسود، وقدراً يَسْخَر منه، ودهراً قلب له ظهر المِجَن، يفهمها بتفسيراتٍ أرضيةٍ ساذجةٍ سخيفةٍ، ويكون قد فَوَّتَ عليه فرصة التوبة، والعودة إلى الله عزّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة السجدة 032 - الدرس (6-6): تفسير الآيات 23 - 30
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-09-20

بسم الله الرحمن الرحيم

التكذيب سُنّة جارية في الكفار مع أنبيائهم:

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السادس والأخير من سورة السجدة، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ)

(سورة السجدة)

هذه الآية أيُّها الإخوة فيها تسليةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، أيْ أنْ يا محمد إن كنت قد كُذِّبت، وإن كنت قد جَهدت في نشر هذه الدعوة فشأنك شأن الأنبياء السابقين.

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ)

(سورة السجدة: آية " 23 ")

المرية هي الشك.

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ)

(سورة السجدة: آية " 23 ")

فَلاَ تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ:

هذه الهاء على من تعود ؟ أغلب العلماء على أنها تعود على لقاء ما جاء في الكتاب من وعدٍ ووعيد، أي يا محمد إيّاك أن تقنط، إيّاك أن تيأس، شأنك شأن الأنبياء السابقين دعوا إلى الله فكُذِّبوا، وفي النهاية جاء نصر الله، كانوا هم الأعْلَون:

(كَتَبَ اللّهُ لَأَغْلِبَنّ أَنَا وَرُسُلِي إِنّ اللّهَ قَوِيّ عَزِيزٌ)

(سورة المجادلة)

وهذه الآية المؤمنون في كل زمانٍ ومكان أحوج ما يكونون إليها، فلو رأيت أنّك في السلم الأخير، وأن أهل الفسق والفجور في الدرجات العليا من السلم الاجتماعي، يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن العاقبة للمتقين، يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)

شأنك شأن أي نبيٍ سابق دعا إلى الله، كذّبه قومه، استهزءوا به، كفروا به، ائتمروا على قتله، كادوا له، ودارت الأيام وكانت النهاية له، والعاقبة لدينه، والغلبة لأتباعه.

(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ)

أي لا بدّ من أن تلقى وعدَ الله بالنصر، إيّاك أن تشُكّ أيها النبي، فالإنسان في ساعات الشدة، في ساعات الضغط، في ساعات جولة الباطل، قد يضعف، وقد ينكمش:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران)

الضعف قد يكون نفسياً، حينما ترى أنك ضعيف، وأن أهل الباطل أقوياء، حينما ترى أنك فقير، وأن أهل الباطل أغنياء، حين ترى أنك لا حول لك ولا قوة، وأن أهل الباطل بيدهم الحول والقوة فيما يبدو، لا تنكمش، لا تتطامن، لا تشعر أنك رخيصٌ على الله عزّ وجل.

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

(سورة آل عمران)

(إِنّ اللّهَ مَعَ الصّابرِينَ)

(سورة الأنفال)

(وَأَنّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

(أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ)

(سورة التوبة)

المؤمن تجري عليه سنة الله في الأنبياء بالابتلاء والنصر:

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيّد الخلق قد اكفهر حاله، ربنا عزّ وجل في ساعات الشدة، في ساعات التكذيب، في ساعات الاستهزاء، في ساعات الإحباط، وبعد أن ماتت زوجته خديجة، فقد السند الداخلي، ومات عمُّه أبو طالب ففقد السند الخارجي، واشتد إيذاء قريش حتى سُمِّي العام العاشر للبعثة عام الحزن، مَسَحَ الله عنه هذا الحزن في الإسراء والمعراج، عرف مقامه، عرف أنَّه سيد الأنبياء، فقياساً على هذه القصة، قياساً على هذا القانون، وهذه السنة إذا عورضت، إذا كُذِّبت، إذا ضاقت بك الدنيا، إذا اشتد الخصوم، إذا سفّهوا دعوتك، لا تيأس، لا تقنط، لا تضعف، لا تذِل، لا تستخذي، لا تخنع:

(وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة ال عمران 139)

هذه آيات كما قال عنها المفسرون فيها تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، أي إنك لست وحدك أيها النبي، هذا شأن كل نبي، كلهم كذّبوا، كلهم أوذوا، كلهم اتهموا بالسحر، اتهموا بأنهم مجانين، وقالوا: ساحرٌ مجنون، فمن أنت إذا ناقشت إنساناً، إذا دعوت إلى الله، فجاء من سفّهك، وقال: لك مطامح، أنت لك مآرب، أنت لك مرتزق ـ فلا مانع ـ اتهم النبي الكريم بأنه ساحر، بأنه كاهن، بأنه شاعر، بأنه مجنون، فالمؤمن له ميزة، معنويّاته مرتفعة، قد يكون متعباً، قد يكون مُعَارَضاً، قد يكون مكذباً، لكن معنوياته مرتفعة، هذا معنى:

(فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)

(سورة آل عمران146)

الخط البياني لدعوة النبي في الطائف:

أذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام إن كان لدعوته خطٌ بياني، هذا الخط هَبَطَ إلى أدنى درجة بعد أن عاد من الطائف، ففقد زوجته، فقد عمه، كذّبته قبيلته، ذهب إلى الطائف مع سيدنا زيد مشياً على قدمين، في الطائف استهزءوا به، وكذبوه، واتهموه بالسحر وبالكذب، وقال له أحدهم: لو أنك رسولٌ كما تدعي لمزّقت أثواب الكعبة، وحين عاد إلى مكة كان دمه مهدوراً، ولولا أنه دخل مكة في حماية المُطْعِم بن عدي لقُتِل النبي عليه الصلاة والسلام، في هذه اللحظة الحرجة، في هذه النهاية الصُغرى للخط البياني، في هذا الهبوط الشديد قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله ناصر نبيه))

[السيرة النبوية]

هذه ثقته، فأنت كونك مؤمنًا لو أن الناس كلهم فسقوا، لو أنهم فجروا، لو أنهم فهموا الدين فهماً بسيطاً جداً وساذجاً، فهموا الدين صلاة وصياماً فقط، يأكلون المال الحرام، يختلطون مع النساء المُحَرّمات، يفعلون ما يشتهون ولا يبالون، فإذا كانوا كذلك أنت لا تيأس، ولا تقنط، ولا تستخذي، ولا تشعر أنك هينٌ على الله عزّ وجل، الله عزّ وجل لحكمةٍ أرادها فهناك أوقات يجول الحق جولته، وهناك أوقات يجول الباطل جولته، الباطل فيه جولة، وللحق جولات كثيرة.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ)

معنى المرية:

في مِريةٍ: أي في شكٍ..

بعضهم قال: في لقاء الله عزّ وجل.

بعضهم قال: من لقاء ما وَعَدَ الله في كتابه.

بعضهم قال: من لقاء النبي عليه الصلاة والسلام لموسى عليه السلام في رحلة الإسراء والمعراج.

(وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ)

(سورة السجدة)

الآن:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

(سورة السجدة: آية " 24 ")

الإمامة مطلب كبير في الإسلام:

أي أن أعلى مرتبة ينالها الإنسان في الحياة الدنيا أن يسمح الله له أن يكون إماماً للناس، وإنّ الذي يعينك إماماً هو الله عزّ وجل، بدليل قوله تعالى:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

(سورة النور: آية " 36 ")

من شروط الإمامة:

لن يسمح الله لك أن تنطق بلسان الحق، ولا أن تدعو إلى الله إلا بشروط، من هذه الشروط:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

(سورة البقرة: آية " 124 "

1 ـ تطبيق الداعي ما يقوله للناس:

أي لن تستطيع أن تقول كلمة حقٍ، ولا أن تُحْدِثَ أثراً في نفسٍ إلا إذا كنت مطبقاً لما تقول، الآية الكريمة:

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الشورى)

الآية الثانية:

(إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الزخرف)

تهدي إلى صراط مستقيم، وأنت في الوقت نفسه على صراطٍ مستقيم، فما رأى أصحاب النبي شيئاً قاله النبي، ولم يفعله، وما رأوا شيئاً نهى عنه وفعله، ما الذي رفع النبي إلى أعلى عليين ؟ ليس في حياته ازدواجٌ أبداً، ليس في حياته مسافة بين القول والعمل، ما في قلبه على لسانه، وما في لسانه في قلبه.

((تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض بن سارية]

فلذلك أن تكون للناس إماماً هذه مرتبةٌ عاليةٌ جداً، هذه صنعة الأنبياء، لقول الله عزّ وجل:

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

(سورة طه)

ولكن دون هذه المرتبة تتحَطَّمُ أعناق الطامحين.

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

(سورة البقرة: آية " 124 ")

متى جعلتُك إماماً ؟ بعد أن نفّذت الأمر والنهي، وقول الجنيد رحمه الله تعالى حينما سُئِلَ من ولي الله ؟ قيل له: **" أهذا الذي يمشي على وجه الماء ؟ قال: لا.. قالوا: أهذا الذي يطير في الهواء ؟ قال: لا، ثم قال: الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام "**، والآية الدقيقة جداً:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: آية " 13 ")

أيّ شيءٍ آخر لا يدلُّ على أن الله يحبك، لو كنت متمتعاً بصحةٍ جيدة كالحصان قوة، لو ملكت أكبر رصيد في العالم، لو كنت أقوى إنسان في العلم، الله عزّ وجل أعطى القوة لمن لا يحب ولمن يحب، وأعطى المال لمن لا يحب ولمن يحب، ما دام قد أعطى القوة لمن لا يحب، ولمن يحب وأعطى المال لمن يحب ولمن لا يحب، إذاً لا يمكن أن تكون القوة ولا المال، ولا الجمال ولا الذكاء مقياساً لرضاء الله عنك، المقياس الدقيق الذي ورد في كتاب الله:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

إذاً لن يَسْمَحَ الله لك أن تكون إماماً إلا إذا كنت عند الأمر والنهي:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

2 ـ الصبر:

المقياس الثاني ورد في هذه الآية:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة)

بعد أن تصْبِر ؛ يا رب أصبر على ماذا ؟ تصبر عن الشهوات التي نهى الله عنها، وتصبر على الطاعات التي أمر الله بها، وتصبر على فعل الله التكويني، فلو جعلك عقيماً فهذا قضاء الله وقدره، ومرحباً بقضاء الله وقدره، جعل لك دخلاً محدوداً، جعلك بشكلٍ أو بآخر، جعلك تولَد من أبٍ معيَّن وأمٍ معينة، هذا قضاء الله، فيجب أن تصبر عن الشهوات، وعلى الطاعات، وعلى قضاء الله وقدره، لذلك أن ترضى عن الله علامة إيمانك، أن ترضى عن الله عزّ وجل علامة معرفتك بالله عزّ وجل، لذلك لما كان الإمام الشافعي حول الكعبة وسمع أحد الطائفين يقول: يا رب، هل أنت راضٍ عني، فقال له: وهل أنت راضٍ عنه حتى يرضى عنك ؟ فقال: من أنت يرحمك الله ؟ قال: أنا محمد بن إدريس الشافعي، قال: كيف أرضى عنه، وأنا أتمنى رضاه ؟ قال: إذا كان سرورك بالنِقمة كسرورك بالنِعمة فقد رضيت عن الله.

إذاً المقياس الثاني:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

أول مقياس:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

3 ـ عدم طلب الأجر من الناس في الدعوة:

المقياس الثالث:

(يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

(سورة يس)

لا أجراً مادياً، ولا معنوياً، ولا تحقيقاً لمصالح، الإنسان الذي يتنزّه عن أن يكون الدين وسيلة إلى الدنيا، هذا مهتدٍ..

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران: آية " 18 ")

من علامة أهل الحق أنهم يشهدون للناس أن الله قائمٌ بالقسط..

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: آية " 39 ")

هذه كُلُّها علامات أهل الصدق، هذه كلها علامات أهل الحق، هذه كلُّها دلالاتٌ وضعها الله بين أيدينا في كتابه لنعرف الحق من الباطل، والمحق من المُبْطل، والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب، والمخلص من الخائن وهكذا..

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة)

أن تهدي الناس هذا الهُدى ليس على مزاجك، وليس وفق رغبتك، ولا حسب رأيك، يجب أن تَهْدي الناس بأمر الله عزّ وجل وفق الأمر والنهي، لذلك قال أحد كبار العلماء قال: إن عمل الإنسان لا يُقْبَلُ إلا بشرطين ؛ إلا إذا كان خالصاً وكان صواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، فلو كان خالصاً ولم يكن موافقاً للسنة لا يقبل، ولو كان موافقاً للسنة، ولم يكن خالصاً لا يُقبل، إذاً لا بدّ من أن يجتمع شرطان كلٌ منها شرطٌ لازمٌ عندئذٍ يتأكد القبول، إذاً:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً)

أئمة جمع إمام، والإمام يجب أن يكون أمام أتباعه، كلمة إمام وأمام من أصل واحد، الإمام يجب أن يكون في الأمام، أي أمامهم في تطبيق الأمر، وأمامهم في ترك النهي، وأمامهم في التقيّد بالحدود، وأمامهم في فعل الخيرات، وأمامهم في الأمر بالمعروف، يجب أن يكون الإمام أمام أتباعه، وهذا معنى الإمام، وجمع إمام أئمة.

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)

كما قال سيدنا الصديق: إنما أنا مُتَّبع، لا يوجد إنسان بعد النبي عليه الصلاة والسلام بإمكانه أن يقول: اتبعوني.. من أنت ؟ أمّا أن يقول: اتبعوا رسول الله، وأنا أنقل لكم ما قاله النبي فهذا هو الصواب، كما يقول أيضاً، أنا أنقل لكم ما جاء في الكتاب والسنة، أنا أشِفُّ لكم عن حقيقة النبي، فلذلك هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)

إنما أنا متبع، ولست بمبتدع، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، ولِّيت عليكم، ولست بخيركم.. هذه خطبة ألقاها سيدنا الصديق حينما تولى الخلافة، وهي في الحق منهج، لكل داعيةٍ إلى الله عزّ وجل، وقلت لكم قبل قليل:

(لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة: آية " 24 ")

أي صبروا عن الشهوات المُحَرّمة، وصبروا على الطاعات التي كُلِّفَ بها الناس، وصبروا على فعل الله التكويني، فالله عزّ وجل وزّع الحظوظ، وزّع الذكاء بين الناس متفاوتاً، وزّع المال بتفاوتٍ كبير،

وزّع القوة بتفاوتٍ أكبر، هناك أقوياء وهناك ضعفاء، هناك أغنياء وهناك فقراء، هناك أصِحّاء، وهناك مرضى، هناك أذكياء وهناك أغبياء، هناك من منحهم الله جمال الصورة، وهناك من سلبهم الله هذا الجمال، فيهم دميم، وفيهم جميل، وذكي وغبي، وقوي وضعيف، صحيح ومريض، غني وفقير، عالم وجاهل، فهذه الحظوظ، وزعها الله سبحانه وتعالى في الدنيا.. دققوا.. توزيع ابتلاء، أي أن كل واحد منا له مادّة امتحانٍ مع الله، إن كان فقيراً مادة امتحانه مع الله الفقر، هل يرضى، هل يصبر هل يتجمل، هل يتعفف، والغني مادة امتحانه مع الله الغِنى ؛ هل يستخدم هذا المال في سبيل الله، في سبيل إعانة الضعفاء والبائسين، والقول الذي قلته لكم سابقاً: يقف عبدان يوم القيامة فيقول الله لأحدهما: عبدي، أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه، يقول العبد: يا رب، لم أنفق منه شيئاً على أحدٍ مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله عزّ وجل: ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين ؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم، والعبد الآخر يقول: يا رب لقد أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي بأنّك خيرٌ حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله عزّ وجل أنا الحافظ لأولادك من بعدك، إذاً:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

صبروا على الطاعات، وعن الشهوات، وعلى أمر الله التكويني، رأوا أن حظوظهم من الله، من قِبَل خالقٍ حكيمٍ عادلٍ رحيم، فرضوا بها، لذلك كما قال عليه الصلاة والسلام:

((توقّع المصيبة مصيبة أكبر منها))

أنت من خوف الفقر في فقر، من خوف المرض في مرض، أما نعمة الأمن فهي للمؤمن وحده، لقول الله عزّ وجل:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82))

(سورة الأنعام)

فكلمة صبروا، معناها الأول واضح على الطاعات، ومعناها الثاني عن الشهوات، والثالث على نصيبك من الله عزّ وجل، جاءك أولاد غير مريحين، أنت اعتنيت، وبذلت جهداً، وربّيت، ولكن ليسوا في المستوى المطلوب، هذا قضاء الله وقدره، لك زوجة ليست مريحة لك، تتعبك أحياناً، هذه مادة امتحانك مع الله، اجعل حظوظك التي نلتها من الله، أو التي لم تنلها مادة امتحانك، إن أعطاك الله مالاً فمادة امتحانك مع الله المال، وإن حرمك المال حرمانك المال مادة امتحانك مع الله..

المؤمن كما قال الإمام عليٌ كرّم الله وجهه: **" الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ".**

الحقيقة أن هؤلاء الأئمة ـ جمع إمام ـ ما كان لهم أن يهدوا الناس إلا بأمر الله عزّ وجل، بأمره التكويني، وبأمره التشريعي، أي سمح الله له أن يكون إماماً.

شيءٌ آخر، هدى الناس وَفْقَ الكتاب والسنة، أمر الله أن يكون إماماً حينما هدى الناس وفق الكتاب والسنة.

(لَمّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

(سورة السجدة)

4 ـ اليقين:

الحقيقة أن النبي عليه الصلاة والسلام سلك مع أصحابه منهجاً تربوياً رائعاً، في مرحلة مكيةٍ عرّفهم بالله عزّ وجل، ورسّخ عقيدتهم بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، وفي مرحلةٍ مدنية جاء التشريع، فنحن إذا عكسنا الآية أو بدأنا بالثانية لا نحقِقُ الهدف، لا بدّ من أن نعرف الله عزّ وجل، لا بدّ من أن نعرف الله حتى نطبّق أمره، لا بدّ من أن نعرف المُشَرّع حتى نطبق شَرْعه، لا بدّ من أن نعرف الآمر حتى نُطبّقُ أمره، إذاً:

(وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

(سورة السجدة)

أي أيقنوا بحقائق أساسية، أيقنوا بوجود الله، وأيقنوا بوحدانيّته، وأيقنوا بكماله، أيقنوا أن الله موجود، قديمٌ لا أوّل له، وأبديٌ سرمديٌ لا آخر له، هو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، آمنوا بوحدانيته، واحدٌ في خلقه، واحدٌ في ربوبيته، واحدٌ في تسييره، واحدٌ في ذاته، واحدٌ في أسمائه، واحدٌ في أفعاله، واحدٌ في صفاته، وآمنوا بكماله ولله الأسماءُ الحسنى فادعوه بها، هذا اليقين ؛ موجود وواحد وكامل. أما أنت أيها الأخ الكريم فلن تستقيم على أمر الله.. أقول لك هذا الكلام الدقيق.. لن تستقيم على أمر الله إلا إذا أيقنت بأنه موجود، وبأنه يعلم، وبأنّه سيُحاسب، وبأن هناك حياةً أبدية سرمدية، إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها، والدليل قول الله عزّ وجل:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً)

(سورة الطلاق)

أي إذا علمت بأن الله يعلم، وأنه يقدر عليك لابدّ من أن تستقيم على أمره، بل إن الإنسان العادي إذا أيّقن أنّ إنساناً مثلّه لكنّه أقوى منه يطوله علمه، وتطوله قدرته يأتمر بأمره ـ إليك نظام السير فرضاً ـ فلو كنت في مكان، وخالفت الإشارة لضبطت متلبساً بالمخالفة، ولو ضبطت متلبساً بالمخالفة لا بدّ من أن تنال العقاب، لا يمكن إذاً أن تخالف أبداً، إذاً الحقائق الأساسية ؛ الله موجود، الله كامل، الله واحد، الأسماء التي إذا أيقنت بها استقمت على أمره، وهي أن الله عزّ وجل يعلم ويقدر، يعلم ما تفعل، ويقدر

على أن يحاسبك، موجودٌ، ويعلم ما تفعل، وسيحاسبك على ما تفعل وسوف تدومُ الحياة الآخرة إلى الأبد..

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآَيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

(سورة السجدة)

فالذي يطمح أن يسمح له الله أن يكون ناطقاً بلسان الله عزّ وجل، والذي يطمح أن يكون داعيةً إلى الله عزّ وجل، الذي يطمح أن يكون من السابقين، النبي الكريم يقول:

((علو الهمة من الإيمان))

[ورد في الأثر]

الذي يطمح أن يُجْري الله على يده الهُدى، الذي يطمح أن ينطق الله لسانه بالحق، الذي يطمح أن يكون أماماً لا خلفاً، إماماً لا مؤْتَمّاً، هذا هو الطريق، طاعة الله أولاً والصبر على أمره التكويني وأمره التشريعي، الأمر التكويني واحد عطاءً أو منعاً، والأمر التشريعي اثنان أمراً أو نهياً، فإذا أيقنت بوجوده، أيقنت بكماله، أيقنت بوحدانيته ونفّذت أمره وصبرت على قضائه، استحققت أن تكون إماماً، أو داعيةً، أو مرشداً، أو موجّهاً، أما أن يسمح الله لك أن تنطق بالحق دون أن تكون في مستواه فهذا بعيدٌ عنك بُعْدَ الأرض عن السماء.

الفصل في خلافات الناس يوم القيامة:

الآن.. هؤلاء الذين يدعون إلى الله لو اختلفوا، لو وقعوا في خلافٍ فيما بينهم.. أنت على حق، لا، بل أنا على حق، لا أنت مبطل، لا أنا محق، أنت انحرفت، لا أنا لم أنحرف.. هذه الخلافات التي قد تَنشِب بين أئمة الدين، أو بين المسلمين وغير المسلمين، أو بين أهل الأديان، وبين أهل الكفر والطغيان ـ أوسع خلافاً ـ ممكن أن نُقسِّم أهل الأرض إلى من يؤمن بخالقٍ ومن لا يؤمن بخالق، الذين آمنوا بالله اختلفوا فيما بينهم:

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة البقرة)

فقد يختلف..

(هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة السجدة: آية " 25 ")

هو قراره النهائي، يعني وهو يعلم، يعلم من هو على حق، يعلم من هو على باطل، يعلم الكاذب، يعلم الصادق، يعلم الدجّال، يعلم المخلص، يعلم المُسْتَبْصِر، يعلم الأعمى، يعلم الوصولي، يعلم المرتزق

بالدين، يعلم المُبالغ، وكل الحركات والسكنات في علمه، إذاً الله عزّ وجل هو الوحيدُ الذي لا أحد غيره، الذي يحكم يوم القيامةِ على كل إنسان، يقول له: أنت كنت على باطل.

لذلك القرآن الكريم يقدر أنه ليس في الآخرة مُناقشات، ولا تَبَجُّح، ولا مُرافعات، ولا ادعاءات..

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ)

(سورة يس: آية " 65 ")

ففي الدنيا مناظرة جرت بين عالم مسلم وعالم آخر من دين آخر، والمناقشة كان لها صدى كبير، بعد حين الطرف الآخر وقع متلبساً في جريمة زنا، فقال له: علامة صدقي أن هذا الكتاب شفا نفسي.. بعد أن وقع في هذه الجريمة أين الشفاء الذي يدّعيه ؟! فالله عزّ وجل لا بدّ من أن يكشف الإنسان.

أقول لكم هذه الفكرة الخطيرة: بإمكانك أن تخدع الناس إلى أمدٍ قصير، وبإمكانك أن تخدع بعض الناس إلى أمدٍ طويل، أما أن يسمح الله لك أن تخدع الناس دائماً، أو أن تخدع بعض الأشخاص دائماً هذا مستحيل، لا بدّ من أن يُكشَفَ الإنسان على حقيقته، والله سبحانه وتعالى يتولّى كشف الإنسان على حقيقته، والدليل:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران: آية " 179 ")

يخلق ظروفاً صعبة، فهذا الذي يدّعي أنه مؤمن ينكشف، هذا الذي يدّعي أنه وَرِع ينكشف، هذا الذي يدّعي أن محبٌ لله عزّ وجل ينكشف، عن طريق الإغراءات والضغوط، الضغط يكشف والإغراء يكشف.

مثل بسيط: كما تعلمون أن الإسمنت يتحمل قِوى الضغط بشكل كبير، أي أن السنتيمتر المكعب إذا وضع وفق مواصفات دقيقة فإنه يتحمل خمسمئة كيلو، أي إذا صُب الإسمنت بنسبة رطوبة محدودة جداً خمسة وخمسين بالمئة، ومن وزنه ماء بشكل جاف يتحمل هذا السنتيمتر المكعب خمسمائة كيلو، لكن الإسمنت، ويا للأسف لا يتحمل قِوى الشد، لذلك يُسلّح بالحديد، ففي معامل الإسمنت قد يأتي مثلاً إسمنت، ولكن كيف يُفْحَص ؟ تصب منه مكعبات، ويعلّق من أعلى ومن أسفل بكفة ميزان، توضع في هذه الكفة أثقال، فعلى أي رقم ينكسر أو ينقطع فهذه مقاومته.

فإذا أردنا أن نعمِّم هذه الطريقة على المؤمنين، فإن كل مؤمن على وزن ما ينقطع، كل مؤمن على ضغط مُعَيّن من الشهوات أو ضغوط أخرى أو إغراء تجده ترك الاستقامة، الله عزّ وجل في معركة الأحزاب قال:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

وفي المعركة نفسها رجالٌ قالوا:

(وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً)

(سورة الأحزاب)

الإنسان في الأعماق إذا اشتد عليه الضغط كشف عن حقيقة نفسه، قال أحد الأشخاص المحسوبين على أهب الإيمان: " أيعدنا صاحبكم.. لم يقل رسول الله، فليس محمد صلى الله عليه وسلم عند هذا القائل رسولاً، انتهى كرسول في نظره.. وقال: " أيعدنا صاحبكم أن تُفتح علينا بلاد قيصر وكِسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ؟ "، وأناسٌ قالوا: " وصدق الله ورسوله ".

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب)

إذاً الإنسان يُمتَحَن، والآية الكريمة:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت)

هل في الأرض جامعة تقبل من طلابها أن يقدِّموا تصريحاً بعلامةٍ يقترحونها هم ؟! وألا يجري أي امتحان ؟ فكل طالب إذاً يقدِّم كتاباً أنه يستحق بالرياضيات ثمانية وتسعين، ويُمنح هذه الدرجة، هل يحدث هذا في جامعة في الأرض ؟

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

أَيُسْمَحُ لك أن تدّعي أنك مؤمنٌ، والله لا يمتحنك، قل ما شئت، لكن الله سبحانه وتعالى متكفلٌ أن يضعك في ظرفٍ عصيب، وظرفٍ دقيق تنكشف على حقيقتك، تنكشف تماماً كما أنت، لذلك فالإنسان يجهد في تحسين باطنه لئلا يكشفه الله عزّ وجل.. ومن أسرّ سريرةً ألبسه الله رداءها.

إذاً:

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

(سورة السجدة)

معنى آخر للفصل يوم القيامة:

هناك معنىً نضيفه إلى ذلك هو: أن الفصل في كل موضوع للقضاء، ما الفرق بين المُفتي والقاضي ؟ إذا جئت المُفتي تسأله سؤالاً يقول لك: يا بني هذا حرام، هل للمُفتي سلطة أن يحملك أن تَدَع هذا الشيء؟ لا.. أما القاضي إذا احتكمت إليه فلديه سلطة تنفيذية، قال علماء التفسير: **" من لوازم هذه الآية**

أن الله يفصل بينهم يوم القيامة، أي يقول: أنتم على حق، ودونكم الجنة، فادخلوها، وأنتم على الباطل، وعليكم بدخول النار ".

فربنا عزّ وجل لا يكتفي بالفصل، من لوازم الفصل الجنة أو النار، أي عندنا مؤيِّد قانوني، وعندنا تنفيذ، قال:

(أوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ)

(سورة السجدة)

قد يزور الإنسان مِصْر، ويرى الأهرامات، ويرى قبور الفراعنة، وفي ساعة غفلة قد يغيب عنه أن هذه الآثار من الأدلّة الصارِخَة على أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم، وأنهم مضوا إلى أعمالهم يلقون جزاءها..

(النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر)

إن الله عزّ وجل لحكمةٍ أرادها ترك بعض الآثار، ترك في الأرض الآثار، والآثار لتتعظ بها، وأن تشعر أن الله سبحانه وتعالى عاقب هؤلاء الأقوام الذين كفروا، وضلوا، وانحرفوا عقاباً شديداً، لذلك:

(أوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ)

أوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ

أي أما رأوا بأم أعينهم، وهم في طريقهم إلى الشام منازل عاد وثمود ؟ وكذلك الأنباط في الأردن، ماثلة إلى الآن، أصحاب الحجر، ترى البيوت، القصور كلها منحوتة في الجبال..

(وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً)

(سورة الأعراف: آية " 74 ")

إلى الآن موجودة، إذا زار الإنسان القطر الأردني الشقيق بإمكانه أن يصل إلى هذه الآثار، فهذه تدمر أيضاً، وهذه مصر فيها الأهرامات، وهؤلاء الفراعنة، وهؤلاء الرومان، وهؤلاء الإسبارطيون.

(أوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ)

(سورة السجدة)

هنا أفلا يسمعون، أن هذه أخبار..

(أوَلَمْ يَرَوْا أَنّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ)

(سورة السجدة)

مع كل هذا أفلاَ تَسْمَعُونَ

هذاً الدين عقل ونقل، الله عزّ وجل سخّر الكون تسخير تعريفٍ وتكريم، ومنحك نعمة العقل، أعطاك عيناً، وقال: انظر، فأنت مكلفٌ أن تنظر بعينك، وأن تحكم بعقلك، وقد تلا عليك أخبار السابقين، وقال لك: تأمّل، فحينما تأتيك الأخبار يسألك الله عزّ وجل: أفلا تسمع ؟ وإذا دعاك إلى النظر يقول لك: أفلا تنظر ؟ بين أفلا تسمع وأفلا تنظر مسافة كبيرة، فأنت يمكنك أن تتلقى العلم عن طريق السماع، ويمكن أن تتلقى العلم عن طريق النظر، فأنت بالكون تنظُر في آياته، أو تتفكّر في آياته فتعرف الله، وأنت من خلال الأحداث السابقة تستمِعُ إليها، وتتأمّل بها فتعرف الله، ومن خلال القرآن الكريم تتدبّر آيات القرآن فتعرف الله، فلديك ثلاثة مصادر: الكون مصدر، الكون للتفكر، والأحداث للنظر، والقرآن للتدبُّر، وأيٌّ بابٍ يوصلك إلى الله.. والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا)

(سورة السجدة: آية " 26 ")

أي إذا شئت أن تعرف الله من خلال أفعاله، ومن خلال أخبار السابقين.. أي قومٍ انحرفوا أهلكهم الله عزّ وجل، وأي قومٍ استقاموا أعزّهم الله عزّ وجل..

في الأندلس عبرة لمن يعتبر:

لا تبعد كثيراً، المسلمون حينما فتحوا الأندلس، حينما كانوا مطبّقين لأمر الله عزّ وجل جعلهم أقوياء، وجعل خصومهم ضعفاء، وحكموا الأندلس قروناً طويلةً، وازدهر فيها حُكْمُهُم، وحينما مالوا إلى الترف، ومالوا إلى شرب الخمور، واقتناء القيان، وإلى الموشّحات، وما إلى ذلك ألقى الله في قلوبهم الخوف، فتمزقوا شراذم، وقوي عليهم أعداءهم حتى أخرجوهم، وآخر ملك خرج قالت له أمّه عائشة:

ابك مثل النساءِ مُلكاً مضاعا لم تحافظ عليه مثلَ الرجـال

***

القضية واضحة جداً، فالتاريخ في الحقيقة مدرسة، المسلمون حينما طبّقوا منهج الله عزّ وجل رفرفت راياتهم في الآفاق، فلما تخاذلوا، وتهاونوا في شأن دينهم اقتحمهم أعداؤهم، لذلك إذا رأيت شيئاً لا يُرضيك فقل هذه المقولة: **" هان الله عليهم فهانوا على الله "**. وأنت على مستوى فَرْدي، إذا كان أمر الله ليس له أي قيمة عندك، هان الله عليك، لذلك تَحَمّل المتاعب، وتَحَمّل الضغط، وتَحَمّل القهر لأن الله هان الله عليك فَهِنْتَ على الله، ولو أعْزَزت دين ربك لأعزّك الله، لو نصرت دين الله لنصرك الله عزّ وجل..

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد: آية " 7 ")

لاحظ الآيات:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 152 ")

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

((اِحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ))

[الترمذي عن ابن عباس]

فالأمور واضحة جداً.

كن مع الله ترَ الله معك

***

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المائدة: آية " 12 ")

إذاً إما أن تتجه إلى التاريخ فتعرف الله عزّ وجل..

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ)

(سورة السجدة)

مِن مسالك الاعتبار: يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ

أغادير مدينة في المغرب كانت من أفسق المدن في المغرب، يرتادُها السياح من شتّى إيقاع العالم، وفيها نواد عُراة، وفيها نوادٍ ليلية، وفيها موبقات لا يعلمها إلا الله، في ثلاث ثوانٍ أصابها زلزال فأصبحت قاعاً صفصفاً، وكان أكبر فندق فيها، وتُرتكب فيه كل المعاصي، وكان هذا الفندق مكوناً من ثلاثين طابقاً غاص في الأرض كُلِّه، ولم يبق منه إلا لوحته التي على الطابق الثلاثين فوق الأرض، فإذا سار الإنسان في أغادير يرى اسم الفندق على ارتفاع متر واحد، هذه اللوحة كانت في الطابق الثلاثين، بقيت مثل الشاهد على القبور، فعل الله واضح..

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا)

(سورة الكهف: آية " 59 ")

إذا كانت قرية لم يُهلكها الله عزّ وجل، وهي مقيمة على الفجور والآثام فلابدّ أن هناك شيئاً ينتظرها، لأن ربنا عزّ وجل يقول:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

فإذا أردت أن تعرف الله من خلال أفعاله فاقرأ التاريخ، وأعمل نظرك فيه.

فرعون قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

ما مصيره ؟ أدركه الغرق، وقال:

(آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

أبو جهل وأبو لهب ماذا كان مصيرهماً ؟ يا أمية بن خلف، يا شيبة بن ربيعة، يا فلان، ناداهم النبي واحداً واحداً بأسمائهم، قال: **أوجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني وجدت ما وعدني ربي حقا، لقد كذّبتموني، وصدقني الناس، وأخرجتموني، وآواني الناس، وخذلتموني، ونصرني الناس، قالوا: أتخاطبُ قوماً جيفوا !! قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم "..**

فهذا الطريق الثاني طريق الكون:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ)

(سورة السجدة: آية " 27 ")

أي اليابسة، القاحلة التي لا نبات فيها..

(فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ)

الأرض الجرز تخرج الزرع:

تُعَدُّ ظاهرة النبات من أكبر الآيات الدالّة على الله عزّ وجل، إذا تركت التاريخ فعليك بالكون، عليك بظاهرة النبات، وظاهرة الحيوان، وظاهرة الماء، وظاهرة الهواء، والجبال، والليل والنهار، لاحظوا الآية التي تقول:

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (26) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ(27))

(سورة السجدة)

السمع والبصر طريقان إلى الله:

إذاً البصر طريقٌ إلى الله، والسمع طريق إلى الله، إما أن تسمع القرآن وإما أن ترى الأكوان، القرآن كونٌ ناطق، والكون قرآن صامت، وإما أن تقرأ سيرة النبي، والنبي قرآنٌ يمشي، فهناك إذاً قرآن صامت، وهو الكون، وكونٌ ناطق، وهو القرآن، وقرآن يمشي، وهو النبي عليه الصلاة والسلام، الآية الأخيرة:

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(سورة السجدة: آية " 28 ")

سؤال الاستهزاء لا جواب له:

متى ؟ الجواب يوم كذا، فجاء الجواب، قالوا: لأن السؤال سؤال استهزاء، متى يا أخانا؟ والإنسان أحياناً يستهزئ، يسأل متى ؟ أي يستهزئ، فالمُستهزئ لا يُجاب متى..

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

أي يوم يحكم الله بيننا ؟:

(قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

(سورة السجدة)

أيْ لو جاء الفتح، وحُكم على الكفار بالهلاك، عندئذٍ لا ينفع الندم..

(قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ)

أيْ أنّ الإنسان وصل إلى الطريق المسدود..

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ)

(سورة السجدة: آية " 30 ")

دعهم وشأنهم، التفت إلى المؤمنين..

(وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ)

(سورة السجدة)

انتظروا وعد الله ووعيده:

ينتظرون بك الهلاك، ينتظرون لك الهزيمة، ينتظرون لك السوء..

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا)

(سورة آل عمران: آية " 120 ")

أنت انتظر لهم تنفيذ وعد الله عزّ وجل، وهم ينتظرون لك السوء، على كلٍ أعرض عنهم، والإنسان عليه أن يلتفت إلى أهل الإيمان، إلى من فيه خير، إلى من يُرْجى منه الخير، أما المُعانِد المُكابر، المُتناقِض المُستهزِئ، الفاسق الفاجر، فدعك منه والتفت إلى الله عزّ وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (01-18): تفسير الآيات 1 - 3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-09-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية سورة الأحزاب اجتماعيا:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الأحزاب، ولهذه السورةِ أهميّةٌ خاصّة في التنظيم الاجتماعي، يقول الله سبحانه وتعالى في مطلع هذه السورة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

(سورة الأحزاب)

خصوصية نداء الله للنبي بلفظ الرسالة والنبوة دون سائر الأنبياء:

الشيء الذي يَلْفِتُ النظر هو أن الله سبحانه وتعالى خاطب معظم الأنبياء بأسمائهم، فقال:

(يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)

(سورة البقرة: من الآية 35)

وقال:

(يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)

(سورة آل عمران: من الآية 55)

وقال:

(يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ)

(سورة هود: من آية 46)

وقال:

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى)

(سورة مريم: من الآية 7)

فمعظم الأنبياء خوطِبوا بأسمائهم، إلا أن النبي عليه الصلاة والسلام تكريماً له، وبياناً لعظيم شأنه عند الله، النبي وحده لم يُخاطَب باسم ذاته ؛ بل خوطِبَ بوصفه الذي بيّنه القرآن الكريم، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة المائدة: من الآية 67)

ففي الخطاب ليس هناك إلا خطابٌ بألقاب النبي، وبالتعبير الدقيق بأسماء صفاته، الإنسان له اسم ذات، وله اسم صفة، فقد يكون اسم الإنسان سعيداً، وقد تكون صفته طبيباً، مثلاً، فإذا قلنا: يا سعيدُ، خاطبناه باسم ذاته، أما إذا قلنا: يا أيها الطبيب، خاطبناه باسم صفته، فالنبي عليه الصلاة والسلام ـ وهذا شيء دقيق ـ في القرآن الكريم كلِه لم يُخَاطب إلا بأسماء صفاته، ومن أبرز أسماء صفاته أنه نبيّ، وأنه رسول.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ)

(سورة التحريم: من الآية 1)

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة: من الآية 67)

ورود اسم النبي في معرض الإخبار عنه:

وقد يقول قائل: لقد ورد اسم النبي، اسم ذاته في بعض آيات القرآن الكريم، والحقيقة أن الكلام خبر أو إنشاء، فالخطاب هو إنشاء ؛ الأمر، النهي، التمني، التَرَجّي، الاستفهام، الحَضْ، كل هذه الصيغ يجمعها محورٌ واحد وهو الإنشاء، والخبر هو الحديث عن شيءٍ مضى، فالكلام في علم البلاغة يُقسّم إلى قسمين، خبر وإنشاء، فالنبي عليه الصلاة والسلام ورد اسم ذاته في معرض الخبر، ولم يرد في معرض الإنشاء أي الخطاب، فقال الله عزّ وجل:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ)

(سورة الفتح: من الآية 29)

أي أن ربنا سبحانه وتعالى أراد أن يعرّفنا أن هذا الرجل الذي أمامكم، الذي ترونه رأي العين، الذي نشأ بين ظَهْرَانِيكم، هذا الرجل الذي اسمه محمّد هو رسول الله، لا تخاطبوه باسمه، ولكن قولوا له: يا رسول الله، يا نبيّ الله، إذاً: قد ورد اسم النبي لا في معرض الخطاب، أي معرض الإنشاء ؛ ولكن في معرض الإخبار، والإخبار هدفه أن يعرّفنا ربُّنا سبحانه وتعالى أن هذا الرجل الذي تعرفون نسبه، وأمانته، وصدقه، وعفافه، والذي نشأ بين ظهرانيكم أنه رسول..

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

(سورة الفتح: من الآية 29)

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ(144))

(سورة آل عمران)

لم يَرِد اسم رسول الله اسم ذاته (محمد) إلاّ في هاتين الآيتين حصراً، وفيهما أخبر الله سبحانه وتعالى أن هذا الرجل ـ كما قلت قبل قليل ـ الذي تعرفون صدقه، وأمانته، وعفافه، ونسبه، إنما هو رسول الله، تأدّبوا معه، اعرفوا قدره، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوته..

(وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ)

(سورة الحجرات: من الآية 2)

هكذا، وفيما سوى هذين الموضوعين، حتى في الإخبار، ورد اسم النبي باسم صفاته.

مثلاً:

(إِنّ اللّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النّبِيّ يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(56))

(سورة الأحزاب)

(وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقّ أَنْ يُرْضُوهُ)

(سورة المؤمنين: من الآية 62)

لفظ النبوة والرسالة إشعار بالتعظيم وعلوّ الشأن:

آياتٌ كثيرة تزيد على عشر آيات ورد فيها ذكر النبي عليه الصلاة والسلام بأسماء صفاته لا بأسماء ذاته، هذا الموضوع كلّه مُفَادُهُ أن النبي عليه الصلاة والسلام له شأنه الخاص عند الله، وكفاه فخراً أن الله سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض أقسم بعمره الثمين، فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72))

(سورة الحجر)

وقد زكّى الله عقله فقال:

(مَا ضَلّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(2))

(سورة النجم)

وزكّى لسانه فقال:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3))

(سورة النجم)

وزكّى شرعه فقال:

(إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

زكّى بصره فقال:

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى(17))

(سورة النجم)

وزكّاه كلّه فقال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة النجم)

وأقسم بعمره الثمين فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ(72))

(سورة الحجر)

قيمة البحث في خصوصية خطاب الله للنبي بلفظ الرسالة والنبوة:

1 ـ فقدان المثل الأعلى في المجتمع المعاصر:

وبعدُ ؛ فقد يسأل سائل: ما قيمة هذا البحث ؟ كلّكم يرى أن المجتمعات الإسلاميّة مجتمعاتٌ فيها بعض الضَياع، لماذا ؟

يعزو بعض العلماء إلى أن ضياع المجتمع بسبب أن المثل الأعلى فيها قد فُقِد، وإنّ ألفَ خطبةٍ، وألف مقالةٍ، وألف كتابٍ لا يحدث في النفس ما يحدثه المثل الأعلى في نفوس الناس، لأن الأنبياء فعلوا شيئاً لا يصدّق، لأنهم صادقون مع ذواتهم صدقاً لا حدود له، لأن حياتهم ليس فيها ازدواجٌ أبداً، ليس عندهم ظاهرٌ وباطن، ليس عندهم موقفٌ معلن وموقفٌ حقيقي، ليس عندهم شيءٍ للاستهلاك، ليس عندهم حقيقة تخالف غير الحقيقة، إنهم كانوا صادقين، اعتقدوا ما قالوا، وقالوا ما اعتقدوا، فعلوا ما علموا، وعلموا ما فعلوا، فلذلك إذا أردت أن يفتح الله عليك في تعريف الناس بالله عزّ وجل فكن قدوةً ومثلاً أعلى، لأن القدوة والمثل الأعلى من حيث التأثير تفوق في تأثيرها وقوة فاعليّتها أضعافاً مضاعفة من الكلمات البَرّاقة والخُطَب الرنانة..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ (1))

2 ـ بيان عظمة شأن النبي:

أراد الله سبحانه وتعالى أن يبيّن لنا عِظَمَ شأن النبي، والذي يَلفت النظر أيضاً أن الله سبحانه وتعالى يقول في آياتٍ أخرى:

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ(69))

(سورة المؤمنون)

أي أما عرفت قيمة النبي ؟ أما عرفت خُلُقَ النبي ؟ أما عرفت سنّة النبي، أما عرفت أخلاق النبي ؟ إن عرفت أخلاق النبي كان لك نِبْرَاساً، وكان لك مشعلاً وضّاءً، وكان لك قدوةً، وكان لك أسوةً، وكان لك مثلاً.

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران: من الآية 31)

هذا معنى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ (1))

إعرابُ: يا أيها:

وإعراب يا أيُّها: يا أداة نداء، وأي منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نَصب، والهاء زائدة، والنبي بدل من أيّها، هذه صياغة مألوفة في اللغة العربيّة..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ (1))

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(27))

(سورة الفجر)

(اتَّقِ اللَّهَ (1))

المفهوم الصحيح لهذا الأمر الإلهي للنبي: اتّق اللهَ

المعنى الأول:

أولاً: قد يَفْهَمُ إنسانٌ هذه الآية فهماً غير صحيح، فما كل من يقول لآخر: اتق الله، يُفْهَم من هذا الكلام أن المخاطب لا يتقي الله، هناك قاعدةٌ أصوليّة تقول: إنك إذا أمرت من هو مقيمٌ على هذا الأمر فليس معنى أمرك أنه لا يأتمر بهذا الأمر ؛ ولكن معنى أمرك أن تابع هذا الأمر.

فإذا قلت لابنك: اجتهد، وهو مجتهد، معنى اجتهد حصراً، أي استمرّ على اجتهادك، إذا جاء الأمرُ لمن يطبّق الأمرَ فالمعنى الاستمرار والدوام، فإذا قال الله عزّ وجل للنبي عليه الصلاة والسلام:

(اتَّقِ اللَّهَ (1))

معنى ذلك: يا أيها النبي تابع طريق التقوى، استمر على تقواك، كن متقياً دائماً، هذا معنى.

المعنى الثاني:

أن الله سبحانه وتعالى قد يَتَلَطّفُ بالمؤمنين، فيأمرهم من خلال النبي عليه الصلاة والسلام.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ)

(سورة الطلاق: من الآية 1)

مع أنّ النبي عليه الصلاة والسلام لم يطلِّق.

(إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ)

(سورة الطلاق: من الآية 1)

فإما أن يكون الأمر للنبي عليه الصلاة والسلام على صيغة الاستمرار والمتابعة ؛ وإما أن يكون أمراً للمؤمنين من خلال أمر النبي عليه الصلاة والسلام، هذا معنى أن يخاطب الله نبيّه فيقول:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

معنى التقوى لغة واصطلاحا:

1 – المعنى اللغوي:

ولكن ماذا تعني كلمة اتق الله ؟ اتق فعل أمر، الماضي وقى، يَقي، ق، إذاً: وقى مضارعه يقي، وأمره ق، حرف القاف فقط فعل أمر، لكن اتق ماضيه اتّق، ومضارعه يتّقي، والأمر اتّق، فاتقى على وزن افتعل، وافتعل فيها معنى المبالغة.

2 – المعنى الاصطلاحي:

أي بالغ في وقاية نفسك من غضب الله، بالغ في وقاية نفسك من سخط الله، بالغ في وقاية نفسك من عقاب الله، اتق الله، اتق غضبه بإرضائه، اتق عقابه بطاعته، اتق سخطه باتباع رضوانه، وكيف يُتَبَع رضوان الله ؟ في طاعته، فكلمة اتّق الله تعني أطع الله، بشكل مختصر.

مستويات التقوى:

ولكن هذه الطاعة لها مستويات:

المستوى الأول:

من مستويات هذه التقوى أن تطلع على أمرٍ من أوامر الله..

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(30))

(سورة النور)

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا)

(سورة البقرة: من الآية 83)

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(34))

(سورة فصلت)

إذاً: طاعة الله بامتثال أمره، واجتناب نهيه، والوقوف عند حدوده، والحكمة ؛ أن تفعل الشيء المناسب، في الوقت المناسب، في القدر المناسب، في المكان المناسب، مع الشخص المناسب، فأن تأتمر بأمره، وأن تنتهي عن نهيه، وأن تقف عند حدوده، وأن تكون حكيماً في فعلك الذي يوافق الشرع، فهذا معنى:

(اتَّقِ اللَّهَ (1))

المستوى الثاني:

ولكن هناك مستوى آخر للتقوى، فأنت إذا وقفت أمام مجموعة قارورات فيها مواد كيماويّة، كُتِبَ على لاصقة كل قارورة اسم المادّة التي تحتويها القارورة، فأنت عرفت أن هذا صوديوم، وهذا في الماء يغلي، وأن هذا زئبق، وهو معدن غالٍ جداً، وأن هذا المعدن سام، وأن هذا المعدن رخيص، أنت عرفت خواصّ المواد من خلال اللاصقات، هذه درجة، لكن لو جئنا بإنسان خبير أعطيناه هذه القوارير بما فيها من مواد فمن دون لاصقات يعرفها، ويقول: هذا زئبق، وهذا صوديوم، وهذا كلور، يشمُّ رائحته، فلذلك إما أن تعرف الشيء بالتعريف به ؛ وإما أن تعرف الشيء بنور الله عزّ وجل.

فالتقوى درجات أوّلها أن تقرأ أمر الله، وتقول: هذا حلال وهذا حرام، هذه درجة، وأرقى من هذه الدرجة أن تتصل بالله عزّ وجل، فيقذف الله في قلبك نوراً ـ كما قال الإمام الغزالي: **بهذا النور ترى الحقّ حقّاً والباطل باطلاً، ترى الخير خيراً والشر شراً، ترى الصحيح صحيحاً والخطأ خطأً**، لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد: من الآية 28)

فإذاً:

(اتَّقِ اللَّهَ)

من بعض معانيها أطع الله، هذا أمر فامتثِله، وهذا نهي فابتعد عنه، وهذا حدٌ من حدود الله فلا تقربه، هذا معنى:

(اتّق اللهَ)

المعنى العام للتقوى: اتق الله وأطعه في كل شيء:

وهناك معنىً آخر: أي انظر بنور الله، لو فرضنا خطبت فتاتين، الأولى من أعلى مستوى من المستويات التي تطمح إليها، ولكن في دينها رقة، دينها رقيق، والثانية مستواها أقلّ، ولكن في دينها قوّة، فإذا نظرت إلى الفتاتين بنور الله تختار صاحبة الدين..

((من تزوّج المرأة لجمالها أذلّه الله، من تزوّجها لمالها أفقره الله، من تزوّجها لنسبها زاده الله دناءةً فعليك بذات الدين تربت يداك))

[ورد في الأثر]

((تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))

[صحيح البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

فإذا أردت الزواج، ونظرت بنور الله عزّ وجل تختار الدَيّنة، ذات الدين على ذات الجمال، وإذا عُرِضَت عليك شراكة، أرباحٌ طائلة، وأعمالٌ كثيرة، وسوقٌ رائجة، ومركزٌ تجاريٌّ رفيع، لكن هذه البضاعة محرّمة بل فيها شبهة، وإنّ بعض دخلها حرامٌ، وهناك عمل آخر أقلّ مردوداً، أقلّ شأناً، أقلّ فائدة لكنّه حلالٌ مئة في المئة، فإذا نظرت إلى هذين العملين بنور الله تختار الأقلّ دخلاً، والأقلّ شأناً، لأنه أكثر صلاحاً وانطباقاً للشرع، فاتق الله.

إذا دخلت إلى بيتين، بيتٍ فخمٍ جداً، وبيتٍ متواضع جداً، وعلِمت أن صاحب البيت الأول قد جمع هذا المال من طرقٍ لا ترضي الله عزّ وجل، فنظرتك إليه نظرة المرتاب، إنسان توفي، وترك أولاداً خمسة، أحد أكبر الأخوة اغتصب مال الأبِ كلّه، واشترى هذا البيت وأثّثه، وزيّنه، ثم دخلت إلى بيت رجلٍ آخر متواضعٍ جداً، وعرفت أن صاحبه مستقيم، وأن هذا البيت اشتراه بمالٍ حلال، فإذا نظرت بنور الله تقدِّر الثاني، وإذا نظرت بعين الدنيا تقدِّر الأول.

فمعنى:

(اتّق اللهَ)

أي دائماً انظر بنور الله في ؛ كسب المال، في إنفاق المال، في اختيار الزوجة، في اختيار العمل، في اختيار الأصدقاء، قد يكون لك صديق ذو شأن، وله مكانة، ويده تطول، وتعلِّق آمالاً كبيرةً على صداقته، وتعلِّق آمالاً في الانتفاع منه ؛ ولك صديقٌ آخر أكثر علماً وتقىً، وصلاحاً، فإذا نظرت بعين

المصلحة إلى هذين الصديقين تختار الأول لغناه، ولعِظَم شأنه ولقوّته، وإذا نظرت بنور الله تختار الثاني، لأنك تستفيد من علمه، ومن أخلاقه، ومن تقواه، فدائماً ربُّنا سبحانه وتعالى جعل الحياة الدنيا على شكلٍ عجيب، الشيء الذي يَبْرُقُ أمام الناس قد لا يرضي الله، والشيء الذي ليس له بريق قد يكون الخير كلّه كامناً فيه، فإذا قرأت قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

المعنى الأول: أي أطع الله، أطعه ؛ هذا أمر طبّقه، هذا نهي اجتنبه، هذا حَد لا تقربه، هذا معنى. المعنى الثاني:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

أي انظر بنور الله، قيّم الأشخاص، قيّم الدخول، قيّم الأعمال، لو فرضنا أن عملاً يُدِرّ على صاحبه مئات مئات الألوف، والبضاعة محرّمة، فإذا نظرت إلى هذا العمل بعين المصلحة ربّما أقبلت على هذا العمل، أما إذا نظرت إلى هذا العمل بنور الله أحجمت عنه.

إذاً المعنى في هذه الآية:

(اتَّقِ اللَّهَ (1))

المعنى الأول: أطع الله، هذا أمرٌ، وهذا نهيٌ، وهذا حدٌ.

والمعنى الثاني:

(اتَّقِ اللَّهَ (1))

أيْ انظر بنور الله، أي في اختيار شريكة حياتك، في اختيار عملك، في اختيار جيرانك، فقد تشتري بيتاً بثمن رخيص، وبمواصفات جيّدة، ولكن له جيران بعيدون عن الله عزّ وجل، بل إن في أخلاقهم خللاً، فأنت لك بنات ولك أولاد، وربّما سرت العدوى إلى بيتك، إذاً: اتق الله، ولو أنه بيتٌ كبير، وله مناظر مشرفة ؛ لكن الجوار لا يرضي الله عزّ وجل، ابحث عن جيران أفاضل أكارم يتّقون الله عزّ وجل، فالمؤمن مأمور أن يتّقي الله، أن يطيعه أولاً، وأن ينظر بنوره ثانياً في كل مناحي حياته.

دخلت إلى البيت مثلاً، فرأيت شيئاً لا يروق لك من زوجتك، فاتق الله، فهذه الزوجة يمكن أن تصلحها؛ بحلمٍ، برقّةٍ، بكلمةٍ، بموعظةٍ، بإعراضٍ، بتأديبٍ، أما إذا أخذتك الحَمِيَّة، وطلّقتها بالثلاث، ونقعت غُلّتَكَ بهذا الطلاق، بعدئذٍ تعالَ إلى العلماء تسألهم واحداً وَاحداً عن طريقةٍ تفدي بها يمين الطلاق، فأنت يا أخي اتق الله في الأول.

دائماً هناك سؤال كبير: أين عقلك ؟ أوضح مثل: لو أنه مكان معك جهاز إليكتروني تكشف به العملة المزيّفة، وقبضت مبلغاً من المال كبيراً ثمن بيتك، ولا تملك إلا هذا البيت، والآن صار عُمْلَة، فإذا بهذه العملة كلّها مزيّفة، والجهاز في جيبك، وأنت لم تستخدم هذا الجهاز حين القبض، فماذا يقال لك ؟ يقال

لك: أين عقلك ؟ معك جهازٌ يكشف زيف العملة من جَيّدها، لِمَ لمْ تستخدم الجهاز ؟ والإنسان أكرمه الله عزّ وجل بهذا العقل..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

بالمناسبة، سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام قال الله عنه:

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81)وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ(82))

(سورة الشعراء)

هذه كلماتٌ دقيقةٌ جداً، أيْ أن الله سبحانه وتعالى وحده يخلُق ويهدي، ويرزق ويشفي، ويُحيي ويميت، ويغفر، الله سبحانه وتعالى وحده متفرّدٌ بالخَلق، وبالهداية، وبالرزق، وبالشفاء، وبالإحياء، وبالإماتة، وبالمغفرة يوم القيامة، فما دام الله مُتَفَرّداً في كل هذا فهل هناك أشياء أخطر من هذه الأشياء في حياتك؟ أن تُخْلَق، وأن تُهدى، وأن تُرزَق، وأن تُشفَى، وأن يحيا الإنسان، وأن يموت، وأن تُغْفَر له ذنوبه، ما دام الله متفرّداً بهذه الأفعال الخطيرة في حياتك فمن باب أولى أن تفرده بالطاعة، والعبادة، والحب، والإخلاص، وما إلى ذلك..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ(1))

التقوى والطاعة أمران متلازمان:

هذان أمران متكاملان، أي أطع الله، ولا تطع الكافرين والمنافقين.

سبب نزول الآية:

جاء في أسباب النزول أن كفّار قريش عرضوا على النبي صلى الله عليه وسلّم أن يكفّ عن آلهتهم، وأن يعتقد أنهم يعبدونها من دون الله لتقرّبهم إلى الله، وهم في المُقابل يكفّون عن محاربة دعوته، وعن إيذائه، وعن أي شيءٍ آخر، أي أنها مصالح متبادلة، افعل كذا نفعل كذا، تسامح معنا في هذه الموضوعات نَدعْك وشأنك في هذه الدعوة، فهؤلاء الكفّار هذا عرضهم، والمنافقون أيّدوهم، فقال الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(1))

النقطة الدقيقة هي: أن الله سبحانه وتعالى وحده ينبغي أن تطيعه، وأن ما سواه، أعرض عنه:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف)

الإنسان بين منهج الخالق وتعليمات المخلوق:

أنت أمام منهجين ؛ منهج الخالق وتعليمات المَخلوق، منهج الله ومنهج البشر، توصيةٌ من الله أن تفعل كذا، وتوصيةٌ من زيدٍ أو عُبيد أن تفعل كذا، فما في تناسب، ليس هناك تناسب بين خالقٍ ومخلوق، بين قديمٍ ومُحْدَث، بين قويٍ وضعيف، بين غنيٍ وفقير، بين عالمٍ وجاهل، بين مُحِبٍ ومبغض، فالشيء العجيب أن يدع الإنسان هدى ربّه، وأن يتّبع هوى نفسه، أو أن يتّبع توجيهات مجتمعه.

إسقاطات على الحياة اليومية:

المثال الأول:

بعض الأمثلة التي تنبع من حياتنا: الله عزّ وجل يأمرك أن تغضّ البصر، ويأمرك ألا تكون في مكانٍ فيه اختلاط، وفيه نساءٌ كاسياتٌ عاريات، وبعض الأشخاص يستحيون من الناس في أعراسهم، ويجلسون أمام النساء الكاسيات العاريات وهم مسلمون، ماذا فعل ؟ إنه رأى أن طاعة الناس أولى من طاعة الله.

بالمناسبة، هذه الكلمات التي يرددها المسلمون: الله أكبر مثلاً، لا إله إلا الله، سبحان الله، الحمد لله، فهذه الكلمات لو وقفنا عند معانيها الدقيقة لأخذنا العَجَب العجاب، فالله أكبر، فأي إنسانٍ يطيع مخلوقاً، ويعصي خالقاً فهذا لم يقل: الله أكبر حقيقة، ولا مرّة، ولو قالها ألف مرة، فهي مجرد مقولة لسان.

المثال الثاني:

حينما تطيع زوجتك وتعصي ربّك، ماذا رأيت ؟ رأيت أن طاعة الزوجة خيرٌ من طاعة الله، وأن غضب الزوجة شرٌ من غضب الله، هكذا، لمجرّد أن تطيع مخلوقاً وتعصي خالقاً معنى هذا أنك أشركت، لذلك:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ (1))

أيْ أطع الله أولاً، والمعنى الأرقى: انظر بنور الله.

(وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ (1))

إيّاكم وطاعة الغافلين !!!

إيّاك أن تطيع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا، إنسان أعمى يُطاع ؟ إنسان جاهل يُطاع ؟ لا والله، إنسان له مصلحة ماديّة يُطاع ؟ لا والله، إنسان مُبغض يطاع ؟ لا والله، فالكافر والمنافق أولاً في جهل، وفي مصالح، وفي بُغض، وفي حِقد، وفي حسد، ودائماً المقصِّر يحبُّ أن يقصِّر الناس جميعاً.

الآن اسأل طالباً أهمل وظيفته يقل لك: لم نكتب الوظيفة يا أستاذ، أنت واحد، فلِمَ تقول: لم نكتب، بصيغة الجمع، إنه يستأنس كلّما كثُرَ المقصِّرون، دائماً العاصي يحب أن يعصي الناس كلهم، اسأل شخصاً مقيماً على معصية تجد أنه ينصحك فيها: أخي ما فيها شيء، لا تتزمّت، لأنه خرق حجب الاستقامة من هذه الناحية، دائماً العاصي ينصحك بالمعصية، المقصِّر ينصحك بالتقصير، الذي يطلق بصره في الحرام ينصحك بأن هذا الشيء فوق طاقة البشر يا أخي، أين أذهب بعيوني ؟ فالمؤمن الصادق لا يمكن أن يستنصح كافراً، ولا منافقاً، ولا مقصِّراً، ولا متلبساً بمعصية، لأن الجواب معروف، فهو سوف ينصحك بما هو فيه، فأنت أمام توجيهين، أمام منهجين، أمام قانونين، أمام دستورين، أمام توصيتين، توصية الخالق وتوصية المخلوق، والخالق أولى.

هل من الممكن إذا كنت جندياً بثكنة عسكرية، وجاء لك أمر من عريف، وأمر مناقض ممن هو أعلى رتبة، هل من المعقول أن تنصاع لأمر العريف، وتُغضِب الأعلى رتبة ؟ يقول لك: عماد أو عميد، هل هذا كهذا ؟ أيعصى الله عزّ وجل، ويطاع مخلوق ؟! هذا ما قاله الله عزّ وجال في الحديث القدسي:

((إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويُعبَد غيري، وأرزق ويشكر غيري))

[الجامع الصغير عن أبي الدرداء]

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(1))

إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

العلم والحكمة صفتان لذات الله وتشريعاته وأفعاله:

أي أنه " **عليماً** " في تشريعاته، " **حكيماً** " في أفعاله، العليم يُطاع، والحكيم يُطاع، والقدير يُطاع، والغني يُطاع، والمُحِب يُطاع، والعادل يُطاع، واللطيف يُطاع.

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا (1))

فيما أمر.

(حَكِيمًا (1))

فيما فعل، الله عزّ وجل له أمر تكليفي، وأمر تكويني، يأمرك بغض البصر هذا أمر تكليفي، ينهاك عن الكذب أمر تكليفي، والأمر التكويني كأن يسوق لإنسان مصيبة، هذا أمر تكويني، جعله عقيماً، جعله ذا عيالٍ كثير، جعل نسله من البنات فقط مثلاً، فهذا أمر تكويني.

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا (1))

في أمره التكليفي، وكان حكيماً في أمره التكويني، فأنت إذاً أطع الله، لأنه العليم فيما أمر، الحكيم فيما فعل، فعله حكمة، أي أن كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وأفعاله متعلِّقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق، فهل من الممكن أن يتوازى أمر البشر مع أمر خالق البشر ؟

(يَا أَيُّهَا النّبِيُّ اتّقِ اللّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1) وَاتّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبّكَ(2))

وجوب الانقياد إلى الوحي وتعليماته:

أنت آلة معقّدة، ولها تعليماتٌ من الصانع، فهناك آلة كمبيوتر مثلاً، جهاز معيّن معه تعليمات، فهل من المعقول هذا الجهاز المعقّد الغالي، وثمنه ثلاثون مليونا، كمبيوتر، فهل تذهب إلى جارك الخضري، وتأخذ منه تعليمات التشغيل ؟ لو أعطاك تعليمات ستكون مضحكة، فكل إنسان له قدر عند الله، ولكن هذا ليس اختصاصه، فهل من الممكن أن تتلقّى تعليمات تشغيل كمبيوتر من إنسان جاهل ؟ من إنسان لا يفقه ما هذا الجهاز ؟ وأنت أغلى على الله من هذا الجهاز، أنت أعقد مخلوق في الكون، هل من الممكن أن تتلقّى التعليمات من جهات جاهلة ؟ من جهات مغرضة ؟ من جهات لها مصلحة.

(وَاتّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ (2))

الوحي كمالٌ مطلَق لا نقص فيه:

لأن الوحي:

(مَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى(3)إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(4))

(سورة النجم)

الوحي ما فيه خطأ أبداً، الوحي فيه حقٌ مُطْلَق، فيه كمالٌ مطلق، فيه عدلٌ مطلق، كما قال بعض العلماء: **" الشريعة عدلٌ كلها، مصلحة كلها ـ لصالح البشر، أي أن مصلحتك الحقيقيّة في الشرع، في الزواج، في الطلاق، في العمل ـ الشريعة رحمة كلها، الشريعة عدلٌ كلها، مصالح كلها، وكل أمرٍ خرج من العدل إلى نقيضه، ومن المصلحة إلى ضدِّها، ومن الرحمة إلى خلافها، فليس من الشريعة ولو أُدْخِل عليها بألف بابٍ وباب ".**

يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا الشرع رحمة كله، مصلحةٌ لك، ولأسرتك، ولأولادك، ولمجتمعك، ولبلدك، ولأمّتك كلِّها، ورحمةٌ كلُّه، عدل ورحمة ومصلحة، وكل أمرٍ خرج من الرحمة إلى خلافها، من العدل إلى نقيضه، من المصلحة إلى ضدِّها، فليس من الشريعة، ولو أُدخِل عليها بألف تأويلٍ وتأويل، مهما حاولت أن تقول: هذا من الشرع فهو ليس من الشرع ما دام خلاف المصلحة، خلاف مصلحتك، خلاف المنطق، خلاف الواقع، خلاف الفطرة، خلاف العقل، خلاف النقل، ليس هذا من الشريعة، ولو أُدْخِلَ عليها بألف تأويلٍ وتأويل.

إذاً:

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(2))

هذا ما تفعله قوانين البشر !!!

سمعت في بعض البلدان أنهم أرادوا أن يضعوا تشريعاً وضعيّاً للعلاقات الشخصيّة، فألزموا كل متزوّج إذا أراد أن يطلِّق امرأته أن يعطيها نصف ما يملك حصراً، فإنسان عنده معمل، إنسان عنده أرض، عنده بناء، إذا أراد أن يطلِّق زوجته فعليه أن يعطيها نصف ما يملك، هذا قانونٌ وضعيٌّ وضِعَ في بعض البلدان الإسلاميّة، تقليداً للمناهج الوضعية المطبّقة في بلادٍ لا تؤمن بالله عزّ وجل، ما الذي حصل؟

الذي حصل أن سوق الزواج بار، فمن خلال مئة شاب لا يقدم على الزواج شابٌ واحد، لأنه خلاف الشرع، فسمعت أن آباء الفتيات كانوا يعرضون على أولياء الشباب سندات قانونيّة بمبالغ طائلة، أنه لو طلّقها يستحقُّ هذا السَنَد، ليتلافى الزوج كتابة نصف ماله لزوجته، فبسبب تعديل طفيف بقانون الأحوال الشخصيّة خلاف الشريعة بارت سوق الزواج وانتهت.

فعندما يشرّع ربنا عزّ وجل وهو حكيم خبير، يجعل للمرأة مهراً عند الطلاق تستحقُّه، أما أن تستحقّ نصف ما يملك زوجها هكذا، صار هناك طلاق كيدي، فبارت سوق الزواج، فيجب أن تعتقد أن أي انحرافٍ عن منهج الله عزّ وجل له مضاعفات خطيرة على أي مستوى تشاء..

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(2))

معنى الخبير:

كلمة خبير أبلغ من عليم، العليم يرى أما الخبير يعرف الدوافع، أنت قد تعلم أن هذا الإنسان أعطى فلاناً هذا المبلغ، هذا علم، أما الخبير فأن تعرف النيات التي وراء هذا الإعطاء، تعرف المقاصد البعيدة، تعرف طبيعة هذا الإنسان، جِبِلَّتَهُ، تعرف الصراع الذي جرى في نفسه، تعرف لماذا أحجم ؟ لماذا أعطى ؟ فربنا عزّ وجل يقول:

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(2))

لديه خبرة، فأنت مكشوف، كل نوازعك، كل صراعاتك، كل مطامحك، كل أهدافك، كله مكشوفٌ عنده.

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (3))

من إشارات الآية ومفهوماتها:

وجود المعارضين لمتّبعي الوحي وأمثلة ذلك من واقع الناس:

هنا إشارة، أي أنك إذا اتبعت ما يوحى إليك هناك من يعارضك، هناك من يكيد لك، هناك من يحاول أن يطفئ نور الله عزّ وجل، هناك من يفعل شيئاً لا يرضيك، لأن معركة الحق مع الباطل معركة أزليّة أبديّة، ما دام هناك حق هناك باطل، وما دام هناك حق وباطل فهناك صراعٌ بينهما، فإذا اتبعت منهج الله عزّ وجل ربّما عاداك أقرب الناس إليك، يمكن أن تكون زوجتك، يجرحك من كلامها: تقول ما كنت هكذا، أنت تغيّرت، ما هذا دينك السميك ؟ يمكن أن يكون أولادك، ألا يتحمّلوا، وكذلك جيرانك، شركاؤك، وأقرب الناس إليك، فعندما يفهم الإنسان الإسلام فهماً اجتماعياً، عواطف دينيّة فقط، فالقضيّة سهلة ومحتملة ؛ أما حينما يطبّق الإسلام تطبيقاً حقيقياً ينشأ من هذا التطبيق المتضرّرون، المعارضون، فينشأ حوله مشكلة، فإذا أراد الإنسان طاعة الله عزّ وجل فلا يتوقّع أن الطريق ورود ؛ بل يتوقعٌ أن الطريق فيه متاعب وأشواك.

إذا كنت في شركة، وأردت أن تطبّق أمر الله عزّ وجل، الشركاء لا يرضون عن ذلك، هنالك أرباح طائلة سيجنيها الشركاء من بعض الأساليب غير المشروعة في كسب المال، فإذا قلت: أنا لا أوافق على هذا الشيء، فبالطبع تنتهي الشركة، و يتفاصل الشركاء، فدائماً وطِّن نفسك أن طاعة الله لها ثمن، ولا

يمكن أن تجمع بين الدنيا والآخرة ببساطة.. لأن من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته، ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه.. هذا ليس تشاؤماً، ولكن من طبيعة الأمور أنك إذا أردت أن تقيم منهج الله عزّ وجل فهناك معارضون، هناك متضرّرون، هناك من يُسَفِّه هذا الاتجاه، هناك من يقف في طريقك، هناك من يكيدُ لك، جاء في الآية الكريمة:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (3))

من نتائج وجود المعارضين: التوكُّل على الله وحده:

أي أن أقوى جهة في الكون توكّل عليها، الله معك، فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ (3))

لذلك ورد في بعض الأحاديث أنه:

((إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك))

[ورد في الأثر]

ألا تحبُّون جميعاً أن تكونوا أقوى الناس، وأكرم الناس، وأغنى الناس ؟ عليكم بطاعة الله عزّ وجل.

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (3))

والله لو توكّلتم على الله حقّ التوكّل، والله الذي لا إله إلا هو لزوال الكون عندئذٍ أهون على الله من أن يتخلّى عنكم.

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيّته، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيّته، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

وفي الحديث:

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا قُدِّرَ لَهُ))

[سنن الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

و يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ في الحديث القدسي:

((مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[سنن الترمذي: عَنْ " أبي سَعِيدٍ "]

" أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد، لي عليك فريضة، ولك عليَّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلِّطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريّة، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً ".

إذاً:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (3) مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ(4))

هذه الآيات إن شاء الله نشرحها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (02-18): تفسير الآيتان 4 - 5
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-10-04

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الأحزاب، في الدرس الماضي الآية الكريمة التي في سورة الأحزاب، وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا(3))

(سورة الأحزاب)

المناسبة بين الآية الأولى وما يليها من الآيات:

وجوب التقوى والطاعة المقرونة بالإخلاص:

قبل أن ننتقل أيها الأخوة إلى متابعة الآيات التي تتلو هذه الآية، لابدّ من وقفةٍ متأنيةٍ حول العلاقة بين قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(1))

وقوله تعالى:

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا(3))

أولاً: حينما قال الله عزّ وجل بعد أن أمر النبي، بل أمر المؤمنين من خلال النبي عليه الصلاة والسلام، بعد أن أمر الله المؤمنين من خلال النبي أن يتقوا الله، وألا يطيعوا الكافرين والمنافقين قال:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1))

أي عليماً بما تنطوي عليه قلوبكم حينما تطيعون، لماذا تطيعون ؟ ما النوايا التي وراء الطاعة ؟ قال عليه الصلاة والسلام في حديث متواتر، ويعد هذا الحديث أصلاً من أصول الدين:

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[من سنن أبي داود عن عمر بن الخطّاب]

فالطاعة أيها الأخوة قيمتها بما تنطوي عليه من إخلاص.

(وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ)

(سورة البينة: من الآية 5)

من الظاهر العبادة، ومن الباطن الإخلاص، فالمؤمن لو أنه اتقى الله عزّ وجل فيا ترى ماذا ينطوي في نفسه ؟ ماذا يخبّئ في نفسه ؟ ما الهَدف الذي يبتغيه ؛ السمعة، أم طاعة الله عزّ وجل ؟ ما نوع إخلاصه؟ ما درجة إخلاصه ؟ فحينما أمرك الله عزّ وجل أن تتقي الله بمعنى أن تطيعه، أعلمك أنه يعلم نواياك، أكانت هذه الطاعة مُراءاةً للناس، استدراراً لعطفهم، انتزاعاً لإعجابهم، تحقيقاً لمصالحك فيهم ؟ أم كانت عبادةً خالصة لوجه الله عزّ وجل ؟

فكلمة:

(إنّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (1))

أي أنه يعلم النيات، يعلم السِر، يعلم الإخلاص، يعلم ماذا تريد.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إنّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا(1))

تذكير وربط السابق باللاحق:

وقد ورد في الدرس الماضي أنه عليمٌ في تشريعاته، حكيمٌ في أفعاله، أي أن تشريعه وفق علمه، وعلمه أساس تشريعه، فعليمٌ بالإنسان أنه هو خالق الإنسان، فالأحكام التشريعيّة تتوافق مع طبيعة الإنسان توافقاً تامًا..

(لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة من الآية 286)

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إنّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا(2))

فمعنى خبير أي فهمه أدق الأشياء، فهمه أعمق الأشياء، فهمٌ شمولي، وفهمٌ دقيق، وفهمٌ عميق، الفهم الدقيق، والعميق، والشمولي هو معنى قول الله عزّ وجل:

(إنّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2))

الآمرُ ضامنٌ

أما النقطة الدقيقة:

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إنّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ(3))

موطن الشاهد أن الآمر ضامن، ما يقوله بعض الناس: إذا فعلت كذا وفق أمر الله أخسر مالي كلّه، إذا فعلت كذا وفق ما يأمر الله عزّ وجل يُسْرَق مالي من البيت، إذا فعلت كذا أضيع، إذا وقفت موقفاً حازماً

في هذا الموضوع أخسر عملي، هذا كلامٌ فيه جهلٌ كبير، لأن الذي أمرك أن تطيعه هو الذي يضمن لك الثواب، هو الذي يضمن لك الحِرص، أعبّر عن هذا المعنى الدقيق بكلمتين هما: الآمر ضامن. قد يأمرك إنسان أن تتجرّع هذا الدواء، وقد يكون هذا الأمر غير صحيح، وقد ينشأ مرضٌ خطير من هذا الدواء، فإذا عاتبته أو سألته يقول لك: ماذا أفعل، هذا علمي، لكن الله عزّ وجل وهو خالق الكون إذا أمر بأمرٍ فهو ضامن سلامة العافية.

الآن مثلاً هناك أناسٌ كثيرون يقترفون المعاصي من أجل رواج تجارتهم، يقول لك: هكذا ليكن هذا الشيء، عندئذٍ يرضي الناس، يرضي الناس أن تكون في المحل امرأة تبيع الرجال، يرضي الناس أن تفعل كذا، حينما تسعى لمصلحتك من خلال معصية الله عزّ وجل فهذا عين الجهل بالله، لأنه:

((من حاول أمرا بمعصية الله كان أبعد له مما رجا، وأقرب مما يتقى))

[من كشف الخفاء عن أنس]

اعملْ صالحًا بإخلاص ولا تخش في الله لومة لائم:

وإذا توهّمت لحظة واحدة أن طاعة الله تضرُك، وأن معصيته تنفعك فهذا هو عين الجهل، لذلك فالمعنى الذي تنطوي عليه الآيتان معاً:

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكّلْ عَلَى اللّهِ(3))

أي افعل ما يرضي الله، ولا تأخذك في الله لومة لائم، افعل ما يرضي الله، ولا تخش أحداً إلا الله، افعل ما يرضي الله، واعلم علم اليقين أن الذي أمرك سيحفظك، افعل ما يرضي الله، اختر الزوج المؤمن لابنتك، ولا تظن أن الغني هو الذي يسعدها، بل المؤمن هو الذي يسعدها..

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلًا(3))

وهمٌ مرفوضٌ: الطاعة تجلب الضر:

الآن أضع يدي على منطقة حسّاسة في الإنسان، ربنا عزّ وجل لحكمةٍ يريدها قد يتراءى لك أن طاعة الله عزّ وجل سوف تحول بينك وبين خيراتٍ كثيرة، فعدم الاختلاط يجعلك إنساناً منطويا على نفسك، عدم المصافحة يجعل لك شخصيّة محرجاً بها أمام الموظّفات مثلاً، عدم تعاملك بهذه الطريقة في البيع والشراء تفوّت عليك ربحاً كثيراً، هكذا شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يجعل منطق الأحداث يوحي إليك أن طاعة الله قد تضرُك، وأن معصيته قد تنفعك، والحقيقة هي العكس، لكن من هو المؤمن ؟ هو الذي

يقول: والله لا أعصي الله ولو أكلت التراب، والمنافق على أتفه سبب يتَّخذه ذريعةً لمعصية الله عزّ وجل.

إذاً: الآمر ضامن، فالذي أمرك أن تحجّب ابنتك هو الذي يضمن لها زواجاً موفّقاً، أما أنه لابدّ من أن تسفر، لابدّ من أن يراها الناس، لابدّ من أن تكون معهم في حفلاتهم، لابدّ من أن تُظهر مفاتنها كي يعرفها الآخرون، هذا الكلام هو الجهل بعينه، الآمر ضامن ؛ في البيع، في الشراء، في التجارة، في الزراعة، في الصناعة، في العلاقات الاجتماعيّة، في كل حركاتك وسكناتك أمر الله هو الذي معه حفظ الله، ومعصية الله عزّ وجل هي التي معها الخِذْلان، والتعسير، ومشكلات الحياة.

الآن هناك آيةٌ دقيقة:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ (4))

مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ

لماذا القلبان ؟

لماذا القلبان ؟ لو أنك بقلبٍ واحدٍ آمنت، وبالقلب الثاني آمنت، إذاً الثاني تكرار للأول، أما إذا آمنت بقلب، ولم تؤمن بقلب، إذا عصيت بقلب، وأطعت بقلب فهذا شيء متضاد، وطبيعة الحياة ترفضه، قال ربنا عزّ وجل:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ (4))

للإنسان قلبٌ واحد لا يتسع لشيئين متضادين:

أي له قلبٌ واحد، يتّسع لشيءٍ واحد، لكن أدقّ من ذلك أن قلب الإنسان لا يتّسع لشيئين متضادين، أي أن من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته، ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه، فإذا ادّعى إنسان أن في قلبه شيئين معا فهذه دعوى، لأن الإنسان إذا أحبّ شيئاً كره ضدّه، فإذا أحبّ الغناء ينبغي أن يبتعد عن كلام الله، فإذا أحبّ كلام الله ينبغي أن يبتعد عن الغناء، إذا أحبّ أهل الدنيا ينبغي أن يجلس مع أهل الآخرة جلوساً شكلياً، فإذا أحبّ أهل الآخرة ينبغي أن يكره أهل الدنيا، إذا أحب المساجد لا ينبغي أن يحب أماكن اللهو، فإذا أحب أماكن اللهو وكان في المساجد، كان فيها كالعصفور في القفص، أي أن قلباً واحداً لا يتسع لشيئين متناقضين، فلذلك الحق واحد، والباطل يتعدد..

(وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتّبِعُوهُ وَلا تَتّبِعُوا السّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام: من الآية 153)

الحق واحد، والنور مُفرد.

(يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة: من الآية 257)

فلذلك القلب الإنساني قلبٌ موحّد لا يتّسع لشيئين متضادين، طبعاً هذه هي الحقيقة، فإذا أحببت الله ورسوله يستحيل أن تحب أهل الفسق والفجور، فإذا رئي أنك تحب هؤلاء وهؤلاء معنى ذلك أن محبّتك لبعضهم أمر حقيقي، ومحبتك للآخرين دعوى.

أحياناً يقال لك عن شخص: هو ذكي، إن جلس مع أهل الدنيا أحبّهم وأحبوه، وانسجم معهم انسجاماً كبيراً، وسهر معهم عشرات الساعات، فإذا جلس مع أهل الحق أظهر التواضع والمحبّة والاهتمام، نقول:

لك قلبٌ واحد إذا امتلأ حباً لأهل الدنيا، وأهلها من ذوي أهل القوة والحول والطول، لا يمكن أن يكون فيه مكانٌ لمحبّة أهل الحق، فإذا امتلأ بحب أهل الحق ليس في قلبك مكانٌ لمحبة أهل الدنيا، فإذا رئي أنك تحب الاثنين معاً، فاعتقد اعتقاداً جازماً أنك تحب أحد الطرفين حباً حقيقياً، وأن حبّك للطرف الآخر مجرد دعوى

في العصر الحديث يستعملون عبارة **" شخصيّة مرنة "**، يقول لك باللغة الدارجة: **" معهم معَهم، عليهم عَليهم "**، فهو إذاً ذو وجهين، وإذا أرضى الناس جميعاً فهو منافق، لكن ربنا عزّ وجل يقرّب هذه الحقيقة..

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ (4))

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

(سورة الممتحنة: من الآية 13)

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

(سورة المائدة: من الآية 51)

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا)

(سورة التوبة: من الآية 24)

قد يكون للشيء الواحد فروع:

إذاً: هذه قاعدة يجب أن تأخذ بها، لك قلبٌ واحد يتّسع لشيءٍ واحد، وقد يكون للشيء الواحد فروع، فإذا أحببت الله أحببت رسوله، لأن حبّ رسول الله فرع من حب الله عزّ وجل، وإذا أحببت الله أحببت

المؤمنين، ومحبّة المؤمنين فرعٌ من حب الله عزّ وجل، وإذا أحببت الله أحببت الناس جميعاً، وإذا أحببت الله أحببت الخَلق جميعاً، فالحب الذي يتفرّع عنه مجموعة من أنواع الحب هذا يسمى حبٌ واحد، أنا قلت قبل قليل: لا يمكن أن يجتمع في قلبك متناقضان، والشيئان المتناقضان الذي أحدهما ينفي الآخر، كالظلال والنور، فإذا كان هذا المكان مظلم إذاً نفينا عنه النور، وإذا قلنا: إنه منير نفينا عنه الظلام، فالظلام والنور شيئان متناقضان، القلب البشري لا يتسع لشيئين متناقضين في وقتٍ واحد..

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنّ أُمّهَاتِكُمْ(4))

الزوجة ليست أمّاً:

أي أن هذه المرأة إما أنها أم، وإما أنها زوجة، فإن كانت زوجة فلها حقوق، وعليها واجبات، وإن كانت أماً فلها مكان آخر، ولها محبةٌ من نوع آخر، ولها معاملة أُخرى، أما هذا الذي يُقسم على امرأته أنها كأمّه، هذا لعبٌ بدين الله عزّ وجل، هذه ليست أمّك إنها زوجتك، ولها عندك حقوق وعليها واجبات، وهذه أمُك ليست زوجتك.

من أحكام الظِّهار:

فإذا أقسم أحد الناس على زوجته أنها عليه كظهر أمّه، هذا يحتاج إلى عقابٍ أليم، يحتاج إلى أن يصوم ستين يوماً متتالية، كفارة ليمين الظهار، فمن أين جئنا بهذا ؟ فهذه أم وهذه زوجة، فإذا خلطّت بين الشيئين، وجعلت زوجتك التي هي محبوسةٌ لك، التي حينما عقدت عليها العقد حبستها لك، إذا عاملتها كأم، وابتعدت عنها فقد ظلمتها، هذه ليست أمّاً، إنما هي زوجة.

إذاً:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنّ أُمّهَاتِكُمْ(4))

والآن:

(وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ (4))

الولد المتبنّى ليس ابناً:

هذا الطفل المتَبَنّى ليس ابنك، لأنه إذا كبر ما الذي يحصل ؟ قد يشتهي ابنتك، وقد يشتهي أمّه، وهو دعيٌ، وهي ليست أمه، إنما هي امرأةٌ أجنبيّةٌ عنه، فإذا قلت: هذا مثل ابني، وفلانة مثل أختي، وهذه مثل أمي فهذا لعبٌ بدين الله عزّ وجل، الأم أم، والزوجة زوجة، والابن ابن، والدَعِيّ دعي، فحينما

يبتعد الإنسان عن ربّه، وحينما يجهل حقيقة دينه يخلق المُسَمّيَات، وتختلط الأوهام بالحقائق، وتقع الفوضى، والله سبحانه وتعالى يقول:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ (4))

بطلان نظرية: في الإمكان التوجه إلى شيئين في آن واحدٍ:

حتَّى قديماً في الستينات كان هناك نظريّة تقول: إن الإنسان يتمكّن أن يتوجّه إلى شيئين في آن واحد، ثم ثبت بطلان هذه النظرية هذه النظرية، لكن الذي يتراءى لبعض الناس أنه بإمكانه أن ينتبه إلى أشياء عديدة في وقت واحد، هذا عنده ما يسمى بقدرةٍ فائقة في سرعة التحوُّل من شيء إلى شيء، أما في وقت واحد أن تنتبه إلى شيئين فهذا مستحيل، أن تستغرق في شيئين مستحيل، في وقتٍ واحد لا يمكن أن تنصرف إلا إلى شيءٍ واحد، وهذا مصداق قوله تعالى:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ (4))

على كلٍّ الذي يحصل أن هناك أشخاصاً كثيرين يقول لك: هذا بيع، وهو في الحقيقة ربا، فالربا ربا، والبيع بيع، هذا مثلاً يانصيب خيري، اليانصيب حرام، أما الخيري فهذه كلمة أُلصِقَت به إلصاقاً، لا تزول حرمته أن تقول: خيري، يبقى كسبا غير مشروع، وطريقة في التعامل غير صحيحة، هذه مثل أخته ـ زوجةٌ صديقه ـ لا، هذه ليست أختك، هذه زوجة صديقك، وهي امرأةٌ أجنبيّة، فلو دخلت بيت صديقك، ولم يكن صديقك، وقبلت أن تدخل فقد وقعت في حرمةٍ كبيرة، فالأمور واضحة جداً في الدين؛ الحرام حرام، والحلال حلال، والواجب واجب، والسُنَّة سنة، والفرض فرض، والمكروه مكروه، والمباح مباح.

أما حينما يُلْعَبُ بدين الله عزّ وجل فلابدّ من أن ينزلق المرء منزلقاً وخيماً في الضلال، فلا تنكح هذه المرأة بعد أن طُلِّقت طلاقاً بائناً (بينونة كبرى) إلا بعد أن تنكِحَ زوجاً آخر، فإذا افتعلنا زواجاً مؤقتاً لساعةٍ أو ساعتين، أو لليلةٍ أو ليلتين، وقلنا: ها قد نكحت زوجاً آخر فلتعُدْ إلى زوجها الأول، هذا لعبٌ بدين الله، الزواج الثاني مفتعل، غير صحيح، زواج صوري، زواج شكلي،سمّاه النبي التَيْسَ المُستعار، فالزواج زواج، والزنا زنا، والأخت أخت، والأجنبيّة أجنبيّة، والزوجة زوجة، والأم أم، والابن ابن، والمُدّعى مُدّعى، فمن علامات فقه الرجل أن تكون الأمور واضحة وضوحاً جلياً في حياتنا، لها حدود، ولها قيود، ولها تعريفات، واصطلاحات، أما هذا التداخل، وهذا الاختلاط، وهذه المُسمّيات التي تُعطى أصناف أخرى فهي ضلالات شيطانية بعيدة عن دين الله تعالى.

تغيير الاسم لا يُغيّر من حقيقة المسمى:

مثلاً: تغيير اسم الباطل باسمٍ آخر هل يعطيه حقيقة الحق ؟ فأنت لك عند فلان مئة ألف دَيناً، جاءك وقال: أتأخذها نقداً على أن تخصم لي ستة بالمئة، قلت لك: هذا لا يجوز، هذا ربا معكوس، فقال لك: يا أخي سجِّلها سمحًا، فهل إذا كتبت (سمحًا) انتفت صفة الحُرمَةِ ؟ لا، الاسم لا يغيّر شيئاً، فاكتب على هذه الطاولة إنها كرسي، هل تصبح كرسيا ؟ لا، ستبقى طاولة، اللوحة لا قيمة لها، الاسم لا قيمة له، الإعلان لا قيمة له، لذلك كيف نلعب بدين الله عزّ وجل ؟ حينما نعطي أسماء لغير مسمّياتها، أخي هذا سماح، وهذا بيع، فإذا بعت هذه الحاجة نقداً بثمانين ليرة، وبعتها ديناً بمئة ليرة، واشتريتها منه نقداً بثمانين ليرة، تقول: هذا بيع وشراء، صفقة وصفقة، لا، فالشرع يقول: لا، هذا ربا، فحقيقة ما تفعله أنك تقرضه بالربا، ولو جعلت هذا الربا على شكل صفقة أولى وصفقة ثانية، فالأولى تبيعه ديناً بمئة ليرة، والصفقة الثانية تشتريها منه نقداً بثمانين ليرة، والفرق هو الفائدة، ولئلا نقع في أخطاء كبيرة في دين ربنا عزّ وجل قال:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ(4))

الويل لمَن ظلم زوجته !!!

جاءت امرأةٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام، هي المرأة التي سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، التقت بسيدنا عمر رضي الله عنه، وكان يركب دابّةً، نزل عن دابته، ووقف متأدِّباً ليستمع إليها، فلمّا سُئل عن هذا الموقف الغريب ؟ قال: **<< كيف لا أستمع إليها وقد استمع إليها ربُّنا من فوق سبع سماوات؟>>.**

هذه المرأة جاءت النبي عليه الصلاة والسلام تقول له: **" يا رسول الله إن فلاناً ـ أي زوجها ـ تزوجني وأنا شابّة ذات أهلٍ ومال، فلمّا كبرت سني، ونثرت له بطني، وتفرّق أهلي، وذهب مالي قال: أنتِ عليّ كظهر أمي، ولي منه أولاد إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا ".**

وفي هذا القول إشارة بليغة إلى أن مهمة المرأة تنحصر في تربية أولادها، أعظِمْ بها من مهمّة، إنها مهمّة لو أُدِّيَت على الوجه الحقيقي لرأيت مجتمعاً متكاملاً، لرأيت مجتمعاً كلّه بطولات، لكن تقصير الأمّهات في تربية أولادهن سبّب هذه الأزمات، إن تركتهم إليه ضاعوا، أنا التي أربيهم، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، هو الذي يطعمنا ويسقينا، فعلى الرجل كسب الرزق، وعلى المرأة تربية الأولاد، هذه مهمّة المرأة ومهمّة الرجل.

النبي عليه الصلاة والسلام دمعت عينه حينما سمع شكواها، ولا تنسوا أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا))

(من مسند أحمد عن أنس بن مالك)

إذا كان الإنسان يستضعف زوجته، إذ ليس لها أهل، وليس لها أحد، فيجور عليها، يقسو عليها، يحرمها حاجتها الأساسيّة، يحرمها ما لها، ويكلِّفها ما لا تطيق، ويقول: لا أحد وراءها يدفع عنها، عندئذٍ فالله سبحانه وتعالى يُلقِنه درساً لا ينساه، قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أظنُّ إلا أنكِ بنتِّ منه))

ثمّ نزلت آيات الظهار في سورة (قد سمع)، وبيّن الله عزّ وجل أن الذي يلعب بهذا العَقد المقدّس، الذي يعدُّ أقدس عقد في الحياة ـ عقد الزوجيّة ـ يلعب به ليحرم زوجته حقّها الطبيعي، وقد حُبِسَت من أجله فعليه كفّارة الظهار، وهي: تحرير رقبة، أو صيام ستين يوماً، أو إطعام ستين مسكيناً، ليكون لهذا العقد حرمته وقدسيّته في الحياة.

بين النبي عليه الصلاة والسلام وزيد بن حارثة:

شيءٌ آخر: هو أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قُدِّمَ له غلام من قِبَل زوجته خديجة بنت خويلد، هذا الغلام هو سيدنا زيد بن حارثة، وكان من أقرب الناس إلى النبي، عاش في كَنَفِ النبي سنواتٍ طويلة قبل البعثة، والنبي عليه الصلاة والسلام بادله وداً بود، وحباً بحب، إلى أن وصل إليه أهله، هذا الغلام كان قد أُخِذَ في غزوةٍ في الجاهليّة، وبيع في سوقٍ، واشتراه خال السيدة خديجة، ثم أعطاه لخديجة، وخديجة رضي الله عنها أعطته بدورها للنبي عليه الصلاة والسلام.

النبي عامله معاملة تفوق معاملة الأب الرحيم، والأخ الشفيق، فتعلّق سيدنا زيد بالنبي تعلّقاً كبيراً، وأحبّه حبّاً جمّاً، فلمّا جاء أبوه وعمّه بعد أن عثرا عليه في مكّة، ليقدِّما المال لسيدنا محمد، المال الوفير: اطلب ما شئت فداء هذا العبد، قال: **" لا، بل خيّراه، فإذا اختاركما فلست أريد شيئاً، هذا ابنكم ".**

وقف النبي موقفاً رائعاً، أي إن اختاركما فهو لكما، ولا أريد شيئاً.

لكن سيدنا زيداً رأى من خُلق النبي الكريم، ومن عطفه الجزيل، ومن أخلاقه الرضية، ومن إشراقات النبوّة فيه ما جعله يؤثر النبي على أبيه وأمِّه وعمِّه.

فقالا: يا زيد أتؤثر محمّداً على أبيك وأمِّك ؟ فقال: لقد رأيت منه ما أنساني أبي وأمي، عندئذٍ قال النبي عليه الصلاة والسلام: **هذا زيد بن محمّد يرثني وأرثه**، هكذا قال النبي، وكانت هذه الواقعة قبل أن

يبعث عليه الصلاة والسلام، وكان اسمه قبل نزول هذه الآيات زيد بن محمد، عليه الصلاة والسلام، فالذي يعيش مع النبي هل يذكر أحداً من أهله ؟ إنه ينسى كل شيء.

إبطال عادةِ التبنّي:

والله سبحانه وتعالى أراد أن يُبطل عادة التبني التي فيها اختلاطٌ للأنساب، فأمر زيداً أن يطلّق زوجته، وأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوّج زينب زوجة زيد، زوجة متبنّاه، وهنا خشي النبي كلام الناس، فأبطل الله هذه العادة، وعاتبه الله عزّ وجل وقال:

(وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)

(سورة الأحزاب: من الآية 37)

أي أنه فعل شيئاً فوق طاقته إحقاقاً للحق، وإظهاراً إلى أن التبني عادةٌ مرذولة، تجعل في الحياة الاجتماعيّة اختلاطاً وانحرافاً وتدهوراً، وأما ما يرويه بعضهم وهي رواياتٌ ساقطة لا تقف على قدمين: من أن النبي عليه الصلاة والسلام رأى زينب، وهي تمشط شعرها بعد أن اغتسلت، فوقعت في قلبه، فتمنّى الزواج منها، فجاء الله عزّ وجل كما يقولون، وأمر زيداً بتطليقها، وأمر النبي بالزواج منها، هذه رواياتٌ مكذوبة ساقطة لا تليق بالنبي عليه الصلاة والسلام، وليس لها أساس من الصحّة، إنها من الدَسّ على الإسلام، فالنبي فوق هذا، بل بالعكس فلو أراد الزواج من زينب لتزوجّها قبل أن يخطبها زيد، لكن النبي بهذا الأمر الإلهي أبطل عادة التبني، لذلك:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ(4))

هذا دَعِي وليس ابناً لك، وهذه زوجة، وليست أماً لك..

(ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ (4))

أي أنتم إذا قلتم: هذا ابني، فهل صار ابنك ؟ لا، هو أجنبي، يشتهي ابنتك، يشتهي زوجتك، وإن قلت: هذه مثل أختي، فهل أصبحت أختك ؟ لا، هذا قول بالفم لا يقدّم، ولا يؤخّر، ولا يغيّر من حقيقة الأشياء في قليل أو كثير، هناك حقائق لا تُغَيّر بالكلمات، فإذا أمسكت حديداً، وقلت: هذا ذهب، فهل صار ذهباً ؟ بقي حديداً، وإذا أمسكت الذهب، وقلت: هذا حديد، فهل صار حديداً ؟

كنت أضرب هذا المثل في كثير من المناسبات: لو كان معك كيلو معدن، وهو في الحقيقة ذهب خالص، واتهمك الناس جميعاً أن هذا المعدن هو حديد لا قيمة له، اتهامهم جميعاً لك هل يغيّر من قيمة هذا المعدن ؟ لا، بل يبقى الذهبُ ذهباً، ولو كان معك معدن خسيس، واستطعت أن تقنع الناس جميعاً أنه ذهب، فاقتنعوا وصدّقوا، هل يصبح هذا المعدن الخسيس ذهباً ؟ لا، بل يبقى معدناً خسيساً، وليس له

ثمن.

فأردت من هذه الأمثلة أن أبيّن لكم أن الأسماء لا تغير من حقائق الأشياء، تسمي النفاق لباقة فيظل كما هو نفاقا، تسمي الانحراف (سبور) يظل انحرافاً، الآن هناك كلمات متداولة، إذا لم يكن في المرأة دين يقولون لك: (هذه سبور)، هذه فتاة (سبور)، هذه الكلمة هل تغيّر من أنها فاسقة، فاجرة، منحرفة ؟لا تغيرها، فالفسق فسق، والفجور فجور، والزنا زنا، والاختلاط اختلاط.

فالذي أريده منكم أن نقف عنده قليلاً هو: أنك إذا سميت الرذيلة فضيلة تبقى رذيلة، وإذا سميت الاختلاط انفتاحاً، عقليّة مرنة، يبقى الاختلاط اختلاطا، ويقع تداخل أنساب، وتطلّع إلى نساء الآخرين، وعدوان على الأعراض، هذه حقيقته، تسميه اختلاطاً، والإنسان عندها عقله مفتوح، وعنده مرونة وذكي، هذه كلها كلمات فارغة، تسمي المنافق لبقاً هو منافق مهما خلعت عليه من صفات، تسمي الكافر متحرّراً، وهو كافر وليس متحرّراً، هذه الأسماء الحديثة: الفسق تحرُّر، والنفاق لباقة، والاختلاط انفتاح، وهذه مرونة، هذه كلها كلمات فارغة، الفسق فسق، والفجور فجور، والانحراف انحراف، يقول لك: هذه صداقات بريئة، أي صداقة هذه ؟ هل هناك صداقةٌ بريئةٌ بين رجل وامرأة أجنبيّة عنه، كيف تقول: هذه صداقة ؟ ما من رجلٍ خلا بامرأةٍ إلا اشتهاها، وهناك أخطاء يقع فيها الجُهّال تعود عليهم وبالاً كبيراً في حياتهم الدنيا.

أردت من هذا الكلام أن نتوسّع لمعالجة الموضوع، وإيّاك أن تسمي المعصية اسماً آخر، إنها معصية، الربا ربا، والبيع بيع، هناك من يُخَلِّط..

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)

(سورة البقرة: من الآية 275)

ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُم

دائماً المجتمعات المنحرفة والفاسقة التي لها خلفيّة دينيّة، يتّجه أصحابها إلى إضفاء أسماء برّاقة لطيفة على معاصٍ كبيرة، وهذه الأسماء لا تغيّر، ولا تبدّل، تبقى المعصية معصية، والاسم لا قيمة له، تماماً كما لو جئت بلاصقة على كيلو حديد، وكتبت: **" ذهب خالص "**، هل تستطيع أن تبيع هذا الكيلو بثلاثمئة ألف ؟ كيلو حديد، واكتب عليه بلاصقة فخمة جداً: ذهب خالص عيار أربعة وعشرين، وانزل على سوق الصاغة، هل تستطيع أن تبيعه بثلاثمئة ألف ؟ إنه يساوى ثلاثا وعشرين ليرة، هذا ثمنه، وإذا جئت بكيلو ذهب خالص، وكتبت عليه: **" حديد "**، فهل قلّت قيمته ؟ لا، فقيمته هيَ هي، هذا معنى قوله تعالى:

(ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ (4))

هذا كلامكم، هذه دعواكم، هذا باطلكم، هذه الأسماء أنتم سمّيتموها، هذه أختي، ابنة أختي، يتوفّى رجل فيخلِّف أرملة، يزورها الصديق ويقول: مثل أختي والله، لا ليست مثل أختك، هذا كذب ولعبٌ بدين الله، هذا يا أخي مثل البيع، وهو رباً، لا ليس مثل البيع، بل هو ربا، وليس بيعاً، وهذه امرأةٌ أجنبيّة مشتهاة، وليست أختك، وهذه زوجتك، وليست أمّك، وهذا دعيُّك، وليس ابنك، وهذا حلالٌ، وليس حراماً، وهذا حرام، وليس حلالاً، هكذا، فدائماً إذاً هناك تقصير، وهناك فسق وفجور، الأمور تختلف، نضع لاصقة هذه على هذه، وهذه على هذه، صار هناك اختلاط بالأوراق، لكن الله سبحانه وتعالى يقول الحق:

(ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقّ وَهُوَ يَهْدِي السّبِيلَ (4))

على الله بيانُ سبيل الحق:

أي أن السبيل إليه، فإذا أطعته وصلت إليه، إذا وقفت عند حدوده وصلت إليه، إذا أقمت أمره وصلت إليه، إذا اجتنبت نهيه وصلت إليه، فإذا غيّرت وبدّلت، سميت المعصية تحرُرا، والنفاق لباقة، والتفلُت تحديثا، يقول لك: تحديث، الدين لا يُحدّث، الدين من عند الله عزّ وجل، ليس الدين تُراثاً حتّى يُحْدّث، ليس الدين قديماً يُحْدّث، الدين دين، أي أن الحق حق مهما مرّ الزمن، ومهما تقلّبت السنون والأحقاب، لا يتبدّل ولا يتغيّر.

آيةٌ دقيقة جداً أرجو أن نستوعبها جميعاً:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنّ أُمّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقّ وَهُوَ يَهْدِي السّبِيلَ(4))

أنت كُن مع الحق، كن مع المسمّى الصحيح مع الاسم الصحيح، لا تبدِّل ولا تغيّر، أمرك بغض البصر ـ انتهى ـ فتقول: أخي هناك نظر بلا شهوة، هذا ما فيه سوء نية، هذا كلام فارغ من أين جئت به ؟ من قال لك ذلك ؟ كيف نظر بلا شهوة ؟ ما ورد نظر بلا شهوة، قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: من الآية 30)

قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنّي لا أُصَافِحُ النِّسَاءَ))

[من سنن الترمذي عن أميمة بنت رقيقة]

هكذا قال النبي، ليس عندنا حالات أخرى.

احفظ حدود الله يحفظك:

قلت في درسٍ ماضٍ: احفظ الله يحفظك، إذا حفظت أمر الله عزّ وجل بأن نفّذته، وحفظت نهيه بأن اجتنبته، وحفظت حدوده بأن وقفت عندها، الآن حَفِظَ الله لك دُنياك ودينك، حفظ دنياك بمعنى أنه يحفظ لك بدنك، وأهلك، وأولادك، ومالك، وحفظ دينك من الشبهات المُضلّة، والشهوات المهلكة، لا شبهات مضلّة ولا شهوات مهلكة، إذا حفظت دينك، لذلك كلمة الجنيد ـ رحمه الله تعالى ـ حينما سُئل: من وليٌّ الله ؟ فقال: **" لعلّكم تظنونه هو الذي يطير في الهواء، لا، ولا الذي يمشي على وجه الماء، الولي كل الولي هو الذي تجده عند الحلال والحرام ".**

لذلك:

(إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

أي أن كل الظواهر الزائغة فارغة، فلو تكلّمت كلاماً طيّباً، لو كان لك تطلّعات، ولو دمعت عينُك..

(إنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

أي أن مكانتك عند الله عزّ وجل تحدّدها طاعتك له، هذا هو المقياس الدقيق.

أحبابٌ اختاروا المحبّة مذهباً وما خالفوا في مذهب الحبِّ شرعاً

***

(ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آَبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ(5))

حُكمُ التبني وتفصيلاته:

ثمة إخوةٌ كثيرون أحياناً يسألونني عن تبني طفلة صغيرة، هل هذا ممكن ؟ نعم ممكن، لكن يجب أن تحذر أن هذه الطفلة إذا بلغت سنّ الاشتهاء يجب أن تفرزها عن أولادك، وتُهيّئ لها مكاناً آخر، بطريقة أخرى، ما دام أنها بلغت السن الخطر فهذه ليست ابنتك، وهذا ابنك ليس أخاً لها، إنما هو أجنبيٌّ عنها، فهذا الذي يُقال: نحن لا نسيّب، ومع العمل الإنساني، ولكن لسنا مع اختلاط الأنساب، ولسنا مع اللعب بدين الله عزّ وجل..

(ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آَبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(5))

ليس في الخطإ إثم، ولكن على ما عزم القلب وتعمد:

المشكلة أن على الإنسان ألا يعقد العزم على معصية الله عزّ وجل، ما دام الخطأ مغفورا، ويمكن له أن يتراجع عن خطئه..

((كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[من مسند ابن ماجة عن أنس]

و..

((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))

[من سنن ابن ماجة عن أبي ذر الغفاري]

أما المشكلة فأن ينبعث في القلب باعثٌ إلى المعصية، كأن يريد الإنسان أن يعصي الله عزّ وجل، أن يعرف الحق ويخالفه، أن يعرف الباطل ويمشي فيه، هنا المشكلة، فإذا ارتكب الإنسان ذنباً عن جهل فتوبته تكون سريعة جداً، يشعر أن الله بكلمةٍ واحدة، بإنابةٍ سريعة، يقبله، ويعفو عنه، ما دام قلبه لم يتعمّد المعصية، أما إذا صمّم أن يعصي، وقصد أن يعصي، عندئذٍ يكون الحجاب بينه وبين ربه سميكاً، وليس من السهل تخَطِّي هذا الحجاب، إذاً:

(وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(5))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (03-18): تفسير الآيات 6 - 8
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-10-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثالث من سورة الأحزاب، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (4) ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آَبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(5))

(سورة الأحزاب)

قصة سالم مولى حذيفة:

أيها الأخوة الأكارم، دين الإسلام كما يقال: دين الفطرة، فقد ورد في السيرة المُطَهَّرة أن سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة رضي الله عنها، قالت: **" يا رسول الله إن كنا ندعو سالماً ابناً ـ سالم مولى أبي حذيفة ـ إن كنا ندعو سالماً ابناً، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل علي، وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً ـ هو ليس ابناً لكنه متبنى ـ فإذا دخل علي نظرت في وجه أبي حذيفة فأرى في نفسه شيئاً من دخوله عليّ.**

الإسلام دين الفطرة:

هذا الشاهد يؤكِّد أن الدين الحنيف هو دين الفطرة، فالتطابق تامٌ وشاملٌ بين أحكام الدين وطبيعة النفس البشرية، لذلك يمكن أن نوَجِّهَ الأنظار إلى قوله تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم: من الآية 30)

أي أن أوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه تتطابق مع النفس السليمة الطيبة النقية تطابقاً تاماً، فالشيء الذي يُنْكِرُهُ قلبك إذا كنت صافي الفطرة، سليم السريرة، نقياً من كل زَيْغ، الشيء الذي ينكره قلبك تراه في الدين محرماً، والشيء الذي ترتاح إليه تراه في الدين حلالاً، وحينما سُئِلَ عليه الصلاة والسلام عن البر قال عليه الصلاة والسلام:

((الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ))

[مسند أحمد عَنْ وَابِصَةَ الأَسَدِيِّ]

العقل السليم مقياس:

الله عزّ وجل أعطاك مقياس العقل، وأعطاك مع مقياس العقل، ومقياس الفطرة، مقياس العقل من أجل أن تعرف الله عزّ وجل، لأن مبادئ العقل متوافقةٌ مع مبادئ الكون، فإذا أعملته في الكون هداك إلى الله، العقل أداة معرفة الله، والعقل مناط التكليف، والفطرة مقياسٌ نفسي، ما من إنسان يسأل عالماً عن قضيةٍ أقلقته، مجرد سؤاله عن هذه القضية معنى ذلك أن نفسه لم ترتح إليها، لماذا سأل ؟ ما سأل إلا حينما شعر باضطراب، ما سأل إلا حينما شعر بالقلق، ما سأل إلا حينما أنكرت نفسه هذا التصرٌف، إذاً حينما قال عليه الصلاة والسلام لِوَابِصَةَ:

((جِئْتَ تَسْأَلُ عَنْ الْبِرِّ وَالإِثْمِ ؟ قالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قالَ: فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ وَقَالَ: اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ، ثَلاثًا، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

[سنن الدارمي عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الأَسَدِيِّ]

هذا حديثٌ صحيح، لكن لئلا نستخدم هذا المقياس بتوسُّع، العلماء حينما شرحوا هذا الحديث وقالوا: الإنسان سليم الفطرة، نقي القلب، نقي اليدين، هذا يمكن أن يكون قلبه من دون زيغٍ، أو خللٍ، أو اضطراب مقياساً يتوافق مع الشرع.

الشرع مقياس على كل شيء:

ولكن دائماً وأبداً المقياس الإلهي هو شرعه الحنيف، اعرض ميزان عقلك على أحكام الشرع، فإن توافقا فاحمد الله عزّ وجل على أن كان ميزان عقلك سليماً، اعرض ميزان فطرتك على أحكام الشرع، فإن توافقتا فاحمد الله عزّ وجل على أن ميزان فطرتك سليم، فالعقل ميزان والفطرة ميزان، ولكن العقل قد يضل، والفطرة قد تشوّه.

لا يصح أن يكون العقل ميزاناً، والفطرة ميزاناً إلا إذا تبرّأ العقل من الحظوظ والمنافع، لأن أهل الدنيا يستخدمون عقولهم لتبرير شهواتهم، يستخدمون عقولهم يفلسفون انحرافاتهم، يفلسفون طغيانهم، يفلسفون أكلهم لأموال الناس بالباطل، يفسلفون اعتداءهم على أعراض الناس، فعقل الشهواني في خدمة شهوته، لكن عقل الحر شهوته منضبطة بمقاييس عقله، فلئلا يضل العقل، لئلا يزل العقل، لئلا ينحرف العقل، كان الشرع ميزاناً على الميزان العقلي، فالعقل ميزان ؛ لكن هذا الميزان قد يعتريه خطأ، وقد يفقد حساسيته بفعل المصالح والشهوات، والضغوط، والأهواء، يأتي ميزان الشريعة ليضبط ميزان العقل.

القضية تماماً كما لو أعطينا طالباً في الصف الثانوي مسألة في الرياضيات، وقلنا له: حُلَّ هذه المسألة وَفْقَ عقلك، وهذا هو الجواب، فإذا انتهى حلك بهذا الجواب فاعلم أن حلك صحيح، وإن لم ينته حلك بهذا الجواب فاعلم أن حلك باطل، فمهما فكرت، إذا هداك تفكيرك إلى ما يوافق كلام الله عزّ وجل فهذا التفكير سليم، وجيّد، وسديد، وهنيئاً لك عليه، أما إذا فكر..

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ(18))

(سورة المدثر)

فكر، وتأمل، اطلع، درس.

(فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(19)ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ(20)ثُمَّ نَظَرَ(21)ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ(22)ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ(23)فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ(24)إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ(25)سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(26)وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ(27)لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ(28))

(سورة المدثر)

لذلك: مقياس فلاحك عند الله، مقياس رُقِيِّكَ عند الله شيءٌ واحد هو: اتباعك لأمر الله، واجتنابك لنهيه، ووقوفك عند حدوده، والدليل:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 13)

مقياس الرِفْعَة عند الله هو مدى التزامك بما أمر الله عزّ وجل، فما دام عقلك يهديك إلى طاعة الله فأنعم بهذا العقل، فإذا انحرف بك إلى معصيته، إذاً: هذا العقل ليس سليماً، عقل مريض، وفي أعلى التفسيرات نقول: هو عقلٌ مسخرٌ للشهوة، أحياناً تجد إنساناً مصراً على الشهوات، إذا حدثته أعطاك أجوبةً مُضحكة، يسخّر ذكاءه لتبرير شهواته، هذا المنطق سمّاه المناطقة المنطق التبريري، منطقٌ ساقط لا قيمة له إطلاقاً، فهذه الفطرة السليمة.

عودٌ إلى مسألة التبني:

هذه سهلة بنت سُهَيْل امرأة أبي حذيفة رضي الله عنها، قالت:

يا رسول الله، **إن كنا ندعو سالماً ابناً، وإن الله قد أنزل ما أنزل، وإنه كان يدخل علي، وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك.**

أشعر أنه ينزعج، لأن هذا ليس ابناً، هذا أجنبي، فالاختلاط التي تسببه الصداقات أحياناً، والجوار، والزمالة في العمل، والسهرات المختلطة هذه كلها فيها تجاوز لحدود الله، وينتج عنها أخطارٌ وبيلة،

كثيراً ما ذهب أناسٌ في نزهةٍ مختلطة، وعادوا منها بجحيمٍ عائلي، بل إن بعضهم فكّرَ في تطليق زوجته إثرَ هذه النزهة المختلطة.

حينما آثر زيدٌ ـ سيدنا زيد بن حارثة ـ حينما آثر النبي عليه الصلاة والسلام على أبيه وأمه، قال النبي عليه الصلاة والسلام: **هذا زيد بن محمد، أرثه ويرثني،** فلما نزل قوله تعالى:

(ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ (5))

عاد يسميه باسمه الحقيقي، ونسبه إلى أبيه زيد بن حارثة.

لا إثم على الخطأ:

شيءٌ آخر، قال الله عزّ وجل:

(ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آَبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ(5))

قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنّ اللّهَ وَضَعَ عَنْ أُمّتِي الْخَطَأَ وَالنّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))

[سنن ابن ماجه عَنْ أبي ذرّ الغِفَاريّ]

والدين أساسه أحكام واضحة، لكن حينما يعقد القلب على أن يخالف الله عزّ وجل، على أن يعصيه، هنا الإثم، أما الإنسان فقد يخطئ، قد يسبقه لسانه، قد يتوهّم شيئاً، ما دامت نيته سليمة وسريرته طاهرة فلا إثم عليه، لأن الله سبحانه وتعالى رفع عن أمة النبي عليه الصلاة والسلام الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه، وليست عنكم ببعيدٍ قصة الأعرابي الذي ضل الطريق وفقد راحلته، فلما أيقن بالهلاك، وعادت إليه راحلته، فقال من شدة الفرح:

((اللهم أنا ربك، وأنت عبدي))

[مسلم عن أنس بن مالك]

قالها من شدة الفرح، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته))

[متفق عليه]

حُكم خطاب الرجل ابن غيره بلفظ البنوّة:

لكن أحياناً المدرس في المدرسة يخاطب طالبه ويقول له: يا بني، هذا الخطاب ليس حكماً شرعياً، ليس هناك حرجٌ من أن تخاطب طالبا لك، من أن تخاطب ابن أخيك، من أن تخاطب ابن زميلك، ابن جارك،

تقول له: يا بني لا تفعل كذا، هذا خطاب تَحَبُّب، وليس حكماً شرعياً ينتج عنه اختلاط أنسابٍ، واختلاطٌ في العلاقات، لأن النبي عليه الصلاة والسلام خاطب بعض أبناء أصحابه وقال:

((أُبَيْنَى لا تَرْمُوا الْجَمْرَةَ حَتّى تَطْلُعَ الشّمْسُ))

[مسند أحمد عَن ابْنِ عَبّاس]

رأى شاباً يرمي الجمرة قبل طلوع الشمس، فقال:

((يا بني لا ترمِ الجمرة قبل أن تطلع الشمس))

فأجاز العلماء أن تخاطب صغيراً أو شاباً، بأن تقول له: يا بني، وليس هذا من التَبَنّي في شيء.

الآن يقول الله عزّ وجل:

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(6))

من معاني قوله: النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ:

1 ـ النبي أرحم الخَلق بالخلق:

العلماء أجمعوا على أن النبي عليه الصلاة والسلام أرحم بالخلق من أنفسهم، وأحرص على مصالحهم من أنفسهم، وأقرب إليهم من أنفسهم.

أحياناً يكون للإنسان إيمان، لكن إيمانه لم يَكْمُل، له مع إيمانه مصالحه، أما النبي عليه الصلاة والسلام فكله رحمة، وكله عطفٌ، وكله شفقةٌ على المؤمنين، فأمره لا يمكن أن يفسر تفسيراً في غير صالح المؤمنين.

2 ـ ليس في أوامر النبي مصلحة شخصية:

فلو قلت لإنسان: فلان اتبع كلامه كلمةً كلمة، قد يكون له مصلحة، قد يأمرك بأمرٍ ليس في صالحك، ولكن في صالحه، فالذي يأمرك بأمرٍ ليس في صالحك، هذا لا يتبع، هذا له مصلحة، له حظوظ، يريد شيئاً من حظوظ الدنيا المادية والمعنوية، فإذا أمرك بأمرٍ فهذا الأمر مشوب بمصلحته الفردية، مشوب بحظوظه النفسية، لكن النبي عليه الصلاة والسلام بَرّأَهُ الله عزّ وجل من كل حظٍ نفسي، ومن كل مأربٍ شخصي، فإذا أمر المؤمنين فإنما يأمرهم لصالحهم المَحْض، من هنا أمرنا الله عزّ وجل أن نتبع ما أمر به النبي، وأن ننتهي عما عنه نهى وزجر.

فأنت دائماً تطيع من يحبك، تطيع من يحرص عليك، تطيع من لا تأخذه في الله لومة لائم، تطيع من إذا أمر تخلّى عن ذاته، وتخلى عن حظوظه، وتخلى على شهواته، وتخلى عن مصالحه، مثل هذا الإنسان أمره مُطاع، فهل في البشر كلهم رجلٌ تنزّهَت نفسه عن الأغراض الدنيوية، وعن الحظوظ القريبة، وعن المصالح المادية كرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((والله ما آمن والله ما آمن والله ما آمن))

قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين))

[مسلم عن أنس]

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به))

[البغوي في شرح السنة عن عبد الله بن عمرو]

الحقيقة أن الإسلام له مظاهر مادية كلكم يعرفها، الصلاة، والصوم والحج، والزكاة، لكن هذه المشاعر النفسية التي غفل عنها المسلمون اليوم هي أساسٌ في الإيمان، فهل تؤثر النبي عليه الصلاة والسلام على كل مصالحك ؟ سيدنا عمر كلكم يعلم ذلك، قال:

((والله يا رسول أصبحت أحبك أكثر من أهلي، وولدي، والناس، أجمعين، إلا نفسي التي بين جنبي، قال: يا عمر، لمّا يكمل إيمانك، إلى أن جاءه مرةً ثانية فقال: والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من أهلي وولدي ومالي، والناس أجمعين، حتى نفسي التي بين جنبي، قال: الآن يا عمر))

[البخاري عن عبد الله بن هشام]

((لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين))

وفي رواية:

((ومن نفسه))

قال عمر:

((يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا نفسي، فقال: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال: الآن يا عمر))

[البخاري عن عبد الله بن هشام]

3 ـ ليس في دعوة النبي حظوظ ولا نصيب لذاته:

إذا أردت أن ترى شخصاً شَفّافاً، ليس لذاته نصيبٌ في أقواله وأفعاله، وليس لحظوظه مكانٌ في دعوته، فهو النبي عليه الصلاة والسلام، لا يمكن أن يأمرك بأمرٍ ليس في صالحك، أو أن ينهاك عن شيءٍ هو في صالحك، لا يمكن وإلا لما كان في هذا المقام الرفيع، وإلا لما كان رسول الله صلى الله

عليه وسلم، إذا كان لك حظوظ، ومصالح، ومآرب، ونفس تحب الاستعلاء، لن تكون في الحياة كلها باباً لله عزّ وجل، لن يسمح الله لك أن تكون باباً له، لن يسمح الله لك أن تكون هادياً إليه إلا أن تتخلى عن حظوظك، وعن مصالحك، وعن نزواتك، وعن رغباتك، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(النّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (6))

معنى ولاية النبي للمؤمنين:

بعض التفاسير قالت: أي في كل شيءٍ من أمور الدين والدنيا، فقد يقول بعضهم:

في أمور الدين أمر صحيح، أما في أمور الدنيا فلماذا لا نفعل كذا وكذا، لمَ حظر النبي علينا ذلك ؟

بهذه الطريقة نصبح فقراء، بالعكس في طاعة الله عزّ وجل وطاعة النبي تكون غنياً.

من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى.

فقال بعض العلماء: **" النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، أي في كل شيء من أمور الدين والدنيا، فيجب عليهم أن يكون النبي أحب إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمنا، وحقه آثر لديهم من حقوقنا، وشفقته عليهم أجدى لهم من شفقتهم على أنفسهم، وأن يبذلوا أنفسهم دونه، ويجعلوها فداءه ووقاءً له إذا لقحت الحرب، وألا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم، ولا ما تصرفهم عنه، وبل يتبعون كل ما دعاهم إليه النبي عليه الصلاة والسلام، فإن كل ما دعا إليه هو إرشادٌ لهم إلى نيل النجاة، والظفر بسعادة الدارين في الدنيا والآخرة ".**

فلذلك كل هذه الصفات أهّلت النبي عليه الصلاة والسلام ليكون أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

والحقيقة أن الإنسان كلما اقترب من الله عزّ وجل تخلّق بأخلاقه، وكلما اقترب من الله عزّ وجل اصطبغ بصبغة الله عزّ وجل، ماذا يقول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي ؟ يقول:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

[صحيح مسلم عَنْ أبي ذرّ]

الله عزّ وجل يدعونا إليه، لأن دعوتنا إليه لا تزيد في مُلْكِهِ، فإذا آمنا لا يزداد ملكه، وإذا كفرنا لا ينقص ملكه، دعوةٌ خالصة لسعادتنا.

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا(77))

(سورة الفرقان)

لولا أنه خلقكم كي تعرفوه، لولا أنه خلقكم كي يسعدكم، ما يعبأ بكم آمنتم أو كفرتم.

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ (6))

تحريم الزواج بنساء النبي بعد موته:

الآن دخلنا في حكم شرعي، تكريماً للنبي عليه الصلاة والسلام وتقديساً له، حرم ربنا عزّ وجل على المؤمنين من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجوا نساءه، من جهةٍ تكريماً للنبي عليه الصلاة والسلام، ومن جهةٍ ثانية أن هذه المرأة التي كانت مع النبي عليه الصلاة والسلام رأت من كماله، ومن حلمه، ومن شفقته، ومن عطفه، ومن تواضعه، ومن علمه، ومن أنواره القُدسية الشيء الذي لا يوصف، فكيف تعيش هذه المرأة مع إنسان آخر ؟ مع رجلٍ دون النبي بآلاف الدرجات، فهذه المرأة التي عاشت مع النبي لا تستطيع أن تعيش مع إنسان آخر، فمن جهةٍ هذا التحريم هو تكريمٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، فقد رفع مرتبة نساء النبي إلى مرتبة أُمَّهَاتِ المؤمنين.

إنّ الإنسان أحياناً إذا كان يُقَدِّسُ امرأةً فهو ينعتها بأنها كأمه، أحياناً يكون مثلاً شاب عند رجل راقٍ، أخلاقه عالية، دَيِّن، يشعر أن امرأة هذا الرجل كأمه، يرفعها إلى مرتبة الأم، والحقيقة أن في الحياة بنتًا، وأختًا، وزوجة، وأمًّا، أعلى مرتبة على مستوى النساء مرتبة الأم، فلبها كبير، وعطفها كثير، وشفقتها لا نهاية لها، هذه أبرز صفات الأم، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (6))

وجوب الاستسلام التام لأحكام النبي عليه الصلاة والسلام:

وربنا عزّ وجل حينما قال:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب من الآية 36)

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا(65))

(سورة النساء)

بلغ حب أصحاب رسول الله، وبلغت ثقتهم بالنبي، وبلغ استسلامهم لأحكامه، وبلغت طاعتهم له درجة أنه لو حَكَّموهُ في خلافٍ وفي شجارٍ بينهم، فالذي حكم عليه موقفه من النبي كالذي حكم له، الآن هذا لا يصح، لو أن القاضي نزيهٌ جداً، لو أصدر حكماً يُجَرِّمُ فلاناً، ويُبَرِّئ فلاناً، فالذي وقع الحكم عليه يتبَرَّم، ويقول: هذا قاض إما جاهل، وإما ظالم، وإما مُنحاز، وإما قبض من خصمي مبلغاً كبيراً، فيكيل له التهم جُزافاً، لكن حالة المؤمنين الصادقين مع رسول الله عليه وسلم الاستسلام التام، لماذا: لأنه معصوم.

يا رسول الله، إنك بشر تغضب وترضى، فإذا غضبت أنكتب عنك ؟ إذا كنت في حالة غضب شديد أنكتب عنك الأحاديث ؟

كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَوْمَأَ بِإِصْبَعِهِ إِلَى فِيهِ وَقَالَ:

((اكْتُبْ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلا حَقٌّ))

[سنن الدارمي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

ذات مرةٍ أعرابيٌ قال له: اعدل يا محمد، فقال عليه الصلاة والسلام وكان حليماً: **ويحك يا أخا العرب من يعدل إن لم أعدل ؟**

بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، اعْدِلْ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَيْلَكَ ! وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتُ، وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ))

[صحيح مسلم عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

قصة وعبرة:

والقصة التي تعرفونها جميعاً حينما جاءه سعد بن عبادة وقال: يا رسول الله، إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم ـ أي أنهم متأثرون منك ـ من أجل هذا الفيء الذي قسمته بين أحياء العرب، ولم تجعل للأنصار منه نصيباً، النبي عليه الصلاة والسلام حكيم، فقال عليه الصلاة والسلام: **يا سعد، أين أنت من قومك ؟** قال سعد بن عبادة: **ما أنا إلا من قومي،** أي أنا أيضاً في نفسي شيء، بعض كتاب السيرة قالوا: إن الأنصار حينما وجدوا على النبي في أنفسهم لا حباً بالمال والغنائم، ولكن عطاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في حد ذاته شرفٌ عظيم، لقد فاتهم هذا الشرف فتألموا، فتهامسوا فيما بينهم، هذا التهامس أصبح شعوراً عاماً، أدركه زعيمهم سعد بن عبادة، فجاء النبي فقال له: **يا رسول الله إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم،** هذه القصة فيها من كمال النبي، ومن تواضعه، ومن رحمته، ومن وفائه، ومن حكمته ما لا يوصف.

مرة ذكرت في خطبةٍ هذه القصة وقلت: أعان الله كُتَّابَ السيرة، فهذه القصة أين يضعونها ؟ إن وضعوها مع حلمه فالأولى أن تكون مع رحمته، أو مع عفوه، أو مع وفائه، أو مع حكمته وحسن سياسته، قال:

اجمع لي قومك، جمع قومه، فقال عليه الصلاة والسلام:

يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم ـ شيءٌ تحدثتم فيما بينكم ـ واجدةٌ وجدتموها علي في أنفسكم، يا معشر الأنصار...

النبي عليه الصلاة والسلام حينما نشأت هذه المشكلة بعد فتح مكة، وبعد معركة هوازن، فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام في أعلى درجات قوته، دانت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، أي أن كلمته مسموعة، وسمع أن هناك من ينتقده، أو من يتحدث على أن هذا الفيء وزّع بشكل أو بآخر، ولم نأخذ حقنا من هذا الفيء، لو أن إنساناً قوياً سمع بهذه المقالة لألغى حياتهم بكلمةٍ واحدة، النبي عليه الصلاة والسلام بماذا بدأ ؟ بدأ بأن ذَكَّرَهُم بفضلهم عليه، قال: **يا معشر الأنصار، أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم، ولصدِّقتم به،** أتيتنا مكذباً فصدقناك ـ ذكرهم بفضلهم، ذكرهم بما يجيش في نفوسهم ـ أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم ـ أنتم صادقون في هذا الكلام، وإذا تحدثتم بهذا الكلام أنتم مصدقون ـ أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم، ولصدِّقتم به، أتيتنا مكذباً فصدقناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك، **يا معشر الأنصار، ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ـ** لم يقل لهم: فهديتكم، تواضع ـ ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي، لو قال: فهديتكم كلام هذا فيه ادعاء ـ قال: **يا معشر الأنصار، ألم تكونوا ضلالاً فأهداكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم ؟ ـ هذه ألا توفي معكم ؟ ـ اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار،** قال: فبكوا حتى أخضلوا لحاهم ـ نزل الدمع إلى لحاهم ـ وقالوا: **رضينا برسول الله قسماً وحظاً.**

ونصُّ الحديث كما في المسند:

((لَمّا أعْطى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا أعْطى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الأنْصَار مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأنْصَار فِي أنْفُسِهِمْ، حَتّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ، حَتّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ إنّ هَذَا الْحَيّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الّذِي أصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيّ مِنَ الأنْصَار شَيْءٌ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ، مَا أنَا إلا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، وَمَا أنَا ؟ قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ

الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ دَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ ؟ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلالا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، قَالُوا: بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ: أَلا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ؟ قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلا فَأَغْنَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ، أَفَلا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَفَرَّقْنَا))

[مسند أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

هذه القصة خلاصتها تواضع، وعفو، ووفاء، ما نسي الذين نصروه في ساعة العسرة، وهو الآن في أعلى درجات القوة، إنسان بهذا الكمال لا يمكن أن يصدر منه أمر أو نهي لمصلحته أبداً، بل لصالح المؤمنين، لهذا قال الله عزّ وجل:

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ (6))

فأنت إذا كنت في الدنيا قد وثقت أن الأب لا يمكن أن يتخلى عنك، وكل تفكيره لمصلحتك، تتقبل أمره ونهيه بطيب نفس، والحقيقة أن الإنسان لا يستسلم لإنسان، ولن تجد إنساناً يُسلِّم قياده لإنسان بلا سبب، بلا دراسة، بلا امتحان ؟ مستحيل، نعم لن تجد إنساناً يقدّم لإنسان كل شيء إلا أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام، فلذلك:

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ (6))

لكن لا يصح أن يقال: النبي أبو المؤمنين.

معنى: وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ

المعنى الأول:

هنا نقطة، إذا كانت أزواجه أمهات المؤمنين، لأن النبي عليه الصلاة والسلام حُرْمَةً له وتكريماً، وتقديساً وتعظيماً من قِبل الله عزّ وجل، جعل نساءه من بعده بمنزلة أمهات المؤمنين، فلا يجوز لمؤمنٍ بعد النبي عليه الصلاة والسلام أن ينكح أزواجه من بعده، هم بمرتبة الأمهات.

المعنى الثاني:

أن هذه المرأة التي عاشت مع النبي، ورأت من كماله الشيء الكثير، مع من تعيش ؟ إنها تعيش مع سيد الخلق.

السيدة عائشة جاءها طبق طعام من ضرتها صفية، أصابتها الغيرة، فأمسكت بالطبق وكسرته، هذه الأيام يقول الزوج الظلوم لزوجته: والله أكسر رأسك إذا كسرته، أحياناً كلمات يقولها الأزواج قاسية جداً في منتهى القسوة،أ ما النبي فما زاد على أن لَمّ أشتات الطبق وقال:

((غضبت أمكم، غضبت أمكم))

[أحمد]

كان حليماً عليه الصلاة والسلام، حلمه، ورأفته، ورحمته، وتواضعه، وصبره، وإيناسه لزوجاته كان شيئاً لا يوصف، أيعقل أن تعيش هذه المرأة التي رأت من كمال النبي ما رأت أيعقل، ثم تعيش مع رجل آخر ؟ هذا مستحيل.

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ (6))

لكن إذا قلنا: النبي أبو المؤمنين أصبحت بنات المؤمنين بنات له، هذا الشيء لا يصح أن يكون، لأنه هو سيتزوج، فإذا صح أن نقول: إن نساء النبي أمهات المؤمنين فلا يصح أن نقول: النبي أبٌ للمؤمنين، والدليل هناك آية كريمة تقول:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)

(سورة الأحزاب: من الآية 40)

والحقيقة أن هنا نقطة دقيقة، أن المرأة أعلى مرتبة تتمنى أن تصلها هي أن تكون أماً، أما بين الأبوة والرسالة مسافة شاسعة، تكريم النبي لا أن يكون أباً للمؤمنين، بل أن يكون رسول الله، ولكن رسول الله وخاتم النبيين.

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(6))

وَأُولُوا الأَرْحَامِ أَوْلَى بِبَعْضٍ

1 ـ التوارث بسبب الموالاة والمؤاخاة في أول الإسلام:

الآن هذه الآية فيها حكم شرعي دقيق جداً، أصحاب النبي الذين اتبعوه في ساعة العُسْرَةَ، والذين هاجروا معه من مكة إلى المدينة، تركوا بلادهم، تركوا ديارهم، تركوا أموالهم، تركوا عشيرتهم، تركوا أهلهم، تركوا أقاربهم، تركوا كل شيء وجاءوا المدينة فقراء ؛ بلا مأوى، بلا أرض، بلا جذور، النبي عليه الصلاة والسلام آخى بينهم، فجعل مؤاخاة الولاء بمستوى مؤاخاة النَسَب، فكان أصحاب رسول الله المهاجرون والأنصار يرثُ بعضهم بعضاً، وبعضهم أولى ببعض.

2 ـ إبطال ونسخ التوارث بسبب الموالاة والمؤاخاة:

أما حينما استقرّ الدين، واستقر الإسلام، وأصبح لأصحاب النبي موردُ رزقٍ، واستقرت الحياة استقراراً عائلياً أُسَرياً طبيعياً، عاد الحكم إلى أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض كما قال الله عزّ وجل:

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ (6))

صار التوارث أساسه نظام القرابة، في أول عهد الصحابة بالهجرة كان نظام المؤاخاة هو أساس التوارث، ولدينا سبب، هو سبب مرحلي، فهؤلاء الأصحاب تركوا كل شيء ؛ تركوا ديارهم، بلادهم، أموالهم، أزواجهم، أولادهم، تركوا موطن رزقهم، وجاءوا إلى المدينة فقراء، فالأنصار آخى بينهم النبي مع المهاجرين، وصار التوارث فيما بينهم، الآن بعد مضي عشرات السنين، صار هناك استقرار، وفتحت الأبواب لكسب الأرزاق، وتوافرت أعمال، واستقرت حياة أساسها الأسرة، إذاً عاد الأصل إلى أصله، عاد التوارث بين الناس على أساس القرابة، قال:

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ(6))

فباعتبار أن الكل صاروا مؤمنين، ومرّ وقت في الأسرة مشتتة، كانت بعضها في مكة كافرة، بعضها في المدينة، في مكة قسم منها كافر، وفي المدينة بعضهم مؤمن، الأب بعض أولاده في مكة، وبعضهم الآخَر في المدينة، فهناك تشتت، فصار الوضع المرحلي أن يكون التوارث على أساس المؤاخاة والولاء، فلما فُتِحَت مكة، وجمعت شمل الأسر، وأصبحت الأسرة بكاملها مؤمنة، لم يعد هناك كفر

ونفاق، الكل مؤمن، فلم تعد حاجة لتكون علاقات الوراثة علاقة ولاء، يجب أن تعود العلاقات علاقات قرابة، لأن المجتمع كله مؤمن.

لو فرضنا الآن أن واحداً ترك دينه، حرم من الإرث لاختلاف الدين، أما لو كانت الأسرة كلها مجتمعة على أب واحد، وأم واحدة، ودين واحد فليس من داعٍ لأن تكون هناك تفرقة في الميراث، وعاد نظام القرابة معمولاً به، هذا معنى قوله تعالى:

(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا(6))

3 – بقاء جواز الإحسان بالوصية إلى مَن له ولاء:

أما إذا أراد الإنسان أن يحسن إلى من له ولاء، إلى من له علاقة، هذا لا يمنع، أحكام الإرث شيء، والوصية والإحسان شيء آخر، فأنت يدك طليقة في الوصية، وفي الإحسان إلى كل الناس، لكن علاقات الإرث تعود إلى علاقات القرابة بعد أن جُمِعَ شمل الأسر، وبعد أن دخل الناس جميعاً في دين الله أفواجاً، وبعد أن انتظمهم الشرع الحنيف.

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا(7))

أخذُ اللهِ العهدَ على النبيين بتبليغ رسالاته:

هؤلاء النبيون أُخِذَ عليهم العهد أن يَبَلِّغوا رسالات الله، أخذ عليهم العهد أن يؤدّوا أمانات الله، أخذ عليهم لعهد أن ينصحوا أمتهم، أخذ عليهم العهد أن يوافق بعضهم بعضاً، أي لا نفرق بين أحدٍ من رسله..

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ (7))

قال بعض المفسرين: كلمة:

(وَمِنْكَ)

تعني تقديم النبي على سائر الأنبياء، ودليل أنه النبي الأول، والمخلوق المفضَل..

(وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا(7))

أوتُوا الْعَزمِ من الأنبياء:

الترتيب زمني، نوح، إبراهيم، موسى، وعيسى، الترتيب زمني من جهة، وهؤلاء الأنبياء هم أولو العزم من الرسل، فهؤلاء الرسل العظام منهم مجموعة بذلت وتحملت ما لا سبيل إلى تَحَمُّلِهِ، فربنا عزّ وجل بدأ بالنبي عليه الصلاة والسلام، ثم ثنىّ بالأنبياء أولي العزم، كسيدنا نوحٍ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى بن مريم.

(وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (7))

وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا

أي ميثاقاً شديداً، وكل إنسان يتعلّم العلم الشريف الله عزّ وجل أخذ عليه الميثاق ليبينه للناس، فما قيمة أن تحضر مجلس علم ؟ القضية فيها مسؤولية، تعلمت هذه الآية، تعلمت هذا الحديث، ماذا فعلت بهذا العلم؟

((لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيمَ أفناه ؟ وعن علمه فيم فعل فيه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟))

[رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ]

(لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (8))

سؤال الله الصادقين يوم القيامة:

(الصادقين) الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، سوف يُسألون: ماذا قلتم للناس ؟ هل بلّغتموهم الحق ؟ ماذا فعلتم ؟ كيف وقفتم من المؤمنين ؟ كيف وقفتم من أعداء الله؟

(لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ (8))

وليسأل أيضاً الذين دعوهم إلى الله عزّ وجل، فالذي تكلم يُسأل، والذي تُحُدِّثَ إليه يُسأل، فالمتكلم يسأل: ماذا قلت ؟ قلت: كذا وكذا، هل فعلت ما قلت ؟ نعم، هناك مجموعة أسئلة يَسألها الله عزّ وجل لمن تصدّى للدعوة إلى الله، والمستمعون أيضاً يسألوا: ماذا سمعتم ؟ أكان الحق واضحاً ؟ ماذا فعلتم فيما علمتم ؟ فالذي تكلم له سؤال، والمستمع له سؤال، وكلنا مسؤولون، ولا ينجو من عذاب الله عزّ وجل إلا من كان في مستوى هذا السؤال.

(لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا(8))

إن شاء الله في درسٍ قادم سوف نبدأ بقصة غزوة الأحزاب، والحقيقة أن هذه الغزوة فيها من الدلائل والعِبَر الشيء الكثير، وفيها مواقف وأحداث كثيرة جداً.

تمهيد لدرس غزوة الأحزاب:

1 – الجانب النظري والعملي في الإسلام:

الحقيقة أن الإسلام له جانب نظري وجانب عملي، الجانب النظري هذه المبادئ، وهذه الأوامر، وهذه النواهي، وهذه الأحكام الشرعية، والأحكام التكليفية، والآيات الكونية، هذا الجانب النظري، القرآن والسنة جانباه النظريّان، ولكن الأحداث التي وقعت في عهد النبي تعد من الجانب العملي.

2 – أهمية القصة وتأثيراتها:

والحقيقة لماذا تعد القصة مؤثرةً ؟ لأنها حقيقةٌ مع البرهان عليها، ما قيمة المنطلقات النظرية إذا بقيت حبراً على ورق ؟ ما قيمة المبادئ السامية إن لم ترها مطبقةً في الحياة ؟ لذلك ربنا عزّ وجل دائماً يدعم الشيء النظري بالشيء العملي، يدعم القول بالفعل، فغزوة الأحزاب فيها من الدلائل الشيء الكثير، فاحتمال النصر كان في هذه الغزوة صفراً بالضبط..

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا(11))

يجب أن تؤمن أن كونك مؤمنا لا يمكن إلا أن تبتلى، ولا يمكن إلا أن تُهَزّ.

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

بعض المؤمنين قالوا:

(مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12))

تقديم موجز لقصة الأحزاب:

تبين لنا أن كل هذه الدعوة خلط في خلط، هذه مقالة المنافقين، طبعاً حينما رأوا الأحزاب قد تحزبوا من كل جانب، ما اجتمع في الجزيرة العربية جيشٌ يَعُدُّ عشرة آلاف مقاتل إلا في غزوة الأحزاب، قريش ومَن ظاهرهم من بني قريظة، وبنو قريظة نقضت العهد، انكشفت ظهور المسلمين، وتألّبت عليهم

القبائل كلها، وأصبح الإسلام مشكلة وقت، وما جرت معركةٌ في الجزيرة العربية هدفها استئصال المسلمين إلا هذه المعركة، استئصال كامل، أن يستأصلوهم من شأفتهم كما يقال، ومع ذلك أظهر الله قدرته، وكيف أنهم هُزِموا على أتفه سبب، وكيف أن الله كفى المؤمنين القتال، ورجع الكفار حيارى، ندامى، خزايا، لأنهم أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم.

إن شاء الله الدرس القادم بأكمله حول غزوة الخندق، ويجب أن نقف عند كل حدثٍ من أحداثها ونستنبط الموعظة، والقرآن كما أقول لكم دائماً: ليس كتاب تاريخ إنه كتاب واقع، فهذه الغزوة فيها دلائل وعِبَر تفيدنا جميعاً في حركاتنا اليومية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (04-18): تفسير الآيات 9 - 13

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-10-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدَي غزوة الأحزاب:

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الرابع من سورة الأحزاب، وصلنا في الدرس الماضي إلى الآية التاسعة، وهي التي تبدأ بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا(9))

(سورة الأحزاب)

وتستمرُّ الآيات من الآية التاسعة وحتَّى الآية السابعة والعشرين، تتحدَّث عن غزوة الخندق، وقد رأيت أن أشرح لكم قبل أن نفسِّر الآيات غزوة الخندق، فإذا تُلِيَت الآيات نكون كأننا ألقينا ضوءاً على تلك الآيات التي تتحدّث عن غزوة الخندق.

أيها الأخوة الأكارم، النبي عليه الصلاة والسلام مُشَرِّعٌ في أقواله، ومشرّعٌ في أفعاله، فإذا كانت أقواله شرحاً لكتاب الله عزّ وجل، فإن أفعاله شرحاً مُفَصّلاً ووافياً لأقواله، وسِيَرُ الصحابة أيضاً فيها الفوائد، والفكر، والعِبَر الكثيرة.

مع غزوة الأحزاب:

فقبل كل شيء هذه الموقعة أو الغزوة هي الغزوة الثالثة، غزوة بدر، وغزوة أُحُد، وغزوة الخندق.

حيثيات ما بعد غزوة أُحُد:

1 - تحريض اليهود لمشركي مكة على قتال النبي وأصحابه:

بعد غزوة أحد وإجلاء بني النضير ثارت ثائرة اليهود، فتحرّك زعماء اليهود واتجهوا إلى مكّة المكرّمة، والتقوا بزعماء قريش، وقالوا لهم: **" إنّا سنكون معكم إلى أن نستأصل النبي وأصحابه ".**

أيها الأخوة الأكارم، من أخطر الغزوات التي مرّت على المسلمين غزوة الخندق، لا لشيء إلا لأنها

غزوة استئصال، ليست غزوة نصرٍ أو هزيمة ؛ بل هي غزوة وجودٍ أو عدم وجود، تتميّز غزوة الخندق بأنها غزوةٌ مصيريّة، أي أنّ مصير الإسلام، ووجود المسلمين، وبقاء هذه الرسالة كان مخطّطاً له أن ينتهي في هذه الغزوة، فقال زعماء اليهود لزعماء قريش: **" سنكون معكم حتّى نستأصِلَ محمّداً وأصحابه".**

قال أبو سفيان: **" مرحباً وأهلاً، وأحبُ الناس إلينا من أعاننا على أعدائنا، ولكن لا نأمنكم إلا إذا سجدتم لآلهتنا، حتّى نطمئنّ لكم ".**

ففعلوا، وضحوا بعقيدتهم، وضحوا بمبادئهم، وضحوا بمقدّساتهم، وسجدوا للأصنام، كل هذا من أجل أن يستأصلوا النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه، وأن يطفئوا نور الله عزّ وجل، عندئذٍ قالت قريشٌ لأولئك اليهود: **" يا معشر اليهود، إنكم أهل كتاب، أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمّد، أفديننا خيرٌ يا معشر اليهود ـ الوثنيّة والشرك والأصنام ـ أم دين محمّد ؟ أنحن أهدى سبيلاً أم محمد؟".**

فقالوا: **" بل دينكم خيرٌ من دينه، وأنتم أولى بالحقّ منه، وأنتم أهدى سبيلاً، لأنكم تعظِّمون هذا البيت، وتقومون على سقايته، وتنحرون البُدن، وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم، فأنتم أولى بالحقّ منه"**، فأنزل الله فيهم:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً(51)أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا(52))

(سورة النساء)

هذه بدايات غزوة الخندق، بل إن آية أخرى تعنيهم، قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

(سورة الجاثية: من الآية 23)

حينما سجدوا لأصنام قريش، وهم أهل كتاب، اتخذوا أهواءهم في استئصال الرسالة الإسلاميّة آلهةً لهم..

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ(23))

لذلك كان من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام الشريفة أنه كان يقول:

((اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

[تفسير ابن كثير]

بعض زعماء اليهود ماذا قال لقومه ؟ قال: **" يا قوم، قد رأيتم ما رأيتم، فأطيعوني، وتعالوا نتبع محمّداً، والله إنكم لتعلمون إنه لنبي، قد بُشّرنا به وبأمره، بشّرنا به فلان وفلان ـ وسمّى اسمين من أعلم علماء اليهود ـ وهما أعلم يهودٍ، جاءانا يَتَوَكّفان قدومه، وأمرونا باتباعه، جاءانا من بيت المقدس، وأمرانا أن نُقْرِئَهُ السلام، ثم ماتا على دينهما، ودفنّاهما بحرّتنا هذه ".**

أي أن من أعلم علماء اليهود جاءا إلى معشر اليهود في المدينة، وبشّرا بقدوم النبي، وقد أمراهم باتباعه صلى الله عليه وسلّم، لذلك قال تعالى:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

(سورة البقرة: من الآية 146)

ومع ذلك سجدوا لأصنام قريش.

بدايات معركة الأحزاب وحيثيات أحداثها الأولى:

1 – مشاورة النبي أصحابَه في أمر عدوّهم:

أيها الأخوة، الآن بدايات هذه المعركة أن قبيلة خُزاعة أرسلت موكباً قطع الطريق بين مكّة والمدينة في أربع ليالٍ، ويُحْمَل الخبر إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أجمعوا عليه، دعا الناس، وأخبرهم خبر عدوّهم، وشاورهم في أمرهم، لذلك ربنا سبحانه وتعالى أمر النبي صلى الله عليه وسلّم أن يشاور أصحابه، فقال:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ)

(سورة آل عمران: من الآية 159)

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلّم المعصوم، الذي هو خير خلق الله كلهم، الذي هو المخلوق الأول، الذي هو سيّد الأنبياء والمرسلين، الذي هو حبيب الله، الذي هو خاتم رسل الله، هذا النبي المعصوم الذي يوحى إليه أُمِرَ أن يستشير أصحابه، فما بال شخصٍ ليس نبيّاً لا يستشيرُ أصحابه، مشاورة الأصحاب من سُنّة النبي عليه الصلاة والسلام، فالنبي عليه الصلاة والسلام بعد أن عَلِمَ أن قريشاً وغطفان وخزاعة قد ائتمرت جميعاً على حرب النبي عليه الصلاة والسلام، واستئصاله وإطفاء دعوته، وأعدوا لهذا عُدّته، وقطعوا الطريق بين مكّة والمدينة تمهيداً لهذه الغزوة، جمع أصحابه، وأطلعهم على ما وصل إليه، وأخبرهم بكل شيء، بل إنّ عمّه العبّاس رضي الله عنه أسلم قبل بدر، وبقي في مكّة عيناً للنبي عليه الصلاة والسلام، فكان عمُّه العبّاس يرسل له الأخبار تباعاً، وأي أخبار ؟ الأخبار الخطيرة، فهو كان مع زعماء قريش، وقد وصل إلى النبي تفاصيل هذه الغزوة، واتفاق قريشٍ مع اليهود، واتفاق

قريشٍ مع غطفان وخزاعة، فالنبي عليه الصلاة والسلام على بيّنةٍ من أمره، وها هو ذا يشاور أصحابه في أمر هذه الغزوة الكبيرة الخطيرة المصيريّة.

2 – اقتراح سلمان الفارسي حفْرَ خندق:

قال سلمان الفارسي: **" يا رسول الله إنّا كنّا بأرض فارس إذا تخوّفنا من الخيل، وإذا حوصرنا خندقنا عليها"**، أي حفرنا خندقاً، حمانا هذا الخندق من خيل العدو.

النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام أُعْجِبوا بهذه الفكرة، ولاسيما أن قوّة قريشٍ تكمن في الفرسان، وهم يمتطون خيولهم، أي أن القوة الضاربة في قريش الفُرسان، عندهم خيولٌ كثيرة، وعندهم فرسانٌ كُثُر، فما دامت قوتهم الكبيرة تكمن في الخيل، وعليها الفرسان، فالخندق سلاحٌ فعّالٌ يقف في وجه هذه الغزوة الشرسة.

3 – إشراف النبي عليه الصلاة والسلام على مكان حفر الخندق:

النبي عليه الصلاة والسلام ذهب بنفسه إلى موقع الخندق، واستشرف معالم الخندق، وحدّد مكانه، وأمر أصحابه أن يحفروا هذا الخندق الذي يزيد طوله على ستّة كيلو مترات، ويزيد عمقه على ثلاثة أمتار، ويزيد عرضه على سبعة أمتار، وقد اختار النبي عليه الصلاة والسلام هذا الخندق بين حَرّتين وجَبَلَيْن، بمعنى أنه المنفذ الإجباري إلى المدينة، وكان بنو قُرَيْظَة ظَهْرَ المسلمين في المدينة، وبين النبي عليه الصلاة والسلام وبين بني قريظة معاهدةٌ وعهدٌ بألاّ يوقع طرفٌ بالآخر أذىً، بقيت الجبال والحرّات حواجز منيعة، والمنفذ الوحيد إلى المدينة هذه الفُرْجَة التي تزيد على ستة كيلو مترات.

إنّ مَن ذهب منكم إلى المدينة المنوّرة، وزار قبر النبي عليه الصلاة والسلام، وذهب إلى منطقة غزوة الخندق حيث جبل سِلْعْ، وحيث مساجد الصحابة الكرام، في هذا الموقع حُفِرَ الخندق.

4 – حفْرُ النبي للخندق مع أصحابه وحمْلُه للتراب:

وقد عَمِلَ صلى الله عليه وسلّم في حفر الخندق مع المسلمين بنفسه، كان كأحد المسلمين يحفر، وينقل التراب، وكان كواحدٍ منهم، وحمل التراب على ظهره الشريف، وهذا من دلائل نبوّته عليه الصلاة والسلام، هذا من تواضعه، هذا من قدوته، هذا من أنه هو المثل الأعلى.

5 – تخفيف النبي على أصحابه وطأة المشقة والجوع بترديد الشعر:

لكن في أثناء حفر الخندق كان العمل شاقاً ومرهقاً، ولاسيما وفي المدينة موجة جوع، عامٌ فيه قَحْطٌ، وفيه مجاعةٌ، وفيه موجة بردٍ شديدة، جوعٌ وبردٌ وخوف، والخندق في ظاهر المدينة، فقال كُتّاب السيرة: **"لقد حصل للصحابة رضوان الله عليهم تعبٌ وجوعٌ وبرد، لأنه كان في زمن عسرةٍ وعام مجاعة، ولما رأى صلى الله عليه وسلّم ما بأصحابه من النصبِ والجوع،** قال متمثِّلاً بقول عبد الله بن رواحة ـ أحد أصحابه وكان شاعراً ـ كان عليه الصلاة والسلام في أثناء الحفر يقول:

((اللهم لا عيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَةِ فَأَصْلِحِ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ))

[من صحيح البخاري عن أنس بن مالك]

اللهمّ لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة فارحم الأنصار والمهاجـرة

اللهمّ لا خيرَ إلا خيرُ الآخـرة فبارك في الأنصار والمهاجرة

اللهمّ إن الأجر أجر الآخـرة فارحم الأنصار والمهـاجرة

اللهمّ لا خيرَ إلا خيرُ الآخرة فانصر الأنصار والمهـاجرة

***

فهذا الشعر الذي يبُثُّ الحماس في نفوس أصحابه، ويخفِّف عنهم متاعب الجوع والخوف والبرد والجهد الشاق، فأجابوه رضي الله عنهم:

((نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا حَيينَا أَبَدَا))

[من صحيح البخاري: عن أنس بن مالك]

وقال صلّى الله عليه وسلّم وهو ينقل التراب، وقد وارى التراب جلد بطنه الشريف، متمثلاً قولَ ابن رواحة:

((وَ اللّهِ لَوْلا اللّهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلا تَصدّقْنَا وَلا صَلّيْنَـا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَـــا وَثَبّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَـا

إِنّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَـلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَـةً أَبَيْنَــا

***

وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ:

أَبَيْنَا أَبَيْنَا))

[من صحيح البخاري عن أنس بن مالك]

وأعاد أبينا ثلاث مرّات:

إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَــاأَبَيْنَا أَبَيْنَا

هكذا قال الله عزّ وجل:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39))

(سورة الشورى)

6 – النظام الكامل لأصحاب النبي واستئذانهم في مغادرة مكان العمل للحاجة:

في أثناء الحفر كان المسلم إذا نابته نائبة، وبدت له حاجة لابدّ منها كان يذكرها لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، ويستأذنه في اللحاق بها، فإذا قضى حاجته، رجع إلى ما كان عليه من عمله رغبةً في الخير والثواب، هذا من أخلاق أصحاب رسول الله، لذلك نزل في حقّهم:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(62))

(سورة النور)

لكن بعض المنافقين كانوا يتسللون لِواذا، أي أنهم يخرجون من ساحة المعركة، ومن ساحة الحفر، ومن ساحة الخندق إلى بيوتهم يستريحون، ويبتعدون عن صخب المعركة وعن هول المشقّة.

7 – عدم جواز تروي المسلم وأخذ حاجاته الأساسية مزحًا:

أحد أصحاب النبي وهو زيد بن ثابت كان غلاماً، وكان ممن ينقل التراب، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((أما إنه نِعمَ الغلام غلبته عيناه في الخندق فنام))

فأخذ عمّارة بن حزمٍ سلاحه وهو نائم، فلمّا قام فزع على سلاحه، فقال له صلّى الله عليه وسلّم:

((يا غلام قد نمت حتى ذهب سلاحك))

ثم قال:

((من له علمٌ بسلاح هذا الغلام ؟))

فقال عمّارة: **" أنا يا رسول الله، وهو عندي "**، فقال عليه الصلاة والسلام:

((ردّه عليه))

ونهى النبي صلى الله عليه وسلّم أن يُرَوّع المسلم، وأن يؤخّذ متاعه لعِبَاً.

هذا حكمٌ شرعي، أن تأخذ حاجةً أساسيّة، أن تأخذ جواز سفر إنسان مازحاً كي يفزع، وكي يبحث عنه، أن تأخذ أداة من أدواته الأساسيّة، هذا ليس من الكمال في شيء.

8 – الكُلُّ يعمل:

وقد رُوي أن أبا بكرٍ وعمر رضي الله عنهما كانا ينقلان التراب بثيابهما، أروع ما في المعركة أن الكلّ يعملون، وعلى رأسهم النبي عليه الصلاة والسلام، هو واحدٌ منهم، هو ينقل التراب على ظهره الشريف، ويرتجز بهذه الأبيات، ويبثُ الحماس في أصحابه، وكانا: **" أبو بكرٍ وعمر صاحباه "** ينقلان التراب بثيابهما لقلّة الأوعية.

9 – قوة النبي الجسمية:

الآن هناك شيء لا يكاد يصدّق وهو أن أصحاب رسول الله في أثناء حفر الخندق يقول أحدهم وهو عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان وحذيفة بن اليمان، والنعمان بن مقرّن المزني وستّةٍ من الأنصار في أربعين ذراعاً ـ كل عشرة أصحاب كرام خَطّ لهم النبي أن يحفروا أربعين ذراعاً ـ فحفرنا المكان الذي خُصّص لنا، وقد ظهر لنا من بين الخندق صخرةٌ بيضاء كَسَرَت حديدتنا ـ أي في أثناء الضرب كُسِرَت المعاول ـ وشقّت علينا، فقلنا: يا سلمان: ارقَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فأخبره خبر هذه الصخرة ـ أي إذا تركناها ينبغي أن ينحرف الخندق، فهل يوافق النبي ـ وهو قائد الجيش ـ على أن ينحرف الخندق ؟ ـ إن تركناها انحرف الخندق، وصلابة هذه الصخرة أكبر من معاولنا، فقال: **يا رسول الله، بأبينا أنت وأمّنا خرجت صخرةٌ بيضاء من الخندق فكسرت حديدتنا، وشقّت علينا حتى ما نستطيع لها محاولةً، فمرنا فيها بأمرك، فإنّا لا نحب أن نجاوز خَطّك** ـ الخط الذي رسمته لنا ـ فهبط النبي عليه الصلاة والسلام مع سلمان في الخندق، ورقينا نحن التسعة على شقّة الخندق لننظر ماذا سيفعل، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلّم المِعْوَل، وقال:

((بسم الله، بسم الله))

وضرب ضربةً فكسرت ثلث الصخرة، وبَرِقتْ برقةٌ فخرج نورٌ من قِبَل اليمن كالمصباح في جوف الليل المظلم، فكبّر النبي صلى الله عليه وسلّم وقال:

((أعطيتُ مفاتيح اليمن))

[مسند أحمد عن البراء بن عازب]

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(26)إلا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)

(سورة الجن)

تراءى للنبي عليه الصلاة والسلام أن اليمن سوف تُفتَح عليه، ثمّ ضرب الثانية فقطع ثُلُثَا الصخرة، فخرج نورٌ من قِبَل الروم، فكبّر النبي صلى الله عليه وسلّم وقال:

((أعطيتُ مفاتيح الشام والمغرب، والله إني لأبصر قصورَهم الحمر))

[ورد في الأثر]

ثمّ ضرب الثالثة فقطع بقيّة الصخرة، وبرقت برقةٌ فكبّر وقال:

((أعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب في مكاني هذا، إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن))

[مسند أحمد عن البراء بن عازب]

وجعل صلى الله عليه وسلّم يصف لسلمان الفارسي أماكن فارس، ويقول سلمان: **صدقت يا رسول الله هذه صفتها، أشهد أنّك رسول الله "**، وهذه من معجزاته صلى الله عليه وسلّم، ثمّ قال النبي صلى الله عليه وسلّم:

((هذه فتوحٌ يفتحها الله بعدي يا سلمان))

تصوّروا النبي عليه الصلاة والسلام محاصر، محاصر من قِبَل عشرة آلاف مقاتل، لم يأتوا لهزيمته، بل أتوا لاستئصاله، ومع ذلك ثقته بأنه نبي لا يهزُّها شيء، وثقته بأن الله ناصره لا يهزُّها شيء، وثقته بأن المسلمين سوف ينتصرون من بعده لا يهزُّها شيئاً، وهو في وضعٍ حَرِج.

موقف المنافقين قبيل غزوة الأحزاب:

عندئذٍ قال المنافقون: **" ألا تعجبون من محمّد يُمَنِّيكم، ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تُفْتَح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الخوف، لا تستطيعون أن تبرزوا، هيهات هَيهات، مِن أين لمحمّدٍ مُلك فارس والروم، وهم أعزٌ، وأمنع من ذلك ؟ كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز قيصر وكسرى، وأحدنا الآن لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط "**، هكذا قال المنافقون.

المنافقون شكّكوا في وعد النبي، شكّكوا في الغيب الذي أطلعه الله عليه، شكّكوا في نبوّته، قالوا: **" أيعدنا صاحبكم أن تُفْتَح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ؟"**، ما هذا الكلام ؟

يروي التاريخ أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يقول حينما فُتِحَت هذه الأمصار في زمن عمر وعثمان وما بعدهما: **" افتحوا ما بدا لكم، فو الذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينةٍ، ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطي محمّدٌ صلى الله عليه وسلّم مفاتيحها قبل ذلك "**.

تبشير النبي أصحابَه بالنصر، ووعدُه إياهم بكنوز قيصر وكسرى:

النبي عليه الصلاة والسلام كان يبشِّر المسلمين ويثبِّتهم ويقول:

((أبشروا بعون الله ونصره، إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وآخُذَ المفتاح، وليهلكنّ قيصر وكسرى، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقون كنوزهما في سبيل الله))

[السيرة النبوية، وبعضه في الصحيحين عن أبي هريرة]

وكان يقول هذا الكلام وهو محاصر، وهو في نهاية الصورة من خطِّه البياني، أي أنه في أشدِّ حالات الضعف، في أشد حالات قوّة الأعداء، في أشد أنواع المكر، في أشد أنواع الضغينة والحقد على المسلمين.

من معجزات النبي وفضائله قبيل الغزوة:

1 – معجزة طعام جابر بن عبد الله:

مما ورد في السيرة الشريفة حول هذه المعركة، أن جابر بن عبد الله ألمّ به جوعٌ شديد، فاستأذن النبي عليه الصلاة والسلام أن يذهب إلى بيته، وقال بعض أصحابه: **" لبثنا ثلاثة أيّامٍ لا نذوق زاداً "**، واستأذن جابرٌ رسول الله صلى الله عليه وسلّم ـ كما قلت قبل قليل ـ في الانصراف إلى بيته فأذن له، قال جابر: فجئت لامرأتي، وقلت لها: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم جائعاً جوعاً شديداً، أفعندكِ شيء ؟ قالت: عندي صاعٌ من شعير وعَنَاق ـ والعناق شاةٌ صغيرة ـ فذبحت العناق، وطحنت الشعير، وجعلت اللحم في بُرْمَة ـ أي في قدر ـ فلمّا أمسينا جئت رسول الله صلى الله عليه وسلّم فساررته ـ أي بيني وبينه ـ وقلت له: **يا رسول الله، طُعَيمٌ لي ـ أي أكل قليل لي ـ فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان فكُلا**، فشبّك عليه الصلاة والسلام أصابعه في أصابعي، وقال: **كم هو الطعام ؟**، فذكرت له ـ أي صاعا من الشعير، وشاة صغيرة، يكفي أربعة أشخاص أو خمسة ـ قال: **كثيرٌ طيّب، وصاح عليه الصلاة والسلام بكل أصحابه**، وقال:

((يا أصحاب الخندق، إنّ جابراً قد صنع لكم طعاماً، فحي هلا بكم))

تفضّلوا وسار النبي صلى الله عليه وسلّم يقدم الناس.

قال جابر: فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله ـ طعام لخمسة أشخاص، والنبي دعا أهل الخندق، وهذه أيضاً من معجزاته صلى الله عليه وسلّم ـ وإنها والله لفضيحة ـ هكذا يقول جابر ـ قال جابر: **"فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله، وإنها والله لفضيحة، إنّا لله، وإنّا إليه راجعون ".**

أقبل الناس مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وأمرهم أن يدخلوا عشرةً عشرة، وأكلوا جميعاً من هذا الطعام الذي صنعه جابر، وهذه أيضاً من معجزات النبي صلى الله عليه وسلّم..

2 – سلمان منّا أهل البيت:

تنافس المهاجرون والأنصار في أثناء حفر الخندق في سلمان الفارسي، سبب التنافس أنه رضي الله عنه كان رجلاً قوياً يعمل عمل عشرة رجالٍ في الخندق، فكان يحفر في كُلِّ يومٍ خمسة أذرع في عمق سبعة أذرع، فقال المهاجرون: سلمان منّا، وقال الأنصار: سلمان منّا، وقال عليه الصلاة والسلام:

((لا منكم، ولا منكم، سلمان منّا أهل البيت))

[الحاكم والطبراني عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

وهذا أصل هذه الكلمة التي قالها النبي عليه الصلاة والسلام، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أنا جَدُّ كل تقي ولو كان عبداً حبشياً))

[كشف الخفاء]

حينما يطيع الإنسان الله عزّ وجل، وحينما يصطلح معه، صار من أقرب الناس إلى النبي عليه الصلاة والسلام، لهذا يقول عليه الصلاة والسلام:

((أشراف أمّتي حملة القرآن وأصحاب الليل))

[الطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس]

الذين حفظوا كتاب الله، وعقلوه، وفهموه، وتلوه على الناس، وأصحاب الليل هم الذين يقومون صلاة الليل، هؤلاء أشراف أمّتي.

استراتيجية النبي عليه الصلاة والسلام قبيل الغزوة:

1 – اختيار مكان المعسكر:

لما فرغ النبي عليه الصلاة والسلام من حفر الخندق، أقبلت قريشٌ ومن معها، فنزلت قريشٌ بمجمع الأسيال، ونزلت غطفانُ ومن معها إلى جانب أحد، وعَسْكَرَ النبي صلى الله عليه وسلّم بالمسلمين في سفح جبل سَلع، فجعل بذلك ظهر عسكره إلى سلع، والخندق بينه وبين الأحزاب، وجعل النساء

والذراري في الآطام، واستعرض النبي صلى الله عليه وسلّم الغِلْمَان، وكانوا بأجمعهم من بلغ ومن لم يبلغ يعملون في الخندق، أصحاب النبي هم وأولادهم يعملون جميعاً في الخندق.

2 – استعراض الجيش صغارا وكبارا واختيار المقاتلين منهم:

فلمّا قرب اللقاء مع العدو استعرض النبي الغلمان، وحان الأمر، فأمر من لم يبلغ أن يعود إلى بيته، وأمر من تجاوز الخمسة عشرَ عاماً أن يبقى معه في المعركة، يروي كُتَّاب السيرة أن النبي عليه الصلاة والسلام أجاز عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأبا سعيد الخِدْرِيّ، والبراء بن عازب.

3 – اختيار أصحاب الألوية:

وأعطى النبي لواء المهاجرين لزيد بن حارثة، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة.

4 – إقامة الحراسة على الأطفال والنساء:

وبعث مسلمة بن أسلم في مئتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير تخوفاً على الذراري من غدر بني قريظة، لأن النساء والذراري في المدينة، وموقع الخندق خارج المدينة.

تفاجؤ المشركين بوجود الخندق:

ولمّا نظر المشركون إلى الخندق قالوا: **" والله إنّ هذه لمكيدة، وما كانت العرب تكيدها"**، تفاجئوا. وصار المشركون يتناوبون، فيغدو أبو سفيان في أصحابه يوماً، ويغدو خالد بن الوليد في أصحابه يوماً، وعمرو بن العاص يوماً، وغبيرة بن أبي وهب يوماً، وعكرمة بن أبي جهل يوماً، وضرار يوماً، فلا يزالون يجولون ويتحرّكون وهم حائرون في هذا الموقف الجديد، فوجئوا بالخندق، كان حاجزاً بينهم وبين النبي عليه الصلاة والسلام، وكان التراب الذي حُفِر قد وضع في الطرف الذي إلى جانب النبي، فصار ساتراً ترابياً، وعقبةً كأدَاء، وحفرةً عميقة، والمدخل إجباري.

بدايات المعركة:

1 – محاولات فاشلة من المشركين لاختراق الخندق:

أقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرسٍ له ليوثِبَهُ الخندق، فوقع في الخندق حيث دُقّت عنقه، وتحطّم مع فرسه، وقيل: رمي بالحجارة، وضربه عليٌ رضي الله عنه بالسيف فقطعه نصفين، وكَبُرَ ذلك على المشركين، فأرسلوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام: إنّا نعطيك الديّة على أن تدفعه إلينا لندفنه، فردّ عليهم رسول الله بأنه خبيث الديّة، فلعنه الله ولعن ديّته، ولا نمنعكم أن تدفنوه، ولا أَرَبَ لنا في ديّته خذوه ـ

2 – نقض بني قريظة عهدهم مع النبي:

الحقيقة أن الأمر وصل إلى منطقةٍ حرجة وهي: أن هذا المانع الترابي، وذاك الخندق الذي حال بين المشركين وبين المسلمين، صار عقبةً كأدْاء، أما ظهر المسلمين فهو مفتوح، وظهر المسلمين يحتلّه بنو قريظة، ولابدّ لبني قريظة من أن ينقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم حتّى يسهُل على المشركين أن يأتوا من ظهر النبي وأصحابه، ما الذي حصل ؟

توجّه زعيم بني النضير من اليهود إلى زعيم بني قريظة بالذات، وحاول معه كثيراً أن ينقض عهده مع محمدٍ صلى الله عليه وسلّم، وقال: جئتك بقريش حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال، وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أُحُد، قد عاهدوني، وعاقدوني ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.

فقال له كعب زعيم بني قريظة: جئتني والله بذلّ الدهر، وكل ما يُخشى، فإني لم أر من محمدٍ إلا صدقاً ووفاءً ـ هذا زعيم بني قريظة ـ ولا زال حُيي زعيم بني النضير يحاور زعيم بني قريظة إلى أن أقنعه بنقض عهده مع محمّد، وعاهده أن قريشاً إذا ذهبت، ولم تقتل محمداً فهو معه في كل ما يصيبه من ضَرّاء، عندئذٍ أزمع زعيم بني قريظة أن ينقض عهده مع النبي صلى الله عليه وسلّم، ومزّق العهد الذي بينهم، وكان في حِلٍّ من هذا العهد.

3 – تحقُّقُ النبي مِن خبر نقض العهد:

الخبر سرى إلى المسلمين، لكن النبي عليه الصلاة والسلام لم يتأكّد منه، ماذا فعل ؟ سيدنا عمر أخبر النبي بهذا الخبر المزعج وهو في أحرج الأوقات، وقال: **" يا رسول الله بلغني أن بني قريظة قد**

نقضت عهدها معك، وحاربت مع أعدائك؟". فاشتدّ الأمر على النبي صلى الله عليه وسلّم، وشقّ عليه ذلك، وأرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وأرسل معهما عبد الله بن رواحة، وقال لهم:

((انطلقوا حتّى تنظروا أحقٌ ما بلغنا عن هؤلاء القوم؟))

انظر إلى التحقق دائماً، خبر وصل، إشاعة، قد يكون إشاعة، فكّلف النبي هذين الصحابيين الجليلين أن يذهبا إلى بني قريظة، ويتحققا بنفسيهما من هذا الخبر الخطير، وكان عليه الصلاة والسلام قائداً حكيماً فقال:

((فإن كان حقاً فألحنوا إلي لحناً أعرفه دون القوم))

فإذا كانوا فعلاً نقضوا العهد، لا تقولوا لي هكذا أمام المسلمين ـ ألحنوا لي لحناً، أي كلام لا يفهمه إلا أنا وأنتم لئلا تضعف معنويات المسلمين، هذا هو الهدف.

فخرج القوم حتى أتوا بني قريظة فوجدوهم قد نقضوا العهد، ونالوا من النبي صلى الله عليه وسلّم، وتبرّؤوا من عقده وعهده، وقالوا: **" لا عهد، ولا عقد بيننا وبين محمد، وقالوا أيضاً: مَن رسول الله؟من هو هذا؟.**

فشاتمهم سعد بن عبادة، وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدّة، فقال سعد بن معاذ: **" دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ".**

ثمّ أقبل سعد بن عبادة وسعد بن معاذ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم فكَنُوا له عن نقضهم العهد، وقالوا: **" عَضَلٌ والقارّة "**، أي هما قبيلتان نقضتا العهد فيما مضى، فكَنَّيا عن نقض العهد باسمي هاتين القبيلتين، أي غدروا كغدر عَضَلٍ والقارة بأصحاب الرَجيع.

فقال عليه الصلاة والسلام:

((الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين نصرٌ من الله وفتحٌ قريب))

ثمّ تقنّع بثوبه، واضّطجَعَ، ومكث طويلاً، فهذا الخبر كان أشد خبر في أثناء المعركة، فاشتدّ على الناس البلاء والخوف حين رأوه قد اضّطجع، ثم رفع رأسه فقال:

((أبشروا بفتح الله ونصره))

[السيرة النبوية]

هؤلاء هن نساء الصحابة:

وعن عبد الله بن الزبير قال: **" كنت يوم الأحزاب أنا وعمر بن أبي سلمة مع النساء، وكان حسّان قد أصابته وعكة فأقعدته، واتفق أن يهودياً جعل يطوف بذلك الحصن، فجاءت صفيّة إلى طرف الحصن،**

وألقت عليه عموداً فقتلته به "، وكان هذا اليهودي كأنه قد أُرْسِلَ من قِبَلِ قومه ليتجسّس، فلمّا قُتِل عرفوا ـ يعني اليهود ـ أن المدينة مُحَصّنة وأنها في مَنَعَةٍ من أن ينالها اليهود.

غزوة الأحزاب من خلال وصف القرآن لها:

أيها الأخوة... الآن جاء العدو إلى المدينة، وقال الله عزّ وجل:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا(10))

انظر الظن، أين الله ؟ أحياناً الإنسان يقول: أين الله ؟ في ساعة الشدّة..

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا(11))

وظهر المنافقون، حتّى قالوا: **" كان محمدٌ يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.**

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا(13))

أيها الأخوة... عَظُمَ البلاء على المسلمين، فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام إلى عُيَيْنَة بن حصن الفزاري، وإلى الحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان.

وجهًا لوجهٍ: عليّ بن أبي طالب وعمرو بن وُدّ:

1 – تردُّدُ النبي في قبول مبارزة علي لعمرو بن ود:

طائفةٌ من المشركين أقبلوا، وأكرهوا خيلهم على اقتحام الخندق من مضيقٍ به، فيهم عكرمة بن أبي جهل، وهُبَيْرَةَ بن أبي وهب، وضرّار بن الخطّاب، وعمرو بن عبد ود بن أبي قيس، ونوفل بن عبد الله، فقال عمرو بن عبد ود: **" من يبارز؟"**، وكان من أشجع الفرسان، فقال عليٌّ رضي الله عنه: **" أنا له يا نبيّ الله"**، فقال عليه الصلاة والسلام: اجلس إنه عمرو بن عبد ود، أي أن هذا من أشجع الفرسان، وقد خاف النبي عليه، فقال عليٌّ رضي الله عنه: **" وإن كان عمراً، أنا له".**

2 – إذنُ النبي لعلي في المبارزة:

عندئذٍ أذِنَ له النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن تأكّد من عزيمته في مواجهة هذا الخصم المعروف ببأسه، وأعطاه سيفه ذا الفَقَار، وألبسه درعه الحديد، وعمّمه بعمامته وقال:

((اللهمّ أعنه عليه، إلهي أخذت عبيدة مني يوم بدر، وحمزة يوم أحد، وهذا أخي وابن عمي فلا تذرني فرداً، وأنت خير الوارثين))

[السيرة النبوية]

3 – حوار رهيب بين علي وعمرو بن ود:

فلمّا وصل عليٌ إليه، وكان مُلثماً، قال عمرو: **" من أنت ؟ "** لأن علياً كان مقنّعاً بالحديد والعمامة، قال: **" أنا عليُ بن أبي طالب "**، فقال عمرو: **" غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أشدُ منك "**، أي أنت صغير، فقال عليّ: **" يا عمرو، إنّك كنت قد عاهدت الله لا يدعوك رجلٌ من قريش إلى واحدةٍ من ثلاث إلا قبلتها "**، فقال عمرو: **" أجل"** قال: **" وأنا أدعوك أن تشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتسلم لربِّ العالمين"**، فقال: **" يا ابن أخي أخِّر عني هذه "**، قال: **" وأخرى ترجع إلى بلادك، فإن يكُ محمد صلى الله عليه وسلّم صادقاً كنت أسعد الناس به، وأن يكُ كاذباً كان الذي تريد "**، قال عمرو: **هذا ما لا تتحدّث به النساء أبداً، كيف وقد قدرت على استيفاءِ ما نذرت ؟ ما هي الثالثة؟ "** فقال علي: **"البراز"..** أي المقاتلة.. فقال عمرو ضاحكاً: **" إن هذه لخصلة ما كنت أظن أن أحداً من العرب يروّعني بها، لمَ يا ابن أخي، ما أحبّ أن أقتلك ؟ فإن أباك كان لي صديقاً، وكنت لي نديماً، فإني أكره أن أسيل دمك "**، فقال عليٌ: **" ولكني والله أحبُ أن أقتلك، وما أكره أن أهريق دمك".**

4 – وقوع المنازلة وقتل علي لعمرو:

فغضب عمرو، وأخذته الحَمِيّة، واستعدّ للنزال، وتنازلا ـ من دون أن أذكر التفصيلات ـ إلى أن ضربه عليٌ رضي الله عنه ضربة قاضية أوقعته غريق دمائه.

دعاء النبي على قريش:

شيءٌ آخر هو، أن قريشاً بعد أن قُتِل استعادت هؤلاء الذين اجتازوا الخندق، وبدأت تُرسل الطلائع ليلاً، وتغير على المسلمين بالنَبْل، فأقام المسلمون في شدّةٍ من الخوف، ودعا النبي صلى الله عليه وسلّم على الأحزاب:

((أَيُّهَا النَّاسُ، لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ))

[من صحيح البخاري عن عبد الله بن أوفى]

ثم دعا النبي صلى الله عليه وسلّم، وقال:

((يا صريخ المكروبين، يا مجيب المضطرين، اكشف غمي وهمي وكربي، فإنك ترى ما نزل بي وبأصحابي))

[تفسير القرطبي]

وبعد فإني أعتقد أنه لا توجد معركة زلزلت أصحاب النبي كهذه المعركة، وقال المسلمون لرسول الله:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ مِنْ شَيْءٍ نَقُولُهُ، فَقَدْ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ؟ قَالَ: نَعَم، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا، وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا))

[من مسند أحمد عن أبي سعيد الخدري]

هذا الدعاء قاله وقتها النبي عليه الصلاة والسلام.

مكث المسلمين في الخندق شهرا:

وأقام المسلمون في الخندق قريباً من شهر، ومن قبل شهر حفرٍ، وشهر لقاء مناوشات، وبرد، وجوع، وتعب، وخوف، وكان صلى الله عليه وسلّم يختلف إلى ثُلمَةٍ في الخندق، فإذا أخذه البرد عاد إلى قُبّته فأَدْفِئ ثم يخرج ليطمئنّ إلى الثلمة، ثم قال": **ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثلمة الليلة**، فسمع صوته سعد بن أبي وقّاص، وقال سعد: **" يا رسول الله، أتيتك أحرسك**، فقال النبي: **عليك هذه الثلمة فاحرسها**، ونام النبي صلى الله عليه وسلّم، ثم قام يصلي، وكان إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة، هذه سنّته، إذا أمرٌ صعب، كربٌ شديد، افزع إلى الصلاة ؛ صلِّ، وابتهل، وتوسّل.

ثمّ خرج النبي عليه الصلاة والسلام من قبّته فقال: **هذه خيل المشركين تطوف بالخندق**، ثم نادى صلى الله عليه وسلّم: **" يا عبّاد بن بشر "** فقال: **" لبيك "**، قال: **" هل معك أحد ؟ "**، قال: نعم، أنا في نفرٍ

حول قبّتك يا رسول الله، فبعث صلى الله عليه وسلّم عبّاد يطيف بالخندق، وأعلمه بأن خيل المشركين تطيف به، ثم قال:

((اللهمّ ادفع عنا شرّهم، وانصرنا عليهم، واغلبهم لا يغلبهم غيرك))

وإذا أبو سفيان في خيلٍ يطوفون في الخندق، فرماهم المسلمون حتّى رجعوا.

نزول جبريل على النبي بالبشرى:

ونزل جبريل الأمين على النبي عليه الصلاة والتسليم، فبشّر النبي عليه الصلاة والسلام أن الله سيرسل عليهم ريحاً وجنوداً، وأعلم النبي أصحابه بذلك، وهذه طبعاً نبوءةٌ لها أهميّتها في مثل هذه الظروف، وصار يرفع النبي يديه قائلاً:

((شكراً لك يا رب، شكراً لك على فَرَجِكَ ونصرك))

وعُرِفَ لأول مرّة بعد شهرين في وجهه السرور.

وللمعركة تتمّةٌ نتابعها في درسٍ قادم، وبعدها نقرأ الآيات، فإذا قرأت الآيات عرفنا كل آيةٍ كيف أبعادها، وما مدلولها، وما مضمونها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (05-18): تفسير الآيات 9 - 24
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-10-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

حقيقة مهمة:

1 – مرور المؤمن بظروف قاسية في حياته:

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الخامس من سورة الأحزاب، في الدرس الماضي بَيّنْتُ بفضل الله عزّ وجل الأحداث التي عاشها المسلمون في غزوة الخندق، وأردت من الدرس الماضي أن يكون أرضيةً لهذا الدرس الذي تتعلق آياته بغزوة الخندق، وقبل أن أبدأ بسرد الآيات المتعلِّقة بهذه الغزوة، أحب أن أضع بين أيديكم الحقيقة التالية، وهي:

أن المؤمن يمر في حياته الدنيا بظروفٍ معينة، من هذه الظروف ما هي لصالحه، ومن هذه الظروف ما يبدو لأول وهلة أنها لغير صالحه، والحقيقة أن الله يبني إيمان عبده لبنة لبنة، الله سبحانه وتعالى من خلال الظروف، من خلال المِحَن، من خلال الشدائد، من خلال العطاء، من خلال المنع، من خلال الطمأنينة، من خلال الخوف، هذه الظروف التي تحيط بالإنسان، والتي تنعكس على نفسه ؛ تارةً خوفاً، وتارةً قلقاً، وتارةً طمأنينة، وتارةً انقباضاً، وتارةً انشراحاً، هذه الظروف المادية التي تنعكس على نفس المؤمن إنما هي مسخرةٌ لبناء إيمانه الصحيح.

1 – أمثلة من واقع الصحابة:

غزوة بدر:

لنأتِ بأمثلة، قال ربنا عزّ وجل:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران: من آية " 123 ")

أي ضعاف، فئةٌ قليلةٌ، مستضعفةٌ، مطاردةٌ ؛ وقريش بخيلها، ورَجِلِهَا، وقوتها، وعتادها، وشأنها، وجبروتها، تريد أن تقهر هذه الفئة المقهورة، فإذا بالأحداث تأتي على عكس ما هو متوقع.

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران: من آية " 123 ")

هذا الحدث يبني إيمان المؤمنين، فإذا كنت مع الله فلا تخش أحداً، إذا كنت مع الله فالله معك، إذا كنت مع الله تنقلب موازين القوى كلها.

غزوة حنين:

ويوم حنينٍ اجتمع المسلمون بأكبر قوةٍ ضاربةٍ في الجزيرة، عشرة آلاف مقاتل فتحوا مكة، ودانت لهم الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، وقالوا في أنفسهم: **" لن نغلب اليوم من قلة ".**

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

حينما كنتم ضعافاً، وكنتم مفتقرين إلى الله عزّ وجل، أيدكم الله بنصره، وأعزكم، وأعلى شأنكم، وحينما اعتمدتم على قوّتكم الذاتية، وعلى كثرتكم العددية، وعلى أن الناس كلهم دانوا لكم، ألقى الله في قلوب أصحاب رسول الله الخوف فولوا مدبرين.

إذاً: موقعة حنين بنتْ في إيمانهم لبنة، وموقعة بدر بنت في إيمانهم لبنة، ومعركة أُحُد أيضاً حينما خالفوا أمر النبي عليه الصلاة والسلام، كيف أن الكفار تعقّبوهم وأوقعوا فيهم ما يؤلمهم، ومعركة الخندق وضعتهم في امتحانٍ شديد.

فيجب أن تؤمن، وأن توقن أنه لن تنال من الله ما تريد إلا إذا دفعت الثمن، فكلما ادّعى الإنسان أنه في مستوى، وهو دون هذا المستوى، ربنا عزّ وجل يتولى من خلال أفعاله والظروف المحيطة بالإنسان أن يُحَجِّمَهُ، وأن يعيده إلى حجمه الحقيقي، قد ينمو إيمانه من جانب، ولا ينمو من جانبٍ آخر، فلذلك: لابدّ للمؤمن من أن تكون حياته ملوّنَةً ؛ فيها عطاء، فيها منع، فيها صحة، فيها مرض، فيها طمأنينة، فيها خوف.

ما الموقف الكامل في الخوف ؟ ما الموقف الكامل مع الطمأنينة ؟ ما الموقف الكامل مع الصحة ؟ مع القوة ؟ مع المرض ؟ هذه الامتحانات، وهذا البلاء، وهذه الشدائد، وتلك الظروف المعينة، يسوقها الله سبحانه وتعالى للمؤمنين لينضج إيمانهم، وليبنى إيمانهم بناءً صحيحاً، من خلال هذه المقدمة يجب أن نفهم غزوة الخندق:

غزوة الخندق من خلال القرآن:

يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ(9))

(سورة الأحزاب)

1 – جنود الشرك:

جنود ؛ قريش، وغطفان، وكل القبائل العربية اجتمعت على استئصال النبي وأصحابه، اجتمعوا من كل حَدَبٍ وصوب معهم العدة، الخيول، الأسلحة، الرماح، الحقد الدفين.

(إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا (9))

2 – جنود الله: الريح والملائكة:

إنها ريح قلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وأطفأت نارهم، وإصابتهم بالبرد الشديد، وحاروا في أمرهم، وقذف الله في قلوبهم الرُعب، وفرق بينهم، وشتت شملهم.

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا (9))

الملائكة، أي حاربناهم بالرياح العاتية، وبالملائكة الذين قاتلوهم من دون أن تروهم.

(وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9))

اطّلاع الله على الأحوال كلها:

أي أن الله عزّ وجل بصير، يعرف ما أنت عليه، من إيمان، من توكّل، من إخلاص، من طهارة، حالك مكشوفٌ عند الله عزّ وجل، وفي ضوء حالك يسوق الله لك ما يناسبك، فإذا كنت صافي السريرة، طاهر الطويّة، مخلص النية، إذا ابتغيت بعملك وجه الله عزّ وجل والله يعلم ذلك، فاطمئن بأن الأمر كله بيد الله..

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه وقطعت أسباب السماء بين يديه))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

أقول لكم أيها الأخوة... إن هذه المعارك التي خاضها النبي وأصحابه ؛ معركة بدر، معركة أحد، معركة الخندق، حُنَيْن، هذه المعارك يمكن أن يعيشها الإنسان بشكل مُصَغَّر، فأحياناً يعتدُّ بعلمه فيرتكب حماقةً لا توصف، أين علمك ؟ أي عقلك ؟ يأخذ بالأسباب ويعتمد عليها، فيؤتى من مأمنه، إذاً هذه الوقائع وهذه الغزوات يمكن أن نمر بها على شكل فردي، أو على شكل مخفف، أو على شكل صغير، فليست العبرة من هذه الدروس أن نقف على تلك الأحداث التاريخية، لقد مضت، وانقضت، ومات أهلها؛ بعضهم استشهد، وبعضهم مات حتف أنفه، وبعضهم، وبعضهم، ومضى عليهم ألفٌ وخمسمائة عام، أما الدروس والعِبَر التي يمكن أن نستنبطها من هذه الغزوة نستفيد بها كل يوم.

فأحياناً الله عزّ وجل يلوح لك بشبح مصيبة، فأنت إذا كان إيمانك قوياً تعلم علم اليقين أنها بيد الله، وأن الله قادرٌ على أن يوقعها بك، وقادرٌ على أن يصرفها عنك، ولأتفه الأسباب، فالله عزّ وجل حينما ينصر المؤمن قد ينصره بسبب صغيرٍ جداً، فخيوط العنكبوت التي نسجت على مدخل غار ثور، هي التي نصرت هذه الدعوة الإسلامية، لسببٍ صغيرٍ جداً، أحياناً يلقي الله في قلب خصمك الخوف منك، شيء لا تراه أنت بعينك، أحياناً خصمك لا يراك، هو ينتظرك ولكن لا يراك، وأحياناً ينتظرك ويراك وفجأةً يلقي الله في قلبه العطف عليك، وأحياناً يلهمك ما يُبْطل تدبيره، الأمر كله بيد الله، فإذا كنت مع الله كان الله معك، وإذا كنت مع الله لا أحد يستطيع أن يقترب منك، إذاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ (9))

يا ترى أليس في حياة أحدنا يومٌ عظيمٌ من أيام الله ساق الله له نية الخير، أو صرف عنه شراً ؟ فلا أعتقد أن هناك مؤمن تخلو حياته من أدلةٍ قاطعةٍ على أن الله هو المتصرّف، وأنه سميعٌ، بصيرٌ، مجيبٌ، عليمٌ، قديرٌ، غَنِيٌّ، يصرف هذا الشيء لمن يشاء، وعمن يشاء، بقدر، وبتقدير، وبحكمة..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا(9))

يرى ويبصر، لذلك قال بعضهم: الحمد لله على وجود الله، أي أنك مع الله فالقضية سهلة معك، لا يريد يمينا، يعرفك، لا يريد وصلاً، ولا يريد دليلاً، ولا يريد إثباتاً، كل هذه الأدلة التي يبحث عنها الناس ليثبتوا حقيقةً أمام القضاة، الإنسان مع الله معفىً منها، لأن الله مطلعٌ على حقيقتك.

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى))

[صحيح البخاري عن عمر]

(وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (9) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ (10))

صورة مِن صور الخوف يوم الخندق:

1 – الحصار البري الكامل:

هؤلاء اليهود من خلف ظهورهم.

(وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ (10))

من الوديان المقابلة للمدينة، من فوقكم اليهود، ومن أسفل منكم قريش ومن لف لفّها، وربنا عزّ وجل صوّر الخوف الشديد الذي أصاب المؤمنين والقلق البالغ بصورتين..

(وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ (10))

2 – زيغ الأبصار:

الإنسان دائماً ينظر إلى شيءٍ ما ويركز عليه بصره، فإذا وقع في اضطرابٍ وحيرةٍ، وخوفٍ، وقلقٍ دارت عيناه، لو وقف رأسه تتحرك عيناه يمنةً ويسرةً، باضطرابٍ شديد، حركة العين المضطربة يمنةً ويسرةً هو زيغ البصر، وزيغ البصر كنايةٌ عن قلق الضمير، فهؤلاء أصحاب رسول الله وعدوا بأن تفتح عليهم بلاد قيصر وكسرى، وعدوا بأن يكونوا خلفاء الله في الأرض، معهم رسول الله، يوحى إليه، القرآن يتنزل عليه، هم على حق.

(فَتَوَكّلْ عَلَى اللهِ إِنّكَ عَلَى الحَقّ المُبِين)

فجأةً رأوا أن الأعداء من كل جانب، وأن بقاء الإسلام قضية ساعات، وينتهي الإسلام، وتنتهي هذه الدعوة، وينتهي هذا الدين، ويقتل النبي وأصحابه، وتعود الجاهلية كما كانت، ويشرب الخمر، ويُلْعَبُ بالميسر، ويتعامل بالربا، وتعود القَيْنَات والمزامير، إنها مشكلة خطيرة جداً، أين وعود النبي ؟ أين إشراقاته ؟ أين وعد الله له ؟ أين تطمين الله له ؟

(وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ (10))

3 – بلوغُ القلوب الحناجر:

أي أن بينهم وبين اليأس قيد أنملة، لكن الأصعب من هذا كله قد تزيغ العين، وقد يبلغ القلب الحنجرة.

4 – سوء الظن بالله عزّ وجل:

أما أن يظن الإنسان بربه ظن سوء ؟!

والله الذي لا إله إلا هو إن أكبر مصيبةٍ يصاب بها المؤمن أن يسئ الظن بربه.

إسقاط على الواقع:

أحياناً يرى أن أهل الكفر والضلال مسيطرون، وأن مشيئتهم هي النافذة، وأن أهل الإيمان مستضعفون، لهذا فالنبي عليه الصلاة والسلام كلماتٌ دقيقة لا أنساها، حينما خاطب عدي بن حاتم قال له: **"لعله يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم "** ـ المؤمنون فقراء، أحياناً الإنسان يرى المؤمنين جماعة دراويش (لا شأن لهم)، فقراء، يعيشون على هامش الحياة، بأعمال متواضعة جداً، دخلهم قليل، أهؤلاء الذين يحبهم الله عزّ وجل ؟! وأهل الكفر والضلال في مراكز رفيعة، وغنى، وقصور وبيوت، وأموال طائلة، فأحياناً الإنسان يذهب إلى أوروبا، إذا كان ضعيف الإيمان يتزلزل إيمانه، أمم تعيش برفاه كبير، بنِعَم لا تعد ولا تحصى، فكلابهم يأكلون من اللحم أضعاف ما يأكل شعبٌ بأكمله من اللحم، فيتساءل: أين الله ؟! هؤلاء يفسقون، ويفجرون، ويشربون الخمر، ويزنون، نساؤهم كاسياتٌ عاريات، يتعاملون بالربا، وهم أقوياء، أغنياء، متجبّرون، لو قرأ الإنسان القرآن لعرف الحقيقة، قال:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44))

(سورة الأنعام)

بطولتك أن تثق بالله عزّ وجل، وأن العاقبة لك، والله الذي لا إله إلا هو زوال الكون أهون على الله من أن يضيع مؤمناً، أنت تتعامل مع خالق الكون، مع القوي، مع العزيز، مع الذي بيده كل شيء، مع الذي بيده كل خصومك، أرواحهم بيده، خواطرهم بيده، قلوبهم بيده، قوتهم بيده، فلذلك إذا ادعيت أنك مؤمن فالإيمان غير كافٍ، فربنا عزّ وجل يضعك في ظرفٍ صعب ابتلاءً لدعواك واختباراً..

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ (11))

قال:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا(10))

ألم يقل محمدٌ: تفتح لكم قصور قيصر وكسرى، ونحن لا نقدر أن نقضي حاجة، أين رسالاته ؟ الله تخلى عن المؤمنين، نصر الكفار، قوّاهم، هم متجبرون وأيّدهم بقوته، وجعلهم الأعلون، فأين إذاً وعود الله عزّ وجل ؟

إذا التقى الإنسان بأخ كريم يأتي للمساجد، يحضر دروس علم، يقول لك: أنا إذا استقمت أرتاح، وتكثر زبائني، وأحس براحة، فيستقيم، فيجد أموراً صعبة يواجهها، صعبة جداً، فبماذا تكلم الأستاذ ؟ تقول له: أنت أتيت لمصلحة، ما دامت جئت لمصلحةٍ فلن تجد حاجتك، يجب أن تحب الله من دون شائبة، فكل إنسان يتوهم أنه إذا استقام سيعيش في بحبوحة كبيرة، يريد أن يترفّه، والناس يعظمونه، قد يكون هذا وقد يحصل، وفي أغلب الظن يحصل، أما إذا أردت من الاستقامة الدنيا فهذه استقامة تجارية، من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا كافأناه، فالصحابة الكرام..

(وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10))

من صور سوء الظن: لا تقتلوا عمي العباس:

والعياذ بالله، سيدنا العباس عم رسول الله، أسلم قبل معركة بدر، وبقي في مكة عيناً للنبي، وكان يقدّم له المعلومات أولاً بأول، معلومات من أعلى مستوى، فحينما تأتمر قريش على النبي، حينما تزمع أن تغزوه، حينما تدَبّرُ له خطة، هذه المعلومات تصل إلى النبي فوراً، فيأخذ احتياطاته، فكان للنبي قيادة ذات مستوى رفيع جداً، جاءت معركة أحد، وخاف أن يقتله أصحابه، يقتلوا عمه، فقال عليه الصلاة والسلام: **"من رأى عمي العباس فلا يقتله "** ـ لكن صحابياً قال في نفسه: **" نحن نقتل آباءنا وينهانا عن قتل عمه ؟! نقتل آباءنا وإخواننا وينهانا عن قتل عمه**، النبي لا يستطيع أن يقول: عمي مسلم، إذا قال له: مسلم، انكشف، انتهى، انتهت مهمته بمكة، ولو أعلن سيدنا العباس عن إسلامه لانتهت مهمته، ولو لم يوجه أصحابه بعدم قتله لقتلوه، بالمعركة، وإذا لم يخرج معهم للمدينة ينكشف أيضاً أمره، فيجب أن يصحبهم للمعركة فالنبي قال: **" من رأى منكم عمي العباس فلا يقتله "**، لأنه لو قال: عمي لقد أسلم، لشاع الخبر، وانتهت مهمته في مكة، ولو لم يوجّه أصحابه بهذا التوجيه فهناك مشكلة ثانية، قد يقتل في معركة أحد.

فقال هذا الصحابي بعد أن كشفت له الحقيقة ؟ بعد أن ظن بالنبي ظن السوء، إنه ينهانا عن قتل عمه، ونحن نقتل آباءنا ؟! فصارت هذه قضية عصبية، بعد أن كشفت له الحقيقة، هذا الصحابي ظل يصلي ويصوم، ويفعل الصدقات، ويعتق، لعل الله يغفر له هذا الظن السوء بالنبي عليه الصلاة والسلام، فكيف لو ظن الإنسان بربه ظن السوء ؟ فقد تجد أحياناً من يقول: الله يريد أن يعذبنا، لا يحبنا، يقول لك:

المسلمون متخلفون، فقراء، مُقَدّرَاتُهُم بيد عدوهم، هكذا يرغي ويزبد، كأن الله ليس له علاقة بالموضوع. أما هنا:

(وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10))

لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((إن حسن الظن بالله من حسن العبادة))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

لا بد من حسن الظن بالله:

البطولة أن تحسن الظن بالله، وأنت في مشكلة، فقد يقول لك الشيطان: أين الله ؟ انظر ماذا فعل بك ؟ أنت الصائم، المصلي، الطائع، من روّاد المساجد، تغض بصرك، دخلك حلال، انظر ماذا فعل بك، انظر إلى جارك ؛ يزداد قوة، ومنعة، واستعلاء، وغنى رغم أنه غارق في المعاصي، أهكذا الله يعامل عباده ؟ هذا كلام الشيطان، هنا جاء دور الشيطان.

(وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10))

أما المؤمن فلا يبالي، مهما علا أهل الكفر.

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197) لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة آل عمران)

فأصعب مصيبة:

(وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10))

لهذا سيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة قال: **<< الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني >>**، فكل شيء في غير دين المرء ممكن محتمل، أما أن تسئ الظن بالله الذي خلقك، والذي أكرمك، والذي منحك نعمة الوجود، والذي منحك نعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، تسيء الظن به فلا ! قال تعالى:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11))

غزوة الخندق ابتلاء وزلزال:

ذكر لي مهندس أنه: إذا كانت شرفة فيها شقوق، ما العمل ؟ هناك نظام التحميل، يضعون عليها عشرة براميل ممتلئة بالماء، فإذا انهارت هذا هو المطلوب، لأنها سيئة، وإذا صمدت، معناها جيدة جداً، فهذه الشقوق ليست لها قيمة، هذا اسمه نظام التحميل.

وهذا النظام معمول به عند ربنا عزّ وجل إذ يحمِّل المؤمن أحياناً مشكلة، إذا انتهى إيمانه يكون عرفه بنفسه، وعرف الناس به، معناها أن دعواه كبيرة جداً، وهو ليس بهذا المستوى، يدعي بأنه مؤمن إيماناً قوياً، وإيمانه ضعيف، فمن أجل هذا الضغط القليل ترك الصلاة، فأكثر شيء يصيب الإنسان الضغط والإغراء، وسيلتا الامتحان إما إغراء مالي أو شهواني، أو ضغط مادي أو معنوي، بالضغط والإغراء تظهر حقيقة الإنسان.

لقد عرضوا على رسول الله في مكة أجمل فتاة يزوجونها له، عرضوا عليه أموالاً طائلة، عرضوا عليه زعامة قريش، فما زاد على أن قال:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

وهكذا المؤمن، فالدنيا كلها بالنسبة للمؤمن تحت قدميه، الدنيا كلها مسخرةٌ للحق، هو عبدٌ لله وهي مسخرةٌ لها، وليس هو عبداً له، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ، وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ))

[سنن ابن ماجة عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11))

مرة قلت لكم: لكي يمتحنوا قوة تماسك الإسمنت يصبُّون مكعبات من أنواع مختلفة، يضعون هذا المكعب بين فكّين، فك لاقط، وفك حامل، يضعون بالفك التحتاني وزناً على ألف غرام يكسر، لأن طاقته ألف غرام، وهذا النوع على ألفين غرام، هذا على ثلاثة آلاف غرام، فكلما كان تماسك الإسمنت أقوى، كانت قوة تحمله أقوى.

والمؤمن كذلك، فهناك مؤمن من جراء كلمتين يهدّد بهما يترك الصلاة، فمعنى هذا أنه ليس مؤمنا، بينما تجد مؤمنا لا يعصي الله ولو قُطِّعَ إرباً إرباً، أحدٌ أحد، فردٌ صمد، كسيدنا بلال.

لما وقف أبو سفيان زعيم قريش الكبير على باب عمر، وقف ساعاتٍ طويلة فلم يؤذن له، أما بلال وصُهيب فيدخلان بلا استئذان، فلما دخل عليه عاتبه، قال له: **زعيم قريش يقف في بابك ساعاتٍ طويلة، من دون أن تأذن له، وصهيبٌ وبلال يدخلان بلا استئذان ؟** قال: **أنت مثلهما ؟ أين كنت عندما كان بلال يقول: أحدٌ أحد، فردٌ صمد، أين كنت أنت ؟** قال:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا(12))

هذا هو موقف المنافقين في كل عصر ومصر:

المنافقون ومن كان في قلبه مرضٌ من المؤمنين، مؤمن لكن قلبه يتملكه خوف، مؤمن لكن إيمانه ضعيف، مؤمن فيه زَيْغ..

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا(12))

ظهر واتضح أن كلامه لا معنى له، فارغ، كلها وعود، ليس لها أساس، لا رسالة، ولا نبوة، الشيء انتهى، هذه تخمينات المنافقين ومرضى القلوب..

(وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا(13))

مِن أقوال ومواقف المنافقين: يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا

معنى الرجوع:

قال بعض المفسرين يعني: ارجعوا عن هذا الدين وعودوا إلى وثنيتكم، هذا الدين لم يأتنا بخير، وقال بعضهم: ارجعوا إلى المدينة، لأنهم في الخندق، بيوتهم في المدينة وهم في الخندق.

(وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ (13))

أي أن هذا المقام غير جيّد، هذا مقام الهلاك، هذا مقام القتل، هذا مقام التدمير، لا مقام لكم فارجعوا، إما فارجعوا عن دينكم، وعودوا إلى جاهليتكم، أو ارجعوا إلى بيوتكم، فهي أحصن لكم من هذا المكان، أنتم هنا مقتولون لا محالة، قومٌ أشداء، عشرة آلاف مقاتل، والصحابة كان عددهم ألفًا فقط، وهم الذين حفروا الخندق بما فيهم الصغار، والكفار عشرة آلاف، فارجعوا..

(وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ (13))

استئذان فريق من المنافقين النبي لمغادرة مكان المعركة:

أحيانا يقول أحدهم: يا رسول الله بيتي خطر، عليه مدخل، أعداء كُثُر، أخاف على زوجتي، وعلى أولادي، فهل تسمح لي أن أذهب ؟ فيجيبه الرسول بما معناه: اذهب،، والثاني يريد أن يذهب كذلك إلى بيته، فيستأذن للهرب من أرض المعركة.

(وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ (13))

معنى: إنّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ

أي فيها مركز ضعف، عليها مدخل، واليهود أشدّاء أقوياء، والآن اليهود متفرّدون بالمدينة، ونحن في الخندق، ائذن لنا يا رسول الله.

(يَقُولُونَ إِنّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ (13))

الله مطّلع، قال سبحانه:

(وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ (13))

أي أنهم كذابون..

(وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلّا فِرَارًا (13))

من صفات المنافقين:

1 – الفرار في وقت الشدة:

شاهد أنّ الموت قريب جداً فيريد أن يهرب، يقول لي يا أخي: ألف كلمة: جبان ولا الله يرحمه، يريد أن يهرب، لا يريد هذه المعركة.

(وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا (14))

2 – المسارعة إلى الكفر وقت الخوف من القتل:

لو كانوا في بيوتهم، ودخل عليهم العدو، وأمرهم أن يدعوا هذا الدين، وأن يعودوا كفاراً بعد إذ آمنوا، لكفروا..

(وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ (14))

أي أن يكفروا... وأن يعودوا إلى جاهليتهم ووثنيتهم..

عتاب الله على المنافقين نكثهم العهود:

(وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللّهِ مَسْئُولًا(15))

أحياناً يحج الإنسان، في المسعى، في الطواف، في عرفات يقول: يا رب، أعاهدك على الطاعة، وهذا شيء جميل، ولكنه عندما يرجع من الحج، وعرضت له معصية أو مخالفة، فإذا اقترفها أو يتناسى أنه

عاهد الله على الطاعة، ولا يوجد حاج أو معتمر إلا ويعاهد ربه على قائمةٍ طويلةٍ مما كان يعمل قبل أن يتوب، يا رب، لا أعود إلى هذه المخالفة، ولا إلى هذه، ولا إلى هذه، ولا إلى هذه، فإذا إلى بلده، فبعد شهر أو شهرين، تجده قد عاد إلى ما كان عليه، فالله عزّ وجل يقول: ألم تعاهدني على كذا وكذا ؟ فالله يعاتبهم..

(وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا(15))

وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُولاً

أنت انتبه، فمن تعاهد ؟ أنت تعاهد خالق الكون، تعاهد الإله، تعاهد رب العالمين، تعاهد من بيده كل أمرك، من بيده مصيرك، تعاهد مَنْ ؟ فإذا اتفق الإنسان مع شخص عادي، يمكنه أن يقول لنفسه: لا تعبأ به، وشق العقد، لكن كلما كان الطرف الثاني عظيما فإلغاء العقد لم يعد قضية سهلة، فعليه ضغط أدبي، وضغط معنوي، فإذا كنت قد عاهدت خالق الكون على التوبة، على الطاعة، على أن تفعل هذه الطاعة، على أن تدع هذه المعصية، هذا عهد الله كان مسؤولا، الآن ربنا عزّ وجل، يأتي على قدر عقولهم، قال:

(قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ (16))

لا ينفع الفرار من القتل لأن الموت مصير كل مخلوق:

لو فرضنا فررتم، والصحابة قتلوا عن آخرهم، وهؤلاء الذين فروا إلى بيوتهم نجوا من الموت، لكن وبعد ذلك ؟ ثم ماذا ؟ لا بدّ من أن يموتوا، لابدّ من أن يقتلوا بعد حين، إذاً: لو نجوت من الموت مؤقتاً فإنك لا تنجو منه أبداً، لابدّ من الموت، كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت..

الليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر

***

و:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامت ه يوماً على آلةٍ حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنازةً فاعلم بأنك بعدها محمول

***

(قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا(16))

متاع الدنيا ساعات معدودة:

كلها سنوات قليلة.

راكب أحد الناس سيارته ـ والقصة من سنتين ـ في شارع من شوارع دمشق جاءته أزمة قلبية، أخذوه إلى المستشفى، وهو في العناية المشدد طلب آلة تسجيل، وسجّل شريطاً بكلام نفسه، فذكر فيه: أن المحل الفلاني ليس لي، فهو لإخوتي قد أخذته منهم غصباً، صرّح تصريحات دقيقة جداً، المحل أعطوه لإخوتي، شعر أنه المواجهة قريبة، بعد يومين رجع معافى صحيحاً، الأزمة خَفّت، وشعر بصحة، طلب الشريط المسجل عليه اعترافاته، أخذه وكسره، ألغاه، ورجع إلى القديم، عاش بعد ذلك ثمانية أشهر، ثم مات، فهذا أرسل الله له إنذاراً ليصحو من غفلته، فلما شعر بالصحة رجع إلى ما كان عليه، ثم مات، وسوف يواجه عمله عند الله عزّ وجل..

(قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا(16))

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من الآية 24)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

(قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا(17))

لا عاصم ولا ولي ولا نصير إلا الله:

الأمر كله بيد الله، فإذا هرب الإنسان من معركة، قد يجد موتاً في بيته، وقد يموت بحادث، أحدهم له مكان على الخط الأول في مواجهة العدو، بذل وسائط مخيفة، إلى أن انتقل إلى الأعماق، مات هناك في الأعماق في اليوم التالي..

من لم يمت بالسيف مات بغيره تنوّعت الأسباب والموت واحد

***

(قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ (18))

ظاهرة سيئة: المثبّطون في كل زمان ومكان:

هؤلاء المثبطون، وهم في كل عصر موجودون، إذا رأوا إنساناً ينفق ماله، يقولون له: لماذا تريد وجع الرأس ؟ خبئ قرشك لنفسك، لا تصغر عقلك، وإن حضر مجلس علم، يقولون له: هذا كله تعرفه، وإن عمل أعمالا صالحة قيل له: لا تصغر عقلك، الناس لا يرحمونك، تجده إن تعلم يُلام، وإن أنفق ماله يلام، وإذا استقام يقولون له: لا تشدد كثيراً، الله لن يحاسبك، ضعها برقبتي، هؤلاء هم المعوقين..

(قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا (18))

ماذا تريدون من هذه المعركة، فالمدينة فيها أماكن رطبة، فيها بساتين، وظلال، فيها ينابيع، وفيها رُطَب، فيها فواكه ومجالس أنس، اجلس اجْلس..

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

***

(قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (18)أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ(19))

لا خيرَ في المثبّطين والمعوّقين:

أي ليس منهم خيرٌ إطلاقاً، لا يقدمون خيراً لا معنوياً، ولا مادياً، ولا أدبياً، ولا نصيحة، ولا خبرة أبداً..

(فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ (19))

مِن دأبِ المثبّطين والمعوّقين:

1 – الطعن في الأنبياء والمستقيمين:

يطعنون في رسول الله والمؤمنين، وهذا حال كل إنسان بعيد عن الله عزّ وجل يسئ الظن بالآخرين، هذا له هدف، هذا له نيّة، هذا يريد أن يكثر جماعته، هذا يريد مالاً، دائماً يسئ الظن بالصادقين، المنحرف والمقصر يسئ الظن بالمخلصين، ويتهمهم بشتّى الاتهامات..

(فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(19))

ما دام لم يؤمن إذاً عمله سيّئ، والذي آمَن عمله طيّب..

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

هو نفسه..

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: من الآية 50)

إذا لم يؤمن الإنسان يتهم الآخرين المؤمنين، وينتقص من عملهم، ويقلل من شأنهم، ويحاول أن يفسِّر عملهم تفسيراً أرضياً وصولياً.

2 – الخوف الدائم:

من شدة الخوف الذي أصاب المسلمين، أو أصاب بعض المنافقين قال:

(يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا (20))

الأحزاب ذهبوا، والرياح اقتلعت قدورهم، وخيامهم، وأطفأت نيرانهم، وولوا على أدبارهم، ولا يزال الخوف مسيطراً عليهم..

(يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ(20))

3 – البعد عن أماكن القتال:

أي لو عاد الأحزاب مرةً ثانية، يتمنى هذا المنافق أن يكون بيته في أقاصي الدنيا، في البادية..

(يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (20))

الآن الله عزّ وجل يوجِّه المؤمنين:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (21))

الرسول هو القدوة الكاملة للمسلمين:

هو القدوة ؛ في صبره، في شجاعته، في حِلمِهِ، في جهاده، في لُطْفِهِ، في رحمته، في تحمُّل الشدائد، في معاناة الخطوب..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(21))

فإذا كان إنسان يشغل وظيفة معيّنة، والتقى مع تاجر، أو التقى مع إنسان له عمل غير عمله، فلا يقتدي به، لكن دائماً التاجر يقتدي بتاجر أكبر منه، كيف عقد الصفقة ؟ كيف ربح ؟ والموظف يقتدي بموظف أرقى منه، فالإنسان إذا أراد الله واليوم الآخر، بشكل أو بآخر يصبح النبي قدوةً له، أما إذا أراد الدنيا، قدوته زيدٌ وعُبَيْد، لن يكون النبي قدوةً لك إلا إذا أردت الله واليوم الآخر، إذا كان في قلبك إرادة مصممة على طلب مرضاة الله عزّ وجل، بشكل طبيعي وعفوي يصبح النبي قدوةً لك ؛ هكذا صلّى النبي، هكذا ذكر النبي، هكذا دعا النبي، هكذا صبر، هكذا تحمّل، هكذا عامل زوجته، هكذا عامل إخوانه، ما دام قصدك الله عزّ جل، ما دام قصدك أن ترضي الله عزّ وجل، وأن تبلغ الآخرة بسلام، عندئذ يصبح النبي عليه الصلاة والسلام قدوةً لك..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(21))

مِن علامة كون النبي قدوة للمسلم رجاؤه اللهَ:

علامة كون النبي قدوةٌ لك أن ترجو الله، وترجو ما عنده، واليوم الآخر، وتذكر الله كثيراً.

موقف المؤمنين الصادقين من العدو:

أما المؤمنون فكان لهم موقف آخر:

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ(22))

وماذا قال الله سبحانه ؟ قال:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

(وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا)

(سورة البقرة: من الآية 214)

فالمؤمن يعلم أن أمامه امتحاناً..

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا(22))

1 – الأحداث الطاحنة تزيد في الإيمان:

فالأحداث الطاحنة تزيد المؤمن إيماناً، يتألّقُ بها، يظهر صابراً، يظهر واثقاً بفضل الله عزّ وجل، يظهر موقِنَاً بعدالة الله عزّ وجل، يظهر واثقاً من رحمة الله عزّ وجل..

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا(23))

هذا المؤمن، في الرخاء مؤمن، في الشدة مؤمن، في الغِنى مؤمن، في الفقر مؤمن، في الصحة مؤمن، في المرض مؤمن، في إقبال الدنيا مؤمن، في إدبارها مؤمن، في انقباض قلبه مؤمن، في انشراحه مؤمن، لا يتغيّر، عاهد خالق الكون، فانتهى الأمر، والله هذه الآية يطرب الإنسان لتلاوتها أو سماعها:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا(23))

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ

مع سيدنا خبيب:

سيدنا خُبَيْب وضعوه ليصلبوه، وتقدم منه أبو سفيان، إنسان بعد حين سيقتل، وله زوجة وأولاد، أرسله النبي لمهمة، فألقي عليه القبض، واشترته أسرةٌ لتقتله ـ بنو الحارث ـ صلبوه، وتقدم منه أبو سفيان، سأله سؤالاً، قال له: **" يا خبيب، أتحب أن يكون محمدٌ مكانك، وأنت معافىً في أهلك ـ جالس في بيتك، وأمامك زوجتك وأولادك، والمؤونة كاملة، وكل أحوالك مقبلة بالخير ـ أتحب أن يكون محمدٌ مكانك، وأنت معافىً في أهلك ؟ "**، يقول كُتَّاب السيرة: هذا الصحابي الجليل انتفض كالعصفور وقال: **" والله ما أحب أن أكون في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب رسول الله بشوكة "**، هذا إيمان..

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ (23))

2 - مع الصحابي سعد:

سيدنا سعد، تفقّده النبي فلم يجده، بحثوا عنه وجدوه بين القتلى، ولم يمت بعد، قال له: **" يا ربيعة إن رسول الله أرسله إليك "**، قال: أقرئهُ مني السلام، وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وقل لأصحابه: لا عُذر لكم إذا خُلِصَ إلى نبيكم وفيكم عينٌ تطرف، كان على وشك الموت، وكانت هذه كلماته، وفيها ما يعكس حقيقة إيمانه.

3 - مع جعفر بن أبي طالب:

سيدنا جعفر، قطعت يده اليمنى أمسك الراية باليسرى، قطعت اليسرى أمسكها بعضديه..

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (23) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا(24))

كل شيء له ثمن، كل موقف له ثمن، هذا الموقف له ثمن، التخاذل له ثمن، الصبر له ثمن، الثقة بالله لها ثمن، الشك بعطاء الله له ثمن.

(لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ (24))

فإذا تابوا رحمهم..

(أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (06-18): تفسير الآيات 21 - 27
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-11-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس السادس من سورة الأحزاب، وصلنا في الدرس الماضي في سورة الأحزاب إلى قوله تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(21))

(سورة الأحزاب)

أهمية القدوة في الحياة:

1 - في الحياة شخصية مأمولة، وشخصية مكروهة، وشخصية موجودة:

هذه الآية مررنا عليها سريعاً في الدرس الماضي، لأنها جاءت في آخر الدرس، ولكن لهذه الآية أهميّةٌ كبيرةٌ جداً في حياة كل إنسان شخصيّةٌ يتمنّى أن يكونها، وشخصيّةٌ يكره أن يكونها، وشخصيّةٌ يكونها، أنت لك شخصيّة، ودائماً هناك نموذج تكرهه، كما أن هناك نموذجاً تعظِّمه، فقل لي من تعظِّم أقل لك من أنت، أهل الدنيا يعظِّمون أرباب الدنيا، أهل القوة يعظّمون الأقوياء، أهل الأذواق يعظِّمون أصحاب الأذواق، فكل إنسان يعظِّم، ويكبر، ويجل، ويحترم من كان متفوّقاً في حَقْلِهِ، فربنا عزّ وجل يقول:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (21))

2 - من لوازم القدوة: السير بسيرته:

فمتى يكون النبي عليه الصلاة والسلام أسوةً لك ؟ متى يكون قدوةً لك ؟ متى يكون مثلاً أعلى لك ؟ متى يبقى في ذهنك، في شعورك، في ضميرك ؟ كلّما أقدمت على عمل تتصوّره، هكذا كان يفعل في البيت ؟ هكذا كان يفعل في بيعه وشرائه ؟ هكذا يعامل أصحابه ؟ متى يكون النبي عليه الصلاة والسلام أسوةً لك ؟ قد تستمع إلى سيرة النبي ولا تفعل فيك شيئاً، ربّما تتحدّث ساعاتٍ طويلة عن فلان الذي هو ملء سمعك وبصرك، ربّما تتحدّث أيّاماً وأسابيع عن هذا الإنسان اللامع القوي الغني.

ما الشخصيّة التي تتمنى أن تكونها ـ هنا ـ وأنت في عفويتك من دون قصد، وأنت تحدِّث نفسك ؟ الإنسان يحدّث الآخرين بوقتٍ قليل، ويحدِّث نفسه بوقتٍ طويل، إذا سافر الإنسان، ما دام ساكتاً فهو يحدِّث نفسه، مثلاً قلت في سرك: يا ولد ذهابك غير ضروري، هذا حديث داخلي.

الصراع الداخلي وعلاقته بالقدوة:

أحياناً يقع المرء في صراع.

قال لي أحد الأشخاص: لقد كان والدي من كبار التجّار، من تجار الصوف، وأنا غير متعلِّم، وبعيد عن أصول البيع والشراء، فكانوا يقولون لي: إن هؤلاء البدو لا عليك أن تأخذ من أموالهم، هكذا كلام جهل، فذهبت إلى البادية لأشتري صوفاً، وصرت أزوّر الوزن، فهذا البدوي سمع مني، وأنا أقول: ثلاثة وعشرين كيلو وثمانمئة غرام، هذا شيء جديد، فالغرامات جديدة عليه، فكان مرتاحاً لهذه الأوزان، أما أنا فكنت أحسم عشرة كيلو، فلمّا تم اشترى هذه الصفقة، شعر البدوي أنه قد غُبن، فقال لي باللغة البدويّة: إن شاء الله تلقاها في صحّتك.

ثم قال متابعاً: بدأت في صراع من وقت ما غادرت مكان الشراء إلى قريتي (الضمير)، وأنا داخل في صراع، يا ترى أعود إليه لأرجع له الفرق، أعترف له بذنبي، قال: ما زلت في صراع مع نفسي، وفي حديثٍ مع نفسي طويل إلى أن اتّخذت قراراً، قلت: ضع في الخرج، ثم قال لي: رأيت نفسي بعد حين وسط بركةٍ من الدماء، وقد تدهورت بنا السيارة، وتناثر الصوف، وتناثرت البضاعة، فعلمت أنني عندما اتخذت قراراً فُعِلَ بي ما فُعِل..

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ(79))

(سورة الزخرف)

إذاً: للإنسان حديث نفسي، فأنت تمضي ساعات طويلة، وأنت لا تشعر تحدِّث نفسك، أفعل أو لا أفعل، يجوز أو لا يجوز، ممكن أو غير ممكن، يا ترى هل يرضى الله عني، النبي سيشفع لنا، تأتي أحياناً حجج واهية، فأنت في حديث مع نفسك، ومع الحديث دائماً يلوح في ذهنك شخص مهم تعظِّمه، تُبَجِّله، تحترمه، تتمنّى أن تكون مثله.

لذلك قالوا: في حياة كل منا شخصيّة نتمنى أن نكونها، وشخصيّةٌ نكره أن نكونها، وشخصيّةٌ نكونها، فأنت لك واقع، وفي تصوراتك شخصيّة دائماً تنظر إليها بإكبار، دائماً أنت متشوّقٌ إلى أن تكون في مستواها، دائماً تتقرّب منها، دائماً تُقلِّدها، دائماً تترسّم خُطاها، دائماً تقفو أثرها، هذه الشخصيّة التي تتمنى أن تكونها، قل لي من هي أقل لك من أنت، إذا كنت مؤمناً صادقاً الشخصيّة التي تتمنى أن تكونها، أو أن تكون على طريقها، أو على أثرها، أو أن تترسّم هُداها هي رسول الله، ما دام هناك

أشخاص كثر من أهل الدنيا، من أهل القوّة، من أهل الأذواق والمواجيد، والمتع الرخيصة، والحفلات، والسهرات، والندوات، والزيارات، وما دام هناك شخص ليس على الحق تراه قدوةً لك ومثلاً أعلى لك، فبينك وبين الإيمان شطرٌ طويل، وما دام الشخص الذي تتمنى أن تكونه ليس رسول الله، بل زيدٌ أو عُبيد، فبينك وبين الإيمان مراحل فسيحة.

فيا أيها الأخوة الأكارم...

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به))

[فيض القدير]

((لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتّى أَكُونَ أَحَبّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنّاس أَجْمَعِينَ))

[من مسند أحمد عن أنس بن مالك]

فربنا عزّ وجل يقرّر حقيقة كبيرة..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ (21))

أيها المؤمنون..

(فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (21))

وظائف النبي:

النبي عليه الصلاة والسلام له وظيفتان خطيرتان:

الوظيفة الأولى: التبليغ:

الوظيفة الأولى وظيفة التبليغ، وإذا وقفت أمام روضته الشريفة تقول: يا سيدي يا رسول الله، أشهد أنك بلّغت الرسالة، وأدّيت الأمانة، ونصحت الأمّة، وكشفت الغُمّة، وجاهدت في الله حقّ الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد.أنت اعترفت بمهمّة التبليغ.

الوظيفة الثانية: القدوة الشاملة:

بقيت مهمّة القدوة، مهمة الأسوة التي نصّ القرآن عليها، هل أنت تتأسّى برسول الله في بيعك وشرائك؟ في معاملتك لأهلك وأولادك ؟ في علاقتك بإخوانك ؟ هل تميّز نفسك عليهم ؟ إذاً فأنت بعيدٌ عن الاقتداء برسول الله، النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان مع أصحابه ليعالج شاةً قال:

((وعليّ جمع الحطب))

قالوا: نكفيك ذلك يا رسول الله، قال:

((أعلم ذلك ولكن الله يكره أن يرى عبده متميّزاً على أقرانه))

إذاً: القضيّة خطيرة ؛ في بيتك، مع زوجتك، مع أولادك، مع جيرانك، في بيعك، في شرائك، لمن يسألك حاجةً، لمن يستغيث بك، لمن تكون فوقه، لمن تكون دونه، يجب دائماً أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام أسوةً لك إذا كنت مؤمناً صادقاً ؛ فإن كان غير النبي عليه الصلاة والسلام من أهل الدنيا، من أهل العلم، من أهل القوّة، من أهل المَنَعَة، من أهل المغامرات، من أهل السياحات، إذا كان هناك رجل دائماً تفكِّر فيه، دائماً تترسّم خطاه، تقفو أثره، تقلِّده وأنت لا تدري غير النبي، ففي الإيمان ضعفٌ شديد، وبينك وبين كمال الإيمان مراحل فسيحة، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ (21))

لِمَن القدوة الحسنة ؟

1 – لمن كان يرجو الله واليوم الآخر:

لكن لمن ؟ لمن النبي أسوة ؟ لمن هو قدوة ؟ لمن هو مثلٌ أعلى ؟ قال:

(لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ (21))

لو انك أزمعت السفر إلى بلدٍ معيّن، وتعلم علم اليقين أن زيداً من الناس خبيرٌ بهذه البلدة، يعرف كل مداخلها ومخارجها، يعرف كل دقائقها، يعرف أهلها، يعرف مطاعمها، يعرف فنادقها، تذهب إليه ما دمت ترجو أن تزور هذه البلدة، وأن تقيم فيها، تذهب إليه وتسأله: ماذا أفعل ؟

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ(21))

فإذا كان النبيُّ قدوةً لك، ومثلاً أعلى تحتذي نهجه، وأسوةً لك، فأنت ممن ترجو الله واليوم الآخر. وقد يقول قائل: أنا أرجو الله واليوم الآخر، ومع ذلك ليس النبي أسوةً لي في كل شؤوني، أحياناً يوضَع الإنسان في ظرف فيسأل رجلاً من أهل القانون، ماذا أفعل ؟ بينما النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الموقف سلك هذا الطريق، فإذا رفضت سنّة النبي، ورجوت أن تأخذ حقّك الذي ضمنه لك القانون، ولو كان الشرع ينهى عنه، فليس النبيُّ أسوةً لك، فلذلك جاء التعقيب الآخر:

(وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21))

2 – وذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا

لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(41))

(سورة الأحزاب)

فالأمر لا ينصبُّ على ذكر الله ؛ بل على ذكر الله الكثير، فمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً، من لوازم هذا الرجاء الصادق، وهذا الذكر الكثير أن يكون النبي ملء سمعه وبصره ؛ بأقواله، وأفعاله، وسنّته، ورضاه وغضبه، بسلمه وحربه، بعطائه ومنعه، بمودّته وجفوته، بعبادته، بصلاته، بصيامه، بحجّه..

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (21))

وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين..

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

(سورة هود: من الآية 112)

ما مقياس الشخصية العظيمة في نظرك ؟!

هذه كلها أدلّة، إذاً: من الممكن أن يكون لدينا الآن مقياس ؛ ما هي الشخصيّة الكبيرة في نظرك ؟ العظيمة في نظرك ؟ التي تأتيك الخواطر تلو الخواطر كي تقلِّدها، وكي تقفو أثرها، وكي تسير على منهجها ؟

إنّ هذه الشخصيّة إن كانت رسول الله فبَخٍ بَخٍ، فذلك محض الإيمان.

إن كنت تهتدي بهدي النبي في معاملة الزوجة فأنت مؤمنٌ وربِّ الكعبة.

إن كنت تهتدي بهدي النبي في البيع والشراء فأنت مؤمنٌ ورب الكعبة.

إن كنت تهتدي بهدي النبي في من أساء إليك فأنت مؤمنٌ ورب الكعبة.

ما الذي يرفع من مكانتك ؟ أن يكون النبي أسوةً لك وقدوة، وحينما طبّق النبي ما قاله بلسانه فقد أقام الحجّة على الخلق، لو أن الدعوة إلى الله عملية كلام لكانت القضيّة سهلة جداً بالنسبة للكثيرين، ولكن لن يسمح الله لك أن تؤثِّر في الآخرين، ولن يجري الله الخير على يديك إلا إذا حقّقت مهمّتين عظيمتين، مهمّة التبليغ ومهمة القدوة، لذلك قالوا: **" ترك دانقٍ ـ قطعة نقد بسيطة ـ من حرام خيرٌ من ثمانين حجّةٍ بعد الإسلام".**

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لأن أمشي مع أخ في حاجته خيرٌ لي من صيام شهرٍ واعتكافه في مسجدي هذا))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

متى يكون رسول الله قدوة ؟

فدائماً هذه الآية قائمة في النفس، متى يكون رسول الله قدوةً لي، ومثلاً أعلى عندي، وأسوةً حسنة ؟ إذا كنت أرجو الله واليوم الآخر، متى تتجه إلى فلان لتسأله عن هذه البلدة، عن فنادقها، عن مطاعمها، عن أجور السفر، عن الإقامة، وتقول له: كيف أسكن ؟ كيف أعيش ؟ كيف آكل ؟ كيف أشتري ؟ إلى أي مكان أذهب ؟ بماذا تنصحني ؟ متى يكون هذا ؟ متى تتجه إلى زيد من الناس لتسأله إيضاحاتٍ كثيرة عن هذه البلدة ؟ إن كنت ترجو أن تزور هذه البلدة، هذا كلام واضح كالشمس، ومتى يكون النبي قدوةً لك وأسوة ؟ إذا كنت ترجو الله واليوم الآخر وذكرت الله كثيراً، فهذا ميزان دقيق جداً يوضَع بين أيديكم، قل لي من تعظِّم أقل لك من أنت، قل لي ما الشخصيّة التي تحترمها احتراماً كبيراً أقل لك من أنت، لأن الإنسان يعظِّم من كان مِن جِنْسِهِ وعلى شاكلته مسلكاً ونهجاً.

1 – الرسول أسوة في الصبر:

طبعاً النبي الكريم صبر، فهو أسوةٌ لهم في الصبر، تحمّل الشدائد، قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّه، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، ولَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّه، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، ولَقَدْ أَتَتْ عَلَيّ ثالِثَةٌ وَمَالِي وَلِبِلاَل طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إلاَ مَا وَارَى إبْطُ بلاَل))

[مسند ابن ماجة]

وجاهد في الله حقّ الجهاد، وأُوذي وما أُوذي أحدٌ مثله وصبر، وقد عُرِضَت عليه الدنيا بكل أنواعها، يزوّجوه أجمل النساء، يجعلوه زعيماً لهم، يعطونه كل الأموال، قال:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتّى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

2 – الرسول أسوة في الحلم:

فأيها المؤمنون لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة ؛ في صبره، في حلمه.. جرّه أعرابي من ياقة ثوبه، فابتسم النبي عليه الصلاة والسلام.. قال له أحدهم:

((يَا مُحَمّدُ، اعْدِلْ، قَالَ: وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ ؟ لَقَدْ خِبْتَ، وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ))

[صحيح مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

اقرأ السيرة، هذه السيرة ليست للاطلاع وللاستمتاع، بل للتطبيق، يجب أن يكون النبي في سيرته أسوةً حسنة.

3 – الرسول أسوة في الزوج الصالح والأب الناجح:

السيدة عائشة كسرت طبق طعامٍ وقد أصابتها الغيرة، فالنبي عليه الصلاة والسلام بحلمه الشديد قال:

((غَضِبَتْ أمُكم غَضِبَتْ أمُكم))

وانتهى الأمر، الآن هي غاضبة، وسكت اللهمّ صلّ عليه.

كان زوجاً ناجحاً، كان أباً ناجحاً، كان صديقاً ناجحاً، كان نبياً عظيماً، كان رحيماً، رؤوفاً..

4 – الرسول أسوة في الرحمة والتواضع:

دخل أحد أصحابه فلم يجد له مكاناً في مجلس، فخلع النبي رداءه وقذفه له، وقال: اجلس عليه، فبكى هذا الصحابيّ الجليل، وقال: **" فداك أبي وأمي ما كنت لأجلس على ردائك، أكرمك الله كما أكرمتني"..**

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(21))

اسأل نفسك سؤالاً محرجاً: ماذا تريد ؟ ماذا ترجو ؟ ترجو الدنيا أم الآخرة ؟..

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(19)كُلًا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20))

(سورة الإسراء)

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ (22))

المؤمن مصدِّق لوعد الله ووعيده مستسلم لقضاء الله وقدره:

المؤمن ـ ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه ـ يعلم علم اليقين أنه مبتلى، وأن هذه الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، منزل ابتلاء وامتحان وشدّة.. أوحى ربك إلى الدنيا أن تمرري، وتكدّري، وتشدّدي على

أوليائي حتى يحبوا لقائي.. الله يمتحنك بشبح مصيبة، بشبح مرض فماذا ستفعل؟ هل تقول: حسبي الله ونِعْمَ الوكيل ؟

(الّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنّا لِلّهِ وَإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(156)أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ(157))

(سورة البقرة)

الله يمتحنك بالرخاء، يمتحنك بالشدّة، يمتحنك بالصحة وبالمرض، بالقوة وبالضعف، بإقبال الدنيا وإدبارها، يمتحنك بزوجة أحياناً جيّدة جداً أو سيئة جداً.

أحد الناس عنده زوجة سيئة قيل له: طلقها، فقال: والله لا أطلقها فأغشّ بها المسلمين، حتى لا يُغَشوا فيها، أنا تحملتها، يمتحنك بولد بار، فهل تفسده ؟ يمتحنك بولد فاسد، فهل تصبر عليه ؟ يمتحنك بجار سوء، فهل تحسن إليه كما فعل النبي، النبي عليه الصلاة والسلام أسوةً لنا..

(وَلَمّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللّهُ وَرَسُولُهُ(22))

فماذا قال الله ؟ قال:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنّةَ وَلَمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضّرّاءُ وَزُلْزِلُوا)

(سورة البقرة: من الآية 214)

إنّ الإنسان يُمْتَحَن في كل الأحوال، فإذا جاء امتحان الله يستقبله بالرضى، يستقبله بالثبات، يستقبله بالشكر..

(وَلَمّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا(22))

المؤمن شامخ كالجبل، الأحداث الصغيرة لا تُزَعْزِعُهُ..

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدّلُوا تَبْدِيلًا(23))

أي هُم هم.. هم كما هم.. أنت عاهدت خالق الكون وانتهى الأمر، عاهدته على الطاعة، لا تبدِّل إطلاقاً، فمهما تلوّنت الحياة فأنت على ما أنت عليه، الثبات نبات..

(لِيَجْزِيَ اللّهُ الصّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا(24))

حَدثان عظيمان يحددان معالم النهاية لغزوة الأحزاب:

الآن قبل أن نتابع الآيات نحن في غزوة الخندق، وفي غزوة الخندق حدثان كبيران ما اتسع الوقت في الدرس قبل الماضي لرواية هذين الحدثين.
سيدنا نعيم بن مسعود، والحدث الثاني سيدنا حذيفة بن اليمان، من خلال هاتين القصّتين القصيرتين تتوضّح معالم نهاية غزوة الخندق.

الحدث الأول: مع نعيم بن مسعود:

إعمالُ العقل:

فنعيم بن مسعود كان من غطفان، وقد جاء ليحارب النبي، لكنَّه أعمل عقله، إنما الدين هو العقل، ومن لا عقل له لا دين له.

((أول ما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم علي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب، وبك أعاقب))

[تخريج أحاديث الإحياء]

فمن الممكن أن ترقى إلى أعلى عليين حينما تستخدم عقلك النَيّر، ويمكن أن يهوي الإنسان إلى أسفل سافلين حينما يعطِّل عقله، فسيدنا نُعَيْم انظروا بماذا حدّث نفسه ـ قلنا: إن هناك حديثًا نفسيًا.
قال: يا نعيم ـ هو يخاطب نفسه ـ ما الذي جاء بك من تلك الأماكن البعيدة في نَجْد لحرب هذا الرجل ؟ لماذا أنت هنا ؟ لماذا جئت لتحارب هذا الرجل ؟ إنك لا تحاربه انتصاراً لحقّ مسلوب، أو حمية لعِرضٍ مغصوب ؛ وإنما جئت تحاربه لغير سببٍ معروف، لماذا أنت يا نعيم هنا ؟ لماذا أنت حول المدينة ؟ لماذا جئت لتحارب النبي ؟ ـ حدّث نفسه، استخدم عقله ـ ثم أعاد على نفسه الحديث فقال: إنك يا نعيم ما جئت لتحاربه انتصاراً لحقٍ مسلوب، أو حميةٍ لعرضٍ مغصوب ؛ وإنما جئت تحاربه لغير سببٍ معروف، أيليق يا نعيم برجلٍ له عقلٌ مثل عقلك أن يقاتل فيقتل، أو يقتل بغير سبب ؟ هكذا بلا سبب ؟ أن أموت أو أن أُميت بلا سبب، هذه مناقشة عقليّة، ويحك يا نعيم، ما الذي يجعلك تشهر سيفك في وجه هذا الرجل الصالح، الذي يأمر أتباعه بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى؟.

الترَوّي قبل التهجُّم والتقييم:

فعلى الإنسان قبل أن يهاجم شخصاً له دعوةٌ إلى الله، له عملٌ طيّب، له إخوان يستقيمون على أمر الله، قبل أن تهاجمه فكِّر ماذا تفعل ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟ لوجه من تهاجم فلاناً ؟ لوجه الشيطان، ماذا أفادك أن تهاجمه، وأن تحطِمه في نظر تلامذته ؟ فالإنسان أحياناً يتحرّك بدافع شيطاني، وهو لا يدري، سيدنا نُعَيْم وقف مع نفسه، وقال: إلى أين أنت ذاهب ؟

أعاد وقال: ويحك يا نعيم، ما الذي يجعلك تشهر سيفك في وجه هذا الرجل الصالح، الذي يأمر أتباعه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ؟ ما الذي يحملك على أن تغمس رمحك في دماء أصحابه الذين اتبعوا ما جاءهم به من الهدى والحق ؟

ولم يحسم هذا الحوار العنيف بين نُعَيْمٍ ونفسه إلا أنه اتخذ قراراً حازماً، وقام لتنفيذه، تسلّل نعيم بن مسعود من معسكر قومه تحت جُنْحِ الظلام، ومضى يحثُّ الخُطى إلى النبي صلى الله عليه وسلّم، فلمّا رآه النبي عليه الصلاة والسلام ـ طبعاً هناك حواجز، وهناك حراسة، وهناك من سأله، وهناك من استوثق من نِيّته الطيّبة، وهناك من ساقه إلى النبي، فالمسلمون ليسوا هكذا ببساطة، المؤمن كيسٌ فطنٌ حَذِر، ولكن هذه التفصيلات لا تعنينا الآن، فلمّا رآه النبي عليه الصلاة والسلام ماثلاً بين يديه قال:

" نعيم بن مسعود ؟ " قال: نعم يا رسول الله، قال: **" ما الذي جاء بك إلينا في هذه الساعة ؟ "** قال: **جئت لأشهد أنه لا إله إلا الله، وأنك عبد الله ورسوله، وأنّ ما جئت به حق"**، استخدم عقله، فكّر، ارتفع بهذا التفكير إلى أعلى عليين، ثمّ أردف يقول: **" لقد أسلمت يا رسول الله، وإنّ قومي لم يعلموا بإسلامي ـ أسلمت بيني وبينك ـ فمرني بما شئت ".**

أثر إسلام نعيم بن مسعود في قلب موازين معركة الخندق:

وعندما أسلم سيدنا نُعَيْم أجرى الله على يديه خيراً كثيراً للمسلمين يومئذٍ، وأنا أعتقد طيلة تاريخ الدعوة الإسلاميّة ما مرّ النبي وأصحابه في مأزقٍ حرج، وضعفٍ شديد، وكاد اليأسُ أن يتسرّب إلى قلوب أصحابه مثل ما جرى لهم يوم الخندق، لكنّه مع المنافقين تسرّب اليأس إلى قلوبهم، وتمكّن من قلوبهم، حتّى إنهم قالوا:

(مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12))

أيعدنا صاحبكم أن تُفْتَح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، أي أن الإسلام بقي له ساعات، وينتهي.

أقول لكم مرّةً ثانية: ليست معركة الخندق معركة انتصارٍ أو هزيمة ؛ إنما هي معركة بقاءٍ أو فناء، للمسلمين والإسلام على حدٍ سواء، في هذه اللحظة الحرجة أجرى الله سبحانه وتعالى على يدي هذا الصحابي الجليل خيراً لا يعلمه إلا الله، فقال عليه الصلاة والسلام:

((يا نعيم، إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فاذهب إلى قومك، وخذِّل عنّا ما استطعت، فإن الحرب خُدعة))

فقال: **" نعم يا رسول الله، وسوف ترى ما يسرُّك إن شاء الله ".**

ذكاء نعيم بن مسعود في تشتيت وتضعيف الأعداء:

قال كتاب السيرة: فمضى نعيم بن مسعود من تَّوه إلى بني قريظة، هؤلاء الذين خانوا عهد النبي، وهؤلاء الذين أرادوا أن يجعلوا من ديارهم منفذاً إلى ظهر النبي وأصحابه، وهؤلاء الذين اتفقوا مع الأحزاب على أن يستأصلوا النبي، ذهب إليهم، وكان نعيم لهم من قبل صاحباً ونديماً، قال لهم: يا بني قريظة، لقد عرفتم ودي لكم، وصدقي في نصحكم، قالوا: نعم فما أنت عندنا بمتَّهم، قال: إنّ قريشاً وغطفان لهم في هذه الحرب شأن غير شأنكم ـ أي أنتم شيء وهم شيء آخر ـ قالوا: وكيف ؟ قال: أنتم هذا البلد بلدكم وفيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وليس بوسعكم أن تهجروه إلى غيره، أما قريش وغطفان فبلدهم وأموالهم وأبناؤهم ونساؤهم في غير هذا البلد ـ أنتم لكم وضعٌ خاص ـ وقد جاءوا لحرب محمّد، ودعوكم لنقض عهده، ومناصرتهم عليه فأجبتموهم، فإن أصابوا نجاحاً في قتاله اغتنموه، وإن أخفقوا في قهره عادوا إلى بلادهم آمنين، وتركوكم له، قالوا: فماذا ترى ؟.

قال: الرأي عندي ألا تقاتلوا معهم حتَّى تأخذوا طائفةً من أشرافهم، وتجعلوهم رهائن عندكم، وبذلك تحملوهم على قتال محمدٍ معكم، إلى أن تنتصروا عليه، أو يفنى آخر رجلٍ منكم ومنهم، قالوا: والله أصبت، أشرت ونصحت.

ثم خرج من عندهم، وأتى أبا سفيان بن حرب قائد قريش، وقال له ولمن معه: يا معشر قريش، لقد عرفتم ودي لكم وعداوتي لمحمّد، ولقد بلغني أمرٌ فرأيت حقاً عليّ أن أفضي به إليكم نصحاً لكم على أن تكتموه، ولا تُذيعوه عني، قالوا: لك علينا ذلك. قال: إن بني قريظة قد ندموا على مخاصمتهم لمحمّد، فأرسلوا إليه يقولون: إنّا قد ندمنا على ما فعلنا، وعزمنا على أن نعود إلى معاهدتك ومسالمتك، فهل يرضيك يا محمّد أن نأخذ لك من قريشٍ وغطفان رجالاً كثيراً من أشرافهم ونسلِمهم إليك لتضرب أعناقهم، ثم ننضم إليك في محاربتهم حتى تقضي عليهم ؟ فأرسل إليهم يقول: نعم. فإن بعثت اليهود تطلب منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا إليهم أحداً.

فقال أبو سفيان: نِعْمَ الحليف أنت ـ جزيت خيرا ـ لم يخطر على بالنا هذا الشيء ـ وجزيت خيراً ـ كما قلت قبل قليل.

ثم خرج نعيم من عند أبي سفيان، ومضى حتَّى أتى قومه غطفان، فحدّثهم بمثل ما حدّث به أبا سفيان، وحذّرهم مما حذّرهم منه.

أراد أبا سفيان أن يختبر بني قريظة ـ الآن الاختبار ـ فأرسل إليهم ابنه فقال لهم: إن أبي يقرئكم السلام ويقول لكم: إنه قد طال حصارنا لمحمّد وأصحابه حتَّى مللنا، وإننا قد عزمنا على أن نقاتل محمّداً، ونفرغ منه، وقد بعثني أبي إليكم ليدعوكم إلى منازلته غداً، فقالوا: إن اليوم يوم سبت، ونحن لا نعمل فيه شيئاً، ثم إننا لا نقاتل معكم حتى تعطونا سبعين من أشرافكم، وأشراف غطفان ليكونوا رهائن عندنا، فإننا نخشى إن اشتدّ عليكم القتال أن تسرعوا إلى بلادكم، وتتركونا لمحمّدٍ وحدنا، وأنتم تعلمون أنه لا طاقة لنا به.

فلمّا عاد أبو سفيان إلى قومه، وأخبرهم بما سمع من بني قريظة، قالوا بلسانٍ واحد: خسئ أبناء القردة والخنازير، والله لو طلبوا منّا شاةً رهينةً ما دفعناها إليهم.

الخاتمة السعيدة لغزوة الأحزاب: وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ

سيدنا نعيم شقّ صفوفهم، نجح نعيم بن مسعود في تمزيق صفوف الأحزاب، وتفريق كلمتهم، والقصّة كما تعلمونها، أرسل الله عليهم ريحاً شديدةً اقتلعت خيامهم، وقلبت قدورهم، وأطفأت نارهم، وعم ظلامٌ شديد، وبردٌ شديد، وخذلتهم بنو قريظة، وتخوّف كل فريقٍ من الآخر..

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ (25))

لهذا يقولون: **" الحمد لله وحده، نصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده ".**

آخر نقطة في القصّة: لما كان يوم فتح مكّة وقف أبو سفيان بن حرب يستعرض جيش المسلمين، فرأى رجلاً يحمل راية غطفان، فقال لمن معه: من هذا ؟ قالوا: هذا نعيم بن مسعود، فقال: بئس ما صنع بنا يوم الخندق، عرف تماماً ماذا فعل بهم، والله لقد كان من أشدِّ الناس عداوةً لمحمد، وها هو الآن يحمل راية قومه بين يديه، ويمضي ليحاربه تحت لوائه !!

المؤمن كيسٌ فطنٌ حَذِر، والحرب خدعة، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى هذا النصر المؤزّر على يدِ رجل.

مرّة سيدنا سعد استنجد بسيدنا عمر بمأزق مع الفرس، فأمدّه برجلٍ واحد، واحد فقط هو القعقاع بن عمرو، كان القعقاع وحده بمثابة جيش، فالرجال معادن فأحياناً واحدٌ كألف وألفٌ كأُف.

الحدث الثاني: مع حذيفة بن اليمان:

في يومٍ شديد البرد:

النقطة الثانية هي القصّة الأخيرة: سيدنا حذيفة بن اليمان قال: كنّا في تلك الليلة ـ وهي من أشد الليالي قبل أن يرتحل المشركون ـ كنا في تلك الليلة صافين قعوداً، وأبو سفيان ومن معه من مشركي مكّة فوقنا، وبنو قريظة من اليهود أسفل منا نخافهم على نسائنا وذرارينا، وما أتت علينا ليلةٌ قطّ أشدّ ظلمة، ولا أقوى ريحاً منها، فأصوات ريحها مثل الصواعق، وشدّة ظلامها تجعل أحدنا ما يرى أصبعه، فأخذ المنافقون يستأذنون النبي عليه الصلاة والسلام، ويقولون: إنّ بيوتنا مكشوفة للعدو، عند ذلك قام النبي عليه الصلاة والسلام وجعل يمرُّ بنا واحداً وَاحداً، حتّى أتى إلي، وما عليّ شيءٌ يقيني من البرد إلا مِرْطٌ ما يجاوز ركبتي ـ أصحاب رسول الله كانوا فقراء، برد وخوف، وجوع ـ فاقترب النبي عليه الصلاة والسلام مني، وأنا جاثٍ على الأرض، وقال: **" من هذا ؟ "** من أنت ؟ قلت: **" حذيفة "**، قال: **" حذيفة ؟ تقاصرت إلى الأرض كراهيّة أن أقوم من شدّة الجوع والبرد، قلت: " نعم يا رسول الله "**، قال: **إنه كائنٌ في القوم خبرٌ فتسلّل إلى عسكرهم، وائتني بخبرهم "**، أي أنه بمهمة فدائي، فتسلل إلى عسكر المشركين، وائتني بخبرهم، فهناك أخبار غير موثوقة.

في ظرف عصيب وخوف شديد:

قال: **" فخرجت، وأنا من أشدِ الناس فزعاً، وأكثرهم برداً**، فقال عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته))

فو الله ما تمّت دعوة النبي عليه الصلاة والسلام حتّى انتزع الله من جوفي كل ما أودعه فيه من خوف ـ كل هذا الخوف الذي كان في قلبي انتُزع ـ وأزال عن جسدي كل ما أصابني من برد تبدد الخوف، وتلاشى البرد ـ فلمّا وليت ناداني عليه الصلاة والسلام، وقال: **" يا حذيفة لا تحدِّثنّ في القوم شيئاً حتى تأتيني "** ـ أنت غير مكلّف بشيء إطلاقاً إلا أن تأتيني بالخبر ولا كلمة ـ قلت: **" نعم ".**

يتسلّل حذيفة إلى صوف المشركين:

ومضيت أتسلّل في جنح الظلام حتى دخلت في جند المشركين، وصرت كأني واحدٌ منهم، وما هو إلا قليلٌ حتى قام أبو سفيان فيهم خطيباً، وقال: يا معشر قريش، إني قائلٌ لكم قولاً أخشى أن يبلغ محمّداً، فلينظر كل رجلٍ منكم من جليسه ـ تفقّدوا جيرانكم ـ فما كان مني إلا أن أخذت بيد الرجل الذي كان عن جانبي، وقلت له: من أنت ؟ فقال: فلان بن فلان ـ لأنه لو سكت لكان الآخر سبقه، وصارت مشكلة، فالمؤمن ذكي، كيّس، الله يلهمه الصواب ـ قلت له: من أنت ؟ قال: أنا فلان بن فلان، وفي روايات أخرى أنه قال: أنا معاوية بن أبي سفيان، وتوجد رواية ثالثة أنه سأل عن شماله فقال: من أنت ؟ فقال له: أنا عمرو بن العاص، فقال له: طيّب، وهنا قال أبو سفيان: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار قرار، لقد هلكت رواحلنا، وتخلّت عنا بنو قريظة، ولقينا من شدّة الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل.

طاعة وحكمة وحنكة وشكر لله:

ثم قام إلى جمله ففكّ عقاله، وجلس عليه، ثمّ ضربه فوثب قائماً، ولولا أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمرني ألا أحدث شيئاً حتّى آتيه لقتلته بسهم، عند ذلك رجعت إلى النبي عليه الصلاة والسلام فوجدته قائماً يصلي، فلمّا رآني أدناني إلى رجليه وطرح عليّ طرف المرط، فأخبرته الخبر فسُرّ به سروراً شديداً، وحمد الله وأثنى عليه.

إذا أكرم الله الإنسان بشيء فعليه فوراً أن يشكر الله عزّ وجل، حتّى إن النبي عليه الصلاة والسلام كان يسجد سجود الشُكر، الآية الكريمة:

(لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (24) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا(25))

اجعل لربّك كـل عزّك يستقر ويثبت فـإذا اعتززت بمن يموت فإن عزّك ميّت

***

سبحانك، إنه لا يذل من واليت، ولا يعزّ من عاديت..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

حديث القرآن عن بني قريظة:

أما الحديث عن بني قريظة فله قصّة طويلة، لخّصها القرآن في آية واحدة قال:

(وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ (26))

معنى ظاهروهم أي أعانوهم..

(مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (26))

أي اليهود، أنزلهم..

(مِنْ صَيَاصِيهِمْ (26))

أي من حصونهم..

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (26) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا(27))

لكل قصة مغزى:

1 – دعوة إلى إدراك مغزى القصة:

الحقيقة أنه مَن قرأ قصّة، ولم يفهم معناها، أو لم يقف على مغزاها فهناك احتمال، إما أنه لم يقرأها، أو أن الذي يقرؤه ليس قصّة، أما كل قصّةٍ لها مغزىً عميق.

2 – مغزى قصة الأحزاب: نصرة الله المسلمين في الضعف والشدة:

ومغزى هذه القصّة أن الله سبحانه وتعالى وأنت في أشدِّ حالات الضعف، وأنت على وشك الدمار والهلاك، يمكن أن يأخذ بيدك وينجيك من كل همٍ وبلاء، وأكبر دليلٍ على ذلك أنه ما من مصيبةٍ على وجه الأرض أعظم من أن تُلقى في ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، والأمل في النجاة صفر.

3 – قانون النجاة: وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ

سيدنا يونس:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنْ الظَّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْغَمِّ)

انتهت القصّة، أما التعقيب فصار قانوناً..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

لذلك يا رب، لا كربَ وأنت الرب، لا يحزن قارئ القرآن، إذا فهمت هذه القصّة ـ قصّة غزوة الخندق ـ وكيف أن حياة المسلمين وإسلامهم ودعوتهم كانت على وشك أن تزول، وأن الله سبحانه وتعالى على يدي رجلٍ واحد وهو نعيم بن مسعود، وعن طريق رياحٍ عاتية شديدةٍ، وعن طريق ملائكةٍ أنقذ الله رسوله ودعوته، وتحقّقت نبوءة النبي عليه الصلاة والسلام حينما فُتِحَت على المسلمين بلاد قيصر وكسرى، وخسئ المنافقون وأصيبوا بالخزي والعار، دائماً كن في خندق الحق، لأن الله هو الحق، ولأن الله قويٌ عزيز، فإذا كنت في صفِّ أعداء الحق فأنت منهزمٌ لا محالة..

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

4 – الباطل إلى زوال:

ولو عمّر الباطل سبعين سنة، ففي النهاية لابدّ من أن يتهاوى كما يتهاوى بيت العنكبوت، وإذا كنت مع الله فلا تخش أحدا، كن مع الله تر الله معك، إذا كنت مع الله كان الله معك، يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ وأكبر مغزى أن المسلمين في بدر حينما كانوا قلّة ضعافاً نصرهم الله عزّ وجل، فقال:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران: من آية " 123 ")

أما في حنين كانوا أقوى قوّةٍ في الجزيرة، وقالوا في أنفسهم: لن نُغْلَب اليوم من قلّة..

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

نهاية العلم التوحيد ونهاية العمل التوى:

إذاً من الممكن أن نجمع العلم كله في التوحيد، وقال علماء العقيدة: نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى، أعلى درجة في العلم أن ترى أنه لا إله إلا الله، قال: فاعلم أنه لا إله إلا الله، أي لا رافع، ولا خافض، ولا معز، ولا مذل، ولا معطٍ، ولا مانع، ولا ناصر، ولا مُخْذِل إلا الله، أطعه، وتوكّل عليه ولك الدنيا والآخرة، فإذا استغنيت عنه كانت الأرض هوياً تحت قدميك، آخر حديث قدسي:

((ما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيّته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطّعت أسباب السماء بين يديه))

كن مع الله تَرَ الله معك   واترك الكل وحاذر طمعك

***

أطع أمرنا نـرفع لأجلك حجبنا   فإنّا منحنا بالرضا مَن أحبّنـا

و لُذْ بحمانا واحتمِ بجنابنــا   لنحميك مما فيه أشرار خلـقنا

وعن ذكرنا لا يشغلنّك شاغلٌ وأخلص لنا تلقَ المسرّة و الهنا

وسلِّم إلينا الأمر في كلِّ ما يكن فما القرب والإبعاد إلا بأمرنـا

***

و سر نحونا في الليـل لا تــخشَ وحشتـنا

فمـا الأنــــس إلا في طيــب ذكـرنا

وجدناك مضطراً يا فتى فقلنا لك:ادعُنا نجـبكا

فهل أنت حقاً دعوتنا ؟

دعوناك للإحسان أعرضت نائياً فهل تلقى من يحسن لمثلك مثلنا ؟

***

إن الإنسان عندما يعتمد على الله عزّ وجل، ويحسن العلاقة به ويطيعه، يعيش في حياةٍ لا ترقى إليها حياة الملوك، قال أحد العارفين: **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف ".**

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (07-18): تفسير الآيات 28 - 32

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-11-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم... مع الدرس السابع من سورة الأحزاب، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (29))

(سورة الأحزاب)

خصوصية خطاب الله نبيّه بلفظ الرسالة والنبوة:

1 – تكريم وتفضيل الله نبيّه على سائر الأنبياء:

أولاً: الله سبحانه وتعالى ما خاطب النبي في القرآن الكريم إلا بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

و:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

توقيراً له، وتكريماً، وتفضيلاً له على سائر الأنبياء، خاطب الأنبياء بأسمائهم، قال:

(يَا يَحْيَى)

وقال:

(يَا عِيسَى)

وقال:

(يَا نُوحُ)

ولم يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام خطاباً إلا بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

و:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

2 – مقام النبوة يقتضي دوام الصلة بالله:

المعنى الثاني: أن النبوة مقامٌ يقتضي دوام الصلة بالله.

حينما رأى الصدّيق رضي الله عنه سيدنا حنظلة يبكي في طرقات المدينة، وقال له: **" يا حنظلة مالك تبكي ؟ "** فقال حنظلة: **" نافق حنظلة "**، قال: **"ولِمَ يا أخي ؟ "**، قال: **" نكون مع رسول الله، ونحن والجنة كهاتين "** ـ أيْ إذا جلسنا في مجلسه نسعد، إذا جلسنا في مجلسه نرى الجنة من خلال حديثه، إذا جلسنا في مجلسه ينشرح صدرنا، إذا جلسنا في مجلسه تزول عنا الكروب والأحزان ـ فإذا عافسنا الأهل ـ ذهبنا إلى البيت، إلى السوق، إلى العمل ـ ننسى ـ هذه الحالة الطيبة، الرائعة، المسعدة، هذا التجلي إن صح التعبير، هذا الحال، هذا الصفاء الذي نحن فيه عند رسول الله، فإذا ذهبنا إلى بيوتنا، ومارسنا أعمالنا، ودخلنا في الأسواق، وقيل وقال، وكيت وكيتَ، وهذا الحال فيذهب عنا، إذاً أنا منافق ـ هذا قول سيدنا حنظلة.

سيدنا الصديق لكماله الشديد، ولذوقه الرفيع، ما أراد أن يجعل سيدنا حنظلة وحيداً في هذه الحالة مستوحشاً، قال: **" يا أخي أنا كذلك ـ أنا مثلك ـ انطلق بنا إلى رسول الله "**.

وعند النبي عليه الصلاة والسلام حدّثاه عن حال حنظلة فقال عليه الصلاة والسلام ـ هنا الشاهد ـ:

((نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا، أما أنتم يا أخي فساعة وساعة، لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم، الملائكة ولزارتكم في بيوتكم))

[مسلم عن حنظلة]

((إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا، ولا تنام قلوبنا))

[موطأ مالك]

((لَوْ تَدُومُونَ عَلَى الْحَالِ الذِي تَقُومُونَ بِهَا مِنْ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ فِي مَجَالِسِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَعَلَى فُرُشِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَسَاعَةً وسَاعَةَ))

[سنن الترمذي عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ]

استنباطات من حديث حنظلة:

يُستنبط من هذا الحديث استنباطان:

الاستنباط الأول:

أن في مجلس العلم صفاءً وتجليًا وراحة نفسية، وهذه يتميز بها مجلس العلم عن المجالس الأخرى.

الاستنباط الثاني:

أن الإنسان لو دامت حالته لكان نبياً، مَن هو النبي ؟ هو الذي على دوام صلة بالله عزّ وجل.

تحذير من فهم مغلوط للحديث:

لكن أيها الأخوة الأكارم، إياكم أن تفهموا من هذا الحديث أن كلمة:

((وَسَاعَةً وسَاعَةً))

أي ساعة طاعة وساعة معصية، لا والله، إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، ولكن ساعة وساعة، ساعةٌ إقبال، وساعة فتور، لا أقول: إعراض أيضاً، ساعةٌ إقبال وتأجُج، وساعة فتور وهموم، فالإنسان بين ساعةٍ وساعة، أحياناً في صلاته يشعر بحاله طيبة، أحياناً في أثناء الذكر، أحياناً في أثناء تلاوة القرآن، أحياناً في أعقاب العمل الصالح يشعر قبلك الحال الطيبة، وأحياناً يفقد هذا الحال، وما دام مستقيماً فهذه حكمةٌ أرادها الله.

إذاً: النبوّة مقام يقتضي دوام الصلة بالله في النوم وفي اليقظة ؟

من اشتقاقات ومعاني كلمة نبي:

شيءٌ آخر، كلمة النبي مأخوذة من نَبَأَ بمعنى ظهر، أي له مكان علي، له مكان شامخ، ومأخوذة أيضاً من كلمة أنْبَأَ بمعنى أخبر.

بين النقل والعقل:

1 ـ دور العقل:

وبعد، فالله عزّ وجل خلق الكون وأودع فينا العقل، وهناك توافقٌ بين العقل وبين الكون، فمن أعمل عقله في الكون حكم حكماً قطعياً بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً، ومربياً حكيماً، ومسيراً قديراً، وإذا أحكم عقله في القرآن رأى من إعجازه الشيء الكثير، فحكم أيضاً بأن هذا القرآن كلام الله عزّ وجل، وإذا عَلِمَ عِلْمَ اليقين أن هذا القرآن كلام الله، فالذي جاء به قولاً واحدا هو رسول الله، إذاً: كلام النبي عليه الصلاة والسلام تبيانٌ وتفصيلٌ لهذا الكتاب، انتهى دور العقل.

2 ـ دور النقل:

الآن جاء دون النقل، النبي أخبرنا عن سر الوجود، عن فلسفة الحياة، عن طبيعة الحياة، ماذا بعد الموت ؟ عن الحساب، عن مصير الإنسان، إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نارٍ لا ينفد عذابها، حدّثنا عن الصراط المستقيم، وعن حوضه الشريف، وعن العرش، وعن الكرسي، وعن الصحفِ إذا نُشِرَت، وحدثنا عن أصل الإنسان، وعن سر وجوده، وعن طبيعة الخلق، وعن أجدى شيءٍ يفعله في الدنيا، وأعطانا الأوامر والنواهي، أي أخبرنا عن الله، أنْبَأَ بمعنى أخبر، من جهة له مقامٌ رفيع، لأن له مهمتين، مهمة تبليغية، ومهمةٍ أخرى قدوة، أن يكون قدوةً لنا، هذا المقام الرفيع من لوازمه أنه أنبأناً عن الله عزّ وجل، أخبرنا عنه، رسول الله..

(إِنَّمَا إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا(98))

(سورة طه)

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ)

(سورة الطلاق: من الآية 12)

بين النبوة والتنبُّؤ:

إذاً النبوة من نَبَأَ بمعنى ارتفع وظهر، ومن أنْبَأَ بمعنى أخبر، لكن التنبُّؤ شيء آخر، هذا الموضوع دقيق جداً أتمنى أن أضعه بين أيديكم.

1 – التنبُؤ خاضع لقانون:

متى يتنبّأ الإنسان ؟ إذا عرف القانون، فأنت كمهندس، إذا رأيت جسراً حديدياً نسي المهندس المنفّذ أن يترك بين أجزائه فواصل تمدد، وأنت تعلم علم اليقين أن المعادن، ولا سيما الحديد تتمدد بالحرارة، وأنت في شهر الشتاء القارص، وهذا الجسر مُحكم ورائع، ويؤدي وظيفة كبيرة، تتنبأ وأنت عبد بأن هذا الجسر سوف يلتوي في الصيف، من أنبأك هذا ؟ القانون، تمدُد الأجسام بالحرارة، ما دام المهندس قد نسي فواصل التمدد فهذا الجسر لا بدّ من أن يلتوي، أنت لو قرأت القرآن، ودرست الآيات التي تأخذ معنى القانون، إذا قرأت القرآن، واستنبطت منه الآيات التي تأخذ معنى القانون، وقد عبر الله عنها " **بكلمات الله** ":

(لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)

فإذا أحصيت هذه الآيات مثلاً:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

2 – تطبيق الهدى الإلهي نفيٌ للشقاء الدنيوي والأخروي:

من المستحيل لإنسان يطبق الهدى الإلهي في زواجه، في بيعه، في شرائه، في معاملته، في علاقته مع نفسه، في حواسه، في صحته، في طعامه، في شرابه، في كل شيء، وأن يصاب بضلالٍ في عقله، أو شقاءٍ في نفسه.

إذاً: إذا انطلقت من حبك الشديد لنفسك، من حبك الذي لا يتناهي لذاتك عليك بطاعة ربك، عليك بتطبيق منهج ربك، ولا أريد أن يكون الإنسان ضحية التجريب، لأن هذا الشرع شرع الله عزّ وجل، وهذا القانون قانون الله عزّ وجل، فكل مَن خالفه شقيتْ نفسه، وضل عقله.

فأي إنسان اعتنق عقيدة خلاف ما في القرآن، اعتنق عقيدةً وضعية من وضع البشر، فقد ضلّ ضلالاً مبيناً، فما هو الضلال ؟ إنه شيء مخالف للواقع، يفاجأ بعد حين أن هذا البناء الشامخ الذي بناه قد تقوّض وانهار، هذا هو الضلال..

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ)

(سورة طه)

إذا اعتقدت اعتقاداً موافقاً للقرآن فلن تضل، ولن تفاجأ، ولن يأتي يوم يكون الخبر عليك كالصاعقة، وأن هذا الذي اعتنقته أصبح خرافةً، هذا في الإسلام لن يقع أبداً، قد يقع هذا في المذاهب الوضعية، تعتنق مبدأ وتدافع عنه، وتتحمّس له، وتبذل من أجله الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، ثم في نهاية المطاف تكتشف أن هذا المبدأ باطل، وأنه كلامٌ فارغٌ لا معنى له، وأن كل المبادئ التي صدّقها الإنسان مبادئ لا أصل لها في الواقع.

3 – اعتناق المبادئ الوضعية سبب للشقاء الدنيوي والأخروي:

إذاً: هذا الذي يحدث لأهل الدنيا حينما يعتنقون مبادئ وضعية، يصابون بخيبة أمل كبيرة جداً، هذا لن يحدث في الدين أبداً، لأنك مع توجيه خالق الكون، مع الثوابت ؛ خالق الكون، كتابه، رسوله كلها ثوابت، لن يكون في حياتك مفاجأةٌ صاعقة من نوع أن تفاجأ بأن المبادئ التي اعتنقتها مبادئ خُلّبيّة لا أصل لها، لا تستند إلى واقع، لا معنى لها، لم تؤت أكلها إطلاقاً، لم تحقق هدفاً إطلاقاً.

4 – معرفة القوانين الإلهية سبيل إلى التنبؤ بمصير الإنسان:

قانون الاستقامة والتنبؤ بالحياة الطيبة:

إذاً: أنت إذا عرفت القوانين تنبأت، أنت لست نبياً، لكن لو رأيت شاباً مستقيماً، وهو في مقتبل العمر، لا يملك شيئاً، ولا أحد يعرفه، نكرة من نكرات المجتمع، إن رأيته محباً لله ورسوله، مستقيماً على أمره، يحرص على دينه، ورعاً تقياً نقياً، قل له: لك مستقبلٌ زاهر، وتأكد أن هذا الكلام لابدّ من أن يحصل، لأن الله عزّ وجل يقول:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

قانون الربا والتنبؤ بدمار المال:

وإذا رأيت المرابي تنبّأ له بتدمير المال وأنت مطمئن..

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية 276)

قانون عدم العفة والتنبؤ بالزواج الفاشل:

إن رأيت شاباً له خبراتٌ قبل الزواج، ذوّاقٌ قبل الزواج، فتنبأ له بزواجٌ شقي، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات))

[عن فيض القدير شرح الجامع الصغير]

قانون العفة والتنبؤ بالزواج الناجح:

إن رأيت شاباً عفيفاً قبل الزواج فتنبأ له أنه سيسعد في زواجه، لأن زواجه مكافأةٌ من الله عزّ وجل على عفته قبل الزواج، إنها قوانين.

أتمنى على كل أخ كريم أن يقرأ القرآن الكريم، وأن يستنبط القوانين.

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(33))

(سورة يونس)

قانون الفسق والتنبؤ بالعذاب:

ما دام الإنسان مقيماً على معصية، ما دام مقيماً على مخالفة، لن يؤمن، لن يُقبل، حجابٌ كثيفٌ بينه وبين الله عزّ وجل، فإذا قرأت القرآن، وعرفت القوانين، أمكنك أن تتنبأ بما سيكون لا من علم الغيب ؛ ولكن من علمٍ بالقوانين تماما كالذي يتنبأ بأن هذا الجسر لابدّ من أن يلتوي في فصل الصيف، لأن المهندس نسي الفواصل، فواصل التمدد بين أجزائه، تنبؤ بالقوانين، فإذا قرأت القرآن.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

قانون الخيانة والتنبؤ بالفضيحة:

لو قرأتم قوله تعالى:

(وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ(52))

(سورة يوسف)

أيْ أنّ أية خيانةٍ على وجه الأرض لا بدّ من أن تفتضح، مهما كنت ذكياً، مهما أحكمت الأمور، ما دامت خيانة فلابدّ من أن تفتضح، هذا قانون القرآن الكريم.

من القوانين القرآنية: ثلاثةٌ من كن فيه كن عليه:

ثلاثة من كن فيه كن عليه:

1 – البغي:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

(سورة يونس: من الآية 23)

2 – النكث:

(فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)

(سورة الفتح: من الآية 10)

3 – الخداع:

(يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلا أنفُسَهُمْ)

(سورة البقرة: من آية 9)

إذا أنت قرأت حديث النبي المستند إلى فهمه الدقيق لكتاب الله، هذه كلها قوانين، بإمكانك أن تتنبأ، وأنا أقول لك: هذا الشيء طيب جداً..

قوانين تحكم علاقات الناس:

1 - بشر الزاني بالفقر ولو بعد حين:

2 - بشِّر القاتل بالقتل:

تجد أن اكتشاف الجريمة ـ أنا هذا ما أراه ليس صادراً عن ذكاء رجال الأمن الجنائي، ولكن بتقدير قادر ـ بتقدير حكيم، لسببٍ تافهٍ جداً كُشِفَ الأمر، وظهرت الجريمة، وعوقب المجرم وأعدم، بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين، المرابي بشِّره بمحق المال، والمتصدق بشره بنماء المال، كلها قوانين.

(يَمْحَقُ اللّهُ الرّبَا وَيُرْبِي الصّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية 276)

واللهِ شيء رائع جداً أن تتعرف إلى القوانين التي تحكم علاقات الناس فيما بينهم، شيء رائع جداً، أن تعرف:

3 - الطيبون للطيبات:

إذا كنت طيباً صادقاً مخلصاً منيباً، الله سبحانه وتعالى يسوقك شئت أم أبيت لامرأةٍ صالحةٍ، تسرُّك إذا نظرت إليها، وتحفظك إذا غبت عنها، وتطيعك إذا أمرتها ؛ وإذا لم تكن طيباً جاءتك مَن هي على شاكلتك، قال الله له:

((عبدي قد عاقبتك، ولم تدر))

فما من شيءٍ أروع للإنسان من أن يطلّع على قوانين حتمية لابدّ من أن تقع.

إذاً النبي سُمِّيَ نبياً لأنه ظهر مقامه عالياً، من نبأ الشيء أي ظهر، وسُمّي نبياً لأنه أنبأنا بالحق، أخبرنا عن الله عزّ وجل، أخبر عقولنا ما تعجز عن فهمه بذاتها، وإذا قرأت كلام الله وكلام رسوله تجده كله قوانين.

4 ـ قانون القرض والأداء:

من ذلك مثلاً:

((مَنْ أخَذَ أمْوَالَ النّاس يُرِيدُ أدَاءَهَا أدّى اللّهُ عَنْهُ ـ فمثلاً أنت استقرضت قرضاً، وفي نيتك الأكيدة أن ترد هذا القرض، الله عزّ وجل ييسر لك الأمور وترد هذا الدين ـ وَمَنْ أخَذَ أموال الناس يُرِيدُ إتْلافَهَا ـ أيْ أنْ يأكلها بالباطل ـ أتْلَفَهُ اللّهُ))

[صحيح البخاري عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

أتلفه الله في جسمه ونفسه وماله، تجده أصيب بمرض عضال، دفع كل شيءٍ، وباع بيته، لأنه حينما أكل أموال الناس أراد أن يأكلها بالباطل منذ أن أخذها، هكذا.

5 ـ قانون طلب الدنيا وطلب الآخرة:

وكذلك:

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمّهُ جَعَلَ اللّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمّهُ جَعَلَ اللّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إلا مَا قُدّرَ لَهُ))

[الترمذي، ابن ماجه، أحمد عن أنس]

هذه قوانين، ليتك إذا قرأت القرآن، أو قرأت سنة النبي العدنان تكتشف هذه القوانين، وأتمنى عليك أن تكتبها، هذه قوانين قطعية الحدوث، فإذا عرف الإنسان أن هذا التيار تيار صاعق، استخدم آلة مغلّفة بعازل، لأن جهله بهذا الموضوع قد يودي بحياته، وكذلك إذا عرف أن هذا الغاز يسبب انفجاراً، فإذا شَمّ هذه الرائحة يبادر إلى منع التسرب، ولو أنه ضغط على زر الكهرباء لانفجر البيت، فإذا عرفت طبيعة الغاز فلن تفعل ذلك.

كل مصيبة بسبب مخالفة منهج الله:

أكاد أن أقول لكم: ما من مصيبةٍ في الأرض إلا بسبب مخالفةٍ لمنهج الله، وما من مخالفةٍ بمنهج الله إلا بسبب جهلٍ به، إذاً: أعدى أعداء الإنسان هو الجهل، فإذا أردت أن تتعلم فعليك بالمساجد، عليك ببيوت

الله عزّ وجل، فيها تتعرف إلى كلام الله، إلى سنة النبي، إلى مواقف النبي، إلى سيَر الصحابة، إلى الأحكام الفقهية.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ (28))

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ:

1 ـ نكتة ولطيفة تربوية:

كلمة: (قل) فيها معنى شعوري، ذوقي، فإذا كنت منزعجاً من إنسان فلا تواجهه، ولكن قل لشخص أن يقول له: أنا غضبان عليه، كلمة:

(قُلْ لِأَزْوَاجِكَ (28))

2 ـ حياة النبي عليه الصلاة والسلام الزوجية مفعمة بالتقشف والزهد:

يبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام عاش حياةً أساسها الكفاف والتقشُف، ذلك لأن النبي عليه الصلاة والسلام لو عاش حياةً فيها البذخ، أو فيها أطايب الأشياء لظن الناس بالدعوة سوءاً، فأراد الله أن ينزّه هذه الدعوة، مع أن الإسلام الذي جاء به النبي لا يحرم أن تأكل، وأن تشرب، وأن ترتدي ثياباً جديدةً، هذا ليس محرّماً، أما النبي فأخذ نفسه بالعزائم، أخذ نفسه بالتقشف وبالكفاف، فلما فتح الله عليه البلاد والغنائم طلبت زوجاته الطاهرات منه أن يرفع مستوى المعيشة، وأن يزيد في النفقة، فاغْتَمّ عليه الصلاة والسلام، وهذا الغم الذي أصابه لأنه أراد أن يبقى على الخطة التي رسمها لدعوته، أن يكون متقشفاً، أن يكون زاهداً، ألا يتزوّد من الدنيا شيئاً، فحينما أصابه ما أصابه نزل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ (28))

3 – النبي بشرٌ انتصر على بشريته:

قل لهن، قل لهن، وكأن الله يعاتبهن على إيذائهن لرسول الله، وهذه المطالبة للنبي عليه الصلاة والسلام نوعٌ من الأذى، ففي الحقيقة لدينا نقطة مهمة جداً، النبي عليه الصلاة والسلام بشر ؛ لكنه انتصر على بشريته، لو أنه ليس من بني البشر، أو ليس يشعر بمشاعر البشر، ما كانت له هذه البطولة العظيمة، ولأنه بشر، يشعر بما نشعر، ويحس بما نحس، ويتمنّى بما نتمنى، ويتألّم لما نتألم، هو منا، من بني

البشر، لكن حبه لله عزّ وجل غلب عليه فانتصر على بشريته، وجعل الدنيا تحت قدميه، وأراد أن يكون مثلاً أعلى وقدوةً لأصحابه. ألم يقل عليه الصلاة والسلام:

((لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَمَالِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا مَا وَارَى إِبْطُ بِلَالٍ))

[مسند ابن ماجة عن أنس]

معنى ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام أراد أن يكون متقشفاً، أراد أن يكون بعيداً عن مباهج الدنيا، لئلا يدخل على نفوس أصحابه أنّ هذه الدعوة فيها مغانم كثيرة، وفيها مكتسبات، ولو بالغ الإنسان الداعية في رفاهيّته لظن الناس به الظنون.

أيها الأخوة الأكارم، النبي عليه الصلاة والسلام انتصر على بشريته تماماً، أما نساؤه الطيّبات الطاهرات فكانت تتمنى إحداهن أن تعيش حياةً بمستوى أنها زوجة رسول الله، فطالبته بأن يرفع النفقة، وهذا الصحابي الجليل الذي طالبته زوجته أن يعطيها كيت وكيت، قال: **" اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لو أطلّتْ إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بك من أجلهن أهون من أن أضحي بهن من أجلكِ ".**

هذه مشكلة الإنسان إذا كان في مستوى، ولم تكن زوجته كذلك ينشأ خلافٍ بينهما فهي تريد الدنيا، تريد الظاهر، وهو يريد طاعة الله عزّ وجل ورضوانه، إذاً هذه مشكلة حُلّتْ بهذه الطريقة:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ (28))

إذاً معنى كلمة:

(قُلْ لِأَزْوَاجِكَ)

تحمل لهن عتاباً، لم يقل: يا نساء النبي، هنا قال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا (28))

الإنسان مجبول على حب الدنيا والميل إليها:

والحقيقة هذه الآية دقيقة جداً، ما منا واحد إلا ويريد شيئاً، وهذه الإرادات المتنوّعة على كثرتها، وعلى تباينها، وعلى تنوّعها، يمكن أن توضع في حقلين كبيرين، إما أن تريد الله ورسوله والدار الآخرة، وإما أن تريد الدنيا وزينتها، الآن اجلس إلى إنسان يريد الدنيا وزينتها، كأنه ليس معك، فأنت تحدثه عن الله عزّ وجل، عن كتابه، فيجيبك: كم الساعة الآن معك، هل تعرف أن الشيء الفلاني ارتفع ثمنه، هل تدري بذلك ؟ تجد أنك في واد وهو في وادٍ، هو في الأسعار، والتجارات، والأرباح، والصفقات، والبيوت، وأنت في معرفة الله والدعوة إليه، فلو أنك التقيت مع من يحب الدنيا وزينتها تجد الطريق إلى

قلبه مسدوداً، حبك الشيء يُعمي ويصم، قلبه مصفّح بحب الدنيا، ومهما أثرته، مهما تحدثت عن الله، مهما ذكرت له قصة يذوب لها قلب الرجل المؤمن، لكن هذا لا يتأثر بل، يؤلمه غلاء الأسعار ويفرحه رخصها، يؤلمه أن يخسر ويفرحه أن يربح، أما أن يفرح بمعرفة الله ورضوانه وطاعته فهذا بعيدٌ عنه، فلذلك على الرغم من أن الإنسان له إرادات كثيرة جداً، كل هذه الإرادات يمكن أن تصب في حقلين اثنين..

(إِنْ كُنْتُنّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا (28))

لا حرج في طلب أساسيات الدنيا:

طبعاً إذا طلب الإنسان الحياة الدنيا بأساسياتها، هذا مقبول منه، طلب الزواج، هذا شيء أودعه الله بالإنسان، فطري، أساسي، طلب مأوى يسكن فيه، طلب مورد رزق، طلب ذرية صالحة، هذه كلها طلبات معقولة لا تنتمي إلى حب الدنيا.

إياكم وكبرياءَ قارون:

أما الذي يطلب الشيء الفخم الغالي ليزهوَ به على الناس، وأن يتيه على الناس بما عنده، كما فعل قارون:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

(سورة القصص: من الآية 79)

هذا الذي يريد الدنيا ليباهي بها الناس، ليكسر قلوب الفقراء، ليدخلوا عليه فيريهم ما عنده، ليحدثهم عن رحلاته، وعن مصروفه الكبير، وعن متعه، وعن سهراته، وعن نزواته، وعن حجمه المالي، وعن أرباحه، وعن كذا، وعن نوع ألبسته، وعن نوع مركبته، وعن نوع أثاثه، هذا الذي يريد الحياة الدنيا وزينتها، هذا قلبه مصفّح..

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ)

(سورة البقرة: من الآية 88)

لا نتأثر بكلامك، قال تعالى:

(بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ)

(سورة البقرة: من الآية 88)

كفرهم بالله عزّ وجل أبعدهم عنه، وجعل قلوبهم مغلفة.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا (28))

إن الإنسان يريد الزينة، يريد شيئاً يتباهى فيه، يريد منزلاً واسعاً، صالونات، إذا جاء ضيوف يفتح لهم الصالونات، وغرف الضيوف، وغرف الطعام، وهذا شيء يلفت النظر، يزهو كالطاووس أمام ضيوفه..

(إِنْ كُنْتُنّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنّ وَأُسَرِّحْكُنّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28))

تعالين أمتعكن زينة الحياة الدنيا..

(وَأُسَرِّحْكُنّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28))

معنى: أُسَرِّحْكُنَ سَرَاحًا جَميلاً

المعنى الأول:

فبعض العلماء قال: أطلقكن.

المعنى الثاني:

وبعضهم قال: أنتنّ لستنّ في مستوى هذه الدعوة، أنتنّ على الهامش، فإذا كان الإنسان مطلبه دنيوي صار على هامش الحياة، أما إذا كان مطلبه أخروياً فقد صار في صميم الحياة.

(وَإِنْ كُنْتُنّ تُرِدْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ (29))

المؤمن يريد الله ورسوله:

هذا الذي يقوله المؤمنون الصادقون: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، أي أنك إذا أردت الله عزّ وجل يهون في سبيل هذا الهدف الكبير كل شيء، تتحمّل كل المتاعب، تتحمل الصبر، تصبر عن الشهوات، تصبر على الطاعات، ترضى بالأمر التكويني، ترضى بقضاء الله وقدره، ترضى بنصيبك من الدنيا، إذا كنت تريد الدار الآخرة، فإذاً اهتمامكم ثُقل للدار الآخرة، ليس للدنيا..

(وَإِنْ كُنْتُنّ تُرِدْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالدّارَ الْآخِرَةَ فَإِنّ اللّهَ أَعَدّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنّ أَجْرًا عَظِيمًا (29))

القدوة:

1 ـ كل إنسان له مكانة اجتماعية:

الآن دخلنا في موضوع صغير، موضوع القدوة، كل إنسان له مكانة اجتماعية حتى الأب، الأب في بيته قدوة، حتى المعلم، حتى المدير العام للمؤسسة، حتى مدير المعمل، حتى مدير المستشفى، كل إنسان رفعه الله فوق الناس، هذا احتل مرتبة، هذا الإنسان له حساب خاص، أوضح مثل على ذلك، سيدنا عمر حينما جمع أهله وخاصّته، وقال عمر رضي الله عنه: **<< إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير، إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله، لا أوتين بواحدٍ وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني >>.**

2 ـ أجر الإساءة والإحسان في القدوة مضاعف:

القدوة أيها الأخوة إذا أحسن له أجران، أجره هو لأنه أحسن، وأجر من اقتدى به لأنه قدوة، وإذا أساء يعاقب مرتين، مرةً لأنه أساء، ومرةً لأن الآخرين اقتدوا به في الإساءة، فلان فعل هكذا، وفلان قال هكذا، فلان إذاً أفهم منك، هو سمح بهذا الشيء، وأنت لا تسمح فيه، وهو أفهم منك، وسمح فيه، فكل إنسان له مكانة ؛ مكانة علمية، مكانةٌ وجاهةٍ، فهو من وجهاء المجتمع، مكانة إدارية وأحسن له أجران، وإن أساء عليه وزران، هذا حساب عَلِيّةِ القوم..

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ (30))

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ

في قراءة مُبَيَّنَةٍ، وفي قراءة مُبَيِّنَةٍ، إذا قلنا: مبينةٍ، أي ظاهرٌ قبحها، من يقول: إن الزنا شيء لطيف، وطيب ؟ أعوذ بالله، بل هو شيء ظاهر القبح، وخيانة، وسفاح، وولد غير شرعي، وخوف جريمة، وعقاب، وفضيحة، وفحشاء، الإنسان يُسيئه أن يفشو عنه، السرقة، الغش، الكذب، التدليس..

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ (30))

معنى الفاحشة في حق النبي:

بعض علماء التفسير قالوا: الفاحشة هنا بحق نساء النبي ليست كمعناها بحق الناس، الفاحشة هنا معناها إذا أزعجنَ النبي، وطالبنَهُ فوق ما يملك، وحملنه على أن يغير خطّته في الحياة، وضغطنا عليه، هذه في حق نساء النبي تُعَدُّ فاحشة، لأن إيذاء النبي عليه الصلاة والسلام إيذاءٌ لله عزّ وجل..

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ (30))

أي بَيّنٌ قبحها، بينٌ ضلالها وانحرافها..

(يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ (30))

إنه أمرٌ عظيم وتحذير جليل لزوجة النبي، لأنه: يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ

ذات مرةٍ قال شخصٌ لسيدنا عمر، وقد جيء به شاربا للخمر، وعليه أن يقام الحد، فقال: **<< والله يا أمير المؤمنين إن الله قدّرَ عليّ ذلك ـ هذا ليس ذنبي، كل هذا شُغل سيدك ـ "، فقال سيدنا عمر: " أقيموا عليه الحد مرتين، مرةً لأنه شرب الخمر، ومرةً لأنه افترى على الله، قال له: ويحك إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار >>.**

أنت مخير، من قال لك: إنك مجبر على شرب الخمر، من قال لك ذلك ؟ أنت مخير فيما كلفت، ولما قال سيدنا عمر لأهله: **<< من وقع فيما وقع الناس فيه ضاعفت له العقوبة لمكانه مني >>**، فصارت القرابة من عمر مصيبة، أي أن من المصائب أن تكون قريباً من سيدنا عمر، ابن عمه، ابن خالته، مشكلة، وفي زمان ما تكون القرابة ميزة كبيرة جداً، وتكون في زمان ما مصيبة، فكانت القرابة من عمر مصيبة، لأنه عقاب مضاعف، كل إنسان له مكانة له عقاب مضاعف.

احذرْ أيها القدوة أن تخالف بفعلك ما تقوله بلسانك:

لو فرضنا أن أستاذاً دَخَّنَ أمام طلابه، أستاذ ملء السمع والبصر، هو مثقف، وشخصيته قوية، ومعلومات جيدة، وضابط عمله، فصار ما يفعله شيئاً مبرراً عند الطلاب، مستساغاً، فربما عاقبه الله مرةً على أنه آذى نفسه بهذا الدُخان، ومرة على أنه كان قدوةً سيئة للطلاب.

إذا كذبت الأم على زوجها أمام أولادها عوقبت مرتين، أمام بناتها، قالت له: لم أخرج من البيت، وهنّ رأينها خرجت ورجعت، وهذه أمهنّ وغالية عليهنّ، فمعناها الكذب وارد، ومقبول، أمهنّ تكذب، وهنّ يكذبن.

إذاً: أيتها الأم سوف تحاسبين عند الله مرتين، مرةً لأنك كذبتِ، ومرةً لأنكِ كنتِ قدوةً سيئةً لبناتكِ. كل إنسان ذو مكانة، وكل إنسان له سلطان، ولو على شخص واحدٍ، فله حسابٌ خاص، هذا حساب القدوة، عقابٌ مضاعف وأجرٌ مضاعف، أول أجر لك بطاعتك، والثاني لمن اقتدى بك، ويا أيها المسيء أول وزر عليك لإساءتك، والثاني لمن اقتدى بك.

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ (30))

وإذا قلنا: مُبَيِّنَةٍ أي بَيَّنَ الله قبحها في القرآن، إما أنها مُبَيَّنَة في كتاب الله وسنة رسوله، أو أنها مُبَيِّنَة في ذاتها.

(يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30))

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً

يسيراً، ولو كنتنّ نساء النبي.

ولو كنتَ حِبّ رسول الله !!!

سيدنا رسول الله جاءه أحب الناس إليه سيدنا أسامة، كان حِبّ رسول الله، فيبدو أن امرأةً سرقت، وسوف يقام عليها الحد، فجاؤوا يستشفعون بأسامة عند رسول الله، فلما كلمه أسامة تغيّر لون وجه رسول الله، وامتقع لونه، ونبض عرقٌ في جبهته، وقال:

((يا أسامة أتشفع في حدٍ من حدود الله ؟! والله لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها.. إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم إذا كانوا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد..))

[البخاري عن عائشة رضي الله عنها]

هكذا الدين، الدين ليس فيه حل وسط، سيدنا عمر مات ابنه في رجمٍ، وقال قبل أن يموت: أبلغ رسول الله أنّ أبي أقام علي الحَد، بعد الموت أبلغْ رسول الله أن أبي أقام علي الحد.

(مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ (30))

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ(10))

(سورة التحريم)

والله الذي لا إله إلا هو كما قال النبي الكريم:

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أحمد عن أبي هريرة]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة]

يوم القيامة يرى النبي بعض أمته تجر إلى النار يقول:

((أَصْحَابِي، أَصْحَابِي، فَقِيلَ: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، قَالَ: فَأَقُولُ: بُعْدًا، بُعْدًا، أَوْ قَالَ: سُحْقًا، سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي))

[مسند أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ(31))

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ

1 – معنى القنوت:

هنا كلمة:

(يقنت)

تعني الطاعة المستمرة.

2 ـ العبرة بدوام الطاعة:

كل إنسان له فورة، أما البطولة ليست بالفورة، بالاستمرار، وبالثبات، الثبات نبات، والقنوت داوم على الطاعة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أَحَبّ الأَعْمَالِ إِلَى اللّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلّ))

[البخاري عن عائشة رضي الله عنها]

(وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ (31))

إنها بشرى عظيمة لنساء النبي: نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ

المرة الأولى: يضاعف لها العذاب ضعفين، والثانية: نؤتها أجرها مرتين.

((أَحَبّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلّ))

[البخاري عن عائشة رضي الله عنها]

اثبت على درس، اثبت على صدقة، اثبت على صلوات الضُحى، كل شيء فعلته تطوعاً اثبت عليه، حتى تشعر بالثمار، فبرميل ماء فرضاً ملأناه بلترات، ونسيناه شهراً، فلترات الماء جفّت، إذا لا يوجد استمرار، ولا يوجد ملء، إذاً أنت نفسك وعاء، إن لم تستمر في الأخذ لا تمتلئ، داومت على درس اثبت عليه، وداوم على طول، فهذا الوقت لله عزّ وجل، وحضور هذا الدرس زكاة وقتك.

(وَمَنْ يَقْنُتْ (31))

القنوت الاستمرار في الطاعة..

(مِنْكُنّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (31))

وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا

في الدنيا والآخرة، أيْ هو شيء مرتب، زرقاً كريماً من عند الخالق.

فاتتني كلمة، لما قال ربنا عزّ وجل:

(وَإِنْ كُنْتُنّ تُرِدْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالدّارَ الْآخِرَةَ فَإِنّ اللّهَ أَعَدّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنّ أَجْرًا عَظِيمًا (29))

إنه أجر عظيم من الله الكريم العظيم:

مثال مِن واقع الناس:

إذا قال لك طفلٌ صغير: أنا معي مبلغ كبير، ماذا تظن أن يكون مقدار المبلغ ؟ خمس ليرات أو عشر ليرات أما إذا كنت، تعرف شخصاً معه ألف مليون وقال لك: أنا سأعطيك مبلغاً كبيراً، فهل تظن أنّه يعطيك خمس ليرات ؟ فكلمة كبير تتعلق بالقائل، انتبهوا لهذه النقطة، كلمة كبير وعظيم متعلقة بالقائل، فإذا كان أعظم العظماء يقول لك:

(فَإِنّ اللّهَ أَعَدّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنّ أَجْرًا عَظِيمًا (29))

ماذا تعني كلمة (عظيم) من العظيم ؟ أنا مهيئ لك هدية ثمينة، هذه على مقدار القائل، على مستوى القائل، إذا كان إنسان ضعيفاً مادياً فهذه قضية مئة ليرة، هذه ثمينة، فإذا كان الإنسان مليئا جداً، كلمة هدية ثمينة تعني شيئاً غالياً جداً، فالعظيم إذا قال عن شيءٍ: عظيم، فهو عظيم.

بقيت آية أخيرة:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا(32))

1 ـ جنس المرأة محبّب للرجال:

جنس المرأة، محببة للرجال، مهما علا مقامها، فهذه التي علا مقامها ينبغي أن تزيد في ورعها، وفي حجابها، وفي تحصُّنها، لئلا تسمع كلاماً لا يليقُ بها.

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ (32))

2ـ معنى الخضوع بالقول:

خضوع القول ؛ لين القول، تكسُّر القول، المرأة إذا تكلّمت إما أن تتكلم قولا معروفاً، وإما أن تليّن كلامها، وأن تكسِّرَهُ حتى يطمع فيها الآخرون، وما من مشكلةٍ أصابت امرأةً عفيفةً طاهرة إلا بسبب أنها خضعت في القول، خضوع المرأة في القول مجلبةٌ لطمع الرجال بها، هذه قاعدة.

قصة موسى مع المرأتين في مدين:

1ـ عفة المرأتين ظاهرة في الكلام:

لذلك فإن الله علمنا في القرآن الكريم في مكان آخر، لمّا جاءت ابنة سيدنا شعيب سيدنا إلى موسى، قالت له كلاماً لا يحتاج إلى سؤال، ولا إلى جواب، قالت له:

(إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

(سورة القصص: الآية 25)

لو أنها قالت: إن أبي يدعوك، يقول لها: ما المناسبة، لماذا ؟ فاستدعى الموقف سؤالاً وجواباً، فإجابتها إجابةً قاطعة:

(إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

(سورة القصص: الآية 25)

2- عفة موسى ظاهرة في جوابه المرأتين:

وهو حينما سأل الأختين عن شأنهما، أيضاً طرح سؤالاً ليس في اللغة كلها سؤالٌ أبلغ منه ولا أشد اختصاراً، قال:

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا)

(سورة القصص: الآية 23)

ما القصة ؟ وليس من أنتُنّ ؟ لماذا أنتن هنا ؟ ماذا تفعلن هنا ؟ ما شأنكن ؟ قال:

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا)

(سورة القصص: الآية 23)

كلمتان اثنتان.

فخٌ مِن فخاخ إبليس فاحذروه !!!

والمؤمن إذا خاطب امرأة لا تحل له، ليس له الحق أبداً يلين القول لها، إذا ألان القول لها، وألانت له القول، دخل الشيطان، لأن إبليس طلاّعٌ رَصّاد، عنده حاسة سادسة، عنده شم دقيق جداً، حينما يشعر أن هذه المرأة خضعت بالقول، وأن هذا الرجل بادلها قولاً ليّنَاً بقولٍ لين، دخل بينهن، قال:

((إن إبليس طلاّعٌ رصاد، وما هو من فخوخه ـ له فخاخ كثيرة ـ بأوثق لصيده في الرجال الأتقياء من النساء))

[الجامع الصغير عن معاذ]

إبليس له كثيرٌ من الشِباك، عنده فخوخ كثيرة، عنده فخ شديد الانضباط، لا يمكن أن يخيب، هو المرأة، لذلك سماها النبي عليه الصلاة والسلام:

((حبائل الشيطان))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

أي شباك الشيطان.

((اتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن إبليس طلاع رصاد، وما هو بشيء من فخوخه بأوثق لصيده في الأتقياء من النساء))

[الجامع الصغير عن معاذ]

((فإن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء))

[مسلم عن أبي سعيد الخدري]

لا بد من هامش أمان بين الإنسان والمعصية:

وما من شيءٍ أغلب على الإنسان من ميوله كالميل إلى النساء، لذلك يقول أحد الأنبياء:

" ليس الشريف الذي لا يرتكب المعصية، ولكن الشريف الذي يهرب من أسباب المعصية ".

أي من طريق موبوء بالنساء، من مجلات لا ترضي الله، من أشخاص بعيدين عن الله عزّ وجل، من حديث عن النساء، لذلك قال العلماء: من كان حديثه عن النساء تُجْرَحُ عدالته ولا تقبل شهادته، من تنزّه في الطرقات، لماذا ؟ لينظر إلى النساء، من كان حديثه عن النساء، من صحب الأراذل، من أكل في الطريق، من مشى حافياً، من بال في الطريق، من أطلق لفرسه العنان ـ أسرع في القيادة ـ من قاد برذوناً، من علا صياحه في البيت، من طفف بتمرة، من أكل لقمة من حرام، لكن الأكثر قبحاً: من صحب الأراذل، ومن تنزه في الطرقات، ومن كان حديثه عن النساء، لهذا لم يأت في القرآن الكريم كله نهيٌ عن الزنا، ما هذا الكلام ؟ جاء النهي عن أسباب الزنا، قال:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(سورة الإسراء: من الآية 32)

لم يقل: ولا تزنوا، بل قال:

(وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(سورة الإسراء: من الآية 32)

لأن المُمَهدات توصلك إلى نهاية الطريق، فلذلك:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ (32))

يا أيها لنسوة لا تخضعن بالقول:

بعض النساء الجاهلات تقول للبائع: راعنا، نحن جيرانك، قلبك قاس علينا..

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32))

الإيمان يقتضي أن تكون جاداً مع المرأة إلى أقصى درجة، وإلا دخل الشيطان، الكلمة اللطيفة من طرف لطرف، يتبعها كلمة أخرى، وأساساً أكبر الفواحش نظرةٌ، فابتسامةٌ، فكلامٌ، فموعدٌ، فلقاء.

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32))

كم سعر هذا الشيء ؟ كذا، إما أن تشتريه، وإما أن تذهبي، أما هذه المساومة، ولين الكلام والضحك، هذا كله والعياذ مما يجلب الزنا.

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

هذه الآية إن شاء الله والتي تليها في الدرس القادم.

سورة الأحزاب من حيث الأحكام كسورة النور:

بالمناسبة سورة الأحزاب كسورة النور، من أهم السور المتعلِّقة بالبيوت، وبحفظ الفروج، وبغض الأبصار، وبالحُرُمَات، فنحن في أمَسّ الحاجة، ولا سيما في هذا الزمان المتفلت إلى مثل هذه السور، وإن شاء الله في دروس قادمة نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (08-18): تفسير الآية 33 ، وقرن في بيوتكن
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-11-15

بسم الله الرحمن الرحيم

تذكير وتقرير لحُكم القدوة الخاص:

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثامن من سورة الأحزاب، الآيات التي فُسِّرَت في الدرس الماضي محورها أن كل إنسانٍ جعله الله في مكانٍ عليّ ؛ إن في أسرته، أو في عمله، أو في دعوته، له أجرٌ مضاعف إذا أحسن، وله عقابٌ مضاعف إذا أساء، ويمكن أن نقول: إن القدوة له عند الله حسابٌ خاص، فإذا أحسن فله أجره، وأجر من اقتدى به، وإذا أساء فعليه وزره، ووزر من تبعه إلى يوم القيامة، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء))

[مسلم عن جابر]

وسيدنا عمر رضي الله عنه وأرضاه، كان إذا أراد إنفاذ أمرٍ جمع أهله وخاصّته، وقال: **<< إني قد أمرت الناس بكذا ونهيتهم عن كذا، والناس طير إن رأوكم وقعتم وقعوا ـ الناس يقلِّدونكم، أنتم المقرّبون إليّ، أنتم أهلي وخاصّتي، أنتم الحاشية، أنتم عَلِيّة القوم ـ والناس كالطير إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله لا أوتين بواحدٍ وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني >>.**

قال كُتّاب السيرة: فصارت القرابة من عمر مصيبة، أي مصيبة كبيرة أن تلوذَ بعمر، لأنك إذا أسأت فلك العقاب مضاعف، هذا محور الدرس الماضي..

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (29) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ (30))

(سورة الأحزاب)

أي إذا طلبتُنّ منه طلباتٍ دنيويّة، سمّاها الله عزّ وجل فاحشة لعِظَمِ مقام النبي..

(مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ (30))

هذا عقاب القدوة..

(وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا(31))

ثمّ يقول الله عزّ وجل:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا(32))

هذه الآيات التي فُسِّرَت في الدرس الماضي.

أما آيات اليوم تبدأ بقوله تعالى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (33))

وقفات متأنية هادفة عند الآية:

والحقيقة أنه لابدّ من وقفةٍ متأنية عند هذه الآية، لأنها أصلٌ في وظيفة المرأة، قبل أن نبدأ بشرح هذه الآية..

1 – دور المرأة بين تيه الفلسفة الوضعية ونور الإسلام:

أيها الأخوة الأكارم، للمرأة دورٌ خطيرٌ في الحياة، ولدور المرأة فلسفةٌ خاصّةٌ في أي فكرٍ، أو أيّ نظامٍ، أو أيّ اتجاه، ولكن المسلم يستقي عقيدته من كتاب الله، ويستقي منهجه من كتاب الله، فأيّ مبدأ، أيّ مذهب وضعي، أيّ فكرٍ وضعي، أيّ نظامٍ وضعي، له أن يُفَلْسِفَ دور المرأة ما يشاء، ولكن البطولة، أو لكن المُعَوّل عليه هو النظام الإلهي، نظام خالق الكون، أنت بإمكانك أن تكتُب مبادئ، وتقول: المرأة يجب أن تعمل كذا وكذا وكذا، هذا كلامك، وهو شيء جميل.

(ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ)

(سورة التوبة: من الآية 30)

هذه كلمة تقولها بفمك، لكن يا ترى هل هي مطابقةٌ للواقع ؟ هل هي مؤديّةٌ إلى نتائج عمليّة إيجابيّة، أم هي مدمِّرة ؟ أيّ إنسان بإمكانه أن يقبع في غرفةٍ، وأن يكتب مبادئ، ويقول لك: أنا أرى أن تكون المرأة في الموقع الفلاني، أو الموقع الفلاني، وأن تفعل كذا، وأن تخرج كذا، وأن تعمل كذا، هذا شيءٌ يمكن أن يقوله كل إنسان، ولكن هذا الكلام يبقى كلام بشر، إن أصاب في جهةٍ يسيرة أخطأ في جهاتٍ كثيرة، وإن دغدغ عواطف فئةٍ من الناس فقد فجّر مشاعر فئاتٍ كثيرة، ولكن المعوّل عليه في موضوعٍ خطير كموضوع المرأة هو خالق الكون الذي خلقها، خالق الكون الذي أنزل هذا القرآن الذي لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو المعوّل عليه، لذلك من خلال هذه الآية سوف يتّضح حُكم الإسلام في المرأة، الذي يُسْتَقَى من كتاب الله، ويُستقى من تفسير كتاب الله، أي من سنّة رسول الله، لأن السنّة في حقيقتها تبيينٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلّم لما أُنزل إلينا.

2 – الفلاح في تطبيق تعليمات الخالق:

إذا اشتريتَ آلةً غالية الثمن، عظيمة الفائدة، معقّدة التركيب، ووقعت في إشكالٍ في استعمالها، لا ترجع إلى جارك الخَبّاز، مع أن الخبّاز يقوم بدور خطير في المجتمع، يقدّم لنا الخُبز لكن لا شأن له بهذه الآلة، لا ترجع إلى صديقك المعلِّم، مع أن المعلِّم يقوم بأمر خطير في حياتنا، ولكن تقول له: أنت لا تعرف، لا شأن لك بهذا، هذه الآلة المعقّدة التي تعلِّق على عملها فوائد جَمّة، والتي دفعت ثمنها مبلغاً طائلاً، لا ترجع في أمر تشغيلها، وأمر إصلاحها، وأمر ملابسات عملها إلا إلى صانعها، هكذا تفعل أنت، بل إن الآلة المعقّدة التي تحرص على أداء وظيفتها، لو جاءك إنسان يحمل دكتوراه بالفلسفة ـ جارك مثلاً ـ لا تلقي له بالاً على عِظَم اختصاصه، تقول له ببساطة: هذا ليس من اختصاصك، أنت لا تعرف، هذه آلة ثمنها ثلاثون مليونا، لها شركة صانعة، ولها مهندسون، ولها نشرات، ولا أستطيع أن أمُدّ يدي إلى أجزائها إلا بمعرفة الخبراء.

3 – المرأة نصف المجتمع البشري:

فلذلك هذه المرأة التي لها دورٌ خطيرٌ خطير في المجتمع البشري، أولاً: من حيث الحجم نصف البشر من النساء، نصف المجتمع، وثانياً: ليس نصفاً فقط عدديّاً، بل نصفاً مكمّلاً للنصف الأول، لا تقوم حياة النصف الأول إلا بالتعاون مع النصف الثاني، وطبيعة المرأة محبّبةٌ للرجال هكذا قال الله عزّ وجل:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ)

(سورة آل عمران: من الآية 14)

ويقول علماء النفس: إن أقوى دافع في الجنس البشري، وإن أعمق دافع في الجنس البشري هو الدافع الجنسي، إذا عددناه بعد دافع الطعام والشراب، إذاً صِنْفٌ من البشر يشغل نصف العدد، وله دورٌ خطير ينبغي أن نتعرّف إلى حقيقته، وإلى وظيفته، وإلى مهمّته، لا من زيدٍ أو عُبَيْد، لا من فلان أو عِلان بل ؛ من خالق الأكوان.

مرّةً ثانية: المعوّل عليه ليس أن تقرأ كتاباً عن المرأة للعالم الفلاني، والفيلسوف الفلاني، والمفكّر الفلاني، وليس أن تقرأ مبادئ وضعها بنو البشر تدغدغ بها عواطف بعض البشر، لا، لكن العبرة أن تعرف موقف الإسلام، وهو دين الله عزّ وجل، المستقى من كتاب الله من المرأة، هذه مقدِّمة.

لكن قبل كل شيء، ما دامت الشهوة التي أودعها الله في الرجال متعلِّقةً بالنساء، فيمكن أن أطرح عليكم المثل التالي، والمثل يوضِّح، والله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ضرب أمثلةً كثيرة:

4 – شهوة المرأة كالوقود السائل:

هذا السائل الذي يتفجّر في السيارة ـ الوقود " **البنزين** " ـ هذا سائل أودع فيه قوّةٌ انفجاريّة، هل يمكن أن تضع الماء مكانه فتسير المركبة ؟ لا، فأنت تريد سائلاً فيه قوة انفجار، إذا أعطيته النار انفجر، واشتعل، وشكّل ضغطاً، إذاً: هذا السائل الذي أُودعَتْ فيه قوّة الاحتراق الشديد، وبالتالي قوة الانفجار، هذا السائل ـ دقِّق معي ـ إذا وضِعَ في مستودعاته المحكمة، وسال في الأنابيب المُحكمة، ووصل إلى مكان الاحتراق الذي أُعِدّ له، وجاءته الشرارة في المكان المناسب وفي الوقت المناسب اشتعل، وما دام مكان الاشتعال محصوراً، وشكّل قوّةً دافعة، وهذه القوة رُتِّبَت على شكل متسلسل، بحيث ينشأ عن اندفاع المكابس التي صُمِّمَت على شكل متسلسل قوة دوران مستمرّة، أنت تركب هذه المركبة، وإلى جانبك زوجتك، وفي المقعد الخلفي أولادك، وفي الصندوق حاجاتك وطعامك وشرابك، وتركب هذه المركبة بقوة الانفجار وقوة الاحتراق، فإذا هي تنقلك إلى أمكنةٍ جميلة تمضي بها أجمل الأوقات، فقوة الانفجار نافعةٌ أم مدمِّرة ؟ إنها قوة نافعة.

وحينما صمّم الله ـ إن صحّ التعبير ـ وحينما خلق الله، وحينما فطر الله حبّ النساء في الرجال، وجعل طبيعة المرأة ؛ بقوامها، وشكلها، وطبيعتها، وأنوثتها محبّبةً للرجال، كان أصل التصميم أن تكون هذه الشهوة قوّةً دافعةً إلى الله، لذلك بالشهوات نرقى إلى الله، نرقى إلى الله صابرين تارةً، ونرقى إلى الله شاكرين تارةً أخرى، بالشهوات التي أودعها الله فينا نرقى إلى ربِّ الأرض والسماوات.

5 – المرأة صمِّمت لتكون أمّاً:

حينما صُمِّمَت المرأة صُمِّمَت لتكون أمّاً تربي أولادها، وليس في حياة الأولاد شيءٌ يفوق عظمة الأم، في حياتهم طبعاً، قلب الأم لا يوصف، هي إنسانٌ تعيش لغيرها، إنها الأم، تعيش لأولادها ؛ تشقى ليسعدوا، تجوع ليشبعوا، تخاف ليطمئنوا، تموت ليحيوا، هي الأم، حينما صُمِّمت المرأة صُمِّمت لتكون

أماً، أو لتكون زوجة تملأ قلب زوجها سعادةً، تملأ البيت جمالاً، ورقة، وتألّقاً بخدمتها لزوجها ولأولادها.

6 ـ ماذا لو سار الوقودُ السائل في غير مساره الصحيح ؟

ولكن هذا الوقود السائل لو صببناه على المركبة في غير المكان الصحيح، وجئنا بعود ثقاب وأشعلناه ماذا يحدث ؟ تحترق المركبة، وتقتل من فيها، إذاً هي قوةٌ محرّكةٌ نافعةٌ إذا وضِعَت في مكانها الصحيح، وسارت في مسارها الصحيح، وانفجرت في مكانها الصحيح، وبالمقابل فهي قوّةٌ مدمِّرةٌ إذا وضِعَت خارج مكانها الصحيح، وتحرّكت في غير الطريق الصحيح، وانفجرت في غير المكان الصحيح، هذا ملخّص الدرس..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ

1 ـ المرأة نقطة ضعف الرجل:

إذا خرجت المرأة سافرةً، فاتنةً، تعرض ما أودع الله فيها من مفاتن لترضي زوجها أصلاً، وتكون مسعدةً له، إذا أظهرت هذه المفاتن للناس جميعاً، اشتعلت الفتن واستعرت، وضاع المجتمع، وانحرف الشباب، وتحسّر الرجال، ودُمِّرَ المجتمع، فلذلك موضوع المرأة موضوعٌ خطيرٌ خطير، إذاً المأخذ الأشد على دين الإنسان، أو المأخذ الأكبر أهميّة على دين الإنسان موضوع المرأة، يكفي أن يطلق الإنسان بصره فيما حرّم الله عليه، أين صلاته ؟ صار الطريق إلى الله غير سالك، يكفي أن يستمتع بامرأةٍ لا تَحِلُّ له ؛ إن بالنظر، أو بالكلام، أو بما شاكل ذلك، صار الطريق إلى الله غير سالك.

2 ـ المرأة إما قوة نافعة أو قوة مدمرة:

فلذلك أيها الأخوة... يجب أن نعلِّق أهميّةً كبيرةً جِداً جداً جِداً على موضوع المرأة، وعلى دورها في الحياة، وعلى وظيفتها الخطيرة التي خُلِقَت لها، فكما أن الوقود السائل وهو غالي الثمن الآن، ولاسيما هذه الأيّام، وقودٌ نافعٌ يعطيك حركة نافعة، ففي الوقت نفسه هو مادّةٌ خطرة، لو وُضعَت في مكان غير

محكم وجاءتها شرارة ربّما أحرقت بناءً، وربّما أطاحت بآلاف الأرواح، والمرأة كذلك إما أنها قوةٌ نافعةٌ للمجتمع ؛ وإما أنها قوةٌ مدمِّرة.

موقف الإسلام من المرأة:

المرأة مساوية للرجل تكليفًا وتشريفًا:

الآن إلى الآيات، وقبل أن نصل إلى الآيات، فما موقف الإسلام من المرأة ؟ إن المرأة مساوية للرجل تماماً من حيث التكليف، ومن حيث التشريف، هي مكلّفَةٌ كالرجل، ومشرّفةٌ عند الله كالرجل، ولا أدلّ على ذلك من أن الله أمرها بالصلاة كما أمر الرجال، وأمرها بالصوم، وأمرها بالزكاة، وأمرها بالحَجّ، وأمرها بالإنفاق، وأمرها بطلب العلم، وكلّفها بكل ما كلّف الرجل..

الأدلة على مساواة المرأة للرجل في التشريف والتكريم:

الآية الأولى:

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)

(سورة آل عمران: من الآية 195)

الآية الثانية:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

المرأة الصالحة أفضل من ألف رجل عاص:

المرأة مساوية تماماً للرجل من حيث التكليف، ولكن إذا وضعت امرأةٌ مؤمنةٌ مطيعةٌ لله ورسوله وزوجها، في كفّة، ووضِعَ مئة ألف رجلٍ عاصٍ لله عزّ وجل في كفّة، هذه المرأة هي عند الله وعند الناس أرجح من كل هؤلاء الرجال.

والله إنّ كل امرأة صالحة وهبت حياتها لزوجها وأولادها، وكانت قدوةً لبناتها، وكانت رحمةً مهداةً لأسرتها، تفضل عند الله مائة ألف ألف رجلٍ تائهِ شاردٍ ضالٍ مُضِل.

إذاً ففي التكليف المرأة مساويةٌ للرجل تماماً.

والمرأة مساويةٌ للرجل تماماً في التشريف..

(إِنّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصّادِقِينَ وَالصّادِقَاتِ وَالصّابِرِينَ وَالصّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدّقِينَ وَالْمُتَصَدّقَاتِ وَالصّائِمِينَ وَالصّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذّاكِرِينَ اللّهَ كَثِيرًا وَالذّاكِرَاتِ أَعَدّ اللّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (35))

لا أعتقد أن يكون أي شك في أن المرأة مكرّمةٌ تماماً كالرجل، ومشرّفةٌ تماماً كالرجل، ومساويةٌ له في التكاليف كلِها.

هكذا كانت المرأة في العصور الوسطى:

طبعاً عدا بعض التكاليف من حيث الحيض والنِفاس، لها تكاليف خاصّة، أما المرأة في العصور الوسطى كانت تُباع مع أثاث المنزل، يرثها الابن البكر مع إرث أبيه، نعم كانت تورث، والحديث عن تَخَلّف المرأة في العصور الوسطى لدى غير المسلمين حديثٌ يطول، ولا نحبُ أن نعكِّر صفاءنا بهذه الأحاديث، على كلٍ كانت المرأة في العصور الوسطى تُعامل كالبهائم، وتُباع وتُشترى، وتنتقل بالإرث من إنسان إلى إنسان، بينما الإسلام كرّمها، ورفع شأنها، وأعطاها حقّها، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟!

وَلَيْسَ الذّكَرُ كَالأُنْثَى

قال تعالى:

(وَلَيْسَ الذّكَرُ كَالأُنْثَى)

(سورة آل عمران: من الآية 36)

هذا شيءٌ ثانٍ، فمثلاً للتوضيح: آلة تراكس ـ مجرفة ـ بقوة مئتي حصان، تقوم بعمل جبّار، وسيارة سياحيّة لطيفة هذه لها وظيفة، وهذا التراكس له وظيفة، إذا أردت أن تذهب إلى نزهة بالتراكس فأنت إنسان أحمق، وإذا أردت أن تهدم بناء بسيارة سياحيّة فأنت أيضاً أحمق، هذه لها قيمتها، وهذا له قيمته، هذه لها دورها، وهذا له دوره، هذه لها إمكاناتها، وهذا له إمكاناته، فكل شيء له مكانة، الآلتان جيّدتان

جداً نافعتان جداً، لكن لكل آلةٍ وظيفة، إذا قلت: هذه كهذه في كل شيء، هذا منتهى الحمق والغباء، فللرجل دورٌ لا تستطيع المرأة أن تقوم به، وللمرأة دورٌ لا يستطيع الرجل أن يقوم به، من هنا قال تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

(سورة آل عمران: من الآية 36)

الفروق الدقيقة بين الرجل والمرأة:

حينما كنّا في الجامعة، كان عندنا كتاب ألّفه رجل فرنسي، وهو عالِم كبير، وهذا الكتاب لدقته ولشهرته أصبح يُدَرّس في معظم جامعات العالم، فيه فصلٌ خطير لا أزال أذكره، الفروق الدقيقة جداً بين الذكور والإناث، إذا قرأت هذا الفصل الطويل يقشعرُّ جلدك، تشعر أن الخالق حينما خَلَقَ الأنثى صمّمها تصميماً خاصاً لتكون زوجة ؛ مشاعرها، طريقة تفكيرها، طريقة انفعالها، طريقة تعاملها مع الآخرين، قدراتها الخاصّة، ذاكرتها، متفوّقة في الذاكرة، في حفظها، وهي دون الرجل في المحاكمة العقليّة، رقّة مشاعرها مع قوة أعصابها، فلا مجال في هذا الدرس في الإفاضة في الفروق الدقيقة التي أثبتها العلماء ـ علماء النفس ـ في الفرق بين الذكر والأنثى، لكن هذه الفروق إذا قرأتها كلّها، وفهمتها كلّها، وحفظتها كلّها، وضغطتها بكلمةٍ واحدة، هي قول الله عزّ وجل:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

(سورة آل عمران: من الآية 36)

الرجل له دور والمرأة لها دور ـ هذه ليست طرفة ولكن حقيقة ـ سمعت أن في مصر قبل عشرةِ أعوام أو أكثر أثير هذا الموضوع على المستوى العام، فعُقِدت ندوات، وكُتِبَت مقالات، وأُلِفَت نشرات، وأُلقيت محاضرات، إلى أن استقرّ الأمر بندوةٍ كبيرةٍ جداً عُقِدت في مدرّج كبير، وحضر هذه الندوة مُفَكِّرون، ومصلحون، وعلماء، وعلماء دين، وتحاوروا، وتناقشوا في شأن المرأة ومساواتها بالرجل، وكان بين الحضور رجل ذكي جاء ببضعة فئران، ووضعها في كيس، وأطلقها في أثناء المحاضرة، وظهر الفرق الدقيق بين الرجال والنساء..

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

(سورة آل عمران: من الآية 36)

بلا كلام، فهذه أبلغ من كل المحاضرات.

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

دور المرأة من خلال السُّنة النبوية المطهرة:

عندنا شيءٌ آخر، هو أنك إذا قرأت القرآن، وقرأت السنة النبويّة المطهّرة، تشعر أن المرأة لها دور خطير، وهي أن تكون زوجة بادئ ذي بَدْء، لذلك:

الحديث الأول:

((إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))

[من مسند أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

الحديث الثاني:

((لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا))

[من مسند أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

هذا توجيه النبي عليه الصلاة والسلام..

الحديث الثالث:

((أيما امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

أي أنها لازمت بيتها، واعتنت بأولادها وبزوجها، رعاية، وتوجيهاً، وتربية، وأداء مهمّات،

((فهي معي في الجنّة))

ومن أدق الأحاديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

الحديث الرابع:

((أول من يمسك بحِلَق الجنّة أنا ـ أي أول إنسان يمسك حلقة باب الجنّة ليدخل هو رسول الله صلى الله عليه وسلّم ـ أول من يمسك بحلق الجنّة أنا فإذا امرأةٌ تنازعني تريد أن تدخل الجنّة قبلي ـ غير معقول، من هذه المرأة ـ قلت: يا جبريل من هذه المرأة ؟ قال: يا رسول الله هي امرأةٌ مات زوجها وترك لها أولاداً فأبت أن تتزوج من أجلهم))

((أنا أول من يفتح باب الجنة، إلا أنه تأتي امرأة تبادرني، فأقول لها: ما لك ؟ ومن أنت ؟ فتقول: أنا امرأة قعدت على أيتام لي))

[مجمع الزوائد: عن أبي هريرة]

امرأةٌ في ريعان الشباب، توفي زوجها، وترك لها خمسة أولاد، وقعت في صراع ؛ إما أن تتزوج، وهذا من حقِها لتنال حظ نفسها من الحياة، وإما أن تقف نفسها على تربية هؤلاء الأولاد الخمسة، فإذا آثرت تربية أولادها الخمسة، تدخل الجنّة قبل رسول الله..

((أول من يمسك بحلق الجنّة أنا، فإذا امرأةٌ تنازعني تريد أن تدخل الجنّة قبلي، قلت: من هذه يا جبريل ؟ قال: هي امرأةٌ مات زوجها، وترك لها أولاداً، فأبت الزواج من أجلهم))

الحديث الخامس:

وحينما جاءت امرأة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، قالت: يا رسول الله ذهب الرجال بكل شيء، الجهاد لهم، والاستشهاد لهم، والجنّة لهم، ماذا بقي لنا نحن ؟ أجاب النبي إجابةً شافية، وإليكم الحديث الشريف، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم:

((انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ـ يعدل الجهاد في سبيل الله ـ))

[أخرجه ابن عساكر وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

إذا خرج الرجل من البيت ليعمل، إذا كان مطمئنّ البال ؛ بيته فيه زوجة عاقلة، حانية، دقيقة، نظيفة، تُتْقِنُ عملها، تربي أولادها، هو مطمئن في عمله، وأنا أؤكِّد لكم أن إنتاج هذا الرجل سيتضاعف ؛ إن في المعمل، أو في التجارة، أو في الزراعة، أو في القيادة، أو في أي مكان، إذا خرجت من البيت، وبالك مطمئنٌ من جهة زوجتك ؛ عفيفةٌ، حصينةٌ، فقيهةٌ، تعلِّم أولادك، تربيهم، ترعى شؤون بيتها، يضاعف إنتاجك في العمل، وإذا خرجت إلى العمل تشوّشت على أولادك، وضاع أولادك، وكانت عنصر فسادٍ في العمل أحياناً وفي أغلب الأحيان، فلذلك:

((اعلمي أيها المرأة، وأعلمي مَن دونك من النساء أن حسن تبعُّل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

ولكن لو عرف النساء دورهنّ الخطير، وأجرهنّ الكبير لما رأيت امرأةً تعصي زوجها، ولما رأيت امرأةً تحاول أن تُنافس الرجل.

الأمومة هو الدافع الأول في المرأة:

حينما كنا في الجامعة، قال لنا أستاذٌ جليل في علم النَّفْس: المرأة حينما نافست الرجل في العمل خسرت شيئين، ماذا خسرت ؟ شيئين، خسرت السباق، وخسرت أنوثتها.

أردت من هذا الكلام أن أصل إلى أن المرأة إذا عزفت عن الزواج، وكلّما جاء خاطبٌ رفضته، وأرادت أن تعمل كالرجال، حتى في أقدس الأعمال، حتى في أشرف الأعمال، حتى في الدعوة إلى الله، إذا تُركت، وعزفت عما خُلِقَت له، وأرادت أن تنافس الرجال حتى في أشرف الأعمال، فقد سلكت طريق الرهبانيّة، ولا رهبانيّة في الإسلام.

أما إذا جمعت بين العملين الشريفين فلا مانع، لأن دافع الأمومة يُعدُّ أقوى دافع في الجنس البشري، معنى أقوى دافع أي أن الإنسان أحياناً يجعلونه بحاجة إلى ثلاثة دوافع في وقتٍ واحد، يجوع ثلاثة أيام، يُحْرَم من حاجاته الأساسيّة كلِّها دفعةً واحدة، ثم يوضع أمام حاجاته كلِّها، فإلى أي شيءٍ يتَّجه أولاً ؟ الشيء الأول الذي يتجه إليه هو الحاجة الأولى لدى الإنسان، علماء النفس يرون أن حاجة الأمومة هي الحاجة الأولى في الجنس البشري.

فلو امرأةٌ قرأت الفلسفة، وتعلّمت، وارتقت في مناصب رفيعة، وفاتها قطار الزواج، رُبّما بعد حينٍ من الزمن إذا رأت امرأةً تحمل وليدها ذابت نفسها ذوبانا لتكون

مكانها، ولا تحمل كل الشهادات التي تحملها، ليس معنى هذا أن تبتعد المرأة عن العلم، لا، فليس هذا قصدي، ولكن دافع الأمومة هو الأقوى ما من فتاةٍ على وجه الأرض إذا كانت عاقلةً، وقد تلقّت التوجيه الصحيح، إلا وتتمنّى أن تكون في المكان الصحيح ؛ أماً لأولاد، أو زوجة لرجل أخلاقي يملأ حياتها شُغْلاً، أما التي تعزف عن الزواج، وكلّما جاءها خاطبٌ تردُّه لتنافس الرجال حتى في أقدس الأعمال، فقد خالفت منهج الله، وخالفت سُنَّة رسوله، واتجهت نحو الرهبانيّة، وأقول لكم: ولا رهبانيّة في الإسلام.

حوار هادئ حول قوله تعالى: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ

أما معنى قوله تعالى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

1 ـ وهمٌ مدفوع وشبهة مرفوعة:

قد يقول قائل: يا أخي هذه الآية ليست للنساء عامة، بل هذه لنساء النبي، والله معك حق، والدليل:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (31) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (33))

2 – مِن بابٍ أولى:

فقد يأتي من يقول: يا أخي هذه الآية موجّهة إلى نساء النبي فقط، نقول لك: هناك قاعدة أصوليّة، هذه القاعدة الأصوليّة عَبّر عنها العلماء بكلمة من باب أولى، أي إذا نهانا الله عن أن نقول: أفٍ لأمهاتنا ولآبائنا فضربهما من باب أولى، إذا كانت كلمة أف قد نهانا الله عن قولها، والله عن الضرب ما نهانا بل نهانا فقط عن كلمة أف، هذا حمق، هذا إنسان يجب أن يوضَع في مشفى المجانين، إذا كانت كلمة أف قد نُهينا عنها فالضرب من باب أولى، وإذا قيل لامرأةٍ في أعلى مستوى من الإيمان، وأعلى مستوى من العفاف والتقى والورع:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (33))

فلأن يكون هذا الأمر موجّهاً إلى عامّة النساء من باب أولى، إذا قلت للطالب المتفوّق: يا طالب ادرس، فلأن يكون هذا الأمر موجّهاً للطلاب الكُسالى من باب أولى، فمن يقول: إن هذا الأمر قد وُجّهَ إلى نساء النبي فقط، نقول: إذا وجّه الأمر إلى نساء النبي وهنّ في أكمل حال، وهن نساء النبي، وهن العفيفات المُحصنات الطاهرات التائبات العابدات السائحات، فمن باب أولى أن يوجّه الأمر بالتبعيّة إلى نساء المؤمنين.

3 – معنى الآية:

المعنى الأول:

ومعنى:

(وَقَرْنَ (33))

قرنَ فعل أمر، ماضيه وَقَرَ، مضارعة يَقِرُ، وقر يقر بمعنى ثَقُلَ واستقرّ..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (33))

4 – الأصل بقاءُ المرأة في بيتها:

فالأصل في المرأة أن تكون في بيتها، هذا هو الأصل، ولا تعني الآية أنها ممنوعة من الخروج، لكن تخرج للضرورة..

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ(23))

(سورة القصص)

هذه الضرورة، والضرورة تقدّر بقدرها، أيضاً قاعدة أصوليّة، الأصل في المرأة أن تكون في بيتها، الأصل، أي هي مستقرّةٌ..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

مستقرّةٌ في البيت، بيتها مملكتها، بيتها قلعتها، بيتها غرفة العمليات بالنسبة إليها، بيتها عرشها..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

الأصل أن تكون في البيت، هذا معنى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

كأن هناك إيماءة لطيفة إلى أن الأصل أن تكوني في البيت.

الأصل وجود كل إنسان في مكانه المناسب اجتماعيا وعلميا:

مثلاً: موظّف تأتيه الساعة التاسعة والربع، والله غير موجود، خير إن شاء الله، تجئ في اليوم الثاني في العاشرة إلا ربعاً، والله ما جاء، وفي اليوم الثالث تجئ إليه الساعة الحادية عشرة، والله لم يأت بعد، وفي اليوم الرابع يوم يجئ إليه الساعة الثانية عشرة، الآن ذهب، تجئ إليه الساعة الثامنة، والله لم يأت بعد، هذا ليس موظّفاً، يمكن أن يغيب في الأسبوع يوماً، ساعة، لأمر ضروري، أمّا ألا تجده إطلاقاً في الدوام فهذا ليس موظفاً. لأن الأصل في الموظّف أنه وراء طاولته بالأساس، هذا الأصل، والأصل في الطبيب أنه في عيادته، قال لك: من الخامسة إلى السابعة، أول مرّة لم تجده، والثانية كذلك، هذا غير معقول، الأصل في الطبيب أنه في عيادته، والأصل في المحامي أنه في مكتبه، والأصل في التاجر في متجره، والأصل في العامل في معمله، والأصل في الفلاح في حقله، والأصل في المرأة في بيتها، هذا الأصل، هذا مكانها الطبيعي، هذا حقل عملها، هذه مملكتها، بهذا يظهر عزُّها، وتظهر أنوثتها، وتظهر براعتها، ويظهر دورها الخطير، لذلك النبي الكريم قال: تتمة الحديث:

((من صفات المرأة الصالحة أنك إذا نظرت ـ قد سمعت منكم إليها، وقد سمعت سرته، الحقيقة لا توجد كلمة إليها، فالرواية ليست فيها إليها، فهناك رواية ـ سرّتك))

معنى هذا إذا نظرت إليها وإلى غرفة النوم، وإلى غرفة المطبخ، وإلى لباس أطفالها، قد تُسَرُّ منها لا إذا نظرت إليها فقط ؛ بل إلى كل شيءٍ في البيت، فعندما اغفل النبي الكريم في رواية ثانية كلمة إليها، فقد وسّع معنى النظر، إذا نظرت إلى البيت، إلى ترتيبه، إلى نظافته، إلى ثياب أولادها، إلى هيئة أولادها وإلى نظافتهم ـ وإذا نظرت سرّتك ـ هذا الأصل، فلذلك قال ربنا عزّ وجل:

(لا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ وَلا يَخْرُجْنَ)

(سورة الطلاق: من الآية 1)

بيت الزوج للمرأة بنص القرآن: لا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ وَلا يَخْرُجْنَ

هناك استنباطٌ رائع من هذه الآية، أن البيت الذي دفع الزوج ثمنه عداً ونقداً، وسُجّل في السجلات الرسميّة باسمه، هو في القرآن لها، غريب، دافع الثمن الزوج، وفي السجلات العقاريّة للزوج، ولو استصدرت بياناً عقارياً لكن باسم الزوج، وهذا البيت في القرآن للزوجة، بمعنى أن البيت يثبّتُ ذاتها، ويُؤكِّد شخصيّتها..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني:

وهناك معنى آخر يستنبط: أنها مستقلّةٌ به، ولو لم تكن مستقلّة به لما نُسِبَ إليها فقط..

المعنى الثالث:

أنّ أيّ زوجٍ أخرج زوجته من بيتها أو من بيته على حدِّ زعمه، أصغر مشكلةٍ، والزوجة عند أهلها تتفاقم، وتتفاقم حتى تنتهي بالطلاق، قد تنتهي بالطلاق، وأكبر مشكلةٍ إذا بقيت الزوجة في بيت زوجها، تتلاشى وتتلاشى حتى تنتهي بالوفاق، فلذلك هذا قانون..

(لا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ وَلا يَخْرُجْنَ)

(سورة الطلاق: من الآية 1)

يا معشر الأزواج إياكم أن تُخرجوا زوجاتكم من البيوت !!!

هذه نصيحتي لكل الأزواج والزوجات: إيّاك أيها الزوج أن تخرجها من بيتك ؛ مهما كنت غضوباً، ومهما بلغ بك الغضب، وإياكِ أيتها الزوجة أن تذهبي إلى بيت أهلك لتغيظي زوجكِ، فإن أصغر مشكلةٍ وأنتِ عند أهلكِ تتنامى، وتتعاظم حتى تنتهي إلى الطلاق، وإن بقيت في بيت الزوجية فإن أكبر مشكلةٍ تتصاغر، وتتلاشى حتى تنتهي إلى الوفاق، وهذا توجيهٌ إلهي.

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (122))

(سورة النساء)

النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءته السيدة صفيّة رضي الله عنها وأرضاها، أتته بالطعام إلى المسجد، علّمنا ما ينبغي أن نفعله مع النساء، فخرج معها إلى البيت، والقصّة كانت موضوع درس الأحد السابق، فلمّا مرّ أنصاريان ورأيا النبي عليه الصلاة والسلام مع إحدى زوجاته، استحيا وأسرعا، فقال عليه الصلاة والسلام:

((عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، قالا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، فَخَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا، أَوْ قَالَ: شَرًّا))

[سنن أبي داود عن صفية]

إذاً: الأصل في المرأة أنها في البيت، فهذا الطيار إذا قال لك: أنا مللت من هذا المكان يا أخي، هذا المكان ضيّق، وأنا ضاقت نفسي، أريد أن أجلس مع الركّاب، أريد أن أتحادث معهم، أنت عندك ثلاثمائة راكب أمانة في رقبتك، وهذا مكانك الطبيعي، مكانك الطبيعي وراء مقود الطائرة حيث الأجهزة والعدّادات، فما هذا الذي تقوله: أن تأتي إلينا ؟ هذه التي تقول: البيت تضيق به، البيت تضيق نفسها به، فهذا هو المكان الطبيعي للمرأة.

لا بد للمرأة من إشعاع ومصدر علمي:

لكن إما أن تكون المرأةُ جاهلة فترى القعود في بيتٍ شيء يجنّن، أو أنها لابدّ من أن تكون عالمة، تقرأ القرآن، تقرأ السنّة، تقرأ السيرة، وتعلِّم أولادها، وتكون مصدر إشعاع لأولادها، أما الجهل مع الانحباس فهو شيءٌ لا يحتمل، إذاً لابدّ من أن تعلِّمها أمر دينها، لابدّ من تُحَفِّظها القرآن، ولابد من أن تعلِّمها سنّة النبي العدنان، لابدّ من أن تطلعها على تاريخ الصحابيّات الجليلات، لابدّ من أن تعلِّمها أصول التربية والتعليم، لابدّ من أن تُلِمّ بمبادئ أساسيّة في الحياة.

حينما يكون للإنسان مصدر علمي، أو منهل علمي، أو مورد علمي، واستمتاع علمي، تعيش المرأة عندئذٍ حياة أُخرى، تصبح زوجة ورفيقة، فالزوج عندما يجد زوجته حافظة للقرآن الكريم، تفهم آيات الأحكام، تفهم الأحاديث، يتناقش معها، انتقلت في نظرهِ من زوجة لها وظيفة معيّنة إلى صديقة أيضاً، وإلى زميلة، وإلى رفيقة، وإلى ما شاكل ذلك.

صورٌ من عظماء النساء عبر التاريخ الإسلامي:

أيها الأخوة الأكارم، التاريخ الإسلامي طافحٌ بالقصص التي تتحدّث عن نساء بلغن مستوى رفيعاً جداً من العظمة.

الصورة الأولى:

امرأةٌ أنصاريّة توفي في معركة أُحُد أبوها وأخوها وزوجها وابنها ـ لا أعتقد بالمليون حالة تجد حالة مشابهة ـ أبوها وأخوها وزوجها وابنها، وقد نُمِيَ إليها أن النبي عليه الصلاة والسلام قد قُتِل، فخرجت من بيتها تسأل عن رسول الله، علمت أن أباها قد قُتل، وأن ابنها قد قتل، وأن أخاها قد قُتِلْ، وأن زوجها قد قُتِل، وتقول هذه المرأة المُلْتَاعة: ما فعل رسول الله ؟ ولم تطمئن حتّى رأته بعينها، فلمّا رأته بعينها، قالت: يا رسول الله كل مصيبةٍ بعدك جلل ـ أي حقيرة ـ ما دمت سليماً، وما دمت معافىً، فأية مصيبةٍ هي حقيرةٌ أمام مصيبتك، هذه امرأة !! نعم هذه امرأة، حقاً. ارتقى بها الإسلام والإيمان.

الصورة الثانية:

نساءٌ صحابيات قبل أن يخرج أزواجهنّ إلى العمل يقلن له: يا فلان، اتق الله فينا، نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام.

الصورة الثالثة:

لما خطب القاضي شريح امرأة من أسرةٍ صالحة، ودخل عليها ليلة الزفاف وجد كمالاً وصلاحاً، فقام وصلّى ركعتين شكراً لله على نعمة الزوجة الصالحة، فلمّا سلّمت من صلاتي ـ هكذا يقول ـ وجدت زوجتي تصلي بصلاتي، وتسلِّم بسلامي، وتشكر شكري، فلمّا دنوت منها قالت لي: على رسلك ـ انتظر وطوّل بالك ـ على رسلك يا أبا أميّة، ثمّ قامت فخطبت، وقالت:

أما بعدُ ؛ يا أبا أميّة، إنني امرأةٌ غريبة لا أعرف ما تحبُ وما تكره، فقل لي ما تحبُ حتى آتيه، وما تكره حتى أجتنبه، ويا أبا أميّة، لقد كان لك من نساء قومك من هي كفء لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجةً على كتاب الله وسنّة رسوله، فاتق الله فيّ، وامتثل قوله تعالى:

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

(سورة البقرة: من الآية 229)

ثمّ قعدت، قال: فألجأتني إلى أن أخطب، وليس الآن وقت خطبة، فوقفت وقلت:

أما بعدُ ؛ فقد قلت كلاماً إن تصدقي فيه، وتثبتي عليه يكن لكِ ذخراً وأجراً، وإن تدعيه يكن حجّةً عليكِ، أُحبُ كذا وكذا، وأكره كذا وكذا، وما وجدتِ من حسنةٍ فانشريها، وما وجدتِ من سيئةٍ فاستريها.

والنبي عليه الصلاة والسلام كان يثني على المرأة المؤمنة يصفها بأنّها ستّيرة، والمرأة الفاسقة الفاجرة التي لا يحبُّها رسول الله هي التي تذكر مساوئ زوجها، قال عليه الصلاة والسلام:

((إني أكره المرأة ـ يكرهها النبي ـ تخرج من بيتها تشتكي على زوجها))

[ورد في الأثر]

تقول المرأة اليوم: زوجي جُن وكسّر، هكذا تتكلّم عليه في بيت أهلها: هذا جن، وفعل كذا، هذه امرأةٌ لا يحبُّها رسول الله، التي تشتكي على زوجها، أو التي تنشر مساوئ زوجها ـ قالت:

كيف نزور أهلي وأهلك ؟ قال شُريح: نزورهم غبّاً مع انقطاع بين الحين والحين، لئلا يملّونا ـ وفي الحديث الشريف:

((زر غِبّاً تزدد حبّاً))

[الطبراني عن عبد الله بن عمرو]

قالت: فمن من الجيران تحبّ أن أسمح لهنّ بدخولِ بيتك، ومن تكره ؟ قال: بنو فلان قومٌ صالحون، وبنو فلان قومٌ غير ذلك، قال: ومضى عليّ عامٌ جئت إلى البيت فإذا أم زوجتي عندنا ـ حماته غابته سنة ـ فلمّا دخلت رحّبتُ بها أجمل ترحيب، قالت لي: كيف وجدت زوجتك يا أبا أميّة ؟ قلت: والله هي خير زوجة، قالت: يا أبا أميّة ما أوتي الرجال شراً من المرأة المدلّلة فوق الحدود، فأدِّب ما شئت أن تؤدِّب وهذِّب ما شئت أن تهذِّب، ثم التفتت إلى ابنتها تأمرها بحسن السمع والطاعة.

المرأة المؤمنة بطلة، كما قلت قبل قليل: والله لو وُضِعَت امرأةٌ مؤمنةٌ في كفّة، ووضِعَ في الكفّة الثانية مائة ألف رجل، ترجح عليهم جميعاً، لأن المرأة مساويةٌ للرجل في التكليف وفي التشريف تماماً..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

الأصل أن تقبع في بيتها، وإذا خرجت فللضرورة، والضرورة تقدّر بقدرها، والنبي عليه الصلاة والسلام رأى نساءً يَزُرْنَ المقابر، فأن تزور المرأة المقابر عمل يُرضى في الدين للموعظة والعبرة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ))

[من سنن ابن ماجة عن علي]

ما دام هناك فتنة، وثيابها غير فضفاضة، وكلامها بصوت عالٍ، ما دام هناك فتنة،

((فارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ))

صلاة المرأة في بيتها خير من صلاتها في دارها:

أيها الأخوة الأكارم، الأصل كما قال النبي الكريم:

((صلاة المرأة في بيتها خير من صلاتها في دارها))

[أبو داود عن ابن مسعود]

ما الفرق بين الدار والبيت ؟ الدار لها فناء، أما البيت فهي غرفة مسقوفة، فإذا صلّت في فناء الدار، أو صلّت في غرفة مسقوفة فأيهما أفضل بالنسبة لها ؟ قال:

((صلاة المرأة في بيتها خير من صلاتها في دارها، وصلاة المرأة في قعر بيتها خيرٌ من صلاتها في بيتها))

((صَلاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاتِهَا فِي بَيْتِهَا))

[سنن أبي داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ]

هناك غرفة على الطريق وغرفة داخليّة، فإذا صلّت في غرفةٍ داخليّة فهذا خير، ولما سُئلت السيدة فاطمة رضي الله عنها: ما خير ما تفعله المرأة ؟ قالت: ألاّ تَرى وألاّ تُرى، يعني ألا ترى الرجال ولا يراها الرجال.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(30)وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ)

(سورة النور)

هذه توجيهات الخالق، المُعَوّل عليه أن تعرف ماذا يريد الله عزّ وجل ؛ من زواجك، ومن بيتك، ومن أسرتك.في الدرس القادم إن شاء الله تعالى إن أحيانا إلى ذلك الوقت..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ (33))

هذا درس اليوم..

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (09-18): تفسير الآية 33 ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-11-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس التاسع من سورة الأحزاب، في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(وَقَرْنَ (33))

(سورة الأحزاب)

طبعاً:

(وَقَرْنَ)

معطوفة على قوله تعالى:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

مستويات الرجل والمرأة:

1 – مساواة المرأة مع الرجل في التكليف والتشريف:

في الدرس الماضي بَيَّنْتُ لكم بشكلٍ مُفَصّل أن المرأة مساوية للرجل في شيئين ؛ في التكليف وفي التشريف.

2 – للمرأة خصائص وللرجل خصائص:

وفي الوقت نفسه، المرأة لها خصائص، والرجل له خصائص، هذا مستنبط من قوله تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى)

(سورة آل عمران: من آية " 36 ")

3 – للمرأة وظيفة وللرجل وظيفة:

للمرأة وظيفة، وللرجل وظيفة، فكان محور الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى حينما خلق الذكر والأنثى، وضع للذكر والأنثى منهجاً.

4 – من لوازم المرأة القرار في البيت:

من لوازم منهج الأنثى أن يَقْرَرْنَ في بيوتهن.

معنى وأحكام: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ

معنى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

1 – معنى قَرْنَ لغةً:

فعل أمر مضارع يَقِرُّ، ماضيه وَقَرَ بمعنى ثقل واستقر.

2 – معنى قَرْنَ شرعا:

الأصل في مكان استقرار المرأة بيتها،

((وأيُّما امرأةٍ قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

3 – من نتائج قرار المرأة في البيت:

والمرأة التي تهز سرير ابنها بيمناها تهزُّ العالم بيسراها، لأنه كلما كانت اللبنة الأولى، وهي الأسرة ؛ صحيةً، متوازنةً، منتظمة، مستقيمة كان الإنتاج خارج البيت مُضاعفاً، فنجاح الرجل في عمله، أساسه نجاحه في بيته، إنتاج الرجل أساسه راحة قلبه من طرف بيته.

لذلك حينما أمر الله سبحانه وتعالى الإناث، أو نساء النبي خاصة، والنساء عامة أن يقررن في بيوتهن، فلأن البيت هو مكان تربية الأولاد، هو مكان العناية باللبنة الأولى ألا وهي الأسرة، وهذا تم شرحه في الدرس الماضي.

وليس معنى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

4 – جواز خروج المرأة من البيت للحاجة والضرورة:

ألاّ تخرج المرأة إطلاقاً من البيت، أي من رحم أمها إلى الدنيا، ومن بيت أبيها إلى دار زوجها.
أمّا مَن قال: **" تخرج من دار زوجها إلى القبر "**، فهذه مقولةٌ فيها مُبالغة، ليس معنى قوله تعالى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

أنّ المرأة ممنوعةٌ أن تخرج من البيت إطلاقاً، هناك ضروراتٌ أباحها الشرع، وهناك خروج من البيت أجازه الشرع، والضرورة تقدّر بقدرها، ولا أدلّ على ذلك من قول ابنتي سيدنا شعيب:

(قالتَا لا نَسْقِي حَتّى يُصْدِرَ الرّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ(23))

(سورة القصص)

أي أن هناك ضرورة، على كلٍ هذا تم شرحه في الدرس الماضي:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ (33))

البيت هو المكان الطبيعي الفطري للمرأة:

كما أن مكان العمل هو مكان العامل، وكما أن الدائرة هي المكان الطبيعي للموظف، وكما أن العيادة هي المكان الطبيعي للطبيب، وكما أن المكتب هو المكان الطبيعي للمحامي، وكما أن المَتْجَر هو المكان الطبيعي للتاجر، وكما أن الحقل هو المكان الطبيعي للمُزارع، كذلك البيت، الخلية الأولى، اللبنة الأولى هو المكان الطبيعي للمرأة، وحينما يُرْزَقُ الرجلُ امرأة صالحةً تحفظه إذا غاب عنها، تطيعه إذا أمرها، تسره إذا نظر إليها فقد حاز الخير الكثير، هذا تم في الدرس الماضي.
لكن حينما تخرج المرأة من بيتها لتزور أباها أو لتزور أمها، أو حينما تخرج من بيتها لضرورة ؛ كأن يكون قد توفي زوجها وأولادها صغار، فخرجت من بيتها لتشتري بعض حاجاتها، وليس لها أخٌ يقضي لها هذه الحاجة، ولا ابنٌ في سنٍ مؤهّله أن يقضي لها هذه الحاجة، حينما تخرج المرأة لواجبٍ، أو لمباحٍ، أو لمندوبٍ شرعي، فهي عندئذٍ تخرج من بيتها لسببٍ أقرّه الشرع، وسمح به.
والآن إذا خرجت:

(وَلَا تَبَرّجْنَ تَبَرّجَ الْجَاهِلِيّةِ الْأُولَى (33))

من ضوابط خروج المرأة: وَلاَ تَبَرّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيّةِ الأُولَى

الأصل أن تستقري في البيت، أيتها المرأة المسلمة، الأصل بيتكِ، بيت زوجكِ، بيت أولادكِ، الأصل أن تربي أولادكِ تربية صالحة ينتفعون بها وينفعون الناس مِن بعدُ، هذا هو الأصل، فإذا خرجتِ من البيت لضرورةٍ أو لسببٍ أقر به الشرع فإيّاك أن تتبرجي، هذا محور الدرس اليوم.

1 – معنى التبرج لغةً:

ما معنى بَرَجَ في اللغة ؟ معنى بَرَجَ في المُعْجَم ظهر وارتفع، والبُرْجُ أعلى مكان في البناء، البرج أعلى مكان وأظهر مكان في البناء، والبروج، بروج السماء التي تحدث عنها القرآن فقال تعالى:

(وَالسّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ(1))

(سورة البروج)

هي بُرج الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت، والأرض في دورتها حول الشمس تمرُّ باثني عشر بُرْجًا، في كل فصلٍ تمر بثلاثة بروج، فحينما قال الله عزّ وجل:

(وَالسّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ(1))

أي هذه المجموعات الظاهرة المتألِّقة، البَيّنَة، التي يراها سُكّان الأرض وهم في دورتهم حول الشمس. إذاً: بَرَجَ بمعنى ظهر وارتفع، والبُرْجُ أعلى مكانٍ في البناء، والبروج مجموعاتٌ من النجوم عظيمة تُرى في كل فصلٍ في أثناء دورة الأرض حول الشمس، هذه بَرَجَ، هذه صيغة فَعَلَ، فهي بمعنى ارتفع وظهر، أما تَبَرّجَ، فعلى وزن تَفَعّلَ، وزن تَفَعّلَ يفيد التكرار مثل، تَجَرّعَ الكأس جُرْعَةً بعد جرعة، تجرع الكأس أي شرب الكأس على جُرُعَات.

2 – معنى التبرج شرعًا:

فمعنى قوله تعالى:

(وَلَا تَبَرّجْنَ (33))

بالمعنى الدقيق: ولا تُظْهِرْنُ مفاتنكن، أي أن الله سبحانه وتعالى أكرم المرأة فأسبغ عليها شيئاً من الجمال، بعض الجمال، أو أكثر الجمال، هذا الجمال حينما أسبغه الله عليها جعله سبباً لسعادة زوجها بها، جعل هذا الجمال ليسْكُنُ زوجها إليها، فإذا استخدم هذا الجمال لغير ما خلق له، لغير زوجها، للأجانب، لمن في الطريق فقد أضلت المسعى، فالله سبحانه وتعالى أراد أن تكون هذه المرأة شيئاً

مصوناً، بعيداً عن وحول الطريق، بعيداً عمّا تقع عليه العيون، فحينما سمح لها أن تخرج لعلةٍ شرعيةٍ، لسببٍ شرعي، لعذرٍ شرعي، لضرورةٍ شرعيةٍ، حينما سمح لها أن تخرج، أمرها أو نهاها عن أن تتبرج، والتبرج إظهار ما يجب إخفاؤه عن الأجانب، إظهار ما يجب إخفاؤه في الطريق.

يجب إخفاؤه في الطريق ؛ ولكن يجب التبرُّج في البيت، وإذا خرجت

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيّةِ الأُولَى)

عثرت على نصٍ رائعٍ للسيدة عائشة رضي الله عنها، قيل لها: **" يا أم المؤمنين، ما تقولين في الخِضَاب وفي الصباغ، وفي التمائم، وفي القرطين، وفي الخلخال، وفي خاتم الذهب، وفي رقاق الثياب ؟ ".**

مرة ثانية.. يا أم المؤمنين، ما تقولين في الخضاب وفي الصباغ، وفي التمائم، وفي القرطين، وفي الخلخال، وخاتم الذهب، ورقاق الثياب ؟ فقالت: **<< يا معشر النساء قِصّتُكُنّ قصة امرأةٍ واحدةٍ، أحل الله لكُنّ الزينة غير متبرجاتٍ لمن لا يحلُ لكُن >>.**

وجوب التبرُّج في البيت:

إذاً: يجب على المرأة أن تتزين لزوجها، ويجب عليها في الوقت نفسه أن تُخفي هذه الزينة عن غير زوجها، فإذا فهمت المرأة المسلمة أن النهي عن التبرج يعني نهياً عن التبرج مطلقاً فهذا فهمٌ أعرج، إنها أمرت أن تتزين لزوجها لتحفظه من أن يَخْطِفَ بصره، أمرها الشرع أن تتزين لزوجها لتكون سكناً له كما أراد الله عزّ وجل، أمرها الشرع أن تتزين لزوجها لتُعينيه على طاعة الله عزّ وجل، أمرها الشرع أن تتزين لزوجها لئلا تحدثه نفسه الضعيفة أن ينظر إلى غيرها.

لكن إذا خرجت المرأة من البيت لعلةٍ شرعيةٍ، لضرورةٍ شرعية، لعذرٍ شرعي:

(وَلَا تَبَرّجْنَ)

أي أيتها النساء المؤمنات لا تظهرن ما منح الله لكُنّ من جمالٍ لغير أزواجكُن.

من معاني التبرج:

نعود إلى الآية، بعضهم قال: لا تُظهرن ما يُسْتَدْعَى به شهوة الرجل، أيْ أنّ أيّ شيءٍ أظهرنه استدعى به شهوة الرجل فهذا محرّم، هذا مقياس دقيق، دعونا من التفاصيل، ودعونا من الخِلافيات، أي شيءٍ يلفت نظر الرجال ممنوعٌ أن تظهره المرأة.

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

(سورة النور: من الآية 31)

ظهر عن غير قصدٍ منها، كأن تكون طويلة القامة، ماذا تفعل بطولها ؟ كأن تكون ممتلئة الجسم، كأن ترتدي ثوباً أسود اللون، هذا اللون أي لونٍ إذا اختارته بعنايةٍ قد يكون لوناً دقيقاً، ماذا تفعل بطولها أو بامتلاء جسمها، أو بلون معطفها ؟ هذا الذي ليس بإمكانها ألاّ تظهره..

(وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

ولم يقل الله عزّ وجل: إلا ما أظهرن منها، إلا ما ظَهَرَ عن غير قصدٍ، وعن غير إرادةٍ، وعن غير مشيئةٍ، إذاً: أي شيءٍ يلفت النظر إليها ممنوعٌ أن تظهره، وقد يكون أجمل ما في المرأة وجهها، إذاً:

(وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

(سورة النور: من الآية 31)

بإمكانها أن تظهره أو ألا تظهره، بإمكانها أن ترخي عليه حجاباً، بإمكانها أن تضرب بخمارها من رأسها على صدرها مروراً بوجهها، بإمكانها كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: **<<كن محرماتٍ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان الركبان إذا مرّوا بنا أو حاذونا أسدلت إحدانا جلبابها على وجها >>**، بهذه العبارة.

على كلٍ سأريكم من خلال ما ورد في التفاسير كيف كانت المرأة في الجاهلية تتبرج.

صورة التبرّج في الجاهلية:

1 – الفروع:

قال الإمام مجاهد: **" كانت المرأة تخرج تمشي بين الرجال "**، أن تمشي بين الرجال نوعٌ من أنواع التبرُّج، ألم يقل الله عزّ وجل في قصة سيدنا شعيب:

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ(23))

(سورة القصص)

أي أنّ مزاحمة الرجال، وأن تسير المرأة بين الرجال هذا من التبرُّج، هذا ما قاله الإمام مجاهد.

2 – الصورة الثانية:

وقال قتادة: **" كانت لهُنّ مِشْيَةُ تكسرٍ وتَغنُّج "**، لذلك:

(وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنّ)

(سورة النور: من الآية 31)

هناك جمال الحركة، وهناك جمال الصوت، وهناك جمال اللون، وهناك جمال القَوام.

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32))

المرأة منهية عن أن تتكسَّرَ في صوتها كي تلف النظر إليها، ومنهية عن أن تتحرك حركة تلفت النظر..

(وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)

(سورة النور: من الآية 31)

ومنهية عن أن تخضه بالقول..

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32))

فلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ

ومنهية أيضاً أن تظهر من أعضائها، ومن خطوط جسمها، ومن ملامحها، ومن شكلها، ومن لونها، ما يلفت النظر إليها، كلام واضح كالشمس، من قوامها، ومن خطوط جسمها، ومن حجم أعضائها، ومن لَوْنِهَا، ومن شكلها، ومن ملامح وجهها، ما يلفت النظر إليها، فالتبرج إظهار ما يجب إخفاؤه، إظهار كل زينةٍ طبيعيةٍ منحها الله للمرأة أو غير طبيعية.

وقال ابن حيان: **" كانت تُلقي الخمار على رأسها ولا تشده، فتظهر قلائدها وقرطها، ويظهر قرطُها وعنقها، هذا التبرج الذي كان في الجاهلية الأولى ".**

وقال ابن كثير: **" ربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها، وأقرطة أذنيها ".**

الجاهلية الأولى والجاهلية الثانية:

هذا الوصف الذي ورد في كتب التفاسير عن تبرج الجاهلية الأولى، وسبحان الله **!** لحكمةٍ أرادها الله عزّ وصف هذه الجاهلية بأنها جاهلية أولى، ومن وصف الجاهلية بأنها أولى يستنبط أن هناك جاهليةً ثانية، ربما كانت أشد من الأولى، نساءٌ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((كاسيات عاريات))

إما لأن الثوب شفاف يشفُ عما تحته، أو لأنه ضيق يصف حجم أعضائها، فهن كاسيات لكنهن عاريات، مائلاتٌ مميلات، فالعنوهن لأنهن ملعونات..

((سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى السُّرُوجِ كَأَشْبَاهِ الرِّجَالِ، يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، عَلَى رُءُوسِهِمْ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ، الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ، لَوْ كَانَتْ وَرَاءَكُمْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ لَخَدَمْنَ نِسَاؤُكُمْ نِسَاءَهُمْ، كَمَا يَخْدِمْنَكُمْ نِسَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ))

[مسند أحمد عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو]

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إياكم وخضراء الدمن ! قيل: يا نبي الله، وما خضراء الدمن ؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء))

(مسند الشهاب عن أبي سعيد)

إذاً:

(وَلَا تَبَرَّجْنَ (33))

لا تظهرن الفتنة أو الجمال الذي أودعه الله فيكُنّ، هذا الجمال يجب أن يظهر للزوج، وأن يختفي عمن سواه، أما إذا فسقت المرأة، وفجرت قُلبَت الآية، فكل جمالها في الطريق، وكل جمالها للأجانب، وكل أنوثتها ولطفها، ورقّتها لغير زوجها، وكل ما يستوحشُ منه لزوجها، هذا من الخروج عن منهج الله عزّ وجل.

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى (33))

بعضهم قال: إن للحشمة جمالاً، وإن للتبذّل ولكشف الأعضاء جمالاً، لكن الإنسان كلما ارتقى يعجب بجمال الحشمة لا بجمال التبذّل، كلما ارتقى ذوق الإنسان يعجبه في المرأة حياؤها وحشمتها، هكذا ورد في القرآن الكريم حينما قال الله عزّ وجل:

(قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ(23)فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ(24)فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

(سورة القصص)

ما الذي لفت نظرها في سيدنا موسى ؟ قوته، وأمانته، عفته، فما نظر إليها، بل أطرق في الأرض، فلما أراد أن يذهب إلى بيت أبيها قال: سيري خلفي، ودليني على الطريق، وما الذي أعجبه فيها ؟ حياؤها، ومن علامات قيام الساعة أنهُ ينزع الحياء من

وجوه النساء ـ وقحة تُحدُّ النظر إليك ـ وتُرفعُ النخوة من رؤوس الرجال، وتُنزع الرحمة من قلوب الأمراء ـ لا حياء في وجوه النساء، ولا نخوة في رؤوس الرجال، ولا رحمة في قلوب الأمراء.

إياكم والدياثة !!!

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الديوث لا يدخل الجنة، قيل: من هو الديوث يا رسول الله ؟ قال: الذي يرضى الفاحشة في أهله، ولا يغار على عرضه))

((ثلاثة قدْ حَرّمَ اللّهُ عَلَيْهِمُ الْجَنّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْر، وَالْعَاقّ، وَالدّيّوثُ الّذِي يُقِرّ فِي أَهْلِهِ الْخَبَثَ))

(مسند أحمد عَنْ عَبْدُ اللّهِ ابْنُ عُمَرَ)

فالذي لا يغار على عرضه أو يرضى الفاحشة في أهله فهو ديوث، الإنسان له فطرة، حدثني أحدهم مرّة أنه قرأ في مجلةٍ عن امرأةٍ تعمل في التمثيل، ليست مسلمة، سئلت عن شعورها وهي تبدي للناس محاسنها ؟ قالت: **"إنه شعور الخزي والعار، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الناس، إن الحب يجب أن يبقى بين الزوجين وفي غرفٍ مغلقة ".**

هذا التخطيط الإلهي، وهذه هي الفطرة، فلذلك عندك النقل، وعندك العقل، وعندك الفطرة، فإذا خالفت النقل، أو خالفت العقل، أو خالفت الفطرة، فقد ضل الإنسان سواء السبيل، فالعقل يأمره بذلك، والفطرة تأمره بذلك، والنقل يأمره بذلك، والذوق الرفيع يأمره بذلك.

ما هي الجاهلية التي وصفت في القرآن الكريم ؟

وبعد فلدينا سؤالٌ دقيق: ما هي الجاهلية التي وصفت في القرآن الكريم ؟

(وَلَا تَبَرّجْنَ تَبَرّجَ الْجَاهِلِيّةِ الْأُولَى (33))

النوع الأول: الجهل بحقائق الدين:

الجاهلية استخدمت في القرآن الكريم بتعريفين، مرةً:

(قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ(138))

(سورة الأعراف)

لا تعرفون حقيقة الألوهية ؟ لا تعرفون من ربكم ؟ ولا من إلهكم، ولا من خالقكم، لا تعرفون حقائق التوحيد، لا تعرفون عظمة الله عزّ وجل.

إذاً: الجاهلية هنا بمعنى الجهل بحقائق الإيمان.

النوع الثاني: الانحراف عن منهج الله:

ومرة ثانية جاء الوصف على لسان سيدنا يوسف حينما قال:

(وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنّ أَصْبُ إِلَيْهِنّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ(33))

(سورة الأعراف)

فالجاهلية في القرآن ؛ إما جهلٌ بحقائق الدين، أو انحرافٌ عن منهج الدين، فالإنسان إذا كان مسلماً وخالف منهج الله عزّ وجل فهو جاهلي، والإنسان إذا كان أخلاقياً، وما عرف منهج الله عزّ وجل فهو جاهلي، يدلنا على ذلك مقالة النبي عليه الصلاة والسلام لأحد أصحابه في ساعة ضعفٍ، وقد تشادّ مع صحابي آخر، وكان أسود اللون، فقال هذا الصحابي لذاك العبد الأسود: **" يا ابن السوداء "**، فما كان من نبيّنا عليه الصلاة والسلام إلا أن قال له:

((إنك امرؤٌ فيك جاهلية))

[متفق عليه عن المَعْرُور بْن سُوَيْدٍ]

أراد هذا الصحابي أن يكفر عن ذنبه، فوضع خدّه على الأرض، ولم يرض إلا أن يطأ خده هذا الذي عيره بسواد لونه.

ففي صحيح مسلم عَن الْمَعْرُور بْن سُوَيْدٍ قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ وَعَلَيْهِ حُلّةٌ، وَعَلَى غُلامِهِ مِثْلُهَا، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَذَكَرَ أَنَّهُ سَابَّ رَجُلا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَعَيّرَهُ بِأُمِّهِ، قَالَ: فَأَتَى الرّجُلُ النَّبِيّ صَلّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إِنّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيّةٌ، إِخْوَانُكُمْ وَخَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيْهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمّا يَلْبَسُ، وَلا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ عَلَيْهِ))

[متفق عليه عن المَعْرُور بْن سُوَيْدٍ]

إذاً: الجاهلية أن تجهل، والجاهلية أن تنحرف، إذاً ليست الجاهلية فترةً زمنية، ولكنها حالة اجتماعية.

الجاهلية الأولى أحياناً أهون من الجاهلية المعاصرة:

1 – مع امرئ القيس:

قد نكون نحن الآن في جاهليةٍ جهلاء، لأن عنترة العبسي عاش في الجاهلية وقال:

وَأَغضُّ طرفي ما بَدَت لي جارَتي   حَتّى يُواري جارَتي مَأواها

***

فهذا الشاعر الجاهلي الذي عاش في عصر الجاهلية غض بصره عن جارته، فإذا كان إطلاق البصر، والتلصُّص على عورات المسلمين من سمات هذا العصر، فنحن في جاهليةٍ جَهْلاء.

2 ـ أم سلمة وقصتها مع الرجل المشرك:

إنّ أم سلمة فيما أذكر أرادت أن تلحق بزوجها في المدينة، فركبت ناقتها، بعد أن بقيت عاماً أو أكثر أثر مشادّةٍ بين أهل زوجها وأهلها حول ابنها سلمة، وحينما رَقّ قومها وقوم زوجها لها، وسمحوا لها أن تنطلق إلى زوجها في المدينة، ركبت ناقتها، شاهدها أحد المشركين، وكَبُرَ عليه أن تسافر وحدها إلى المدينة، فرافقها، ولها وصفٌ دقيّق لا يُصَدّق، كلما أرادت أن تستريح أناخ جملها، وابتعد عنها كثيراً، وتركها تستريح، فإذا حان وقت المسير عاد إليها، وغض بصره، وأركبها الجمل، وقاده اثني عشر يوماً إلى المدينة دون أن يراها، هذا في الجاهلية وقد كان مشركاً.

الجاهلية حالة مَرَضية وليست فترةً زمنيةً:

فلذلك الجاهلية ليست فترةً زمنية ؛ بل هي حالة مرضية، قد تكون في أي عصر، فحينما ينطلق الناس نحو شهواتهم، وحينما تخرج النساء كاسيات عاريات مائلاتٌ مميلات، فنحن في جاهلية، وحينما يختلط الرجال بالنساء، وينشأ عن هذا الاختلاط الفتن، وخراب البيوت، ومشكلات الأسَر، هذا أيضاً من الجاهلية، فلذلك الموضوع خطيرٌ جداً، فأنت كمسلم هناك منهج رسمه الله لك، فإما أن تعرفه فأنت إذاً مؤمن ومسلم ؛ وإما أن تجهله فأنت جاهلي، الآن عرفته، إما أن تسير عليه فأنت مسلم ومؤمن ؛ وإما أن تخالفه فأنت جاهلي، كما قال عليه الصلاة والسلام: لأحد أصحابه:

((إنك امروٌ فيك جاهلية))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة]

ولك أن تقول لكل إنسان يجهل حقائق التوحيد، يجهل حقائق القرآن، يفتخر بجهله: إنك امروٌ فيك جاهلية، وكل إنسانٍ يعرف بعض الحقائق ويحيدُ عنها، **" إنك امروٌ فيك جاهلية "**، هذا هو الجهل، إذا: إما أنّ الجاهلية من جهل الحقائق، وإما أن الجاهلية من عدم تطبيق الحقائق، إذاً:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ وَلَا تَبَرّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيّةِ الْأُولَى (33))

ليست هذه الآية خاصة بنساء النبي فانتبهوا !!!

هذا نهي، ومرة ثانية أقول لكم: إنّ مَن يتوهم أن هذه الآية تختص بها نساء النبي، فقد وقع في وهمٍ كبير، لأن الله عزّ وجل إذا أمر نساء النبي وهن المُحْصَنَات، العفيفات، الطاهرات، التقيّات، القانتات، إذا أمرهن ألا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، فلأن يكون الأمر موجهاً إلى عامة النساء المؤمنات من باب أولى.

يا أيتها المسلمة إيّاك أن تؤذي الشباب !!!

والمرأة المؤمنة لا تقول مثلاً: أنا حينما أسير في الطريق لا يجرؤ أحدٌ أن يخاطبني بكلمة، نقول لها: أيتها الأخت الكريمة إذا كان في مظهركِ ما يلفت النظر إليكِ فقد آذيتِ المسلمين، وأنتِ لا تدرين، إذا كان في مظهرك ما يؤذي الشباب، أو يؤذي العُزاب، أو يؤذي المتزوجين فقد ساهمتِ في خراب البيوت، وأنت لا تدرين، وأنتِ في أعلى درجات الإباء والعزّة، إن مظهركِ هذا يؤذي المسلمين، يؤذي الشباب، يؤذي المحرومين، يؤذي من ليس له زوجة، فما هذا القول بأنكِ شريفة !! وبأنكِ عزيزة، وبأنكِ صارمة، وبأنكِ شديدة، إن هذا المظهر الذي يلفت النظر إليكِ فيه أذىً وأي أذىً، إنكِ إن نظر إليكِ شابٌ وتحَسّر، أو نظر إليكِ متزوجٌ وتألّم فقد ساهمتِ في خراب بيته وأنت لا تدرين، فالمرأة المؤمنة لا تؤذي الناس بشكلها، ولا بقوامها، ولا بزينتها.

ومرةً ثانية: الزينة الطبيعية التي أودعها الله في المرأة، والزينة المجلوبة التي تصنعها بأيديها، سواء بسواء، فلا هذه ولا تلك، لذلك العورة قد تظهر لا بلونها ؛ ولكن بحجمها من خلال ضيق الثياب، وقد تظهر بلونها من خلال رقّةِ الثياب، فالثياب الرقيقة والضيقة هذه لا يمكن أن تكون مباحة في الإسلام، فكل ما يبدي مفاتن المرأة منهية أن تظهره.

(وَلَا تَبَرّجْنَ (33))

لا تظهرن، البارجة غير القارب، البُرج أعلى ما في البناء، البروج نجومٌ عظيمة.

(وَلَا تَبَرّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيّةِ (33))

أي تبرج المرأة الجاهلة التي لا تعرف قيمتها، لا تعرف وظيفتها في المجتمع، لا تعرف دورها الخطير، لا تعرف لمن هذا الجمال، لا تحمل المرأة لوحة حمراء، لوحتها سوداء، هي لزوجها فقط لا لعامة الناس، هذه التي تعطي مِن أنوثتها، ومن حركاتها، ومن صوتها، ومن جمالها، لكل مَن ينظر إليها، هذه ليست امرأةٌ خاصةٌ لزوجها ؛ بل هي عامة، إذاً:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ وَلَا تَبَرّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصّلَاةَ (33))

مِن طرق عدم التبرج: إقامة الصلاة على وجهها:

لعل الله سبحانه وتعالى حينما بدأ بأن يقررن في بيوتهن، وألاّ يتبرّجن، أراد أن يبين لهن الطريق، إنكن إن أقمتن الصلاة، فبالصلاة وبالقرب من الله عزّ وجل، وبشعور المرأة بأنها قريبة من الله عزّ وجل، بأن الله يحبها، وبأن الله يرضى عنها، حينما لا تؤذي عباد الله المؤمنين، لعلها بهذا القُرب تستعين على أن تنفذ أمر الله عزّ وجل.

الإنسان دائماً عنده في حياته عوض، مثلاً: يقولون: إن عملية البيع لا تتم إلا بحالة نفسية، عملية الشراء وعملية البيع لا تتمان إلا بحالة نفسية، فأنت كمشترٍ لا يمكن أن تشتري هذا الكتاب إلا إذا رأيته أثمن من مالك، من ثمنه، قال لك ثمنُه: عشرون ليرة، ما لم تر أن قيمة الكتاب أثمن من عشرين لا ينعقد البيع، والبائع لا يمكن أن يبيع الكتاب إلا إذا شعر أن ثمنه أغلى منه.

فهذه المرأة التي تقبل أن تتحجب، وأن تطبق شرع الله عزّ وجل، وأن تستقر في البيت، وأن تبتعد عن كل زينةٍ تلفت النظر، ما الذي يعينها على ذلك ؟ أن تتصل بالله عزّ وجل، إذا ذاقت حلاوة القُرب، إذا ذاقت معنى أن يرضى خالق الكون عنها، إذا ذاقت أن الله يحبها، ويحب أمثالها، وأن الله راضٍ عنها، إذا ذاقت هذه المرأة طعم القُرْب طبقت أمر الله بقَضِّهِ وقضيضه، من ألِفِهِ إلى يائِهِ.

إذاً:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ وَلَا تَبَرّجْنَ (33))

الآية دقيقة جداً، أي تبرجن في بيوتكن، فإذا خرجتن من بيوتكن لعذرٍ شرعي فلا تبرجن في الطريق، لأن هذا الجمال لأزواجكن لا لعامة الناس..

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنّ وَلَا تَبَرّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصّلَاةَ وَآَتِينَ الزّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ (33))

معنى إتيان الزكاة :

قال بعض العلماء: وآتين الزكاة هنا بمعنى تصدّقن الصدقة النافلة، فالمرأة لا تخلو أن يكون لها مال، فلابدّ من أن تتصدق من مالها على الفقراء والمساكين، على امرأةٍ ضعيفة، على امرأةٍ أرملةٍ، على امرأةٍ مسكينةٍ، على طفلٍ يتيم، هذا معنى الزكاة، باعتبار المرأة إذا ملكت النصاب عليها الزكاة قولاً واحداً، تجب عليها الزكاة، لكن يغلب على المرأة أن تكون نفقتها على زوجها، فإذا أُمِرَت بالزكاة فأغلب الظن أن هذه الآية موجهة إلى الصدقة النافلة..

(وَأَقِمْنَ الصّلَاةَ وَآَتِينَ الزّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ (33))

وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَه

هذا من عطف العام على الخاص، أي أن المرأة المسلمة لا تخرج عن منهج الله أبداً، لا تحيد عن شرع الله أبداً ؛ لا في حركتها، ولا في صوتها، ولا في مظهرها، ولا في ثيابها، ولا في طاعة زوجها، ولا في رعاية أولادها.

((انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ـ أي يعدل الجهاد في سبيل الله))

[أخرجه ابن عساكر وأخرجه البيهقي فى شعب الإيمان عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

(وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (33))

في كل شيء، حتى في علاقتها بزوجها، حتى في تربيتها لأولادها، حتى في علاقتها بأهلها.

(وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (33))

حتى في خروجها، حتى في ثيابها، حتى في حِجابها، حتى في ترك العطر في الطريق، حتى في عدم الخروج من البيت من دون إذن الزوج، على المرأة المسلمة أن تتقصّى أوامر الله عزّ وجل، وأوامر النبي عليه الصلاة والسلام فيما يَخُصُّها، وهذه الآية:

(وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ (33))

هذه من عطف العام على الخاص.

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً

1 – ما هو البيت في هذه الآية ؟

نجد في هذه الآية معنى دقيقاً جداً وجليلاً، هو أنّ كلمة (البيت) جاءت في الآية معرفة، إذا قلت: البيت أي الكعبة، البيت الحرام، في الأرض بيتٌ واحد، هو البيت الحرام، هذه (ألْ) هي (ألْ) العهدية، تكون أنت في دائرة فيها مئتا موظف، وفيها مدير، فكلّما قلت: المدير مثلاً حضر أو غاب، والمدير أصدر قرارا، كلمة المدير بهذه الدائرة تعني مدير هذه الدائرة، هذه (أل) للعهد، ولأن بيت الله الحرام بيتٌ واحدٌ في الأرض، لذلك ورد ذكره معرفٌ بـ (أل) العهدية.

2 – من هم أهل البيت في هذه الآية ؟

أما هنا فشيءٌ جديد، أهل بيت النبي نساؤه، هم أهل البيت، إذاً: بيت النبي شيءٌ مقدس جداً، وجاءت الكلمة أيضاً لمنزلته، لأن الناس لو رأوا النبي في أعلى درجة، ولم يروا نساءه في المستوى اللاّئق بهن تتزلزل نفوسهم، يختل توازنهم، فليس من المعقول أن تفصل إنساناً عن بيته، هذه زوجته لِمَ لا تكون على وضعٍ مقبول، هؤلاء أولاده، هؤلاء بناته، فإذا دعا الإنسان إلى الله عزّ وجل فلينتبه إلى البيت، لأن خللاً في البيت يضعف الدعوة إلى الله عزّ وجل، فإذاً ربنا عزّ وجل في عليائه، خالق السماوات والأرض قال:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ (33))

3 – التبرّج والانحراف رجس:

التفلّت من أوامر الشرع، إظهار الزينة، أن يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، هذا رجس أي نَجَس.

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ (32))

هذا نَجَس رجس.

إظهار الزينة لغير الزوج هذا رجس، فربنا عزّ وجل كي ينفرنا من هذا الانحراف سماه نَجَساً، فأن تَظهر المرأة فاتنةً، أو أن تعرض مفاتنها على الناس، أو أن تتساهل في حجابها، أو ألا تكون دقيقةً في إخفاء زينتها، إن هذا العمل سماه الله في القرآن الكريم: رجساً.

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ (33))

أي أنّ الله عزّ وجل تولّى في عليائه تطهير أهل بيت النبي وتأديبهن، وفي معنى آخر: أن هذا البيت بيت النبي مقدس جداً، لو لم يكن في مستوى الرسالة لاضطرب الناس، لشك الناس في هذه الدعوة، فالمرأة التي تلوذ بالنبي إذا انحرفت سببت للأتباع اضطراباً، وزلزلةً، وقلقاً، وشكاً، وطعناً، فلذلك أهل بيت النبي يجب أن يكونوا في المستوى اللائق بالنبي، لذا تولى الله بنفسه تأديبهن.

4 – استنباط لطيف يهم الداعية على الله:

وقياساً على هذا إنك إن أردت أن تدعو إلى الله عزّ وجل فالناس يرقبون بيتك، يتبعون أهل بيتك، يتبعون بناتك، يتبعون أولادك، هل هذا الذي تدعونا إليه مطبقٌ في بيتك ؟ أم أن الدعوة ارتزاق ؟ هل

هذا الذي تدعونا إليه مطبَقٌ في حياتك الخاصة ؟ لأن الناس لو رأوا خلافاً ومسافة بين ما هو كائن وما يجب أن يكون تزلزلوا، واضطربوا.

إذاً:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

قصة وعبرة:

كتبت امرأةٌ قصة قصيرةً تقول فيها: مرضت مرضاً شديداً بعد خلع ضرسٍ، قاسيت منه آلاماً مبرحة حرمتني طعم النوم والأكل شهراً كاملاً، إذ لم يكن يكفّ وقعُ الألم لحظةً ليلاً أو نهاراً، وزاد الورم حتى كاد خّدِّي ينفجر، وامتد إلى عنقي ورأسي، وأغلق جَفْنَيْ عينَيّ، فحار في أمري الجرّاحون والأطباء، وعجز الطب وعز الدواء، وقُطع الأمل بتاتاً من الشفاء، وإذا بيد الله الكريمة تمتد وتمسح المرض والورم، وتمحو على مهلٍ الجرح وتصرف الورم، فوقف الأطباء مدهوشين من هذه المعجزة، وقالوا خاشعين: حقاً إن الله القدير الرحيم يحيي العظام وهي رميم، فعاينت تفاهة الخَلق، وعجْزَ من ادعى العلم، وأدركت أن الخالق سبحانه أبر وأرحم بعبده من كل إنسان.

قالت: وفي أثناء مرضي عادتني سيدةٌ فاضلة، وقالت لي مجاملة: إنكِ لا تستحقين كل هذا العذاب، أنت السيدة المؤمنة المُصَلِّيَة الحاجة لبيت الله الحرام، فماذا اقترفتِ من آثام حتى تُعاقبي بهذه الآلام ؟!

قالت: فصرخت قائلةً: لا تقولي ذلك، فإن الله لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، إنني آثمة أستحق كل هذا العذاب، هذا الفم الذي أدّبه الله بالمرض والألم كان يُصْبَغ، وكان لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، وهذا الوجه الوارم كان يتجمّلُ بالمساحيق، وهذا الجسم الطريح كان يتبرّج بالثوب الأنيق، وهذه الهامة المتألمة المتأججة بنار الحمى كانت لا تحجب بالنقاب كما أمر الله، وهي الآن تحجب قهراً باللفائف الطبية، لم اختمر بخمار الاحتشام فخمرَني الله بخمار الآلام، جَمّلْتُ فمي ووجهي بالأصباغ والأدهان، فصفعهما الله صفعة العذاب والهوان.

هي أديبة أيضاً كما يبدو.

قالت: إنكِ لم تفعلي إلا ما يفعله غيركِ ؛ بل وأقل مما يفعله غيركِ، فكل النساء يتبرجن، ويتجملن أكثر منكِ، وهاهُن يرتعن في بحبوحة الصحة، ويرفُلْنَ في حُلَلِ السعادة!

فقلت: هذا من فضل ربي عليّ، وحبه لي، ورحمته بي، فإذا أحب الله عبداً ابتلاه، وطهّره بعذابه وربّاه، ثم إذا أراد ساق له العافية ونَجّاه، ففاز بجزاء الصبر، وحظي بفضيلة الشكر، وسعد بالتوبة والطهر، فشكراً لله على هذا الدرس النافع، وهذا الألم الشافي الناجع، وهذا العقاب المؤدِّب الرادع،

وهذا المرض المُهَذِّب اللاذع، إن الله سبحانه وتعالى يأمرني بعمله، بفعله بهذا المرض، بعد أن أمرني بكتابه، إن لم أستجب لكتابه استجبتُ لفعله، فكيف لا أشكره على هذه العناية ؟ وكيف لا أطيع من يرعاني هذه الرعاية ؟ وهكذا شُفيت من مرضي ضعيفة الجسم قوية الإرادة، ضعيفة الهوى قوية الصبر، وفهمت

ما قاله الله لي بهذا المرض، وما سكبه بقلبي بلا ألفاظ، وما صوره لعيني فرآه عقلي جلياً وضاحاً.

فهمت كيف يجب أن يُحاط رأسي ووجهي بالخمار، كما مثله الله لي، وأن يدعو فمي ولساني بالشكر خوفاً وطمعاً، فكنت بعد مرضي غير ما كنت قبله، وكانت أعظم نعمةٍ علي أن جعلتني أقهر هوى نفسي وصبرت يومي، وأصبحت أغنى وأقنى من أمسي.

هذا درس، فهذا الوجه، هذا الجمال الذي منحه الله للمرأة، إن لم يحجب بالنقاب ربما حُجِبَ باللفائف الطبية.

والله سمعتُ عن امرأةٍ متبذلة تعادي كل امرأةٍ تضع الحجاب، تعاديها وتكيدُ لها، وتوقع بها الأذى، أصاب رأسها مرضٌ عُضال، فاضطرت لحلق شعرها كله، وأشار عليها الطبيب أن تضع الحجاب ليتسرّع شفاء المرض، فتوسلت إليه أن تضع الباروكة قال: لا، لا، الحجاب ضروري، فالباروكة تؤذي الجلد، فرأتها امرأةٌ وقد تنقّبت بالحجاب، لم تصدق، ولكنه ليس حجاب الإيمان، ولكن حجاب المرض.

إذا آذت المرأة عباد الله بشكلها، وزينتها، وحركتها، وصوتها، إن كانت مؤمنةً، وإن كان فيها بقيةٌ من يقينٍ وعقيدة، ربما ساق الله لها من الآلام ما يردعها، وهذه قصةٌ واقعية، هذه المرأة التي أصابها مرضٌ شديد، وحينما تابت إلى الله عزّ وجل عاد إليها شفاؤها وثقتها بالله عزّ وجل.

في الدرس القادم أرجو الله سبحانه وتعالى أن نفسر قوله تعالى:

(وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنّ مِنْ آيَاتِ اللّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنّ اللّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34) إِنّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ(35))

إلى آخر الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (10-18): تفسير الآيتان 34-35

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-11-29

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس العاشر من سورة الأحزاب، شُرِحَ بفضل الله تعالى في الدرس الماضي قوله تعالى:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

(سورة الأحزاب)

هذه الآية مررنا عليها سريعاً، ونظراً لما تنطوي عليه من معانٍ دقيقة تتعلّق بالدعوة إلى الله، رأيت أن أقف عندها وقفةً متأنية..

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْزَ أَهْلَ الْبَيْتِ

1 – ما هو البيت عند إطلاقه وعند تقييده:

أي بيتٍ هذا ؟ البيت إذا أُطلِق وعُرِّف انصرف إلى بيت الله الحرام، لأن لله في أرضه بيتاً واحداً، وهو أول بيت.

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران)

فإما أن نضيف هذا البيت إلى الله عزّ وجل فنقول: بيت الله، وإما أن نصفه فنقول: البيت الحرام، أما إذا تركنا الإضافة والوصف، وقلنا: البيت، فلعظم شأنه، ولتفرُّده في الأرض، إذا قلنا: البيت فالمقصود بيت الله الحرام، أي أن الشيء العظيم، والشيء الشهير، والمتفرِّد يكفي أن نعرِّفه بـ (أل) حتى تكون هذه (أل) العهد، البيت المعهود.

فمثلاً في دائرة معيَّنة لها مدير، فيكفي أن تقول: جاء المدير، ذهب المدير، غضب المدير، رضي المدير، أصدر المدير هذا الأمر، لا تحتاج أن تقول اسمه الكامل، أو أن تقول: مدير عام المؤسّسة، يكفي أن تقول: المدير، فلأن هذه المؤسّسة، أو هذه الدائرة لها مدير واحد، وهو متفرِّد، ومشهور، ومعروف عند كل الموظّفين، فإذا قلت: المدير، فهذه (أل) العهد، أي المعهود.

فكلمة بيت الله الحرام، إذا قلت: بيت الله الحرام، فأنت بهذا أضفته، أما إذا قلت: البيت الحرام، فأنت بهذا وصفته، أما إذا قلت: البيت، فالمقصود به بيت الله الحرام، لعِظَم شأنه، ولرفعه مكانته، ولتفرُّده، وخطورته، وعميم نفعه، يكفي أن تُعَرِّفَهُ بـ (أل) فينصرف إلى بيت الله الحرام.

2 – عظمة بيت النبي عند الله وفي أعين الناس:

ولكن ربنا سبحانه وتعالى فعل الشيء نفسه مع بيت النبي، فكما أن النبي ؛ نبيُّ هذه الأمّة، ورسولها، الذي يوحى إليه، وهو المعصوم، هذا النبيُّ العظيم الذي جعله الله رحمة مهداةً، ونعمة مسجاةً، فكما أنه عظيم فبالتبعيّة أهل بيته محطُّ الأنظار، وحديث الألسُن.

3 – ماذا لو كان بيت النبي على غير منهج الله:

فلو أن هناك مسافة بينه وبين أهل بيته كبيرةً جداً لارتبك الناس، ولشكّوا في عظمة هذا الدين، فهذا الحق الذي جاء به النبي يجب أن يكون متمثِّلاً في بيته، فإن لم يكن كذلك فسينشأ سؤالان خطيران: أهذه الدعوة واقعيّة ؟ إن لم تُطَبّق في بيت النبي فليست واقعيّة، وإن كان بالإمكان أن تُطَبّق ولم تُطَبّق، فهناك مأخذٌ كبير على النبي عليه الصلاة والسلام، فمن لوازم الدعوة أن تكون مطبّقة، وأن تكون قابلة للتطبيق ومطبّقةً في وقتٍ واحد.

فلذلك قد يرتبكُ الناس لو رأوا بيت النبي على خلاف دعوته، أو على خلاف ما جاء به، ولهذا كما قال بعض المفسِّرين: تولّى الله في عليائه وبنفسه تطهير أهل بيت النبي، وهذه هي المقدِّمة.

4 – إسقاط على واقع الدعاة:

إن الإنسان يدعو الله عزّ وجل، ولا تجد في بيته آثاراً لهذه الدعوة، فمن يصدِّقه ؟ أن لا يُصدّق، فإن لم يكن أهله وبناته على المستوى الذي يدعو إليه، وإن لم يأتمر هو وأهله بما يدعو، وإن لم ينتهِ هو وأهله بما ينهى، فكيف يصدِّق الناس دعوته ؟ فليس المهم أن تدعو إلى الله عزّ وجل ؛ ولكن المهم أن يرى الناس من خلال حياتك الخاصّة، ومن خلال عملك، وبيتك، وتحاورك، ونشاطك أثراً لهذه الدعوة.

إذاً: لخطورة بيت النبي عليه الصلاة والسلام في الدعوة، إن لم يكن بيت النبي بما فيه من نساءٍ وبناتٍ وأقارب، في المستوى الذي يليق بالنبي، فإن أناساً كثيرين يشكِّكون في دعوة النبي، إذاً حينما تطالب امرأة النبي عليه الصلاة والسلام، أو إحدى أمّهات المؤمنين بنصيبٍ أوفر من الدنيا يزيد عن حدِّ

التقشُّف، فإن الله سبحانه وتعالى يسمي هذا فاحشة، لأنها بحق النبي فاحشة، لعِظَم مكانه عند الله عزّ وجل، ولعِظَمِ شأنه، ولذلك قال الله عزّ وجل:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنّ بِفَاحِشَةٍ (30))

أي إذا طالبتنّ النبي بأكثر مما يطيق، وإذا أردتُن أن تخرجن النبي عن حدِّ التقشُّف والاعتدال، فربّما كان هذا في حقِّكنّ فاحشة، فالذنوب تعظُم كلّما علا مقام الإنسان، ولذلك قال الله عزّ وجل:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ (33))

هذه الآية لها معنى.

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ (33))

(إنما) أداة قصر، أي إننا قصرنا إرادة الله على تطهير أهل بيت النبي..

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ (33))

إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ

1 – مشيئة الله وإرادته متعلِّقةٌ بالخير المطلق:

دائماً مشيئة الله وإرادته متعلِّقة بالخير المطلق.

مثلاً:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ)

(سورة يونس: من الآية 107)

ما قال: وإن يمسسك بنفعٍ، أو بخيرٍ، بل قال:

(وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ)

(سورة يونس: من الآية 107)

فالخير مراد ؛ لكن الضُر يلجأ إليه عند الضرورة لحلّ مشكلة، ففي الأصل هذه المركبة صُنِعَت من أجل أن تسير، إذ صُمِّمَت لتسير، وفيها مكابح، والمكابح ضمانٌ لسلامتها، فالأصل في السيارة المحرِّك لا المكبح، ولكن المكبح في بعض الحالات لابدّ منه، وربّما كان في بعض الحالات هو السبيل الوحيدة لوقاية هذه المركبة من التدهور.

2 – الأصل في خَلق الإنسان الإسعاد والعلاج طارئ:

كذلك الإنسان خُلِقَ ليسعده الله عزّ وجل، وليرحمه، وليرزقه، وليتمتّع بصحّته، ولكن أحياناً يأتي المرض كعلاج لابدّ منه، ويأتي الفقر أو الخوف كعلاج لابدّ منه، فالأصل أنك خُلِقْت للسعادة، ولكن العلاجات الإلهيّة تكون ضروريّة حينما تجنح بك القدم، وتزلُّ بك وتتجه في طريقٍ خطيرة، إذاً:

(إنّمَا يُرِيدُ اللَّهُ (33))

فإرادة الله ـ كما قلنا من قبل ـ كل شيءٍ وقع أراده الله، لأنه لا يقع شيءٌ في الكون إلا بإرادة الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، وإرادة الله متعلّقةٌ بالحكمة البالغة، وحكمته متعلِقةٌ بالخير المُطْلَق، فهذه المقولة تريحُ الإنسان، وتثلج صدره.

(إنّمَا يُرِيدُ اللَّهُ (33))

أي أن إرادة الله عزّ وجل مقصورةٌ على أن يذهب عنكم الرجس، ويطهركم تطهيراً، وإذا كانت هذه مشيئة الله، فأغلب الظن، وهذا هو الحق، أنها متّجهةٌ إلى خلقه جميعاً ليذهب عنهم الرجس، ويطهرهم تطهيراً.

لِيُذهِبَ عَنْكُمُ الرّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ

1 – ما هو الرجس ؟

ما هو الرِجْس ؟ هو الشيء النَجِس، أو النَجَس، وكلمة نَجَسْ أبلغ من النَجِس، لأن النَجَس عين النجاسة، أما النَجِس فشيءٌ أصابته النجاسة، فالشيء الذي تصيبه النجاسة يمكن أن يطهر ؛ لكن عين النجاسة لا يمكن أن تطهر، فالانحراف، حبُّ الدنيا، والمنافسة عليها، وهذه الأعمال التي قد يفعلُها من هم حول النبي، لعِظَم مكان النبي، ولقدسيّة دعوته، ولأنه قِبلة الأنظار، والمثل الأعلى، والقدوة الكاملة، والأسوة التي يُتَأَسّى بها، لذلك كان أهل بيته محطّ نظر الله عزّ وجل..

(إنّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

فائدة جليلة مستنبطة من الآية:

قال بعض العلماء: إن إرادة الله في هذه الآية مقصورةٌ على إذهاب الرِجْس، وإذهاب الرجس مقصورٌ على أهل البيت، أهل البيت، يا أهل بيت النبي، فماذا يستنبط من هذه الآية ؟ وماذا يستفاد ؟ يُستفاد من

هذه الآية أنك إذا دعوت إلى الله، فالناس لا يلقون بالاً إلى ما تقول ؛ بل ينظرون إلى عملك، وإلى علاقاتك، وانضباطك، وطاعتك، وجهدك، وورعك، فإذاً أخطر من الدعوة أن تكون في مستوى الدعوة، وأن تكون قدوةً لمن تدعو، ومثلاً أعلى لمن تدعو، ومناراً لهم، وهذا مما يُستفاد من هذه الآية، دائماً وأبداً نحن نتمنّى أن نفهم الآية أولاً، وأن نطبّقها على حياتنا ثانياً..

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

إذاً: كل مؤمن بالتبعيّة إذا أراد الله أن يطهّره، وأن يُذهِب عنه الرجس، ويسوق له بعض الشدائد أحياناً، أو يوقعه في ظروفٍ صعبة وينظر ماذا يفعل، ويوجّهه الوجهة الصحيحة، فهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي))

[عن زيادة الجامع الصغير عن ابن مسعود]

2 – مَن هم أهلُ النبي ؟

وشيءٌ آخر، قبل أن ننتهي من هذه الآية، من هم أهل بيت النبي ؟ يا تُرى زوجاته الطاهرات ؟ لو كان أهل بيت النبي زوجاته الطاهرات حصراً لجاءت الآية: إنما يريد الله ليذهب عنكنّ الرجس أهل البيت، لكن الله عزّ وجل قال:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ (33))

من استبدال ضمير كنّ بكم فهم العلماء أن أهل البيت هم أقرباء النبي ذكوراً وإناثاً، وكل من يلوذ به من النساء أو الرجال، صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، من قوله تعالى:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

والآية التي تليها هي قوله تعالى:

(وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34))

وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ

1 – معنى: اذْكُرْنَ

اذكرن بمعنى احفظن، وبمعنى اشكرن الله عزّ وجل على أنكن في بيت النبوّة، فهذه نعمةٌ عظمى أن أتيح للإنسان أن يجلس في مجالس العلم.

استنباطات لطيفة:

الاستنباط الأول:

فإذا أردنا أن نستنبط من هذه الآية ما يخصُّنا نحن، فمن نِعَم الله الكبرى أن سمح الله لنا أن نُصْغِيَ إلى الحق، فمن نعمة الله علينا أن أنزل علينا هذا القرآن، وأن هدانا إلى سواء السبيل، وأن بيّن لنا في كتابه أنّ الله كل شيء، فإذا سمح الله لأحدكم أن يكون له مجلس علمٍ، ومورد حقٍ، ومَنْهَلُ علمٍ لينهل منه فهذه نعمة عُظمى، لأن الإنسان من دون علم يهبط إلى مستوى البهيمة، وما من مشكلةٍ تقع على وجه الأرض إلا بسبب معصيةٍ لله عزّ وجل، وما من معصيةٍ لله عزّ وجل إلا بسبب جهلٍ بمنهجه.
أخطر شيءٍ في حياة الإنسان أن يتعرّف إلى منهج الله، كما أن منهج شيءٍ في هذه الآلة المعقّدة، غالية الثمن، بالغة الفائدة، معقّدة التركيب، إن أثمن شيءٍ في هذه الآلة أن تتعرّف إلى طريقة عملها وصيانتها، وكذلك الإنسان، فما دام هو كائنا فيه فكر، وفيه عقل، ونفس، وروح، وجسد، وحاجات لجسده، وحاجات لنفسه، ولعقله، وله محيط، وبيئة، وأسرة، وحركة كسب رزق، وحركة ترفيهيّة، إنه كائن معقّد جداً، فهذا الكائن المعقّد من دون منهج مشكلته كبيرة، وسوف يُخْطِئ، وسوف ينحرف، ويهلك نفسه، إذاً أخطر شيءٍ في حياة الإنسان أن يتعرّف إلى منهج الله، فإذا أُتيح لإنسانٍ ما أن يكون له منهلٌ علمي، ومجلس علمٍ يستفيد منه فليلزمه..

(وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنّ مِنْ آيَاتِ اللّهِ (34))

الاستنباط الثاني:

ومعنىً آخر هو، أن الشاب إذا نشأ في بيت علمٍ، وكان من أبٍ صالحٍ وأمٍ صالحةٍ، أو كان لأبٍ عالِمٍ، فهذه نعمة كبرى، وإذا لم يستفد منها فسوف يعضُّ على أصابعه ندماً في وقتٍ ما، لأنه شيء قريب منك ولم تستفد منه، وأقرب شيءٍ إليك وأنت بعيدٌ عنه، هذا الذي دعا بعضهم إلى أن يقول: أزهد الناس بالعالِمِ أهله وجيرانه، فالشيء بين أيديهم ؛ الحق والصدق، والإيمان، والعلم، ومع ذلك ينصرف الابن أحياناً إلى شيءٍ آخر معرضاً عن بيت العلم.

إذاً:

(وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنّ مِنْ آيَاتِ اللّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنّ اللّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34))

والآن ننتقل إلى الآية الأخرى، وهي قوله تعالى:

(إنّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصّادِقِينَ وَالصّادِقَاتِ وَالصّابِرِينَ وَالصّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدّقِينَ وَالْمُتَصَدّقَاتِ وَالصّائِمِينَ وَالصّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذّاكِرِينَ اللّهَ كَثِيرًا وَالذّاكِرَاتِ أَعَدّ اللّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا(35))

إنّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ...

1 – التفصيل بالتذكير والتأنيث وعدم استعمال صيغة التغليب:

وأول ملاحظة: لو أن الله سبحانه وتعالى لو قال: **" إن المسلمين، والمؤمنين، والقانتين، والصادقين، والصابرين، والخاشعين، والمتصدِّقين، والصائمين، والحافظين فروجهم، والذاكرين الله كثيراً أعدّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً ".**

لو أنه ألغى الأسماء المؤنّثة فما الذي يحصل ؟ المعنى يبقى شاملاً الذكور والإناث على التَغْلِيب.

مثلاً: لو دخل إلى صفٍ تسعة وثلاثون طالبة وطالبٌ واحد، في اللغة تقول: دخل الطلّاب، ففي اللغة أو في صيغة الله الصحيحة تقول: دخل الطلاب، لأن ألفاظ التذكير تشمل ألفاظ التأنيث على سبيل التغليب، وهذه قاعدة معروفة في اللغة.

إذاً: لو أن الله عزّ وجل اكتفى بقوله: إن المسلمين والمؤمنين.. إلخ، لكان المعنى إن المسلمين والمسلمات، ولكن لماذا ذكر المسلمين والمسلمات ؟

1 – الحكمة من التفصيل بالتذكير والتأنيث:

هذا الذي قلته لكم في درسٍ سابق: أراد الله عزّ وجل بهذه الآية أن يؤكِّد على أن المرأة كالرجل تماماً في التكليف وفي التشريف، مكلّفةٌ بالإسلام، وبالإيمان، وبالقنوت، وبالصبر، والخشوع، والصدقة، والصوم، وحفظ الفَرْج، وذكر الله، كالرجل تماماً، وهذا يؤكِّده آياتٌ أخرى، يقول الله عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(سورة النحل: من الآية 97)

ولو أن الله عزّ وجل قال: من عمل صالحاً وهو مؤمن، فهو بهذا يعني من ذكرٍ أو أنثى، فماذا جاء بـ (مِن) البيانيّة، من ذكرٍ أو أنثى ليؤكِّد لنا أن الذكر كالأنثى، أو أن الأنثى كالذكر، مكلّفةٌ ومشرّفة، بل إن

الأنثى المؤمنة لها مكانةٌ عند الله تزيد على ألف رجل، أو عن مئة ألف رجلٍ عاصٍ ـ كما قال سيدنا عمر لسيدنا سعد ـ قال له: **<< يا سعد، لا يغرّنك أنك خال رسول الله ".**

النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان يلقى سعداً يقول له مداعباً:

((هذا خالي، فَلْيُرِنِي امرُؤٌ خالَه))

[الحاكم في المستدرك عن جابر]

وفي بعض المعارك وقف سيدنا سعد موقفاً مشرّفاً وفيه بذلٌ وتضحية، فقال عليه الصلاة والسلام لسعدٍ كلمة ما قالها لغيره، قال:

((يا سعد ارم فداك أبي وأمي))

[ابن ماجه، أحمد عن علي]

فلما رآه سيدنا عمر بعد وفاة رسول الله قال له: **<< يا سعد، لا يغرّنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلّهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابةٌ إلا طاعتهم له >>.**

فالذكر والأنثى، والنساء والرجال، والشباب والشابّات، والفتيان والفتيات، والبنات والصِبيان، عند الله سواسية، ليس بينهم قرابةٌ إلا طاعتهم لله، فالمرأة المطيعة قريبة من الله عزّ وجل، بينما الرجل العاصي بعيدٌ عنه.

إذاً: ما ذكر الله عزّ وجل كلمة:

(إنّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ (35))

إلى آخر الآية، إلا ليؤكِّد قيمة المرأة، ومساواتها بالرجل، وأنها مكلّفة ومشرّفة، كما قلنا في درسٍ سابق.

تنبيه مهم: وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى

1 – خصائص المرأة ليست كخصائص الرجل:

لكن الآية الكريمة الأخرى حيث يقول الله عزّ وجل:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى (36))

(سورة آل عمران)

تعني أن للمرأة خصائص ؛ في عقلها، وفي نفسها، وفيها بُنْيَتِهَا الاجتماعيّة، وفي قِوامها، وفي بنيتها العضوية والفسيولوجيّة تميّزها عن الرجل، وأن للرجل عقليّة، ونفسيّة، وبنية اجتماعيّة، وخصائص فسيولوجيّة تميّزه عن المرأة، هذا معنى قوله تعالى:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى (36))

(سورة آل عمران)

2 – انتشار الفساد بسبب تغيير وظيفة المرأة:

وما في الأرض من فسادٍ اجتماعي إلا بسبب أن نضع الرجل مكان المرأة، وأن نضع المرأة مكان الرجل، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لَعَنَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَلَعَنَ الْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ))

[من سنن ابن ماجة عن ابن عبّاس]

الآن إلى معاني هذه الصفات التي يوصف بها المؤمن..

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ (35))

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ

1 – معنى الإسلام:

الإسلام أيها الأخوة انصياعٌ لأمر الله، فالمسلم هو الذي يأتمر بما أمر الله، وينتهي عما عنه نهى، ولا يسمّى المسلمُ مسلماً إلا إذا أطاع الله.

2 – مَن هو المسلم ؟

فالمسلم بالتعريف الدقيق هو: الذي خضع لله في كل شؤون حياته، ما دام منهج الله منهجاً كاملاً، فالخضوع لهذا المنهج في الأمر والنهي هو ما يعنيه الإسلام في هذه الآية.

2 – ما هو الإيمان ؟

أما الإيمان:

(قَالَتْ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

(سورة الحجرات: من الآية 14)

ومعنى هذا أن الإيمان درجة أعلى من الإسلام، لمجرّد أن تخضع لله عزّ وجل، بصرف النظر عن أسباب خضوعك، وعن درجة خضوعك، وعن دوافع خضوعك، وعن أهدافك من خضوعك فأنت

مسلم، لكن الإيمان شيءٌ آخر، الإيمان تصديقٌ وإقبال، لأن الكفر تكذيبٌ وإعراض، ففي الإيمان يوجد شيءٌ فكري وشيءٌ نفسي، أما الإسلام فمادي، فهذه العين يجب أن تغضّ عن محارم الله لأنها مسلمة، وهذه اليد، وهذا اللسان، وهذه الأذن، فحينما تنساق الجوارح إلى طاعة الله هذا هو الإسلام، ولكن حينما يصدِّق العقل والقلب بما جاء عن الله عزّ وجل، وحينما يقبل الإنسان على الله عزّ وجل، فهذا هو الإيمان، الإيمان درجة أعلى فيها جانب فكري وجانب نفسي، الجانب الفكري التصديق، والجانب النفسي الإقبال، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس الإيمان بالتمني ـ أيْ التشهّي ـ ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب، وأقرّ به اللسان، وصدّقه العمل))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال كبير]

معظم الناس يدعون: جعلنا الله مؤمنين، ويتمنى أن يرزقه الله الجنّة، وأن يجعله عند حسن ظنِّه، فدائماً يدعو الله، وهذا شيءٌ جميل، ولكن لا ترى في عمله ما يتناسب مع هذا الدعاء، هذا التمني ـ ولا بالتحلي ـ فإذا كتب أحدهم:

(إنّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً)

في محلِه التجاري فهل صار مؤمناً ؟ وإذا كتب:

(بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ)

ويا رضاء الله ورضاء الوالدين، على مركبته، فهل صار مؤمناً ؟ هذا التحلي، فقد تلبس لباساً إسلامياً، وتمسك مسبحة، وتتعطّر، وتذهب إلى المسجد، وأن تضع في بيتك آيات قرآنيّة، آية الكرسي، وبعض الآيات، وأن تحتفل بعيد مولد رسول الله احتفالاً جيّداً جداً، وأن تحضر فرقة منشدين، وتأتي بعالِم جليل ليلقي لك كلمة، وتوزّع الحلويات والملبّس، ولكن ليس هذا الإيمان، هذا تحلٍ، فهناك تمنٍ وهناك تحلٍ، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب، وأقرّ به اللسان، وصدّقه العمل))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال كبير]

قال عليه الصلاة والسلام:

((ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا))

[من صحيح مسلم عن عبد المطلب]

الإيمان له طعم، فالمؤمن يجد حلاوة الإيمان في قلبه، هذا حديث دقيق:

((ليس الإيمان بالتمني ـ أيْ التشهّي ـ ولا بالتحلي ـ أيْ التزين بالقول، ولا بالصفة ـ ولكن ما وقر في القلب، وأقرّ به اللسان، وصدّقه العمل))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال كبير]

أي أن يأتي عملك مطابقاً لما تصدِّق، فمع الإيمان إقبال على الله، وذوق وحلاوة.

3 – كل مؤمن مسلمٌ، وليس كل مسلمٍ مؤمنًا:

فكل مؤمنٍ مسلم، وليس كل مسلمٍ بمؤمن، والإسلام انصياع، والإيمان تصديق وإقبال، لكن أكثر الناس أو بعض الناس له فورة، يفور فورة ويهمد، هذه الفورة التي تهمد وتنطفئ ليست بالمطلوب، فربنا عزّ وجل قال:

(وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ (35))

وَالقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ

1 – معنى القنوت:

أ ـ الطاعة:

معنى القانت هو الذي داوم على طاعة الله..

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا(23))

(سورة الأحزاب)

البطولة ليست هذه الفورة، أن تُقبِلْ على الدروس كلِّها، وأن تبالغ في طاعة الله، وبعد شهرٍ أو شهرين تنطفئ هذه الشعلة وتذوي هذه الفتيلة وتعود إلى ما كنت عليه، فكل مؤمنٍ مسلم، وما كل مسلمٍ بمؤمن، ولكن القانت هو الذي داوم على طاعة الله عزّ وجل، فلذلك قال الله عزّ وجل:

(وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ (35))

والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أَحَبّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلّ))

[من صحيح البخاري عن السيدة عائشة]

أنت تعامل خالق الكون، تعامل الله عزّ وجل، عاهدته، وانتهى الأمر، عاهدته على غضّ البصر، وعلى الصدق إلى الأبد، أي حتى الموت، وعلى الأمانة، والإخلاص فهكذا المؤمن، فالقنوت هو الدوام على طاعة الله.

ب ـ الانقطاع للعبادة:

بعضهم قال: الانقطاع للعبادة.

لكن المعنى الدقيق المناسب لهذه الآية: الاستمرار، ولذلك يقولون: البطولة لا أن تنتصر ؛ ولكن البطولة أن تحافظ على هذا النصر، فقد تنتصر، ولكن بعد النصر تأتي هزيمة، ويمكن أن تصل إلى قمة جبل، لكن البطولة أن تبقى في القمّة لا أن تنزل إلى الوادي مرّةً ثانية، وهناك كثير من الأشخاص يصعدون ثمّ يهبطون، ويرتفعون ثمّ يسقطون، ويقبلون ثمّ يدبرون، ويتألّقون ثمّ تذوي هذه الشعلة ـ تنطفئ ـ فالبطولة الاستمرار.

الحقيقة أن المؤمن لا يتأثّر بالأحداث، فسواءٌ عليه أأقبلتْ، أم أدبرتْ، أهو صحيح الجسم أم مريضه، أوُفِّقَ في زواجه أم لم يوَفّق، أدخله كبير أم قليل، لقد عاهد الله على الطاعة وكفى، وهذا معنى القانت..

(وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصّادِقِينَ وَالصّادِقاتِ (35))

وَالصّادِقِينَ وَالصّادِقاتِ

صدق الأقوال وصدق الأفعال:

وهنا الصدق له معنى دقيق، فهناك صدق الأقوال، وهذا المتبادر عند الناس، ففلان إذا تحدّث لا يكذب، ولكن الصدق هنا صدق الأفعال، إذا قال: أنا مؤمن، فتأتي أفعاله مصدِّقة دعواه، وإذا قال: أنا مسلم، فتأتي أفعاله مصدِّقةً لإسلامه، أو قال: أنا أحبُّ الله عزّ وجل، فتأتي أفعاله مصدِّقةً لادعائه حبَّ الله عزّ وجل، أو قال: أنا ورع، فتأتي أفعاله مصدِّقة لورعه، فإذا انفصلت الأعمال عن الأقوال وقعنا في كذب الأفعال..

(إنّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصّادِقِينَ وَالصّادِقاتِ وَالصّابِرِينَ وَالصّابِرَاتِ (35))

1 – الإيمان كله صبرٌ:

الصبر على التكاليف المتناقضة مع طباع النفوس:

الحقيقة أن الصبر، ولا أبالغ إذا قلت: الإيمان كلّه صبر، لماذا ؟ لأنك في الأصل أنت مكلّف، والله عزّ وجل فطرك فطرةً معيّنة، وجَبَلَكَ جبلّة خاصّة، وجعل التكليف يتناقض مع الجبلّة، لا مع الفطرة، فمثلاً: هذا الجسد يحبُّ أن يبقى نائماً في الفراش، فيأتي التكليف بأن تستيقظ لصلاة الفجر، فالاستيقاظ مناقضٌ لحبِّ الراحة والاسترخاء..

(زُيّنَ لِلنّاس حُبُّ الشّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ)

(سورة آل عمران الآية: 14)

أُودِعَ في قلب الإنسان حُبُّ المرأة، فيأتي التكليف بغضّ البصر، وأُودِعَ في الإنسان حبِّ المال فيأتي التكليف بإنفاق المال، وأودع في الإنسان الهَلَعَ يأتي التكليف بالصبر، أودع في الإنسان حبُّ الحديث المُمْتِع، جاء التكليف الكَفِّ عن الغيبة والنميمة، فلو تتبّعت أوامر الله كلّها لوجدت أنها مكلفة مجهدة، تحتاج إلى إرادة، وتصميم، وعزيمة، فيكفي أن يسهو الإنسان، وأن ينساق مع شهوته حتى يصبح من أهل النار، وهكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا إنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، ثلاثًا، ألا إنّ عَمَلَ النّار سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[من مسند أحمد: عن ابن عبّاس]

أي أن تنساق مع حظوظ نفسك، وأن تتحدّث كما تريد ؛ من دون رقابة، وانضباط، وأن تأكل ما تشتهي، وتنظر حيثما تشاء، فإطلاق البصر، وإطلاق الأذن لسماع ما تحب، واللسان، واليد، والرجل، والتعليق، والكلام، وممارسة الشهوات ـ

((إنّ عَمَلَ النّار سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ ـ سهوةٌ واحدة، أو غفلةٌ واحدة، ينساق الإنسان وراء شهواته ـ إنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ))

فطريق الجنّة محفوف بالمكاره..

((حُفّتِ الْجَنّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفّتِ النّارُ بِالشّهَوَاتِ))

[من صحيح مسلم: عن أنس بن مالك]

قد يكون المسجد غير مدفأ، تجلس على ركبتيك، ولكن في الملاهي مقاعد وثيرة جداً، وضيافة، وأشياء، وإمتاع للعين، وللأذن .

((حُفّتِ الْجَنّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفّتِ النّارُ بِالشّهَوَاتِ))

لذلك الصبر هو الإيمان، وأنت في الأصل أُودِعَت فيك شهوات وجبلّة خاصّة، وجاء التكليف على عكسها..

(وَأَمّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ وَنَهَى النّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنّ الْجَنّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

(سورة النازعات)

(وَالصّابِرِينَ وَالصّابِرَاتِ (35))

الصبر واجب على الفقير والغني معًا:

ولذلك من السذاجة أن نظن أن الفقير عليه أن يصبر، لا والله، لأن الغني عليه أن يصبر أكثر، لماذا ؟ لأن الفرص المتاحة للفقير أقل بكثير من الفرص المتاحة للغني، فإذا ذهب غنيٌ إلى بلدٍ غربي، بإمكانه أن يفعل كل شيء بماله الكثير، فإذا ضبط نفسه من الفندق إلى المكتب إلى المطار إلى دمشق، ولم يذهب إلى هنا وهناك، فليس الصبر خاصاً بالفقراء؛ بل الصبر خاصٌ أيضاً بالأغنياء،و ليس الفقر خاصاً بالضعفاء ؛ بل هو يشمل الأقوياء، وليس خاصاً بالمرضى ؛ بل هو يشمل الأصحاء، والصبر هو أن تضع نفسك في الطريق الصحيح وأنت في صحّتك، وقوّتك، وغناك، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَالصّابِرِينَ وَالصّابِرَاتِ (35))

الصبر على الأمر التكليفي والأمر التكويني:

وبالمناسبة هناك صبرٌ على أمر الله التكليفي، وهناك صبرٌ على أمره التكويني:

1 – الصبر على الأمر التكليفي:

الأمر التكليفي افعل ولا تفعل، أمر ونهي، إذاً هناك صبرٌ عن الشهوات، وصبرٌ على الطاعات.

2 – الصبر على الأمر التكويني:

أما الأمر التكويني فهناك صبرٌ على قضاء الله وقدره، وقد شاءت حكمة الله أن تكون كذا، كأن يكون لك دخلٌ محدود، أو دخلٌ غير محدود، وأن تُرْزَقَ بناتٍ فقط، أو ذكوراً فقط، أو ذكراً وبنات، أو أن تكون عقيماً، هكذا شاءت حكمة الله عزّ وجل.

عليك أن تصبر على أمر الله التكليفي، بأن تصبر على الطاعات، وأن تصبر عن الشهوات، وعليك أن تصبر على أمر الله التكويني، أي على قضاء الله وقدره..

(وَالصّابِرِينَ وَالصّابِرَاتِ (35))

وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ:

1 – الخشوع في الصلاة من أسباب الفلاح:

الخشوع كما قال الله عزّ وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2))

(سورة المؤمنون)

حالة استعظامٍ لله عزّ وجل تملأ القلب، إذاً كلّما ارتقى إيمانك زاد خشوعك، حتى إن بعضهم قال: ليس الخشوع من فضائل الصلاة بل من فرائضها، لقوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2))

(سورة المؤمنون)

2 – معرفة الله سبب للخشوع في الصلاة:

كلّما عرفت الله أكثر خشع له قلبك، وكلّما قلّت معرفة الله عزّ وجل قلّ خشوعك، فلذلك قال عليه الصلاة والسلام وقد رأى رجلاً يصلي، يقوم بحركات كثيرة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((أما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

فالخشوع أن يمتلئ قلبك تعظيماً لله، ولن يمتلئ قلبك تعظيماً لله إلا إذا فكّرت في آيات الله، ودقّقت في دلائل عظمته تعالى.

(وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ (35))

والمُتَصَدِّقِينَ والمُتَصَدِّقَاتِ

1 – الصدقة دليل الإيمان:

الحقيقة أنّ الإنسان ما لم يبذل من ماله يبقى الإسلام عنده كلاماً فارغاً، هذا ما جاء في الآية الكريمة:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(133))

(سورة آل عمران)

الصفة الأولى:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ)

(سورة آل عمران: من الآية134)

2 – الصدقة دليل حب العبد لله تعالى:

حينما تنفق المال تؤكِّد أنك تحبُّ الله عزّ وجل أكثر من هذا المال، فإذا كان حبُّك للمال أكثر من الله عزّ وجل فإنك لا تنفق، فإنفاق المال دليل حبّك لله عزّ وجل، فالإيمان له مظاهر جلية ـ فمن لم يكن له ورعٌ يصدُّه عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله.

لو فرضنا أنك في غرفةٍ وحدك، وهناك نافذة للجيران، بدت منها امرأة، وأنت وحدك، ولا أحد يراقبك غضضت بصرك عنها، فهذا يدل على خشيتك لله عزّ وجل، إذ توجد أعمال تؤكِّد ذلك ؛ منها غضُّ البصر، ومنها ضبط اللسان، والجوارح، والتصدُّق، فتأكّد أنك إذا تصدّقت بصدقةٍ، وأخفيتها عن الناس، فهذا دليل صدقك وإخلاصك التأمين، فلذلك ورد من صفات المؤمنين:

(وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ (35))

3 – الصدقة أنواع كثيرة:

وهناك إنسان تصدّق بماله، وإنسان تصدّق بعلمه، وثالث بخبرته، ورابع بجاهه، وخامس بمكانته، وسادس بوقته، وآخر تصدّق بعرضه.

فهذا أبو ضمضم، وهو أحد أصحاب رسول الله، ما معه شيء، دعا الله عزّ وجل وقال:

((اللهمّ إني تصدّقت بعرضي على المسلمين، فمن تحدّث عني بما أكره فقد سامحته))

[سنن أبي داود عن قتادة]

أحياناً تسامح الناس، فأنت تصدّقت بسمعتك التي هي أغلى شيءٍ عندك، وعلى كلٍ فالصدقة ليست مقصورة على إنفاق المال، وما من صدقةٍ أعظم عند الله عزّ وجل من كلمة الحق، وأفضل صدقةٍ أن يتعلّم المرء علماً ثمّ يعلِّمه أخاه المسلم، فذه أفضل صدقة..

(وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ (35))

وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ

1 – معنى الصيام في هذه الآية:

المعنى العام:

هنا الصيام كما قال بعض العلماء: لا علاقة له بالصيام الذي فُرِضَ علينا في رمضان، فصيام رمضان صيام شهر، أما هنا فجاءت بشكل مستمر، أي من صفات المسلم أنه صائم، معنى صائم أي ممتنع عن كل ما لا يرضي الله.

المعنى السياقي:

إضافةً إلى معنى الصيام الذي جاء في القرآن، فما دام الصيام هنا صفةً مستمرّةً في الإنسان، إذاً هو الانقطاع عن كل ما لا يرضي الله عزّ وجل..

(وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ (35))

وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ

أيضاً حفظ الفرج من دلائل الإيمان، لأن غير المؤمن ينطلق على سجيّته من دون ضابط، أساساً لا يُحْفَظُ الفرجُ إلا بغضّ البصر، لقوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور الآية: 30)

فلمّا جاء غض البصر قبل حفظ الفرج، فُهِمَ من هذا الترتيب أن طريق حفظ الفرج غَضُّ البصر، وأن طريق انحراف الإنسان إطلاق البصر..

(وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ (35))

والمرأة إذا صلّت خمسها، وصامت شهرها، وحفظت نفسها، وأطاعت زوجها دخلت جنّة ربّها..

(وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ (35))

وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43))

(وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (35))

العبرة العامة من الآية:

أيها الأخوة الأكارم... من دلائل هذه الآيات أن نتمثّلها، أي أن تكون مسلماً، ومؤمناً، وقانتاً، وصادقاً، وصابراً، وخاشعاً، ومتصدِّقاً، وصائماً، وحافظاً لفرجك، وذاكراً لربّك حتّى تستحق أن يُعدّ الله لك مغفرةً في الدنيا وأجراً عظيماً في الآخرة.

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى نبدأ بقوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36))

تمهيد للدرس اللاحق:

هذه الآية أيها الأخوة لها أسباب نزول، والعلماء يقولون: إن خصوص السبب لا يتنافى مع عموم اللّفظ، فمن إعجاز القرآن أن تأتي بعض الآيات، ولها أسبابٌ وقعت في عهد النبي، أما تأتي صيغتها بطريقةٍ تُعَدُّ قانوناً يمضي به الإنسان إلى يوم القيامة، ففي الدرس القادم إن شاء الله نفسّر هذه الآية والتي تليها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (11-18): تفسير الآيات 36 - 38 ، قصة زينب بنت جحش ـ تعدد الزوجات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-12-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الحادي عشر من سورة الأحزاب.

صيغة (وما كان لمؤمنٍ) ليست لنفي الحَدَث بل لنفي الشأن وهو أبلغ من نفي الحدث:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36))

(سورة الأحزاب)

هذه الآية أيها الأخوة لها أسباب نزول، وإذا كان للآية أسباب نزول فلا يمنع أن نفهمها فهماً من عموم لفظها، وعلماء التفسير يفرّقون بين خصوص السبب وعموم اللفظ، فإذا كان لهذه الآية أسبابٌ نزلت من أجلها، فهذا لا يمنع أن نفهمها فهماً متعلِّقاً بعموم اللفظ، فهذه الآية ماذا تعني ؟ يقول الله عزّ وجل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ (36))

(سورة الأحزاب)

صيغة (وما كان لمؤمنٍ) هذه ليست لنفي الحَدَث ؛ بل لنفي الشأن، ونفي الشأن كما تعلمون أبلغ بكثير من نفي الحدث، وأوضّح لكم ذلك، إذا قلنا: فلان لم يسرق هذه الليرة، نفينا عنه السرقة، ليس معنى هذا أنه ليس من عادته أن يسرق، هذه لم يسرقها، قد يكون أكبر سارق، أما هذه الليرة ففلانٌ لم يسرقها، نفيت عنه سرقة هذه الليرة فقط، أما إذا قلت: ما كان لفلان أن يسرق، أي هذا مستحيلٌ في حقه، وهذا بعيدٌ عن مقامه، وهذا ليس من شأنه، فهو لا يفكر في هذا، ولا يرضى هذا، ولا يريد هذا، ولا يُعْقَلُ أن يفعل هذا، فأشد أنواع النفي ؛ نفي الحدث، ونفي الرغبة، ونفي الإرادة، ونفي القبول، ونفي الشأن، وكل هذه منفية بهذه الصيغة.

ذكر (ولا مؤمنة) ليؤكد الله لنا أن المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف والتشريف:

قالوا:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ (36))

(سورة الأحزاب)

هذه صيغة نفي الشأن لا نفي الحدث، أي أنه ما دام المؤمن مؤمناً، فما دام قد عرف الله عزّ وجل ما كان له أن يفعل هذا، لأن معرفة الله تتناقض مع هذا الفعل، وكيف أن الضوء والظلام لا يجتمعان، ما كان للظلام أن يكون مع الضوء، وما كان للضوء أن يكون مع الظلام، لأنهما متناقضان، فحيثما وجدتم في القرآن الكريم صيغة (ما كان)، فهذه ليست لنفي الحدث ؛ إنها لنفي الشأن، وأبلغ أنواع النفي هو نفي الشأن، أي أن المؤمن لا يعقل أن يفعل هذا، ولا يريد أن يفعل هذا، وليس من شأنه، ولا يتمنّى، ولا يتصوّر، ولا يُقْبَلُ منه أن يفعل هذا، هذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ (36))

(سورة الأحزاب)

ما هذا الشيء الذي نفاه الله عن المؤمنين أصلاً، قال:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ (36))

(سورة الأحزاب)

(ولا مؤمنةٍ) وهذا تابعٌ للدرس الماضي، فلو أن الله عزّ وجل قال: وما كان لمؤمنٍ أي ولا مؤمنةٍ، لكنه ذكر مؤمنة ليؤكد لنا أن المرأة مساويةٌ للرجل تماماً في التكليف والتشريف.

قضاء الله في القرآن وقضاء النبي في السُّنة:

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا (36))

(سورة الأحزاب)

الله كيف يقضي ؟ في القرآن، والنبي كيف يقضي ؟ في السنة، إذا قال الله عزّ وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ(30))

(سورة النور)

هذا أمر الله عزّ وجل، قضى الله من خلال منهجه أن تغض بصرك، فإذا أنت لم تعبأ بهذا الأمر فلست مؤمناً، وما دمت مؤمناً فهذا أمر الله، وينبغي أن تتقيد به.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (36))

(سورة الأحزاب)

وأنت تختار بين هذا البيت أو هذا البيت، وبين هذه الحرفة أو هذه وبين هذا البلد في سفرك أو هذا، وهذه الزوجة أو تلك، أما أن تختار بين أن تطبق أو أن لا تطبق أمر الله عزّ وجل، فهذا مستحيل بحق المؤمن.

أن تختار أن تنفذ أمر الله أو أن لا تنفذ هذا ليس من صفات المؤمن:

أنت قبل الإيمان مخيَّر ؛ تؤمن أو لا تؤمن، أما إذا آمنت فلست مخيراً في أن تنفذ أو أن لا تنفذ، فإنسان مخير إما أن يقبل التطوع في الجيش أو أن لا يقبل، فإذا قبل، فالطاعة ملزمة للجيش، فلا يستطيع أن يقول: هذه لم تعجبني، إذ لا يوجد لم تعجبني بالجيش، ما دمت اخترت هذا السلك، فالطاعة فيه لا بدّ منها.

مثل للتقريب: أنت ما دمت اخترت أن تكون مؤمناً فلا بدّ من أن تطيع الله عزّ وجل، فلو أن طالباً اختار أن يدخل مدرسة، واختار أن يكون مثقفاً فهناك دوام، ووظائف، وتدقيق، ومتابعة، ومراقبة، فكلمة بذيئة يُعاقب عليها، وتأخُّر يعاقب عليه، فلو أن طفلاً آخر، أو لو أن شاباً آخر لا علاقة له بالتعليم إطلاقاً، فهو حر طليق، فاختال على هذا الطالب: أنا لا يوجد من يحاسبني، فأنا حر طليق، وخارج المدرسة كلياً، أنت مؤمن واخترت أن تكون هكذا وما دمت اخترت ذلك فالإيمان له التزامات، فأنت مخير أن تكون مؤمناً أو أن لا تكون، ولو لم تكن مؤمناً لخاطبك الله بعموم الدين، بكليات الدين قال تعالى:

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ(21))

(سورة البقرة)

أما إذا آمنت بالله عزّ وجل خالقاً، وآمنت به رباً، ومسيِّراً، وواحداً، وكاملاً، وحكيماً، وعليماً، وخبيراً، وقديراً، فلا يمكن أن تختار أن تنفِّذ أو أن لا تنفذ فهذا أمر الله، تختار لوناً من ألوان الطعام، وتختار لوناً لملابسك ترتديه، وبيتاً تسكنه، وزوجة تقترن بها، وحرفة تحترفها، أما أن تختار أن تنفذ أمر الله أو أن لا تنفذ، فهذا ليس من صفات المؤمن أبداً.

الإنسان بعد أن عرف الله عزّ وجل يأتيه أمره وهو الكمال المطلق والعدل المطلق:

قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا (36))

(سورة الأحزاب)

طبعاً في حياة النبي عليه الصلاة والسلام أمره الذي يتلوه علينا من الوحي أمر الله، وأمره الذي يتلوه علينا من دون الوحي أمره هو، ونحن مكلّفون أن نطيع الله، وأن نطيع الرسول، أما إذا انتقل النبي عليه الصلاة والسلام، فصارت هذه الآية أمر الله هو هذا القرآن، وأمر النبي هو سنة النبي عليه الصلاة والسلام، إذاً:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (36))

(سورة الأحزاب)

أنتم تلاحظون أن الإنسان كلما ارتقى علمه تضيق عليه الممرات، فالطبيب مثلاً عنده طريقة للتعقيم لا بدّ منها، والعلم كلما ارتقى لا بدّ من أن يعقِم هذه الأداة، وهذا المشرط، حتى أن العمليات الجراحية الكبيرة الآن تقريباً تجرى في العالم كله بطريقة واحدة، وهذا أكمل شيء، فالإنسان بعد أن عرف الله عزّ وجل يأتيه أمره وهو الكمال المطلق، والعدل المطلق، كما قال بعض العلماء:

الشريعة عدلٌ كلها، ورحمةٌ كلها، ومصالح كلها، فإذا خرج التأويل ـ تأويل الشريعة ـ من العدل إلى الجور، أو من المصلحة إلى خلافها، أو من الرحمة إلى القسوة، فهذا ليس من الشريعة، ولو أدخلت عليها ألف تأويل وتأويل.

علامة معرفة الله عزّ وجل طاعتك له:

شرع الله، كماله مطلق، وعدله مطلق، ليس هذا كلام البشر، بل كلام خالق البشر، كلام الصانع، الخالق، المديّر، المربي، الخبير، العليم، الغني، القدير.

إذاً حينما تتردد في تنفيذ أمر الله عزّ وجل فأنت لا تعرف الله أبداً، أما حينما تعرف الله معرفةً بالقدر الذي يكفي لطاعته فإنك تبادر مباشرةً إلى تنفيذ أمر الله عزّ وجل، إذاً ضع في ذهنك أنك مخير في أن تسلك طريق الإيمان أو أن لا تسلك، وإذا سلكت طريق الإيمان ولست مخيراً أن تنفذ أو أن لا تنفذ، فمن لوازم الإيمان الطاعة، بل إن علامة معرفة الله عزّ وجل طاعتك له، إذاً:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36))

(سورة الأحزاب)

هناك ضلال بعيد، وهناك ضلال مبين، أي أن شيئاً واضحاً بيّناً كالشمس حِدتَ عنه، فهذا ضلال مبين، وعلى كلٍ فهذه الآية نزلت لأسباب، وهي:

أن النبي عليه الصلاة والسلام أمره الله عزّ وجل أن يزوّج ابنة عمته ـ زينب بنت جحش ـ إلى متَبَنَّاه زيد بن حارثة، ولا بدّ لنا من أن نفهم من هو سيدنا زيد ؟ ومن هي زينب ؟ ولمَ كان الزواج بينهما ؟ ثم لماذا أمر الله عزّ وجل زيداً أن يطلِّق امرأته ؟ ولماذا أمر الله النبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوج زينب ؟ هذه الآية نزلت في هاتين القصتين، فمن أجل أن نفهمها فهماً عميقاً، وأن نلقي ضوءاً كاشفاً على خباياها، فلا بدّ من معرفة من هو زيد ؟ ومن خلال قصة زيد نتعرف الشيء الكثير عن عظمة هذا الدين.

قصة زيد بن حارثة رضي الله عنه:

زيد بن حارثة يصفه الواصفون بأنه كان قصير القامة، شديد السمرة، في أنفه فَطَسٌ، أما نبؤه وخبره ومكانته فعظيمة جداً، والعجب لهذه المفارقة بين شكله وبين مكانته عند الله، بل إنه الصحابي الوحيد الذي ورد اسمه في القرآن، لقد كان غلاماً للسيدة خديجة بنت خويلد زوج النبي عليه الصلاة والسلام، فلما تزوج النبي بخديجة رضي الله عنها، قدمت له هذا الغلام هدية منها إليه، فماذا فعل النبي عليه الصلاة والسلام ؟ أعتقه فوراً وضمه إليه.

هذا الغلام حينما ضمه النبي إلى بيته، لم يكن النبي قد بُعِثَ بَعْد، ولا يزال النبي في مكة فتىً من فتيانها، وكلكم يعلم أن فقد الابن شيءٌ عظيم، لذلك فُجِعَت أمه وأبوه بفقده، لأنه اختطف إثر غزوةٍ وبيع في سوق العبيد، وهكذا كان العرب في الجاهلية، والحق يقال: إن تاريخ العرب يجب أن يبدأ مع ظهور الإسلام، ففي الجاهلية كان الغزو، والسلب، والنهب، والحمية الجاهلية، والعصبية، ووأد البنات، والحروب التي تقوم لأتفه الأسباب، يقتل فيها عشرات بل مئات الألوف لأسبابٍ طفيفةٍ وسخيفةٍ وحقيرةٍ، لذلك سمّاها الله الجاهلية قال:

(وَلا تَبَرّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيّةِ(33))

(سورة الأحزاب)

الجاهلية في أدق معناها جهلٌ في حقيقة التوحيد، وجهلٌ في تنفيذ أمر الله عزّ وجل، وجهلٌ في الاعتقاد، وجهلٌ في السلوك.

في موسمٍ من مواسم الحج قصد البيت الحرام نفرٌ من قوم زيد، وأهله، وفيما كانوا يطوفون بالبيت العتيق إذا هم بزيدٍ وجهاً لوجه، فعرفوه وعرفهم، وسألوه وسألهم، ولما قضوا مناسكهم وعادوا إلى ديارهم أخبروا آباه بما رأوا وحدّثوه بما سمعوا، فماذا قال زيد لأقربائه حينما لقيهم وجهاً لوجه ؟ قال: أخبروا أبي أني مع أكرم والد.

عظمة الإسلام تجعل المسلمين لا فرق عندهم بين إنسانٍ وإنسان:

سوف ترون بعد قليل كيف أن عظمة الإسلام تجعل المسلمين لا فرق عندهم بين إنسانٍ وإنسان:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ(13))

(سورة الحجرات)

هذا الغلام العبد الأسير الذي اشتري من سوق العبيد، وقدم لخديجة بنت خويلد، وقدمته للنبي عليه الصلاة والسلام، عامله النبي عليه الصلاة والسلام كأحد أولاده تماماً ؛ بل إنه عامله معاملةً تفوق معاملة الأم والأب لابنهما، قال: أخبروا أبي أني مع أكرم والد.

ما أسرع أن عاد حارثة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، أعَدَّ راحلته، وحمل من المال ما يفدي به فلذة كبده وقرة عينه، وصحب معه أخاه كعباً، وانطلقا معاً يَغِزّان الطريق نحو مكة، فلما بلغاها دخلا على محمد عليه الصلاة والسلام، وقالا له: يا ابن عبد المطلب أنتم جيران الله تفكون العاني، وتطعمون الجائع، وتغيثون الملهوف، وقد جئناك في ابننا الذي عندك، وحملنا إليك من المال ما نفدي به ـ اطلب ما شئت ـ فامنن علينا وفاده لنا بما تشاء، فقال عليه الصلاة والسلام:

((من ابنكما الذي تعنيان ؟))

قالا: غلامك زيد بن حارثة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((وهل لكما فيما هو خيرٌ من الفداء أي أفضل ؟))

قالا: وما هو ؟ قال:

((أدعوه لكم فخيروه بيني وبينكم، فإن اختاركم فهو لكم بغير مال ـ هو ابنكم ـ وإن اختارني فما أنا والله بالذي يرغب عمن يختاره))

الآن دققوا، ما هي المعاملة التي تلقاها سيدنا زيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إنه حينما جاء أبوه وعمُّه ليأخذاه ويفكا أسره آثر أن يبقى مع النبي ؟ هذا الشيء الذي أتمنَّى أن نعرفه ؛ أن عند المؤمن من الرحمة، والعدل، والعطف، واللطف، والحرص، والثقة، ما يغني عن الأب، فقالا: والله لقد أنصفت، وبالغت في الإنصاف، فدعا محمدٌ زيداً وقال: من هذان، النبي الكريم قال:

((المؤمن كيس فطن حذر وقّـاف لا يعجل))

[كشف الخفاء]

سأل محمد زيداً وقال: من هذان ؟ قال: هذا أبي حارثة، وهذا عمي كعب ـ إذاً هذا التحقق ـ فقال: قد خَيَّرْتُكَ إن شئت مضيت معهما وإن شئت أقمت معي، فقال سيدنا زيد من غير إبطاء ولا تردد: بل أقيم معك، وما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت الأب والعم، فقال أبوه: ويحك يا زيد أتختار العبودية على أبيك وأمك ؟ فقال: إني رأيت من هذا الرجل شيئاً وما أنا بالذي يفارقه أبداً.

إكراماً لزيد الذي فقد نسبه إلى النبي بهذه الآية عوّضَهُ عن ذلك بأن ذكر اسمه في القرآن:

النبوة كمال مُطْلَق، فالحقيقة النبوة شيء يصعب تصوره، إنسان جاء أبوه وعمه ليفكاه من الأسر، فيؤثر على أمه وأبيه وعمه النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يكن نبياً بعد، ولو أن هذه القصة وقعت بعد

الرسالة يقول: هذا نبي عظيم، وسوف يكون له شأنٌ كبير، وسوف أنتفع منه نفعاً كبيراً، لا فهذا كان قبل الرسالة، قبل البعثة، كان النبي أحد فتيان قريش.

فلما رأى النبي عليه الصلاة والسلام من زيدٍ ما رأى، أخذه بيده وأخرجه إلى البيت الحرام، ووقف به بالحجر على ملأٍ من قريش، وقال:

((يا معشر قريش اشهدوا إن هذا ابني يرثني وأرث))

ابن بكل معنى هذه الكلمة ؛ بل إن من لوازم الابن أن يرث أباه وأن يرثه أبوه، فقال:

((اشهدوا إن هذا ابني يرثني وأرثه))

فطابت نفس أبيه وعمه وارتاحوا وخلفاه عند محمدٍ ابن عبد الله، وعادا إلى قومهما مطمئنِّي النفس مرتاحي البال، ومنذ ذلك اليوم أصبح زيد بن حارثة يدعى في قريش زيد بن محمد، وبقي اسمه هكذا أمداً طويلاً، وظل يدعى كذلك حتى بعث النبي صلوات الله عليه، وأبطل الإسلام التبني حيث قال تعالى:

(ادْعُوهُمْ لِآَبَائِهِمْ(5))

(سورة الأحزاب)

فلما جاء الأمر أن يدعى المتبنى إلى أبيه فالنبي عليه الصلاة والسلام أصبح يناديه زيد بن حارثة، وقال بعض المفسرين: إكراماً لزيد الذي فقد نسبه إلى النبي بهذه الآية ذكره الله في القرآن، عوّضَهُ عن ذلك بأن ذكر اسمه في القرآن، وهو الوحيد من أصحاب النبي الذي ذكر اسمه في كتاب الله، والذي نقرأه إلى يوم القيامة.

قصة زواج زينب بنت جحش من زيد بن حارثة:

الآن زينب هذه من شريفات قريش، بنت عم النبي عليه الصلاة والسلام، حينما بَلَغَ زيدٌ سن الزواج ـ دققوا ـ أية اعتبارات طبقيةٍ في هذه القصة ؟ زيد عبد تبنّاه النبي، نسبه إليه، قال: يرثني وأرثه. فلما شَبَّ عن الطوق وصار في سن الرجال، زوجه النبي عليه الصلاة والسلام من أشرف فتيات قريش، زينب بنت جحش ابنة عمته صلى الله عليه وسلم، لكن زينب ـ وهذا الشيء واقع ـ زينب التي كانت تعتز بنسبها، وتعتز بجمالها، وبعقلها، وبمكانتها، آلمها أن تكون زوجاً لزيد، فكرهت وكره أخوها أن تُزَفَّ هذه الشريفة ـ وهذه بالطبع من مخلفات الجاهلية ـ إلى مولىً من الموالي، وفزعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ألا يلحق بهما العار، فما كانت بنات الأشراف ليتزوجن من موالٍ وإن أعتقوا، وقالت زينب فيما قالت: لا أتزوجه أبداً وأنا سيدة أبناء عبد شمس، والنبي عليه الصلاة والسلام حدّثها عن زيد، وعن إسلامه، وعن مكانته، وعن علوّ مقامه عند الله عزّ وجل، وعندئذٍ بقيت مترددةٍ إلى أن نزل قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (36))

(سورة الأحزاب)

وعندئذٍ قبلت زينب الزواج من هذا المولى، من زيد بن حارثة.

الحكمة من زواج النبي عليه الصلاة والسلام من زينب إلغاء عادة التبنِّي:

لكن كما تروي السيرة الحياة لم تكن لتستقر بينهما، فيبدو أنها ترى نفسها أكبر، وأشرف، وأعرق، وتتوهم أن هناك شخصاً عظيماً يجب أن يكون زوجاً لها، وعلى كلٍ هذا شأن النساء جميعاً، قاسى زيدٌ من صَدِّهَا، وقاسى من ترفُّعِهَا، وقاسى من اعتزازها بنسبها، فشكا ذلك إلى النبي، وربنا عزّ وجل ذكر هذا وقال:

(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ (37))

(سورة الأحزاب)

اصبر، وأنا أقول لكل إنسان يشكو زوجته أن يصبر، لماذا ؟ لأنها أم أولاده، والإنسان حينما يتزوج يجب أن يضع حظوظ نفسه تحت قدمه مراعاةً لمصالح الأولاد، فلذلك ما كل بيتٍ يقوم على الحب كما قال سيدنا عمر، قد تقتضي المصلحة أن تبقى هذه معك ترعى أولادها، وقد تقتضي المصلحة أن تكون هذه على وفاقٍ معها، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ (37))

(سورة الأحزاب)

لكن ما الذي حدث ؟ الذي حدث أن الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوج زينب، في الحقيقة هذا الشيء أنا لا أبالغ إذا قلت: فوق طاقة البشر، هو زوّجها من زيد، وزيد متبنّاه، وهو في الجاهلية في أعراف العرب ابنٌ له، ومن العار الشديد أن يتزوّج الإنسان زوجة ابنه، هو ابنه، لكن الله سبحانه وتعالى أراد بهذا الأمر العظيم أن يلغي عادة التبنِّي، وأن يلغي ما تعارف العرب عليه من أن المتبنّى كالابن، لا.

كبر على النبي أمام الناس وأمام من يدعوهم إلى الله أن يتزوج زوجة متبنّاه:

قال تعالى:

(مَا هُنّ أَمّهَاتِهِمْ إِنْ أَمّهَاتُهُمْ إِلا اللائِي وَلَدْنَهُمْ(2))

(سورة المجادلة)

هذا الابن، هذه ليست أمه وهو ليس ابنها، لأن علاقة الدم بين الأم وابنها علاقةٌ ثابتة في العلم، أما هذا فمتبنّى، فمثلاً قد يشتهيها، وقد تقع مفاسد كبيرة، وقد تختلط الأنساب، إذا سمحنا أن نعامل المتبنى كما يعامل الابن، فالله سبحانه وتعالى أراد أن يربي المجتمع الذي عاش فيه النبي عليه الصلاة والسلام، فجعل النبي عليه الصلاة والسلام كما يقال كبش الفداء، أمر زيداً أن يطلِّق زينب، وأمر النبي أن يتزوجها، لذلك جاءت الآية:

(وَإِذْ تَقُولُ لِلّذِي أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتّقِ اللّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللّهُ مُبْدِيهِ (37))

(سورة الأحزاب)

فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام كبر عليه أمام الناس، وأمام من يدعوهم إلى الله، وأمام هذا المجتمع أن يتزوج زوجة متبنّاه.

(وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النّاسَ وَاللّهُ أَحَقّ أَنْ تَخْشَاهُ (37))

(سورة الأحزاب)

قصة زواج النبي الكريم من زينب بنت جحش رضي الله عنها:

النبي عليه الصلاة والسلام تحمّل من هذه الدعوة الشيء الكثير، وواجه من جرائها العَنَت قال:

((لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللّه وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللّه وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيّ ثَالِثَةٌ وَمَالِي وَلِبِلَال طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلاَ مَا وَارَى إِبْطُ بِلَال))

[مسند ابن ماجةعن أنس بن مالك]

زينب هذه حينما زُفّت إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فيما تروي الكتب، وحينما بشرت بهذا الزواج تركت عملها، واتجهت إلى مُصَلّاها وصلت ركعتين شكراً لله عزّ وجل، أي قرت عينها، وارتاحت نفسها، ورأت أنها في مقامٍ عظيم شرّفَهَا الله به، ولكن هذه المرأة يجب أن نتحدث عنها ملياً لأنها في المستوى التي تطمح إليه، قالوا: بشرتها امرأةٌ اسمها سلمى، وقيل: بشرها زيد زوجها، فهذا أمر الله عزّ وجل.

لكن من هي زينب ؟ النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن بشرها بأمر الله عزّ وجل أَوْلَمَ، وكانت وليمة العرس كما تروي كتب السير حافلةً، ذبح النبي الشياه، وأمر صلى الله عليه وسلم خادمه أنس بن مالك أن يدعو الناس إلى الوليمة، فترادفوا أفواجاً، يأكل فوجٌ إثر فوج، إلى أن قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((يا أنس هل دعوت الناس جميعاً ؟))

فقال أنس: **يا رسول الله دعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه**، أي أنها كانت وليمة حافلة وهذه من السنة النبوية المطهرة، أن تولِم عند الزواج.

وأقام المدعوون عند النبي، وأطالوا في مقامهم، حتى نزلت آياتٌ سوف نأخذها بعد أسبوعين، تؤَدِّب أصحاب رسول الله في أن لا يبقوا عند النبي وقتاً يزيد عن الوقت المألوف، فهو يستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق.

مكانة السيدة زينت عند رسول الله وحديث عائشة عنها:

على كل كانت تقول زينب: أنا أكرمكن ولياً، وأكرمكن سفيراً، من وليها الذي زوجها ؟ هو الله عزّ وجل، كل زوجات النبي تزوجن عن طريق أهلهن، إلا زينب فقد أمر الله بتزويجها من النبي عليه الصلاة والسلام.

والسيدة عائشة أدركتها الغيرة، فكانت تقول: **كانت زينت أحب نسائه إليه فيما أحسبُ بعدي**. وهذا من شأن النساء، وكانت تقول: لم تكن واحدةٌ من نساء النبي صلى الله عليه وسلم تناصيني غير زينب، أي زينب كنت أغار منها، وكانت ترتفع إلى درجةٍ أتمنى أن أكون في هذه الدرجة.

وحينما يسمع النبي عليه الصلاة والسلام من السيدة عائشة بعض التعليقات الناتجة عن غيرتها، كان يقول متلطفاً:

((إنها بنت أبي بكر))

أي إن أباها أحب الناس إليه، فأحياناً الإنسان يراعي زوجته بقدر أبيها، إنها بنت أبي بكر، فكان يقول كلما سمع منها قولاً فيه تعبير عن غيرتها يقول:

((إنها بنت أبى بكر))

لكن الشيء الذي يجذب النظر أن الإنسان إذا عرف مقامه عند الله، وعرف شأنه فلا ينبغي له أن يعتدي على الآخرين، وقفت زينبُ موقفاً شجاعاً وشريفاً من السيدة عائشة في حديث الإفك، فرفضت أن تتهم السيدة عائشة بشيء مع أنها ضرّتُها، بل إن أخت السيدة زينب كانت تروّج حديث مسطح لصالح أختها زينب، وأختها وقفت موقفاً مشرفاً.

وقالت عائشة مرةً: **لم أر قط خيراً في الدين من زينب**، إنها أتقانا لله، وأصدقنا حديثاً، وأوصل رحماً، وأعظم صدقة، وما سمعت منها شيئاً أكرهه. فهذا موقف مشرف للإنسان، فإذا وقعت فتنة، أو ترويج باطل، يقف الإنسان الموقف الحازم، ويمسك لسانه عن الخوض في هذه الأكاذيب التي تروج في المدينة.

وصف لبعض خصال السيدة زينب رضي الله عنها:

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إن زينب أوّاهة))

أي كثيرة التأوُّه ـ فلما سئل: يا رسول الله وما أواهة ؟ قال:

((الأوّاه هو الخاشع المتضرع))

ثم تلا عليه الصلاة والسلام قول الله عزّ وجل:

(إنّ إبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أوّاهٌ مُنِيبٌ(75))

(سورة هود)

أي شهد النبي عليه الصلاة والسلام لهذه الزوجة بأنها منيبة أوّاهة، فمن خصالها العظيمة أنها كانت كريمة خيرة، تصنع بيديها ما تحسن صنعه ثم تتصدّق به على المساكين، والمرأة التي تتقن حياكة القماش، أو حياكة الصوف، أو الخياطة، تعمل، وتَجِد، وتكد، ثم تنفق من هذا المال على الفقراء والمساكين، وكان هذا من شأن زينب.

وبعد أن توفي النبي عليه الصلاة والسلام قالت السيدة عائشة: كانت زينب مُعْجِبَةً للنبي عليه الصلاة والسلام، وكان يستكثر منها، وكانت صالحة قوّامة، تعمل بيديها وتتصدق على المساكين، وقالت أيضاً: ذهبت زينب حميدةً متعبّدة مفزع اليتامى والأرامل، وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

((أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا))

[الجامع الصغير والدرر المنتثرة عن عائشة]

قالت: فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، نَمُدُّ أيدينا على الجدار، ونتطاول، ونرى من التي تموت أول واحدة، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب ولم تكن بأطولنا، فعرفنا حينئذٍ أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((أطولكن يداً))

أي أكثركن صدقة على الفقراء والمساكين، وفلان يده طويلة في الخير.

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل عطاءها عشرة آلاف فقالت: اللهم لا يدركني هذا المال في قابل فإنه فتنة، أنفقته كله على الفقراء والمساكين، ووقف عمر ببابها مرةً وقال: **بلغني ما فرّقت**، فأرسل إليها ألفاً آخر، والألف الآخر وزّعته أيضاً على الفقراء والمساكين.

هذه زوجة النبي عليه الصلاة والسلام، كانت كريمة، شريفةً، خَيِّرَةً، عابدةً، أوّاهة، وهذه العادة، عادة التبني التي كانت سائدةً في الحياة الجاهلية، أبطلها الله عزّ وجل عن طريق هذه الحادثة، حيث تزوج

زيد بن حارثة زينب وهي ابنة عمة النبي، وبعد حينٍ أمر الله عزّ وجل النبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوج من زينب، وهذا الزواج أبطل إلى الأبد عادة التبَنّي التي كانت سائدة.

جوهر الدين طاعة الله عزّ وجل:

الآن إلى الآيات، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36))

(سورة الأحزاب)

في النهاية الدين كله في طاعة الله ورسوله، وما سوى الطاعة فشيءٌ لا يقدِّم ولا يؤخِّر، أي أن ثقافتك الإسلامية، ومعلوماتك الدينية، وعواطفك الإسلامية، والمظاهر الدينية في بيتك، هذه كلها لا تقدم ولا تؤخر، جوهر الدين طاعة الله عزّ وجل، وهذا مستفاد من قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ (36))

(سورة الأحزاب)

ليس من شأن المؤمن إذا وجد أمر الله عزّ وجل، أو أمر النبي أن يقف متردداً أفعل أو لا أفعل، وإذا كان هناك تردد فهناك ضعفٌ في الإيمان، علامة الإيمان الذي يُنَجّي صاحبه من عذاب الدنيا والآخرة، أن يكون في الحجم الذي يحمله على طاعة الله، فإن لم يحملك إيمانك على طاعة الله فهذا الإيمان لا يكفي، ولذلك: جدد إيمانك، وأعد حساباتك، واجلس وفكِّر في هذا الكون، واقرأ القرآن وتدبَّره، إلى أن ينمو الإيمان إلى درجة يكفي لحملك على طاعة الله.

الآية بخصوص لفظها ولكن يجب ألا نغفل عن عموم معناها وكلماتها:

أنت منهي عن الربا، وتقول توجد ضرورة في هذا الزمان والأمر الآن غير معقول، وأين نذهب بما لنا ؟ فالآن الآية واسعة جداً، وإن كان نزلت في حادثة زينب رضي الله عنها، حين أمرها الله عزّ وجل، أو حين أمر النبي أن يتزوجها، هذه الآية بخصوص لفظها لا نغفل عن عموم معناها وكلماتها، فالعبارة لها عموم، ومن عموم العبارة أن المؤمن إذا وجد أمر الله عزّ وجل، أو أمر النبي عليه الصلاة والسلام، فلا خيار له في التطبيق أو عدم التطبيق، وليس هذا من شأن المؤمن.

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36))

(سورة الأحزاب)

الضلال مبين، والطريق واضح، فمثلاً لو وجد طريق عريض جداً وعليه لوحة على عرضه تماماً، مرتفعة، فوسفورية، كل حرف طوله ثلاثة أمتار، أن الجهة الفلانية من اليمين، فتابع الطريق مستقيماً، هذا ضلال مبين، لوحة كبيرة متألِّقة، مُشِعّة، فوسفوريّة، توضح كل شيء ومع ذلك ضللت الطريق، فهذا ضلال مبين، فاحكم على كل إنسان يعصي الله عزّ وجل ويحيد عن طريق الحق أنه ضالٌ ضلالاً مبيناً، قال تعالى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

لا يضل عقله ولا تشقى نفسه.

من الجهل أن تقول عن المتبنى هذا ابني فهذا تضليل وتزوير ولعبٌ بدين الله عز وجل:

قال تعالى:

(وَإِذْ تَقُولُ (37))

(سورة الأحزاب)

يا محمد، أعلى درجات النزاهة:

(لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ (37))

(سورة الأحزاب)

وهو زيد:

(وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ (37))

(سورة الأحزاب)

أنعم الله عليه بالهدى، وأنعمت عليه بالعتق والتبني:

(أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ (37))

(سورة الأحزاب)

يا محمد:

(مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ (37))

(سورة الأحزاب)

هذا الحق أحق أن يُتَّبَعَ، وهذه العادة يجب أن تُلغى، وهذا السلوك المنحرف يجب يبطَل، وهذا المتبنى غير الابن، وهذه ليست أمه وهو ليس ابنها، وهذه ليست أخته، فإذا جاء الإنسان بولد صغير وتبنّاه في البيت، وشَبَّ هذا الصغير، من الجهل والخطأ أن تقول: هذا ابني، وهذا أخته فلانة، وأمه فلانة، فهذا تضليل، وتزوير، ولعبٌ بدين الله عزّ وجل، فالابن ابن، والمتبنى متبنى، ولا يمكن أن يتساوى الشيئان.

يجب أن يطبّق الشرع تماماً وإن كان مخالفاً للأعراف والتقاليد:

قال تعالى:

(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ (37))

(سورة الأحزاب)

أي أن الأعراف والتقاليد لها تأثير، وهو يدعو إلى الله، وهو مثل أعلى في الكمال، ماذا يقول الناس عن النبي حينما يتزوّج زينب زوجة متبناه، ماذا يقول ؟ خشي على سلامة الدعوة، وخشي على لغط الناس، وان يتكلموا في حقه ما ليس بواقع، فقال الله عزّ وجل مسلياً النبي عليه والسلام:

(وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا (37))

(سورة الأحزاب)

لماذا كل هذه القصة ؟ وهذه الأزمة ؟ والطلاق والزواج ؟ قال:

(لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37))

(سورة الأحزاب)

أي يجب أن يطبّق الشرع تماماً، المتبنى شيء والابن شيء آخر.

ربنا عزّ وجل جعل النبي يدفع الثمن ليبطل هذه العادة المتفشية في الجاهلية وهي التبني:

قال تعالى:

(لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (37))

(سورة الأحزاب)

هذا الذي يجب أن يتم، فالآن استنباطاً من هذه القصة، ليس للإنسان الحق في أن يقول: فلانة مثل أختي، وهذه مثل أمي، أم رفيقه مثل أمه، وهذه مثل أختي، وهذه تخاوينا بالله، وهذه مثل ابنتي، وهذه مثل أختي، وهذه مثل أمي، هذا كله كلام فيه ضلال، وربنا عزّ وجل جعل النبي عليه الصلاة والسلام وهو أعزُّ الخلق عليه، جعله يدفع الثمن، ويقف هذا الموقف الحرج، ليبطل هذه العادة المتفشية في المجتمع الجاهلي، فنحن إذا عدنا إلى مثل هذه العادات فقد عدنا إلى جاهليةٍ أخرى، فالمحارم محارم، والأجنبيات أجنبيات، الأجنبية تشتهى، ولو بصداقة، أو جوار، أو قرابة بعيدة، أو علاقات حميمة، الأجنبية تُشْتَهَى، فلو أن بنتاً صغيرةً تبنيتها ونشأت في حجرك، وأنت أبوها بالتبني، وهذا أخوها

بالتبني، هذا ليس أباً وهذا ليس أخاً، وربما وقعت الفواحش في البيت الواحد من عادة التبني فلذلك سيدنا عمر كما يقال: كان وقافاً عند حدود الله.

إذاً ربنا عزّ وجل لحكمةٍ أرادها علل السبب، لماذا كانت هذه القصة ؟

(لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ (37))

(سورة الأحزاب)

زينب زوجة متبنّى النبي، جاء الأمر أن تطلق، وجاء الأمر أن يتزوجها النبي، وهو في حكم ابنه في العادات والتقاليد، لكن الشرع شيء والعادات والتقاليد شيء آخر.

المؤمن ليس عبداً للعادات والتقاليد التي تعارف الناس عليها وليست في الشرع:

قد تأتي العادات موافقة للشرع، فمرحباً بها، فلا يوجد مانع، فمن العادة أن نزور بعضنا، بعض الزيارات، وبعض المساعدات أي عادةٍ اجتماعيةٍ يقرها الشرع أكرم بها من عادة، أما حينما تنفصل العادات عن الشرع فيجب أن نركلها بأقدامنا وأن نتبع الشرع، لذلك المؤمن ليس عبداً للعادات والتقاليد التي تعارف الناس عليها وليست في الشرع فهذا مرفوض، وهذا الاختلاط في الأسر، نحن بيت واحد وهكذا ربينا، وهكذا نشأنا، وهكذا أبونا علمنا، ونحن أسرة واحدة، هناك أصهار متعددون، وزوجات متعددات، ويبدين محاسنهن أمام الأجانب بحكم العادات والتقاليد، وهذا كله ليس من الدين في شيء، وما هذه القصة التي جعلها الله قرآناً إلا من أجل ألا نقع في هذه المتاهات مرةً ثانية، وقد نعود إليها بسبب ضعف الإيمان، وضعف اليقين، وضعف معرفة أمر الله عزّ وجل، قال تعالى:

(مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا(38))

(سورة الأحزاب)

حينما أمر الله النبي أن يتزوّج زينب ما كان عليه من حرج، ولذلك فالحق لا يستحيا منه، والحلال والمباح لا يستحيا منهما، فهناك أحياناً إنسان يكون عنده زوجة لا تنجب، فتجعله يختار اختياراً صعباً ؛ إما أن يطلِقها، وإما أن يصبر عليها، الله سمح له بزوجة ثانية وهذا ليس خلافاً للشرع، لتبقى عنده وليحسن إليها، ولينجب من الثانية أولاداً، فالحلال لا يستحيا منه، والحق لا يخاف منه، والحلال ما أحلّه الله، والحرام ما حرّمه الله، وحينما تختلف العادات والتقاليد مع الشرع، يجب أن نركل العادات والتقاليد بأقدامنا وأن نتبع الشرع، أما الذين يتبعون العادات والتقاليد على حساب الشرع، فهؤلاء ما عرفوا الله، وفي إيمانهم ضعف، وقد ضلوا ضلالاً مبيناً.

تعليقٍ ختامي لهذه الآيات:

كتعليقٍ ختامي لهذه الآيات:

1 ـ أنت مخيّر في أن تؤمن أو لا تؤمن لكنك إذا آمنت بالله فلست مخيراً أن تنفذ أو لا:

أولاً: أنت مخيّر في أن تؤمن أو أن لا تؤمن، ولكل شيءٍ ثمن، لكنك إذا آمنت بالله عزّ وجل لست مخيراً أن تنفذ أو أن لا تنفذ، لأن الله عزّ وجل يقول بعموم اللفظ:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (36))

(سورة الأحزاب)

معصية الله عزّ وجل، دليل عدم الإيمان به:

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (36))

(سورة الأحزاب)

2 ـ المتبنى شيء والابن شيء آخر، والشرع شيء والعادات والتقاليد شيء آخر:

الشيء الآخر: كما قال عليه الصلاة والسلام:

((اتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن إبليس طلاع رصاد وما هو بشيء من فخوخه ـ فخوخ جمع فخ ـ بأوثق لصيده في الأتقياء من النساء.))

[كنز العمال عن معاذ]

أي أن النساء كما قال عليه الصلاة والسلام:

((النساء حبائل الشيطان.))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

كل كلامٌ يلقى: أن هذه مثل أختي، وهذه مثل ابنتي، وتخاوينا في الله ـ كما قلت قبل قليل ـ هذه لا يؤثر، وهذه تؤثِّر، وهذه لا تصير، وهذه تصير، هذا كله كلام خلاف الشرع، فالأجنبية أجنبية، والمحارم محارم، والتي أباح الله لك أن تراها أبيح لك أن تراها، والتي أمرك أن تغُضّ البصر عنها يجب أن تغض البصر عنها، لأن الحق أحق أن يُتَّبع.

فلذلك هذه قصة ولكن تعاد ألف مرة، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان هو بطل هذه العادة، وقد جعله الله عزّ وجل قدوةً لنا، زواجه من زينب زوج متبنّاه، إبطالٌ نهائي لهذه العادة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (12-18): تفسير الآيات 39
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-12-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة الأحزاب.

الدعاة ليس من شأنهم أن يضيفوا عليهم أن يبلّغوا:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (39))

(سورة الأحزاب)

بادئ ذي بدء من قوله تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ (39))

(سورة الأحزاب)

أي أن هؤلاء الدعاة ليس من شأنهم أن يضيفوا، عليهم أن يبلِّغوا، كما قال سيدنا الصديق رضي الله عنه: **" إنما أنا متّبع ولست بمبتدع "**.

الرسالات، رسالات الله عزّ وجل، توضّحت، وتحدّدت، حينما قال الله عزّ وجل:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا(3))

(سورة المائدة)

عدد القضايا التي عالجها القرآن والسنّة والتي نهى عنها القرآن والسنّة عددٌ تام:

في هذه الآية:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا(3))

(سورة المائدة)

قال العلماء: **التمام شيء، والكمال شيءٌ آخر، التمام عددي، والكمال نوعي**، أي أن عدد القضايا التي عالجها القرآن وعالجتها السُنَّة عددٌ تام، ما غادر القرآن ولا السُنَّة قضيّةً تتعلّق بعلاقة الإنسان مع ربّه وبسعادته في دنياه وأخراه إلا وجاء بها القرآن، أي أنه ليس في القرآن نقص، وإن الله أمر بأشياء، ونهى عن أشياء، أمر بأشياء أي أن سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة متوقِفةٌ على الأشياء التي أُمِرَ الإنسان بها، وشقائه في الدنيا والآخرة متعلّقٌ بالذي نُهيَ عنه، وهناك حكمة مطلقة من أمر الله، وحكمة مطلقةٌ من نهي الله، وهناك حكمة مطلقة مما سَكَتَ عنه الله ؛ حكمةٌ في الذي أمر، وحكمة في الذي

نهى، وحكمةٌ في الذي سكت، أمركم بأشياء، ونهاكم عن أشياء، وسكت عن أشياء، هذا معنى قوله تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا(3))

(سورة المائدة)

أي أن عدد القضايا التي عالجها القرآن والسُنَّة عددٌ تام، وعدد القضايا التي نهى عنها القرآن والسُنَّة عددٌ تام.

كل الذين يأتون بعد رسول الله تنحصر مهمّتهم في التبليغ لا في الإضافة ولا في الابتداع:

الآن معالجة القرآن والسنة لموضوعٍ في حياتنا معالجةٌ كاملة، فأحياناً بعض الكتب تُفَصِّل في موضوع وتختصر في موضوع، وتوفِّي هذا الموضوع حقّه ولا توفي هذا الموضوع حقّه:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا(3))

(سورة المائدة)

إذاً كل الذين جاءوا بعد النبي عليه الصلاة والسلام لا يستطيعون أن يضيفوا شيئاً ولا كلمة ـ إنما أنا متَّبع ولست بمبتدع ـ وأيّةُ إضافةٍ أُضيفَت على الدين فهي باطلة، وأي حَذْفٍ حُذِفَ من الدين فهو باطل، وأي تأويلٍ على غير ما أراد الله عزّ وجل فهو باطل، والدين متى يشوّه ؟ إذا أضيفت إليه إضافات، أو حُذِفت منه أشياء، أو أوّل على نحوٍ لا يرضي الله عزّ وجل، هذا الكلام مما يفهم من قوله تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا(3))

(سورة المائدة)

إذا واجهك إنسان برأيٍ، أو بحكمٍ، أو بطريقةٍ، أو بقاعدةٍ، أو بمبدأٍ ليس مغطىً في كلام الله عزّ وجل ولا في سُنَّة النبي، لا ينبغي لك أن تقبله، وما حجّتك ؟ لأن الإسلام كامل، قال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا(3))

(سورة المائدة)

إذاً كل الذين يأتون بعد رسول الله إلى يوم القيامة تنحصر مهمّتهم في التبليغ، لا في الإضافة، ولا في الزيادة، ولا في الابتداع.

دعوة الإنسان عليها أن تكون مُنَزّهَة عن كل غرضٍ دنيوي:

لذلك كل إنسان أضاف في الدين ما ليس منه فهو مبتدع، والمبتدع ينبغي أن يُحَذّرَ منه، والمبتدع هو الذي يضيف على الدين شيئاً ليس منه، هذا يفهم من قوله تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ (39))

(سورة الأحزاب)

أنت مبلِّغ، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام إذا وقفت أمام قبره الشريف ماذا تقول ؟ تقول: **" السلام عليكَ يا سيدي يا رسول الله، أشهد أنك أدّيْتَ الأمانة، وبلّغت الرسالة، ونصحت الأمّة، وكشفت الغُمّة، وجاهدت في الله حقّ الجهاد "**، قال تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ (39))

(سورة الأحزاب)

هؤلاء الذين يبلِّغون رسالات الله، وصفهم الله في آياتٍ كثيرة، قال:

(قال يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

يجب أن تكون الدعوة مُنَزّهَةً عن كل غرضٍ دنيوي.

أولي العلم يشهدون عدالة الله عزّ وجل وكمال رسوله ودعوته وكلامه:

إذا كانت الدعوة متلبّسَةً بغرضٍ دنيوي، فالدعوة عندئذٍ يُشَكُّ في صحّتها، سيدنا إبراهيم:

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا(124))

(سورة البقرة)

متى جعله للناس إماماً ؟ بعد أن أتمّ كلمات الله، فطاعة الله هي كل شيءٍ، قبل أن تدعو إليه يجب أن تكون مُنَزّهاً عن أية مصلحةٍ دنيويّةٍ، وعندما قال ربنا عزّ وجل في آياتٍ أخرى:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ(18))

(سورة آل عمران)

أي أن أولي العلم يشهدون عدالة الله عزّ وجل، وهذه علامة من علاماتهم:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي(108))

(سورة يوسف)

يجب أن تشهد للناس بعدالة السماء، وبكمال الله، وبكمال رسوله، ودعوته، وكلامه:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ(18))

(سورة آل عمران)

الله عزّ وجل في كل أمرٍ أمرنا به جاء التعليل بعده:

قال:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ(108))

(سورة يوسف)

دعوة على بصيرة، الأوامر معلّلة، والنواهي معلّلة، ولو حُذِف التعليل من أوامر الله ونواهيه لانقلب الدين إلى طقوس وحركات لا معنى لها، ولكن الله عزّ وجل في كل أمرٍ أمرنا به جاء التعليل بعده:

(وَأَقِمْ الصَّلاةَ إِنّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ(45))

(سورة العنكبوت)

وقال:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(183))

(سورة البقرة)

وقال:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ(103))

(سورة التوبة)

إذاً هذه:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي(108))

(سورة يوسف)

الاستقامة ركنٌ أساسيٌ في الدعوة إلى الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

ومعنى قول الله عزّ وجل:

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا(124))

(سورة البقرة)

إذاً هناك إشاراتٌ في القرآن الكريم، الاستقامة ركنٌ أساسيٌ في الدعوة إلى الله عزّ وجل لقوله تعالى:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ(112))

(سورة هود)

إنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، أن تقول: يا أخي هذا نبي وأنا لست نبياً، من قال لك ذلك ؟ إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، ولكن هذه الآية فيها دقّة بالغة، وهو أن الله عزّ وجل حينما وصف هؤلاء الذين يبلِّغون رسالات الله، بماذا وصفهم هنا في هذه الآية ؟ بأنهم يخشونه. والحقيقة متى يخشى الإنسان الله ؟ إذا رأى أن الأمر كلّه له، فإذا رأى أن الأمر لله ولغيره، خشي الله وخشي غيره، فصار في شرك.

حينما تخشى غير الله فهناك نقصٌ في التوحيد:

حينما تخشى غير الله فاعلم علم اليقين أن هذا نقصٌ في توحيدك، الحقيقة يمكن أن تتعلّم أمر الله، وأن تذكر دقائقه وجزئيّاته، ولكن تعلُّم أن أمر الله شيء والتوحيد شيءٌ آخر، فالتوحيد أن تعرفه، وأمر الله يجب أن تعرفه أيضاً، لكن قد تكون معرفتك بأمر الله أكبر من معرفتك بالله عزّ وجل، ولذلك مع أنك تحمل العلم الشريف وتخشى غير الله، وترضي غيره على حساب دينك، إذاً حينما تخشى غير الله فهناك نقصٌ في التوحيد، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، بل إن نهاية العلم التوحيد، ودائماً وأبداً أذكر لكم هذا المثال أنت إذا أيقنت أن هذا الطلب لا يوافق عليه إلا فلان من بين آلاف الموظّفين، وهو المدير العام، وليس لك مصلحةٌ أن تقف على باب إنسانٍ آخر، ولا أن ترجوه، إذا أيقنت أنه لا يعطيك الموافقة إلا المدير العام مثلاً، إذاً أنت تقطع كل علاقاتك بكل الموظّفين وتتجه إلى من بيده الأمر، هذا مثل، وأنت إذا أيقنت أن أمرك كلّه بيد الله لا بيد زيدٍ أو عُبيد قطعت آمالك، وتعلّقاتك، وطموحاتك، ورجاءك، ورغبتك مما سوى الله، وتوجّهت إلى الله وحده.

إذاً الخوف من غير الله عزّ وجل، أو عدم الإخلاص لله عزّ وجل هذه كلها أعراض مرضٍ واحد، وهذا المرض هو الشرك أو نقصٌ في التوحيد، إذاً كلّما رأيت إنساناً يرضي إنساناً ويعصي خالقاً، يرضي مخلوقاً ويعصي خالقاً، يطيع زيداً على حساب دينه، أو على حساب أمر ربّه، فاعلم أن هذه الطاعة جاءت بدافع الخوف منه، ولماذا خاف منه ؟ لأنه رأى أن له قوةً يبطش أو يعطي بها، إذاً دخل الشرك في الموضوع، فلذلك ليس من السهولة أن تكون موحِّداً، وليس من السهولة أن لا ترى إلا الله، وليس من السهولة أن ترى يد الله فوق أيديهم.

حينما تقف أمام أمر الله عزّ وجل فإيمانك بعظمة الله يقتضي أن تسلِّم أمرك له:

قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ(123))

(سورة هود)

هذا هو الدين، ألا ترى مع الله أحداً، وأن ترى أن المعطي والمانع، والمعز والمذل، والباسط والقابض هو الله وحده، لذلك جاءت هذه الآية:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ (39))

(سورة الأحزاب)

معنى يبلِّغون أي مهمَّتهم التبليغ، وليس التشريع، وليست الإضافة، ليس لهم إلا أن يبلِّغوا، حتى أن بعضهم قال: **"نصائح ثلاث تُكْتَب على ظفر ؛ اتبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يتسع "**

اتبع، أنت مع تعليمات خالق الكون، وكما قلت في الدرس الماضي عن قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ(36))

(سورة الأحزاب)

أنت مهما أُوتيت من عقلٍ راجح، ومهما أُوتيت من ذكاءٍ لمّاح، لا يستطيع عقلك أن يفوق في فهمه، أو يفوق في إدراكه، أو أن يفوق فيما يُشَرّع تشريع الله عزّ وجل، أنت مخلوق والله هو الخالق، وأنت محدود والله هو اللامحدود، وأنت حديث والله هو القديم، وأنت جاهل والله هو العليم، فلذلك حينما تقف أمام أمر الله عزّ وجل، فإيمانك بعظمة الله يقتضي أن تسلِّم له.

الداعية إلى الله حينما يخشى غير الله انتهت دعوته وسقطت:

قال تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ (39))

(سورة الأحزاب)

وكلمة رسالات جاءت جمعاً، أي هناك عقائد، وعبادات، ومعاملات، وآداب، وسنن، وأخبار ؛ أخبار السابقين، وأخبار اللاحقين، وإيمان بالله، وبالرسل، وإيمان بالملائكة، وبالقدر خيره وشرّه، وبالصلاة، وأحكام الصلوات، والصيام، والحج، والزكاة، وأحكام البيوع، والطلاق، والزواج، وآداب الإسلام، إذاً رسالات:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ (39))

(سورة الأحزاب)

لمجرّد أن تخشى غير الله ألْغيت مهمّتك، وسقطت دعوتك، وأصبحت على هامش الحياة، لأنه بمجرّد أن تخشى غير الله فسوف ترضي غير الله، بأن تقول كلاماً يرضي غير الله ولا يرضي الله، أو أن تسكت عن شيء يرضي هذا السكوت غير الله ولا يرضي الله، فإذا سكتّ عن الحق إرضاءً لغير الله، وإذا نطقت بالباطل إرضاءً لغير الله، فماذا بقي من إبلاغ رسالات الله ؟ انتهت، فهذه صفة مانعة جامعة

إذا ألغيت ألغي الموضوع وانتهى الأمر، فلذلك حينما يخشى الداعية إلى الله غير الله انتهت دعوته، وسقطت، وانتهى كل شيء.

لا ينضبط الإنسان إلا بثلاث حقائق: إذا أيقن أن الله موجود وأنه يعلم وأنه سيحاسِب:

قال تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (39))

(سورة الأحزاب)

كفى بالله حسيباً، هو سيحاسِب، وهو يعلم حقيقة الأمر، ويعلم باطنه، ويعلم السر والجَهَر، ويعلم النيات، والأهداف، والطموحات، والملابسات، هذا كلّه يعلمه وسوف يحاسب عليه.

لذلك قال بعضهم: الحمد لله على وجود الله، على أن الله موجود، وعلى أن الله يعلم، وعلى أنه سيحاسِب، والحقيقة لا ينضبط الإنسان إلا بثلاث معلومات أو ثلاثة حقائق: إذا أيقن أن الله موجود، وأن الله يعلم، وأن الله سيحاسِب، هذه جاءت في قوله تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى(39)وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى(40)ثُمّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأوْفَى (41))

(سورة النجم)

ليس لك إلا ما سعيت، وهذا السعي في علم الله، وسوف تجزاه الجزاء الأوفى، ففي سورة النجم يقول الله عزّ وجل:

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى(31))

(سورة النجم)

من لوازم إيمانك بالله أنك تغار على الخلق وتحبُّهم وتهديهم إلى سواء السبيل:

علّة وجودك في الدنيا أنك مُبْتَلى، وأنّك ممتَحَن، وسوف تُجزى بكل عملٍ فعلته ولذلك ورد في بعض الأحاديث أن الله عزّ وجل يقول:

((وعزّتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحبُّ أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئةٍ كان عملها، سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده حتّى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شدّدت عليه سكرات الموت حتّى يلقاني كيوم ولدته أمّه.))

[ورد في الأثر]

قال تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (39))

(سورة الأحزاب)

توجد نقطة دقيقة، هي أن المؤمن كأنه وعاء، إذا امتلأ فاض على من حوله، فحينما لا تهتم بأمر الناس، ولا يعنيك أمر دينهم، ولا أمر توبتهم، ولا أمر هدايتهم، تقول: ما لي وللناس ؟ معنى ذلك أن الإناء لا يزال فارغاً، أما إذا امتلأ لا بدّ من أن يفيض على الآخرين، فمؤمن يرى من حوله في ضلال، أوَ لَا يعنيه أمرهم ؟! ويرى زوجته، وأولاده، وإخوانه، وجيرانه، وشريكه في العمل في درب غلط، في طريق الهاوية ويسكت !! فمن لوازم إيمانك بالله أنك تغار على الخلق وتحبُّهم، أنك تحاول أن تهديهم إلى سواء السبيل.

الإنسان إذا جلس في مسجد علم وأراد أن يستفيد هو وحده شيئاً، أو جلس في مجلس علم وتعلّم تفسير آيةٍ، أو تفسير حديثٍ، أو أخذ شيئاً من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، إذا أراد أن ينقل هذا الشيء للآخرين فقد فعل شيئاً عظيماً، لأنه ما من صدقةٍ أعظم من كلمة الحق، ولأنه من أحياها فكأنه أحيا الناس جميعاً، فأنت حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، وما أحدث رجلٌ أخاً في الله إلا أحدث الله له درجة في الجنّة.

النبي عليه الصلاة والسلام لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يخشى إلا الله:

قال تعالى:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً(120))

(سورة النحل)

أنت كم إنساناً دللتهم على الله ؟ وكم إنساناً أخذت بيدهم إلى الله ؟ وأقنعتهم بأحقيّة هذا القرآن ؟ وكم إنساناً أقنعته بالاستقامة على أمر الله ؟ كم إنسان استطعت أن تجعله يسلك سبيل المؤمنين ؟ هذا حجمك عند الله.

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (39))

(سورة الأحزاب)

هذا أخ كريم يأتي وحده إلى المسجد، وبعد حين تجد أنه جاء مع إخوته، وشركائه، وأصهاره، وأولاد عمّه، فصارت مجموعةً كبيرة، هذا هو الخير، الخير أن تحبّ الخير للآخرين.

هذه الآية من عظمة القرآن، والآن فسّرناها منفصلة عن السياق:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ (39))

(سورة الأحزاب)

أما في السياق، أي أن هذا النبي عليه الصلاة والسلام لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يخشى إلا الله:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

التبني عادة جاهليّة تؤدي إلى اختلاط الأنساب وإلى الفساد الاجتماعي:

المنافقون حينما تزوّج النبي عليه الصلاة والسلام بزوجة متبنّاه زينب بنت عمّته، ماذا قالوا ؟ يا للعار أيتزوّج محمدٌ زوجة ابنه زيد ؟ أشاعوا هذا، وأرجفوا به في المدينة، وقالوا متشفين، فجاء الجواب:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ (40))

(سورة الأحزاب)

زيد ليس ابنه، زيد متبنًّى، و ليس هناك دمٌ مشتركٌ بينه وبين إخوته، وليس هو جزءً من أبيه، أو من أمِّه، ولذلك فهذا المتبنَّى وجوده في الأسرة خطر، كانت عادةً جاهليّةً فهذا ابني، هذا مثل ابني، هذه مثل أختي، هذا كلام يؤدي إلى اختلاط الأنساب، وإلى الفوضى، وإلى الخيانات، وإلى الفساد الاجتماعي، ولذلك كل من يقول: هذا ابني، وهو ليس ابنه، أو هذه مثل أختي، أو هذه مثل أمي، فهذا كلامٌ لا أساس له من الصحّة، فلذلك:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ (40))

(سورة الأحزاب)

سيدنا محمدٍ له أولاد، ولكن ما قال الله: أبا أحدٍ من صغاركم، قال:

(أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ (40))

(سورة الأحزاب)

زيد رجل، ومحمدٌ ليس أباه، ومحمدٌ نبيٌّ عظيم أكرمه وأعتقه وربّاه ولكنه ليس أباه.

محمدٌ أبٌ للصحابة بالمعنى الاجتماعي أي له عطفه ورعايته ورحمته فهذه أبوّةٌ معنويّة

عندما قال ربنا عزّ وجل:

(ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ(5))

(سورة الأحزاب)

كان يسمّى من باب الوفاء زيد بن محمّد، فسمي زيد بن حارثة:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ (40))

(سورة الأحزاب)

إذا قلنا: محمدٌ أبٌ للصحابة، لا بالمعنى النسبي، ولا بالمعنى البيولوجي ـ إن صحّ التعبير ـ ولكن بالمعنى الاجتماعي، أي له عطفه، ورعايته، ورحمته، وإشرافه، فهذه أبوّةٌ معنويّة، أما كأبوة نسب فلا:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ (40))

(سورة الأحزاب)

زيد ليس ابنه، ولا غير زيد، وليست المؤمنات بناته، لو أنّهنّ بناته لَحَرُمَ عليه الزواج منهن، فلا الرجال أولاده ولا النساء بناته، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين، فالنبي عليه الصلاة والسلام جاء بهذا القرآن العظيم، وبهذه الرسالة، هو رسول الله وخاتم النبيين، وليس أبا أحدٍ من رجالكم، ولا من بناتكم.

خاتم النبيين أي آخر النبيين ولا نبيّ بعده وكل من يدّعي أن بعد النبيّ نبيّاً فهو ضالٌ يقيناً:

نساء النبي أمّهات المؤمنين، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى حرّم على نسائه من بعده أن يتزوجهنّ أحد، حفاظاً على مكانة النبي، وشيء آخر أن هذه التي عاشت مع رسول الله لا يمكن أن يطيب لها العيش مع من دونه، ولذلك حكم الله عزّ وجل بأنه جعل نساء النبي أمّهات المؤمنين، بمعنى أنه لا يجوز لمؤمنٍ أن ينكح زوجة من أزواج النبي من بعده أبداً.

إذاً الحكم الشرعي: أن النبي عليه الصلاة والسلام ليس أباً لواحدٍ من المؤمنين، وإذا قلنا: إنه كالأب فهذا من باب العطف، والرعاية، والإكرام، والرحمة، والشفقة، والاهتمام، أما أن يكون أباً بالمعنى النسبي فهذا ليس صحيحاً، وليس أباً للمؤمنات، والدليل أنه تزوّج من النساء الكثيرات، ولو كان أباً للمؤمنين لما حُقّ له الزواج من بناته، لكن نساءه أمّهات المؤمنين، وهذا من باب التقديس، والتعظيم، والصَوْن، والحفاظ على مكانته صلّى الله عليه وسلّم، ورعاية لمصالح المؤمنات أمّهات المؤمنين من بعده، قال تعالى:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ (40))

(سورة الأحزاب)

أما خاتم النبيين، أي أن هذه الآية أجمع العلماء من دون استثناء، وهذا الإجماع الذي يأتي بعد القرآن والسنّة، هو المصدر الثالث، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنّ أُمّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ))

[ابن ماجه عن أنس]

وقد أجمع العلماء قاطبةً أن معنى هذه الآية أنه خاتم النبيين، أي آخر النبيين ولا نبيّ بعده، وكل فرقةٍ ضالةٍ تدّعي أن بعد النبيّ نبيّاً فهي فرقة ضالةٌ يقيناً، يعلِلون أن الخاتم من الختم، لا، خاتم يعني آخر النبيين قولاً واحداً بإجماع العلماء.

اللهُ عزّ وجل يخاطب الناس بكليّات الدين وأصوله ويخاطب المؤمنين بفروعه:

قال تعالى:

(وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (40))

(سورة الأحزاب)

والآن توجّه الخطاب إلى المؤمنين فقال الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

وتعلمون من قبلُ أن الله عزّ وجل يخاطب الناس بكليّات الدين، وأصوله، ويخاطب المؤمنين بفروعه، والآن الخطاب للمؤمنين، يا من آمنت بالله، المشكلة أنه إذا آمنت بالله ماذا فعلت ؟ نقطة دقيقة جداً، فإذا قلت: أنا تفكّرت وفكّرت، وتأمّلت، وتحقّقت، ودرست، وسهرت الليالي ثمّ وجدت أن هذه الشمس ساطعة، نقول له: ماذا أضفت ؟ وماذا فعلت ؟ فالشمس ساطعة اعترفت بها أم لم تعترف ؟ فإن قلت ساطعة هي ساطعة، وإن قلت ليست ساطعة فهي ساطعة، لكن الإيمان فوائده كبيرة ومما يأتي بعد الإيمان من التحرُّك نحو الله عزّ وجل.

هذا يؤكِّد أن أحد الأعراب جاء النبي عليه الصلاة والسلام وقال: يا نبي الله جئتك لكي تعلِّمني من غرائب العلم، قال: **" وماذا صنعت في أصل العلم ؟ "** قال: وما أصل العلم ؟ قال:**" هل عرفت الرب؟"** قال: ما شاء الله، قال: **"فماذا صنعت في حقّه ؟ ".**

هذا السؤال، فأنت تقول: أنا مؤمن بالله، أنا عرفت الله، أنا مؤمن والحمد لله.

ولكن ماذا صنعت في حقّ الله ؟ ما الموقف الذي يؤكِّد إيمانك ؟ هل أعطيت لله ؟ وهل منعت لله ؟ وهل وصلت لله ؟ وهل قطعت في الله ؟ وهل واليت في الله ؟ وهل عاديت في الله ؟ وهل أنفقت في سبيل الله؟ وماذا فعلت ؟ ماذا فعلت استناداً لإيمانك بالله ؟

قال له: **" فماذا صنعت في حقّه ؟ "** قال له: ما شاء الله، قال له: **" هل عرفت الموت ؟ "** قال له: ما شاء الله، قال له: **" فماذا أعددت له ؟ "**

سؤال آخر خطير، هل منّا واحدٌ إلا وهو موقنٌ أنه سيموت ؟ فالسؤال الآن: ماذا أعدّ للموت ؟ ماذا أعدّ لأنكر ونكير ـ كما يقولون ـ ؟ ماذا أعدّ ليوم الحساب ؟

قال له: يا بشر لا صدقة ولا صيام ولا صلاة فبما تلقى الله إذاً ؟

أحد أوامر الله عز وجل أن تذكره ذكراً كثيراً:

هناك سؤال دقيق هو: ما الشيء الذي أعددته كي تلقى الله به ؟ الإنسان أحياناً يزمع أن يزور شخصاً ؛ أنجب مولوداً، أو عقد قِراناً، يقول لك: سأذهب بنفسي ؟ لا يتحمّل حاله، هل أعددت هديّة تقدّمها بين يدي هذه الزيارة، فأنت تلقى الواحد الديّان، فقد عشت سنواتٍ طويلة ؛ وأكلت، وشربت، وتنعّمت، وتزوّجت، وأنجبت، وزوّجت، وارتقيت، واغتنيت، وفعلت، وتركت، ولكن بعد هذه الرحلة الطويلة حينما تأتي الله عزّ وجل يوم القيامة، ماذا أعددت لهذا اللقاء ؟ وماذا هَيَّأت ؟

هل هيأت برّ الوالدين ؟ وهل هيّأت نُصْحَاً للمسلمين ؟ تفقُّهاً في كلام الله، ودعوةً إلى الله، ورعيت الأرامل، والأيتام، وعاونت الناس، فماذا أعددت ؟ هذا السؤال يا إخوان كبير جداً، هناك حركة يوميّة تستهلكنا أحياناً، استيقظنا، فذهبنا إلى أعمالنا، وكسبنا المال، جئنا إلى البيت، وتناولنا طعام الغداء، ثم نمنا، ثم سهرنا، وتسامرنا، وطربنا، ثم نمنا، حياةٌ تمضي إلى أن يأتي الخبر السيئ أن فلان انتقل إلى رحمة الله تعالى هذا شيء طبيعي، فماذا أعددت لله عزّ وجل ؟ وماذا أعددت للقائه ؟ فلذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا (41))

(سورة الأحزاب)

الآن جاء الأمر، هذه أحد الأوامر:

(اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

ليس فحوى الأمر أن تذكر الله بل فحوى الأمر أن تذكر الله ذكراً كثيراً:

توجد نقطة في الآية، هو أن الله عزّ وجل حينما قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

فحوى الأمر ما هو ؟ هل فحوى الأمر أن تذكر الله ؟ لا، بل فحوى الأمر أن تذكر الله ذكراً كثيراً، أي إذا كان هناك قصور كلوي وقال لك الطبيب: اشرب كثيراً من الماء، وأنت تشرب ماء، فشرب الماء حاصل، ولكن حينما ألحّ عليك الطبيب وقال لك: اشرب كثيرا من الماء، الأمر ينصب لا على شرب الماء بل على كثرة شرب الماء، وهذه الفكرة دقيقة، ليس فحوى الأمر أن تشرب الماء، لا، هناك قصور كلوي، لا بدّ من أن تشرب الماء الكثير، لا بدّ من أن تشرب كثيراً، ضع خط أحمر تحت كثير، وربنا عزّ وجل لا يقول: اذكروا الله، ولكن يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((من أكثر ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[أخرجه الطبراني في الصغير عن أبي هريرة]

وقد قيل:

((برئ من الكِبر من حمل حاجته بيده، وبرئ من الشُح من أدّى زكاة ماله.))

[رواه القضاعي والديلمي عن جابر مرفوعاً وهو عند ابن لال عن أبي أمامة وقال ابن الغرس ضعيف]

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

اعلم علم اليقين أن كل شيءٍ تقوله محاسبٌ عليه:

قال عليه الصلاة والسلام:

((أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ قَالُوا بَلَى قَالَ ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى. قال: ذكر الله وما والاه.))

[سنن الترمذي عن أبي الدرداء]

خير أعمالكم اسم تفضيل والحقيقة في التفسير الدقيق، ذكر الله كلمةٌ واسعةٌ جداً، أي أنك إذا تفكّرت في خلق السماوات والأرض فقد ذكرت الله، وإذا تلوت آيات القرآن الكريم فقد ذكرت الله، وإذا تلوت الحديث الشريف، ودرست أبواب العلم الشريف، وقرأت عن سيرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسيرة أصحابه الأطهار، وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، وإذا جلست مع أخيك تُذكِّره بالله فقد ذكرت الله، فهذه واسعة جداً.

لك أن تذكره بالاسم المفرد كأن تقول: الله، الله، الله، وكلّما انقطع نفسك قلت: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلبي، ولك أن تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فهذا ذكر، وأن تدعو الله بما شئت من الأدعية، وتقرأ كلامه، وتفكِّر في الكون، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتطلب العلم، وتفهم تفسير القرآن، فهذا مجلس ذكر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((أمرني ربي بتسع خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

[أخرجه زيادات رزين عن أبي هريرة]

فاعلم علم اليقين أن كل شيءٍ تقوله محاسبٌ عليه.

اختار الله بكرةً وأصيلاً لأنهما طرفان للنهار مرتبطان بالنوم فاذكر الله فيهما:

قال تعالى:

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(18))

(سورة ق)

وكل حركة تتحرّكها مصوّرة ومسجّلة، فإذا قاد أحدهم في طريق مراقب بالرادار تجده منضبطاً، يقلل السرعة إلى الثمانين لكي لا يلقطوا لنا صورة، وأنت مع إنسان إذا سجّل عليك شيئاً تخاف منه، وهو إنسان عادي وإذا سجّل عليك كلمة قلتها، أو موقفاً فعلته، أو صورّه لك، وطالبك بالمسؤوليّة فأنت تخاف منه، فكيف مع الواحد الديّان ؟ قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41))

(سورة الأحزاب)

كثيراً، الصلاة ذكر، والدعاء ذكر، والاستغفار، وتلاوة القرآن ذكر، فنوّع، أكثر ونوّع، وكل شيء له طعم ؛ فالتفكّر له طعم، والقرآن له طعم، والحديث له طعم، والاستغفار، والابتهال، والتهجُّد، والدعاء، وتعلّم العلم، والفقه، والسيرة، والآداب الإسلاميّة، فهذا كلّه ذكر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42))

(سورة الأحزاب)

لماذا اختار الله بكرةً وأصيلاً ؟

(وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42))

(سورة الأحزاب)

البكرة والأصيل طرفان للنهار مرتبطان بالنوم، أي لا تكن غافلاً، أي اذكر الله عزّ وجل صباحاً ومساءً، طرفي النهار.

التسبيح هو التنزيه والتمجيد أي نَزّهْهُ عما لا يليق به ومَجّد أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى:

قال تعالى:

(وَسَبِّحُوهُ (42))

(سورة الأحزاب)

التسبيح بمعنى التنزيه، سبحان الله، التسبيح هو التنزيه والتمجيد، أي نَزّهْهُ عما لا يليق به، ومَجّد أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى:

(بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42))

(سورة الأحزاب)

أي كل يوم، ولذلك فالصلوات خمس:

((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ قَالُوا لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ قَالَ فَذَلِكَ مَثَلُ الصّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللّهُ بِهِنّ الْخَطَايَا.))

[صحيح مسلم عن أبي هريرة]

قال تعالى:

(هُوَ الّذِي يُصَلّي عَلَيْكُمْ (43))

(سورة الأحزاب)

أنت إذا صلّيت ـ للصلاة تعريف ـ أنت إذا صليت اتصلت بالله عزّ وجل لتقتبس من نوره، ولتقتبس من رحمته، ومن كتابه، فإذا وقفت في الصلاة وقرأت القرآن بعد الفاتحة فهذا أمر الله وإذا ركعت خضعت، وإذا سجدت استعنت، وإذا كبّرتَ كبّرت، وإذا حَمِدتَ حَمَدّتَ، فهذه صلاة العبد.

المُصلي لا يغدر ولا يكذب ولا يستعلي ولا يظلم لأنه اصطبغ بصبغة الله عزّ وجل:

لكن صلاة الله عزّ وجل:

(هُوَ الّذِي يُصَلّي عَلَيْكُمْ (43))

(سورة الأحزاب)

ولنفهم ماذا تعني الصلاة، قال:

(هُوَ الّذِي يُصَلّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظّلُمَاتِ إِلَى النّورِ (43))

(سورة الأحزاب)

أي أنه يُلْقِي في قلبكم نوراً ترون به الحقّ حقّاً والباطل باطلاً، ويلقي في قلوبكم سكينة ترتاحون بها، وفي قلوبكم مكارم الأخلاق، وعندك بالصلاة ثلاثة أشياء، الصلاة طهور، والصلاة نور، والصلاة

مكارم أخلاق، فالمُصلي لا يغدر، ولا يكذب، ولا يستعلي، ولا يظلم لأنه اصطبغ بصبغة الله عزّ وجل، قال تعالى:

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً(138))

(سورة البقرة)

المصلي يمتلك رؤية صحيحة وقلباً طاهراً وكاملاً:

المصلي اتصل بالله، والله نور، فألقي في قلبه النور:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ(28))

(سورة الحديد)

وقال:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

إذاً المؤمن مستنير بنور الله:

((اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ))

[سنن الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

الصلاة نور ومعه اصطباغ بصبغة الله عزّ وجل، والمؤمن منير رحيم، وأبعد القلوب من الله القلب القاسي، وكلّما اقتربت من الله عز وجل اصطبغت بالرحمة، والعدل، والإنصاف، واللطف، والشفقة، والتواضع، وكلُّ مكارم الأخلاق من اتصالك بالله عزّ وجل، فالمصلي يمتلك رؤية صحيحة، وقلباً طاهراً وكاملاً.

مكارم الأخلاق مخزونةٌ عند الله تعالى فإذا أحبّ الله عبداً منحه خُلُقاً حسناً:

التخلية قبل التحلية، تُخَلّى من كل العيوب، ومن كل أدران النفس، ثم يُحلّى القلب بمكارم الأخلاق، ومكارم الأخلاق مخزونةٌ عند الله تعالى، فإذا أحبّ الله عبداً منحه خُلُقاً حسناً، إذاً:

(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ (43))

(سورة الأحزاب)

أي يتجلّى عليكم بالسكينة، فالمؤمن سعيد بقربه من الله، ومهما ابتغيت السعادة من غير قرب الله عزّ وجل شقيت وأشْقَيْتَ، لا سعادة إلا بالاتصال بالله:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً(97))

(سورة النحل)

إذاً:

(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ (43))

(سورة الأحزاب)

الآية مفسّرة، كيف يصلي عليكم وملائكته ؟ قال:

(لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (43))

(سورة الأحزاب)

تصير مستنيراً، صاحب رؤية صحيحة، وبصر حديد، فترى حقائق الأمور، ودقائقها، ومؤدّاها، ونتائجها، وسِرّها.

صورة من القرآن الكريم عما أعده الله للمؤمنين في الدنيا والآخرة:

قال تعالى:

(وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43))

(سورة الأحزاب)

أنت تتصل بالله، فربنا عزّ وجل يتجلّى عليكَ بالسكينة فترتاح، ويطهّر قلبك فيصير نظيفاً من كل درن، ويحلّيك بالكمال، وفوق هذا وذاك تملك هذا النور الساطع قال تعالى:

(وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43))

(سورة الأحزاب)

هذا في الدنيا، أما في الآخرة:

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ (44))

(سورة الأحزاب)

فلا مشكلة، ولا قلق، ولا خوف أبداً:

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ (44))

(سورة الأحزاب)

خالق الكون يمنحهم السلام:

(وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (44))

(سورة الأحزاب)

يا الله !

أعد الله للمؤمنين في الدنيا كمالاً وسعادة وعند الهول الأعظم سلام وبعده إكرام إلى الأبد:

في الدنيا طهارة قلب، وكمال، وسعادة، واستنارة، وعند الهول الأعظم سلام، وبعد هذا الهول الأعظم إكرام إلى الأبد، فهذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا(44))

(سورة الأحزاب)

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا (45))

(سورة الأحزاب)

على أمّتك:

(وَمُبَشِّرًا (45))

(سورة الأحزاب)

لمن أطاعك:

(وَنَذِيرًا (45))

(سورة الأحزاب)

لمن عصاك، فهو شاهد، ومبشِّر، ونذير:

(وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ (46))

(سورة الأحزاب)

إلى معرفة الله، وإلى طاعته، وإلى التقرُّبِ إليه.

للمؤمن مهمّتان ؛ مهمّة التبليغ والتزكية:

قال تعالى:

(وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46))

(سورة الأحزاب)

أي بدعوته تتعرّف إلى الله، وبصحبته يمتلئُ قلبك من نور الله، إذاً له مهمّتان: مهمّة التبليغ والتزكية:

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ(103))

(سورة التوبة)

وقال:

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (47))

(سورة الأحزاب)

المؤمن إذا بشّره النبي عليه الصلاة والسلام، أو إذا بشّره القرآن بجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، هذه البشارة تعني أنها تمتص كل متاعبه.

القرآن يبشّر المؤمن بالجنة إذا ثبت على ما هو عليه:

كما قلت لكم من قبل: لو وُعِدَ الإنسان بمبلغ كبير سيقبضه بعد عام، في هذا العام هو من أسعد الناس، مع أنه ما قبض من المبلغ شيئاً، ولكنه دخل بالوعد القطعي، كل قضاياه تحل، يقول لك: غداً أفعل كذا، أفعل كذا، فالمؤمن حينما يوقن أنه من المبشّرين بالجنّة ـ طبعاً القرآن بشّره إذا ثبت على ما هو عليه ـ لا يغيّر الله ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم:

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (47))

(سورة الأحزاب)

فضل كبير، الكبير يقول لك: فضل كبير، فدائماً لو طفل عمره ثلاث سنوات قال لك: أنا معي مبلغ كبير، فكلمة كبير من طفل تعني حجماً صغيراً، أما إذا قال لك إنسان يملك أموالاً طائلة: أنا معي مبلغٌ كبير، أو سأعطيك شيئاً كبيراً، فلذلك هذا وصفٌ دقيق:

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (48))

(سورة الأحزاب)

أي:

(قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(91))

(سورة الأنعام)

أنت تطلب من الله الكرامة والله يطلب منك الاستقامة:

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله فالقضيّة واضحة كالشمس، ما منّا واحدٌ إلا ويتمنّى أن يكون أغنى الناس، وأقوى الناس، وأكرم الناس، فعليه بطاعة الله، فأنت تطلب من الله الكرامة وهو يطلب منك الاستقامة، قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

فاز فوزاً عظيماً بنصّ القرآن الكريم، وكفاك على عدوِّك نصراً أنه في معصية الله، وأكبر نصر لك أنك في طاعته، وأكبر هزيمة له أنه في معصيته، لأنه:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

وتأتي الآيات بعدها في الدرس القادم، آياتٌ فيها أحكام متعلِّقة بالنساء، نشرحها إن شاء الله تعالى في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (13-18): تفسير الآيات 49 - 52
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-12-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة الأحزاب.

هذه الآيةُ من الآيات التي تنظِّم علاقة الرجل بالمرأة:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49))

(سورة الأحزاب)

الحقيقة هذا حكمٌ من أحكام الطلاق، وكلنا يعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الذكَرَ والأنثى، وخلق كلاً منهما مُكَمِّلاً لصاحبه، بل إن الزواج آيةٌ دالةٌ على عظمة الله عزّ وجل حيث قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم: من آية " 21 ")

يبدو أن الدافع الذي أودعه الله في الإنسان إلى شِقِّهِ الآخر دافعٌ قوي، وما لم تَنْظِم هذا الدافع قيودٌ، وحدودٌ، وقواعد، ومبادئ، فإن فساداً عريضاً يصيب المجتمع البشري، لذلك نجد الآيات التي شَرَّعَت وبيَّنت وقنَّنت موضوع الزواج والطلاق حجمها كبير، فلذلك هذه آيةٌ من الآيات التي تنظِّم علاقة الرجل بالمرأة.

عقد الزواج لا يعقد إلا بشروط ولا ينفصل إلا بشروط:

لكن قبل أن نمضي في الحديث عن هذا الموضوع، لا بدَّ من إشارةٍ سريعة إلى ما يسمى بالطلاق السُنِّي، وإلى ما يسمى بالطلاق البِدْعِيّ، فأقدس عقدٍ بين شخصين على وجه الأرض هو عقد الزواج:

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا(21))

(سورة النساء)

الميثاق الغليظ هو عقد الزواج، فهذا العقد المقدّس الذي تبنى عليه العلاقات المشروعة بين الزوجين، هذا العقد المقدس الذي يبنى عليه المجتمع كله، المجتمع في حقيقته مجموعة بيوت، فإذا صلح البيت

صلح المجتمع، هذا العقد لا يعقد إلا بشروط، ولا ينفصل إلا بشروط، لا يعقد إلا بإيجاب، وقبولٍ، ووليٍ، ومهرٍ، وشاهدي عدلٍ، ولا يفصم إلا بعِدّة.

أن تطلق المرأة اليوم وتقترن بآخر غداً، هذا استخفافٌ بهذا العقد، فكما أن هذا العقد لا يعقد إلا بولي وإيجاب وقبول ومهر وشاهدي عدل ؛ لا ينفصل إلا بعدة تمضي، إما حداداً على الزوج إن كان قد مات، وإما تبرئة للرحم إن كان الفراق على إثر طلاق.

ما الذي يحصل ؟ الذي يحصل هو أن العلاقة الزوجية إذا بلغت درجةً أصبح فيها فسادٌ على الطرفين لا بدَّ من الانفصال، كيف تنفصل ؟ تنفصل بالتشريع العظيم الذي جاءنا به القرآن الكريم، فالرجل إذا رأى من امرأته ما يكره، إن رأى منها شيئاً لا يُحْتَمَل، يطلقها طلقةً واحدة، وتبقى في البيت، وتبقى معه تأكل وتشرب، ولها الحق في أن تتزيّن، فالمقياس الذي يقاس به هذا الأمر الذي من أجله طلّقها يظهر من تتابع الأيام، فلو أن هذا الأمر تافِه بعد يومين أو أكثر ينسى ويتمنى أن يعود إليها، وقد تتمنى أن تعود إليه، تظهر له ما يُرَغِّبُهُ فيها، ويظهر لها ما يرغبها فيه، فبمجرد أن يقول لها: راجعتكِ وهذا في مذهب، أو بمجرد أن يضع يده عليها وهذا في مذهب آخر، فقد راجعها من دون مهرٍ ولا عقدٍ ولا خيارٍ منها، فإذا طلق الإنسان زوجته طلاقاً سُنِّيَاً كان له طريقٌ إلى إرجاعها، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2))

(سورة الطلاق)

ومن يتق الله في تطليق امرأته، يجعل الله له مخرجاً إلى رَدِّهَا.

الطلاق السني:

إذاً إذا طلقها ينبغي أن تبقى في بيته:

(لا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ وَلا يَخْرُجْنَ)

(سورة الطلاق: من آية " 1 ")

هذه المشكلة التي من أجلها جاء الطلاق، حسب حجمها، قد تتلاشى بعد أسبوع، بعد يومين، بعد يومٍ واحد، بعد أسبوعين، بعد ثلاثة أسابيع، تبقى مطلقةً وهي في بيت زوجها ثلاثة قروء، أي ثلاثة أطهار، وفي رأي آخر ثلاثة حيضات، فمن خلال ثلاثة أشهر إذا بقي مصراً على طلاقها، معنى ذلك أن الأمر خطير، أما إذا ندم على فعلته، ورأى أن الأمر لا يحتاج إلى هذا، وحنَّ إليها وحنّت إليه، وشعر بحاجته إليها، بإمكانه أن يراجعها، وهذا الطلاق يسمى الطلاق الرجعي، فإذا قال لها: راجعتكِ، حلّت له، وانتهى الأمر، وحسبت عليه طلقة.

لا زلنا في الطلاق السني، فإذا فعلت شيئاً آخر بعد حين يوجب الطلاق وطلقها، أيضاً تبقى في بيته، ولها أن تأكل معه وتشرب، ولها أن تتزيّن، وتعاد الكرة مرةً ثانية، فإن كان في الأمر شيءٌ كبيرٌ خطير يبقى مصراً، وإن كان الأمر تافهاً يزول هذا الأمر بعد أيامٍ عدة، وبإمكانه أن يراجعها، وتعود إليه بلا مهرٍ، ولا عقدٍ، ولقد حسبت عليه طلقة ثانية، الطلاق مرّتان.

أما المرة الثالثة بانت عنه بينونةً كبرى، وملكت نفسها، ولا يمكن أن تعود إليه إلا أن تنكح زوجاً غيره، والحكمة من ذلك أنها إذا نكحت زوجاً غيره، وطلقها، تتيقن أنها هي السبب، فإذا أحبّها يتيقن زوجها أنه هو السبب، ولا يحلُّ له أن يستعيدها إلا إذا تزوجها رجل آخر زواجاً عادياً على نية التأبيد، ثم طلقها طلاقاً عادياً من دون إكراهٍ، أو من دون افتعالٍ أو تصنع.

أما إذا طلقها طلقةً واحدة، ومضت القروء الثلاثة ولم يراجعها تحول الطلاق إلى طلاق بائن بينونة صغرى، وملكت نفسها، لكن بإمكانه أن يعيدها إليه بمهرٍ وعقدٍ جديد، لكن لها الخيار ؛ إما أن ترجع أو أن لا ترجع.

الله سبحانه خاطب عامة الناس بأصول الشريعة وخاطب المؤمنين خاصةً بفروع الشريعة:

أيها الأخوة، هذا هو الطلاق السُنِّي، هذا هو الطلاق الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام تبييناً وتفصيلاً لآيات الطلاق التي وردت في القرآن، هذا الطلاق قلّمَا ينتهي إلى الفراق، هذا هو الطلاق السني، أما كلما اختلف مع شخصٍ وتشاجر معه، حلف يمين الطلاق ثلاثاً وطلق امرأته، هذا طلاقٌ بدعي، وكذلك إذا طلقها وهي في حيضٍ هذا طلاقٌ بدعي أيضاً، وكذلك إذا طلقها في طهرٍ مسّها فيه هذا طلاقٌ بدعي أيضاً، وكذلك إذا طلقها ولم تكن هي طرفاً في الموضوع والمشكلة هذا طلاقٌ بدعي، وهناك أنواعٌ كثيرةٌ جداً من الطلاق البدعي الذي هو مخالفٌ لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم علماً أن الطلاق البدعي يقع لكن مع الكراهية، الآن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا (49))

كلكم يعلم أن الله سبحانه وتعالى خاطب عامة الناس بأصول الشريعة، أصول الدين، وخاطب المؤمنين خاصةً بفروع الشريعة، أي يا أيها الإنسان الذي عرفت الله عزَ وجل، وآمنت بوجوده وبكماله وبوحدانيته، وهذا كتابه، وهذا شرعه، عليك أن تفعل كذا وكذا، وأن تَدَعَ كذا وكذا.

النكاح هو العقد والدخول أما في هذه الآية النكاح يعني العقد فقط:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ (49))

النكاح هنا يطلق في القرآن على عقد النكاح في هذه الآية، وعلى العقد والدخول في معظم الآيات الأخرى، فكلمة نكاح أي العقد والدخول، أما في هذه الآية النكاح يعني العقد فقط قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ (49))

وقال:

(وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 237 ")

وإن لم تفرضوا لهن فريضة:

(لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ)

(سورة البقرة: من آية " 236 ")

هنا التمتع أن تعطيها شيئاً يجبر خاطرها، أن تعطيها نفقة تقوم بأودها، أن تعطيها شيئاً فتكتفي به من دون أن تسأل الناس من بعدك.

العدة في أصلها تبرئة للرحم وتأكدٌ من أن هذا الرحم خلوٌ من أي حملٍ من زوج آخر:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ (49))

أما من قبل أن تمسوهن.

(فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا (49))

العدة في أصلها تبرئةٌ للرحم، وتأكدٌ من أن هذا الرحم خلوٌ من أي حملٍ من زوج آخر، النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث المروية عنه يقول:

((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقي ماؤه زرع غيره.))

[كنز العمال]

فمن إرشادات النبي اللطيفة:

((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقي ماؤه زرع غيره.))

لذلك لا بدّ من عدةٍ تعتدها المرأة ليكون رحمها بريئاً ونظيفاً من حملٍ من زوجٍ قبله.

إذا عُقِدَ عَقْدُ النكاح ولم يسم المهر فعلى الزوج المُطلِّق أن يمتع الزوجة متاعاً حسناً:

إذا عُقِدَ عَقْدُ النكاح، وسُمِّيَ المهر، ولم يدخل بها، فلا معنى للعِدّة، أما إذا عُقِدَ عَقْدُ النكاح ولم يسم المهر، فعلى الزوج المُطلِّق أن يمتعها متاعاً حسناً.

(فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنّ مِنْ عِدّةٍ تَعْتَدّونَهَا فَمَتّعُوهُنّ وَسَرّحُوهُنّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49))

السراح الجميل، أكثر أنواع الطلاق الآن يعقبها فضائح، وكلام قاسٍ، واتهامات رخيصة، بعد أن يكونا على وفاق، وبعد أن تكون كل أسرةٍ تثني على الأسرة الأخرى، فجأةً يتقاذف هؤلاء وهؤلاء التُهَم ويسيئون إلى بعضهم بعضاً، ليس هذا هو السراح الجميل كفاك إذا صاحبت رجلاً فترةً وقال كل منهما للآخر: جزاك الله عني كل خير، فهل يعقل أن يطلق الرجل امرأته وتقول له: جزاك الله عني كل خير، هكذا يجب أن يكون إذا طلقها بالعدل وكان محسناً، كفاك إحساناً إذا صاحبت إنساناً لفترةٍ ما ثم فارقته أن يقول كل منهما للآخر: جزاك الله عني كل خير.

لذلك أعرف رجالاً طلقوا زوجاتهم، وكان هؤلاء الرجال يدفعون إلى زوجاتهم نفقةً مستمرةً، فهذه امرأة لها حقٌ عند الزوج، وبالطبع هذا من باب الإحسان، أما على الأقل أن يمتِّعها متاعاً حسناً، أن يعطيها المهر الذي فرضه لها، أما أن يضيّقَ عليها حتى تسامحه بكل شيء فهذا إضرار بالزوجة، والله سبحانه وتعالى دائماً ينتقم من هؤلاء الذين يظلمون زوجاتهم المُطَلّقات.

الذي يضيّق على زوجته كي تدع له كل شيء فهذا إضرار لأن المهر حق:

رجل حدثني عن شخص تزوج امرأةً، تزوجها وهي من أسرةٍ صالحةٍ دَيِّنَةٍ، لكنه أراد أن تكون من الزوجات اللاتي لا يرفضن طلباً، اختلاط، وسهرات وكذا، فلما رفضت هذه الزوجة أن تستجيب لرغبات زوجها، ورآها ليست في المستوى الذي يريده، ولها متأخر كبير جداً، بدأ يضَيّق عليها، ويقسو عليها في الكلام والحرمان، ويأتي متأخراً، وكل هذا بتوجيهٍ من أمه، إلى أن طلبت منه الطلاق من دون أن تطلب شيئاً وهذا هو المطلوب.

فصار كلما جلس في مجلسٍ يتنَدّر: قد تخلصنا من مهر فلانة، لقد تلافينا الخسارة، ومرةً كان يركب مركبته، وقد ركبت زوجته الجديدة عن يمينه، وأمه خلفه، وأبوه في المقعد الذي خلف مقعد زوجته، وكان يمشي بين المركبات بسرعةٍ فائقة، ويقول له أبوه: يا بني خفف السرعة، فقال له: أنا أنجو من الحادث كما نجوت من مهر زوجتي، وقُبَيْلَ دمشق بقليل وقع الحادث، فَقُصّ قصّاً هو وأمه.

الله عزّ وجل كبير، هذا الذي يضيّق على زوجته كي تدع له كل شيء، هذا إضرار، فالمهر حق، إن لم تعجبك إمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحسان، أما أن تضيّق، وأن تشتم، وأن تضرب، وأن تأتي بعد

منتصف الليل، وأن تمنع الطعام والشراب من أجل أن تدع لك كل شيء، وأن تطلقها بلا متأخر، هذا ظلم، والظلم ظلماتٌ يوم القيامة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً.))

[مسند أحمد عن أنس بن مالك]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49))

السراح الجميل ؛ أن تُلين الكلام، وأن تعطيها حقها، وأن تطلب منها المعذرة إذا لم يكن هناك نصيب، وكثير من الأشخاص المؤمنين يجيبك: لا يوجد نصيب، إذا سألته لماذا طلقتها ؟ يقول لك: لا يوجد نصيب، وهذا يكفي، من دون أن تتحدث عن أخطاء، وعن ثغرات، وعن عيوب وغيرها.

نساء النبي اخترن الله ورسوله والدارالآخرة فجاء التشريع الإلهي مكافأةً لهن على موقفهن:

حديث الناس حين انفصام عقد الزواج حديثٌ لا يرضي الله عزّ وجل، كشفٌ للأستار، وفضحٌ للخبايا، وافتراء، وظلم، واتهامات كاذبة، هذا كله لا يرضي الله عزّ وجل.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آَتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ (50))

هذه الآية متعلقة عند رأي بعض العلماء بالآيات السابقة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49))

نساء النبي عليهم رضوان الله، حينما خَيّرَهُنّ النبي عليه الصلاة والسلام بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة، اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، مكافأةً لهن على موقفهن الذي آثرن فيه الله والدار الآخرة، جاء التشريع الإلهي:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ (50))

أي أن هذه الأزواج اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة هن لك وأنت لهن.

من تزوج امرأةً على صداقٍ وفي نيته ألا يؤديه لها لقي الله زانياً والله رب النوايا:

قال تعالى:

(اللَّاتِي آَتَيْتَ أُجُورَهُنَّ (50))

أي أن هذا المهر حقٌ للزوجة، من تزوج امرأةً على صداقٍ وفي نيته ألا يؤديه لها لقي الله زانياً، ومن أخذ مالاً من رجلٍ وفي نيّته ألا يؤديه لقي الله سارقاً، والله رب النوايا.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آَتَيْتَ أُجُورَهُنّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ(50))

الآية الكريمة:

(وَالّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال: من آية " 72 ")

الهجرة دليل الإيمان، أنت مؤمن، ما الدليل ؟ صيامك هو الدليل، صيامك أي الله ورسوله أحب إليه من طعامك وشرابك، زكاتك هي الدليل، أي الله ورسوله أحب إليك من مالك، أن تنفق المال.

الإيمان قناعة يظهرها ويؤكدها موقف:

تغض بصرك ما الدليل ؟ غض بصرك عن محارم الله دليل أن الله عزّ وجل أحب إليك من شهوتك، إذاً دائماً الإيمان بلا موقف، بلا بذل، بلا عطاء، بلا انضباط، بلا تقيُّد، بلا جهاد النفس والهوى، لا قيمة له، الإيمان قناعة، ماذا يظهرها ؟ ماذا يؤكِّدها ؟ يظهرها ويؤكدها موقف، فلذلك:

(وَالّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال: من آية " 72 ")

هذا الذي جاء النبي قال له: جئتك لتعلمني من غرائب العلم، فقال: **" ماذا صنعت في أصل العلم "**، قال؟ وما أصل العلم ؟ قال: **" هل عرفت الرب ؟ "**، قال: ما شاء الله، قال: **" فماذا صنعت في حقه ؟"**.

هذا السؤال المهم: أنت إذا آمنت بالله ماذا فعلت ؟ ماذا أعطيت ؟ ماذا منعت ؟ كيف وقفت ؟ ما الشيء الذي فعلته بدافعٍ من إيمانك ؟ فلذلك:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آَتَيْتَ أُجُورَهُنّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ(50))

أي إن لم تهاجر فلا يمكن أن تستحق أن تكون زوجة النبي عليه الصلاة والسلام.

النبي الكريم ما تزوج امرأةً واحدةً وهبت نفسها له وإنما كان يستنكحها بعض أصحابه:

قال تعالى:

(وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً (50))

أي أحللنا لك أية امرأةٍ مؤمنةٍ وهبت نفسها لك.

(وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (50))

النبي عليه الصلاة والسلام له أحكامٌ اختصّ بها، فأية امرأةٍ لشدة حبها للنبي عليه الصلاة والسلام إذا وهبت نفسها للنبي، النبي عليه الصلاة والسلام له الحق أن يتزوجها، لكن هذا الحكم خاصٌ بالنبي عليه الصلاة والسلام، فالنبي هو سيد الخلق وحبيب الحق، فإذا أرادت امرأةٌ أن تكون للنبي عليه الصلاة والسلام بلا مهر ـ وهذا شرط استثنائي ـ فالنبي عليه الصلاة والسلام له أن ينكحها خالصة له من دون المؤمنين، ومع ذلك في أغلب الأقوال أن النبي عليه الصلاة والسلام ما تزوج امرأةً واحدةً وهبت نفسها له، كانت إذا وهبت نفسها كان يستنكحها بعض أصحابه.

(قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (50))

تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ: آية تشهد بكمال النبي الكريم:

الآن هذه آية من الآيات الدقيقة جداً التي تشهد بكمال النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

(تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ (51))

معنى تُرجي أي تؤخر، أو لا تقبل، تؤخر أو لا تقبل، أنت إذا عرض أحد عليك عرضاً إما أن تقول موافق، أو غير موافق، أو أخِّر هذا الموضوع لوقت آخر.

(تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ (51))

هؤلاء النساء ـ نساء النبي عليهم رضوان الله ـ للنبي الحق أن يستبقي بعضهن وأن يدع بعضهن، كان هذا حينما خيرهُنّ الله عزّ وجل، للنبي عليه الصلاة والسلام أن يزور فلانة ويدع فلانة، ولكنه لم يفعل، عدل بينهن، النبي له حكم خاص، قد تكون المصلحة الراجحة أن يكون عند فلانة لا عند فلانة، فهذه الآية عامة، النبي عليه الصلاة والسلام لحكمةٍ بالغةٍ، لكماله الشديد، لعطفه، لرحمته، لعدله، ألم يقل له بعض الأعراب: اعدل يا محمد، فقال عليه الصلاة والسلام:

((ويحك من يعدل إن لم أعدل ؟))

قال تعالى:

(تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ (51))

أي أنت لك أن تؤخِّر من تشاء، ولك أن ترفض من تشاء منهن.

النبي عليه الصلاة والسلام بلغ من الكمال والرحمة والعدل ما يؤهله لأن يفعل ما يشاء:

قال تعالى:

(وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ (51))

والتي رفضتها ثم أردتها هذا لك:

(فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آَتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51))

متى يُطلَقُ الإنسان ؟ أنت متى تقول لفلان: افعل ما تشاء ؟ هذه افعل ما تشاء تؤوي، ترفض، تُرجي، تغيّر، تعدِّل، هذا دليل كماله صلى الله عليه وسلم، فهو بلغ من الكمال والرحمة والعدل الدرجة التي أهّلتْهُ لأن يفعل ما يشاء، ومع ذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان يعدل بين زوجاته، وكان يعدل بينهن، وكان عند مرضه صلى الله عليه وسلم يستأذن بقية نسائه في أن يبقى عند عائشة، إذاً متى أطلق الله عزّ وجل لنبيّه حرية الحركة ؟ بعد أن بلغ مستوى من الكمال.

(تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ (51))

التي عزلتها، وأخرتها، ولم تقبل بها، ثم ابتغيتها هذا لك، التي أرجأتها وأخرتها، أو اعتذرت عن قبول هبتها لنفسها، هذا لك، التي آويتها وقبلتها وضممتها إلى زوجاتك ؛ هذه لك، أي لك أن تضم من تشاء، لك أن ترفض من تشاء، لك أن تؤَخِّر من تشاء، لك إذا رغبت في امرأةٍ لمصلحةٍ راجحةٍ بعد أن رفضتها أن تقبلها وأن تؤويها إليك، هذا الذي قاله الله عزّ وجل شهادةٌ من الله عزّ وجل للنبي عليه الصلاة والسلام، لأنه بلغ الدرجة العالية من الكمال.

كل زواج للنبي عليه الصلاة والسلام فيه من الكمال والحكمة ما لا سبيل إلى وصفه:

أنت أيضاً حينما تشعر أن زيداً من الناس في أعلى درجات النزاهة، وفي أعلى درجات الحكمة، وفي أعلى درجات العلم، وفي أعلى درجات العدل، تقول له: افعل ما تشاء، فهذا التخيير، وهذا الإطلاق أساسه ما تمتّع به النبي عليه الصلاة والسلام من قلب رحيم، ومن حرصٍ بالغ على هداية الناس، ومن حرصٍ أبلغ على خاطر نسائه المؤمنات، فكان يطيّب خاطرهن، ولو دققت في زواجه من زوجاته واحدةً واحدة، لوجدت أن كل زواج فيه من الكمال والحكمة ما لا سبيل إلى وصفه، إذاً:

(تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ(51))

أنت حينما تكون رحيماً معهن، تكون كاملاً، تكون منصفاً، تكون عادلاً تقر أعينهن، وهو في هذا المستوى صلى الله عليه وسلم.

(وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51))

الله عزّ وجل يعلم، لك أن تفعل شيئاً، قد يفسر هذا الشيء تفسيراً سيئاً، وقد يفسر تفسيراً صالحاً، فأكثر أعداء الإسلام يتهمون النبي عليه الصلاة والسلام بأنّه مِزواج، ولو درست سيرة النبي عليه الصلاة والسلام لتبيّن لك العكس.

على الزوج أن يكون وفياً لزوجته إلى أبعد الحدود:

بقي مع السيدة خديجة أم المؤمنين خمسة وعشرين عاماً وكانت تكبره بخمسة عشر عاماً، وكان وفياً لها إلى أبعد الحدود، وما نسي ذكرها أبداً، حتى إن السيدة عائشة إذا قالت له: ألم يبدلك الله خيراً منها ؟ كان يقول: **" لا والله، لا والله، لا والله، ما أبدلني الله خيراً منها، لقد صدقتني حين كذبني الناس، لقد كانت معي حين تخلى عني الناس، لقد واستني بمالها "**. فقد كان وفياً لها دائماً، وكان في ريعان الشباب، تزوجها في الخامسة والعشرين، وكانت هي في الأربعين، وبقي معها خمسة وعشرين عاماً حتى أصبحت في سن الخامسة والستين.

المؤمن العادي لو تزوج امرأةً في سنه يندب حظه طوال حياته، ويقول: **" أخذناها كبيرة "**. فهل هذا يعني أنه عليه الصلاة والسلام كان مزواجاً ؟ وأكثر نسائه من الأرامل ولسن في المستوى المطلوب، دون المستوى المطلوب بكثير، وبالطبع كان يتألّف القبائل بالزواج منهن، هذه السياسة الحكيمة والتشريع العالي، فمن الذي يعلم الدافع النبيل ؟ فهذا الذي قاله الله عزّ وجل:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51))

أي أنه يحْلُمُ على هؤلاء المتهمين، على هؤلاء المرجفين:

(لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ (52))

حينما شرع الله عزّ وجل للمؤمنين أن كل رجلٍ يحق له أربع نساءٍ حصراً، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان وقتها على تسعة نسوة، فتكريماً لهن، وتَطييباً لخاطرهن، سمح الله عزّ وجل بشكل استثنائي للنبي، وهذا من الأحكام الخاصة، أن تبقى عنده هذه النسوة جميعاً، لكن من دون أن يزيد عليهن ومن دون أن يبدل إحداهن بأخرى.

النظر إلى الخطيبة تشريعٌ أساسي والذي يرفض النظر إليها فقد خالف السنة والشريعة:

قال تعالى:

(لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ (52))

كلمة ولو أعجبك حسنهن هذه إشارة في هذه الآية إلى أن الخاطب له أن يرى مخطوبته، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((اذهب فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما.))

[زيادة الجامع الصغير والدرر المنتثرة عن المغيرة بن شعبة]

لعلك ترى منها ما يعجبك فتزداد المحبة وتقبل على هذا الزواج، فالنظر إلى المخطوبة تشريعٌ أساس، وهذا الذي يرفض النظر إلى مخطوبته هو خاطئ، فقد خالف السنة والشريعة، لعل هذا النموذج لا يحبه ولا يعجبه، فإذا عاش مكرهاً معها لم تكن حياته كما ينبغي، فلذلك:

(وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ (52))

إشارةٌ إلى أن للرجل أن ينظر إلى مخطوبته، إلى وجهها وكفيها على أقوال العلماء.

هذه إشارةٌ دقيقة، امرأة خطبها النبي عليه الصلاة والسلام، وكانت امرأةٌ مصبية أي ذات صبية، لها أولاد، فقالت: **يا رسول الله لأنت أحب إلي من سمعي، ومن بصري، ومن نفسي، ولكن حق الزوج عظيم، فأخشى أن أضيّع حق الزوج ".**

أي أن لا أقوم بواجبك، فقد اعتذرت للنبي عليه الصلاة والسلام لما تعلم من عِظَمِ حق الزوج، لكن النبي عليه الصلاة والسلام قبلها على أولادها الكُثُر.

بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بتعدد الزوجات:

بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بهذا الموضوع

يقول العلماء: على الرجل أن يعدل بين نسائه، لكل واحدةٍ منهن يوماً وليلة، هذا قول عامّة العلماء، وذهب بعضهم إلى وجوب ذلك في الليل دون النهار، ولا يسقط حق الزوجة مرضها ولا حيضها، فمن حقها أن تكون هذه الليلة لها بصرف النظر عن مرضها أو عن حيضها، كما أنه عليه أن يعدل بينهن في مرضه كما يفعل في صحته، أي وهو صحيح وهو مريض، وهي صحيحة وهي مريضة، إلا أن يعجز عن الحركة فيقيم حيث غلب عليه المرض، أين أصابه المرض الشديد ؟ عند فلانة يقيم عندها مستأذناً من ضرتها.

شيءٌ آخر، وأن لا يجمع بينهن في منزلٍ واحدٍ إلا برضاهن، قد يكون وجود الضرائر في بيت واحد سبباً لمشكلات كبيرة جداً، بل إن مالكاً حَدَّثَ عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان، ماتتا في الطاعون، فأسهم بينهما أيهما تُدَلّى في قبرها قبل الثانية، إلى هذه الدرجة، بالقرعة، حتى لا يقال: فلانة أكرم عليه من فلانة، فقد كان الصحابة الكرام يتقصّون العدالة حتى في أدق الدقائق، والنبي عليه الصلاة والسلام كما علمنا وقال:

((اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك.))

[سنن أبي داودعن عائشة]

أي أنك إذا تزوجت ـ إذا قدر الله عليك ـ ولك أكثر من زوجة، عليك أن تبتغي العدالة شبه التامة، أما قلبك فهذا بيد الله عزّ وجل هو مقلب القلوب، فكان عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك.))

وقد ورد في السنة، أن النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو هريرة قال:

((من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل.))

[زيادة الجامع الصغير والدرر المنتثرة عن أبي هريرة]

أي أن هذا صار ظلماً، حتى أن امرأةً جاءت إلى سيدنا عمر رضي الله عنه، وقالت له: **" يا أمير المؤمنين إن زوجي صوامٌ قوام "**، ويبدو أنه كان مشغولاً بموضوع، قال لها: **" بارك الله لكِ بزوجكِ"**، وكان عنده أحد أصحابه قال: **" يا أمير المؤمنين إنها تشكو زوجها "**، فانتبه عمر إلى أن هذه شكوى، فقال: **" احكم بينهما "**، فحكم لها أن يكون عندها يوماً كل أربعة أيام، كما لو أنه متزوج أربع نسوة، لها حق في يوم وليلة، أعجبه هذا الحكم، فما كان منه رضي الله عنه إلا أن ولاّه قضاء البصرة، الحكم دقيق، لو أن له أربع نساء كان لها الحق في يوم وليلة من هذه الأيام كلها.

يروى أن لقمان الحكيم قال لابنه مرةً: **اذبح شاةً وائتني بأطيب بضعتين فيها**، فأتاه باللسان والقلب، ثم أمره بذبح شاةٍ أخرى، وقال له: **" أعطني أخبث شيئين فيها "**، فألقى إليه اللسان والقلب، أي أن اللسان والقلب أطهر ما في الإنسان إذا كان تقياً، واللسان والقلب أخبث ما في الإنسان إذا كان خبيثاً.

ولما دخل على سيدنا عمر بن عبد العزيز وفد الحجازيين وتقدمهم صبيٌ صغير، قال: **اجلس أيها الغلام، وليقم من هو أكبر منك سناً**، فقال: أصلح الله الأمير، المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا وهب الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر كما تقول لكان في الأمة من هو أحق منك بهذا المجلس.

ملخص لما جاء في درس اليوم:

هذه بعض الأحكام التي جاءت في موضوع التعدد، على كلٍ محور هذا الدرس دقيق جداً:

1 ـ الله تعالى أعطى النبي حرية التصرف مع زوجاته وهذه شهادة للنبي الكريم:

أن النبي عليه الصلاة والسلام ما أعطاه الله حرية الحركة في أن يؤوي، وفي أن يرجي، وفي أن يقبل، وفي أن يرفض، وفي أن يقبل بعد أن رفض، وفي أن يأخذ ما يريد، إلا بعد أن بلغ من الحكمة، والعلم، والحلم، والرحمة، والعطف، والإنصاف الشيء المطلق فلذلك:

(تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ (51))

هذه شهادةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام.

2 ـ على المؤمنين أن يتقيّدوا بما جاء في القرآن الكريم:

الشيء الآخر: أما المؤمنون فعليهم أن يتقيّدوا بما جاء في القرآن الكريم، فلو أن أحداً تزوّج بامرأةٍ ثانية عليه أن يعدل بين الاثنتين لئلا يكون ظالماً.

3 ـ الطلاق البدعي والطلاق السني شيئان مهمان جداً في حياة المؤمن:

الشيء الثالث: أن الطلاق البدعي والطلاق السني شيئان مهمان جداً في حياة المؤمن، فإذا طلق امرأته طلاقاً سنياً جعل الله له طريقاً إلى إعادتها، وإذا طلّقها طلاقاً بدعياً بأن حلف يميناً بالطلاق ثلاثاً ـ دفعةً واحدة ـ أو طلقها في حيض، أو طلقها في طهرٍ مَسَّهَا فيه، أو طلقها لمشكلةٍ لا علاقة لها بها، أو طلقها قبل أن يُراجعها، هذه أنواع الطلاق كلها وهذه الأنواع سمّاها العلماء بدعية، لأنها مبتدعة، وليست كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام، الآيات:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ (49))

أشار الله عزّ وجل إلى أن الزواج عقدٌ ودخول، وقد وصِفَ النكاح بأنه عقدٌ هنا من دون دخول.

4 ـ مثال عن التفاهم بين الزوجين:

قال تعالى:

(فَمَتِّعُوهُنّ وَسَرِّحُوهُنّ سَرَاحًا جَمِيلًا (49))

هذه المرأة التي تزوجها القاضي شُرَيْح، قالت له: أما بعد فيا أبا أمية إنني امرأةٌ غريبة، لا أعرف ما تحب ولا ما تكره، فقل لي ما تحب حتى آتيه، وما تكره حتى أجتنبه، ويا أبا أمية لقد كان من نساء قومك من هي كفء لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجة على كتاب الله وسنة رسوله ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فاتق الله في وامتثل قوله تعالى:

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

(سورة البقرة: من آية " 229 ")

هذا بين الشريكين أو بين الزوجين، إذا طغى أحدهما على الآخر، الله عزّ وجل توعَّدَهُ بالعقاب الأليم، لأن الكفر يدوم ولكن الظلم لا يدوم، قالت له: **" ويا أبا أمية لقد كان من نساء قومك من هي كفء لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجة على كتاب الله وسنة رسوله ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فاتق الله فيّ وامتثل قوله تعالى:**

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

(سورة البقرة: من آية " 229 ")

ثم قعدت"، قال: **" فألجأتني إلى أن أخطب "**، فقال: **" أما بعد فقد قلت كلاماً إن تصدقي فيه وتثبتي عليه يكن لك ذخراً وأجراً، وإن تدعيه يكن حجةً عليك، أحب كذا وكذا، وأكره كذا وكذا، وما وجدتِ من حسنةٍ فانشريها، وما وجدتِ من سيئةٍ فاستريها "**، قالت: **" كيف نزور أهلي وأهلك ؟ "** قال: **"نزور غباً مع انقطاع بين الحين والحين لئلا يملونا "**، قالت: **" فمن من النساء تحب أن أسمح لهُنّ بدخول بيتك ومن تكره ؟ "**، قال: **" بنو فلان قومٌ صالحون، وبنو فلان قوم غير ذلك ".**

قال: ومضى علي عامٌ عدت فيه إلى البيت فإذا أم زوجتي عندنا، رَحَّبْتُ بها، وكانت قد علمت من ابنتها أنها في أهنأ حال، ثم قالت لي: يا أبا أمية كيف وجدت زوجتك ؟ قلت: والله هي خير زوجة، قالت: والله يا أبا أمية ما أوتي الرجال شراً من المرأة المدللة فوق الحدود، فأدِّب ما شئت أن تؤدِّب، وهذِّب ما شئت أن تهذب، ثم التفتت إلى ابنتها تأمرها بحسن السمع والطاعة.

5 ـ قواعد اختيار الزوجات وقبول الأزواج كما وردت في السنة النبوية:

البيت إذا بني على طاعة الله تولى الله التوفيق بين الزوجين، وإذا بني على المعصية تولى الشيطان التفريق بينهما، والزواج شيء أساسٍ بحياة الإنسان، أخطر حدث بحياة الإنسان هو الزواج، فلذلك كما قال عليه الصلاة والسلام:

((من تزوج المرأة لجمالها أذله الله، ومن تزوجها لمالها أفقره الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءةٍ، فعليك بذات الدين تربت يداك.))

[عند أبي نعيم عن أنس]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((إياكم وخضراء الدمن ! قيل يا نبي الله وما خضراء الدمن ؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء.))

[كنز العمال عن أبي سعيد]

هذه قواعد اختيار الزوجات، وقبول الأزواج، والنواحي المادية كما تعلمون:

((من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا.))

[كنز العمال عن أبي سعيد]

وكان عليه الصلاة والسلام: ما شكا إليه أحدٌ ضيق ذات يده إلا قال له: اذهب فتزوج.

كلكم يعلم أنه:

((من مشى بتزويج رجل بامرأة كان له بكل كلمةٍ قالها وبكل خطوةٍ خطاها عبادة سنةٍ قام ليلها وصام نهارها.))

[ورد في الأثر]

حينما تقيم أمر الله في بيتك يتولى الله التوفيق بينك وبين زوجتك، فإذا كان هناك معصية ومخالفة، نشب الخلاف والبغضاء والشحناء وما إلى ذلك، وأصبح هذا مُهَدّمًا، فهذه إشارة إلى حكمة النبي عليه الصلاة والسلام.

6 ـ تكريم نساء النبي عليه الصلاة والسلام لأنهن آثرن الله ورسوله والدار الآخرة:

قال تعالى:

(تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرّ أَعْيُنُهُنّ وَلَا يَحْزَنّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آَتَيْتَهُنّ كُلّهُنّ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51))

هذا تهديد، فأنت قد تقول: لا أحب فلانة، أو قد ترفض، أو قد تُطلِّق، أو قد تدعي ادعاءات كاذبة، لكن الله وحده يعلم ماذا ينطوي وراء هذا القرار الذي اتخذته، وإكراماً لنساء النبي عليه الصلاة والسلام بأنهن أثرن الله ورسوله والدار الآخرة:

(لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدّلَ بِهِنّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنّ إِلّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ رَقِيبًا (52))

آياتٌ دقيقةٌ في آداب الاستئذان:

الآيات التالية آياتٌ دقيقةٌ تتحدث في آداب الاستئذان:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا (53))

وقال:

(إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53) إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (54))

وفي درسٍ آخر نتابع تفسير هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (14-18): تفسير الآيات 53 - 58

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1991-12-27

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة الأحزاب.

الإسلام عقائد وعبادات ومعاملات وآداب:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (53))

(سورة الأحزاب)

أيها الأخوة الأكارم، قبل أن نبدأ تفسير هذه الآيات، هذه الآيات متعلِقة بما يسمّى بالآداب، لا تنسوا أن في الإسلام عقيدةً، وأن في الإسلام عبادةً، وأن في الإسلام معاملة، وأن في الإسلام أدباً، الإسلام عقائد، وعبادات، ومعاملات، وآداب.

اصطباغ نفسك بالكمال الربّاني بقدر اتصالك بالله عزّ وجل:

العقيدة تستقى من كتاب الله ؛ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه من الله تعالى.

العبادات ؛ الصوم، والصلاة، والحجُّ، والزكاة.

المعاملات ؛ أحكام الزواج، أحكام الطلاق، أحكام البيوع، أحكام الرهينة، أحكام العارية، أحكام القَرْض، أحكام الآجار.

والآداب ؛ آداب المتعلِم، آداب المعلِم، آداب الطريق، آداب الطعام، الآداب هي في جوهرها كمالات، الإنسان إذا كان متأدِّباً بآداب الإسلام يأخذ الموقف الكامل ؛ في طعامه، في شرابه، في نزهته، في جلوسه مع أهله، في علاقاته بجيرانه، فلذلك أفرد العلماء بحوثاً طويلة ودقيقة وممتعة ومأخوذةً من كتاب الله ومن سُنَّة رسوله حول الآداب، وأفضل من عالج الآداب الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في

إحياء علوم الدين، وفي درسٍ سابقٍ بيّنتُ آداب السفر، السفر له آداب، الوليمة لها آداب، طلب العلم له آداب، كل نشاطٍ نفعله هناك منطلق نظري أي عقيدة، وهناك أمر ونهي، وهناك أدب.

الشيء الآخر هو أن الإنسان لا يسعد في الجنّة إلا بعمله الطيّب، لا يستطيع أن يقبل على الله عزّ وجل، لا يستطيع أن يلتجئ إليه، لا يسعد بقربه إلا إذا كان كاملاً، لأن الله طيبٌ ولا يقبل إلا طيّباً، وجُملة الآداب هي في الحقيقة مواقف كاملة للإنسان.

السؤال الدقيق الآن: لماذا نرى فلاناً كاملاً في تصرُفاته وفلاناً ناقصاً ؟ فلان عنده حياء، وعنده أدب، وعنده ملاحظة ؛ وفلان عنده وقاحة، وعنده تجاوز، وعنده فظاظة، فهذه الآداب ما مصدرها ؟ قد نتحدّث عنها، نقول: آداب السفر كذا وكذا، آداب مجالس العلم، آداب الدخول للمسجد، آداب الطريق، آداب الزيارة، آداب عيادة المريض، هناك أبحاثٌ طويلةٌ وكثيرةٌ جداً أفردها العلماء في الآداب، يا ترى إذا تعلّمنا هذه الآداب هل يكفي ؟

إذا تعلّمت أن أدب العيادة كذا، وكذا، وكذا، وكذا، أغلب الظن أنه لا يكفي، لأن الإنسان في سلوكه هناك ضبط ظاهري وهناك وازع داخلي، ما دامت نفسه بعيدة عن الله عزّ وجل فلا بدّ من أن يكون فظّاً، وغليظاً، ووقحاً، ويأخذ ما ليس له، ويؤثر مصلحته على مشاعر الآخرين، هذه كلّها من بديهيات الإعراض، فلذلك سوء الأدب في أصله إعراضٌ عن الله عزّ وجل، لأن كل الكمالات مخزونةٌ عند الله، بقدر اتصالك بالله بقدر اصطباغك بالكمال الرباني، بقدر اتصالك بالله هو القدر نفسه تصطبغ به بالكمال الذي يسعدك في القرب من الله عزّ وجل.

الأدب الرفيع صفةٌ من صفات المؤمن:

أردت قبل أن أبدأ الحديث عن آداب الوليمة أن أبيّن حقيقة الأدب، الأدب اتصال بالله، الأدب حياء، الأدب مشاعر مرهفة، الأدب ملاحظة دقيقة جداً، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما شعر أن أحد أصحابه قد انتقض وضوءه، وإنه إذا أذّن العصر فسيخرج وحده ليتوضّأ، هذه المراعاة الدقيقة جداً لمشاعر أصحابه دعت النبي عليه الصلاة والسلام أن يقول لأصحابه:

((كل من أكل لحم جزورٍ فليتوضّأ))

فقالوا: كلّنا أكلنا لحم جزور، قال:

((إذاً كلّكم توضّؤوا))

أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يستر حال هذا الذي انتقض وضوءه، إذاً هذا أدب جم.

النبي عليه الصلاة والسلام سحر أصحابه بأدبه، كان يقول له أحدهم: ما هذا الأدب يا رسول الله، فيقول:

((أدّبَنِي رَبّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي.))

[زيادة الجامع الصغير والدرر المنتثرة]

لذلك يكون المؤمن على مستوى رفيع من الأدب ؛ مع أهله، مع أولاده، مع إخوانه، مع أصدقائه، مع جيرانه، في خلوته، في جلوته، في عمله، في نزهته، كلامه دقيق.

كان عليه الصلاة والسلام أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، كان عليه الصلاة والسلام لا يواجه أحداً بما يكرهه، كان يستحيي كثيراً، كان عليه الصلاة والسلام لا يُحَمِّر الوجوه، لا يخجل أحداً، حتى لو أراد أن ينبّه أصحابه إلى بعض ما بدر منهم، كان يجمع أصحابه ويقول بشكلٍ عام:

((ما بال قومٍ يفعلون كذا وكذا))

دون أن يسميهم.

إذاً قبل الحديث عن أدب الوليمة لا بدّ من أن نعلم أنه بقدر اتصالك بالله عزّ وجل تصطبغ نفسك بالكمال الربّاني، وبقدر اصطباغك بكمال الله عزّ وجل تكون أديباً مع الناس، والأدب الرفيع صفةٌ من صفات المؤمن، المؤمن ذو أدب، شخصيّته فذّة، فيها جانب عقلاني، عالِم ـ ما اتخذ الله ولياً جاهلاً ـ وفيها جانب أخلاقي، وفيها جانب انضباطي.

النبي عليه الصلاة والسلام أدّبه الله عزّ وجل:

النبي عليه الصلاة والسلام أدّبه الله عزّ وجل، والمؤمن في بداية طريق الإيمان قد تصدر منه مواقف قاسية، تعليقات لاذعة، انتقادات ساخرة، استعلاء أحياناً، أحياناً ينتقد ما هو فيه، أحياناً يقلِل حجم أعمال الناس، هذه كلها مواقف فيها رعونة، فيها تجاوز، فيها تقليل من فضل الناس، النبي عليه الصلاة والسلام كان مُنْصِفَاً، بحسبه قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4) ﴾

(سورة القلم)

(إنّ) تفيد التوكيد، و(اللام) تفيد التوكيد، وكلمة (عظيم) تفيد المبالغة، وكلمة (على) تفيد التمكّن:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4) ﴾

(سورة القلم)

وقال:

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾

(سورة آل عمران: من آية " 159 ")

أي مع أنه نبي، مع أنه رسول، مع أنه يوحى إليه، مع أنه معصوم، ومع أنه في أعلى مرتبة من بني البشر، ومع كل هذه المراتب:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران: من آية " 159 ")

يا أيها الأب لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّ الناس من حولك من باب أولى، ما معك ولا مَيّزة.

الآداب ربع الدين والذي لا يتأدّب بآداب الإسلام ليس من المسلمين:

كل مَيّزات النبي:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران: من آية " 159 ")

إذاً أنت كمؤمن من دون أي ميّزة ؛ لا يوجد معك وحي، ولا عصمة، ولا قرآن، ولا تأييد إلهي، ولا معجزة، لا يوجد معك أي شيء، فإذا أردت أن تكون غليظاً، قاسياً، حاداً في تعليقاتك انفضّ الناس من حولك، لهذا:

(فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

(سورة آل عمران: من آية " 159 ")

يجب أن تعلموا أن قسم الآداب يحتلّ رُبْعَ الدين ـ إن صحّ التقسيم الكيفي لا الكمي ـ الدين عقائد، والدين عبادات، والدين معاملات، والدين آداب، آداب الطريق ؛ غض البصر، إلقاء السلام، ردُّ السلام، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، آداب عيادة المريض ؛ أن تزوره، أن لا تأكل عنده شيئاً، أن تنفِّس له في الأجل، أن تعطيه الأمل، أن لا تبقى عنه طويلاً بقدر فواق ناقة، آداب طلب العلم، آداب دخول المسجد، آداب الكسب، الكسب له آداب، الكسب الحلال له آداب، فالآداب ربع الدين، ومن نافلة القول أن الذي لا يتأدّب بآداب الإسلام ليس من المسلمين.

من صفات أهل الدنيا تصغير ما عندهم:

ما الذي يميّزك عن عامة الناس ؟ المؤمن له آداب صارخة، وواضحة، وجليّة، حتى في لهوه ليس عنده مُزاح رخيص، ولا تعليقات لاذعة، ولا إحراج، ولا تتبُّع العورات، هذا من أخلاق المعرضين عن الله عزّ وجل.

تصغير ما عند الناس في أعينهم، ما هذا البيت ؟ كيف تسكن فيه ؟ هذه صفات أهل الدنيا، قد يصغِّر في عينك بيتك، يصغِّر في عينك حاجاتك، أنت موظّف فكم يبلغ معاشك ؟ ومن أدراك أن هذا الموظّف ذا الدخل المحدود قد يكون عند الله أرقى من مليون إنسان دخله غير محدود، من قال لك ذلك ؟

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[سنن الترمذي: عن أنس بن مالك]

من صفات أهل الدنيا تصغير ما عندهم، كيف تقبل هذا اللون من العيش ؟ كيف تقبل بهذا الدخل ؟ وإن كانت زوجة، كيف تقبلين به ؟ ماذا قدّم لكِ على العيد ؟ منتهى الوقاحة، منتهى الفظاظة، منتهى الغلظة، منتهى سوء الأدب، منتهى سوء التقدير، فلذلك الشيء الصارخ في المؤمن أدبه العالي، احترامه للناس، لا يفرّق بين أبيض وأسود، عربيّ وأعجميّ، النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((سلمان منّا آل البيت))

[لحاكم في المستدرك، والطبراني في المعجم الكبير عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده]

هكذا كان يقول، كان يقول لأحد أصحابه الفقراء:

((أهلاً بمن خبّرني جبريل بقدومه، قال: أو مثلي ؟ قال: نعم خاملٌ في الأرض علمٌ في السماء.))

المؤمن لا يحتقر أحداً، ليس في كلامه فُحْشٌ، ولا بذاءةٌ، ولا تجسُّسٌ، ولا تحسُّسٌ، ولا شماتةٌ، ولا تعييرٌ، من عنده هذه المواقف ؟؟!

آداب الوليمة:

درسنا اليوم متعلِّق بآداب الوليمة

قال الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا (53))

مرّةً ثانية وثالثة الله عزّ وجل يخاطب عامّة الناس بأصول الدين، ويخاطب المؤمنين بفروع الدين، هذا عَرَفَ الله، وهذا ينبغي أن يؤدّب، وأن يوجّه، وأن يُعَلّم، لذلك الإنسان إذا كان تحت يده أولاده مثلاً، طلابه في المدرسة، عمّاله في المعمل، موظّفيه في المؤسّسة، إذا كنت مديراً عاماً، إذا كنت صاحب متجر، صاحب مؤسّسة، معلِّم مدرسة، مدير مستشفى، أي إذا كنت في منصب قيادي، هؤلاء الذين هم دونك يجب أن تؤدِّبهم بآداب الإسلام، يجب أن تعلِّمهم الموقف الكامل، لأنك إذا علّمتهم وأدّبتهم كانوا في صحيفتك.

النبي عليه الصلاة والسلام ما من أحد من أصحابه إذا أخطأ إلا وجّهه، كان يصلي مع أصحابه مرة، فدخل أحدهم إلى المسجد وأراد أن يلحق الركعة مع النبي عليه الصلاة والسلام، ركض في المسجد، فأحدث جلبةً وضجيجاً، فلمّا انتهى من صلاته قال له عليه الصلاة والسلام:

((زادك الله حرصاً ولا تعد))

[البخاري عن أبي بكرة]

ما سكت النبي بل يجب أن يوجّهه، أن يرشده، ولكن لئلا يقسو عليه أثنى على حرصه، وعلى اهتمامه بالصلاة، وعلى إقباله عليها، زادك الله حرصاً ولا تعد ثانيةً لهذا، فأولادك، طلابك، موظفوك، من هم دونك، إذا وقفوا موقفاً غير لائق لا ينبغي أن تسكت، يجب أن توجِّههم ؛ لكن بحكمةٍ بالغة، بأسلوبٍ طيّب، بملاحظةٍ ذكيّة، بتقديم الثناء عليهم قبل انتقادهم، هذا كله من سنّة النبي عليه الصلاة والسلام.

بيوت النبي لها شأنٌ كبيرٌ عند الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ (53))

بيوت النبي لها مكانةٌ خاصّةٌ عند الله عزّ وجل، لأن هذا البيت يتنزّل فيه قرآن، لأن هذا البيت بيت صاحب الدعوة، بيت النبي عليه الصلاة والسلام، هذا البيت قِبْلة الأنظار، هذا البيت مكان راحة النبي، هذا البيت مكان زوجاته الطاهرات، فلذلك كما أن بيت الله الحرام له شأنٌ في القرآن، وإذا قال الله: البيت، المقصود به البيت الحرام، وكذلك قال الله عزّ وجل:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33))

أهل بيت النبي لهم مكانةٌ عند الله عزّ وجل، وهناك علاقةٌ بين نجاح دعوة النبي وبين سموِّ أهل بيته، لذلك تولّى الله بنفسه تطهير أهل بيت النبي، والآن بيوت النبي لها شأنٌ كبيرٌ عند الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ (53))

أي لا تدخلوا بيوت النبي من غير إذنٍ، يقول بعض المفسِّرين: كان العرب في الجاهليّة يدخلون بيوت بعضهم بعضاً من دون استئذان، هكذا، وهذه الملاحظة قد تلاحظونها في كل مجتمع متفلِّت، فلا يهم، نساؤه كاسيات، متحجّبات، غير متحجّبات، يدخل مباشرةً لا يستأذن، طبعاً الآن توجد أبواب، وتوجد أجراس ومدقات، لكن ومع ذلك يدخل من دون أن ينتظر، أين أدخل ؟ أين أجلس ؟ يدخل مباشرةً، فالدخول إلى البيت من دون استئذان هذا من أخلاق الجاهليّة.

الدخول بلا استئذان عادة متأصِّلة جاهليّة أراد الله أن ينزعها من قلوب المؤمنين:

هذا البيت فيه زوجته، وبناته، وأولاده، يا ترى هل هم بوضع لائق أم غير لائق ؟ هذه الزوجة متكشِّفة، متحجّبة، يمكن أن يراها الأجنبي بمظهرها، أو لا يمكن ؟ فهذا حينما ترتفع القيود، وترتفع الموانع، وليس هناك ضوابط، عندئذٍ الإنسان يدخل مباشرةً من دون استئذان، فهذه من صفات الجاهليين، عادة متأصِّلة في الجاهليّة، أراد الله عزّ وجل أن ينزعها من قلوب المؤمنين، الدخول بلا استئذان عادة متأصِّلة جاهليّة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ (53))

الحكم الأول: أنه لا يجوز الدخول مطلقاً بلا إذن.

طبعاً الشيء الثاني: لا يجوز أن تدخل بنيّة، أن تنتظر في البيت حتّى يحين وقت الغداء فتأكل مع النبي، لعل هناك ظرفاً صعباً، لعل عنده طعام غير كافٍ، لعل هناك حاجة، لعل هناك وعداً مع أهله، فلذلك حتّى لو أُذِنْ قبل الطعام لا ينبغي أن ننتظر إلى أن يحين وقت الطعام، هذا أدب آخر:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ (53))

الحقيقة كلمة يؤذّن تتعدّى بـ في، أما هنا تعدّت بـ إلى، وكيف أن هذا الفعل تعدّى بـ إلى ؟ لأنه ضمِّن معنى الدعوة، أي لا تدخلوا إلى بيت النبي إلا أن تدعون إلى طعام، حتّى إذا دُعيتم إلى الطعام لا ينبغي أن تدخلوا إلى بيت النبي في وقتٍ مبكِّرٍ جداً، هذا الوقت قد يستهلكه في شأنٍ من شؤونه الخاصّة، فمثلاً دعوت إنساناً إلى طعام الغداء، جاءك الساعة العاشرة فرضاً، أنت خلال الساعتين عندك تهيئة حاجات المنزل، في عندك لقاءات، عندك موعد، عندك عمل علمي، فالدعوة الساعة الثانية، فجاءك الساعة العاشرة، أو الساعة الحادية عشرَ، فحتّى لو دعيت إلى الطعام لا ينبغي أن تأتي قبل الموعد المحدّد لأن هذا يستهلك وقت النبي، ويستهلك مهمّة كان قد أعدّ نفسه لها، فالآية دقيقة جداً.

ثلاثة أحكام فقهيّة مستنبطة من هذه الآية:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ (53))

الدخول يحتاج إلى إذن، الآن لو معك إذن بالدخول وليس معك دعوةٌ إلى طعام، لا ينبغي أن تنتظر عند النبي حتّى يحين وقت الطعام، الآن إذا دُعيت إلى الطعام لا ينبغي أن تأتي قبل الوقت المحدّد، أو قبل الوقت المعروف، المتعارف عليه، لا ندخل من دون إذن، ولا نأكل من دون دعوة، وإذا دعينا إلى الطعام لا نأتي قبل الأوان، ثلاثة أحكام فقهيّة مستنبطة من هذه الآية:

(وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا (53))

لئلا تُجْرَحَ مشاعر المؤمنين، إذا دُعيتم فادخلوا، ما دام دعاكم ادخلوا حبّاً وكرامة:

(فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا (53))

أحياناً يكون الطعام أُعِدَ للضيوف ولأهل البيت، والمكان ضيّق، والنبي عليه الصلاة والسلام عنده مسؤوليّات، وعنده حاجات، ويريد أن يلتقي أهله، والطعام ينتظر من يأكله، هؤلاء الذين أكلوا جلسوا، وجلسوا، واستمعوا، وأنسوا بالنبي، ونسوا أن عنده مسؤوليات.

فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ: آية فيها أربعة أحكام شرعيّة:

قال تعالى:

(فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ (53))

أحياناً يكون النبي عليه الصلاة والسلام عنده خطبة، عنده لقاء مع أصحابه، هذا يحبُّ أن ينفرد بالنبي وحده ويجلس لساعاتٍ طويلة، هذا لا يستطيعه النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

(فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ (53))

هذه معطوفة على:

(إِنَّ ذَلِكُمْ(53))

و:

(غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ (53))

أي الدخول بلا استئذان، وتناول الطعام بلا دعوة، والمجيء إلى الدعوة قبل وقتٍ كبير، والمكوث بعد الطعام إلى ساعةٍ متأخّرة، أربع أحكام شرعيّة.

عِظم خُلُق النبي فهو لا يجرح أصحابه ولو مكثوا ساعاتٍ طويلة:

قال تعالى:

(إِنَّ ذَلِكُمْ (53))

هذه المواقف كلها:

(كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ (53))

هذه الآية تشير إلى عِظَم خُلُق النبي، أي أن النبي ليس عنده إمكان إطلاقاً أن يجرح أحد أصحابه، ولو بقي ساعاتٍ طويلة، مستحيل:

(إنّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النّبيّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقّ (53))

تروي الكتب أن السيدة زينب التي تزوّجها عليه الصلاة والسلام، والبيت ضيّق، والأمكنة محدودة، وقد جلست إلى الحائط، وجلس أناسٌ لوقتٍ طويل ولم يخرجوا، النبي تضايق، دخل وخرج، دخل وخرج وهم جالسون، عندئذٍ نزلت هذه الآية لتؤدّب أصحاب النبي عليهم رضوان الله، وقال بعض المفسرين: إن هذه الآية ليست لأصحابه الكمّل بل هذه للثقلاء، بكل مجتمع يوجد إنسان ثقيل، والثقيل إذا عَلِمَ أنه ثقيل فليس بثقيل، لا يلاحظ، لا ينتبه، لا يدقِق، قال:

(إنّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النّبيّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقّ (53))

مخاطبة النساء من وراء حجاب أطهر للنفس وأسلم للصدر وأدعى للمودّة وأقرب إلى الله:

الآن:

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنّ مَتَاعًا (53))

المتاع هو الشيء الذي يُنْتَفَعُ به، أي إذا سألتموهنّ حاجةً، أو إذا سألتموهنّ حُكْماً فقهياً، كمن أحبّ أن يسأل السيدة عائشة، أو إحدى زوجات النبي عن حكمٍ معيّن، قال:

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ (53))

الحجاب هو السِتْر:

(ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنّ (53))

العلماء قالوا: أن تدخلوا بإذن، وأن تأكلوا بدعوى، وأن لا تأتوا قبل الدعوى بوقتٍ طويل، وأن لا تمكثوا بعد الدعوى إلى ساعةٍ متأخّرة، وأن تخاطبوا نساء النبي من وراء حجاب، هذه خمسة أحكام قال:

(ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنّ (53))

الإنسان إذا خاطب امرأةً من وراء حجاب لا يرى شكلها، يبقى قلبه طاهراً، نظيفاً، عفيفاً، سليماً، معافىً، أما لو نظر إلى شكلها لجاءته الخواطر التي لا تُرْضي الله عزّ وجل، ولو أن المرأة رأت رجلاً، وسمعت صوته، وملأت عينيها منه، لجاءتها بعض الخواطر، هذه الخواطر لا ترضي الله عزّ وجل، فأن تخاطبوهنّ من وراء حجاب:

(أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنّ (53))

أطهر للنفس، أسلم للصدر، أدعى للمودّة، أقرب إلى الله عزّ وجل.

النهي عن إيذاء النبي لا في حياته ولا بعد موته:

قال تعالى:

(ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا (53))

أي ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله في حياته، ولا بعد مماته، لا في حياته ولا بعد مماته، ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله في حياته بأن تدخلوا عليه بلا استئذان، وبأن تأكلوا من غير دعوى، وبأن تأتوا قبل وقت الدعوى فتستهلكوا وقته، وبأن تمكثوا بعد الطعام إلى ساعةٍ متأخِّرة، وبأن تحدِّثوا نساءه مشافهةً من دون حجاب، هذا كلّه إيذاءٌ للنبي:

(وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ (53))

أن تنكحوا أزواجه من بعده إيذاء له بعد موته، إذاً أنتم منهيّون عن أن تؤذوه في حياته ومن بعد مماته أبداً:

(إِنّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللّهِ عَظِيمًا (53))

هذه النقطة الدقيقة أن الإنسان كلّما علا مقامه عند الله دافع الله عنه، كلّما علا مقامه عند الله صارت حياته عند الله غالية.

على الإنسان العاقل أن لا يتورّط ويؤذي من يحبُّهم الله عزّ وجل وإلا عاجله الله بالعقاب:

قال عليه الصلاة والسلام:

((من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب.))

[البخاري عن أبي هريرة]

لذلك على الإنسان العاقل أن لا يتورّط ويؤذي من يحبُّهم الله عزّ وجل، وأن لا يتورّط ويتحدّث على من يحبُّهم الله عزّ وجل، لا يتورّط ويتحدّث بالأذى، وبالقسوة، وبالتُهَم على من يحبُّهم الله عزّ وجل لأنه:

((من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب.))

[البخاري عن أبي هريرة]

لأن هذا الولي بشكلٍ أو بآخر بابٌ لله عزّ وجل، فهو مثل يقتدي الناس به، فإذا أردت أن تحطِّم هذا المثل، إذا أردت أن تصغِّره في عين الناس لحسدٍ أو لحقدٍ أو ما شابه ذلك فقد آذنك الله بالحرب، وعندئذٍ يقصم الله سبحانه وتعالى هذا الإنسان، ولو كان هناك مُتَّسع من الوقت لذكرت لكم قصصاً كثيرة عن

أناسٍ تطاولوا وقسوا وتهجّموا ؛ لكن الله عاجلهم بالعقاب، لذلك قالوا: **" لحم العلماء مسموم "** بمعنى أنه من أكل من لحومهم من دون تبصُّر، من دون تروّ، من دون تحقّق، من دون تدقيق، هكذا من دون فهم فقد آذى الله عزّ وجل:

(إنّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النّبيّ فَيَسْتَحْيي مِنْكُمْ (53))

وقال:

(وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إنّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللّهِ عَظِيمًا(53))

من وقف موقفاً معلناً من النبي فيه عداء أو موقفاً مُبَطّناً كلاهما عند الله سواء:

الآن:

(إنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ (54))

أي أن الإنسان إذا وقف موقفاً معلناً من النبي عليه الصلاة والسلام فيه عداء، أو موقفاً مُبَطّناً، كلاهما عند الله سواء، أي إن أسررت أو وقفت موقفاً احتيالياً، هذا كلّه عند الله مكشوف:

(إنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنّ اللّهَ كَانَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمًا (54))

هذا من نوع التهديد، أي أن عملكم عند الله مكشوف، نواياكم مفضوحة، مواقفكم متبدّية، طموحاتكم تحت النَقْدِ الشديد، أي أن الله سبحانه وتعالى بالمرصاد.

لكن نساء النبي عليهم رضوان الله لهنّ أن يظهرنّ أمام آبائهن كما هي حال سائر المؤمنات:

(لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنّ فِي آبَائِهِنّ وَلَا أَبْنَائِهِنّ وَلَا إِخْوَانِهِنّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنّ وَلَا نِسَائِهِنّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنّ وَاتّقِينَ اللّهَ إنّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدًا (55))

أم المؤمنين إذا توفي النبي عليه الصلاة والسلام، فهي أمُّ المؤمنين حقيقةً، بمعنى أنه لا يجوز لواحدٍ أن يقترن بزوجة النبي عليه الصلاة والسلام، لكنّ التي تزوّجها وطلّقها ـ وهي واحدة ـ العلماء على خلافٍ في هذا الموضوع، لكن إذا مات النبي عن زوجة فهذه أمُّ المؤمنين حكماً، ولا يجوز لأحدٍ أن يتزوّجها من بعد النبي، لكن هذه الزوجة لها أن تظهر.

أغفل الله تعالى في هذه الآية العمّ والخال لأسبابٍ كثيرة منها أن العم والخال بمنزلة الأب:

حينما قال الله عزّ وجل:

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ (53))

هذه الزوجة الطاهرة، زوجة النبي عليه الصلاة والسلام، لا جناح عليها إن بدت أمام أبيها، أو أمام ابنها، أو أمام أخيها، أو أمام ابن أخيها، أو أمام ابن أختها، أو أمام امرأةٍ مسلمةٍ، أو ما ملكت أيمانها ـ طبعاً من الجواري لا من العبيد ـ وقد أغفل الله عزّ وجل في هذه الآية العمّ والخال لأسبابٍ كثيرة منها أن العم والخال بمنزلة الأب:

(قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(133))

(سورة البقرة)

سيدنا إسماعيل أحد هذه الأسماء عماً لسيدنا يعقوب وليس أباً، فالله سبحانه وتعالى سمّاه أباً، إذاً العم بمنزلة الأب، العم والخال بمنزلة الأب، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((العم والد))

[كنز العمال عن عبد الله بن الوراق مرسلاً]

((إنما الخال والد.))

[كنز العمال عن وهب]

لذلك للمرأة الحق أن تظهر أمام زوجها ـ طبعاً من باب أولى ـ وأمام أبيها، وأمام ابنها، وأمام أخيها، وابن أخيها، وابن أختها، وعمّها، وخالها، وأمام النساء المؤمنات لأنهنّ لا يصفنها للأجانب، منضبطات، وأمام ما ملكت أيمانهنّ من الجواري لا من العبيد، قال تعالى:

(وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (55))

أي أن مواقف العباد بعين الله عزّ وجل تحت الفَحْص الشديد وتحت الأضواء الكاشفة.

تجلي الله عز وجل على سيدنا محمد بالأنوار والرحمات:

الآن يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56))

هذه الآية لها معانٍ كثيرة ودقيقة جداً، وقد لا يعرف الناس أبعادها الحقيقيّة، هذا الإنسان العظيم، النبي عليه الصلاة والسلام، هو المخلوق الأول، هو سيّد الخلق وحبيب الحق، هو سيّد ولد آدم، صاحب الخُلُق العظيم، صاحب المقام المحمود، واللواء المعقود، الله عزّ وجل يصلي عليه، ففي أدقّ معاني هذه الآية أنه يتجلّى عليه ؛ يتجلّى عليه بالأنوار، يتجلّى عليه بالرَحَمَات، يتجلّى عليه بما هو مسعد. الآن أي مؤمن إذا اتصل بالنبي عليه الصلاة والسلام، سواءً كان اتصالاً مباشراً في حياته، لقاءً حقيقياً، أو بعد مماته بذكره والصلاة عليه ومعرفة شمائله، هذا الاتصال الجسمي، أو الفكري، أو النفسي، الجسمي لقاء، الفكري اطلاع على شمائله صلى الله عليه وسلّم، أحياناً تقرأ عن النبي عليه الصلاة

والسلام شيئاً فتبكي، لماذا بكيت ؟ لأنه قد حصل لك تعظيم لهذا النبي، حصل لك توقير لهذا السيّد العظيم.

الاتصال الحقيقي أو اللقاء الحقيقي الذي تمّ بين أصحابه وبينه في حياته، أو الاتصال الفكري أي إذا اطلعت على شمائله، على سيرته، على سنّته، على مواقفه، على شجاعته، على عفوه، على لطفه، على كرمه، على إنصافه، على حبّه للناس، على حبّه للخلق، تتأثر، أو حصل لك أن رأيته في المنام هذا اتصال نفسي، هناك اتصال فكري قرأت سيرته، وهناك اتصال نفسي رأيته في المنام، وهناك اتصال حقيقي كنت أحد أصحابه.

من أراد نصيباً من التجلي الذي أسبغه الله على سيدنا محمد فعليه الاتصال بنفس النبي:

قيل: إنّ هذا التجلي الذي أسبغه الله تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام تجلِّي أنوار، تجلي مُسْعِد، تجلي رَحَمَات، تجلي طمأنينة، هذا التجلي تأخذ منه شيئاً، أي أن الله عزّ وجل يتجلّى على النبي عليه الصلاة والسلام، وأنتم أيها المؤمنون إذا أردتم نصيباً من هذا فاتصلوا به، لذلك جاء قوله تعالى:

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة: من آية " 103 ")

يا رسول الله إني إن رأيتك اطمأنّت نفسي، أحد أصحابه وهو سيدنا ربيعة كان يخدمه، فإذا انتهى وقت الخدمة، وسمح له النبي أن يذهب إلى البيت، يبقى على باب بيت النبي إلى أذان الفجر، ما الذي جذبه إلى النبي ؟ هذه الأنوار، ما الذي جذبه إلى النبي ؟ هذه الرَحَمَات، ما الذي جذبه إلى النبي ؟ هذه التجليّات.

عندما جيء للنبي عليه الصلاة والسلام برجل يريد قتله، فما إن دخل عليه، ابتسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال:

((يا هذا لو أردت ذلك لما سُلِّطت عليّ))

فقال الرجل: **" والله يا محمّد دخلت عليك وما رجلٌ على وجه الأرض أبغض إليّ منك، وأنا الآن ليس على وجه الأرض رجلٌ أحبُ إليّ منك "**، ما الذي حصل ؟ الذي حصل أنه صار له اتصال.

لو وجد جهاز مركز كهربائي عالي التوتّر، أي إنسان وضع سلكاً يأخذ من هذا التوتّر الشيء الكثير، هذا موضوع نفسي، هذا الموضوع متعلِّق بالصلة النفسيّة برسول الله صلى الله عليه وسلّم، فهناك سر من الصعب علينا فهمه إلا بهذا التفسير، هؤلاء الذين عاشوا معه اندفاعهم إلى التضحية شيء لا يُصدّق، لا يتصوّره عقل، أن سيدنا جعفر تُقْطَع يده اليمنى فيحمل الراية باليسرى، تقطع اليسرى

فيحملها بعَضُدَيْه إلى أن يموت في سبيل الله!! فقد رأينا من أصحاب النبي بطولات يصعب على التاريخ أن يصفها، ما هو السر ؟ السر أنهم اتصلوا بنفس النبي عليه الصلاة والسلام.

سرّ سعادة المؤمن أنه موصول برسول الله وأن له نصيب من أنوار الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56))

هذا التجلي تجلي الرحمة، تجلي الأنوار، تجلي السعادة، تجد أن المؤمن سعيد جداً، سر سعادته أنه موصول برسول الله، سر سعادته أن له نصيب من أنوار الله عزّ وجل، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام مما يؤكِّد ذلك أن أحد أصحابه واسمه حنظلة ـ والقصّة معروفة عندكم ـ مرّ به سيدنا الصديق وقال له: **" ما لك يا حنظلة تبكي؟ "**، قال: **"نافق حنظلة"**، قال: **" ولمَ يا أخي ؟ "**، قال: **" نكون مع رسول الله ونحن والجنّة كهاتين، فإذا عافسنا الأهل ننسى"**، فقال سيدنا الصديق: **" أنا كذلك يا أخي انطلق بنا إلى رسول الله"**، النبي الكريم يقول:

((إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا))

[الجامع لأحكام القرآن عن ابن عطاء]

قال عليه الصلاة والسلام:

((لَوْ تَدُومُونَ عَلَى الْحَالِ الَّذِي تَقُومُونَ بِهَا مِنْ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ فِي مَجَالِسِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَعَلَى فُرُشِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً وَسَاعَةً وَسَاعَةً))

[سنن الترمذي عَنْ حَنْظَلَةَ الْأُسَيِّدِيِّ]

هل فهمت الآن لماذا تشعر براحة في المسجد ؟!؟ يقول لك: ارتحت، كأني شحنت، إذا غاب الإنسان درساً يشعر بالوحشة.

المؤمن في قلبه نور والكافر أعمى يتخبط خبط عشواء:

الله عزّ وجل كل من يزور بيته يتجلّى على قلبه:

((إنّ بيوت الله في الأرض المساجد و إنّ حقاً على الله أن يكرم الزائر))

[أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن مسعود]

عند دخولك إلى بيت الله أنت الآن ستتلقّى من الله الإكرام، ما الإكرام ؟ فهنا لا يوجد سكرة، ولكن تشعر براحة لو وزّعت على أهل بلدٍ لكفتهم، تحس بطمأنينة، تحس بأنك تملك قراراً صحيحاً، تملك رؤية صحيحة، دائماً عندك ثلاثة أشياء في تجليات الله عزّ وجل، هناك جانب من التجلي نور ترى به

الخير خيراً والشر شراً، الصلاة نور، المصلي يملك نظراً ثاقباً، رؤية صحيحة، يعرف حقائق الأمور، أحد ثمار الصلاة النور، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول في الحديث:

((الصلاة نور))

[رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري]

والآية تقول:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد: من آية " 28 ")

هناك نور، أنت مستنير، والكافر أعمى، الكافر يتحامق، الكافر يفعل الشيء المُنْكَر، ينقل الشيء غير المنطقي، غير الواقعي، غير المألوف، لأنه أعمى يتخبط خبط عشواء قال تعالى:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ(1))

(سورة محمد)

المؤمن بصلاته على النبي الكريم يشتق من أنواره المحمدية وينطق بتوفيق الله:

المؤمن في قلبه نور، هذا النور جاءه من اتصاله بالله عزّ وجل، هذا النور جاءه من اتصاله برسول الله، هذا النور جاءه من صلاته، هذا النور جاءه من دخول بيوت الله عزّ وجل، في بيت الله، وفي الصلاة، وفي الاتصال برسول الله تأتيك هذه الأنوار.

((اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ))

[سنن الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

وينطق بتوفيق الله، قال تعالى:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

(سورة محمد)

وقال:

(فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(46))

(سورة الحج)

إذاً هذه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ (56))

أي كي تشتقوا من أنواره النبويّة المحمّدية:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة النور: من آية " 35 ")

هذه واحدة، الشيء الثاني: هناك تجلٍ أخلاقي.

تنمو في شخصية المؤمن من خلال الصلاة ثلاثة جوانب:

1 ـ الجانب الأول جانب نوراني:

أنت باتصالك بالله عزّ وجل عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام تتحلّى بمكارم الأخلاق، فالرحمة عندك ليست عملاً ذكياً مُتَكَلّفاً، قد تجد إنساناً ذكياً جداً يعمل عملاً فيه رحمة ولكن قلبه قاسٍ، لكنه ذكي أراد انتزاع إعجاب الآخرين، أما إذا اتصلت بالله اتصالاً حقيقياً يمتلئ قلبك بالرحمة، والقلب الرحيم أقرب قلبٍ إلى الله عزّ وجل.

2 ـ الجانب الثاني جانب أخلاقي:

الآن توجد عندنا غير الأنوار اتصال وكمال، فالمؤمن كامل، منضبط، ليس انضباطه لرادعٍ خارجي بل بوازعٍ داخلي، هذا الفرق الدقيق، لو أقمنا أجهزة مراقبة دقيقة جداً ضبطت الأمور، هذا كلّه ردع خارجي، أوروبا قائمة على رادع خارجي، لكن المؤمنين انضباطهم داخلي بوازع داخلي بسبب اتصالهم بالله عزّ وجل، هذا الاتصال بالله عن طريق رسول الله، وعن طريق مجالس العلم، هذا الاتصال ينمّي عندهم مكارم الأخلاق، المؤمن أخلاقي، منصف، يقول الحق ولو على نفسه، متواضع دائماً، كريم، لطيف، خجول، حَيي، شجاع في مواقف، قوي لا يهاب أحداً، هذه كلها مكارم أخلاقيّة جاءته من اتصاله بالله عن طريق رسول الله، ومن حضور مجالس العلم.

الجانب الأول جانب نوراني، والجانب الثاني جانب أخلاقي.

3 ـ الجانب الثالث جانب جمالي:

المؤمن سعيد، سعيد بكل ما في الكلمة من معنى، تعيش مع مؤمن حياته خشنة أموره كلها وسط ودون الوسط، تأنس بالجلوس معه، ترتاح له، وقد تدخل إلى بيت فيه من التحف ما لا يوصف، تجد فيه انقباض، فما هو السر ؟ السر أن هذا المؤمن باتصاله بالله عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام، أو بحضوره مجالس العلم، يشتقُّ من أنوار الله جانباً جمالياً، فتجد عنده سعادة، هذا الذي أتمنّى أن يكون واضحاً عندكم، فهناك جانب علمي نوراني، وجانب أخلاقي، وجانب جمالي، فشخصية المؤمن، وهذه الجوانب الثلاثة نمت من خلال الصلاة، لذلك:

((الصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين))

[رواه الطبراني عن معاذ]

((لا خير في دينٍ لا صلاة فيه.))

[تخريج أحاديث الإحياء]

الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، وسيدة القربات، وغرّة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى ربِّ الأرض والسماوات، هذه:

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56))

هو قدوتكم، إن كنتم في حياته فاتصلوا به، وإن كنتم بعد مماته فاقرءوا سيرته، اقرءوا شمائله، وإن زاد حبُّكم له كثيراً ترونه في منامكم:

((مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثَّلُ بي.))

[صحيح مسلم عن أبي هريرة]

اسألوا الذي رأى النبيّ في المنام يبقى أشهراً وهو مغموسٌ في سعادة لا توصف فكيف الذين عاشوا معه في حياته؟؟!

كل إنسانٍ بإيذائه رسول الله كأنّما يؤذي الله عزّ وجل فهو ملعون في الدنيا والآخرة:

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56))

الله لا يؤذى، خالق الكون، لكن هذا من عِظَم مقام النبي على الله عزّ وجل، أي يا عبادي الذي يؤذي النبي فكأنّما آذاني:

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ (57))

ملعون لا بالمعنى المألوف العامي: بمعنى ذكي، فلان ملعون أي ذكي، لا، هنا ملعون أي بعيدٌ عن الله عزّ وجل، مطرودٌ من رحمة الله، تجد قلبه قاسياً، وجهه متجهّماً، نفسه متصحِّرة، ليس عنده حياة أبداً، ليس عنده حياة أخلاقيّة، ولا حياة روحيّة، ولا إحساس بالجمال، ولا إحساس بالرحمة، أي أن قلبه قُدّ من صخر، فلان ملعون: أي بعيد عن الله، فكل إنسانٍ يؤذي رسول الله، وبإيذائه رسول الله فكأنّما يؤذي الله عزّ وجل، قال:

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ (57))

في الدنيا ملعون، وفي الآخرة ملعون.

العذاب أصناف ؛ عذاب عظيم، وعذاب أليم، وعذاب مهين:

قال تعالى:

(وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57))

العذاب أصناف ؛ عذاب عظيم، وعذاب أليم، وعذاب مهين، العذاب العظيم جهنّم، أما العذاب الأليم فهو آلام لا تحتمل في الدنيا، الإنسان في بيته قاعد، أغلق عليه غرفته وآلام أحشائه لا تحتمل، وهناك عذاب مهين أمام الناس، على مرأى من جمع غفير من الناس يُهان، يُطلق عليه السباب، الشتائم، يُضرَب، يُذل، فكل إنسان آذى الله ورسوله:

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57))

في الدنيا والآخرة، عذاب مهين، لذلك بقدر ما تحبُّ الله ورسوله بقدر ما يحبُّك الناس، توقِر الله ورسوله يوقِرك الناس، تهاب الله ورسوله يهابك الناس، تشتغل بالله ورسوله يشتغل بك الناس، يرفع الله لك ذكرك، فهي علاقة رياضيّة ثابتة.

((فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

سعادة الدنيا والآخرة تكون بحبِّ الله ورسوله لا بإيذائهما:

هل أنت شغلك الشاغل أن تُعَرِّف الناس بالله ؟

ربنا عزّ وجل يكافئك بأن يرفع لك ذكرك، يرفع لك شأنك، يلقي حبّك في قلوب الناس ؛ وبالعكس، الذي يؤذي الله ورسوله، هذا ملعون في الدنيا والآخرة، وله في الآخرة عذاب مهين:

(وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57))

في الدنيا والآخرة، فإذا أردت رفعة الدنيا والآخرة، وسعادة الدنيا والآخرة، ورفعة الشأن في الدنيا والآخرة، فكن ممن يحبُّ الله ورسوله ؛ لا ممن يؤذي الله ورسوله، أحياناً بتعليقات ساخرة إنسان يسخر من الدين كله، إذا قال لك: الدين ضعف الإنسان أمام قِوى مجهولة، فأنت بهذا قد سخرت من الدين كله، جعلت الدين شعوراً مرضياً للإنسان، أحياناً يقول: القرآن ليس لهذا الزمان، أنت بهذا آذيت الله ورسوله، إنسان يستفيد الناس منه طعنت بنواياه الطيّبة بقولك: له مصلحة، فالذي كان مستفيداً ابتعد، ماذا فعلت ؟ أنت قطعت ما أمر الله به أن يوصل وأفسدت العلاقة في الأرض:

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (57) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا (58))

مؤمن برئ، شيء لم يفعله، كلمةٌ ما قالها، موقفٌ ما وقفه، هناك أشخاص جلُّ همّهم أن يشوّهوا سمعة المؤمنين، هؤلاء:

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (58))

احتمل مسؤوليّة كبيرة جداً، واقترف إفكاً، وافتراءً، وكذباً، وإثماً واضحاً لا بدّ من تحمُّل مسؤوليته.

كل إنسان يؤذي مؤمناً بتشويه سمعته تَحَمّل تَبِعَة ذنب خطير وهو البهتان:

أيها الأخوة، إذا أردت أن تعيش سليماً اضبط لسانك، أحياناً تعليقات، أحياناً نقد لاذع، أحياناً تطاول، أحياناً نقل قصّة لست متأكِّداً منها، جاءك فاسقٌ بنبأٍ، لم تتثبّت بقول هذا الفاسق، نقلت رواية شوّهت بها سمعة إنسان، ما باليت، أفسدت علاقة بين اثنين، شوّهت سمعة مؤمنةٍ:

((قذف محصنةٍ يهدم عمل مئة سنة.))

[ورد في الأثر]

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا (58))

ليس له ذنب، أحياناً امرأة مؤمنة طاهرة تتهمها من دون دليل، من دون برهان، من دون يقين، رجل مؤمن صادق، له عمل طيب، تقول عنه: له نوايا خبيثة، له مقاصد، أنا أعرفه، من أجل ماذا تقول هذا الكلام ؟ هذا يحدث دائماً، أحياناً يكون طالب معجب بأستاذه، الأب بسذاجة يقول: هذا لا يفهم شيئاً، فهذا أستاذ ابنك، الابن جلس معه ست ساعات، والابن معجب بأستاذه، أنت لكي تُظْهر أمام أسرتك أنك أفهم منه: لا يفهم شيئاً، أنت بهذا ماذا فعلت ؟ أنت ضعضعت الثقة، قطّعت العلاقة، هذا موقف غير حكيم، فكل إنسان يؤذي مؤمناً بتشويه سمعته، بحديث غير صحيح عنه، فهذا:

(وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا)

تَحَمّل تَبِعَة ذنب خطير وهو البهتان:

(وَإِثْمًا مُبِينًا (58))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (15-18): تفسير الآيات 59 - 63

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-01-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من سورة الأحزاب.

الآية التالية هي أول آيةٍ نزلت في الحجاب:

وصلنا في الدرس الماضي في سورة الأحزاب إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(59))

(سورة الأحزاب)

أيها الأخوة الأكارم، هذه أول آيةٍ نزلت في الحجاب، الحجاب نزل على ثلاث مراحل ؛ المرحلة الأولى أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بسترِ العورات، والمرحلة الثانية أمر الله سبحانه وتعلى المؤمنات بالحجاب ـ وفي سورة النور جاءت الآيات تبيّن كمال الحجاب ـ نحن الآن في سورة الأحزاب، فالله سبحانه وتعالى يخاطب النبي، وحينما يقول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ (59))

لأنهن القدوة، وما لم تكن للمؤمنين قدوة فلن يفلحوا، أزواج النبي عليه الصلاة والسلام، وبنات النبي عليه الصلاة والسلام يجب أن يكن قدوةً لنساء المؤمنين، والنبي كما تعلمون له مهمتان ؛ مهمة التبليغ، ومهمة القدوة، فالتبليغ وحده لا يكفي إن لم تكن القدوة الحسنة، والسيرة الصالحة، والمثل الأعلى، والأسوة التي يتأسّى بها المؤمنون.

الدعوة إلى الله تقوم على القدوة والبيان:

قد يقول قائل: إن هذه الآيات نزلت في نساء النبي وبنات النبي فما بال بقية النساء ؟ فإذا كانت نساء النبي وهن المطهرات عن السفاح، والمحرّمات على المؤمنين بالنكاح، وهن اللاتي وصفن بالقرآن الكريم بأنهن أمهات المؤمنين، إذا أمرن بالحجاب فنساء المؤمنين من باب أولى، وهذه قاعدة أصولية، ولكن الله سبحانه وتعالى دفعاً لهذا القيل والقال، ودفعاً لهذا الالتباس نصّ في هذه الآية على أن الأمر بالحجاب عامٌ مطلق، فقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ (59))

بقوله تعالى:

(وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ (59))

أية شبهةٍ متعلقةٍ بأن هذه الآية نزلت في نساء النبي تُرَدُّ بهذا النص الدقيق، على كلٍ لو أن الآيات نزلت في حق نساء النبي وفي حق بنات النبي فقط، فلأن يَشْمَلْنَ عامة المؤمنات من باب أولى، هذه قاعدة، وقاعدة أخرى: أنه دائماً خصوص السبب لا يلغي عموم اللفظ.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ (59))

سيدنا عمر كما تعلمون كان إذا أمر الناس بأمرٍ جمع أهله وخاصته وقال: **" إني قد أمرت الناس بكذا، ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير إن رأوكم وقعتم وقعوا، وأيم الله لأوتين بواحدٍ وقع فيما نهيت الناس عنه، إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني ".**

هذا أثر القدوة، وقد بينت لكم من قبل أن الله سبحانه وتعالى تولى بنفسه تطهير أهل بيت النبي، لِعِظَمِ خطورة أهل بيت النبي في حقل الدعوة، فالدعوة إلى الله تقوم على القدوة وعلى البيان، البيان تولاّه النبي ؛ لكن القدوة يجب أن تكون في شخصه، وفي أهل بيته، وفي نسائه، وفي بناته.

الإدناء هو التقريب وفي هذه الآية مُضَمّنٌ لمعنى الإرخاء والإسدال بـ (على):

الحقيقة موضوع الدين لا يتعلق برأي زيدٍ أو عُبيد، الإنسان أحياناً يتمنى أن يكون الحكم هكذا، أو يتمنى أن يكون الحكم هكذا، الحقيقة نحن مع الدين ليس لنا رأيٌ شخصيٌ أبداً، وما قيمة الرأي الشخصي في منهج الله عزّ وجل ؟! ما قيمة الرأي الشخصي في منهج الله ؟! فنحن نتقصى الحكم الشرعي في هذا الموضوع، وما أجمع عليه العلماء الأجلاء، وما ورد في كتب التفسير، وما جاء به الصحابة الكرام، على كلٍ نبدأ بتفسير هذه الآية كلمةً كلمة، قال الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ (59))

الإدناء هو التقريب، فلان دنا من فلان، أي اقترب منه، أدناه قرّبَهُ، دنا لازم، أما أدنى مُتَعَدٍّ، فالإدناء إذاً هو التقريب، لكن أدنيت هذا الشيء إلى هذا الشيء، فالإدناء يتعلّق بكلمة (إلى)، أما إذا تعلق بكلمة (على) فهو في معنى الإرخاء والإسدال، الفكرة دقيقة إذا قصدنا الإدناء أي التقريب فالإدناء يتعلق بـ (إلى)، أدنيت هذا الكتاب إلى هذه الطاولة، أما إذا عَدّيْتُ الإدناء بـ (على) فضُمِّنَ معنى الإرخاء والإسدال، لأن أرخيته على، وأسدلت على، فلذلك ما دام فعل الإدناء هنا متعدياً بـ (على) فهو يفيد الإرخاء ويفيد الإسدال، هذا أول استنباطٍ لغوي من هذه الآية، فالإدناء هو التقريب، والإدناء هنا في هذه الآية مُضَمّنٌ لمعنى الإرخاء والإسدال بـ (على) لأنه تعدى بـ (على).

ويقال: إذا زَلّ الثوب عن وجه المرأة، إذا زل أي انزلق الثوب عن وجه المرأة يقال لها: أدن ثوبكِ على وجهكِ، ما دام أدن ثوبك على وجهكِ أي أرخ ثوبكِ على وجهكِ، هذا كله مستفاد من كلمة على، لأن أدنى إلى وأسدل على، أي أرخيه وأسدليه.

المقصود بالجلباب أي رداءٌ فَضْفَاضٌ واسعٌ يستر بدن المرأة كله:

إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ (59))

الإدناء هنا بمعنى الإرخاء والإسدال، لماذا ؟ لأن نساء الجاهلية كُنّ يضعن على رؤوسِهنّ الخُمُر، ويسدلنها ـ أي يرخينها ـ إلى وراء ظهورهن، الأمر بالعكس، جاء الأمر أن يدنين عليهن من جلابيبهن، المعنى الثاني:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ (59))

معنى الجلباب، الجلابيب جمع جلباب، والجلباب هو الثوب الذي تستتر به المرأة، أو تستر به المرأة بدنها كله من فوق ثيابها التي تستر عورتها، فهناك ثوبٌ يستر أعضاء المرأة، وهناك ثوبٌ يستر زينة المرأة، وأما الجلباب فهو الذي يستر بدن المرأة كله، الجلباب فيما أجمع عليه العلماء: الثوب الذي تضعه المرأة فوق ثيابها، إذا كانت ثيابها تستر أعضاءها وأماكن الزينة فيها، فإن الجلباب رداءٌ فَضْفَاضٌ واسعٌ يستر بدن المرأة كله، من فرقها إلى قدمها، هذا معنى قوله عزّ وجل:

(يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ (59))

الإمام الطبري في تفسيره، روى عن ابن سيرين أنه قال:**سألت عبيدة السلماني عن هذه الآية، فرفع ملحفة كانت عليه فتقنع بها، وغطى بها رأسه كله حتى بلغ الحاجبين، وغطى وجهه وأخرج عينه اليسرى من شِقّ وجهه الأيسر. وروى مثل ذلك ابن عباسٍ رضي الله عنه.**

هذا تفسير العلماء لهذه الآية، مرةً ثانية أقول لكم: لا قيمة للرأي الشخصي في هذا الموضوع، هذا دين، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[مسلم عن ابن سيرين]

من أوجه التفسير لهذه الآية أن المرأة إذا بالغت في التحجُّب والتَّصَوّن قطعت كل طمع فيها:

أخرج عبد الرزاق وجماعةٍ عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية:

(يُدْنِينَ عَلَيْهِنّ مِنْ جَلَابِيبِهِنّ (59))

خرج نساءٌ من الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان، من أكسيةٍ سودٍ يلبسنها، أي فهم الناس في عهد النبي هذه الآية ستر الوجه والرأس معاً، أما قول الله عزّ وجل

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ (59))

من أوجه التفاسير لهذه الآية ما نقله ابن حبان أن الله عزّ وجل حينما قال:

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ (59))

أن يعرفن بالعفة والتَصَوُّن، فلا يتعرض لهن الفُسّاقُ ولا الفُجّار وهذه قاعدة وهي: أن المرأة إذا بالغت في التحجُّب والتَصَوُّن قطعت كل طمعٍ فيها، فإذا قال الله عزّ وجل:

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ (59))

أي أن يعرفن بالعفة والتصون، ما دامت هذه المرأة لا يرى منها شيء، إذاً ؛ إنها تعلن للناس أنها عفيفةٌ، أنها حصانٌ، أنها مُعْرِضَةٌ عن كل رغبةٍ فيها إلا الذي أباحه الله لها.

هذه الآية من آيات الأحكام وهذه الآيات دقيقةٌ جداً:

طبعاً هذه الآية من آيات الأحكام، وآيات الأحكام دقيقةٌ جداً، وتُدَرّس هذه الآيات في كتبٍ مستقلة، ومن أرقى كتب آيات الأحكام جاءت هذه الحقائق في كتاب: تفسير آيات الأحكام.

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ (59))

متى تؤذى المرأة ؟ الجواب: إذا ظهرت مفاتنها، متى تؤذى المرأة ؟ إذا أبدت ما يجب أن تخفيه، حينما تبدي المرأة ما يجب أن تخفيه إنها تعلن بشكلٍ أو بآخر أنها ترغب في الرجال، أما إذا سَتَرَت ما أمر الله به أن يُستر، فهي تعلن أيضاً أنها عفيفةٌ حَصَان، فلذلك قول الله عزّ وجل:

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ (59))

يعرفن أنّهُنّ عفيفاتٌ طاهرات، وأنهن لا يبغين إلا ما أمر الله عزّ وجل:

(فَلَا يُؤْذَيْنَ (59))

الآن هناك آراءٌ لبعض العلماء في هذه الآية ؛ ابن عباسٍ رضي الله عنهما يقول: **أمر الله نساء المؤمنين أن يُغطِّيَن رؤوسهن ووجوهَهنّ**، بالنص الدقيق، أما معنى قول الله عزّ وجل:

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ (59))

أي هذا هو الحد الأدنى، أي إذا تحجبت المرأة فهذا هو الحد الأدنى في إيمانها وليس الحد الأقصى، الحد الأقصى عِلمها، الحد الأقصى أعمالها الطيّبة، الحد الأقصى خدمتها لزوجها، الحد الأقصى

رعايتها لأولادها، أما ألا تؤذي عباد الله في الطريق فهذا هو الحد الأدنى، أي هذا أقل شيء يُعْرَفْنَ به صالحاتٍ عفيفاتٍ طاهرات، مع أن الصلاح والعفاف والطهر أكبر من الحجاب ؛ نفسٌ طيبةٌ، نفسٌ مطواعةٌ، نفسٌ متواضعة، نفسٌ منصفةٌ، تخدم زوجها ابتغاء مرضاة الله، هناك صفاتٌ تعلو بالمرأة عن الحجاب، ولكن الحجاب هو الحد الأدنى، هذه هويتها، ما دامت قد أخفت زينتها عن الأجانب فهي تعلن أنها مسلمة، أنها عبدةٌ من عباد الله، أنها تأتمر بما أمر الله وتنتهي عما نهى الله.

إذا ترك الحجاب إنكاراً لفرضيته فهذا كفرٌ وإذا ترك تقليداً للأجانب فهذا فسقٌ وفجور:

الحقيقة قد يكون إيمان الرجل في قلبه، لكن المرأة إيمانها ظاهر وباطن معاً، إيمانها في حجابها، فإذا بَرَزَتْ للرجال من دون حرج، واختلطت مع الرجال فكأنها تتخلى عن هويتها، وكأنها تتخلى عن شخصيتها المسلمة، وكأنها تُعْلِن أنها لا تأتمر بأمر الله.

القرآن الكريم أمر بستر العورات، ثم أمر بالحجاب، ثم أمر بغض البصر، وعدم إبداء الزينة إلا لرجالٍ جاء ذكرهن في سورة النور، الأمر بستر العورات أولاً، ثم الأمر بحجاب النساء المؤمنات ثانياً، ثم الأمر بغض البصر وعدم إبداء الزينة للأجانب ثالثاً، فكأن هذه الآية جاءت في الوسط، وكأن الله سبحانه وتعالى دَرّجَ أحكام الحجاب بحسب الظروف وبحسب تطور الدعوة الإسلامية.

الملاحظة الدقيقة أن المرأة التي تترك الحجاب إنكاراً له، إنكاراً لفرضيَّتِهِ فقد كفرت، وإذا تركته تقليداً للأجانب فقد فسقت وعصت، لكن المرأة المؤمنة تعتقد بوجوبه وتلتزمه، إذا ترك الحجاب إنكاراً لفرضيته فهذا كفرٌ، وإذا ترك الحجاب تقليداً للأجانب فهذا فسقٌ وفجور، أما حينما تطبق المرأة أمر الله عزّ وجل وتحتجب فهذا هو الحد الأدنى في إيمانها، فلذلك هناك حالة من الحالات وأنا أقول عنها ـ هي حالة مرضية أحياناً ـ هي: أن المرأة إذا تخلت عن حجابها أرادت التعويض، أي بالغت بأشياء كثيرة، هذه المبالغة لإحساسها بالخلل، ولإحساسها بالنقص في شخصيتها، فإذا بالغت في أشياء شكلية من أمور الدين وهي قد خرجت سافرة، فهذه المبالغة نوعٌ من أنواع التعويض الذي يرمم الخلل الذي أحدثه ترك الحجاب في شخصيتها.

الحقيقة كما قلت لكم سابقاً: إن المؤمنين يخاطبون دائماً بفروع الدين ؛ بينما الكفار وعامة الناس يخاطبون بأصول الدين، أنت أيها الإنسان، وأنتِ أيتها الإنسانة، ما دمتِ قد آمنتِ بالله خالقاً، ومربياً، ومسيراً، وما دمتِ قد أعلنتِ عن عبوديتكِ لله عزّ وجل، فالحد الأدنى من عبوديتكِ لله عزّ وجل أن تأتمري بأمر الله عز وجل، فلا تؤذّين ولا تؤذِين، فحينما تبرز المرأة مفاتنها للناس في الطريق، ماذا

فعلت ؟ آذت عباد الله بكل أصنافهم، وحينما تؤذيهم يؤذونها، فهناك أذى متبادل، إنها تؤذي عباد الله بمفاتنها، ويؤذونها بتعليقاتهم، وبتصرُّفاتهم، وبالتحرشات التي يفعلونها معها.

السياسة الشرعية و التكليف الشرعي:

إذاً:

(فَلَا يُؤْذَيْنَ (59))

لا تؤذي ولا تؤذَى، لكن المرأة التي ليست مؤمنة لو عاشت في مجتمع مؤمن إنها تؤمر بالحجاب، لا لأنها مكلفة به ؛ بل لأن السياسة الشرعية تقتضي ذلك، ففي المجتمع المسلم لا نسمح لامرأةٍ كافرةٍ أن تبرز مفاتنها للناس، فتؤذي شباب المسلمين، إذاً حينما تؤمر المرأة المؤمنة بالحجاب هذا أمر تكليف، وحينما تؤمر الكافرة بالحجاب فهذا أمر من نوع السياسة الشرعية، أي أن أولي الأمر المؤمنين يرون أنه صوناً للمجتمع المسلم لا ينبغي لامرأةٍ كافرة أن تبرز مفاتنها للناس، وأي مجتمعٍ يطبق الإسلام تطبيقاً دقيقاً يفرض على كل الأجنبيّات، وعلى كل النساء غير المسلمات اللاتي في البلد، أن يأخذن بالحجاب من باب السياسة الشرعية لا من باب التكليف الشرعي.

فهناك تكليف، إذاً هناك أمر تكليفي، وهناك أمر سياسي، صوناً للمجتمع المسلم لا نسمح لامرأةٍ كافرةٍ في المجتمع المسلم أن تبرز، وأن تفتن، وأن تصرف الناس عما خلقوا له من معرفة الله عزّ وجل وطاعته.

شيءٌ آخر، لو أمرنا فتاةً في سن العاشرة بالحجاب في سنٍ مبكرةٍ، فهذا ليس أمراً تكليفياً بل اسمه أمرٌ تأديبي، كيف أن الطفل الصغير يؤمر بالصيام ؟ هل يعقل أن يدع الصيام إلى أن يبلغ، فإذا بلغ أمر به؟! قد لا يطيقه، لا بدّ من أن يؤمر به تأديباً، حتى إذا بلغ سن التكليف رأى نفسه مُرتاحاً في الصيام، كذلك الفتاة الصغيرة يجب أن تؤمر بالحجاب لا على أنها مكلفةٌ به ؛ بل على أن هذا أمرٌ تأديبيٌ يجب أن تألَفَهُ الفتاة الصغيرة، حتى إذا أصبحت مشتهاةً كان الحجاب بالنسبة إليها شيئاً عادياً، هذا توجيهٌ للآباء، أي أن الطفلة الصغيرة إذا تعلمت قواعد الأدب، وإذا تعلّمت أصول التعامل، وإذا تعلمت أن تستر ما ينبغي أن يستر، حينما تكبر وهي في سنٍ صغيرة فهذا من باب التأدب من آداب الإسلام.

أقوال العلماء في الحجاب:

أكثر العلماء في هذه الآية يتحدثون عن ما فهموه منها، فابن الجوزي يقول: يغطون رؤوسهن ووجوهَهُنّ.

أبو حيان يقول: أمر الحجاب شاملٌ لجميع النساء، ولجميع بدن المرأة، وينبغي أن يُغَطّي الحجاب وجهها.

أبو السعود يقول: يغطين بها وجوههن وأبدانهن إذا برزن لداعيةٍ من الدواعي. أي إذا خرجن في الطريق لأمرٍ مشروع.

والسُدِّي يقول: تغطي المرأة إحدى عينيها.

هذه بعض أقوال العلماء في شأن هذه الآية، لكن اتفق العلماء على أن للحجاب الشرعي ستة شروط:

1 ـ الشرط الأول أن يكون الحجاب ساتراً لجميع بدن المرأة:

الشرط الأول: أن يكون الحجاب ساتراً لجميع بدن المرأة، أي أن تستر عضواً وأن تبرز عضواً أن تقول: هذا عورة، وهذا ليس بعورة، إتباعاً للهوى، أو إرضاءً للمجتمع، أو إرضاءً للزوج تستر شيئاً وتخفي شيئاً، تبرز شيئاً، هذا شيء ليس من صفات المرأة المسلمة، الحجاب يجب أن يكون ساتراً لجميع بدن المرأة.

2 ـ الشرط الثاني أن يكون الحجاب كثيفاً غير رقيق:

الشيء الآخر: أن يكون الحجاب كثيفاً غير رقيق، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما وصف النساء الكاسيات العاريات، فكيف نفهم هذا الحديث ؟ كيف أنها كاسيةٌ عارية ؟ أي هو عليها ثوب ولكنه يشفُّ عما تحته، الثياب الرقيقة ليست من الحجاب في شيء، فأحياناً تغطي المرأة وجهها بحجابٍ رقيقٍ جداً، هذا الحجاب الرقيق يخفي العيوب ويبرز المفاتن، فالشيء الشفّاف الرقيق جداً هذا ليس حجاباً قولاً واحداً، أول شرط أن يكون ساتراً لجميع بدن المرأة، والشرط الثاني أن يكون الحجاب كثيفاً غير رقيق.

3 ـ الشرط الثالث ألا يكون الحجاب زينة في نفسه:

الشرط الثالث: ألا يكون الحجاب زينة في نفسه، أي أن المِعْطَف الملوّن، المزركش، المطرّز، ألوان فاقعة، ألوان وهّاجة، ألوان برّاقة، هذا إذا كان الثوب الخارجي زينةً في نفسه فهذا مما نهى عنه العلماء، لأنه ماذا يحدث ؟ يلتفت الناس إلى ثوبها أولاً ثم إليها ثانياً، كأنها تلفت النظر إليها، فهناك نساءٌ يضعن على رؤوسهن شيء مطرّز، وشيء محبوك، وفيه ألوان، فالألوان والتطريز الذي على الحجاب هذا يُلفت النظر إلى الحجاب أولاً، فإذا نظر الرجل إلى الحجاب تابع النظر إلى صاحبة الحجاب،

فالثوب يجب أن يستر كل بدن المرأة أولاً، وأن يكون كثيفاً غير رقيقٍ ثانياً، وألا يكون زينةً في نفسه، والدليل قول الله عزّ وجل:

(وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

(سورة النور: من آية " 31 ")

الزينة التي يمكن للمرأة أن تظهرها أو أن لا تظهرها يجب أن لا تظهرها، إذا كان شيء ضمن إمكان المرأة، أما الشيء الذي يبدو من دون إرادتها كأن تكون طويلة مثلاً فطولها ليس في إمكانها إخفاؤه، لذلك قال الله عزّ وجل:

(إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

(سورة النور: من آية " 31 ")

أما الشيء الذي يمكن أن تخفيه المرأة يجب أن يُخْفَى، لو أن الله عزّ وجل قال: إلا ما أظهرن منها، صار أظهرن شيئاً وأخفين شيئاً، أما:

(إلا مَا ظَهَرَ)

(سورة النور: من آية " 31 ")

ظهر تعني قوامها، تعني طولها، تعني امتلاؤها، أما الوجه بإمكانها أن تظهره وبإمكانها أن تخفيه، إذاً الآية الكريمة:

(إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

(سورة النور: من آية " 31 ")

ولم يقل الله عزّ وجل: إلا ما أظهرن منها:

(إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

(سورة النور: من آية " 31 ")

الشرط الأول: أن يكون ساتراً لجميع بدن المرأة، والشرط الثاني أن يكون كثيفاً غير رقيق، فالثياب الرقيقة تشفُّ عما تحتها، وهذه ليست حجاباً ؛ بل هي فتنة كما يقال.

النبي عليه الصلاة والسلام حينما حدثنا عن آخر الزمان، عن نساءٍ كاسياتٍ عاريات، مائلاتٍ مميلات، على رؤوسهن كأسنمة البخت، فالعنوهن لأنهن ملعونات.

4 ـ الشرط الرابع أن يكون الحجاب فضفاضاً غير ضيّق:

الصفة الأولى في هذه المرأة أن ثيابها رقيقة، وألا يكون الثوب كما قلت: زينة في نفسه، أن يكون فضفاضاً غير ضيّق، لأن الثوب يشف عن العورة بحالتين ؛ إذا كان رقيقاً يشف عن لون العورة، وإذا كان ضيقاً يشف عن حجمها، فأي ثوبٍ يشف عن حجم العضو أو عن لونه فهذا ليس حجاباً وليس ثوباً

شرعياً، ولا ينبغي للمرأة أن ترتديه في الطريق، فالثياب الضيقة في حد ذاتها ثياب محرمة، لأنها تصف خطوط جسم المرأة، أما الثياب الفضفاضة لماذا أمر الشارع بها ؟ لأنها تخفي ملامح الجسم، وتخفي خطوطه الخارجية، فأن يكون الحجاب غير رقيق، ألا يكون زينة في نفسه، أن يكون فضفاضاً ليس ضيقاً.

5 ـ الشرط الخامس ألا يكون الثوب مُعَطّراً:

الشرط الخامس: ألا يكون الثوب مُعَطّراً لقول النبي عليه الصلاة السلام:

((أيما امرأة استعطرت، فمرت على قوم ليجدوا من ريحها فهي زانية))

[سنن النسائي عن أبي موسى الأشعري]

كل أنواع العطور النسائية التي تستعمل في الطريق، هذه تصف النساء بأنهن زانيات، لأنها بهذا العِطر تريد لفت النظر إليها، تريد أن ينقاد إليها الشباب، والرجال، وهذا درجة في المعصية كبيرة جداً.

6 ـ الشرط السادس ألا يكون الثوب فيه تشَبُّهٌ بالرجال:

الشرط السادس: ألا يكون الثوب ثوباً فيه تشبُّه بالرجال، ثوب المرأة إذا كان مشبهاً لثوب الرجل فأيضاً محرّم، فإذا ارتدى الرجال السروال لا ينبغي للنساء أن يفعلن ذلك لأنه تشبهٌ بالرجال.

الحجاب الذي فرضه الله على المرأة ليس حرماناً لكنه تكريمٌ وتشريف:

إذاً لا ثوباً ضيقاً، ولا ثوباً رقيقاً، ولا ثوباً مُنْحَسِراً، وليس زينةً في نفسه، وليس معطراً، ولا يشبه ثوب الرجال، ستة شروطٍ لثياب المرأة المسلمة، فثياب المرأة المسلمة متعلقة في دينها، لأنها قد جعلها الله سكناً لزوجها، فحينما تبرز مفاتنها لغير زوجها فقد تجاوزت حدود الله عزّ وجل، وقد خرجت عن طاعته، وأفسدت وفسدت، وآذت وأوذيت.

يجب أن تعلم المرأة علم اليقين أن الحجاب الذي فرضه الله عليها ليس تضييقاً ولا حرماناً ؛ ولكنه تكريمٌ وتشريف، هناك نقطة مهمة جداً ربنا عزّ وجل قال:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(24))

(سورة سبأ)

في هذه الآية دقةٌ في النظم بالغة، هو أن الهدى جاء قبله على ـ على هدى ـ وأن الضلال جاء قبله ـ في ـ فما حكمة أن يأتي الهدى مسبوقاً بـ (على) في أكثر آيات القرآن:

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

(سورة البقرة: من آية " 5 ")

هؤلاء في ضلالٍ مبين، ما حكمة أن يأتي الهدى مسبوقاً بـ (على)، وأن يأتي الضلال مسبوقاً بـ (في) ؟

الحقيقة توجد حكمة بالغة هي:

أن الهدى يرفعك لأن على تفيد الاستعلاء، الهدى يرفعك المعنى الأول، وأنت أعظم من الهدى، المهتدي أعظم من الهدى، الهدى يرفعك يرفع شأنك، يرفع مقامك عند الناس وعند الله، يجعل خطّك البياني صاعداً صعوداً مستمراً، هذا الهدى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123)وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124))

(سورة طه)

النفس المؤمنة طليقة بينما النفس الكافرة مقيدة وأسيرة:

الهدى يرفعك، وأنت فوق الهدى، بمعنى أن الإنسان إذا اهتدى إلى الله فهو مُكَرّمٌ عند الله تكريماً عظيماً، لقولهم فاعل الخير خيرٌ من الخير، وفاعل الشر شرٌ من الشر.

أي أنك إذا عرفت الله واهتديت إليه، الهدى رفعك إلى مقامٍ عَلِيّ:

(وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا(57))

(سورة مريم)

الهدى حررك من العبودية لغير الله عزّ وجل، الهدى أشعرك بالطمأنينة، الهدى أشعرك بالتوازن، الهدى أشعرك بالثقة بالله عزّ وجل، الهدى نفى عنك القلق، نفى عنك الخوف، نفى عنك الحزن، نفى عنك الضياع، نفى عنك اختلال التوازن، وهذه كلها أمراض، إذاً جاء الهدى مسبوقاً بـ (على).

أما في، هذا الإنسان إذا عصى الله عزّ وجل يبدو للناس أنه حرٌ طليق، ولكنه دخل في دوامة العقاب، فيرتكب خطأً فيصبح أسير خطئه:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنْ الْمُجْرِمِينَ (41))

(سورة المدثر)

النفس المؤمنة طليقة ؛ بينما النفس الكافرة مقيدة، حبيسة، أسيرة، أسيرة ذنبها، وانحرافها، وخطئها، إذاً:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ (59))

معنى يدنين عليهن، أي يرخين عليهن:

(مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ (59))

هذا الثوب الواسع الفضفاض الذي يستر المرأة كلها.

بعض المعاني المستفادة من آية الحجاب الأولى:

قال تعالى:

(ذَلِكَ أَدْنَى (59))

هذا هو الحد الأدنى في المرأة المسلمة، هذه هويتها الظاهرة، لكن هويتها الباطنة ؛ علمها، وفقهها، وإخلاصها لزوجها، وحَدَبُهَا على أطفالها، ذلك أدنى أن يعرفن بالصلاح، وبالعِفّة، وبالطهر:

(فَلَا يُؤْذَيْنَ (59))

من قبل الفُسّاق، وكأن الله عزّ وجل أشار بهذه الآية إلى أن أية امرأةٍ تبرز مفاتنها للناس كأنها تنتظر أن يوقع الأذى بها، كأنها تدعو الناس إلى أن يؤذوها، تدعو الشباب إلى أن يسمعوها الكلمات المقذعة، تدعو الرجال إلى أن يرمقوها بنظرةٍ شهوانية، يحرجونها، ما دامت قد سَفَرَت وأظهرت ما يجب أن تخفيه فكأنما تدعو الناس إلى إيذائها.

(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا (59))

لما سلف:

(رَحِيمًا (59))

بكم في شأن هذه الآية، هذه بعض المعاني المستفادة من آية الحجاب الأولى.

أعيد عليكم مرةً ثانية من باب التوضيح والترسيخ شروط الحجاب: ألا ينحسر الثوب عن بعض أعضاء المرأة، وأن يكون كثيفاً، وأن يكون فضفاضاً، وألا يكون زينة في نفسه، وألا يكون معطراً، وألا يكون مشبهاً بثياب الرجال، ستة شروطٍ يجب أن تأخذ بها المرأة المسلمة.

كلما كانت المرأة مرموقة في عين زوجها كلما كانت أرضى لله عز وجل:

أما إذا لبست ما يروق لها لزوجها فهذا شيءٌ لا علاقة له بالحجاب ؛ بالعكس إنما قد أمرت به في بيتها، لأن المرأة كلما كانت في عين زوجها مرموقة أكثر، كانت أرضى لله عزّ وجل، لأنها تسهم في إحصانه، وفي أن يكون أغَضّ للبصر، طبعاً المؤمن لا بدّ من أن يغض بصره، لكن إذا كانت له زوجة على ما يريد فإن هذا أغض لبصره، إذاً تُسْهم في طاعة زوجها لله عزّ وجل، فأن ترتدي ما تشتهي في البيت هذا بحث آخر، هذا ليس خاضعاً للدرس، الدرس متعلق إذا خرجت المرأة من بيتها لشأن شرعي

لا ينبغي أن تظهر بثيابٍ تؤذي بها المسلمين، فالآية تتحدث عن خروج المرأة من بيتها، إذا خرجت من بيتها فعليها أن تأتمر بأمر الله عزّ وجل المتعلق بثيابها.

(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59))

الشيء الدقيق في الدرس أن الإنسان يجب أن يأمر بناته الصغيرات اللواتي لم يبلغن بعد بالحجاب المُخَفّف، لأن هذا الأمر أمر تأديبي وليس أمراً تشريعاً، كما لو أن الأب أمر أولاده الصغار بالصيام، هذا أمر تأديبي ليتأدّبوا بآداب الإسلام وليس أمراً تكليفياً، والمرأة غير المسلمة لا يحق لها في المجتمع المسلم أن ترتدي ما تشاء، فتفسد شباب المسلمين، لذلك يأمرها أولو الأمر بالحجاب، لا على أنها مكلفةٌ به ؛ بل على أنه أمرٌ من أمر السياسية الشرعية التي أعطيت لأولي الأمر كي يصونوا بها مصالح المسلمين ويأخذوا بأيدي المسلمين إلى طريق سعادتهم.

المنافقون دائماً يريدون السوء بالمؤمنين:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا(60))

الحقيقة أن المنافقين دائماً يريدون السوء بالمؤمنين، فقد سألني أخ مرة سؤالاً: أيعقل:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة النور: من آية "19")

لم يفعل شيئاً، لم يتكلم ولا كلمة، فكيف لهم عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرة ؟

(لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

(سورة النور: من آية "19")

ماذا فعل ؟ ما ارتكب معصية، لكنه يحب أن تشيع الفاحشة ؟

الجواب هو: إن الذي يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا هو حتماً في موقع المنافقين، وحتماً ليس مؤمناً، وحتماً في موقع الكفار، فلو أنه مؤمنٌ لما تمنى ذلك، والنفاق الأكبر كما تعلمون أساسه أنه كافر لكن مصالحه متعلقةٌ بالمؤمنين، لذلك سايرهم في بعض أمورهم، وهذا ما يفهم من حديث رسول الله:

((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب.))

[رياض الصالحين: " متفق عليه " عن عبد الله بن مسعود]

أي هو في الأصل ليس مؤمناً، هو في الأصل كافر، وفي الأصل منافق، لكن تعلقت مصالحه بالمسلمين، فسايرهم وداراهم، هذا الذي يصف الإنسان بأنه منافق.

لا يستقيم إيمانِ عبدٍ حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه:

إذاً:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ (60))

أي من يتتبع عورة أخيه المسلم فضحه الله في عقر داره، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن:

((قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة.))

[رواه الطبراني عن حذيفة]

لا يستقيم إيمانِ عبدٍ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، أن يطلق لسانه فيما نهى الله عنه، أن يخوض في أعراض المسلمين من دون تحقق، من دون تثبُّت، من دون يقين، من دون دليل، أن يروّج بعض الآراء، أن يروّج بعض القصص، أن يشهّر ببعض المؤمنين من أجل أن يلفت النظر إليه، أو أن يمتع الحاضرين بقصةٍ يعرفها قال: هذا عند الله أمر عظيم.

من صفات المؤمن أنه لا ينقل حديثاً إلا بعد التثبُّت والتأكد:

قال تعالى:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ (60))

المرجفون الذين يشيعون الأخبار السيئة، فأنت كمؤمن ليس لك أن تشيع الأخبار السيئة، الخبر السيئ اجعله في نطاقٍ ضيق، نشر الخبر السيئ يضعف العزيمة، يوهن القوى، يسيء الظن بالمؤمنين، وقد يكون هذا الخبر السيئ عارياً عن الصحة، قد يكون إشاعة، وقد يكون افتراءً، وقد يكون كذباً، فمن صفات المؤمن أنه لا ينقل حديثاً إلا بعد التثبُّت، لقول الله عزّ وجل:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ(6))

(سورة الحجرات)

طبعاً هذه الآية تهديد:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا(61))

أي أينما وجدوا:

(أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62)

الفتنة كما قلت لكم أشد من القتل، فأن تلقي فتنة، أن تلقي شبهة، أن تشوّه سمعة إنسان، أن تشوه سمعة امرأة مؤمنة، أن تغري زوجها بتطليقها، أن تضعف الثقة بين الإنسان وأخيه، أن تفسد الناس على علمائهم، أن تقطع ما أمر الله به أن يوصل، هذا كله من صفات المنافقين والكفار، فالمؤمن لا ينبغي له أن يفعل هذا أبداً.

من عَدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت:

قال تعالى:

(يَسْأَلُكَ النّاسُ عَنِ السّاعَةِ قُلْ إِنّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلّ السّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63))

الحقيقة من عَدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت.

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلّ السّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63))

هناك ساعتان ؛ الساعة الأولى ساعة نهاية الإنسان، والإنسان أحياناً ينتهي أجله على أتفه سبب، وفي أسرع وقت، بينما هو قائم فارق الحياة، بينما هو نائم فارق الحياة، بينما هو يبني فارق الحياة، بينما هو مسافر فارق الحياة، فساعة كل إنسان لا يعلمها إلا الله سبحانه، والمؤمن العاقل يحتاط لهذا الأمر قبل وقوعه ويستعد لها، فإذا جاءت كان مستعداً لها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (16-18): تفسير الآيات 60 - 68
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1992-01-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر من سورة الأحزاب.

الآية التالية فيها وعيد شديد للمنافقين وللمرجفين وللذين في قلوبهم مرض:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62))

(سورة الأحزاب)

الحقيقة أن في هذه الآية وعيداً شديداً للمنافقين، وللمرجفين، وللذين في قلوبهم مرض، وإذا كانت هذه الآيات مسوقةً إلى المنافقين في عهد النبي، وإلى المرجفين في عهد النبي، وإلى الذين في قلوبهم مرضٌ في عهد النبي، فإنّها في الحقيقة ولعموم اللفظ مسوقةٌ إلى كل إنسانٍ متلبّسٍ بهذه الصفات مجتمعة أو ببعضها، إنسان مقيم على معصية لئن لم ينتهِ لنغرينَّك به، إنسان يروّج الأخبار السيئة لإضعاف عزيمة المؤمنين لئن لم ينتهِ فهناك عقابٌ أليم، إنسان يفسد في الأرض لئن لم ينتهِ فهناك عذابٌ أليم.

الموفق من يفهم كلام الله بطريقةٍ يُحِسُّ أنها موجّهةٌ إليه أولاً:

الحقيقة، القرآن الكريم له منطوق وله مفهوم، له خاص وله عام، فمن سعادة المَرْء أن يفهم بعض الآيات لا على أنها خاصّةٌ لمن كان مع النبي عليه الصلاة والسلام وانتهى الأمر، وكأنّها قصّةٌ تاريخيّةٌ وقعت ومضت وأصبحت ذكراً، لا، الموفّق من يفهم كلام الله بشكلٍ موسّع، أي بطريقةٍ يُحِسُّ أنها موجّهةٌ إليه أولاً:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ (60))

قال بعض المفسّرين: الذوات واحدة والصفات مختلفة، فإنسان واحد منافق، وفي قلبه مرض، ويروّج الأخبار السيئة، وقال بعضهم: هؤلاء أصنافٌ ثلاثةٌ، سواءٌ أكانت الذوات متّحدة أم متباينة، فالذي يعنينا أن في هذه الآية نفاقاً، وفي هذه الآية قلْبٌ مريض، وفي هذه الآية إنسان يروّج الأخبار السيئة في المجتمع الإسلامي، فالمنافق هو الذي يُظْهِرُ ما لا يبطن، يدّعي أنه صالح وهو طالح، يدّعي أنه مؤمن

وهو كافر، يدّعي أنه ورع وهو مُتساهل، يُظهر أمام الناس عبادةً، وضمر فيما بينه وبين نفسه معصيةً.

هذا الموقف الازدواجي ؛ شيء معلن وشيء مبطّن ! شيء ظاهر وشيء باطن ! شيء يقال وشيء لا يقال، مع المؤمنين تراه مؤمناً، مع الكفّار تراه كافراً ! هذه الشخصية الازدواجيّة التي في بنيتها رياء، الرياء في العمل والنفاق في القول، هذه الشخصيّة ربّما أسدل الله سبحانه وتعالى ستره عليها. فالإنسان إذا ستره الله عزّ وجل ينبغي أن يعدّ هذا الستر الذي أسبغه الله عليه فرصةً للتوبة، فعندما يستر ربنا عزّ وجل عبداً، كأن الله عزّ وجل يعطيه فرصة، أن يا عبدي إلى متى أنت في اللذات مشغولُ ؟ إلى متى أنت كذلك ؟ أما تستحي مني ؟ سلامة الإنسان ـ مع النفاق ـ هي فرصة من الله عزّ وجل لهذا الإنسان لعلّه يعود، لعلّه يتوب، لعلّه يرجع، لعلّه يتألّم، لعلّه يحاسب نفسه حساباً عسيراً.

كلّما ازددت معرفة بالله عز وجل تستحي من النفاق:

في كل عصر، في كل زمان، في كل وضع، ما دام الإنسان ينطوي على شخصيّة ازدواجيّة، على شخصيّة فيها بعض النفاق، أو فيها كل النفاق، لئن لم ينتهِ لا بدّ من أن يفضحه الله عزّ وجل، إن لم يستخدم ستر الله عليه كفرصةٍ للتوبة، لا بدّ من أن ينكشف هذا الستر، كلامٌ دقيق، الذي يبطن الشر للمؤمنين ويظهر التعاطف معهم، الذي إذا خلا فيما بينه وبين ربّه انتهك حرمات الله، فإذا كان مع الناس أظهر الورع والتُقى، هذا الإنسان ساذج، هذا الإنسان يظنُّ أن هذا الشيء ينطلي على الناس وينطلي على الله عزّ وجل مع أن الله عزّ وجل يقول:

(يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء: من آية " 142 ")

وقال:

(يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلا أنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(9))

(سورة البقرة)

كلّما ازدادت المعرفة بالله تستحي أن يكون لك موقفان، تستحي من النفاق، من إظهار شيء وإبطان شيء، من إعلان شيء وإضمار شيء، من أن تكون مع المؤمنين تصلي وتصوم وتذكر الله وتقول: لا حول ولا قوّة إلا بالله، الله ينصر الإسلام يا أخي، وإذا كنت مع الكفّار لك كلامٌ آخر، لك تعليقاتٌ ساخرة على المؤمنين، هذا الموقف الازدواجي، هذه الشخصيّة المزدوجة، هذان الوجهان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً))

ما دام الله قد أسبل عليك ستره وحفظك من أن تفتضح فبادر إلى التوبة وإلى طاعة الله:

النقطة الدقيقة في هذا الدرس هي، أن الإنسان عندما يكون مقيماً على معصيةٍ، أو على مخالفةٍ، أو على انحرافٍ، ويسبل الله عليه ستره، يجب أن يعتقد اعتقاداً جازماً أن هذا الستر الذي أسبغه الله عليه فرصةٌ من الرحمن الرحيم كي يعود إلى رشده، فإذا أصر عندئذٍ ينكشف هذا السترْ، ويُفْضَح هذا الإنسان على رؤوس الخَلق، ويُكْشَفُ أمره، والله سبحانه وتعالى هو الذي يتولّى ذلك، قال تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

تُضَيِّعُ الناس، توهم الناس أنّك صالح وأنت غير ذلك، والأمر يمشي هكذا، يمضي إلى ما لا نهاية، دون أن يُكشَفَ الأمر، دون أن يُفْتَضَحَ الإنسان، فكل إنسان ـ وهذا كلام أسوقه من قلبٍ إلى قلب ـ كل إنسان متلبّس بمخالفة، بمعصية، بتقصير، يفعله فيما بينه وبين نفسه، والله سبحانه وتعالى أسبغ عليه ستره ليبادرْ إلى التوبة، وليكن هذا الستر فرصةً من الله عزّ وجل كي يصحو هذا المنافق.

أشعر من هذه الآية، لئن لم ينتهِ المنافقون فسوف تأتي الفضيحة، سوف يأتي العذاب الأليم، سوف يأتي كشف الغطاء، سوف يأتي إظهار الحقائق، سوف يأتي الامتحان العظيم، لئن لم ينتهِ، فالإنسان يجب أن يبادر إلى التوبة:

(وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربّكم)

(سورة آل عمران)

ما دام الله قد أسبل عليك ستره، ما دام الله قد حفظك من أن تفتضح، بادر إلى التوبة وإلى طاعة الله.

أنواع النفاق والفرق بينهما:

النفاق نوعان: هناك نفاق أكبر وهناك نفاق أصغر، النفاق الأكبر هو أن يبطن الإنسان الكفر البواح وأن يظهر الإيمان تحقيقاً لمصالحه، هذا النفاق الأكبر في الدَرْكِ الأسفل من النار، لا في النار بل في الدرك الأسفل، لكن النفاق الذي يبتلى به بعض الناس هو نفاقٌ أصغر، حينما تغلبهم شهواتهم، حينما تقعُد بهم هممهم، حينما يقصّروا، فكأنّهم يستحيون من المؤمنين بتقصيرهم، أو باتباعهم بعض شهواتهم فيظهرون عكس ما هم فيه، هذا نفاقٌ أصغر ـ أسأل الله سبحانه وتعالى أن يصرفه عن كل مؤمن ـ النفاق الأكبر كفر، في الدرك الأسفل من النار، لكن النفاق الأصغر هو أن يُقصِّر الإنسان، أن تغلبه شهوته، أن يقع في بعض الصغائر يستحيي بها، يظهر خلافها، يعطي الله عز وجل صاحب هذا النفاق فرصة لكي يتوب.

يروى أن سيدنا عمر جيء برجل سارق، فأقسم هذا الرجل أن هذه أول مرّة يا أمير المؤمنين، وسيدنا عمر يعرف الله عزّ وجل، فقال له: **كذبت إنّ الله لا يفضح من أول مرّة**، فإذا بها المرّة الثامنة، إن الله لا يفضح من أول مرة، فالله عزّ وجل رحمة بهذا الإنسان إذا زلّت قدمه يستره، يخفي عيبه عن الناس، يظهر الجميل ويستر القبيح، فالإنسان لا يستغل ستر الله عزّ وجل لمتابعة معاصيه، عندئذٍ ينكشف هذا الستر، إذاً المقصّرِ المغلوب أحياناً، أو من كان مقيماً على مخالفة، أو له معصية، ليبادر إلى التوبة، لأن التوبة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، ومن الظمآن الوارد.))

[الجامع الصغير: عن أبي هريرة]

الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

(سورة التحريم: من آية 8)

هذا أمر إلهي، والمؤمن مذنب توّاب، وواهن راقع، وإذا تاب العبد توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه وجوارحه، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه.

أمراض الجسد تنتهي عند الموت لكن أمراض القلب تبدأ بعد الموت وإلى الأبد:

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: من آية 53)

هذا نوع:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (60))

بالله عليكم أيحتمل واحدٌ منكم أن يكون في بعض أعضائه، أو بعض حواسِّه خلل ويسكت عنه ؟ مستحيل، إذا ضعفت الرؤية هل تبقى في البيت أم تبادر إلى الطبيب ؟ إذا شعرت بشيء غير اعتيادي في جسمك، أتبقى ساكتاً أم تبادر إلى تجلية الحقيقة ؟ هل هناك مرض خطير ؟ هل هناك عرضٌ زائل ؟ تسأل الطبيب، فلماذا تقلق كل هذا القلق إذا أصاب الجسم بعض الأمراض ولا تقلق قلقاً مثله إذا أصاب القلب مرضٌ خطير ؟ ربنا عزّ وجل في صريح القرآن الكريم، وفي هذه الآية بالذّات، وفي سورة البقرة أيضاً قال:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا)

(سورة البقرة: من آية " 10 ")

وهنا:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (60))

إذاً أخطر شيء في الحياة أن يكون الجسم قوياً والقلب مريضاً، الجسم قوي لكنَّ القلب مريض، أمراض الجسد أيها الأخوة مهما تفاقمت تنتهي عند الموت، لكن أمراض القلوب تبدأ بعد الموت وإلى الأبد، فأيهما أخطر ؟؟!

القرب من الله تعالى يُسَبِّب الكمال والبعد عنه يسبّب النقص:

قال تعالى:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

الغل مرض، الحسد مرض، الاستعلاء على الخلق مرض، الكِبْر مرض، الرغبة أن تبني مجدك على أنقاض الآخرين هذا مرض خطير، هل تقول شيئاً لصالحك ولا تعبأ بالحق ؟ هذا مرض خطير، هل تقول على الله ما لا تعلم لمصلحةٍ تُريدها ؟ هذا مرض أخطر، هناك إثمٌ، وبغيٌ، وفحشاء، ومُنكر، وعدوان، وشرك، ونفاق، وفِسق، وفجور، وكفر، وهناك أخطر من هذه الأمراض كلِّها أن تقول على الله ما لا تعلم، نفسٌ تحبُ ذاتها، تكره الناس هذا مرض خطير، نفسٌ تحبُ أن تحيا وحدها ويموت الناس هذا مرض أخطر:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

(سورة البقرة: من آية " 10 ")

الحقيقة التي لا شكَّ فيها أن أساس كل هذه الأمراض هو الإعراض عن الله عزّ وجل، بل إنّ كل ما يعانيه الإنسان من أمراضٍ نفسيَّة إنها في الحقيقة أعراضٌ لمرضٍ واحد وهو البعد عن الله، إذا ابتعدت عن الله صار القلب قاسياً كالصخر، إذا اقتربت من الله صار القلب رقيقاً رحيماً، إذا ابتعدت عن الله صرت ظالماً، إذا اقتربت من الله صرت مُنصفاً عادلاً، إذا ابتعدت عن الله صار الإنسان غليظ القلب، إذا اقترب من الله صار رقيق المشاعر، أبداً ؛ مع البعد مرض ومع القرب كمال، إذا ابتعدت عن الله عزّ وجل جاءت الأمراض النفسيّة، إذا اقتربت من الله عزّ وجل تحلّت نفسك بالكمالات الإلهيّة، بصبغة الله عزّ وجل، إذاً يمكن أن تقول: إنّ القرب يُسَبِّب الكمال، وإن البعد يسبّب النقص، إذاً أي مرضٍ نفسيّ يعانيه الإنسان هو في الحقيقة بعدٌ عن الله عزّ وجل.

المرض النفسي تبدأ آثاره الخطيرة بعد الموت أما المؤمن فيشعر بمرضه النفسي وهو حي:

إن هناك أناس دقيقو الملاحظة في أجسامهم، يقول لك: هذا الطعام لا يناسبني، أرتاح لهذا الطعام، هذا البرد الذي أصابني أتعبني، يتابع حرارته، برودته، طعامه، شرابه، نومه، يقول لك: هواء الغرفة فاسد فقد شعرت بضيق، عنده حساسية، والله شيءٌ جميل، لكن الأجمل من هذا أن يكون لك حساسية أخلاقيّة، هذه الكلمة مثلاً جرحت بها فلاناً لا بدّ من أن يسامحني، هذا الشعور أنني نِلت شيئاً ثميناً والناس من حولي جياع فشعرت بهذا التفوّق هذا مرض، قال عليه الصلاة والسلام:

((ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه، وهو يعلم به.))

[الجامع الصغير: عن أنس]

لك أخ بالعمر نفسه نال شيئاً فتألّمت ! ليته لم ينجح، ليته لم يتزوّج هذه الفتاة، هذا مرض خطير، أن تتمنّى زوال النِعَم عن الآخرين، فيا ترى هل هناك متابعة ؟ هل تتابع نفسك ؟ هل تلاحظ الأمراض النفسيّة التي هي بسبب البُعد عن الله عزّ وجل ؟ هل تفرح إذا أصاب المؤمن خير أم تتألّم ؟ هل تحبُّ أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، أم تحبُّ أن تشيع السمعة الطيّبة في الذين آمنوا ؟

هذا المرض النفسي مرضٌ خطير، ومشكلته أنه تبدأ آثاره الخطيرة بعد الموت، أما المؤمن يشعر بمرضه النفسي وهو حي، كما يقول الناس: **" حكيم نفسه "**، يشعر أن قلبه لا يعجبه، الشعور أنك أنت في منجاة من هذا المُصاب العام ولا يعنيك أمر المسلمين، هذا شعور مرضي، أنت ببحبوحة والناس في ضائقة وتقول: الحمد لله أنا غيرهم، هذا شعور مرضي، من لم يهتمّ بأمر المسلمين فليس منهم، تجد إنساناً بحاجة ماسّة لمساعدة ومعك ما تساعده به وتمتنع، هذا شعور مرضي، هذه أنانيّة إن صحّ التعبير، هذه أثرَة.

إذا انقلب الإنسان إلى الله عزّ وجل وكان قلبه سليماً فهو في الجنّة إلى أبد الآبدين:

كما أننا نعاين أمراضنا، ونخاف منها، ونقلق لها، ونبادر إلى معالجتها، ونختار أحسن الأطبّاء، وندفع أبهظ التكاليف، وتحاليل وتصوير، يقول لك: أخي أريد أن أطمئن، إيكو، وأشعة، وتصوير، وتصوير طبقي، هذه بثلاثة آلاف، هذه بخمسة آلاف، اختبار، وهذا الاختبار يكلف خمسة أو ستة آلاف، تصوير طبقي بالآلاف، بعض أنواع الأشعّة غالية جداً، يقول لك: هذا الدواء، ثمن الحبّة الواحدة تكلفني ثلاثة آلاف ليرة ـ شيء جميل ـ أستمع لهذا من بعض المرضى، لماذا يعنيه أمر قلبه ؟ يعنيه أمر كليتيه ؟ يعنيه أمر أعصابه ؟ هناك متابعةٌ ودقّةٌ وفحص، وهناك حرصٌ وقلقٌ وخوفٌ من أي عرضٍ غير طبيعي في الجسد.

والله الذي لا إله إلا هو لو علم الإنسان خطورة أمراض النفس، لكان اهتمامه بنفسه، وبسلامتها، وبطهارتها، وبسموّها، أضعافَ أضعاف اهتمامه بأمراض جسده، والدليل: عندما كان سيدنا عمر رضي الله عنه تصيبه مصيبة يقول: **" الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني "**. الدين سليم، لأن الإنسان لا بدّ من أن ينقلب إلى الله عزّ وجل إن عاجلاً أو آجلاً، فإذا انقلب إلى الله عزّ وجل وكان قلبه سليماً فهو في الجنّة إلى أبد الآبدين، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88)إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89))

(سورة الشعراء)

إذاً:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (60))

أتمنّى على كل أخٍ كريم أن يتبصّر، أن يتأمّل أمراضه النفسيّة، فلو شعر بشيء من الكِبْر على إثر تفوّقه في علم، أو في شهادة، أو له شكلٌ وسيم تاه به على الناس، شعر أنه فوق الناس هذا مرض، تمنّى أن يكون وحده في بحبوحة ولا يعنيه أمر الناس هذا مرض ثانٍ، هل شعر بحقدٍ في قلبه، بضغينة، بحسد ؟ هل تمنّى للناس زوال النعم عنهم ؟ فالإنسان إذا شعر أن هناك شعوراً غير صحيح، شعوراً مرضياً، ليبادر إلى معالجته وإلا فهناك تهديدٌ من الله عزّ وجل:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (60))

ما دمنا أحياء كل شيءٍ يُصَحّح وكل ذنب يُتاب منه وكل معصية تُبدّل حسنة:

بالمناسبة من رَوْعَةِ الحياة الدنيا أن كل شيءٍ فيها يُصَحّح، كل شيء في الدنيا يصحّح، أما إذا مات الإنسان وخُتِمَ عمله عندئذٍ لا ينفعه شيء، ما دمت في بحبوحة الحياة، ما دام القلب ينبض، ما دام في العمر فُسْحَة فإصلاح كل شيءٍ ممكن، هناك ذمم، هناك حقوق، هناك ديون سابقة، هناك إنسان تحدّثت عنه في مجلس، يمكن أن تذهب إليه وتطلب السماح منه، وتعقد مجلس مرّة ثانية وتصحِّح الخطأ، هذا كله ممكن، لكن إذا جاء الموت وخُتم العمل عندئذٍ ليس هناك من إصلاحٍ أبداً، فهذه النعمة أننا نحن أحياء، وما دمنا أحياء فكل شيءٍ يُصَحّح، كل ذنب مهما كان عظيماً يُتاب منه، كل معصية تُبدّل حسنة، قال عليه الصلاة والسلام:

((أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن.))

[رياض الصالحين: رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ عن أبي ذر]

الصنف الأول منافقون، والصنف الثاني:

(وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (60))

والصنف الثالث:

(وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ (60))

معنى أَرْجَفَ، الرجفان هو الاضطراب، فأي خبرٍ تلقيه على الناس يصدمهم، يجعلهم يضطربون، يجعلهم يقلقون، يجعلهم يخافون، يجعلهم يتألّمون، ييأسون، يقنطون، تنهار معنوياتهم، هذا الخبر سوف تحاسب عليه، الذي يفعل هذا اسمه في القرآن الكريم مُرْجِفٌ في المدينة، فلو قلت لإنسان: إيّاك أن تحضر هذا المجلس، أو إيّاك أن تحضر أي مجلس علم، يقول لك: إذا فعلت هذا فلهذا العمل ما وراءه، أنا أحذِرك فقط، هذا إرجاف، كلامٌ لا طائل منه، يمنعك عن شيءٌ مشروع، عن بيت الله عزّ وجل، عن كلام رب العالمين، عن حقٍ صُرَاح.

معنى الإرجاف:

قال تعالى:

(إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(175))

(سورة آل عمران)

أية كلمةٍ تقولها تقصد منها أن يضطرب الناس لها، وأن تضعف معنوياتُهم، وأن يقلقوا، وأن ينصرفوا عما هم فيه من عملٍ صالح، كما لو رأيت إنساناً ينفق من ماله في سبيل الله فخوّفته، وضَعّفْتَ معنوياته، وأوهمته فهذا إرجاف، نقلت الأخبار السيئة، أشعتها في المدينة ليضعف إيمان الناس فيهم، هذا إرجاف، فلذلك الله عزّ وجل قال:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا(60))

أي قد يأتي العذاب على يد النبي عليه الصلاة والسلام، لأن النبي عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة صارت معه ـ فضلاً عن رسالة السماء ـ قوّة الأرض، أصبح الرئيس الأعلى للمسلمين.

تحذير من القيام بعمل مناقض لعمل الداعية:

قال تعالى:

(لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60))

هذه الآية كناية عن أن النبي عليه الصلاة والسلام ـ هؤلاء الذين يرجفون في المدينة وعلى رأسهم اليهود، الذين يتَّبعون الأخبار السيئة، يضعفون معنويات المسلمين ـ سوف يجلوهم عن بلادهم، هذا معنى:

(ثُمّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلّا قَلِيلًا (60) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61))

دائماً يوجد بالحياة الدنيا أشخاص همُّهم الأول هداية الناس، وفي رأس هذه القوائم الأنبياء، ثم الصحابة الكرام، والتابعين، والعلماء العاملين، هؤلاء هدفهم الأول نشر الحق، إيّاك أيها الإنسان، ثمّ إيّاك، ثمّ إيّاك أن تقوم بعملٍ آخر مناقضٍ لعمل الدعوة إلى الله عز وجل، إيّاك إذا قرّب إنسانٌ الناس إلى الله أن تُبعدهم عنه، إيّاك إذا زهّد إنسانٌ الناس في الدنيا أن تحبّبهم بها، إياك إذا خوّف إنسانٌ الناس من المعصية أن تسهّلها لهم، فإياك أن تقوم بعمل مناقض لعمل الداعية، الداعية يُعَرّف بالله عزّ وجل وأنت تصرف الناس عنه، الداعية يحبّب بالطاعة وأنت تزيّن المعصية، الداعية يطمئن وأنت تخوّف ؟! الداعية يشجّع وأنت تثبّط، هذا يشجّع وأنت تثبّط ؟! هو يدعو إلى الله وأنت تدعو إلى غير الله ؟! هو يدعو إلى طاعة الله وأنت تدعو إلى معصية الله ؟! هو يدعو إلى ترك الدنيا وأنت تدعو إلى حبِّ الدنيا؟! إياك أن تكون في خندقٍ آخر معادٍ لخندق الهُدى لأن الله عزّ وجل سوف ينتقم منك، الله عزّ وجل يُكَرِّم من يحبّب عباده إليه ويقصم من يبغّض عباده إليه، لذلك ورد في الأثر:

((يا رب أي عبادك أحبُّ إليك حتّى أحبّه بحبّك ؟ قال: يا داود أحبُّ عبادي إليّ تقي القلب نقي اليدين لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبّني وأحبّ من أحبّني وحبّبني إلى خلقي.))

[ورد في الأثر]

هذه النصيحة أسديها لكم من أعماق قلبي: إيّاك أن تقف موقفاً معاكساً لدعوةٍ إلى الله عزّ وجل، إيّاك أن تقطع ما أمر الله به أن يوصل، إياك أن تصرف الناس عن شيءٍ أراد الله أن يلتفتوا إليه.

المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة زمرة واحدة لكن صفاتهم مختلفة:

قال تعالى:

(لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنّكَ بِهِمْ ثُمّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلّا قَلِيلًا(60))

بعض المفسّرين قال: هؤلاء زمرةٌ واحدة وصفاتهم مختلفة، أي أن الذوات متحدة والصفات متباينة، وبعضهم قال: الذات متباينة، أي أن أول قسم المنافقون صنف:

(وَالّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (60))

صنف:

(وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ (60))

هذا صنفٌ ثالث.

الاتصال مع الله في الدنيا يغني عن آلاف الحظوظ:

على كلٍ لا يعنينا إن كانوا متّحدي الذوات أو مختلفي الذوات، الذي يعنينا أن هذه الصفات خطيرة، فإذا تَلَبّسَ الإنسان بأحد هذه الصفات فهناك وعيدٌ من الله عزّ وجل يمحقه، ويهلكه، ويحجزه عن عمله، قال:

(مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا (61))

لا توجد في القرآن كلمةً يخاف منها المؤمن كهذه الكلمة **" ملعون"** أي بعيد عن الله عزّ وجل، كل، واشرب، وانغمس في الملذّات لكنّك بعيدٌ عني، أما المؤمن يقول:

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ وليتك ترضى والأنام غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خرابُ

إذا صحّ منك الوصل فالكل هيّنٌ وكل الذي فوق الترابٍ ترابُ

* * *

لكن الكافر طعامٌ، وشرابٌ، ولذّةٌ، وبيتٌ، ومكانةٌ، ووجاهةٌ، وانغماسٌ في الملذّات ولا يبالي بعد هذا ما يكون:

(مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا (61))

حتّى يوم القيامة، أكبر عقاب يُعاقب به الإنسان:

(كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ(15))

(سورة المطففين)

أنت في الدنيا إذا كنت في اتصال مع الله فهذا الاتصال يغني عن آلاف الحظوظ، فاتك حظ المال لكن الاتصال بالله ما فاتك، فأنت بيدك كل شيء، وما فاتك شيء، فاتك حظُّ الجاه، فبقيت مغموراً في المجتمع، ما دمت مع الله عزّ وجل ما فاتك شيء، فاتك حظُّ الزوجة المُسْعِدَة، لك زوجة غير مسعدة، ما فاتك شيء، ما دمت مع الله عزّ وجل ما فاتك شيء، فاتك حظُّ الأولاد، ليس عندك أولاد، ما دمت مع الله عزّ وجل ما فاتك شيء، لهذا ما ندم سيدنا الصديق على شيءٍ فاته من الدنيا قط.

من حصّل الصلة بالله عزّ وجل وكان عند الله مرضياً ما فاته شيء:

لو تعلمون علم اليقين الذي حصّل الصلة بالله عزّ وجل، وكان عند الله مرضياً، ما فاته شيء:

((إن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتُّك فاتك كل شيء.))

[مختصر تفسير ابن كثير]

الإنسان لا يندب حظّه، لا يندب حظّه إلا الجاهل، هذا يندب حظّه من المال، هذا يندم حظّه من الصحّة، هذا يندب حظّه من الزوجة، هذا من الأولاد، هذا من العمل، لو عرفت الله عزّ وجل حقّ المعرفة، واتصلت به، وسعدت بقربه، لاعتقدت أن كل ما فوق الترابِ ترابُ:

(مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا (61))

قيل: **" كفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله "**، إذا كنت في طاعة الله فأنت المنتصر، وأنت المتفوّق، وأنت الفائز، وأنت الناجح، وأنت الفالح، وأنت الذي تُغْبَطُ في يومٍ ما، البطولة من يضحك آخر الأمر لا أول الأمر، هناك أشخاصٌ كثيرون يضحكون في مقتبل حياتهم، تأتيهم الدنيا، يرقصون لها، يختل بها توازنهم، لكنهم بعد أمدٍ قليل يأتي المرض العُضال، ويلقى في الفراش سنوات، ويواجه مصير الموت، وما بعد الموت أشدُّ من الموت.

القصّة معروفة أن أحد العلماء الكبار ـ وأظنّه عبد الله بن المبارك ـ كان يمشي في موكبٍ عظيم بين إخوانه، وكان وسيم الطلعة، بهيّ المنظر، مُتَلألئ الأنوار، وكان أنيقاً في ثيابه، وحوله إخوانه، فرآه يهوديٌ يعمل أحَطّ الأعمال، وقد بلغ من الدنيا أدنى مرتبتها، فقال هذا اليهودي: **" يقول نبيُكم الدنيا جَنّة الكافر وسجن المؤمن "**، فأي سجنٍ أنت فيه ؟ وأية جنّةٍ أنا فيها ؟ فقال: **يا هذا لو قست ما أنا فيه لما وعدني الله به من الجنّة فأنا في سجن، ولو قست ما أنت فيه وما ينتظر الكافر من عقابٍ أليم فأنت في جنّة "**. يقال إنه أسلم وصار من إخوانه.

الشهرة ليس لها قيمة أبداً والعبرة أن يكون الإنسان على الحق:

الحقيقة أن الله عزّ وجل وعد المؤمن بجنّةٍ فيها:

((مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

فلان يا أخي أنا وهو في مقعد واحد، والآن يحكي بمائة مليون، يحكي بألف مليون، أنت مؤمن أم أنك غير مؤمن ؟

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

ألا تكفيك هذه ؟ ما قيمة المال مع المعصية ؟ سوف يزول، أنا وهو على مقعد واحد وهو الآن له مكانة كبيرة وأنا لا أحد يعرفني، لا قيمة لهذه الشهرة، الشهرة ليست قيمة أبداً، هل هناك أشهر من إبليس ؟ بكل اللغات موجود، بكل الأمم والشعوب، فالشهرة ليس لها قيمة أبداً، فالعبرة أن يكون الإنسان على الحق:

(مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62))

معنى الآية التالية أن العنصر المؤذي يجب أن يُنْتَزَع ويزول وأن لا يبقى مع المؤمنين:

مثل بسيط جداً: إذا الإنسان كان عنده صندوق من التفّاح، فيه تفّاحة معاينة، الشيء البسيط جداً أن ينزع هذه التفّاحة ويلقيها حفاظاً على ما في هذا الصندوق من تفّاح، فهذا العنصر المؤذي يُنْتَزَع، هذا يجب أن يزول، أو يجب أن لا يبقى مع المؤمنين، هذا معنى قوله تعالى:

(أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61))

قال:

(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62))

صف فيه ثلاثون طالباً، من أسر راقية، طلاب مهذّبون، مؤدّبون، مجتهدون، وطالب واحد دلّ هذا على القِمار، ودلّ هذا على اللواط، ماذا يُفْعَلُ بهذا الطالب ؟ يُفْصَل فوراً، لأنه إذا بقي بين الطلاب أفسدهم جميعاً، فالصف ممتاز من حيث الأخلاق والاجتهاد، لكن فيه طالب واحد يسرق، علّم فلان السرقة، ويلعب بالقمار علّم فلان القمار، فالمدير الرحيم الحكيم حينما جاءته هذه الأخبار أن هذا الطالب علّم فلان القمار، وعلم فلان السرقة، وفلان جعله يتغيب عن المدرسة، يرى أن الحكمة تقتضي أن يفصله، وأن يبتره، هذا الإنسان المفسد الذي يقطع الناس عن الله عزّ وجل، يغريهم بالدنيا، ينغمسوا في الملذّات المحرّمة، يفسد النساء، يُغري النساء بالزنا، هذا الإنسان قال الله عنه:

(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62) يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ (63))

أي عن يوم القيامة.

هناك ساعة عامّة هي يوم القيامة وساعة خاصّة بالإنسان لابدّ منها إن عاجلاً أو آجلاً:

سيدنا جبريل جاء النبي عليه الصلاة والسلام وسأله: متى الساعة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.))

[مسلم عن عمر]

فمتى الساعة ؟ هذا شيءٌ ادّخره الله لنفسه، لا يعلمه أحدٌ إطلاقاً:

(يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63))

قد تأتي، وقد لا تأتي إلا بغتةً، ولكن الإنسان العاقل يعلم أن هناك ساعة عامّة هي يوم القيامة، وأن هناك ساعة خاصّة به، فالموفّق، والعاقل، والراجح هو الذي يتعامل مع الساعة الخاصّة التي لا بدّ منها إن عاجلاً أو آجلاً، فنسمع في هذه الأيام أن إنسان عمره بالأربعينات أصيب بأزمة قلبيّة وانتهى، أربعون، اثنان وأربعون، ثمانية وثلاثون، قرأت قبل أيام نعوة ما رأيت فيها إلا والد الفقيد، إخوة الفقيد، معنى هذا أنه غير متزوّج، سمعت أنه في الثامنة والثلاثين من عمره، هذه هي الساعة الخطيرة، ساعة اللقاء، مع ازدياد الهموم، ومع التكالب على الدنيا، ومع الانغماس في الشهوات، ومع التنافس على حُطام الدنيا، ومع التوتر النفسي الشديد، ومع ضغط الهم، هذا كله يتلف الإنسان، من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر.

العاقل من هيأ نفسه لساعته الخاصّة وهي ساعة الفراق:

الإنسان العاقل هو الذي يهيئ نفسه لساعته الخاصّة ساعة الفراق، ساعة اللقاء، ولو تتبّع الإنسان أحوال الناس يرى العجب العجاب، هذا الإنسان أعدّ العُدّة لكل شيء، حسب لكل شيءٍ حساباً إلا شيئاً واحداً هو الموت، هذا ما لم يكن في حُسبانه، وما دخل في برامجه، ولا أعدّ له، ولا فكّر في حياته لحظة كيف سيواجه الله عزّ وجل بهذه المعصية، وبهذا الظلم، وبهذا المال الذي أكله غصباً ؟ هذا أمرٌ عجيب، يخطِّط لثلاثين سنة.

قال أحدهم مرة: لقد تعبت، فقد بقي ستة أشهر وهو محتار أيمدد الشوفاج تمديداً داخلياً أم ظاهرياً، خائف أن يمدده تمديداً داخلياً وبعد عشرين سنة تتسرّب المياه فيضطر لكسر البلاط، يفكِّر لعشرين، وثلاثين، وأربعين سنة، بعد هذا استقرّ رأيه أن يركبه داخلياً لأنه أكمل، فإذا صار في المستقبل تسرُّب نركبه خارجياً ولا نكسر البلاط، وهذا الرجل مات بعد ستة أشهر، فهذا الذي يعدُّ لكل شيءٍ عدةً، يحسب لكل شيءٍ حساباً إلا الموت، هذه النهاية الكبرى، المغادرة هذه تأتيه فجأةً، تأتيه كالصاعقة لا يحتمل وقعها، الذين يعملون في اختصاصات قريبة من اختصاصات القلب يشاهدون من المرضى العجب العجاب، انهيار سريع، تجد إنساناً كان متماسكاً، له مكانته، له جبروته حينما تأتيه أزمة يصبح كالأطفال، السبب أن هذه الساعة ما أعدّ لها أبداً:

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ(9)عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ(10))

(سورة المدثر)

الموت حق، لا بدّ من أن نموت جميعاً ؛ لكن البطل هو الذي يعمل في حياته كلِّها لهذه الساعة، كما قال مالك بن دينار: **" لمثل هذه الساعة كان دأبُ أبي يحيى "**، والمفروض نحن جميعاً، اجتهادنا، وطاعتنا لله، وصلواتنا، وعبادتنا، وتفكّرنا، وتلاوتنا، وجهاد نفوسنا وهوانا، وخدمة الناس، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذا العمل الصالح الدؤوب، كل هذا الجهد من أجل ساعة اللقاء، من أجل أن تكون في هذه الساعة من أسعد الناس، من أجل أن يكون الموت تحفة المؤمن، من أجل أن يكون الموت عُرْسَهُ، هذا هو العقل.

وصف لما ينتظر الكافرين من عذاب جهنم:

العقل أن تعدّ العُدّة لهذه الساعة:

(يَسْأَلُكَ النّاسُ عَنِ السّاعَةِ قُلْ إِنّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلّ السّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63) إِنّ اللّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدّ لَهُمْ سَعِيرًا (64))

لعنهم في الدنيا، أبعدهم عنه، وأعدّ لهم في الآخرة سعيراً:

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (65))

لا يجدون ولياً يتولّى أمرهم، ولا نصيراً ينتصر لهم:

(يَوْمَ تُقَلّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النّارِ (66))

تُقلّب الوجوه في النار من وجه إلى وجه، والوجه أكرم ما في الإنسان.

من يطيع إنساناً كائناً من كان في معصية الرحمن فهو أحمق وغبي:

قال تعالى:

(يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللّهَ وَأَطَعْنَا الرّسُولَا (66))

كلمة يا ليت، ولاتَ ساعة مَنْدَم:

(وَقَالُوا رَبّنَا إِنّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلّونَا السّبِيلَا (67) رَبّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا(68))

إنسان يطيع إنساناً كائناً من كان في معصية الرحمن، فهو أحمق وغبي، لأنه في هذا الموقف لا ينفعه شيئاً، دقِقوا:

(وَقَالُوا رَبّنَا إِنّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا (67))

سادتنا من تولّى أمرهم، أما كبراءنا هم الوجهاء:

(فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (67))

ضللنا السبيل إليك يا رب، فرعون وكما قال الله عزّ وجل عنه:

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى(79))

(سورة طه)

الذين حملوا غيرهم على معصية الله لهم ضعف العذاب لأنهم ضلوا وأضلوا:

عندما يطيع الإنسان إنساناً، كما لو أطاع الرجل زوجته في معصية الله تنطبق عليه هذه الآية، لو كنت موظّفاً في متجر وقال لك صاحب المتجر: افعل كذا، وهي معصية ففعلتها تنطبق عليك هذه الآية:

(وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (67) رَبَّنَا آَتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا(68))

لأنّهم ضلوا وأضلوا، فسدوا وأفسدوا، عصوا وحملوا غيرهم على المعصية:

(وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (68))

لذلك يختم الله عزّ وجل هذه السورة بهذا المقطع الأخير:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69))

هذا نأخذه إن شاء الله تعالى في درسٍ قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (17-18): تفسير الآيات 69 - 71
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-01-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس السابع عشر من سورة الأحزاب.

الإيذاء الحقيقي الذي يمكن أن يبلغ الأنبياء هو أن تعمل عملاً يعيق رسالتهم:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69))

(سورة الأحزاب)

أسلوبٌ حكيم أن يَذَكِّر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالأخطاء الفادحة التي وقع بها قوم موسى حينما آذوه، ومعنى آذوه أي كذّبوه، وسَفّهوا دعوته، ولم يلتفتوا إلى أمر الله عزّ وجل، فأية معارضةٍ، أو تكذيبٍ، أو استخفافٍ، أو استهزاءٍ، أو إعراضٍ، أو تفنيدٍ، أو تجريح بدعوة النبي عليه الصلاة والسلام فهذا إيذاءٌ له وأي إيذاء، والإيذاء الحقيقي الذي يمكن أن يبلغ الأنبياء هو أن تعمل عملاً يعيق رسالتهم، عامّة الناس إيذاؤهم أن تأخذ من مالهم، إيذاؤهم أن تشتمهم، إيذاؤهم أن تنتقص منهم لذاتهم، ولكن الأنبياء منزّهون عن هذا الألم، الأنبياء إيذاؤهم الشديد أن تفعل شيئاً يُبعد الناس عنهم، فالتكذيب، والسخرية، والاستهزاء، والتفنيد، والإعراض، وعدم الاكتراث هذا هو أشدُّ أنواع الإيذاء، لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69))

إذاً الإيذاء بالقول، هذا دليل قطعي وواضح على أن إيذاء الأنبياء كان بالقول:

(لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلا أَذًى)

(سورة آل عمران: من آية " 111 ")

الكافر يطلق لسانه بكل ما يُزعج المؤمن، أحياناً يكذّبه، أحياناً يدّعي أن له أغراضاً، أحياناً يدّعي أنه لضعفه اتجه هذا الاتجاه، على كلٍ أية كلمةٍ ينطق بها إنسان مُعْرِض بهدف قطع الناس عن الله عزّ وجل، أو دفع الناس إلى إيذاء النبي، أو إبعادهم عن هذه الرسالة السامية، أي أنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، كيف أن الدعاة إلى الله عزّ وجل يقرّبون الناس من الله، أعوان الشيطان يبعدون الناس عن الله.

الإنسان طاقة إما أن توظف هذه الطاقة في خدمة الحق وإما أن توظف في خدمة الباطل:

الناس رجلان، رجل يقرّب، ورجل يُبْعِد، رجل يحبّب، ورجل يبغّض، رجل يدعو إلى ورجل يدعو عن، رجل يدفع ورجل يصرف، فهنيئاً لمن كان دوره في الحياة الدَفْعَ، والتقريب، والتحبيب، والتوضيح، والتبيين، والإحسان ؛ والويل لمن كان دوره في الحياة قطع ما أمر الله به أن يوصل، تكذيب ما ينبغي أن يُصدّق، تسفيه ما ينبغي أن يُبَجّل، دفع الناس إلى الدنيا وإلى المعاصي، وصرفهم عن الله عزّ وجل، وعن آياته، وعن بيوته.

الإنسان لا بدّ من أن يكون فاعلاً، الإنسان طاقة، الإنسان باللغة المعاصرة ديناميكي، أي أنه طاقة تتحرّك، هذه الطاقة ؛ طاقة فكريّة، طاقة عضليّة، طاقة نفسيّة، طاقة جسميّة، هذه الطاقة إما أن توظّف في خدمة الحق، وإما أن توظّف في خدمة الباطل، إما أن يكون فكرك، ووقتك، ومالك، وعضلاتك، وخبرتك، وعلمك في سبيل تقريب الناس من الله عزّ وجل، في سبيل إسعادهم، في سبيل تنوير الطريق أمامهم، في سبيل تحبيب الناس بربّهم، وإما أن يكون فكرك، ووقتك، وجهدك، وعضلاتك، وعلمك، وخبرتك في سبيل إبعاد الناس عن ربّهم، وصرفهم عن طاعته، وتحبيب الدنيا لهم، فالمشكّك، المنتقد، الساخر، المُسْتَخِف بدعوة الله عزّ وجل الويل له لأن العاقبة للمتقين، الأمور تدور وتدور وفي النهاية العاقبة للمتقين. هؤلاء الذين عارضوا النبي عليه الصلاة والسلام ما مصيرهم ؟ قُتِلوا في بعض المعارك، وليس قتلهم هو العقاب، ولكن مكانتهم في الوحل، كانوا مع الشيطان، هؤلاء الذين آمنوا به وعزّروه، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنْزِلَ معه أين هم ؟ في حمى الرحمن، يكفيهم أن الله عزّ وجل قال:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الفتح: من آية " 18 ")

يكفي أن خالق السماوات والأرض رضي عنهم، فهذه الآية فيها تربية نفسية حكيمة، أي: يا أيها المؤمنون لا تكونوا كأصحاب موسى سخروا، وكذبوا، وفندوا، وانتقدوا، وأعرضوا، فبرأه الله مما قالوا.

إذا اتهمت نبياً أو عالماً أو داعية يجب أن تعلم أن اتهامك وحده لا يكفي فهناك حقائق

أنت بإمكانك أن تقول عن الذهب أنه حديد، هذا يمكن أن تقوله، ولكن إذا قلت هذا الكلام أيصبح الذهب حديداً ؟ هنا المشكلة، بإمكانك أن تقول عن رجل عالم إنه جاهل، ولكن هذا القول هل يجعله جاهلاً ؟ تبقى أنت الجاهل، يمكن أن تتهم الأمين بالخيانة، ولكن هذا الاتهام هل يجعله خائناً ؟ يمكن أن تتهم حتى

الأنبياء، بعض علماء النفس الذين يعدون من أركان الكفر في الدنيا ـ فرويد ـ وهو الذي فَسَّرَ كل شيءٍ بالجنس، فسر كل سلوك الإنسان بالجنس، حتى الأنبياء لم ينجوا من لسانه اتهمهم بالجنسية المثلية، فهل هم كذلك ؟ لا هذا كلام، إنها كلمة تخرج من أفواههم:

(كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ)

(سورة الكهف: من آية " 5 ")

إذا اتهمت نبياً، أو إذا اتهمت عالماً، أو إذا اتهمت داعية، يجب أن تعلم علم اليقين أن اتهامك وحده لا يكفي فهناك حقائق، كنت أقول دائماً هذه الأمثلة، أنت معك كيلو من المعدن، بذكاءٍ شديد، وقوة حجةٍ بارعة أقنعت الناس بأنه ذهب وصدق الناس دعواك، وهو في الحقيقة ليس ذهباً إنه معدنٌ رخيص، من هو الخاسر ؟ الخاسر أنت، وإذا كان معك ذهبٌ، واتهمك الناس بأن هذا المعدن رخيص، من الرابح ؟ الرابح أنت، فخيرك منك، وشرك منك، لا شأن للناس بك، لذلك ورد في الحديث القدسي:

((يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك، قال: أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين لا يمشي إلى أحدٍ بسوء، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي))

[من الدر المنثور: عن " ابن عباس "]

الناس رجلان برٌ كريم وخَبٌ لئيم فالمؤمن متصل بالله والكافر منقطع عنه:

إذاً الناس رجلان ؛ مُقَرِّب إلى الله ومُبَعِّد عن الله، مُحَبِّب ومُبَغِّض، مبيّن ومضلل، محسن ومسيء، منضبط ومتفلت، على اختلاف أجناس الناس، وعلى اختلاف أعراقهم، وأنسابهم، واتجاهاتهم، ومللهم، ونحلهم، وتفكيرهم، وطبقاتهم، وانتماءاتهم، بالنهاية الناس رجلان برٌ كريم وخَبٌ لئيم، فالمؤمن يُقَرِّب، المؤمن يُحَبِّب، المؤمن يُبَيِّن، المؤمن ينضبط، المؤمن محسن، المؤمن مصلح ؛ الكافر مُبَعِّد، مُبَغِّض، مُضَلِّل، مُتَفَلِّت، مسيء، مفسد، هذا هو التقسيم الحقيقي لبني البشر، متصل بالله ومنقطع عنه.

المؤمن جهده الأكبر وهدفه الأقصى أن يقرب الناس من الله، أولاً بدعوته، ثانياً بقيَمِهِ، ثالثاً بقدوته، بسلوكه، بأعماله، بأفعاله، بأقواله، بحرفته، بصنعته، كل شيءٍ في المؤمن يدعو إلى الحق، وكل شيءٍ في الكافر يدعو إلى الباطل، فهنيئاً لمن كان معيناً على الخير، هنيئاً لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، هنيئاً لمن أطلق لسانه في الحق، والويل لمن أطلق لسانه في الباطل، هنيئاً لمن قرَّب الناس من الله، والويل لمن أبعدهم عنه، هنيئاً لمن حبب الناس بالله، والويل لمن بَعَّد الله إليهم، عن طريق قسوتهم، وعن طريق جفوتهم.

يا أيها الذين آمنوا، أسلوب تربوي رائع، أن إياكم أن تكونوا كأصحاب موسى، إياكم أن تكونوا في تعاملكم مع نبيكم، كما تعامل أصحاب موسى مع نبيهم، طبعاً القصة لها معنى، عندما تكلم بعض من عاصر النبي عليه الصلاة والسلام فقالوا: **كيف يتزوج زوجة متبناه** ؟ فالله عزّ وجل يرد عليهم، قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69))

النبي له مقام رفيع جداً، أما أن يمر النبي في الطريق فيرى باباً مفتوحاً، فينظر إلى امرأةٍ يبدو له منه جمالها، فيقول: **سبحان الله متأوّهاً**، وتسمع زينب كلامه فتخبر زيداً، الأنبياء فوق هذا المستوى، فوق هذا بكثير، هذا اتهامٌ باطل، هذا جهلٌ بمقام الأنبياء، المؤمن الورع يبدو أرقى من هذا المستوى.

النبي علمنا أن نتّقي الشبهات وأن نتقي مواطن التهم:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69))

هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[الجامع الصغير: عن " ابن عمر "]

إذا كنت عند الله وجيهاً فلا عليك، قل مع من قال: وكل الذي فوق التراب تراب، لكن النبي علمنا أن نتّقي الشبهات، أن نتقي مواطن التهم، كما فعل حينما رأى صحابيين أنصاريين يمشيان في الليل وقد رأيا النبي مع زوجته، فقال عليه الصلاة والسلام:

((على رسلكما))

فاستحيا وأسرعا، فقال:

((على رسلكما ـ أي انتظرا ـ هذه زوجتي فلانة))

فقالوا: أبِكَ نشك يا رسول الله ؟ قال:

((لئلا يدخل الشيطان بينكما))

أنت كمؤمن مكلف أن تتقي الشبهات، مكلف أن تبتعد عن مواطن التهم، وبعدئذٍ لا عليك لأن الله هو الحق، وهو الذي سيظهر الحق.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا (69))

بل إن من أسماء الله الحسنى الحق، ومن معنى هذا الاسم أنه سيظهر الحق، فأي متهمٍ بريء سوف يبرّئه الله عزّ وجل، وأية تهمةٍ كاذبةٍ سوف يكشفها الله عزّ وجل، وأي تطاولٍ ظالم سوف يضع الله صاحبه عند حَدِّهِ، هو الحق لأنه الحق:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا (69))

الدنيا فيها ابتلاء ولكن الأمور لا تستقر إلا على رفعة المؤمن ونصرته وتوفيقه:

الشيء الثاني:

(وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69))

كان عند الله ذو شرفٍ وشأنٍ عظيم، الشيء الأساس أن هناك آية لا تزيد عن كلمتين، لو عقلهما الإنسان عقلاً صحيحاً، لتغيرت حياته من أساسها، الآية:

(والعاقبة للمتقين(128))

(سورة القصص)

النهاية مع المؤمن، الدنيا فيها ابتلاء، وفيها امتحان، يصعد هذا ويهبط هذا، يغتني هذا ويفتقر هذا، يعز هذا ويذل هذا، هذا في الدنيا، ولكن الأمور لا تستقر إلا على رفعة المؤمن، ونصرة المؤمن، وتوفيق المؤمن، هكذا قال الله عزّ وجل:

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ(3))

(سورة القمر)

اتهام الناس لا يقدم ولا يؤخر لأن الحقيقة هي الشيء الثابت:

آت بكرة وليكن في داخلها قطعة رصاص ودحرجها، مهما تدحرجت لا تستقر إلا على وضع واحد، أن تكون هذه القطعة الثقيلة على الأرض:

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ(3))

(سورة القمر)

لك أن تقول ما تشاء، ولك أن تدّعي ما تشاء، ولك أن تبالغ، ولك أن تطعن، ولك أن تفنِّد، ولك أن تنتقد، ولك أن تتهم، افعل ما تشاء، لكن كل الكلام الذي تقوله لا يقدِّم ولا يؤخِّر، حقيقةٌ ثابتة، فمثل بسيط جداً: مركبة، سمّها ما شئت ! هي مركبة، لها معمل صنعها، ولها شكلها، ولها أناقتها، ولها إمكاناتها، ولها ميزاتها، إذا اتهمتها بأنها مركبة قديمة تبقى جديدة، قل عنها قديمة هي جديدة، قل عنها بطيئة هي سريعة، قل عنها رخيصة هي غالية، قل عنها ما شئت، كلامك لا يقدم ولا يؤخر ولا يغير شيئاً من الواقع.

قل عن هذه الورقة كتاب تبقى ورقة، فالكتاب كتاب، قل عن الكتاب ورقة يبقى الكتاب كتاباً.

أردت من هذه الأمثلة أن أبين لكم أن اتهام الناس لا يقدم ولا يؤخر، ولا يرفع ولا يخفض، ولا يجعل الغث ثميناً ولا الثمين غثاً، ولا الصالح طالحاً ولا الطالح صالحاً، ولا المحسن مسيئاً ولا المسيء محسناً، ولا المؤمن كافراً ولا الكافر مؤمناً، كلامٌ يلقى على عواهنه، لكن الحقيقة هي الشيء الثابت، الحق الشيء الثابت.

المنافقون أغبياء لأن أمرهم بيد الله ومن ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا:

لو أن إنساناً عاصر النبي عليه الصلاة والسلام، واستطاع بذكاءٍ حاد، وحجةٍ قوية، وطلاقة لسان أي ينتزع من فم النبي عليه الصلاة والسلام، وهو سيد الخلق وحبيب الحق، أن ينتزع منه حكماً في خصومةٍ لصالحه، وهو ليس مُحِقّاً، قلت: على الرغم من أن هذا الرجل الذكي، قوي الحجة، طليق اللسان، الذي استطاع أن ينتزع حكماً من فم النبي عليه الصلاة والسلام لصالحه في خصومةٍ، على الرغم من كل ذلك لا ينجو من عذاب الله ! الدليل هو قول النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من أخيه فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فإنما أقطع له قطعة من النار))

[مجمع الزوائد: عن " ابن عمر "]

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق، وهو المعصوم، لا ينفعك أن يحكم لك إن لم تكن مصيباً، إن لم تكن مع الحق، فهل ينفعك إنسانٌ دون النبي ؟! إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يستطيع أن ينفعك في ظلامة، هل ينفعك من دونه ؟! من باب أولى لا ينفعك، علاقتك مع الله. لذلك ؛ المنافقون أغبياء، لأن أمرهم بيد الله، هم نسوا ربهم واتجهوا إلى غيره، فأحبط أعمالهم، العصاة أغبياء، من ابتغى أمراً بمعصيةٍ كان أبعد مما رجا.

البطولة أن تثبت حجتك يوم القيامة وأن تنجو من هول ذلك اليوم:

سيدنا سعد بن أبي وقاص ـ هو صحابي جليل ـ هو الصحابي الوحيد بين أصحاب رسول الله الذي كان إذا قدم على النبي عليه الصلاة والسلام، النبي يحيّه أجمل تحية ويداعبه، يقول:

((هذا خالي فليرني امرؤ خاله))

[كنز العمال: " عن جابر "]

في السيرة النبوية الشريفة، النبي عليه الصلاة والسلام ما فدى إنساناً بأمه وأبيه إلا سيدنا سعد بن أبي وقاص، في أُحُدٍ قال:

((سعد ارم فداك أبي وأمي))

[زيادة الجامع الصغير والدرر المنتثرة: عن " علي "]

قال له عملاق الإسلام سيدنا عمر كلمة رائعة:

" يا سعد لا يَغُرّنّكَ أنه قد قيل خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له."

أبلغ من هذا، فقد قال النبي الكريم لابنته الحبيبة إلى قلبه:

((يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسكِ من النار أنا لا أغني عنك من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة وأحمد والدارمي عن " أبي هريرة "]

أي أن علاقتك مع الله في كسب المال، في نصح المسلمين، أقول هذه الكلمة دائماً: البطل هو الذي يهيّئُ جواباً لله عزّ وجل يوم القيامة، لمَ طلقت هذه المرأة ؟ هل معك الجواب ؟ لمَ كتبت لك بيتها ثم طلقتها ؟ لمَ غششت هذا الذي اشترى منك هذه البضاعة ؟ لمَ أخفيت عنه العيب ؟ هل معك جواب ؟ لمَ أعطيت فلاناً ؟ لمَ منعت فلاناً ؟ البطولة أن تثبت حجتك يوم القيامة، البطولة أن تنجو من هول يوم القيامة، هذه البطولة، فهذه الدنيا دار ابتلاء، دار امتحان، دار عمل، ولكن الآخرة دار جزاء.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

الدين كلمتان ؛ معرفة الله والطاعة له:

أيها الأخوة الأكارم، الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ (70))

هذه الآية فيها كل الدين، إذا آمنت بالله أطعته، إن آمنت به ولم تطعه فكأنك ما آمنت به، أما أن تطيعه من دون أن تؤمن به فهذا مستحيل، أن تؤمن به ثم تعصيه فهذا إدعاء، وهذا كلامٌ فارغ، وهذا في الحقيقة ليس إيماناً، فلو قال لك أحدهم ـ لا سمحَ الله ـ على كتفك عقربٌ، لو قلت له: شكراً، أنا شاكر لهذه الملاحظة القيّمة، وسوف أكافئك عليها إن شاء الله في المستقبل، لو قلت هذا الكلام بهذا الهدوء معناها أنك لم تفهم هذا الكلام الذي قاله لك، لو قلت له: شكراً على هذه الملاحظة التي ينبغي أن أقدِّرها حق قدرها، إذا قلت هذا الكلام بهذا الهدوء، لم تفهم ماذا قال لك، لو أنك عرفت ما هي العقرب، وأن لدغتها مميتة، لقفزت من على الأرض حينما سمعت كلمة عقرب، لأنك آمنت بأن الحياة صارت خطرة، فما دمت لم تأبه معنى ذلك أنك ما عرفت معنى الكلمة، أو ما عرفت العقرب ما هي، أو لم

تسمع منه بدقة، فمن لوازم الإيمان الطاعة، الإيمان من دون طاعةٍ لا جدوى منه، والأصح أنه ليس إيماناً، أما الطاعة من دون إيمان هذا شيء مستحيل.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ (70))

إن كنت آمنت بالله فاتق الله، التوحيد هو نهاية العلم أن تؤمن بالله، ونهاية العمل أن تطيع الله عزّ وجل، وما الدين كله إلا كلمتان ؛ معرفة الله وطاعة له، الطاعة لا تكون قبل المعرفة، والمعرفة الحقيقية لا تثمر إلا طاعة.

كل اعتقادٍ صحيح يؤدِّي إلى قول سديد:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70))

من بعض معاني هذه الآية أن الإنسان إذا اعتقد اعتقاداً صحيحاً قال قولاً سديداً، فإذا نصح أحد شاباً مُقْدِماً على الزواج، أن يذيب أوقية من الملح في ماء وأن يصب هذا الماء أمام بيت المتزوج، من أجل أن يكون الوفاق بينهما، هذا الكلام غير سديد، لماذا ؟ لأن الاعتقاد غير صحيح، الاعتقاد غير الصحيح يثمر كلاماً غير سديد، وإذا قال أحدهم للآخر: إن لم تغش الناس لن تستطيع أن تكسب قوت يومك، هكذا الدنيا، هذا كلامٌ غير سديد، لأنه بني على اعتقادٍ غير صحيح، فإذا أمرنا أن نقول قولاً سديداً، فالقصد أن نعتقد اعتقاداً صحيحاً، لأن كل اعتقادٍ صحيح يؤدِّي إلى قول سديد.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70))

أي أن أخطر شيءٍ في حياة الإنسان عقيدته، إن صحّت صَحّ عمله، وإن زاغت زاغ عمله، إن صحت صح سلوكه، وإن فسدت فسد عمله، فإذا طُلِب منك أن تقول قولاً سديداً، أي أنك مطالبٌ ضمناً أن تعتقد اعتقاداً صحيحاً حتى تقول قولاً سديداً، أيّة نصيحةٌ تسديها للناس إذا كان أساسها المعصية فهذا قولٌ غير سديد، كأن تقول: لن ترتقي في عملك إلا إذا كذبت هذا كلام غير سديد، أيها المحامي لن تربح أرباحاً طائلة إلا إذا بنيت عملك على الكذب ! هذا كلام غير سديد، أيها التاجر لا بدّ من التدليس في البضاعة حتى تباع سريعاً ! هذا كلام غير سديد، معنى غير سديد أي غير صحيح، أو غير صادق، أو غير صائب، أي لا يطابق الواقع، غير صادق ولا يطابق الواقع، أي فيه خطأ، فيه خلل، فأي كلامٍ غير سديد أساسه اعتقاد غير سديد.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70))

أي اعتقدوا اعتقاداً صحيحاً، هذه واحدة.

القول السديد هو في الحقيقة عملٌ سديد فمن لوازم القول السديد العمل الصحيح:

المعنى الثاني: أنك إذا قلت قولاً سديداً، أي إن لم تكذب، ما كذبت أبداً، ولا اغتبت، ولا كان كلامك فاحشاً، ولا بذيئاً، ولا فيه سبابٌ، ولا فسوق، ولا عصيانٌ، ولا فيه تحقيرٌ، قال عليه الصلاة والسلام:

((المُسلِمُ أخُو المُسْلِمِ، لا يَظلِمُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ))

[رواه مسلم عن " أبي هريرة "]

إذا قلت قولاً سديداً بشكلٍ طبيعي صار عملك صحيحاً، فمن لوازم القول السديد العمل الصحيح. صار عندنا أشياء ثلاثة: عقيدة صحيحة تفرز قولاً سديداً، والقول السديد يفرز عملاً صالحاً، إذا إنسان ضبط لسانه يصبح عمله جيداً، لو فرضنا عمل بالتجارة، وقال له شخص ما: هذه البضاعة من أين مَنْشَؤها ؟ ما دام عاهد نفسه أن لا يكذب، تكلم كلاماً صحيحاً، وباعها بسعرٍ معقول، وأظهر عيبها، فهذا القول السديد صار عملاً سديداً، لأن الأقوال أعمال، لم يكذب، ولم يدلس، ولا أخفى، في موطن الكلام تكلم، في موطن السكوت سكت، هو في جلسة وجاءت قصة زيد، سكت، يعرف عنه قصصاً ممتعةً جداً، لو تكلم بها لوقع في الغيبة، لكنه سكت، أو تكلم فنصح، إذاً هذا القول السديد هو في الحقيقة عملٌ سديد، من هو التاجر ؟ هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا))

[الجامع الصغير: عن " معاذ "]

صار الكلام عملاً.

((إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا ـ الوعد أيضاً كلام ـ وإذا اشتروا لم يذموا، ـ أيضاً كلام ـ وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا))

[الجامع الصغير: عن " معاذ "]

التاجر الصدوق قال عنه النبي عليه الصلاة والسلام:

((التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء))

[الجامع الصغير: عن " أبي سعيد "]

الإيمان من لوازمه العمل أما العمل من دون إيمان لا يكون:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (71))

اعتقادٌ صحيح يؤدِّي إلى قولٍ سديد، والقول السديد من لوازمه عملٌ رشيد، اعتقادٌ صحيح، قولٌ سديد، عملٌ رشيد، والإيمان من لوازمه العمل، أما العمل من دون إيمان لا يكون، الإيمان بلا عمل جنون، والعمل من دون إيمان لا يكون.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70))

آمنت بالله، ماذا تنتظر ؟ لمَ لا تطيعه ؟ أنت ثقافتك عالية، أيقنت أن هذه الرائحة رائحة غاز الاحتراق في البيت ؟ نعم، وأيقنت أن هذا الغاز قابل للانفجار ؟ نعم، وأيقنت أنه في كل لحظة يمكن أن ينفجر البيت ؟ نعم، فلماذا أنت واقف ؟ لمَ لا تذهب وتغلق هذا الصنبور ؟ لمَ ؟ لأن هذا الشيء لا يعقل، إذا آمنت بأن هذا الغاز منفجر، وربما أحرق البيت كله، والرائحة ثابتة، وأنت متحرّك، لماذا أنت واقف ؟ فعلاً هذا سؤال كبير جداً، هل تعرف أن غض البصر أمر إلهي ؟ نعم، كيف تطلق بصرك ؟ فإذا قلت أنا: هل هذا الكلام كلام الله ؟ كلام الله، عندك شك ؟ لا، أعندك شكٌ أن هذا الكلام ليس كلام الله ؟ لا والحمد لله، لكنه يأمرك أن تفعل هكذا، أعندك شك أن هذا القرآن ليس كلام الله ؟ لا وأعوذ بالله، هو يأمرك ألا تأكل أموال الناس بالباطل.

هناك سؤال خطير جداً، سؤال محرج: ما دمت قد آمنت بالله لماذا أنت واقف ؟ أين حركتك ؟ أين مبادرتك إلى طاعة الله ؟ أين هروبك من المعصية ؟ أين المَنْهَل الذي تشرب منه ؟ آمنت أن العلم هو كل شيء ؟ آمنت أن العلم هو الطريق الوحيدة إلى الله عزّ وجل ؟ آمنت أن رتبة العلم أعلى الرتب ؟ نعم، آمنت أن أعلى كتابٍ في الكون هو كتاب الله عز وجل ؟ نعم، فلماذا لا تسعى إلى فهمه ؟ لماذا ؟ ما الذي يمنعك عن أن تفهم كلام الله ؟ موعد ؟ ما هذا الموعد ؟ لقاء ؟ ضيف، استقبال شخص ؟ ألا ترى أن أي نشاطٍ تفعله وقت مجلس العلم نشاطٌ تافه، تافه جداً، استقبلت إنساناً، يقول لك: والله في مطر الحمد لله، الأسعار عندكم ؟ الأمطار ؟ هذا الكلام ؟ أحياناً تمضي وقتاً بموضوعٍ سخيفٍ جداً، وتضيّع عليك شيئاً ثميناً جداً وهو معرفة كلام الله عزّ وجل، منهجك في الحياة.

مفهوم اللهو كما فسره العلماء:

ما هو اللهو كما فسره العلماء ؟ أن تشتغل بالخسيس عن النفيس، إنسان غاص في البحر، وتعرض لأخطار أسماك القرش، وأخطار الاختناق، وأخطار تعطل غاز الأوكسجين، وأخطار الجزر المرجانية، وأخطار بعض الأفاعي في البحار، وغير ذلك من الأخطار، ووصل إلى قاع البحر، فرأى اللؤلؤ ورأى الصدف، ترك اللؤلؤ وحمل الصدف وصعد به إلى وجه الماء ! نقول: هذا يلهو، لأنه ترك النفيس واشتغل بالخسيس، وشأن الناس الآن أكثرهم هكذا، يدعون مجالس العلم، يدعون فهم كلام الله، يدعون

فهم سنة رسول الله، يدعون عبادة الله، يدعون الأعمال الصالحة التي ترفعهم عند الله، وهم غارقون إلى قمة رأسهم في الأشياء الخسيسة، التي عند الموت لا تقدم ولا تؤخر، ولا تعطيهم شيئاً:

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنْ السَّاخِرِينَ(56))

(سورة الزمر)

لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (71))

العلم بالله هو الطريق الوحيدة إلى الله فهو طريق سعادة الدنيا والآخرة:

ملخص الملخص: أنك مخلوقٌ للجنة، ففيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، خُلِقْتَ لها، والجنة كما قال الله عزّ وجل:

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(32))

(سورة النحل)

تحتاج إلى عمل صالح، والعمل الصالح لا يمكن أن يكون من دون علم ـ أنا أسلسل الأمور ـ أنت مخلوقٌ للجنة، والجنة ثمنها العمل الصالح، والعمل الصالح من غير علمٍ لا يكون، ألا ترى معي أن العلم بالله هو الطريق الوحيدة إلى الله، طريق سعادة الدنيا والآخرة، هذا الذي قاله الإمام الشافعي رضي الله عنه قال: **" إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ".**

أحياناً شركة تطور صناعتها، وتنفق على التطوير مئات الألوف، بل ألوف الملايين، من أجل تطوير صناعة، فإذا نجحت بيع إنتاجها في العالم كله، ووقف الناس بانتظار أن يتاح لهم شراء هذه البضاعة، وتصبح شركة تبيع في كل أقطار العالم بفضل التطوير العلمي لإنتاجها، وأما الصناعة التي بعيدة عن التفكير العلمي في التطوير تبقى كاسدة، فكلام الإمام الشافعي صحيح: **" إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم"**، حتى بمجال كسب المال الذي يفكر بطريقةٍ علمية يحقق أهدافه كلها، والذي يفكر بطريقةٍ أساسها الجَهل، قد يفاجأ، قد يحبط عمله، فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم.

أنا ألح على هذه الفكرة لأن هذا يقيني ؛ أنك لن تصل إلى الله إلا بالعلم، فهذا الذي يجعل خرق العادات هو الوسيلة الوحيدة بتعريف الناس بالله، هذا إنسان ضال مضل، ماذا يجدي الناس أن تقوم بأعمال أمامهم غير اعتيادية ؟ ماذا يجديهم أو ينفعهم أن تخرق العادات ؟ لهم أمراض، لهم أسئلة كثيرة جداً، لهم مشكلات، لهم شُبُهَات، يجب أن تجيب أسئلتهم، وأن تحل مشكلاتهم، وأن توضح الشبهات حتى

ترقى بهم إلى الله عزّ وجل، فلذلك لابدّ من العلم، والعلم له مكان، فلا يوجد إنسان أخذ دكتوراه في الطب وهو في بيته، مستحيل، إنسان يصل لأهدافه وهو جالسٌ في بيته، هذا من رابع المستحيلات، فالله سبحانه وتعالى أراد أن تكون صلاة الجمعة فريضةً، لماذا ؟ من أجل العلم.

كلما زادت الشبهات والشهوات أصبحت بحاجةٍ إلى علمٍ صحيح وقدرةٍ على ردِّ كل الشبهات:

في هذا الدين العظيم فريضةٌ نص عليها القرآن الكريم:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)

(سورة الجمعة: من آية " 9 ")

ماذا في صلاة الجمعة ؟ ماذا تزيد صلاة الجمعة على صلاة الظهر في المسجد ؟ الخُطبة، معناها أراد الله عزّ وجل أن تطلب العلم، يوجد في الخطبة آية، حديث، حكم فقهي، تذكرة بالآخرة، قصة عن أصحاب رسول الله، وهكذا كلما زادت الشبهات والشهوات أصبحت بحاجةٍ ماسةٍ إلى علمٍ صحيح، وإلى عقيدةٍ راسخة، وإلى فهمٍ دقيق، وإلى إدراكٍ عميق، وإلى قدرةٍ على رد كل الشبهات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ (71))

كل بني آدم خَطّاء، ولكن العبد ـ كما قلت لكم دائماً ـ عندما يكون الإنسان مؤمناً بالله عزّ وجل، مؤمناً بضعفه، يعرف حجمه، يذعن لله عزّ وجل في كل ما أمر، هذا الإنسان قد تزل قدمه أحياناً، قد يقع في خطأٍ غير مقصود، ما دام قد آمن بالله، واعترف بعبوديته له، وما دام في الحياة، فطريق التوبة وطريق غفران الذنوب طريقٌ واضح، فلذلك هذا طمأنينة، النبي عليه الصلاة والسلام هو المعصوم، ولكن المؤمن لو أنه أخطأ، لو أنه قصّرَ، لو أنه أساء عن غير قصدٍ منه، فإن باب التوبة مفتوح، باب الإصلاح مفتوح.

من كانت مقاييسه منطبقةً مع كلام الله عزّ وجل فسوف يفوز فوزاً عظيماً:

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71))

أيها الأخوة الأكارم، بربّكم: من تراه أنت في أعماقِك من دون رقابة ؟ من تراه فاز فوزاً عظيماً ؟ قل لي من هو الفائز عندك أقل لك من أنت ؟ إنسان اشترى أرضاً، باعها بخمسين ضعفاً، هل تقول هنيئاً له؟ إنسان اشترى بيتاً، ارتفع سعره ثلاثين ضعفاً، خمسين ضعفاً ؟ إنسان حقق بتجارته أرباحاً مذهلة ؟

إنسان اقترن بامرأةٍ تروق له ؟ إنسان اقتنى أجمل التحف ؟ من هو الفائز ؟ قل لي من هو الفائز في نظرك أقل لك من أنت، أما إذا كانت مقاييسك منطبقةً مع كلام الله عزّ وجل:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71))

قد تكون أنت وصديق لك في مقعد دراسة واحد، أن تكونا صغيرين على مقعدٍ واحد، وأنت عرفت الله، وأطعته، وأنت في طريق مرضاته ؛ لكن دخلك قليلٌ قليل، وحياتك خشنة، وبيتك صغير، وهذا الصديق الذي كان إلى جانبك على مقعدٍ واحد صار يتكلم بألوف الملايين، وله من البيوت أجملها، ومن المركبات أكثرها حداثةً وأغلاها ثمناً، وله من المزارع أجملُها، إذا قلت مرةً: هنيئاً له، لقد أعطاه الله وحرمني، فأنت لا تعرف الله أبداً، وأنت لست في مستوى هذه الآية.

إن لم تكن رؤيتك للفوز العظيم كما يقول الله عزّ وجل فلست مؤمناً:

خالق الكون يقول لك:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71))

أنت ماذا ترى الفوز ؟ في كسب الدرهم والدينار ؟ في اقتناء البيوت الفخمة ؟ في ركوب السيارات الفارهة ؟ في إنفاق الأموال الطائلة ؟ في المظاهر الفخمة ؟ في تجارةٍ عريضة ؟ في منصبٍ حساس ؟ في مركزٍ رفيع ؟ ماذا ترى أنت الفوز العظيم ؟ إن لم تكن رؤيتك للفوز العظيم كما يقول الله عزّ وجل فلست مؤمناً، هذا الذي له دخلٌ قليل، وبيتٌ صغيرٌ، وحياةٌ خشنةٌ، لكنه مطيعٌ لله عزّ وجل، يعرف لماذا خلق وإلى أين المصير ؟ هذا الذي يرى صديقه الذي كان إلى جانبه على مقعد واحد، قد صار يتحدث بالملايين، بمئات الملايين، وله من الدنيا العريضة ما شاء، إن قال هذا الأول هنيئاً للثاني فهو لا يعرف الله، يجب أن يقول: هنيئاً لي لمعرفة الله، وأرجو الله له الهدى، هكذا يقول، هنيئاً لك بمعرفة الله، هنيئاً لك بطاعته، هنيئاً لك بمرضاته، هنيئاً لك بإنفاق زكاة مالك، هنيئاً لك بخدمة الناس، هنيئاً لك بفهم كلام الله، هنيئاً لك بذكر الله.

الفرق بين كلام أهل الدنيا وكلام أهل العلم:

قال تعالى:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ)

(سورة القصص: من آية " 79 ")

أحياناً الشخص يتأوّه من الآخرين تأوّهاً تحس أنه انزعج بشدة، مثلاً أحدهم يملك بيتاً مساحته أربعمائة متر، وهو عنده غرفة ونصف، سيارته ثمنها اثنا عشر مليوناً، خير إن شاء الله:

(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79))

(سورة القصص: من آية " 79 ")

هذا كلام أهل الدنيا:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص: من آية " 80 ")

هذا الجواب، فلذلك:

(ۚ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71))

والحمد لله رب العالمين، كنت أظن أن هذا الدرس هو الأخير من سورة الأحزاب، لكن من فضل الله عزّ وجل شُرحَت هذه الآيات بالتفصيل.

الآيات التالية هي آيات التكليف والأمانة:

بقي علينا قوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (73))

هذه الآيات مهمة جداً، وهي آيات التكليف والأمانة، وأرجو الله سبحانه وتعالى في الدرس القادم أن يوفّقنا إلى شرحها شرحاً دقيقاً لأنها أصل التكليف، أنت إنسان مكلّف، أنت المخلوق الأول، أنت المخلوق المكرّم، أنت الذي سخر له ما في السماوات والأرض، يجب أن تعرف ذاتك، يجب أن تعرف من أنت ؟ لأنه من عرف نفسه عرف ربه، يجب أن تعرف المهمة التي من أجلها خُلِقت، يجب أن تعرف الرسالة التي حملت، يجب أن تعرف الدار التي أنت عليها مُقبل، يجب أن تعرف الحساب الذي أنت سوف تحاسب به، فهذه أسئلة خطيرة جداً، فأنت الإنسان الأول والمكرم الذي خلق الكون من أجلك، قال تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 13 ")

في الدرس القادم إن شاء الله نشرح هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحزاب 033 - الدرس (18-18): تفسير الآيتان 72 - 73

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-01-1992

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الثامن عشر والأخير من دروس التفسير لسورة الأحزاب.

الآيات التالية تحدد هوية الإنسان و مهمته ومرتبته بين المخلوقات:

وصلنا إلى آخر مقطعٍ من مقاطع هذه السورة، وهي قوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (73))

(سورة الأحزاب)

أيها الأخوة الأكارم، هذه الآيات من أدق آيات هذه السورة، بل إن هذه الآيات تحدد هوية هذا الإنسان، وتحدد مهمته، وتحدد مرتبته من بين المخلوقات، بادئ ذي بدء، الإنسان كائن موجود أودع الله فيه قوةً تعرُّفِيّة، قوة إدراكية، الإنسان يفهم، الإنسان يعقل، الإنسان يُدرك، هذا العقل الذي أودعه الله في الإنسان له مهماتٌ محدودة ؛ فبإمكانه إذا نظر في الكون أن يحكم بوجود خالقٍ لهذا الكون، وهذا الخالق هو ربٌّ، وهو إلهٌ، وهو غنيٌّ، وهو قويٌّ، إلى آخر أسماء الله الحسنى، العقل يحكم من خلال الكون بوجود الله عزّ وجل، هذه من مهمة العقل.

والعقل كما يقول العلماء مناط التكليف، لولا العقل لما كُلِّفَ الإنسان، والعقل بإمكانه إذا قرأ هذا الكتاب أن يكتشف إعجازه، وإذا اكتشف إعجازه يحكم أن هذا الكتاب كلام الله عزّ وجل، وهذا أيضاً من مهمات العقل، والعقل يستنبط أن هذا الذي جاء بهذا الكتاب وهو المعجز لا بدّ من أن يكون رسول الله.

مهمة العقل أن يصل إلى الله إيماناً وأن يصل إلى الإيمان بكلامه وبرسوله:

إذاً عقلك يمكن له أن يصل إلى الله إيماناً، وأن يصل إلى الإيمان بكلامه وبرسوله، هذه مهمة العقل ؛ لكن العقل لا يستطيع أن يكشف ماذا كان في الأحقاب السحيقة من التاريخ، كيف نشأ الإنسان ؟ كيف خُلِق ؟ يا ترى خلقت المخلوقات دفعة واحدة ؟ كيف خلق الكون ؟ هذا الماضي السحيق ربنا عزّ وجل حسمه بآية قال:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا(51))

(سورة الكهف)

هذه الآية:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أنفُسِهِم)

مرةً شرحتها بمثل: لو فرضنا أب تزوج بالخمسينات، وبالستينات جاءه مولود فرضاً، هذا المولود كبر حتى صار شاباً، والأب كان مستأجراً محلاً تجارياً بالثلاثينات، وكان الأب جالساً مع أصحابه يقول: هذا المحل أخذته من فلان الفلاني، بأجرة قدرها كذا، والملابسات كذا، والقصة كذا، فوقف هذا الابن وقال: لا ليس كذلك أخذته من فلان لا من فلان، وبهذا المبلغ لا بذاك المبلغ، بماذا يجيبه الأب ؟ أين كنت يوم استأجرت المحل التجاري ؟ أين كنت وقتها ؟ لم تكن شيئاً مذكوراً، فالإنسان حينما يتنطّع إلى تفسير بداية البشرية، فيقول: الإنسان الحجري وما إلى ذلك، فحينما يلغي البداية التي شرحها الله في القرآن الكريم، نقول لهذا الإنسان: كيف عرفت بداية الخلق ؟ إن عقلك لا يكفي.

الإيمان نوعان إيمان تحقيقي وإيمان تصديقي:

العقل البشري مهمته أو قدرته استدلالية، ومعنى استدلالية أي ينظر إلى الشيء، فيحكم من خلال هذا الشيء على صانعه، فالعقل يرى الكون فيرى المكون، يرى النظام فيرى المنظم، يرى الأثر فيرى المؤثِر، يرى الخَلق فيرى الخالق، أما أن ينتقل العقل إلى مئات ألوف ملايين السنين، إلى ملايين ملايين السنين، قبل أن نخلق جميعاً ويقول لك: كان كذا وكذا، وجرى كذا وكذا، وحصل كذا وكذا، الإجابة الحاسمة من قبل الخالق جلّ وعلا أن:

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أنفُسِهِم)

لذلك نحن في بداية الخليقة لا نعرف إلا ما ذكره الله لنا، نقطة دقيقة جداً، الإيمان نوعان ؛ إيمان تحقيقي وإيمان تصديقي، الشيء الذي أُنيط بعقلك أن يعقله هذا أنت مكلفٌ به، والشيء الذي أخبرت عنه ليس لك إلا أن تصدِّق الخبر الصادق، لذلك بداية الحياة ربنا عزّ وجل في هذه الآية أشار إليها. نحن إذاً بادئ ذي بدء أمام خطين كبيرين من خطوط العقيدة، خط التحقيق وخط التصديق، الأمور المتعلقة بإيمانك بوجود الله تحقيقاً، إيمانك بأسمائه الحسنى تحقيقاً، إيمانك برسالة النبي عليه الصلاة والسلام تحقيقاً، إيمانك أن معه معجزة تحقيقاً، إيمانك بأن هذا الكلام كلام الله تحقيقاً، أما إيمانك ببداية الخلق تصديقاً، لأن هذا الشيء يعجز عنه عقلك أن يصل إليه، وكل شيءٍ عجز عقلك عن الوصول إليه لا بدّ من التصديق فيه، فنحن فيما كان في الماضي السحيق لا نعرف، وليس بإمكاننا أن نعرف إلا ما أخبرنا الله به، ونحن فيما سيكون في المستقبل البعيد لا نعرف، وليس بإمكاننا أن نعرف إلا ما أخبرنا الله به.

الإنسان بين تحقيقٍ فيما وُكِّلَ إلى العقل وبين تصديقٍ فيما عجز عنه العقل:

الإيمان بعالم الأزل وعالم الأبد، ما بعد الموت، البرزخ، الصراط، الصور، الصحف نُشِرَت، الجنة، النار، هذا كله إيمان تصديقي، والإيمان بالبدايات الأولى للعالم هذا إيمان تصديقي، لكن الإيمان بوجود الله وبأسمائه الحسنى إيمان تحقيقي، هذا من مهمة العقل، وقد أُنيط هذا بالعقل، والعقل بإمكانه أن يصل إلى هذا، الإيمان برسالة النبي إيمان تحقيقي، الإيمان بأحقية هذا القرآن إيمان تحقيقي، أما الإيمان بما كان في الماضي السحيق، أو في المستقبل البعيد، أو الإيمان بذات الله عزّ وجل، بصفات ذاته، هذا الشيء لا نملك إلا أن نصغي إلى القرآن الكريم، فأنت بين تحقيقٍ فيما وُكِّلَ إلى عقلك، وبين تصديقٍ فيما عجز عنه عقلك.

لكن الله سبحانه وتعالى رحمة بنا أخبرنا عن الشيء الذي عجز عقلنا عن إدراكه ونحن في أمس الحاجة إليه، إخبار الصادق، فإن حَكَّمْتَ عقلك فيما أخبرك الله به فإيمانك بالله ضعيف، الذي أخبرك الله به، هو الذي يحكم عقلك، وليس عقلك الذي يحكم ما أخبرك الله به.

لذلك أية نظريةٍ تقرءونها عن أصل العالم، الإنسان أصله قرد كما يقول دارون، الإنسان نشأ نشأةً بدائية متوحشة، هذه النظريات لا تزيد عن تخمينات، ولا تزيد عن إلقاء الكلام على عواهنه، وكلما تقدّم العلم كشف خطأ ما فسّره العلماء المنحرفون.

على كلٍ ربنا عزّ وجل في هذه الآيات ـ وهي من أدق آيات القرآن ـ يحدد هوية الإنسان، قال الله عزّ وجل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا (72))

أولاً يُستنبط في الأعم الأغلب وفي بعض أقوال المفسرين، يستنبط أن السماوات والأرض والجبال نفوسٌ عرضت عليها الأمانة، يؤكِّد هذا التفسير أن الله سبحانه وتعالى يقول في آيةٍ أخرى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: من آية " 44 ")

لو قلت: إن هذا الشيء الذي خلقه الله عزّ وجل خَلْقَاً رائعاً، إذا نظرت إليه سَبَّحْتَ بحمده، نقول لك: لا، لست أنت المُسَبِّح بل هو المُسبِّح، هو المسبح بطريقةٍ لا تعرفها أنت.

الأمانة لها تفسيراتٌ كثيرة:

حينما يقول الله عزّ وجل:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الإسراء: من آية " 44 ")

هذه ما من شيءٍ لاستغراق أفراد النوع، ما من شيءٍ في الكون إلا وهو يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم، يفهم أن السماوات والأرض والجبال نفوس، وهذه النفوس مخلوقات عرضت عليها الأمانة.

الآن ما الأمانة ؟ هذه الأمانة لها تفسيراتٌ كثيرة، أوجه هذه التفسيرات: أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليسعدهم، خلقهم ليسعدهم، والإنسان يسعد بعطاء خالق الكون، لكن عطاء خالق الكون متفاوت، فلو أن الإنسان تأهّلَ لأخذ أكبر كميةٍ من هذا العطاء ينال عطاءً لا نهائياً، فإذا لم يتأهّل، فمثلاً يوجد متعة بالعلم ـ وهذا شيء بسيط بين أيديكم ـ لا يستطيع الإنسان أن يذوقها إلا إذا تعلم، أما ككائن بإمكانه أن يذوق الطعام ويستمتع به، شأنه شأن أي مخلوق حتى الحيوان، أن تأكل وأن تستمتع هذا قاسمٌ مشتركٌ بين كل المخلوقات، لكن أن تنعُم بنعمة العِلم هذا شيءٌ لا يمكن أن تُعْطاه، لا بدّ من أن تأخذه أنت، لا بدّ من أن تتعلم حتى تذوق طعم العلم، أنا أضرب الأمثلة لأن الموضوع دقيق جداً، فالله عزّ وجل خلق الخلق، وخلقهم ليسعدهم، ولكنهم إذا أهّلوا أنفسهم يسعدوا سعادةً لا نهائية، فصار هناك عرضٌ على المخلوقات أن يسعدوا سعادةً بلا حدود.

حمل الأمانة عرض له مكاسب كبيرة جداً وفي المقابل فيه مخاطر كبيرة:

قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا (72))

لكن هذا العرض عرض له مكاسب كبيرة جداً، وفي المقابل فيه مخاطر كبيرة، مكاسب ومخاطر، فكيف نحن عندما نعطي الطيار راتباً ضخماً جداً مائة ضعف عن راتب سائق السيارة العادية، مائتي ضعف، هذا الراتب الضخم، لأنه لو صار خطأ بالجو، لا يوجد حل وسط، سيفقد حياته وحياة الركاب، أما سائق السيارة في الأرض، لو صار هناك خطأ يجعلها على يمين الطريق، ويذهب إلى صاحبها، ويقول له: تعال وأصلح مركبتك، فكلما عظمت المسؤولية، كلما علا قدر الإنسان عظمت مسؤوليته، فربنا عزّ وجل عرض على المخلوقات عرضاً خاصاً، أي أن يسعدوا سعادة لا نهائية، سعادةً بلا حدود، سعادةً يصعب على العقل تصورها، فهذه المخلوقات السماوات، الأرض، الجبال، المجرّات:

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا (72))

أبين، وأشفقن، أشفقن منها أي خِفنَ منها.

(وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ (72))

ما هي الأمانة ؟ هذا المخلوق جُعِلت نفسه أمانةً بين يديه، فإذا استطاع أن يعَرّفها بربها، وأن يحملها على طاعته، وأن يجعلها تتقرب إليه تعالى، سعد هذا المخلوق وإلى الأبد، وإذا نسي هذا المخلوق ربه،

وانغمس في شهواته، ونسي الأمانة التي حُمِّلَهَا، ونسي التكليف الذي كلف به شقي إلى الأبد، هذه هي الأمانة، الأمانة أن تكون نفسك بيدك، موضوعةً أمانة عندك.

الأمانة أن تكون نفسك بين يديك أنت مكلفٌ أن تطهرها و تسمو بها:

يقول الله عزّ وجل في بعض الآيات:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9)وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا(10))

(سورة الشمس)

بإمكانك أن تزكي نفسك، بإمكانك أن تحملها على طاعة الله، بإمكانك أن تجعلها مستقيمةً، بإمكانك أن تطهرها، بإمكانك أن تزكِّيها، بإمكانك أن تسمو بها، وحينما تلتفت إلى الدنيا، وتنغمس في حمأتها، وتلهث وراء شهواتها، تدنِّسها، وإذا دنستها استحققت العذاب الأبدي، هذه هي الأمانة، الأمانة أن تكون نفسك بين يديك، أنت مكلفٌ أن تطهرها وأن تسمو بها.

بالطبع هذا الموضوع طويل وله فروع كثيرة جداً، ربنا عزّ وجل حينما حَمَّلَ الإنسان الأمانة أعطاه المقومات، أعطاه الوسائل، إليكم هذه الوسائل، الإنسان قَبِلَ أن يحمل الأمانة، الأمانة أن يعرف ربه وأن يزكي عمله، الأمانة ألا يكون جهولاً لربه، وألا يكون ظلوماً لعمله، أما إذا كان ظلوماً جهولاً فقد ضيّع الأمانة واستحق المهانة، وشقي في الدنيا والآخرة، فالدين كلمتان: ألا تكون ظلوماً جهولاً، وأن تكون عالماً في عقلك، صالحاً في عملك.

الإنسان في الدنيا له مهمتان أن يعلم وأن يعمل بما علم:

أنت في الدنيا لك مهمتان، أن تعلم، وأنت تعمل بما علمت، أن تتعرف إلى الله وأن تحسن إلى الخلق، أن تعرف الله عزّ وجل وأن تزكي نفسك، حتى تتأهل لتكون إلى الأبد في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، الأمانة إذاً نفسك التي جُعِلَت أمانةً عندك، إن زكَّيْتَهَا، إن عرفتها بربها، وطهرتها، وزكيتها، وسموت بها، سعدت في الدنيا والآخرة، وإن تركتها جاهلةً، ودنستها بالشهوة، شقيت في الدنيا وفي الآخرة، هذا ملخص الملخص، كيف تسمو بها ؟ كيف تطهرها ؟ كيف تسعد بها ؟ كيف تزكيها ؟ جاء الجواب:

أولاً: الله سبحانه وتعالى أعطى هذا الإنسان كوناً هو في الحقيقة مظهرٌ لأسماء الله الحسنى، يستحيل على الإنسان في الدنيا أن يرى الله، لأن ماديّتَهُ لا تحتمل:

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا)

(سورة الأعراف: من آية " 143 ")

أي أن الإنسان في الدنيا لا يستطيع أن يرى الله عزّ وجل، كيف السبيل إلى معرفته ؟ السبيل أن يرى خلقَه، فخلقه يُجَسِّدُ أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى، خلقه مظهرٌ لكماله، فإذا نظرت إلى خلقه عرفته، لذلك الله عزّ وجل سَخَّرَ لكم ما في السماوات والأرض جميعاً منه، الكون كله مسخرٌ من أجل أن تتعرف إليه، الكون كله بالنصّ القطعي، الدلالة:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا)

(سورة البقرة: من آية " 29 ")

مقومات حمل الأمانة:

1 ـ الكون أول مقوم من مقومات حمل الأمانة:

قال تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 13 ")

الكون أول مقومٍ من مقومات حمل الأمانة، تريد أن تعرف الله عزّ وجل ؟ انظر إلى جسمك، انظر إلى أعضائك، إلى أجهزتك، إلى حواسك، إلى طبيعة نفسك، إلى فطرتك، إلى نظام التوالد، إلى نظام الزوجية، تريد أن تعرف الله عزّ وجل ؟ انظر إلى طعامك، تريد أن تعرف الله عزّ وجل ؟ انظر إلى الماء الذي أنزله من السماء فاهتزت به الأرض وأنبتت من كل زوجٍ بهيج، تريد أن تعرف الله عزّ وجل؟ فكر في الهواء الذي تستنشقه، فكر في الجبال، في الأنهار، في البحيرات، في البحار، في السهول، أنواع الطيور، أنواع الأسماك، أنواع المخلوقات، في الخضراوات، في الحقول، كل ما في الكون:

وفي كل شيءٍ له آية تدل على أنه واحد

*** * ***

هذا أول مقوم.

الآن الإنسان إذا استفاد من الكون استفادة مادية، وما استفاد منه في معرفة الله، فقد عَطَّلَ السبب الأول لخلق الكون، الدليل الآية الكريمة:

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك: من آية " 3 ")

في آية ثانية:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)

(سورة الطلاق: من آية " 12 ")

لماذا ؟

العلة الأولى لخلق الكون معرفة الله عز وجل:

قال:

(لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق: من آية " 12 ")

خلق الكون لتعلم:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق: من آية " 12 ")

العلة الأولى لخلق الكون هو أن تعرف الله عزّ وجل، فإذا لم تهتم بهذه الناحية، واهتممت كيف تستفيد من هذه الأرض ؟ وكيف تستخرج الثروات ؟ وكيف تربح ؟ وكيف تسعد في الدنيا ؟ فقد عَطَّلْتَ الهدف الأكبر والأول من خلق الكون، إذاً الكون هو المقوم الأول.

2 ـ العقل ثاني مقومٍ من مقومات حمل الأمانة:

ثانياً: العقل هو المقوم الثاني، الله عزّ وجل أودع في الإنسان عقلاً، يتوافق العقل في مبادئه مع مبادئ الكون، يوجد بالكون نظام السببية، والعقل لا يفهم الشيء إلا عن طريق السبب، و نظام الغائيّة، الكون فيه نظام أن كل شيء له غاية والعقل لا يفهم الشيء إلا بغايةٍ، غايةٍ كافيةٍ لوجوده، الكون ليس فيه تناقضٌ والعقل يرفض التناقض، فالعقل أداة معرفة الله عزّ وجل، وهو مناط التكليف، فأنت إذا فكّرت في الكون عن طريق العقل الذي يتوافق مع بنية الكون تتعرف إلى الله عزّ وجل، فالعقل مقوم من مقوّمات حمل الأمانة، والكون مقوم آخر من مقومات حمل الأمانة.

3 ـ الشهوة هي المقوم الثالث من مقومات حمل الأمانة:

الإنسان لولا هذه الشهوات التي أودعها الله فيه كيف يرقى إلى الله ؟ كيف تحس أن الله يحبك إن لم يودع فيك شهوةً ؟ وإن لم تعاكس هذه الشهوة ؟ أودع فيك حب النساء، فكيف ترقى إلى الله عزّ وجل إن سرت مع هذه الشهوة ؟ إذا غضضت بصرك عن محارم الله، إذا ترفّعت عن مالٍ حرام، إذا أنفقت المال المحبب في سبيل الله، ترقى، لولا الشهوات لما ارتقى الإنسان إلى رب الأرض والسماوات.

عن طريق الشهوة يرقى مرتين، يرقى مرةً صابراً، ويرقى مرةً شاكراً، فإذا أخذ ما أبيح له يشكر فيرقى، وإذا ترك ما نهي عنه يصبر فيرقى.

إذاً الكون مقوم، والعقل مقوم، والشهوة مقوم، أودع الله فيك الشهوات، هذه الشهوات يجب أن تعلم علم اليقين أن الله ما أودعها فيك إلا لترقى بها إلى الله عزّ وجل.

4 ـ الفطرة هي المقوم الرابع من مقومات حمل الأمانة:

شيء رابع: خلق الكون، وأودع فيك العقل، وأودع فيك الشهوات، وفطرك فطرةً عاليةً نقيةً بيضاء ليلها كنهارها، إذا انحرفت عن طريق الحق تشعر بانقباض، كل الآلام التي يتحدث عنها علماء النفس ؛ تارةً وخز الضمير، تارةً الانقباض، تارةً الكآبة، ما هي إلا الفطرة التي خلقها الله عزّ وجل، فإذا حِدّتَ عن منهج الله عزّ وجل عذبتك فطرتك وأنت لا تدري.

إذاً هناك كون، هناك عقل، هناك شهوة، هناك فطرة، هذه الذي تحدث الله عنها عزَ وجل فقال:

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)

(سورة الروم: من آية "30")

الفطرة، دعك من كل علمٍ، إن أخذت ما ليس لك تشعر بضيق، إن أسأت إلى والدتك تشعر بضيق، إن ظلمت إنساناً تشعر بضيق، إن أسأت إلى حيوان تشعر بضيق، ما هو الضيق ؟ هي آلام الفطرة النقية:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم: من آية " 30 ")

5 ـ القوة هي المقوم الخامس من مقومات حمل الأمانة:

أعطاك الله كوناً، وأعطاك عقلاً، وأعطاك شهوةً، وأعطاك فطرةً، وأعطاك قوةً فيما يبدو، بإمكانك أن تقوم، وأن تسير، وأن تتحرك، وأن تقول، وأن تفعل شيئاً، أعطاك قوة، وشهوة، وفطرة، وعقلاً، وكوناً.

6 ـ حرية الاختيار هي المقوم السادس من مقومات حمل الأمانة:

لكن لو لم تكن مخيراً وكنت مقهوراً مجبراً ؛ لا قيمة لعملك، لا يمكن أن يكون لعملك قيمة إلا إذا كنت مخيراً، لذلك أعطاك حرية الاختيار، حرية الاختيار تُثَمِّنُ عملك، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أن الله أجبر عباده على المعصية لبطل العقاب، ولو أنه تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، فأنت مخير أيضاً.

أدلة من القرآن الكريم على أن الإنسان مخير:

قال تعالى:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3))

(سورة الإنسان)

وقال:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (148))

(سورة البقرة)

قال أيضاً:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: من آية " 29 ")

لو لم تكن مخيراً فلا جنة ولا نار، ولا حساب ولا عقاب ولا عذاب، ولا ثواب ولا جزاء، ولا سيئة ولا حسنة، كل شيء يتعطل، فأنت مخير، ومُشتهٍ، وذو فطرةً عالية، وذو عقلٍ، وكونٌ سخره الله لك، لكن لعل العقل يضل، ولعل الفطرة تُطمَس بالضبط، جعل الله لك شرعاً.

7 ـ الشرع هو المقوم السابع من مقومات حمل الأمانة:

جعل هذا الشرع ميزاناً على ميزان العقل والفطرة، فعندك كتاب، فهذا الكتاب عرفك بذاتك، وعرفك بربك، وأطلعك على بداية الخلق، وهذه الآية من هذه الآيات، أطلعك على ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وعرفك بذات الله عزّ وجل، هذه كلها من مقوّمات التكليف.

حينما ينسى الإنسان ربه والمهمة الخطيرة التي أنيطت به فقد كان ظلوماً جهولاً:

أنت المخلوق الأول، أنت المخلوق المكرم، حينما ينسى الإنسان ربه، وحينما ينسى المهمة الخطيرة التي أنيطت به، وحينما تستهلكه الحياة، وحينما ينغمس في الشهوات الدنيئة إلى قمة رأسه، وحينما يأكل ويشرب وينام ويستمتع كما تفعل البهائم تماماً، فقد كان ظلوماً جهولاً، الآية الكريمة:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ (72))

عرض مُغْرٍ:

(عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ (72))

يا ترى هل كان الإنسان بحملها ظلوماً جهولاً ؟ أم كان محسناً وعالماً وصالحاً، أن تعرف الله وأن يصلح عملك، فعكس المعرفة الجهل، وعكس الإحسان الظلم، فهو إن لم يأخذ بما عاهد الله عليه، إن لم يأخذ هذه الأمانة فيطهّرها، ويزكيها، ويسمو بها، فقد كان ظلوماً جهولاً، فلو فرضنا أن أباً حوله خمسة أولاد قال لهم: يا أولادي أتحبون أن تعملوا في محلي أو في دكاني ولكم كل شهر مبلغ تعيشون به، أم تحبون أن تتابعوا دراستكم العُليا إلى أعلى شهادة، وعندئذٍ أمنحكم كل شيء، أمنحكم مبلغاً بلا حدود ؟ فهؤلاء الأبناء مالوا إلى الراحة، قالوا: لا، نحن نعمل في الدكان ونستريح، أحد هؤلاء الأولاد قال: لا، أنا لها، أنا أقبل هذا العرض وسأحصل على أعلى شهادة في العالم، الأولاد اشتروا بيوتاً وتزوجوا وعاشوا حياةً معتدلة، لهم دخلهم من هذا الدكان، لكن هذا الذي قَبِلَ أن يكون في أعلى درجة علمية في العالم، وتبرع أبوه له بمبلغٍ لا حدود له من أجل أن يعود ويحمل أعلى الشهادات، هذا الشاب إن ذهب إلى هناك وغرق في الملذّات والنوادي والملاهي، وصاحب فتاةً، ونسي هذه المهمة الكبيرة التي أنيطت به، سيعود بعد حين بلا شهادة، وبلا مكانة، وبلا بيت، وبلا دخل، هؤلاء الذين خافوا من هذه المهمة أفضل منه، أما إذا عاد بهذه الشهادة العليا ورُفِعَ مقامه في البلد وفي المجتمع سبق هؤلاء، فيا ترى حينما قبل هذا العرض المغري أكان ظلوماً جهولاً ؟ لا، كان طموحاً، أما إذا خان الأمانة ودَنَّسَ نفسه كان ظلوماً جهولاً، فلا يوجد حل وسط، كما يقول سيدنا علي: **" رُكِبّ الإنسان من عقلٍ وشهوة، رُكِّبَ الحيوان من شهوةٍ بلا عقل ـ الحيوان متعته مادية ولا حساب عليه ـ ورُكِّبَ المَلَك من عقلٍ بلا شهوة ـ متعته روحية ولا حساب عليه ـ ورُكِّبَ الإنسان من كليهما من شهوةٍ وعقلٍ، فإن غلب عقله شهوته كان فوق الملائكة وإن غلبت شهوته عقله كان دون الحيوان ".**

أنت مخلوق أول يمكن أن تكون أعلى مخلوقات الكون:

لا يوجد حل وسط، والدليل:

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيّةِ(7))

(سورة البينة)

أي خير ما برأ الله:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيّةِ)

(سورة البينة)

شر ما برأ الله، أنت مخلوق أول، يمكن أن تكون أعلى مخلوقات الكون، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطّيّبَاتِ وَفَضّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا(70))

(سورة الإسراء)

حينما قبل الإنسان حمل الأمانة أمامه خياران إما أن يكون أعلى كل المخلوقات أو أسفلها:

إذا دَنّسَ الإنسان نفسه كان في أسفل سافلين.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ(4))

(سورة التين)

فإذا لم يعرف ربه:

(ثُمّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ(5))

(سورة التين)

انتبه أنت المخلوق الأول، هذا درس خطير جداً، يجب أن تعرف من أنت ؟ أنت إنسان، لأنك إنسان معناها قبلت حمل الأمانة، وحينما قبلت حمل الأمانة أمامك خياران لا ثالث لهما، إما أن تكون أعلى كل المخلوقات ؛ وإما أن يكون هذا الإنسان أسفل كل المخلوقات، النبي الكريم وصف رجلاً زنى بجارته، قال: خان صاحبه، جار أوصى جاره بأهله، فلما سافر الجار، جاره خانه، فجاء كلبٌ وأكله، فقد قيل: خان صاحبه، والكلب قتله، والكلب خيرٌ منه.

الكلب خير منه، الإنسان عندما يخون تدنس نفسه، تنحط أخلاقه، يبني مجده على أنقاض الناس، الكلب خيرٌ منه، لأن الكلب غير مكلف، الإنسان مكلف، فالموضوع يجب أن نعرف من نحن ؟

أنا مرةً طرحت سؤالاً: واحد سافر لبلد، لا أعتقد في سؤال أخطر من أن يقول لنفسه: لماذا أنا هنا ؟ سافر لهذه البلدة، وصل بالطائرة، ركب سيارة إلى الفندق، وصل مُتْعَباً، نام تلك الليلة، واستيقظ في صبيحة اليوم الأول، إلى أين سيتحرك ؟ سيتحرك بحسب مهمته، جاء تاجراً على المعامل، طالباً على الجامعات، سائحاً على المقاصف والمتاحف والآثار، الحركة لها علاقة بمعرفة المهمة.

أنا أقول: أخطر سؤال تطرحه على نفسك ويجب أن تعرفه بشكلٍ يقيني لماذا أنت في الدنيا ؟ لئلا تتجه إلى طريقٍ مسدود، لو لم نجب عن هذا السؤال الدقيق لسرنا في طريق مسدودة، إلى أين أنت ماشٍ ؟ يجمع من الأموال الطائلة، حتى إذا أصبح في مرتبةٍ عَلِيّةٍ ومكانةٍ مرموقةٍ، وحتى إذا سكن هذا البيت الفخم، وهذه المركبة الفخمة، وهذه المكانة العلية يأتيه ملك الموت: تفضل، الآن ؟ نعم الآن، الطريق مسدود، جاءه في أزهى لحظات حياته، أما عندما يعرف الإنسان في وقت مبكر لماذا هو في الدنيا ؟ يجهد ليل نهار في العمل لما بعد الموت، فإذا جاء ملك الموت، قال: أهلاً وسهلاً، أنا على شوق، أنا أنتظرك.

المشكلة هنا، كلنا سيموت هذه حقيقة، لكن المؤمن يُعِدُّ لهذه الساعة ؛ أما غير المؤمن يفاجأ بها، أعد لكل شيءٍ إلا هذه الساعة، إلا الموت أخرجه من حسابه، أما المؤمن أهمل كل شيء وأعد لهذه الساعة عدتها. ففرقٌ كبيرٌ جداً بين رجل جاءه ملك الموت، وكان طول حياته يستعد لهذه الساعة، وكما قال الإمام مالك بن دينار وكنيته أبو يحيى، وقد خاطب نفسه قائلاً: **" لهذه الساعة كان دأبك أبا يحيى ".**
سيدنا سعد بن أبي وقاص لما جاءه ملك الموت بكى ابنه: **" لِمَ تبكي يا بني ؟ إن الله لا يعذبني أبداً، إنني من أهل الجنة ".**

الإنسان إن لم يُعَرّفُ نفسه بربها وإن لم يسمُ بها كان ظلوماً جهولاً:

الشيء العجيب إذا قرأت تاريخ الصحابة الكرام ـ والله شيء لا يصدق ـ تشعر أن هؤلاء الصحابة في أعلى درجات سعادتهم ساعة الموت، الموت عرس المؤمن ! لقاؤك في الجنة عرس، فبين أن تسعى لمعرفة الله، وتطبيق أمره، والدعوة إليه، وخدمة الخلق، جهدك الجهيد، دأبُك العنيد، أن تطيع الله عزّ وجل، فلذلك:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72))

إن لم يطبق، إن لم يُعَرّفُ نفسه بربها، وإن لم يحملها على طاعته، وإن لم يطهرها من دَنَس الشهوة، وإن لم يسمُ بها كان ظلوماً جهولاً، كان ظلوماً لأنه كان جهولاً، جهل فظلم، جَهِلَ فظَلَمَ فظَلِم.
ماذا سيكون بعد الموت ؟ قال:

((فو الذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.))

[أخرجه البيهقي من رواية الحسن]

قال تعالى:

(لِيُعَذّبَ اللّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللّهُ غفُورًا رَحِيمًا (73))

في العالم يوجد تقسيمات كثيرة، الحقيقة الصريحة، الناس جميعاً مهما اختلفت بيئاتُهُم، مهما اختلف أجناسهم، مهما اختلفت عقليّتُهُم، مهما اختلفت أعراقهم، مُعطياتهم، مراتبهم، مستوياتهم، أحوالهم، مهما اختلفت مشاربهم، الناس رجلان ؛ مؤمنٌ وكافر، عالم منضبط محسن سعيد، وجاهل متفلِت مسيء شقي، الأساس العلم، عالم، فلما عرف ربه، وعرف نفسه، وعرف منهج ربه، أطاع ربه، عالمٌ مطيعٌ منضبطٌ محسنٌ، سعيدٌ في الدنيا والآخرة، جاهلٌ متفلتٌ عاصٍ مسيء للخلق، قيٌ في الدنيا والآخرة، هذا هو التقسيم الحقيقي الذي لابدّ منه.

الذين أشركوا بالله عزّ وجل تمزقوا وتبعثروا وتشرذموا وخافوا فتشعّبت نفوسهم:

لذلك:

(لِيُعَذّبَ اللّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقاتِ (73))

المنافقون والمنافقات أذكياء، عاشوا بمجتمع إسلامي أو مجتمع ديني، فمن أجل مصالحهم نافقوا، لكنهم في الحقيقة كفار ؛ بل في الدرك الأسفل من النار:

(وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ (73))

ما رأوا ربهم هو كل شيء، رأوا آلهة كثيرة في الدنيا، خافوا من زيد ومن عبيد ومن فلان وعلان، تشعّبت نفوسهم، قال عليه الصلاة والسلام:

((اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها))

[أخرجه ابن عدي، والديلمي عن أنس]

وقال:

((من جعل الهموم هماً واحداً هم المعاد كفاه الله سائر همومه.))

[كنز العمال: عن: ابن مسعود]

حينما أشركوا بالله عزّ وجل، تمزقوا، وتبعثروا، وتشرذموا، وخافوا، قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمّهُ جَعَلَ اللّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتِ الدّنْيَا هَمّهُ جَعَلَ اللّهُ فقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدّنْيَا إلا مَا قُدّرَ لَهُ.))

[سنن الترمذي: عَنْ " أَنَس بْنِ مَالِكٍ]

هذه الآية تعريفٌ لهوية الإنسان فأنت المخلوق الأول والكون كله مسخرٌ لك بنص القرآن الكريم:

أيها الأخوة الأكارم، شيء مألوف جداً إنسانٌ يُسْتَهْلك، تستهلكه الدنيا، مِنْ عَملٍ لعمل، من لقاء للقاء، من اجتماع لاجتماع، من مشروع لمشروع، يأكل، ويشرب، ويعمل، ويكسب، ويتعب نفسه، ويأتيه الموت ونسي لماذا هو في الدنيا ! نسي مهمته كلها ! فلذلك هذه الآية تعريفٌ لهوية الإنسان، أنت المخلوق الأول ؛ أنت المخلوق المكرّم، اسمع: الكون كله مسخرٌ لك، بنص القرآن الكريم.

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: من آية " 13 ")

ما دام الكون قد سُخِّرَ لك، والمُسَخَّرُ له دائماً أكرم من المُسَخَّرَ، أنت مُسَخَّرَ لك الكون، أنت المكرم، أعطاك الله عقلاً أداة المعرفة، ومناط التكليف، ومناط المسؤولية، بإمكانك أن تؤمن بالله، وبكتابه، وبرسوله، هذا هو العقل، يأتي النقل ليعرّفك ما عجز عقلك عن إدراكه، هذا هو التصديق، النقل هو أداة معرفة ما في الماضي السحيق، في المستقبل البعيد، في ذات الله عزّ وجل، وهذه الآية تبيّن لنا ماذا كان في بدء الخليقة ؟

تم عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال، أبين أن يحملنها، أشفقن منها، حملها الإنسان، إن قام بهذه الأمانة على خير ما يرام، لم يكن ظلوماً جهولاً، بل كان عالماً صالحاً، آمنوا وعملوا الصالحات ؛ عكسها جهلوا وأساءوا، ظلوماً جهولاً، وإن نسي الأمانة، ولم يطبّق أمر الله عزّ وجل، وأهمل نفسه، أبقاها جاهلة، أبقاها مدنسة، أبقاها غارقة في الشهوات:

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72))

النهاية معروفة:

(لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (73))

والحمد لله رب العالمين

الفهرس